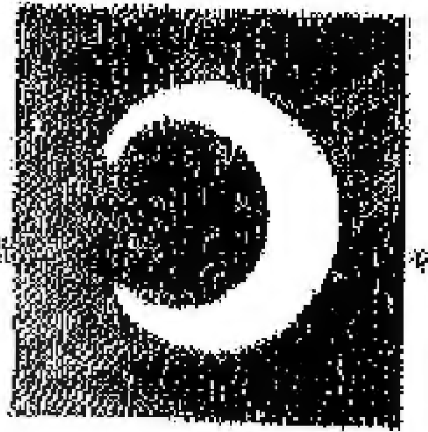



كتاب الهلال

١٢ قرشا



سلسلة ثقافية شهرية

محمد رسول الحرية

عبد الرحمن الشرقاوى

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ١٦٦ ـ رمضان ١٣٨٤ ـ يناير ١٩٦٥

No. 166 — Janvier 1965

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

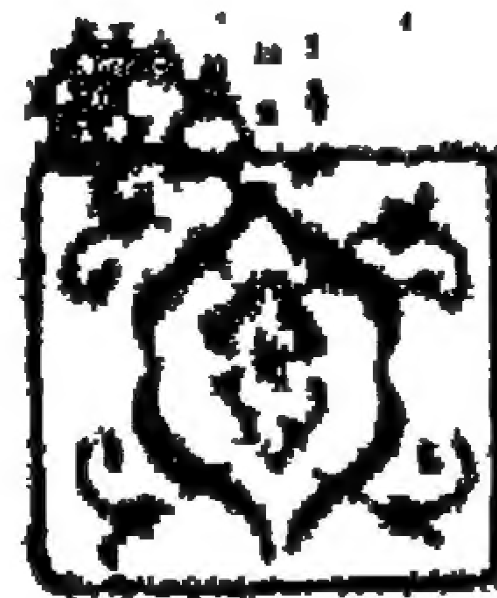
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ـ فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنه ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



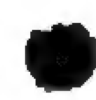
كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

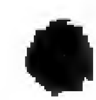


رسول الحرية



تأليف

عبد الرحمن الشرقاوى



دار الهلال

إهـــــداء

الى أبى .. الذى غرس فى قلبى

ــ منــذ الطفولة ــ حب محمــد

ولد الهدى

هو ذا يستقبل الحياة مرة أخرى ، بعد نضال طويل مع المصير ! لكأنه يولد — فجاة — من جديد ، بكل فتوته واشواقه واحلامه وقامته المديدة وصوته الطيب المفعم ، وأمله المعذب فى الخلاص !

لم تكن له حيلة فى كل ما حدث .. ولا حيلة لرجل فى مكة على الاطلاق لان المصادفة وحدها هى التى تخط أقدار الرجال ، والنساء .. ومن وراء هذه المصادفة العمياء يقف تمثال أصم اسمه مناة .. الهة بلا قلب ، هى التى تملك القضاء .. والى جوارها تمثال هبل : رب الارباب ، رب المصادفة والمصير والقدرة ، وشيخ مناة نفسها ، وشيخ زميلتيها اللات والعزى !

اية مقاومة يملكها فتى مثله أمام كل هؤلاء الارباب ؟! ..

أيملك هو ، عبد الله بن عبد المطلب ، أن يطلق صرخة احتجاج على هذه القوى التى تحرس الكعبة منذ القدم والتى يستمد منها أبوه عبد المطلب مبرر وجوده ، والتى ما زال يمتثل لها — مع أبيه — كل الملأ من قريش ؟!!

على أن المصادفة أنقذت حياته على أية حال بعد ما أوشك دمه ان يسيل تحت اقدام تماثيل الالهة الرهيبة ، التى تجرؤ على أن تحرم فتى فى مثل سنه وعنفوانه من طيبات الحياة !.. وانه الآن ليتشبث بيد أبيه عبد المطلب

ليمضى معه الى الدار بعد أن وهب الحياة مرة أخرى .. وكأنه يوسف .. الذى سمع قصته من فلسطين فيما سمع من قصص الغابرين خلال رحلاته مع القوافل !.. لكأنه يوسف يرتمى فى أحضان أبيه الصابر المضنى ليستمتع بدفء الابوة بعد طوافه الطويل المشرد فى أرض الغربة !..

وعبد الله اذ ذاك هو أصغر ولد عبد المطلب وأحبهم اليه .. وكان عبد المطلب قبل أن يرزق الولد قد تعرض لبلاء كثير ، وما من ولد يساانده ، حين هم بأن يحفر بئر زمزم .. خاصمته قريش فى البئر وآزارت عليه ، ولكنه استمر يحفر البئر وحده حتى تفجر الماء منها كما كان على عهد اسماعيل .. وبلل عبد المطلب جبينه من المـاء واتجه الى آلهة الكعبة فنذر لئن رضيت عنه الآلهة وولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى منعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة ، شكرانا وقربى !

فلما بلغ بنوه عشرة بمولد عبد الله ، وأدرك أصغرهم عبد الله مبلغ الرجال ، وتيقن عبد المطالب ان ولده مانعوه ، جمعهم ليخبرهم بنذره ، ودخل بهم على هبل كبير آلهة الكعبة وبدأ يجرى القرعة بينهم بضرب القداح ، لينحـر أحدهم وفاء بالنذر القديم !

وخرج القدح على الفتى عبد الله اصغر ولد عبد المطالب وآثرهم لديه ..

ولم يستطع الشيخ أن يصنع شيئا وقام الى عبد الله ليذبحه تحت قدمى هبل ، فخف اليه بنوه يحاولون أن يستخلصوا دم اخيهم ، ولكن عبد المطلب زجر بنيه جميعا ودفعهم بيده ، وهو يحذرهم من الاعتراض على قضـاء الآلهة ! ..

وتدافع اليه بعض صحابه الذين كانوا يجالسون فى

رحاب الكعبة والحوا عليه أن يتمهل لعلهم أن يروا رأيا ينقذ رأس الفتى عبد الله ، ويرضى هبل فى نفس الوقت !. ولكن عبد المطلب لم يصغ اليهم فانطلق صوت حانق فى وجه عبد المطلب : « لئن فعلت هذا لا يزال الرجل منـــا يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ » ..

كان هذا الاحتجاج نفسه يصرخ فى أعماق كل الآباء الذين التفوا بعبد المطلب ينصحونه ألا يذبح ابنه ارضاء لهبل .. وعرضوا عليه أن يفتدوا عبـــد الله بالمال .. ولكن لا ! .. الولد يجب أن يذبح تحت قدمى هبل مادام القدح قد خرج عليه !

كم من الصرخات تدوى الآن فى أعماق عبد الله ! انه ليرفض هذا القضـــاء ، ويرفض أباه ، ويرفض هبـــل نفسه ! .. ولكنه لا يقوى بعد على الكلام !

وطال الجدال بين عبد المطلب وبين صـــحابه فاقترح أحدهم أن يرحلوا الى عرافة يثرب فيســـألوها قبل أن يذبحوا عبد الله ، عسى أن تقضى بأمر لهم فيه فرج ! .. وغدوا عليها من اليوم التالى فسألتهم عن دية الرجل فيهم فأجابوها : « عشر من الابل » فقالت لهم : « ارجعوا الى بلادكم ثم قربوا صاحبكم من هبل وقربوا عشرا من الابل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم ، وان خرجت على الابل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم »

وعادوا الى مكة مستبشرين .. وعاد عبد المطلب يضرع وهو قائم عند هبل ، وقد قدم ولده عبد الله ، وعشرا من الابل .. وضربوا القداح فخرجت على عبد الله ، فزاد الابل عشرة وعبد المطلب يدعو ، والقداح تضرب مـــن جديد فيخرج القدح على عبد الله أحب ولده اليه فتزاد

الابل عشرة أخرى والقداح تضرب وعبد المطلب قائم يدعو .. حتى بلغت الابل مائة فخرج القدح على الابل !

ودوت في أرجاء الكعبة رنة فرح بنجـاة عبد الله ، وقام عبد الله يحملق في أبيـه واخوته ، والرجال ، والاصنام ، وكل ما حوله ، كأنه يرى العالم لاول مرة.. وصاح عبد المطلب في نشوة : «انحروا الابل المائة جميعا واتركوها للآكلين لا يصد عنها انسان ولا سبع ! »

وينطلق عبد المطلب آخذ بيـد ولده عبد الله .. وها هو ذا يستقبل الحياة مرة أخرى ، بعد نضال طويل مع المصير .. ودروب مكة تمتد أمامهما ، وهنا وهناك تتناثر بيوت أوصدت أبوابها على الطيبات والمتاع والغنى ،وكل ما يمكن أن يلهب وجدان شاب مثل عبد الله .. !

الى متى يا عبد الله يساق الرجل للذبح لان قدحـا طائشا أصم وقع عليـه ؟ ! .. ألان الآباء يريدون أن يشكروا الها يتعطش أبدا الى الدم ، يجب حتما أن تسقط رءوس الاولاد ؟ ! ..

ولكن عبد الله ــ ككل الفتيان في قريش ــ لم يـكن يستطيع أن يرفع الرأس في وجه أبيه .. فأبوه يملكه كله : يملك حتى حياته ! .. وحياة أبيه نفسـها رهن بقضاء هبل ..

كان من الممكن أن تأمر عرافة يثرب بذبح عبد الله.. وما دامت هي التي اختصت بتفسير ارادة الآلهة ، ومادامت هي وحدها التي تستطيع أن تتعرف على ما يرضى تـلك التماثيل من حجر ، فما من أحد يجرؤ على المخالفة عـن أمرها .. حتى سراة قريش الذين حاولوا أن يفتـدوه بمالهم ؟

كيف الخـلاص اذن من هذا كله ؟ ! .. ولم يكد

عبد الله يمضى فى طرقات مكة ، مثقل الرأس بأحلام الخلاص ، ونظراته تتأمل فى نهم كل ما أوشك أن يحرم منه ، حتى لاحت له امرأة شابة بديعة الجسد فاخرة الثياب ، بوجه كفلقة القمر ! .. وتأملته المرأة الصغيرة فى اقباله على الحياة التى عاد اليها الآن .. وحاولت بلا جدوى أن تقتنص نظراته التى يسطع فيها وهج الشوق الى المستقبل .. وهج غريب آسر !

وتخففت من بعض ثوبها فبانت استدارة كتفيها ونصاعة نحرها ، وتقدمت الى عبد الله ونظراتها تقرأ على وجهه وفى أغوار عينيه سرا غامضا حبيبا مؤسيا ينزع بها اليه وابتسمت وهى تعترض طريقه .. وسألته : « الى أين يا عبد الله ؟ »

فقال لها وهو لم يفق بعد من كل ما مر به فى الكعبة : « أنا أذهب مع أبى » .. فقالت وهى لا تحفل بوجود أبيه : « لك مثل الابل التى نحرت من أجلك ان تزوجتنى الآن » ..

وتأملها عبد الله فى حيرة .. وقد بدأ يستعر فى أطوائه ، شغفه بطيبات الحياة التى أوشك أن يحرم منها ! .. من تكون هذه المرأة التى تتعرض له فى الطريق ، وتدعوه اليها جهارا دون أن تستحى من أبيه ؟! .. ليست هى من هذا الصنف من النساء الذى يتعرض للرجال فى طرقات مكة .. ان وجهها ، وما على جسدها من الثياب والجوهر وطريقتها فى الكلام ، وكل شىء فيها ينطق بأنها امرأة واسعة الغنى ، وذات اباء .. ولكنما فى عينيها الواسعتين الهادئتين حيث تطفو العفة والطيبة ، ترسب جذوة متقدة من الحساسية المرهفة والهيام الانثوى واللهفة أيضا ..

وبهاتين العينين العامرتين سألته ألا يرفضها فيحرجها .. ولكن أباه جذبه من يده واندفع فى طريقه .. فقال عبد الله وهو يتبع أباه : « أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه »

وانطلق وراء أبيه ، وأوشك أن يستأذنه فى خطبة المرأة التى تعرضت له فهى امرأة صغيرة جميلة ، لم يعلم أحد عنها من سوء وانها لتقدم اليه مائة من الابل .. ولكن أباه كان قد قرر ــ منذ رأى اقباله على تلك المرأة ــ أن يخطب له فتاة بكرا من بنات أصحابه .. فقد كبر الولد ، وهو جدير بعد ما استرد نفسه من أظفار الموت بأن يحيا شبابه بكل ما فى أعوامه السبعة عشر من عنفوان ..

وبدلا من أن يعود عبد المطلب بابنه الى البيت ، عدل عن طريقه ، ومضى الى دار وهب بن عبد مناف سيد بنى زهرة فخطب ابنته آمنه لابنه عبد الله .. ووافق وهب .. وتزوج عبد الله وآمنة فى نفس اليوم .. كان عبد الله قد جاوز السابعة عشرة بقليل ، وآمنة أصغرمنه بنحو عامين

وفى صباح اليوم التالى خرج عبد الله من عند زوجته آمنة بنت وهب واتجه الى الكعبة .. وفى الطريق الى الكعبة قابل الحسناء التى عرضت عليه نفسها بالامس ، ونظر اليها فلم تكلمه .. وابتسم فأعرضت مغضبة . فقال لها : « مالك لا تعرضين على ما كنت عرضت بالامس ؟ » فأجابته بجفوة : « فارقك النور الذى كانمعك بالامس فليس بى لك اليوم حاجة » .. وانصرف عنها وهى تهمهم :

فلما قضت منه أمينة ما قضت

نبا بصرى عنه وكل لساني

كانت مكة فى تلك الفترة من القرن السابع الميلادى مدينة كبيرة مزدهرة أعدت منذ زمن بعيد لتكون محطة للتجارة ، وزودت بكل مايصلح لاستقبال التجار واقامتهم . وكانت تقع فى شمالها دولة للفرس ودولة للرومان .. دولتان تعيشان فى حرب مستمرة ، وتستنصر كل واحدة منهما على الاخرى بأعراب أطراف الصحراء . واذ كان انتظام القوافل يحتاج الى تأمين المواصلات ، فقد أثرت الحروب المتصلة بين الروم والفرس على خطوط القوافل التى كانت تخف بألوان البضائع من أدنى الارض الى أقصاها تحت تهديد حروب الفرس والروم والقبائل التابعة لهذا الفريق أو ذاك ..

وهكذا بدأت مكة تتحول من محطة تجارية تستريح عندها القوافل الى مركز تجارى تصدر اليه القوافل وترد ، حيث تقام أسواق ضخمة يتبادل فيها التجار من مختلف أنحاء البلاد بضائع آسيا الوسطى والشام واليمن ومصر والهند والعراق والحبشة ، والفرس والروم .. ثم أخذ تجار مكة فى تجهيز القوافل لحسابهم الخاص ..

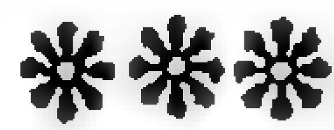
واذ كانت مكة فى واد غير ذى زرع ، فقد اعتمدت الحياة الاقتصادية فيها على التجارة . واصبحت يوما بعد يوم مدينة تحكم التجارة فيها كل العلاقات الاجتماعية ، وأقيم بناؤها الروحى والدينى والثقافى على أساس البيع والشراء والربح .. وأصبح التجار فيها هم الحاكمون .. التجار الكبار هم الملأ الاعلى .. فهم ينشئون القواعد ويفرضون التقاليد التى تصون لهم مصالحهم فى المعاملات

وهكذا قضوا بأن من مات فى مكة من التجار الاغراب ورثته مكة .. ورثه الذين كانوا يتعاملون معه فى مكة من تجار قريش !

أصبحوا هم المالكون وهم الوارثون ! وقضوا على من يستدين أن يقدم الى دائنه رهنا عزيزا عليه ..

كان الرجل أحيانا يرتهن ولده أو امرأته أو نفسه ، فاذا حل موعد أداء الدين وجب على المدين أن يدفع أضعاف ما استدان . فاذا عجز ، تحول الرهينة الى عبد يملكه الدائن ويستثمره كيفماشاء ..

وأقام الملأ من مكة آلهة في داخل الكعبة يعبدونها جيلا بعد جيل ، ويقومون هم وحدهم على خدمتها وعلى الاستفادة منها ، وينزلون على حكمها ويسألونها البركة في البيع والشراء ويذعنون لقضائها .. وعينوا كهنة وعرافين يختصون بتفسير ارادة التماثيل الصماء التي أقاموها رموزا لآلهتهم ..



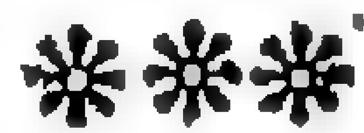
وعاما بعد عام امتلأت الكعبة بأصنام ترمز الى الآلهة التى تعبدها كل القبائل التى تتعامل مع مكة ! .. وأصبح أهل مكة جميعا اما تجارا يستوردون ويصدرون ويبيعون لاهل الواحات والمدن المنتشرة فى الجزيرة العربية ، واما وسطاء فى المبادلات بين التجار العابرين، واما أصحاب مصارف يوظفون أموالهم فى اقراض التجار الصغار نظير حصة من الارباح .. واما مرابين يكسبون من الربا ..

وهؤلاء جميعا هم الذين يملكون الثروة فى مكة .. وهم يملكون الى التجارة والاموال ، بساتين فى الواحات المجاورة تنتج النخيل والاعناب وتربى فيها الخنازير وتستقطر من ثمراتها الخمور

والى جوار هؤلاء المالكين ، يعيش عشرات الآلاف الآخرين أجراء فى المزارع البعيدة ، أو عمالا فى القوافل

والمصارف والمتاجر .. أو بلا طعام !

وكانت تجارة مكة تشمل كل البضائع التى عرفها الناس حينذاك ، وتمتد خطوط القوافل الى أعماق اسيا وافريقيا وأطراف البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندى .. واذ كانت القوافل الفنية الضخمة تقطع المسافات الشاسعة وتتعرض لغزوات البدو وهجمات قطاع الطرق فى بلاد مختلفة ، فقد آثر سراة مكة أن يشتروا العبيد من أفريقيا ويدربوهم على السلاح ليقوموا على حراسة قوافلهم وتجارتهم فى خارج مكة وداخلها .. وهكذا أصبح لمكة جيش وشرطة ..



وكان هؤلاء التجار من كبار المرابين ، ومن أصحاب القوافل والمصارف والبساتين والمتاجر والمراعى والخمارات ، هم الذين يتوزعون مناصب مكة فيما بينهم

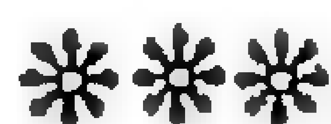
والعرب يعتبرون مكة عاصمة لهم ، فهى أم القرى عندهم جميعا .. هى المركز التجارى الكبير الذى يمثل عصب الحياة ، وهى تضم البيت العتيق الذى أقيم للناس مباركا .. وهى بوضعها الاقتصادى : العاصمة الضخمة المرموقة ! ومن أجل ذلك جمعت كعبتها آلهة الجزيرة كلها ، ليحج اليها العرب من كل مكان . وأصبحت مواسم التجارة فيها هى مواسم الحج الى كعبتها .. وكانت هذه المواسم تقام فى أسواق داخل مكة .. على انها بدأت تضيق يوما بعد يوم بالوافدين اليها ، فأقامت مكة فى ضواحيها أسواقا اخرى كان اعظمها سوق عكاظ ..

وفى الحق ان سوق عكاظ هذا كان مهرجانا كاملا تشترك فيه كل القبائل العربية ، لا سكان مكة من قريش وحدهم .. كان الملوك والامراء يأتون الى سوق عكاظ

من اطراف الجزيرة العربية حيث تعرض سلع الفرس والروم وسلع بلاد اخرى كثيرة ، وتقام فيه المنابر ويتبارى الشعراء العرب ، ويختار من قصائدهم ما يجدر بأن يعلق فوق الكعبة ليعيش فى التاريخ باسم المعلقات .. وفى عكاظ كان يقضى بين الناس وتعلن القبائل فيه تخليها عن فجارها ، فلا تحتمل جريرة أحدهم ، ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه ..

وفى عكاظ كانت تقام أسواق الرقيق من كل الجنسيات : الحبشيات السود ، والروميات البيض ، والهنديات ، والمصريات ، والفارسيات السمر .. ونساء وسط آسيا . وكان عكاظ فرصة للضعفاء يستصرخون فيه من ينجدهم لمقاومة من لا قبل لهم به من قطاع الطريق الذين يعدون على مضارب القبائل الصغيرة ..

وفيه يهدر دم الغادر ..

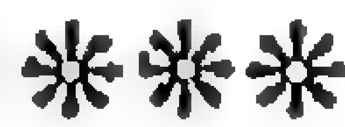


كان سوقا عجيبا التجارة وتبادل الثقافة والمتاع .. يقف فيه الى جوار الشعراء الذين يتحدثون عن انسابهم ومفاخر أقوامهم ، رهبان ثائرون على سلطان كنائسهم ، ويهود يتلون ما لديهم من الكتاب ، وقرشيات شريفات يتعرضن للرجال ينشدن الازواج ، وكهان يلقون ما انتهى اليهم من حكم الهند وفارس من خلال جملهم المسجوعة ، وملوك وأمراء يبحثون عن البضائع والجواهر النادرة ، وخمارون ، ومبشرون ، ونخاسون واسعو النفوذ ، وصعاليك عظام ، وتجار كبار ، ونساء غزلات ، ومؤرخون نسابون !

ولكن مكة لم تكن كلها تعيش هذه الحياة الباهرة الزاهية من الكسب والمتاع والغزل .. فلم تكن مكة كلها

من التجار الاغنياء .. ولم يكن البيت الواحد فيها يضم رجالا أثرياء فحسب ، فقد كان للتاجر الكبير أحيانا أخ فقير مدقع .. وفى بنى هاشم قبيلة عبد المطلب ، كان هناك الفقراء المعذبون والاغنياء الفارهون ..

ومن بين تجار مكة كان هناك من يملك آلاف الآلاف .. من يملك القوافل والمصارف والبساتين فى الواحات المجاورة حول الطائف .. وكان هناك أيضاً من يستدين ويستدين ليتجر او ليعيش .. ولم يكن التاجر الصغير الذى يستدين يربح دائما .. فلئن خسر ماله او عجز لاى سبب عن اداء دينه ، لقد وقع فى الشرك اذن ! .. كان عليه ان ينزل للدائن عن حريته ، فيعمل عبدا للدائن حتى يقتضى منه الدائن ماله ..

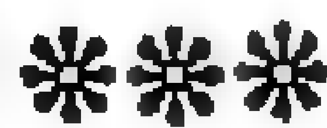


وكان الدائن يحسب دينه أضعافا مضاعفة عند حلول اجل الدين ، وهكذا كان المدين ينزل عن حريته سنوات وسنوات .. وربما أصبح عبدا الى آخر العمر .. يملكه سيده الدائن كما يملك أى متاع آخر .. فما للعبد أى حق من حقوق الانسان .. وكان بعض الدائنين يفضلون أن يقتضوا تعويضا عن ديونهم بطريقة أخرى اذا عجز المدين عن الدفع ربما لاتكون لهم حاجة باستعباده ، أوربما تزوغ عيونهم الى ما عند المدين من نساء .. وهكذا كان المدين ينزل للدائن عن زوجته أو عن امه أو عن ابنته أو عن زوجة أمه .. فيتسلمها الدائن لا ليستمتع بها هو وحده فحسب .. فقد كان من حقه بعد أن يستمتع بها ، ان يلحقها بأحد بيوت اللهو الكبيرة التى كانت ترتفع عليها رايات خاصة .. وفى هذه البيوت التى أحسن اعدادها بالاثاث الفاخر وعمرت بالخمور ، وضمخت بالبخور والصندل

وعطر اللبان .. فى هذه البيوت الفاحشة الترف ، يلتحق نساء المدينين ، بالتجارة الشائنة التى تجلب لها الفتيات البيض والسود والسمر من كل بلاد الارض ، ليبعن المتاع للتجار الوافدين أو لمن يدفع الثمن من فتيان قريش الاثرياء ..

ويقتضى الدائن دينه مما تكسبه امرأة الدائن أو ابنته فى هذه المهنة الشائنة فاذا استوفى دينه أعاد الفتاة الى أهلها ! وكم من رجال احنوا رؤوسهم أمام هذا المسار واستسلموا له ! .. وكم من رجال آخرين خشوا أن تأتى عليهم أيام تمرغ أنوفهم فى هذا الوحل ، فتخلصوا من بناتهم ووأدوا البنات بعد الولادة على الفور !

على أن من رجال مكة من رفض العبودية والعار ، فهرب الى البادية بعيدا عن ضجيج الحياة الفاسدة ، وانطلقت منه صرخات احتجاج تلعن مكة ومظالمها وأسلوب الحياة فيها .. وكان هؤلاء الرجال الهاربون من اسلوب الحياة فى مكة يكونون جماعات فى البادية تنتزع لقمتها بحد السيف ، وتهاجم قوافل الاغنياء ، وتحترف القتل ، وتنشىء فى الواحات الصغيرة المستظلة بالمرتفعات الوعرة ، دولة الصعاليك والفتاك .. دولة وضعت تقاليد لمبادىء الفروسية فى التعامل .. وكان لهم شعراء ينبض من خلال شعرهم ، الحلم الدائم بالخلاص ، والامل المبهم فى العدل



ولم يكن التشريع الذى تضعه السلطات الحاكمة فى مكة يهتم بغير مصالح تلك السلطات . وأصحاب السلطة والحكام كلهم من التجار الكبار أصحاب رءوس الاموال ، أو أصحاب المزارع البعيدة التى تربى فيها الخنازير ،

وتستقطر فيها الخمور .. كانوا من أصحاب المصارف والمرابين وملاك الخمارات وبيوت اللهو الضخمة .. ومن أجل ذلك فما كان التشريع فى مكة ليهتم بأحد غير هؤلاء الملاك الكبار الحاكمين ..

وما كان التشريع ليهتم بشىء الا بما يمكن قبضتهم على رقاب العاملين والمدينين ، وبما يمنحهم المتاع والجاه واللذة وكل مايزهو به القلب الأجوف ! .. وكان الرجال اذ ذاك يزهون بما يمتلكون من عبيد ومال وبما يشربون من خمور ، وما يقتلون من مستضعفين ، وما يمتلكون من سطوة وهيبة ونساء ..

كان المال والآلهة والكعبة والمتاع للسادة ، وأما الفقراء الذين وقعوا فى الشراك .. اما الذين سقطوا بغتة من قمة كبرياء الحياة اليومية الموفورة ، تحت ضربات الحاجة

أما هؤلاء جميعا فقد ألقى بهم بعيدا عن الكعبة ليعيشوا فى حى ناء عن الآلهة ، بعيدا عن قصور السادة المحيطة بالكعبة .. بعيدا .. على حافة الصحراء .. فى العدم .. حيث لا يملكون شيئا بعد غير الذكريات ، وأحلام الخلاص ! ..

وفى هذا الظلام الجائر العقيم المضنى .. فى هذا الليل الرهيب الداجى .. ولد الهدى : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب

هذا اليتيم !

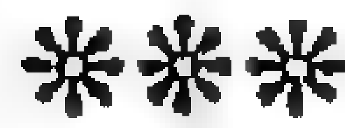
عندما يقبل الربيع من كل عام على جزيرة العـــرب ، ترتفع أعواد الحنطة فى حقول اليمن ، ويورق الكرم فى أرض الطائف ، ويمتلىء الفضاء بشذى البساتين ، وينبت الكلأ فى الوديان المترامية ، وتتوج بشائر التمر الاخضر هامات النخيل فى يثرب . .

أما فى مكة فالربيع يقبل دائما ليؤذن ببداية الحـــر ، وبالاستعداد لرحلة الصيف . وقد ألفت قريش رحلة الصيف الى سوريا ، ورحلة الشتاء الى اليمن . . وايلافهم رحلة الشتاء والصيف لم يكن يمنعهم من الترقب والترصد والاحساس بالقلق على مصير شبابهم الذين يخوضون فى الصحراء تحت شمس لاترحم وليال تصــفر فيها الريح بعواء كائنات من عوالم غريبة . . !

ولم تكن آمنة بنت وهب فى ذلك الربيع من سنة ٥٧٠ تحب لزوجها عبد الله أن يخرج مع القافلة . . فقد دهمها خوف غامض عليه ، وتمنت لو أنها تستطيع أن تمنعه . . كم تحبه وتشعر بالامن الى جواره ويمتلىء قلبها بالرضا عن نفسها كلما ســـمعت أن زواجهـــا منه مـلأ قلوب الفتيات بالغيرة . . !!

ولكن عبد الله بن عبد المطلب لم يكن يملك فى بيته غير خمس رؤوس من الضأن يقتات هو وزوجته الحامل من البانها ، ولم يكن فى البيت بعد ذلك ما ياكله الزوجان

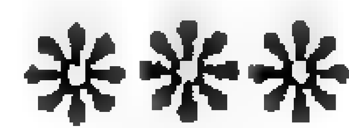
الصفيران الا بقايا قليلة من تمر ، وقديد .. وهمـــا الآن يستقبلان مولودهما الاول ! .. وليست لعبد الله تجارة يعتمد على ربحها ، وليس لابيه ــ على علو قدره ــ فائض من مال ، وهو بعـــد فتى فى الثامنـــة عشرة قـــوى الذراع !



وخرج عبد الله يطلب رزقه ، ليعود الى زوجته آمنـــة فيمـــلأ بيتها بالخير الوفـــير ، ويستقبل معهـــا المولود الجديد ..

ليكن غلاما يشد ساعدك يا عبد الله ، ويسعى معك فى رحلة الشتاء والصيف ! وليكن له اخوة عشرة تستقوى بهم فى قريش ! .. لكم كنت تريد أن تقيم مع زوجـــك امنة حتى تضع ولدها ، ولكنها توشك ان تضعه وأنت ما تزال فى البلد النازح ! .. لشد ما يعبث بك القضاء !. ولكنها ارادة آلهة الكعبة ! ..

عندما كنت صغيرا اوشكت ان تذبح ليرضى كبير الالهـــة عنك وعن أبيك ، ولكن الآلهة قبلت فيك مائة بعير .. مائة بعير افتدت حياتك ، ولو أنها لديك الآن لاصبح لك فى قريش شأن اخر ، ولما اضطرتك الحاجة الى أن تترك زوجـــة وحيدة .. تضع لك طفلك الاول وأنت بعيد ! ..



وها هو انت ذا تضرب فى الارض من أجل الرزق .. بعيداً عن مكة البلد الذى ولدت فيه واخترته للحيـــاة ، وتتمنى أن تستلقى تحت ترابه بعد عمر طويل حافل ! .. ولكن مكة الان بلد يغشاه الوباء .. لتنقذ الآلهة مولودك من هذه الغاشية ! جاء الوباء مع أبرهة ملك الحبشـــة الذى أراد أن يستولى على مكة ويهدم الكعبة .. الم يسمع

أبرهة أساطير الاولين ؟ . ألم يسمع ما يقوله الرواة في طول الجزيرة وعرضها عن ابطال كانوا اشد منه بأسا حتى لقد أخافوا الجن ، وشقوا الظلمات بسيوفهم ، وسيطروا على الريح ، ثم استكبروا على آلهة الكعبة فطاردتهم اللعنة ، وقضي عليهم أن يعيشوا فى التيه مئات السنين !! .. ولكن أبرهة لا يعى ، وانه ليستعلى على الدنيا بحيوان ضخم اسمه الفيل ، تجفل الخيل منه ، ويفر من أمامه الشجعان ، وانه ليقرع أبواب مكة بجيش يتقدمه هذا الفيل !! .. لكم كان أبوك عبد المطلب حكيما يا عبد الله ! .. هو حكيم ورائع ولا يخطىء ابدا ، أبوك الشيخ هذا .. تداعت قريش كلها الى القتال ، فأدرك عبد المطلب أنهم لاقبل لهم بجيش أبرهة وبالفيل ، فناداهم ان يخرجوا بنسائهم وأطفالهم الى شعاب مكة حتى يزول الكرب ، اما الكعبة فلها أرباب تحميها .. وفى قصص الاولين عبرة ! .. ولم يكد جيش أبرهة يتقدم حتى عصف برجاله الوباء الذى كان يعصف بمكة ، فاذا برجال ابرهة يتساقطون مرضى بالجدرى ، ومعهم أبرهة نفسه ، وما أغنى عنهم الفيل ! .. وهكذا فر أبرهة عائدا الى صنعاء بفلول جيش ممزق يتخاطف الوباء والموت من بقى من رجاله ، فيتهاوون على الطريق كعصف مأكول ، بينما عاد أهل مكة من شعاب الجبل يهللون ، ومن بينهم أبوك ، وامنة .. زوجتك امنة بحملها يا عبد الله .. !

حدث هذا منذ نحو شهر ، وأنت بعيد ، وما زلت تضرب فى الارض بعيدا عن مكة وابيك ، بعيدا عن آمنة وحملها الذى تنتظر مقدمه ، منذ أشهر ! ..

متى تعود لتعيش بقية العمر آمنا فى بيتك ـ يا عبد الله ـ وحسبك من غنى شبع ورى ؟! .. ولكن عبد الله لم يعد ، فقد مرض ورقد عند اخواله بنى النجار ..

وكان قد مضى خمسون يوما على اندحار أبرهة وجيشه والفيل .. وزحف شهر ابريل على مكة بحرارته ، فوضعت آمنة حملها .. وجاء ولدا ..

وحرصت آمنة على ألا يراه أحد قبل أبيه ، ولكن أين أبوه الآن ؟ ! .. واذن فان يراه أحد قبل جده عبد المطلب! وأمرت امنة ان يلقى على الطفل شيء يستره .. ثم أرسلت الى عبد المطلب من يقول له : « قد ولد لك غلام فأته فانظر اليه » .. فقام عبد المطلب اليها ، فكان هو أول من نظر الى وجه حفيده .. الذى اختارت له أمه اسم محمد ، لكى يحمد حمدا بعد حمد ..

وأخذ عبد المطلب حفيده بين ذراعيه فرحا به ، ودعا له، وقام يلتمس له من ترضعه .. فوجد « ثويبه » جارية ابنه أبى لهب ، فأرسلها الى آمنة ترضع عنها الوليد ، وأرضعته ثويبه عدة أسابيع .. وأمه تنتظر عودة أبيه ..

دفعت آمنة بطفلها الى ثويبه لكى تفرغ هى لزوجها — عندما يعود — بكل نفسها وبكل ما يمتلكه منها ، كما تعودت الزوجات فى ذلك الزمان .. وظلت تحلم وتنتظر الزوج الغائب ..

أما عبد الله فقد اشتدت عليه العلة ، ثم انطفأت جذوة الحياة فى صدره .. أغمض عينيه على امل متلهف أن يعود الى مكة فيرى امنة ، وابنه منها ، وعلى حلم غامض بالخلاص من الحاجة التى تسحق حياة الرجال ..

***

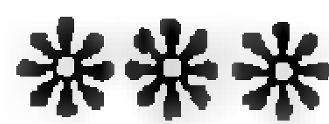
وعرفت الارملة الصغيرة بنت السادسة عشرة ان زوجها وفخر حياتها ، سيظل الى الابد تحت ثرى بعيد فى بلد نازح ذهب اليه يبحث عن الرزق .. ولن يتاح لها مدى الحياة أن تراه .. ولا أن تبلل ثراه بالدمع ، ومع ذلك فمن حزنها

فى مكة تمتلىء بيوت الملأ بالمسرة والغنى وكل ما يمنح القلب احساسه ألمتع ببهجة الحياة ! ..

ولم يكد عبد المطلب يمسح دموعه ويستمسك من حزنه الفاجع على أحب ولد اليه ، حتى ضم اليه اليتيم وأمه

ورأى أن يرسل حفيده اليتيم الى بادية بنى سـعد ليرضع هناك وينشأ ويتعلم فى البادية اول الكلمات فيكون هذا افصح للسانه واجلد لجسمه .. وكان نسوة من «بنى سعد » يقبلن الى مكة ليلتمسن الرضعاء فى السنين العجاف .. وكانت تلك السنة قاسية على قبيلة بنى سعد ، فقدم النسوة الى مكة ، وعرض عبد المطلب على كل واحدة منهن ان ترضع محمدا فما قبلت واحدة .. كل امرأة منهن تقول: « انه يتيم فما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ » ..

وكل مرضع تطمع فى كرم اب الطفل الذى ترضعه .. وأوشكت القافلة أن ترجع بالنسوة محملات بالرضعاء .. وكانت حليمة هى المرضع الوحيدة التى لم تجد طفلا ، فقالت لنفسها : « انى لاكره أن أعود من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، لاذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه »

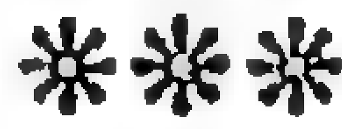


وعادت به حليمة ترضعه ، ليفخر هو بهذه النشأة فى بنى سعد ، بعد سنوات طوال .. اذ يقول لاصحابه «أنا أعربكم ، أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر » .. استرضع فى بنى سعد بن بكر ، وظل بها حتى بلغ الفطام ، ولكن جده لم يشأ أن يعيده ، واستبقاه فى بنى سـعد حتى بلغ الخامسة من عمره ، وهناك تعلم أول الكلمات وتفتحت أذنه منذ الطفولة على النطق العربى الفصيح .. وهناك رعى الغنم مع أخيه فى الرضاعة

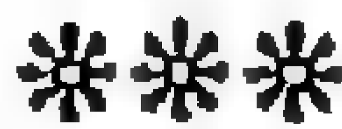
وقدمت به حليمة الى مكة فى السن التى يصلح فيها

أطفال ذلك الزمن للعمل وقد تجاوز الخامسة بشهور..
ولم يكد يبلغ مشارف مكة حتى خاض فى الزحام بكل لهفته الى البلد الذى ولد فيه ، والذى تعيش فيه أمه وعشيرته وجده . فبحثت عنه حليمة فلم تجده ، فأقبلت على عبد المطلب جزعة تقول : « انى قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أضلنى فما أدرى أين هو؟» ..

فقام عبد المطلب يدعو آلهة الكعبة ان ترده فلا يضيع أثر ابنه عبد الله . وما هى الا أن أقبل ورقة بن نوفل يمسك محمدا بيده وقال لعبد المطلب : « هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة » .. وهش عبد المطلب لحفيده وجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة يعيذه ويدعو له ، ثم أرسله الى أمه آمنة ..



وبعد عام واحد ، خرجت آمه به لتزيره أخواله المقيمين فى مضارب بين مكة ويثرب .. ولبثت هناك حينا ، ولكنها لم تعد الى مكة ، فقد ماتت على الطريق ودفنت مكانها . وخلفت وراءها غلاما يتيما فى السادسة من العمر .. لم ير أباه أبدا ، ولم يستمتع بالحياة فى احضان امه .. لم يرها بالقدر الكافى ، ولم تعلمه أولى الخطوات ..لم تسانده ليمشى ، ولم يتلق عنها الكلمات وأسماء الاشياء .. ولهو يوشك ان يستريح الى أحضانها اذ بالموت ينتزعها منه ويتركه وحيدا فى فضاء شاسع رهيب ! .. ما هو هذا الموت اذن ؟! .. وما الحياة ؟!



وكفله جده عبد المطلب .. لكأنه قد ولده مرتين .. هو ذا أخيرا يرعى ابن عبد الله أحب ولده اليه !.

وكان عبد المطلب قد تعود ان يستظل نهارا بالكعبة

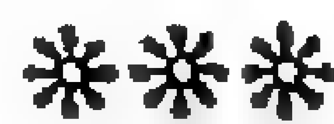
على فراش مرتفع ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذاك حتى يقبل هو اليه ، لايجلس منهم احد على الفراش اجلالا لمقام ابيهم ، فيأتى محمد ـ وهو غلام صغير ـ فيثب الى الفراش ويقعد ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه. فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم : «دعوا ابنى..» .. ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ..

ويمضى عمه الزبير بن عبد المطلب وهو من أظرف فتيان قريش فيداعبه أو يضحكه .. على أن هذا الحنان الدافق الذى مسح به جده جراحات يتمه ، لم يدم له طويلا ، فما بلغ الثامنة من عمره ، حتى شعر جده أنه يموت .. سيموت عبد المطلب ويترك حفيده وحيدا فى الدنيا العريضة بلا مال ، ولا أب ، ولا أم ..

ودعا عبد المطلب اولاده فأوصاهم بحفيده اليتيم ،وقضى أن يكفله عمه أبو طالب فهو ـ وحده ـ شقيق ولده الراحل عبد الله ولدتهما نفس الام ..

وأوصاه به ، ومات عبد المطلب .. وانتقل الغلام اليتيم الى بيت عمه الشقيق أبى طالب ..

وكان أبو طالب كثير العيال ، لا يكاد يربح الا ما يكفيه هو وأهل بيته .. وكان فى كثير من الاحايين يضطر أولاده الى العمل ـ على صغر سنهم ـ ليكسبوا طعامهم الناقص بعرق الجبين ! ..



وما كان أبو طالب يحب ان يغامر فيستدين ! ..

وأقام محمد عند عمه يضنيه شعور بالغربة ، على الرغم من حرص عمه عليه ، واحتفال بنى عمه به .. ولكنه ظل على احساسه بالوحدة ، فاذا وضع الطعام له وللصبية

من أولاد أبى طالب امتدت أيديهم وانقبضت يده استحياء ..

على أنه ألف الحياة فى دار عمه يوما بعد يوم .. وكان لابد له أن يعمل ليأكل كما يعمل أبناء عمه ليأكلوا .. فرعى الغنم ، وخرج مع الرعاة الآخرين يلتمسون الكلأ فى مواضعه خارج مكة ويعودون مع الليل .. وذات صباح علم أن عمه ابا طالب سيخرج فى رحلة الصيف الى الشام . وتشبث محمد بعمه ، ولكن عمه نهره ، فهو صغير بعد لا يصلح للخروج مع القوافل فى سفرها الشاق .. وكانت هذه هى أول مرة يفارق فيها عمه منذ كفله ..

وسأله محمد مرة أخرى ألا يتركه فى مكة ، فلمن يتركه اذا سافر ؟! .. ورق له قلب أبى طالب فأقسم ليخرجن به ولا يفارقه أبدا !

كان محمد يتوق الى هذه الرحلة فى الارض البعيدة ، فقد ثقلت عليه الحياة بمكة حيث لا حرمة لشىء : الصغار الفقراء يعملون معا وهم عراة لا يستحيون .. وبيوت السادة تغلق أبوابها كلما أقبل الليل على تأود الراقصات والصخب الماجن .. والخمر تسيل بلا حساب مستنزفة عرق رجال طيبين مثل أبيه .. رجال يعيشون ويموتون وهم يبحثون عن الرزق على حين يتضاعف ثراء التجار الكبار الذين يعيشون فى صلف ماجن مستبد ، يحرسهم العبيد الذين هم بشر أيضا .. بشر كالسادة !

***

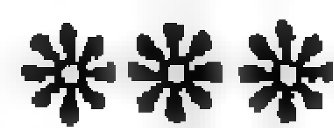
ومن خارج هذه البيوت التى يمتص اصحابها دم المستضعفين ، كان محمد قد عرف بيوتا أخرى ذليلة تغلق أبوابها على رجال تعساء تلتقط آذانهم صدى الضحكات الخليعة التى يحملها سكون الليل ، وكل واحد منهم يخشى

أن يصبح فتضطره الحاجة الى ارتهـــان ابنته أو زوجته لتنضم الى ذلك القطيع من الرقيق الأبيض أو الأسـود الذى يقدم للتجار الكبار وضيوفهم متاع ليال كاملة ..

وفى الرحاب الشاسع من أرض مكة .. خارج هـــذه البيوت وتلك .. بعيداً عن الصخب الداعر والمأساة .. كان يجتمع رجال وفتيان لم يقعوا بعد فى فخاخ الدائنين .. يعيشون بالقليل ، مثقلين بأحلام المعجزة التى يجب أن تقع .. فالمعجزة وحدها هى التى تستطيع أن تستخلص مكة من عنت المتجبرين ! ..

كان هؤلاء الرجال والفتيان يجتمعون فى ساحة حول رجل يروى لهم حكايات تلهب خيالهم المعذب ، وتلقى الامن فى القلب المضنى ، وتثير الامل فى النفس التى يروعها القلق وسلطان الحاجة والخوف الدائم من المجهول ! .. أساطير مثيرة عن ابطال قدماء ، وعن جبـــابرة هووا من عليائهم ، وعن مستضعفين امتلكوا حياتهم ، ومصيرهم ، وتاريخهم نفسه بعد طول المعاناة !

كان محمد قد شهد كل هذا ، وقد ضاق بصور الحياة من حوله .. وكان قد شعر ايضا بأن عمه أبا طالب ، اذا مضى مع القافلة وتركه ، فسيبقى هو وحيدا فى مـــكة المتلاطمة بصراع التجار مع المستضعفين ، وحيدا .. أشد وحدة من أى وقت مضى !



وخرج محمد مع القافلة فى صحبة عمه الى بـــلاد الشام ، وهو اذ ذاك غلام فى الثانية عشرة .. وفى بلاد الشام رأى مثلما رأى فى مكة : قطعـان العبيـــد تزجى كالاغنام .. الرجل يمتلكه غيره .. المصير معلق بكلمـــة ينطقها السيد .. كبار يملكون التجارة والارض وكل شىء ،

والآخرون يسامون بلا حـــــق فى أى شىء .. حتى فى الشكوى !

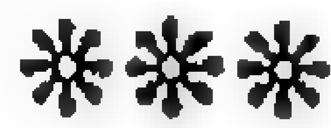
لكم روعت كل هذه الاشياء قلبه، وهو فى مكة ..ولقد سمع أن رجالا من مكة رفضوا هذا كله وخرجــوا على قومهم .. منهم ورقة بن نوفل الذى كان قد عرفه وهو صغير ضائع فى مكة .. ومنهم أمية بن أبى الصلت الذى أعلن صرخة احتجاج فى وجه قوى الظلام ولعن اللات والعزى وهبل .. وتوقع الناس أن يصاب بالبرص .. كما يحدث لمن يلعن الآلهة .. فلم يحدث له شىء ، وظـــل يطالب تجار قومه بأن يعدلوا مع من يتعاملون معهم ، فبـــدأوا يتعرضون له .. ومنهم زيد بن عمرو الذى طالب الرجال الا يئدوا البنات .. وحثهم على أن ينقذوا انفســـهم من العار فلا يسلموا المرابين أجساد النساء وفاء للديون .. ولكن المستضعفين لم يستطيعوا أن يستجيبوا له ونفـاه التجار الكبار الى خارج مكة ..

التجار فى مكة هم حماة أوثان الكعبة التى تقضى لهم باذلال الآخرين .. أما هنا فى الشام فالامر مختلف .. هنا المسيحية : فما بال الرجل يلطم اخاه على كل خد ، ويأخذ ما ليس له ، وما بال المستكبرين هم وحدهم الذين يستمتعون بالحياة ، كأنما هى ملك لهم هم وحدهم ، وما بال الخيرين يحترقون فى كبرياء الاشرار ؟!

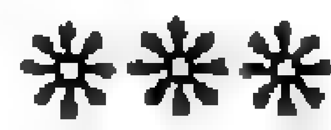
وعاد الى مكة مع القافلة بعد ما التقى براهب نصرانى فى الطريق .. ولقد أعجب به الراهب وأثنى عليه ودعاه الى طعامه مع الكبار حين حاول الكبار أن يؤخروه .. عاد يرعى الغنم ، ويطوف بالكعبة .. والايام تتقدم به الى أول الشباب

انه الآن يتقدم الى السادسة عشرة ، وما زال يرعى الغنم ثم يعود ليطوف بالكعبة ، ولكنه لاينام هادئاكماينام الذين يجهدون من العمل مثله طوال النهار .. فهو يفكر فى أبيه الذى قتله السعى على الرزق ، وفى أمه ، وجده ، وفى عمه أبى طالب الفقير وأعمامه الآخرين الاغنياء ،ويشرد الى ما رآه فى الشام !

ثم يعود ليتذكر المبشرين الذين نفتهم مكة ، لتحتفظ بأسلوب الحياة فيها ، وبأصنام الكعبة .. ! وانه ليعجب من صمت (الاصنام) فيها على ما يجرى هنـــاك تحت عينيها .. أية آلهة هذه !



ففى الكعبة ، رأى الرجال يطوفون عراة ، والنســـاء يطفن بأثواب شفافة تكشـف أكثر مما تستر ، ويثرن بها الرجال أكثر مما لو طفن عاريات ! .. ورأى بعض الرجال يلتصق بالنساء أمام آلهة الكعبة .. وآلهة الكعبة مغمضة العينين ! .. ان هذا ما زال يحـــدث على الرغم من أن الجميع يؤمنون أن من بين أحجـــار الكعبة ، يقف رمزان لغضب الآلهة على من يفسقون فى الرحاب المقدس : فقـد بغى رجل بامرأة داخل الكعبة فمسخا حجرين ! .. هكذا يعتقد الكل ، ولكن رجالا ونســاء منهم ما زالوا يدخلون الكعبة ويختفون وراء تماثيل الآلهة ليمارسوا البغاء !!



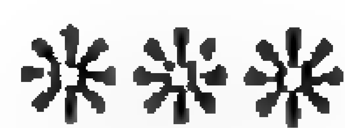
ووثبت به الحياة الى الفتوة ، وهو ما برح يرعى الغنم فى النهار ، ويفكرطول الليل فى ألوان الحياة التى تعيشها مكة وفى الطريق الى حياة أفضل .. أين الطريق !؟ .. وانه ليرعى الغنم ذات مرة مع فتى فى مثل سنه ، اذ سمع

من بعيد صدى دفوف .. فقال لصاحبه : اكفنى أمر الغنم حتى آتى مكة

واسرع الى الدار التى يتصاعد منها رنين الدفوف، وكان بها عرس فيه لهو وزمر ، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك شعر بتعب بعد طول الجرى ، وسهر الليل .. فقعد الى جدار ، فاغفى ، ونام ، ولم يتح له أن يشارك فى مسرات العرس ..

وعندما قام فكر فيما دفعه الى أن يترك الغنم ليستمتع بما فى العرس ، انه لشبابه الفوار ! ولكن النوم هبط عليه ليعصمه .. وقرر ان يتزوج لكيلا يتورط فى مغـامرات كالآخرين وانه ليكسب قوته من عمله الآن ..

ورأى فى الكعبة امرأة شابة جميلة تطوف وليس فى هيئتها وزينتها وثوبها ما ينكره .. كان اسمها ضباعة بنت عامر بن صعصعة فخطبها محمد لنفسه .. وشغفت المرأة به حبا .. ولكنه علم أنها حين كانت تطوف بثوبها المحتشم ألقت شعرا فاحشا متغزلة فى فتوته ثم ذكر له عنها ما جعله يتركها .. ففسخ الخطبة ، وحزنت المرأة حتى لقد تلفت من الكمد ..



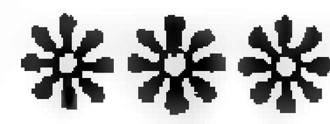
أيظل فى مكة يعمل برعى الغنم الى الابد ؟! .. لم لا يعمل فى التجارة وقد كبر الآن واصبح فتى فى السادسـة عشرة ؟ .. أيجب أن يعمل للسادة المتغطرسين الذين ينصبون الفخاخ للفقراء ؟ اما من سبيل آخر لكسب العيش ؟ ..

ولكن .. ما برح فى مكة رجال ونساء لديهم المال .. ولهم قلوب !

الى بيت الطاهرة

الكاذبون مازالوا يستطيعون ان يرفعوا أصواتهم بالاكذوبة فى وجه الحياة ، ويتجاسرون على كل شيء ثم يجدون من يسمع لهم لانهم يملكون الثروة والسلطة والآلهـــة ! .. المرابون يزدادون غنى يوما بعد يوم .. والذين يغرقون فى وحل الخطيئة حتى الاذقان ، يجدون ثيابا نظيفة يظهرون بها امام الآخرين فيكسبون الحمد والاحترام ..

وفى عين المنافق ما برح يسطع شعاع .. ربما كان أكثر التماعا مما تستطع به عين الرجل المجسور .. وما يعرف أحد بعد أحكمة كان كل ذلك أم جنونا .. ! الكل يقـــول كلمات متشابهة عن الشرف .. الكهان ، والنخاسون ! و «هبل» قائم فى الكعبة ومن حوله الآلهة الصغار ، صم بكم ، تتمسح بهم النسـاء ، الفاجرات والعفيفـــات على السواء ! .. الصيارفة يصوغون الحقيقة ويملكونها ، أما كنز الحق نفسه فهو حلم القلب الممزق ! .. وفى هذا التيه من الاباطيل ظل القلب قادرا على أن يحلم .. على أن يحلم بالزمن السعيد ..



فعلى هذ الاراضى وفى هذا المكان نفسه ، عاشت حقائق أخرى منذ آلاف السنين .. هنا فى هذا البيت العتيـق الذى اقامه ابراهيم مثابة للناس وأمنا .. أين تعـــاليم ابراهيم .. ؟! ألم يصرخ فى وجه الجبابرة ذات يوم فى هذا

المكان نفسه : لا تسرقوا ، لا تكذبوا ، لا تتعاطوا الربا ، لا تزنوا ، لا ترتكبوا جورا فى القضاء ولا فى الوزن ولا فى الكيل ؟ ..

ولكن مدينته قد امتلأت بالظلم ، واستبد بها كبرياء الاشداء .. فهم يسرقون ، ويزنون ، ويكذبون ، ويجورون فى القضاء ، واذا أقرضوا الناس ضاعفوا الربا ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ! ..

لقد أصبح الرجل يقدر بما يملك ، ولا يسأله احد بعد كيف مالك .. أصبح الربح هو الغاية مهما تكن الوسيلة اليه .. الكذب والنفاق والسرقة والاغتصاب ، أصبحت أدوات بارعة .. وما دام الرجل يستطيع ان يطوف بالكعبة ويمسح الركن ، ويقدم القرابين لهبل ، فكل شيء مباح له .. ولكن ما شأن الفقير الذى لا يسرق ولا يغتصب ، ولا يملك ثمن القرابين ! ؟ .. ان أصنام الكعبة لا تقبله فى رحابها .. فهى آلهة مترفة تحب الاغنياء !!

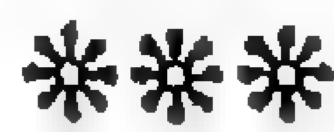
من للفقراء اذن ؟! .. لقد كان لابراهيم رب آخر ، كان هو رب الجميع ، وكان ابراهيم ينهى عن عبادة اله غيره ، ويعد قومه الامن ان أطاعوه ، فلا يعبر فى أرضهم سيف ! .. أين رب ابراهيم .. فهذه الاصنام التى تبارك صلف الاشداء وتنبذ المستضعفين لا يمكن أن تكون جديرة بأن يسجد لها الانسان !!

أكان رب ابراهيم هو الشمس التى تمنح كل شيء حياته؟ ولكنها تأفل أحيانا والرب يجب الا ينام أو يموت .. والقلب المتطلع المشوق لا يحب الافلين !

اين رب ابراهيم الذى قضى ان من قتل يقتل ، وأن من زنى يحرق بالنار ، فلا تعيش الرذيلة فى الارض ، وأن من أبغض أخا فى قلبه لحقت به اللعنة ، وأن من انتقم أو حقد

قضي عليه بالهوان ؟! .. اين رب ابراهيم الذى بارك من « لم يعبد الاصنام ،ولم يلوث امرأة قريبة ،ولا ظلم انسانا، ولا ارتهن رهنا ، ولا اغتصب اغتصابا ، بل بـذل خبزه للجوعان وكسا العريان ثوبا ورفع يده عن الفقير ولم يأخذ الربا » .. ؟!

ثم ما هو هذا الحجر الذى يطوفون به ؟! أين هو من رب ابراهيم .. ؟! انه حجر لا يسمـــع ، ولا يبصر ، ولا يزجى الرياح ، ولا يسوق المطر ، ولا يضر ولا ينفع !!..



ونظر نفر من قريش لبعضهم ، وقد سئموا الطواف بهبل وأخذوا يتأملون قومهم وهم يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويدورون به .. وقال واحـــد منهم « ما قومكم على شيء .. لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم » ..

كان هذا النفر هم ورقة بن نوفل ،وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو .. وكلهـــم معنى بالبحث عن الحقيقة وسط زحام الخـــديعة والاكاذيب . كانوا جميعا يقرأون ما يقع لهم من الكتب .. ويعانون من فساد الاوضاع فى مكة .. وتعاهدوا على أن يكتم بعضهم على بعض .. وخرجوا مما يضربون فى الارض باحثين ، عسى أن يعودوا فيما بعد مبشرين بدين ابراهيم وتعـاليم الحنيفة ..

فأما ورقة بن نوفل فقد اهتدى الى المسيحية ، وعاد الى قومه مفتتنا بتعاليمها ليحدثهم عن اله واحد «لا يسكن فى هياكل مصنوعة بالايادى ولا يخدم بايادى الناس لانه لا يحتاج الى شيء .. اذ هو يعطى الجميع حياة ونفسا وكل شيء .. لانه هو رب السماء والارض » .. وعاش ورقه فى مكة كالرهبان ينصح لقومه ان : أحبوا بعضكم بعضـا

فالمحبة لا تسقط ابدا .. باركوا على الذين يضطهدونكم .. باركوا ، ولا تلعنوا ..

أما عبد الله بن جحش فلم تقنعه المسيحية أول الامر ، وظل يلتمس الحنيفية دين ابراهيم .. أبيهم جميعا .. !

وظل عثمان بن الحويرث يضرب فى الارض حتى قدم الامبراطور الرومانى واعتنق المسيحية وولاه الامبراطور أميرا على مكة .. ولما عاد الى قريش يحمل رسالة قيصر نبذوه ورفضوا ان يخضعوا لقيصر ، أو ان يولوا عليهم أميرا على مكة .. ولما عاد الى قريش يحمل رسالة قيصر نبذوه ورفضوا أن يخضعوا لقيصر ، أو أن يولوا عليهم أميرا وقالوا له : « أن مكة لاتدين لملك » .. فاعتزل عثمان وظل يمارس طقوس دينه الجديد وكان لا يفتأ يردد آيات حفظها من الانجيل : « لا تقتل .. لا تسرق .. لا تشهد بالزور .. لا تسلب .. أكرم أباك وأمك .. لا تزن .. اذهب فبع كل مالك واعط الفقراء ليكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى حاملا الصليب »

أما زيد بن عمرو فلم يكن ينشد خلاص نفسه فحسب، بل خلاص قومه أيضا .. فواجههم بما هم عليه من ضلال .. اعتزل الاوثان ، ورفض ان يأكل من لحم الذبائح التى تنحر أمام الاصنام ، ونهى عن قتل الموءودة فكان يقول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته : « لا تقتلها ، أنا أكفيك مؤونتها » ..

ولكنهم أعرضوا عنه ..وتعود أن يسند ظهره الى الكعبة وهو يقول : « يا معشر قريش والذى نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم احد على دين ابراهيم غيرى » .. ومضى يسفه قريشا وما يعبدون ويتعرض لهم فينهاهم عن الربا والكذب والظلم وعبادة أصنام الكعبة ، وينشد

لهم القصائد الطوال ويروى نبأ موسى وفرعون ، ويونس والحوت ، والمبشرين الاوائل الذين اصـــطدموا بجبابرة آخرين من قبل ..

وشعر بعض سراة مكة بخطر دعوة زيد ، فعاتبوا عمه الخطاب .. وكان الخطاب تاجرا موسرا من الذين يكسون من الربا ، ويمجدون الاغتصاب ، ويظلمون ، ويملكون الآلهة ، ويعشقون الخمر والنساء .. ونهى الخطاب ابن أخيه ، ولكن زيدا ظل على دعوته ! .. وآذاه عمه ، فخرج الى جبل حراء على مقربة من مكة ، يتأمل الساعات الطوال ويعود ، فيدعو الناس الى ترك الباطل الذى يغشى حياتهم كلها ..

وأغرى عمه شبابا من شباب قريش من بينهم ابنـــه عمر بن الخطاب ، وسفهائهم فقال لهم : لا تتركوه يدخل مكة .. فكان لا يدخلها الا سرا منهم ، فاذا علموا بذلك اذوه وأخرجوه كراهية أن يفسد عليهم وأن يتابعه أحد »

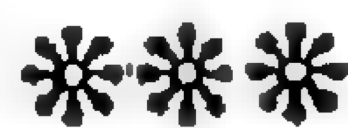
وضاق هو بهذه الحياة ، وضيق عليه السفهاء فخرج من الحجاز يطلب دين ابراهيم ويسأل الرهبان والاحبار، وطاف بالجزيرة كلها حتى بلغ الموصل ثم أقبل فجـــال الشام كله يسأل عن الحنيفية دين ابراهيم .. وعرضت عليه اليهودية والمسيحية فلم يقبل شيئا منهما .. وقال له الرهبان والاحبار : « انك لتطلب دينا ما أنت بواجـد من يحملك اليه اليوم .. »

وأضناه السفر الطويل .. ومع ذلك فقد ظل ينتقل من بلد الى بلد يتخبط على أبواب الاديرة ، ويقرع صدره تحت قباب الكنائس النصرانية،ويتمرغ بين أعمدة معابداليهود، ويرنو الى عبادة النار ، ويعفر رأسه بالتراب المقدس مع الكهنة ، ويمتحن دين بوذا واتباع زارادشت .. ولكنه لم

يجد الحقيقة التى ينشدها أبدا .. !

لابد من دين آخر وقيم أخرى !.. ومابرح يرحل ويرحل كطريد قدر غاشم على دابته المتهالكة ، عصاه فى يده وجسده النحيل الذى أنهكته السنون يرتجف تحت ثوب خشن مرقع، وذقنه البيضاء ترتعش ، وعيناه الكليلتان تقتحمان المجهول بحثا عن الراحة التى يطمئن بها القلب .. بلا جدوى .. دائما بلا جدوى .. !

واخيرا اعترضه بعض اللصوص فى احدى رحلاته المعذبة وعدوا عليه فقتلوه .. وعندما عرفت قريش ، ابتهج السادة وتنفسوا الصعداء ، اما الذين بحثوا معه عن الحقيقة ، فقد بكوه أحر بكاء .. وما زال ورقة بن نوفل يذرف دموع العين ، كلما ذكر صديقه القديم زيد بن عمرو ..



بكى محمد ايضا ، ضياع هذا المبشر الجليل ، الذى عاش حياته الطويلة قلقا يبحث عن الحق ، ثم مات قبل أن يفيض الشعاع من قلبه .. وأن محمدا ليذكر كم كان رائعا حقا هذا المبشر الراحل ..

ومحمد بن عبد الله يذكر أنه لقيه مرة على طعام .. كان ذلك فى احدى البلاد التى سافر اليها محمد ــ أجيرا باحدى القوافل ــ وزيد بن عمرو يحل بهذا البلد باحثا عن الحقيقة .. عن الكلمة التى يزرعها فى القلب .. وعلى مائدة الطعام رفض زيد أن يأكل ما ذبح تحت قدمى تمثال أحد الالهة ، وحاور محمدا .. وكان محمد اذ ذاك شابا فى العشرين يضيق هو الآخر بمظالم قريش ، وبآلهتها المتعجرفة الصماء ، وبالتقاليد التى تدعم قبضة التجار الكبار على اعناق العبيد .. أما محمد فأكل ، ولكن زيدا

أثر الجوع على الشبع من ذبيحة نحرت أمام صنم ، ولم يذكر عليها اسم رب ابراهيم ! ..

ان محمدا ليذكر هذا ويأسى ، ويذكر أن « زيد بن عمرو كان أمة وحده » .. وانه ليشعر بالحزن لان قريشا عاملت رجلا منها بمثل تلك الفظاظة اذ دعاهم الى أن يعدلوا فيما بينهم ... كل الاغنياء حتى العشيرة الاقربون لم يرحموا الرجل حتى عمه الخطاب الذى كان يبره ويحنو عليه من قبل أن يقول كلمته ، ويمضى .. !

وحتى ابن عمه عمر بن الخطاب الشجاع الذى كان زيد يريد أن يعز به دعوته !

لقد مات زيد بن عمرو ، الذى أضاء لحظة كالشهاب الخاطف فى ظلمة الحياة المكية الداجية !! .. وعادت مكة من جديد يستبد كبراؤها بالفقراء ! ..

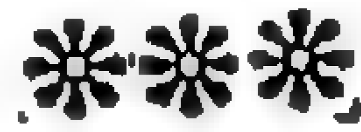
لم يسمع له أحد ، والكاذبون يجدون من يسمع لهم ، والمرابون يزدادون غنى يوما بعد يوم ، والكهان والنخاسون يقولون كلمات متشابهة . وفى عين المنافق ما زال يسطع شعاع ! .. وها هو ذا محمد يعمل أجيرا ليكسب حياته ، كما عاش أبوه ، ومات .. بينما رجال كعمه أبى لهب بن عبد المطلب وكالوليد وكأبى سفيان ، يملكون أكداس الذهب ، ومئات العبيد !! .. من تسرع هذا ؟ ..

وهبل قائم فى الكعبة ، راضيا عن الاغنياء وقد نسى هو وكل آلهة الكعبة ، فقراء قريش ! ..

وفى القافلة التى تنتظم ألفا من الجمال ، ومائتين من الرجال ، يملك ثلاثة أو أربعة من أغنياء مكة تسعمائة جمل على الاقل ، ومعظم الرجال ، ويشترك بقية أهل مكة فيما بقى ! .. ومع ذلك فحينما تقع الحرب ، يتحمل المستضعفون عذاب المعركة .. فالاثرياء يعتمدون عليهم هم

وحدهم ! . لقد رأى محمد كيف كان عمه أبو لهب ، ورجال سراة مثله يعتمدون على ساعد عمه الزبير والشبان الفقراء عندما احتدمت حرب الفجار ضد قريش ، منذ سنوات قلائل ! ..

واشترك محمد نفسه فى هذه الحرب التى دارت حول الكعبة ، ووقف الى جوار أعمامه ، يرد عنهم نبال العدو .. وظفرت قريش ، وعاد الزبير والفقراء من فرسان مكة الذين حموها ، يبحثون عن الرزق ويشتركون بحظ قليل فى القوافل : بدينار او دينارين ، فى قوافل يشترك أمثال أبو سفيان وابو لهب فيها بآلاف الدنانير ..



وهاهو ذا محمد يضطر الى أن يشتغل أجيرا فى هذه القوافل ليعيش ، فما كان يملك الدينارين او الدينار !.. ويخرج الى اليمن مع عمه الزبير فى رحلة الشتاء .. وفى هذه الرحلة كان ما يزال هو الفتى الذى جاوز العشرين بقليل ، وليس له فى القافلة مال ، ولا ناقة له فيها ولا جمل .. وانما هو أجير .. ورأى كيف يكسب التجار .. كيف يخسرون الميزان ويغشون فى الكيل .. وراعه هذا كله ، وتمنى لو قنع واحد منهم بما يمكن ان يكسبه من حسن التبادل ، والقدرة على الموازنة بين سعر البيع وسعر الشراء !

وعاد الى مكة من احدى هذه الرحلات مهموما حزينا يفكر فى الاكذوبة الكبرى التى تقوم عليها الثروة فى مكة ! .. انه ليس ربحا هذا الذى يحدث ، ولكنه شر من الربا : العملاء الذين يخرجون بالقوافل يغشون أثناء البيع ، ويسرقون من الربح الذى حصلوا عليه بالغش .. وهكذا .. كل شىء مختلط .. السادة يقهرون العبيد والاجراء لا يثقون فى

السادة ، ويسرقون الآخرين ! الامانة عملة لا تعرفها تلك السوق الشائنة .. والحق والعفة والصدق أصوات خافتة يطغى عليها زعيق السماسرة ، ورنين الذهب ، ووسوسة الحلى !

وتمنى محمد لو انه خرج فى القافلة بمال له أو لعمه أبى طالب الذى يرعاه ! ..

ليته يعمل لتاجر أمين يريد أن يربح بلا سرقة ، ولا غش، ولا اغتصاب !!

ولكن من عسى أن يستخدمه الآن ، والذين كانوا معه فى القافلة عادوا يحكون عن انكاره لما تعودوه من نقص الكيل واحتيال فى الميزان ؟!

لقد أنكر هذا حقا وطالبهم أن يوفوا الكيل وألا يخسروا الميزان ، فما يقبل عليه الآن أحد من قومه ليوظفه فى الاتجار بماله ! مع ذلك ، فما زال فى مكة رجال ونساء يملكون المال ، ويبتغون الربح بالحق .. انهم لقليل ولكن كيف السبيل اليهم ! .. أيعرض عليهم نفسه ؟

ان اباءه ليمنعه ولو مات جوعا ! ..

وها هو ذا مرة أخرى يعيش وحيدا ، فى بيت عمه أبى طالب ، لا يملك غير الامل المبهم فى المستقبل ، وغير ذكريات حزينة من ماض بعيد تتخايل فيه صور عن أمه التى ماتت وتركته لليتم ، وأبيه الذى لم يره ، وجده الذى كان يحبه كما لم يحب حفيد جده أبدا ، ثم مات وتركه يواجه الحياة والوحدة والفراغ الرحيب .. وذكريات أخرى عن المبشرين الذين نفوا من الارض واستشهدوا فى التيه وهم يبحثون عن حل انسانى للفوضى .. ولا طعام فى بيت ابى طالب .. وكل من فى البيت يعمل ليعيش ، والثرى يقهر المحتاج ،

والمستغنى ينهر السائل .. والجياع بلا مأوى ، والكل فى الضلال ! !

وانه ليفكر فى الحياة والموت والمستقبل والذكريات ، اذ بعمه أبى طالب يقبل عليه ، متحرجا .. فيقول له : « يا ابن أخى ، أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حان موعد خروجها الى الشام ، وخديجة تبعث رجالا من قومك يتجرون فى مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك »

وأدرك ان عمه انما يعنى خديجة بنت خويلد ، التاجرة الغنية التى تستأجر الرجال فى مالها والتى اشتهرت بجمالها وبعفتها ، حتى لقد أطلق عليها « الطاهرة »

وتمنى محمد لو أنه اتجر فى مالها ، ولكن اباءه عاوده ، فكره أن يذهب هو اليها ليعرض عليها نفسه ، أو ليسألها ، فقال لعمه : « لعلها ترسل الى فى ذلك »

ولكن عمه أجابه : « انى أخاف أن تولى غيرك »

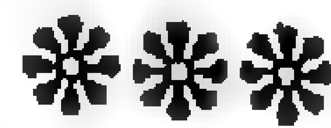
ان خديجة بنت خويلد ذات شرف ومال .. هذا حق .. وهى بنت عم ورقة بن نوفل أحد الذين أضناهم البحث عن الحقيقة ثم اهتدى الى المسيحية ، ولقد تأثرت ابنة عمه خديجة بما يحمله ، فما عرف أنها أقرضت بربا من مصرفها الذى تقرض منه التجار الصغار ، وما أباحت لنفسها ربحا اجتلبته السرقة أو خسران الموازين .. ولقد سمعت هى عن محمد وتمنت لو استأجرته فيتاجر فى مالها .. وأرسلت اليه عندما بلغها مادار بينه وبين عمه أبى طالب .. له الحق أن يكره السعى هو اليها ، فالنفس الابية لا تترخص فتعرض ما عندها !

كانت فى الاربعين .. امرأة جليلة شامخة ممتنعة فى

قمة جمال ذلك السن ، وقد مات عنها زوج بعد زوج ، وكلاهما تاجر واسع الغنى من سراة مكة • وأقبل اليها محمد بن عبد الله ، فتى جميل الوجه ، واضح الملامح ، أقنى الانف عريض الجبهة ، ثابت الخطوة ، ممشوق القوام ، متوسط الطول ، مهيبا ، يقظ العين ، وهو على فقره نظيف الثوب ، مرجل الشعر ، يفوح منه الطيب وريح النشوة ! •• وعلى وجهه الناطق بالعنفوان ، يبدو ذلك الضنى الغامض الذى يجلبه طول التأمل والمعاناة ••

واستقبلته خديجة مرحبة ، ومدحت فيه ما كانت سمعته عن صدقه وأمانته وحسن سيرته ، ثم عرضت عليه أن يخرج فى مالها الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره • وخرج محمد بن عبد الله فى رحلة الصيف الى الشام بمال خديجة ، وعاد منها بربح طائل فقد أقبل عليه المتعاملون منذ رأوا فيه جديدا •• فهو أمين صادق لا يعمد الى عبث فى كيل أو مقياس أو وزن •• وهكذا كسبت خديجة من مالها ذاك ضعف ما كانت تقدر ، فأعطته ضعف الاجر الذى اتفقت عليه

وظل يتردد عليها بقية العام ، وعير مكة تستعد لرحلة الشتاء الى اليمن بقافلة كبيرة ، احتشد فيها ثلثمائة رجل بألف وخمسمائة من الابل



وعندما أذن فى مكة أن رحلة الشتاء تعود من اليمن رابحة ، خرجت قريش كلها تستقبلها كما تعودت ، بالفرسان والدفوف والراقصات ، والنساء على جنبات الطرق •• أما خديجة فقد وقفت فى شرفة دارها تطل على القافلة المقبلة مع بعض جواريها ، واذ لاح محمد من بين الرجال ، أحست بقلبها يخفق فجأة ، وينفتح له ، وأدركت أنها انما كانت تنتظره هو

حقا •• هو بجسده وشبابه ودماثته ، محمد نفسه لا الاجير الذى سيسلمها ربحها من التجارة !

وحدثها عبدها الذى كان يصحبه عن كثير من خصاله التى تحبب فيه الرجال ••

الرجال ؟! •• والنساء أيضا ! •• ليته يخطبها ؟ •• ولكن حياءه واباءه وارتفاع سنها عن سنه بشكل ملحوظ ، ثم الفرق الشاسع بين غناها وفقره ، كل ذلك سيمنعه !

وأرسلت اليه نفيسة بنت منية فتلطفت عنده ، وسألته لماذا لا يتزوج ـ وقد بلغ خمسة وعشرين عاما ـ وكل فتاة فى قريش تتمناه زوجا ، فهو امين شجاع باسل وصادق وجميل •• واذ اعتذر بقلة المال ، اقترحت عليه أن يتزوج امرأة غنية واسعة الثروة وهى الى ذلك ذات شرف ونسب •• وسألها محمد من عساها تقبله زوجا وهو الاجير الفقير ؟ فذكرت به خديجة .. ولكنه لم يصدق أن خديجة بغناها الواسع يمكن ان تقبل الزواج من شاب فقير مثله .. على ان نفيسة وعدته ان ترتب هذا الامر ..

وعادت نفيسة تزف البشرى الى خديجة بنت خويلد ، فمحمد بن عبد الله هو أيضا يود لو تم هذا الزواج، ولكن فقره يقعد به عن أن يتقدم الى خطبتها ••

وأرسلت اليه خديجة فعرضت عليه بنفسها أن يتزوجها •• وقالت له : « انى قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك »

ومضى محمد بن عبد الله الى أعمامه يذكر لهم ما كان من أمر خديجة •• فخرج معه حمزة أحب أعمامه اليه واقربهم سنا منه ، وخرج معه الزبير وأبو طالب وبقية الاعمام ، فجاءوا خويلد بن أسد والد خديجة ، فخطبوها لمحمد •• وكان خويلد ساعتها يشرب الخمر •• فوافق من فوره

وعقدت الخطبة .. ولكنه أفاق من غده فسأل ابنته خديجة عما حدث بالامس ، واذ قالت له أنه عقد خطبتها الى محمد ابن عبد الله ، ثار وأنكر .. فمن هو هذا الفقير الذى يرضى به زوجا لابنته الغنية التى رفضت سادة قريش ؟!

ولكن خديجة جادلته وكرهت منه أن ينقض ماأبرم ، وقالت له انها تملك من المال ما يكفيها ولا حاجة لها بزوج غنى ، وهى عندما تختار الرجل الذى تعيش معه ، فأنها تحب أن تسمع لصوت قلبها ، لا لنداء المصرف الذى تمتلكه !

وعلم محمد بن عبد الله أن خويلد يعترض ، ويتعلل بأنه انما اتفق على الخطبة وهو سكران ! ما هذه الخمرة أيضا ؟! كيف يمكن أن تفسد الخمر ارادة الرجال الى هذا الحد ؟!

على أن خديجة استطـــاعت أن تقنع أباها آخر الامر .. أقيمت وليمة الزواج .. وملأها الزبير مرحا ، ورقصت جوارى خديجة ، ونحرت الابل على باب الدار ليأكل منهـــا الفقراء .. وأباحته خديجة مالها يصنع به ما يشـــاء كما يشاء .. وتصدق من مالها على كثيرين فى تلك الليلة

وفى غمرة الفرح ، تذكر محمد أمه .. وبحث عن حليمة التى أرضعته فأرسل اليها أربعين رأسا من الضأن ، ترعاها فى ديار قومها ، وتستغنى بها الى آخر ما قدر لها من العمر .

أما هو فقد بات وأصبح عند خديجـة .. وانتقل تماما بكل وجدانه وشبابه وحياته وأحلامه وتأملاته .. الى بيت الطاهرة

قم ... فأنذر

غريب أنت يا ولدى فى هذا التيه الضارى الذى يتنفس باللعنة والاكذوبة والمنكر ! .. شـــارد ، حزين ، لا تنفك تتأمل فى السموات والارض ، ووجوه الرجال والنســاء والاطفال .. ما تكاد تضحك مستمتعا بحياتك الجـــديدة المطمئنة مع المـــرأة الجميـــلة النقية الحكيمة التى اختارتك للحياة والموت ، حتى ينبثق من أغوار نفسك فجأة خاطر مبهم .. فاذا ابتسامتك الآسرة تغيض على شفتيك ، واذا بنظراتك تخترق الصمت ويداك الكبيرتان تلوحان فى اســـكون . وينتفض العرق النافر من جبينك العريض الناصع وتضىء كل ملامحك الحادة بشعاع رهيب وكأن نورا من الغيب يغشاك، فيبدو وجهك المتورد معذبا مضنى ، على الرغم من كل شىء !

أشاعر أنت يا بنى ، يأتيك هاجس من الخفاء؟ ..ولكنك لم تقل الشعر أبدا ، وما يظن أحد أنك ستقول شعرا بعد..!

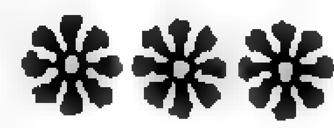
ما أروعك حالما ، ومتألما ، وحزينا ! . . ولكن الحياة تروق لك وتحلو . . ففيم كل هذا الحزن ؟

لقد كنت فقيرا تحمل الحجر ، وترعى أغنام الآخرين تحت شمس لا ترحم وتضرب فى الارض لحساب غيرك ، وتصنع الكثير لتنبش على قوتك .. فها أنت ذا اليوم تملك مايحسدك عليه كل فتيـــان قريش : عمـــلا مطمئنا يعطيك أكثر من الحـــاجة ، وزوجة تؤثرك بالحب وترعاك حاضرا وغائبا ولأنت كل دنياها وكبريائها ورونق حياتها . . وهى فى النهاية تعصم شبابك وتغنيه ، وتحفظ سمعتك ..

وانها لتمنحك من حنان الامومة ما افتقدته منذ الطفولة وتعطيك من متاع الحياة ما يروى ظمأ الفتوة فيك ، وتهدى اليك ما يرضى زهو الابوة منك ٠٠ هى عوض عن أحـــزان الطفولة ، وشبع ورى لحاجات الرجولة ٠٠

ها أنت ذابعـد طول الطـواف تحت الشمس تنعم ببيت يملؤه الخير والولد يا ابا القاسم ٠٠ فراشك فيـه عامرة بالطاهرة ، ما يهجس فى قلبها غير رضائك ٠٠

فمن أى أعماقك اذن ينبع هذا القلق الغامض الذى يفيض على وجهك بالشحوب فى كثير من الاحايين ؟ ٠٠ لقـد زادت ثروة خديجة على يديك ، واتسع رزقك على يديها ٠٠ وأصبحت أبا لبنات وأولاد ، وغدوت تسلك فى الشراء والبيع كمـا تريد ٠٠ لا نقص فى الكيل ولا خسران فى الميزان ، وانما هو الصدق والامانة حتى لقـــد سمـاك قومك : « الأمين » ٠٠ واقتدى بك منهم نفر غير قليل ٠٠



ولكن الحياة ليست هى البيت الذى يعيش فيه الرجل ٠٠ ليست هى ــ فحسب ــ الزوجة المحبة الصالحة الحسـناء ، ولا الاولاد الذين يملأون القلب بالرضا !

ان الامن ليعمر البيت ٠٠ هذا حق ، ولكن الحياة من خارج بابه ، تضطرم بما يمزق القلب المطمئن ! ٠٠ وبعـد أعوام طويلة من الزواج ، اصبح لك ركن هادىء تعمره مسرات الحياة : زوجة جميلة طيبة حانية ، وأبناء صغار تطيب النفس لمرآهم ٠٠ ولكن عالمك العريض الذى تعيش فيه ، لاهدوء فيه بعد ، ولا شىء منه تطيب له النفس ٠٠ أى تناقض ممزق بين بيتك ٠٠ والعالم !

ولكن حياتك فى بيتك ، تمنحك القوة على مواجهة هذا العالم الذى تعشش فيه الاكذوبة وتنمو ، وتفرخ ٠٠ وكلما

مر عام على زواجك رسخت فى قلبك مكانة خديجة .. لقد واجهتما الزيف والخديعة معا ، وقاومتما معـــا ، وربحتما بالصدق معا .. وفقدتما معا بعض الولد . واختلط منكما العرق والدمع معـــا .. بكت هى على كتفك ، عندما مات ابنكما القاسم ، ولم تستكبر أنت فبكيت على كتفها .. ومســــحت دموعك يامحمد .. ومنحتك أولادا آخرين ..

والسادة فى قريش يحتقرون الذكاء والعمل ، ولكنها ترعى ذكاءك وعملك ، وتتنزه بك على دنس الحيـــاة الآثمة من البطالة واللهو والمغامرة والفزل .. وانت الآن لاتريد أن تشق عليها يا أبا القاسم بما يضنيك بعــد أن فقدتما ولدكما القاسم .. لتدع السيدة الجليلة فى ثكلها .. فما أثقل حملها ! .. وما أثقل حملك أنت يا ولدى ! .. ماذا تريد ؟.. تحدث مع صديقك أبى بكر ..

وأبو بكر بن أبى قحافة ، هو الوحيد بين فتيـــان قريش ، من يخلص لك الود فتستطيع أن تفتح له قلبك .. وهو مثلك يابن عبد الله يعنيه البحث عن الخلاص .. وانه ليرى فى أصنام الكعبة أحجارا لاتضر ولا تنفع ، ولقد حدثك هو عنها ، ورأيت أنت أنه لايسجد لها ، وهو مازال يردد بين فتيان مثله من الذين لم تعد تقنعهم هذه الاصنام ، قصة أول لقاء له معها : أخذه أبوه وهو صغير فقال له : « هذه آلهتك الشم العوالى » ، ثم تركه وانصرف ، فلما خلا الصغير أبوبكر الى آلهته ، تقدم من أحد الاصنام فقال له : « انى جائع فاطعمنى » فلم يجبه الصنم فقال الصغير للصـــنم : « انى عار فاكسنى » واذ لم يجبه الصنم ، القى الصغير عليــه صخرة ، فخر الصنم على وجهه .. ومنذ رآى الصغير

أحد الآلهة يخر على الارض ، رفض هو أن يخر ساجدا لمثل هذا الآله الاصم الضعيف الذى تسقطه دفعة من يد طفل ! ..

ولكن أبا بكر لم يعد صغيرا ، ولا جائعا ، ولا عاريا .. فهو الآن يامحمد قد جاوز الثلاثين مثلك ، وقد خرج معك فى كل رحلاتك يتاجر بماله . وقد أصبح الآن على حداثة سنه أحد سراة مكة .. مابرح يتاجر بماله ويقتدى بك فى البيع والشراء ، فهو أيضا لا ينقص كيلا ولا يخسر الميزان ، ولا يحتال بالكذب . ولقد طالما سخطتما معا على ما يصنعه سادة قريش ، وتمنيتما معا لو أن العالم ساده العدل ، فلم يفتك كبير بفقير ، ولم يهن المدين على الدائن ، ولم يخن الرجل عهده ، ولم يبطش الاقوياء بالمستضعفين ! .. لو أن للمرأة عند الرجل مكانة أخرى غير مكانة الشيء الذى يستمتع به

أدركتما كل شيء معا ، وضقتما معا بأسلوب الحياة فى مكة ، ومضيت أنت تتأمل ، ولكن أبابكر مضى يقرأ فيما انتهى اليه من كتب الاولين ! .. ما أسعده فقد أتاحت له الحياة أن يتعلم القراءة والكتابة منذ الصغر ، على عكسك أنت ! .. وما زال أبو بكر يقرأ ويحفظ كل ماينتهى اليه ، ويحول رحلاته التجارية الى فرص لمزيد من الاطلاع حتى أصبح اليوم أكثر فتيان قريش ثقافة .. وانك لفخور به ! ..

لقد أدركتما معا ان حياة قريش وطرق التعامل فيها ، هى التى تسمح بوجود الاصنام فى الكعبة .. فسادة قريش الذين فرضوا عليها هذا الاسلوب الجائر من الحياة ، هم الذين يحمون أصنام الكعبة ! .. وانها لتبارك هذه الاوضاع ولن تسمح بغيرها .. وهى بعد

تجلب آلاف العرب من كل مكان ليحجوا اليها ! وليدفعوا لســـادة قريش ، وليعمروا مواسم الحج بالمبـادلات التجارية ، فيثرى السادة عاما بعد عام !

ومع كل هذا فان من قريش نفسها لتتصاعد نداءات ضد علاقات الاثرياء بغيرهم وضد الاصنام التى تحمى هذه الاوضاع .. لقد أصبحت ثروة مكة فى يد عشرات قليلة ، بينما عشرات الآلاف يعانون ! وأصنام الكعبة راضية عن هذا كله !

ان دوران الحياة فى مكة واتساع تجارتها قد زاد من غنى السادة ، وألقى بمعظم السكان بين اظفار الحرمان والخوف ، حتى لقد سئمت القلوب مما تعانى وأدرك الناس أن هذا كله باطل !

لم تعد أصنام الكعبة قادرة على أن تملأ وجدان الناس وتشبع حياتهم الروحية ، ولم يعد أسلوب العلاقات القائمة بين الدائن والمدين أو بين من يملك ومن لايملك ، ولا بين الغنى والفقير .. لم يعد أسلوب العلاقات هذا صالحا للزمن بعد ، فقد أدرك الذين لايملكون من اهل مكة أن مايعيشون فيه لهو الظلم ، وان الآلهة العديدة التى تحمى هذا الظلم ، ويسمح قيامها بأن يزدادوا فقرا ويزداد الاغنياء ثراء ، انما هى آلهـــة ظالمة ..

الفقراء والمستضعفون يشعرون فى أعماقهم بأنهم فى حاجة الى أسلوب ينظم علاقة الناس ببعضهم ، وفى حاجة الى قيم روحية جديدة تعكس تطور هذا المجتمع الذى يشكلونه ، فلو أنهم لم يعملوا لما غنى السادة ، ومع ذلك فقد كتب عليهم الحرمان والهوان كما تكتب اللعنة .. لابد من شىء جديد يقيم الموازين والحساب ! .. ولكن سادة قريش لن يسمحوا بهذا .. وان الرجل

منهم ليتخلى عما يجب أن يعرف عنه من فضـــائل ؛ ليقاوم أى احتجاج ، وليطمس أى شعاع يبرز فى ذلك الحائط المصبوب من الظلمات ! ..

لقد تخلى الخطاب بن نفيل عما أحب أن يعرف عنه من حماية الجار والقبيلة ، ونبذ ابن أخيه زيد بن عمرو ابن نفيل .. لان زيدا هاجم القيم الروحية التى يتمسك بها سادة قريش .. هاجم الاصنام ، والوثنية وتعدد الآلهة وأسلوب العلاقات بين الناس فى مكة ، وطالب بالعدل ، وبقيم روحية جديدة تشبع الحاجات الواقعية لتطور مجتمع مكة ..

وهكذا ألقى زيد فى التيه ، ليموت وحيدا ، غريبا ، ضائعا ، بعد أن عذبه السفهاء

لكم بكيت عليه يامحمد ، وبكى عليه ورقة بن نوفل قريب زوجتك الطاهرة خديجة وراعيهـــا ، ولكم بكاه معك صديقك أبوبكر التاجر الغنى الذى رق قلبه وصفا ، وزادته الثقافة صفاء ورقة !

وأمية بن أبى الصلت هو الآخر ، ينبذ الاصنام ومظالم قومه ، ويعلن أن آلهة الكعبة لم تعد تملأ الفراغ الذى تســـتشعره روحه .. ولكنه لكى يعيش يعود فيمدح أغنياء قومه ثقيف بالطائف ، وأغنياء قريش فى مكة .. نفس الاغنياء الذين أطلق ضـــدهم فى شـعره صرخات احتجاج صادقة ..

وآخرون .. وآخرون .. ومن قبلهم نادى «خالد بن سنان» قومه بأن يتركوا الحياة الدنسة ، وأن يتعاونوا فيما بينهم والا يضطهدوا الضعفاء والمحتاجين وبشرهم بملكوت السماء لو أنهم هجروا أصنامهم وعبدوا الهـــا واحدا له مافى السماء ومافى الارض ولكن قومه أضاعوه !

سخروا منه أول الامر ثم وجدوا من يستجيب له ، فعذبوه حتى الموت وسألوه أن يستعين بهذا الاله الواحد الذى يدعو اليه ليخلصه منهم ! .. وهكذا أغمض خالد بن سنان عينيه الداميتين على حلم بعالم أفضل يسوده العدل ، والقيم الروحية المرتجاه !

ان كبار المرابين والتجار ـ وهم كل حكومة مكة ـ لينطلقون كالسمكات المتوحشة تبتلع الصغار ، وتنهش منهم اللحم الحى ، ويغريها الدم بمزيد من الدماء .. !

غير ان هؤلاء المبشرين العظام جميعا كانوا يحاولون ترقيع ثوب مهلهل لاجدوى منه .. كانوا يحاولون ترميم بناء يتداعى ، بناء لابد أن يهدم كله ليبنى من جديد .. كانوا يحاولون اصلاح قومهم ، وقومهم فى حاجة الى ثورة كاملة تجتث كل الجذور الفاسدة لتغرس أساليب جديدة ، وعلاقات جديدة ، وقيما أخرى .. يجب أن يخلى بين الانسان ومابين مايعبد ! يجب الا يكون لبشر سلطان روحى على الآخرين .. ويجب أن تزول الاصنام بمن يخدمونها وبمن يتسلطون باسمها على مصائر غيرهم

ليس للانسان أن يستشفع بأحد .. فالكائن وعمله . ومايبنغى ان يتنازل الرجل عن عمله لأحد يدبر عنه أمره .. فلكل انسان قلب يفقه به ، وعين تبصر ، واذن تسمع ، وعقل يتدبر .. يجب ان تصان نفس الانسان من الهوان وأن يصان بدنه من الاذى .. يجب أن يحترم الانسان عهده وحق أخيه الانسان .. لكل انسان الحق فى ان يعيش حرا ..

ومن أجل ذلك يرفض محمد بن عبد الله ان يكون له عبيد ، ويغرى زوجته أن تعامل جواريها كما لو كن حرائر ، ويحملها على أن تسمى من تملكهم بالفتيان

والفتيات بدلا من الجوارى أو العبيد أو الخدم •• واذ تشترى خديجة غلاما صغيرا اسمه زيد بن حارثة يدفع لها محمد ثمنه ، ويحرره ويتبناه ، ويقيم عنده كأنما هو أحد ولده ، حتى ليأبى زيد بن حارثة ان يعود الى أهله ، عندما يجده أبوه الحقيقى ، ويخيره فى العودة الى أهله أو البقاء مع متبنيه ، فيختار متبنيه ..

لابد اذن من خلق مجتمع يسوده الوفاء ، وينبذ فيه الغادر •• مجتمع تحكمه الامانة ورعاية حق كل الناس على السواء بلا تفريق : السود والبيض ، السادة والعبيد ، الاغنياء والفقراء ، الرجال والنساء . يجب أن يصان هذا المجتمع الجديد فيفضح السارق ويعاقب ، ويجزى من خان الامانة بما أثم ، ويقتل من قتل ، مهما يختلف حظ القاتل والمقتول من الغنى والفقر .. والجروح قصاص ..

يجب أن تصان الاسرة فيعاقب من يزنى ، وتصان كرامة المراة التى هى أم وزوجة وشريكة حياة وفلذة كبد ، فلا تعطى للرجل ليستمتع بها لبعض الوقت ثم ينبذها ، ولاتمنح لعدة رجال فى وقت واحد ! .. يجب أن يحترم كبرياؤها فلا تتزوج الا من ترضاه ، وأن تقيم معه شريكة له ، نفسا انسانية كريمة ، تعاونه ، لا محظية يستمتع بها .. يجب أن تنكس هذه الرايات التى ينصبها بعض النساء على بيوتهن ليستقبلن الرجال فاذا حملت احداهن ألحقت ولدها بمن يشبهه !

كل هذا شائن وزرى ومهين ، ويجب أن ينبو عنه المجتمع .. كل هذا لاينفع فيه ترميم أو اصلاح وانما يجب أن يهدم كله دفعة واحدة ، ليبنى من جديد .. لابد من ثورة جائحة تجتث الربا ، والهوان ، والزراية ،

والبغاء ، وصلف المتكبرين والمتسلطين .. ثورة تقيم العدالة ، وتحرر الانسان من السيطرة والخوف ، وتحرر العقول والقلوب من الاذعان لاصنام الكعبة ولقوى الخفاء، وتضع أساسا للتعامل بين الرجل والمرأة ، بين الانسان والانسان .. ولكن كيف السبيل ؟!

لقد طالما تحدث محمد بن عبد الله مع صديقه أبى بكر بن أبى قحافة ، فى هذا كله ، ولقد رحلا معا ، وعانيا معا ، وشاهدا الرهبان والكهان فى بلاد بعيدة ، وسمعا معا من الاحبار .. واعتزلا الاصنام معا ، وسلكا بالعدل والصدق والامانة ، وبكيا معا على مالاقاه المبشرون الاوائل .. ونأيا عن الرجال والنساء يطوفون عراة حول الكعبة ويلتصقون ببعضهم فى البيت الحرام .. وحلما طويلا بالخلاص ..

والقوافل تمضى من مكة الى بلاد الروم واليمن .. وفى أسواق مكة يجتمع تجار من مصر والهند والشام وأواسط آسيا ، وتسرى فى الاسواق حكايات كثيرة غريبة .. فتجار مصر يحكون عن أستاذة فى الاسكندرية كانت تعلم فى جامعتها الحكمة وتدعو الناس الى أن يفكروا بعقولهم .. فالتف حولها الطلاب مكبرين دعوتها وسيرتها، وهى اذ ذاك فى الخامسة والاربعين ، جميلة انيقة وحيدة .. ولكن الكهنة والقساوسة الذين يثرون من سلطانهم على القلوب ، ادركوا أن هذه الاستاذة الجميلة تريد أن تحطم سلطانهم وتسخر بوساطتهم لتحرمهم مصدر غناهم فلن يبقى لهم جاه ولا مال ان انطلقت العقول تفكر وتحدد خطوات الرجال والنساء

وحاول الكهنة أن يشوهوها وأن يؤذوها فى شرفها فلم يستطيعوا فقد كانت على جمالها الباهر ، عفيفة

جدا ، فى مجتمع تندر العفة فيه ، يقظة لكل دسيسة .. ففشلوا فى الكيد لها .. واذ لم يستطيعوا عليها سبيلا اقتحموا عليها دارها فقتلوها ..

هكذا يخمد صـــوت العقل فى مصر التى تدين باله واحد ، وتؤمن بالمسيح ، وتحمـل تراث مبشر قديم نادى بالتوحيد وأقام لالهه الواحد مدينة أســماها أخيتاتون !

وفى بلاد أخرى كان من يحمل فى رأسه أفكارا يحكم عليه بالعذاب أو بالضياع فى الصحراء .. ومن بلاد الروم يروى القادمون عن ظهور مبشرين قد عثروا على دعوة عندهم فأحيوها ، وكانت الدعوة تقول ان العالم واحد متحد ، وهو قديم أزلى لم يخلقه انسان ولا اله من الآلهة ، وقد كان هذا العالم وسيظل الى الابد شـعلة حية تتقد وتنطفىء حسب قانون معين .. وأن على العقل أن يكتشف هذا القانون . وفى بلاد الفرس يلقى الى النار من يدعو الى اله غير النار .. !

وهنا فى الكعبة يحكم بالموت أو بالتيه أو بالهوان على من يقاوم سلطان المستفيدين من أصـــنام الكعبة .. والذين يملكون هذا القضاء عشرة أو عشرون من كبـــار المرابين فى قريش . ومابينهم واحد لايعيش فى الخطيئة .. وهم يقضون فى مصائر عشرات الآلاف من الرجال والنساء والاطفال ..

ماجدوى الاصلاح فى مثل هذا العالم اذن ؟ لابد من طفرة .. ثورة عارمة تبنيه من جديد وقد تهيأت لها الآن قلوب الجميع .. الا الذين يفيدون من فســـاد الاوضاع ، وهم قليل .. ومحمد اذ ذاك فى قومه رجل حسن السمعة ، لم يعرف عنه أحد من سوء .. أمين

صادق حتى أنه لو صرخ فى الناس أن خيلا قادمة وهم لايرون شيئا ، لكذبوا أعينهم وصدقوه ! ..

وقد تواترت عنه مآثر لم يعرفها قومه من قبل ، فقد اكتفى بزوجة واحدة هى خديجة بنت خويلد ، ولقد ارتفع بها السن الآن حتى بلغت الخامسة والخمسين وهو بعد شاب يقرع أبواب الاربعين فما فكر أن يجرحها بزوجة أخرى ، وما استمتع بخليلة كما شرع قومه ، وما اشتهت نفسه غيرها على فتوته وحسن موقعه من النساء جميعا ..

وهو بعد يقف الى جوار المظلوم ، فقد استنهض عمه الزبير بن عبد المطلب ليجبر تاجرا غريبا كان أحد سراة مكة قد حبس عنه حقه ، ووقف التاجر المظلوم يصرخ :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الدار والنفر

وردت الى التاجر حقوقه .. واستطاع أن يجعل بعض الاسر من قريش تتعاهد ـ بقيادة بنى هاشم ـ ألا يجدوا فى مكة مظلوما من أهلها أو من الغرباء الا قاموا معه وكانوا على ظالمه حتى يرد اليه حقه ..

ومحمد بن عبد الله ـ الى هذا كله ـ حكيم .. استطاع أن ينقذ الناس من الفتنة حين أوشكت ان تضطرم ، فقد رات قريش أن تبنى الكعبة بعد أن اندلعت فيها النار ، وكانت قد ظلت تحفر حتى وجدت حجرا قديما كتب عليه بلغة لا يعرفونها ، فدفعوه الى من طاف بلاد الارض وعلم علم اللغات فقرأ : « من يزرع خيرا يحصد غبطة ، ومن يزرع شرا يحصد ندامة ، تعملون السيئات، وتجزون الحسنات !. أجل .. كما لا يجتنى من الشوك العنب »

فنصحهم محمد أن يعتبروا بما كتب على هذا الحجر ، فقد حمل اليهم تجربة أجيال من قبلهم ، فليذكروها

وليتعظوا بها ، ان كانوا يعقلون ! .. ثم ان قريشا بلغوا فى البناء موضع الحجر الاسود .. فاختصموا فيه ، أى من أهلها يرفعه الى موضعه .. وأوشكت القبائل من قريش أن تحارب بعضها بعضا واذا بأكبرهم سنا يقول : « اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل » ..

وكان أول من دخل هو أبو القاسم محمد بن عبد الله .. فلما رأوه قالوا جميعا « رضينا .. هذا الامين .. هذا محمد » . وأخبروه بما كان من خلافهم فقال لهم : « هلم الى ثوبا » وجاءوا بالثوب فأخذ الحجر الاسود فوضعه فيه ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب » .. وهكذا انفض الخصام ،وارتضى الكبار الاثرياء ، ما رآه لهم الشاب الفقير ..

ان قومه ليكبرون حكمه وينزلون عند رأيه ، يعتزون بصدقه وأمانته ، على الرغم من كل ماهم فيه .. ليتهم اذن يطعمون الجائع ، وينصفون الضعيف ، ولا يظلمون أحدا .. ليتهم يحتفظون بمخادعهم مطهرة ، ويعطون السائل ، ولا يقهرون اليتامى ، ولا يأكلون اموال الفقراء والمحتاجين .. ليتهم يعون ما حفظه لهم الحجر : ان الانسان لا يجنى من الشوك العنب !

لكم تثقل الحياة عليه الآن .. لكم يشعر بكل شيءيفقد بهجته ورونقه كأنما ينتظر ماء حياة جديدة تدب فيه .. لقد روى له صديقه أبو بكر ما شهده قديما من لقاء أمية بن أبى الصلت مع زيد بن عمرو بن نفيل .. كان ذلك بفناء الكعبة ، وزيد بن عمرو اذ ذاك مازال يتأمل قبل أن يجابه قومه بترك ماهم فيه ، وجاءه أمية فقال له : « كيف أصبحت ياباغى الخير ؟ » فرد عليه زيد : « بخير » فقال أمية : « هل وجدت ؟ » فقال زيد : «لاوآل

من طلب ، ان هذا الذى ينتظر هو منا أو منكم أو من أهل فلسطين » ‥ ان الحياة والظروف كلها لتتهيــأ الان لاستقبال منقذ آخر ‥

المبشرون الاوائل كلهم يطلقــــون صرخاتهم المحتجة ، ولكنهم فى أعماقهم كانوا يؤمنون بأن رجلا آخر يجب أن يقول الكلمة الحاسمة التى تضيء بها الظلمات ويتغير وجه الارض ‥ لم يقدم واحد منهم للبسطاء ما يؤمنون به ويتحركون تحت رايته .. كانوا كلهم يبحثون فى طيبة ولهفة لا تنتهى عن الحل ، ولكن أحدا منهم لم يقدم الحل الذى يعتنقه المعذبون ، فيفرضوه !

وعلى الرغم من كل شيء ، فما زال صوت الظلم هو الذى يرتفع ، وقيم الحاكمين هى السائدة ‥ مازال الرجل يمتهن ، والمرأة تبتذل ، والاسرة مفككة ، ما زال الرجل يرث عن أبيه الزوجة ، والمرأة تباح لعدة رجال ، ولا حرمــة لشيء بعد .. الانسان يستعبد ويعامل كالفريسة ! .. القوة العضلية هى الشريعة ، أما العقل فلا حاجة لاحـد به ! .. وماذا بعد ..

وها أنت ذا يا ولدى حزين غريب فى هذا التيه الذى يتنفس بالاكذوبة واللعنة والهوان والمنكر .. وانك يا أبا القاسم لتعتزل هذا كله وتترك أهلك لتخلص الى نفســك فى « حراء » كما فعل قبلك مخلصون ، غلوا واضطرموا لبعض الوقت ثم لم يعد احد يسمع عنهم بعـــد ذلك شيئا ‥ ما سكوتك على كل هذه الضلالات ، وما اعتزالك طول شهر رمضان . قل كلمتك .. لقد عودك قومك أن يحترموها .. ذهبت عنك حدة الشباب .. فقم فبشر .. قم فواجه أعداء الانسان .. قم ، فأنذر !

تلك الليلة من رمضان

لم تكن الجزيرة وحدها هى التى تعنيه ، فقـــد طاف بالشمال والجنوب وعرف كثيرا عما يحدث فى بلاد الفرس والروم .. وفكر فى هذا كله ، ففى كل مكان يهدرالانسان ويسيطر الغيظ أحيانا ، حتى لتمتد يد المرأة الحنون الى قلب خصمها بعد أن يقتل ، فتأكل منه القلب الحى.. وتلعق الدم !

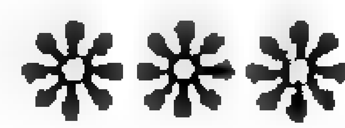
وما زال الملاك الكبار فى بلاد الروم يصنعــون بالرجال والنساء ما يصنعه المرابون التجار الكبار فى مكة،والرؤساء والدهاقون فى بلاد الفرس .. وهنا وهناك يقضى عـلى الانسان ما يقضى باسم قوى الخفاء التى لا تقاوم ولا ترد، وهى قوى لا تشبع من دم الضعفاء ، وتقتات بالهوان ..

وهى فى مكة تتخذ اسم الاصنام ، وفى بلاد الفرس تتخذ اسم الآلهة ، وفى بلاد الروم تتخذ اسم الاحبـــار ورجال الكهنوت .. لقد هان كل شيء حتى لقد وثبت امرأة من أرصفة القسطنطينية الى الملك

ونقلت صناعاتها من الحانات ، الى عرش الامبراطورية الرومانية ، وكانت مولعة بالشذوذ فراق لها أن تمارس علاقاتها وهى بالتاج الامبراطورى ، وحولت الكنائس الى أوكار للمؤامرات والمذابح ، وأشاعت فى كل مكان جوا من الفوضى والظلمات والانحلال .. فكان الصناع الفقـــراء يؤمرون بتحويل فنونهم الى ما يشبع شذوذها ونهمهـــا فان رفضوا أو ترددوا قتلوا بالمثـــات .. وكانت مزارع

الفلاحين مباحة للنهب بأمرها .. وتحولت الامبراطورية الشامخة الى سوق واسع للرقيق الابيض يحكمه النخاسون ، وتحول كل ما هو مقدس ، الى مخدع .. !

وفى بلاد الفرس ظهرت مذاهب أخرى غريبة، وتجردت الاساطير الدينية من روحها القديمة ، وفقدت النار والظلمة معانيها الرمزية يوما بعد يوم منذ اصبح الكهان هم ملاك الارض والتجارة .. فقد استهواهم المتاع الحسى ، حتى لقد ظهرت عبادة جسد المراة .. واصبح جسد المراة الها يتقرب منه الكهان ، ويستنفدون طاقتهم البدنية تفانيا فى عبادته .. وامتلأت الاناشيد المقدسة بالالفاظ الفاضحة التى تتغزل فى بدن المرأة العارية وتصفه بكل تفاصيله بلا حياء .. واصبح من حسن حظ الفتاة قبل أن تزف الى زوجها ان يقع عليها اختيار كبار الكهنة ، لتقيم عندهم اسبوعا كاملا ، يتعبدونها بالتبادل وليجتلبوا لها البركات .. وهم عراة مخمورون ..



وحتى القيم الروحية القديمة فى المسيحية واليهودية ، لم تعد على حالها بعد .. فقد تحولت الى عبادة لصور القديسين والشهداء .. وتحولت سلطة الرب الى القساوسة والكهان .. هم وحدهم الذين يفتحون ابواب الجنة وأبواب النار .. وهكذا تحول الاعتراف الذى يكفر به الخاطئون والخاطئات عن الذنوب الى طريقة لابتزاز المال تحت ضغط التهديد باذاعة سر الاعتراف .. كان هذا التلويح بالفضيحة هو أسلوب رجال الدين لابتزاز المال أو لاجتناء المتاع ..

الفساد يشيع فى العالم كله لافى مكة وحدها .. ومحمد ابن عبد الله ، يعلم هذا من رحلاته وأسفاره العديدة .. ومما

روى له أصدقاؤه الذين يرحلون .. ولقد تعود عندما يأتى شهر رمضان من كل عام أن يعتزل الناس الى خارج مكة.. وكان محمد يترك زوجته الحانية خديجة أياما طوالا من هذا الشهر .. ويظل يتأمل كما تعود الباحثون عن الحقيقة من قبله ، بعيدا عن صخب مكة ولهوها واصطكاك المصالح الفاسدة فيها .. ولقد يبيت فى حراء بعض ليالى شـــهر رمضان

واذا كان يغيب عن خديجة أكثر مما تتحمل زوجـــة محبة فقد تعودت أن ترسل اليه من يبلغه شوق أهله .. فيعود .. وكانت فى بعض الاحايين تخرج معه ، ويضرب لها خباء على مقربة من مكان نسكه بدلا من أن تكبده مشقة العودة الى بيتها فى مكة ..

ولقد أصبح محمد الآن فى الاربعين وهى الســـن التى تعترف فيها قريش لفتيانها بأنهم لم يعودوا صغارا ، فمن حق الواحد منهم أن يكون عضوا فى حكومة قريش .. اذا كان على حال من الغنى تسمح له بهذا الشرف .. ولــكن ظروف الحياة فى قريش لم تتح لمحمد أن يكون عضوا فى هذه الحكومة أبدا .. فقد كان فى قريش عشرة بطون يمثل كل بطن منهم فى حكومة مكة رجل واحد .. وكان رهط محمد هم بنو هاشم وقد مثلهم فى الندوة من قبل جده عبد المطلب ، ويمثلهم اليوم عمه العباس بن عبد المطلب وهو من أيسر تجار قريش .. على أن محمدا كان يملك فى هذه الحكومة أعز أصدقائه عليه ، وهو أبو بكر بن ابى قحافة ، وكان مختصا بالقضاء فى الدية والغرامات .. وهو أيضـــا تاجر غنى ..

وكان محمد يعجبه من رجال الحكومة عمر بن الخطاب، وكان اليه امر السفارة .. فهو الذى ينطق باسم قريش فى

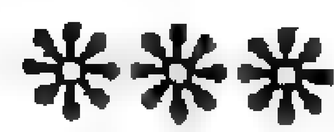
علاقاتها الخارجية مع المدن والقبائل الاخرى .. وكان محمد يقيم اذ ذاك مع خديجة وولده منها ، ميسور الحال، ولكنه دائما قلق مضنى تغشاه بعد تأملاته الطويلة احلام كثيرة .. كان ما زال يبحث عن حل كامل حاسم للفوضى التى يعيش فيها العالم كله .. لا مكة وحدها ..

لكنه لم يكن مأخوذا بهذه التأملات ولا الاحلام ، فهو يحيا حياة الناس اذا انقضى شهر نسكه .. ينهض كل صباح ليحلب عنزته بيده ، ويرفض أن يدع أحدا من خدم خديجة يساعده .. كان يؤثر ان يحيا كالبسطاء ، كما كان قبل أن يصيب الغنى من تجارته لخديجة . وهو ينزل الى السوق بنفسه ليشترى ما عسى أن يحتاجوا اليه من طعام ..

وكان فى طريقه الى السوق يمر بصبيان يلعبون فى الطريق فيبتسم لهم ويتحدث اليهم على عكس ما تعود الكبار فى مثل سنه . وكان أحيانا يصطحب معه ابن عمه على بن أبى طالب . وكان محمد قد اخذ عليا يربيه بين ولده تخفيفا عن عمه أبى طالب ، وعرفانا للجميل .. فقد تحدث الى عمه العباس ذات يوم : « ان أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من الازمة فانطلق بنا اليه فلنخفف عنه من عياله ، آخذ من بنيه وتأخذ أنت .. » وانطلقا حتى اتيا أبا طالب فحدثاه فى الامر .. وعاد محمد بعلى ، وعاد العباس بجعفر ..

وأقام معه على منذ ذلك اليوم ، وهو الآن فى الثامنة، يخلص أحيانا الى الغلمان فى مثل سنه ليلعب فى طرقات مكة فيحدثهم عن ابن عمه محمد الذى يبتسم لهم من دون الرجال ، وعن زوجته الطاهرة . ان محمدا هذا يكره العبيد والجوارى . وفى بيته الفيت كلمتا « العبد

والجارية » وأحل مكانهما « فتاى ، او فتاتى » .. وهو يصبر على الخدم ، فما يقول لاحد منهم «أف» مهمـــا يخطىء .. وعلى الرغم من أن زوجته الطاهرة تحنو عليهم وتهش لهم ، فما زال بها يوصيها الليل والنهار أن تطعمهم مما يطعم أهل البيت ، وتكسوهم من نفس لباس أهـــل البيت ، والا تشق على هؤلاء الخدم بعمل ، وأن تساعدهم ، وألا تكلفهم مالا طاقة لهم به ..



وكان هذا الذى يحكيه على عن ابن عمه محمد يملأ قلوب الغلمان بالحيرة .. فهم يعرفون ما يمتلىء به بدنه من قوة وما فى قلبه من الشجاعة .. وهو مع ذلك يملك كل هذه الرقة مع الخدم وكل هذا اللطف معهم هم الصغار ! .. انهم يعرفون شجعانا آخرين من قريش ، ولكنهم يمرون بالغلمان فيمسك الغلمان عن الحديث خوفا منهم : عمر بن الخطاب ، حمزة بن عبد المطلب ، عمرو بن هشام ، ولكن أبا القاسم هذا هو اكثرهم شجاعة واعظمهم فتوة وهو مع ذلك أكثرهم رقة ..

والصغار والكبار ، ما زالوا يذكرون اقدامه الجسور على فحل من الابل كان قد جمح وتوحش واصبح كالكواسر الضارية ، حتى لقد فر الشجعان من امامه .. على أن محمدا اقتحم عليه وجذبه بكل قوته فاخضعه وكبـــح جماحه ..

لم تكن قريش قد تعودت من قبل مثل هذا الاقدام فى مواجهة الخطر من أجل الآخرين .. لم تكن قد عرفت بعد شجاعا ـ قبل محمد بن عبد الله ـ يواجه بمثل هـــذا الهدوء والاستبسال ، قوى صماء شرسة تخلع القلوب من الرعب ! ..

وهكذا كان الصغار والكبار يحبونه ويعجبون به ، الكبار والصغار ، والرجال والنساء .. أن سيرته بينهم تعكس أفكاره وتأملاته .. لم يصنع شيئا أنكره .. لم يصخب مرة فى سوق ، لانه كان ينكر الصخب .. لم يكن يسمح لنفسه بأن يبيت شبعان وله جار جائع .. لم يبتدر انسانا باساءة ، وهو يكره الكذب والزيف ، فلا يسكت على أكذوبة ، ولا يزيف ابدا ليكسب .. يفضل الا يبيع على أن يكسب بالتلاعب .. يقول الحق ولو آذاه .. الوعد عنده مقدس .. ولانه لم يكن يرتكب ما ينفر منه ، ولان خطواته فى الحياة كانت تعكس تأملاته عن الخلاص وعن عالم افضل ، فقد احبه حتى الذين غرقوا فى الدنس الى الاذقان .. أحبه التجار والمرابون واحترموه على الرغم من أن أمانته وعدله ورقته كانت تشكل احتجاجا صارخا على أساليبهم ..!

ولم يحفل أحد بخروجه كلما جاء رمضان ليتعبد فى حراء .. لقد كان بعض الفتيان والشيوخ يصنع هذا أيضا .. يرفض الخمر ، وينبذ دور اللهو ، ويكتفى بالزواج ، ولا يعبث بالكيل أو الميزان ، ويتجنب الطواف بالكعبة عاريا وسط رجال ونساء عراة ، حتى اذا جاء شهر رمضان خرج هذا الفتى او ذاك الشيخ ليعتزل صخب الحياة على جبل حراء ، غير بعيد من مكة ..

ولكنه عاد من حراء ذات ليلة من رمضان ، شاحبا ، يرتعد .. وكان قد أطال الغياب فى حراء حتى قلقت عليه خديجة فأرسلت اليه تتعجل عودته .. كانت فى خبائها تنتظره ، وحسبته عاد الى مكة فبعثت من يبحث عنه هنالك .. واذ وافى خديجة ، راعها شحوبه والعرق الذى يتصبب منه والرعدة التى أخذته .. كان عائدا من حراء ..

لم يبرحه الى مكة .. ولكنه كان نائما فى الغار وخلال نومه حدث شيء هائل .. غريب ..

وخشيت عليه من طول التأمل فى غار حراء ..

وقال لها : « يا خديجة ، لقد خشيت أن أكون كاهنا ، أو يكون بى جن .. »

فقالت له : « كلا يا أبا القاسم .. لا تقل مثل ذلك فان الله لا يفعل ذلك بك أبدا .. انك تصدق الحديث ولاتجزى السيئة بالسيئة ، وتؤدى الامانة ، وتصل الرحم ، وان خلقك لكريم ، ولست بصخاب فى الاسواق »

انه لا يعرف بعد !! .. انه لم يسىء الى أحد قط ، ولم يؤذ أحدا فى ماله ولا فى نفسه ، وانه ليطعم المسكين وابن السبيل .. وما امتهن جسده مع خليلة ، وما أباح عقله للسكر .. وكم من رجال غيره اعتزلوا فى حراء فلم يحدث لهم هذا الذى حدث له ..

لقد كان يشعر فى السنوات الاخيرة كلما خرج الى حراء، أن ما حوله من صخر وسماء ورمال وصمت كأنما يغيب فى لغز رهيب .. ولقد حدث صاحبه ابا بكر بهذا فماافاده.. وحدث زوجته خديجة فما انتفع بما قالته . ولكنه فى هذا العام قد هجر تجارته ، ولم يعد شيء أحب اليه من أن يخلو وحده . وظل يحلم وهو نائم .. يحلم بأشياء رهيبة حقا .. كأن أصنام الكعبة تسقط ودولة الطغيان تتقوض بكل دعارتها وترفها المستبد من أقصى بلاد الروم والفرس .. وكأن الناس قد تحولوا الى بشر آخرين ، لا يرفع أحدهم السيف فى وجه اخيه ، ولا تمتد يد بالعدوان على أحد .. كلمة الحق ترتفع كالراية تظلل جموعا لا حصر لها من رجال شرفاء ونساء فاضلات ، وأطفال سعداء يحلمون بالمستقبل .. لم يعد الانسان مهدرا ممزقا .. لقد تغير

هذا الجيل الذى يشرع ضروسه واسنانه لاكل المساكين والفقـــــراء .. تغير تماما .. وتخلت الذلة عن وجوه المساكين والضعفاء !

لقد طالما حلم وهو نائم انه يعيش فى عالم أفضل .. يبتدر فيه الرجل أخاه بالاساءة ، فيعفو من أسىء اليه ، واذا بالرجلين يتعانقان .. تخفى المرأة زينتها فلا تبيحهـا الا لزوجها صاحب الحق فيها .. يعين الانسان أخاه المحتاج ويرفض ان يتقاضى ربحا عن قرضه .. عالم آخر تماما ملأ احلامه أثناء النوم ، عالم انطلق فيه العبيد بشرا آخرين ينشدون للحياة ، ويتولون مناصب - كالســـادة - فى حكومة مكة وبلاد الروم والفرس .. فهم ليسوا عبيـدا بعد ، وانما هم بشر أفضلهم بين الناس هو أحســـنهم سيرة ..

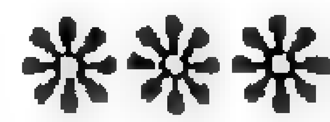
ولكنه فى تلك الليلة من رمضان ، أغفى قليلا ، فنام .. فراى من يعرض عليه كتابا ويطلب منه أن يقرأ .. فقال له « ما أنا بقارىء » .. ولكنه ألح عليه ان يقرأ ، فســـأله «ماذا أقرأ » فقال له : « اقرأ باسم ربك الذى خلق .. خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى عـــلم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » .. وعندما استيقظ من نومه كان يحفظ ما سمعه فى النوم .. ولهو يستوضح حلمه فيما بينه وبين نفسه اذا به وهو بين اليقظة والنوم كأنه يسمع صوتا من بعيـــــد يقول له : « يامحمد .. انت رسول الله وأنا جبريل »

ما كل هذا .. ؟ ! انه ليخشى أن يكون كاهنا او يكون به مس من جن .. من يصدقه .. ماذا يريد جبريـــل هذا ؟ .. وهو رسول الله الى من . ؟ وماذا يحمل الى الناس ؟ ان جبريل هذا لم يحدثه عن شىء مما يفكر فيه

.. لم يحدثه عن المعذبين ولا عن العالم المضطرب الذى ينشد خلاصه ..!

ولكن خديجة الزوجة البارة الحانية التى لم يختلف ودها أبدا ، ظلت تدخل الطمأنينة الى قلبه وتؤكد له ان الاذى لايمكن ان يصيبه لانه لم يصنع أذى لاحد .. وكان قريبها ورقة بن نوفل قد حدثها كثيرا عن المسيحية التى آمن بها .. وعن الرب وملكوت الرب .. ورسالة عيسى وموسى من قبل ..

وخرج محمد وترك خديجة حائرة لا تعرف كيف تبدد هموم زوجها ... انها لتصدقه . ولقد سعى اليها الغلام الصغير على ، وسمع ما كان يقوله ابن عمه فصدقه هو الاخر .. وسمع زيد بن حارثة بما كان من امر محمد متبنيه .. فصدقه . الثلاثة يصدقون الرجل ولكنهم لا يفهمون الامر .. انهم ليثقون به ويؤمنون بكل ما يمكن ان يقول ، فلقد عرفوه دائما امينا صادقا حكيما صائب النظر رقيق القلب ..



واقبل ابو بكر بن أبى قحافة يسأل عن صديقه محمد ابن عبد الله واستقبلته خديجة وروت له ما كان من أمر صديقه .. ونقلت له مخاوفه ان تكون قد اصابته حمى الكهانة او مسة الجن .. ونصحت له أن يذهب الى ورقة بن نوفل ، فقد يكون فيما لديه من العلم تفسير لهذا الذى وقع لمحمد فى نومه ..

وانطلق ابو بكر الى ورقة يروى له ماحدث لمحمد ؟! أهو مبشر جديد اذن مثل زيد بن عمرو ؟ .. ولكن زيدا ابن عمرو لم ير فى الحلم شيئا كهذا ، ولم يقل له احد انه رسول الله ..

واخذ محمد يطوف بالكعبة على عادته كلما عاد من حراء فتقدم اليه ورقة بن نوفل فقال له : لقد جاءك الناموس الاكبر الذى جاء موسى .. ثم قبل رأسه واستطرد : « وانك لنبى هذه الامة » . وحذره انه سيكذب ويعذب ويؤذى وينفى من دياره ويقاتل ..

هكذا تماما كما حدث للمبشرين الاوائل !.. وماذا بعد ؟.. أجل ماذا بعد ؟.. لقد صدقته خديجة زوجته، وابن عمه على ، ومولاه زيد بن حارثة ، وصديقه ابو بكر ..وبشره الرجل الصالح ورقة بن نوفل .. سيعذب ويؤذى ويقاتل ..

ولكن ماذا بعد ؟.. على أى شىء صدقه هؤلاء جميعا وبم يبشره وينذره ورقة ؟ لقد قال زيد بن عمرو للناس أشياء كثيرة ، وخالد بن سنان قال أيضا اشياء كثيرة، وغيرهم .. وغيرهم .. وكلهم طرد ، وعذب ، وأوذى . ثم قوتل وقتل . أما هو فأية أشياء يقول ؟ .. ان نفس الاشياء التى قالها الاخرون لا تجدى ابدا لان هذا العالم المهنار المتشابك الفساد يجب ان يهدم ليبنى من جديد ..

كان هذا هو اقتناعه .!وبعد شهور وشهور من التأمل والضنى خرج محمد ليعلن ان هذا الفضاء الفاشم الذى فرضته الالهة والكهنة والاصنام فى اقطار الارض انما هو اكذوبة ومصيدة للضعفاء والفقراء والذين لا يملكون من الامر شيئا .. فكل نفس بما كسبت رهينة ..

وهكذا انطلق ، وقد أدرك دوره حقا لاول مرة ، منذ تلك الليلة فى رمضان

طريق الخلاص

أعدت الحياة له مكانا .. وانتظرته . هيات الظروف الاجتماعية محله ، فكان من الضرورى ان يقبل ليمـلأ مكانه المرتقب ، مسلحا بفهم كامل لطبيعة دوره ، وبنظرية كاملة عن الحياة والموت ، وبادراك كامل لحاجات البشر المعذبين : حاجتهم الى أسلوب فى العلاقات أكثر عـدلا وانسانية ، وحاجة وجدانهم الى قيم روحية جديدة ..

وهكذا أقبل أبو القاسم محمد بن عبد الله من أغوار تأملاته .. من قاع مجتمعه ، طيبا متواضعا كالمساكين .. وهو يملك مع ذلك من الصرامة والشجاعة والقدرة المبدعة ، ما يفرض هيبته على الذين يضربون فى الارض بصلفهم ويتشامخون بمالهم ونفرهم . ولو انهم على أية حال لن يخرقوا الارض ولن يبلغوا الجبال طولا

كانت قوة التجار والمرابين والاغنياء قد الصـــقتهم بأصنام الكعبة ، وكان التصاقهم بهذه الاصنام يمنحهم مزيدا من القوة والغنى .. فهى تحمى الاخرين واليها يحج العرب كافة ثلاثة اشهر من كل عام : يقدمون الهدايا والقلائد والاموال الى الاصنام ، أى الى الذين يحكمون باسم الاصنام ..

وخلال هذه الاشهر يستثمر هؤلاء الاغنياء اموالهم فى البيع والشراء والربا .. فيربحون ويربحون . وهــذه الاصنام بعـد هى التى تمنح الملاك كل سـلطانهم على الاجراء والمعدمين والعبيد وأبناء السبيل ...

وواجه محمد هذا كله بأن الاصنام ضلال، وانها لن تغني شيئا ، وأنها لاتملك للانسان نفعا ولا ضرا .. وأن الامر كله لااله واحد . لا يحتاج الى وسطاء .. اله واحد احد، خالد ابدا ، لم يلد ولم يولد .. وليس شيء كفئا له ولا أحد !. وهذا الاله اكبر من ان يحده مكان كالكعبة ، ولا حتى مكة نفسها فهو في كل مكان ..

ليست له صورة وهو الذى خلق كل شيء ، وهو وحده الجدير بأن يعبد . يستوى عنده العبيد والاشراف ، الفقراء والاغنياء ، الرجال والنساء .. وهو الذى يحيى ويميت ، وسيبعث الناس فى يوم معلوم بعد الموت ليحاسبهم على ما صنعوا فى الحياة الدنيا ، وما الحياة الدنيا الا لهو ومتاع وغرور .. وهى الى زوال .. وهذا الاله الواحد لا يرضى بالزنا ، ولا الربا ، ولا القتل ..

وهو يلعن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها على الفقراء ، وسيحمى على هذه الكنوز – فى النار – عندما يبعث الناس بعد الموت ، فيكوى بها جباه الذين كنزوها وجنوبهم وظهورهم ، وسيحرق أجساد الذين يعبثون بحقوق الاخرين . فاذا كالوا لهم أو وزنوهم يخسرون

اما المساكين الذين يمتهنون اليوم فلهم شأن آخر بعد الموت ، فقد أعدت لهم جنات فيها حدائق وأعناب وكواعب أتراب اذا هم هجروا الفاحشة ، ولم يسرقوا ولم يكذبوا ولم يقتلوا واذا هم ادوا الامانات الى أهلها ولم يكرهوا فتياتهم على البغاء وفاء لديون المرابين ، واذا هم نبذوا الأصنام وتحرروا من سلطانها على قلوبهم وعبدوا الاله الواحد الأحد الذى ليست له صورة ، ولا يحده مكان أو زمان .. والذى بعث محمدا رسولا الى كل الناس

بشيرا بجنة خالدة ونذيرا بنار خالدة

. انه اله آخر غير ماعرفوا ، فاله محمد لا يريد وساطة ولا مالا ولا قلائد ، ولا سبيل اليه بحسب أو بغنى .. فما الانسان عنده غير سيرته الصالحة .. غير صدقه وشجاعته وحسن معاملته وغير فضائله .. ذلك أنه غنى عن العالمين وانه ليس للانسان الا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى

بهذا التصور الجديد للحياة والموت ، وبهذه القيم الروحية الجديدةواجه محمد ضلالات قومه..واهتزت الحياة المتموجة فى مكة .. من يصدقه الان ؟ .. لقد صدقته زوجته عندما روى لها عما حدث فى تلك الليلة من رمضان ، وهو على جبل حراء .. ولكن أتراها تؤمن بما يقوله اليوم ؟.. كانت تتفانى فى حبه ، وتستعذب كل عناء لتمنحه لحظات من الراحة ، ولتعمر قلبه بالثقة. ولقد صدقه ابن عمه على بن أبى طالب فى نبأ حراء أيضا، وصدقه ابنه بالتبنى زيد بن حارثة ، وصدقه أبو بكر صديقه الذى شاركه تأملاته وقلقه ، والاغتراب ..

كلهم صدقه عندما جاءهم فى تلك الليلة من رمضان منذ ثلاثة اعوام يروى لهم نبأ حراء ، ولكنه اليوم يواجههم بشىء جديد .. ويطالبهم أن يؤمنوا به ، وأن يحفظوا الكلام الذى يدفعه اليهم ، وأن يناضلوا اذا اقتضى الامر لكى يكون ما يجىء به هو القانون الذى يسود

لكم يبدو هذا كله شاقا ورهيبا ؟.. لئن كانت أصنام الكعبة ضلالا حقا ، فسينصرف العرب عن زيارة الكعبة خلال الاشهر الثلاثة الحرم ، وسيحرم الاغنياء مصدرا كبيرا للغنى .. وسيفقدون بسقوط الاصنام كل هيبتهم وسلطانهم . سيبذلون كل ما يملكون ليكذبوه ويهدبوه

وليتفوه هو من الارض ، قبل ان ينفى عنهم مبرر بقائهم سادة أغنياء ..

أو لم يتوقع ورقة بن نوفل هذا كله ؟ سيكذبونه .. أجل ، وسيعذبونه ويطردونه الى التيه كما حدث لخالد ابن سنان ، وزيد بن عمرو ! لن يرحموه ..

ولكن الذى يقوله محمد شيء جديد لم يقله خالد ولا زيد .. وهو مستعد لان يناضل حتى الموت فى سبيل دعوته .. انه يعد الضعفاء الذين يرفضون الظلم جنة عرضها السموات والارض .. وينذر الظالمين بالنار .. وهو يهيىء للعبد مكانا الى جوار السيد وللمرأة مكانا الى جوار الرجل ..

مهما تكن المشقة ، فمحمد الامين لا يكذب ، والفضائل التى يدعو اليها هى وحدها الجديرة بأن تحكم علاقات البشر . وعلى الزوجة التى اخلصت له وملأت حياته بالامن أن تثق دائماً به . وهكذا آمنت خديجة بكل مايدعو اليه .. وقلبها يتجه الى الله الذى يدعو له محمد ، أن يضن به على الاذى ، وأن ينصره ويحميه من الذين يملكون المال والسلطان

آمن على بن أبى طالب بما يدعو اليه محمد ، وتمنى بكل فتوته الجديدة لو أنه استل سيفا فى وجه قوى الخفاء نفسها ليفرض على كل القلوب تعاليم ابن عمه .. ومضى يلوح بيديه فى الفضاء . وآمن زيد بن حارثة ..

وخرج محمد الى الكعبة يحدث الناس عن الهه .. فى رفق ، كمن يتحسس طريقه بينهم .. وكان فى الكعبة بعض فتيان ورجال يكبرون محمدا ، ويعرفون فيه الصدق والشجاعة ويحترمون استعلاءه عما يأخذون فيه

وكانوا يعرفون أيضا صداقته لابى بكر وحرص الصديقين معا على أن يعاملا الناس بالحق والصدق والعدل

وعجبوا لما يدعو اليه محمد .. ما هو هـــذا الاله الواحد الذى يتحدث عنه ؟ أيكون ايثاره للخلوة قد اثر عليه ؟. انه لعاقل وحكيم ، فما من حقه أن يدعو الى غير ما يعبده قومه .. أين حكمته ؟. انسى مصير خالد بن سنان ، وزيد بن عمرو ؟ . وأشفق عليه نفر منهم فقاموا ينصحونه ولكنهم رأوا اصراره ، فآثروا ان يرسلوا الى أبى بكر أحب اصدقائه اليه وأكرمهم عنده .. فأبو بكر ابن أبى قحافة تاجر غنى يكسب من الاشهر الثلاثة التى يحج فيها الناس الى آلهة الكعبة . وسيبور جـــزء من تجارته لا ريب ، ان شاعت دعوة صديقه محمد بن عبد الله فشك العرب فى آلهة الكعبة ، واتجهوا الى هذا الاله الواحد الذى لا يحده مكان .. وأبو بكر بعد هو واحد من عشرة رجال يحكمون مكة .. وله فى قلب محمد منزلة خاصة ، فلعله يستطيع ان يرجعه عما أخذ فيه

وانطلق العقلاء منهم جزعين الى أبى بكر فقالوا له : « يا أبا بكر ان صاحبك .. » فقاطعهم فى قلق : « ومـــا شأنه ؟ » قالوا « هو ذاك فى المسجد يدعو الى عبادة اله واحد .. ويزعم أنه نبى » .. ففكر ابو بكر قليلا قبل أن يســـألهم : « أقال ذاك ؟ » .. قالوا : « نعم » .. وانصرفوا مشفقين ..

اندفع ابوبكر بجسده النحيل ، ووجهه المعــــــروق الابيض ، وعينيه الغائرتين .. لم يكلم احدا ولم يلتفت الى احد على طول الطريق الى الكعبة حتى أتى محمدا .. فقال له : « يا أبا القاسم ما الذى بلغنى عنك ؟ » قال : « وما بلغك عنى يا أبا بكر ؟ »

ـ بلغنى أنك تدعـــو الى توحيـــد الله وزعمت انك رسول الله ..

ـ نعم يا أبا بكر ان ربى جعلنى بشيرا ونذيرا وجعلنى دعوة ابراهيم وأرسلنى الى الناس جميعا

وأبو بكر اذ ذاك هو اكثر رجال قريش علما بتـاريخ العرب ، وأعمقهم ثقافة . يعرف الانساب والســـير والديانات التى عاشت فى الجزيرة ومن حولها على مدى القرون . ولم يتردد ابو بكر .. وقال :

ـ والله ما جربت عليك كذبا ، وانك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك ، وصـلتك ارحمك وحسن فعـالك .. مد يدك فانى مبايعك ..

وعاد محمد الى خديجة ، فرحا ، يذكر لها ماكان من أمر أبى بكر .. العزيز الصديق .. ومضى أبو بكر يفكر فى دعوة محمد ، وفيما يمكن ان يقاومها به زملاؤه فى حكومة مكة ، من التجار الاغنياء ..

على ان دعوة محمد شاعت بين الاجراء المستضعفين والعبيد يوما بعد يوم .. أخذوا يعتنقونها ، ويستعدون لجعل تعاليم محمد هى دستور العلاقات فى مكة .. انها تمنح العبد حق الحرية وتلزم السيد بأن يذعن للعبـد الذى يريد ان يتحرر أن يتركه يعمل بأجر ليشـــترى حريته .. وهى تجعل الفقير حقا معلوما فى مال الغنى . وهى تضمن للمراة حياة أخرى .. الانثى كالذكر ... خلقهما نفس الله .. ليست الانثى اذن كما كانت تزعـم التقاليد ثمرة الخطيئة فى الارض ، وممثلتها ، ووحيهـا وأداتها ..

وهذه التعاليم تنهى الاباء والازواج عن اكراه فتياتهم على البغاء .. وهى تكفل للمراة حياة متكافئة مع زوج

يسكن اليها وينفق عليها ويعاشرها بالمعـروف ويسرحها باحسان ويدفع لها مهرا عند الزواج ، ونفقة بعد الطلاق

وهذه التعاليم ترفض كل انواع العلاقات الاخرى التى تعترف بها شريعة مكة .. ليس للمراة ان تتخذ أخدانا، وليس لأحد ان يهبها لغيره ويستوهبه بدلا منهـا ــ كالسـلعة ــ وليس لزوجها ان يكرهها على ان تعاشر هذا الرجل أو ذاك من أغنياء قريش ، ليكون لها ولد من صلب رجل غنى عريق ..

فتعاليم محمد تطالب الرجال بأن يصونوا أعراضهم وتطالب النساء بأن يصن أعراضهن ، والزوجة هى عرض زوجها وشرفه .. والرجل هو عرض زوجته وشرفها.. وعلى الرجال والنساء ان يحفظوا أجسـادهم مطهرة لبعضهم وألا يسمحوا بتخليط الانساب ، وأن يقيموا علاقاتهم فيما بينهم على أساس بناء اسرة وانجاب أطفال وتكافل فى الحياة ، لاكما هى الان .. كأنها دولة الحيوان

ما من امراة سمعت هذه التعاليم وآمنت بها الا حملت زوجها على أن يؤمن معها ..

وهكذا انتشرت التعاليم الجديدة بين النسـاء والعبيد والاجراء

وسادة قريش ينظرون الى محمد مستخفين ، فمـا اتبعه الا الاراذل .. وها هو ذا عمرو بن العاص يلاحق التعاليم الجديدة بسخرياته منذ رأى أحد العبيد يتلو ما جاء به محمد ، ومنذ رأى امراة عرف مخدعها كثيرا ، تنكس الراية التى كانت على بيتها ، وتطرد الرجال جميعا، وتتلو ما تعلمته عن محمد وتعلن أنها لن تصنع علاقة أخرى برجل ــ أى رجل ــ الا ان كان زواجا فى حدود تعاليم محمد ، برجل يؤمن بهذه التعاليم ..

ولم يرق هذا لأبى بكر .. من الحق ان هؤلاء قد وجدوا خلاصهم فى تعاليم محمد ، ولكن مكة مع ذلك حافلة بغير العبيد والبغايا والمستضعفين والاجراء ، وما يجب ان يكون كل أعوان محمد من الذين تجوز عليهم سخرية سادة مكة . ومن سادتها رجال يأنسون الى أبى بكر ويأتونه ويألفونه .. انه لأعلم قريش بقريش ، وبما فيها من خير وشر

وصمم ابو بكر على ان يعزز تعاليم محمد ببعض الصحاب الذين يثقون به .. ليس كل أغنياء مكة غارقا فى الخطايا ، فمنهم من يرفض الربا مثله ، وينكر مثله اسلوب الحياة فى مكة .. والقلب الطيب يتجه الى الخير ويرفض الاذى ويضيق بالام الاخرين مهما يكن ضغط المصالح المالية ، فليست المصلحة دائما هى التى تحرك الرجال .. على أية حال !. واتجه الى أعز أصدقائه عليه ، عثمان بن عفان ، وهو أشرف قريش ومن كبار أغنيائها .. وحدثه عن محمد وتعاليم محمد ، وسمع عثمان طويلا .. اليس هو محمد الامين ؟.. اليس هو والد رقية ؟.. لقد وقع منها فى قلب عثمان شيء ، ولكن اباها زوجها لابن عمه الفنى !

وخفق قلب عثمان .. ولكنه أخذ يتفتح للتعاليم الجديدة ، فلقد طالما ضاق باستكبار أصدقائه الاغنياء وتعنتهم مع الفقراء والمساكين . ولطالما اشمأز من نسق الحياة الآثمة فى قريش . وآمن عثمان بن عفان .. بعد أن أقنعه أبو بكر ..

وما زال أبو بكر بأصدقائه حتى آمن الزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبد الله .. وكلهم تاجر غنى يسلك أسلوب الطاهرة فى

التجارة ، ويأنف من الربا والظلم ، وما عرفوا كسراة قومهم مباذل الليل فى مكة . فى الحق .. انهم من كبار الاغنياء والسادة فى قريش ، فالزبير بن العوام الذى لا تخطىء العين طوله الملحوظ يملك ملايين الدراهم ، وعبد الرحمن ابن عوف تاجر واسع الغنى ، يملك الاف الدنانير ومئات الابل ، وحدائق شاسعة فى الطائف . وسعد بن أبى وقاص، شريف فى قومه وهو أحد فرسان مكة ، وهو ليس أكثر تجار قريش مالا ولكنه من أعزهم نفرا . وطلحة بن عبد الملك تاجر له أموال مستثمرة خارج مكة .. وقد امتد نفوذه المالى حتى العراق .. وله مكانة وحساب . كلهم له المال والقوة والنفر ، والقلب الناصع ، فلن يسخر احد منهم ، وما من حق أحد بعد أن يسخر بتعاليم محمد ..

فليس الاراذل والعبيد والبغايا والمستضعفون هم الذين اعتنقوا هذه التعاليم وحدهم .. ولكن هناك أيضا تجار كبار طيبون ، وسادات فى قومهم ، ومثقفون كبار . مثقفون لم تعرف قريش مثلهم ، كلهم آمنوا بمحمد : هم ونساؤهم بنات الاسر الكبيرة العريقة فى قريش

وفى هدوء الليل الذى لم يكن يعمره من قبل غير صرخات الضائعين فى العراء ، وضحكات الرجال والنساء المختلطة برنين الكئوس خلف أبواب القصور .. فى هدوء الليل الذى كان يقبل دائما على مكة بمتاع جديد للسادة، وشقاء جديد للمساكين ، فى هدوء الليل بدأت ترتفع همهمات خاشعة تتلو الكلمات التى جاء بها محمد ... كلمات تحمل على أجنحتها الخلاص للقلوب المضناه المثقلة بالمأساة ..

ورأى محمد ان يجمع أسرته من بنى عبد المطلب ، وأن يدعوهم الى الايمان بما جاء به .. فليس أحب اليه من

عشيرته الاقربين . وأولم لهم فى بيته . وسأله عمه الزبير عن الخمر التى سيشربونها ، وكان الزبير رجلا شديد الولع بالشراب والمرح ، فقدم لهم محمد اقداحا ، وصفق الزبير طربا .. ولكن الاقداح كانت ملأى باللبن .

وشربه الزبير ، وبدأ يسمع لابن أخيه وبدأوا كلهم يسمعون لمحمد وهو يحدثهم عما جاء به .. ولكن أحدا لم يستجب اليه .. الا على بن ابى طالب .. هو وحده الذى انتفض يؤكد انه سينصر محمدا بسيفه ..

وضحك من الاستخفاف بعض الكبار ، فقد كان على هذا أصغر الحاضرين .. كان اذ ذاك ما يزال فتى صغير السن تتقدم به سنه الى أول الشباب ، ولكن محمدا لم يستخف بحماسة على ، فقد قام اليه ، فعانقه وبكى . وعجب محمد لاهله .. لم يرفضون كلامه ؟ وكلهم يعرف فضائله وأمانته وأنه لا يدعو الا الى الخير .. لكم تمنى لو أنهم آمنوا بتعاليمه كما صنع على ، فقاموا دونه مما يتوقعه من اذى حكام قريش ..

ولكنه لم يهن على أية حال .. سيعاود المحاولة مرة اخرى . فليدع بنى هاشم كلهم هذه المرة .. سيدعوهم بنسائهم وعبيدهم وجواريهم . سيدعوهم جميعا .. انه يعرف أن عمه العباس يملك منصبا فى حكومة مكة ، وهو منصب يمنحه النفوذ الواسع . وما كان له أن يمتلك كل هذا الجاه لو لم تؤمن العرب بأصنام الكعبة . وهو يعرف أيضا أن عمه أبا لهب انما يكون ثروته الواسعة من الربا .. وهو كالعباس يملك حدائق فى الطائف يزرعها له العبيد ، وفى مزارع الطائف ترعى قطعان الخنازير ، ومن كرومهما ونخيلهما هناك يستقطر أفخر الخمور ! ..

وأبو لهب يضاعف ثروته خلال الاشهر الثلاثة الحرم التي يحج فيها العرب الى اصنام مكة .. وام جميل زوجة عمه أبي لهب هي أخت أبي سفيان ، أحد أعضاء حكومة مكة وكبار مرابيها .. وهي أيضا تستثمر مالها في الربا ، ولكن ابنهما عتبة تزوج ابنته رقية ، وقد يفتح الله قلوبهم جميعا لتعاليمه ..

وهو يعلم أيضا ان عمه الزبير لا تعنيه أصنام ولا آلهة، فلا اهتمام له في الحياة بغير اللهو والطرب والخمر والنساء .. ومع ذلك فمن يدري ؟!...

وعمه حمزة فتى شجاع ، وقد رضع معه في الصغر ، والله ليؤثره بحبه .. ولكنه مشغول بالقنص ، والفروسية، وهو حريص على أن ينتزع لنفسه لقب سيد فرسان قريش ، وما في قلبه مكان بعد لشيء غير هذا .. عسى أن يتفتح لتعاليم محمد قلب حمزه هو الاخر .. وحمزة فارس يرهبه الجميع ..

وأبو طالب رجل كريم طيب .. والله ليؤثر العافية وحسن العلاقة مع قومه ولكن عسى ان يقتنع .. نعم من يدري ؟!... ربما اقتنعوا بالتعاليم ، مهما تكن الظروف التي تغلق قلوبهم دون هذه التعاليم . مهما يكن من شيء ، فلابد من المحاولة ..

وعلى جبل الصفا خارج مكة وقف محمد ومن حوله بنو هاشم جميعا .. وبعض الرجال والنساء الذين آمنوا بتعاليمه .. كان بنو هاشم يتساءلون ماذا يريد محمد ؟ لاى أمر جمعهم ؟ .. وقال لهم بأعلى صوته من فوق قمة الصفا : « ان الله أمرني : أن أنذر عشيرتي الاقربين ،واني لا املك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الاخرة نصيبا الا ان تقولوا لا اله الا الله » .. وانفجر أبو لهب وهو يلوح بيديه

فى وجه محمد بحنق وفظاظة : « تبا لك سائر يومك . . .
ألهذا جمعتنا ؟ » . .

تبا له . .؟ تبا لمحمد . .! ووجم الجميع فى انتظـــار ما يقول محمد • واضطرم الغضب فى اعماق على،وأوشك أن يرد على عمه أبى لهب ردا منكرا ولكنه كظم غيظـــه وانتظر الجميع رد محمد . أيسكت محمد على أبى لهب واهانته وتلويحه بيديه ؟ ماذا يمكن ان يحدث بعد ، لـــو نهض رجال كأبى لهب يهدرون كل قيمة حتى حرمةالقرابة والدم ويلوحون لرجال أمناء فى وجوههم ويشـــتمونهم علانية ؟!

ايخاف محمد ؟ ان أبالهب ذوسطوة فى قريش ، وامراته هى أخت أبى سفيان أكثر رجـــال قريش مالا وجاها وسلطانا . . أيسكت محمد على هذه الاهانة اشفاقا من أبى لهب وزوجته . .؟ أم عسى أن يجاملها لان ابنهمـــا زوج لابنته رقية

ولكن لا !! . . لا مهادنة بعد !

ماذا تقول يا أبا لهب ؟ . . اسمع اذن ، لن يسكت محمد بعد على من يرفضه ، لن يقبل من أحد حتى من عمه هذا الازراء عليه وعلى ما جاء به من تعـــاليم • سيخوض غمرات الصراع مع كل المستكبرين . . فاسمع يا أبا لهب . . اسمع اذن ، سمعت الرعد . . تبا لك أنت !! تبا لك سائر يومك ، وسائر حياتك !! تبت يدا أبى لهب •• وتب !

عصر العذاب

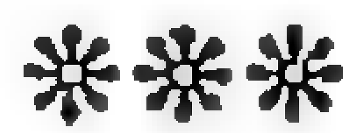
جاء الزمن الذى يوتق الانسان فيه ، ويلقى به الى الجوع والحقد والألم والنسيان .. ! مرة أخرى يقبل عهد الشهداء والمستبسلين ، فاذا الذين يحملون فى رؤوسهم الافكار ، ويحلمون بالاخاء والعدالة والمستقبل ، ويثرون وجدانهم بالثقة فى انتصار الخير .. اذا بهؤلاء الذين يمنحهم الايمان كل قوتهم ، ويطالبون بأن يواجهوا الغيظ ، والمهانة والتشفى ، والضرب حتى الموت ، والزراية ، وكل ماهو متوحش ومفترس وقمىء !

فالملأ من مكة ينتفضون الآن بكل ذعرهم ، وانحلالهم ، وذهبهم وسطوتهم ، ليقاوموا مد طوفان يزحف بطاقة المد ليجتاح كل شيء عند هذا الملأ : منابع الثروة ، ومراتع الملذات ، والمناصب التى تمنحهم الجاه والغنى والنفوذ وتملأ قلوبهم بالكبرياء .. انهم ليصنعون كل شيء ، وأى شيء ، ليوقفوا هذا الطوفان البشرى المتموج .. ولا يتعظون ابدا بمصير الجبابرة الاولين !

كانوا أقوى منهم وأعز نفرا ، وكانت لهم خزائن الارض ، ولقد طغوا فى البلاد .. ولكنهم سقطوا فجأة . هووا من عليائهم أمام زحف المستضعفين الذين التفوا تحت راية الكلمة المضيئة المبشرة ليمسكوا بأزمة المصير ، وموازين الحساب .. فمابال هذا الملأ من مكة لايتعظون ؟ .. مالهم لاتنفعهم الذكرى ؟ . مالهؤلاء القوم لايفقهون حديثا ؟ ..

ان كل اهوال التعذيب لاتقوى على ان تطفىء النور الذى اشتعل فى القلب ، ولاتستطيع أن تنتزع الافكار من تلافيف الدماغ .. وسياتى الوقت الذى يطيح فيه المستضعفون بهذا الملأ من أوج صلفهم . ولكن الملأ لايفهمون طاقة الموج البشرى الذى يتدفق به مجرى الزمن .. انهم لايفهمون حركة التاريخ ، ولا يشعرون بعد باللعنة التى تنفجر من أعماق المعذبين

فليمض ابولهب فى الكيد لمحمد ولمن اتبعه .. فستطارده لعنة ضحاياه ، وسيصلى نارا ذات لهب ! . لقد ملأ هذا الوعيد قلوب أنصار محمد بالثقة فقد رأوا فيه تضحية جديدة بمستقبل ابنته رقية ، ورأوا فيه شاهدا جديدا على اقدام محمد ، فهو يؤذن بأنه لن يسكت على من يمتهن دعوته .. انه يملك ان يلعن الرافضين والعادين عليه ، مهما تكن قرابتهم اليه ، ومكانتهم فى ملأ قريش ..



وعجب الكبار لمحمد .. لقد رأوه صغيرا يتيما فى شوارع مكة .. يحمل الحجر ، ورأوه يافعا مسكينا يقضى نهاره تحت الشمس فى شعاب الجبل يرعى غنم السادة وينبش على لقمة العيش .. فماباله يحاول اليوم أن يسودهم ، وأن يجردهم من كل ما أصبحوا به سادة .. ؟

لقد بدأ الصراع اذن : الاغنياء يدافعون عن وجودهم ، والفقراء عن حقهم فى الحياة الكريمة وعن أحلامهم فى عالم افضل ..

وعاد محمد الى بيته ذات مساء وقلبه مثقل بما يعانيه الذين اتبعوه ، وفى أعماقه على الرغم من كل شىء تتقد

شعلة الاصرار التى يجب ألا تنطفىء أبدا ..

انه ليعرف أن عمه أبا لهب سيكسب الى صفه كل بنى هاشم .. فلئن خذله بنو هاشم وتخلوا عن نصرته ، لأصبح نهبا لأنياب الكواسر من سادة قريش .. ولكن أبابكر يكسب فى كل يوم نصيرا جديدا من هؤلاء السادة ، وهاهو ذا يجىء بعثمان بن مظعون ، وأبى عبيدة بن الجراح .. كل هذا رائع ، ولكن من ذا يجىء بحمزة بن عبد المطلب سيد فرسان قريش ؟ أيمكن أن يدفعه اخوه أبولهب الى ايذاء محمد .. ؟

وفجأة فتح الباب ، واقبلت رقية بنت محمد الى أمها خديجة ، باكية .. لقد طلقها عتبة بن أبى لهب ، واعتدى عليها أبولهب فضربها ، ومزقت امرأته ثيابها ، واقسموا جميعا ألا تبقى فى بيتهم مادام أبوها يسلك من قريش ومن أبى لهب هذا السلوك .. وأقسموا انهم سيمنعون الرجال عن الزواج بها

وواست خديجة ابنتها التى أصبحت الآن امرأة صغيرة طريدة .. ومسح أبوها دموعها ، وخرج الى صديقه أبى بكر ..

ولهو فى الطريق اذا به يعثر بالاشواك أمامه ، وغير بعيد تقف أم جميل امرأة أبى لهب ، متبرجة ، تطارده بنظراتها الشامتة . واذ جاوز محمد أشواك الطريق ، أمرت أم جميل احدى جواريها فقذفت عليه بعض الاوساخ ، ووقفت هى تضحك وتتثنى والى جوارها زوجها أبو لهب ، وهما يشيران الى محمد فى سخرية : هذا اليتيم الفقير ، الذى يريد أن يقتلع السادة من عليائهم .. !

وشكا محمد الى صديقه وصفيه أبى بكر مايصنعه آل أبى لهب به وماصنعوه بابنته .. فروى له أبوبكر، أن عثمان بن عفان ، كان قد دخلته الحسرة لأن عتبة بن

أبى لهب سبقه الى رقية ، وأن عثمان ليرنو اليها . وماهى الا أيام حتى تزوجها عثمان بن عفان .. التاجر الثرى ذو الخلق الطيب

ومازالت امرأة أبى لهب بمحمد تقذف فى طريقه الاشـــواك ، وتحرض العبيد والجوارى أن يقـــذفوه بالنفايات ، ومحمد يلقى أذاها بالصبر .. فهى امرأة ! .. ولكنها لم تفهم حقيقة صـــبره عليها ، فبالغت فى ايذائه حتى لقد تربصت له ببعض جواريها وهن يحملن أحجارا يلقينها عليه حين يمر .. تبا لها أيضا ، كمـــا تبت يدا أبى لهب .. « تبت يدا أبى‌لهب وتب ، وامرأته حمالة الحطب » !

وأقبلت على أبى بكر وهو فى المســـجد فتثنت أمامه قائلة : « ماشأن صاحبك ينشد فى الشعر » .. فقال لها أبوبكر : « والله ماصاحبى بشاعر » .. فقالت : « أليس قد قال فى جيدها حبل من‌مسد » . وتحسست جيدها وصـــدرها واســـتمرت تتثنى ــ فما يدريه ماجيدها ؟

وغض أبوبكر من بصره ولم يجبها .. فقد كانت على تبرجها تتأود وتتراقص وتتضـــاحك . وتولت وهى تقول : « قد علمت من قريش أنى ابنة سيدها »

وعادت‌تغرى العبيد والجوارى بمحمد ! .. الجوارى والعبيد الذين يطالب لهم محمد بحياة أكثر انسانية ، ويكابد فى سبيلهم ، ويلقى أذى أبى لهب وامرأته .. حمالة الحطب ! وشجع موقف أبى لهب من محمد سادة آخرين فى قريش ، كانوا يتهيبون غضب بنى هاشم ، لو أنهم تعرضوا له بالاذى .. غير أن أبا طالب شيخ بنى هاشم ، وقف الى جوار محمد وأعلن قومه أنه سيمنع

ابن أخيه منهم جميعا .. حتى من أخيه أبى لهب بن عبد المطلب !

ومضى الى محمد يسأله أن يرجع عما أخذ فيه ايثارا للعافية والسلامة ، فضاق صدر محمد بكلام عمه ، وخشى أن يكون عمه قد سمى اليه لأنه عجز عن حمايته فهو يريد أن يتخلى عنه ويسلمه .. فطلب اليه أن يتركه ورسالته فهو لن يتخلى عن دوره أو يموت دونه . واقسم له عمه أنه لن يسلمه لشىء أبدا .. فليقل اذن كما أحب ! ..

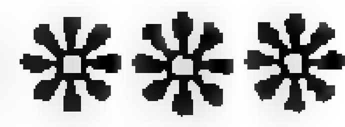
وحاول الملأ من قريش أن يغروا أبا طالب ليخلى بينهم وبين ابن أخيه ، فذهبوا اليه ومعهم عمارة بن الوليد ، وهو أعذب فتيان قريش فقالوا له : « هذا عمارة بن الوليد أقوى فتى فى قريش وأجملهم ، فخذه فلك عقله وبصره فاتخذه ولدا ، فهو لك ، وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله ، فانما هو رجل برجل »

وغضب أبو طالب ، وصاح فيهم: «لبئس ماتسومونني .. أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى لتقتلوه ؟ . هذا والله مالايكون أبدا . »

فقال قائل منهم : « يا أبا طالب .. لقد انصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا » . فرد عليه أبو طالب : « والله ما انصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على فأضع مابدا لك »

لا جدوى اذن من جدال أبى طالب ! .. انه بموقفه هذا يقسم بنى هاشم ، بعض يؤيده هو وابن أخيـــه محمد ، وبعض يؤيد أبا لهب .. فلينضم فقراء بنى

هاشم الى ابى طالب ، أما أغنياؤهم فسيتحركون وراء أبى لهب بلا ريب .. ومع ذلك فلابد من عمل حاسم سريع ، يقمد محمدا عن السعى لنشر دعوته الخطرة ، ويفرض هيبة حكومة قريش على الذين يفكرون فى اتباع محمد ..



واجتمع الملأ من مكة برياسة أبى سفيان .. فأصدروا قرارا بتحريم تعاليم محمد . وقررت حكومة قريش أن تقتل العبيد والموالى الذين يؤمنون بمحمد ، وأن تكسد تجارة أتباعه الاغنياء وتضع شرفهم وتهلك مالهم ..

وأخذ رجالها وفرسانها يمنعون الناس عن محمد .. ولكن التعاليم كانت تنتشر على الرغم من هذا القانون،وعلى الرغم من كل انذار وتهديد تصدره حكومة مكة التى هى أعلى من قريش !

وتحركت حكومة مكة وأصحاب المصلحة فيها لمقاومة الدعوة وللبطش بالذين آمنوا بمحمد .. وشرعوا يضربون الضعفاء ضربات تنخلع لها قلوب الشجعان .. فابتدأ حكومة مكة بتعذيب الذين اتبعوا محمدا من العبيد والاجراء .. فسيشفق الاتباع الاغنياء من تنفيذ حكومة مكة انذارها ، فتكسد تجارتهم ويسقط شأنهم .. وكان بلال بن رباح هو أعلى الموالى صوتا ..

كان عبدا لاميه بن خلف الجمحى ، وقد طالبه سيده أن يعلن نبذه لتعاليم محمد ، فأبى .. وأمر أمية أن يؤخذ بلال كلما حميت الشمس ، فيطرح عاريا على الرمضاء ، وتوضع الصخرة العظيمة عليه ، ويجلد ويضرب ..وكان يمر به وهو على حاله تلك فيقول له : « لا تزال هكذا يا عبد السوء حتى تموت وتكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى»

•• ولقد مر ورقة بن نوفل ببلال وهو يعذب ، فتذكر شهداء المسيحية الاول وأقسم لامية لو أن عبده بلالا هذا مات وهو يعذب من أجل ما يؤمن به .. ليجعلن له قبـــرا كقبور القديسين ! ••

واذ رأى سادة قريش ما يصنعه أمية فى عبده بـــلال انقضوا على عبيدهم الذين آمنوا بمحمد ، يطرحونهم عراة على الرمال الساخنة تحت وهج الشمس ، ويلبسونهم دروع الحديد ، ويكوونهم بالنار ، ويجلدونهم حتى يفقد الواحد منهم وعيه •• واشرف بعضهم على الموت فأذن لهم محمد أن يقولوا بألسنتهم ما ينقذهم من هذا العذاب ، وما دام سادتهم يتكاثرون عليهم •• وبعد غد سينتصر الحق، وسيعلمون من أضعف ناصرا واقل عددا ••

ولكن قليلا منهم ارتضى لنفسه هذا •• وحرص معظمهم على أن يبدو قويا صامدا وأن يحتمل من أجل ما يؤمن به، مالا يحتمله جسد انسان ••

ومضى أقاربهم يشكون الى محمد •• فقـــال لهم •• « صبرا » •• صبرا •• حتى الموت •• وهكذا ماتت سمية أم عمار ••

كانت امرأة جميلة وجدت خلاصها فى التعاليم الجديدة، ونبذت كل من فتن بها من الرجال واختارت زوجا يؤمن مثلها بمحمد •• وأخذت تدعو النساء ومن تعرفهم من الرجال الى تعاليم محمد • وكان أبو جهل من الذين فتنوا بها وعذبهم صدودها منذ آمنت •• وهو تاجر غنى من سادة قريش وأكثرهم سطوة ومنعة وقوة ، وحـــاول أن يثنيها عما أخذت فيه ، فنهرته •• وانطلقت تدعو مثيلاتها باندفاع لا يوقفه شىء ••

وجذبها السادة من عشاقها القـــدامى الى الطـــريق

فطرحوها على الارض وأمروا بها فضربت وضربت ·· حتى فقدت الوعى ، وصيروا عليها هى المرأة الـــرقيقة التى تعودت غزل الرجال ولينهم معها ·· وطلبوا منها أن تعلن كفرها بمحمد ، فما تعود بدنها الجميل مثل هذا الألم ·· ولكنها رفضتهم بقوة وهى فى أظفارهم ·· وحدثتهم عن فضل محمد عليهم جميعا وأعلنت أنها لن تهجر تعاليمه أبدا ·· واذ ذاك انقض عليها أبو جهل بكل حنقه وفحشه الهمجى وهو يقول : « ما آمنت بمحمد الا لانك عشقته لجماله » ·· ثم غرس حربته فى ملمس العفة منها وظل يطعنها بوحشية فى ذلك المكان ايغالا منه فى الزراية عليها حتى ماتت ·· أول شهيدة للتعاليم الجديدة ·· !

انه لاغراء للسادة جميعا ألا يبقوا على ظهر مكة أحدا ممن آمنوا بمحمد مهما يحمل له القلب من ود ·· فما كان أحد أحب الى أحد ، من سمية الى أبى جهل ·· ومع ذلك فقد قتلها بيديه ·· !

وخشى محمد أن يجن الملأ بدم الذين اتبعـــوه ، وأن يغريهم صبره الصامد بمزيد من الدماء ·· ربمـــا خشى الناس بعد هذا أن يؤمنوا به · وتشاور مع خديجة ومع صديقه أبى بكر ··

ما جدوى المال اذن ان لم يستطع أن يصنع شيئا لهؤلاء المعذبين ·· ان بلال بن رباح ليوشك أن يموت هو الاخر كما ماتت سمية ··

ومضى أبو بكر وعثمان بن عفان ، وسائر الاغنياء الذين آمنوا بالتعاليم الجديدة ليستخلصوا العبيد من أيـــدى السادة ·· ذهب أبو بكر الى أميـــــة بن خلف الجمحى فسأله أن يشفق على بلال ولكن أمية رد على أبى بكر : « أنت افسدته فانقذه مما ترى » · وعرض أبو بكر على

أمية أن يشترى بلال بن رباح بخمس أوقيات من الذهب ·· ودفعها أبو بكر ، فرفعت الحجارة عن بلال ، فقال أمية : « يا أبا بكر لو أبيت الا أوقية لبعناك » فرد عليه أبو بكر « لو أبيتم الا مائة أوقية لاخذته » ··

وهكذا اشتراه أبو بكر واعتقه واستخدمه عنده ·· ومضى يصنع نفس الشيء مع آخرين وأخريات ·· حتى بلغوا ستا ، كانت آخرهم جارية يعذبها عمر بن الخطاب ويظل يضربها حتى يتعب هو فيستريح ثم يعاود الضرب ·· وسخرت قريش من أبى بكر الذى يضيع ماله فى شراء جوار وعبيد ضعاف لن يمنعوا صاحبه ·· غير أن اقدام أبى بكر على هذا شجع صحبه الاغنياء الذين اقتنعوا بالدعوة الجديدة فقاموا بدورهم يحررون العبيد الـذين آمنوا ·· وشجع هذا كثيرا من العبيـــد والاجـــراء والمستضعفين ·· فلن يخلى بينهم وبين المتسلطين من قريش بعد ·· وسيتقدم احد اصحاب محمد للنجدة ، لو أنهم تعرضوا لاذى السادة !

***

وما زال أبو بكر بصحبه من مثقفى مكة وسادتها حتى اقتنع عثمان بن مظعون ، وهو من حكماء قريش وكبار اغنيائها ، واقتنع الارقم بن أبى الارقم ··

وبلغ عدد الذين اقتنعوا بتعاليم محمد نحو أربعين رجلا وامرأة ·· منهم العبيد والاجراء والصعاليك والبغـــايا والجوارى والضعيفات والذين طحنتهم الاوضاع الاجتماعية القائمة ·· والمثقفون وبعض التجار الاغنياء ··

ولم يعد بيت محمد صالحا للاجتماعات ·· فهـــو لا يتسع لكل هذا العدد ··

واقترح الارقم ان يجتمعوا عنده فى دار له على الصفا

تتسع لهم جميعا وهى بعد ليست على مرأى عيون حكومة قريش .. ولن يزعجهم فيها أحد ..

وفتحت دار الارقم أبوابها لهم .. يجتمعون عنده كل ليلة فيقرأ لهم محمد ما جاء به ويشرح لهم دعوته ..

وتزايد عددهم يوما بعد يوم .. وقد زايل الخوف الآن قلوب بعض التجار منذ أعلن محمد لاتباعه أن ما جاء به لن يغلق مكة أمام القوافل .. ولن يغير من مواسم الحج .. فسيظل الناس يأتون الى الحج من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم .. كل ما فى الامر أنهم لن يسجدوا لاصنام الكعبة ، ولن يباح لهم أن يعطوا الهدايا والقلائد لسادة قريش .. وأنه اذا جاء الحج ، فلا تبذل ولا حفلات خليعة ، ولا ربح من تجارة الاجساد ، ولا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج .. !

وهكذا اطمأنت نفوس بعض التجار الذين كانوا يقاومون التعاليم الجديدة خشية أن تغلق الكعبة أمام الحجاج .. انهم هم ليسوا تجار رقيق ، ولا مصلحة لهم فيما يقدمه الحجاج من هدايا وقلائد .. كل ما يعنيهم أن يظل موسم الحج موسما للبيع والشراء .. وشعرت حكومة مكة أنه لابد من اجراءات أخرى حاسمة ..

ان العبيد من أتباع محمد ليتخلى عنهم أصحابهم بيسر أمام اغراء المال الذى يدفعه أمثال أبى بكر .. وحكومة مكة لا تستطيع أن تدفع هى وتزايد لتستبقى العبيد الخارجين عليها — ثم تقتلهم لترهب الاخرين ! .. لقد عذبوا فما نفع التعذيب .. وقتلت سمية ، فما خافت النساء ..

لابد اذن من ضربة توجه الى محمد نفسه .. فليضربها رجل ذو سطوة وقبيل يخشاه أتباع محمد من بنى هاشم

ان أبا طالب قد طعن في السن فلن يحمل سلاحا ، وابنه علي لا يستطيع بعد .. وما في بني هاشم كلهم غير حمزة وهو لا يأبه لمحمد .. انه عمه .. هذا حق ، وأخوه من الرضاعة أيضا ، ولكنه لا يحفل بتعاليم محمد ، ولديه حياته ولهوه وقنصه ، وكل ما يشغله عن محمد ! ..
وتناجى رجال من قريش فرأوا أن أكفأهم لضرب محمد وأنهضهم لهذا انما هو أبو جهل ثم عمر بن الخطاب .. فكلاهما فارس قوى مكين يخشاه الاخرون

ولن يستطيع أحد من أصحاب محمد أن يتعرض لايهما .. لا أبو بكر ، ولا عثمان ، ولا سعد ، ولا أبو عبيدة ، ولا أحد على الاطلاق ..

ولئن ضرب محمد ولم يثأر له أحد ، لقد انتهى كل شيء اذن .. وستسقط هيبته ، ويسهل على سادة مكة بعد هذا أن يضربوا كل صحابه ..

فليغروا به السفهاء أولا : يلقونه في الطريق فيصيحون به : « كذاب .. مجنون .. ساحر » .. وهكذا تسقط هيبته ، فيهون على الناس ..

ومضى محمد في بعض طرقات مكة .. فما لقيه أحد الا صاح فيه : « كذاب .. مجنون .. ساحر » .. حتى بعض العبيد .. وبعض النساء اللواتي يدعو محمد الى انقاذهن ، وبعض الاجراء والصبيان والذين تطحنهم الاوضاع الاجتماعية التي يثور عليها محمد ! ..

وعاد محمد مثقلا من هذا كله ، يفكر ويروض نفسه على الصبر والسلوان .. واستلقى الى حجر تحت ظل ، وهو يجهد ليحبس دمعه .. فما يشق عليه شيء مثل أن يبادره بالاذى هؤلاء الذين يدعو لتحريرهم ويعاني من أجل خلاصهم ! ..

ولهو فى وحدته اذ بأبى جهل يقبل عليه فيشتمه ، والسفهاء يتضاحكون .. ونظر محمد طويلا الى أبى جهل وأدار بصره الى الذين يســـتهزئون به .. هؤلاء الذين يشقى من أجلهم ، ولم يقل شيئا ..

ورق قلب احدى الجوارى لمحمد ، وعز عليها أن يلقى هذا كله .. وكانت لم تؤمن به بعـــد ، وما زالت تدير تعاليمه فى رأسها . ورأت حمزة بن عبد المطلب ، مقبـلا بكل شموخه من رحلة صيد ، قوسه فى يده ، والنـاس يتهامسون باسمه منذ أقبل ، فى اكبار واعجاب .. لماذا يزهو بنفسه هكذا بينما ابن أخيه يمتهن ويشتم .. ؟ يشتمه سيد عشيرة اخرى تنافس بنى هاشم .. ؟ أهو حقا أعز فتى فى قريش وأقوى شكيمة .. فمـــا صبره اذن على مايلقاه بعض بنى هاشم من الاهانة .. ؟

أقبلت عليه الجارية تقـــول له : لو رأيت مالقى ابن اخيك محمد .. وروت له كل ماشاهدته .. وقالت له ان أبا جهل بعد أن أهان محمدا أتى الكعبة مزهوا يروى لاصدقائه .. فانطلق حمزة مغضبا ، لايكلم احدا ولا يسلم على احد ، حتى أقبل على أبى جهل وهو جالس بين القوم فى رحاب الكعبة ..

وانقض حمزة على أبى جهل قائلا : « أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد ذلك على ان استطعت » .. وضرب أبا جهل بقوسه حتى شجه شجة منكرة ..

وقام رجال الى حمزة لينصروا أبا جهل .. وأدرك أبو جهل ان حمزة لن يتركه .. سيقتله بلا ريب ، وحمزة قادر على أن يقهر هؤلاء الرجال جميعا .. ورأى أبو جهل أن يحتمل ضربة حمزة لكيلا يوجه اليه حمزة ضربة اخرى قاتلة .. وكظم أبو جهل غيظه ، وكتم الجرح وقال لمن

معه : « دعوه .. فاني قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا »
.. وابتعد الرجال ..

ومضى حمزة مزهوا الى محمد بعد أن قهر ابا جهل ، وقال له : انه يصدقه ، وسينصره .. وعانقه محمد ، ودمعت العيون ..

هو ذا اذن سيد فرسان قريش . من يجرؤ بعد اليوم على أن يتعرض لمحمد ؟ .. ان انضمام مائة اخرين لم يمنح اتباع محمد شعورا بالعزة والمنعة والقوة مثلما منحهم انضمام حمزة بن عبد المطلب ..

ولامت قريش ابا جهل ، فقد كان يجب أن يشتبك مع حمزة .. وسينصره من فرسانها الكثير .. مازال هناك عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد .. ووضعت قريش املها فى عمر بن الخطاب بعد ان تخاذل أبو جهل أمام حمزه ! .. عمر وحده هو الذى يستطيع ان يحقق امل قريش الآن بعد أن أعان حمزة أنه ينصر ابن اخيه . ولكن أيجرؤ عمر بن الخطاب على أن يتعرض لمحمد بعد .. ؟ ان الذى يمنعه الآن لهو حمزة بن عبد المطلب .. سيد فرسان قريش ! ..

وبشر الصابرين

لم يكن فى مكة كلها شىء يستطيع ان يثنى عمر بن الخطاب عن اندفاعه الرهيب المحنق .. لا الفتيات اللاتى تغامزن فرحات لطلعته وهو يمر أمام ابواب الخمارات ، ولا السامر الذى انعقد فى بعض الرحاب ، ولا دقات الدفوف التى تقرع وراء بيوت يعمرها المتاع .. لاشىء على الاطلاق ..

كان قد سمع ما كان من أمر حمزة بن عبد المطلب ، وأبى جهل بن هشام ، وعجب لبطش حمزة بأبى جهل واستخذاء ابى جهل أمام حمزة ، وادرك أن سادة قريش الذين تعودوا أن يرهبوا حمزة ، سيتضاعف خوفهم منه منذ اليوم ، مادام حمزة هذا قد قهر أحد فرسانهم الصناديد عنوة .. وسيشمخ أتباع محمد ويتعاظمون وينتصرون بحمزة .. وأقسم عمر أن يمضى الى بيته فيمتشق حسامه وعدة الحرب ، ويمضى الى دار الارقم على الصفا فيقتحمها ويذبح محمد بن عبد الله امام حمزة بن عبد المطلب .. فيريح مكة ويستريح .. واذن فقد جاء الزمن الذى يواجه فيه عمربن الخطاب صديقه حمزة بن عبد المطلب ..! لم صنعت هذا يا أبا القاسم وقد كنت حبيبا الينا ، عزيزا علينا ؟؟ .. لم خرجت علينا يا ابن عبد الله بتعاليمك التى تجعل صديقا يشهر سيفه فى وجه صديقه ؟ لقد فرقت

الجماعة ، وسفهت الاحـــلام ، وألقيت العداوة بين الأخ وأخيه ، وأفسدت علينا العبيد والمشيقات . . !

وأنت يا حمزة ما اغراك بصديقك أبى جهل بن هشام . . الم نرفع نحن الثلاثة ومعنا خالد بن الوليد ذكر قريش بين القبائل . . ؟ ألم تصبح مكة أعز أرض بنا نحن الاربعة . . ؟ قبائل العرب تحسد قريش على فرسانها ، وتعدل الواحد منا بجيش بأسره ، فلماذا يصبح من المحتم علينانحن الذين خضنا المكاره معا ، أن نرفع سلاحنا على رقاب بعضنا . . ؟ نحن جعلنا هذا البلد أمنا ، وملأناه بأشواقنا ومرحنـا ، واقمنا فيه منارة للعرب اجمعين . . كل هذا صـــنعناه بأيدينا ياحمزة ، فما فتنك عن صحبك ، ومنذ متى شغلت بتعاليم أبى القاسم . .

وأنت يا أبا القاسم ماذا تريد بعد . . ؟ لقد أدرت رءوس الفقراء والاجراء والعبيد والنساء ، وفرضت لهم عـــلى السادة حقوقا ، وها أنت ذا تفتن التجار منذ أعلنت أن تعاليمك لن تلغى الحج والطواف بالكعبة ، وانك انما تدعو الناس الى الحج ليعبدوا الهك لا الاصنام ، وليشـــهدوا منافع لهم ، فتقام الاسواق والندوات ، ولكن بلا فسوق فى الحج . . !! لقد سمعتك يوما تتلو تعاليمك فأخذنى من تلاوتك شىء . . ولكنى زجـــرت نفسى ، وانصرفت الى الخمارة . . أساحر انت . . منذ متى تعلمت السحر ؟ . .

وأتباعك من التجار الاغنياء ــ على ندرتهم ــ يبذلـون اموالهم من أجل ما تدعو اليه ، فى اندفاع عجيب . . وكأنهم يتنافسون : يحرر أبو بكر ستا من الجوارى والعبيد ، فيحرر عبد الرحمن بن عوف ثلاثين . . وآخرون واخرون . . وها أنت ذا تدعو صحابك الذين تخاف عليهم غضب قريش أن يهاجروا الى أرض الحبشة حيث يحـــكم ملك

تقول عنه انه عادل لا يظلم عنده أحد .. فيهاجر الضعفاء ثم يتبعهم عبد الله بن مسعود ، وعثمان بن عفان وزوجته والزبير بن العوام ، وجعفر بن أبي طالب وامرأته ، وعبد الرحمن بن عوف .. مامنهم احد يبالى بما سيحدث لتجارته الواسعة بعد هذه الهجرة ، أكسدت أم راجت ..!

بأى سحر يا أبا القاسم تسيطر على هذه القلوب ؟! لقد يصبح الواحد منا ذات يوم فيجد مكة خاوية ، وينفق النهار والليل بلا صديق .. لقد حرم السامر من أبى بكر ، منذ تبعك .. لم يعد بعد يروى لنا أخبار الذين غبروا .. وأخيرا فهاهو ذا حمزة يتبعك .. ما أفرغ ليالى لاتعمرها صحبة حمزة .. كم ذا ستهون قريش على أعدائها بعد أن انسلخ عنها حمزة .. الا يروق قلبك يا أبا القاسم لهؤلاء الذين هجروا مكة الى بلاد الحبشة ، وتركوا فيها التراب الذى أحبوه ، والاهل الذين ألفوهم .. ان لك فيهم لفلذة كبد .. رقية زوج عثمان بن عفان !؟ ..

لن يشفى قلوبنا من وجائع الفراق يا أبا القاسم ، ومن كل تلك الفتنة التى تجتاح مكة منذ جئت بتعاليمك ، الا أن أزيلك منها .. أقتلك فأريح مكة .. وأستريح ..

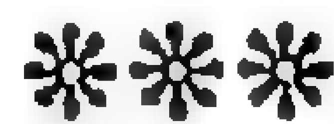
وعندما أوشك عمر أن يبلغ باب داره قابلته فى الطريق جارة له كدست متاعها امام بيتها ووقفت تنتظر ولدا لها ، لينطلقا معا الى ارض الحبشة مع فوج جديد من المهاجرين ، تاركين مكة تحت جنح الليل .. كانت امرأة طيبة قد ارتفع بها السن ، وكان عمر يعطف عليها ويودها ولكنها لقيت منه الاذى منذ اتبعت تعاليم محمد .. وخشيت المرأة أن يبطش بها ، فاختفت وراء متاعها خوفا من عمر ، تحبس أنفاسها وتتحسس دقات القلب .. وجاءها عمر فقال : « انه للانطلاق يا أم عبد الله »

لم يكن فى صوته نذير بالعدوان كما الفت منذ حين ،، فأجابته : « نعم والله آذيتمونا وقهرتمونا ، فلنخرجن فى أرض الله .. حتى يجعل الله لنا مخرجا » ..

ويسكت عمر لحظة .. هاهى ذى جارته أيضا تخرج من مكة . لقد طالما الفها .. ألف العطف عليها ، ثم الف البطش بها ، وسينتهى كل هذا فجأة ..

ودبت الرقة فى صوت عمر وهو يرى المرأة العجوز وراء متاعها تترك كل شيء لتعيش فى بلاد غريبة ، نازحة عن كل حياتها فى مكة .. وقال لها بصوت يخالجه اللين : « صحبكم الله » .. وعجبت المرأة لرقته فحكت لولدها وهما يلقيان آخر نظرة على مكة ..

قالت له : « لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا » .. فقال لها وهو يستقبل الطريق الطويل الى المجهول : « أطمعت فى اسلامه .. فلا يسلم الذى رايت حتى يسلم حمار الخطاب »



اما عمر بن الخطاب فقد خرج من داره بعد قليل متوشحا سيفه الى بيت الأرقم عند الصفا ، حيث يلقى محمدا فيقتله أمام اتباعه ، وأمام عينى حمزة بن عبد المطلب .. فليبارز حمزة بعد هذا ، فليقتل هو حمزة ، أو فليقتله حمزة .. فهذا شيء لا يجب ان يفكر فيه .. المهم هو أن يقتل ابا القاسم محمد بن عبد الله ! ..

كان مابرح يفكر فيما صنعه محمد ، والالم المبهم يزحف الى قلبه ، وصورة جارته العجوز التى رحلت تختلط بصور الذين هجروا مكة ، وتزحف على حلقه بشعور غامض حزين .. كالغصة التى تسد الحلق فجأة . ولقيه أحد أصدقائه .. فسأله أين يمضى متوشحا سيفه .. فأجابه عمر : « اريد محمدا ، هذا

الصابىء الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وسب الهتها فأقتله »

فقال له صاحبه وهو يحاوره : « والله لقد غرتك نفسك عن نفسك ياعمر .. أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الارض وقد قتلت محمدا .. أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم امرهم .. ؟ » فقال عمر مباغتا : « وأى أهل بيتى » قال صاحبه : « ابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب .. فقد تابعا محمدا ، فعليك بهما » ..

***

وهرول عمر الى بيت أخته وزوجها .. سيصنع مع ابن زيد بن عمرو ماصنعه أبوه الخطاب مع زيد بن عمرو .. والد سعيد بن زيد هذا . وأتى عمر دار أخته وزوجها سعيد .. فلم يقرع الباب .. وقف يسمع ترتيلا غريبا بصوت رجل غريب ، يتلو فترد عليه فاطمة وسعيد « طه .. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى »

وانتظر حتى انتهوا ثم دق الباب .. (فلما سمعوا حس عمر ، اختبأ الرجل الغريب فى بعض البيت ، واخذت فاطمة الصحيفة التى كان يقرأ منها فجعلتها تحت فخذها) وفتح سعيد الباب . فلما دخل عمر سألهما بغضب : « ما هذه الهيمنة التى سمعت ؟ » . فأجاباه : « ماسمعت شيئا » . فصرخ : « بلى ، لقد أخبرت انكما تابعتما محمدا .. »

وضرب سعيدا بمقبض سيفه فسال دمه ، فقامت فاطمة تكف أخاها عن زوجها فبطش بها عمر وشج رأسها .. وسال دم أخته على يديه ..

هاهو ذا دم أختك يسيل على يديك ياعمر .. دم

احب الناس اليك ، الفتاة التى كنت لها دائما اخا حانيا ، وابا رفيقا . وانتفضت أخته التى لم ترفع راسها فى وجهه من قبل وصرخت متحدية : « نعم .. فاصنع مابدا لك » ..

كان من الواضح انها مستعدة لكل شىء .. حتى الموت . وفتحت ذراعيها وتهيأت لطعنة من سيف عمر . وتخاذلت قوة عمر ، وغلبه حنانه .. ونظر طويلا الى الدم الذى يسيل من راس اخته ، وابن عمه ملقى على الارض .. فطلب منها عمر أن تطلعه على الصحيفة التى كانوا يقرأونها لينظر ماجاء به محمد .. ولكنها أبت عليه هذا ، فهو نجس ..

بأية قوة تتحدث هذه المرأة الضعيفة ، وبأى استبسال تتحداه .. ؟

وقام عمر فاغتسل واخذت عليه موثقا الا يمزق الصحيفة .. وبدأ عمر يقرأ الصحيفة ، وقرأ جزءا كبيرا منها ثم أعادها الى أخته قائلا : « ما أحسن هذا الكلام وما اكرمه » .. فلما سمع الرجل المختبىء ماقاله عمر عن القرآن اندفع من مخبئه قائلا : « ياعمر .. انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فانى سمعته أمس يقول اللهم أيد الاسلام بأحد العمرين : ابى جهل عمرو بن هشام ، أو عمرو بن الخطاب .. فالله الله ياعمر » ..

وخرج عمر من فوره الى دار الأرقم على الصفا .. فقرع الباب بلهفة وعنف ، وقام رجل ينظر من الطارق من خلل الباب المغلق ، قبل ان يفتح ، ولكنه ارتد فزعا يقول : « هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف » .. فقال حمزة بن عبد المطلب لابن أخيه محمد : « ائذن له

.. فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه » ..

وتحسس حمزة مقبض سيفه وتهيأ لقتال عمر .. صديقه . ولكن محمدا أسر فى نفسه أن يقهر هو بنفسه عمر بن الخطاب هذا فلا يستعلى بعد اليوم بقوته .. لقد قهر حمزة اباجهل ، وسيقهر محمد عمرا . ومادخل عمر حتى نهض محمد للقائه .. فاخذ بخناقه ، وجذبه جذبة شديدة تطوح لها عمر .. وقال له : ماجاء بك يا ابن الخطاب ، فوالله ، ما أراك تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة .. »

رد عمر بصوت خافت : « يا رسول الله » .. وبهت الجميع .. بينما عمر يكمل : «جئتك لاومن بالله وبرسوله» .. وانطلق من فم محمد دعاء طرب متهلل : « الله أكبر » وتبعه حمزة يكبر ايضا .. وظل محمد يمسح على صدر عمر ويدعو له بالثبات ، فى فرح هائل حقا ..

وارتجفت دار الارقم بالهتاف ، وهزت النشـــــوة أوصال الجميع .. حمزة وعمر ـ أشجع فارســـين فى قريش ـ ينضمان اليهم فى يوم واحد .. سينتصفون بهما معا ويمتنعون بهما معا ..

وتركهم عمر بعد قليل ، وانصرف .. وفى الطريق الى داره ، مر على دار أبى جهل عمر بن هشام فقرع البـــاب فخرج اليه ابو جهل .. وقال له : « مرحبا واهلا يا ابن اختى ، ما جاء بك ؟ » فأجابه عمر : « جئت لاخبرك انى قد صدقت بما جاء به محمد » فضرب ابو جهل الباب فى وجهه صارخا : « قبحك الله وقبح ما جئت به » .. وما ترك عمر احدا يستطيع أن يخبره الا اخبره .. وفى اليوم التـــالى خرج محمد يمشى فى طرقات مكة عن يمينه حمزة ، وعن يساره عمر .. والناس يتاملونهم فى ذهول ..

وانسلخ عمر بن الخطاب وحده ، وذهب الى الكعبة فأعلن في الناس انه قد امن بمحمد .. فثاروا عليه ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه .. حتى غابت الشمس ..

***

أقبل حمزة وعمر على تعاليم محمد بكل ما يملكان من طاقة ، وحمية أيضا .. وقال بعض الذين ارادوا أن يزروا على حمزة وعمر ، انهما قد تخليا عن شجاعتهما وتبعا تعاليم تقضي على الانسان ان يستسلم لقوى الخفاء ، وان يتخلى عن متاع الحياة ليسلك طريق المساكين .. وما زال حمزة وعمر يقرآن ويسألان محمدا حتى اطمأن منهما القلب الى أن التعاليم الجديدة تطلب من الانسان الا يستسلم في مصيره لآلة الكعبة ، وان عليه أن يسلم وجهه لإله واحد ، وهو بعد هذا يسعى في حياته مسئولا عن كل ما يعمله ، حرا يختار الطريق الذي يرضيه ، يصنع قدره بيده .. وله ما كسب .. انه ليس الاستسلام اذن .. ولكنه الاسلام ..

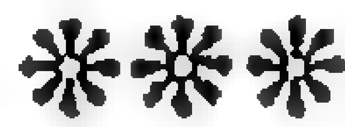
وليس من الحق أن هذا الاسلام يطالب الرجل أن يرمي سيفه ، بل ليحضه أن يحشد كل همته دفاعا عن العدل وكرامة انسانيته وحقه في الحياة .. على الانسان أن ينصف المظلوم ويعطي المحتاج ويبر الاقربين ، وليتمتع بالطيبات بعد هذا : ليتخذ زينته ، وليطعم ، ويتزوج النساء ، غير عاد ولا باغ ..

وهذا الاسلام لا يحرم التجارة التي تقوم عليها حياة مكة وتنمو عن طريقها الثروات ، انه ليحل البيع والشراء ، منفعة بمنفعة ، ولكنه يحرم الربا الذي يقوم على استغلال الحاجة لكسب مال لم يجهد صاحبه ليكسبه ، بل انتزعه منه بغير الحق ..

وهو يضع الى جوار الربح ، قيما أخرى .. هي الحب

والاخاء والتعاون والاتحاد .. فليست الحياة أموالاتكدس، وكنوز المودة اثمن من كنوز الذهب والفضة . وهـــذا الاسلام يدعو الى العدل فى الميزان ، والى تمجيد العمل.. فالانسان يعلو بعمله لا بماله الذى لا يعرف أحـد كيف اكتسبه .. العمل الصالح هو قيمة الرجـــل او المرأة ، لا رصيده فى مصارف مكة ، ولا رصيدها من العشاق ، ولا صلاته بأصحاب السلطان .. فالسلطان لا يتنزل على فئة بالذات لان الاصنام راضية عنها ، وانما يلى الامر من يختاره الجمهور !

وهذا الاسلام يدعو الناس الى نبذ الشقاق فيما بينهم، الى آن يتحدوا فيصبحوا اخــوانا بــدلا من ان يتفرقوا فتفشل ريحهم ..



والملأ من قريش حائرون .. لقد خرج منهم ابو بكر منذ حين ، وها هو ذا عمر يخرج عليهم آخر الامر وينضم الى حمزة متبعين اسلام محمد .. وما من رجل أسلم الاونزل عن بعض ماله ليشترى العبيد والجوارى الذين أسلموا.. ثم يعتقهم ليتحولوا الى احرار يتطاولون على الســـادة ويصدقون انهم افضل من ملأ قريش الذين لم يتبعـــوا محمدا ، وأن مكانتهم لا يحددها الا عملهم .. وحده !

ولقد هاجر منهم الى الحبشة نفر كثير .. كانوا ثمانية وبلغوا الآن نحو الثمانين من الرجال والنساء ، كلهم لقى من ملك الحبشة حسن الضيافة . ولقد أرسلت اليه قريش تحذره – وله مصالح مشتركة مع قريش – ولكنـــه لم يأبه .. وعاد المبعوثون يحملون معهم عار فضيحة غريبة جعلت المسلمين يهزأون بهم جميعا .. فقد أرسلت قريش فيمن ارسلت الى النجاشى عمرو بن العاص وابن الوليد ، الفتى القرشى الجميل الشجاع الذى حاولت ان تعطيه لابى

طالب فى مقابل ابن أخيه محمد .. وصحب عمرو بن العاص فى رحلته زوجة دخل عليها منذ قليل ، وهى امرأة جميلة فاتنة للألباب لعوب ، لم يكن عمرو يطيق أن يبتعد عنها.. وفى الطريق الى النجاشى ، رأت المرأة ابن الوليد وتحدثت اليه .. فشغفها حبا ، وذات ليلة هجرت زوجها عمرو بن العاص ، وارتمت فى فراش ابن الوليد ..

ولم تعد الى عمرو الا بشرط أن تتردد بينه وبين ابن الوليد .. وسبقت أنباء هذ الفضيحة الى النجاشى والى المهاجرين ، فلم تنفع حيلة لعمرو بن العاص .. ورد النجاشى الرسل الى قريش خائبين ، وظل على كرمه مع المهاجرين اليه .. أما المسلمون فى قريش فقد تلقوا عمرو ابن العاص بالسخرية ، وعلموه ان الاسلام وحده هوالذى كان يمكن ان يعصم امرأته ويعصمه من مثل هذا الهوان ! .. لقد بدأ المسلمون الآن يظهرون فى الاسواق ويقرأون ما جاء به محمد فى العلن ، ويحاجون خصومهم مستنصرين بعددهم المتزايد ، وبحمزة وعمر بن الخطاب ..

وأجمعت قريش أن تفاوض محمدا .. فليضموه الى الملأ ، أو فليجعلوه رئيسا لحكومة مكة عساه أن يسكت ، فلا يفسد عليهم ما بقى من الامر .. لا حل الا المفاوضة . وأرسلوا اليه . وأقبل محمد فرحا .. فلعل ما أقنع حمزة ثم عمر يكون قد اقنعهم هم أيضا .. كانوا كلهم مجتمعين .. من بينهم أبو جهل بن هشام ، وابو سفيان بن حرب ، وابو لهب ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف .. قال له واحد منهم : « قد بلغنا انما يعلمك رجل من اليمامة اسمه مسيلمة ويقال له الرحمن ولن تؤمن قريش لرجل من اليمامة أبدا » ..

وغام وجه محمد من الضيق .. الهذا دعوه فجاءهم ..؟ غير ان احد عقلائهم لحظ ضيقه ، وخشي فشل المفاوضة ، فبادره متلطفا : « يا أبا القاسم لقد عز علينا ما أنت فيه من عنت ، فما نعلم رجلا من العرب ادخل على قومه مثلما ادخلت أنت على قومك ، لقد شتمت الآباء وعبت الدين والآلهة وسفهت الاحلام وخرقت الجماعة فمـا بقى امر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك ، فان كنت قد جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحـن نسودك علينا ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا » ..

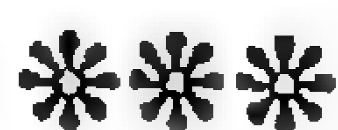
فاطرق محمد قليلا .. الهذا اجتمع اشراف قومه ..؟ لقد جئتهم فرحا يا أبا القاسم وفى قلبك احلام .. كم ذا تحلم يا ابن عبد الله .. ؟ ورد عليهم « ما بى ما تقولون .. ماجئت بما جئتكم به أطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى اليكم رسولا .. فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وان تردوه على اصبر لامر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم »

ما زال ابو القاسم يحدثهم عن الهه ، وعن الاخرة وعن امر هذا الاله وحكمه .. وبعد ، وبعد يا أبا القاسم .. ؟ وساله احدهم ان يكف عن آلهتهم ، وسيكفون هم عن سب الهه ..

لكم هذا يا معشر قريش .. لن تسب آلهتكم بعد .. ولتكفوا أنتم أيضا ..

وشجع هذا رجلا منهم فقال لمحمد : فلنشترك نحن وانت فى الامر ، فان كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنا قد اخذنا بحظنا منه ، وان كان ما تعبد خيرا مما نعبد كنت قد أخذت بحظك منه » .. فلتعبـــد آلهتنا وتمتثل لها ، وسنعبد الهك ، ونمتثل له ..

ولكن لا .. لا اعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد .. لكم دينكم ولي دين ! .. لا حيلة اذن .. ! فلتدبر قريش أمرها قبل أن يستفحل خطر هذا الاسلام الذى جاء به محمد .. فقد بدأت القبائل من خارج مكة تسمع عنه .. وستسقط أصنام الكعبة بكل ما تجره من ثمرات وأرباح .. وعدد المسلمين يتزايد .. والارقاء يرفعون الرءوس معتمدين على أصحاب محمد الاغنياء ، ولم يعد منهم أحد يلقى العذاب حتى يخف اليه احد أصحاب محمد فيشتريه ويعتقه ..



لقد بلغ عدد الذين اعتقوا عدة مئات .. ومن الممكن أن يبلغوا عدة آلاف ويوضع فى يدهم السلاح ، فتعلن الثورة المسلحة ! .. ومنذ أسلم حمزة وعمر لم يعد فى فرسان قريش من تخشاه قريش غير خالد بن الوليد وأبو جهل عمرو بن هشام ..

لابد اذن من أسلوب جديد يقهر محمدا وأتباعه .. لم ينفعهم أبو طالب فى شىء ، وما زال يصر على أن ينصر ابن أخيه .. والمسلمون منذ انضم اليهم حمزة وعمر يمشون بلا وجل ، ويتلون ما جاء به محمد جهرة .. ولكن بنى هاشم هم المسئولون .. فلو أنهم زجروا محمدا لما تمادى .. واذن فليتفق كل أشراف مكة على ان يقاطعوا بنى هاشم .. فلتكسد كل تجارتهم وليموتوا من الجوع حتى يخلعوا محمدا ابن عبد الله !

واجتمع الملأ من قريش واتفق معهم أبو لهب فكتبوا بينهم صحيفة الا يزوجوا أحدا من بنى هاشم والا يتزوجوا منهم ، ولا يبيعوهم او يبتاعوا منهم شيئا .. وعلقوا الصحيفة على الكعبة .. واستثارت هذه الصحيفة بنى هاشم جميعا .. فانضموا الى أبى طالب وحمزة ، منتصرين

لمحمد .. حتى الذين لم يؤمنوا بتعاليمه . كان قرار حكومة قريش بحصار بنى هاشم اســـتفزازا لنخـــوة كل بنى هاشم ..

وبدات حكومة قريش تنفذ هذا القرار بالحصار مستعينة بجندها .. وكان رجال الحكومة أنفسهم يباشرون تنفيذ القرار ، حتى لقد لقى أبو جهل غلاما يحمل قمحا وطعاما يريد به عمته خديجة زوجة محمد .. فضربه ابو جهـل ومنع القمح والطعام واقسم الا يسمح بدخول طعـــام الى بيت محمد .. فتعرض له رجل بالطـــريق قائلا : « أفتمنعه أن ياتى عمته بطعامها ؟ » وصمم الرجل على ان يطلق ابو جهل سراح الغلام وتشبث أبو جهل فاقتتلا ،حتى أوشك احدهما ان يقتل الآخر ..

حصار من الجوع أيضا حول بيتك يا محمـــد ، وبيت عشيرتك الاقربين فما يصل اليكم الطعام الا على جثـــة احد من الضحايا .. ؟ فلتنطلق كلمتك على الرغم من كل شيء .. لتجلجل فى طرقات مكة وشعابها كما لم تجلجل من قبل ، فعلى وهج الكلمة المضيئة ، تذوب قضبان الحديد .. وانطلق الآن فالعن أعداءك كما لم تلعنهم من قبل ، وبشر الصابرين ..

الى بلاد الأعناب

انفجرت الاحقاد العصبية ضد بنى هاشم .. فأقسمت العشائر التى كظمت غيظها من بنى هاشم طويلا الا تدعهم، حتى يهلكوا من الجوع ، ويشتكوا من الوحدة والذل .. لا طعام لبنى هاشم ، ولا بيع ولا شراء ..

والعشائر تسترد بناتها من بيوت الازواج الهاشميين ، وتطرد النساء الهاشميات من مخادع الازواج ، وتنتزع الاولاد من احضان الامهات .. وهكذا ردت الى محمد بنته أم كلثوم منبوذة من بيت زوجها قتيبة بن أبى لهب ، كما طردت أخت لها من قبل من نفس هذا البيت ..

وشعر محمد بأنه يجر على بنى هاشم كثيرا من البلاء ، وليسوا كلهم بالقادرين على ان يحتملوا ، وما منهم الا قليل قد أتبعه ، فهو يستعذب الالم فى سبيل ما يؤمن به .. وأشار عليهم شيخهم أبو طالب أن يخرجوا الى شعاب مكة ، ليتجنبوا احقاد القبائل الاخرى ..

ليلزموا بعض الحصون المهجورة على تلك الشعاب ، وليفتقدوا العيش يوما بعد يوم .. والجوع على أية حال خير لهم من ان تعيرهم القبائل غدا أو بعد غد بأنهم خلعوا واحدا منهم واسلموه الى سيوف الاعداء .. وكان أبو سفيان وأبو جهل يقودان حملة الحقد والحصار .. ويشددان النكير على من يحاول ان يتسرب الى بنى هاشم وهم فى وحدتهم النائية المضنية ، خلف جدران القطيعة ..

على أن الامر لم يدم طويلا ، فقد كشف تعنت أبى سفيان وأبى جهل وقبيلهما عن كثير من الامور ٠٠ ليست المسألة اذن هى مسألة خلع محمد ولا تسليمه ، ولكنها مسألة اذلال بنى هاشم واهلاكهم ، ليرث أبو سفيان وأبو جهل وقبيلهما تجارة بنى هاشم ومالهم ومناصبهم فى حكومة قريش ٠٠

تكشفت هذه البغضاء لقلوب كثير من الطيبين فى قريش ، ممن لم يحملوا لبنى هاشم من قبل شيئا من حسد أو ضغينة ٠٠ وان منهم لمن له قرابة ورحم لبنى هاشم : أخوال وأبناء خالات وعمات ٠٠

وكان هؤلاء قد وقعوا الصحيفة من قبل ، عندما خيل اليهم أن الامر لا يعدو الضغط على بنى هاشم ليتخلوا عن محمد ٠٠ ولكنهم منذ أدركوا أن القطيعة انما ايراد بها هلاك بنى هاشم وزوالهم جميعا عن مكة ٠٠ منذ أدركوا هذا اخذتهم الرقة على هؤلاء الاقارب ، ثم دفعهم الى التفكير فى نقض الصحيفة ، ما بان من طمع أعداء بنى هاشم فيما يملكه بنو هاشم ٠٠

ومضى هشام بن عمرو بن ربيعة ، يحمل الابل بالطعام ويدفعها الى بنى هاشم فى شعاب الجبل ، تحت ستار الليل ٠٠ ولم يكتف بهذا ، بل انه مشى الى زهير بن أبى امية وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له : « أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتتزوج النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا يتزوجون ولا يتزوج منهم ؟ أما أنهم لو كانوا أخوال أبى جهل الحكم ابن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ما أجابك اليه ابدا »

وشق على زهير ابن عاتكة بنت عبد المطلب ما يسمعه ،

وتفجر من قلبه الحزن على ما يلقاه أخوانه أبو طالب وحمزة والعباس ، وبقية الاخوال من بنى عبد المطلب ، وأبناء الاخوال ، وعشيرة أمه جميعا .. فقرر أن ينقض الصحيفة التى تعاهد فيها مع بقية الرجال على مقاطعة بنى هاشم . وما زال هشام بن عمرو بن ربيعة ، يحدث رجالا اخرين حتى ضم اليه المطعم بن عدى ، والبحترى بن هشـــام ، وزمعة بن الاسود .. وكلهم غنى واسع الغنى ، ذو مكانة فى قومه ..

وتواعدوا أن يذهبوا الى الكعبة من غدهم ليعلنوا نقض صحيفة المقاطعـــة التى وقعها سادة قريش وعلقوها على الكعبة .. وفى اليوم التالى ذهب الى الكعبة ، زهير بن أبى أمية « ابن عاتكة بنت عبد المطلب » يقول للمجتمعين حول الكعبة : « يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونشرب الشراب وبنو هاشم هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى أشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة » ..

وكان ابو طالب فى تلك اللحظة قد جاء من شعاب الجبل وجلس الى الكعبة منبوذا ، وأبو جهل يجلس فى أحد الاركان متخايلا بين الرجال .. فهب أبو جهل يرد على زهير بن ابى أمية : « كذبت .. لن تشق هذه الصحيفة » فقال زمعة بن الاسود لابى جهل : « أنت أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت »

وأيده البحترى : « ولا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به » . وأيدهما مطعم بن عدى : « صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، اننا لنبرأ من هذه الصحيفة ومما كتب فيها »

وأيدهم هشام بن عمرو .. وأبو طالب ، يجلس بعيدا ، صامتا فى وحدته ..

وانتفض أبو جهل يعلن أنها لمؤامرة على الصحيفة ،

ويحاول أن يدفع عنها .. ولكن الرجال الخمسة الذين كانوا قد اتفقوا على رفع الحصار عن بنى هاشم ، قاموا معا فمزقوا الصحيفة ..

اضطرم غضب أبى جهل وأبى سفيان ومن معهما .. ولكن موقف الرجال الخمسة شجع آخرين .. وأيقن أبو طالب وهو جالس يرقب ، أن المقاطعة لن تفيد بعد ، وأن الاسوار التى أقامتها قريش قد امتــلأت بالثغرات .. فسيجد بنو هاشم من يبيعهم ويبتاع لهم ومن يســترد الزوجات الطريدات ، ومن يرد اليهم نساءهم اللواتى انتزعن منهم .. وعاد أبو طالب الى شعاب الجبل يؤذن فى بنى هاشم أن يعودوا الى بيوتهم وحياتهم فى مكة . وحرص بنو هاشم أن يعودوا كما كانوا ، فلا يظهروا أحدا من قريش على ما صنعته المقاطعة بهم ..

غير أن متاعب الحصار تركت اثارا لا يمكن ان تخفى فى أبى طالب الشيخ ، وفى خديجة التى جاوزت الان ستين عاما ، قضت السنوات الاخيرة منها فى آلام متصلة ، وفى قلق على مصير زوجها محمد ، تحبس عنه ألمها لما يعانى ، وتطالعه بوجه مبتسم ، وفى قلبها الدموع ..

أما محمد ، فقد عاد أقوى مما خرج الى شعاب مكة .. يسخر مما يلقى ، ويتحدى أعداءه ، ويمشى كما كان بين حمزة وعمر .. وقد قرر الان ألا يصبر على الاذى ، فما تستطيع قريش بعد أن تصنع به أكثر مما صنعت .. ويلقاه أمية بن خلف فى بعض الطريق .. وأمية رجل شرس مولع بالعدوان لا يخاف أحدا ، وهو يستخف فى مجالسه بانضمام حمزة وعمر الى محمد ويقســـم أنه سيقتل محمدا بيديه على الرغم من كل شىء ، ويواجه أمية محمدا بهذا ليرهبه .. يقول أمية : « انى أعلف هـــذا

الفرس لاقتلك من عليه » فيجيبه محمد : « بل أنا أقتلك باذن الله » ..

وهكذا مضى محمد يتلقى التحدى بالتحدى ويسخر ممن يسخرون به ، ويواجههم بما يسقط هيبتهم التى اعتزوا بها طويلا .. وهو خلال هذا كله ، يلقى بتعاليمه ويصر عليها ويطالب الناس أن يتبعوه .. ويقتحم ولا يبالى ..

ويعجب البسطاء بجسارته يوما بعد يوم .. ويشعر بعضهم أنه لو انضم الى محمد الان ، فلن يمتهن ويعذب كما حدث لمن سبق .. ذلك أن محمدا يواجه قريشـــا بجسارة تؤكد لمن يريد أن يتبعه ، أنه سيكون فى منعة من الاذى والعدوان ..

ولقد خشيت قريش أن يفتن به الغرباء الذين يزورون مكة للتجارة ويجتمعون فيها أيام الحج .. فقررت حكومتها أن تعلن أن محمدا خارج على القانون وأن من سمع اليه ، فانما يتحدى حكومة مكة ، وستحل حكومة مكة لنفســـها أن تعامله كما تقتضيها صيانة مصالحها .. وكانت مكة تخشى الشعراء بصفة خاصة ، لان القبائل تفخر بشعرائها وتعتد بكلماتهم ، فلو أن أحد الشعراء اتبع تعاليم محمـــد فمدحها ، شاعت هذه التعاليم فى قبيلة ذلك الشاعر ، ولراج ما جاء به محمد خارج مكة ، ولاستقبل الناس هذه التعاليم التى يمتدحها الشعراء بنفس الاحترام الذى يحملونه للكلمة المنظومة ..

وهكذا رصدت حكومة مكة من يصد الشعراء من الوفود على محمد ، ومن يذيع فى حكماء هذه الوفود أن محمدا ليس سوى مجنون يستهزىء به قومه .. ولكن محمـــدا حاول أن يقتحم الى هؤلاء الشـــعراء الحـكماء . وعندما كانوا يجلسون حول الـــكعبة كان محمد يدخل عليهم ،

ويشرح لهم تعاليمه ، متحديا أصوات المستهزئين التى تغمر صوته ، وقد حدث فى أحد هذه المجالس أن وقف رجل غريب يستصرخ الناس : « يا معشر قريش .. هل من رجل يعيننى على أخذ حقى من عمرو بن هشام ، فانى رجل غريب ابن سبيل وقد غلبنى على حق » فأشار له بعض اهل قريش على محمد وهم يضمرون السخرية به !

وصدق الرجل الغريب ، وذهب الى محمد يقص عليه أن أبا جهل اشترى منه بعض الابل ، ولم يدفع له الثمن .. وهو لا يريد أن يدفع . وتعالت ضجة المستهزئين ، وأيقنوا أن محمدا سيخيب أمل الرجل فيه .. سيجبن عن نصرته ، وتهيأوا لسخرية جديدة بمحمد تسقطه وسط الذين يدعوهم الى تعاليمه . ولكن محمدا قام مع الرجل الى عمرو بن هشام .. وكان محمد والمسلمون قد تعودوا أن يسموه أبا جهل .. قام الى أبى جهل ، مخلفا وراءه حيرة المتغامزين عليه ..

جاء أبا جهل فى داره وهو بين عبيده وفرسانه ، فضرب عليه الباب ، وطلب أن يخرج اليه أبو جهل هذا .. كان وجه محمد يحمل كل حزمه ، وكل ما فى طاقته من الثورة لهذا المظلوم ، ومن التحدى أيضا .. وخرج أبو جهل مروعا يستقبل محمدا . ماذا حدث فى مكة حتى يجرؤ محمد على أن يضرب عليه بابه بهذه الصورة .. ؟ وقبل أن يفيق أبو جهل من المفاجأة ابتدره محمد فى حسم : « اعط هذا الرجل حقه .. » ولم يجب أبو جهل بل دخل ، ثم خرج فأدى الى الرجل ثمن الابل !! .. وعاد الرجل يعلن للناس حول الكعبة أن محمدا أخذ له بحقه من ظالم لا يجرؤ عليه أحد ..

ملأت هذه الجسارة قلوب الغرباء بإكبار محمد ..

وانصرف المستهزئون، يقلبون أكفهم من العجب ،والغيظ! .

لتكن الكلمة هى الخطوة اذن .. لتتحول كلماته الى خطوات .. فقد جاء الزمن الذى يجب فيه أن تعكس خطوات الرجل ، كل تعاليمه .. لقد انفق نحـو عشر سنين فى مكة يدعو بالكلمة ، ويصبر على العدوان ، ولكن صبره أطمع فيه طغاة قومه . لقد شبع من الصبر ، فليواجههم اليوم قوة بقوة .. ولن يستطيعوا على أية حال أن يصنعوا به أكثر من يصنعون .. انه يطالب الناس أن يوفوا بالعهود اذا عاهدوا .. فليتحرك هو بنفسه ليحمل المتكبرين على أن يوفوا بالعهود ..

انه ليلعن الظالم ويدعو الى ألا يأكل أحد مال غيره .. فلينتزع هو بنفسه الحق من أظفار المغتصب ، وليفضح الظالم ويقهره .. وليرد الى المظلوم ما ينهب منه . ومن خلال هذا السلوك بدأ بعض الغرباء من زوار مكة يهتمون به ، وأتاه فى بيته شاعر « دوس » وحكيمها الطفيل بن عمرو ، فقال له : « يا محمد : ان قومك قد قالوا لى فيك ما قالوا ، وما برحوا يخوفوننى من أمرك حتى سددت اذنى لئلا اسمعك ، ثم سمعت قولك فوجدته قولا حسنا فاعرض على أمرك »

ها هو ذا سيد قبيلة بعيدة يسعى اليه .. وظل محمد يتحـدث معه ويشرح له تعاليم الاسلام الذى جاء به .. حتى اقتنع الطفيل بن عمرو ، وعاد الى قومه فأقنع أباه وزوجته ، وما زال بقومه حتى أقنع منهم سبعين رجلا وامرأة .. وعلمت قريش نبأ الطفيل ، فبدأت تشعر بالخطر حقا ..

لو أن تعاليم محمد خرجت من مكة ووجدت من يناصرها لاستقوى عليهم محمد بجيش من هؤلاء الانصار الغرباء ،

ولما وجـــدوا حرجا حين يكثرون أن يجتمعوا ليقتحموا عليهم مكة ، ويجعلوا محمدا ملكا عليهم أجمعين ..

ولامت مكة نفسها أنها تركت الطفيل يلقى محمدا ..

لابد من أساليب آخر مع هؤلاء الغرباء ، لقد خوفوهم من محمد فلم ينفع هذا .. فلتتحرك القوة اذن لتمنع مثل هذا اللقاء . وأخذ جند مكة يراقبون الغرباء ، وملأت حكومة قريش أسواقها ومواسم الحج فيها بالجواسيس، ما يعثرون على رجل يتصل بمحمد حتى يطردوه من مكة ، مضروبا معذبا بعد أن يصادروا ماله وتجارته . ولكن محمدا لم يحفل بهذا ، وظل يقف حول الكعبة كلما جاءت وفود تطوف بها ، فيعرض عليهم الاسلام .. وكان بعض هذه الوفود يصغى ثم ينصرف ، وبعضهم يخشى عدوان حكومة قريش فيبتعد ..

وعلى أية حال فلم تتح حكومة قريش لاحـــد منهم أن يتحدث الى محمد أبدا .. حتى جاء رجل حكيم من بنى غافر ، مثقل القلب بصلف السادة الاغنياء .. حالمـــا بالخلاص من كل المظالم التى يراها .. وذات مســـاء اضطجع هذا الرجل الغفارى قريبا من الكعبة ، فرآه على ابن أبى طالب ، ولاحظ أنه وحيد رقيق الحال فسأله ، « كأن الرجل غريب ؟ »

ثم استضافه على ، فبات الرجل عنده .. ثم أصبح فلم يجده .. وفى المساء عاد الرجل الى بيت على ..كان وجهه النحيل يحمل ذلك الحزن الغامض الذى يرســـمه طول التأمل . وقال له على : « ألا تحدثنى ما الذى أقدمك هذا البلد » . فقال الرجل : « ان اعطيتنى عهدا وميثاقا أن ترشدنى فعلت » وعاهده على أن يرشده ويكتم أمره

فقال الرجل انه سمع عن محمد فجاء يلتمسه ، ولكنه وجد ما تصنعه حكومة قريش بالغرباء الذين يقابلونه ، فخشى أن يسأل عنه • فقال على : « من أنت ومن أين؟» •• قال الرجل : « اسمى أبو ذر وقبيلتى غفار » •• وقام على من فوره ليصحب أبا ذر الغفارى الى محمد وهمس له : « اتبعنى ، وادخل حيث أدخل فان رأيت أحدا أخافه عليك دنوت من الحائط كأنى أقضى حاجة فامض أنت » ••

وانطلقا حتى لقيا محمدا •• فشرح محمد تعاليمه لابى ذر الغفارى • وزاره أبو ذر فى الليلة التالية سالكا نفس الطريق اليه بصحبة على •• سأله عن موقف التعاليم الجديدة من العبيد والمرابين والمتكبرين ومن النساء والفقراء والمضطهدين ••

وتعود أن يزوره مع على فى الليالى التالية • سأله عن كل ما يشغله •• من العدل والمساواة ، وحق المحروم فى مال الغنى • ووجد أبو ذر فى التعاليم الجديدة جوابا لكل ما يسأل عنه •• هو ذا ما يريد أبو ذر ••

وأعلن أبو ذر الغفارى أنه ليؤمن بكل هذه التعاليم •• وسيحملها الى قومه بنى غفار • فقال له محمد وهو يودعه : « يا أبا ذر ارجع الى قومك فاخبرهم واكتم أمرك عن أهل مكة ، فانى أخشاهم عليك •• »

ولكن أبا ذر خرج الى الكعبة ، فوجد حولها رجالا من قريش ، فدعاهم الى الاسلام ! •• وانقض الرجال على هذا الغريب الذى يتحدى حكومة قريش وظلوا يضربونه حتى لقد أشرف على الموت ، لولا أن العباس بن عبد المطلب صرخ فى الناس وهو يدفعهم : « ويلكم ألستم تعلمون أنه من بنى غفار وأن طريق تجارتكم الى الشام

يمر عليهم » فرفعوا أيديهم عنه خشية أن يموت فيقطع بنو غفار طريق تجارتهم الى الشـــام ثأرا لابى ذر ٠٠ وانطلق أبو ذر الغفارى الى قومه ، يحمل اليهم التعاليم التى حلم بها طويلا ٠٠

ما الحيلة فى محمد بعد ٠٠ ؟ ما زال أبو طالب يحميه، وبنو هاشم اذا جد الجد ينتصرون له ٠٠ وها هى ذى دعوته تتسلق أسوار مكة وهضابها لتشيع فى القبائل الاخرى : دوس ، وبنى غفار ٠٠ ومن يدرى ماذا يحدث غدا ٠٠ ؟ ومحمد يتلو الان تعاليمه فى المسجد ولا يبالى ٠ ويمضى رجال قريش الى عمه لآخر مرة ليروا معه رأيا فى أمر محمد ٠٠ ولكن أبا طالب مريض قد اشـــتدت عليه العلة ، ومحمد الى جواره يدعوه وهو على فراش المـوت أن يؤمن بما جاء به ٠٠

ثم مات أبو طالب ٠٠ مات فسقط عن اعداء محمـــد حرج كبير ٠٠ فقد كانوا فى النهاية يحسبون لابى طالب بعض الحساب ٠٠ ولئن كانوا قد قاطعوه مع ســـائر بنى هاشم ،فأن حياءهم منه منعهم ان يبلغوا من محمـــد ما يريدون ٠ ومضى محمد الى بيته مهموما يبـــكى عمه ٠٠ فوجد اليد التى تعودت أن تمسح دموعه ترتعد هى الاخرى تحت وطأة الالم ٠٠ كانت خديجة مريضة ، منهكة ٠٠ وسقطت ميتة بعد أن مات أبو طالب بأيام ٠٠

فى أيام قلائل يفقد محمد عمه الذى رباه ، وزوجتـــه التى شاركته فرح الحياة وعذابها أكثر من عشرين عاما

وشعر محمد ان المسرات تتخلى عنه ، وان بهـــاء الحياة يغيض وكانما تنهار فى أعماقه الضلوع ٠ وانحنى يبكى على قبر خديجة ٠٠ ويبكى ٠٠

وعندما أخذه أصحابه واهله الى البيت ، ظل واجما

.. لا يتكلم ، الزفرات تتصاعد ، والدموع تسيل من عينيه ..ما الذى أعدت له الحياة بعد .. ؟ لكم عاني عمه من أجله ، وكم عانت خديجة ... وها هو ذا يلقى نفسه وحيدا آخر الامر ، زايله ظل عمه ، وسيأوى من بيته الى فراش بارد تنوح فيه الذكريات

ونصحه بعض صحبه أن يتزوج امرأة شابة تعوضه عن فقد خديجة ولكنه ابى !! .. لقد عاش معها هذه الاعوام جميعها ، وكبرت سنها ودهمتها الشيخوخة، فلم يفجعها بضرة على كثرة ما نزعت اليه النساء .. غير أن المهاجرين الى الحبشة عادوا فجأة .. فقد اضطربت الامور بالنجاشي الذى يحميهم ، وحملت اليهم الانباء أن الحال فى مكة قد تغير .. عادت ابنته رقية وزوجها عثمان بن عفان .. وعاد صديقه عبد الرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير .. كلهم عادوا بزوجاتهم .. الا القليل دفنوا هناك تحت أرض الحبشة . وعادت من بينهم امرأة وحيدة تركت زوجها تحت التراب هناك ، وما برحت تشكو بعده الحاجة والوحدة .. فعرض محمد على غير واحد من صحبه أن يأسو جراحها ويتزوجها .. ولكن المرأة لم ترق لاحد فخطبها هو لنفسه عسى أن يكون فى هذا عزاء لها

ولم تصبر عليه قريش حتى يمسح دموعه .. فما كاد يفجع بأبي طالب وخديجة حتى انقضت مكة على أنصاره الذين عادوا من الحبشة ، تطارد تجارتهم وتعذب منهم من يقع فى يدها .. من جديد يعود عصر آخر للعذاب !! ..

وتمنى محمد لو أنه استطاع ان يجد قبيلة تؤمن بدعوته ، وتدعوه اليها هو والذين اتبعوه ... لو ان بنى

غفار ، أو دوس ، تحتضن هذه التعاليم فستخلصه هو واتباعه من عذاب الحياة فى مكة .. ولكنه لم يظفر بدعوة من غفار ولا دوس .. وأغراه عمه العباس ان يذهب الى الطائف ، فهناك تعيش ثقيف ، ولعمه صداقة مع بعض سادتها وله فيها مزارع واسعة من اعناب وزيتون، وعبيد واجراء وزراع ونساء ضائعات !.. سيجد فى الطائف من يسمع له اذن وسيجد من يمنعه اكراما لعمه العباس . وصحب غلامه زيد ، وسار الى الطائف

ولاح النخيل له ومزارع الكرم ، وخضرة الزيتون من بعيد .. ما هى ذى مشارف الطائف ، وأسوارها الشاهقة البيضاء .. وامتلأ صدره بعطر الحقول وسط وهج الصحراء وأشرق وجهه فجأة وشعر بالطمأنينة تزحف اليه

قد يجد فى الطائف ظلا يعوضه عن وهج الرمضاء ، وأنصارا يعتز بهم وينشرون دعوته .. سيجد هنا الامن ، والراحة التي ينشدها القلب .. هنا فى بلاد الكرم ..

ومن يدرى ، ربما ارتفعت من هذه الخضرة ، راية تعاليمه الجديدة !! ..

قاتلوا الذين يقاتلونكم

طريد أنت يا ولدى ، مسكين معذب كالمبشرين الاوائل ..

أيمكن اذن للجذوة التى اشتعلت فى قلبك ، أن تنطفىء فجأة ، فيضيع كل شىء ، ويطويه الدجى المترامى فى هـ الصحارى الشاسعة التى يصفر فيها الخواء والكيد والمنكر ؟ ! .. أيمكن أن تسقط تعاليمك وتنطمس تحت الرمال التى تقوم عليها آلهة ذهبية تسطع تحت وهج الشمس ، ويظل الانسان مهدرا ممزقا ، يقطع من لحمه بلا حساب ، ويبتذل عرقه واباؤه ؟ ! .. أتصبح أنت يا أبا القاسم ذكرى تطوف على قلوب المستضعفين كالحلم السعيد المتبدد ، ولا تثير غير ابتسامة السخرية على شفاه المتسلطين ؟ أممكن هذا اذن .. ؟

ولكنك لست كالمبشرين الاوائل المضيعين . لقد جئت بشىء آخر مختلف واستقبلك عصرك بطريقة أخرى .. لا ابن سنان ، ولا ابن نفيل ، ولا أحد على الاطلاق جاء على حين ينتظره الزمن كما جئت أنت بشفاء للنفوس مما تجد، مستجيبا للاحتياجات المادية والوجدانية ..

لا أحد من هؤلاء المبشرين الذين يحزنك مصيرهم ، وجد من المؤمنين بتعاليمه قدر ما وجدت أنت ، ومثل ما وجدت أنت .. مؤمنون يستعذبون الالم ولا يحنون الرأس أبدا.. ومع ذلك فما من أحد من هؤلاء المبشرين لقى مثل ما تلقى من الاذى والجحود والعنت ..

ولشد ما سخرت به الطائف وخذلته ، ولشد ما سحقت أحلامه ، وأدمته حتى القدمين ·· العبيدوالاجراء والضعفاء الذين يحمل لهم الخلاص ، ويدعوهم الى الحرية ، هم الذين يطاردونه بالسخرية والزراية والحجارة !! .. لكم هو رهيب ومعذب ومذهل ، أن يلقى مثل هذا من الذين جاء لينتشلهم .. وأصدقاء عمه العباس تنسكروا له ورفضوه ، مجاملة للآخرين من تجار قريش ، وحرصا على استمرار قبضتهم على أعناق العبيد الاجراء .. علموا قبل أن يأتى اليهم انه يحرم الربا ، ويستنكر الخمر ، ويحض الناس على كراهية لحم الخنزير ·· وكانت أموالهم تتكدس من الربا ، وكانت خير تجارة يكسبون منها هى الخنزير الذى يملأ مراعى الطائف والخمر الذى تنتجه الكروم هناك ، وأدركوا أن وجوده بينهم سيغرى الضعفاء والفقراء بأن يطالبوا بما يسميه هو حقهم المعلوم فى أموال الاغنياء .. فنبذوه وأغروا به العبيد والصنائع يلاحقونه ، فى كل طريق ويسدون آذانهم اذا هم بأن يتكلم ويقذفونه بالحجارة المسنونة ..

وسال دمه .. وظل دمه يسيل على أرض الطائف ، وهم يطاردونه بالحجارة

وأعلن أنه عائد الى مكة ، فليكف عنه السادة كلاب الصيد . واستدار راجعا الى مكة وهو يناشدهم أن يكتموا عليه ما كان منهم حتى لايشمت به أعداؤه من قريش ويغرون بايذائه من جديد ، ولكن ثقيفا أصحاب الطائف أبوا أن يكتموا أمره واقسموا أن يشهروا به .. وجر قدميه الداميتين ، ومن ورائه زيد بن حارثة ، يغالب دمعه· وجلس محمد وفتاه تحت ظل جدار يعالج جرحه ويستريح ويريح فتاه · كانت نظراته التى غام عليها الدمع تقتحم التيه الممتد امامه بصفرة الرمال كالضياع .. وفى أعماقه

يتردد صدى بعيد من كلمات عمه أبى طالب التى أوصى بها سادة قريش وهو على فراش الموت : « أوصيكم بمحمد خيرا فانه الامين فى قريش والصديق فى العرب .. لكانى أنظر الى صعاليك العرب وأهل البر فى الاطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته ، وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت .. فصار رؤساء قريش وصناديدها أذنابا وضعفاؤها أربابا وقد أعطت له العرب قيادها .. دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم .. كونوا له حماة .. »

ولكن أبا طالب قد مات ، ولم يسمع نصيحته أحد من معشر قريش ..

وأهل البر ، والمستضعفون والصعاليك فى الطائف ، يرفضونه ويؤذونه ويطردونه ويمنعون عنه الطعام والماء .. ويقسمون أن يبلغوا سفهاء قريش بكل ما كان ليبتدره السفهاء فى وطنه بالاذى مرة اخرى . ماذا تحمل له الحياة فى مكة غدا .. لقد مات عمه الذى منع عنه كثيرا من الاذى ، وماتت زوجته خديجة التى حملت معه كثيرا من الضنى ..

وليس لعمه العباس مثل هيبة عمه أبى طالب ، وما زوجته الجديدة « سودة » يالتى تستطيع أن تعوضه من خديجة شيئا . وصحابه العائدون من الحبشة يلقون من التعذيب مالا قبل لهم به .. وحكومة قريش بكل أجهزتها وسلطاتها تنطلق الآن كوحش مسعور تبطش بمن اتبعه فى مكة وبمن يحاول أن يتصل به من الغرباء ، غير عابئة بحمزة ولا بعمر .. وماذا يستطيع حمزة وعمر وعدة عشرات أن يصنعوا فى مواجهة آلاف يلهبهم الخوف على مصالحهم والاحساس الجنونى بالانهيار ؟ ..

ولم يكد محمد وفتاه يستريحان تحت ظل الجدار وقد توقف انصباب الدم من قدميه ، حتى عاوده مطاردوه

فانقضوا عليه ، وجذبوه ، ودفعوا به قسرا فمشى ، وهم يرجمونه ويتضاحكون . والدم ينزف من جديد .. حتى خرج من الطائف كلها ، فاستلقى وحيدا أمام أســوارها المنيعة البيضاء تتصاعد الزفرات من حبة قلبه ، وهمهم يدعو ربه : « الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى أم الى عدو ملكته امرى ؟ .. ان لم يكن بك على غضب فلا ابالى » .. ثم اخذ بيد فتاه ، وانطلقا ..

سيعرض أمره على آخرين .. سيقتحم السدود التى اقامتها حكومة قريش بينه وبين الغرباء .. وليتحمل كل مايمكن أن تصنعه به قريش . ان ثباته هو الذى يعطف اليه القلوب ويملأ نفوس أشد المنكرين له ، اعجابا به ..

ومشى بقامته المعتدلة الممتلئة فاقتحم مجلسا حول الكعبة ازدحم ببعض التجار الغرباء .. كانت أنباء رحلته الى الطائف قد سبقته الى مكة ، فاستعد أعداؤه فيها للقائه بألوان من الاذى لم يعرفها من قبل .. ولكنه كان قد قرر الا يبالى ! ..

واخذ يشرح تعاليمه للتجار الغــرباء ويدعوهم الى الايمان بالاسلام الذى جاء به .. وتركهم يفــكرون ثم انصرف . وعلم اعداؤه من رجال حكومة قريش بما صنعه فخفوا سراعا الى الكعبة ، وتشاوروا فى أمرهم ثم أقسموا ان ينتظروه من غد

وفى الغد عاد محمد بكل ثقته واصراره على ان يواجه قريشا ولا يبالى .. ومر بهم وهم فى مكانهم من الكعبــة فتغامزوا عليه وادرك محمد أنهم يدبرون له أمرا . وكان مقبلا وحده ، وهم عدة عشرات من سادة قريش وفرسانها وسفهائها فانقض عليهم قائلا : « يا معشر قريش لقدجئتكم بالذبح ! » .. بالذبح .. ؟!

باسم ماذا يتحداهم الى هذا الحد .. انه ليقتحم وحده مجلس القوم ، وليس الى جواره أحد ٠٠ لا حمزة ولا عمر .. ولا أحد يمكن أن يرهب به الآخرين .. وذهل الجالسون من المفاجأة فلم يتكلموا ٠ وقال له أبو جهل متلطفا : « يا محمد ٠٠ ما كنت جهولا » ٠٠ عسى أن يعتذر محمد للسادة أو يقول ما يقنع الغرباء الجالسين انه انما يعنى السفهاء وحدهم ٠ ولكن محمدا أجابه وهو ينصرف مشمئزا منه : « يا أبا جهل .. أنت منهم » ..

وصمم سادة قريش على أن يحدثوا به ما يجعله امثولة أمام الغرباء ، فلا يستعلى عليهم بعد بشجاعة قلبه ، ولا يقوى على أن يواجه أحدا منهم باهانة .. وما لهم لا يصنعون به كما صنعت ثقيف عندما زار الطائف .. ؟ واحتشدوا بشجعانهم وفرسانهم وسفهائهم ٠ وأقبل محمد على الكعبة من اليوم التالى كما تعود .. وتركوه حتى اتجه الى المقام فوثبوا عليه وهو قائم يصلى بالمحراب .. وثبوا عليه كلهم دفعة واحدة ..

ولف عتبة بن ربيعة رداء محمد حول عنقه الذى كان يحنيه خاشعا أثناء الصلاة ، ثم جذبه فسقط على ركبتيه .. وانهالوا عليه كلهم يكيلون له الضربات ..

وتعالى صياح بعض الناس فى المسجد وارسلوا الى حمزة وعمر لينجدا صاحبهما ، لكن مكة لم يكن فيها من صحبه غير أبى بكر ، فأقبل مسرعا ينحى المعتدين عن صديقه محمد ، ومحمد يدفعهم بيديه .. وحين انفلت محمد من أيديهم أنذرهم مرة أخرى « أنه سيذبحهم أجمعين »

ومضى ، وبقى أبو بكر ، فوثبوا به وضربوه ، وظل عتبة يضربه بالنعل على وجهه ، حتى أقبل رجال من عشيرة أبى بكر ، فاستخلصوه من أيدى المعتدين

وهكذا أخذت قريش تشرع النعال امعانا فى الزراية والاذى ، فأخذ محمد ينذرهم بعذاب الحريق •• وأنه لعذاب غليظ يصهر به ما فى بطونهم والجلود •• ولكنه عاد الى بيته في ذلك اليوم بعد أن أوذى هو وصديقه أبو بكر ، فاستقبلته احدى بناته باكية •• كانت ثيابه ممزقة ، ووجهه المتورد شاحبا موجعا مما تلقى من الضربات وعلى رأسه تراب قذفه به السفهاء • وغسلت له ابنته رأسه ، وضمدت جراحه ، ورتقت له ثوبه وهى تبكى فى صمت •• أين يد أمها الحانية ؟! الزوجة شيء اخر •• واقترحت عليه أن يتخذ له زوجة تعوضه بعض ما فقد ، فسودة امرأة مسنة لا حيلة لها

وعرضت عليه ابنته أن يتزوج عائشة بنت صديقه ابى بكر . ولكنها صغيرة جدا ، هذه الفتاة الجميلةذات الشعر الاحمر ، والحس المرهف . على انه خطبها واستبقاها فى بيت أبيها حتى تؤذن الظروف بالزواج • ومضى يعلن أصحابه ببدء مرحلة اخرى من العمل المستمر .. سيخرج الى أسواق التجارة .. عكاظ ، وذى المجاز ، وغـــيرها ليخطب فى الناس كما صنع المبشرون الاوائل وكما يصنع الآن شعراء يتفاخرون ورهبان وكهان.. سيعرض الاسلام على الاخرين كما يعرضون هم أشعارهم وأفكارهم ، ولابد أن يجد فى النهاية قبيلة ينتصر بها ، ويقيم عنـــدها .. وتحب دعوته فيجعلها قاعدة مطمئنة يتجه منها الى العرب أجمعين ••

وصحب معه أبا بكر ، ليتعرف على الوفود وانسابها ، فهو مثقف يعرف كل أخبار العرب . وفى أحد الاسواق تقدم محمد وأبو بكر الى أحد الوفود ، واستبق ابو بكر فسلم وسأل : « من القوم ؟ » فقال الناطق باسمهم : « من شيبان بن ثعلبة ؟ »

وتعرف عليهم أبو بكر وعدد لهم كثيرا من مفاخر قومهم فطربوا ..

ثم سألهم : « كيف الحرب والمنعة فيكم ؟ » : فقال الناطق باسمهم : « انا لنؤثر السلاح على اللقاح والجياد على الاولاد »

فعرفهم أبو بكر بمحمد .. وتقدم محمد يعرض عليهم الاسلام : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم .. ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق.. ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .. فقال له قائلهم : « والام تدعو أيضا يا أخا قريش ؟ » . فقال لهم انه يدعو الى العدل ، والى الاحسان ، والى ايتاء ذى القربى والى اجتناب الفواحش والمنكر والبغي ..

ونظر الناس فاذا بأبى لهب يقف بينهم فى ملابسه الفاخرة ويقول : « يأيها الناس لاتسمعوا منه فانه كذاب» .. والى جوار أبى لهب يقف عبد له ، يحاول أن يرجم محمدا ..

وسأل القوم عن الرجل ، واذعرفوا أنه عم محمد يصحب عبده ويحرضه على ابن أخيه ، وانه مازال يزرى به امام الاغراب ، انكروا فى أنفسهم ما يصنعه أبو لهب بابن أخيه ، ورأوا فى سلوكه نذالة لا تليق بعربى شريف .. فدفعوا العبد عن محمد وهم يقولون : « لقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك »

فسألهم محمد أن يؤووه ، وينصروه .. ولكن القوم قالوا له انهم ينزلون فى أرض يحكم نصفها كسرى ، فهم لا يستطيعون أن يؤووه فى هذا النصف من أرضهم حتى يأذن لهم كسرى .. كسرى .. ؟ الى متى يظل كسرى يحكم أجزاء من بلاد العرب ؟.. والى متى تظل بعض هذه

الارض تحت سيطرة الروم ..؟ متى اذن يلقى العرب كل هذه الاغلال ويصبحون أحرارا فى أرضهم ، اخوانا يعمر الحب قلوبهم .. ؟

لو انه وجد قوما ينصرونه ويؤوونه ، فمن الممكن أن تتحرر هذه الجزيرة كلها من سيطرة الاغراب ، ويصبح العرب كلهم أمة واحدة يؤمنون بنفس الاشياء ، ويفرضون وجودهم ومستقبلهم على الاكاسرة والقياصرة . وقال لهم محمد : « أرأيتم ان لم تلبثوا الا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم واموالهم ويفرشكم نساءهم ؟» .. ولشد ما يبهرهم هذا ، ليتهم يتبعونه .. لقد وعدوه ان يفكروا فى الامر ، وانصرفوا الى ديارهم . اما هو فمضى يحدث كل وفد يلقاه ..

وأقبل عليه نساء كن يفدن الى المواسم مع النخاسين ليقمن الليالى الصاخبة ويبعن المتاع .. ولم يعرض عنهن ، بل عرض عليهن تعاليمه فبايعنه ، وعاهدهن الا يزنين ولا يسرقن ولا يأتين ببهتان ولا يتركن احدا يستمتع بواحدة منهن فى غير زواج ولو بقبلة أو لمسة ..

وانطلقن هاربات من قيود النخاسين وتجار الرقيق ، باحثات عن حياة جديدة حرة فى احضان رجال صالحين من أجل تكوين الاسرة . وظل يعرض نفسه على وفود القبائل المختلفة التى تتخذ لنفسها آلهة ..

فأما كلب وبنو حنيفة فقد ردوه ردا منكرا ، وأما بنو عامر فقد سألوه : « أرأيت أن نحن بايعناك وآويناك ثم ظهرت بنا ، أيكون لنا الامر من بعدك ؟ » .. ولكنه لا يدعو الى ملكية يقسم مغانمها منذ اليوم

وعبثا حاول ان يشرح لهم .. فقد انصرفوا عنه

قائلين : « أفنجعل نحورنا هدفاً لسهام العرب دونك ، فاذا ظهرت كان الامر لغيرنا ، لا حاجة لنا بك »

وهكذا ، من وفد الى وفد .. كل وفد يعتذر بشيء .. فما يبايعه الا بعض العبيد والنساء والمستضعفين والاجراء .. حتى لقى وفدا من يثرب فسألهم : « من أنتم ؟ » . فقالوا : « نفر من الخزرج » . فقال لهم : « الا تجلسون حتى أكلمكم ؟ » ..

وجلس يكلمهم ويدعوهم الى الاسلام الذى جاء به والى أن يؤووه وينصروه ، فبايعه منهم ستة رجال وامرأة .. وعاهدوه الا يزنوا ، والا يسرقوا ، والا يأتوا ببهتان ، والا يطغوا فى الميزان ، والا يقتلوا أولادهم .. على أنهم عادوا الى يثرب ، فدعوا الناس هناك الى أن يتابعوا محمدا ، وأن يؤووه وينتصروا له .. واستجاب لهم كثير من قومهم .. فقد كانوا من الحكماء ..

وشاع فى يثرب أمر الدعوة التى حملها وفدهم عن محمد فقامت الاوس تتساءل .. والاوس هى القبيلة الاخرى التى تنافس الخزرج فى يثرب .. واقتنع من الاوس بعض الرجال ، ثم ذهب وفد كبير منهم الى السوق فلقوا محمدا وتحدثوا اليه .. وبايعوه . وعرفت مكة ما كان من أمر الاوس والخزرج ، فأرسلت اليهم فى يثرب من يحذرهم ولكنهم لم يبالوا ..

ولم تستطع حكومة قريش أن تصنع شيئا مع أهل يثرب فقد كانت فى يثرب وحدها تجارة السلاح ، وحى الصاغة ، وأسواق الذهب ، وتجار الطعام .. ويثرب — على خلاف مكة — واحة خصيبة ذات حقول ، فجزء كبير من تجارة مكة وغناها يعتمد على حسن العلاقات بيثرب

وهاهى ذى اذن آخر المطاف ، القلعة التى حلم محمد

بأن يمتنع فيها هو وصحبه وينتصر بها وينشر منها دعوته الى العالمين .. الى القبائل المتفرقة فى الجزيرة ، والى حيث يحكم الفرس والروم ، والى كل مكان مايزال يمتهن فيه الانسان ، ويهدر عمله ..

وادركت قريش ان محمدا سيظهر عليهم باهل يثرب هؤلاء ، فقرروا ان يعزلوه عن انصاره فى مكة .. وعكفوا على هؤلاء الاتباع يعذبونهم كما لم يعذبوا من قبل ، فلا يتركون الواحد منهم حتى يموت او يعلن انه تخلى عن محمد . وهكذا فتنوا كثيرين .. حتى من الذين كانوا قد هاجروا الى الحبشة ، وتحملوا العذاب من قبل ثم عناء الغربة والنفى ..

ونصح محمد للذين يخشون العذاب والفتنة ممن اتبعوه، ان يهاجروا من مكة الى يثرب . ثم ارسل مصعب بن عمير الى اهل يثرب يخبرهم بالهجرة ويهيئهم لاستقبال المهاجرين . وقبلت يثرب ان تؤوى كل من يريد ان يهاجر اليها ..

وعاد مصعب يحمل النبأ الى محمد ، ثم جاء رجال من يثرب فتعاهدوا جميعا على ان يقاتلوا المعتدين جنبا الى جنب . وبدأ المهاجرون يخرجون مختفين ، ليلقاهم المسلمون من الاوس والخزرج مرحبين يتنافسون على ايوائهم واكرامهم ..

وخرج مصعب الى يثرب مهاجرا ، وهو أعز الولد على أبويه .. يكسوانه أجمل الثياب ويمنحانه أزكى العطور ..

جزعت أمه وظلت تبكى ، وأقسمت ألا تأكل ولا تشرب ولا تستظل بظل حتى يعود اليها ، وأخذت تقف فى الشمس حتى تسقط مغشيا عليها ..

وأرسلت قريش وراء المهاجرين من يحاول أن يردهم بالاغراء أم بالوعيد ، ولكنها لم تفلح فى رد أحد منهم .. وحتى مصعب الذى كان يحب أمه أكثر من أى شىء اخر ، رفض العودة الى مكة على الرغم مما سمعه عن أمه . وقال لمن جاء يستعطفه : « انها ستأوى الى الظل ان اشتدت عليها رمضاء مكة ، وستأكل ان قرصها الجوع » ..

وحين فشلت قريش فى استرداد من هاجر منهـــا ، شددت الحصار على من بقى ، فأقامت جواسيسها على مخارج مكة .. لتمنع أنصار محمد بالقوة من الهرب الى يثرب . وأمر محمد أتباعه أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم ، وان كان قد طالب الضعفاء منهم أن يحتالوا للخروج ..

وكان يعرف الان أنه يستطيع أن يقاتل سادة مكـــة جميعا لو أن كل أتباعه من قريش هاجروا وانضموا الى أنصاره الجدد فى يثرب ..

وتدافع الناس أرسالا على يثرب ، بعضهم يخـــرج متخفيا وبعضهم يتهيأ للقتال ان اعترضته احدى سرايا قريش التى جهزت بالسلاح لمنع الهجرة ..

ويوما بعد يوم كان معظم أصحاب محمد قد هاجروا ..

منهم من ترك الزوجة والاولاد لكيلا يتعرض النســاء لاذى جنود قريش ، ومنهم من صحب أهله ، فلقى النساء ما لم يلقينه من قبل أبدا ..

ولم يعد فى مكة غير حمزة وعمر وعلى وأبو بكر .. وعدد قليل جدا من أتباع محمد الذين لم يستطيعوا أن يحتالوا للهجرة .. ثم محمد نفسه . وخرج حمزة مع بعض النفر ، واستحيا أن يخرج متخفيا .. خرج مستعدا للقتال اذا اعتدى عليه أحد ، ولكن أحدا لم يجرؤ على أن يسأل الى أين يمضى

وتقلد عمر بن الخطاب سيفه ، ووضع قوسه على كاهله وامسك فى يديه اسهمها ، ومضى الى الكعبة والملأ من قريش فى فنائها • ووقف على الجالسين قائلا : « من أراد إن تثكله أمه وييتم ولده وترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى » • فلم يجبه أحد • وخرج فامتطى راحلته ومضى •• فما تبعه أحد الا قوم من المستضعفين ••

كانوا يريدون الهجرة ولا يجدون الوسيلة •• فقادهم عمر الى يثرب • وهكذا لم يعد فى مكة من المسلمين غير أبى بكر ، وعلى بن أبى طالب •• ومحمد نفسه • ولم يبد على واحد منهم أنه يستعد للهجرة ، حتى لقد سأل أبو بكر صديقه : متى الرحيل ؟ •• فطلب منه أن يصبروالا يحدثه فى هذا الامر بعد • ولكن قريشا أدركت بغريزة الصياد أن الصيد يمكن ان يفلت منها ، وأن محمدا يبالغ فى الكتمان لانه يدبر أمرا •• ولئن انضم محمـــد الى صحابه واعتصموا بيثرب ، فستأتى الايام الشداد اذن •• ودبرت قريش أمرا ••

رحلة المصير

عندما بلغ السن التى يجب أن يستريح فيها الانسان، ويتمتع بثمرات كفاحه الماضى ، كان عليه أن يرحل ! ·· كان عليه وهو فى الثالثة والخمسين أن يترك وطنه ، وعشيرته ، وذكرياته ، وكل الاشياء التى خفق لها قلبه ذات يوم ، ليبحث عن المستقبل فى أرض جديدة ، لم تطأها قدماه من قبل · ومع ذلك ، فما أكثر ما يواجهه من سخرية الحياة فى وطنه ··

ان الحياة لتسلمه اليوم ، هو بكل تعاليمه ومصيره ، وبدمه نفسه ، الى أبطش عدوه به ، وأبغضهم اليه ·· الى عمه أبى لهب !! ·· فمنذ مات عمه الباسل أبو طالب ، أصبح عمه أبو لهب ، سيدا للعشيرة ·· فهو بعد أبى طالب أكبر رجالها سنا ، وأنهم ليتمثلون جميعا لما يقضى به

فأى قضاء يمكن أن ينزله به أبو لهب ·· ؟ لئن سكت اليوم عنه ، فلن يمضى عام أو بعض عام حتى يخلعه ، كما تعودت القبائل أن تخلع سفهاءها ·· لكم كابد أبو طالب لكيلا يخذله ! ·· ابتلى بالجوع ، فما استسلم ·· حاصرته القطيعة وانهكته قسوة قريش وجحود أخيه أبى لهب ، فما تخلى عن محمد · أما أبو لهب خليفته على رياســـــة عشيرة محمد ، فلن ينصر محمدا أبدا ··

على أن عمه العباس يقوم الان منه مقام عمه الراحل أبى طالب .. انه لم يؤمن به بعد ، ولكنه يحرس دمه ، بكل ما امتلك من مال وهيبة ونفوذ فى قريش . ومهما يكن من فشله مع محمد فى الطائف ، فهو قادر دائما على أن يحميه فى مكة .. وهو من أجل ذلك يخرج معه الى لقاء سرى مع وفد يثرب على تل العقبة ، ليستوثق أن أهل يثرب جادون وأنهم لن يتخلوا عنه مهما يصيبهم ..

ويقول لهم العباس مشفقا على مستقبل ابن اخيه : « ان محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هم على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه .. ولكنه أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ، ومانعــوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم فى ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم ، فدعوه من الان ، فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده »

واكد أهل يثرب أنهم مانعوه وأنهم وافون بما دعوه اليه .. وأنهم ليحاربون من عاداه ، وما جاءوا فى الحق الا ليستعجلوه فى الخروج اليهم ، بعد ما خرج صحبه ، ونزلوا منهم فى يثرب منزلا كريما ..

وبدأ محمد يستعد للرحلة .. لقد رحل كل صحبه منذ الصيف . والخريف يقبل الان على مكة بأنسامه الرطيبة والتجار يستعدون لرحلة الشتاء .. ومنهم من يذهب الى محمد فى بيته ليودع عنده ما يخاف عليه ، كما تعــود التجار دائما أن يصنعوا معه .. فهو على الرغم من كل شىء ما يزال فيهم هو الامين ..

ولم يشأ محمد أن يرد التجار الذين تعودوا أن يلجأوا

اليه فى كل موسم حتى لا ينير اثريب .. ومن يدرى ؟ فربما عادت رحلة الشتاء قبـــــل أن يلحق هو بصحبه وأنصاره فى يثرب ؟ .. ولكن سادة قريش كانوا فى قلق مما يحمله اليهم الغد .. فلقد هاجر كل أصـــحاب محمد منذ الصيف .. وصفى التجار منهم حســـابهم ، وحملوا أموالا طائلة الى يثرب . وقد احدث سحب كل هذا المال ، هزة فى ميزان الحياة التجارية القرشية . لقد حمل كل هذا الغنى الى يثرب لتستعلى بتجارتها بعد على مكة ..

وهكذا يؤلف محمد شيعة من الاغنياء فى بلد منافس، ويصيب هناك المنعة .. ومن يدرى ، فربما هدد تجارتهم وطرق قوافلهم فيما بعد .. وربما أصبحت يثرب هذه هى كعبة التجار العرب ، فدالت دولة قريش ! ..

واجتمع فى الكعبة سادة قريش جميعا فاجمعوا أمرهم: أن يتخلصوا من محمد . ووافقوا على ما اقترحه أبو جهل : « أن نأخذ من كل قبيلة شابا جليدا نسيبا فينـــا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما فيضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالدية ، فدفعناها لهم »

وبلغ محمدا ما تآمروا به عليه ، فخف من فوره الى صديقه أبى بكر وقت الظهيرة فى ساعة لم يكن قد تعود أن يزور فيها أحدا . ودخل فوجد أبا بكر بين ابنتيـــه اسماء وعائشة . وقال أبو بكر مترفقا : « انما هم أهلك » .. غير أن محمد حرص على ألا يسمع أحد أيا ما يكن ما سيفضى به الى أبى بكر .. حتى عائشة التى عقد عليها وسيدخل بها بعد قليل ! .. وخرجت عائشة وأسماء ،

وخلا محمد الى أبى بكر فروى له كل ما بلغه .. واقترح عليه أن يهاجرا الليلة ..

والتزم أبو بكر بترتيب أمر الهجرة فى سرية كاملة ، ومضى محمد الى بيته ، فطلب من على بن أبى طالب ، أن ينام الليلة فى فراشه .. ثم سلمه الودائع التى تركها التجار عنده وكلفه أن يبقى بمكة حتى يسلم الودائع الى أهلها ، ثم يلحق به الى يثرب . أما أبو بكر فقد أعد راحلتين ، وخادما يثق به ، ولبث ينتظر صديقه اذا جاء الليل ..

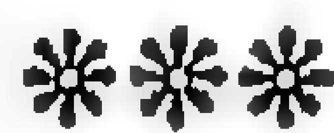
وجاء الليل على مكة ، فتسلل الشباب الذين اختارهم السادة لقتل محمد وبعدوا عن الحرم حتى لا يثيروا شبهة احد من عشيرة محمد .. ثم دلفوا فى دروب كثيرة ليعودوا مرة اخرى الى جوار الحرم ، حيث يقع بيت محمد الذى ورثه عن خديجة . ووقفوا يحرسون الباب وينتظرون .. فسيخرج محمد الآن بلا ريب ، ليصلى فى رحاب الكعبة كما تعود أن يصنع دائما بعد كل غروب . سيسلك الزقاق الضيق ، حتى ينتهى الى المسجد . وسينقضون عليه فى الزقاق الخالى . وينتهى كل شىء ..

ولكن محمدا لم يخرج ..

وجاء بعض السادة المتآمرين ليروا . فوجدوا الشباب يتربصون بسيوفهم ، وبيت محمد محكم الاغلاق .. ليس وراء بابه المغلق حركة ..

كان على بن أبى طالب يعرف الدور الذى ينهض به : ولقد استلقى فى فراش ابن عمه وجر عليه بردته .. وفى حجرة أخرى من حجرات البيت اضطجعت سودة الزوجة

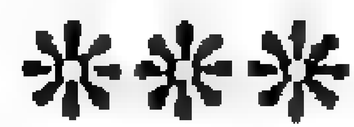
الجديدة التى لم يستطع محمد أبدا أن يحملها الى فراش زوجته الراحلة خديجة . وفى الحجرة الثالثة من الحجرات الاربع ، جلست فاطمة وفى صدرها قلق مبهم .. لم تكن تعرف شيئا على الاطلاق ، ولكنها لم تستطع أن تنام .. وكانت أختها الكبرى أم كلثوم هى الاخرى تشعر بمثل هذا القلق .. وقد أخذت تسير من حجرتها التى تعودت أن تنام فيها مع أختها فاطمة الى الحجرة التى تعود أبوها أن يخلو فيها الى نفسه أو يلقى فيها ضيفه .. ولحقت بها فاطمة ، فوقفت الاختان فى بهو الدار : نبضات القلب تقرع الصمت .. وكل شىء ساكن فى الليل الداجى !



أى شىء غامض يحدث الآن ؟ . لقد ذهب ابوهما وطلب منهما ألا يسألاه عن شىء ، فسيفسر لهما « على » من غده كل شىء . وطال الانتظار بالذين يتربصـــون خارج البيت ، ويئسوا من خروج محمد ، فاقترح واحد منهم أن يدخلوا الدار ، فيقتلوا محمدا فى فراشه .. ودفعوا باب الدار ، وهم بعضهم بأن يتسلق الجدار الخارجى المنخفض ، ولكن صرخات الفزع انطلقت من داخل الدار ، فجمـــدوا فى أماكنهم .. ربما سمع أحد من عشيرة محمد هذه الصرخات المستنجدة ، فأقبلوا مسرعين فلا يتمكن المتآمرون من تنفيذ ما اتفقوا عليه . وابتعدوا عن الباب والجدران .. وقال واحد منهم والخجل يجلل صوته : « انها لسبة فى العرب أن يقول الناس عنا أننا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا ستر حرمتنا »

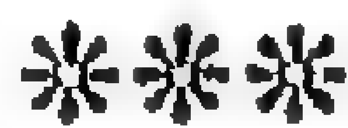
وقرروا أن ينتظروا حتى الصباح ، فسيفتح محمد باب بيته ليخرج الى الصلاة عند الفجر . ولكن الفجر اقبل ،

ولم يخرج محمد . وبدأت شمس الصباح من ذلك الخريف تلقى بأشعتها على الدرب الضيق .. ففتح باب البيت ، واقتحم المتآمرون الى الداخل فوجدوا عليا .. هو الذى يرقد فى الفراش الآن ..



أين محمد اذن ؟ .. كيف خرج ؟.. والى اين مضى؟.. أيكون قد تسلل من كوة فى ظهر بيته .. ؟ أيكون قد عبر من سطح الى سطح حتى هبط بيت ابى بكر .. ؟ وكيف عرف ما أعدوا له ؟ .. أيكون أحد الذين اتفقوا بالمسجد قد رق لمحمد فأبلغه ؟ .. ربما كان البخترى هو الذى ذهب الى العباس فحذره ، والبخترى صديق للعباس ، وهو الذى نقض الصحيفة يوم وقعتها قريش وقاطعت بني عبد مناف !

ان محمدا لمختبىء فى دار أبى بكر بلا ريب .. فليلحقوا به هناك ، فيقتلوهما معا .. ومضوا يتدافعون الى دار ابى بكر ، وشمس الخريف تغمر طرقات مكة .. كانوا متعبين من السهر ، مجانين من الغيظ ! . تقدمهم ابو جهل، فقرعوا باب دار أبى بكر .. وخرجت لهم اسماء فسألوها : «أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ » .. فقالت لهم : « ما ادرى أين أبى » .. فلطمها ابو جهل على خدها لطمة عنيفة طرحت منها قرطها . وانصرف .. وانصرفوا وراءه ..



لابد من محمد قبل أن يلحق هو وصاحبه أبو بكر ،بأهل يثرب .. ومضوا ارتالا الى خارج مكة يفتشون فى الطريق الى يثرب عن أثر محمد وصاحبه .. ويسألون الناس أى طريق سلكا . أما محمد ، فقد خرج به أبو بكر من فجوة في ظهر داره ..

تجنبا الباب والطرقات المألوفة .. وأسرعا وحدهما تحت جنح الليل ، حتى خرجا من مكة ، حيث كان ينتظرهما خادم لابى بكر بناقتين ، ودليل أمين خبير بالطرق المهجورة وبمسالك الصحراء .. لكم يخشى ابو بكر أن تهتدى قريش اليهما . وما أكثر ما تملك قريش من رجال خبراء بالصحراء يعرفون مسالكها والطرق المهجورة فيها ..

ماذا يحدث اذن لو أنهم عثروا عليهما ؟ سيقتلونهما!. سيقتلونه وسيقتلون صاحبه محمدا .. أما هو ، فانه لرجل واحد يموت ، ولكنهم ان قتلوا محمدا فسيقتلون أمة كاملة .. سيقتلون مستقبلا بأسره . وأفضى أبو بكر الى محمد بمخاوفه وعيونه تدمع ، فربت محمد على كتفه وسأله ألا يحزن ....

ورأى محمد ان يختفيا فى بعض الكهوف حتى تخف حدة قريش في البحث عنهما .. وتيأس من العثورعليهما. ولجأ الى كهف قريب ، ودخل ابو بكر أولا ليتحسس لنفسه ولمحمد . فمن يدرى ؟ قد ينجوان من سادة قريش فيتلقفهما وحش أو أفعى فى هذا الكهف ..

وحين أطمأن أبو بكر الى سلامة الكهف أخذ بيد صديقه ودخلا .. كم من الايام سيقيمان فى هذا الغار ؟ لا أحد يدرى بعد .. يجب أن يظلا هنا حتى تيأس قريش من البحث عنهما ..

وأمر ابو بكر خادمه ان يعود الى ابنه عبد الله فليتحسس من أخبار قريش بعدهما فيوافيهما بالاخبار كلما هبط الليل ، وليرتب لهما أمر الطعام ..

وتعود عبد الله بن أبى بكر ان يوافيهما بأخبار

مطارديهما ، وتعودت أسماء بنت أبى بكر ان تحمل الطعام اليهما فى الغار وتجعل من نطاقها مائدة لهما

وظلوا ثلاثة أيام على هذه الحال حتى اذا يئست قريش من العثور عليهما فى كل الدروب والطرق الخفية المؤدية الى يثرب ، خرجا معا ، الى الفضاء العريض يخوضان معا فى الصحراء المترامية ، الى المصير الغامض ...

لكم يشفق ابو بكر على صديقه من هذه الرحلة ... انها حقا لرحلة المصير !

وان فيما يعرفه من الاخبار القديمة ، لمآسى تمزق الاكباد ..

فكم من المبشرين الاوائل أوشكوا ان ينجحوا ،وعندما امتدت ايديهم لتمسك بالحقيقة التى نشدوها طويلا ، هبط فجأة سيف غاشم بتار ، ليقطع منهم اطراف البنان . أيمكن بعد هذه التضحيات أيضا أن تسقط راس محمد ، وان يحملها الى آلهة الكعبة ، فرسان قريش ... ؟ ولكن لا ... فمحمد شيء آخر ..

وطالت الرحلة عبر دروب خفية صعبة .. والدليل صابر يخوض الرمال ، وكلما دنا من يثرب ، شعر بانه سيسلك طريقا مألوفا ، فعدل الى طريق آخر شاق مستخفيا وراء الصخور الشاهقة ..

وانهم لعلى مقربة من يثرب ، اذ بفرسان من قريش يظهرون فجأة على قمة صخرة بعيدة . وفرح قائد الفرسان ، واندفع بحصانه الى محمد ، عبر صخور جرداء وعرة منحدرة الى الاخدود .. ولكن الحصان تعثر به وأوشك ان يطرحه على الصخور فيدق عنقه ..

وتشاءم قائد الفرسان ·· فعاد من فوره دون أن يخبر أحداً ممن كانوا معه بما رأى !

واخيرا دخل محمد وابو بكر ومعهما الدليل الى مناطق الحلفاء ·· من هذه الخيام التى تنتشر خارج يثرب جاء رجال الى مكة ذات يوم فبايعوه

وخرجوا اليه متهللين وطالبوه ان ينزل عندهم وسيمنعونه كأهل يثرب .. ولكنه شكر لهم حسن استقبالهم وسألهم أن يتركوه ليصل الى يثرب، حيث ينتظره الانصار من أهلها وصحبه المهاجرون .. فليتركوا ناقته تنخ حيث تشاء فانها المأمورة

ولاحت له يثرب ، بنخيلها وأعنابها وحقولها الخضراء وحدائق الليمون والزيتون .. وتقدم وفود من رجالها ومن صحبه يستقبلونه ، ودخل يثرب وسط الترحيب كأنما هو فاتح مظفر ، لا غريب مهاجر يلتمس الملجأ والعون والانصار ! ··

ويثرب مدينة كبيرة نزح اليها اليهود منذ قرون ، فأقاموا بها ، يزرعون الارض الخصبة التى تسقيها جداول كثيرة تنحدر من الجبال ·· هى واحة ضخمة تجود فيها الارض بكثير من الثمرات ، وقد اختلط اليهود عبر السنين بسكانها العرب ومنهم من أنشأ فى يثرب معاصر للخمور ومراعى للخنازير وبيوتا للهو ! ·· وكان يهود يثرب ينقسمون الى ثلاث عشائر : بنى قينقاع وبنى قريظة ، وبنى النضير ·· أما بنو قينقاع فاستقلوا بحى فى يثرب هو حى الصاغة · وفى حى الصاغة هذا ، يتكرس ما تملكه يثرب من الذهب ، وتقع المصارف التى تقرض بالربا ·· وكان كبار التجار من

الجزيرة كلها يلجأون الى هذا الحى ليقترضوا عندما يحتاجون ..

وكانت قبيلة بنى قينقاع هذه تملك معظم رءوس المال التى توظف فى صناعة الاسلحة وغيرها من الصناعات وفى تمويل القوافل ، وفى تجارة الذهب .. وقد وجد بنو قينقاع هذا الاسلوب من الاستغلال اكثر ربحا من استغلال الارض ..

أما اليهود الاخرون من بنى النضير وبنى قريظة ، فقد كانوا يقدرون الجاه الذى يمنحه امتلاك الارض فى بلد يعتمد معظم اقتصاده على الزراعة .. ولهذا آثروا أن يختلطوا بالاوس والخزرج ، وأن يخرجوا من أحيائهم المستقلة ، وأن يوظفوا أموالهم فى الزراعة ، فامتلكوا الحدائق الواسعة ... وكثيرا من الحقول والمراعى ..

وكان بقية سكان يثرب يشتغلون بالزراعة .. السادة من الأوس والخزرج يملكون ، والاجراء يعملون جنبا الى جنب مع عبيد الارض ..

هنا مجتمع آخر .. أكثر تقدما من مجتمع مكة . هنا علاقات اجتماعية اخرى ، اكثر قابلية للخضوع لتعاليم محمد .. فالمرابى اليهودى لم يكن يستطيع ان يستعبد دائنه العربى اذا عجز عن الوفاء كما كان يحدث فى مكة .. بين الدائن والمدين .. وهو لم يكن له الحق فى اخذ فتاة المدين أو امرأته ليكرهها على البغاء استيفاء لدينه ، كما كان يحدث فى قريش ..

والاجير فى الارض ـ مهما يكن حظه ـ كان أعلى درجة من العبد المكى الذى يحرس القوافل والمصارف .. كان يستطيع ان يختار من يبيعهم عرقه على أية حال ، على عكس العبد المكى الذى كان يرسف فى قيود

التبعية الى الابد . وحتى عبيد الارض فى يثرب ، كانوا يلتصقون بالارض نفسها وينتقلون معهـــا من مالك الى مالك ، ولم يكن المالك يملك حياة العبد ، كمـــا كان فى مكة ، فالزراعة فى حاجة دائما الى الايدى العاملة .. وانما كان يملك عمله ..

يثرب شيء آخر يختلف تماما عن مكة .. فسـكانها عدد متفرق من القبائل لا يجمعون على دين واحـد وهم لم يرثوا مكانا كالكعبة ، يستعلون به على العرب ويثرون مما تقدم الى أصنامها من هدايا ومما يقـــام تشرفا بها من أسواق وما فى يثرب كلها عشيرتان تجتمعان على شيء واحد .. حتى اليهود ، لكل عشـيرة منهم مذهب ولهم فيما بينهم خلاف على تفاصيل ما يؤمنـــون به .. والتنافس على الثروة فيما بينهم يؤجج العداوات ..

والعرب من الاوس والخزرج ايضا تنشب بينهم نفس الخلافات على نفس الاشياء ، وميزان الحياة يضـطرب فى كل عام يتحالف هذا القبيل مع ذلك ضـــد قبيـــل ثالث .. ثم ينقض الحلف ، ويتخاصم الحلفاء ويتحالف الاعداء ، وهكذا .. دورة مستمرة لا تنقضى من الخصام والتنافس ولكل معشر حاكم خاص ..

وقد أوشك أهل يثرب جميعا ان يتفقوا للمرة الاولى على اختيار حاكم واحد هو عبد الله بن ابى بن سلول .. وبدأ هو يستعد ويهيىء جبينه لاستقبال التاج حتى كان التقاء اليثربيين بمحمد ، ثم وصول المهاجرين اليهم .. ومن ورائهم محمد ، فتوقف كل شيء ، وأسرها بن أبى فى نفسه

وفى هذا الخضم المتموج الزاخر بالخصومات اقبـــل محمد يحمل الى كل أهل يثرب نداء بالحب ، والاخـاء ،

والعدل . وما هى الا ايام حتى اقبل على بن أبى طالب ، واهل محمد وأبى بكر ..

ولم يكد محمد يضع قدميه فى أرض يثرب بعــــد رحلته الطويلة المضنية حتى اعلن أنه سيبنى مسجدا .. سيكون مسجدا ضخما رائعا كالذى يقوم حول الكعبة ..

وطلب محمد من كل المهاجرين والانصار أن يعملوا فى بناء المسجد .. وتقدم محمد يعمل بنفسه .. واقبــل الشباب من المهاجرين على العمل بحماســة يقودهم على ابن أبى طالب وعمار بن ياسر . وتحرج بعض الاغنياء من العمل ، ولكنهم راوا محمدا يعمل فاقبلوا متباطئين ثقالا كارهين ، وحاول محمد ان يلقى فى قلوبهم احترام العمل اليدوى ، بلا جدوى .. حاول ان يقنعهم ان الثقــافة والبراعة فى التجارة ، وأى عمل عقلى آخر لا يفضــل العمل اليدوى ابدا ، فلكل عمل شرفه ..

واراد على بن أبى طالب ان يبث الحماسة فى قلوبهم ، فانشد رجزا اثناء العمل ردده وراءه الاخرون . وارتفعت جدران المسجد على نشيد العمل .. ومضى عمـــار ابن ياسر يستحث بعض المتخلفين ، فانشد هذا الرجز امام جماعة منهم فيهم عثمان بن عفان ، فسخروا منــه ولكن عمار ظل يستحثهم ، واذ ذاك برز له عثمان ..

وعثمان اذ ذاك هو زوج رقية بنت محمد ، وهـــو من أوائل الذين اتبعوه ومن أقرب صحبه اليه .. وهو فوق كل ذلك تاجر من سادات مكة واسع الغنى ، ولقد ضحى بتجارته بمكة وضحى بالكثير وهاجر وحمــل معه أمواله الطائلة ليساند بها محمدا فى مهجره ..

كبر على عثمان بن عفان ان يستحثه عمار ، ابن سمية التى كانت صاحبة ابى جهل قبل أن تسلم ، والتى طعنها

ابو جهل بحربته فى عورتها حتى ماتت

وانقض عثمان بن عفان يهدد عمار بن ياسر بأن يضربه بعصاه على أنفه : لقد سمعت ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية .. والله انى لاراني ساعرض هذه العصا على أنفك وسمع محمد بما كان بين عثمان وعمار .. لماذا يستعلى ابن عفان على ابن سمية الآن اذن ؟ .. بم يفضله ؟ .. أبماله ، أم بزواجه من رقية .. أم بمكانته فى قريش ؟! . ان عمارا ليتبع التعاليم كما يتبعها عثمان ، ولقد ضحى في سبيلها باكثر مما ضحى عثمان ، وانه اليوم لافضل منه لانه يعمل بيديه ويبذل عرقه لكى يقيم مسجدا

لن يصبر محمد على بقاء هذا الصلف فى نفوس رجاله ... انهم ليبرزون معا يتحدون الخطر لبناء حياة جديدة ، ومن المحتم ان يحمل كل رجل منهم نفس الاحترام لاخيه . لايجب ان يشعر واحد منهم انه يفضل أخاه .. الا بعمله .. ومضى محمد يعنف عثمان ابن عفان والذين معه .. واتهمهم بانهم بعدوانهم على عمار يسلكون سلوك الفئة الباغية ! .. ولم يجدوا ما يجيبون به محمدا ، ومضوا يسترضون ابن سمية ... ويقبلون على العمل بأيديهم الناعمة ..

وانتهى بناء المسجد فى أيام قلائل .. فأقبل رجال من أهل يثرب يعلنون محمدا أنهم سيسمون يثرب باسم « المدينة » . فهى مدينة محمد .. وتهيأ محمد لعقد اجتماعاته فى المسجد ، مقبلا على عهد جديد حافل فى المدينة .. وقد اطمأنت نفسه الى المصير ، وأخذ يعدهم بأنهم سيقهرون مكة بصلفها وفسادها .. وشرع يتلو عليهم « وكأين من قرية هى اشد قوة من قريتك التى اخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » ..

نحو المعركة

اصـــبح المسجد الجديد ناديا يتعلم فيه المهاجرون والانصار قواعد السلوك فيما بينهم ، واصول التعامل مع الحياة فى ظل التعاليم الجديدة .. فاذا جاء الليل تحول هذا المسجد الى فندق يبيت فيه فقراء المهاجرين الذين لم يجدوا المأوى بعـــد . كان كل رجل من الانصـــار يستضيف الى داره أسرة من المهاجرين ، ولـــكن دور الانصار لم تتسع لكل من هاجر ، فاذن محمد لمن لم يجد دارا تأويه ان يتخذ من المسجد دارا له . وتعود الانصار أن يقاسموا المهاجرين طعامهم ..

ولقد آخى محمد بينهم .. عقد عهد الاخوة بين هذا النصير وذاك المهاجر : أن يحبه كأخيه ، وان يمنعه مما يمنع منه نفسه ، وان يطعمه ويقاسمه حلو الحياة ومرها ..

وارتفعت الهمهمة من قبائل اليهود ،ان محمدا قد جاء بعدد من الرجال والنساء لا يعلمون شيئا ، وانما يثقلون على أهل البلد ، ويقاسمونهم الطعام والرزق بلا مقابل . وحث محمد رجال المهاجرين على العمـــل .. وفى الحق انهم جميعا كانوا لا يعرفون كيف يكســـبون القوت فى يثرب .. الا من الزراعة غالبا ..

وأهل مكة لا عهـــد لهم بالزراعة .. ولـــكنهم اخذوا يتعلمون كيف يمسكون الفاس ويضربون بهـــا الارض ويلقون البذر ويستنبتون الحقول ويجرون فيها الماء ..

ووجـــدوا من فلاحى يثرب عونا كبيرا .. كانت الحقول خصيبة تتسع لكثير من الايدى العاملة الجديدة ، لتعطى أضعاف ما كانت تعطى ..

أما محمـــد فلم يقم من نفسه ملكا على يثرب كما اراد له المتحمسون من أنصاره ، ولم يعف نفسه من العمل.. ولكنه خرج بنفسه ليتعلم الزراعة بعـــد ان جاوز الثالثة والخمسين ، وهى مهنة جديدة غريبة عليه . وطلب محمد من النساء ان يعملن - أيضـــا - كما يعمل الرجال .. فخرج كثير منهن .. حتى اللواتى تعودن ان يعشن فى مكة من قبل ، ناعمات مستغنيات وراء جدران بيوتهن الحافلة بالغنى ..

وكان محمد وهو يعمل فى الحقول بين الرجال والنساء، يوصى الرجال دائما ان يخففوا عن النساء عبء العمل .. ولقد شاهد أسماء بنت ابى بكر ، تعمل وتثقل رأسها بما تحمله أثناء العمل فى الحقل .. وكان هو عائدا على دابته فطلب منها أن تركب خلفه أوأن ينزل لها عن دابته ،ولكنها استحيت وأبت .. وعندما حكت لزوجها الذى يغار عليها من كل الناس ، أبدى ضيقه بأنها تقوم بأعمـــال شاقة فى الحقول .. وأكد لها ان هذا هو ما يزعجه ، لا ان تركب خلف محمد ..

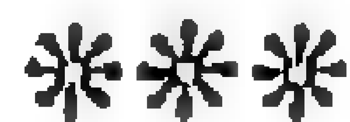
مابال بنت أبى بكر تعمل بيديها وابوها تاجر واســـع الغنى ، ولقد حمـــل معه الى يثرب اربعين الفا من العملة المكية ، ولكن كل مهاجر قادر على العمـــل مطالب ان يكسب عيشه بيديه لكيلا يكون عالة على الانصار ..

على ان المساحة المزروعة من حقـــول يثرب لم تكن لتكفى كل هذا العدد ، فطالب محمد صحبه الاغنيــــاء الذين هاجروا بأموالهم ، أن يشتروا الارض القابلة للزرع

فيستصلحوها ، لتنتج من الثمرات مايقيم ميزان الحياة الاقتصادية بعد تدفق عدد كبير من المهاجرين ..

وهكذا وجد عدد آخر من المهاجرين عملا فى الحقول الجديدة ، وسالت الاموال تنعش السوق والحياة الاقتصادية فى يثرب . وكان من بين المهاجرين عدد كبير من التجار الحاذقين الاغنياء .. فاندفعوا يستثمرون اموالهم لا فى الارض وحدها بل فى التجارة ايضا ..

اما ابو بكر فقد وضع الاربعين الفا التى هاجر بها تحت تصرف محمد ، ليوزعها على الذين لم تتح لهم فرصة العمل ، وعلى غير القادرين . وحث محمد اصحابه ان يصنعوا كما صنع ابو بكر .. ان يضعوا جزءا من اموالهم لمحاربة البطالة ، والعجز .. وعار عليهم ان يجوع بينهم اخ مسلم أو يشكو الحاجة او القلق . وقدم عمر بن الخطاب نصف ثروته ، وقدم آخرون ما جادت به النفس . واندفع الاغنياء من المهاجرين والانصار يرفعون اخوتهم المسلمين الى مستواهم فى المعيشة .. فما يليق ان يلبس واحد منهم الخز ، واخوه المسلم فى ثياب مهلهلة . وما يليق ان يأكل واحد منهم اللحم والثريد ، ومن المسلمين من لا يجد غير التمر ..



وهكذا تقاربت المستويات ، فى يثرب .. لا جوع ولا عرى ، الكل يعمل ويأكل ، والذين لا يستطيعون العمل ، يجدون حقوقهم المعلومة فى اموال اخوتهم المسلمين القادرين .

وشعر أغنياء يثرب ممن لم يدخلوا فى الدين الجديد ، ان ثمة طبقة من الاغنياء تنافسهم على الثروة ، وتفسد عليهم أسلوب العلاقات مع الآخرين .. ان الاسلوب الجديد فى العلاقات بين الاغنياء والفقراء ليشكل خطرا مباشرا عليهم

.. ايجب على كل الاغنياء اذن ان يطعموا الفقراء مما يطعمون ويكسوهم مما يلبسون .. ؟ أجاء الزمن الذى يعيش فيه الاجراء كما يعيش الملاك .. ؟ فأين اذن هو الامتياز الذى يمنحه الفنى .. ؟ ايعطى العمل للاجير حقا مثل المالك الذى يستأجره ؟ .. انه لانقلاب فى كل القيم والموازين .. ولابد من وقف هذا الطوفان قبل ان يقتحم بالثورة على الملاك الاغنياء ! .. وكان معظم هؤلاء الاغنياء من اليهود .. فقددخل العرب جميعا منخزرجهم وأوسهم تحت راية الدعوة الجديدة ..

وتناجى اغنياء يهود ، ومعهم عبد الله بن أبى بن سلول الذى حلم طويلا بتاج يثرب ، فحرمه مقدم محمد تاجه ، وكل ماتهبه السلطة من هيبة وجاه .. ولكن ما الحيلة ؟ ما دام الاغنياء قد قبلوا أن ينزلوا منعليائهم ليعطوا الفقراء فان الفقراء سيحاربون حتى الرمق الاخير دفاعاعماحصلوا عليه .. سيحارب الفقراء جميعا من المهاجرين ومن أهل يثرب ، وسيحارب الاغنياء من أتباعه أيضا .. فقد ادخل فى روعهم أنهم لا يملكون ما اكتسبوه من مال وانما هو ملك للقضية التى يدافع هو عنها . وكان محمد يعرف ما يتناجى به أغنياء اليهود ، وعبد الله بن أبىسلول وشيعته من سراة يثرب ..

***

ورأى محمد الا يبادرهم بالعداء ، فهو فى موقف شديد .. انه لفى حاجة الى أن يتألف قلوب أهل المدينة جميعا ، ولقد نجح فى عقد الصلح بين الاوس والخزرج ، وتصافوا الى حبة القلب فأصبحوا الآن كأن لم يكن بينهم من قبل دم ولاثارات .. وهو يشعر أنمن واجبه أنيجمع كلمة أهل المدينة التى نزل بها لاجئا مستنصرا ، ليستطيع

أن يواجه قريشا عندما تطارده .. فلو أن قريشا هاجمته ـ وفى القاعدة التى يطمئن اليها تغرات ـ لاقتحمت عليه قريش من هذه الثغرات ..

***

ان اغنياء اليهود ، ما زالوا هم سادة الحياة الاقتصادية فى يثرب ، فلديهم المصارف وصناعة الذهب .. وعبدالله ابن أبى ، وشيعته سادة فى قومهم ، لهم نفوذ .. وانهم ليبكون على ما فاتهم من الملك منذ اقبل محمد .. ومحمد يقدر هذا الضعف ويرحمه .. فليحاول أن يطب له ..

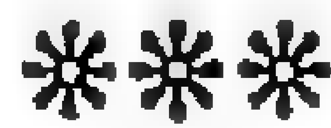
ودعا الناس جميعا الى المسجد ، فحضهم على الوحدة والتعاطف .. ثم انه اقترح أن تكتب صحيفة يتفق فيها الجميع على ان يتحابوا وعلى أن يكونوا فيما بينهم صادقين، وعلى أن يكونوا امة واحدة من دون الناس ، وأن يعطوا المحتاجين ، وان يرعوا حق الجار والا يجيروا قريشا ولا من نصرها ، وانه لا بغى ولا عدوان ولا اثم ، فمن قتل يقتل، ومن جرح غيره أو آذاه جوزى بمثل ما صنع . وأن اليهود والمسلمين حلفاء .. ان اختار اليهود الاسلام فهو خير ، وان بقوا على دينهم ، فلهم اموالهم ومعابدهم آمنين عليها، ولكن عليهم جميعا أن يحاربوا من يهاجم يثرب ، وأن ينفقوا من أموالهم على الحرب ..

ووقع المجتمعون من اليهود والانصار والمهاجرين هذه الصحيفة ، وتعاهدوا على أن ينزلوا العقاب بمن يخرج عليها . ومضى محمد يلاطف اليهود ويترفق بهم على كره من بعض اهل المدينة الذين تعودوا أن يعاملوا اليهود بطريقة مختلفة .. على انه استطاع ان يقنع من كره هذا الاسلوب بأن ما جاء به : انما هو الاخاء والرحمة . واطمأن به المقام، ورأى أن الحائط الذى يستند اليه الآن قد أصبح بلا ثغرات ..

ولكن حياته فى البيت كانت مضنية حقا .. فهو يعيش مع امرأة لا يحمل لها غير الاشفاق والعطف ، وقد ارتفعت بها السن ولم تعد صالحة لتدبير حياته فى البيت. وكانت عائشة قد بلغت الآن مبلغ الانثى ، أنضجتها شمس يثرب. وحدثه أبو بكر ان يأخذها الآن ، فقد شب جسدها ونضج حتى اصبحت كالنساء وان كانت ما تزال طفلة ترتع وتلعب مع الصغيرات ..

واتفق أبوها وزوجها على أن تحمل الى بيت الزوجية، فذهب اليها بعض النساء فجذبنها من على الارجوحة فغسلن وجهها من التراب وحملنها الى بيت الزوج .. وهى ما زالت تنهج من كثرة الجرى أثناء اللعب . وسكن محمد الى عائشة ، وأمر ابنته فاطمة أن تحتفى بها وتتودد اليها ..

وتقدم عمر بن الخطاب يخطب فاطمة .. كانت قد جاوزت السادسة عشرة جميلة ملحوظه الجمال فاعتذر محمد ، وتقدم ابو بكر فاعتذر أيضا . وتقدم عدد من فتيان الانصار والمهاجرين ، وقد خشى محمد أن يعطيها لواحد من الانصار دون الآخر فيغضب .. وتغضب له عشيرته .. أو أن يؤثر بها أحدا من شباب المهاجرين فيغضب الآخرون، من مهاجرين وأنصار .. وكان كل منهم يمنى نفسه بها ، وأبوها محمد يخشى أن يستعلى أحد على صحبه بالزواج من فاطمة ..

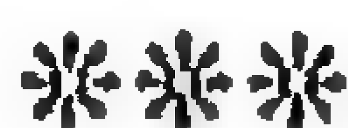


انه ليريد أن يؤكد فى كل القلوب دائما ان القربى منه ليست سببا للاستعلاء ، وأن الانسان بعمله .. حتى لقد عنف عثمان بن عفان ، صديقه وزوج ابنته رقية لانه أغلظ لعمار بن ياسر .. ابن سمية . ومضى محمد يستشير صاحبه أبا بكر ، وعرض عليه أسماء الذين تقدموا الى خطبة

فاطمة .. كلهم فتيان بواسل ليس فى أحدهم ما يعاب .. فقال ابو بكر : « اين انت من على بن ابى طالب .. ؟ » فقال محمد : « انى لاكره لفاطمة ميعة شبابه وحداثة سنه » . وكان على فى الثانية والعشرين .. ولكن ابا بكر قال : « متى رعته عينك حفت بهما البركة واسبغت عليهما النعمة » .. وما زال به حتى أقنعه . وخطبت فاطمة لعلى

ولكن عليا لم يكن يملك بيتا ليتزوج فيه ، فسألت فاطمة اباها ان يمنحها بيتا .. فزجرها ، وتقدم رجل غنى من الانصار يهب الزوجين الشابين بيتا صغيرا له من بين عدة بيوت يملكها . وتمنع على وفاطمة ولكن الرجل اقسم الا يدخل هذا البيت ابدا ، وظل يلح فى هبته حتى اذن محمد لعلى وفاطمة ان يقبلا بيت الرجل بيعا وشراء لا هبة .. وشرع الفتيان والفتيات من المهاجرين يتزاوجون مع الفتيات والفتيان من الانصار ..

واستقرت الحياة الجديدة بالمهاجرين .. وقد وجدوا العمل والرزق وزوجات يسكنون اليهن .. ولكنهم لم ينسوا مكة ابدا ..



حتى محمد نفسه لم يستطع ان ينسى مكة .. كان دائما يذكرها ، وان له هناك تحت التراب لاعزاء . وله فيها كل ذكرياته .. لكم اضطرمت به الاحلام هناك ، وكم شهد من العذاب والضنى ، ومع ذلك فما من بلد احب اليه من مكة . وزاره مهاجر اقبل حديثا من مكة .. فسألته عائشة : « كيف تركت مكة ؟ » ومضى الرجل يصف مكة من بعدهم ، وصوته يرتجف بالاسى على فراقها .. وصف بيوتها ورمضاءها وشوارعها وزحام الناس فى أسواقها والزهرات البرية المتضوعة العبير فى شعابها .. وفاض

الحنين بمحمد حتى لقد سال دمعه فقال للرجل « لا تثر أشواقنا .. دع القلوب تستقر » . وفى الحق أن كل صحابه المهاجرين كانوا يلقون من يوم الى يوم رجلا يحرك منهم القلب ، ويثير فيهم الشوق والحنين .. ولقد تمنوا جميعا أن يأتى يوم تفتح فيه مكة أبوابها لاستقبالهم ..

ان ما يمنعهم عن مكة لهم فئة من التجار تحكم هناك وتنفيهم عن أرض الذكريات والامل .. والمستقبل ! ...
متى اذن يقودهم محمد الغلبة على هذه الفئة الظالمة لينفقوا ما بقى لهم من العمر فى وطنهم ذاك . ولكنهم الآن ما زالوا أقل عددا من أن يحطموا أسوار مكة ، وان منهم رجالا يخشون أن يطالبهم محمد الآن بمثل هذا ، وقد وجدوا هنا الراحة بعد الشقاء ، والكفاية بعد عذاب الحرمان أن منهم لمن يطمئن الان الى حياته الوادعة هنا ..

على أن سادة قريش ما كانوا ليتركوهم وادعين ..

وقد بدأت الرسل تسعى من حكومة قريش الى كبار التجار الاغنياء اليهود فى يثرب تسالهم الحماية حين تمر القوافل فى طريقها الى الشام ، بصحراء يثرب .. فقد كان تجار قريش يخشون ان يوجه اليهم محمد جيشا من الفقراء يغير على هذه القوافل .. وان من بين هؤلاء الذين يخشاهم تجار قريش ، من استولت قريش على أموالهم وتجارتهم عنوة منذ اتبعوه ، ومنهم من صادرت قريش أمواله أو تجارته التى تركها فى قريش ، واشترطت عليه أن ينزل لها عن ممتلكاته لتتركه يهاجر فى سلام..

قريش تخشى أن ينقض هؤلاء جميعا لانتزاع مااغتصب منهم من قبل .. وتسلل رسلها الى اثرياء اليهود ، وخشى أغنياء اليهود أن ينقضوا عهد الصحيفة علانية فيبطش بهم مواطنوهم من الاوس والخزرج ، وينفذ فيهم محمد ما

تضمنته الصحيفة من جزاءات لمن ينقض احكامهـــا .. فلجأوا الى اسلوب آخر فى تحطيم وحدة المدينة . اشاعوا ان قريشا فى خوفها من انقضاض المهاجرين على تجارتها ، ستقطع الطريق على تجارة المدينة ..

وهكذا يحمل محمد اهل يثرب مالا طاقة لهـــم به ، ويعرضهم لعدوان قريش وانصارها .. ويدفع بهم الى كساد فى التجارة . يجلب الازمة والبأساء على الجميع .. حاولوا ان يملأوا الرءوس بهذا التفكير .. ومضوا يثيرون الناس ضد محمد ومن افياوا معه . بينما كان محمد يجلس فى المسجد يتحدث عن السماحة والحب ويطالب الناس الا يظلموا والا ينكثوا بالعهود وان يؤدوا الامانات ثم ينظر الى بلال معجبا به قائلا له : « انت اول ثمار الحبشة » .. ثم يلتفت فيجد صهيبا الرومى . الذى سعى اليه من اقصى بلاد الروم فيطلق ضحكاته على اجنحة الاحلام قائلا : « وانت يا صهيب اول ثمار الروم » . ويقع بصره على سلمـــان الفارسى الذى اندفع اليه بكل قلقه فى البحث عن الحقيقة عبر فارس . والموصل ، والشام وانطاكية . حتى ينتهى الى يثرب فيدخل فى الاسلام .. فيقول محمد لسلمـــان هذا : « وانت يا سلمان اول ثمار فارس » ..

اليهود تكيد . وتحاول ان تصب الفزع فى النفـــوس . ومحمد جالس بين اتباعه من العرب يبتسم لبلال الحبشى ، ولصهيب الرومى وسلمان الفارسى .. حالمـا بأن ترتفـع راية تعاليمه فتظل هذه البلاد جميعا وتجعلها امة واحدة

ثم يأتيه من يحدثه عن رجل باليمامة يحرم الخمـــر ، ويدعو الى الزهد . ويحرم الرجال على النساء بعـــد أن ينجبن اول ولد ، ويحض اتباعه على الصدق ..

ورجل آخر فى حضرموت يطوف بحماره يدعو الناس

الى الفضيلة ، كما كان عيسى بن مريم يركب حماره من الجليل الى القدس يدعو الناس الى العدل والحقيقة .. مرحى ! .. فهو القلق الروحى اذن فى كل مكان ! ..

فى هذه البيئة وحدها ينبت المبشرون ، ويستطيع هو ان يجد المؤمنين بها ليخوض بهم المعارك الى مكة يقهر المستكبرين من قريش ، ويحرر العرب الآخرين من سلطان الفرس والروم ، ويرفع راية العدل والمساواة حيث يقيم القساوسة والدهاقنة والماهرات ، دولة سوداء تسحق كرامة الانسان . ولكن اغنياء اليهود يكيدون .. والحقد الذى ملأ قلوبهم من الطبقة الجديدة المنافسة لا يهدأ .. انهم يريدون أن يستخلصوا يثرب لانفسهم ، يمارسون فيها سلطان رأس المال على مصائر الاجراء والعبيد ، فليقيموا عبد الله بن أبى سلول ملكا لهم يحكم بما يريدون ، ويضع قواعد للتعامل تخدم الاستثمار فى مواجهة ماجاء به محمد

ومحمد فى المسجد بين صحابه .. يعلمهم ، ويحلم بالمستقبل ، واذ بصيحات تأتى من خارج يثرب ..وصراخ بالاستغاثة .. أهى قريش تأخذهم بغتة ؟ .. ويراع الناس ، ويضطربون .. ويسرعون الى خارج المسجد . ويتقدم محمد ولكنه يدخل الى بيته الملتصق بالمسجد ، فيمتشق سيفه ويخرج الى الناس ويجد حصانا بلا سرج فيمتطيه ويسرع به الى خارج يثرب وحده ، شاهرا سيفه هاتفا فى الناس : « لن تراعوا .. » وقبل ان يلحق به أحد .. كان قد خرج وعاد ، ليقول للناس انه لم يجد غارة ، وانه ما من شيء هنالك يخافونه .. على أنه آثر أن يحتاط حتى لا يدهمهم أحد بعد على غرة .. ولكى يقضى على حرب الاعصاب التى يشلهرها اليهود خفية ، قرر أن يرسل سرايا من المهاجرين ، تطوف حول المدينة والطرق المؤدية اليها ..

فليطمئن كل من فى المدينة وليأمن ..

ولم يكد يتهيأ لارسال هذه السرايا ، حتى دهم المدينة وباء ، ومرض عدد كبير من المهاجرين .. وقيل فى المدينة ان المهاجرين حملوا معهم هذا الوباء ، فعلى هؤلاء الذين اقبلوا بالوباء أن يعودوا

اما المهاجرون فقد ايقنوا ان الوباء جاءهم من المدينة فكرهوها .. بعد أن اطمأنت حياتهم فيها .. على ان اثرياء الانصار بذلوا من اموالهم ليلتمسوا الطب للمرضى من المهاجرين . والوباء ينتشر رغم ذلك حتى لم يعد فى المدينة درب او زقاق لا يرقد فى أحد بيوته مريض يهذى من الحمى .. وألحت الحمى على الناس حتى لقد حسب المهاجرون انها القاضية .. وتمنى بعضهم لو انه عاد الى مكة بدلا من ان يموت غريبا فى يثرب ، ومضى محمد يطوف بهم ويدعو ربه أن يحبب اليهم يثرب كما حبب اليهم مكة

وعندما خفت حدة الوباء بدا المسجد يعمر برواده .. ولكنهم كانوا منهكين من اثر الحمى .. حتى لم يكن الواحد منهم يقدر على الوقوف . وكان ابو بكر من بين الذين مرضوا ، واشتدت عليه الحمى حتى لقد كان يهذى .. فأرسل اليه محمد عائشة تخدمه حتى يشفى . ومرضت رقية ، فطلب محمد من زوجها عثمان بن عفان ان يلازمها ..

وعندما انقشع الوباء تماما ، كان قد خلف وراءه كثيرا من الضحايا .. وخلف رقية معتلة نحيلة لا تقوى على النهوض . وهذا الوباء .. ثم الذعر ايضا !.. هاهم أولاء اعداؤه من اليهود قد عادوا يتحدثون عن غارات وهمية

وكشف عبدالله بن ابى قنانعه ، فواجه محمدا اثناء طوافه بالمرضى بلهجة منكرة ان يلزم بيته ، والا ياتى الناس فى دورهم بما يكرهون !

وصبر محمد .. فلم يكن يريد ان يثير فتنة فى المدينة ، والناس فيها يتساقطون من أثر الوباء صرعى كالاوراق الجافة .. ولزم محمد داره عدة أيام . ولكن رجالا من يثرب سمعوا ما قاله ابن أبى لمحمد ، فعجلوا اليه ياومونه ويغلظون له ، واقسموا على محمد ان ياتى الناس فى دورهم كما كان يفعل ، فليس أحب الى الناس من أن يلقوه ..

وكان اتباع ابن أبى ، يعاملون بعض المهاجرين بنفس الطريقة : يحرجونهم كلما سنحت الفرصة ، ويحملونهم مسئولية الوباء ، ويمنون عليهم أنهم آووهم واطعموهم .. وانهم يعرضون يثرب الآمنة لغارات قريش وحلفاء قريش

ونصح محمد صحبه أن يصبروا ، ولكن رجالا من الانصار غضبوا لما يحدث وحاولوا أن يضربوا من يتعرض للمهاجرين فنهاهم محمد ، وطلب منهم ان يصفحوا وأن يلقوا الاساءة بالعفو .. فما ينبغى ان تحدث فتنة فى المدينة ، التى يعتبرها مركز انطلاق لدعوته

وهيأ سرية من ثلاثين رجلا ، كلهم من المهاجرين الذين يحسنون ركوب الخيل والضرب بالسيف ، وجعل حمزة سيد الفرسان اميرا عليهم ، وامرهم أن يخرجوا فيطوفوا فى الصحراء خارج يثرب ، فليتحسسوا ان كان أحد يدبر غزوا .. وامر عبيدة بن الحارث وسعد بن أبى وقاص أن يخرجا على راس ثمانين من فرسان المهاجرين ليبحثوا فى طريق آخر ..

ستطوف السرايا منذ اليوم خارج يثرب ، تبحث فى كل الطرق المؤدية اليها ، لترى ان كان هناك من يهددها ، على أن ترجع هذه السرايا بالاخبار دون أن تشتبك فى قتال .. أما سرية عبيدة ، فقد لقيت قافلة عظيمة من قريش ، فهرب من القافلة ثلاثة رجال لحقوا بالمهاجرين

.. واضطرم غيظ عكرمة بن أبى جهل رئيس قافلة قريش فأطلق سهما على سعد بن أبى وقاص ، وضمد سعد جراحه وانتزع السهم دون أن يخوض الحرب .. عليهم الا يخوضوا الحرب الان مهما يلقون ، بهذا أمرهم محمد

وكان سعد أول من رمى السهم من أصحاب محمد .. «سيأتى يوم ترد فيه هذا السهم ياسعد .. فأصبر

وأما حمزة فقد اختار أن يمضى بسريته الى شاطىء البحر الاحمر ، فربما اختارت قريش ان تأتيهم عن طريق الشاطىء .. لكن حمزة لم يعثر بغزاة بل قابل قافلة ضخمة يقودها أبوجهل نفسه ، ومعه ثلاثمائةرجل مسلحون يحرسون القافلة .. هو ذا أبو جهل مرة أخرى يا حمزة ، لكم يغريك منظره بأن تشج رأسه كما صنعت منذ سنوات،

واستفز أبو جهل غضب حمزة مستنصرا برجاله الثلاثمائة فأوشك حمزة أن يخوض غمرات المعركة برجاله الثمانين ضد الثلاثمائة قرشى .. غير أن رجلا حكيما من قبيلة جهينة التى تقع على شاطىء البحر الاحمر ، تدخل فى الموضوع وكان موادعا للفريقين ، وكان حمزة وأبو جهل جميعا يحرصان على الا يغضباه .. وفرق الجهنى بينهما .. ومضى كل فى طريقه .. وعاد حمزة وهو يحس ان الايام القليلة القادمة تحمل فى أطوائها الحرب .. وحكى لمحمد كل ما كان .. وبدأ محمد يستعد للمعركة ..

متاعب جديدة

قال رجال فى المدينة لو انه كان كما يزعم لنا حقا لما مرضت ابنته وصحبه ، ولما فقد بعض اصدقائه ولما دهم مدينته الوباء . ومضوا يتهامسون : ان هو الا ساحر كما قالت عنه قريش ، وقد بطل هنا سحره ! .. وسمع هو ما قاله المرجفون فى المدينة لبعض من اتبعه ليفتنوهم عنه .. ! وادرك ان الشك قد بدأ يغزو قلوب بعض الاتباع .. فلئن كان صادقا فيما جاء به فلماذا لا يقوى بعد على ان ينتشل ابنته رقية من الحمى ، ولماذا لم يستطع ان ينقذ حياة بعض اتباعه الذين سقطوا فى الوباء ! ..

ذهب اليه بعض المؤيدين يستنكرون ما يقال فى المدينة عنه ويواسونه ، واخذوا يطرونه .. فرفع اليهم رأسه التى اثقلها الفكر ، ليقول لهم فى ضيق : « لا تطرونى » .. وتقدم اليه رجل من الاتباع متحديا المرجفين والمتشككين قائلا : « لماذا لا نطريك وأنت سيدنا جميعا ؟ »

ولكنه نهر الرجل ، وثار عليه ، وعلى الرجل الذى كان يطريه .. ومضى يحذر السامعين أن يمدحوه مرة أخرى ، فيفسد كل شىء اذن .. يجب ان تتنزه علاقاتهم به عن هذا الاطراء . يجب الا يجعلوا له مقاما فوقهم ، يجب الا يقدسوه .. فان هو الا بشر مثلهم يخطىء ويصيب فى شئون الحياة ، فعليهم أن يواجهوه بالرأى الصريح فالامر كله شورى بينهم .. ولئن سكتوا عنه ولم ترتفع الا

أصوات الثناء ، فستختنق دعوته الى الحق والخير فى ضجيج الطقوس ، ورنين الاطراء ..

ان هو الابشر ..بشر مثلهم ، لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه أو غيره المرض أو الموت .. وانه ليبكى مثلهم ويضحك ، ويتعب جسده وينشط .. وينام ويصحو ، وانه ليغضب مثلهم تماما .. وانه ليجوع ويعطش ، ويأكل الطعام ويمشي فى الأسواق .. ولا يعرف الغيب وما هو بمعجز ، فما البشر بمعجزين .. لكنما فى الصدر منه تتأجج الكلمة المضيئة التى يقتحم بها مجاهل الظلمات ليضيء شعاعها كل طرق الانسان الى الحق والعدل والعافية والصدق والخير

واحتقن وجهه ، وغلى دمه ، ومرض هو نفسه .. فجاء اليه طبيب يعالج المرضى بفصد الدم .. وجرحه الطبيب ليسيل الدم الفاسد منه ، وعندما سال الدم حاول الطبيب أن يلعقه .. ولكن محمدا اشمأز من الطبيب وزجره ، ونظر الى من حوله غاضبا : كل الدم حرام .. حرام .. »

وصح من مرضه ليواجه هذه الحالة الغريبة التى تغشى المدينة : أعداؤه من اليهود وحلفاؤهم من شيعة عبد الله ابن أبى يشككون فيه ، بينما يبالغ أنصاره فى تقديره حتى ليوشكوا أن يحولوه الى اله يتعبدون له . ومضى يؤكد لهم أن ما جاء به ليس هو التقديس لذاته ، ولكنه جاء بالاخاء والمساواة والعدل .. جاء لتحرير القلب من سلطان الكهنوت والاوثان ، وبتحرير الجهد الانسانى من الاستغلال وتحرير الرقاب من النخاسين .. جاء بتحرير الوجدان من الزراية والهوان والخوف ، لتنطلق كل طاقات الانسان تؤكد فوق هذه الارض نبالة المجهود البشرى ..

انه ليطالبهم بالعبادات التى جاء بها .. لكنه يطالبهم أن يثقفوا عقولهم ويفنوها ، ان يتعلموا الكتاب والحكمة .. أن يطلبوا العلم ولو فى بلاد بعيدة لاتؤمن بما يؤمنون به .. ولو فى الصين ! فالعلم وحده هو الذى يشعر الانسان بما له من خطر .. هو الذى يؤكد له ان لا فضل لاحد على الآخر الا بالمعرفة التى يزخر بها القلب .. هو الذى يحطم الصلف الزائف ، ليدعم فى النفس الشعور بالكبرياء الصادقة .. هو الذى يجعل الانسان مهيبا امام كل القوى الغاشمة كقلعة حصينة الاسوار ..

ومن أجل ذلك فهو يقول لهم .. الحق يقـــول لهم : « فضل العلم خير من فضل العبادة » . ان أصـــــحابه ليسرفون فى العبادة : يقومون الليل ويصومون النهـــار ، ومنهم من يعتزل النساء .. ولكنه لم يجىء بهذا ، وانه ليقنعهم انه هو نفسه يأكل ويشرب ويحيا الحياة ويعاشر النساء ويستمتع بالطيبات من الرزق .. فالدين الذى جاء به هو اسلوب فى معاملة الآخرين ايضا .. لقد قيل له ان فلانا مؤمن عميق الايمان يكثر من صلاته وصدقته وصيامه غير انه يؤذى جيرانه ، فقطب وجهه قائلا : هو فى النار !.

ولقد دخل ذات مرة على زوجته عائشة فوجد عندها نسوة من صاحباتها ، بينهن واحدة لا تخطىء جمالهـــا العين ، ولكنها رثة الثياب زرية الهيئة يختفى حسنها فى كآبة غامرة .. فسألها : ما بال المرأة ؟ فقالت له عائشة انها لزوجة أحد اصحابه ، ان زوجها يصــــوم النهار ويقوم الليل !

ما عسى أن تصنع الزوجات ان شغل عنهن الرجـــال بالعبادة .. انه لم يجىء بمثل هذا أبدا .. وارسل الى

من يدعو الزوج .. حتى اذا لقيه قال له : « بلغنى انك تصوم النهار وتقوم .. الليل ، فلا تفعل .. فان لجسدك عليك حقا ، ولزوجتك عليك حقا » ..

وانصرف الرجل ممتثلا للنصيحة .. وفي الصباح التالى كانت زوجته تملأ مجلس عائشة مرحا ، يفوح منها العطر ، وقد تورد خداها وجرى ماء الحياة فى وجهها .. وسألتها عائشة : « ما هذا ؟ » . فقالت الزوجة وجذوة السعادة تتوهج فى عينيها الباسمتين : « أصابنا ما أصاب الناس » .. وهكذا مضى يكسر حدة الاعداء الشانئين ، وحدة الاتباع المتزمتين على السواء ..

والحياة فى المدينة بعد ذلك تمتحنه بما لم يواجهه من قبل .. فصحبه المقربون الذين يعتز بهم ، يسلكون على غير ما يرضيه .. حمزة ، عمر ، وآخرون .. لقد اعتزت الدعوة بحمزة وعمر وقد زلزلت قريش كلها حين انضما اليه ، ومع ذلك فقد جاء الزمن الذى يواجه فيه حمزة وعمر وغيرهما بما يكرهون ..

وها هو ذا حمزة بعد أن رجع من رحلته التى قابل فيها أبا جهل وفرسان قريش ، يعود الى سلوكه السابق وحياته القديمة من الخمر والغزل .. انه أذن فى الخامسة والخمسين ، انقطع طويلا عن حياة الليل ، ولكنه منذرأى الموت يواجهه فجأة على ساحل البحر عاد الى المدينة يجرع من متاع الحياة بظمأ غريب ، لا يرويه شىء .. حتى لقد ظل ليلة كاملة يشرب الخمر ، مع فاتنتين من بنات اسرائيل رقصتا له وغنتا ومتعتاه ، فغدا على المسجد يتحدث عن جمالهما ولا يخفى على أحد أنه استمتع بهما .. كان يتطوح ويتضاحك وهو يقبل على المسجد ..

وأنكره محمد حين رآه ، ولكن حمزة الذى كان ما يزال

فى سكر الليلة الماضية نظر اليه والى من حوله قائلا باستخفاف : « ان انتم الا عبيد آبائى » .. وانطلق يتهيأ لاستقبال ليلة أخرى ممتعة مع حسان المدينة المغنيات فى بيوت يهيئها بعض سراة اليهود لاستقبال الرجال المسلمين ! . . هذا اذن هو ما تفعله الخمر ببعض الرجال . . وهكذا تكيد اليهود !!

ماذا يفعل الآخرون ان كان حمزة يصنع مثل هذا ؟ . . ومضى محمد يحض اصحابه أن يمتنعوا عن الخمر ، فمهما يكن فيها من منافع فان فيها لاثما كبيرا .. لكم يحرجه سلوك حمزة . . على ان حمزة افاق لنفسه ، فأعلن ندمه أمام الجميع ، وأقسم الا يقرب الخمر ولا نساءغيرزوجاته .. وظل يبكى من الندم حتى غسل خطيئته بالدمع فأخذ محمد يخفف عنه . .

ولم يكد محمد ينتهى من امر حمزة حتى سعى اليه أبو بكر يشكو عمر بن الخطاب ، فقد اختلفا على شيء فاحتد عليه أبو بكر . . ولكن عمر بن الخطاب اغلظ له . . وخيل لابى بكر أنه هو الذى اعتدى على عمر ، وحاول أن يعتذر اليه ولكن عمر رفض اعتذاره . . ايمكن أن يحدث كل هذا بين اصدق الناس به .. ؟

على ان عمر بن الخطاب جاء بعد هذا ، فقال له محمد وهو ينظر الى الملتفين من حوله : « ابو بكر صدقنى حين كذبتمونى ، وواسانى بنفسه وماله ، فهل انتم تاركون لى صاحبى ؟ » .. وتصافى عمر وأبو بكر ..

خلافات أخرى كثيرة بين المهاجرين ظلت تشتجر حول حدود الارض التى استصلحوها فى المدينة .. ومحمد يطالبهم الا يتخاصموا والا يتفرقوا والا يغرهم متاع الحياة .. فالاموال فتنة . كل هذا ويهود يثرب يكيدون . حرب الاشاعات ، وحرب الاحراج ، وأخيرا حرب المال ..

لم يطق يهود يثرب وجود طائفة أخرى من اغنيــــاء المهاجرين ممن اتقنوا التجارة .. وليس آبرع من تاجر قرشي ، ان منهم الآن من يفوق آغنياء اليهود مالا .. كعبد الرحمن بن عوف مثلا : ووضعوا الخطط لضرب الاقتصاد الجديد : صفقات وهمية فى سوق بنى قينقاع ،ومضاربات ومغامرات لتثير الذعر أو الانهيار فى الســوق .. وهكذا خسر تجار المهاجرين والانصار !

وما فى المدينة كلها غير سوق بنى قينقاع ..وطلبمحمد من التجار المسلمين أن ينشئوا سوقا جديدة لايتسربإليها احد من مضاربى اليهود أو من شيعة عبد الله بن أبى ، فيخرب اقتصادياتهم . وأنشأوا السوقالجديدة،فنشطت المعاملات فيها ، وأقبل التجار الغرباء اليها .. آثروهاعلى سوق بنى قينقاع فقد كانت قواعد التعامل فيها أكثـر عدلا وأوفر ضمانا للبائع والمشترى . وكان دستور العمل فى هذه السوق هى القواعد التى جاء بها محمد : لا ربا ، ولا ارهاق ، ولا غـرر ، ولا غـرار ، ولا تعــامل على بضاعة لم توجد بعد .. البائع يضمن سلامة مايبيع ويضمن للمشترى نقاءه من العيوب . العــدل واحترام الحقوق المتبادلة دستور هذه السوق الحديثة ..

ثم حسن التعامل مع المعسرين .. فقد قال لهم محمد: « من يسر على معسر فى الدنيا يسر عليه فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » ثم وعد من يتنازل عن جزء من دينه للمدين المعسر بأن « يظلهالله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل الا ظله » ووعدهم أيضا أن « من يفرج عن معسر تستجاب دعوته وتفــرج كربته » ..

وفى هذه السوق ارتفعت نـــداءات المبشرين بالدين

الجديد .. ورأى التجار الغرباء أن هذه القواعد الجديدة التى تحكم البيع والشراء ، لهى أعدل وأحرى بأن تتبع من كل ماعرفوه ،واذن فالعقيدة التى تشكل اخلاق المؤمنين بها على هذا النحو ، جديرة بأن تعتنقها القلوب ..

ودخل فى الاسلام عدد من هؤلاء التجار الغرباء ... فأيقن كبار التجار اليهود فى المدينة أن هذه العقيدة بتعاليمها فى البيع والشراء ، يمكن أن تشيع بين القبائل والمدن العربية ، وتجذب الناس فتفسد الامر عليهم ، وتهدد مصالحهم تهديدا جديا .. والتقت مصالح يهود المدينة بمصالح كبار التجار فى مكة .. فشرعوا يصدون القبائل الاخرى عن السوق الجديدة ، وعن محمد جميعا ..

واهتموا بصد الشعراء من القبائل الاخرى .. وكانت سوق المدينة ، قد اخذت تجتذب الشعراء ، فقد صمم التجار المسلمون ان ينافسوا بها أسواق مكة .. واقاموا فيها المنابر ، ليلقى عليها الشعراء آخر ما نظموه من قصائد .. والشاعر هو المعبر عن آلام القبيلة ومفاخرها .. هو الذى يرفع ذكرها بين القبائل الاخرى بالكلمة الساحرة التى تبهر ، ثم ترسخ فى العقول وتتناقلها الاجيال ..

لو أن واحدا من هؤلاء الشعراء الفحول أقبل الى سوق المدينة ، فاقتنع بتعاليم محمد ، أو اغدق عليه بعض الاغنياء من أتباعه ما يشتهى من مال ، فانطلق الشاعر يتغنى بمحمد وتعاليمه ، لاشتهرت هذه التعاليم عبر الجزيرة ، وارستها الكلمات الساحرة المنظومة فى كل القلوب ..

ان محمدا نفسه ليدرك هذا ، وقد اصطنع هو بنفسه الشاعر حسان بن ثابت ، ومحمد فى ادراكه لسلطان الكلمة ودورها فى الدفاع عن العقيدة يتمنى ان ينضم الى حسان شعراء آخرون من الفحول . ولكن تجار اليهود

وتجار مكة بفهمهم لخطورة الشعراء فى المعركة اتفقوا على أن يحولوا بين محمد ، وبين هؤلاء المثقفين الرواد ذوى النفوذ الادبى الكبير ..

وخشى اليهود أن يستفزوا غضب محمد .. وهم مواطنون له بالمدينة بينه وبينهم معاهدة مكتوبة فى صحيفة. أن يحموه ويحميهم ويمنعهم ويمنعوه ! ..

لقد صبر محمد كثيرا عليهم ولكنه لن يصبر على صدهم الشعراء عنه .. الا الشعراء ! .. فهو رجل يمجد الثقافة والمثقفين ويعرف خطر الشعراء ، ويتمنى أن يعتز بهم وينتصر ، وانه ليعامل حسان بن ثابت برعاية خاصة لا يعرفها أقرب الناس اليه حتى أبو بكر .. انه على الاقل يفهم نزواته ، ويؤكد له ان كل دوره فى الدين الجديد : هو ان يقول الشعر .. ان الدور الذى يؤديه هذا الشعر ، ليخفف عن الشاعر كثيرا من الاعباء التى يطالب بأدائها الآخرون ، حتى لقد جاء رجل من المسلمين المتشددين يلعن حسان بن ثابت أمامه لانه يشرب الخمر ، فقال محمد : «لا تلعنه .. انه يحب الله ورسوله »

وان اصحاب محمد ليعاملون الشاعر باكبار خاص ، انهم ليعرفون انه اعلى الاصوات تعبيرا عن الوجدان الجديد .. انه مفخرتهم بين الامم والقبائل وهم ايضا يتمنون لو اعتزوا بشعراء آخرين من طراز حسان بن ثابت .. ليتهم يضمون اليهم أمية بن الصلت ، ولكنه فى الطائف .. وما زالت ثقيف منذ طردت محمدا تحمل لهم العداء ، ولقد حالفت قريشا عليهم ..

ومالك بن زهير .. ليته يقتنع بالعقيدة الجديدة ..

والاعشى .. هذا الرجل الذى تتردد أشعاره كأنغام الصناجات ، لو انه اقبل اليهم أيضا فستردد الجبال

والوديان رجع تعاليمهم ، وتتغنى بها العذارى فى الخدور والجوارى فى بيوت اللهو ، وفرسان العرب وهم يخوضون المكاره ..

ولم ينتظر أصحاب محمد حتى يسعى اليهم الشعراء فقد مضوا هم اليهم بينما رسل قريش يصدون هؤلاء الشعراء .. ويغرونهم بالمال الكثير . على أن من الشعراء من لا يثنيه اغراء المال .. وما من شيء يمكن أن يصده عن السعى الى الحقيقة .. لا المال ولا التهديد بالاذى ، فهو يندفع مع أشواقه وقلقه الى المدى ..

وكان القلق يغزو قلب أمية بن الصلت ، ولكنه لم يحاول أن يسعى الى محمد لانه وجد نفسه ـ هو الشاعر الفحل ـ أحق من محمد بهذه الدعوة !. أما مالك بن زهير فقد رفض تعاليم محمد أول الامر ، وبدلا من أن يكسبه المسلمون الى جوارهم لينتصروا به ، انطلق يهجوهم ، ويفحش لهم .. وتدفقت عليه الاموال وسبائك الذهب يحملها رسل من أثرياء اليهود وأثرياء مكة ..

ولكن الاعشى وجد فى التعاليم الجديدة شفاء لبعض قلقه .. كان دائما يبحث عن المجهول ، وعن حل لما يراه ويسخطه .. فهو أبدا ينتقل من بلد الى بلد ، يتغنى بالحياة ، ويطرب الناس بشعره ، ويحظى بالهدايا والمال من السادة الذين يتنافسون على استقباله واستضافته .. من بلد الى بلد ،من فاتنة الى فاتنة أخرى جديدة على أجنحة تصنعها الخمر المعتقة ، بحثا عن الراحة وسعادة القلب .. حتى لقد ألف الخمر والغزل . وفى بعض هذه الرحلات سمع عن محمد ، وعن سوق المدينة وعن تعاليم الرجل .. فقرر ان يخوض المغامرة وان يذهب الى محمد ..

وأنشأ قصيدة طويلة أقسم فيها الا يرحم ناقته من

السفر « حتى يلاقى محمدا » وعرفت قريش بالامر ، فهرع اليه رسلها يصدونه .. وحاولو أن يمسكوا بزمام ناقته ، فزجرهم وطلب منهم أن يتركوها فان لها فى « أهل يثرب موعدا » .. وأغروه بالمال فما نفع الاغراء ، واخيرا احتالوا عليه .. قال له قائلهم متلطفا : « يا أبا بصير انه يحرم الزنا » ومضوا يصورون له الحرمان الذى يجب أن يعانيه فى ظل التعاليم الجديدة .. لاغزل بعد ، ولا انطلاق من عشيقة الى اخرى وانما التزام بالزوجة ..

وفكر الاعشى قليلا ، ثم قال : « هـذا لا أرب لى فيه بعد » . فقال له قائلهم : « فانه يحرم الخمر يا أبابصير » فبهت الاعشى .. ثم لوى زمام ناقته راجعا وهو يقول : « أما هذه فان فى النفس منها لعلالات ، ولكنى منصرف فارتوى من الخمر عامى هذا ثم آتيه فاسلم » ..

غير أن الاعشى لم يأت محمدا ابدا .. ظل يشرب ويشرب فى جنون الاحساس بأنه سيحرم الى الابد من هذه الخمر التى يحبها ، حتى مرض ومات .. وعلم محمد وصحبه بما كان . ولم تكن الخمر قد حرمت تحريما قاطعاً بعد ، ولكنه كان يحض الناس الا يشربوها لان شرها أكثر من نفعها

وحزن المسلمون لانهم خسروا عبقرية الاعشى ! .. ان قريشا تفرض عليهم الان حصارا جديدا بصدها الشعراء الفحول عنهم ، وهى بعد تغرى بعض هؤلاء الشعراء ليشهروا بهم .. هذا الاسلوب الخطير من الحرب الباردة يجب أن يقابل بمثله ..

كل هذا الكيد من قريش ، وفى الجبهة الداخلية يكيد اليهود وعبد الله بن أبى وشيعته .. ويذيع شعر لمالك ابن زهير يهجو به محمدا وصحبه وأنصاره ، وينتشر فى احياء اليهود بالمدينة شعر آخر ساخر .. صنعته يهودية

شاعرة .. ويستفز محمد بيان حسان بن ثابت ويغريه بأن يرد على شعر الاعداء جميعا ، ويرد حسان فيفحش ، ويتحرج بعض صحاب محمد من هذا الشعر الفاحش ولكن محمدا يتركه يقول كما يشاء .. فليكل لهم حسان بنفس الكيل ..

والمهاجرون لا يسلكون معهذا كما يحب لهم محمد.. لم يعد أحد يشرب الخمر باسراف منذ حادثة حمزة ، ولم يعد أحد يخاصم اخاه بغلظة منذ تصالح عمر وأبو بكر .. ولكن الطمع لم يكن قد هجر القلوب بعد ، وما برح رجال من المهاجرين يعتدون على حدود بعضهم ..

أحلام الغنى قد بدات تملأ رءوس البعض منذ منحهم العمل فى الارض شيئا من المال .. وانمنهم لمن يستمرىء الراحة الان ، بعد أن كافح فى مكة وتحمل العذاب هنالك ، وان منهم لمن ينتهز فرصة النعيم الجديد ليستقوى .. وقد أخذ محمد ينظم شئون المدينة فيقيم فيها المسئولين عن هذا العمل أو ذاك . ومع ظهور المناصب ، بزغت طائفة تتقرب وتحاول أن تحصل على مالا تستحقه .. ظهر من يطالبون بالتعويض عما تحملوا فى سبيل العقيدة الجديدة . لقد كافحوا لبعض الوقت وهم يطالبون الان بالاتعاب وان منهم لمن يحسد أخاه على ما نال ..

الطريق ما زال بعدطويلا شاقا ، مليئا بالمتاعب !. . ومحمد ينصح لهم جميعا الا يحملوا فى قلوبهم غير الحب فما يجتمع فى جوف عبد الايمان والحسد ..

وانه ليؤكد لهم أن خيرهم هو من يتفانى فى سبيل ما يؤمن به ، وان الطمع فى متاع الحياة الدنيا يفسد القلب وان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار العشب ..

ثم انه ليأمرهم أن يكون الانسان فى عون أخيه ، وأن افضلهم ليس هو أغناهم ولا أعلاهم منصبا ، وانما هو أعفهم يدا وأتقاهم قلبا .. وانه ليغريهم بأن يملأوا قلوبهم بقيم الفضيلة لا بالطمع فى الغنى والجاه ..

وكان لتعاليمه رجع طيب فى كثير من القلوب ، ولكنه فوجىء ذات يوم على الرغم من كل ما يقوله بأحد المهاجرين يطمع فى درعين عند زميل له ، فيسرقهما .. السرقة أيضا .. على الرغم من كل النصائح ، ومن كل التحذيرات ؟! .. وأمر محمد أن تقطع يد السارق ان ثبت عليه انه سرق .. فهذا هو الحد الذى جاء به .. فالذين كتموا أحقادهم ليتهم الواحد منهم أخاه بالسرقة .. انفجرت المنافسات ، واليهود وراء هذا كله يؤججون القلوب بالبغضاء ويلقون العداوة فى نفس المسلم ضد أخيه المسلم ليحرجوا محمدا ..

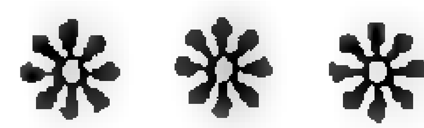
وأعلن محمد أن من شهد زورا ، عوقب على شهادة الزور ، ومن اتهم غيره بلا حق عوقب على هذا الاتهام ، ومن شهر بغيره عوقب على هذا التشهير .. على من يدعى ضد غيره أن يثبت دعواه ، وعلى المدعى عليه الا يكذب فان كذب أخذ بكذبه ..

واهتم محمد بحادثة سرقة الدرعين فأخذ يحققها بنفسه .. ودخل فى دوامة عجيبة أغضبته .. هذا الرجل يتهم ذاك ولا يقيم بينة ، ويسأل محمد المتهم فيغضب أقاربه ويرون فى التحقيق معه اهانة له !.. لقد تألف القلوب المتخاصمة فى المدينة ، ولكن قلوب الذين هاجروا معه تتنافر الآن ، وان من هؤلاء المهاجرين لمن يذكر تضحياته ، ويطالب بالقصاص ممن يشهر به ، والحقيقة غامضة .. والسارق الحقيقى لا يريد أن

يتقدم فيعترف . ومحمد مصمم على أن يجد السارق الحقيقى فيعاقب ليبين الحق ، وتظهر براءة الذين اتهموا .. ولكيلا تكون سرقة بعد ..

وخلال هذا الضجيج الذى ثار فجأة هرب السارق الحقيقى .. عاد الى مكة ، والتجأ الى بيت امرأة كان يعشقها قبل أن يدخل الاسلام .. اذ لم يجد له فى مكة دارا ولا مالا ، فقد صارت قريش كل شيء له ..

وحركت هذه الفتنة شاعرية حسان ، فأنشد قصيدة يهجو فيها السارق والذين أججوا البغضاء .. وعرض لهرب السارق الى مكة ، وذكر المرأة التى آوته هناك ، وشهر بسمعتها .. وذاع الشعر حتى حفظه فتيان من قريش ، واسمعوه لتلك المرأة ، فدخلت على صاحبها السارق تشتمه وهى تقول : « انما أهديت لى شعر حسان !! » ثم أخذت رحله وطرحته خارج المنزل ..



على الرغم من هذا كله ، فقد كان على محمد أن يحرس المدينة من العدوان

كان عليه خلال هذه الدوامات المتموجة أن يواجه قريشا بكل سلطانها ، أن يفرض عليها هيبته .. فلا تصد عنه الذين يريدونه ، ولا الشعراء ، ولا تغرى به من يهجوه ولا تتآمر ضده مع بعض مواطنيه فى المدينة

كان عليه أن يتابع ارسال السرايا ، ليتحسس من أمر قريش ، وليؤمن الصحراء من حول المدينة ، فلا تفاجئهم قريش بالغزو .. لا قريش ولا احدى القبائل التى تحالفت معها .. كان عليه وسط كل هذه الدوامات المتلاحقة ، أن يهيىء للكفاح قلوبا بدأت تأنس اللين وتألفه، بعد أيام الاستبسال الاولى ..

اليهـود يكيـدون ، وشـيعة عبد الله بن أبى تثير البغضاء ، وبعض المهاجرين يشغله جمع المـال ، ومنهم من ينفس على أخيه مكانته .. وبعض الذين ناضـلوا بشجاعة فى أول الدعوة ، يستنيمون اليوم الى طيب المنام .. وقريش تتأهب للعـدوان عليهم جميعا .. ! ومضى محمـد يذكرهم بالطريق الطويل الذى يجب عليهم أن يخوضوه معا ، على الرغم من الاشـواك والصـخور ..

فليستعدوا اذن للايام الصعبة القادمة .. فلمن حارب ومات فى الحرب دفاعا عن عقيدته ، فسيعوض عن مزرعته حديقة فى الحياة الاخـرى ، وسـيكون له بدلا من بيته قصرا ضخما .. وبدلا من ازوجته حوريات أبكارا لم تقع العين على مثل جمـالهن .. الحيـاة عرض ، سيتركه الانسان ذات يوم .. فكل انسان يموت ، ولكن الموت فى الحرب شىء آخر ، انهم لن يحاربوا طمعا فى الاستيلاء على قـريش ، ولكنهم سيحاربون دفاعاً عن وجودهم ، وعن الاشياء التى يؤمنون بها والتى يحبونها .. انهم سيقاتلون دفاعا عن المسـتقبل . وليذكروا أن الانسـان يجب أن يموت ذات يوم .. ويوم يموت تتبعه الى قبره ثلاث : أهله ، وماله ، وعمله .. ثم يعود الاهل الى سـيرتهم ، ويتفرق المال ، ولا يبقى للانسان غير عمله !

وألح محمد على المهاجرين والانصار بهذه التعاليم .. فأخذت سبيلها الى الاعماق يوما بعد يوم ، تحتل مكانها الى جوار الطمع فى السـلطة والمـال والارض ، وامتلأت بعض القلوب بهذا الايمان ، وبدأت تتواثب بين الضلوع فى شوقها الى يوم تلمع فيه السيوف دفاعا عن المستقبل

وبدأ هو يقـود السرايا بنفسه ، ويخرج ثم يعـود بالطمأنينة الى أهل المدينة . وكان كلما خرج يضع مكانه

رجلا من بسطاء المسلمين .. لكيلا يستعلى أحد من السابقين الى الايمان به أو المقربين اليه ..

ورأت اليهود موجة نشاط جديدة تهز القلوب فعادت تكيد .. وكان من رجال اليهود ونسائهم من يقوم بأعمال السحر .. وللسحر اذ ذاك سلطان مخيف على بعض العقول ، وصنعت امرأة يهودية سحرا يقعده عن الخروج ويمنعه من النساء ولقد ضاق هو بهذا السحر ، ولكنه تحداه .. وخرج يقود احدى السرايا ، وعاد الى المدينة كما تعود .. ساخرا بهذا السحر ..

غير انه امتنع عن النساء .. فأما سودة الزوجة الكهلة فقد صبرت للامر عدة شهور ، وأما عائشة زوجته الجديدة الشابة فقد احتملت هذه الشهور ثم طالبته أن يصنع شيئا يبطل السحر .. وكان هو يدللها ويصطفيها ويتركها تتكىء بذقنها على كتفه أمام الناس ، وشعرها يلمس خده وهى ترى معه العاب الاحابيش فى ساحة المسجد

وكان يثق أن اليهود انما يشغلونه بهذا الامر ، فى وقت حرج بالنسبة الى دعوته وأنه على أية حال سيشفى ، فما هذا الوهم الذى القوه فى نفسه ! ولكن عائشة الحت عليه أن يلتمس الطب ، أو ما يبطل هذا السحر ، وأن يعاقب الذين صنعوه ..

وكان هو لا يريد أن يشغل أحدا بغير الاستعداد لاستقبال قريش وحلفائها ان بدأ العدوان على المدينة أو تجارتها .. انه فى المرحلة الحرجة ، ليحرص على أن يسد كل الثغرات فى جبهته الداخلية ، وأن يشد الصفوف لتتماسك فقال لعائشة : « أكره أن أثير على الناس شرا »

ومضى يعد سرية بقيادة عبد الله بن جحش ، وسبعة آخرين من المهاجرين فيهم سعد بن أبى وقاص ، وأعطى قائد السرية كتابا وأوصاه بألا يفتحه الا بعد يومين

وعاد الى حياته الطبيعية ، وعادت اليه العافية بعد أيام .. فاطمأنت الحياة بعائشة ، وعمرتها بشاشتها القديمة . أما عبد الله بن جحش فقد سار يومين ثم فتح الكتاب ، فاذا هو أمر منه أن يسيروا الى « نخلة » بالقرب من مكة فيرصدوا منها قريشا ثم يأتوا المدينة بخبر قريش . وفي الكتاب أمر لعبد الله الا يستكره أحدا ممن معه فمن شاء فليرجع ومن رغب في الاستشهاد فليتقدم

واقام عبد الله بن جحش وصحابه بوادي نخلة ، حتى اذا مرت بهم قافلة صغيرة لقريش تحمل جلودا وزبيبا ، هاجموها ، وقتلوا رجالها وأسروا اثنين وغنموا البضاعة وعادوا الى المدينة .. وفي أثناء القتال أسرت قريش اثنين من السرية ، أحدهما سعد بن أبي وقاص

كان ذلك في رجب .. الشهر الذي تعود الحجاج أن يفدوا فيه الى مكة .. الشهر الحرام فلا قتال فيه .. فلما عاد عبد الرحمن بن جحش الى المدينة ، دخل على محمد ظافرا منتشيا بما حمله من غنائم وبما احرزه من انتصار . ونفر عرق من جبهة محمد ، وصاح في عبد الله وبقية صحبه : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام!» .. وطلب الا يمس أحد شيئا مما حمله عبد الله بن جحش..

وامتلأت المدينة بالوجوم .. بينما انطلق المرجفون في المدينة يقولون قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال . وانقض المسلمون على عبد الله يعنفونه مغلظين له .. وكل منهم يشعر بخجل كبير ، لان واحدا منهم ارتكب مثل هذا العمل في الشهر الحرام ..

وانتظر عبد الله وبقية صحبه .. ما سيحل بهم من عقاب .. اتراهم قد أفسدوا في الأرض .. ؟ ولم يكلمهم محمد أياما ..

يوم التقى الجمعان

يجب أن تنتهى — على الفور — كل هذه المناقشات حول موقف عبد الله ، فلن يستفيد منها أحـــدا غـــير الأعــداء .. ! ولقــد مضى الأعداء يؤججون المناقشات ويثيرون النفوس ، وهم يزورون على هذا الدين الجديد الذى يسمح لاتباعه بالعدوان فى الشهر الحرام .. وهكذا عاش عبد الله بن جحش أيامه يطارده الاتهام بالغدر ، وباهدار المقدسات المتوارثة .. كانت أيامه قاسيةمضنية من الشعور الزرى بالعار ، فلم يعد عبد الله يستطيع بعد أن يرفع الرأس أمام أحد فى المدينة ، حتى صحبه المسلمين . ولكن الندم المعذب الذى استسلم لهعبدالله، ليس عقابا كافيا .. لابد من عقاب صارخ يمظ ويدوى ، ويغمر بصداه رجع أصوات الاستنكار عبر الجـــزيرة العربية .. أهو النفى من المدينة .. ؟ النفى ليس عقابا كافيا أيضا . فليقتل عبد الله اذن ، وليغسل دمه عن اتباع الدين الجديد هذا العار الذى يلطخهم حتى الحياة

غير أن بعض المسلمين السابقين الى الاسلام ، ذكروا لعبد الله بلاءه القديم فى تلك الايام الاولى من الدعوة ، حين كان العقاب الذى تنزله قريش بمن يتبع العقيدة الجديدة ، هو النفى من الارض ، والتعذيب حتى الموت ومصادرة الممتلكات ، والهوان ، وانتهاك الحـرمات . والحرمات قصاص . ومهما تكن خطيئة عبد الله ، فان قريشا قــد ارتكبت وما زالت ترتكب خطــايا يجب أن

ينكرها كل ذى قلب شريف . لقد أخطأ عبد الله وضل ، ولكن قريشا شر مكانا وأضل عن سواء السبيل . فما بال رجال المدينة لا يغضبون لأن قريشا تصد المسلمين عن الحج بالكعبة ، أم يريدون كيدا

لقد جاوز عبد الله كل الحدود حين اعتدى على القافلة القرشية وقاتل فى الشهر الحرام .. هذا حق ، ولكن فليذكر مغاضبوه من المهاجرين ، بعض ما صنعته قريش بهم هم أنفسهم قبل أن يصبوا كل هذا الغضب على عبد الله المسكين ! وانها لتصدهم عن المسجد فى الشهر الحرام .. وما زالت تفتن من بقى فى مكة من أصحابهم المستضعفين ، عن دينهم الجديد ..

انها لكبيرة أن يقتل عبد الله أحدا فى الشهر الحرام ، ولكن الفتنة أكبر من القتل .. وصد الناس عن البيت العتيق واخراج أهله منه أكبر . وخرج محمد الى الناس ليقضى على هذه المناقشات التى لا تنتهى .. فلتحسم الأمر يا محمد .. فما تدعو اليه ، يحتاج الآن الى أن تحشد كل قواك والى أن تحسن تدعيم الصفوف . انهم لا يعلمون .. فلتعلمهم انهم مطالبون الآن أن يرفعوا السلاح فى اى وقت دفاعا عن المصير . انهم ليسألونك عما ستصنعه بعبد الله بن جحش ، ولكن جرائم قريش أكبر .. ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير

لا تتخاذلوا يأيها الناس أمام من عذبوكم وأخرجوكم من دياركم .. وما زالوا يفتنون أصحابكم .. قاوموهم .. وأخيفوهم .. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ..

ولم يكد محمد يعلن على أصحابه هذا الموقف ، حتى عادت الحياة تدب من جديد بكل عنفوانها فى بدن عبدالله

.. بعد أن أوشك الندم المعذب أن يمتص رونق شبابه قطرة بعد قطرة

وخرج عبد الله الى الناس يرفع رأسه ، راضيا عن نفسه .. وقال لمحمد : « أنطمع فى غزوة أخرى نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ » .. انه ليتوق الآن الى الاستشهاد فى سبيل ما يؤمن به .. ألم يعلمه محمد ـ كما علم غيره ـ أن من مات فى سبيل العقيدة الجديدة ، جوزى بعد الموت بجنات تجرى من تحتها الانهار فيها كل ما تشتهى الأنفس .. ؟

صبرا يا عبد الله .. فاليوم الذى تصبو اليه أنت وزملاؤك ، آت لا ريب فيه . وما كانت قريش تتركهم واعين . وبعثت قريش فى فداء أسيرى عبد الله ، فرد محمد : « لانفديكموهما حتى يرد صاحبانا »

وأطلقت قريش سراح سعد بن أبى وقاص ، وصاحبه ، فعادا الى المدينة . أما رجلا قريش الاسيران ، فقد أسلم أحدهما ورفض أن يعود ، ولحق الآخر بمكة ..

وأقبل محمد على حياته التى تعـودها فى المدينة : النهار للعمل ، والليل للتأملات والعبادات والنوم .. من بيت سودة الى بيت عائشة ، ليلة هنا وليلة هناك ، وهو يفكر ويتدبر ما عسى أن تصنعه قريش بعد أن أعلن أنه سـيقاتل حتى لا تفتن قريش من يؤمن به .. وانه ليستشير أصحابه كلما التقى بهم فى المسجد ، فيعلم أن قريشا تصفى خلافاتها مع القبائل لتنشىء ضده حلفا ثم تبدأ العدوان

وطرب أعداؤه فى المدينة لهذه الانباء .. سيخرج محمد ذات يوم مع صحبه المهاجرين والانصار ، فيلقوا قريشا .. ستفنيهم قريش ، فتموت تعاليمه فى المدينة ، ويفلق

السوق الذى أنشاه التجار المسلمون ، وتعود العلاقات فى المزارع والاسواق بين الملاك والاجراء ، كما كانت قبل أن يأتى محمد بتعاليمه التىأثارت مطامع الفقراء ،وقررت فى اموال الغنى حقوقا للمحتاجين ، وسدت على تجار المدينة كثيرا من الطرق الى الاثراء ..

على أن يهود المدينة أرادوا أن يواجهوا محمدا مجتمعين فقد لاحظ رؤساؤهم أن من فقراء المدينة من يميل الى محمد ، وأن من أغنيائهم بعض الذين تعجبهم تعاليمه ويكبرون سيرته بينهم ، حتى لقد أوشكوا أن يتبعوه ..

لكم من تجربة عاناها رؤساء اليهود فى المدينة .. كم من مرة نجحوا فى اثارة الشكوك حول محمد وصحبه ،وكم من مرة نجحوا فى القاء الذعر فى القلوب ، وفى خلق حالة من الضيق بمقدم محمد .. ولكن محمدا كان فى النهاية يقضى على الشكوك ويحمل الىالقلوب كثيرا من الطمأنينة، فترتاح له النفوس التى كان يساورها الضيق به ! ..على انه مشغول بالاستعداد لقريش ، وهو متعب القلبلمرض ابنته رقية التى لم تستعد عافيتها الاولى منذ دهمها المرض أيام الوباء ..

الفرصة سانحة لاثارة الشك فيه من جديد ، ولصد بعض اليهود الذين يفكرون فى الالتفاف حوله .. لقد جاء بكثير من العقوبات التى لم يتعودها العرب ، ولقد هرب منه احد المهاجرين وعاد الى قريش منذ قرر محمد أن يعاقبه بقطع اليد على سرقة الدرعين .. فلو أن بعض الذين يميلون الى محمد من اليهود امتحنوا بمثل هذا ما تبعه أحد منهم ، ولتماسكت قبائل اليهود جميعا وكونوا حلفا قويا ضد محمد ..

واجتمع بعض أغنياء يهود واجمعوا أن يكيدوا لعشيرة

منهم كان رئيسها يبدى لمحمد بعض الميل . كانت له ابنة جميلة اسمها بسرة تعشق رجلا اخر من سادة عشيرتها . ودبر بعض كبار تجار يهود المدينـــة الامر فى احكام .. فضبطت بسره مع عشيقها.. وذهب زوج بسره ، وزوجة العشيق مع شهود من كبار اليهود يشـــكون الى محمد ويسألونه أن يقضى بينهم .. وكانوا يعلمون ما يأمر به محمد فى مثل هذه الحالة ، انما هو الرجم حتى الموت ..

وأدرك محمد كل شيء .. انها لمحاولة جديدة لتنفير الناس منه .. فعشيرة بسرة هم اقرب اليهود الى الايمان به .. وقال لمن جاءوا يســـألونه : ان لديهم التوراة ، فليحكموا بما فى التوراة .. ولكنهم الحوا عليه أن يقضى هو بنفسه ، فاصر على أن يعودوا الى التوراة فيحتكموا اليها ..

وعاد كبارهم يتدارسون الامر .. ان محمدا باصراره على تحكيم التوراة ، يوشك أن يفسد المكيدة .. وانطلقوا يثيرون الشكوك فى المدينة ، لماذا يخشى محمد أن يقضى بالرجم حتى الموت على بسرة وعشيقها .. أيعطل الاحكام التى ينادى بها لانه يطمع فى ضم عشيرة بسرة اليه ؟ .. فأى عدل هذا ! .. ومحمد مشغول القلب بالاستعداد لقريش ! حزين لمرض ابنته رقية ..

ويرجع اليه رؤساء يهود يقولون له ان التوراة تقضى بأن توضع الفتاة وشريكها كل على حمار ، ثم يشهر بهما فى الاسواق ويطلى وجهاهما بالقار .. ولكنه كان قد عرف أن ما تقضى به التوراة فى مثل هذه الحالة انما هو الرجم حتى الموت .. رجم الرجل والمرأة جميعا فى حفرة واحدة .. وأعلن لهم هو نفسه حكم التوراة .. واســتحلفهم أن يعودوا الى التوراة التى يملكونها ويحتكرون الاطلاع

عليها فيعلنوا للناس ما فيها .. ولكنهم أكدوا أن التوراة ليس فيها شيء مما يقوله ، غير أن شــابا منهم يدرس التوراة انتفض صائحا : « يا أبا القاسم انك لصــادق ولكنهم يحسدونك ويحرجونك ! »

وعلى الرغم من ذلك ، فقدحزنت عشيرة بسرة وعشيقها، وجزع الجميع من مثل هذا العقــاب ، فلم يفكروا فى الانضمام اليه بعد ، لكيلا يكون له ســبيل على علاقاتهم فيما بينهم ..

ومضى يهود المدينة جميعا يحلمون بأن تهب قريش وحلفاؤها ، فتخلصهم من محمد ، ومن تعــاليمه التى أفسدت العلاقات بين الملاك والاجراء .. والتى توشــك الان ان تفسد العلاقات الحرة بين النســاء والرجال .. متى تهاجمه قريش .. ؟

ولكن محمدا كان قد قرر أن يبدأ الهجوم .. فالهجوم خير وسيلة للدفاع . كان قد استشار صحبه واســتقر رأيهم جميعا على أن يفسدوا الحلف الذى تسعى قريش لعقده بين القبائل .. سيقومون بعمل يفرض هيبتهم على قريش ، وعلى القبائل الاخرى ، فلا تفكر قبيــلة فى أن تتحالف مع قريش ضدهم!.. فلئن سكتوا لاستضعفوهم! ومن يدرى ؟ ربما اقتحموا عليهم المدينة نفسها فأبادوهم جميعا !

وعلم محمد أن قريشا قد أعدت قافلة ضخمة خرجت من رحلة الصيف الى الشام ، وان أبا سفيان بنفســه يقود حرس القافلة .. والقافلة الان فى طريق العودة من الشام . وهى قافلة جهزتها قريش بخمسين ألف دينار، شاركت فيها عشيرة أبى سفيان بأربعين ألفا ..

لكن هذه الالاف العديدة قد انتزعها أغنياء قريش من

عمل المستضعفين ومن أموالهم المغتصبة ! ..

ان فيها لاموالا اغتصبت من هؤلاء المهاجرين الذين نفتهم قريش من أرض وطنهم مكة بعد أن استولت عنوة على ما يملكون ! .. لقد جاء الزمن الذى لم يعد فيه هؤلاء المستضعفون ، مستضعفين بعد ، وعليهم أن يستردوا أموالهم التى اغتصبت منهم من قبل .. عليهم ان يفرضوا هيبتهم على قريش لكى ينقذوا اخوانا لهم اخرين ما زالوا فى مكة يتلقون العذاب ، ويفتنون عن عقائدهم !!

وجمع محمد المهاجرين وحضهم على أن يخرجوا فيصادروا أموال القافلة.. وأعلن أن ما فى القافلة سيوزع على من يغنمونها .. من مهاجرين وانصار ، فمن لقى الموت منهم فهو خير له من أن يموت فى فراشه ذات يوم حتف أنفه .. انه يموت الان دفاعا عن العقيدة فى وجه الذين يكيدون لها ! على أن الامر لن يحتمل قتالا ، فما يحرس القافلة غير ثلاثين رجلا !! ..

وخرج محمد الى القافلة فى نحو ثلثمائة من المهاجرين والانصار ، بعد أن استخلف على المدينة رجلين من بسطائها .. أحدهما يؤم الناس فى الصلاة ، والاخر يقضى بينهم . وأوصى الذى هو قاض بينهم أن يستفتى قلبه فيما يعرض له من قضاء لا نص فيه ..

وأرسلت اليهود الى أبى سفيان تنذره وهو فى الطريق .. فأرسل أبو سفيان الى مكة يطلب المدد ، ويأمر بوصفه رئيسا لحكومة مكة أن تخرج قريش بكامل فرسانها فيلحقوا به فى وادى بدر ، حيث ماء الغدران والظلال التى ستستريح تحتها القافلة ، وتستقى !ولتعجل قريش فتبلغ ماء بدر ، قبل أن يصله محمد واصحابه

وخرج كل المساهمين فى القافلة لينجدوا أبا سفيان..

ولم يبق رجل منهم قادر على حمل السـلاح الا خرج أو ارسل مكانه من يحارب باسمه .. ولقد تخلف أبو لهب لمرضه ، فبعث مكانه أحد مدينيه ليحارب باسـمه .. وتخلف أمية بن خلف فسـخر به بعض شباب قريش واخـذوا يطوفون حوله بالبخور قائلين له « انما أنت كالنساء » فقام من فوره يتجهز للحرب ..

وظلت هند زوجةابى سفيان تستصرخالرجال لينجدوا زوجها وتستفز عداوتهم لتعاليم محمد ، وتغرى الفتيان بالثأر لضحايا عبد الله بن جحش ، حتى أحتشد جيش كبير يتزعمه عتبة والد هند ، وعمها شيبة وأخوها الوليد .. واندفع هذا الجيش على قرع الطبول ، تحت قيـادة أبى جهـل .. غير أنه لم يكد يوغل فى الصحراء حتى جاءهم رسول من أبى سفيان يطلب منهم أن يعودوا الى مكة فقد نجا بالقافلة

ولكن أبا جهـل طالب الرجال أن يسيروا حتى يردوا بدرا فيقيموا فيها ثلاثةايامبلياليها ينحرون الذبائح، ويطعمون الطعام ، ويسـقون الخمر ، وتعزف الجوارى المغنيات ، ويخيفون محمدا وصحبه ، فتسمع العرب بهم وبمسيرتهم وجمعهم فما تزال تهابهم القبائل بعدها أبد الدهر ..

وكان محمد اذ ذاك ما يزاليتقدم الى بدر متتبعا قافلة أبى سفيان ، التى اتخذت طريقها على شـاطىء البحر الاحمر .. وأتاه نبأ قريش . لم يكن يحسب أن قريشـا ستخرج بكل فرسانها وجنودها ، فقد خيل اليه لبعض الوقت أنه وصحبه،سيتعرضون بغتة للقافلة التى يقودها أبى سفيان ،فيغنمونما فيها ويعودون بعد أنيلقوا الرعب فى قريش ! .. ولكن الامر لم يعد الان سهلا كما تخيلوا

فانها الحرب اذن ضد قريش بكل عدتها ، وجيشها !

واستشار محمد اصحابه .. أيمضى الى بدر فيلقى جموع قريش أم يؤثر العافية ويعود الى المدينة ؟ فأشار أبو بكر ان يمضى الى بدر ، وأيد عمر رأى أبى بكر فقد تظن بهم قريش والقبائل ضعفا ان هم رجعوا الى المدينة مكتفين من الغنيمة بالاياب ! .. وتكلم مهاجرون آخرون مؤيدين رأى أبى بكر وعمر ، ولكن احدا من الانصار لم يتكلم .. لقد عاهدوه من قبل أن يمنعوه فى المدينة ،اما ان يسير بهم الى عدو خارج المدينة ، فهذا .. شىء آخر

كانوا مازالوا يطاردون ابا سفيان على شاطىء البحر . وقال محمد وهو ينظر الى من خرج معه من الانصار : « أشيروا على أيها الناس » . فقال له سعد بن معاذ « لكأنك تريدنا ؟ » .. فقال محمد : « أجل » فقال له سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك .. فلو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد .. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا .. » .

واذن فقد اجمعوا كلهم على أن يلقوا قريشا ؟ .. وقادهم محمد الى وادى بدر .. فوجدوا فتيان من قريش يملآن بعض الاوانى من أحد الابار .. وتقدم اليهما على بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام يسألونهما .. فقال الفتيان : « نحن سقاة قريش » . وتقدم محمد يناقش الفتيين حتى عرف أن جيش قريش بين التسعمائة والالف ، وأن فيهم أبا جهل الحكم بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ، وأبا البخترى بن هشام وامية بن خلف والاسود بن عبد الاسد .. وآخرون من فرسان قريش وساداتها ، فقال لرجاله : هذه مكة قد القت اليكم أفلاذ اكبادها ..

لقد ارسلت مكة نحو ألف رجل ، وأما محمد وصحبه فهم نحو الثلاثمائة .. انه لصراع لا تكافؤ فيه ! هو ذاك .. ولكن يجب أن يلاقوا قريشا كي لا يحسب أحد انهم فروا ، فتسقط هيبة الدعوة الجديدة ويتخلى عنهم الذين بدأوا يميلون اليهم ..

ولكن لابد من خطة للانتصار .. لقد أقنع محمد رجاله أن من مات منهم مات شهيدا ، وسيعوض عما خسر جنات عرضها السموات والارض ! انهم ليؤمنوا بما جاء به فليدافعوا عن الاشياء التى آمنوا بها .. ليدافعوا عن مستقبل هذه العقيدة .. سيصبحون هم الاعلون يوم تنتصر ! كثيرون منهم لا يملكون شيئا يخسرونه ان ماتوا .. انهم لن يخسروا غير الغربة ، والضنى والاغلال ..

وبدأ محمد يستعد للمعركة .. لقد أقبلت قريش بخيلائها وفخرها تريد أن تسحقه ، ولم يكن هو حين خرج قد قدر أنه سيخوض مثل هذه المعركة .. فأرسل الى المدينة يطلب مزيدا من الرجال ، ولكنه رأى أن الوقت قد يضيق .. فقد تهاجمه قريش فى أية لحظة ! .. فلينظم صفوفه اذن ، حتى لا تباغته قريش ..

ورأى أن ينزل بعسكره فى أول وادى بدر ، على ضفاف الماء .. ولكن رجلا من صحبه سأله : « أهو منزل أنزلكه الله ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة » فقال محمد : « بل هو الحرب والرأى والمكيدة » .. فأجاب الرجل وهو الحباب بن المنذر : « فان هذا ليس بمنزل .. فانهض بالناس » واقترح الحباب أن ينزلوا آخر وادى بدر ، وأن يكون معسكرهم على مرتفع من الارض ، بين وادى بدر بغدرانه ومائه ، وبين الكثيب المنخفض الذى نزلت به قريش .. وهكذا يقفون بين قريش وبين الماء ، فيقاتلون

وخطوطهم مؤمنة .. خلفهم الماء والشجر . وتقاتل قريش فلا تجد ماء تشربه الا أن تقتحم صفوفهم الى هذا الماء .. وقام أصحاب محمد فبنوا حوضا كبيرا تدفق اليه الماء من غدران وادى بدر وأقاموا بالقرب منه ..
وطرب محمد للفكرة .. هكذا سيقاتلون قريشا ، بالسلاح والعطش أيضا !

وقرر أن يتقدم هو الصفوف ، ولكن سعد بن معاذ اقترح عليه الا يصنع .. لانه سيكون أول هدف لسهام قريش ورماتها وفرسانها .. ورأى سعد أن يبقى محمد في المؤخرة ليقود المعركة ، فتبنى له خيمة يستظل بها فان غلبوا قريشا فبها ، وان غلبتهم قريش أمن محمد .. وتم الانسحاب دون أن تتعرض حياته للخطر ! وعدل عن رأيه الى رأى سعد ..

واقيمت الخيمة واصطف أنصار محمد مكانهم امام الماء .. وأخذ رجال من قريش يقبلون طلبا للماء فتتلقاهم السهام .. ولم يعد أحد منهم لجيش قريش بماء ! ..
والح العطش على رجال قريش وتشاور بعض كبارهم فرأوا أن يعودوا ..

ما بقاؤهم على هذه الحالة ؟ وفي وجه من سيرفعون السلاح .. أن لهم لاقارب واخوة وأبناء اعمام بين هؤلاء المهاجرين . ووقف عتبة بن ربيعة يقول لهم : يا معشر قريش والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا! ولئن أصبتموهم لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر اليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فان أصابوه فذلك ما أردتم » .. ولكن أبا جهل اتهم عتبة بالجبن ..

وكان بعض رجال قريش قد بدأوا يعانون من العطش،

فخشي ابو جهل أن يستجيبوا لعتبة .. وخشي بصفة خاصة أن يتذكروا أنهم انما يقاتلون أقاربهم ! فأعلن صيحة الحرب فجأة .. واندفع الاسود بن عبد الاسد من صفوف قريش وهو يقسم أن يشرب من حوض محمد عنوة أو يهدمه ! وكان الاسود رجلا شرسا مرهوب الجانب .. ووجم المسلمون والاسود يتقدم ، ولكن حمزة بن عبد المطلب برز له فتقاتلا أمام الحوض .. حتى قتله حمزة. وهكذا بدأت الحرب .. واصطف الجمعان .. وقفت قريش فى مواجهة المسلمين . ثم خرج من صفوفها عتبة بن أبى ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد ودعا الى المبارزة متحديا ! كان هؤلاء الثلاثة هم خير المبارزين فى قريش .. فبرز اليهم ثلاثة من أقوى المبارزين الانصار .. لكن عتبة صاح : يا محمد أخرج الينا أكفاءنا من قومنا .. فأمر محمد أن يقوم حمزة ، وعلى بن أبى طالب ، وعبيدة بن الحارث .. فبارز حمزة شيبة بن أبى ربيعة وكان هو أفتك قريش ، وتقدم على يبارز الوليد ، وعبيدة يبارز عتبة . أما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وكذلك صنع على بالوليد .. وأوشك عتبة أن يظفر بعبيدة لولا أن خف حمزة فأجهز على عتبة ..

وهكذا سقط فى لحظة واحدة ثلاثة من أكبر سادات قريش .. وهم فى الوقت نفسه أفتك شجعانها .. وكبر أصحاب محمد وهللوا حين رأوا الثلاثة يسقطون ..

وصاح محمد بأصحابه : « لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة » . فقال له رجل يأكل تمرات : « أما بينى وبين أن أدخل الجنة الا أن يقتلنى هؤلاء » وقذف التمرات واندفع يقاتل .. واندفعت صفوف المسلمين تقاتل . والتقى الجمعان ..

كان كل رجل من المسلمين يطمع فى أن يموت فيكسب الجنـــة .. اما رجال قريش فكانوا يقاتلون بالرغبة فى الخلاص من محمد ليعيشـــوا من بعده آمنين بين المتاع والغنى الفاحش والخمر والنســاء .. ثلاثمائة يقاتلون فى حرص هائل على الموت يلهبهم الايمان والحب ، يواجهون بعقيدتهم ألف رجل يقاتلون فى حرص جنونى على الحياة، ولا تحركهم غير البغضاء ونار الانتقام وأحلام السيطرة!.

كانت قريش بفرسانها الالف تملك الاسلحة الحديثة ، ولها خيلها ودروعها ، اما الثلاثمائة مسلم فلم يكن لديهم غير فرسين اثنين ..

وامر محمد رجاله أن يجعلوا همهم وهم يقــاتلون أن يقتنصوا قادة قريش .. فليبحثوا عن أبى جهل الحــكم ابن هشام .. فستنخلع لموته قلوب شجعان قريش ، كما انخلعت تلك القلوب لمصرع شيبة وعتبة والوليد !

لقد أحسن حمزة افتتاح المعركة ، وها هو ذا يخوضها الآن بكل الجسارة التى تعرفها قريش منه . وان فرسانها ليتفادونه ويختفون من طريقه .. والى جوار حمزة يقف على بن أبى طالب باسلا كعمه حمزة .. والى جوارهما سعد بن أبى وقاص .. وهنا وهناك تهوى سيوف يرفعها عمر بن الخطاب ، وبلال بن رباح وكل فرســان العقيدة الجديدة .. ولكن المعركة لم تنته بعد ، فما زالت قريش تزحف بفرسانها الدارعين وقد بدأ بعض فرسان الدعوة الجديدة يسقطون مثخنين بالجراح

أول الانتصارات

مازالت جموع قريش تزحف بمائة من الخيـــــل وســـبعمائة بعير مدربة على القتال ، وألف من الرجال مدرعين .. ان هذه الجموع لتكاد تجتاح ثلثمائة مسلم حاسرين بلا دروع ولا خيل ، فيهم من يدور بسيفه لكيلا يغمده من عدوه فى صدر اخ او اب أو قريب أو عزيز ..

والمقاتلون المسلمون يسقطون : الرجل بعد الرجل !.. لا حيلة بعد ! ..

لتمض السيوف الى غايتها مهما تكن الصـــــدور والرقاب التى تتلقاها .. ومحمد على باب خيمته يدعو بقلب واجف! .. فلئن انتصرت قريش اليوم، لما ارتفعت راية لدعوته بعد ، ولانتهى كل شيء الى الأبد ... وأبو بكر الى جواره يخفف عنه ، ويحمل له العزاء ، والأمل فى الانتصار ..

غير ان قريشا تتقدم من الكثيب الذى نزلت به ، وهى الآن توشك أن تجلى المسلمين عن مكانهم المرتفع ، وتبلغ الماء ، ولئن بلغ فرسانها الماء فشربوا واطفأوا ســـعير العطش ، لما استطاع رجال محمد ان يقفوا بعـــد أمام خيلهم الزاحفة

وحمزة واقف يمنع قريشا عن الماء ، ويقاتل مع نفر قليل موجات مدرعة تحاول أن تنـــدفع الى الماء .. ويسقط فرسان قريش دون الماء ، ولكن رجـــلا منهم

يفلت .. لقد فتح ثغرة وستندفع منها أرتال الفرسان.

ويعود حمزة فيقف بجسده الشامخ يسد هذه الثغرة .. السيف فى يده ، وعلى صدره تخفق ريشة نعامة ، وهو يقاتل شجعان قريش المندفعين الى الماء فيصرعهم الواحد بعد الآخر ويصيح محمد برجاله الا يتركوا قريشا يردون الماء .. انهم عطاش الآن .. فليكن العطش سلاحا ايضا ، وهم متعبون تلفحهم الشمس .. فليمزقهم التعب ، وليستظلوا بسيوف المسلمين ..

اضربوا أيها الناس .. اضربوا أعداءكم ، قاتلوهم بلا هوادة، فالجنة تحت ظلال السيوف. وينتفض المسلمون .. لا تتهيب سيوفهم ـ بعد ـ رقابا ، أية رقاب مهما تكن عزيزة ..

وينقض عمر بن الخطاب على خاله فيقتله .. ويحاول عبيدة بن الجراح أن ينحى أباه عن طريقه ليخلص الى فرسان قريش ، ولكن أباه يظل واقفا أمامه بسيفه .. فيقتل أبو عبيدة أباه ثم يخوض فى دم أبيه الى صفوف الأعداء المهاجمين ..

ويقتل على بن أبى طالب بعض بنى عمه .. ويندفع حمزة لايبالى الى الصفوف المتراصة من قريش فيجعل همه أن يضرب شجعانها وساداتها .. وهكذا قتل حنظلة بن أبى سفيان ، والحارث بن عامر ..

ثم لمح نوفل بن خويلد يقاتل المسلمين ويثخن فيهم ، ويدهس بفرسه جثث الضحايا حتى لقد أوشك أن يثير الرعب فى قلوب المسلمين ، فأسموه الشيطان ..

فيندفع حمزة الى نوفل بن خويلد .. ونوفل على فرسه ، خلف الدروع والزرد وراسه فى الدرقة ، ويلكز نوفل فرسه ليدهم حمزة، ولكن حمزة يثب بعيدا ويستدير ويضرب الفرس فيوقعه .. ثم يتفادى ضربة

من سيف نوفل والمسلمون وأعداؤهم على السواء ينظرون ويترقبون فى لهفة نتيجة هذا الصراع الرهيب . ثم يكر حمزة على نوفل ، ويسدد سيفه الى عنقه ، ويخلص حد السيف من بين الحديد والزرد ، ويطير رأس نوفل ..

وهكذا انتصر حمزة على شيطان قريش .. فاطمأنت قلوب كثيرة ، وتدفق المسلمون بصدور حاسرة لادروع عليها ورءوس مكشوفة يشدون على أعدائهم المدرعين.. وريعت قريش ، فتراجعت ...

وخف أبو جهل الى بعض الاحراج ينتظر فرصـــة يجمع فيها صفوف قريش .. وانتظر على صــــهوة جواده يتربص لجموع المسلمين .. ولكن المقاتلين كانوا يبحثون عنه ، وخلص اليه اثنان منهم فقاتلاه .. وأيقن محمد أن النصر آت لا ريب فيه .. فهاهم أولاء سادة قريش وفرسانها يتساقطون ..

ما أروعك يا حمزة .. أنت الذى قدت هذه الفئــة القليلة الى النصر المحقق .. أنت وحدك وقفت شامخا صامدا تمنع قريشا عن الماء ، وجعلت همك أن تصرع الاقوياء من فرسان العدو . وعندما ســقط الشجعان منهم سقطت همة الاخرين ..

أن بعض الفارين من رجال قريش ليتساءلون : « من الرجل المعلم بريشة نعامة فى صدره يحجب وجهه دائما غبار المعركة » فيقول واحد منهم : « أنه حمزة بن عبد المطلب » ، ويتنهد الباقون فى حسرة : « ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل » حقا .. لقد فعلت بهم الأفاعيل .. كنت أنت وحدك جيشا بأسره !

ان عديدا من رجال قريش ليفرون الآن فى طلب النجاة وقد بدأت الهزيمة تغزو القلوب ، حتى قلوب الذين ما

برحوا يقاتلون في الميدان .. وها هو ذا صوت أحـدهم يرتفع منذرا : « أصحاب محمد يزيدون على الثلثمـائة وليس لهم منعة الا سيوفهم وما يقتل منهم رجل الا بقتل رجل منا ، فاذا اصابوا منا أعدادهم وقتلوا منا ثلثمائة فما خير العيش بعد ذلك ؟ .. »

وابو جهل وراء الاحراج مازال يقاتل .. ويسـمع هذا النذير فيرسل ابنه عكرمة الى صـفوف قريش يحضهم على الثبات .. ويذكرهم انهم سادة العـرب وانهم الأكثرون . والمسلمون يندفعون .. ليقتلوا مزيدا من اشراف قريش وشجعانها .. هاهو ذا بلال بن رباح يلقى سيده القديم اميـة بن خلف .. لكم عذبه على رمضاء مكة .. ولكن أمية الآن يستجير بصديقه عبـد الرحمن بن عوف ، ويستأسر له .. هربا من الموت .

غير أن بلال يرفض هذا ، ويصرخ فيمن حوله : «هاهو ذا رأس الكفر أمية بن خلف » .. وعبثا يحاول عبـد الرحمن بن عوف أن ينقذ صديقه ، فقـد صرخ بلال « لا نجوت ان نجا » ..

وان هى الا لحظات حتي اجتمـع حول بلال بعض المستضعفين الذين لاقوا الأذى من امية حين كانوا جميعا فى مكة فلاموا عبد الرحمن بن عوف : أن يجبر رجلا اذاهم وآذى محمدا ..

أتهموه بأنه هو التاجر الغنى مازال عـلى الرغم من اسلامه ، يعطف على نفس أفراد طبقته القديمة من أسرة قريش ! مازالت صلاته الشخصية وعواطفه الخاصة ، أعمق من ايمانه .. واغلظ لهم عبد الرحمن وصاح ببلال مزريا عليه : « يا ابن السوداء »

ولكن الوقت لم يكن صالحا للمناقشـة ولا للزراية

بعد .. ان حمزة وعلى يقتلان من بنى العمومة ، وعمر يقتل خاله ، وعبيدة بن الجراح يقتل أباه .. فما بال ابن عوف يابى هذا المصير لصديقه الغنى .. الا انه غني مثله . . ؟ واندفع بلال بن رباح يحرج امية بن خلف ، وقاتله حتى قتله .. وحمل رأسه على سيفه وهو يرقص طربا تحت غبار المعركة الذى أخذ ينقشع الآن وفرسان مكة يفرون وصفوف قريش تتراجع مضطربة ...

ويتقدم محمد ليرى بنفسه كم من ساداتها يتساقطون، ويرى على ارض الوادى صرعى من بنى عمومته .. رجالا لم يسيئوا اليه من قبل . ويرى المسلمين يتدافعون فى صفوف قريش يصرعون من يلحقونه مهما تكن العلاقة به ، فيأخذه الحزن .. ويصيح بالناس :

« انى عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى أبا البخترى فلا يقتله لانه كان اكف القوم عنا ونحن بمكة ، وما بلغنا عنه شيء نكرهه وهو ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبت قريش على بنى هاشم .. ومن لقى عمى العباس بن عبدالمطلب فلا يقتله فانه انما أخرج مستكرها »

كانت صفوف قريش ما زالت تتراجع .. فرد احد الرجال المسلمين مستنكرا :

« انقتل آباءنا وأبنائنا واخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس ؟ .. والله لئن لقيته لالجمنه السيف » ..

ونظر محمد الى من ينصفه ممن يلومه ، وانتظر حتى اقترب منه عمر بن الخطاب فلاذ به قائلا : « يا أبا حفص ، أيضرب وجه عمى بالسيف » وعرف عمر بما كان، فغضب على المعترض وقال : « لقد نافق .. دعنى فلأضرب

عنقه بالسيف » ..

وتهيأ عمر للانقضاض على الرجل الذى يعترض ،ولكن محمدا لم يسمح للسيوف التى تتجه الان الى اعناق العدو ، بأن تستدير الى رقاب اخرى ..

وتابع المسلمون زحفهم على جيش قريش ، فوجد بعض الرجال البخترى أمامهم فجأة .. فأبلغوه قول محمد فيه . وطلب البخترى الامان لزميل له ، ولكن الرجال رفضوا واذ ذاك قال البخترى : « اذ لاموتن انا وهو جميعا ، لا تتحدث عني نساء مكة انى تركت زميلى حرصا على الحياة » .. وقاتل حتى قتل ..

ولم تكد الشمس تميل حتى كانت قريش قد انهكها العطش والقتال ، وامضها فقد خير فرسانها وشجعانها وساداتها .. فجمعت فلول جيشها تاركة جثث قتلاها على أرض الوادى .. ولكن المسلمين انقضوا عليهم يأسرون كل من يجدونه .. واذ رأى المسلمون جموع قريش تفر ، امتلأت قلوبهم بنشوة الظفر فمضوا يهنئون بعضهم البعض بالنصر .. ولكن محمدا خشى أن يكون فى الامر مكيدة ــ والحرب خدعة ــ فقد تستدير جموع قريش لتطوقهم ، أو لتداهم المدينة وهم خارجها فأمر الرجال أن يتابعوا الجيش المهزوم ، وأن ينالوا منه .. ومن يدرى فقد يفتح لهم اليهود ابواب المدينة من وراء ظهره ! ..

وانقض رجاله فى أثر الجيش المهزوم ، والجيش يسرع مجهدا من العطش ، معذبا من الهزيمة .. حتى لقد ترك كثيرا من العتاد والمؤونة .. وتأكد المسلمون أن جيش قريش ، انما يعود الى مكة حقا ..

وانقضوا على أرض المعركة يلتقطون منها الغنائم من

الدروع والسيوف والخيل والملابس الحريرية الفاخرة التى كان قد خرج فيها سادة قريش متعطرين ، ليقيموا أياما فى بدر يطعمون الطعام ويسقون الخمر وتغنى لهم الجوارى ، فيخيفوا محمدا وتتسامع بهم العرب ، فيهابوهم

واحتفظ كل رجل بما غنمه لنفسه من العتاد والاسرى .. ولكن محمدا امر بأن يحمل كل ماغنم ، وكل من اسر الى خيمته . وكان الأسرى سبعين رجلا من بينهم عدد طيب من اغنياء قريش .. وامر بأن يتفقدوا القتلى ليروا عدد قتلاهم وعدد قتلى قريش ، وأمرهم أن يبحثوا عن أبى جهل بصفة خاصة أقتيل هو أم فى الاسرى ؟! وعاد اليه عبد الله بن مسعود براس أبى جهل ! ...

كان أبو جهل فى حقل المعركة يلفظ انفاسه وهو يلعن محمدا وصحبه ، فوضع عبد الله قدمه على صدره .. ثم قطع راسه ليحملها الى محمد .. وحين رأى راس أبى جهل قال لعمار بن ياسر : قتل الله قاتل امك ..

وتفقد محمد أرض المعركة بنفسه فوجد أن من قتل من رجاله أربعة عشر بينهم اخو سعد بن أبى وقاص ثم زوج حفصة بنت عمر .. اما قتلى قريش فانهم لسبعون

وأخذ محمد ينظر فى وجوههم : عتبة بن ربيعة واخوه شيبة ، وابنه الوليد بن عتبة ، ثم امية بن خلف ، وزمعة ابن الاسود ، ونوفل بن خويلد ، وأسود بن عبد الاسود .. سادات وفرسان وشجعان من قريش ، كلهم آذاه ذات يوم واستعلى عليه وازرى به ، وكلهم كذبه واهانه .. وكلهم حاول أن يقتله

وطلب محمد من رجاله أن يواروا القتلى التراب بلا استثناء .. وان يلقوا كبار رجال قريش فى بئر جاف ، ويضعوا عليهم الحجارة ..

وعاد فى موكب ظافر متجها الى المدينة، وحوله رجاله يجرون الاسرى مشدودى الوثاق .. ونظر فى وجــوه صحابه فوجدها تضىء بنور النصر .. الا وجه حذيفة ابن عتبة . وكان حذيفة يسير الى جوار حمزة قاتل أبيه . فسأله محمد : « لعلك قد دخلك من أمر أبيك عتبة بن ربيعة شىء ؟ » فقال حذيفة : « ما شككت فى ابى ولا فى مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من ابى رايا وحلما وفضلا ، وكنت أرجو أن يهتدى فلما رايت ما أصابه بعد الذى كنت أرجوه له أحزننى ذلك » ..

واندفع الموكب الظافر .. وسمع محمد ضــحكات رجاله من خلفه وهم يسوقون الأسرى او يجرونهم .. ومصعب بن عمر يقول لبعض صحبه : « أحكموا شــد وثاق أخى فان له أما غنية ذات متاع لعلها تفديه » .. ونظر محمد فوجد الأسرى يسيرون مشدودى الوثاق.. فقال لصحابه : « استوصوا بالاسرى خيرا .. »

وأمر الراكبين أن يحملوا الأسرى معهم ، وأمرهم ان يسقوهم حتى لا يهلكوا من العطش .. ولمح بين الأسرى زاوج بنته زينب ، وعمه العباس بن عبد المطلب ..

وعلى مشارف المدينة أقبلت وفود من القبائل الموالية لمحمد تهنئه بالنصر ، فقال لهم رجل من صحبه فى زهو الانتصار : « ما الذى تهنئوننا به ؟ .. ان لقينا الا عجائز صلعا كالابل فنحرناها . . »

وكره محمد من صاحبه هذا الصلف فقال : « أى ابن أخى أولئك الملأ » فما يليق أن يستهينوا باقدار الناس لأنهم هزموا . .!

ولم يكد محمد يصل الى أبواب المدينــة حتى وزع الأسرى بين صحبه ونصحهم مرة أخرى ان يحســنوا

معاملتهم ، حتى يرى فيهم رأيه . وفكر مليا ثم استشار اصحابه فرأى عمر أن يقتلوا جميعا ، فقد أقبلوا عادين يريدون البطش بالمسلمين ، ولكن أبا بكر رأى أن يمنحهم الفرصة فقد يتبعون الدين الجديد فيما بعد ..

ومال هو الى رأى أبى بكر .. فليس كالعفو شيء يفتح القلوب المغلقة .. وقضى ان يطلق سراح كل أسير يرسل قومه فديته ، والأسير الذى يعلم عشرا من صبيان المسلمين .. فتقدم اليه أسير يشكو فقره ، فما لديه ما يفتدى به نفسه : لا مال ، ولا علم ، وله بنات فى مكة يقوم عليهن .. فأطلق سراحه وتركه لبناته يعولهن واشترط عليه الا يعود الى حربه مرة أخرى .. !

وأرسلت قريش تفتدى أسراها ، وعلم محمد من بعض الذين اقبلوا يفادون الأسرى ، أن قريشا تستعد ليوم الانتقام ، وأنها ستحشد للمسلمين جيشا يسد عليهم عين الشمس . وكان قد أطلق كثيرا من الأسرى ، ولم يعد غير القليل .. فانقطع يفكر ، وخرج الى أصحابه يقول انه انما أخطأ هو وأبو بكر حين لم يستمعا لنصيحة عمر ، فما كان له أن يترك لقريش اسراها لتستعين بهم على حربه مرة أخرى .. ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ! ..

ولكنه على أية حال لا يستطيع أن يطبق على الأسرى قاعدتين مختلفتين ، فليقبل الفدية اذن فيمن بقى ! .. كان مازال مقيما عند بعض حلفائه خارج المدينة يقبل الفدية عن كل أسير يفتديه أهله فيضمها الى الغنائم التى غنموها .. وبلغ ما جمعه من الفدية أربعين ألف درهم .. حسنا ، انه لمبلغ صالح يتجهز به للحرب ان فكرت قريش فى عدوان جديد ! .. واستبطأ المجاهدون توزيع

الغنائم التى غنموها فى الحرب . لقد أمرهم محمد أن يلقوها اليه .. ولكنه لم يوزعها بعد !

وتحدث بعضهم الى بعض عن الامر ، فذهب كل منهم مذهبا فى توزيع هذه الغنائم ، حتى لقد اختلفوا عليها خلافا كبيرا وساءت أخلاقهم فى هذا الخلاف . فأما الذين كانوا يقاتلون العدو فقد رأوا أنهم أحق الناس بهذا المتاع ، فلولاهم لما أصاب الذين غنموا ما غنموه !

وقال الذين غنموه انهم هم أصحاب الغنائم وحدهم فليس لأحد سواهم حق فيها ! .. وقال الذين كانوا يحرسون خيمة محمد انهم كانوا يستطيعون أن يحاربوا كالمحاربين وأن يغنموا كالغانمين ، ولكنهم خافوا ان يتركوا خيمة محمد فيكر عليه العدو ! .. أوشك القوم أن يقتتلوا فى توزيع الغنائم ، واستحمق بعضهم فكاد أن يرفع السيف فى وجه أخيه ..

وخرج محمد يصيح فى الناس مغضبا : انكم لاولى الناس ببعض ، فليكن الحب هو ما يحكم بينكم لا المنافسة على عرض الدنيا ! فانكم اذا لم تجعلوا بعضكم أحباء بعض وأولياء بعض .. ان لم تجعلوا الصفاء دستوركم .. تكن فى الارض فتنة وفساد كبير .. ثم أمر أن توزع الغنائم بين الذين خرجوا جميعا .. على السواء !

وأذعن الجميع لهذا الحكم . وخرست أصوات الطمع ولكن بعض النفوس كانت تميل الى أمتعة بالذات ، فقصدت محمد تسأله ، فلم يرفض محمد لأحد سؤالا .. ومنح الارقم سيفا كان قد غنمه ، عندما مالت نفس الارقم الى هذا السيف ..

ودخل محمد الى المدينة فأتى المسجد يخطب فى الناس ويعلنهم بأسماء سادات قريش الذين هلكوا . ثم خرج

من المسجد الى بيت ابنته رقية يعودها فى مرضها ، قبل أن يذهب الى بيته ولكن رجالا استقبلوه واجمين ! ..
كانوا عائدين من جنازة رقية بعد أن دفنوها ..

وعانقه زوجها عثمان باكيا .. ومضى به الى قبر رقية ، فانحنى محمد يبكى على القبر بين صحابه .. ومال عليه أصحابه يواسونه ، وقال له أحدهم : « كفى بكاء على القبر .. اتفعل ما تنهانا عنه » وأخذوه وعادوا الى بيته، يخالج زهوه بالانتصار ، شعور عميق بالحزن ، ويبلل الدمع صوته المظفر ..

ولم يكد يتقدم فى الطريق الى بيته بين صحابه حتى اعترضه رجل من سراة اليهود بنظرة غريبة .. ومضى اليهودى يهمهم : « ان قريشا لا علم لها بالحرب أما لو قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس » ..

حتى انتصاره على قريش يشوهه اليهود !! .. مابالهم يتحرشون به ويستفزونه الى القتال .. ولكنه لا يريد أن يصدع الحلف فى المدينة . سيصبر على اليهود ، ولن يرفع السلاح فى وجه أحد من سكان مدينته .. فهو اليوم أشد حاجة الى الوحدة من أى وقت مضى ، فقريش تستعد للثأر ، وقد حرمت البكاء على قتلاها السبعين حتى تثأر لهم .. !

ومضى هو قبل أن يدخل الى بيته يواسى أسر القتلى الاربعة عشر !

ثم عاد الى بيته .. ومر بسودة أول الامر ، فوجدها تعنف قرشيا أسيرا أوثق الى ركن فى الحجرة وتنهره لانه لم يقاتل حتى الموت وقد آثر الحياة واستأسر!

ما هذا أيضا ؟! .. امرأته سودة تحرض عليه ؟! وزجرها .. فاعتذرت ! . اين هذه من خديجة ! ؟ ..

وتركها وانصرف الى عائشة ، زوجته الصغيرة الحسناء التى افتقدته طويلا ..

ووجد عند عائشة طيب اللقاء ، وحسن المواساة عن موت ابنته رقية ..

وما هى أن استراح حتى جاء رسول من مكة يحمل من ابنته زينب فدية زوجها الاسير . واستلم محمد الفدية ، وفتحها فاذا هى حلية لزوجته الراحلة خديجة كانت قد وهبتها ابنتها زينب ليلة الزواج .. وامسك محمد الحلية فى يده .. وتأملها طويلا ، وسالت دموعه. ها هو ذا الآن يمسك بيده شيئا عزيزا من زوجة راحلة أحبها كما لم يحب أحدا من النساء او الرجال .. وانه الآن ليوشك أن يضم هذه الحلية الى مال الفدية فتباع!!

وارسل الى بعض اصحابه يستأذنهم أن يرد الى ابنته فديتها ويطلقوا لها أسيرها .ووافق كل صحبه. فأرسل الى زوج زينب ينبئه باطلاق سراحه على شرط ان يطلق زينب ، ويرسلها الى المدينة ..

وكان زوج زينب يحبها ، ولقد واجه قومه حين أمروه ان يطلق ابنة محمد ليزوجوه خيرا منها فقال لهم انه لا يعدل بها كل ابكار قريش ، على أنه قبل أن يرسلها الى أبيها !

وانطلق زوج زينب الى مكة بحلية زوجته . وحاول أن يرسلها الى أبيها ، ولكن قريشا عارضته وخشيت أن يظن بهم محمد الخوف بعد الهزيمة .. وسألوه أن ينتظر أياما ، فلم يقبل وأرسلها على ناقته ، فوثب بعض رجال قريش على الناقة واوقعوا المراة الصغيرة من عليها .. وكانت حاملا فأجهضت .. وسأل محمد أصحابه أن يهبوه عمه العباس ــ اذا شاءوا ــ فأطلقوا سراحه بلا فدية وعاد

العباس الى قريش ليرسل الى محمد كل أنباء الاستعدادات !

لقد منعت حكومة مكة البكاء على الاموات حتى تأخذ بثأرها من محمد وحمزة .. وكل المساهمين فى القافلة التى كان يقودها أبو سفيان يتنازلون عن أموالهم لتجهيز غزوة ضد المدينة

ورفض أبو سفيان ان يفدى ولده الاسير ، واقسم أن يطلقه بحد السيف .. واقسمت زوجته هند الا تتعطر والا تقترب منه حتى يأخذ بثأر أبيها عتبة وأخيها الوليد

وسمع حمزة بما تصنعه هند بنت عتبة فابتسم مستخفا ، وسمع حسان بن ثابت بتحريضها على قتل محمد وحمزة ، وبدورانها بين نساء قريش وعبيدها الاحباش ، فانشد شعرا يهجوها ويهون من شأنها ، ويسخر باغرائها الرجال ، وافحش عليها ..

وتجار قريش يرسلون الوفود خفية الى تجار اليهود فى المدينة ليساعدوهم على النيل من محمد .. وان يحصلوا على رأسه ان استطاعوا ، أو على رأس حمزة

ووسط هذا الغليان الجنونى المتوحش من الكيد والرغبة المفترسة فى الانتقام عاش محمد أيام ما بعد النصر ..

وهو يذكر باعجاب بلاء على بن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب ، وعبيدة بن الجراح ، وبلال وعمار بن ياسر .. وقبل كل هؤلاء حمزة بن عبد المطلب !

صراع من الداخل

انطلق عبد الله بن ابى يهمس لبعض المسلمين الذين لم يخرجوا الى بدر ، ان محمدا يحرمهم من الغنـــــائم ويوزعها على من يحب ، فعثمان بن عفان لم يخرج مثلهم الى الحرب فى بدر ، لكن محمدا أعطاه نصيبه من الغنائم ايثارا له لانه زوج ابنته رقية ! ..

وحذر بعض المسلمين عبد الله بن أبى ، أن ينشر بينهم البغضاء ، فما آثر محمد صهره عثمان بخير ، وانما أنجز وعده .. فقد كان عثمان يلح على محمد فى الخروج معه الى بدر ، ولكن محمدا أمره أن يبقى ليقوم على تمريض رقية ، زوجته ، ووعده أجر المجاهدين .. ومهما يكن من شيء فقد ماتت رقية بنت محمـــد ، ومحمـــد مجروح القلب .. فما يليق بأحد أن يؤذيه فى عثمان زوج ابنته الراحلة ، وعثمان بعد تاجر واسع الثراء لا حاجة له بأموال الغنائم ..

وعاد عبد الله بن أبى يحرض الرجال على المطالبـــة باقتسام الاموال التى افتدت بهـــــا قريش أسراها .. ولكنهم وعظوه أن يكف ، فهم يقرون محمدا على تخصيص جزء كبير من هذه الاموال للدفاع عن المدينة ان فكرت قريش فى الثأر ..

ولم يسكت عبد الله بن ابى ، فقد رجع محمد ظافرا من بدر ، ورجع معه المسلمون سكارى بنشوة النصر .. ولقد مكن هذا الانتصار لمحمد فى الارض فلم يعد لعبـــد

الله بن ابى ، أمل بعد في ان يضع على رأسه تاج المدينة !..

وانه ليوسوس للناس أن محمدا يأمر غيره بالاعراض عن متاع الحياة الدنيا ، ثم ينفق هو الاموال على طعامه وشرابه ، واثاث بيته .. فقد اتخذ لنفسه اثاثا كالذى يتخذه كسرى .. قال هذا ودس الى امرأة من الانصار فراشا وثيرا ثمينا حملته الى عائشة ، المرأة الصغيرة الحسناء التى تحب المتاع وتهوى الثراء . وسمع محمد هذا فعاد الى بيته ليجد عائشة مسترخية على الفراش الجديد تغمرها الفرحة ، وهى تتحسس بجسدها لين الفراش .. فسألها فى غضب : « ما هذا يا عائشة ؟ » .. فقالت له : « امرأة من الانصار دخلت فرأت فراشك فبعثت الى بهذا » .. فأمرها أن ترده ..

رد الفراش الى المرأة التى اهدته ، واستلقى محمد على الحصير كما تعود .. واقبل عمر بن الخطاب ليتبين الصدق فيما يتهامس به بعض الناس فى المدينة أن محمدا ينفق أموال الفدية على آثاث جديد فاخر يزين به بيته .. دخل عمر واخذ يتامل كل مافى بيت محمد من متاع وطعام .. ان كل شىء على حاله لم يتغير ، ومحمد على الحصير . وفاض الدمع من عينى عمر فسأله محمد : « مايبكيك يا ابن الخطاب؟ » . فقال عمر : « ومالى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك ، وهذه خزائنك لا أرى فيها الا ما أرى »

واخذ محمد يسرى عن عمر ، ويعلمه ان قيمة الانسان ليس فيما يملكه من متاع ، بل فيما يملكه من قدرة على اسعاد الاخرين ، فالاعمال الطيبات هى مايبقى للانسان ، والباقيات الصالحات خير ابدا . وعلى اية حال فان

مايجب ان يشغل الناس اليوم ، انما هو الموقف بعد المعركة.. أما مايرجف به بعض المنافقين فى المدينة، فلا يجب أن يشغل الناس عن مواجهة المستقبل ..

وشكا عمر لمحمد مايلقاه الارامل بعد وفاة أزواجهن فى بدر .. وأحس محمد أنه هو المسئول عن كل شيء ، وأن عليه أن يأسو هذه الجراحات .. سيجرى على أسر الشهداء نفس المعاش الذى كان يكسبه عائلوها الشهداء ، أما الارامل الصغيرات ، فانه لمسئول عن تعويضهن بالازواج ، خوف الفتنة .. وبث عمر لمحمد ألما يضيق به صدره .. فابنته حفصة ، أرملة صغيرة جميلة استشهد زوجها فى بدر، ولقد عرضها عمر على عثمان فقال له أنه لا يفكر الان فى الزواج ، ثم عرضها على أبى بكر فسكت ولم يقل شيئا ..

وابتسم محمد وسأل عمر الا يغضب ، وستتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة . وخطب حفصة لنفسه .. فقام عمر يجهزها ، معجبا فرحا . ولقى أبا بكر فى بعض الطريق ، فأنبأه بخطبة حفصة فقال ابو بكر : «ان الرسول ذكرها أمامى فلم أكن لافشى سره ولو تركها لتزوجتها » .. وجهز عمر حفصة وحملها الى بيت محمد ، ومضى محمد يحض صحبه القادرين أن يتزوجوا أرامل الذين استشهدوا عسى ان يعوضوهن عما فقدن ..

وقسم محمد لياليه بين زوجاته الثلاث : سودة وعائشة ، وحفصة .. ولكنه معذلك كان يجمعهن عند صاحبة النوبةفى الصباح ، ليعظهن ، وفى المساء ليسمر معهن ويقص عليهن ما رآه فى رحلاته ، وكثيرا من

الحكايات والامثال ..

وكثر تردد عمر على بيت محمد ، منذ دخلته حفصة ، فلاحظ ان الناس يدخلون بيت محمد فى النهار والليل بلا استئذان ويقتحمون اليه فى مخادعه ، ويتحدثون الى زوجاته وقد تكون الواحدة منهن فى ثياب منزلية لا تصلح لاستقبال رجل غريب

وضاق عمر بهذه الحال ، واوشك ان يأمر ابنته حفصة أن تحتجب .. ولكنه آثر أن يتحدث الى محمد نفسه فقال له : « يارسول الله ان نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرت امهات المؤمنين بالحجاب » .ولكن محمدا كان فى شغل عن هذا .. بأمر قريش ، ومستقبل المدينة بعد انتصاره فى بدر .. انه ليثق فى نسائه ويثق فيمن يدخله بيته ، فعلام يغار عمر ؟ .. فليفكر معه فى امر قريش .. فهذا أجدى ..

وقريش لم تذق أبدا مثل تلك الهزيمة التى ذاقتها فى بدر .. وصديقه ابو بكر ذو الثقافة الواسعة يؤكد له ان الجزيرة العربية لم تعرف فى كل تاريخها مثل هذه النكبة .. حتى المعارك التى دامت سنوات طويلة بين هذه القبيلة او تلك لم ينكب فيها اى المتحاربين بسبعين قتيلا وسبعين أسيرا ..

والرسائل السرية ترد من العباس بن عبد المطلب تحمل انباء استعدادات قريش للقتال ، وحرص قريش على ان تظفر براس محمد وراس حمزة جميعاً ، وسعى تجار قريش لمحالفة يهود المدينة ومحالفة القبائل التى تضرب خيامها خارج المدينة ..

لقد غيرت قريش طريق تجارتها الى الشام منذ بدر، واتخذت طريقا طويلا عبر العراق ، معتمدة على قبائل بنى

سليم .. ولكنها لن تلبث أن تتحالف مع القبائل المجاورة للمدينة ، فتطوقها ، وتعود قوافلها الى الطرق المألوفة

ولقريش حلفاء فى قلب المدينة ذاتها ، وهم يهود بنى قينقاع .. ويهود بنى قينقاع يسيطرون على شمال الحجاز ، فلأغنيائهم هناك ضياع واسعة ، يستثمرون فيها الاموال ، وكبار التجار منهم يملكون هناك المصارف التى تقرض بالربا ، وليس لاحد غيرهم نفوذ فى تلك الاسواق .. وهم يتعاملون مع تجار قريش ، ويتقاسمون الفائدة . ولكن اندحار قريش فى بدر ، والانتصار الساحق المدوى الذى حققه المسلمون ، كل هذا أصبح يهدد نفوذ بنى قينقاع فى أسواق شمال الحجاز .. ومن المسلمين — بعد — تجار كبار يزاحمونهم فى المدينة نفسها . ومن بدوى فقد يزحفون أيضا الى أسواق الشمال ..

ان ثمة مصلحة مشتركة بين قريش وبنى قينقاع فى شمال الحجاز ، وهذه المصلحة يهددها منذ اليوم انتصار المسلمين فى بدر .. ولكن بنى قينقاع لم يجاهروا بالعداء ، وما زالت صحيفة المحالفة قائمة بينهم وبين محمد ، وهم فى النهاية حلفاء لعبد الله بن أبى ولشيعته الاقوياء بين الانصار .. ولكن عبد الله ما زال يحمل على رأسه لافتة الاسلام ، أما ما فى القلب فشىء آخر ، ويهود بنى قينقاع لم يجاهروا بنقض صحيفة المحالفة .. انهم ليشكلون خطرا .. هذا حق . ولكنه خطر مقيم وسط المدينة ، من الممكن حصره والتغلب عليه آخر الامر ..

أما الخطر الداهم حقا ، فهو بنو سليم .. انهم ليوادون قريشا ، وييسرون لها طرق التجارة ، ويحالفونها جهرة معتمدين على مالهم من هيبة وسمعة حربية .. وهم يقيمون فى جبال بعيدة عن المدينة ، يعتصمون فيها ويستقوون على خصومهم . ولئن سكت عنهم محمد

لتشجع عرب آخرون على الانضمام الى قريش ، ولظن كل العرب ، ان محمدا يقعد عن بني سليم خوفا من فرسانهم . وارسل محمد الى بنى سليم يطلب منهم الا يظاهروا قريشا عليه . ولكن بنى سليم استخفوا به ، ومضوا يغالون فى محالفة قريش ، فحشدوا بعض فرسانهم لحراسة قوافلها .. ولم تبخل عليهم قريش فزودتهم بالاموال والسلاح ..

وهكذا وجد محمد نفسه مضطرا الى مهاجمة بنى سليم حماية لانتصاره . وحشد جيشا من الذين لم يستريحوا بعد من معركة بدر ، ولكن نشوة الانتصار كانت تؤجج حماسهم .. وقاد هو بنفسه الجيش الى مضارب بنى سليم ..

ولم يكد محمد يقترب بجيشه من ديار بني سليم ، حتى أدركت القبيلة أن ما وقع بقريش فى بدر قد يقع لها ونصح شيوخ القبيلة فرسانها أن يتجنبوا القتال . ولكن محمدا كان يتقدم .. فتركت بنو سليم منازلها ومتاعها وفرت برجالها ونسائها وأطفالها .. ودخل محمد بجيشه ديارهم فلم يجد من يحاربه ، وعاد بغنائم كثيرة دون أن تراق قطرة دم واحدة ..

وكان من بين ما غنمه محمد وجيشه خمسمائة من الابل .. وهي ثروة بأسرها . وتحرجت القبائل المحيطة بالمدينة بعد هذا الانتصار الخاطف الغريب الساحق ، فقطعت مفاوضاتها مع قريش .. وخشيت أن يقود محمد مثل هذه الحملة عليهم . وما منهم قبيل له منعة بنى سليم ..

وعاد محمد الى داره كما تركها .. يقضى الصباح مع زوجاته يعلمهن ويبصرهن بأحكامه فى علاقات الرجال والنساء ويطالبهن أن يعلمن النساء المسلمات مما علمهن،

ثم يستمر معهن فى الليل ، ويروى حكايات شائقة عن رحـــلاته وغزواته ، وهو يخصف نعله بنفسه أحيانا أو يرقع ثوبا له ..

ثم يأمر نساءه ـ بصفة خاصة ـ أن يحتجبن ، لأنهن لسن كأحد من النساء ..

ومضى يأمر نساءه بالاعراض عن متاع الحياة الدنيا ، ويحضهن على ان ينبذن أحلام الغنى ، واخذ يضع لكل المؤمنات والمؤمنين ، قواعد للسلوك فيما بينهم .. وانذر من يخالف ، بعذاب عظيم .. على أن مايشغله الآن لهو امر يهود بنى قينقاع ، ومراسلاتهم السرية مع قريش ، وتربصهم به ، ليثبوا عليه وعلى من اتبعه ..

وهاهم أولاء يصنعون أكثر من هذا .. انهم ليدعون خير محاربى بدر ليســمروا ويشربوا فى بيوت أعدوها للمتاع ، وزودوها باليهوديات الفاتنات وبالخمر القوية الفاخرة التى اشتهر بنو قينقاع بصناعتها .. ولقد مر على بن ابى طالب بأحد المشارب ومعه ناقتان غنمهما من بدر .. وذهب لبعض شأنه وعاد فاذا به يجد الناقتين قد نحرتا . وسأل من صنع هذا فقيل له انه عمه حمزة وهو فى ذلك البيت يشرب ويطرب .. وذهب يشكوه الى محمد فانطلق محمد مع على حتى جاء البيت الذى به حمزة فاستأذن فأذنوا له .. فاذا هم جميعا سكارى، واذا حمزة فى نشوة الخمر يقول لمحمد : هل انتم الا عبيد أحباش ! . وانسحب محمد مشفقا .. وان هى الا أيام حتى كان يطوف بالمدينة مناد يحمل الامر بالنهى عن الخمر .. انها لحرام ..

سيعاقب من يشربها مهما يكن شأنه ، وان كان من الذين شهدوا بدرا ! . واغتاظ بنو قينقاع واعتبروا الامر موجها ضدهم .. أكبر منتجى الخمر فى المدينة ..

لا تعايش مع محمد بعد !! يجب أن يجتثوه من هذهالارض

ومرة أخرىأرسلوا الى قريش يستحثونها علىالمبادرة بغزو المدينة ، وستجد قريش كل بنى قينقاع يفتحون لها الابواب المغلقـة ! .. الموقف حـرج فى الحق فهو لايسـتطيع أن يواجههم بالعـداء ، وهم مازالوا ـ فى الظاهر ـ يراعون شروط صحيفة التحالف فيما بينهم ، فلو انه صارحهم بما بلغه عن مراسـلاتهم السرية مع قريش لكشف عمه العباس بن عبد المطلب ، الذى مازال يقيم فى مكة ، شريفا مبجـلا غنيا ، واسـع التجارة ، متشابك المصالح ..

وقرر محمد أن يذهب اليهم فيدعوهم الى اتبـاعه ويحذرهم أن يسلكوا معه كما سلكت قريش .. ولكنهم ردوه قائلين « يامحمد انك ترى أننا كقومك ! لايغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبتمنهم فرصة ، انا والله لئن حاربتنا لتعلمن أننا نحن الناس » . وعلى الرغم من السخرية والتهديد الواضح فقد صبر محمد عليهم .. ورأى بعض صحبه أن يقاطع اليهود فلا يحل لمسلم أن يتعامل معهم .. ولكنه أبى . انه ليسـتعد للقاء قريش ولكنه لن يخرج من المدينة حتى يؤمن ظهره

وعاد يتلطف الى بنى قينقاع ويطالبهم أن يصفوا له الود .. فما من شيء يمنع من هذا الصفاء . ولكن قادة بنى قينقاع كانوا يضيقون بمنافسة تجار المهاجرين ، ويضيقون بالقواعد الجديدة التى تحكم المعاملات ..

وهكذا ظلوا يكيدون ، وينتظـرون أن تقبل قريش لتسحق محمدا وصحبه وتعاليمه .. وسيفتحون هم لها أبواب المدينة ..

وخلال تلك الايام المتوترة من الشـك المتبـادل ، والكيد ، أقبلت على سوق بنى قينقاع بدوية مسـلمة

ببضاعة لها .. وقد ضربت خمارها فوق وجهها ، كما أمرتها تعاليم الاسلام .. وباعت البدوية بضاعتها ، ثم اتجهت الى أحد الصاغة اليهود لتشترى حلية . وتعرض لها بعض فتيان اليهود ، وقد استهواهم جمال بدنها ، واشراق وجهها تحت الخمار ، فمضوا يتغامزون عليها ، ويسخرون بهذا الخمار الذى تخفى تحته جمال وجهها ، ويهزأون من الاسلام الذى تقضى تعاليمه بحجب مثل هذا الجمال عن العيون ! ..

واغتاظت المرأة من هذا كله ــ وبصفة خاصة ــ من سخريتهم بالاسلام .. وحاول بعض الرجال المسلمين فى السوق أن يكفوا شباب اليهود عن المرأة وعن الهزؤ بالاسلام . ولكن الشبان اليهود لم يحفلوا ، وانقضوا على المرأة يحاولون نزع حجابها بالقوة ، فصرفهم عنها الرجال المسلمون .. وفى هذه الاثناء كان الصائغ اليهودى قد عقد طرف ثوب المرأة الى ظهرها وهى لاتشعر ، واثبت طرفا آخر من الثوب الى مقعدها بمسمار صغير ..

وبعد أن اشترت المرأة حليتها ، وقفت لتنصرف ، فتعرى ظهرها ثم تعثرت فوقعت على الارض وقد انكشف ثوبها عن جسدها ، وتمزق بعضه ، فتعرت ! .. وفتيان اليهود يتدافعون عليها ضاحكين ، وهى تصرخ فى ذعر . واذ ذاك انقض الرجال المسلمون يدفعون عنها .. وانقض أحدهم على الصائغ ، فتقاتلا ، وقتل الرجل المسلم ذلك الصائغ اليهودى ، فتجمع اليهود على الرجل المسلم ، فقتلوه وشاع الخبر فى المدينة .. وانفجرت الازمة واضحة صريحة !

واعتصم اليهود فى حصونهم بحى الصاغة ، واعلنوا نقض الصحيفة ، وشنوا الحرب سافرة وانتظروا عون بقية يهود بنى قريظة وبنى النضير ..

وامر محمد رجاله من الانصار أن يحاصروا بني قينقاع في حصونهم .. ولكن عبد الله بن أبي ، ذهب الى رجاله من الخزرج ، يذكرهم بحلفهم القديم مع بني قينقاع قبل أن يأتي محمد .. فصده بعض الخزرج ، وشكوه الى محمد ، وسألوا محمدا أن يأذن لهم فيقطعوا رأسه ، لأنه بموقفه هذا انما يفسد في الأرض ويوشك أن يثير الفتنة بين المسلمين ! .. ولكن محمدا رفض ، وآثر ألا يهدر دما في المدينة .. وجاء رجال من الاوس يطالبون بقتل عبد الله بن أبي ، وخشي محمد أن تثور الفتنة من جديد بين الأوس والخزرج ، فأمر الانصار جميعا أن يتركوا عبد الله بن أبي ، وسيتولى هو بنفسه أمر الرجل ! ..

واستخذى عبد الله بن أبي .. وحين أدرك أنه لن يبلغ مايريد من اثارة الخلاف ، وأنه لن يستطيع أن يساعد بني قينقاع ، صبر لبعض الوقت .. غير أن المسلمين شددوا الحصار على حي الصاغة ، وبنو قينقاع خلف حصونهم لاينجدهم أحد . وأرسل بنو قريظة وبنو النضير الى محمد يؤكدون له انهم مازالوا على تمسكهم بصحيفة المحالفة ، وانه لاشأن لهم ببني قينقاع .. أما بنو قينقاع ، فعلى رؤوسهم هم وحدهم يقع وزر ما أقترفوه !

وبعد خمسة عشر يوما من الحصار المضني استسلم يهود بني قينقاع بلا شروط .. وتركوا أمرهم الى محمد يقضي فيهم كما يشاء ! وتذكر عبد الله بن أبي أن صحيفة المحالفة بينهم وبين محمد ، تقضي بقتل كل خارج عليها ! ..

وانتظر عبد الله أن يقضي محمد بالموت على كل يهود بني قينقاع .. ولكن محمدا لم يصدر حكما .. وأشار

عليه الكثيرون أن يقتلهم تنفيذا لأحكام الصحيفة ، ولكنه رفض !

وتقدم اليه عبد الله بن ابى قائلا « يامحمد أحسن فى موالى » .. فلم يجبه محمد . فعاد يلح عليه ، فقال له محمد : دعني . ولكن عبد الله بن ابى أدخل يده فى جيب محمد قائلا : « والله لا أدعك حتى تحسن الى فى موالى .. انهم أربعمـائة دارع وثلاثمـائة حاسر منعونى من الأسود والاحمر تحصدهم فى غداة واحدة ! والله انى لا آمن واخشى الدوائر » . فقال محمد « هم لك » . وامر محمد بأن يخرجوا جميعا من أرض المدينـة .. فهي ليست أرضهم ، وانما كانوا قد جاءوها غازين من قبل فأقاموا بها وسادوا تجارتها ، وانشأوا فيها حى الصاغة ..

وحرص محمد على الا يمسوا بسوء اثناء الخروج ، فعين أحد زعماء الانصار قائدا على نفر من رجاله يراقبون خروج اليهود .. وســاروا فى التيه اياما حتى بلغوا جنوب الاردن ، فاستوطنوها ، ولم يقتل منهم احد . وغنم المسلمون منازلهم وأسلحتهم وكثيرا مما تركوه من متاع ..

ولم يكد المسلمون يستريحون حتى جاءتهم الانباء أن بعض حلفاء قريش يريدون غزو المدينة ، فخرج محمد بنفسه على رأس قوة ليواجه الجيـوش المتقـدمة من ثعلبـة وغطفان ، وأدركهم المســلمون وطاردوهم ، حتى قمم بعض الجبال .. وانهزمت جيوش ثعلبة وغطفان ..

وعرفت قريش هذا ، فضاعفت من عزمها على ضرب محمد ..

لابد من ضربة سريعة حاسمة ، تعيد الثقة بقريش الى قلوب العرب جميعا .. ان كل الاسرى الذين أعتقوا

ليستعدون الآن لغزو المدينة .. ولقد وجدت هند بنت عتبة الآن من يأتي لها برأس حمزة .. وجدت عبدا اسمه وحشي يجيد القذف بالحربة على نحو لا عهد للعرب به .. ان هذا العبد عند رجل مات أخوه فى بدر بطعنة من حمزة .. وهند تعد العبد بكل شيء ، وصاحبه يعده بأن يعتقه ان هو قتل حمزة ! .. حمزة دائما !

وتحشد قريش جيشا من ثلاثة آلاف مقاتل .. قوامه الاحابيش والعبيد الذين يكونون شرطة مكة وجيشها ، وعلى رأسه فرسان مكة وشجعانها ، والحلفاء من قبائل تهامة وكنانة .. كلهم يخرجون على مئات الخيول والجمال المدربة على القتال ، فى الدروع والزرد .. ومن ورائهم نساء مكة وجواريها الحسان ، فى أجمل زينة ، تقودهن هند بنت عتبة .. بين حاملات الدفوف ، متعطرات متأنقات .. يشحذن همم الرجال ويرددن الاغانى وراء هند ويقسمن الا يسمحن لرجالهن بالاقتراب منهن ، حتى يهزموا محمدا ويعودوا برأس حمزة ! ..

مامن رجل فى هذا الجيش الا يحمل فى قلبه حبا للانتقام ، أو رغبة فى استعراض قوته أمام زهرات نساء قريش وأفتن جواريها .. ان رنين الطبول وقرع الدفوف ، وصيحات النساء المتعطرات .. كل ذلك يدفع على أمواجه الملتهبة جيشا لم تعرف الجزيرة العربية مثله من قبل ، تحت قيادة أبى سفيان .. بجناحين من الفرسان يتقدمهما خالد بن الوليد وعكرمة ابن أبى جهل . ويندفع الموكب الصاخب الذى يعوى فى طلب الدم ، وتختلط فيه صيحات النساء بهزيم الخيول وهتافات الرجال ..

انهم يمضون جميعا الى مشارف المدينة الى جبل أحد !

وتلقى محمد رسالة من عمه العباس يصف فيها كل شيء بالتفصيل .. واذن فموعدنا أحد .. اثبت أحد !!

ثمن العصيان

ثلاثة آلاف مقاتل من قريش وحلفائها واحابيشها ، يندفعون الآن كاعصار مخيف ، يختلط فى أعماقهم حب الانتقام بأحلام السيطرة .. انهم ليزحفون ويزحفون . ولقد أوشكوا أن يقرعوا ابواب المدينة على من فيها من نساء واطفال وشيوخ ، وعلى العقيدة التى تلهب حماس الرجال ، وتنشىء انسانا جديدا ، وانهم ليستريحون فى وادى احد .. على مقربة من المدينة ! ..

واجتمع الناس فى المسجد يتشاورون .. وخرج اليهم محمد ، يحدثهم عن قوة الجيش المهاجم ويسألهم الرأى والنصيحة . وقبل ان يتحدث واحد من الناس ، قال لهم محمد : « ان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا . فان اقاموا ، اقاموا بشر مقام وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » . وانتظر محمد ان يسمع جوابا من الذين يشاورهم فى الأمر .. اما الذين عادوا من بدر ظافرين فان انتصارهم القديم الخاطف فى بدر مازال يدير منهم الرءوس حتى اليوم ، ويملأ القلوب بالكبرياء

وتهامس شبابهم وهم يتحسسون مضارب السيوف ، وصدى بعيد من الابواق المزافة والخيل الصاهلة يؤجج منهم حب المغامرة ، والقلوب تدق فى شدة على رجع قرعات الدفوف .. وانهم مع ذلك ليحلمون بالغنائم ، وبالسبايا .. لقد جاءت قريش باجمل نسائها وجواريها

وبافخر ماتملك من دروع ، وسيوف وثياب ومتاع وخيل وابل ، وبخزائنها أيضا .. سيحصلون على هذا كله حلالا لهم ، فان هم ماتوا دون هذا ، فانهم لظافرون بخير منه : بالجنة .. وبعد ، فمابال محمد لايتيح فرصة مشابهة للذين فاتتهم مغانم بدر وشرف المعركة فى بدر . وقال قائلهم : « اخرج بنا الى أعدائنا يارسول الله ، لايرون انا جبنا عنهم وضعفنا .. »

اما شيوخ الانصار ، فلم يرق لهم هذا الاقتراح .. انهم أدري بمدينتهم وأحق بأن تتبع مشورتهم ولئن كان الشباب من المهاجرين ، وبعض شباب الانصار الذين لم يكابدوا الحرب من قبل ، لئن كان هؤلاء جميعا قد غرهم أن اندحر فى بدر الف من القرشيين أمام ثلاثمائة من المسلمين ، فان على هؤلاء الشباب أن يعلموا أن قريشا لم تجىء وحدها ، بل حشدت الحلفاء والاحابيش ، وهى تعد للمعركة منذ عام .. فليتعلم هؤلاء الشباب أن الشجاعة فى الحرب ، ليست الاندفاع الى اظفار عدو متفوق .. وانما هى خطة تكفل الانتصار .. !

وقال عبد الله بن أبى ، باسم هذا الفريق من الشيوخ : « يارسول الله .. أقم بالمدينة ولا تخرج اليهم ، فوالله ماخرجنا منها الى عدو قط الا أصاب منا ، ولا دخل علينا الا أصبنا منه .. فدعهم ، فان اقاموا أقاموا ، بشر محبس ، وان دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وان رجعوا ، رجعوا خائبين » ..

هذا هو مايريد محمد أن يقنع به الناس .. ولكن ، لماذا يؤيده عبد الله بن أبى ، وهو لا يضمر لمحمد الا الشر . وأبدى بعض المسلمين خوفهم من أن يمكثوا فى

المدينة ، ويجروا جنود قريش الى ابوابها فاذا احتدم القتال ، انفجرت الخيانة .. وفى المدينة من يضمر العداء ويتأهب الكيد . وطالت المناقشات حتى أذن بلال لصلاة الجمعة .. وبعد أن فرغ الناس من الصلاة ، عادوا يتشاورون فى الامر ..

ولم يستطع محمد أن يقنع الاخرين بالبقاء فى المدينة. فالخوف من أن تحدث الخيانة فجأة ، ثم الزهو بالانتصار القديم ، والاشفاق من ان يظن احد بهم الجبن والطمع فى غنائم جديدة من قريش .. كل هذا جعلهم يتمسكون بالخروج لملاقاة جنود قريش فى احد . واخذ محمد الاصوات ، فاذا غالبية القادرين على حمل السلاح ترفض رأيه وتقرر الخروج الى الحرب فى احد ..

وأذعن محمد لرأى الغالبية ، ودخل بيته ليرتدى ملابس الحرب . وحين غادرهم محمد تعاتبوا فيما بينهم .. فلقد اغلظ بعضهم لمحمد اثناء المناقشة ، وقهروه على أن يتبع رأيهم على كره منه ، وعاد محمد بعد حين وقد ارتدى ملابسه الحربية ، فقال له بعضهم : « استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فان شئت فأقعد صلى الله عليك »

ولكنه قد تهيأ للقتال وانتهى الامر ، وماكان له أن يتراجع بعد أن استعد . وعاهد الاقلية التى كانت تؤيده ، أن تنفذ قرار الغالبية ، ومادام القرار قد صدر فيجب أن يحترمه الجميع وعليهم أن ينفذوه بنفس حماس المؤيدين . وهاهو ذا بينهم فى طليعة الذين ينفذون القرار بالخروج الى احد . وأمر محمد كل المسلمين أن يستعدوا .. فسيخرجون من يومهم هذا الى أحد ليبدأوا القتال من الغد . وانصرفوا يتسلحون بسيوفهم ودروعهم التى غنموها من بدر ، ومن بنى قينقاع

وارسلَ محمد الى الحلفاء من يهود بنى قريظة وبنى النضير يطالبهم أن يخرجوا معه للدفاع عن المدينة ، فصحيفة التحالف التى كتبت بينهم تقضى عليهم بالدفاع عن المدينة .. ولكن بعضهم تعلل بأن الصيفة لاتلزمهم بالخروج من المدينة !

وقال آخرون من يهود بنى قريظة وبنى النضير : « ان الصحيفة تلزمنا بالدفاع عن المدينة على أى نحو ، بلا دخول فى تفاصيل خطط الدفاع ، ولكن محمـدا سيقاتل من الغد وغدا هو السبت ، ونحن لانعمل فى السبت ولا نشهر فيه سلاحا . وغضب أحد رجالهم فوقف عليهم لائما وأعلن انه سينضم الى محمد ، فان قتل فى المعركة فلتسلم أمواله الى محمد يصنع فيهـا ماشاء .. وامتشق حسامه ودرعه وهو ينظر الى قومه فى ازدراء قائلا : « لاسبت لكم »

وجمع محمد نحو ألف رجل من المهاجرين والانصار .. وبعض الجياد والابل وخرج نسوة من المدينة وراء الجيش ، بالطعام والماء ، لتزويد المقاتلين .. وقسـم محمد جيشه الى ثلاثة اقسام ، وجعل على أحد الاقسام الثلاثة عبد الله بن ابى .. حتى اذا كانوا فى منتصـف الطريق بين المدينة واحد ، وقف عبد الله بن أبى يتحدث مع هذا الثلث من جيش محمد .. كانوا نحو ثلاثمائة رجل معظمهم من الخزرج ، وقد ظلوا طوال الطـريق يتهامسون فيما بينهم متسائلين : « لماذا لايفرض محمد رأيه ؟ ولماذا يذعن لرأى الشباب المتحمسين ؟ »

وقال عبد الله بن أبى : « أطاعهم ، وعصانى » .. وكان عبد الله بن أبى قوى الحجة ، له قدرة باهرة على الاقناع . ومضى يحدثهم عن المصير المجهول الذى يدفعهم

اليه محمد فى مغامرة سخيفة رسمها خيال شبان حالمين بلا خبرة ..

ثم صاح برجاله : « والله ماندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس » ..

ولوى زمام فرسه راجعا الى المدينة ، ومن ورائه ثلاثمائة رجل من خيرة المقاتلين ! وناداهم بعض صحابهم من بعيد « لاتخذلونا » ولكن عبد الله بن ابى ، تصدى لهم بابتسامته الماكرة المطمئنة : « لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم »

على أن محمدا تقدم بما بقى من جيشه وهم سبعمائة ، وظل يحضهم على الصبر .. حتى اذا بلغوا وادى احد ، وجدوا جنود قريش يملأون معظم الوادى ، ومن ورائهم الصحراء العريضة ، والطريق الى مكة ، آمنا !

انهم لثلاثة آلاف ، بينهم العبيد الاحباش بالحراب المسنونة .. وسادة قريش وفرسانها بعدتهم وخيلهم . وما أشد حاجة المسلمين الى الخيل .. ولكن عبد الله ابن ابى قد انسحب بمعظم مايملكه المسلمون من خيل !!

مهما يكن من شيء ، فلابد من مواجهة هذا الجمع المتفوق بخطة تقهره .. وهاهم أولاء يتخايلون باعراف الجياد ، وهند بنت عتبة بينهم تشق الصفوف فى قمة زينتها ، ومن حولها نساء الطبقة العليا من قريش وأجمل الجوارى ، متمطرات متأنقات ينشدن للرجال ، ويعبثن ببعض عظام هيكل بشرى . لمن هذه العظام ؟ .. كيف أمسكت هذه الانامل الرقيقة بهياكل الموتى ؟ ولكنها عظام أمك يامحمد .. نبشت عليها الانامل الرقيقة ، عندما مر جيش قريش فى طريقه الى احد ، على القبر الذى استلقت فيه آمنة منذ خمسين عاما .. لكم يبدو هذا كله وحشيا ورهيبا ومزريا .. !

على أن الوقت لم يعد صالحا للتفكير بعد فى شىء آخر غير مواجهة جنود قريش . وكانت قريش قد قسمت جيشها الى ثلاثة أقسام : القلب ويقوده أبوسفيان ، والجناح الايمن الذى يضم صفوة الفرسان تحت قيادة خالد بن الوليد ، والجناح الايسر من فرسان يقودهم عكرمة بن أبى جهل ..

وتحسس محمد الارض من حوله .. فرأى أن يعسكر فى أقصى الوادى من ناحية جبل أحد .. وأمر الرماة وعددهم خمسون رجلا أن يصعدوا الى أعلى الجبل ، وليجعلوا همهم رمى الفرسان بالنبال ومنعهم من التقدم للاشتراك فى المعركة ..

ان الخيل تخاف من النبال ، ولن يستطيع فرسان قريش ان يخوضوا المعركة ، اذا ما سقطت عليهم النبال من أعلى الجبل .. وهكذا يخلص جيش محمد الى القلب ، وفيه سادة مكة وشجعانها وعبيدها الاحباش .. فيقضى على هذا القلب الذى يشكل معظم القوة الضاربة فى الجيش بعد أن يحرمه من الاستعانة بفرسان الجناحين

وأمر محمد قائد الرماة بالنبال ، أن يحذر بصفة خاصة مكر خالد بن الوليد فهو قائد حاذق شديد الدهاء . وشدد ألا يبرح الرماة أماكنهم مهما يكن من أمر .. فليظلوا فى أماكنهم حتى يتلقوا أمرا آخر من محمد نفسه أو ممن سيخلفه ان هو استشهد فى المعركة .. وبعد أن شرح محمد لقائد الرماة خطر دوره فى المعركة عاد يكرر : « ادفع الخيل عنا بالنبال واثبت مكانك حتى لايأتونا من خلفنا » ..

وجمع محمد بعض شجعان المسلمين من حوله ، وأعطى سيفه لرجل من الانصار اسمه أبودجانة وطلب منه أن يستوفى لهذا السيف حقه ، فأمسك الرجل

بالسيف ، فى ايمان عميق بأنه لن يقهر وأخرج عصـــابة حمراء فعصب بها راسه فقال الناس : أخرج أبو دجانة عصابة الموت وجعل محمد راية المسلمين لمصعب بن عمير ، واصطف المسلمون يتقدمهم حمزة والى جواره أبو دجانة ، وعلى بن أبى طالب ، وسعد بن أبى وقاص ، وعمر بن الخطاب وعبيدة بن الجراح .. ثم أشار محمد للرماة أن يبدأوا ، فانهمرت النبال على جناحى قريش .. وكان عكرمة يقود رجاله على خيولهم ويزحفون .. ولـكن الخيل اضطربت وهى تواجه سيل النبال المنصبة من أعلى الجبل ولم يستطع فرسانها أن يقهروها على التقدم .. واصطدم فرسان قريش : الواحد بأخيه .. فأمر محمد جيشه أن ينقض ، وابتعد خالد بن الوليد بفرسانه عن مرمى النبال .. بينما انقض قسم من جيش محمد على جناح عكرمة فأوقع الفوضى فى الصفوف واضطر عكرمة الى التقهقر ، وذكريات بدر تنبثق أمامه فجأة بصور حمزة معلما بريشته ، وأبطال قريش صرعى على الرمال !!

وتقدم حمزة يضرب بسيفه كل مايلقاه من الهامات ، وهو يصيح بصوت يبعث الرعب : « أمت .. أمت » .. والى جواره أبو دجانة يضرب بسيف محمد ، وقد ألهبه الايمان بأن هذا السيف الذى يحمله يستطيع أن يصرع جنود قريش جميعا ..

واندفعت جموع المسلمين الى القلب من جيش قريش ، وسقط حامل لواء قريش ، فحمله رجل آخر . وسقط الثانى فتقدم ثالث .. وسقط هو أيضا .. فتقدمت امرأة من قريش تحمله .. والمسلمون يتقدمون مجتاحين .. والجناح الايسر الذى يقوده عكرمة بن أبى جهـل

يتموج فى اضطراب وذعر خلال تقهقره والخيل تقفز وتلقى بمن عليها ..

والمسلمون يتقدمون يلهبهم النصر المفاجيء السريع والايمان الخارق بأن من مات فى هذا الجهاد ، كتبت له حياة أخرى يعيشها فى الجنة خالدا مخلدا فيها

وهند بنت عتبة وسط اصحابها ترى فرسان قريش يفرون مذهولين من المد الزاحف أمامهم فتصرخ فيهم :
ويهابنى عبد الدار ! . وبها حماة الادبار . ضربا بكل بتار

وتمضي هند فتلبس الحديد والزرد وقناع الحرب وتشهر السيف تطعن به الصدور الحاسرة ، ويشعر أبو دجانة أن هناك فى المركة فارسا رشيق الحركة يخمش الناس خمشا شديدا فيقتحم عليه ويصمد له ، ويرفع أبو دجانة سيفه ليهوى بهعلى مفرق الفارس فاذا بالفارس يولول ويركع متضرعا الى أبى دجانة أن يرحمه ..واذابهذا الفارس هو هند بنت عتبة .. ويطلقها أبو دجانةقائلا : انى لاكرم سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أضرب به امرأة .. وتنجو هند ، وتخلع لباس الحرب ولكنها تنطلق تجمع النساء ، وتجرى وراء رجال قريش الفارين تعيرهم بالجبن .. والمسلمون يتدافعون وسط رجال قريش .. وحمزة يصرع الواحد بعد الآخر .. وهند تبحث فى جنون عن العبد الحبشى الذى كان يختبيء بحربته وراء شجرة فى الوادى ،وتمسكهمن يدهوتجرهالى مكان حمزة ، وهى تبذل للعبد مزيدامن الاغراءوالوعود..ولكن المسلمين ما زالوايتقدمون حتى لقد أحاطوا بهند وصاحباتها وجواريها .. وأسروهن .
وجيوش قريش تتقهقر : أبو سفيان ينسحب بجنود القلب .. وعكرمة يجرى بفرسان الميسرة ..اما خالد فما زال بعيدا بفرسان الميمنة يخشى ان يشتبك فى القتال .. والعبد وحشى ، ما زال يختبيء وراء الشجرة فى انتظار فرصة

تتاح له فيهرب براسه على الرغم من وعود هند واغرائها ..

ويرى الرماة من أعلى الجبل ، اندحار جنود قريش تاركين المتاع والدروع والسيوف والنساء ·· ان المعركة قد انتهت فى سرعة خاطفة ، والمقاتلون المسلمون يجمعون الغنائم والاسرى والسبايا الآن .. ويقترح واحدمن الرماة على الآخرين أن يسرعوا لالتقاط الغنائم الفاخرة ،والسبايا من نساء قريش الجميلات ·· ولكن قائدهم يذكرهم بما قاله محمد : أن يثبتوا فى مكانهم مهما يحدث ، والا يتركوا المواقع حتى يتلقوا منه هو نفسه الاوامر ..

ويقفون متململين ومن تحتهم يعج الوادى بالغنائم : الخيول الفارهة ، والدروع ، والزرد ، والابل المحملة ، والنساء الجميلات ، واكداس الطعام الثمين ، والمتاع الباهر .. الذهب والفضة وكل ما يملأ حياة سادة قريش بالابهة

ولكن أوامر محمد لم تصدر بعد .. لقد نسيهم محمد، ولن يكون لهم من الغنائم شيء ! .. وحتى اذا وزعها محمد فيما بينهم جيمعا على السواء ، فسيفوز غيرهم بالعبيد والجوارى والسبايا ! ·· ولم يستطيعوا الصبر اكثر من هذا ، فتركوا أماكنهم دفعة واحدة وانحدروا الى السهل يجمعون الغنائم ، ويأسرون ما طاب لهم ..

وخالد بن الوليد يقف بعيدا على فرسان الميمنة ، يتأمل جيوش قريش المهزومة ، ويفكر فى طريقة للانقضاض .. واذ رأى رماة المسلمين قد نزلوا عن الجبل وانشغلوابجمع الاسلاب ، قاد فرسانه مسرعا واستدار ، واعتلى الجبل على الفور ، وفاجأ المسلمين من ظهورهم وهم عاكفون على التقاط الغنائم ·· وهو يصيح فى جيوش قريش المتقهقرة أن تعود ..

وعادت جيوش قريش تقتحم المعركة من جديد : القلب بقيادة أبى سفيان ، والميسرة بقيادة عكرمة ، والميمنة بقيادة خالد تطعنهم فى الظهور .. وهكذا فوجيء المسلمون بأنفسهم محاصرين ، تطوقهم جيوش قريش من كل سبيل ..

وأخذت الخيول تدهس جثث الرجال .. وبرز حمزة من جديد الى جواره أبو دجانة وعلي وعمر وسعد والزبير ، يقاتلون جميعا فى استبسال لتحطيم الحصار ، وانطلق حمزة يصرع الواحد بعد الآخر من فرسان قريش ، حتى اقترب من وحشي .. واختبأ وحشي وراء شجرة في الوادي وحمزة ينقض على فارس من قريش يعمل سيفه في صفوف المسلمين .. صرخ حمزة فيه : هلم الى يا ابن مقطعة البظور ، وبارزه حتى صرعه وعكف يجهز عليه ، وهز وحشي حربته وقذف بها حمزة من بعيد ، ودخلت الحربة من بطن حمزة لتخرج من ظهره .. وحاول حمزة ان يرفع يده بالسيف فلم يستطع .. وتقدم منه وحشي فاستل الحربة واخذها ليغسلها بهدوء ..

سقط حمزة .. فانطلقت هند اليه ، واخرجت قلبه وكبده .. واخذت تعصر كبد حمزة بيدها وتلوكه بفمها وتلعق الدم متشفية وهى ترقص على جثته .. وبدأ المحاربون المسلمون يسقطون بالعشرات .. وتقدم أبو سفيان الى جثة حمزة ، فركلها .. وضرب شدقه بسن حربته .. وحين اخترقت الحربة شدق حمزة ، ضحك أبو سفيان ، ومشى يسحق بحذائه ، كل ما هو نبيل وشجاع فى الرجل الذى كان يملأ قلوبهم بالرعب منذ لحظات ، ولم يعد الآن غير جثمان ملقى ، ودماء تختلط برمال الارض ..

لقد مات حمزة .. مات حمزة فأين محمد ؟! وتردد الوادى بهتاف أبى سفيان « مات حمزة » .. وظلت هند

تخضب يدها بدمه وترفعها مهللة : مات حمزة ..

واضطربت جموع المسلمين .. وتقدم مصعب بن عمير بالراية ، فانقض عليه رجل من قريش ، فقطع يديه ثم قتله .. وكان مصعب كثير الشبه بمحمد . وخيل للرجل القرشي أنه قتل محمدا .. فصاح : قتلت محمدا .. قتلت محمدا ..

وسيطر الرعب على معسكر المسلمين ... لماذا يبقون اذن بعد أن قتل محمد

وبدأوا يفرون .. وامر محمد ان تسلم الراية الى على ابن أبى طالب ..

وتقدم على بالراية يخوض الصفوف الى جواره ابو دجانة ، بينما اندفع عمر بن الخطاب وسعد بن أبى وقاص وأبو دجانة وعبيدة بن الجراح والزبير بن العوام يبحثون عن محمد فى الزحام الجنونى المختلط ، فوجدوه يقعد منهكا وقد شجت رأسه ، ودمه ينزف من جسده ، وخده مشقوق ، انغرست فيه حلقتان من الزرد .. ومال عبيدة بن الجراح يشد بأسنانه الحلقتين ، فخلعهما ، وانخلعت بعض أسنانه .. وسعد بن أبى وقاص يرمى بالسهام وجموع أخرى من قريش تتدافع نحو محمد تريد ان تقتله وهو يقول لسعد : « ارم .. ارم .. بأبى انت وامى » ..

وأذن الزبير فى الناس ان محمدا حى لم يمت ..

وصاح عمر بن الخطاب فى المسلمين الهاربين أن يعودوا فمحمد حى لم يمت . وقاد جماعة من فلول العائدين ووقف يحارب دون محمد .. بينما جعل المسلمون الاخرون من أجسادهم دروعا تحميه من نبال قريش ، واقتحم عليهم أبى بن خلف على فرسه وطلب ان يبارز محمدا .. لقد جاء بفرسه الذى كان يلقى به محمدا فى مكة قديما فيقول

له : « اني أعده لاقتلك من عليه » وكان محمـــد فى ذلك الزمان يجيبه : « بل أقتلك أنا باذن الله » ..

وطلب عبيدة ، وعمر ، والزبير ، من محمد ان يأذن لأى، منهم فيبارز أبى بن خلف نيابة عنه ·· ولكن محمدا رفض، وصمم على أن يبارزه هو بنفسه على الرغم مما فيـــه من جراحات ·· وانتفض محمد يبارز أبى بن خلف ، وجمع كل قوته فى ضربة واحدة ألقت بأبى بن خلف من على ظهر فرسه · ولم يقم أبى بن خلف بعد ذاك من سقطته

وعاد محمد ، مثخنا بجراحه .. يستلقى وســـــط أصحابه ، وكل واحد منهم يحاول ان يعالج هذه الجراح. وتجمعت كل قوات المسلمين حول محمد .. فلم تستطع قريش ان تخلص اليه ··

وخيل لمحمد أنهم سيهاجمون المدينة .. فطلب من على ان ينظر أى الطرق يسلكون ، ولكنهم كانوا يعـودون الى مكة حقا .. ظافرين ، تلمع سيوفهم تحت أشعة الشمس الغاربة ·· وضحكات النساء والجوارى تملأ أرض المعركة التى تردد أنات الجرحى من المسلمين ..

وطلب عمر فى غيظه من حسان بن ثابت أن يرد على هند الفاجرة التى تخلفت تغنى وترقص مع بعض جـواريها ، وتنشد رجزا يهجو المسلمين .. فارتجل حسان قصيدة فاحشة يصف فيها خلاعة هند وفجورها . ولكن حسانا كان متعب القلب من كل ما حدث .. وبصفة خاصة :حين اكتشف وسط الجرحى جثة أخيه ..

وقام محمد يتوكأ على صحابه فى أرض المعركة ، التى تتناثر فيها اشلاء سبعين قتيلا من المسلمين .. وظـــل يتلمس حمزة ·· وحين أقترب منه ·· وجد بعض عظام من جسد أمه ·· تركتها هند أمام جسد حمزة ·· وتقدم

يتأمل حمزة ، فوجده قد بقر بطنه ومثل به وجدع أنفه وأذناه ..

وقال : « لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لامثلن بثلاثين رجلا منهم » وقال الذين من حوله يواسونه: « والله لئن اظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها احد من العرب »

واستدار ليرجع وكل جسده ينتفض .. ولكنه عاد الى جثة حمزة وأخذ يغمغم : « لن أصاب بمثلك أبدا .. ما وقفت موقفا قط أغيظ الى من هذا » . ورجع الى المدينة، يحيط به بعض صحابه .. وسمع خلال الطريق الى بيته نواح النادبات يبكين القتلى .. فاندفع الى داره لا يكلم أحدا بعد ، ولا يكلمه احد ، ثم اغلق عليه الباب ، واخذ يبكى كما لم يبك من قبل أبدا ..

لا تهنوا ولا تحزنوا

أجنونا كان ذلك كله ، أم حكمة ؟! .. وكيف يمكن أن تمحى آثار كل هذه الهزيمة فى أحد .. أن يأسو كل هذه الجراحات .. سبعون قتيلا من خيرة الانصار والمهاجرين .. وفى الطليعة منهم : حمزة الجسور النبيل الرائع . ومع ذلك فلو انه كان قد سمع نصيحة عمر بعد بدر فقتل الاسرى ، لما استطاعت قريش ان تحشد كل هذا العدد

ان رجالا من قريش أحسن اليهم فأطلقهم بعد أن وقعوا أسرى فى بدر ، كانوا يوم أحد يتدافعون بسيوفهم عليه يطلبون راسه هو !! .. ومنهم من قام عليه خطيبا يلهب الحماس ضده عندما أوشك جيش قريش أن يفر .. !!

لكم قال له عمر : أقتل هذا الرجل أو ذاك فلا يقوم أحد عليك خطيبا .. ولكنه ما سمع ، فاذا بمعظم أسرى بدر ، يشهرون عليه السلاح حتى الرجال الذين عطف عليهم بعد انتصاره فى بدر فأطلقهم بلا فدية ، ليعولوا بناتهم فى مكة !! حتى هؤلاء !! .. لا رحمة لمثل هؤلاء بعد .. !!

وها هو ذا أحد الاسرى الذين كانوا قد اعتقوا بلا فدية بعد بدر ، يقع فى الاسر مرة أخرى فى أحد ، فيستعطف محمدا ، فيقول له محمد : « والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول خدعت محمدا مرتين ! ان المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين » .. ثم يأمر الزبير بن العوام ان يقتله ! .. ويلوذ أسير آخر من أغنياء مكة ، بعثمان بن عفان

فيأخذ له الأمان ، ويرضى محمد كارها بالعفو عن الرجل على أن يرحل بعد ثلاثة أيام .. وتمر الأيام الثلاثة واذا الرجل مختبىء فى بعض ضواحى المدينة ، فيرسل اليــــه محمد رجالا يقتلونه ! ..

النوايا الطيبة لا يجب ان تفتح الطريق الى بيتك امام اللصوص ، فلقد اوشك راسك ان يسقط يا محمد ، ولئن سقط رأسك الان ، لانقلبوا على اعقابهم ، ولسقطت راية الدعوة الجديدة ! .. ما زال عليك ان تقول الكثير وان تعمل الكثير ، لتحرر الانسان من سيطرة المصير ! .. ومن اجل ذلك فينبغى ان تكون فضائلك هى الاسوار المنيعة التى تحميك لا نقط الضعف فيك ! ..

فلو لم يرق بعض الانصار فى معركة احد . لضراعة هند بنت عتبة .. لو لم يتركوها تنجو بحياتها وصاحباتها ، لما قتل حمزة ! .. لقد كان العبد وحشى لا يعرف من هـــو حمزة ، ولا يعرف حتى لمــاذا يجب عليه ان يقتل حمزة ... ولكن هندا هى التى أغرته ، وهى التى اخذته من يده وهيأت له المخبأ وراء شجرة ، ليغتال حمزة : سيد الفرسان !..

فليتعلم المسلمون جميعا انه فى مثل معارك المصـــير ؛ لا تهاون بعد ولا رحمة .. ان هذه الرحمة المخدوعة كلفتهم حياة حمزة ، والنصر أيضا ! .. ومع ذلك .. فان الرماة الذين تركوا أماكنهم ليتحملون جزءا كبيرا من مسئولية الهزيمة ، وان عبد الله بن أبي ورجاله الثلاثمائة ، ليتحملون بفرارهم قبل المعركة مسئولية دماء سبعين شهيدا من المسلمين !

أنتم أيها الرماة .. لمــاذا تركتم اماكنكم قبل ان يصدر اليكم الامر ؟! لقد رأيتم الغنائم والسبايا فطارت عقولكم !. مهما يكن من شىء فيا أهل المدينة : لا تيأسوا بعد .. تلك الايام نداولها بين الناس ، فلا تهنوا ولا تحزنوا .. ولتعتبروا

وخرج محمد من وراء بابه الذى كان قد أغلقه عليه ، فأعطى سيفه لابنته فاطمة وقامت تغسله مما علق به من الدماء .. ثم ذهب الى المسجد ، حيث تعودان يلقي الناس ، فوجد عبد الله بن أبي يقف فى الناس خطيبـا ! .. ماذا يقول عبد الله بعد ان خـذله فى أحد وانسـحب بثلث الجيش !؟ .. كان عبد الله يحض الناس على أن يسمعوا لمحمد ويطيعوه .. ويحبوه ! ..

الى أى حد يعبث هذا المنافق الكبير بعقول الآخرين !؟ ..
وقبل أن يبلغ محمد مكان عبد الله بن أبي وثب بعض الذين كانوا فى احد ، واخذوا بثياب عبد الله والغصة فى الحلوق ، وطعم الهزيمة ما زال يملأ الافواه بالمرارة .. ويصقوا مرارتهم فى وجهه وانقضوا عليه يدفعونه ، وهـو يصرخ فيهم متعجبا : لمـاذا يثبون عليه وهو يدعوهم الى الحب والى طاعة محمد ! .. ولكنهم ظلوا يركلونه حتى خرج من المسجد ، وهمس عمر لمحمد : لو أمرتني فأقتله ! .. ولكن محمدا نظر الى عمر مستنكرا .. ! ان عبد الله بن أبي ما زال يملك النفوذ على بعض القلوب ، ومهما تكن خيانته الآن ، ففى المدينـــة رجال ما برحوا يحترمونه ويغضبون له ! ..

ليصبر محمد ، وليحتط ، ولن يخدعك عبد الله بن أبي بعد .. وعلى أية حال ، فلن يأمر محمد بقتله الا يوم يطالب كل الناس برأسه .. ويصبح من المستحيل على أحـد أن يمنعه ! .. وأقبل محمد على الناس يحدثهم عن محنة أحد .. ويستخلص العبرة من اخطائهم فيها عسى أن تضيء التجربة القاسية طريقهم الى المستقبل !

كان قد مسح دموعه على حمزة .. واعلنهم أنه لن يمثل بقاتلي حمزة ان ظفر بهم .. فما كان له أن يمثل بالقتلى ، ولكن سيكتفى بقتلهم !

وطالبهم الا تأخذهم بعد فى العدو رحمة .. ففى معارك المصير ، تصبح الرحمة نوعا من الغفلة .. وما جدوى رحمة تجلب الهزيمة ، وتهدد القيم التى يدافعون عنها

ومهما يكن من أمر ، فانه لن يؤاخذ الذين أخطأوا وكانوا سببا فى الهزيمة .. سيعفو عنهم ويستغفر لهم وسيظل يشاورهم فى الامر .. وأما الذين قتلوا فى أحد ، فقد طلب محمد من الناس الا يبكوهم بعد والا ينقلوهم الى المدينة ليدفنوهم فيها ويقيموا الاحزان .. « فليدفنوا حيث صرعوا » .. وهم ليسوا أمواتا بل شهداء « أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما اتاهم الله من فضله » ..

ولم يكد الناس يفرغون من حديث المحنة فى أحد ، حتى شعروا أن لفحات التجربة قد أنضجتهم حقا ..

لقد أنذرتهم قريش أن تهاجمهم فى مثل هذه الايام من العام القادم بجيوش تدك عليهم الجبال ! فليستعد محمد منذ اليوم لهذا اللقاء .. فليحشد القوى التى بعثرتها الهزيمة ، وليلق فى القلوب من جديد ثقة لا تتزعزع بأن المستقبل له !

وكان عليه اولا ان يأسو الجراحات فى سبعين بيتا من المدينة ، ما زالت تنوح على رجال ذهبوا ..وطاف محمد مع صحابه بالبيوت يعزى الارامل والايتام ، وينصح صحابه أن يتزوجوا الارامل الصغيرات لكى يعصموهم من الفتنة

وبدأ يدبر المال الذى يجريه على هذه البيوت التى لم يعد لها ما تعيش عليه بعد ..

من أين يدبر هذا المال ؟ لقد كلفته معركة أحد فوق الطاقة ، وغنمت قريش من جيوشه كثيرا من السلاح والدروع ، وانه لفى حاجة الى ضعف ما فى خزائن المدينة

ليشتري به السلاح استعدادا للقاء قريش حين تزحف على المدينة فى العام القادم •• وحض القادرين من المسلمين على أن يدفعوا ويبذلوا ليعاونوا أسر الشهداء •• لكنه وجد كثيرا من القادرين لا يدفعون ! •• فى الحق أنهم أصبحوا غير قادرين !

كانت حالة من حب المقامرة قد استولت على كل النفوس ، بعد أن سحقت قريش أحلام المسلمين بالغنائم والاسلاب فى أحد ••

أما الذين خرجوا الى أحد مدفوعين بأحلام الغنى فقد عادوا كلهم مجانين من الغيظ ، واتجهوا الى المقامرة ، عسى أن تعوضهم عن أحلام الغنى التى أهدرت فى جنبات أحد ! •• وفى ساعات اللعب كانت الخمر تقدم لهم بلا حساب ••

وأحسن يهود بني النضير استغلال هذا الانهيار الذى يعصف بالنفسيات المصدومة •• ففتحوا بيوتا للهو تقدم خمر البلح القوى ، وتعقد فيها المقامرات بالمبالغ الطائلة وترقص اليهوديات الحسان ! ••

الى مثل هذا الجو الصاخب هرب كثير من المسلمين •• وفى مثل هذه الدوامات من المغامرات الرهيبة ضاعت ثروات ! •• وفى الحق أن يهود بنى النضير كانوا حين تخلوا عن يهود بنى قينقاع يطمعون فى أن يرثوا سوقهم فى المدينة ، ولكنهم منذ وجدوا المسلمين يستولون على السوق اليهودية ، أخذوا يحتالون لتدمير الاقتصاد الاسلامى • ولم يكد ينهزم المسلمون فى أحد ، حتى أقام اليهود فى بيوت فاخرة أسواقا أخرى للمقامرة والمتاع •• واستغلوا الانهيار النفسى بعد الهزيمة ، فكسبوا من تجارتهم تلك اكثر مما كانوا يأملون من وراثة سوق بنى قينقاع ••

وأدرك محمد أن هذه التجارة الشائنة التى يروجها اليهود ، لا تحمل الفقر وحده الى بيوت المسلمين ، وانما هى تدمير منظم للصلابة التى يجب أن يحتفظ بها جيل كتب عليه أن يواجه مسئولية تحرير الانسان ! •• ان بنى النضير لا يكتفون بتخريب الاقتصاد فى المدينة ،وانما يخربون النفوس ايضا ! ••

وروع محمد من مناظر الرجال البواسل الذين ناضلوا معه في بدر وأحد ، ينحدرون الان فى يأس هائل ، فما يفيق الواحد منهم من الخمر •• ما يغادر أماكن القمار ، الا ليستمتع باحدى المغنيات او الراقصات اليهوديات •• ولا شيء بعد يملأ القلب او الفكر ، غير الرغبة في الفرار من الواقع المعذب ، غير احلام مريضة بالغنى والمتاع •• والبحث المضطرب عن العزاء !

وأخيرا أطلق مناديا يدعو الناس الى ترك الخمر فقد حرمت •• لقد حرمت فلا يقربوها •• وعليهم ألا يقربوا الميسر ولحم الخنزير •• وألا يقربوا الفواحش

وامتنع المسلمون عن الذهاب الى البيوت التى فتحها بنو النضير •• فاحتج بعض بنى النضير ، واعتبروا أوامر محمد نوعا من التضييق الاقتصادى •• وطالبوه أن يعوضهم عن هذا بأن يسمح لهم بتبادل التجارة مع قريش والا فسدت الخمور ، ومراعى الخنازير ••

فلتفسد الخمر ، ولتهلك الخنازير جميعا ، وليأخذ الطاعون كل غانيات اليهود • فالذى يعنى محمدا حقا هو انقاذ رجاله واعدادهم للنهوض بدورهم •• على أنه حذر يهود بنى النضير أن ينقضوا صحيفة التحالف القديمة التى نصت على مقاطعة قريش ، وحذرهم بصفة خاصة أن يبيعوا السلاح ! ••

وعاد الى رجاله ينصحهم أن يلتمسوا أسلوبا آخــر للعزاء .. فليؤمنوا بالمستقبل ، وليؤمنوا بأن الحق الذى يدافعون عنه هو الذى سينتصر .. ولينصرفوا الى اعمالهم فما زالت الحقول تنتظر من يستنبت منهـــا الزرع .. وليكونوا هم انفسهم عزاء للاطفال الذين فقدوا اباءهم فى احد .. وعزاء للنساء اللواتى فقدن الازواج فان «الساعى على الارملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو كالقائم بالليل الصائم النهار» .. وليدفعوا أموالهم لاسر الشهداء بدلا من تبديدها على الخمر والقمار ولحم الخنزير

على أنه الان قد أطمأن الى مستقبل الارامل جميعا .. وقد امتنع رجاله عن الخمر والميسر ولحم الخنزير وارتياد بيوت اليهود .. وأنقذت تعليماته الصـــــارمة اموالهم ونفسياتهم ، فهو لا يفكر بعد الا فى طريقة يستعيد بها هيبة الدعوة بعد هزيمة أحد ..

لقد بالغت قريش فى استغلال انتصارها فى أحـــد ، فأطلقت الشعراء يتغنون بهذا الانتصار ويهجون محمدا وصحابه .. وأقيمت الافراح فى كل دور مكة ، وامتلأت الساحات بالراقصات والمغنيات ، وأريقت الخمور ... وذبحت قريش ودعت الاعراب من كل مكان ليشاركوها فرح الانتصار .. ثم دفعت الاموال الطائلة لشعراء القبائل الاخرى فأنشأوا القصائد الطوال فى السخرية من محمد ، وفى الحض على الاحتشاد للقائه اذا جاء العام القادم ..

ودوى هذا كله فى أرجاء الصحارى الواسعة ، فبدأت تتحرش به كل القبائل التى كانت ترهبه من قبل .. وبلغ الصدى معاقل اليهود فى المدينة فشجعهم هذا على الاستخفاف به !

وكان بنو النضير يتميزون منه غيظا منذ منع صحابه

من الذهاب الى بيوتهم ليقامروا ، ومنذ منع الخمر ولحم الخنزير .. فلم يكد بنو النضير يتسامعون بما تقولـه قريش فيه ، حتى أعلن آحد أغنيائهم أنه سيمنع المسلمين من أن يشربوا الماء من بئر يملكها . لقد حرم محمد الخمر على رجاله ، واذن فليدفعوا للماء .. ! ولكن ثمن القدح أغلى من ثمن قدح الخمر !

أضطرب اهل المدينة فما تعودوا ان يشتروا الماء من قبل ، فأخذ محمد يغرى اثرياء المهاجرين أن يشتروا هذه البئر . وتقدم عثمان بن عفان الى صاحب البئر ، فغالى فى الثمن وابى ان يبيعه أكثر من نصف البئر .. ودفـع عثمان فى نصف البئر ما يكفى ثمنا لثلاث آبار ، ثم وهبها المسلمين يشربون منها ويسقون الحيوان بلا مقابل .. مما اضطر المالك اليهودى أن يبيعه النصف الباقى بثمن بخس . ويوما بعد يوم عادت الثقة تملأ القلوب من جديد . والايام تمضى والقبائل التى كانت ترهب محمدا تستعد للقائه

واستقبل ذات صباح وفدا من بنى سـليم جـاءوا يطلبون منه ان يرسل اليهم من يثقفهم بالدين الجديـد فقد مالوا اليه بعد ان كانوا من غلاة الأعداء .. وارسـل معهم ستة من صحابه ، فرحا بانهم سـينضمون اليـه .. غير انهم كانوا يضمرون الكيد له وليجعلوه سخرية بين القبائل !

وتلقى محمد وفدا اخر من بنى هزيل فأرسل بعض صحبه اليهم ليثقفوهم فى الدين الجديد .. غير انهم كانوا يضمرون غير ما قالوا ، فلم تكد وفود محمد توغل فى الصحراء حتى وثب فرسان بنى سليم على من معهم فقتلوهم الا رجلين ، ووثب بنو هذيل على من معهم فقتلوهم الا واحدا ..

وروع محمد من هذا كله !.. الى اى حد تريد قريش

وحلفاؤها أن يسخروا به ، وأن يزروا عليه ؟

وعاد يكفكف دموع أسر الشهداء من جديد .. ثم اقبل وفد من نجد يطلب من محمد ان يرسل اليهم من يثقفهم فى الدين الجديد .. واحتاط محمد هذه المرة لكيلا يقتل أصحابه غيلة ، واستوثق حتى علم أن الامر جد هذه المرة .. واخرج بعض صحابه ..

وفى الطريق خشى صحابه ان يكون فى الامر كيد لم يفطن اليه محمد ، فوثبوا على وفد نجد وقتلوا اثنين من بنى عامر ، وعادوا الى محمد ..

ومهما يكن من الظروف التى تبرر مخاوف أصحابه ، فقد ضاق محمد بهذا الذى حدث .. كيف تأتى له القبائل من بعد ، ان كان أصحابه يثبون على وفودها ؟.. لماذا يأخذ أصحابه الطيبين بجرائر أشرار سلفوا .. وقرر ان يدفع دية القتيلين ..

ولم يكن لديه مال ، فذهب الى بنى النضير يطالبهم وفقا لاحكام الصحيفة ان يعاونوه فى دفع دية الرجلين .. فقالوا له : « نعم يا أبا القاسم نعينك على ما احببت مما استعنت بنا عليه » ..

ثم خلصوا نجيا فى داخل أسوارهم وتركوه ينتظر أمام الاسوار .. وطال انتظاره فقعد على الارض بين صحابه أبى بكر وعمر وعلى وانهم لقاعدون أمام الاسوار اذ برجل من بنى النضير يصعد على السطح ويدفع صخرة أمامه ليسقطها على رأس محمد .. فقد كان بنو النضير قد اجمعوا أمرهم فى الداخل على ان يتخلصوا من محمد الى الابد ولن تسنح لهم مثل هذه الفرصة مرة أخرى .. لن يجدوه أبدا على مثل حاله من الاطمئنان اليهم .. بلا سلاح

واستطاع محمد وصحابه أن ينجوا من الصخرة قبل

ان تسقط ، ومضى الى المسجد يروى للنـاس ما كان . واعلن الحرب على يهود بنى النضير وزحف عليهم بجيرشه .. وبكل الرجال الحالمين بالفنى .. وطلب من بنى النضير أن يسلموا فابوا ، فامر محمد أن تقطع النخيل وتحرق فقالوا له : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها .. ولكنه لم يابه لهم وطالبهم مرة اخرى بالتسليم ..

وكما حدث ليهود بنى قينقاع .. اعتصم بنو النضير أياما فى حصونهم ثم اذعنوا وخرجوا بنسائهم واولادهم ، والقيان والراقصـــات يعزفن من خلفهم وتركوا الدور والاموال والسلاح ! انها لثروة جديدة تملأ خزائن المدينة بالمال والعدة الرائعة وادوات الحرب ..

بدلا من الكراهية

ألأنك تصبر على الذين يكيدون لك ، فهم يظنون بك الضعف ؟! .. ولكنهم فى قبضة يدك وما زلت قادرا على ان تسحقهم جميعا ؟ ..

وان تعفو عنهم خير لك عسى الا تلقى فى قلوب ابنائهم البغضاء ، فتشب القلوب الصغيرة مطهرة من الضعف الذى يستذل الكبار !.. عسى أن ينشأ جيل جديد ، بوجدان آخر ، يضىء بتعاليمك يا محمد .. جيل يحيا بالرحمة والبر والصدق ، بدلا من الكراهية !.

اتل عليهم : لقد جاءتكم بصائر من ربكم ، فمن ابصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ

اترك عبد الله بن أبى وشيعته يكيدون لك فى المدينة ، فهم فى النهاية فى قبضة يدك ولا تسمع فيهم نصيحة عمر . وبدلا من ان تغرس الاحقاد فى قلوب صغارهم .. بدلا من ان تفتح عيونهم على قاتلى آبائهم .. بدلا من الخوف ، دع الاطفال وحدهم يكتشفون الحقيقة يوما بعد يوم ولن يطيقوا عار الانتساب الى آباء بلا قيم .. ! سيحمل عنك الصغار عندما يكبرون عبء محاسبة الاباء الاشرار ... وسيكبر الصغار ذات يوم يا محمد .. !

ولكن .. ألأنك تبشر بالرحمة ، يجب أن تتلقى العذاب مع مشرق كل شمس ؟! الانك تريد أن تفرض العقل على

سلطان الفوضي ، يجب ان تزكي عن نبالة ما تريد ، برءوس أعز صحابك أيضا ..؟! ما افظع أن يكتب على الفكر أن يواجه قوى غاشمة بلا أخلاق !..

والا فما بال قريش فى مهرجان انتصارها ، تغـــرى جاراتها الصغيرة ، فتأتى وفود الرعاة من هذيل الى المدينة تطلب رجالا يفقهونهم فى الاسلام .. ويخرج الرجـــال المسلمون رجال من أفضل صحابك يا محمد ، فاذا بقبيلة هذيل تسلمهم لقريش ، وتقبض عن كل راس ثقـله من الفضة

اربعون رجلا سقطوا الواحد بعد الاخر ، سقطوا بـــكل اقتناعهم بأن شجاعتهم امام الموت هى أشرف مسئوليات الجهاد ..

أربعون من الشهداء العظام يا محمد !.. مهما يكن الاثر الرائع الذى خلفته شجاعتهم النادرة أمام الموت والظلمات ، فان الطريقة الغادرة التى قتلوا بها ، تظل تغرى القبائل على طلب المزيد امعانا فى السخرية ! .. ولكنك الان قد امنت ظهرك استعدادا لقريش التى واعدتك بدرا من العام القادم

لقد انتهى أمر بنى النضير وعوضك ما غنمته منهم عن كثير مما خسرته فى أحد !.. فلا يجب ان تنتظر حتى تعود اليك قريش فى العام القادم .. لا يجب ان تسمح لها بأن تعقد الاحلاف ضدك ، فستظل القبائل من البدو تتخطف صحابك على النحو الغادر الذى حدث !

ومع ذلك فما يليق بك حين تسعى اليك وفـود بعض القبائل طالبة من يثقفها من صحابك ، ما يليق بك على أية حال ان ترفض ارسال مبعوثيك حرصا على حياة الصحاب! سيظنون بك الخوف وسيضيق نطاق دعوتك ..

ومع ذلك فيجب ان تبحث عن الامان لمبعوثيك .. لابد

من خلق حالة من الاحترام ، وتثبيت هيبة جماعتك فى قلوب البدو ، فلا يخدعك رهط منهم بعد ..

ودرس محمد موقف كل القوى المتحالفة مع قريش .. فوجد ان بنى المصطلق هم أقوى هؤلاء الحلفاء ، واكثرهم نفوذا بين القبائل .. كانوا نكبة عليه فى احد ، فقد اعتمدت عليهم قريش فى تطويق جيوش المسلمين .. فلو أنه حاربهم وظفر بهم ، لالقى الرعب فى قلوب كل حلفاء قريش الاخرين، وفى قلوب كل القبائل التى تفكر فى الانضمام الى قريش

لقد غنم من بنى النضير كثيرا من الدروع والسيوف وآلات القتال .. كلها تعتبر من احدث ما وصلت اليه صناعة السلاح ، فاليهود صناع السلاح وتجاره يؤثرون انفسهم بأمضى أنواع السلاح . لقد غنم محمد ايضا خيلهم التى احسنوا تدريبها على القتال ! .. وما انتصرت قريش فى أحد الا بقوة فرسانها وخيلها ..

وهكذا وجد محمد جيشه مجهزا بأحدث الاسلحة وأدوات القتال ، وبالخيل المدربة .. بعشرات من الخيل المدربة . وهو الذى خاض معركة أحد بفرسين !!

ان هذه القوة الضاربة تستطيع ان تواجه قريشا وحلفاءها حالما يزحفون الى بدر ، كما واعد أبو سفيان ، وهو يترك وادى أحد ..

ولكن من الخير ان تعزل قريش عن حلفائها الاقوياء ..

***

غير ان المدينة امتلأت بحديث ساخط عن ايثار محمد المهاجرين دون الانصار بأموال بنى النضير وبيوتهم ... انطلق عبد الله بن أبى يهمس فى شيعته من الخزرج أن محمدا ما زال يفضل المهاجرين عليهم ، على الرغم من انهم هم الذين آووا المهاجرين .. ولولاهم لما استطاعوا ان

يجدوا ملجأ من قريش !.. وسمع سعد بن عبادة ما يقوله قومه من الخزرج فأخذ صديقه سعد بن معاذ زعيم الاوس وانطلق الرجلان يجتمعان بشيوخ الأوس والخزرج .. ودعوا عبد الله وشيعته من الخزرج . وسألوهم عما يشيعونه ، بينما محمد يستعد للمعركة الفاصلة مع قريش وحلفائها .. من اين تنبع هذه التيارات التى توشك أن تقسم المدينة ، وتطلق الفتنة ؟!

وابتسم عبد الله بن ابى ، كأنه لا يعرف شيئا .. ان أحدا لم يسمع همساته الا شيعته .. وبدا عاليه كأنه هو الاخر يستنكر هذه الاقاويل !..

واكد سعد بن معاذ وسعد بن عبادة لشيوخ الانصار، ان محمدا لم يستأثر بالرأى دونهما بل دعاهما وفريقا من الانصار فأثنى على حسن ضيافتهم للمهاجرين ثم قال لهم: « ان اخوانكم المهاجرين ليس لهم مال فان شئتم قسمت اموال بنى النضير واموالكم بينكم جميعا وان شئتم امسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة » ولكنهم اجابوا محمدا : « بل قسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت »

وعندما فرغ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة من شرح الحقيقة للناس ، أخذا عليهم موثقا الا يتحدثوا فى أمر كهذا بعد والا يظنوا مثل هذه الظنون بالمهاجرين ، والا يسمحوا بأن يحدث اى شيء فى قلوب الاخوة الذين يقفون فى جيش واحد لمواجهة مصير واحد ..

وانفض الناس راضين ونظراتهم تشير الى عبد الله بن ابى ، الذى خرج يبتسم ويفتح ذراعيه لعناق محمد وصحابه ، وما فى القلب .. فى القلب .. !

ان محمدا لم يكد يشرع فى تجهيز الحملة على بنى

المصطلق .. حتى فوجىء برجل يحاول اغتياله .. رجل يحترف القتل ارسله أبو سفيان ! كان موفدا من قريش ولكن كيف دخل المدينة، وعند من اقام الايام الطوال متربصا ومن الذى دله على الفرصة المواتية لاغتيال محمد !؟

لا أحد يدرى !.. والنظرات الغاضبة تشير الى ابن أبى، وابن أبى يبدى للناس غضبه على محاولة الاغتيال ، وحرصه الشديد على حياة محمد .. وانه ليبدى هذا الغضب والحرص ، أكثر مما يبدى الاصدقاء الخلصاء كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد بن معاذ ، وزيد بن حارثة .. والآخرون !

ثم يعود عبد الله بن أبى يحمل ابتسامته على شفتيه ، ويفتح ذراعيه لمحمد .. وصحاب محمد ..! ومرة ثانية .. وثالثة .. يفاجأ محمد بمن يحاول اغتياله !! . وتمر أيام فزع ، يسهر فيها سعد بن أبى وقاص بسيفه فى حراسة محمد .. ولا أحد بعد يدرى كيف يدخل المدينة هؤلاء القتلة المحترفون الذين يرسلهم أبو سفيان ، أو اليهود الذين اخرجوا كيف يدخلون ؟ اين يختبئون الليالى الطوال؟!

وفى كل مرة يقضى محمد او احد صحابه على محاولة الاغتيال وتشير النظرات الغاضبة الى عبد الله بن أبى ، وابن ابى يبدى الغضب والحزن ، ثم يضع الابتسامه على الشفتين ، وذراعاه مفتوحتان لعناق محمد !

وأوفد بعض أصدقاء محمد من يغتال أبا سفيان ،ولكن محمدا عرف هذا فأرسل الى الرجل من يعيده قبل ان يصل .. واخذ يعنفه ويعنف الذين أرسلوه فما كان الاغتيال سبيلا لمحمد .. وسيقهر أبا سفيان يوما ، وسيقتله ان اراد وجها لوجه ..

وفى هذه الايام الغريبة من الكيد والفزع لم تتصل الطمأنينة اسبوعا واحدا ليتيح لمحمد والمسلمين وقتا

للاستعداد لمعركة مع بنى المصطلق أقوى حلفاء قريش .. وتمر الاسابيع ، فيحين الموعد الذى حدده أبو سفيان منذ عام يوم انتصر فى أحد !

ويحشد محمد رجاله ، استعدادا لمعركته مع قريش وحلفائها اجمعين .. معركة يغسلَ بها عار الهزيمة فى أحد ! ويأتى وقت الخروج ، فيترك على المدينة بدلا عنه عبد الله بن ابى !

لقد كان عبد الله يحلم بالتاج وكانوا يجمعون له الخرز قبل ان يأتى محمد .. وما زالت الاحقاد تعشش وتفرخ فى قلبه منذ ذلك اليوم فليجرب جاه الملك اذن ، وليرض غروره!

خرج محمد الى بدر مهيأ القلب لمعـــــركة طويلة .. فاصطحب معه اثنتين من نسائه . وخطب فى جيشه ان الحرب قد تطول فلن تسلم قريش بالهزيمة بعد ان ذاقت النصر فى أحد، وبعد ان فشلت كل محاولاتها فى اغتياله .. وان معها الآن لحلفاء جددا أكثر من الذين اقبلوا معها الى أحد .. يسبق محمد بجيشه الى بدر ليحسن اتخـــاذ مواقعه .. وكان الحر شديدا ، حر أيام لا يعمل فيها الانسان . وخشى محمد ان يتململ رجاله من قسوة الحر فأكد لهم أن المجاهد يلقى جزاءه مضاعفا كلما اشتـــدت قسوة الظروف ..

ومضى يحدث رجاله على طول الطريق .. وجد أحدهم متعبا يلهث على جمله والجمل هزيل أعجف ، متعب .. فقال له محمد مازحا : « أتبيعنى جملك ؟ » فقال الرجل: « بل أهبه لك » . « لا ولكن بعنيه » .. فقال الرجل : «ثمنه يا رسول الله» فقال محمد : «بدرهم» فقال الرجل . « لا .. اذن تغلبنى يا رسول الله » .. وضحك محمد قائلا : «بدرهمين» وما زال يكلمه حتى ذهب سأمه ..

ثم أسرع على دابته الى شاب آخر أجهده الحر فأخذ

يحاوره : « هل تزوجت بعد » فقال الشاب « نعم يارسول الله » فسأله : «أثيبا أم بكرا» فأجاب الشاب : «لا بل ثيبا » فقال محمد مبتسما : « أفلا جارية تلاعبهـــــا وتلاعبك ؟ »

فقال الشاب : « ان أبى أصيب يوم أحد وترك بنات له سبعا فتزوجت امرأة جامعة تجمع رءوســـهن وتقـــوم عليهن » وقال له محمد : «أصبت!» وانطلق يحدث آخرين

وانطلقوا يتحدثون ويداعبون بعضهم البعض ويبددون السأم بالضحكات .. وهكذا اشاع جوا طيبـــــا من المرح وسط رحلتهم الشاقة حتى وصلوا وادى بدر ..

وعلى ماء بدر .. عسكر المسلمون تحت شمس لافحـــة تكاد تحرق الاعواد الخضراء . وأقام الى جوار المـــاء كما صنع فى معركة بدر الاولى واصطفت كتل من عســـــكر المسلمين لتحول بين الماء ، وبين قريش عندما يقبلون ! ..

أين حمزة اليوم ؟! .. ولبث المسلمـــون على ماء بدر ينتظرون أبا سفيان لميعاده ... ولكن لم يجىء أبو سفيان.

وخشى محمد ان يكون فى الامر خدعة .. لعل جيوش قريش تريد ان تتركهم حتى يسأموا ، ويضنيهم الحر .. فاذا هموا بالعودة ، فاجأتهم وهم متعبـــون على بعض الطريق واقبل من يخبر محمدا أن أبا سفيان لن يجىء فآثر محمد أن ينتظر حتى يأتيه خبر يقين .. وجاءه النبأ من عمه العباس أن أبا سفيان لن يجىء فى عامه هذا ، فقد خرج بجيوش قريش وواعد احلافها عنـــد مكان فى الطريق ، ولكنه سمع بالحشد الهائل الذى خرج فيه محمد بالاسلحة الجديدة والخيل .. ووزن ابو سفيان الامر ، فوجد ان القتال غير مأمون العاقبة .. وان جنود قريش سيحاربون ــ تحت لفحات الهجير وسط جفاف حارق ــ رجالا يرون فى شدة الظروف ما يضاعف لهم الجزاء !

وهكذا قرر ابو سفيان الا يحارب فى عامة هـذا ، وسيستعد للعام القادم .. وسيحاول خلال عامه هذا أن يصدع جبهة محمد فى المدينة بعد أن نجح محمد فى دعمها وأخلف مكانه عبد الله بن أبى ، واخرج يهود بنى النضير!. وجمع أبو سفيان سادة جيشه فقال لهم : « أن عامكم هذا عام جدب ، الا لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيـه الشجر وتشربون فيه اللبن . وانى راجع »

ورجع ابو سفيان ورجع الناس وراءه تطاردهم جميعا سخرية حلفائهم ! .. وعاد محمد بجيشه الى المدينة .. عاد ظافرا هذه المرة وان لم يشتبك فى معركة.. فقدذاعت الاخبار من قبيلة الى قبيلة أن أبا سفيان قـد انسحب بجيش قريش خوفا من الاشتباك مع محمد وجنوده !. غير أن بنى المصطلق لم يرق لهم الامر .. كانوا هم أضخم حلفاء قريش .. وكانت لهم تجارةواموال واحابيش، وما تركوا الصدارة لقريش الا لانها تسكن حـول البيت العتيق التى تقوم فيه الآلهة ..

وعز على بنى المصطلق أن تنخذل قريش ، فارسلت الى ابى سفيان تؤنبه واطلقت شعراءها فى هجائه. وقام الحارث زعيم بنى المصطلق يدعو القبائل المجاورة له الى حلف .. فجمع جيشا كبيرا من جيرانه المقيمين على البحرالاحمر..

فليأخذ بنو المصطلق قيادة المعركة من قريش.. وليأخذ هو الراية من أبى سفيان ! .. وانه لاجدر بالراية من ابى سفيان .. وعلم محمد بما يصنعه الحارث فراى أن يبادر بالخروج قبل ان يستعد بنو المصطلق ويزحفوا. وليختر هو أرض المعركة ، وجمع الناس واستشارهم فاقروه على ما رآه واستشار عبد الله بن أبى ــ خاصة ــ امام الناس جميعا ، فأقره وهو يحلم ان يتركه على المدينة ، مرة اخرى .. ولكن محمدا طلب منه أن يستعد فسيجعله على لواء الخزرج!

وحشد محمد الفا وخمسمائة محارب وكثيرا من الخيل والابل وأقرع بين نسائه فجاءت القرعة على عائشة ، واسرع محمد بجيشه ليباغت بنى المصطلق فوجدهم يملأون السهل على مقربة من ديارهم .. وأمر محمد بالهجـــوم فى السهل المكشوف . والقى بكل قواته فى هجوم خاطف.. واصيب الحارث قائد بني المصطلق بسهم، فسقط جريحا. واضطربت صفوف بنى المصطلق أمام تدفق السهام والرجال

وبدأ جنود بنى المصطلق يفرون .. وجيش المسلمين يطاردهم حتى أسروا منهم مائتين .. وغنموا آلاف الأغنام والابل وكثيرا من المتاع .. وهكذا استراح محمد من عدو لا يقل خطرا عن قريش .. انه الآن بعد هذا الانتصـــار سيملأ خزائن المدينة ويضمن فترة طويلة من السلام!. فمن يستطيع ان يتحالف مع قريش بعد ، دون أن يفكر فى مصير بنى المصطلق ؟

جرح زعيمهم الحارث .. ووقعت ابنته فى الاسر ..

وزع محمد الاسرى من الرجال والنساء بين المجاهدين، فوقعت برة بنت الحارث فى نصيب رجل فقير .. فطمع فى مالها وكاتبها على مبلغ كبير ليحررها ولكن مالها كان قد أصبح من الغنائم ، فذهبت الى محمد تشكو

وقال محمد وهو يستمع اليها : « هل لك فى خير من ذلك » فقالت : « وما هو .. » قال : « اقضى عنك كتابك واتزوجك » .. فقالت : «نعم» قال : « قد فعلت »

ودفع عنها ما كاتبها عليه آسرها الفقير ، ودعاها الى الاسلام وتزوجها .. فاسلم ابوها ، ومعظم الاسرى من رجال ابيها ..

لقد وجدوا فى هذا النسب شرفا لهم . وكانوا يرون فى محمد ملكا على المدينة ، والقبائل المتحالفة معها .. انه الآن لاعلى مكانا من اى سيد فى الجزيرة ..

.. والمنافقون أيضا .. !

بدأ يستعد للعودة الى المدينة فى موكب الظافرين ! ..

لقد كسب فى ضربة واحدة أكثر مما كان يرجو .. ضرب بنى المصطلق فى ديارهم ، وفرض هيبة الدعوة على الذين كانوا يفكرون فى الانضمام الى قريش ، وغنم أموالا وسلاحا ومتاعا يمنح مدينته العز والمنعة ، وضمن الا يتجمع بنو المصطلق للثأر ، فقد تزوج بنت قائدهم الحارث فتبعه أبوها وأخوها وقومها ، ورأوا بعد هذا النسب أن يناصروه .. وغير اسمها من برة الى جويرية

ولم يكن وقت توزيع الغنائم قد حان بعد ، فمحمد قد فرغ لساعته من اطلاق الاسرى ومن تخصيص فريق من صحابه يعلمونهم الاسلام ، وهو ما زال يأخذ المواثيق على بنى المصطلق أن يكونوا فى هذا المكان من شاطىء البحر الأحمر .. دعامة للدين الجديد !

ولكن عبد الله بن أبى نجح فى أن يغير من قلوب بعض الانصار على المهاجرين : احذروا محمدا لانه يؤثر المهاجرين دائما ، والمهاجرون يشعرون بأنهم أفضل !.. وكان عبد الله بن أبى وبعض اغنياء الانصار يطمعون فى أموال الغنائم ، ولكن محمدا كان قد قرر أن يعطى الفقراء من المهاجرين ليستغنوا عما يقدمه لهم الانصار فيخفف الحمل عن أهل المدينة ، وينتشل المهاجرين مما يعانونه من فقر . وكان يقول لهم : كاد الفقر أن يكون كفرا ..

وكان يريد أن يقرب الفوارق بين الاغنياء والفقراء فلا يصبح المال للاغنياء وحدهم ، ولقد تلا عليهم : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » ..

ولكن عبد الله بن ابى كان يضيق بهذا ، ويطمع فى اموال الفيء ، ويطالب بأن يكون المال دولة بين الاغنياء ! ولقد حاول أن يثير السخط على أسلوب توزيع الفيء ففشل .. ودفع احد شيعته من الخزرج أن يزاحم رجلا من المهاجرين على بئر يستقى منه فدفعه المهاجر فوقع فاستنجد الخزرجى : يا معشر الانصار ! وقام اليه بعض شيعة عبدالله .. واستصرخ المهاجر:يامعشر المهاجرين!..

واقبلت جماعات من المهاجرين والانصار حول البئر ، وتحرج الموقف وانتهز عبد الله الفرصة فوقف يخطب فى الانصار : « أو قد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ! والله اننا وهؤلاء كمثل قول القائل : « سمن كلبك يأكلك .. أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل » .. ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : « هذا ما فعلتم بأنفسكم . أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو امسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم » ..

وعلم محمد بما يحدث فأسرع الى الناس يصرخ فيهم ويؤنبهم .. ثم نادى عبد الله بن أبى ، فسأله كيف يقول ما قال . وانكر عبد الله .. واتهم من أبلغ محمد بالكذب . وكان عمر الى جوار محمد فقال له : « اقتله » ! كم من مرة قبل هذه طلب عمر من محمد أن يقتل عبد الله ويجيبه محمد : « كيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل اصحابه »

كان عمر يكره عبد الله وابتسامته وذراعيه المفتوحتين ، وحرصه على تزويق الكلام .. ان هذا التزويق ليخفي شيئا كريها بلا ريب ! وكان عمر لا يخفى ازدراءه لعبدالله ، وما التقيا الا شعر عبد الله أن نظرات عمر تمزق عنه اقنعته الزائفة قناعا بعد قناع !

وتأمل محمد في وجوه الانصار .. ان احد كبارهم ليقول : « عسى أن يكون من أبلغك ما ابلغك عن عبد الله قد أوهم فى حديثه » ! ان بعض الانصار ما زال يحدب عليه .. فهو حيث لا يحمل حقدا لا يبدو منه غير الملمس الناعم .. أما أعماقه العامرة بالضغينة ، أعماقه التى تبدو عارية امام نظرات عمر ، فهى لا تنفث الا أمام من يحمل لهم الحقد !..

وانتظر محمد أن يقول أحد الانصار شيئا آخر ، واشار الى المهاجرين أن يلزموا الصمت ، فتقدم أحد الانصار قائلا : « أما أنه قد زعم ان رجع الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل فانت يا رسول الله مخرجه منها ان شئت ، هو والله الذليل وانت العزيز » وتقدم رجلٌ آخر يقول : ارفق به فانه ليرى انك قد سلبته ملكا ..

وانقض بعض الانصار يفضحون عبد الله !.. كانوا قد شعروا بالاسف الذى ملأ قلب محمد منذ رأى عبدالله يكذب ، وأحد الانصار يظاهره فيكذب هو الآخر !.. وكانوا فى الحق قد ضاقوا بكيد عبد الله ، وعز عليهم ما يلقاه منه محمد وهو صابر ..! فاستبقوا الى مواجهة عبد الله بكل ما زيفه على الناس ، وبكل كيده ..

وتخاذل عبد الله حتى لقد تزايل الى أغوار نفسه ، ولم يعد يستطيع أن يجد ما يقوله .. شلت الكلمات على لسانه ، وغاضت ابتسامته في الشحوب .. وبدأ يرتعد .. انهم — وهم قومه — ليطالبون محمدا بان ينزل به عقاب

المفسدين فى الأرض . طالب برأسه احد سادة الخزرج ، وطالب بها احد سادة الاوس ، والح فى طلبها كثير من شباب الانصار ! ومحمد صامت ينظر الى عبد الله الذى لم يعد قادرا على اصطناع ابتسامته المعروفة بعد !..

ثم تقدم ابن عبد الله منتفضا بالحماس فقال لمحمد : « والله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى وانى أخشى ان تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى انظر الى قاتل أبى يمشى بين الناس فاقتل مؤمنا بكافر فادخل النار » فقال محمد لابن عبد الله : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » ..

وبهت الناس . كانت ايديهم على مقابض السيوف ؛ كل منهم ينتظر أن يحصل على شرف قتل عبد الله بن أبى !..

واذ رأوا عفو محمد عنه بعد كل ما كان منه انقضوا على عبد الله يعنفونه . وقال محمد لعمر : أذن بالرحيل . وأكمل وهما يركبان : أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لغضب رجال لو أمرتهم اليوم بقتله لقتلوه !.

وانطلق الركب عائدا الى المدينة .. وظل محمد يسير بصحابه النهار والليل بلا راحة ، عسى ان يشغلهم عما كان بينهم حول البئر وعن كيد عبد الله ..

سار بهم يومهم حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، واستمر يمضى بهم يومهم ذلك تحت شمس لافحة . حتى اذا جاءت الليلة التالية ، نزل بهم ليستريحوا قليلا ، واذ لمست أقدامهم الارض وقعوا نياما . ثم أيقظ النيام ، وأمر من يؤذن فى الناس بالرحيل

وبلغوا المدينة .. فتلا عليهم : « يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون »

واستلقى كل فى بيته ينام كما لم ينم من قبل ..

نحو معركة فاصلة

لم ينس بنو النضير هزيمتهم أبدا .. كانوا يضربون في التيه وعيونهم تتطلع الى ما وراء الافق ، حيث تستلقي ـ في سلام ـ المدينة التي سادوها لبعض الوقت وكدسوا فيها الثروات من الربا ، وأنشأوا حولها البساتين وملأوها ببيوت المتاع والصخب والاضطرام ، واختاروا رجلا من أهلها واستعدوا لتتويجه .. ثم أقبل محمد ، فلم يعد في المدينة ربا ، ولم يعد لهم عبيد يعملون في البساتين ، ولا متاع بعد ولا صخب ولا اضطرام ! ..

لم يتخلوا أبدا عن احلامهم بالعودة الى المدينة ليقيموا فيها أسواقهم كما كانت من قبل ، وليكسبوا من الربا أضعافا مضاعفة ، وليفتحوا بيوت اللهو القديمة العامرة بالقمار والخمر والحسان .. وليتوجوا عليهم عبد الله ابن أبي سلول ! .. وانطلقوا مع فلول يهود بني قينقاع : الاحقاد في الصدر ، وأحلام السيطرة تملأ الرءوس .. فطافوا بكثير من القبائل يعقدون معها المحالفات حتى قدموا مكة على قريش فعاهدوهم أن يكونوا جميعا على محمد حتى يستأصلوه ..

كانت مكة تستعد ، وجاءها اليهود يستحثونها وقد رصد أغنياؤهم للحرب كثيرا من المال ، وجمعوا من هنا وهناك كل ما استطاعوا لتمويل حملة تدك المدينة . وتحرك جيش لم تعرف مثله الجزيرة العربية من قبل ..

جيش يضم فرسان تهامة وكنانة والمقاتلين الاشداء من نجد وأبرع رماة اليهود وجنود قريش بعبيدها المدربين القساة ، وأحابيشها الذين يتقنون اطلاق الرمح فجأة ، وخيلها وأشدائها وسادتها وجواريها المغنيات ، وسقاتها ومجانها ، ونسائها الفاتنات يحرضن الرجال على القتال .. زحف هذا الجيش الهائل تحت قيادة ابى سفيان رئيس حكومة قريش ، وتلقى محمد رسالة من عمه العباس ابن عبد المطلب يشرح له فيها كل شيء ..

وأدرك محمد أنه لن يجد الوقت ليحشد جيشا يواجه به الاحزاب مجتمعة فى معركة مفتوحة فى العراء .. ولئن وجد الوقت فلن يجد العدد الكافى أبدا . لقد واجـــه بثلاثمائة رجل ألفا من رجال قريش فى بدر وهزمهم .. وحشد كل طاقته فى أحد فجمع نحو ألف رجل انسحب منهم ثلاثمائة ، ولكنه أوشك بالسبعمائة الباقين ان يقهر نحو أربعة الاف فى أحد لولا العصيان ! ..

ولكن الفرق بين القوتين الان رهيب .. فهو مهما يحشد من مهاجرين وأنصار ومن حلفاء فلن يستطيع أن يحشد اكثر من ثلاثة الاف بلا خيول .. فكيف يواجه بهم آلافا مؤلفة معهم أحدث الاسلحة التى تصنعها اليهـــود وفيهم مئات الفرسان ..

لقد ظلت قريش تستعد ، واليهود يؤلبون القبـــائل ويحزبون الاحزاب ضده واستشار محمد كما تعود ... فأشار عليه احد المسلمين أن يخرج بجيشه وسينصرهم الله كما نصرهم فى بدر ! ..

وأشار اخرون أن يعتصموا فى المدينة ليدافعوا عنها .. فلا يستولى المهاجمون على شبر من الارض الا على رفات شهيد ! ورأى محمد أن فى الخروج من المدينة مخاطرة

.. فمن يدرى ماذا يمكن ان يصنعه عبد الله بن أبى ..؟

وهناك أيضا يقيم يهود بنى قريظة .. لا أمان لهم ، فما هم بخير من يهود بنى قينقاع أو يهود بنى النضير ..

انهم لن يخرجوا معه الى قتال العدو الزاحف ، اذا قرر الخروج ، وما يدرى بعد الى اى مـــدى يمكن أن يذهبوا ، فقد ينتهزون فرصة خروج كل المقاتلين المسلمين ليدبروا انقلابا فى المدينة ، أو ليحالفوا عبد الله بن أبى ويجعلوا منه ملكا ، ويقيموا لهم دولة ، فيعود محمد بعد الحرب ، ليجد قاعدة انطلاقه قد احتلتها دولة الاعداء ..

ومع ذلك فلئن أقام فى المدينة وانهزم عنهـــا بعض المحاربين ، لدخل رجال الاحزاب مدينته الخضراء يقتلون الاطفال ويخربون الدور ويحرقون البساتين ، ويسبون النساء .. ستكون مذبحة يدفع ثمنها الضعفاء .. ما هذا برأى ! .. يجب ألا يعتصموا بالمدينة ! ..

وظل محمد يفكر فى خطة يدفع بها الوبال الزاحف ، والوقت يمضى .. وكم أشار عليه الرجال .. ولكنه كان يجد فى كل خطة ثغرة ! ..

وأخيرا تقدم سلمان الفارسى برأى .. تذكر سلمان كيف كان القادة العظام يدافعون عن المدن الفارسية أمام غارات الروم .. واقترح أن يتبع المسلمون نفس الاسلوب : أن يخرج كل الجيش الى ظاهر المدينـــة ، ويتحصن وراء خندق ! .. خندق ؟ وما هو هذا الخندق يا سلمان !.. فليحفروا أمام الاسوار حفرا واســـعا عميقا ، يقفـــون خلفـــه فاذا اقترب العـــدو من هذا الخندق برزوا اليه واستفزوه ليتقدم أيضا وان هى الا خطوة حتى تســقط صفوف العدو فى هذا الخندق اذا حاولت اجتيـــازه !

وستحاول لان كبرياء الغازى تمنعه فى الغالب من التقهقر أمام حفرة من الارض ! ..

تحمس محمد للفكرة ، وتحمس لها كثير من المسلمين .. ان هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها . وقال بعض الانصار : « سلمان منا » . فقال بعض المهاجرين« سلمان منا » .. واتجهت نظرات سلمان الى محمد فقال باعتزاز: « سلمان منا أهل البيت ! » . ووضع محمد الخطة .. أن يحفروا الخندق ، وان يقف الرماة المسلمون على الاسوار .. والمقاتلون الآخرون على حافة الخندق مستندين الى أسوار المدينة ... وأذن محمد فى المسلمين أن يبدأوا فى حفر الخندق ورفع هو أول فأس فضرب بها الارض الصلبة .. ورفع الصخر بيديه ومن حوله المسلمون يعملون فى حماس خارق ، يلهبه سلمان بما يروى لهم عما صنعته الخنادق بالقوات الزاحفة مهما يكن تفوقها فى العدد ..

ولكن همهمة سرت فى المدينة .. وما جدوى الخندق! لماذا يجهد الناس فى هذا العمل، حتى اذا أقبل العدو وجدهم متعبين مجهدين ؟ .. لماذا لا يحتفظ كل رجل بعافيته ، ويعتصم فى بيته ، ليدفع عن أهله ان هجم العدو ! .. ما جدوى الخندق الا انه مجهود يبذل بلا طائل فأسوار المدينة العالية كفيلة برد العدوان ! .. وكان عبد الله ابن أبى وراء هذه الهمهمة .. وتراخت بعض السواعد .. وبدأ بعض الرجال ينسحبون من العمل فجأة ويتسللون الى أهليهم بغير علمه . وأصدر محمد أمره الا ينسحب أحد من العمل حتى يستأذنه . وحذر الذين يخالفون أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ..

وانتهى حفر الخندق على أية حال .. وأقبلت قريش

فى عشرة آلاف من الاحابيش وآلاف أخرى من رجالها ، ثم أقبلت آلاف من تهامة وكنانة وآلاف من محاربى نجد الاشداء يتصدرهم شجعان غطفان ..

وعسكرت جيوش من الاحزاب على تلال مرتفعة تواجه المدينة .. وعسكر محمد بجيشه أمام الاسوار ، والخندق بينه وبين الاحزاب . وأقبل الليل ، ولم يلتق الجمعان .. وتسلل حيى بن أخطب سيد بنى النضير المطرود الى يهود بنى قريظة المعتصمين خلف أسوارهم الخاصة فى ضواحى المدينة .. بعيدا عن الخندق وعما يصنع الجمعان !

وانهم على الرغم مما تلزمهم به صحيفة التحالف مع محمد ، قد قرروا أن يقفوا على الحياد فى المعركة ..

وخف كعب بن أسد سيد بنى قريظة لاستقبال حيى ابن اخطب النضرى .. وقال له حيى : « جئتك بعز الدهر وببحر طام .. جئتك بقريش على قادتها وسادتها وبغطفان على قادتها وسادتها ، قد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه !! »

ومازال به حيى يغريه أن يخطو فى الموقف ضد محمد خطوة أخرى بعد الامتناع عن مساعدته فى مقاومة الغزو بدعوى الحياد ! .. ولكن كعب بن أسد خائف !

فلئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا ، لينتقمن محمد من بنى قريظة . وقال كعب : « دعنى وما أنا عليه فانى لم أر من محمد الا صدقا ووفاء ! »

غير أن حيى بن اخطب ، ظل يغريه بغنى الايام القادمة ان هم استأصلوا محمدا ومن معه . ثم وعد بنى قريظة بنصف خيرات المدينة ان هم انضموا الى الاحزاب ، فاستولوا عليها جميعا .. وأعطاهم ابن أخطب عهده

وميثاقه أن يدخل معهم حصونهم فيصيبه ما يصيبهم من انتقام محمد ان فشلت الاحزاب !

ومازال حيى بن اخطب حتى أعلن كعب بن أسد سيد بنى قريظة أنه يبرأ من صـحيفة التحـالف مع محمد ، وينضم الى الاحزاب ! •• وروع محمد عندما انتهى اليه الخبر ! •• انه ليواجه الاحزاب مجتمعين أمام هذا الخندق ، فكيف يقوى على حربهم وفى ظهره قوات بنى قريظة ! ؟

ودعا اليه سعد بن معاذ سيد الاوس ، وهم حلفاؤهم وحماتهم القدامى وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، وبعض أصدقائهم من سادات المدينة ، وأوصـاهم محمد أن ينطلقوا حتى ينظروا أحق ما بلغه عن بنى قريظة أم لا! •• فان كان بنو قريظة على الوفاء لما كان فليجهروا به للناس ، وان كان حقـا ما بلغه ، فليلحنوا له لحنا يعرفه حتى لا يفت الخبر فى اعضاد الناس !

وخرج منـدوبو محمد حتى جاءوا بنى قريظـة فى حصونهم ، وتقدم اليهم سعد بن معـاذ حليفهم وحاميهم القديم فسألهم عما بلغ محمدا عنهم فقالوا له : « لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ! » • وحاول سعد بن معاذ أن يقنعهم بفساد ما قرروه ، واستحلفهم بكل الصـداقات القديمة وبحقوق الولاء ألا يخذلوه فى موقف نكد كهذا ••

ولكنه وجدهم على أخبث مما يحسب •• فاحتد عليهم وشاتمهم فشاتموه

فانصرف مغضبا مع صحبه ، وسعد بن عبادة يقول له: « دع عنك مشاتمتهم فمابيننا وبينهم اربى من المشاتمة!» •• وعادوا جميعا الى محمد فلحنوا اليه لحنا يدل على أن بنى قريظة قد غدروا به •• وأدرك محمد الاشارة ••

واقترح عليه سعد بن معاذ أن يتجهوا الى بنى قريظة

فيبيدوهم فى حصونهم قبل أن يتمكنوا من طعن ظهور المسلمين ، وليبق الرماة على الاسوار يرمون رجال الاحزاب بالنبال اذا اقتربوا والخندق بعد ذلك كفيل باقتناصهم !

ولكن محمدا رفض الخطة ، وصمم على أن يظل الجيش بكل عدته لمواجهة الاحزاب .. على أن يحمل جناح منه مسئولية المعركة مع بنى قريظة ان هم تركوا حصونهم وزحفوا ليفاجئوا المسلمين من الظهر ابان المعركة ! ..

وتقدمت جيوش الاحزاب حتى اقتربت من حافة الخندق فانقض الالاف من حملة النبال يوجهون سهامهم الى المسلمين دفعة واحدة ! .. كانوا متفوقين فى العدد على نحو رهيب ! .. ولم يستطع الرماة المسلمون أن يثبتوا لهم على أسوار المدينة فأمرهم محمد أن يتحصنوا وراء الاسوار بدلا من اعتلائها ، وان يواصلوا جهدهم ضرب جيوش الاحزاب بالنبال ..

على أن اندفاع جيش الاحزاب فى موجات هائلة تحاصر أسوار المدينة ألقى الرعب فى قلب كثير من المسلمين .. انهم وهم ثلاثة الاف رجل يكادون أن يختفوا أمام طوفان الجيوش الزاحفة بعشرات الالاف فى خيلها وعدتها وابلها المدربة على القتال ..

وخشى المسلمون أن ينتهز بنو قريظة الفرصة فيحاصروهم من ظهورهم .. أو يهاجموا الدور الخالية من الرجال فى الضواحى ! .. وارتفع صوت من معسكر المسلمين : « كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر واحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط ! » . وارتفع صوت آخر : « ان بيوتنا عورة فليأذن لنا أن نخرج فنرجع الى دورنا فانها خارج المدينة » وارتفع صوت آخر حاسم : « انهم لينافقون فأذن لنا أن نقطع رقابهم » ..

ولكن محمدا لم يكن يحب أن يستكره أحدا على القتال .. فما جدوى أن يخوض المعركة بجنود كارهين . وأدرك أن الخوف يسيطر على بعض القلوب ، فأذن لمن يريد أن يعود الى بيته أن يعود فهذا خير من أن يبقى فى الصفوف ليشيع الانهزام ، وليثبت فى الصفوف من يجد فى نفسه القدرة على مواجهة الخطر والرغبة الصادقة فى الاستشهاد دفاعا عما يؤمن به ! ..

وهمهم لنفسه وهو يتقدم الصفوف : « عفا الله عنك لم اذنت لهم ! » .. ولكنه عاد فرأى الخير فى تخليص صفوفه من العناصر الخائرة . ثم أخذ يتلو عليهم : « واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا .. قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذن لا تمتعون الا قليلا ، قل من ذا الذى يعصمكم من الله أن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا » ..

وجمع قوداه يستشيرهم وقد اشتد البلاء .. فلقد يرى أن يعمل على تمزيق وحدة الاحزاب ، والحرب خدعة ! .. فليعرض صلحا منفردا على نجد : أن يعودوا ولهم ثلث ثمرات المدينة !

ولكن سعد بن معاذ سيد الاوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، تقدما من محمد مغضبين فسألاه : « يا رسول الله ، أمرا تحبه فتصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به . أم شيئا تصنعه لنا ؟ »

فأجابهما محمد : « بل شيء أصنعه لكم ، والله ماصنع

ذلك الا لانني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم الى أمر ما » .. فقال سعد بن معاذ : ان أهل نجد لم يكونوا يأكلون ثمرة واحدة من ثمار المدينة الا بيعا أو ضيافة ، فكيف يعطونهم أموالهم ؟ .. ثلث ثمار المدينة ! لا .. !!

ثم قال سعد : « والله لا نعطيهم الا السيف » .

وتناول سعد صحيفة مشروع الاتفاق فمحا ما فيها قائلا : « لا ليجهدوا علينا »

واستعد أهل نجد للمعركة الى جوار الاحزاب .. واستعدت كل الاحزاب

وتقدمت جموع الفرسان تبحث عن مكان ضيق من الخندق لتعبر منه . وبعد بحث طويل وجدوا مكانا تستطيع أن تعبره الخيل .. وضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، واكتشف علي بن أبي طالب أن الفرسان يعبرون الخندق من مكان ضيق فيه ، فقاد جماعة من جيش المسلمين ليمنعوا الفرسان من عبور الخندق

كان المكان لا يسمح الا بعبور حصان واحد ، ولكن عليا أدرك أنهم ان تركوا المكان بغير حراسة لعبر منه مئات الفرسان : الواحد بعد الآخر ..

وكان يقود الجماعة التي عبرت الخندق فارس معلم من قريش اسمه عمرو بن عبدود .. فتصدى له علي ودعاه الى المبارزة فقال له عمرو : « لم يا ابن أخي أبي طالب .. ما أحب أن أقتلك » . فتقدم منه علي صائحا : « لكني والله أحب أن أقتلك » .. وبارزه علي ، فقتله ..

ثم قاد جماعة من المسلمين يقاتلون الذين عبروا الخندق ، حتى أجلوهم وخرجت خيلهم منهزمة تقتحم من الخندق هاربة !

ان عليا ليصنع كما صنع حمزة يوم بدر • وتذكر المسلمون يوم بدر وانتصارهم الرائع هناك بمثل هذه الاعمال الفدائية الخارقة •• لتعاودهم تلك القوة الداخلية الخارقة التى كفلت لهم النصر !

ولم تعد جيوش الاحزاب تفكر فى عبور الخندق •• ولبثت فى معسكرها دون الخندق يفكرون فى طريقة اخرى لهجوم مكتسح ••

وقرر أبو سفيان قائد الاحزاب أن يصبوا سهامهم على جيوش محمد بلا انقطاع ، حتى اذا ما نالوا منهم ، اجتازت الاحزاب المكان الضيق من الخندق رجلا بعد رجل •• وردموه من أنحاء متفرقة ليعبره الآخرون ••

فليوجهوا سهامهم الى الابطال من المهاجرين والى سادة المدينة فاذا سقطوا يتخاذل الآخرون ! •• وكان محمد قد أمرهم الا يبرزوا الا وهم فى دروعهم السابغة التى غنموها من بنى النضير وبنى قينقاع وبنى المصطلق •ولكن سعد بن معاذ برز فى درع قصيرة بلا ذراعين •• وما أن ظهر أمام الرماة حتى اصابه سهم فى ذراعه •• وامر محمد بأن يحمل الى المدينة لتعالجه امرأة هناك تحذق الطب ••

وجاء الليل من جديد وقريش تفكر فى طريقة تعبر بها الخندق •• والمسلمون يتناوبون حراسة المكان الضيق منه • وفى احدى الليالى تسلل أحد فرسان قريش ومن ورائه صف طويل من الفرسان ليقتحم من المكان الضيق •• ولكن حصانه سقط فى الخندق ، وتبعه آخر فسقط وانهالت الحجارة من فوقهم ••

وصاح الآخرون وكان يقودهم عكرمة بن أبى جهل : ان المكان الضيق لم يعد صالحا للعبور بعد ، فقد حفره

اصحاب محمد من جديد تحت جنح الظلام

وأمر على رجاله ان يسددوا سهامهم على الاصوات.. وسدد هو سهمه الى عكرمة بن ابى جهـــل فاصابه .. وشعرت قريش انه لا سبيل الى اقتحام الخندق ، وانه يجب عليهم ان يستفزوا المسلمين ليعبروه الى قتـــال مكشوف فى الخلاء ..

وأرسل أبو سفيان الى محمد يتهمه بالجبن لانه يكيد مكيدة ما كانت تعرفها العرب ويحتمى وراء الخنـــدق .. فليخرج اليهم فى الساحة ان كان شجاعا ! !

وابتسم محمـــــد وارسل رده على ابى سفيان .. انه سيخرج اليهم فى يوم قريب ليحطم اصنام قريش ! ..

وأذن محمـــــد فى رجاله ان يثبتوا وان يصبروا .. فوراءهم المدينة بالطعام والماء والامدادات . اما الاحزاب فهم فى العراء ، وبينهم وبين مراكز الزاد سفر طويل فلن يقووا طويلا على البقاء ! فليصبر عليهم المســلمون لبعض الوقت حتى اذا انهكهم نقص الطعام والماء ، وعلم انهـــم ارسلوا فى طلب المدد .. خرج عليهم فهاجمهم فى الوقت الذى يختاره هو للقتال !

ليصبر المسلمون .. فالصبر اليوم هو اقوى الاسلحة!

وهزم الأحزاب وحده ..

ما جدوى الآلاف المؤلفة من الجنود الاشداء اذا كانوا لا يستطيعون عبور هذا الخندق ليأخذوا جيش محمد من كل جانب ! ؟ .. بم يمتازون اذا كان عليهم ان يواجهوا جنود محمد رجلا لرجل !؟ .. ان هؤلاء الالاف الثلاثة الذين حشدهم محمد أمام أسوار المدينة ليطلبون المبارزة .. وعلى جيوش الاحزاب اذن أن تخرج لهم ثلاث الاف من شجعانها ، ربما قتلوا جميعا فى هذه المبارزات وانسحب الباقون فى استخذاء ! ..

وشاع السأم فى جنود الاحزاب ، ودب الملل الى القلوب من طول الحصار ، وبدأ الزاد ينفد .. وجيش المدينة لا يبالى ، فمن ورائهم خلف الاسوار ، تقع مدينتهم بكل خيراتها .. ! وتمنت غطفان لو انها وصلت فى مفاوضتها مع محمد الى حل يرضيه ، ثم انسحبت ! .. وحتى بنو سليم الذين اقبلوا على جيادهم تدفعهم الرغبة فى الانتقام من الهزيمة القديمة .. حتى بنو سليم فكروا فى الانسحاب منذ رأوا الطعام ينفد ، وخيولهم تهزل من قلة الكلأ !

لقد أحسن محمد رسم الخطة لمواجهة جيوش الاحزاب فاجتث كل النبات والثمرات وكل ما هو أخضر من الاماكن التى توقع أن يعسكروا فيها ووضع على القوات المهاجمة عبئا جديدا : ان تدبر الطعام والمرعى لجندها وخيلها ..

وبنو قريظة لا يهاجمون بعد ‥ ! انهم ينتظرون فرصة الهجوم الشامل !

وأبو سفيان حائر لا يستطيع أن يصبر على الحصار ، فهو لا يفتأ يستفز المسلمين ليتركوا مواقعهم وراء الخندق ، ويخوضوا معركة فى العراء المكشوف ، أمام قوات الاحزاب ‥ كما حدث فى أحد ! ‥

ويشعر أبو سفيان بما يصنعه السأم فى معنويات حلفائه ‥ ويخشى أن يفاجئوه بالانسحاب ، فيضطر هو نفسه الى الانسحاب بقواته ! ‥ لن يغفر محمد لهم هذه المحاولة الفاشلة ، وسيقطع على قريش طريق التجارة الى الشام ! • وطاف فى ذهن أبى سفيان ــ لبعض الوقت ــ أن يعرض على محمد صلحا معقولا يسمح لقريش بأن تنسحب لا منهزمة عن المدينة ــ بل عافية عنها ــ على أن يتعهد محمد الا يتعرض لتجارة قريش ‥

ولكن أبا سفيان ، خشى أن يستشير حلفاءه فينهار كل شىء ، ويستبق قادة الاحزاب المتحالفة الى محمد يقدمون له الطاعة ويحالفونه ضد قريش ! ‥

وأدرك محمد كل ما يعصف بمعسكر الحلفاء ، فناشد جنوده كثيرا من الصبر أيضا ‥ فالصبر هو الذى سيحمل له النصر فى النهاية • واجتمع رجال الاحزاب يتشاورون

انهم ليشعرون بالحاجة الى الطعام يوما بعد يوم ‥ والخيل تهلك فى بحثها المضنى عن الاعواد الخضراء ‥ لقد أدركوا الآن أن محمدا بنى خطته العسكرية على الصبر والانتظار ، وأنه لن يدفع بقواته القليلة الى الاشتباك فى معركة مفتوحة مع جيوش الاحزاب الضخمة • فليحاولوا اقتحام الخندق اذن رجلا بعد رجل ، وليحاربوا جيش محمد

رجلا لرجل ! ·· هذا هو الحل ·· ولكن من من الاحزاب يبدأ ·· ؟ لتقدم قريش صناديدها · ولكن لماذا لا تقدم غطفان رجالها ؟ ·· وبنو سليم لماذا لا يتقدمون هم اولا ؟ ·· وبينما هم يتناقشون والخلاف يوشك أن يحتدم بينهم اذ برجال محمد يخرجون اليهم من وراء الخندق ينادونهم الى طريق سواء : أن يؤمنوا بالدين الجديد ولينسحبوا امنين ! ·· وشعر ابو سفيان بالاهانة ! ·· حتى فى هذه اللحظات التى تغمر محمدا بطوفان من قوى الاعداء ، يدعو الناس الى دينه الجديد ، فى ثقة مطمئنة بالنصر ؟ · اتسمح له هذه الثقة بأن يؤمنهم على حياتهم ـ كما لو كانوا أسراه ـ ان هم امنوا بما يدعو اليه ! ·· ورد أبوسفيان دعوة محمد ، واتهمه مرة أخرى بالجبن ·· وتحداه أن يبرز بقواته من وراء الخندق ليشتبك مع قوى الاحزاب ولكن لم يكن توجيه الدعوة الى رجال الاحزاب ان يؤمنوا بالعقيدة الجديدة وان يجعلوا تعاليمها هى اسس التعامل فيما بينهم ·· فليعلنوا ايمانهم مخلصين ، وليعودوا الى أهلهم فى سلام ! ·· ووجه نفس الدعوة الى بنى قريظة الذين اعتصموا فى حصونهم منتظرين الفرصة المناسبة للانقضاض · ولم يلق محمد أى رد على دعوته الا الزراية والاستخفاف ثم التعريض بهزيمته فى أحد ، ثم النذير باستئصاله وابادته ··

وانطلق قادة اليهود يجددون وعودهم لرجال الاحزاب ، ان يتركوا لهم أموال المدينة ان هى سقطت ، وان يعطوهم مزيدا من المال ·· وهمسوا لقادة غطفان الذين أزهقهم الانتظار : أن يصبروا وان يحاولوا احداث معبر فى الخندق يقحمون منه الخيل ، وينقضون على المسلمين ·· ولهم اذا نجحوا نصف ثمار واحة خيبر

ولكن بني غطفان كانوا قد تأكدوا انه لا ســبيل الى اقتحام الخندق .. فعلي بن أبي طالب يقف من ورائه على رأس فرقته دون المدينة ، يصرع من يحاول اقتحامه ، كما وقف عمه حمزة دون الماء في بدر !! ..

وتسلل نعيم بن مسعود ، زعيم بني غطفان الى محمد .. لم يقبل هذه المرة مفاوضا . ولكنه أقبل يعلن اقتناعه بفساد هذه الحرب ، وبرغبته في الانسحاب بلا شروط ، لانه بعد تفكير طويل قد آمن بدعوة محمد !

لقد استوثق محمد من صــدقه على اية حال فاطمأن اليه . وقال نعيم : « يا رسول الله ان قومي لم يعلموا باسلامي فمرني بماشئت » فقال له الرسول : « انما انت فينا رجل واحد ، فخذل عنا فان الحرب خدعة !

ومضى نعيم بكل دهائه على بني قريظة قائلا : « لقد عرفتم ودي » . فأجابوه : « لست عندنا بمتهم » . فقال لهم مصطنعا العطف عليهم : .. ان قريشا وغطفان ليسوا مثلكم فأن البلد بلدكم فيه أموالكم ونساؤكم ، وان قريشا وغطفان ليسوا مثلكم فأموالهم ونساؤهم في بلادهم .. فان ضاقوا بالمقام هنا لحقوا ببلادهم وخلوا بينكــم وبين محمد ولا طاقة لــكم به ان خلا بكم فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من اشرافهم يكونون بأيديكم حتى لا يغدروا بكم وينسحبوا !

ثم مضى الى قريش والى قومه غطفان فقال لهم : «انه قد بلغني امر فاكتموه عني .. » وأخــذ يقنعهم ان يهود بني قريظة قد ندموا على موقفهم من محمــــد فأرسلوا ليصــــالحوه ، على ان يسلموه رءوس أشراف قريش وغطفان »

ثم اكمل : « فان بعث اليكم بنو يهود يلتمسون رهنا

منكم من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا » .
فلما أصبح الصباح ، وارسل ابو سفيان الى بنى قريظة يطالبهم أن يبدأوا الهجوم على محمد .. ردوا عليه قائلين: « لسنا بالذين يقاتلون معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بايدينا ثقة لنا ، فاننا نخشى أن اشتد عليكم القتال ان تنسحبوا من المعركة الى بلادكم ، والرجل فى بلدنا لا طاقة لنا بذلك منه ..

وتأكد عند غطفان وقريش ما قاله نعيم ! .. فردوا على بنى قريظة انهم لن يرسلوا اليهم رجلا واحدا

واذ تلقى بنو قريظة هذا الرد ، تأكد عندهم أن حلفاءهم يريدون أن يخذلوهم فينسحبوا اذا اشتد القتال .. تماما كما قال نعيم !

وهكذا تفرق الحلفاء .. بدأت قريظة تخشى من انسحاب الاحزاب ، وبدأ قادة الاحزاب يخافون غدر بني قريظة .. والطعام ينفد ، ولا مراعى للخيل ، والعاصفة تتجمع فى الافق وتقترب نذرها !

وهبت الريح العاتية فجأة فاعتصم المسلمون منها وراء أسوار المدينة ولكنها دكت معسكر الاحزاب .. اقتلعت كثيرا من الخيام وقلبت كل شيء والسأم يبلغ أوجه !! ..
ووقف ابو سفيان يصرخ وعواء الريح يغمر صوته : « يامعشر قريش ، انكم والله ماأصبحتم بدار مقام ! لقد هلك الخيل والابل واخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من شدة الريح ماترون ، مااطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فانى مرتحل .. وقام الى جمله فركبه . انسحبت قريش ، وانسحبت وراءها غطفان والاحزاب . والريح تثير من ورائهم الرمال ، وتحجبهم عن العيون ، وهم يضربون فى

الصحراء : الرءوس منكسة والاجسام تنحنى تحت وطأة الاحساس العقيم بالخيبة !

وارتفعت من معسكر المسلمين صرخات النصر ووقف محمد ينظر الى وجوه الناس من حوله وهو لايكاد يصدق نفسه !

كيف نجت المدينة من هذا الحصار ؟.. كيف انهزم أمامها كل هذا الحشد من أقوى الفرسان والمحاربين فى الجزيرة العربية ؟ .. لن يغلبوه بعد يومهم هذا أبدا .. لن يقووا على أن يجمعوا مثل هذا العدد مرة أخرى !

اذن فقد نجا بدعوته وصحابه .. وانها لهيبة جديدة تلك التى تنتظره منذ اليوم ..

ووقف يقول : « الحمد لله .. نصر عبده وأيد جنده وهزم الاحزاب وحده » ..

لن تغزوكم قريش أبدا ، بل تغزونهم أنتم وتدخلون مكة وتحطمون أصنام الكعبة ! .. وتهيأ المسلمون للعودة الى دورهم فى المدينة تهز أعطافهم كبرياء النصر فوضعوا السلاح وانصرفوا .. ولكنهم تهامسوا فيما بينهم وهم ينصرفون : « وبنو قريظة ؟ ! » . وناداهم محمد ألا يعودوا الى ديارهم حتى ينزلوا الهزيمة ببنى قريظة !

لقد ذهب الحلفاء عن بنى قريظة فليواجهوا الان مصيرهم ! .. وتقدم على بن أبى طالب يقود فرقته الى حصون بنى قريظة ، وأقسم أن يقتحم عليهم أسوارهم أو يلقى دون هذه الاسوار ميتة كميتة عمه حمزه !

واعتصم بنو قريظة فى حصونهم فلم يخرجوا للقتال.. وضرب المسلمون عليهم الحصار . وذات ليلة سمع المسلمون رجلا يصرخ من وراء الاسوار فى قومه اليهود :

« أنا قلت لكم لا أغدر بمحمد أبدا » •• وعرفوا صوته •• انه عمر بن سعد القرظى !

ورأوه يتسلل من الاسوار بعد قليل فتركوه يهرب •• ومضى الرجل يضرب فى الصحراء المترامية تحت الظلمات، ولم يدر أحد أبدا أين توجه من الارض • وفى الصباح ذكروا حكايته لمحمد فقال : « وذاك رجل نجاه الله بوفائه » •• ولم ترتفع بعد صيحة احتجاج أخرى من بنى قريظه•• كانوا كلهم قد أجمعوا أمرهم على حرب محمد ••

واستمر الحصار خمسة وعشرين يوما •• فأرسلوا الى محمد أن يفك عنهم الحصار وسيرحلون كما رحل من سبقهم من اليهود • ورد عليهم محمد : ان لهم لشأنا آخر ، وان ما صنعوه به ليس كغدر من خرجوا من يهود المدينة فليستسلموا اذا شاءوا بلا شروط ، والا فهى الحرب حتى يستأصلوه كما دبروا هم أو يستأصلهم هو !

وأذعنوا آخر الامر •• ونزلوا على حكمه ، واستسلموا بلا شروط فتواثب رجال من الاوس قائلين : « يا رسول الله انهم كانوا موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت بالامس فى بنى قينقاع موالى اخواننا الخزرج ما قد علمت ، فهب لنا بنى قريظة » • فقال محمد : « ألا ترضون يا معشر الاوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ » •• فوافقوا •• واختار محمد للحكم سعد بن معاذ زعيم الاوس •• وفرح بنو قريظة أن يوضع مصيرهم بين يدى سعد بن معاذ ! •• مهما يكن من غلظتهم معه حين جاءهم يسألهم العدول عن الغدر بمحمد ، فانه لراعيهم القديم ، وهو رجل عادل ما يعرف عنه غير الحلم والعفو وحسن الرأى !

وكان سعد ما زال جريحا فى خيمة امرأة تعمل بالطب ، وتحتسب بنفسها على خدمة الجرحى من المسلمين

وذهب بعض الاوس الى خيمتها وحملوا سعد بن معـــاذ على دابة وأقبلوا به الى حيث كان المسلمون يحاصرون بنى قريظة .. وقالوا له فى الطريق : « أحسن فى مواليك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم انما ولاك ذلك لتحسن فيهم » . فأجاب : « قد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم ! .. »

ان سعدا ليذكر الان أنه ما من يهودى خرج من هـذه المدينة الا كان حربا على من فيها ! . تجمعوا كلهم فى واحة خيبر وانضموا الى يهود اخرين هناك ومضوا يؤلبون القبائل ضد محمد والمسلمين ! .. ماذا صنع بهم محمد ليلقى منهم كل هذا ... لقد أحسن اليهم دائما وتزوج منهم ، وحض اصحابه على أن يعاملوهم بالحسنى ..

ولكنهم بدلا من أن يعرفوا له هذه اليد مضوا يكيدون له فى مدينته ، ويسخرون به ، ويخربون اقتصاديات دولته الجديدة ، ويدمرون نفسيات الناس ، ويبثون الفتنة بين صحابه ويتهمونه فى عرضه .. كم من مرة شهروا السلاح ضده .. وعفا عنهم ، وترك الذين حملوا السلاح ضده يخرجون امنين ! ..

وخرج بنو قينقاع من قبل ، ثم بنو النضير .. فماذا كانت النتيجة ! ؟ . حشدوا الاف المقاتلين ورموا بهم المدينة ليستأصلوا محمدا وصحبه ! .. الغدر دائما ! .. ألم يكن من الممكن أن ينتصر الاحزاب فيقتحموا المدينـة على من فيها ويقتلوا الاف الرجال والنساء والاطفال ! ؟ ..

ان مثلهم كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ولقد طالما عاهدوا المسلمين ولكنهم كلما عاهدوا عهدا نبـــذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون ! ..

سماعون للكذب أكالون للسحت ! ·· ولكم حاولوا أن يشعلوا نار الحرب ، وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الارض فسادا ، والله لا يحب المفسدين ·· هكذا تلا عليكم محمد يا سعد !

وهذا السهم الذى تعانى منه الان يا سعد أما هو من غرس هؤلاء اليهود من بنى قريظة ؟؟ ·· لو أنهم أخرجوا كما أخرج غيرهم ، فسيؤلبون القبائل من جديد · ومن يدرى ماذا يحدث بعد ؟ ·· ربما عادت الاحزاب تدك المدينة على من فيها وتستولى على كل المتاع والنساء والاطفال وتسحق قلعة الاسلام !

ولم يكد سعد بن معاذ يبلغ مكان محمد وسط عسكره ، حتى قام محمد يستقبله ويأمر الناس أن يقوموا لاستقباله وعرض عليه محمد أن يحكم فى أمر بنى قريظة ·· فقال سعد وهو يقلب عينيه فى كل الوجوه من حوله : « عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ما حكمت ·· »

فقالوا : « نعم » ·· وأخذ نفس الموثق على محمد نفسه فقال له : «نعم »

فقال سعد : « فانى أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتقسم الاموال وتسبى الذرارى أوالنساء ·· »

واقتحم المسلمون الحصن ، فغنموا ما فيه من أنواع السلاح الحديثة · وغنموا الخيل والاموال جميعا ··· كميات ضخمة من السلاح والخيل والكنوز ·· وغنموا الدور ايضا ، ثم قتلوا الرجال واقتسموا النساء والصغار

وقتل جميع رجال بنى قريظة ومن دخل معهم حصونهم ليديروا المعركة ضد محمد ، وكان من بينهم حيى بن أخطب زعيم بنى النضير ! ·· ولم يكد محمد يفرغ من أمر بنى

قريظة حتى عاد الى المدينة يسوس الحياة فيها ، وقد ثبتت هيبته فى الجزيرة العربية كلها • وخشيت قريش أن يرد محمد على عدوانها فيقطع الطريق على تجـــارتها الى الشام ، وبدأت تفكر فى الصلح معه ، أى صلح يضمن سلامة القوافل وطرق التجارة ! ••

وخشيت بعض القبائل أن ينزل بها محمد ما أنزله ببنى قريظة ، فبدأت تفكر فى أسلوب جديد للتفاهم ••

أما محمد فقد قال للمجاهدين معه : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم » • وبعد أيام قليلة تلا عليهم وهم خاشعون : « ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وما زادهم الا ايمانا وتسليما ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا • ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعـــذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما •• ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتـــال وكان الله قويا عزيزا • وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا •• وأورثكم أرضهم وديارهم واموالهم وأرضا لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديرا »

الصلح خير

ستة أعوام بأسرها ، لم ير خلالها أرض الوطن ... لم يتصل بينه وبين مواطنيه فى مكة شيء غير الكيد والحرب .. واحيانا كان يقبل من مكة رجل او امرأة يحكى للذين هاجروا عما صنع الزمن بمعاهد الصبا ، ومراتع الشباب .. كيف المدينة البيضاء بعدنا يا رجل ؟ .. كيف خلفت وراءك الديار يا امرأة ؟! .. الصفا ؟! .. الكعبة ؟ .. المراعى البعيدة المترامية وراء الجبال ! ؟ كل شيء هناك يشوقنا .. حتى الرمضاء ..

ومهما تقدم الحياة فى المدينة للمهاجرين ، فما زال فى الاعماق من كل قلب شوق الى مكة ، وانهم ليفتحون البلاد ويخوضون المكاره ، وينتصرون ، ويزحفون براياتهم المظفرة من مكان الى مكان ، وينعمون بالحقول الخضراء حول المدينة .. ومن وراء الافق تلوح لعيونهم دائما : مكة ، مدينتهم العزيزة الكبيرة البيضاء المضيئة !.. متى يأذن الزمن فيعودوا الى ديارهم ، هؤلاء الغرباء المشتاقون ؟!

وها هو ذا جيل اخر من الابناء والاحفاد ينطق أول الكلمات ، ويروح ويجيء ويملأ عالمهم بالضجيج الحلو والزحام ، ولكن هذا الجيل كله لم ير أرض الوطن .. وانه ليعرف اسم مكة فيما تعلم من أسماء ، ولكنه لا يعرف ما مكة بعد !!.. ونظر محمد الى حفيديه الحسن

والحسين ، وهما يلعبان أمامه .. الحسين يختبىء فى حجره والحسن يطارده فيمتطى ظهر الجد .. والجـــد يتأملهما ضاحكا مشفقا .. هذان الغريبـــان الصغيران ، ولدا ونقلا أول الخطوات بعيدا عن أرض الوطن !!

وتأتى أمهما فاطمة فتنهرهما ولكنه يشير أن تتركهما ، ويأتى أبوهما على فيزعجه أن يعلو أحد ولديه كتف محمد مثله الاعلى ، ولكن محمدا يطلب من على ألا يزعج الطفلين .. حسبهما أنهما يعيشان فى الغربة !

وسألت فاطمة أباها لماذا هو مهموم ؟ .. لقد انتصر على الاحزاب ، وظفر ببنى قريظة ، وما عرفت العرب نصرا مثل هذا من قبل .. ؟ اتراه الان يذكر أمها الراحـــلة خديجة أعز زوجاته عليه .. ! وتلمح فى عينيه دموعا لا تنسكب فتنسحب وتشـــير الى زوجها أن ينسحب .. ويتركان طفليهما ، فما مثل الاطفال من يستطيع أن يفرج عن القلب الكبير اذا فاض منه الحزن .

وتسمع فاطمة من الخارج طفليهما ينجادلان .. وتنطلق ضحكة الجد ، وهو يعلم الطفلين ويحسم ما اختلفا عليه .. ويخرج محمد الى ابنته فاطمة وزوجها على .. فيسألهما ان كانا ثم تهج لهما الذكرى فى هذه الايام ، فنحن فى ذى القعدة .. وقد بدأ موســـم الحج !! .. وتنطلق الزفرات من أعماق فاطمة ، ويشرق وجه على بشعاع غريب أجل يا ابن العم ! وهناك يتدفق الناس ارسالا الى البيت العتيق الذى حرسه جدنا عبد المطلب ذات يوم ، وما زال عمنا العباس يقوم على سقايته !! ..

وهناك حول الكعبة التى شهدت كبرياءك وقلة حيلتك وروعة مقاومتك وازراء السادة عليك ، وايمان المستضعفين بك .. هناك ما زال السادة يجلسون وما زالت الصفقات

تعقد .. وعلى الرغم من كل التضحيات ، فما زالت الاوثان تنتصب شامخة ! ..

هناك في مدينتنا العزيزة البيضاء يلتقى الان رجال ونساء من كل مكان يبحثون عن الحقيقة ، وينشـــدون منافع لهم .. الاشعار الجديدة تذاع الان فى الاسواق ، والمبشرون يلقون بمواعظهم ، والقبائل تعقد المحالفات ، ولكننا نحن هنا ، نحن أصحاب هذا البيت وسدنته ، نحن هنــا لا نســـتطيع أن نطوف بالبيت كما يطوف كل الناس !!

ولكن محمدا كان قد قرر أن يطوف بالبيت من عامه هذا .. كان قد قرر أن يدخل مكة فى موســـم الحج بالمسلمين كغيرهم من الحجاج ..

وخرج الى المهاجرين يستشيرهم .. أخيرا ، فهـــاهم أولاء يعودون الى مكة . ليروها مرة فى العمر بعد كل هذا الغياب المعذب .. لكم اضطرمت صدورهم بأحلام العودة الى أرض الوطن ..

وأذن محمد فى الناس أنه خارج بهم الى الحج حيث يلتقى العرب حول الكعبة فى سلام .. وطالبهم أن يرعوا حرمات الحج وأن يتهيأوا له ، لأنهم يدخلون مكة حجاجا ورعين لا غزاة فاتحين ! .. واجتمع اليه من أراد الحج حتى بلغوا ألفا وأربعمائة ساقوا أمامهم سبعين من الذبائح السمان لينحروها أمام الكعبة ويطعموا الجائعين والمحتاجين لحوم هذه الاضاحى ..

ودخلوا جميعا فى الاحرام ، فنبذوا من نفوسهم كل رغبة فى المتاع والزينة .. وتهيأوا لحالة النسك التى يقتضيها الحج : لبسوا أرديتهم بلا خياطة ، وامتنعوا عن

النساء والعطور والطيب ، وأرسلوا الشعور والاظافر ..

اندفعوا الى مكة .. فى هذه الحالة المتقشفة ، بلا سلاح ، ليطوفوا بالبيت العتيق ، وليقوموا بشعائر الحج لاول مرة منذ هاجروا الى المدينة .. وعلمت قريش أن محمدا وألفا وأربعمائة من المسلمين خرجوا يريدون مكة ! ها هو ذا بعد أن ارتدت قريش والاحزاب منهزمين عن مدينته ، وبعد أن حطم بنى قريظة الاشداء فى حصونهم ، يقبل الى موسم الحج بالمسلمين من المهاجرين والانصار ، ليلقى الناس من قريش ومن القبائل العربية الاخرى ، ويدعوهم الى دينه الجديد مستندا الى انتصاراته المدوية المذهلة ، هو الذى خرج من مكة ضعيفا وحيدا مطاردا ! .. أيريد هو أن يجرع قريشا مرارة الهزيمة حتى اخـــــر قطرة ! ..

وجمع أبو سفيان رجال الحكومة فى قريش ، فقرروا بالاجماع أن يمنعوا محمدا ومن معـــه وأن يردوهم الى المدينة .. لن يدخلوا مكة عليهم عنوة ! وجمعوا فرسانهم وجعلوا عليهم خالد بن الوليد ..

ان خالد بن الوليد من بين قواد قريش ، لهو الوحيــد الذى هزم المسلمين !

لن ينسى المسلمون ما صنعه بهم فى أحد ! .. واندفع خالد بن الوليد على رأس فرسانه يحارب محمدا ومن معه وعلم محمد بما كان ، فأشار على من معه أن يتجنبوا القتال ، فما أقبلوا للحرب وليس معهم سلاح يحاربون به ان فرض عليهم القتال فى سعيهم الورع الى البيت الحرام

واختار أن يسير من طريق اخر غير الطريق المألوف لكيلا يلقوا فرسان قريش .. فقاد الركب بين الشعاب المهجورة

تحت وطأة حر لافح ، بين صخور لا زرع فيهـــــا ولا ماء ..

وعانى الناس من العطش وهو يطوف بهم يدعوهم الى الصبر ويذكرهم بالنعيم الذى ينتظرهم ، وبكل الطيبات التى اعدت للصابرين .. حتى اذا بلغوا سهلا به آبار مهجورة على مقربة من مكة اذن بالناس أن ينزلوا فليشربوا وأقاموا فى هذا السهل عند الحديبية . وأرسل الى قريش من يؤكد لحكومتها أن المسلمين انما جاءوا للحج لا للقتال ولكن رسوله رجع يقول له : ان قريشا لبست جلود النمور وأنها تتهيأ للحرب ..

ثم أرسلت اليه قريش لتنصحه أن يعود .. وأخبر رسل قريش أنه انما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته وأنه لا يريد حربا . وسكتت رسل قريش ، فاستطرد محمد قائلا : « يا ويح قريش .. لقد أكلتهم الحرب .. ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فان أصابونى كان ذلك الذى أرادوا وان أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام صاغرين وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! فما تظن قريش ؟ . فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو أموت دونه ! ..

وعادت الرسل من عنده فقالوا لقومهم : « يا معشر قريش انكم تعجلون على محمد ، ان محمدا لم يأت للقتال وانما جاء زائرا هذا البيت » ..

ولكن سادة قريش أغلظوا لهؤلاء الرســـل وقالوا : « والله لا يدخلها علينا عنوة أبدا » . ورأت قريش أن ترسل الى محمد رسولا يهدده .. فأرسلت اليه قائد الاحابيش الذين لا ينسى المسلمون ما ذاقوه منهم فى احد !!

واذ قدم قائد الاحابيش على المسلمين ، أمر محمد أن يعرضوا عليه الذبائح التى يسوقونها الى الكعبة · ورأى الرجل هذا كله ، ورأى المسلمين جميعا فى ثياب الاحرام بلا سلاح ، فعدل عن رسالة التهديد التى يحملها ، ولم يجد فى نفسه ما يدفعه الى أن يقابل محمدا · رجع من فوره الى مكة فروى لحكامها ما رآه ·· فقالوا لهساخرين: « أنت لا علم لك بشىء ! » · فأجابهم مغضبا : « والله ما على هذا حالفناكم ! أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ·· والذى نفسى بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لانفرن بالاحابيش نفرة رجل واحد » ··

وأرسلت قريش رجلا آخر من دهاة سفرائها لعله يستطيع أن يقنع محمدا بالعودة ، فقال محمد : « انا لم نأت لقتال أحد وكلنا جئنا معتمرين وان قريشا قد أنهكتهم الحرب واضرت بهم ، فان شاءوا ماددناهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس ، فان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وان هم أبوا فوالذى نفسى بيده لاقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى أو لينفذن الله أمرى » ··

فرد سفير قريش : « أرأيت ان استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ، وان تكن الاخرى فانى أرى حولك وجوها وأثوابا من الناس خلقا أن يفروا ويدعوك » ·· ولم يجبه محمد ولكن أبا بكر شتم سفير قريش وسأله مستنكرا: أنحن نفر وندعه··؟!

وحاول الرجل أن يتحدث الى محمد كما تعود أن يتحدث الى غيره من الرجال فامسك بلحيته متوددا ، ولكن بعض صحاب محمد قالوا له : « أكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن لا تصل اليك» ··

وعاد الرجل الى قريش يقول : « يا معشر قريش انى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وانى والله ما رأيت ملــــكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه .. ولقد رأيت قومه لا يسلمونه لشيء أبدا ، فروا رأيكم »

ولم تقرر قريش شيئا .. ورأى محمد أن يرسل الى قريش رجلا له حسابه .. فاختـــار عمر بن الخطاب ، وكان هو فى الايام الماضية من يتحدث بلســـان قريش ويقوم بالسفارة عنها ..

ولكن عمر بن الخطاب اعتذر قائلا : « يا رسول الله انى أخاف قريشـــا على نفسى ، وليس بمكة من عشيرتى أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عـــداوتى اياها وغلظتى عليهـــا ، ولكنى ادلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان »

وأرسل عثمان بن عفان الى أبى سفيان وحكومةقريش ينبئهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه انما جاء حاجا ..ولعثمان صداقات وقرابة بســـادة مكة .. وبصفة خاصة بأبى سفيان رئيس الحكومة . ولكن اخبـــار عثمان انقطعت وأذيع بين الناس أنه اغتيل فى مكة ..

ليت المسلمين جاءوا بأســـلحتهم ، ما دامت قريش تضمر غدرا .. ! وأرسل محمد الى المدينـــة من يستنفر أهلها والحلفاء ويعود اليه بالسلاح وعدة الحرب والرجال والخيل . ووقف تحت ظـــلال شجرة يطلب البيعة ممن معه .. فبايعه الجميع تحت الشجرة ، على القتال حتـــى الموت ..

ولكن عثمـــان ما لبث ان عاد حيا ، فاستقبله محمد

مستبشرا وشاعت الفرحة بين المسلمين جميعا .. كان عثمان قد اقنع قريبه أبا سفيان وبعض صحابه القدامى من كبار تجار قريش أن الصلح خير .. فليس من حق قريش أن تمنع المهاجرين من أهل مكة أن يعودوا اليها ، ليس من حقها أن تحرم أحدا من الارض التى رعته والتى تستلقى تحتها عظام آبائه .. أو أن تصد المسلمين عن الحج الى البيت العتيق دون سائر العرب ؟

ولم يكد عثمان يفرغ من رواية ما دار بينه وبين حكام قريش حتى أقبل مندوب من قريش ، عرف عنه حب السلام . فلما ظهر قال محمد : « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » . وتفاوض الرجل طويلا للصلح .. واتفق آخر الامر مع محمد على كل شروط الصلح ولم يبق الا أن تكتب الشروط فى صحيفة ..

ودعا محمد اليه بعلى بن أبى طالب ليمليه صيغة الصلح .. قال له : « أكتب بسم الله الرحمن الرحيم » .. فقال مندوب قريش : « لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم » فوافق محمد وأمر عليا أن يكتب « باسمك اللهم »

ثم أملى محمد : هذا ما صالح عليه رسول الله .. فاعترض مندوب قريش : « لو شهدنا أنك رسول الله لم نقاتلك ، اكتب اسمك واسم أبيك » فقال محمد : « أمح رسول الله واكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله» .

وهنا توقفت يد على ، وانتفض مغضبا وهو يقول لمحمد : « لا والله لا أمحو أبدا » . كانت غضبة على هى الصيحة التى انفجرت وراءها من صدور المسلمين كل صرخات الاحتجاج . ما بال محمد يسلم لمندوب قريش ! ما باله يتنازل له عن الديباجة التى ألفها المسلمون ؟! . ولم يجد واحدا من صحابه يمحو « من محمد رسول الله»

وانفجر عمر غير بعيد يقول لابى بكر : « يا أبا بكر أليس هو برسول الله ؟ ..

ورد أبو بكر : « بلى .. » فقال عمر : « أو لسنا بالمسلمين ؟ » وأجاب أبو بكر : « بلى » وقال عمر : « أو ليسوا بالمشركين ؟ » فأجابه : « بلى » فصاح عمر : « فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ .. »

ونصحه أبو بكر أن يلزم حده ، ولكن عمر اندفع يعيد على محمد نفس الاسئلة ، فأجابه محمد فى غضب : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى » . وانصرف عمر مغضبا لا يكلم أحدا ، وهو يخوض فى صفوف رجال غاضبين ! ..

وعاد محمد يكمل املاء شروط الصلح مع قريش : ان يضعوا الحرب عن الناس سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وان من أحب أن يدخل فى عقد محمدوعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وان تطوى الصدور على ما فيها ، ولا خيانة ولا غدر ..

وحين أعلن محمد هذه الشروط ، تواثبت خزاعة فأعلنوا انضمامهم الى محمد ، وتواثب بنو بكر معلنين الانضمام الى قريش . واشترط مندوب قريش أن يرجع محمد وصحابه عامهم هذا فلا يدخلوا مكة على أهلها ، وأنه اذا كان العام القادم دخلها محمد بأصحابه فأقام بها ثلاثة أيام معهم سلاح الراكب : السيوف فى قرابها لا يدخلونها بغيرها ..

ووافق محمد ووقع عقد الصلح ، وسط همهمة ضيق من كل اصحابه ٠٠ ولهو يوقع الصلح ، اذ برجل مصفد يرسف في الحديد ، انه ابن منـــدوب قريش كان يريد الهرب الى محمد فادركه رجال قريش وصفدوه فى الاغلال ٠٠ فقام منـــدوب قريش يلطم ابنه على وجهه ٠ وطالب محمدا أن يعيد اليه ابنه بمقتضى الصـلح الذى لم يجف مداده بعد ! ٠٠

والابن يصرخ : « يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟! ٠ ولكن محمدا كان قد وقع الصلح وانتهى الامر ٠٠ وأمر بأن يرد الرجل الى قريش كما تقضى شروط الصلح ، واعيد الرجل وصـــــــيحات الاحتجاج ترتفع من كل المسلمين

لقد حلموا طويلا فى الليالى الحالكة الماضية أن يأتى يوم يزورون فيه وطنهم ويطوفون بالبيت كما يفعل كل الناس ٠٠ حتى اذا جاء هذا اليوم المرتقب ، ولاحت لهم مكة ، صدتهم قريش ٠٠ وبدلا من أن يثبتوا ويحاربوا من أجل حقهم فى زيارة مكة اذا بهم يذعنون ، ويستسلمون لقريش !! ٠٠ لماذا يصنع بهم محمد مثل هذا ؟ ٠٠ وقال أحدهم لمحمد فى غضب : « أما وعدتنا أن نزور مكة »؟٠٠ فأجابه فى حلم : « نزورها فى العام القادم » ٠ واخـــذ يقنعهم بمزايا الصلح ، وهو يعانى فى أعماقه ٠٠

سيكسبون من الصلح الجديد أضعاف ما كسبوا بحد السيف ٠٠ ! ان هذا الصلح الجديد لا يحمل تنازلا عن شىء ، فالذين يريدون أن ينضـــموا اليـــه من قريش يستطيعون أن يصبروا فى مكانهم وأن يحملوا العقيـــدة للآخرين ٠٠ آمنين بعد من ذلك الاذى الذى تعرض له المسلمون الاوائل ٠٠

أما الذين يريدون أن ينضموا الى قريش من المسلمين، فلا خير فيهم أبدا ولا فى اسلامهم ، فليعلنوا الردة منذ اليوم ! ..

وليذكروا أن يهود المدينة المطرودين يتجمعون الآن فى وادى خيبر ليزحفوا على المدينة فى يوم قريب مستعلين بانضمامهم الى يهود خيبر .. فلو أنه لم يعزل عنهم تأييد قريش لشكلوا خطرا جديا على المدينة وسكانهاوعلى العقيدة نفسها ..

فليستعدوا هم الآن ليواجهوا حرب اليهود ، وليواجهوا من يفكر فى ضربتهم من قبائل العرب الاخرى ، واثقين من النصر بعد أن حرم معسكر الاعداء من قوات مكة !..
واقتنع المسلمون . كل هذا صحيح ! .. ولكن لماذا يعودون بلا حج ؟ ! .. لماذا لا يدخلون مكة فى عامهم هذا وهم على أبوابها ؟ .. اينتظرون عاما آخر ؟ ..

وناداهم أن يخلعوا ملابس الاحرام .. وأن يعودوا الى حياتهم العادية ، وأن يتهيأوا للرجوع الى المدينة .. ولكنهم تلكأوا جميعا .. ما زال فى الاعماق من كل نفس ، أمل أخير أن يقتنع هو بالسير الى مكة على الفور ، على الرغم من كل شىء !!

وناداهم أن يتحللوا من مناسك الحج ، ولكنه لم يلق استجابة من أحد ؟ ! .. لماذا يحدث هذا ! ؟ .. انهم خالفوه فى أحد ، فانهزم المسلمون وأوشك هو نفسه أن يقتل . لماذا يواجهونه بهذا التمرد مجتمعين ؟ ! لقد خالفه على .. حتى على !! ورفض أن يكتب ما أملاه ! . وخالفه عمر .. حتى عمر .. وأغلظ له ..

ودخل الى خيمته مهموما معذب القلب ، فى عينيــــه دموع .. واستقبلته زوجته الحكيمة الحسناء أم سلمة. ان لها لنفس الابتسامة الحانية التى شجعته بها خديجة فى الايام السود الماضية ، ولها نفس النبرة المطمئنة ! .. وافضى اليها بيأسه وهو يهمهم : « هلك الناس ! » ..

وسألته أم سلمة ألا يهن ولا يحزن فكم احتمل قبلها من صـــــدمات ! .. فليخرج الآن الى الناس ، وليتحلل أمامهم من الاحرام .. لان تأثير العمل أقوى من أثر الكلام، ولن يناقشه أحد بعد أن يروه ينفذ بنفسه ما طالبهم به .. وخرج محمد الى الناس فنحر هديه ثم جلس فحلق رأسه ..

فلما رأى الناس أنه قد نحر وحلق ، تواثبوا ينحرون ويحلقون .. ويعتذرون عمـــا كان .. ! وعاد معهم الى المدينة ، ولكنه لم يكد يمضى فى المدينة أياما حتى جاءه رسول من حكومة قريش يستحلفه أن يقبل فى مدينته من يسلم من أهل مكة لانهم يثيرون المتاعب ويحرضــــون الآخرين ، ويعتصمون خارج مكة يهددون طرق التجار..

واستقبل محمد نحو سبعين مهاجرا جديدا من قريش دخلوا كلهم فى الاسلام يوم أعلن الصلح .. وتصـايح المسلمون فى طرب : انه لنصر على قريش لم نكسبه فى كل معاركنا من قبل ما كان أحكمه حين عقد هذا الصلح

هذا حق .. فاسمعوا اذن لما يتلوه عليكم : « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حـــكيما ، وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم» ..

تعالوا الى كلمة سواء

انه ليقبل الان على أيام حاسمة يتقرر فيها مصير كل شيء .. ولكنه متعب القلب من كل شيء ! .. لم يكد صلح الحديبية يؤتى ثمراته : لينعم هو والمسلمون بفترة من الامن ، ولم يكد المسلمون يقتنعون بما فى هذا الصلح من مزايا ، حتى وضعته الحـــوادث فى امتحان عسير .. فقد هاجرت امرأة من قريش ، فخرج أخواها حتى قدما عليه يسألانه أن يردها عليهما بالعهد الذى بينه وبين قريش فى الحديبية ..

ونساء أخريات هاجرن من مكة .. وخـــرج وراءهن الازواج يطالبونه أن يرد عليهم نساءهم تنفيذا لشروط صلح الحديبية .. بم تستفيد قريش من هــذا الصلح اذن ان كان سيسمح للمدينة أن تفتح ذراعيهـــا للنساء القرشيات المهاجرات .. ؟ ولكن أيتخلى المسلمون عمن يفزع اليهم من النساء .. ؟

واضطربت قلوب المسلمين .. أيقهرون امرأة منهم على ان تعاشر رجلا من عدوهم لا ترضـــاه .. وارتفعت على نبضات القلوب المغضبة صيحات العار ، ولكنهم ان نقضوا الصلح مع قريش ، اعلنتهم بالحرب متعاونة مع يهود خيبر ..

وشعر هو بحرج عظيم .. من الحق أنه عاهد قريشـــا

أن يرد من يخرج عليها مهاجرا اليه .. ولكنهم حينما اتفقوا على هذه الشروط لم يفكروا فى النســـاء وعاد اصحابه يتساءلون .. ماذايصنعون بالنساء المهاجرات ؟

ولكن النساء شيء آخر . . هـــذا حق ! اى هوان يفرض على الناس باسم هذا الصلح ؟ .. أنكى تقول العرب ان محمدا واصحابه عجزوا عن حماية اعراض نساء لذن بهم، فسلموهن الى العدو ، يغتصبونهن عنوة ؟ . وخـــرج محمد الى الناس يتلو عليهم « يا أيهـــا الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بايمانهن، فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الـكفار ، لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن .. »

قضى الامـــر اذن .. وعاد رجـــال قريش الى مكة ، يضيقون على النساء حتى لا يهاجرن .. ولم يجـدوا فى امتنـــاع محمد عن رد النســـاء مايخالف شروط صلح الحديبية لان الصلح لم يتعرض لهجرة النساء !

فليستمر احتـــرامهم للصلح ، فهـــذا اجـدى على تجارتها ، وليتمتعوا هم أيضا بفترة من الامن تزدهر فيها الثروات . واستراح قلب محمد بعد ان خـــرج صلح الحديبية سليما من التجربة ، وخرج المسلمون مرفوعى الجبين من المحنـــة .. ولكنه كان يفكر فى خيبر .. فهناك فى هذا الوادى الظليل تعيش أسطورة غريبة .. ان بنى اسرائيل حين اخرجوا من مصر وعبر بهم موسى البحر ، وضاعوا فى التيه اياما طـويلة ، لم يجتمع لهم شمل الا فى خيبر .. فلتكن خيبر بحقولها الخصبة اذن قاعدة لليهود الى آخر الزمان ! ..

وتحت تأثير هذه الاســـطورة عاش فى خيبر يهود

استقروا جيلا بعد جيلا . وأصبحت خيبر ملاذا لكل يهودى لا يطمئن به مكانه .. وهكذا لجأ اليها فلول يهود بنى قينقاع وبنى النضير ، وانضموا الى سكانها الاصليين وأخذوا يعملون على تكوين دولة ضخمة تبسط نفوذها على الجزيرة العربية كلها ..

كانت أحلام السيطرة هى التى تحركهم ، ثم الرغبة التى لا تهدأ فى أن ينتقموا من محمد .. وانهم الآن ليستعدون لقطع الطريق على تجارة المدينة التى بدأت تزدهر ، وانهم ليحشدون قواهم ـ بكل ما يملكون من رغبة فى الانتقام ـ ليزحفوا فى يوم قريب على المدينة نفسها .. فلئن كانت قريش قد صالحت محمدا ، فليبحثوا لهم فى طول الجزيرة وعرضها عن حلفاء آخرين ..

انه لخطر رهيب جديد يهدد المسلمين ويعذب قلب محمد .. أينتظر حتى يحركوا حشودهم وحشود حلفائهم أم يبادرهم بالحرب ؟ ! .. ولكن كيف يفضى اليهم وهم فى خيبر خلف المعاقل ، والمرتفعات والقلاع ؟! لكم هو محير أمر هؤلاء اليهود فى خيبر ..

وفى المدينة ، غير بعيد من بيوته . ما زال رجال يستلقون فى المسجد بلا عمل .. استراحوا بعد الصلح ، واطمأنوا الى الحياة ، واكتفوا بما يمنحون من اموال الصدقات ! .. ويشيع فى الناس احترام جديد لهؤلاء المتعبدين الذين ينقطعون للعبادة فى المسجد ، ويرى هو احدهم ضعيفا هزيلا لطول ما يقوم الليل ويصوم النهار ، ويرى اعجاب الناس به فيسأل : « ومن يطعمه ؟ » فيقول قائل : « أخوه » فيقول لهم : « اخوه اعبد منه » ..

ومضى يطالب الناس بأن يعملوا ، فما اكل احد طعاما

قط خيرا من أن يأكل من عمـل يده ، ان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده ..

ويعمل الناس ، ففى المدينة عمل لكل رجل .. ولكن الاغنياء يطمعون فى الفقراء ، ويستولون على المـراعى والابار التى تركها اليهود ويردون عنها من لا يملـكون فيقول : « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار » ..

ويهود خيبر يستعدون للانقضاض ، ويؤلبون القبائل المجاورة الى غزوة أحزاب جديدة .. لقد نجحوا بالفعل فى اجتذاب بعض رجال قبيلة غطفان التى لم تنس بعد انهزامها أمام المدينة فى غزوة الاحزاب .. ويقرر محمد أن يبادر بالعمل الحاسم قبل ان يفلح يهود خيبـر فى تحزيب الاحزاب عليه .. فليهاجم يهود خيبر فى خيبـر مهما يكن الثمن ، فهذا خير من الانتظار ! ..

كان يعلم أن اليهود قد اقاموا مدينتهم خلف سلسلة من القلاع الحصينة ، ولكنه رسم خطة لمهاجمة الحصون اليهودية السبعة .. وحشد من الفرسان أكبر عـدد استطاع ان يحشده .. وانهم اليوم مائتان ! وجمـع نحو ألفين من المقاتلين ، وقادهم جميعا الى خيبر

واصبح الفلاحون اليهود فى خيبر ذات يوم فـراوا محمدا يتقدم الى حقولهم . وعادوا الى خيبـر مذعورين وهم يتصايحون : محمد والخميس . وقسـم جيشه قسمين : قسما فيه الفرسان ، وفى هذا القسم حشـد معظم الجيش .. وقسما آخر يحرس الطريق بين خيبر وغطفان ، حتى لا يفاجأ المسلمون بجيش غطفان من خلفهم ..

وتحصن اليهود فى قلاعهم ، فأمـر محمد بأن تحاصر القلاع وان يقطع النخيل المحيط بها ، وان يعسكر جيشه

فى الحقول . . فليأكلوا منها وليطعموا الخيـــل والابل ليحرموا أهل خيبر كل مافى هذه الحقول . وليذكر كل رجل فى جيشه ان الناس شركاء فى الماء والكلأ . واضطر اليهود أن يخرجوا من حصونهم ليحاربوا فى الســـهل المكشوف دفاعا عن حقوقهم التى استولى المسلمون على ثمراتها ، ودفاعا عن الآبار والمراعى ..

وهكذا حرمهم محمد ميزة التحصن وراء القلاع المنيعة ، وأصبح عليهم لكيلا يهلكوا من العطش والجوع أن يخرجوا من قلاعهم ليجلوا جيوش المسلمين عن الحقول التى تمدهم بالاقوات يوما بعـــد يوم .. وعن الابار التى يســـتقون منها .. ودار القتال ، يخرج اليهود كل نهار ليحـــاربوا المسلمين فى الســـهل ، حتى اذا جاء الليـــل لجأوا الى الحصون ..

وقال محمد لرجاله وهو يرى نجاح خطته فى حـــرمان اليهود من مزايا التحصن وراء القلاع .. « خربت خيبر .. انا اذا نزلنا بساحة قوم فســاء صباح المنذرين » . وفطن اليهود للخطة فاجتمعوا كلهم وراء حصن واحد ، يوجهون سهامهم ونبالهم الى عسكر المسلمين ، لعلهم أن يقهروهم من وراء هذا الحصن . ورأى محمد أن يحشد كل قواه الضاربة لفتح هذا الحصن ، فاجتماع اليهـــود فيه يجعلهم أقدر على الفتك بالمسلمين ..

وجمع محمد جيشه ، وأمرهم أن يقتحموا الحصـــن وسلم أبا بكر راية الجيش .. ولكن أبا بكر لم يســـتطع أن يقتحم الحصن . وفى اليوم التالى جعل القيـــادة لعمر ابن الخطاب . وحارب عمر يومه كله ، ولكنه لم يستطع أن يقتحم الحصن ، وان كانت أبواب الحصن قـــد بدأت تلين .. غير أن اليهود ظلوا فى موقعهم المنيع يسددون

سهامهم دون أن يخرج منهم رجل واحد للقتال فى السهل المكشوف ..

فدعا محمد اليه علي بن أبى طالب وقال له : « خذ هذه الراية فتح الله عليك » . وخلع على عنه الدرع ليكون خفيف الحركة ، وطالب رجاله أن يتخففوا من الدروع التي تثقلهم ليكونوا خفافا .. وانصرف وفى ذهنه وصية محمد : « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام فان لم يطيعوا فقاتلهم ، فوالله لان يهدي الله بك رجلا خير لك من حمر النعم »

وتقدم على فدعاهم الى الاسلام ، ولكنهم سخروا به .. فطالبهم أن يحاربوا المسلمين رجلا لرجل ويبعثوا اليه شجعانهم ليبارزهم هو بنفسه : الواحد بعد الاخر . وخرج اليه الحارث أحد شجعانهم فصرعه على . وخرج اليه رجل آخر فصرعه .. واذ ذاك تعالت من المسلمين صيحات السخرية بقوة شجعان اليهود .. وسأل على شجعان خيبر أن يبعثوا اليه برجل يثبت فى المعركة . وخرج اليه زعيمهم مرحب .. وكان هو حقا سيد فرسان خيبر ..

خرج الى على بطيئا فى كبرياء واثقة ، مطمئنة ، مهيبا ضخما بيده حربة مخيفة ذات ثلاثة رءوس ، وكل جسده الفارع الشاهق فى الزرد والحديد يغطى رأسه وساقيه .. وليس فى كل بدنه ثغرة ينفذ منها سيف !.. وتقدم اليه على بقامته المعتدلة ، بلا درع ، فى يده السيف وحده . وتوقع المسلمون واليهود جميعا أنها نهاية على . ولكن عليا استطاع أن يحسن الاستفادة من تخففه من الدروع والزرد ، وترك مرحب يتقدم اليه بدروعه وزرده وحربته .. حتى اذا أوشك سن الحربة أن يمس صدر على ، تراجع على فجأة ثم قفز فى الهواء ، متفاديا حربة مرحب،

ثم اقتحم واهوى بكل قوته على راس مرحب بالسيف . وانفلق الحديد من على راس مرحب .. وسقط سيف على على الجمجمة فشقها نصفين !. وهوى مرحب وسط ذعر اليهود وعجبهم ، وصيحات النصر ترتفع من معسكر المسلمين ..

واندفع على الى باب الحصن هو ورجاله يدكونه بكل طاقاتهم حتى اقتحموه ، واليهود الذين اذهلهم موت مرحب يفرون فزعين الى حصن اخر .. غير أن المقاومة لم تدم طويلا ، فقد أعلن اليهود انهم مستعدون للاستسلام ان ضمنوا حياتهم . وتم الاتفاق على أن يخرج الرجال من خيبر ، كل بثوب واحد يغطى جسده ، على أن يتركوا السلاح والاموال والكنوز والنساء والذرارى ..

وجلا الرجال .. الى التيه حقا هذه المرة !. واستولى المسلمون على كل مافى خيبر من خيرات ..

وامرهم محمد الا يباشروا الحبالى من السبايا والا يبيعوا المغانم حتى تقسم . وقسمت الغنائم ، ودوت الصحراء بصيحات النصر .. فقد استراحوا الى الابد من تهديد اليهود ، وأعطى محمد من نصيبه فى الغنائم بعض ثياب لزوجاته

وبينما كان محمد يسير فى ميدان المعركة ، وجد فتاتين جميلتين تصرخان وتبكيان وبلال يدفعهما وسط جثث القتلى من اليهود ويريهما القتلى وماصنع المسلمون . وزجره محمد : « انزعت الرحمة من قلبك يابلال حين تمر بامراتين على قتلى رجالهما .. ! » والقى برده على احداهما .. كانت هى صفية بنت حيى بن أخطب سيد بنى قريظة استوطنت خيبر منذ قتل أبوها وقومها فى غزوة بنى قريظة . وقال لها محمد فى حزن : « أما انى لاعتذر اليك ياصفية مما صنعت بقومك ولكنهم ... »

وكانت صفية تعرف ماصنع قومها به فردت عليه ردا جميلا .. وعرض عليها الاسلام فأسلمت وتزوجها وأقاما معا فى خيمة واحدة . وعندما أصبح الصباح وجد على باب خيمته رجلا من المسلمين فى سيفه ، فسأله عما يصنع على باب خيمته فقال الرجل : « خفت عليك من هذه المرأة فقد قتلت أباها وزوجها وقومها وهى حديثة عهد بكفر فخفتها عليك .. »

فابتسم محمد وقال : « اللهم احفظه كما بات يحفظنى » .. غير أن كل يقظة صحابه لم تستطع أن تحفظه من مكيدة أخت مرحب ، بعد أن استخلصها مع صفية من يد بلال وهو يمر بهما على قتلى اليهود ، اذ دست اليه السم فى الطعام ، وكان أحد صحابه يأكل معه .. وأخذ محمد قطعة من اللحم فتعجب من طعمها ولفظها ، ولكن صاحبه أساغ الطعام وأكل اللحم المسموم ، فمات من فوره ..

وأمر محمد بالقبض على المرأة فاعترفت أنها دست السم فى اللحم .. وقتلت بالنفس التى قتلتها . وأذن فى الناس بالرحيل ، وانتصاره على يهود خيبر يدوى فى كل مكان

وفى الطريق كان كلما نزل بمكان ليستريح فيه جاءه وفد من القبائل اليهودية الصغيرة المجاورة تطلب منه الامان وتعرض عليه الطاعة والخضوع ، وتلعن أمامه يهود خيبر .. ودخل فى الاسلام منهم غير قليل . ولم يرفض اسلامهم وان كان ليشعر أنهم غير صادقين . ووصل الى المدينة بعسكره اخر الامر وقد غنموا كما لم يغنموا فى غزوة أخرى من قبل ..

لم يعد الان من يهدده . لم يعد شىء يتعبه .. انتهى من اليهود ، وله مع قريش عهد أن يستمر السلام عشر سنوات .. أما غطفان فقد تخاذلت عن نصرة يهود خيبر ولن تستطيع أن تحالف أحدا ضده بعد .. والقبائل من

هنا وهناك تدخل فى الاسلام بعد ان زايلها الخوف منذ صالح قريشا فى الحديبية ، ومنذ سقطت فى يده قاعدة اليهود فى خيبر ..

فليوجه دعوته الى الناس خارج الجزيرة وفى أطرافها النائية اذن . ليوجه دعوته الى العرب فى أطراف الجزيرة والى غير العرب بعد أن اطمأن الى مصير الدعوة بين عرب الحجاز . « يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والارض »

وارسل الى قيصر الروم وكسرى الفرس ومقوقس القبط فى مصر .. ثم ارسل الى الامراء العرب النائين .. الى صاحب نجد وصاحب البحرين وملك غسان ..

دعاهم جميعا الى الاسلام ، وحملهم مسئولية رعاياهم .. أما ملك الروم فقد اكرم رسل محمد ولكنه لم يعطهم ردا أى رد ..

وأما كسرى فقد مزق الكتاب وطرد الرسول ، وكتب الى عامله على صنعاء أن يرسل الى المدينة قوة تقبض على محمد وترسله الى العاصمة فى الاصفاد .. ولم يقو حاكم صنعاء على هذا ، وظل يراوغ حتى مات كسرى وتولى مكانه ابنه ، فأرسل كسرى الجديد الى والى صنعاء : « أمهل الرجل الذى كتب فيه أبى اليك فلا تقبض عليه حتى يأتيك امرى »

وأما مقوقس القبط فى مصر فقد أكرم الرسول ومنحه مائة دينار وخمسة أثواب .. ولكنه لم يرد على الرسالة بل بعث مع الرسول هدايا لمحمد فيها أثواب فاخرة من كتان مصر ، وذهب ، ومسك ، وند ، وقوارير ، وعسل كثير ، وبغلة شهباء وفرس بلجام فضة وحمار أشهب وجارية سوداء مليحة اسمها بريرة ، وجارية بيضاء جميلة اسمها سيرين ، وفتاة من أجمل نساء مصر أبوها

مصرى وأمها يونانية اسمها مارية ..

وتقبل محمد كل هذه الهدايا عن طيب خاطر وارسل يشكر المقوقس ، وضم الهدايا الى خزانة الدولة ووهب الجارية البيضاء شاعره حسان بن ثابت ، وعرض على مارية الزواج بعد أن اسلمت فقبلته .. وأصبحت من أحب زوجاته اليه وسعد هو بهذا الزواج ، انه قد أصبح صهرا لاقباط مصر ..

أما صاحب البحرين فقد اقتنع بالاسلام فأسلم ودعا رعاياه الى الاسلام ، وأحسن صاحب نجد الردعلى الرسالة وبعث مع الرسول ببعض الهدايا ، ولم يسلم هو ولكنه اباح لمن شاء من رعاياه أن يدخل فى الدين الجديد

ولكن ملك غسان مزق الرسالة واعلن التعبئة العامة وقال للرسول : « ابلغ صاحبك انى سائر اليه ، وانه لن ينتزع منى ملكى » . ثم ارسل يستأذن قيصر الروم فى غزو المدينة فلم يأذن له قيصر ..

وعندما اجتمعت عند محمد كل الردود ، رأى أن يعاود الكرة مرة أخرى وأن يرسل الى كل الذين رفضوه أو مزقوا رسائله أو اكتفوا من الرد عليه بارسال الهدايا .. فليرسل اليهم للمرة الاخيرة : دعوة السلام قبل أن يعلنهم بالحرب .. وأنه ليقاتل دفاعا عن المستضعفين وفى سبيل العدل ، ومن أجل حرية الانسان فى كل مكان .. « ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » ..

ولكن قبل أن يشهر هذه الحروب التحريرية فليرسل نداء الاسلام لاخر مرة : تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ..!

قبل انقضاض المعركة

رسخت اقدامهم فى أرض الجزيرة كما لم ترسخ من قبل ابدا بعد أن عادوا من خيبر فاتحين محملين بالاســـلاب والغنائم ، ووراءهم الاسرى الاشداء والسبايا الجميلات ، وأصبحوا ذات يوم فاذا برجال ونساء وأطفـــال يقرعون عليهم ابواب : الشياب غريبة ، واللسان عربى مبين .. !

انهم لبعض السابقين من اتباع محمد هاجـــروا الى الحبشة فرارا من اذى قريش ، يوم أن ضاقت بهم الارض بما رحبت ، وأوصدت كل المدن أبوابها فى وجوههم ، فلم يجدوا غير البحر مركبا ، وغير نجاشي الحبشة حاميا ، لايضام عنده أحد .. هناك فى تلك البلاد البعيدة أقاموا ، وسعوا الى الرزق ، ونشروا الدعوة التى هاجروا بهـــا ، وولد لهم جيل من البنات والبنين لم ير أرض الجزيرة ، وان كان ليعرف أنه عربى !.. وهنـــاك تحت ثرى تلك البلاد البعيدة ، أودعوا فلذات أكباد ، وذكريات عزيزة ، وأحباء كثيرين ..

فلما أتيح لهم ان يعلموا ان محمدا واخوانهم المسلمين ، قد حالفوا قريشا على أن يضعوا الحرب فيما بينهم ، شدوا رحالهم واستأذنوا النجاشي ، فحملهم بالهـــدايا من ماله الخاص ، وبعثهم فى سفينتين كبيرتين ..

أقبل على رأسهم جعفر بن أبى طـــالب ، فتى فارعا جسورا يحمل جسارة عمه حمزة وشجاعة أخيه على ،

وقد أتيح له أن يتعلم من الحبشة كثيرا من فنون الحرب التى لاتعرفها العرب .. وبأحد هذه الفنون صرع حمزة مفخرة بنى هاشم !

ولكن الوقت لم يحن بعد لقتال جديد ، ومامن شيء يشغل محمدا قدر تدبير المعاش للذين عادوا من الحبشة، وكان بعضهم قد ألف الحياة هناك على عطايا النجاشى ..

وطالبهم محمد أن يعملوا ليأكلوا .. ولكن بعضهم مضى يسأل الناس ، ومنهم من زعم أنهم أحق بالصدقات لانهم مساكين لايجدون الطعام .. وقال لهم محمد : «ليس المسكين هو من ترده الاكلة أو الاكلتان ولكن المسكين الذى ليس به غنى ويستحى ، أو لا يسأل الناس الحافا »

فليكفوا عن السؤال .. وليكف معهم هؤلاء العشرات الذين جاءوا من هذه القبائل أو تلك ، وأقاموا بالمسجد ، يتعبدون النهار والليل بلا عمل ، معتمدين على أموال الصدقات . لايمكن أن تجرى الامور فى المدينة على هذا النحو .. يجب الا يعيش أحد على حساب الغير .. انه لايريد من أحد أن ينقطع للعبادة ويقعد عن طلب الرزق ثم يسأل الاخرين طعاما ..

ليس هذا هو ماجاء به !.. انما جاءهم بما يرفع الرأس .. انما جاءهم بالكبرياء ، بأنه لا فضل لانسان على اخر الا بعمله . وشعر بعض الذين كونوا من التجارة ثروات أن أمور المدينة لن تستقيم . وبدأ الذين كسبوا من أموال الغنائم يكنزون أموالهم ويخافون أن تضيع فى الصدقات فخرج محمد اليهم يطالبهم بأن يدفعوا ..

انه ليطالب كل انسان بأن يعمل ليكسب عيشه ،ولكن على الاغنياء الا يكنزوا وعلى الذين اخذوا أن يعطوا . وظل يقول لهم : ما آمن بى من بات شبعان وجاره طاو » ..«أى رجل مات ضياعا بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله

ورسوله » . « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لاظهر له من كان له فضل مال فليعد به على من لامال له ، فلا حق لاحد منهم فى فضل » . « من أصبح لايهتم بأمر المسلمين فليس منهم » وهزت كلماته كثيرا من الاغنياء .. وعرض أحدهم أن يتنازل عن كل ماله للصدقات ، فقال له : امسك عليك مالك فهو خير لك .. خير الصدقة ماكان عن ظهر غنى

ومضى هو الى المسجد فوجد فيه هؤلاء الذين انقطعوا الى العبادة ، وتعودوا السؤال .. فطالبهم أن يعملوا وأن يكسبوا عيشهم ، وأن يكون لهم مال يدفعون هم منه أنفسهم الصدقات لابناء السبيل وللذين لايستطيعون أن يعملوا ويجدون حرجا فى أن يسألوا غيرهم شيئا !..وحرم عليهم أن ينقطعوا الى العبادة ويتركوا السعى فى طلب الرزق ، فما جاءهم بهذا ! ليهتم كل منهم بأن يعمل ويكسب .. ليهتم كل منهم بأن يؤدى حقوقه .. كل حقوقه الى زوجته ، والى أولاده ، ولتهتم النساء ايضا بأن يعملن فى طاعة الازواج ، فما جاء بعبادات تحرج الرجل من النظر الى امرأته أو تدفع الزوجة الى الضيق بزوجها !

لتتخذ الزوجات زينتهن أمام الازواج ، وليكن الانسان قوة منتجة صالحة ، يؤدى ماعليه من عمل ، ويستمتع من طيبات الحياة الدنيا بلا تأثم ، فى حدود ماجاءهم به فلا رهبانية ولاتنطع فى الاسلام ! . « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ »

فليتمتعوا بالطيبات من الرزق ، وليكفوا عن الانقطاع للعبادة ، وليعمل كل منهم مادام يستطيع أن يعمل فينتفع بعمله وينفع الاخرين ، فخيرهم هو أنفعهم للناس .. ولينتشروا فى الارض سعيا من الرزق بدلا من الانقطاع

للعبادة وسؤال الناس الحافا ! ان السؤال مذلة ..
وماجاءهم الا بالذى يحرر النفس ويملأ القلب بالعزة .
اعملوا اذن .. فان اشرف الكسب كسب الرجل من يده ،
ولان يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو الى الجبل فيحتطب فيبيع
فيأكل خير له من أن يسأل الناس !..

وذو الحجة يقترب من جديد .. لقد مضى نحو عام على
صلح الحديبية ..

هذا هو موسم الحج اذن .. وحشد محمد كل الذين
صدوا عن مكة فى العام الماضى ، وأمر كل زوجاته
بالاستعداد للرحيل معه .. وجهز الخيل المدربة على
القتال !! لئن كانت معاهدة الحديبية تسمح لهم أن يزوروا
مكة من عامهم هذا — فى امان — فمن الخير مع ذلك أن
يحتاطوا . وخرج محمد مع رجاله فى ملابس الاحرام ،
ومعهم السلاح . وعندما اقتربوا من مكة قال من معه :
« لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح ، ولكن يكون قريبا منا ،
فان رأينا منهم الغدر كان السلاح قريبا » . وامرهم أن
يلقوا السلاح قريبا من مكة ، وترك على حراسته مائتى
رجل على خيلهم ..

ولكن اهل مكة كانوا قد قرروا أن يذعنوا لشروط صلح
الحديبية ، فتركوا محمدا ومن معه يدخلون فى سلام ..
دخل محمد مكة للمرة الاولى بعد سبعة أعوام .. كان على
ظهر ناقته ، ومن ورائه ومن حوله المهاجرون والانصار ..
القلوب تضطرم بانفعالات كثيرة ، فأخذوا يطوفون
بالكعبة ، وقد وقف على جانبيها عدد كبير من سادة مكة
ينظرون ، وهم يتهامسون : ان الضعف يعصف بالمسلمين
.. وقال محمد لصحبه : « رحم الله امرأ أراهم اليوم
من نفسه قوة » وخرج يهرول فى نشاط وهم يهرولون
وراءه ..

وعندما انتهى محمد وصحبه من الطواف امر مائتين من رجاله أن يذهبوا الى خارج مكة فيرسلوا اخوانهم الذين يحرسون السلاح ليقضوا مناسكهم هم أيضا ..

وعلى الرغم من أن حكومة مكة قررت أن تقاطع المسلمين فلا بيع معهم ولا شراء ، وعلى الرغم من أن بعض سادة مكة لم يطيقوا البقاء بها فخرجوا الى الجبال حتى يقضى المسلمون مناسكهم ويرحلوا عن مكة .. وعلى الرغم من أن خالد بن الوليد قائد فرسان قريش حذر أهل مكة أن يكلموا أحدا من المسلمين وخرج منها مع من خرج من سادة مكة .. على الرغم من هذا كله ، فقد انعطفت القلوب الى القلوب ، فلم يكد بعض أهل قريش يلقون اهلهم المهاجرين حتى سقطت الاحقاد تحت الاقدام دفعة واحدة ، واقبلوا عليهم يعانقونهم ويحدثونهم ويكرمونهم ويسألونهم عما صنع بهم الزمان ..

ولقد أحسن المهاجرون الاستفادة من الوقت ، فدعوا كثيرا من أهلهم وصحبهم الى الدين الجديد ، وكسبوا عددا منهم اقبلوا على محمد يعلنون أنهم يسلمون . كان من بينهم الوليد بن الوليد شقيق خالد بن الوليد .. أقبل على محمد مسلما فأحسن استقباله ودعا له وسأله : « أين خالد ؟ » فقال « يأتى الله به » فقال محمد : «ما مثله يجهل الاسلام ولو جاءنا كان خيرا له ولقدمناه على غيره » ..

وصمم الوليد الا يترك أخاه حتى يقنعه بالدخول فى الاسلام . وروعت حكومة قريش مما تراه .. هاهم الرجال والنساء من أسر المهاجرين وأصدقائهم يدخلون فى الاسلام أفواجا ! وأقبل مندوب حكومة قريش على محمد يسأله أن يرحل ، فقد اقام المسلمون فى مكة ثلاثة أيام وانقضت مناسك الحج ، والعهد فى صلح الحديبية لا يسمح للمسلمين

بأن يبقوا بعد : وأمر محمد رجاله أن يشدوا الرحال
وعاد الى المدينة سعيدا بكل ماحدث . لقد حقق للمسلمين امنية عزيزة وقد تفتحت لهم هناك فى مكة قلوب كثيرة على الرغم من تحذيرات حكومة قريش ..

ان دخوله مكة ـ وحده ـ لكسب كبير يدوى صداه الان بين القبائل جميعا .. لقد اتاح لهم هذا الحج أن يحادثوا كثيرين من أهل مكة ومن أهل القبائل الاخرى وأن يدعوهم الى الاسلام .. وحتى الذين لم يستجيبوا بعد ، لم يرفضوا الاسلام بمثل الفلظة القديمة فقد بهرتهم الانتصارات المتوالية عبر سبعة أعوام حين خرج محمد من مكة غريبا طريدا مستخفيا ، الى مصير مجهول ليعود بعد ذلك حاجا ضارعا لايخفى ورعه جلال انتصاراته ولا قوته ..

وفى المدينة عاد محمد يكتب الى الملوك والامراء فى خارج الجزيرة العربية أن تعالوا الى كلمة سواء .. وارسل الى أمير بصرى فى سوريا يدعوه الى الاسلام .. انه ليعرف بصرى منذ كان شابا يخرج مع عمه ابى طالب فى رحلات الشتاء والصيف .. وهو يعرف أهلها ويذكر عذاب الناس هناك تحت مظالم الامبراطورية الرومانية ، ويذكر بصفة خاصة بحثهم الدائب عن العدل وعن حل انسانى للفوضى الرهيبة التى يعيشون فيها ..

وانتظر محمد أن يعود الرسول .. ليت أمير بصرى ـ ان لم يقبل هو الاسلام ـ يترك الناس أحرارا يختارون مايشاءون . وانتظر محمد عودة رسوله الى أمير بصرى . وذات صباح وهو ينتظر عودة رسوله ، أقبل عليه الوليد بن الوليد يخبره أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص أقبلا على المدينة يريدان مقابلته ليعلنا اسلامهما

اخيرا يقبل خالد بن الوليد الذى دوخ جيوش المسلمين

واستقبلهما محمد فرحا . هو ذا سيد فرسان قريش ينضم اليه آخر الامر .. سيعتز به الاســـلام كما اعتز بحمزة وعمر من قبــل . وقال محمد وخالد يعلن أمامه دخوله فى الاسلام : « الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقــلا رجوت الا يسلمك الا الى خــير » فقال خالد : « يارسول الله ادع الله أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت اشهدها عليك » . فقال محمد : « الاسلام يجب ما كان قبله »

وخصص محمد دارا لخالد ودارا لعمرو بن العــاص

ثم جاءته الانباء من بصرى ان رسوله اليها قد قتل !.. ولكن الرسل لايقتلون !

ايسكت على هذه الاهانة فتسقط هيبة الدين الجديد بعد ان دعمها بشقاء الايام والليالى؟ مهما تكن سطوة الامبراطور الرومانى ، ومهما يكن من قوة جيوش الرومان فلن يسكت ! .. وقرر أن يرسل جيشا الى المدينة الرومانية التى قتلت رسوله .. ليؤدب قاتليه . لقد عاد جعفر من الحبشة بعد أن درس فنون الحرب فيها ، وانضم اليــه خالد ! .. هذا هو يومهما ..

وحشد ثلاثة آلاف مقاتل امرهم أن يسيروا الى سوريا وجعل القيادة لزيد بن حارثة .. ووضع فى هذا الجيش ابن عمه جعفر بن أبى طالب ، وقائد الفرسان الشجــاع خالد بن الوليــد ، والشاعر عبــد الله بن رواحة ليلهب حماسة المقاتلين . وحشدت الامبراطورية الرومانيــة مائتى ألف مقاتل ! . وتشاور قادة الجيش الاسلامى فى الامر حين وجدوا انفسهم أمام كل هذا الحشـــد .. كيف يواجهون مائتى ألف فى عدتهم وخيلهــم وهم ثلاثة آلاف وراى احدهم الا يدخلوا المعركة وان يرسلوا الى المدينــة يستشيرون قائدهم هناك ويطلبون الامــدادات . ولــكن

عبد الله بن رواحة الشاعر وقف بين النـــاس يؤدى دور الكلمة فى المعركة .. وأنشأ القصائد يثير بها حماسهم ..

وزحفت الجيوش الرومانية .. والتقى الجمعان عنـد قرية مؤته بالقرب من القدس . واقتحم زيد بن حارثة المعركة والراية فى يده ولكن الرماح الرومانية تلقفته فخر صريعا عند أول اشتباك ، وهوت راية الجيش الاسلامى من يده وحمل جعفر بن أبى طالب الراية ، واقتحم عن فرسه فعقره وتقدم على قدميه يخوض بسيفه صفوف جنـود الرومان .. وقطعت ذراعه التى تحمـــل الراية فامسكها بذراعه الاخرى فقطعت فضم الراية الى صدره وهو يزحف ، ولكن السيوف تكاثرت عليه حتى مات ..

وتقدم الشاعر عبد الله بن رواحه بالراية فقاتل حتى قتل وهو ينشد شعره .. واضطربت القوات الاسلامية وانسحبت سريعا قبل أن تسحقها الجيوش الرومانيـة الهائلة . وقرر قادة الجيش أن يسلموا الراية الى خالد ابن الوليد .. ورأى خالد ان يلجأ الى الحيـــلة لينجو بجيشه .. ولم يحارب خالد بن الوليد فى يومه ذاك

وفى الصباح .. غير مقدمة الجيش ، ووضع المؤخـرة بدلا منها ، وجعل الجناح الايمن مكان الجناح الايسر .. واقتحم المعركة ثم تقهقر ، ليستدرج جنود الرومان الى الصحراء ..

وخيل للجيوش الرومانيـــة ان المسلمين تلقوا امدادات جديدة .. وانهم يريدون أن يوقعوا بهم فى الصحـــراء ، حيث يمكن أن تكون السيطرة للعرب ، فلا علم للرومان بدروبها . ورأى الجيش الرومانى أن يتجنب الدخـول فى حرب الصحراء حتى لايقع فى الفخ ، واستطاع خالدبن الوليد أن ينجو بالجيش كاملا بعد أن تعرضـــوا للابادة

الشاملة لبعض الوقت .. وعاد بهم الى المدينة

وكانت قد سبقتهم الانباء الى المدينة فاستقبلهم الناس منكرين ، وأخذوا يحثون عليهم التراب ، قائلين :«يافرار!» . أما محمد فقد استقبلهم قائلا : « بل هم الكرار ان شاءالله»

واشتد أهل المدينة فى اللوم على رجال الجيش .. ولم يطق محمد صبرا على هذا الحال فأعلنهم أن جيشه لم ينهزم ، وما كان لقائده أن يرمى به فى المذبحة ..

ما جدوى ان يموت ثلاثة آلاف مقــاتل وينتهى الامر وتتسامع العرب أن الروم سحقت عسكر المسلمين ؟ ! ان جيش الروم هو الذى عجز عن الاشتبـــاك معهم حتى استدرجه خالد الى الصحراء .. لقد صنع كل رجل فى الجيش مايستطيع ، وعلى أهل المدينة أن يشكروا الجيش وأن يحمدوا لقائده خالد بن الوليد انه استطاع أن يدافع الروم حتى انصرف بالجيش سليما ..

وكف أهل المدينة عن الزراية بالجيش .. ولكن نبأ انسحاب الجيش امام قوات الروم ، كان قد بلغ مــكة . وعلى الرغم من صلح الحديبية ، فقد وجدت حكومة قريش فى انسحاب جيش محمد ، فرصة سانحة للوثوب عليه ..

ولم تفكر قريش فى أن تجهر بالعداء ، ولكنها رأت أن تفتك بالقبائل الضعيفــة التى انحــازت لمحمد عسى أن ترهبها وان ترد عنه حلفاءه الاخرين ! . فأغرت حلفاءها بالوثوب على حلفاء محمد ، وأمدتهم بالســـلاح ، وببعض فرسانها .. وهكذا وثب بنو بكر حلفاء قريش على خيام خزاعة حلفاء محمد ، فنهبوها وقتلوا منهم عشرين مسلما

وأرسل الخزعيون الىمحمد يستصرخونه ويستنصرونه على قريش التى أيدت بنى بكر . وسمع محمد أنباء عبث قريش بصلح الحديبية فلم يقل شيئا ولكنه أضمر امرا ! ..

الفتح المبين

اجتمع رجال قريش وتجارها الكبار يتشاورون بعد أن عرفوا أن خزاعة استنجدت بمحمد .. ما العمل بعد ؟ ! كل شيء باطل ، وسينتصر محمد آخر الأمر بلا مراء ! . لكأنه لايقهر ! .. ولو أنه كان من الممكن أن يقهر، لسحقته قريش عندما ظهر ، ولردعته ثقيف عندما طارده أهلها بالحجارة الى خارج أسوارها ، أو بالقليل لاستطاعت الاحزاب المؤتلفة أن تقتحم عليه مدينته !!

لئن كان قد هزم أمام جيوش الروم ، لقد هزم من قبل فى احد .. ومع ذلك فأين هو من تلك الايام ؟ .. ان خمس عشرة قبيلة لتتبعه الان من بينها قبيلة بنى سليم وبنى المصطلق .. وكل القبائل التى ذاعت شهرتها الحربية فى الجزيرة . ومن الخير اذن ان ترعى قريش صلح الحديبية ، فقد كفل لها هذا الصلح طوال العامين الماضيين حياة أكثر استقرارا .. فسارت قوافلها مطمئنة فى رحلات الشتاء والصيف ، وأمنت على تجارتها ..

ولكنها تضيق اليوم بهذه التجارة فالقبائل التى تنضم الى محمد ترفض أن تتعامل مع قريش . وعكاظ وغيره من الاسواق التى كانت تزدهر فى المواسم ، وتكتظ بالحرير والكتان والتمر والفراء والتحف الذهبية وقطع السلاح .. والتى كانت تدوى بالقصائد الجديدة وأغانى المنشدات الفاتنات .. كل هذه الاشياء التى كانت تمنح المواسم

بهجتها خاصة .. لم تعد بعد .. فالذين دخلوا فى الاسلام قد قاطعوا أسواق مكة .. وانهم ليتبادلون التجارة فيما بينهم ، وينقلون الازدهار الاقتصادى الى المدينة ويرسلون قوافلهم الخاصة التى تنافس قوافل قريش الآن الى الشام واليمن والحبشة والاسواق الاخرى التى كان يحتكرها تجار مكة وحدهم ! ..

الناس ، كل الناس ، فى مكة يعرفون هذا .. وآثاره تنعكس على تجارتهم وعلى مكانتهم الاقتصادية وعلى نفوسهم أيضا .. اما كبار التجار الذين يحكمون فيدركون انهم يفقدون الارض التى وقفوا عليها طويلا ، وانه لاسبيل على الاطلاق الى مقاومة الدولة المتزايدة الاتساع التى انشأها طريدهم القديم : محمد بن عبد الله !!

واما بقية الناس فى مكة فقد أدركوا منذ زمن بعيد أن سلطان السادة فى قريش يزداد عنفا على رقابهم كلما أفقدهم المنافسون الجدد أحد الاسواق .. وانهم ليعانون الان من صلف السادة فى مكة ومن سطوة القوانين ومن جشع المرابين ومن الحاجة التى تنهشهم .. لكم كلفتهم الحرب ضد محمد ، ولكم تكلفهم هزائم كبار التجار أمام محمد .. وانصراف العرب عن أصنام الكعبة الى الاله الواحد الاحد الذى يدعو محمد الى عبادته هو وحده !

وفى كل يوم ينزل رجل منهم لدائنه عن الحرية بكل انسانيته ليصبح عبدا يمتلكه هذا الدائن . وفى كل يوم يسلم رجل منهم امرأته أو ابنته الى أحد بيوت البغاء المنتشرة فى مكة ، ليدفع دينا يطارده به أحد المرابين ! وفى كل يوم يتمزق القلب المعذب .. بينما العبيد ينضمون الى محمد ، فيصبحون أحرارا ويتساوون مع السادة فى كل شىء .. فهناك حيث يقوم مجتمع جديد لاربا فيه بعد ،

ولا سلطان للدائن على حرية المدين ولا على امرأته أو بناته .. هناك يستطيع عبد حبشي أن يقود رجالا من أعرق الاسر ، وهناك يحكم زاهد فقير من بنى غفار مدينة محمد اذا غاب عنها محمد .. وهناك يستطيع الرجل أو المرأة ان يكون مايريد .. هناك يصبح الانسان هو مايعمله .. عمله هو الذى يشكله ، وهو الذى يحدد له مكانه .. العمل وحده ، لا الغنى ، ولا صداقة محمد ، ولا القرابة ولا شيء غير ماقدمت يداه .. لكم يبدو هذا كله عادلا ورائعا ..

وهناك يحض محمد أتباعه على أن يحرروا العبيد فهم ينقلون عنه انه رأى أحد اصحابه يضرب عبده فغضب وقال له : « الله أقدر عليك منك عليه » فقال له صاحبه معتذرا: « هو حر لوجه الله » فقال له محمد : « أما انك لو لم تفعل للفحتك النار ! » وهو ما برح يحضهم على تحرير العبيد ويقول لهم : « أيما رجل اعتق امرأ مسلما استنقذ الله بكل عضو منه عضوا منه من النار » وهناك يطالبهم أن ينفروا لانقاذ المستضعفين فى كل مكان وينذرهم ان تخلفوا ، ويتلو عليهم : « الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم »

لو أن محمدا قاد جيشه الى مكة ، منتصرا لحلفائه بنى خزاعة لانضم اليه كل المستضعفين الذين مازالوا يمثلون غالبية السكان فى مكة .. ولانضم اليه التجار الذين أوشكت أن تفقرهم منافسة المسلمين . يجب الا يحدث هذا !! يجب ألا يحشد محمد جيشه ويتحرك الى مكة !. ليستمر صلح الحديبية وليجدد الى الابد ..

لقد حدث خطأ رهيب بلا ريب ، فما كان ينبغى أن تترك قريش حلفاءها يغزون حلفاء محمد ويقتلون منهم ، وماكان ينبغى ان تظن قريش بمحمد الضعيف بعد انهزام جيشه

أمام الروم فتساعد بنى بكر على بنى خزاعة .. ولكن هذا الخطأ يجب أن يصلح ، فلترسل قريش رئيس حكومتهـا الى محمد .. فلترسل اليه اباسفيان نفسه ..

ومضى أبو سفيان الى المدينة ، فذهب الى ابنتـه أم حبيبة زوجة محمد .. لم يكن قد رآها منذ تركت مكة الى الحبشة ، ثم الى المـدينة .. وفاضت اشـواقها وهى تستقبل اباها بعد غياب طويل ، واطمأن أبو سفيان وأفضى الى ابنته بما جاء من اجله . لقد جاء لا ليدخل فى الاسلام كما يخيل اليها ، ولكن لياخذ العهد على رعاية صلح الحديبية فلا يعاقب محمد قريشا بما صنعت ، ولا يطالبها بدية القتلى لانهـا لم تعد تحتمل خسـائر مالية جديدة ..

ودخل غرفة نومها وجلس على فراش زوجها وسألهـا أن تكلم زوجها فى الامر ، وكان أبو سفيان يعلم حسن موقع ابنته عند محمد .. ولكنها لم تجبه بل طوت الفراش عنه . وقال لها أبو سفيان : « يابنية .. والله ما أدري أرغبت بي عن هـذا الفـراش أم رغبت به عنى ؟ » . فقالت له ابنته : « بل هو فراش رسـول الله وأنت رجل مشرك نجس ، ولم احب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم »

وروع أبو سفيان مما تقوله ابنته ! .. من أين تنبع هذه الشجاعة الغريبة التى تنطق هؤلاء المسلمين بكلمـات رهيبة حاسمة امام من يجب أن يرتجفوا أمامهم

مشرك نجس ؟! . أأنت نجس ياأباسفيـان .. نجس كالرمة .. هكذا قالت لعمر بن الخطاب ذات يوم بعيد أخته التى كانت ترتجف منه قبل ان يدخل الاسلام قلبها .. وهاهى ذى ابنتك الضعيفة تواجهك بنفس الشيء ، وتطردك

أيضا .. ولكنها زوجة محمد . ان هذا الاسلام ليملأ قلوب المستضعفين ـ حتى النساء ـ بشجاعة خارقة ..

وخرج أبو سفيان يلتمس محمدا . . فليحادثه بلا وسطاء . وأتى محمدا ، وحاول أن يكلمه ، فلم يرد عليه شيئا ، فذهب الى ابى بكر يسأله ان يكلم له صديقه محمدا ، فرفض أبو بكر ! فجاء عمر بن الخطاب .. هو ذا عمر الصديق القديم .. لن يخيبه عمر .. ولكن عمر قال له : « أأنا أشفع لكم اليه ؟ ! فوالله لو لم أجد الا الرمل لجاهدتكم به » ..

وانصرف حتى طرق باب على .. ودخل عنده وهو ينظر الى ابنه الحسن بين يدى فاطمة .. وسأل عليا أن يشفع له فاعتذر على ، والتفت أبو سفيان الى فاطمة قائلا: « يابنت محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب » فقالت فاطمة : « والله مابلغ ابنى ذاك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله »

ومضى يقول لعلى فى يأس : « انك لامس القوم بى رحما وانى أرى الامور قد اشتدت على ، فانصحنى يا أبا الحسن .. فنصحه على أن يقف فى المسجد فيعلن ان قريشا تحترم صلح الحديبية وترعاه

وعمل بنصيحة على .. ثم عاد الى قريش ، يروى لهم مالاقاه . وسألوه : « هل أجاز محمد ماقلته فى المسجد ؟» قال : « لا » .. فقالوا له : « ويلك مازاد على بن أبى طالب على أن لعب بك فما يغنى عنا ماقلت » فأجابهم أبوسفيان: « والله ماوجدت غير ذلك » ..

لم يقتنع أحد فى المدينة أن قريشا غير مسئولة عن الخطأ الذى حدث .. ولكن الناس جميعا فى المدينة ، شعروا فى

اعماقهم بالزهو لان أبا سفيان طاغية مكة جاء اليهم بنفسه ينشد رضاهم . اما محمد فقد ادرك ان أباسيفان ـ بكل صلفه وكبريائه وعنفه ـ انما جاء يسعى الى المسلمين فى مدينتهم معتذرا عن خطأ قريش لان الامور فى مكة تسير على غير هوى السادة هناك ! ..

ان مكة لتشعر الان بالضعف ، وهى من أجل هذا تسعى الى الرجل الذى نبذته وحاربته .. ومحمد يذكر يوم دخل مكة حاجا ورعا فى موكب المسلمين من المهاجرين والانصار ، انه لاينسى ابدا كيف ظهر غريبا للناس هناك ؛ كل ما أقبل فيه : البساطة ، والمساواة ، والطريقة التى يتعامل بها المسلمون فيما بينهم على سواء .. انه لاينسى نظرات الاعجاب بالمسلمين ، ولا ينسى لهفة المستضعفين اليه ، لولا الحصار الذى فرضته حكومة قريش عليهم ! ..

ولكنه على الرغم من كل حصار كان قد نفذ الى قلوب الناس .. الرجال الذين فرضت عليهم الذلة يتمنون أن يرفعوا الرءوس وأن يسيروا جنبا الى جنب مع الذين ولدوا فى النعيم كما يحدث بين المسلمين .. النساءاللواتى يعمرن ليالى مكة بالغناء ويبعن اجسادهن للغرباء يتمنين أن يطفن فى البياض ، ناصعات طاهرات تضىء وجوههن بنضرة الراحة كما يحدث للنساء المسلمات .. والتجار أيضا ، التجار الكبار الذين أرهقتهم منافسة التجار المسلمين ، يتمنون أن يدخلوا فى المجتمع الجديد عسى أن يلعبوا دورا آخر أهم من دورهم كتجار .. دور القادة فى الدولة الجديدة !

محمد يدرك هذا كله .. ويدرك أنه قد آن لدعوته أن تنشر ظلالها على مكة ، وستجد فى مكة أتباعا يدخلون فيها

افواجا ان رفع عنهم سيف الارهاب .. وماله لايدعو مكة الى الدين الجديد ، وهى على الرغم من كل شيء ،مازالت مركز كل نشاط فى الحجاز .. وما زالت القبائل تأتى اليها من كل فج عميق لتطوف البيت العتيق وتركع امام اصنام الكعبة ؟

ليطهر هو هذا البيت للمسلمين وللطائفين والركع السجود .. ان مكة هى عاصمة الحجاز حقا . فلتكن بكل ماتفضل به غيرها من المدن عاصمة الدولة الجديدة .. لتزدهر أسواقها من جديد ، فكل طرق الجزيرة توصل اليها ، ولترتفع عليها راية الاسلام .. ودخل محمد على أهله فأمرهم أن يجهزوه ..

وبدأت كل زوجة تستعد للرحيل .. ودخل أبو بكر بيت عائشة فوجدها تحزم متاعها فسألها : « أأمركم رسول الله أن تجهزوه » فقالت : « نعم ، فتجهز » قال : « فأين ترينه يريد ؟ » فأجابته : « والله ما أدرى » ..

وخرج أبو بكر فوجد محمدا فى المسجد يعلن للناس أنه سائر الى مكة .. وسألهم الرأى فأيدوه جميعا وفرح المهاجرون .. أخيرا هاهم أولاء يعودون الى مكة ليعيشوا ما بقى لهم من أعمر فى أرض الوطن !

وأمرهم محمد أن يتهيأوا وأن يكتموا الامر لانه يريد أن يبغت قريشا .. وانطلق حسان بن ثابت يحرض الناس على الاحتشاد لغزو مكة للأخذ بثأر اخوانهم المسلمين من قتلى خزاعة . ولكيلا تتنبه قريش للامر ، حشد محمد بعض رجاله وأمرهم أن يسيروا فى الطريق المؤدى الى سوريا ..

وانطلى التمويه على قريش ، وتسامعت أن محمدا أرسل جيشا ليثأر من الروم .. ثم انه وضع حراسا على كل

الطرق المؤدية الى مكة لكيلا ينفلت من المدينة من يحمل الى قريش خبر الحملة فيفسد التدبير .. غير ان احد المهاجرين من الذين احسنوا البلاء فى بدر كتب الى قريش يخبرهم بالحملة ، ودفع بكتابه الى امراة .. وعلم محمد فارسل وراءها على بن ابى طالب والزبير بن العوام فأدركاها فى الطريق فسألاها عن الكتاب .. وانكرت ولكن عليا هددها بالقتل ان لم تعترف .. واخرجت المراة الرسالة من بين ضفائرها . وعاد بها على والزبير

واستدعى محمد الرجل فسأله : « ما حملك على هذا؟ » واطرق الرجل والاسف يمزقه .. ثم اعترف انه أراد أن يصانع قريشا لان له هناك زوجة واطفالا صغارا يخشى عليهم ..

وطلب عمر أن يضرب عنق الرجل لانه قد نافق .. ولكن محمدا ذكر بلاء الرجل فى بدر ، فعفا عنه ! .. وانصرف الرجل حزينا . وارسل محمد الى القبائل المسلمة يطالبها أن ترسل اليه جيوشها ..

وعندما اكتمل له العدد الذى يريده خرج بعشرة الاف رجل ذات يوم بارد من يناير سنة ٦٣٠ ، فى حرص شديد على الا يبلغ قريشا عنهم خبر ..

وباتوا فى الطريق ، حتى اذا اقتربوا من مكة كان الليل يهبط بريحه الباردة . واذن محمد الناس أن يوقدوا النار .. وخرج عمه العباس بولده وزوجاته مهاجرا اليه فلقى محمدا على مقربة من مكة ، واستقبله محمد مرحبا وعرف العباس منه انهم يريدون مكة .. وتمنى العباس لو أنه استطاع ان يلقى أحدا من الرعاة أو بعض الحطابين أو تجار اللبن او أحد اصحاب الحاجة الذين يأتون مكة

فيخبر اهل مكة بمكان محمد ليخرجوا اليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة ..

وانه ليبحث فى شعاب مكة عمن يحمل رسالته اذ به يلقى أبا سفيان ، قد راعته النار التى أوقدها المسلمون فقال لرجل معه : « ليست هذه نار خزاعة .. خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها » ..

وتحدث العباس مع ابى سفيان فى الامر واقترح عليه أن يذهب وهو سيد مكة الى محمد فيستأمنه . واقتنع ابو سفيان ، فعاد به العباس الى معسكر المسلمين ..

ولم يكد أبو سفيان يدخل المعسكر على بغلة العباس حتى رآه عمر فانقض عليه صائحا : « أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منك بغير عقد ولا عهد » ..

ولكن العباس نحى عنه عمر بن الخطاب .. واختلف العباس وعمر حول مصير أبى سفيان .. عمر يطالب برأسه والعباس يجيره .. ومحمد صامت لا يتكلم . وقال العباس غاضبا : « مهلا يا عمر والله لو كان من عشيرتك ما طالبت برأسه ولكنك قد عرفت أنه من رجالنا » فقال عمر منكرا : « مهلا يا عباس ، فوالله لاسلامك .. يوم أسلمت كان أحب الى من اسلام أبى لو أسلم وما بى الا انى قد عرفت أن اسلامك كان احب الى رسول الله من اسلام الخطاب لو اسلم »

وعلى هذه الكلمات الرقيقة التى قالها عمر صفت نفس العباس . وقال محمد : « اذهب به يا عباس الى رحلك فاذا أصبحت فأتنى به .. » وانصرف أبو سفيان مع العباس الى خيمته

ومضى محمد يضع خطة دخول مكة ..

قسم الجيش أربعة اقسام : الميسرة وعليها الزبير بن

العوام ، والميمنة وعليها خالد بن الوليد ، والقلب وعليه أبو عبيدة بن الجراح .. اما الطليعة فقد جعل عليهـــا سعد بن عبادة .. كان كل القواد من المهاجرين الا سعد بن عبادة الانصارى ..

حتى اذا أصبح الصباح جمع محمد قواده ، وأمرهم أن يدخلوا مكة بأقل ما يمكن من الدماء ، فما اختارهم من المهاجرين الا لانه يعلم أنه لن يثخنوا فى أرض الوطن

ولكن سعد بن عبادة خرج من عنده يتطوح متوعدا وهو ينظر الى مكة من بعيد قائلا : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة » .. اية حرمة يا سعد ؟! .. انهـــا لحرمات هؤلاء القادة والجنود من اهل مكة ! وحرمات محمد نفسه ! ..

كم من رجال القبائل الاخرى يمنون النفس بســـبايا من القرشيات الجميلات !

واتجه عمر بن الخطاب الى محمد قائلا : « يا رسول الله ، أسمعت ما قال سعد بن عبادة ، ما نأمن ان يكون له فى قريش صولة » . فقال محمد لعلى بن أبى طالب : « أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذى تدخل بها ! »

وقبل أن يأمر محمد جيشه بالتحرك اقبل عليه عمه العباس بأبى سفيان فقال محمد : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم انه لا اله الا الله ؟! »

وقال ابو سفيان : « بأبى انت وامى ما أحلمك واكرمك وأوصلك .. والله لقد ظننت انه لو كان مع الله اله غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد » ..

ـ ويحك يا أبا سفيان الم يأن لك أن تعلم انى رسول الله ..

ـ بأبى انت وامى ! ما احلمك واكرمك وأوصلك ..

اما هذه فان فى النفس منها حتى الان شيئا . . فأرجئها . .

ولكن العباس قال له : « ويحك اسلم قبل أن تضرب عنقك . . »

وما زال به يناقشه حتى أعلن أبو سفيان انه قد دخل الاسلام . . فقال العباس لابن أخيه : « يا رسول الله ان ابا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا »

فأعلن محمد : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » . .

ووقف ابو سفيان يتامل الجيش . . وينظر فى رايات القبائل المختلفة متعجبا كيف استطاع محمد أن يضم أليه كل هؤلاء . . ثم انصرف يبلغ أهل مكة ما رآه وقال للعباس وهو ينصرف : « لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » . وأجابه العباس : « انها النبوة » فقال أبو سفيان ضاحكا فى اذعان : « فنعم اذن ؟ »

ثم وقف خطيبا فى أهل مكة : « يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بمالا قبل لكم به فمن دخل دار ابى سفيان فهو آمن » . .

وصرخت زوجته هند بنت عتبة فى وجهه تلعنه ، وتنعته بألفاظ فاحشة أمام الجميع وتحرضهم على قتله . . أما الذين كانوا يتوقون الى لقاء محمد من سادة مكة فقد اندفعوا الى دار أبى سفيان وقد وجدوا السيف يسقط فجأة بعيدا عنهم . ولكن عكرمة بن أبى جهل نادى جيش مكة أن يخرج

وخرج فيمن استطاع ان يجمعه من الفرسان ، متجها الى الناحية التي يتقدم منها خالد بن الوليد . . وأمر محمد جيوشه أن تتقدم لتدخل مكة من كل اقطارها فى وقت واحد على الا يقاتلوا الا من قاتلهم . . ولكنه ذكر

لهم عشرة رجال وامراتين أمرهم ان يقتلوهم حيث وجدوهم وان وجدوا متعلقين بأستار الكعبة ..

كان منهم جاريتان تغنيان بهجائه فتذيع أغانيهما هنا وهناك .. وكان منهم رجل أسلم وعهد اليه محمد بكتابة القرآن ، ولكن الرجل كان يغير فى القرآن على هواه .. يمليه محمد « وهو السميع العليم » فيكتب وهو الخبير الحكيم .. ثم يذهب الى المنافقين فى المدينة ويتندر بما صنع . وظل يصنع هذا حتى اكتشف محمد أمره ؛ فهرب الى مكة وظل يهزأ بمحمد وبالقرآن

ورجل آخر كان محمد قد دفع له دية عن أخ قتل خطأ ، فقبل الدية ثم وثب بالقاتل فاغتاله وهرب الى مكة .. ورجل ثالث كان قد أرسله يجمع الصدقات وارسل معه أحد اتباعه فلما جمع الصدقات أخذ يختلس منها وينفق على نفسه ، ونبهه التابع فكبر عليه الامر فقتل التابع وهرب بالصدقات الى مكة يسخر من محمد الذى يسوى بين السادة والاتباع وكان للاخرين جرائم

واعطى محمد اشارة البدء بالهجوم ،وتقدمت الجيوش الاربعة الى مكة لاتلقى مقاومة .. وتقدم خالد بن الوليد بجيشه فاصطدم بجيش عكرمة . وبعد ساعات قلائل كان خالد قد استطاع أن يهزم جيش عكرمة بعد أن قتل منه نحو عشرين رجلا .. وفر عكرمة الى الصحراء ، وتقهقر جيشه المهزوم الى مكة .. فالقى الرجال السلاح ، ولجأ بعضهم الى المساجد واغلق بعضهم على نفسه باب داره ، ودخل بعضهم دار أبى سفيان ..

وفى الصباح التالى كانت مكة تفتح أبوابها على مشرق الشمس لاستقبال محمد ! .. من هنا خرج وحيدا خائفا يصحبه ابو بكر الى مصير مجهول ، وها هو ذا يعود اليوم

فاتحا ظافرا والى يمينه أبو بكر نفســه ، ونزل من على جبل الصفا متجها الى الكعبة .. من على هذا الجبــل نفسه ارتفعت دعوته .. كانوا اذ ذاك نحو أربعين ..

من على هذا الجبل نفسه وقف وهو الامين يحدثهم عن الوحى فقالوا انه كاذب هو الذى لم يعرف عنه أحــد من قبل غير الامانة والصدق ! ..

أبلغهم القرآن فقالوا عنه ساحر .. دعاهم الى اله واحد فاتهموه بالجنون ، حدثهم عن النبوة فاتهموه بأنه يريد الملك ، وعرضوا الامارة عليه فرفض فاتهموه باثارة الفتنة .. من على هذا الجبل نفسه حمل اليهم رســالة القلم هو الامى الذى لم يقرأ من قبل فقالوا عنه شــاعر لبسته الشياطين ! .. ولكنه احتمل وظل يجذب اليه الذين تفتحت قلوبهم للدعوة واحدا بعد واحد ! .. لكم عانى فى الليالى السود واحتمل !

كان عليه ان يبلغ رسالة ضخمة .. ولقد انذر بها : « انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » وحمل كل الاثقال وحده! فى أرض الوطن وفى أرض الهجرة .. ولكنه يعود اليــوم فى عشرة آلاف ..

ومشى حيث طاردته الاحــوال والســـخرية والاهانة وزراية الاغنياء ..

وتقدم الى الكعبة وعلى ضراعة الحاج الورع ، لا زهو الفاتح المنتصر وتمتم لنفسه وعيناه تدمعان : « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا »

انه ليذكر كل شىء الان .. ان هذه اللحظة القصــيرة لتعكس كل حياته .. ان قصة ماضيه لتنتفض الان فجأة .. تذكر جده عبد المطلب ، وعمـــه أبا طالب ، وتذكر

خديجة .. ليتها عاشت لترى هـذا اليوم وتنعم ببهجة النصر التي شاركته الخشنى فى أول أيام الجهاد .. وتذكر عمه حمزة ! .. ليته عاش ليرى ..

ودمعت عيناه من جديد ! ..

ولكن ما بال على بن ابى طالب ينقض على رجل لينتزع منه شيئا .. انه ينتزع مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة .. لا ، ليبق المفتاح مع عثمان ! .. ويندفع عثمان بن طلحة دامع العين متاثرا من عطف محمـــد ، فيعلن دخوله فى الاسلام .. ويقبل بعض المسلمين يستشفعونه فيمن أمر بقتلهم فيعفو عن معظمهم .. أما الرجل الذى حـــرف فى القرآن فيعلن توبته ويحرق النســـخة المحرفة امام الجميع ! .. ولهو يتجه الى بئر زمزم ويشرب من مائها ، اذ برجال يقبلون فيشكون اليه جنده .. لقـــد نهب بعضهم ، وها هى ذى بنت صديقه أبى بكر قد نهب عقدها من على نحرها ..

ويعلن محمد انه سيعاقب من ينهب عقابا رادعا ويسأل بنت ابى بكر أن تحتسب عقدها الضائع .. انه ليعـلم ان جيشه فقير ، وان منهم لمن يطمع فى مغانم مكة ! .. ولكنه يعلن أن مكة حرام ! .. ثم يطـــالب أبناء قريش المتخمين بثرواتهم أن يدفعــوا ، ويفرض على كل منهم قدرا من المال .. يوزع على المحتاجين من رجال الجيش ومن اهل مكة فيحصل كل محتاج على خمسين درهما! .. ولكيلا يشـــعر الفقراء بأنهم أقل ممن يعطونهم قال لهم : ما الذى أعطى عن سعة أفضل أجرا من الذى يقبل عن حاجة

ويطالب المسلمين ان يشدوا شدة رجل واحد لتحطيم اصنام الكعبة .. ويتقدم هو لتحطيم أول الاصـــنام

ويندفع من ورائه الرجال يحطمون مئات اخسرى من الاصنام والتماثيل التى تملأ البيت العتيق .. ثم يعود الى خيمته ليعلن دستور مكة .. لا قتل بعد ولا قتال ، ولا ربا ! ! فليترك الناس ما بقى لهم من الربا وليكتفوا باسترداد أصل الدين ، ولتغلق البيوت التى يعرض فيها الرجال بناتهم وزوجاتهم وفاء بما عليهم من ديون..!

واقبلت نساء كثيرات يبايعنه ... وركعت أمامه امرأة صغيرة حسناء فأمر بأن تنهض فلا ركوع لغير الله .. بايعته على الاسلام وسألته العفو عن زوجها عكرمة ، وامنها على زوجها .. فليعد من الصحراء آمنا .. واندفعت المرأة لتبحث عن زوجها فى الصحارى المترامية ، ونظر هو الى النساء اللواتى يبايعنه فارتجفت احداهن قائلة : نعم أنا هند بنت عتبه ! ..

هند .. التى دفعت وحشيا لقتل حمزة ومثلت بجثته فى أحد ، ولاكت كبده وقلبه ! .. وارتمت هند باكية على قدميه « اعف عنى » وأطرق لحظة ثم تلا : « وما بعثناك الا رحمة للعالمين » وأعلن أنه يعفو عنها .. وبايعته على الاسلام ، وبايعه من معها من النساء . فلما أخذ عليهن العهد ألا يسرقن قالت : « هل تسرق الحرة ؟ لكن يارسول الله أبو سفيان رجل بخيل وربما أخذت من ماله بغير علمه ما يصلح ولده » ..

وكان أبو سفيان حاضرا ، فضحك عمر وهو ينظر الى وجه أبى سفيان .. وقال أبو سفيان : « انت فى حل مما أخذت .. »

وعاهدهن محمد على ألا يزنين فقالت هند : « وهل تزنى الحرة يا رسول الله » ثم عاهدهن على الا يقتلن أولادهن فقالت هند : « والله قد ربيناهم صغارا حتى قتلتهم انت وأصحابك ببدر كبارا »

واذ ذاك ضحك عمر حتى مال .. وبعد أن تعاهدن الا يأتين ببهتان ولا يعصين فى معروف استغفر لهن ، وبايعهن عمر نيابة عنه . وانصرفت هند ، ومن معها من النساء . . وتبعها نساء ورجال كثيرون يعلنون الاسلام ويأخذون عليه العهد أن ينفذوا تعاليمه ..

وعاد الى الكعبة فوجد زعماء قريش بها يتشاورون .. انهم الان جميعا فى قبضة يده ، وما منهم رجل لم يسىء اليه .. ولكنه قال لهم : « يا معشر قريش .. الناس من آدم وآدم من تراب .. ان أكرمكم عند الله أتقاكم .. يا معشر قريش ما ترون انى صانع بكم .. » قالوا :« خير أخ كريم وابن أخ كريم » قال : « اذهبوا فانتم الطلقاء» ..

وجاءه رجل كان قد بالغ فى ايذائه وهو فى مكة .. ولاحظ ان الرجل يخشاه ويهابه حتى يرتعد أمامه ، وابتسم قائلا : « هون عليك انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد فى مكة ! .. »

وضاق بعض المسلمين لانهم كانوا يريدون أن يثأروا من أهل قريش .. وتهامس الانصار أن دولة المدينة قد زالت فسيقيم محمد فى مكة فهى بلده .. ولكنه سمعهم فقال لهم « معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم » ..

لن يغير عاصمته اذن ، وسيعود الى المدينة .. لكن بعد أن يفرغ من تحطيم الاصنام التى تعبدها بعض القبائل المجاورة لمكة . يجب أن يهدم معبد العزى فى وادى نخلة .. واصدر أمره الى خالد بن الوليد أن يستعد ! ..

اذ أعجبتكم كثرتكم

انطلق أصحابه فى ـ مكة ـ مدينتهم الكبيرة العزيزة التى ملأوها ذات يوم بالضجيج والزحام ، والضحكات والغزل ، يطلبون الى الناس أن يسلموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون مهما تكن جسامة ما سبقوا به من اساءات!

طاف أصحابه على التجار والصعاليك ، وعلى البيوت التى تألقت بمرحهم فى الايام الخالية فساقوا كثيرا من الاغنياء والنساء والخمارين ليعلنوا توبتهم مما سلف وليدخلوا فى الدين الجديد .. وأذنوا فى مكة : « من كان يؤمن بالله ورسوله فلا يدعن فى بيته صنماً الا كسره او حرقه فثمنه حرام »

وانقض أهل مكة على أصنامهم التى احتفظوا بها فى البيوت يحطمونها او يحرقونها .. ! لم تكن هى ما يصد بعضهم الآن عنه فما أغنت عنهم هذه الاصنام شيئا ، وما انتفعوا بما يعبدون كما انتفع المسلمون بمعبودهم هذا الذى يسمونه « الله الرحمن الرحيم ! »

ولكن الذى صد بعض قريش عن محمد حقا ، هو ما يدعو اليه : ان يتساوى السادة والعبيد وان يعفو صاحب الحق عمن أساء اليه ، ثم هذه الاخوة بين الناس مهما تكن أنسابهم واحسابهم .. وقبل كل شىء ، هذا البذل من أموالهم من اجل المحتاجين وأبناء السبيل .

على انهم وجدوا محمدا ينتصر ، ويدخل عليهم مكة عنوة .. فما بقاؤهم بعد على مخالفته ! ؟ ..

فلينضموا اليه ، فربما جعلهم الاسلام أسعد حظاوربما نالوا بعض المناصب فى الدولة التى يحكمها محمد ! ..

ولم يشأ محمد ان يرفض يدا ، متدالية بالمبايعة فما له من سبيل على القلوب .. وتقبل انضمام اهل قريش الى الاسلام بنفس راضية ، وتطلعت عينه الى المعاقل البعيدة حيث ما زالت تقف أصنام اخرى ، وتسود قيم اخرى..
لقد هدم تماثيل هبل واللات والعزى ومناة من فناء الكعبة ومن بيوت أهل قريش .. ولكن ثمت معابد ضخمة لبعض هذه الآلهة فى وديان متناثرة ، حيث تعيش قبائل قوية يرفض سادتها المساواة ويقيمون نظامهم الاجتماعى على التحكم وسيطرة الغنى والحسب

وجهز خالد بن الوليد بعدد من الفرسان وجهز غيره من القواد ووجهم الى هذه المعاقل . واستطاع خالد ان يقتحم بفرسانه وادى نخلة ، ودخل معبد العزى فحطم تمثالها الكبير ، واذ ذاك برزت له من وراء التمثال امراة عارية تصرخ وتولول ، وذعر جنود خالد وفروا .. فهذه هى روح العزى خرجت لتنتقم وتصيب من يتعرض لها بالبرص ! .. انها لا تموت ! ..

وعبثا حاول خالد ان يحرر قلوب المسلمين الجدد من سيطرة التقاليد الوثنية ! . عبثا حاول ان يقنع فرسانه بأن هذه التى برزت عارية انما هى امرأة .. امرأة تعبد عارية ! .. وهى من اجل ذلك ليست اخطر شأنا من نساء يبعن المتاع فى بيوت عرفوها قبل الفتح فى مكة كانت تخفق عليها الرايات ! !

وتقدم خالد بنفسه الى المرأة ليؤكد لرجاله انها مثلهم من لحم ودم لاروحا خالدة .. امرأة يمارس معها كهنتها عبادة الجسد ! وضربها خالد بسيفه ، فسال الدم منها .. وماتت كما يموت كل النساء !

وتابع خالد حملاته على المعاقل الاخرى كما اندفع رجال من المخلصين السابقين الى الاسلام مثل عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام ، اندفعوا جميعا يهدمون الاوثان ويدعون القبائل الى الاسلام .. ولكم مروا بقبائل مسلمة .. كانت عدوا لهم بالامس ..

كان عليهم أن يضعوا الثارات القديمة تحت أقدامهم وأن يقبلوا أخوة الذين خاصموهم بالامس ، ما داموا كلهم قد أصبحوا مسلمين ، ان هذه الاخوة لهى روح الدين الجديد

غير أن خالد بن الوليد مر بقبيلة كانت قد قتلت أباه ، وخرج اليه رجالها فى سلاحهم فسألهم عن دينهم فقالوا له صبأنا ، وكانوا يعنون أنهم خرجوا عن دينهم القديم .. وأسلموا ولم يرق له أنهم لا يصرحون بالاسلام .. أمرهم أن يضعوا السلاح حتى اذا وضعوه أسرهم جميعا وقتل منهم كما شاء .. وعندما بلغ محمد أمر هذه المذبحة أعلن براءته مما صنع خالد ، وأرسل على بن أبى طالب ليسترضيهم ويدفع دية القتلى .. وعنف خالد بن الوليد وحاكمه .. فأكد خالد أنه لم يفهم منهم قولهم « قد صبأنا » وما أغراه بقتالهم ألا أنهم خرجوا اليه بالسلاح .

تبين محمد أن خالدا أساء الفهم وأساء تقدير الموقف فاكتفى بلومه وتعنيفه ..

على أن خالد بن الوليد لم يكد يلقى عبد الرحمن بن عوف حتى عنفه عبد الرحمن وقال له : « انما ثارت لابيك» وأغلظ خالد بن الوليد لعبد الرحمن بن عوف وقال له:

« كذبت » .. وبلغ ذلك محمدا فأرسل يستدعي خالد بن الوليد وقال له « مهلا يا خالد ، دع عنك أصحابى فوالله لو كان لك جبل مثل أحد ذهبا ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته »

واعتذر خالد ، وبقى لحظة تحت طرقات الندم .. ان كبرياءه ليست فوق هؤلاء السابقين الى الاسلام ، انه ليس فوق الخطأ .. ثم خرج فاعتذر لعبد الرحمن بن عوف

وعاد على بن أبى طالب بعد أن أسا جراح القبيلة التى فتك بها خالد يحمل أنباء استعداد الطائف للهجوم على مكة .. فوجىء المسلمون جميعا بهذه الانباء ولكنها تأكدت عند محمد ..

والطائف بلد كبير مزدهر وغنى كمكة ، ولقد تحالف بعض تجار الطائف مع تجار قريش ، منذ ظهرت فى المدينة سوق تجارية وتعاونت التجارتان معا فى وجه المدينة

ولكن تجار المدينة قد فتحوا مكة الان وانضمت اليهم قريش ، واذعن أبو سفيان ، فشعرت الطائف انها مهددة بالضياع حقا ! . وجمعت الطائف كل القبائل التى لم تتحالف مع محمد بعد وقررت أن تزحف الى مكة فتستولى عليها فيرث تجار ثقيف مكانة تجار قريش وتجار المدينة جميعا ، وتحكم ثقيف الحجاز كله ، ويصبح آلهتها — بدلا من اله محمد — هم آلهة الجزيرة جميعاً ! ..

ودخلت فاطمة ذات مساء على أبيها لتجده مهموما حزينا يفكر .. يجب ألا ينتظروا حتى تدهمهم ثقيف وحلفاؤها بجنود لم يعرفوا مثلها من قبل .. عشرون ألفا من خير المحاربين فى الصحراء معهم العبيد المدربون وآلات جديدة للقتال زودهم بها فلول اليهود الذين تاهوا فى الجزيرة

يؤلبون ضد محمد ويبذلون المال والنصيحة والنســـــاء والادوات الحديثة الفاتكة ! ..

مهما يكن من شيء فيجب ألا ينتظر حتى يزحف الجيش الى مكة .. فمكة ليست ذات أسوار . ولئن دخلوا مكة ليسحقوا كل شيء ، وليخربوا أرض الحضارة التى سقاها الشهداء بالدم المسفوك . وقام محمد يستقبل بنته فاطمة فقبلها وأجلسها الى جواره كما تعود وحاولت فاطمة أن تخفف عنه .. انها لا تبالى بالضرة !

ما هذا الذى تقوله فاطمة ! .. فى أى شيء تفكر هى اذن !؟ واضطربت فاطمة فقد كانت تحسب أن أباها يعلم! ونظرت فى وجوه أصحابه المقربين الذين يجلسون معه تسألهم بنظراتها ان كان أبوها لا يعلم .. ولكنهم كانوا أيضا لا يعلمون .. لا أحد يعرف أن زوجها على بن أبى طالب قد فتن بابنة ابى جهل الصغيرة الجميلة الغنيـــة فأراد أن يتزوجها على فاطمة التى تعتل صحتها من كثرة ما تكابد ، ويزيدها أنها تصبح فى أيام كثيرة ومالها من طعام تأكله ! وقالت فاطمة : « زعم قومك أنك لا تغضب لبناتك ، وهذا على قد خطب بنت أبى جهل ! » ..

على الزاهد ! .. أبعد أن شاركته فاطمة اللحظـــات الحالكة من العمر ، وولدت له البنين ، واختلطت دموعها بدموعه فى أيام الهزيمة وتألق قلباهما بالامل معا .. أبعد هذا كله يضعف على حين يدخلون مكة فيدير رأسه جمال بنت أبى جهل ويطمعه مالها ؟ !

وأرسل يستدعى على بن أبى طالب ، وقد انتفض فى جبينه العرق الذى ينفر عند الغضب ، وغام وجهه من الضيق ! .. وأقبل على فابتدره محمد قائلا : « انى زوجت أبا العاصى من بنتى زينب فحدثنى وصدقنى ووعدنى

فوفى لى ، وكذلك فعل عثمان ، وان فاطمة بضعة منى وانى أكره ما يسوءها ، والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد » أجل يا على ٠٠ فما جدوى زواجك من بنت أبى جهل ٠٠

لقد أعجبك حسنها ، وفتنك مالها ٠٠ هذا هو كل ما فى الامر ٠٠ عليك أن تتركها أو تترك فاطمة ، أم البنين ! وخرج على ففسخ خطبة بنت أبى جهل وعاد يعتذر لفاطمة

ومحمد ما برح يفكر فى الجيوش الزاحفة ويستشير أصحابه ٠٠ ورجع على منكس الرأس تحت وطأة الخجل ، فأعلن أنه فسخ خطبة بنت أبى جهل

ولم يكن الوقت صالحا للحديث فى الامر مرة أخرى ، فحدثه محمد عن القوات التى تحشدها ثقيف وسأله الرأى كما سأل الصحاب الاخرين ٠ وتشاوروا طويلا ، ماذا يريد أصحاب مزارع الطائف ، وملاك البساتين وحدائق الكروم هناك ؟ ٠٠ ماذا يريد أصحاب الحانات ومعاصر الخمور وتجار الرقيق وموردو أجمل الفتيات الى بيوت مكة ! ماذا يريد الذين يكونون ثرواتهم من الخنازير والربا !

ليست السيطرة على مكة هى ما يحرك سادة ثقيف وانما البطش بمحمد وطمس كل تعاليمه ، لتحرير مصيرهم وثرواتهم وحياتهم المترفة من تهديد هذه التعاليم ! ٠٠

ان محمدا لا ينسى أبدا كيف طاردوه عندما ذهب اليهم منذ أعوام قبل الهجرة ٠٠ لقد عذبوه وامتهنوه أكثر مما صنعت قريش ، وحرموه حتى الماء ولم يتركوه ليستريح على أسوار المدينة ، وظلت الحجارة والسخرية تنهال عليه

حتى المستضعفين الذين فتح عيونهم على طريق الخلاص أغمضوا عيونهم عن الطريق ٠٠ كانوا هم ايضا قد سقطوا تماما فى قبضة السادة ملاك البساتين والخمارات والمرابين

ومصدرى الجوارى وتجار الخنازير .. ولم يعد يشغل عقولهم غير القيم التى فرضها السادة على الحياة جيـــلا بعد جيل ..

من هؤلاء المستضعفين ، ومن مستضعفين اخرين من القبائل المجاورة للطائف ، استطاع سادة بنى ثقيف أن يحشدوا اليوم عشرين ألفا من أفتك المقاتلين ليفتكوا بمحمد ويقتلعوه من الارض وليستولوا على مكة والمـــدينة .. فيمتلكوا الكعبة وأسواق المسلمين ..

ورأى محمد أن يخرج بجيشه الذى فتـــح مكة فيلقى حشود ثقيف وحلفاءها فى الصحراء قبل أن يتمكنوا من محاصرة مكة .. فان جيشهم ليضم بقايا من اليهود الذين حملوا معهم الى الطائف كل غيظهم من محمد ، وكل أحقادهم وتقدمهم فى صناعة السلاح ، وفنون القتال وانضم اليـه من قريش ألفان من الرجال ! ..

واستعار من تجار مكة بعض الدروع والاســـلحة .. وولى على مكة أحد شبانها من المسلمين القـــدماء . وقاد محمد الاثنى عشر ألف مقاتل ، ووصل بجيشه الى وادى حنين .. والليل يهبط ! وأمر جيشه أن يعسكر فى الوادى وخرج محمد الى العراء يصلى بين خيمتين له ، فى احداهما زوجته أم سلمة وفى الاخرى زوجته زينب بنت جحش ! لقد لقى الاحزاب من قبل وهو فى مدينته ، ولكن المقاتلين الذين جمعهم سادة ثقيف شىء اخر .. وانهم ليخوضون اليوم معركتهم الفاصلة ..

وفى هدأة الليل سمع المسلمون أصوات رجال ونساء يعسكرون .. كانت ثقيف وحلفاؤها يعسكرون فى واد قريب . وحمل هواء الليل البارد الى آذان المسلمين صوت رجل عجوز من معسكر الاعداء يقول لمن حوله : « مالى

أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير » ..

كان هو الشاعر دريد بن الصمة أقبل بأعوامه المائة بكل تجاربه لها فى الفتك والمعارك ! .. وارتفع من معسكر ثقيف صوت يرد على دريد : « سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم ماله وأهله ليقاتل عنهم » . وأدرك المسلمون مما سمعوه أن عدوهم يخوض معركة الحياة أو الموت حقا !

وعلى أول شعاع من الفجر أمر محمد جيشه أن ينحدر الى الوادى الفسيح .. أمرهم أن يتبينوا طريقهم جيدا قبل أن يتقدموا حتى لا يفاجئهم العدو من شعاب المنحدر !

انهم اثنا عشر الفا .. عشرة الاف حققوا فتح مكة ، والفان من مكة ..

وتقدم المسلمون .. فى الطليعة خالد بن الوليد على رأس فرسان بني سليم على خيولهم الصهالة ، مزهوين بسمعتهم الحربية وبما حققوه من انتصارات تحت راية محمد . وتدافع وراءهم الجنود صفا بعد صف .. وقد أعجبتهم كثرتهم وهم يملأون الوادى ، حتى لقد نسوا أوامر قائدهم أن يتحسسوا طريقهم وألا يتقدموا خطوة الا بعد أن يتبينوا انهم آمنون ..

وفجأة .. وهم يتخايلون بكثرتهم انهمرت عليهم السهام كالامطار من شعاب كل المنحدرات المحيطة بالوادى وانفجر الرعب من كل المضايق وبرزت كتائب بنى ثقيف وحلفائهم تحاصرهم من كل أقطارهم . واضطربت الخيل والابل ،وفر فرسان بنى سليم من حيث أقبلوا .. وعماية الفجر تحجب عنهم الكتائب التى تهبط من مضايق المنحدرات المحيطة بالوادى ، وتتابع فرار الجنود المسلمين

وتلفت محمد فجأة فلم يجد من كل جنوده الاثنى عشر

ألفا غير عشرات قليلة من المسلمين الاوائل ومن أهل بيته، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعلى والعباس وأسامة بن زيد !
.. ستبيدهم ثقيف بلا مراء !

وصرخ محمد في جنوده الفارين : « الى أين أيها الناس .. هلموا الى .. أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله، فقال له أحد من وقف معه في يأس : « فلا شيء ! حملت الابل بعضها على بعض فانطلق الناس »

وخلال الهرج تقدم رجل من المسلمين يحاول طعنه بثأر أب له مات فى أحد ولكن عمر قتل الرجل !

مرة أخرى كما حدث فى أحد يعصونه ثم ينهزمون عنه ، ويفرون .. من من صـــحابه القريبين اليوم يلقى مصير حمزة ! وارتفع صوت أبى سفيان من بعيد يقول فى شماتة وهو يجرى ويغرى من معه بالفرار : « لاتنتهى هزيمتهم دون البحر » وصاح أحد فتيان قريش وهو يفر ضاحكا : « ما جئنا الا لنلتمس نساء الطائف الجميلات »

وتختلط صرخات الفزع بضحكات الشامتين ومحمـــد يصرخ فى الناس بلا طائل .. ثم يـنـدفع على ظهر بغلته ليقتحم كتائب عدوه ولكن عمه العباس يمنعه ويلوى زمام البغلة ويصيح العباس فى الفارين بلا جدوى .. ويأمره محمد : « يا عباس : اصرخ يا معشر الانصـــار » ويصرخ العباس : « يا معشر الانصار »

فتجيبه بعض أصوات : « لبيك لبيك » .. ان الفين من قريش على رأسهم ابو سفيان اعتنقوا الاسلام خوفا أو طمعا ، قد جاءوا معه اليوم لا لينصروه بل ليخذلوه وليشيعوا الانهزام بين المجاهدين القدماء !!

وفى هذه اللحظات الحاسمة يتذكر بعضهم قتلاه الذين سقطوا قديما فى بدر ويحاول أن يعمل سيفه فى المسلمين

الاوائل ! .. فلينذرهم اذن .. فلينذر هؤلاء الالفين ، وليعتمد على المهاجرين والانصار الذين خاضوا معه المكاره خلال الاعوام القاسية الماضية ، وخرجوا معه فى كل مرة يبتغون الاستشهاد لا السبايا الجميلات والغنائم

وظل العباس يستصرخ الانصار .. وثاب بعض الذين كانوا يفرون .. ورأوا العباس ومن معه يحيطون بمحمد ويجعلون من أجسادهم دروعا له ..

عادوا اليه ،واحدا بعد واحد .. الانصار،ثم المهاجرون .. وعاد خالد بن الوليد .. كلهم يقسم أن يدفع حياته اليوم تكفيرا عن الفرار .. حتى اذا اجتمع منهم مائة رجل جعلهم محمد تحت قيادة على بن أبى طالب ، وأمرهم أن يخوضوا فى قلب جيش العدو . واندفع على، فعمد الى قائد جيش العدو يحمل رايته فضرب ناقته حتى اذا هوت به بارزه على فطعنه . وسقطت الراية وسقط القائد .. فدبت الشجاعة فى قلوب بعض الفارين الذين وقفوا يراقبون المعركة من مشارف الوادى ..

ووجدوا بعض النساء يندفعن من معسكر المسلمين فيقتلن رجالا من الاعداء .. واستحيى كثير من الفارين فعادوا وانضموا الى اخوانهم ، بينما كان على وعمر والعباس يعمدون الى سادة العدو يبارزونهم فيصرعونهم

وأمر محمد جنوده العائدين بعد الفرار الا يخوضوا معركة الوادى وليحاصروا العدو ويرموه بالسهام من المرتفعات .. ودب الذعر فى جنود العدو حين وجدوا سادتهم يسقطون الواحد بعد الاخر ، وقلة من جيش المسلمين يتوغلون فى صفوفهم والاخرون يحاصرونهم

واسرع الرجال من معسكر العدو يفرون على حين كان معظم الذين فروا من معسكر المسلمين يعودون حتى بعض

الذين كانوا يسخرون فى شماتة أول الامر .. عادوا الان بعد أن قدروا أنه من الممكن أن ينتصر محمد ، فليشاركوا فى الحرب ليظفروا بأسلابها .. بدلا من أن ينتصر محمد بدونهم فيحاسبهم على الفرار !!

ولم تكد الشمس تميل للمغيب حتى كانت ثقيف قد انسحبت لتعتصم بمدينتها الطائف خلف حصونها .. وكان الصناديدمن حلفائها يفرون تاركين النساء والاموال. ووقع احد فتيان المسلمين على دريد بن الصمة فهم بأن يقتله ، ولكنه لم يحسن استعمال السيف فقال له دريد بئس ما سلحتك به أمك ، وعلمه كيف يستعمل السيف، وحين عرف ابن الصمة أن الفتى من بنى سليم قال له : « اذا اتيت أمك فاخبرها انك قتلت دريد بن الصمة . فرب يوم والله قد منعت فيه نساءكم » كان دريد فى غزواته قد أعتق أمهات له ثلاثا : أمه وجدته وأم جدته !!

وامر محمد أن يوضع الاسرى والغنائم فى مكان امين .. وجعل بعض صحابه حراسا على الغنائم والاسرى من النساء والاطفال ، وقاد جيشه الى الطائف ليقتحمها على ثقيف التى اعتصمت وراء أسوارها !

وفاضت الذكريات من نفسه أمام هذه الاسوار ! .. هنا فى هذا المكان بالتحديد جلس يبكى بعد أن امتهنوه وطردوه من الطائف منذ سنوات طوال !

وأرسل محمد الى بنى ثقيف من يطلب اليهم التسليم ولكنهم رفضوا ، وأقسموا الا يستسلموا ..

وظلوا يرمون جيشه بالسهام .. والذين فروا عنه فى أول غزوة حنين يتبارون الان فى الاعمال الفدائية أمام أسوار الطائف ، حتى لقد فقد أبو سفيان عينه فى بعض هذه الاعمال ولكن كل هذا كان بلا جدوى

وقدر محمد الموقف ، فرأى أن ينسحب بجيشه على أن يعود الى حصار الطائف مرة أخرى . وبعد أن انفق عشرين يوما فى الحصار ، مضى عنها قبل أن يتحول الامر الى هزيمة تفسد انتصاراته .. حتى اذا بلغ المكان الذى ترك فيه الاسرى والغنائم أمرهم أن يحصوا الغنائم فاذا هى ثروة ضخمة .. ثم احصوا الاسرى فاذا هم ستة الاف أسير معظمهم من النساء .. وأقبلت وفود القبائل التى حالفت بنى ثقيف، تلتمس منه الافراج عن أسراها من النساء . ولمح من بين الوفود وجها حبيبا اليه .. وذكر أمه فجأة !!

وشيئا فشيئا تذكر صاحبة هذا الوجه .. انها لمرضعته حليمة السعدية . وقام مرحبا بها وفرش لها بردته فجلست عليها ، واستجاب الى طلبها فافرج من كل نساء قبيلتها ورد اليهم أموالهم .. بعد أن استأذن صحابه ..

وكان لهذا العمل أثره فى نفوس وفود القبائل فاعلن كثير منهم اسلامهم ..

وعاد يحصى ما بقى من الغنائم والسبايا ، وسمع همهمة .. أنه سيرد الغنائم والسبايا الجميلات الى اهلهن .. فقيم اذن كان القتال ؟ !

لماذا اذن بعد ما فروا وأمنوا على انفسهم ، رجعوا وعرضوا أعناقهم على سيوف العدو أمام أسوار الطائف

ولم يحفل بما يسمع .. وأرسل الى سيد بنى ثقيف يعرض عليه أن يرد اليه نساءه وأمواله ان جاءه مسلما. على أى أمل يحاربه الان سيد بنى ثقيف وقد خسر الحرب والمال والاهل جميعا ؟ ! . وجاءه سيد بنى ثقيف فرد اليه محمد ماله ونساءه وأولاده .. وأهداه مائة من الابل ! .. وكسب محمد من تصرفه هذا أضعاف

ما كان يمكن أن يكسبه من حرب مع الطائف •• فقد أعلن الرجل اسلامه ، فتبعه عدد من سادة ثقيف ، وتشجع المستضعفون فيها فدخلوا الاسلام جميعا ..

وارتفعت الهمهمة من صـــفوف المسلمين أن محمدا سيرد الاموال الىأصحابها كما رد السبايا .. وبدأ محمد يسمع صيحات الاحتجاج والمطالبة بتوزيع الغنائم

وفى الحق أنه لم يكن قد حاسب المسلمين على فرارهم بعد .. ولكنه حين سمعهم يطالبونه بتقسيم الغنائم أخذ يؤنبهم على انهم خالفوه فى أول المعركة ثم فروا عنه من بعد •• وصارحهم بأنه يعلم أنهم اســـتخلصوا لانفسهم بعض الغنائم من وراء ظهره !

ونصحهم أن يردوها فهذا خير لهم •• ورد كل واحد اليه ما كان قد خص به نفسه . ولكن صيحات المطالبة بتوزيع الغنائم لم تهدأ ، ولم تهدأ أيضا صرخاتالاحتجاج لانه وزع هـــــذه الغنائم على بعض من يريد أن يتألف قلوبهم ..

وحاول عمر أن يقتل بعض المحتجين لانهم يحـــاولون اثارة الفتنة ولكن محمدا أمره أن يتركهم وشانهم ومضى هو يقنعهم بصواب ما صـــنع ... وزاد أن ميز بعض قادة قريش وقادة حلفائه الجدد بأنصبة أكبر عند التوزيع وقال للمسلمين الاوائل : آنه يتألف قلوب المؤمنين الجدد ، أما القدامى فانه يكلهم لايمانهم .. ان قلوبهم لعامرة ، فلا يجب أن ينظروا الى المؤلفة قلوبهم !!

وأرضتهم هذه الثقة •• ولكن بعض الانصار لم يحتملوا أن يجدوا أنفسهم محرومين منالغنائم وهم الذين انجدوه عند الروع بينما فر عنه رجال يميزهم اليوم مثل عكرمة ابن أبى جهل وأبى سفيان بن حرب •• ومضى اليه سعد ابن عبادة قائد الانصـــار يقول له : « ان هذا الحى من

الانصار قد وجدوا عليك فى انفسهم لما صنعت فى هــذا الفىء الذى اصبت . قسمت فى قومك واعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب .. ولم يكن فى هــذا الحى من الانصـــار شىء » . فقال محمد : « فأين انت من ذلك يا ســعد ؟ » .. واجاب سعد : « ما انا الا من قومى يا رسول الله » وجمع محمد الانصار فخطب فيهم فذكر فضله وفضلهم عليه .. ثم قال لهم :

ـ افلا ترضون يا معشر الانصـــار ان يرجع الناس بالنساء والعبيد وترجعوا برســـول الله الى رجالكم ، فوالذى نفسى بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الانصار ولو سلك الناس شعبا وسلك الانصار شعبا لسـلكت شعب الانصار

وسلك شعب الانصار حقا .. عادوا الى المدينة ، وفى الطريق الى المدينة مر بقبر امه .. هنا ترقد ارملة صغيرة مات زوجها وهو يبحث عن الرزق ، وعانت هى من بعده ورفضت الرجال لتربى وندها اليتيم

ثم ماتت هى الاخرى فى الحاجة ... ولكيلا يموت آباء وامهات آخرون فى الحاجة بعد ، انتفض هو يطالب بالعدل ، وبأن يكون فى مال الغنى حق للسائل والمحروم

ودمعت عيناه .. هو ذا الغـــلام الذى تركته يتيما ، يحمل اليوم مسئولية التنوير ! تلين له الطائف ، وتتبعه قريش وترتفع رايته على المدينة وعلى مضارب الخيام العديدة فى الصحارى الشاسعة ! وهو مع ذلك يشـــعر اليوم على الرغم من كل انتصاراته أنه يتيم حرم حنان الابوين قبل الاوان وانه على الرغم من كل شىء لا يملك امام قبر امه غير الدموع !! . وانطلقت قافلة الانصـــار الى المدينـــــة بمحمد فى رحالهم .. بعد أن ترك فى مكة عددا من صحابه يفقهون اهلها فى الاسلام

نحو أمة واحدة ..

بعد عشرين عاما من الضنى والجهد المتصل ومكابدة الاهوال ، أصبح الذين طاردوه بالامس اتباعا خاضعين .. والذين سخروا به وسبوه واغروا به السفهاء اقبلوا اليوم يلتمسون منه نظرة او ابتسامة .. أو أى شيء يشير الى رضاه عنهم .. البيوت التى أغلقت فى وجهه تفتح اليوم ، والاسوار تلين ، واكاليل الغار تضفر !.

ولكن لا اكاليل الغار ، ولا الملك ، ولا ابهة السلطان ولا شيء من هذا كله ، كان من بين مايبحث هو عنه .. ! لقد جاء يحمل كلمات مضيئة الى الناس ، وماكان يلتمس غير الحقيقة .. وكل ماينشده الان هو أن يجمع هؤلاء العرب المتنافرين تحت راية واحدة ليكونوا أمة واحدة ، يتحرر فيها الانسان من سيطرة كل قوى الظلام ..

وهاهو ذا اليوم بعد عشرين عاما ، واجه خلالها الموت نفسه ، وعانى من طمع الاتباع ، وغدر الحلفاء ، والوصوليين ، والمنافقين وقسوة الخصوم .. هاهو ذا فى مدينته التى اختارها منذ عشرين عاما للحياة والموت ، ومازال يوجع جسده الحصير .. ومازال يقعد فى البيت حتى يغسل ثوبه ومازال يشد بطنه على الجوع ..ووفود القبائل من هنا وهناك تقبل اليه فى المخمل والحرير والبرد المنسوج بخيوط الذهب ، تلتمس منه نظرة أو ابتسامة أو أى شيء يشير الى رضاه ..!

ويدخل عليه عمر بن الخطاب فيقول له « يارسول الله ان الناس يزيدهم حرصا على الاسلام ان يروا عليك زيا حسنا من الدنيا فانظر الى الحلة التى أهداها لك سعد بن عبادة فالبسها ..

وينظر محمد الى أبى بكر فيؤيد أبو بكر كلام عمر ويضيف « فليروا اليوم عليك زيا حسنا » ويبتسم هو قائلا .. افعل والله ، لو أنكما تتفقان على أمر واحد ما عصيتكما فى مشورة أبدا

ويقوم الى وفد الطائف .. جاء وفد الطائف يعلن الدخول فى الاسلام ولكنه يريد أن يناقشه فى بعض المسائل ! .. انهم ليطالبونه أن يبقى لهم الهتهم لبعض الوقت .. فسيأتى الناس الى الطائف ملتمسين بركة هذه الالهة وتقوم حولها سوق بعد أن تخلصت الكعبة من آلهتها

ولكنه يرفض .. ويخفف عليهم فيأمر غيرهم بتحطيم هذه الالهة .. ويناقشونه فى الزكاة ولكنه يصمم على انها حق الفقير فى مال الغنى ، ويسألونه أن يجعل للطائف مكانة مثل مكة فبنو ثقيف ليسوا أقل من قريش .. فيعلن ان الطائف حرام كمكة ..

وينصرف وفد الطائف ..

ويدخل محمد الى بيته ليلقى من ينعى اليه ابنته زينب

لم يستطع ان يتمالك نفسه ، فبكى .. على أنه لم يكد يعود الى داره بعد أن واراها التراب ، حتى كانت يد الحياة تمتد اليه لتاسو هذا الجرح الجديد .. ولدت له مارية المصرية ولدا ذكرا ،وهو الذى لم يعش له ولد من قبل .. وليس الذكر كالانثى ، وأسماه ابراهيم !

ولم يكن لديه وقت للبكاء ولا للضحك .. فالوفود تقبل بلا انقطاع تعلن الدخول فى الاسلام وتسأله ان يرسل معهم من يفقه الناس فى الاسلام .. كل المبادىء التى جاء بها

لم تثر مناقشة مع أحد الوفود .. الا الزكاة !. ومن أجل ذلك رأى الا يكتفى بارسال من يفقه الناس فى الدين ، فالنظـام الان يتطور الى نحو اخر ..

وبدلا من هذه القبائل المتنافرة أصبح من المحتم أن تقوم دولة واحدة ، عاصمتها المدينة .. دولة تؤمن بنفس القيم وتسودها نفس القوانين وينظم العلاقات فيها نفس الدستور

وعين حكاما على القبائل والمدن البعيدة ، وعين عمـالا للصدقات مسئوليتهم جباية الزكاة وتوزيعها .. مـن اليمن فى أقصى الجنوب الى نجران على حدود بلاد الرومان مضى رجال مؤمنون بالدين الجديد من صنف اخـر غير الذين دخلوا فى الاسلام التماسا لفائدة أو لمنصب .. رجال من الذين كابدوا وعانوا وواجهوا الموت فى مواقع كثيرة ، وفى رأس كل منهم ترسخ نصيحة محمد : احكم بالقرآن أو بالسنة أو اجتهد رأيك .. والامر شورى بينـكم لا تختلفوا ولا تعلوا فى الارض مفسدين .. وكل عامـل منهم يحفظ ماكان مع على بن أبى طالب . سـأل على : « يا رسول الله الامر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ولم تمض فيه منك سنة » فأجابه : « اجمعوا له العالمين من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ولاتقطعوا فيه برأى واحد »

ولكن بعض الذين دخلوا فى الاسلام ليصلوا الى مغانم أو ليثبوا الى مناصب ساءهم أن محمدا يفضـل عليهم رجالا من الذين جربهم فى معارك سابقة ، وساءهم بصفة خاصة أن تفرض عليهم الزكاة ، وأن يجعل للفقـراء فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، وكتموا السـخط حينا ثم انفجر سخطهم فجأة ..

وانتفضت بعض القبائل على الامراء الذين عينهم .. فسير محمد جيوشا الى هذه القبائل ليخضعها . كـانت تميم فى مقدمة المتمردين وحين ظفر جيش محمـد عليهـم

ساق منهم الاسرى والاسلاب .. وجاء وفد تميم اليه ولم ينتظروا حتى يخرج اليهم كما تعودت الوفود بل أخذوا ينادونه من وراء الحجرات : « اخرج الينا يا محمد »

وضاق بعض المسلمين الاوائل من سلوك وفد تميم ولكن محمدا خرج لهم فى مظهره الورع وهو يتلو : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون »

وقبل أن يسألوه العفو عن أسراهم طلبوا أن يناظروا رجاله فان انتصر عليهم رجاله أقرت تميم بالخطأ ..وقام خطيب منهم يتكلم وأمر محمد احد اصحابه أن يناظرهم فقام خطيبا عليهم .. ثم وقف شاعر تميم يفاخر فأرسل محمد الى حسان بن ثابت ..

واقبل يرد على شاعر تميم .. ودامت المناظرة طويلا ومحمد ينظر الى رجاله فى اعجاب ورضا حتى اذا انتهت المناظرة أقرت تميم بتفوق مناظريهم من المسلمين القدامى واعتذرت عما صنعت، وسألته العفو ورد الاسرى، وعاهدته على ايتاء الزكاة

لكم تمنى محمد أن يجيء الشاعر لبيد فى وفد تميم ، ولكن تميما كانت قداختارت شاعرا آخر غير لبيد ! . وعلى أية حال فقد عاد الوفد بكثير من الهدايا . وانتفضت مذحج .. كان وفدها قد جاء منذ حين ومعه قائدها الاسود فأعلنوا الاسلام .. وطمع الاسود فى منصب ، ولكنه لم يظفر بما طمع

فيم أسلم اذن ؟! . ولم يكد يعود حتى تشاور مع بعض اغنياء قومه فى أمر الزكاة .. مابقاؤهم عليها ، لم يدفعون من اموالهم هذا القدر كله ، عشر غلة الارض التى تسقى من السماء أو العيون وشاة عن كل خمس من الجمال وبقرة عن كل اربعين من البقر وسائمة عن كل اربعين من الغنم ! ..

وكان الاسود واسع الثراء قد طاف بكثير من البلاد وكان يعرف السحر فخرج على قومه ذات يوم ببعض الحيل السحرية كتلك التى رآها فى بلاد زارها وذهل قومه .. فأعلن أنها لمعجزات النبوة ، فما هو الا نبى كفتى قريش !

وأعلن أن دينه الجديد يعفى الناس من الزكاة .. وتبعه الاغنياء وعبيدهم وكون جيشا بماله وبمساعدة أغنياء قومه ، وقتل الامير الذى عينه محمد وزحف على اليمن فاستولى على صنعاء ، وانتزع زوجة الامير المقتول ، بعد أن قتل أباها أيضا ، وأخذ يسفل بالمسلمين ويفضح النساء

وروعت المدينة من هذه الاخبار فارسل محمد الى الامراء المجاورين أن يسيروا الى هذا النبى الكذاب فيقبضوا عليه ويرسلوه الى المدينة أو يقتلوه حيث ظفروا به . وكان أحد هؤلاء الامراء ابن عم لأرملة الأمير المقتول التى اغتصبها الاسود وتزوجها على الرغم منها وضمها الى نسائه ..

وكانت حسناء فاصطفاها من بين النساء وأقام لها بيتا أثثه بمثل مافى قصور كسرى وقيصر واقام عندها معظم لياليه .. وان كان قد أباح لنفسه ماشاء من فتيات يهتكهن فى دورهن ، واصطنع لنفسه حراسا شدادا يحرسونه حتى فى مخدعه ..

واحتالت الزوجة حتى أدخلت ابن عمها مخدع الأسود وهو نائم فطعنه ، ولكن الطعنة لم تكن قاتلة فقام الأسود من نومه يصرخ فى ذعر . واقبل الحراس فوقفت هى بالباب تصرفهم قائلة : « ان زوجى النبى يصرخ من شدة الوحى » . وانصرف الحراس مقتنعين بأنها نوبة الوحى ، بينما أجهز عليه ابن عم زوجته ..

وعندما قتل الأسود استطاع الامراء المجاورون أن يطاردوا أنصاره الاغنياء وحراسه الأشداء وعادت المنطقة كلها الى الاسلام ..

خلال هذه المتاعب جاء وفد اليمامة . ومن بينهم رجل عجوز حكيم تعود منذ أعوام طوال أن يركب حماره ويطوف بين الناس يدعوهم الى البحث عن الحقيقة

وكان قومه يحتفظون له بالاحترام الذى تفرضه الحكمة والسن .. وكانت شهرته قد بدأت تتجاوز اليمامة ، وقد سمعت به قريش فاتهمت محمدا فى أول ظهوره بأنه يتعلم من حكيم اليمامة . وتأخر حكيم اليمامة « مسيلمة » وتقدم الوفد وحدثوه عن « مسيلمة » فقال لهم : « انه ليس شركم مكانا » . واعلنوا دخولهم فى الاسلام وذهبوا الى مسيلمة فجاءوا به واستقبله محمد فاحسن استقباله

وتحدث مسيلمة عما كان قد اهتدى اليـــه ثم سأل محمدا أن يقتسم معه ملك الارض .. وكان محمد ينكث الارض بعود من سعف النخل فقال لمسيلمة « لو سألتنيه لأبيته عليك » . وتحـــدث طويلا فشرح له محمد تعاليم الاسلام واعلن مسيلمة أنه يقتنع بها ..

وعاد مع قومه واليا على اليمـــامة .. ولكنه لم يكد يستقر فى اليمامة حتى ضاق بالزكاة . وكان غنيا واسع الغنى ، وحز فى نفسه أن يكون واليا ـ أباح لنفسه من الاموال ما ليس له ، واتخذ أبهة الملك .. فأقام له قصرا فاخرا وان ظل يحتفظ بحماره ـ تحت امرة محمد ، وهو الذى ظل يبحث عن الحقيقة ويبشر بها قبل أن يدعو محمد الى دينه بثلاثين عاما ! .. فدعا قومه الى دين جديد لا زكاة فيه ولا قيود .. لم لايكتفى محمد بملك الحجاز ، ويصبح هو ملكا على ما بقى ؟! .. وأرسل الى محمد كتابا يقول فيه : « أما بعد فانى أشركت فى الامر معك ، وان لنا نصف الارض ولقريش نصف الارض ولكن قريشا قوم يعتدون »

وسأل محمد رسولى مسيلمة ، فما تقولان انتما فقالا « نقول كما قال » ..

كان معظم أغنياء اليمامة فى الحق يقولون كما قال ..
وكتب محمد الى مسيلمة « بسم الله الرحمن الرحيم ،من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين »

غير أن مسيلمة ظل يطلق على نفسه رسول الله ..وظل ينتقل على حماره بين القرى ــ كما كان يفعل المسيح ــ يدعو الناس الى دين آخر بلا زكاة ..

والأتباع يتزايدون من ورائه على حين أوشك محمد أن يوحد القبائل العربية جميعا فى أمة واحدة ..

كل هذا التمزق ، والمرض أيضا ! .. مازالت العلة تداهمه منذ ذاق الشاة المسمومة فى خيبر ! .. وها هو ذا اليوم يرقد موجع القلب مما يصنعه مسيلمة فى اليمامة، متعب البدن من آثار السم ..

والاغنياء من المسلمين الجدد يرفعون راية العصيان ضده ويعطلون الزكاة ، والانبياء الكذابون يمشون فى الأطراف البعيدة .. ثم هؤلاء الروم أيضا يحتشدون على الحدود !! كل يوم تصل أنباء جديدة عن استعداد هرقل الروم ! ..ان هرقل ليشعر بنمو الامة الجديدة ويدرك أن هذه الامة ستكون خطرا عليه فرجالها يقذفون أنفسهم على الاعداء بارادة النصر لايردهم شيء حتى الموت نفسه . انهم ليحاربون بحرص غريب على الموت ، ولئن تركهم هرقل حتى يقبلوا فلن تقوم للدولة الرومانية فى هذا الشرق قائمة بعد .. فليبدأ هرقل !

ورأى محمد ألا ينتظر حتى يقذف هرقل بجنوده عليهم، فيدخل مكة أو المدينة . فليزحف المسلمون الى دولته ليخلصوا من بطشه المستضعفين من الرجال والنساء

واستشار أصحابه ، فاجمعوا أن يخرجوا للقاء جيوش هرقل وان يقتحموا الى قلب دولته .. كانت الحملة تحتاج الى عدد كبير من الجنود ، والى اموال كثيرة لتأمين امداداتها .. واهاب محمد بصحابه أن يتطوعوا ، فدفع ابو بكر كل مايملك ، ودفع عثمان وعبد الرحمن بن عوف معظم ثروتهما الطائلة ودفع عمر نصف مايملك ، واندفع من ورائهم المسلمون القدماء يتبرعون : النساء بحليهن والرجال بما يملكون .. حتى بالاقوات فى بعض الاحايين ..

واقبل الناس على التطوع بحماس غريب ولكن عبدالله ابن ابى وقف يعارض الحملة ويذكر الناس بما حدث فى مؤته : « اتحسبون لقاء الروم كقتال العرب بعضهم لبعض ؟ والله لكأنكم عند وصولكم امام العدو المدرع قد انهككم جهد الحال والحر والبلد البعيد ! »

وعلى الرغم من فورة الحماسة التى حشدت كثيرا من الناس .. فقد هدت كلمات ابن ابى بعض العزائم . انهم ليذكرون كيف اوشك جيش الروم أن يسحقهم فى مؤتة !.. ثم هذا الحر !؟ لماذا لم يمهلهم محمد حتى ينتهى الحر ؟ انه لموسم الحصاد ايضا . أيتركون الحصاد ليغامروا فى بلاد مجهولة ؟..

وترددت النداءات : « لاتنفروا فى الحر » . وتوالت الهمسات : « مالهذا انضممنا الى الاسلام ! ابعد ان اتاح لنا حياة ناعمة . ابعد ان اعطانا المناصب والجاه والغنى وكل ما يملأ النفس بالكبرياء يطالبنا ان ننتزع أنفسنا من هذا كله لنخوض فى الصحراء ونحارب الروم

وبداوا يعتذرون .. بعضهم يقول انه راجع نفسه فوجد ان مايحركه الى القتال انما هو الطمع فى الجوارى الروميات ، فهو يقعد اذن خوف الفتنة !

ويهز محمد رأسه حنقا عليهم وهو يتلو : يقعدون خوف الفتنة ؟ « الا فى الفتنة سقطوا ! » وبعضهم يطالب محمدا أن يمهله حتى يفرغ من الحصاد .. وبعضهم يقول انه لايجد مايركبه .. وبعضهم ينصحه الا يخرج الآن للحرب!

ولكن محمدا أعلن الزحف .. وأذن للمرضى والضعفاء والذين لايجدون ماينفقون ، أن يتخلفوا فما عليهم من سبيل ، ولا على الذين لايجدون دابة يخرجون عليها .. وتولوا وأعينهم تفيض من الدمع « انما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون »

وخرج معه كثيرون على الرغم من كل شيء ، ولم يجرؤ واحد على التخلف .. حتى ابن أبى نفسه .. ومضوا جميعا يخوضون الصحارى الشاسعة .. الى الشام ، للقاء جيوش هرقل .. وعلى الطريق لحق بهم أبو ذر ماشيا اذ لم يجد مايركبه !

ولكن عبد الله بن أبى انسحب بجزء من الجيش فى بعض الطريق ، وانهارت حماسة الجنود ، وأخذ محمد يشجع من بقى معه على المسير . وانطلقوا جميعا الى حدود الشام تحت عواصف قاسية ملتهبة من رمال تشوى الوجوه والابدان ! .. أما الذين انسحبوا فقد استقبلهم النساء فى المدينة بالعويل ، وحثوا فى وجوههم التراب !

وبدأ الندم يعصر قلوب بعض الذين هربوا .. ورأى رجل منهم نفسه ذات ضحى يجلس تحت عريشه فى الظل ، وامرأة له تتزين وامرأة أخرى تدعوه .. فقام مروعا يلعن نفسه ان يجلس فى الظل بين امرأتيه ، ومحمد يسعى فى الهجير تحت لفحات الشمس ، وركب وعاد الى الجيش !

وبعد سبعة أيام من السير المضنى فى الصحراء بلغ محمد

وجيشه حدود الدولة الرومانية . وتقدم أمير المنطقة يعرض على محمد الصلح على أن يدفع له الجزية فقبل ..

ثم اندفع بجيشه فرحا بهذا النصر الذى ملأ قلوب رجاله بالأمل والثقة بعد شقاء السير الطويل . وعلى ابواب مدينة منيعة اسمها تبوك وقف محمد بجيشه ، وكانت ضجة الجيش قد روعت قطعان البقر الوحشى التى ترعى فى البوادى فاندفعت الى أسوار المدينة .. ورآها الملك هو وزوجته فقررا أن ينزلا للصيد فى الليل ..

وأصدر محمد أمره الى خالد بن الوليد أن يقود هو الجيش للاستيلاء على حصون المدينة المنيعة . وظل خالد يتربص ، حتى اذا رأى الملك وزوجته وبعض الحاشية يخرجون للصيد .. هاجمهم جميعا وأسر الملك

واذ سقط الملك ، استسلمت كل الحصون .. وأرسل خالد الى محمد طيلسان الملك . وملأ هذا النصر الخاطف قلوب المسلمين بثقة جديدة غريبة ، فانتقلوا من موقعة الى موقعة ، وقهروا كل الحاميات الرومانية،وحرروا القبائل العربية هناك من حكم الرومان ، واعلنت تلك القبائل اسلامها ..

حدث هذا كله فى عشرين يوما .. فاقترح عمر أن يعود الجيش الى المدينة مكتفيا بهذا القدر من الانتصارات مادامت جيوش هرقل قد انسحبت منهزمة الى قواعدها البعيدة لتوقع المسلمين فى المصيدة

وأذن محمد بالرحيل .. وغادروا تبوك الى المدينة محملين بالغنائم .. وقد كسبوا الى الاسلام كل القبائل العربية التى كانت خاضعة لنفوذ الرومان

وفى المدينة قرر محمد أن يعاقب الذين تخلفوا عنه وانسحبوا من الجيش فاعلن أول الامر مقاطعتهم جميعا

وحرم على الناس أن يكلموهم او يتعاملوا معهم وظلوا محاصرين في القطيعة لا يكلمهم احد ، حتى الزوجات والابناء

وثقلت عليهم وطأة الاحساس بالذنب فأقبلوا يطلبون العفو .. ولكن محمدا كان قد صمم على أن يعاقبهم أشد العقاب ، هؤلاء الذين انضموا اليه بحثاً عن المكاسب وحدها حتى اذا جاءت ساعة الروع تخلوا عنه وآثروا لين العيش !

وتلا : « يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم ، قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون ، سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم . فأعرض عنهم انهم رجس ، ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون »

واقترح عمر أن تقطع رءوس زعمائهم وفى طليعتهم عبد الله بن أبى .. ولكن عبد الله بن أبى كان قد مات

واشتدت القطيعة عليهم حتى لقد هدد بعضهم أن يمشى فى الارض بلا طعام حتى يهلك .. واذ استيقن محمد أنهم ما برحوا يملكون فى الاعماق منهم ضمائر تستطيع أن تعذبهم . أصدر عفوه عنهم .. وأخذ عليهم موثقا ان يخلصوا للناس ما بقى لهم من العمر

ثم أخذ ينظم السرايا لردع الاغنياء الذين تمردوا على الزكاة ولتأديب الذين يريدون أن يمزقوا وحدة القبائل من جديد ، بعد أن أعلن محمد فى كل أنحاء الجزيرة بين القبائل : يأيها الناس أنتم أمة واحدة .. فليعملوا بلا هوادة ليكونوا أمة واحدة ، تحت راية واحدة .. !

قال كلمته .. ومضى !

أقبلوا على المدينة فى ثياب خشنة ، وجوههم يكسوها التزمت ، والشعور مشعثة ، وفي العيون طمع غامض ، وقد نبذوا الثياب والعطر والزخرف والزينة التى ألفوها، عسى أن يقربهم هذا الزهد من قلب محمد ، وينعم عليهم ببعض المناصب فى الدولة الجديدة أو يحفظ لهم ما ورثوه أو يمكنهم من الارض والثروة .. فاذا به يلقاهم فى بردة حسنة ، طيب الرائحة ، منسق الهندام يفوح منه عطر هادىء ، باسما حانيا يصافح بنظراته كل القلوب !!

واعلنوا أنهم يدخلون في الاسلام .. واخذوا يمدحونه فطلب منهم ألا يمدحوه فما فسدت الدنيا من قبل الا لان التابعين كانوا يمدحون من يتخذونه اماماً

وبايعهم على الاسلام .. فقالوا له : امنا .. امنا .. !
بل قولوا أسلمتم ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ! ..

انه ليتألف القلوب .. هذا حق . ويمنح المال احيانا .. ولكن هؤلاء المؤلفة قلوبهم ليسوا هم المؤمنين ، وليس من حقهم ان يطالبوا بالمشاركة فى مسئوليات الحكم على أى نحو .. فلئن وثب الى السلطة بعض الذين يشغل قلوبهم شيء اخر غير الايمان ، لقد تحولت المناصب اذن من مراكز

تشد أوتاد الدولة الجديدة وترسى قيمها وتؤكد العدل والاخاء .. لقد تحولت المناصب اذن الى أماكن للوثوب على

حقوق الناس لاغتيال الارزاق وتكديس الاموال ..

واذن ففيم كان هذا العناء طوال أكثر من عشرين عاما ؟

فيم كانت الصيحة فى وجه الفوضى القديمة باسم المستضعفين فى الارض .. ؟!

أتعرض المؤمنون الاوائل للموت ، وما زالوا يبيتون ببطون خاوية ، لكى يرث المتسلقون سطوة أبى جهل ، ومال بنى النضير ، وكل الجاه الوحشى الذى فرضته الاوضاع القديمة ؟ ..

أكان هذا الجهاد كله فى سبيل تحرير العبيد والمستضعفين وكبرياء الانسان ، لكى تأتى فى النهاية أيام أخرى من العذاب تنشأ فيها طائفة من الاغنياء الجدد تستولى على المناصب ، وتمسك يدها عن الفقراء وتمتلك الرقيق وتثرى على حساب الاخرين ، وتمارس باسم الاسلام كل ما انفجر الاسلام ليقاومه ويحطمه ؟

لا .. ! فلتنفقوا مما تحبون ، بدلا من أن تكنزوا الذهب والفضة والمال ..

« ما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ، ولله ميراث السموات ، لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير . »

وطلب محمد من صديقه أبى بكر أن يذهب ليحج بالناس فى عامه هذا ، فما يستطيع هو أن يبرح المدينة والوفود تقبل عليه بطوفان من المطامع والمفاهيم الخاطئة يهدد القيم الفاضلة التى جاء بها !!

وسار أبو بكر الى الحج .. وبقى هو فى المدينة يستقبل الوفود التى لا تنقطع ويعلم الناس المبادىء الاساسية فى الاسلام ، ويشرح لهم القيم الجديدة التى

جاء بها ، تعبيرا عن حاجة الانسان الى مجتمع أفضل

على أن أبا بكر لم يكد يمضى على رأس الحجاج فى طريقه الى مكة حتى طلب محمد من على بن أبى طالب ان يسرع ليبلغ أبا بكر والحجاج رسالة عاجلة تحدد علاقات المسلمين بالذين لم يسلموا بعد ، وتضع قواعد للحج •• ان الذين لم يسلموا بعد ما زالوا يقبلون على مكة ليطوفوا بالبيت الحرام وليشاركوا فى النشاط التجارى الذى يبلغ أوجه فى مواسم الحج •• لقد تكونت الان طائفة من أغنياء المسلمين الجدد ممن احسنوا استثمار الدين الجديد •• فليس من الضرورى ان ترتبط مصالحهم بمصالح الاغنياء من غير المسلمين •• والا عرضوا الدولة الجديدة لهزة خطيرة •• !

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا فى الارض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وان الله مخزى الكافرين •• وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم • » « ياأيها الذين امنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله »

ثم أكمل على بقية رسالة محمد الى الحجاج المسلمين : أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان

وعاد على وأبو بكر بالحجاج ، بعد أن وصلت رسالة محمد الى كل الاذان ، وبعد أن أصبح مفهوما أن الذين يتظاهرون باعتناق الاسلام طمعا فى مكاسب من الدولة

الجديدة ، انما يحكمهم ما يحكم غير المسلمين ..

فليأذنوا بالحرب اذن .. فقد صبر عليهم محمد أكثر من عشرين عاما ، ومنهم من تظاهر بالاســـلام وغالى ، واستغل آدعاءه حتى أثرى ، وما زال قلبه يشغله الطمع في المزيد .. انهم لاثقال تعيق انطلاق الامة الجديدة التى يسودها اليوم نفس القانون وتحكمها نفس القيم الروحية

لقد مات عبد الله بن أبى ، ولم يعد هذا النفر يجدون فيما بينهم من يصلح للتعبير عنهم .. لكم صبر محمد على زعيمهم ذاك ، ولو شاء لتركه لسيوف المؤمنين الاوائل تمزقه ! .. ولكنه صلى عليه حين مات .. ولم يحسن المنافقون الاخرون فهم موقف محمد من عبد الله فى الحياة وبعد الموت ، فانطلقوا فى المدينة من جديد يتحدثون عن ضعف محمد .. عن علمه بما يرتكبه بعض الوصوليين من الذين لم يدخل الايمان قلوبهم ، ثم سكوته عنهم خوفا أو مصانعة !!

وتلا عليهم جميعا : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المـــدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا »

وبدأت الرءوس ترتفع بالتمرد فى أطراف الدولـــة الناشئة .. مسلمون جدد يرفضون أن يدفعـــوا الزكاة والصدقات ، وبدلا من أن يحرروا ما عندهم من عبيد كما حضهم محمد ، بدأوا يقتنون مزيدا من الجوارى والغلمان وينهبون حقوق الفقراء !

وانذر محمد المنافقين فى المدينة آنه سيأخذهم بمثـــل عقوبة الاعداء فى كل ما يقترفونه أثناء الحياة ، وأنه لن

يصلى على أحد منهم مات أبدا !

وأعلن أن من يعدون على حقوق الغير ويعطلون الاحكام التى جاء بها لتحقيق العدالة أو يدمرون مبادىء الاخاء التى تجعل من العرب المتنافرين أمة واحـــــدة ، انما هم المفسدون فى الارض ، وما جزاؤهم الا أن تقطع أطرافهم

وسير الحملات الى الاطراف البعيدة التى أعلن اغنياؤها التمرد وامتنعوا عن دفع الزكاة والصدقات • واســـتطاع هؤلاء الاغنياء بنفوذهم التقليدى الموروث أن يســــوقوا المستضعفين الذين شرعت الزكاة لمصلحتهم ، لكى يحاربوا دفاعا عن الحرمان •• !

على أن هذه الحملات بقيادة خالد بن الوليد وعلى بن أبى طالب استطاعت أن تحصد رءوس التمرد •• فأقبـل المستضعفون المقهورون يجددون البيعة على الاسلام

وتلفت من حوله الى شئون المدينـــة فلاحظ أن بعض المسلمين ، قد آثروا أكثر مما يجب من التجارة ، وأن بعضهم يحتكر تجارات بالذات فأعلنهم « المحتكر ملعون »!

ومضى يأمرهم أن ينفقوا مما يكسبون•• ومضى صحابته المقربون يعلمون الناس مما علمهم ويضربون الامثال فى البذل ، حتى لقد أراد أحد المســلمين أن يكفر عما كنز فسأل أبا بكر : كم تجب الزكاة فى مائتى درهم ؟ •• فقال له أبو بكر : « خمسة دراهم •• أما نحن فيجب علينا بذل الجميع » ••

وفى تلك الايام التى سادتها الرغبة فى المتاع بمــا كسب المسلمون من غنائم ، شن محمد حملات قاســية على الغنى ، ومن أجل المساواة ، حتى لقد رجع غاضبا من على باب فاطمة حين رأى ستارا موشيا على الباب وخاصمها الى أن باعت الستار وتصدقت بثمنه وخاصمها مرة أخرى

لانه رأى فى يديها سوارين من فضة وفى المدينة فقراء

وباعتهما بدرهمين ونصف وأرسلت الثمن الى أهل بيت بهم حاجة ! •• وشن حملة المساواة نفسها على الوفود التى أقبلت تجدد البيعة •• وعندما كان يستقبل اخر هذه الوفود والراية الواحدة ترتفع أمام عينيه على شتات القبائل المتفرقة ، والفرحة تغمر قلبه بآخر انتصاراته ، أقبل من بيت مارية من يطلبه •• ان ابنه الوحيد ابراهيم يعانى وطأة مرض غريب •• !

ومات ابنه ابراهيم على ذراعيه •• الطفل الذى طالما علق عليه كثيرا من الامال •• وسالت دموعه •• دموع أب لم يعد له أمل فى أن ينجب ولدا اخر بعد !

لماذا يجب أن يحدث له مثل هذا ؟ ولكنه قال فى استسلام مذعن : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يحزن الرب ولولا أن الموت وعد صادق وموعد جامع ، فان الاخر منا يتبع الاول ، لوجدنا عليك يا ابراهيم وجدا شديدا ما وجدناه انا لله وانا اليه راجعون •• »

وخرج يشيعه حتى القبر ، فى صمت فاجع ودمعه يسيل •• وعجب بعض أصحابه لبكائه هذا •• ان الميت طفل صغير وهو •• هو الشيخ الذى يقترب الان من الثالثة والستين ، هو بكل جلاله لا يليق به أن يبكى !!

واقترب منه عبد الرحمن بن عوف وقال مستنكرا : « أولم تكن نهيت عن البكاء ؟ » ••

وأجابه : « ما عن الحزن نهيت ، وانما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء •• وان ما ترون بى أثر ما فى القلب من محبة ورحمة ، ومن لم يبد الرحمة لم يبد غيره عليه الرحمة » ••

وسوى التراب على جثمان الطفل ، ووقف الاب الثاكل

يصلى عليه ٠٠ وكسفت الشمس ولم يعد للنهـــار لون الضياء ٠٠ وعندما انتهى من الصلاة سمع الناس يتناجون وهم عائدون به الى المسجد : ان الشمس كسفت حزنا على موت ابراهيم ٠٠ لا ٠٠ يا أيها الناس لا تلصقوا بى ما ليس لى ٠ وقال لهم مغضبا : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته » ٠٠ يأيها الناس لا ترفعونى فوق مكانى ٠٠ لا تطرونى ٠٠ « انما أنا بشر مثلكم » ٠٠ « وانى لاكره أن أتميز عليكم »

وعاد الى بيت مارية، الام الثكلى فواساها ، اما هو فلم يفلح أحد على الاطلاق فى تخفيف لوعته على ابراهيم

على أنه لم يعتزل الناس ، بل خرج الى المسجد ٠٠ منهكا هذه المرة ٠٠

عاد يحدثهم عن الحياة والموت والعدل والرحمـــــة والاخاء ، ثم يسكت قليلا ليمسح دمعة خضلت لحيته ٠٠ ما رؤى حزينا من قبل كما رؤى فى تلك الايام ٠٠ لماذا أصبح للحياة رنين مؤس كالوداع ٠٠ ؟

والالم الذى عرفه منذ سم خيبر يعاوده من جديد ٠٠ ولكنه لا يريد أن يستسلم لاية آلام ٠٠ لا لآثار الســم التى تنهشه فى بطء ولا للاحزان التى تعصر كبـــده بقسوة ٠٠ ان هؤلاء الناس العديدين من المدينة ومكـة وكل مضارب الخيام وكل الاطراف البعيدة ٠٠ انهم فى حاجة الى اجتماع ضخم يتلاقون فيه تحت راية واحـــدة يفعلون معا نفس الاشياء بنفس الايمان ليعمق فيهم الشعور بالوحدة ٠٠

انهم جميعا ٠٠ هؤلاء الذين يتحمل هو مسئولياتهم لفى حاجة الى تدعيم التعاليم التى جاء بها ٠٠ وأعلن أنه سيخرج الى الحج من عامههذا ٠٠وسألت الجبال والوديان

بعشرات الآلاف من الحجاج يسوقون أمامهم الالاف من الهدى سالت بهن الاباطح ..

والتقى الجميع فى مكة .. وأخذ محمد كل زوجاته ، وتقدم أكثر من مائة ألف من الحجاج ليلتقوا به فى مكة ، وهو أمامهم يعلمهم الشعائر التى يجب أن يتبعها الرجال والنساء على السواء .. يعلمهم الاحلال والاحرام ويشرع من خلال ما يأمر به زوجاته ما يجب على المرأة الحاجة ..

ومن على قمة الجبل ارتفع صوت أكثر من مائة ألف مسلم لاول مرة يردد نفس الكلمات « لبيك اللهم لبيك .. لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة والشكر لك لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك »

وطاف أمامهم وسعى أمامهم .. وهم من ورائه يصنعون نفس الاشياء .. ويقولون نفس الكلمات ، باحســـــاس جديد خارق ، بأن ثمت ما يجعلهم أمة واحدة

وعندما انتهت مراسم الحج عاوده الالم والحزن من جديد .. لم يكن حزنا على ابنه الراحل هذه المرة ، ولكن شيئا فى أعماقه ملأه بأسى الوداع .. لكأنها حجة الوداع ، لكأنه لن يرى هؤلاء الناس، ولا هذه الاماكن مرة أخرى ..

وغلبه الالم .. ولكن ما زالت فى الاعماق منه أشياء يريد أن يقولها للناس .. والتف الناس من حوله .. مائة ألف جاءوا من كل مكان فى الجزيرة يريدون أن يروه وأن يسمعوا صوته .. ان لصوته رنة من السماء ، فيقول : « انما أنا بشر مثلكم »

ولكن همسات الآلاف تبلغه : « ان فى وجهه نورا من الغيب ، ويده تمس الصخر فيتفجر منه الماء » . ولكنه حين يسمع هذا يغضب وينفر العرق من جبهته وينهى الناس عن أن يضيفوا اليه ما ليس له .. انه يقول :

« انما أنا بشر مثلكم » ·· بشر يحب الطيب والنسـاء وقرة عينه فى الصلاة ! ··

بشر جاء بمكارم الاخلاق ·· هكذا يقول دائما ·· وانه ليضحك ويبكى ويأكل الطعـام ويمشى فى الاسواق ، ويستشير الناس كيلا يخطىء ، وينزل عند رأى الغالبية ، ويغضب ويرضى · ويرفض أن يقبل يده أحد ، انه بشر لا يفجر الماء ولا يضىء الظلمات·· بشر من لحم ودم وأعصاب وانما جاءكم بمكارم الاخلاق ·· فلا تغضبوه أيها الناس ·· لا تقولوا له سـيدنا فانه ليغضب من هذه الكلمة وينهى عنها

وهدأت حركة الاعناق المتطلعة اليه ·· هذا الرجل الذى يؤاخى بين العبيد والسادة ، وبين المساكين والمـلاك الكبار ويجعل من الصدق والامانة والوفاء دسـتورا للعلاقات بين الناس ، ويضع كل بريق خاطف زائف تحت قدميه ، ويؤكد دائما أنه بشر كالاخرين !

وارتفع صوته يخطب الناس الذين أقبلوا من كل مكان ليحجوا معه ، وليروه ويستمعوا اليه ·· ولكن صوته لم يبلغ الناس ، فأمر أحد الذين وقفوا الى جواره أن يردد ما يقوله بصوت مرتفع ·· وليردده ثالث ورابع وآخرون حتى يسمع الناس جميعا ، وعبرت كلماته من رجل الى رجل : « أيها الناس اسمعوا قولى فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا »

ووجم الناس ·· لعله لا يلقاهم بعد عامه هذا أبدا ؟ · أممكن هذا ؟ ·· ولكنه يقول لهم دائما « انما أنا بشر مثلكم » « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل »

وارتفعت الاصوات بكلماته : « ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وانكم ستلقون

ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها وان كل ربا موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .. قضى الله أنه لا ربا ، وان ربا العباس بن عبد المطلب موضوع . وان كل دم كان فى الجاهلية موضوع .. أما بعد أيها الناس فان لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا .. استوصوا بالنساء خيرا فانهن عندكم عوان لا يملكن لانفسهن شيئا وانكم انما أخذتموهن بأمانة الله .. فأعقلوا أيها الناس قولى فانى قد بلغت .. وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا .. أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين اخوة فلا يحل لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت ؟ اللهم أشهد . »

وسكت قليلا ودهمته حمى مفاجئة ، ولكنه تلا عليهم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً »

ومال الى الكعبة فجلس فى ظلها .. وهناك وجد مظاهر الغنى تبدو على بعض الناس ، ومظاهر الفقر تميز الباقين

وجاءه أبو ذر فوجده يتلو : والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » . ثم مال الى أبى ذر وصاح : هم الاخسرون ورب الكعبة » فسأله أبو ذر من هم فقال : الاكثرون أموالا .. ما من صاحب ابل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها الا جاءت يوم القيامة أعظم مما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطأه بأظلافها كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس ..

وقام فى طريقه الى المدينة ‥ وانصرف الناس الى بلادهم يفكرون فيما سمعوه

وعندما بلغ المدينة استقبله أهلها ، وتدفق عليه الاطفال ‥ ونزل من على ناقته فسلم على مستقبليه وداعب بعض الاطفال وأركبهم على ناقته ‥

ودخل الى بيت زوجته زينب بنت جحش يستريح ‥ كانت نفسه تفيض بالرضا مما رآه فى موسم الحج ‥ هذه الآلاف العديدة من كل الجزيرة العربية ‥ يجب الا يكون فى الجزيرة دينان ‥

غير أن الروم على الحدود الشمالية يهددون الامة الجديدة ويفرضون الاساليب الوحشية على العلاقات بين الناس ‥ ما زال السادة هناك يبطشون بالضعفاء ‥

فلتتحرر أمته من تهديد الروم ‥ ليسر جيش جديد الى سوريا حيث سقط زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب منذ سنين ‥ ليقتحم الجيش أسوار دولة الروم وليضع حدا لتهديداتها الدائمة وليحرر الانسان المعذب هناك !

وأمر بتجهيز الجيش وجعل عليه أسامة بن زيد بن حارثة ‥ انه لجدير بأن يثأر لأبيه ولكل شهداء مؤته ‥ ان حربا مثل هذه لفى حاجة الى شباب يندفعون بالحرص على الاستشهاد يؤجج حماسهم حب الحرية ‥

وملأ الجيش بالشباب ووضع فيه كثيرا من القادة المجربين تحت امرة أسامة وتعالت الاعتراضات تطعن فى هذا الاختيار ‥

وارتفعت أصوات تطالبه بألا يبعث مثل هذا الجيش تحت قيادة شاب فى العشرين . ولكنه واجه الاعتراضات قائلا : « أيها الناس انفذوا بعث أسامة ، فلعمرى لئن قلتم فى امارته ، لقد قلتم فى امارة أبيه من قبله وانه

لخليق للامارة وان كان أبوه لخليقا بها »

ولم يكد الجيش يخرج من المدينة حتى سقط محمد مريضا ، وعلم أسامة أن محمدا لا يستطيع أن يخرج الى الصلاة . فآثر أسامة ان ينتظر قرب المدينة حتى لا ينتهز المنافقون المستخفون فرصة خروج الجيش ومرض محمد فيحدثوا انقلابا فى المدينة

وقرر أن يعاود السير حين تصله أنباء مطمئنة .. وقام محمد من بيت زينب بنت جحش الى بيت ميمونة صاحبة النوبة .. ولكنه شعر بحالته تسوء فاستأذنها أن يرقد فى بيت عائشة .. وجر قدميه الى بيت عائشة مستندا الى عمه العباس وابن عمه على بن أبى طالب ولقيته عائشة وقد عصبت راسها بمنديل وشكت له من المرض

فغالب ضعفه وقال مبتسما : « وما ضرك لو مت قبلى فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك ؟ » فصاحت عائشة مغضبة : « ليكن ذلك حظ غيرى والله لكانى بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت الى بيتى فاعرست فيه ببعض نسائك » ..

وضحك .. وضحك العباس وعلى .. وكانت هذه أول مرة تعرف البسمة طريقها الى شفتيه منذ مات وحيده ابراهيم

وأقبلت ابنته فأجلسها الى جواره على الفراش قائلا : « أهلا بنتى » . ومضى يداعبها كما كان يصنع معها وهى طفلة .. وقضى أياما فى بيت عائشة يشكو من آلام الكبد وارتفاع الحرارة ، وفاطمة وعائشة الى جواره يرطبان جبهته وأطرافه بالماء ..

وأمر أن يصلى أبو بكر بالناس ، ولكن عائشة راجعته خشية أن يظن الناس أنها هى التى أثرت عليه أن يختار

أبا بكر فنهرها معرضا بالنساء جميعا : « أنتن صواحب يوسف »

وصلى أبو بكر بالناس .. وشعر محمد أنه يستطيع أن يمشي فى البيت ، وكان بيت عائشة ككل بيوت زوجاته يفضي الى المسجد .. ووقف بباب البيت واذ رأى الناس يتفرجون أشار اليهم أن يستمروا ودخل بيته . ولكنه أنس فى نفسه العافية ذات صباح فطلب من أصحابه أن يساعدوه حتى يلقى الناس بالمسجد

وجلس على المنبر يقول : « أيها الناس ، من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منى ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قبلى فانها ليست من شأنى »

وطالبه رجل بثلاثة دراهم فأعطاها له قائلا : « الا ان فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » . ثم أوصاهم بالانصار ، وأوصاهم أن يكون الاخاء دائما هو ما يسود علاقاتهم وأن يعاملوا كل من يدخل فى الاسلام كما يتعاملون فيما بينهم .. وأوصاهم بالصلاة والزكاة !

لقد جاءهم بكل شيء فيه صلاحهم وجعلهم أمة واحدة تحت راية واحدة تؤمن بالله واحد ودين واحد وقيم واحدة

وناشدهم العدل فيما بينهم وعلمهم أن « يوم الوالي العادل أفضل من عبادة سبعين عاما » وعلمهم : « ان من أخذ شبرا من الارض ظلما فانه يطوقه يوم القيامة سبع أرضين » .. وعلمهم الجهاد من أجل تحرر الانسان وقال لهم : لكل أمة رهبانية ورهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله

علمهم الصدق وأن شهادة الزور هى أكبر الكبائر « وكبرت خيانة عند الله أن تحدث أخاك حديثا هو لك مصدق وأنت له كاذب » . ونهاهم عن البخل وسوء

الخلق .. وهل لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ..

علمهم مقاومة الظلم ، وقال لهم : « اذا رأيتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب » .. وحذرهم من أمراء يكونون بعده « يكلمون ويكذبون فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولا أنا منه

ونهاهم عن الرشوة : « من شفع شفاعة لأحد فاهدى له هدية عليها فقبلها فقد أتى بابا عظيما من أبواب الكبائر » . وعلمهم أنه : « ما ينبغى لمؤمن يكون بخيلا ولا جبانا » . وحذرهم من الرياء : « انى تخوفت على أمتى الشرك أما انهم لا يعبدون صنما ولا شمسا ولا قمرا ولا حجرا ، ولكنهم يراءون بأعمالهم » .. وحضهم على طلب العلم وقال لهم : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » « العلماء ورثة الانبياء »

وطالبهم بأن يكونوا أحرارا أمام الحياة .. وأن يمارسوا حرية العمل .. ولام الذين يقولون ان الانسان مجبر مسير ، لا اختيار له فتلا عليهم آيات تسخر من هذا القول : « .. لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء .. كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » ..

الانسان حر .. وعمله هو الذى يشكله .. هذا هو ما جاءهم به .. الصدق والبر ورعاية الوالدين ، ومكارم الاخلاق ، والرحمة ، والعدل والمساواة والشجاعة والكرم ، وحق الانسان فى الحرية وواجبه المقدس فى الدفاع عن المستضعفين ، وعن حرية الآخرين

كل هذا جاءهم به خلال ثلاثة وعشرين عاما ..

لكم عانى فى سبيل اقرار كل القيم التى جاءهم بها ، وكافح من اجلها ، حتى أصبحت دستورا لأمة واحدة كانت من قبل قبائل متنافرة !

وأجهده الكفاح الطويل .. وعاد السم الذى دسه اليهود فى طعامه بخيبر ، ينوش كبده من جديد !

ودخل بيت عائشة من الباب المفضى الى المسجد .. ولكنه لم يكد يبلغ فراشه ، فقد أغمى عليه .. حتى اذا أفاق وجد أصحابه من حوله فقـال : « ائتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا »

واشار عمر الى الحاضرين الا يتحركوا قائلا : « قد غلبه الوجع وعندكم القرآن .. حسبنا كتاب الله »

وتناقش الحاضرون وارتفعت اصواتهم .. فأشار اليهم أن ينصرفوا .. على أنه أنفق أياما شعر فيها ببعض العافية ، وأمر اصحابه ان ينصرفوا الى شئونهم الخاصة

فانصرف أبو بكر الى بيت له بخارج المدينة ، وذهب كل أصحابه الى مزارعهم ومتاجرهم الخاصة .. وبقيت عائشة وحدها ورأسه فى حجرها ، وهى تمسح وجهـه بالماء البارد لتخفف الحمى .. واذ برأسه يثقل فجأة !

أرسلت عائشة تستدعى أباها ، وبقية الزوجات .. ووافتها حفصة بنت عمر ، وكلمتاه فلم يجب

وقامت عائشة تصرخ وتستغيث .. وأقبل عدد من المسلمين .. والتفوا حوله ، وتردد أنفاسه « أوصيكم بالصلاة .. والزكاة .. وما ملكت أيمانكم .. »

ثم أغمض عينيه الى الأبد ..

وارتفع الصراخ : مات رسول الله .. مات محمد

وازدحم البيت بالرجال ، والنساء يلطمن الخدود ، والصرخات ترتفع

مستحيل أن يموت ! .. من كان مثله لا يمكن أن يموت !.. يجب ألا يموت !.. هذا الرائد الغريب الذى حقق معجزة الانسان .. ولكنه كان يقول دائما : انما أنا بشر مثلكم ـ بشر يمرض ويموت .. هو يموت ؟!

وأقبل عمر من بعيد يصرخ فى الناس ويهدد الذين قالوا ان محمدا قد مات ! .. ولكن محمدا قد مات !

جاء أبو بكر .. فارتمى على جسده وقبله والدموع تنهمر على الفراش وهو ينوح : « بأبى أنت وأمى .. ما أطيبك حيا وميتا »

وذهل عثمان فهو يراح به ويجاء ، مايطيق أن يتكلم .. وتهاوى على بن أبى طالب فما يقوم من مكانه ..

وارتفعت أصوات غريبة .. لو أنه كان نبيا صادقا حقا لما مات .. ! ولكنه قد مات

ووقف أبو بكر وصوته يفيض فى الدموع يذكر الناس بما علمهم محمد : « انك ميت وانهم ميتون » .. « أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم »

وأفاق عمر وهو يسمع كلمات أبى بكر فقال : « والله لكأنى لم أسمع بهذه الآيات قبل الآن » ثم خر على الارض يطلق نواحه الفاجع .. ان محمدا قد مات

واستمر أبو بكر يقول : « من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت »

نعم .. ان محمدا قد مات .. وقد ظل يقول لهم : « انما أنا بشر مثلكم »

ولكن الذى جاء به محمد يجب الا يموت .. فليقف هؤلاء الذين ترنحهم الصدمة .. وليمسك أبو بكر الشعلة بيد ثابتة كى لا تنطفىء أبدا !

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيــة : السيد نخلة سكاف

جــــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

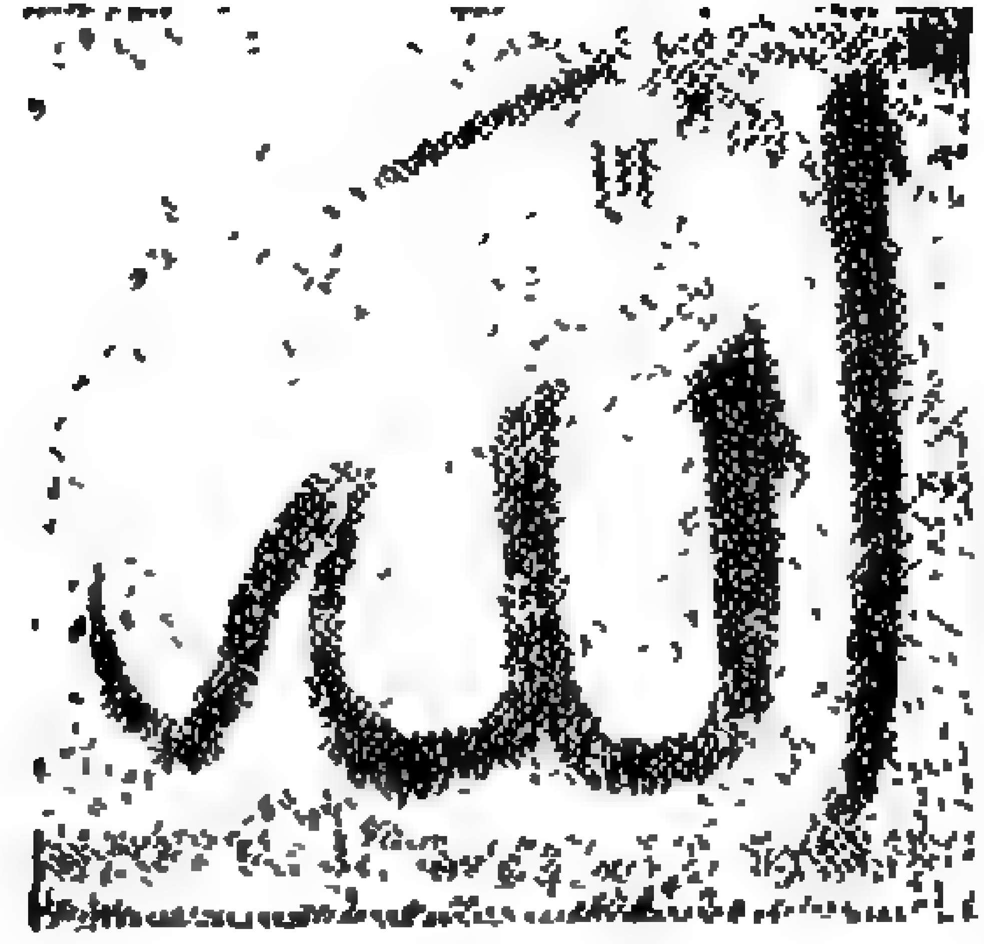
البحــرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص.ب ٢١

البرازيــل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

نيجــيريا : Mr. Mohamed Said Mansour
Atlas Library Company,
26, Nnamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA



هذا الكتاب

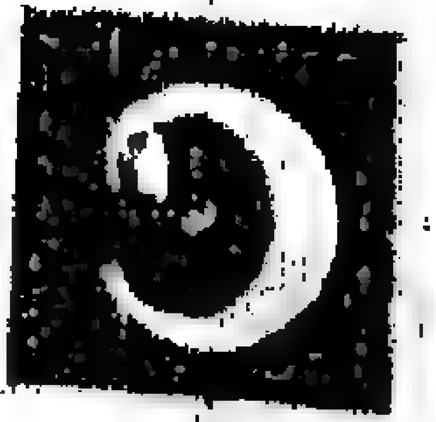
انا لا اقدم كتابا جديدا فى السيرة ، فمكتبة السيرة غنية زاخرة بالمؤلفات القديمة والحديثة ، ولكنى اردت ان اصور قصة انسان اتسع قلبه لآلام البشر ومشكلاتهم واحلامهم ، وكونت تعاليمه حضارة زاهرة خصبة اغنت وجدان العالم كله لقرون طوال ..

لسنا فى حاجة الى كتاب جديد عن الدين يقرأه المسلمون وحدهم ولكننا فى حاجة الى مئات من الكتب عن التطور الذى يمثله الاسلام ، كتب يقرأها المسلمون وغير المسلمين .. انها لمحاولة اقدمها ــ اولا ــ الى غير المؤمنين بمحمد راجيا ان يتناول القارىء ــ مهما تكن عقيدته ــ هذا الكتاب بنفس الروح التى كتبته بها .. داعيا الله ان ييسر كتابى هذا الفائدة لمن يقرأه

(المؤلف)

كتاب الهلال

١٠ قروش



سلسلة
ثقافية
شهرية

البحث عن شكسبير

الدكتور لويس عوض

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ١٦٧ – شوال ١٣٨٤ – فبراير ١٩٦٥

No. 167 — Fevrier 1965

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

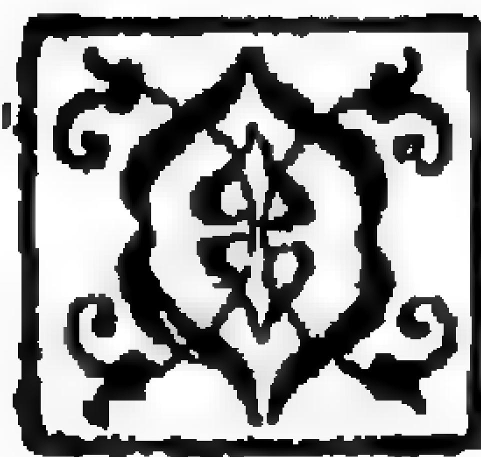
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى – فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا – فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم – فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف – فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

البحث عن شكسبير

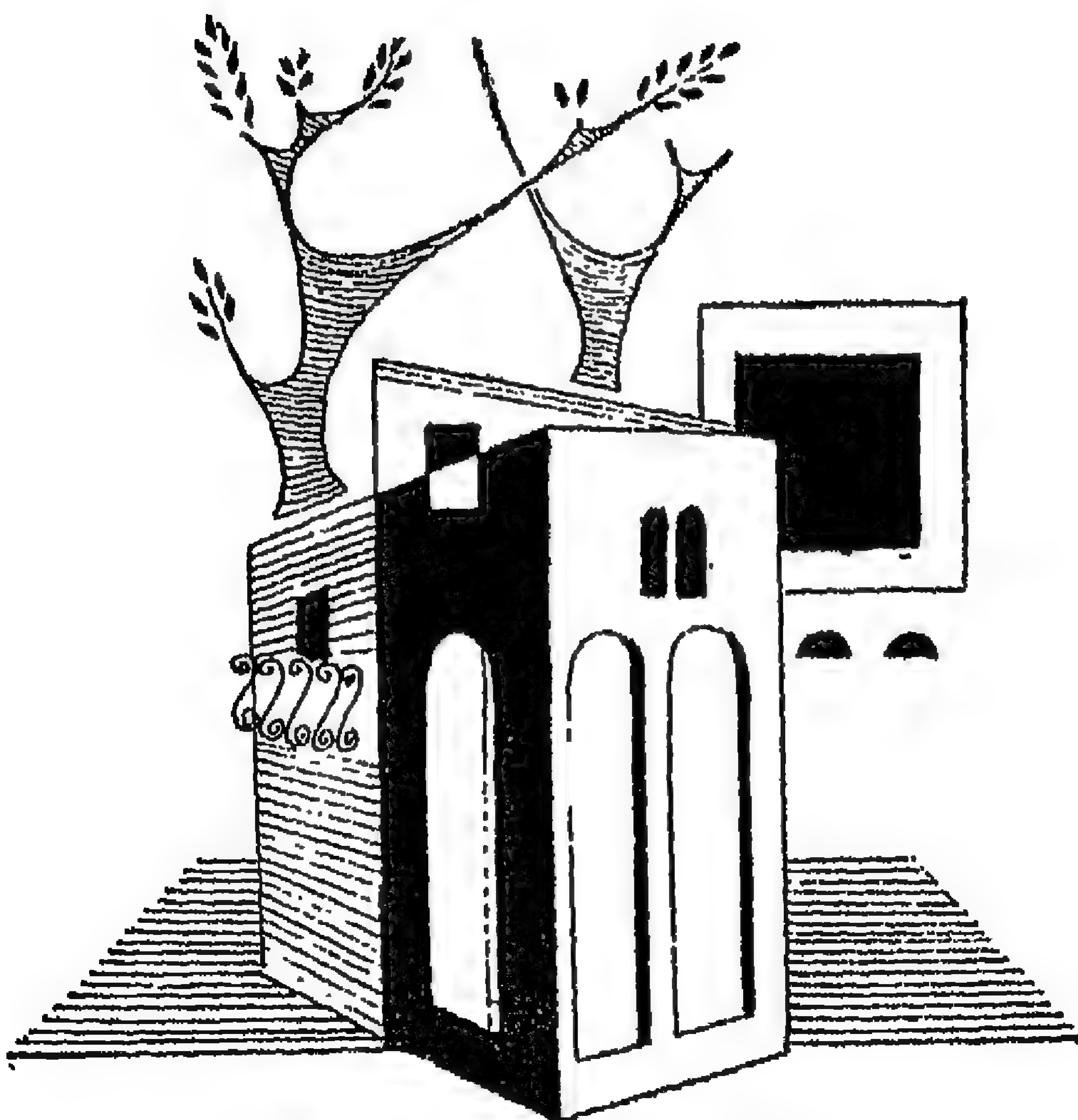
بقلم الدكتور
لويس عوض

دار الهلال

الفصل الأول

مهرجان شكسبير

- سجل انتصارات ولكن خيب الآمال!
- باريس تمثل لوركا وستريندبرج ديونسكو!



•• فى لندن

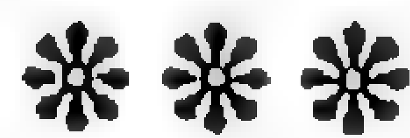
أوفدنى الاهرام الى انجلترا خلال شهر ابريل ١٩٦٤ للاشتراك فى مهرجان شكسبير ، وهو مجموعة الاحتفالات التى أقيمت ولا تزال تقام احتفاء بمرور أربعمائة عام على مولد هذا الشاعر العظيم ، ثم نقل صورة عنها للقراء تعينهم على تتبع هذه الأحداث الأدبية الهامة . ولم تكن مهمتى يسيرة لأنى كنت شديد الحرص على اهتبال هذه الفرصة لتنمية ثقافتى الشخصية بالاطلاع على آخر تطورات الحركة الفنية والأدبية فى انجلترا وفرنسا خارج حكاية المهرجان

وكان السؤال الملح الذى لم يفارق رأسى وأنا فى الطائرة من بيروت الى باريس — فى طريقى الى لندن — هو : ماذا تقرأ باريس ولندن وماذا تشاهدان ؟ وكنت أحسب أول الأمر ، لكثرة ما قرأت عن الاعداد لاحتفالات

شكسبير ، ان هاتين العاصمتين غارقتان تماما فى موجة شكسبيرية طاغية ، فاذا بى أكتشف بعد وصولى أن موكب الحياة يسير فيهما كالمعتاد ، وان احتفالات شكسبير العظيم ليست الا شيئا هامشيا لا يراه الا من يبحث عنه ..

فلما نزلت باريس ، لم أجد لاحتفالات شكسبير أثرا الا بعض الأصداء الخافتة فى صحفها جاءت عبر بحر المانش . فلما نزلت لندن لم أجد بين مسارحها الاثنين والأربعين الا مسرحين .. هما : الأولدفيك والميرميد ، يقدم كل منهما بعض الوقت مسرحية لشكسبير . أما بقية مسارحها ، فكانت تقدم كالمعتاد « النورس » لتشيكوف و « هيدا جابلر » لابسن و « يرما » للوركا و « كاليجولا » لكامى و « بيتوس المسكين » لانوى ، الى جانب ما تقدمه من مسرحيات جديدة ذاع صيتها مثل مسرحية « من يخاف من فرجنيا وولف ؟ » ومسرحية « اخفض رأسك واسلم الروح » (أو حرفيا) « دلدل رأسك وموت » بالعامية .. ومسرحية « يا لها من حرب لذيذة » الخ .. ولم أحس حقا بأن هناك مهرجانا للاحتفال بذكرى شكسبير الا حين انتقلت الى قرية

ستراتفورد ايون افون ، وهى مسقط رأس شكسبير والى مدينة تشيشستر بجنوب انجلترا ، حيث كانت فرقة كندية تقدم أجرأ عرض لبعض مسرحيات شكسبير. وقد كان أكثر ما رأيت مجيدا ورائعا وأقله سقيما وضعيفا ، ومع ذلك فقد أصبت بشىء من خيبة الأمل لأن الانجليز لم يحسنوا الاحتفال بذكرى شكسبير العظيم كما ينبغى ، رغم تشدقهم التقليدى منذ القرن التاسع عشر انه لو وضعت الامبراطورية البريطانية فى كفة ووضع شكسبير فى كفة لرجحت كفة شكسبير على كفة الأمبراطورية .. !



سألت صديقا انجليزيا : وماذا فعلت الدولة هنا للاحتفال بذكرى شكسبير ! أجاب : لا شىء الا هذا الطابع التذكارى الذى تظهر فيه صورة شكسبير مع صورة ملكة انجلترا . قالها بفخر ورضا عن النفس ، ومضى يردد : انه لم يحدث منذ كرومويل أن ظهرت على طوابعنا أو عملتنا صور غير صور الملوك . فضحكت وقلت : أنتم لا تتغيرون كثيرا أيها الانجليز ، ولكن هذا ليس بمستغرب فيكم ، فأنتم لا تزالون تتحدثون

عن « حكومة صاحبة الجلالة » و « أسطول صاحبة الجلالة » و « بريد صاحبة الجلالة » . ولو أمكنكم أن تسموا الشعب البريطانى كله « شعب صاحبة الجلالة » لفعلتم . أنتم تعاملون شكسبير كأنه أحد ممتلكات التاج البريطانى ، كأنه لا يزال أحد رعاياكم أما نحن فنفكر فيه كما نفكر فى هوميروس وفى فرجيل وفى دانتى وفى جوته : تبلى العروش وتدول الدول ويبقى الفن الخالد والفكر الخالد ملكا للانسانية جمعاء ثم قلت : أعبر المانش تر كيف يخلد الفرنسيون أدباءهم وفنانيهم . بدل نقودك الاسترلينية فى المطار أو فى البنك بفرنكات فرنسية تجد أن صورة رونسار وفكتور هيجو قد وجدت طريقها الى العملة الفرنسية مثل صورة نابليون ولويس الرابع عشر

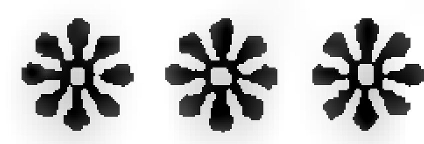
قال صاحبى : ان الملكة قد أوفدت زوجها دوق ادنبرة لينوب عنها فى موكب ٢٣ ابريل ببلدة ستراتفورد مسقط رأس شكسبير . قلت : ان الملكة توفد زوجها دوق ادنبرة لينوب عنها فى تدشين بارجة جديدة أو فى افتتاح معرض جديد ، فماذا كان يضيركم لو قادت الملكة نفسها الموكب التقليدى الكبير من بيت شكسبير

الى قبره ..

قال : لعلها كانت مشغولة بوليــدها الجديد الأمير ادوارد .. وهنا تغير الحديث ..

قلت لصاحبى : أنا أفهم أن تطوف فرقة شكسبير الملكية كما فعلت مختلف بلاد العالم لتعرض مسرحيات شكسبير تشرك العالم فى احياء ذكراه .. أفهم أن تطوف فرقة شكسبير الملكية بين برلين الغربية وبراج وبودابست وبلغراد وبوخارست ووارسو وهيلسنكى وموســكو ولينينجراد ثم تنتقل الى أمريكا فتجول بين واشــنطن ونيويورك وفيلادلفيا وبوسطن لتعرض « الملك لير » و «كوميديا الأخطاء» وقد استقبلها الناس فعلا بحماس شديد حيثما ذهبت فى المشــارق والمغارب . فأثبتت وأثبت الناس أن الفن الانسانى يزيل الحواجز بين البشر ويلغى عداوات السياسة ولو الى حين . ولكنى لا أفهم أن تستضيف مسارح لنــدن فى مهرجان شكسبير من باريس فرقة الكوميدى فرانسيز لتلعب « طرطوف » لموليير و « الشعرة فى العجينة » لجورج فيدو ، أو تستضيف من برلين فرقة مسرح شيلر لتلعب مسرحية « أندورا » لفريش ومسرحية « كلافيجو » لجوتة على

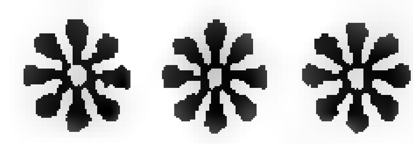
خشبة الأولدويتش . أو أن تستضيف من وارسو الفرقة البولندية لتلعب مسرحيات بولندية مثل « ياله من حلم جميل » و « دعنا نفرح ونمرح » لمروجيك ؛ أو أن تستضيف من أثينا الفرقة الفنية لتلعب « الطير » لارسطوفانيس باليونانية ، أو أن تستضيف من موسكو فرقة مسرح الفنون لتلعب « الأرواح الميتة » لجوجول و « بستان الكرز » لتشيكوف بالروسية . أو أن تستضيف من نابولى فرقة بينودى فيليبو لتلعب بالايطالية احدى مسرحيات فيليبو «تحول شاعر جوال»



كل هذه مسرحيات جميلة ورائعة ولكنى لا أعتقد أن مكانها الطبيعى احتفالات شكسبير . وقد كنت أتمنى أن تفد كل هذه الفرق الى انجلترا لا لتمثل موليير أو فيدو أو جوجول أو تشيكوف أو جوته أو أرسطوفانيس، ولكن لتمثل مسرحيات شكسبير بمختلف لغات الأرض مشاركة منها ومن شعوبها فى احياء ذكرى هذا الشاعر العظيم . أليس عجيبا أن نرى فى لندن كل شيء يمثل الا شكسبير ، حتى الفرق الانجليزية نفسها فى لندن لا تمثل شكسبير ، ولولا تقديم لورانس

أوليفييه لمسرحية « عطيل » على خشبة الاولدفيك وتقديم جون وودفاين لمسرحية «ماكبث» على خشبة المرميد لما كان هناك أثر لشكسبير فى البلد الذى عاش فيه شكسبير عامة حياته العاملة وأقام عماد المسرح فيه . فلماذا المهرجان ! ..

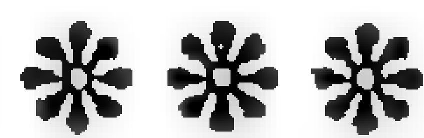
ولم يجد صاحبى ما يقوله ، فلاذ بالصمت العميق..



عندما نزلت لندن فى السادس من ابريل كنت قد قضيت فى باريس خمسة أيام شاهدت فيها خمس مسرحيات هى « الدرس » و « المغنية الصلعاء » ليونسكو و « مالك الحزين » لستريندبيرج و « عرس الدم » للوركا وآخر مسرحية لفرانسوا بييدو واسمها : « كيف حال الدنيا ياسيدى ؟ .. انها تدور ياسيدى » .

وكان خيالى لايزال ملتهبا بما رأيت من أمجاد الفن فى باريس . فلما نزلت لندن ولم أجد فيها مسرحية شكسبيرية واحدة أشاهدها وجدت فى هذا فرصتى المواتية لكى أتزود من مسرح لندن الجديد منه وما فاتنى مشاهدته من القديم . فشهدت فى الأولدفيك العرض الأول لمسرحية صمويل بيكيت الجديدة التى تسمى

« مسرحية » وشهدت فيه أيضا العرض الأول لمأساة سوفوكليس العظيمة « فيلوكتيت » . وفى مسرح بيكاديللى شهدت مسرحية أمريكية هامة يتحدث عنها كل الناس فى لندن اسمها : « من يخاف من فرجنيا وولف ؟ » وفى مسرح الكوميدى شهدت مأساة موسيقية جديدة اسمها « اخفض رأسك واسلم الروح» وهى مأساة فظيعة تحمل على عقوبة الاعدام بأسلوب جارح مستفز . ثم شهدت مأساة « هيدا جابلر » لابسن العظيم فى مسرح سانت مارتن ومأساة « النورس » لتشيكوف فى مسرح كوينز



قلت هذه فرصتى حقا لأمسح ما يتيسر مسحه من المسرح الانجليزى قبل أن أبدأ مغامرتى الشكسبيرية بالسفر الى ستراتفورد ابون آفون فى الخامس عشر والسادس عشر من ابريل . وكنت شديد الرغبة فى مشاهدة «كاليجولا» لألبير كامى و «بيتوس المسكين» لجان آنوى و«يرما» للوركا ، وكانت كلها تمثل وقتئذ على مسارح لندن ولكننى لم أجد الوقت الكافى لرؤيتها وبما أننى قد بدأت رحلتى الفنية من باريس فلأبدأ بما

شاهدته فى باريس قبل أن أتوغل فى تجربتى الانجليزية

أما « الدرس » و « المغنية الصلعاء » ليونسكو فقد رأيتهما فى مسرح لاهوشيت وهو مسرح بالحى اللاتينى من مسارح الجيب الكثيرة فى باريس لايتجاوز عدد مقاعده ثمانين مقعدا ، وهما تمثلان الآن بلا انقطاع ومنذ سبع سنوات . واذا أردت صورة عن هذا المسرح فتصور جراجا يتسع لأربع أو خمس سيارات فى حارة بالية المنازل من حوارى شارع محمد على ركبت فيه خشبة بسيطة يجرى عليها تمثيل كل هذا الفن العظيم . فهذه موهبة الفرنسيين : انهم لا ينتظرون أن تنفق وزارة ثقافتهم عشرات الآلاف من الجنيهات لاعداد كل مسرح يحتاجون اليه ، بل يتفق رجلان أو ثلاثة منهم على استئجار بدروم أو جراج أو دور أرضى متوسط السعة خال من الاعمدة الحاجبة للرؤية وينفقون على تأثيثه بالخشبة والمقاعد وأجهزة الاضاءة والملابس ما لا يتجاوز ألف جنيه ، فيكون لهم منه مسرح صغير يعرضون فيه الفن التجريبى والفن الجديد الذى لا يخاطب الجمهور الكبير . وقد مكنتهم هذه الطريقة البسيطة من أن يكون لهم عدد عظيم من مسارح الجيب

هذه التى لا تواجه مشاكل حقيقية الا مرتبات الممثلين وحقوق المؤلفين . وهو درس يمكن أن ينتفع منه محبو المسرح عندنا فى الاعتماد على النفس بدلا من الاعتماد على الدولة فى كل شىء

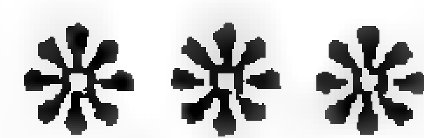
أما « الدرس » فهى عبارة عن مسرحية تدور حول مشكلة اللغة وكيف انها أداة اللاتفاهم بين البشر . وهى عبارة عن درس خصوصى يلقيه مدرس مسن على فتاة جاءته لتتعلم ، ويثبت من الاسئلة والأجوبة أن المدرس والتلميذة غير قادرين على التفاهم بسبب أن الكلمات تعنى أشياء مختلفة بالنسبة لكل منهما . ففى الحساب مثلا هى غير قادرة على الطرح اطلاقا ولا تفهم العملية من أساسها ، وهى تستطيع العد حتى ١٦ — ويبدو انها وقفت فى العد عند ١٦ لأنهذا سنها — أما الضرب فهى تستطيع أن تضرب أى رقم فى أى رقم ولو كان بالملايين والمليارات وتأتى بالحاصل فى ثوان ارتجاليا وتصحح مدرسها

ويتبين من المناقشة بين المدرس والتلميذة ، انهما يستعملان ألفاظ اللغة بمعان مختلفة تجعل التفاهم بينهما مستحيلا ، لأن كلا منهما يحمل اللفظ بأفكاره

الخاصة فمثلا عندما يتحدث كل من المدرس والتلميذة عن « جدتى » أو عن « وطنى » فى جملة مفيدة تصبح الجملة غير مفيدة لأن كلا منهما يتحدث عن جدته هو بالذات وليس عن الجدة بالمعنى المجرد، وكذلك يتحدث كل منهما عن وطنه هو بالذات لا عن الوطن بالمعنى العام . ومن ثم ينشأ لا تفاهم لا يمكن حله الا عن طريق سيطرة المدرس على التلميذة لا لسبب الا لأنه هو المدرس الذى يعطى وهى التلميذة التى تأخذ ..

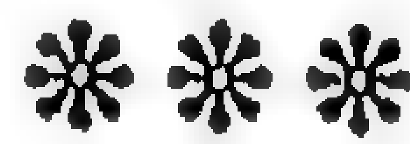
فالألفاظ تتعدد معانيها ، بحسب ما يريده الأستاذ لا وفقا للحقيقة ، لأن الحقيقة ضائعة بسبب ارتباط الألفاظ بأفكارنا وتجاربنا الخاصة . ومن هنا فان اللغة تصبح أداة للسيطرة ، لأن الأمر ينتهى بأن يفرض الأستاذ معانيه على التلميذة . ويتجلى تمرد التلميذة أولا ، فى انها تحس بألم فى أسنانها ، ويكون هذا التمرد بداية الخضوع والاستسلام لأن الأستاذ يستطيع أن يجعلها تقبل الجملة المفيدة : « السكين يقتل » (رغم أن السكين فى نظرها وبحسب تجربتها يقشر البطاطس أو يقطع الخبز أو يفعل أى شىء آخر الا القتل) . ويتجلى خضوع التلميذة واستسلامها حين

يطعنها الأستاذ فى صدرها بالسكين ليوضح لهـا ان السكين يقتل . وحين تسقط الفتاة بعد طعنهـا على الفوتيل فى وضع جنسى وقد فتحت سـاقيها وعلقتهما على ذراعى السكين ، ندرك أن ما أراده الأستاذ بقوله « السكين يقتل » وما فهمته التلميذة من هذه الجملة المفيدة شيء غير معناه الحرفى . وقد حاول الأستاذ فى هياجه أن يطعن خادمته العجوز ولكنه فشل لأنه لم يكن يسيطر عليها عن طريق اللغة . أو كما قالت الخادمة فى تعليقها على الموقف « الحساب يؤدى الى فقه اللغة وفقه اللغة يؤدى الى القتل » أو بحسب ما نفهم نحن من يونسكو يؤدى الى أى شيء يعبّر عن علاقة السيطرة والاستسلام بين البشر ، من علاقة الرجل بالمرأة الى علاقة الدكتاتور بشعبه



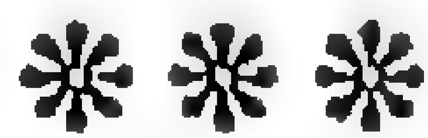
ومسرحية « المغنية الصلعاء » تعالج أيضا مشكلة اللغة كأداة للاتفاهم بين البشر . وهى مسرحية تدور المناقشة فيها بين زوجين انجليزيين يكتشفان بالمنطق انهما ، وهما يعيشان فى نفس الشارع وفى نفس البيت وفى نفس الطابق وفى نفس الشقة ولأنهما ينامان فى نفس

السرير ، يكتشفان انهما لا بد وأن يكونا زوجين ، ويكون الاكتشاف مفاجأة لهما . وأشخاص « المغنية الصلعاء » كلهم نماذج لأبناء البورجوازية الصغيرة المحترمين الذين يعيشون طول حياتهم تحت سلطان العرف والتقاليد والأفكار المصطلح عليها ، حتى فكرتهم عن الزمن تحددها لهم الساعة الدقاقة وتضطرب حياتهم حين تختل دقات الساعة ، ومن هنا فقدوا ذاتيتهم وشخصيتهم وتحولوا الى مجرد آلات تحكمها قوانين آتية من الخارج ، وهم يعيشون فى ملل أبدى بلا وجدان ولا شعور ولا رغبة ولا ارادة ، حتى كلامهم أصبح قليلا لأنهم كفوا عن التفكير والاحساس



فاذا تركنا يونسكو وأعماله اللامعقولة التى لا تزال فى عرف البعض تجارب فى المسرح قابلة للمناقشة ، فانى أستطيع أن أقول باطمئنان أن أروع ما شاهدت هذا العام فى المسرح الاوروبى كان مسرحية «مالك الحزين» لستريندبرج التى رأيتها فى مسرح الجيب بمونبارناس، ومسرحية « عرس الدم » للوركا التى رأيتها فى مسرح الفييه كولومبييه بمونبارناس أيضا ، أما مسرحية

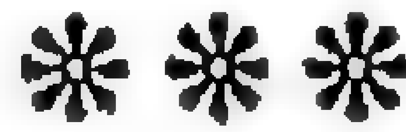
« مالك الحزين » لستريندبرج ، فهى من مسرحياته التى تعرف بمسرحيات الحجرة أو « الكامر شبيل » أى المسرحيات التى لم تكتب للجمهور الكبير ، ومن هنا مناسبتها لمسارح الجيب وقد مثلت بالفعل لأول مرة فى مسرح الجيب باستوكهولم فى خريف ١٩٠٧ وهى مأساة فظيعة تصور صراع أم أنانية شهوانية مع ابنها وبنتها اللذين حرمتهما كل شىء فى الحياة من أجل ارضاء نزواتها الوضيعة ؛ وكانت فى كل ذلك تشبه نفسها نفاقا بأنثى مالك الحزين التى تجرى الأساطير بأنها تنقر قلبها بمنقارها لتطعم صغارها بدم القلب وهو عكس ما كانت تفعله هذه الأم الخسيسة مع ولدها فردريك وبنتها جيردا بسبب عشقها الآثم لاكسيل، زوج بنتها الوضيع



وقدكتب ستريندبرج لأخيه عنهذه المأساةعندعرضها يقول : « انى كتبت هذه القطعة رغم ارادتى وكانت تستبد بى الرغبة لاحراقها وأنا أكتبها ، فكنت أضعها جانبا ولكنها كانت تطاردنى . بل اذ تمثيلها كان يعذبنى وانى أتعذب له كل ليلة ، ومع ذلك فلم أندم عليها ولم أقل ليتنى ما كتبتها كأنما كان (المرحوم) يطالبنى برد

اعتباره بها ويلزمنى بأن أنظر اليه أيضـــا من زاوية تظهره فى مظهر البرىء الجم الفضائل » وواضح من كلام ستريندبرج أن مسرحيته « مالك الحزين » قد بنيت على تجربة شخصية عميقة . وقد بلغت أوران ديمازيس فى دور الأم ، وكاترين دى سين فى دور البنت جيردا ، وسيرج مرلان فى دور الابن فردريك وبرنار جوسيه فى دور اكسيل زوج البنت قمة فى الأداء قلما تتكرر

وستريندبرج يكاد أن يكون مجهولا تماما فى مصر الا بين المختصين .. رغم وجود ترجمة عربية لمسرحيتيه « الأب » و « جوليا » بقلم عبد الحليم البشلاوى . وأعتقد أن تجربته على المسرح المصرى خليقة بأن تغنيه وتثريه

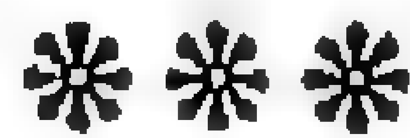


أما مأساة « عرس الدم » لجارسيا لوركا ، التى رأيتها فى مسرح الفييه كولومبييه ، فقد أخرجت فى باريس لأول مرة عام ١٩٣٨ فى مسرح الأتلييه ثم أخرجت فى عام ١٩٣٩ فى مسرح شارل روشفور ، ثم فى ١٩٥١ فى استوديو الشانزليزيه وأخيرا تبنـــاها مسرح الفييـــه كولومبييه ..

أما فى ميديه فقد أخرجت أول مرة عام ١٩٣٣ ويبدو أن أحد مسارح وزارة الثقافة يعد العدة لاخراجها فى القاهرة فى موسم ١٩٦٤/١٩٦٥ . ولوركا معروف فى مصر لرواد المسرح منذ عرض له المسرح القومى بنجاح كبير « بيت برناردا البا » و « عرس الدم » تصور قصة الحب والموت ، موضوعها «أم» اسبانية من فلاحى غرناطة ترملت فى زوجها وثكلت فى ولدها . ويحب ابنها الأصغر الذى يسمى فى المأساة « الخطيب » ، فتاة هى بنت فلاح من الجيرة تسمى « الخطيبة » ، ويقنع أمه بالموافقة على زواجه منها .. ولكن « الخطيبة» التى تقدم على هذا الزواج فى رضا ورغبة صادقة كانت من قبل قد خطبت لفتى يدعى ليونارد من أسرة القتلة الذين فتكوا بزوج « الأم » وولدها الأكبر ثم تخلى عنها هذا الفتى الوحشى الشارد الذى يأبى أن يستقر . وهكذا تستعيض الفتاة عن حبها الأول الجامح المدمر بحبها الثانى الهادىء الوادع . أما حقيقة الأمر فهى أن حبها الأول الجامح المدمر لم يزايل قلبها أبدا ، كما أن جواد ليونارد الشارد كان يقوده دائما نحو نافذتها

وفى ليلة العرس ظهر ليونارد فى الأفق وفرّت معه « الخطيبة » وقد ذهلت عن كل شىء الا عن حبها الجامح المدمر الذى جردها من كل ارادة وكأنه قدر محتوم . وهبت « الأم » تستصرخ ولدها ليثأر لشرفه المهدر ولينتقم للقتلى من ذويه. وهنا يبدأ الطراد الدامى عبر التلال المجاورة وفى الغابات ، وينتهى بمقتل العاشقين معا ، وهكذا تبقى الأم وحدها بعد أن ثكلت فى آخر أبنائها ، وببابها تقف « الخطيبة » فى ثوب زفافها الملطخ بالدم

وهذه قصة الفرس السوداء التى ترد الماء ولكنها لا تشرب أبدا : أسطورة ساخنة من وديان اسبانيا العميقة تروى قصة الحب والموت والشرف والثأر والقدر الذى يحكم كل مصير والدم الذى يلطخ كل شىء حتى وجه القمر ..



وفى مسرح الامبيجو شاهدت مسرحية بييدو الجديدة التى تتحدث عنها باريس كلها اليوم وقد بلغت أصداؤها لندن كذلك ، وهى مسرحية « كيف حال الدنيا ياسيدى ؟.. انها تدور ياسيدى » . وفرانسوا بييدو

كاتب فرنسى غير معروف فى مصر ويستحق أن يعرف ، وقد كان حديث باريس أيضا فى السنوات الماضية منذ عرض مسرحيته « اذهب اذن الى تورب » وهو كاتب فيما يبدو ماركسى النزعة ، ولكن أعماله مركبة ذات أبعاد متعددة تمزج السياسة بتحليل النفس البشرية بالتأملات الفلسفية بحيث يصعب أن نجد لها تطبيقا واحدا ، وهو من أقرب كتاب المسرح لمنهج بريخت ومراميه الأدبية والاجتماعية . وتصور مسرحية «كيف حال الدنيا يا سيدى » قصة رجلين أحدهما فرنسى وهو هوبرت شلوتز، والآخر أمريكى وهو جوب ، وقد جمعتهما ظروف الحرب العالمية الثانية معا فى معسكر اعتقال من معسكرات النازى فى سيليزيا نحو نهاية الحرب فى شتاء ١٩٤٤ فنشأت بينهما صلة غريبة حميمة هى موضوع مغامرات هذه المسرحية . أما الفرنسى شلوتز فهو رجل من أبناء البورجوازية الصغيرة اجتمعت فيه المتناقضات من ضيق الأفق الى سخاء النفس محدود الذكاء ساذج الأفكار ، بسيط الأطماع والآمال يحلم بأن يكون له مطعم شعبى صغير بعد أن تنتهى الحرب . ويجد شلوتز نفسه فجأة معتقلا مع أمثاله دن أسرى

الحرب من كل جنس وملة فى أوروبا ، وفى هذا العالم الصغير المضطرب يعمل ممرضا فى المعسكر داخل الاسلاك الشائكة حتى يهبط عليه وعلى زملائه هذا المعتقل الأمريكى الجديد ، «جوب» وهو رجل ضخم الجثة يمثل الفردية المطلقة وكأنه قوة من قوى الطبيعة الوحشية التى تأبى أن تندمج فى أى وجود آخر ..

فهو يحس وحده ويفكر وحده ويخطط وحده ويرفض أن يرتبط بأحد فى محيطه كائنا من كان ، وكأنه من فصيلة أخرى فى المملكة الحيوانية التى تضم كل هؤلاء الأسرى الأشقياء من روس، ويهود ، وزنوج ، وبولنديين ، وفرنسيين ، الخ ..

وليس فى رأسه الا فكرة واحدة ثابتة ، وهى كيف يعود الى وطنه ومسقط رأسه تكساس حيث ينشىء فيها مدينة جديدة كتلك المدن التى كان ينشئها الرواد الأول من الامريكيين . وتسحر شلوتز شخصية جوب ويفتن بحبه المطلق للحرية ولا يجد جوب من يأنس اليه بين كل السجناء الا شلوتز . وهكذا ينسلخ شلوتز درجة درجة من مجتمع أقرانه ليتبع «جوب» كظله فى كل ما يعمل ..

ويكون أول امتحان لهذا الارتبــاط الغريب حين يدبر المعتقلون خطة جماعية لقتل حارسهم والهرب من المعتقل ، ولكن جوب الذى يتحرك دائما بمفرده يرفض أن يشاركهم فى خطتهم فى احتقــار شــديد ويتركهم لمصيرهم بينما يدبر لنفسه خطة للهرب بمفرده . ويتخلى شلوتز عن تضامنه مع اخوانه ويتبع «جوب» كظله ..

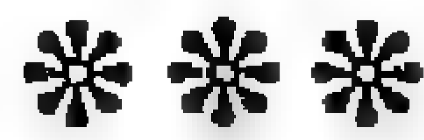
وينجح الرجلان فى الهرب بفضل أنانية « جوب » وانتهازيته وتفكيره العملى ، ولكنهما يختلفان فى الخطة فيفترقان ثم لا يلبث الفرنسى شلوتز أن يجد نفسه أسيرا بالخطأ فى معسكر للجيش الأمريكى حيث يجد «جوب» يعمل فى المعسكر برتبة ملازم. ويتنكر «جوب» لشلوتز فينكر معرفته به .. ولا يخرج شلوتز من الأسر الجديد ، الا أن «جوب» كان يبغى الفرار من الجندية وهكذا يهرب الرجلان مرة أخرى عبر الغابة السوداء حتى يبلغا بيت شلوتز فى ضواحى باريس حيث كانت مادلين زوجة شلوتز تنتظر زوجها . وفى بيت شلوتز يختبىء الضابط الهارب «جوب» ولكنه لا يرعى للروابط حرمة فيفسد زوجة صاحبه شلوتز ، ثم يبدو عليه الندم فيغفر له صاحبه هذا الذنب وتبدأ رحلتهما من جديد .

فقد وضعت الحرب أوزارها ، وقرر «جوب» أن يعود خلسة الى وطنه ليحقق أحلامه فى تكساس ، ويطلب شلوتز أن يرافقه بعد أن سحرته الصورة التى رسمها «جوب» لامكانيات الثراء فى تكساس، ويريد «جوب» أن يتخلى عن زميله ولكن شلوتز يلازمه كظله كأنما تربطه به رابطة سحرية ..

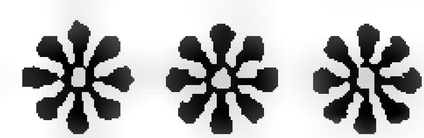
وأخيرا يبلغان ميناء نيويورك ، بعد رحلة على سفينة بضاعة اشتغل فيها الرجلان وقادين ، وينجح الرجلان فى التسلل داخل أمريكا ، ولكن بعد أن يقدم شلوتز ضريبة فادحة تقضى على رجولته ثمنا لتستر حرس الميناء على تسللهما ..

وبعد أن يقطع الرجلان ٣٧٣٥ كيلومترا يصلان فى النهاية الى حدود تكساس وقد خارت قوى شلوتز من التشرد فى الفيافى والقفار ، وما أن يبلغ الرجلان دار «جوب» وسط السهول المعشبة الموحشة حتى يخرج عليه ثلاثة من أبناء بلدته فى ملابس رعاة البقر ويردونه قتيلا ، فيجد شلوتز نفسه آخر الأمر وحيدا وسط هذا العالم الغريب . وهكذا انتهت رحلة هـذا الأمريكى الأنانى الطيب «جوب» الذى تطوع فى الجيش ليهرب

من السجن وعاش طول حياته بفكرة ثابتة واحدة وهى أن يعود الى بلدته فى تكساس ليصفى حسابه مع أعدائه



وهكذا أتيح لشلوتز أن يحقق حلم حياته المتواضع وهو أن يكون له مطعم شعبى صغير لا فى باريس أو ضواحيها كما كان يحلم دائما ولكن فى مفازة جرداء فى تكساس . وبعد أن خرج وراء صاحبه يبحث عن ذهب تكساس أو بترولها الوفير انتهى كما بدأ رجلا صغيرا ذا أحلام صغيرة . وهذا معنى اسم المسرحية « كيف حال الدنيا ياسيدى ؟.. انها تدور ياسيدى »



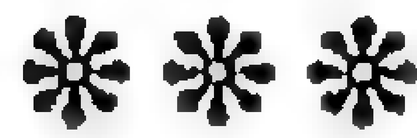
وهذا العمل الفنى له جانب سياسى لا أدرى ان كان مؤلفه قد قصد اليه أم لا : فمن يتتبع مراحل التقاء شلوتز الفرنسى وجوب الأمريكى ، ويتعقب الصلة الغريبة شبه المرضية التى نشأت بينهما ويتأمل تبعية شلوتز لجوب كظله وكل ما جرى بينهما من مغامرات عرضت شلوتز لفقدان شرفه فى زوجته وفى شخصه ولتضحيات لا حصر لها فى سبيل بلوغ تكساس واحة أحلامه ثم ضياع كل أحلامه فى النهاية ، حتى عندما بدأ

جوب يحدب عليه حقا ويعامله معاملة الأب لابنه قبيل مصرعه ، لا يسعه الا أن يحس بأن بييدو يصور علاقات فرنسا بأمريكا منذ التقائهما على حرب النـازية حتى مقتل كيندى ، مرحلة فى اثر مرحلة . ولكن هذا مجرد وجه واحد من وجوه هذه التراجيكوميديا المعقدة التى وصفها صاحبها بأنها « مسرحية كاوبوى ميتافيزيقية » قائلا ان موضوعها هو الحرية . والاغانى العـديدة الجميلة التىتتخللها منظومة بلغة العامة وبلاغتها الباطنية تزيد المسرحية عمقا وتؤكد أبعادها الانسانية ..

فنحن نستمع فى حنان الى أغنية الجندى الروسى حامل المتراليوز ، وهو حائر بين عقيدته فى الأخاء بين البشر وايمانه بالسلام الدائم وبين ضرورة المتراليوز لقتل النازى . وهو فى أغنيته يتساءل :

« اذا كان كل الناس اخوتى
فقد وجب أن أذكر هذا
والسلاح المعلق تحت أصابعى
أستطيع أن أستخدمه يا أماه
وهذا من كامل حقى ..
انى لا أعرف أحدا من هؤلاء الناس

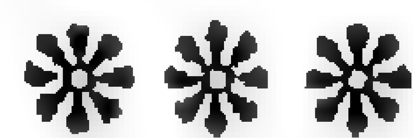
وأستطيع أن أفرغ فيهم رصاصى
ترى لمن تجب الطاعة ؟ ..
آه يا أماه : أجيبينى : من أخى
على حد الفجر المسنون ؟
« لو اننى أفرغت فيهم رصاصى
لأطعت الغضب والأوامر
لقد أمرت ..
أن أقتل أفكار أعدائى
ولكن أرانى أسدد رصاصى نحو القلب
الى أين نحمل أغلالنا ؟
ومتى يبدأ المستقبل ؟ »



وهناك أغنية جندى الجستابو أو فرق هجوم العاصفة فى ١٩٤٥ ، أى بعد انهيار ألمانيا وانهيار أحلامه التى عاش فيها كل طفولته وشبابه :

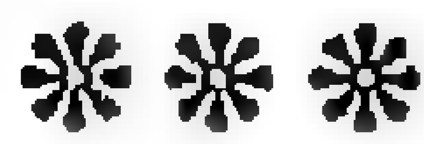
« ودعت أبى وأمى
وودعت بيتى
ثم مددت خطوتى على الأرض
نحو الآفاق الاربعة

وأنا أهتف رغم شقائى :
عاش النصر .. وكنت على حق
« أما الآن فقد انطفأت الفصول
والبرد يحكم الدنيا ..
هأنذا على حافة الكارثة
ووجهى بشع فى عينى
وداخل رأسى تدور النجوم
التى كانت تقود خطاى
فلقد ضاعت منى فى الفضاء
ــ عاش النصر ــ والشر دميم :
فمن ذا يدلنى على حقيقة مجدى
ومن ذا يدلنى فيم ألتمس هنائى ؟



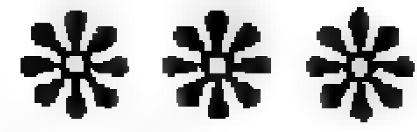
وننتقل من أغنية اليهودى الاسير الى أغنية رجل البوليس الحربى الزنجى الى أغنية الفلاحة الالمانية وهكذا ، فاذا بها كلها أغان حزينة عصبية تصور ما تنطوى عليه صدور هؤلاء الناس من قلق شديد ومتناقضات لا سبيل الى حلها ، كل هؤلاء الناس أحياء بسطاء يعيشون بلا فلسفة.. ولكنهم يحسون ويتألمون ويقلقون

ويتصرفون بحسب نوازعهم الانسانية والحيوانية دون تفكير ، وقد ذكر بييدو نفسه انه رغم اعتناقه لوظيفة الفن الاجتماعية فهو يأبى أن يسخر مسرحه لاثبات نظريات بعينها وهو يضع تصوير النفس الانسانية بنقائضها فى المقام الاول

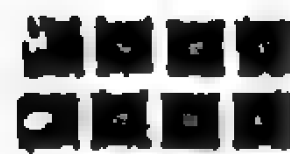


هذا وصف عام لما شاهدته فى باريس من مسرحيات قليلة فى الأيام القليلة التى أقمتها بها . ومن كل مسارح باريس التى تبلغ نحو خمس وخمسين عددا لم أعرف أن أحدها قدم لشكسبير شيئا الا فرقة بلانشون التى قدمت مسرحية « ترويلوس وكريسيدا » على خشبة الاوديون ، أو ما يسمى الآن بمسرح جان لويس بارو ، وقد فرغت منها قبل بلوغى باريس بأيام . ولم آسف على شيء ، فقد عوضنى لوركا ويونسكو وستريندبرج وبييدو خيرا بما رأيت من أعمالهم .. ولكم كنت أتمنى أن تتاح لى فى باريس مشاهدة «يرما» للوركا و «جان دارك » لبرناردشو و « فوتوفينش » لأوسنينوف و « الفارس الوحيد » لاوديبرتى وغير ذلك من

مسرحيات قديمة وحديثة هى حديث الناس والأدباء فى أوربا ..



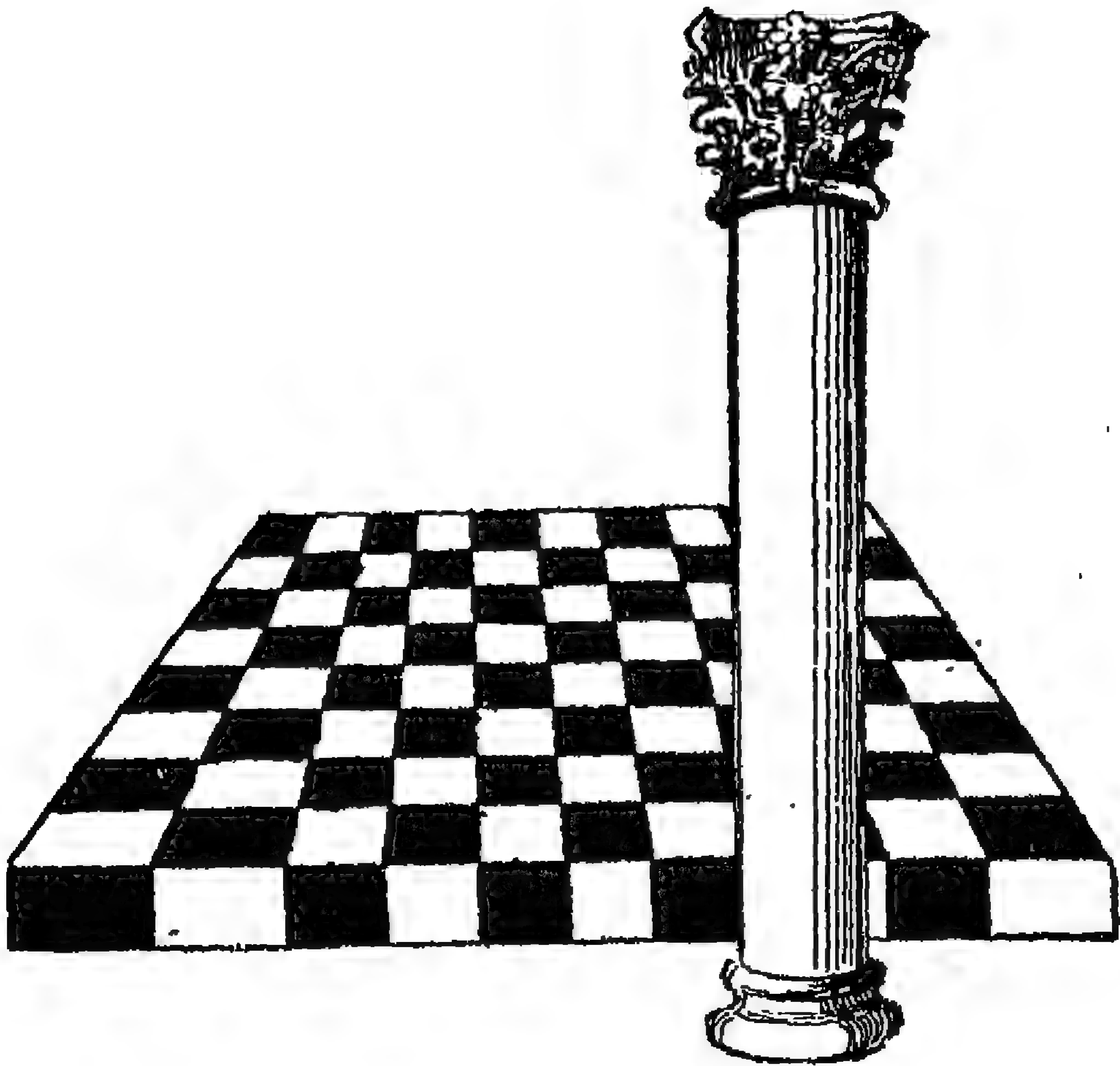
ولكن وقت رحيلى من باريس أزف ، فشددت رحالى الى لندن ونفسى قائلة : لقد جئت لأبحث عن شكسبير ولا بد أن أنقذ نفسى من كل هذا الاغراء . غدا أبحث عن شكسبير فى بلاد شكسبير



الفصل الثاني

سونيتات شكسبير

- ٦ مسرحيات فاتحات للشهية
- تجربة سوفوكليس على المسرح الإنجليزي .



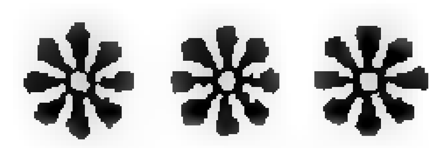
سونيتات شكسبير

من مطار لندن أخذ أوتوبيس القادمين ذو الطابقين يطوى شوارع الضواحى طيا حتى بلغ محطة كروموبل رود . وفى محطة كروموبل رود ألقيت أمتعتى فى أقرب تاكسى وقلت للسائق : أى فنــدق لأحجز غرفة به . وانتهى بى المطاف فى بدفورد هوتيل ، وفى دقائق كنت فى غرفتى أستجم من وعثاء السفر ساعة أو نحوها قبل أن أبدأ الاستكشاف الكبير ، وفتحت جهاز التليفزيون القابع أمامى وأنا مسترخ على الفوتيل فاذا بى أسمع ثلاث بنات ومن خلفهن سكسوفون وطبــل وأبواق نحاسية من كل غليظ ورفيع ، يغنين قائلات :

« ان كانت الموسيقى طعام الحب فأتخمونى بها » .

وقفزت واقفا على قدمى من فرط ذهولى : فقد كانت هذه أشعار شهيرة لشكسبير، وكانت تغنى على أنغام

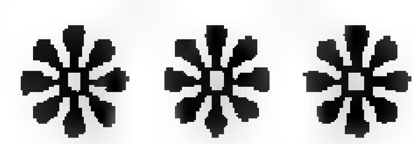
التويست ، ثم ابتسمت وتذكرت انى فى لنــدن ثم تذكرت انى سمعت قبلها بأيام فى باريس جون هاليداى يغنى صلاة : « أبانا الذى فى السموات » على أنغام الجاز .. وغيره يغنى فى القاهرة « الوداع يا مريم » على أنغام السلوفوكس ، قلت : لا بأس ، هذا جيل الفيس بريسلى ، والخنافس ، والبنات فى البنطلونات



ويبدو أن الأوروبيين والأمريكيين قد وجدوا ان هذه هى الطريقة الوحيدة لتعليم أبناء الجيل الجديد الصلاة وأشــعار شكسبير وانهم يختارون الآن بين شكسبير الراقص والقطيعة المطلقة فاختاروا ما يظنون انه أهون الطريقين ، كذلك تذكرت زنوج أمريكا حين كانوا منذ سنوات يرتلون المزامير كل صباح فى الكنيسة تحت نافذتى على أنغام التويست مع التصفيق الرتيب ودق الأقدام فتأخذهم الجلالة كأنهم فى « حلقــة زار » وتجرى دموعهم مدرارا .. وهدأت نفسى ، ومضيت أنصت الى التليفزيون . وفى ساعة أو نحوها سمعت عشرا من أروع سونيتات شكسبير تنشد على هــذا

النحو موزعة على أنغام التانجو والفوكس تروت والبلوز الحزينة ..

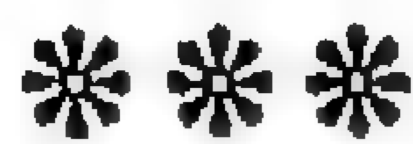
وبعد أن أحسست بالتجدد أصلحت من هندامى وقلت : والآن الى العمل ، وكان العمل هو أن أقصد فورا الى مكتب من مكاتب الحجز لأشترى ما تيسر من تذاكر المسرح ، وكنت أعرف طريقى فلم تمض الا ساعة حتى كانت بيدى تذاكر لمسرحية صمويل بيكيت الجديدة و « فيلوكتيت » لسوفوكليس و « من يخاف من فرجنيا وولف » و « اخفض رأسك ومت » و « هيدا جابلر » لابسن و « النورس » لتشيكوف و « بيتوس المسكين » لأنوى . أما شكسبير فلم تكن له تذاكر لأن العالم كله حجز تذاكره فى لندن وستراتفورد وتشيشستر وغيرها لشهور خلت أو لأسابيع ، ولولا أن المجلس البريطانى قد تفضل وأعاننى على الحجز قبلما أغادر القاهرة لزرت انجلترا وعدت منها دون أن أشاهد مسرحية واحدة لشكسبير



وفى مسرح الأولدفيك شاهدت آخر مسرحية لبيكيت واسمها « بلاى » أى « مسرحية » ولكن أجدر أن

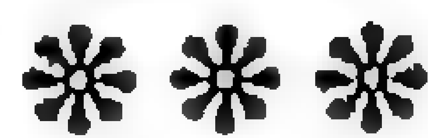
نترجم عنوانها بكلمة « لعبة » أو عبث ، لا قياسا على مسرحية « لعبة النهـاية » ولكن لأن مضمونها يعنى ذلك . وهى مسرحيـة مثّلت لأول مرة فى ترجمتهـا الألمانية على خشبة مسرح أولمر فى أولم روناو بألمانيا فى ١٤ يونيو عام ١٩٦٣ ، وكان هذا أول عرض لها فى لندن من لغتها الأصلية ، والمسرحية ليس فيها الا ثلاثة أشخاص : رجل وامرأتان ، احداهما زوجته والثانية عشيقته ، وقد وضـع ثلاثتهم فى ثلاث أوان منتفخة البطن فلا يظهر منهم الا رؤوسهم ، وليس فى المسرحية الا ثلاثة مونولوجـات متقطعـة تلقى كل رأس من الرؤوس واحـدا منها ويروى كل بمونولوجه قصـة هذه الخيانة الزوجية من وجهة نظره ، أما النقاد فقد اكتفوا ازاء مسرحيات بيكيت بأن يطرحوا هذا السؤال المنطقى : « ماذا تعنى هذه المسرحية » مكتفين بقول أحد كتاب المسرح المحدثين لصحفى من الصحفيين زاره ليأخذ منه حديثا : « لو انى أستطيع أن أقول لك ماذا تعنى المسرحية فى جملة واحدة لما كنت كتبتها » ولكن على قدر فهمى لبيكيت الذى قرأت مسرحيتـه ثلاث مرات يبدو أن الرجل الموزع بين زوجته وعشيقته قد

أصابه الخمول الجنسى من شدة الافراط وبعد تنابذ الزوجة والعشيقة الذى كان يمكن أن يؤدى الى القتل أو الانتحار أو تمزيق الوجه بالأظافر على أقل تقـــدير لولا أن كلا منهما ممنـــوعة من الحركة بسبب الزير الذى حبست فيه نجد أن الزوجة والعشيقة تتصافيان فى النهاية وترثى كل منهما للأخرى قائلة : « يالها من امرأة تعسة » . أما الرجل المتوســـط بينهما فنسمعه يقول فى مرحلة من المراحل : « وأخيرا زاد الأمر عن طاقتى . بكل بساطة لم أعد أستطيع الاستمرار » وبعد أن كنا نسمع الزوجة تقول عنه بعد ليلة غرام : « يا له من ذكر ! » نسمع العشيقة تقول له : « لو قلت انى لم أصب بخيبة أمل لما كنت صادقة . لقد كنت أنتظر شيئا أفضل من هذا .. شيئا يشيع فىَّ الراحة » أما هو فيقول : « أنا الآن أعرف .. ان كل هذا كان مجرد لعب .. »



وفى الأولدفيك شـــاهدت أيضا مأساة سوفوكليس العظيمة « فيلوكتيت » ، وهذه المأساة ليست من أروع أعمال سوفوكليس ولكنها بغير شك عمل رائع لا يمكن

أن ينساه من قرأه أو شاهده ، وتدور أحداث مسرحية « فيلوكتيت » حول أسطورة من أساطير اليونان قوامها ان الاله ابولو أعطى هرقل البطل ، وهو نصف اله ، قوسا لايخطىء مرماه . فلما لبس هرقل ثوب ديانيرا المسموم أنقذه فيلوكتيت من عذابه بأن أشعل له النار التى أحرق نفسه فيها وبذلك أصاب الخلود ووجد مكانه بين آلهة الأولمب . وقد كافأ هرقل فيلوكتيت على صنيعه هذا بأن أهداه قوسه التى لا تخطىء المرمى ..



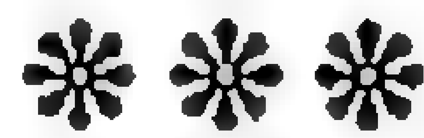
فلما خرج فيلوكتيت مع اجا ممنون ، ومنبلاوس ، وبقية أبطال اليونان الى حرب طروادة كانت عدة قتاله هذا القوس الرهيب . فلما توقف أبطال اليونان فى طريقهم الى طروادة عند جزيرة صغيرة تدعى كريزا ، تقدمهم فيلوكتيت الى معبد الاله المعبود فى تلك الجزيرة ليقدم القرابين لعل الاله يقودهم الى النصر فلدغته أفعى فى قدمه وأصابته بجرح مسموم لم يبرأ منه أبدا ، واشتدت آلام فيلوكتيت حتى حالت دون قيام الأبطال بتقديم القرابين . ودب العفن فى الجرح

الى درجة جعلت أبطال اليونان يقصونه عنهم فنفوه فى جزيرة لمنوس المجاورة ، وفيهـا تركوه ورحلوا الى طروادة ..

وفى لمنوس أقام فيلوكتيت وحيـدا عشر سـنوات كاملة ، ومع ذلك فلم يبرأ جرحه الغامض الخطير . وفى طروادة تحرج موقف اليونان بعد سنوات من القتال الضارى وسقط منهم آخيل واجاكس . ولكنهم علموا من العرّاف ان النصر لن يكتب لهم على الطرواديين حتى يرسلوا فى طلب نيوبتوليموس ولد آخيل ويلبسوه دروع أبيه ، وحتى يعودوا بفيلوكتيت ومعه قوسـه الذى لايخطىء المرمى. وقد حقق اليونان نبوءة العراف فكان لهم النصر حين جـاءوا بفيلوكتيت الى طروادة حيث أبرأه اسكولاب من جرحه الفظيع وبارز فيلوكتيت وحده باريس ابن ملك طروادة وخاطف هيلانة فصرعه فى هـذه المبـارزة ، وهـكذا أصـبح فيـلوكتيت ونيوبتوليـموس هما أول بطلين بين اليونان فى تدمير طروادة كما جـاء فى نبـوءة العرّاف .. وقد تنـاول سوفوكليس حلقة واحدة فى قصة فيلوكتيت وهو منفى فى جزيرة لمنوس وقد تخلى عنه كل اليونان وتركوه

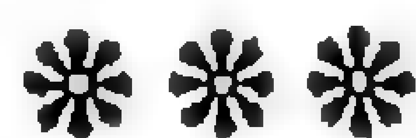
يتعذب وحـــده من قرحتـــه الفظيعة ولا أنيس له الا وحوش الجزيرة ..

وحين علموا بالنبوءة ، أوفدوا اليه نيوبتوليموس النبيل وأوليس الداهية . وقد دبر أوليس الداهية حيلة يجرد بها فيلوكتيت من قوسه المسحور الذى لايخطىء المرمى ، وفى عزمه أن يترك صاحب القوس لأوجاعه ووحدته فى الجزيرة الجرداء ، وكاد أن يفلح فى مكره لولا وفاء نيوبتوليموس النبيل الذى رد له قوسه وأبى أن يجرده من السلاح الذى اختصته به الآلهة ..



وقد مثلت فيلوكتيت فى أثينا عام ٤٠٩ ق.م ويظن ان سوفوكليس أنشأها فى شيخوخته وهو فى السابعة والثمانين وقد فتنت هذه الأسطورة عددا من الكتاب المحدثين فاستوحاها اندريه جيـــد مثلا فى مسرحيتـــه المعروفة «فيلوكتيت». ولكن «فيلوكتيت» سوفوكليس لا تزال أعظم ما كتب فى هـــذا الموضوع . وقد أثبت تمثيلها الرائع على المسرح الانجليـــزى ان اليـــونان يصلحون للقرن العشرين ..

ثم شـاهدت فى مسرح بيكاديللى آخر مسرحيـة للكاتب الأمريكى ادوارد البى وهى مسرحيـة « من يخاف من فرجينيـا وولف ؟» التى أحـدثت دويا فى الأوساط الأدبيـة والفنية ، وضمنت لصاحبها مكانا مستقرا بين مؤلفى المسرح الجديد بعد نجاحه الجزئى فى مسرحيتيـه السـابقتـين : « الحلم الأمريكى » و « البدارة » ؛ وهما محاولتان ظهر فيهما تأثر ادوارد البى بمدرسة اللامعقول . وهـذه المسرحية ليس فيها حوادث تدور وانما هى مجرد مبارزة حادة بالكلام بين رجل وزوجته تستغرق نحو ثلاث ساعات يتدخل فيها أحيانا شاهدا المبارزة وهما أيضا رجل وزوجته ..



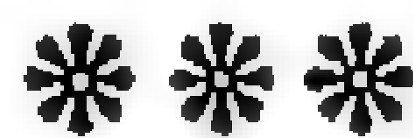
ولعل كلمة مبارزة ليست الكلمة المناسبة لأن مايجرى بين الزوج وزوجته من شجار خشن ونقار فظ أشبه شىء بالملاكمة الحرة التى يستباح فيها كل شىء حتى الضرب تحت السرة . فنحن فى بيت مدرس تاريخ فى جامعة من جامعات أمريكا هو جورج وزوجته مارثا وهى بنت مدير الجامعة الذى توسم فى هـذا الزواج خيرا ، فأخذ يتعهد جورج برعايته بقصد أن يجعل منه

أستاذا كبيرا يتدرج فى مختلف مناصب هيئة التدريس حتى يصبح رئيس قسم التاريخ ثم يخلفه فى ادارة الجامعة كأنما الجامعة التى يديرها هذا المدير عزبة يريد أن يورثها لصهره وبنته وربما أحفاده ، ولكن خطأ ما يحدث فيبطل هذا المشروع .. فمن ناحية نعرف ان جورج ربما كان ذكرا مناسبا لبنت مدير الجامعة ، ولكن استعداداته المحدودة وعلمه المحدود وتكوينه الذهنى يجعله عاجزا عن تحقيق أى تقدم بين أقرانه من الأساتذة فى قسم التاريخ ويجعل غيره من الأساتذة الموهوبين الذين يصغرونه سنا يتقدمون عليه فى السلم الجامعى ويبقى هو فى مكانه لايتحرك . ومن ناحية أخرى نجد ان هذا الزواج رغم استمراره سنوات طويلة لم يثمر ولدا ولا بنتا ..

والزوج والزوجة متحابان طبعا ، ولكن خيبة جورج وعقم مارثا هما مصدر هذا الشجار المستمر الذى يحيل البيت الى جحيم .. فمارثا لاتفتأ تعير جورج بأن أباها هو الذى وضعه حيث هو فى الجامعة ولا تفتأ تعيره بفشله فى أن يتقدم فى السلم الأكاديمى

ومارثا قد بنت بوهمها ــ داخل البيت ــ مخلوقا لا

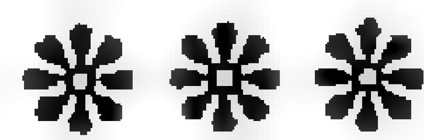
وجود له فى الحقيقة تسميه « ولدنا » فهما يعيشان بغير ولد ، ولكن كل عواطف الأمومة المحرومة قد تركزت فى مارثا ، حتى جعلتها تتوهم أن لها ولدا تطعمه وتلبسه وترسله الى المدرسة وترسله لزيارة أعمامه وأخواله . وقد كان جورج يجاريها فى هذا الوهم طالما انها تتحدث عنه فى البيت وهما منفردان ولا تتحدث عنه أمام أحد كأنه لعبة سرية بين طفلين كبيرين . فلما زارهما فى تلك الليلة زميل مدرس شاب بالجامعة هو «نك» مع زوجته الشابة هنى ، وأخطأت مارثا بالحديث عن « ولدهما » أمام الضيفين ثارت ثائرة جورج ووجد فرصته للانتقام منها ففضح الحقيقة أمام الضيفين ، وهى ان هذا الولد لا وجود له الا فى وهم مارثا .. وجن جنون مارثا التى اعتبرت ان جورج «قتل» ولدهما ، وحاولت أن تنتقم منه باغواء الزميل الشاب «نك». ولكن جورج اصطنع البرود وظل جالسا على « الكنبة » متظاهرا بالقراءة



ولما لم تفلح استفزازات مارثا فى استثارة جورج ، جذبت مارثا الضيف الى الحمام ، ولكنه كان مخمورا غير قادر على شىء . وهكذا عادت مارثا الى زوجها

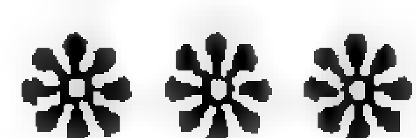
جورج وقد أفاقت من أوهامها عن النسل وعن جنة الجنس فى سرير الزوجية ، محاولة أن تنقذ ما تبقى من هذا الزواج الهش بقبول الواقع حول نفسها وزوجها ..

وقد وصف ادوارد البى فى براعة نادرة عالم الوهم الذى يبنيه الأمريكيون فى حياتهم اليومية كأنه جزء لا يتجزأ من حماية الذات أو كأنه دواء يتعاطاه الانسان يوميا ليمنعه من الانهيار أمام الملل والفشل . عالم من الأكاذيب على النفس يعيش فيه جورج ومارثا لتصبح حياتهما محتملة فجورج لا يفتأ يغض من أهمية الدرجات العلمية والأبحاث الأكاديمية كلما عيرته زوجته بفشله فى سلك الجامعة ، ومارثا لا تفتأ تغازل « نك » لتثبت لجورج انها لا تزال جذابة يشتهيها الرجال . وتصوير هذا الوهم والكذب على النفس وعلى الغير ليس شيئا جديدا فى أدب ادوارد البى بل نجده موضوعا شائعا فى كثير من مؤلفات كتاب المسرح الأمريكيين ..



نجده فى عالم الوهم الذى يعيش فيه «قومسيونجى» ارثر ميللر وفى « الأكاذيب » التى يتحدث عنها تنيسى ويليامز فى مسرحية «القطة على سطح الصفيح الساخن»

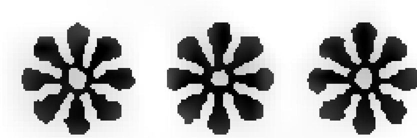
وفى أعمال كليفورد اوديتس . وقد لام بعض النقـاد ادوارد البى على تضخيمه لأسطورة الابن الوهمى التى تعيش فيها الزوجة مارثا ، وذهبوا الى أن هـذا حلم شخصى من أحلام ادوارد البى نفسه ولكننى أعتقد أن هذا الوهم الذى تعيش فيه مارثا ولا تفتأ تتحدث عنه بشوق شديد ولهفة فظيعة هو فى حقيقته تعبير معكوس عن رغبتها فى معاشرة زوجها أو تحريكه الى معاشرتها بعد أن ذبل شبابها الناضر وبعد أن دب الروتين والفتور الجنسى فى حياتها الزوجية ، فهى بحكم انتماءاتها الى البورجوازية « المحترمة » لا تستطيع أن تواجه رغبتها فى جسد زوجها بصراحة ووضوح ومباشرة بل تستتر هذه الدعوة الى الفراش بالكلام عن طفلها الوهمى ..



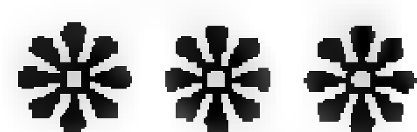
وهذا هو التفسير الوحيد فى نظرى لمحاولتها اغراء المدرس الشاب «نك» أمام زوجها كأنما لسان حالها قائل : ان كان جسدى لا يحرك فيك ساكنا فهو لايزال يستطيع أن يغرى غيرك من الرجال .. فلما ثبت لها بعد التجربة فى الحمام ، أن الشاب «نك» لايفضل زوجها فى هذا المضمار عادت نادمة وهى تتحدث عن جورج

قائلة انه الرجل الوحيد فى حياتها الذى استطاع أن يفهمها وهى قد وطنت نفسها على أن تعيش فى الأمر الواقع

ولعل هذا التفسير يفسر غضب جورج الأعمى حين تحدثت مارثا عن ولدهما الوهمى أمام الزائرين «نك» وهنى ، ذلك الغضب الأعمى الذى دفعه الى أن يكشف حقيقة وهمها ويفجعها فى حلمها الأكبر دون مبرر كاف وكأنما لسان حاله قائل : ان كنت تطالبين بالجنس فليس لديك شىء يحرك الجنس . فالزوجان اذن يتخاطبان ويتفاهمان برموز اللاوعى وبلغة اللاوعى



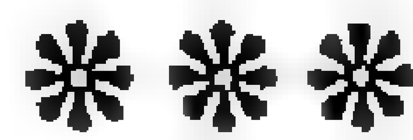
أما المؤلف ادوارد البى فقد عرضت أول مسرحية له واسمها « قصة حديقة الحيوانات » فى برلين الغربية فى سبتمبر عام ١٩٥٩ كجزء من مهرجان الفنون الذى أقيم فى برلين فى ذلك الوقت ، وهذه المسرحية لا تزال تقدم فى برلين الى الآن كجزء من ريبرتوار مسرح شيلر ..



وقد اكتسب البى شهرة عالمية نظرا لتمثيل مسرحياته

بمختلف اللغـات فى بلاد متعـددة ، وقـد عرضت مسرحية « قصـة حديقـة الحيوانات » فى نيويورك بالانجليزية لأول مرة مع مسرحيـة لصمويل بيكيت اسمها « آخر شريط لكراب » وفى عام ١٩٦١ مثلت هذه المسرحية أيضا فى بيونس ايريس بالانجليزية . ثم مثلت مسرحيـة البى الثانية عام ١٩٦١ مع مسرحيـة أخرى له اسمها « موت بيسى سميث » فى نيويورك . وقد نال البى عدة جوائز أمريكية وعالمية تقديرا لانتاجه المسرحى ..

وفى مسرح الكوميـدى رأيت ما يمكن أن نسميه تراجيديا موسيقية اسمها « اخفض رأسك ومت » وهى عمل تتحدث عنه لندن كلها ، ولانعرف فى الحقيقة كيف يكون تبويب هذا العمل : أيدخل فى اطار الفن أم انه مجرد استعراض موسيقى بأسـلوب جـديد ، فهذه المسرحية عبارة عن سلسلة من التابلوهات، أو الاسكتشات، التى ترتبط برباط واحـد لأنها تدور جميعـا حول موضوع واحد : وهذا الموضوع هو عقوبة الاعدام

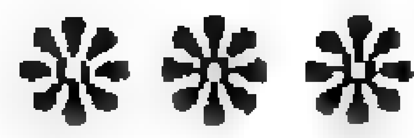


واهتمام الناس البالغ بهذه المسرحية راجع لجملة عوامل

أولها : انها تطرح مشكلة عقوبة الاعدام وجوازها أو ضرورة الغائها بصراحة وحشية ، وتكدس من الأدلة والحجج ما يقنع المشاهد بوجوب الغاء هذه العقوبة الغاء نهائيا من جميع قوانين العقوبات فى العالم ، وهى تستخدم آنا السخرية المريرة من التقارير الرسمية ومن المداولات البرلمانية ومن أحكام القضاء ومن تصريحات فقهاء القانون حول عقوبة الاعدام ، وتخرج كل هـذا بتسجيلات بشعة لآراء الناس العاديين فى الحياة حول هذا الموضوع أو لتعليقـاتهم العـابرة . كذلك يرجع اهتمام الجمهور بهذه المسرحية الى ان الحياة فيها اختلطت بالفن الى درجة جعلت المسرحية أقرب شىء الى شريط مسجل لأحداث الحياة تتخلله أغان حزينة أو «مواويل» تكسر القلوب حول الأبرياء الذين شنقوا باسم القانون والعدالة والمساكين الذين دفعوا الى جريمة القتل دفعا بسبب قسوة الحياة عليهم

ومن أهم ما يذكر عن مسرحيـة « اخفض رأسك ومت » انها ليست من عمل مؤلف واحد ، فقد اشترك فى تأليفها وتمثيلها جماعة من تلامذة جامعة اكسفورد وهم من أعضاء نادى المسرح التجريبى بهذه الجامعة..

وبدلا من أن يدرج أعضاء النادى على مادرج عليه أمثالهم من تمثيل روائع الأدب المسرحى التجريبى كأعمال صمويل بيكيت أو يونسكو أو سواهما قرروا أن يتعاونوا فى وضع مسرحية جماعية يشتركون معا فى تأليفها ..



وكانت مشكلتهم الأولى ، هى اختيار الموضوع ، فذهبوا يترددون بين شتى الموضوعات الاجتماعية ، ففكروا فى وضع مسرحية عن الثورة الصناعية ثم فكروا فى وضع مسرحية عن الاضراب العام فى بريطانيا عام ١٩٢٦ ، ثم فكروا فى وضع مسرحية عن البغاء ، أو ما يسمونه « أقدم مهنة فى العالم » ولكنهم خافوا من عجز زميلاتهم من طالبات الجامعة عن فهم عقلية البغايا ونفسياتهن وسلوكهن . وأخيرا استقر رأيهم على وضع مسرحية عن عقوبة الاعدام وأخذوا يجمعون المواد الصحفية والقانونية وغيرها حول هذا الموضوع ثم انطلقوا الى الحانات ومحطات السكة الحديد والشوارع يسجلون تعليقات الناس العاديين على أحكام الاعدام التى تصدرها المحاكم على المجرمين فى جرائم القتل

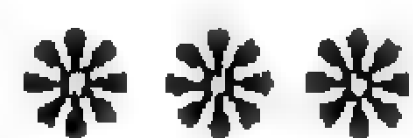
المشهورة أو آراءهم فى عقوبة الاعدام بوجه عام ، وبالمونتاج استطاعوا أن يبنوا هذه الحلقات فى بناء متماسك ..

والمسرحية تبدأ بتشكيل اللجنة الملكية عام ١٩٥٩ لدراسة موضوع عقوبة الاعدام ، وعرض تقريرها المؤيد للاعدام بطريقة ساخرة مستفزة ، طريقة أليمة تهز الضمير الانسانى هزا : فهى تستعرض كثيرا من أحكام القضاء البريطانى باعدام متهمين ، ثبتت براءتهم بعد شنقهم وأعلنت براءتهم فى الصحف. وهى تستعرض مداولات رجال الرأى فى أى أنواع الاعدام أفضل : بحبل المشنقة كما فى انجلترا أو بالكرسى الكهربائى كما فى أمريكا أو بالجيلوتين كما فى فرنسا أم بالغاز كما فى بعض البلاد الأخرى، وتظهر تلذذ هؤلاء السادة بالكلام عن قتل الجناة فى برود فظيع . وهى لا تنسى أن تعرض وجهة نظر العشماوى فى الموضوع فى صورة حديث مسجل له عن أمجاده وأمجاد أسرته العشماوية (فالمهنة فى الأسرة) وعدد الرؤوس التى قطفها مع وصف مفصل عن طبيعة كل مشنوق وسلوكه وقت اعدامه

وتبلغ وحشية التعليقات أفظعها حين نسمع تعليقات

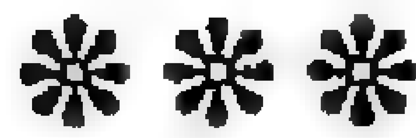
السكارى من الرجال والنساء فى الحانات على حالة محكوم عليه بالاعدام لا ينفذ الحكم فيه الا بعد شهور وفقا للتقاليد القضائية ، وهم يطالبون بشنقه فورا لأنه لا جدوى من تبديد الأموال العامة على اطعامه طول هذه الشهور

وبعد تنفيذ الحكم فيه ، تقرأ علينا قصاصة من صحيفة انجليزية تعلن ما تبين من براءة هذا المشنوق والقبض على الفاعل الأصلى وبهذا تتجسم أمامنا الروح الغوغائية التى تثيرها الصحف فى صدور الناس بعرضها المثير لقضايا الاجرام بما يجرد الناس العاديين من كل احساس بالرحمة أو بالانسانية أو حتى بضرورة الانصاف قبل الحكم، وجميع الحالات المعروضة حالات واقعية ومن هنا كانت قدرتها على الاثارة أفظع وأوقع



ولم يكن من المعقول أن أقرأ ان « هيدا جابلر » لابسن و « النورس » لتشيكوف تعرضان فى لندن ولا أبادر الى مشاهدتهما ، ولاسيما وان الممثلة الممتازة جون جرينوود كانت تقوم ببطولة الأولى ، بينما اجتمع فى الثانية ثلاثة من أقطاب الفن فى انجلترا هم الممثلة

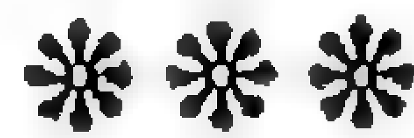
العظيمـة فانيسا ريدجريف والممثلة العظيمـة بيجى اشكروفت والممثل الكبير بيتر فينش . وقـد فاتتنى مشاهدة « النورس » فى باريس حيث كانت تعرض بنجاح كبير فى مسرح بيتويف



أما موضوع « هيدا جابلر » ، فهو قصة امرأة هى هيدا اضطرت الى الزواج من رجل لا تحبه هو جورج تيسـمان وهو رجـل بحاثة فى تاريخ الحضارة وقد اضطرها الى هذا الزواج تقدمها فى السن ولأنها تعبت من الفن فقد كانت راقصـة . ولم تكن هيـدا جابلر بطبيعتها تحب الزواج أو تصلح له ، وكانت هذه بداية مشكلتها فقد كانت تكره الأطفال وكانت تضيق بكلمة الحب بل وبكل علاقات الزواج . وكانت بدلا من ذلك مثـل ديانا ربة الصيـد تحب ركوب الخيل والقنص والرماية ..

وكانت ترغب فى الحرية ، وتتمنى أن تكون سيدة مصيرها ، ولكن المجتمع أرغمها على قبـول قيـود الزواج ، فهى من أسرة محافظـة وهى تعيش بين قوم محافظين . وكانت تتمنى أن تحطم قيود الزواج وتفر

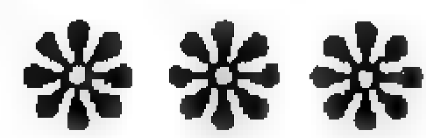
من قفص الزوجية لولا ان تربيتها المحافظة كانت تحول بينها وبين ذلك .. كما ان الشجاعة كانت تنقصها ، فلم تستطع الاقدام على هذه الخطوة الحاسمة او هــذه الثورة التحررية التى كانت تحلم بها « المرأة الجديدة » فى زمن ابسن أى نحو عام ١٨٩٠ وهو العام الذى كتب فيه ابسن مأساة « هيدا جابلر » أما مسزثيا الفستيد فقد كانت على العكس من صديقتها هيدا : امرأة قادرة على تحدى المجتمع ، ومن هنا فقــد وجدت الشجاعة على التمرد على زواجها الشقى فهجرت زوجها وأطفاله من زوجته الأولى فى سبيل حبها للكاتب الشاب لوفبورج وطلبا للحرية ..



وكانت « هيدا » تعجب بشجاعتها ، وتنفس عليها جرأتها ، ولكنها كانت عاجزة عن الاقتداء بها بسبب تشتتها .. ولذا فقد وقفت ثورة « هيدا » عند التعبير باستمرار عن تأففها واحتقارها لكل ما يحيــط بها فى غطرسة لا مبرر لهــا ، كما وقفت عنــد احساسـها الرومانتيكى بالملل الدائم ..

وكانت بسبب أنانيتها ، وميلها الى الشر ، تعبر عن

شقائها وعقدها النفسية بالعدوانيـــة ومحاولة السيطرة على كل من حولها من أصدقاء وأقرباء وافساد حياتهم، يستوى فى ذلك زوجها تيسمان أو عماته أو صـــديق الأسرة القاضى براك وهو زير نساء يشتهى « هيدا » جابلر ولكنه لا يستطيع أن ينال منهـا مأربا بسبب عجرفتها وتربيتها المحافظة التى لا تستطيع منها فكاكا وبسبب احساسها بتنشئتها الارستقراطيـــة وبأنها من فصيلة غير فصيلة الناس المحيطين بها مما أمات شعورها نحو الآخرين . بل هى تحاول أن تسيطرعلى صديقتها ثيا الفستيد ، وعلى الكاتب الشاب لوفبورج الذى تحبه ثيا ومن أجله هجرت زوجها وأولاده وجاءت لتعيش الى جوار من تحبه وقد قررت أن تمضى فى المغــامرة حتى نهايتها ..

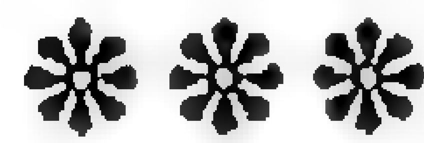


أما الكاتب الشاب لوفبورج ؛ فهو رجل موهوب ولكنه بوهيـمى الطبـع بدد كل ماله على العـربدة والشراب والميسر وعلى غانية سـاقطة تدير ماخورا فاخرا تدعى ديانا ، ولم يبق له من مورد رزق الا قلمه لأن أهله تخلوا عنه بسبب انغماسه فى حياة الرذيلة

وكانت ثيا على العكس من هيدا امرأة ذات تأثير صالح فى الرجال ولهذا استطاعت أن تشفى صاحبها لوفبورج من رذائله وتجعله يكف عن الشراب والميسر وحياة الرذيلة ، حتى استقام وأمكن له أن يضع مؤلفا رائعا أجمعت آراء النقاد والناشرين على انه سيكتب له الخلود ، وأصبحت ثيا الفستيد للوفبورج بمثابة ملهمته وحارسته . وحين زارت ثيا هيدا جابلر وأطلعتها على الخطوة الحاسمة التى اتخذتها فى حياتها التقت فى دار هيدا بلوفبورج الذى جاء ليعرض مسودة كتابه على تيسمان والقاضى براك ، وأكل الحسد البارد قلب هيدا جابلر لأنها كانت مثل ثيا شقية فى زواجها ولكنها كانت حبيسة نفسها لا تملك الشجاعة على الانفكاك من قيودها أو تحدى مجتمعها ،كذلك كانت هيدا تغار من سلطان ثيا على قلوب الرجال وقدرتها على الهامهم بنبيل الأفكار والعواطف . وكانت هيدا تعرف بضعف لوفبورج الشديد أمام الخمر وبأن مقاومته للكأس مقاومة فى غير طبعه لا تلبث أن تنهار ، كالواجهة الرقيقة ازاء الاغراء فيرتد الى ماكان عليه من عربدة وسقوط ..

فما زالت به تزين له بالاغراء والالحاح والتحدى أن

يشرب شـيئا من الخمر حتى ضعف واستجاب لهـا فانهارت مقاومته وخرج مع تيسمان وبراك الى حفل يستأنفون فيه الشراب على أن يعـود ولكن الشراب يلعب برأس لوفبورج فى العاشرة مساء ليرافق ثيا الى بيتها فلا يعود ، بل ينطلق فى اعجاز الليل الى ماخور ديانا حيث يقضى ليلته مخمورا تاركا ثيا تقضى الليلة عند هيدا جابلر . ونعلم من تيسمان أن لوفبورج بعد أن قرأ عليهما صفحات عديدة من كتابه المذهل كانت الخمر قد عبثت بعقله تماما فسقطت منه مسودة الكتاب فى الطريق وعثر عليها جورج تيسمان فأخفاها وحملها الى داره ..



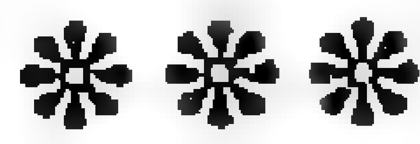
ويحدث تيسمان زوجته « هيدا جابلر » عن روعة الكتاب وكيف ان الغيرة أكلت قلبه لما لمسه من عبقرية لوفبورج ، فتخطف هيدا منه أصول الكتاب وتخفيها . وتعلم هيدا من القاضى براك أن لوفبورج بعد أن تركهم قضى ليلته عنـد مدموازيل ديانا وأن البوليس كبس بيتها وأن لوفبورج اشتبك مع أحد رجال البوليس وانه لهذا سيحاكم ، وحذرها من استقباله فى بيتها قائلا انه

ما من أسرة محترمة ستفتح بابها للوفبورج بعد ذلك ..

وبدا فى عبارات القاضى براك تهديد واضح أدركت منه هيدا جابلر انه يريد أن يستغل الموقف « ليكون الديك الوحيد فى القفص» بلغة هيدا جابلر . وبعد انصرافه يأتى لوفبورج وقد امتلأ ندما ويأسا واستسلاما لمصيره الجديد قائلا لثيا ان كل شىء قد انتهى ، وانهما لا بد أن يفترقا نهائيا بعد ما حدث ليلة الأمس وانها لم تعد تملك أن تساعده بشىء كما كانت تفعل فى الماضى

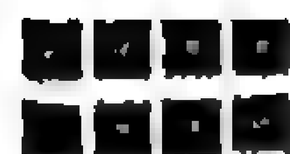
وترفض ثيا أن تسمع الى اعترافه وتحاول أن تشد من عزيمته قائلة انها لن تتركه حتى يظهر كتابه فيزعم لوفبورج لها انه مزق أصوله . انه حطم حيـاته بيده فلماذا لايمزق أصول كتابه بيده . ان هـذا الكتاب بمثابة الطفل بالنسبة اليه والى ثيا . وتظلم الدنيا فى عين ثيا فتترك الغرفة فى ذهول تام . ويعترف لوفبـورج لهيدا جابلر بماكان فى الليلة الفائتة وتفهم منه انه يعتقد انه نسى مخطـوط كتـابه فى المـاخور ، ويتوسـل اليها ألا تطلع ثيا على شىء مما قال ويعلن عليهـا انه قرر أن يضع حدا لحياته . وفيما هو يستودعها ويهم

بالانصراف تخرج هيدا جابلر أحد مسدسيها وتعطيه اياه قائلة : خذ هذا تذكارا منى. لقد صوبته الى رأسك ذات مرة ولكن عدنى أن يتم كل شيء فى جمال ..



وليس من الصعب أن نستنتج بقية ما جرى . فقد انتحر لوفبورج بمسدس هيدا جابلر ، ولكنه لم ينتحر فى داره بل انتحر فى دار مدموازيل ديانا وعثر البوليس على المسدس المشئوم . وأحرقت هيـدا جابلر أصول كتاب لوفبورج خفية وكأنها تريد أن تدمر آخر أثر له على الأرض . فعكفت ثيا مع تيسمان على جمع أصول الكتاب مرة أخرى من مسوداته القديمة ، وبدا وكأنها قد بدأت تتهيأ لتلعب دور الملهمة لتيسمان كمـا كانت تلعب دور الملهمة للوفبورج . وكان القاضى براك هو الوحيد الذى يعرف أن المسدس الذى انتحر به لوفبورج هو مسدس هيدا جابلر ، فأخذ يهددها بافشاء هـذا السر ان أبت أن تصبح عشيقته .. لسوف تقف هيدا جابلر بنت الأماثل مع مدموازيل ديانا صاحبة الماخور فى قاعة المحكمة وتكون الفضيحة ، وهو الوحيد الذى يستطيع بصمته أن يقيها هذه الفضيحة . وتعرف هيدا

جابلر ان النهاية اقتربت وان طريقها طريق واحد فتخرج فى عزة وكبرياء وتسعى الى مسدسها الآخر وتخرجه من درجها . وحين يسمع تيسمان وثيا والقاضى براك صوت الطلقة النارية يدركون ان هيدا جابلر قد وجدت الحل الأخير لكل شيء فى حياتها المعقدة التى طالمـــا دمرت حياة الآخرين دون أن تنزل عن ذرة من شرفها

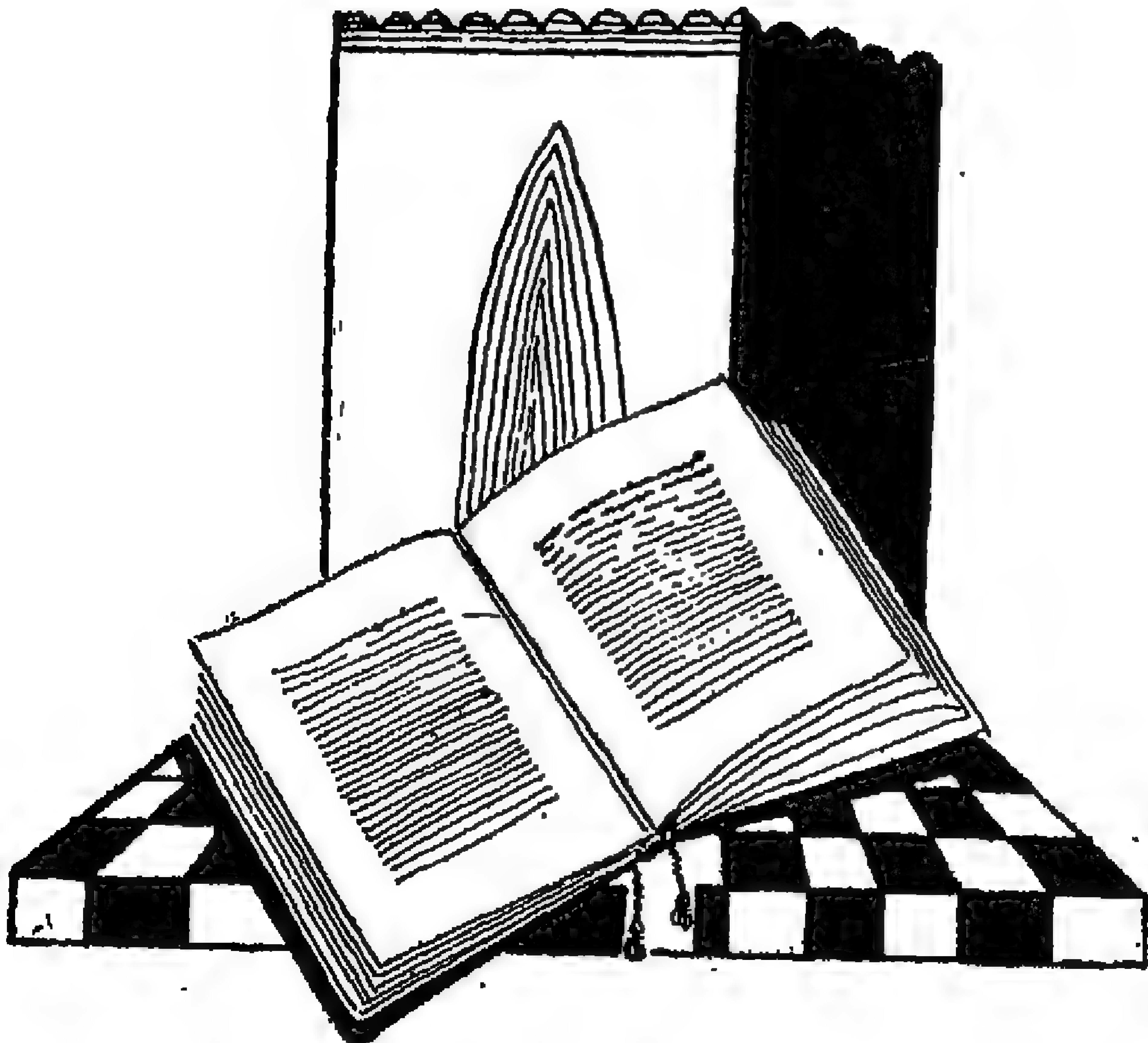


الفصل الثالث

الرحلة الطويلة ..

من ستراتفورد إلى لندن وبالعكس

- هل كان شكسبير كاثوليكيا مؤمنا بحق الملوك الإلهى ؟
- مؤامرات على عرش اليزابيث ..



الرحلة الطويلة

عنـــدما نزلت بلدة ستراتفورد ابون آفون مسقط رأس شكسبير كان لى مأربان : أحدهما أن أحج الى البيت الذى ولد فيه شكسبير فى هنلى ستريت فى ٢٣ ابريل ١٥٦٤ وأن أزور قبره فى كنيسة هولى ترينيتى حيث دفن عام ١٦١٦ وأن أطوف بالمدرسة التى تعلم فيها فى طفولته وشبابه الباكر . وقيل انه عمل بها أو بغيرها فترة وجيزة ، ثم تزوج من آن هاثاواى فى نوفمبر ١٦٨٢ الى أن اختفى من البلدة ربما نحو ١٦٨٥ ، أى وهو فى نحو الحادية والعشرين لأسباب غامضة ، وظهر فى لندن فجأة فى أوائل التسعينات الباكرة ليعمل سائسا أمام المسرح يمسك خيول النبلاء حتى ينصرفوا بعد مشاهدة التمثيل ثم ممثلا تافها يمثل فى مسرحيـــات بن جونسون وغيره من كتاب عصره ثم ممثلا تافهـــا

يكتب للمسرح ويشترك فى تمثيـل المسرحيات التى يؤلفها (١٥٩٢) ثم مؤلفا منقطعا للمسرح ثم أمير البيان وسيد كتاب المسرح أجمعين ، حتى اعتزل المسرح عام ١٦١٢ وهو فى الثامنة والأربعين وعاد الى ستراتفورد مسقط رأسه حيث اشترى بيته المعروف بنيو بلاس بمبلغ ستين جنيها وبه عاش الى أن حضرته الوفاة فى ٢٥ مايو ١٦١٦ ..

أما مأربى الثانى ، فكان مشـاهدة فرقة شكسبير الملكية تقدم على مسرح شكسبير الملكى باستراتفورد ثلاث مسرحيات هى : « ريتشارد الثانى » و « هنرى الرابع » الحلقة الأولى و « هنرى الرابع » الحلقـة الثانية ، وجميعهـا مما يسمى بمسرحيات شـكسبير التاريخية ..

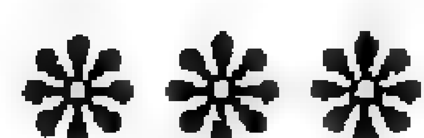
ولم يكن موقفى موقف آلاف السياح الذين يهبطون ستراتفورد كل عام ليتفرجوا على آثار شكسبير ، فقد كان لكل شيء عندى معنى خاص ، فكنت أستمع بلب شارد للسيدة الترجمانة وهى تشرح لى من أين جيء بالسرير أو بأدوات المطبخ فى بيت شكسبير ليبدو كما كان يوم كان يعيش فيه ، ثم أتوقف عند المخطوطات

المعروضة تحت الزجاج أدرسها على الطبيعة بعد أن درستها فى الكتب ، فلما كانت ساعة انصرافى من ابيت الذى ولد فيه شكسبير طلبت الى السيدة أن أوقع اسمى فى دفتر الزيارات ، فدونت فيه باللاتينية :

Ludovicus Awad Shakesbeareae Discipulus Aegyptiacus

أى تلميذ شكسبير المصرى ، أمام اسمى ، وانطلقت ورأسى ثقيل بالتأملات . فأنا من بين الكثيرين الذين حيرهم لغز هذا الرجل العظيم ، ومع عظيم ازدرائى لأكثر الروايات البوليسية التى ينشرها علينا من آن لآن بعض علماء الأدب وأساتذة الجامعات حول حياة شكسبير الملغزة ، زاعمين آنا انه اسم مستعار للورد بيكون وزاعمين آنا آخر انه اسم مستعار للشاعر مارلو بعد مقتله المزعوم ، وزاعمين آنا ثالثا انه ايرل اكسفورد أو ساوثهامبتون الىآخر هذه الترهات التى لارأس لها ولا ذنب ، فان اللغز الذى يحير حقا فى حياة شكسبير العظيم هو عدم استقامة ما نعرفه عن ثقافته الرسمية مع أدبه العالمى المجيد الذى ينم عن علم مستفيض وعميق بتراث الأدب الانسانى ، أغلب الظن فى منابعه الأولى . ولا شك أن اللغز المحيط أيضا بسونيتات

شكسبير قد يلقى الكشف عنه بعض الأضواء الكاشفة على صلات شكسبير وروابطه بنبلاء عصره وبالتالى على بيئته الثقافية وربما ولاءاته السياسية



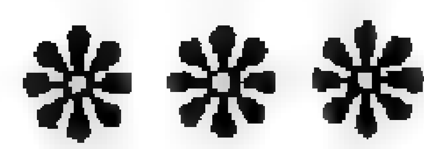
أما صلة شكسبير بالمسرح فقد ثبت انها ترجع الى عهد صباه ، فقد كانت ستراتفورد مركزا هاما نرتاده مختلف الفرق الجوالة ولاسيما فرق النبلاء التى تعددت فى عهد الملكة إليزابيث ، والمعروف ان فرقة ايرل نيستر عشيق الملكة الأول زارت ستراتفورد فى عام ١٥٧٣ أى سنة ان كان شكسبير صبيا فى التاسعة ، ثم فى عام ١٥٨٧ وهو فى الثالثة والعشرين . كذلك معروف أن فرقة ايرل واريك زارت ستراتفورد عام ١٥٧٥ وهو فى الحادية عشرة وأن فرقة ايرل ووستر زارتها ما لا يقل عن ست مرات بين ١٥٦٩ و ١٥٨٧ ، كما زارتها فرق لورد باركلى ولورد ســــترانج ولورد داربى ولورد تشاندوس وايرل اسيكس وفرقة الكونتيسة اسيكس وفرقة الملكة ..

وكانت هذه الزيارات بمعدل فرقتين أو ثلاث فرق سنويا . ويظن أن شكسبير الشاب اشترك فى التمثيل

فى فرقة ليستر فى احدى زياراتها لبلدته كبديل لأحد ممثليها الناقصين ويظن أيضا أنه طاف مع أعضائها عام ١٥٨٥ فى الدانمارك فى بلاط السينور وفى ألمانيـا . وأيا كان الأمر فان شكسبير فيما بعـد أصبح مع بيربيدج وكمب وبوب شركاء فى فرقة كبير أمناء الملكة، وهؤلاء كانوا من أهم الممثلين فى فرقة ايرل ليستر قبل حلها بوفاة ليستر عام ١٥٨٨

فصلات شكسبير بالمسرح اذن قديمة وطبيعية وليس فيها لغز ما . ومن هنا كان طبيعيا جدا أن يبدأ شكسبير حياته بعد نزوحه الى لندن بالاشتغال بالتمثيل . أما الرواية الشائعة القائلة بأنه هرب من ستراتفورد الى لندن بعد أن سرق غزالا من عزبة السيد توماس لوسى مخافة أن يعاقب بالشنق أو بالسـجن فهى لا تجـد ما يؤيدها أو يدحضها . والأرجح أن شكسبير الشاب وجد أكثر من عامل قوى يدفعه الى النجاة بجلده من بلدة صغيرة مثل ستراتفورد ليقتحم سبيله الى المجـد فى العاصمة . فقد وجد شكسبير نفسه وهو فى الثامنة عشرة متورطا فى الزواج من آن هاثاواى التى كانت تكبره بثمانى سنوات بعد أن حملت منه سفاحا فاقترن

بها فى نوفمبر عام ١٥٨٢ وأنجبت له بنته سوزانا فى مايو ١٥٨٣ ثم أنجبت له توأمين جوديث وهامنت فى فبراير ١٥٨٥ ..

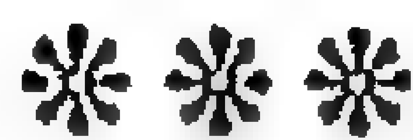


باختصـــار ، وجد شكسبير نفســـه وهو لا يزال فى الحادية والعشرين رب أسرة كفيلة بأن تربطه نهائيا باستراتفورد وتقضى على مواهبه قضاء تاما اذا هو لم يتخذ قرارا حاسما بالفرار من هذا الريف المعزول نسبيا

ولعل الفرصة واتته عام ١٥٨٥ بالعمل مع فرقة ايرل ليستر والتجول معها فى أوروبا حيث كان ليستر نفسه يحارب على رأس جيشه فى الدنيمارك . طبيعى جدا أن يفر فتى واثق من موهبته الى الدنيا الرحيبة تاركا زوجته الكبيرة وعيالها حيث مكانهم الطبيعى فى أعماق الريف ..

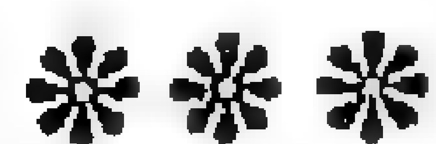
وقد كان طريقه ممهدا حقا حين استقر فى لنـــدن لأن أعظم كتاب المسرح من الجيل الماضى كانوا قد أخلوا له الطريق . ففى عام ١٥٩٢ مات جرين وفى ١٥٩٣ قتل مارلو ومات كيد وكان بيل يحتضر ، أما لودج وليلى فقد انقطعا عن الكتابة للمسرح ولم يبق أمام شكسبير

من منافس الا كويتب هو تشيتل وكاتب لا بأس به هو انتونى منداى . كذلك خلا الطريق لكتاب المسرح من الجيل الجديد مثل بن جونسون وديكر وهايوود ومارستون ثم بومنت وفلتشر . وقد استطاع شكسبير وسط هذا الازدهار المسرحى أن يستثمر مواهبه الأدبية استثمارا ماديا ، حتى أصبح شريكا مؤسسا فى بعض مسارح لندن ، وجمع من المال ما جدد به ثروة أسرته فى ستراتفورد التى لم تنقطع صلته بها أبدا ، فالمعروف أنه فى عام ١٦٠٣ اشترى بها عزبة من ١٢٧ فدانا وبيتا هو نيوبلاس الذى كان أجمل دار فى البلدة ، وحصل من الملكة على شعار لأسرته وأصبح يحمل لقب (جنتلمان)



كل هذه المعانى وأكثر منها ، كانت تتدفق فى الذهن، وأنا أجوب شوارع ستراتفورد بين هوازكروفت وهنلى ستريت أو أتأمل مياه نهر آفون والبجع الابيض الكثير المنساب عليه مع التيار من نوافذ كافتريا مسرح شكسبير الملكى وأنا فى انتظار رفع الستار عن مأساة «ريتشارد الثانى» وقد كنت أود أن أشهد احتفال ٢٣ ابريل

التقليدى ولكن جميع تذاكر المسرح كانت محجوزة فلم أجد مناصا من الاكتفاء بمشاهدة المسرحيات فى أيام افتتاحها أى فى ١٥ و١٦ ابريل ، ومن الاعتماد على أقوال الصحف فى تتبع ما كان سيجرى فى احتفال ٢٣ ابريل

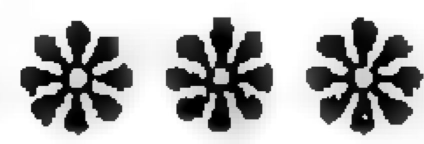


وقد ذكرت الصحف انه فى صباح ٢٣ ابريل تجمع سفراء ١١٥ دولة ، ونفر كبير من رجالات انجلترا وغيرها عند مسرح شكسبير فى ستراتفورد ومنه مشوا فى موكب ومعهم أكاليل الزهر حتى بلغوا ساحة بريدج ستريت . وهناك رفعوا أعلام دولهم ، ثم تقدم الموكب الكبير الى هنلى ستريت حتى بلغوا البيت الذى ولد فيه شكسبير ، ومن ثم مشى الموكب الى كنيسة هولى ترينتى حيث قبر شكسبير أمام الهيكل وهى تبعد نحو ميل عن مكان مولده ووضعوا على القبر أكاليلهم والأجراس تدق .. فلما فرغوا من هذه المراسيم جلسوا الى موائد الغداء فى المأدبة الكبرى المعدة للاحتفال وكان عدد الحاضرين ٧٥٠ ضيفا. وقرأ عليهم ايرل آفون رسالة الملكة اليزابيث الثانية التى جاء فيها ، الى جانب الثناء على شكسبير ، ان سلفيها اليزابيث الاولى

وجيمس الأول اللذان عاش شكسبير فى عهدهما بسطا حمايتهما على المسرح ورجاله فأدى هذا الى تجمع كل هذا التراث الأدبى الضخم الذى آل الى العالم منذ عصر شكسبير ، ربما « عن غير قصد منهما » . وبعد الغداء افتتح الأمير فيليب زوج الملكة متحف شكسبير الذى أسس لهذه المناسبة بجوار البيت الذى ولد فيه وتكلف ربع مليون جنيه . أما الجماهير فقد ظلت محتشدة على جوانب الطرقات أكثر اليوم لتشهد هذا الموكب ، ثم شهد ضيوف ستراتفورد مسرحية « هنرى الرابع » تمثل على مسرح شكسبير التذكارى وقد عرف أن موكب هذا العام كان أضخم موكب سنوى شهدته ستراتفورد منذ بدأ تقليد الاحتفال السنوى بمولد شكسبير منذ أكثر من مائة سنة

وقد كان احتفال ستراتفورد هو الاحتفال الرسمى الرئيسى ، أما خارج ستراتفورد فلم يحدث شىء الا أن الاستاذ الناقد الكبير لورد دافيد سيسل ألقى محاضرة تذكارية عن شكسبير فى جامعة اكسفورد . وفى لندن تجمع الناس فيما يسمى بركن الشعراء فى وستمنستر الى حيث قرأت الممثلة الكبيرة العجوز سيبيل ثورندايك

بعض أشعار شكسبير. وفى مسرح ايفون ارنو بجيلدفورد تلا بعض كبار الممثلين والممثلات كمايكل ردجريف وفيفيان لى وديانا ونوود بعض الأشعار من مسرحيات شكسبير الأثيرة عندهم .. وغير هذا لم يحدث شيء الا وقوف الطوابير طول اليوم أمام مكاتب البريد لتشترى الطابع التذكارى الذى صدر بصورة شكسبير مع ملكة انجلترا تخليدا لهذه المناسبة ..



وكان أبرز معالم المهرجان فى موكب ستراتفورد ، مما لفت الأنظار حقا ، ضآلة عدد الأدباء الذين اشتركوا فى الموكب فلم ير أحد من الأعلام الا بريستلى وسنو، ولم يكن فى المهرجان كله ما يستحق الذكر الا تكريم العالم كله لذكرى شكسبير من خلال سفرائه فى مسقط رأس شكسبير حتى كنت ترى نقائض العالم مجتمعة للتحية بالاعلام والاكاليل ، فكنت ترى اكليل الورود الحمراء من سفير الاتحاد السوفييتى الى جوار اكليل السوسن الأبيض من سفير نيجيريا الى جوار اكليل الفل من سفير المكسيك ، وكنت ترى كوبا تجاور الولايات المتحدة ، وقد اشتركت الجمهورية العربية

المتحدة فى هذا التكريم باكليلها ..

وهنا يجدر بنا أن نذكر أن سفيرنا السابق فى لندن ، السيد محمود القونى ، كان من أعظم سفراء العالم اهتماما بالمواظبة على موكب السفراء السنوى فى ستراتفورد . وكان من الظواهر التى استرعت الانتباه اشتراك بعض الدول فى بلادها فى احياء ذكرى شكسبير ، ففى المانيا الغربية وفى المانيا الشرقية وفى اليابان وفى الارجنتين وفى الولايات المتحدة وفى الاتحاد السوفييتى أقيمت شتى الاحتفالات ، وكان من أهم ما سجلته وكالات الأنباء أن خروشوف وبعض كبار رجال الدولة فى موسكو حضروا اجتماعا شكسبيريا عقده المثقفون فى الاتحاد السوفييتى فى مسرح البولشوى الذى ألغى برنامجه العادى لاقامة هذا الاجتماع . وما دمنا بسبيل التسجيل فقد شاركت مصر بشىء فى بعض هذه الاحتفالات من خلال أجهزة الاعلام كالراديو والتليفزيون والمسرح ثم مجهود « الاهرام » الخاص لاحياء ذكرى شكسبير العظيم ..

وخلاصة القول ان الانجليز ، كما لاحظ أحد النقاد ، يحبون المهرجانات ولكنهم لا يتقنونها كما يتقنها غيرهم

من الشعوب ولا سيما الشعوب اللاتينية . ومن أجل هذا كان مهرجان شكسبير هذا العام غير مقنع بتاتا ، لا من حيث المدى ، ولا من حيث المضمون . ويكفى للدلالة على ذلك أن بلدة ستراتفورد التى ولد بهـا شكسـبير رغبت عام ١٧٦٨ فى اقامة تمثال جـديد لشكسبير ولكنها عجزت عن جمع المال اللازم لذلك ، لولا أن الممثل الكبير دافيد جاريك تبرع للبلدة بهـذا التمثال ولم يكتف بذلك بل نظم لها هذا المهرجان أو الموكب السنوى الذى يقع كل ٢٣ ابريل وخسر فى ذلك ألفين من الجنيهات . وظل الاحتفال السنوى بذكرى مولد شكسبير احتفالا زريا نحو مائة عام ، فلم يحفل به أحد حتى نحو ١٨٦٤ حين شكلت لجنة قومية لاقامة هـذا الاحتفال بمناسبة مرور ثلثمائة عام على مولد شكسبير ، كان من بين أعضـائها الشـاعر تنيسون والروائى ديكنز والناقد رسكين ..

هذه الانطباعات عن مهرجان ٢٣ ابريل التى جمعتها من قراءاتى فيما بعد أقنعتنى انى لم أخسر شيئا بتخلفى عن احتفال عيد ميلاد شـكسبير بل لعلى انتفعت من هدوء ستراتفورد فى أيام زيارتى الباكرة لها ، حيث

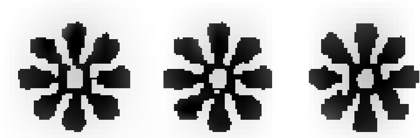
استطعت أن أتأمل كل شيء على حاله الطبيعي بعيدا عن جلبة الزحام وعن سحر الطقوس . ومن مقعدى على ضفاف نهر آفون كان موكب الأجيال والعصور يتدفق فى خيالى هادئا كمياه ذلك النهر الجميل وأنا أتصفح صور ممثلى فرقة شكسبير الملكية ، صورة دافيد وارنر فى دور ريتشارد الثانى وصورة اريك بورتر فى دور بولنبروك ..

وأذكر ما حدث بمدينة لندن فى اليوم السادس من فبراير ١٦٠١ عشية فتنة ايرل اسيكس عشيق الملكة اليزابيث لخلع الملكة ، وكيف أن ستة من علية القوم ذهبوا الى مسرح الجلوب وطلبوا من الفرقة التى كان شكسبير مساهما فيها تمثيل مأساة « ريتشارد الثانى » ليذكروا الناس بأن الملوك يمكن خلعهم ، فلما تردد مدير الفرقة بحجة ان المسرحية قديمة ولن تجذب عددا كافيا من المشاهدين أعطوه أربعين شلنا فوافق

وفى الصباح خرج اسيكس من قصره على رأس ثلثمائة رجل مسلح واستولى على لدجيت وتشيبسايد داعيا الناس أن يحرروا الملكة من مستشاريها الفاسدين ولما لم يخف أحد الى مظاهرته ، سلم اسيكس

اليأس نفسه مع قادة الفتنـــة ، ومن أشـــهرهم ايرل ساوثهامبتون راعى شكسبير المعروف الذى أهدى اليه شكسبير عددا من مؤلفاته وكان من ألصق الناس به . وسرعان ماحوكم المتآمرون وأعدم اسيكس فى برج لندن ، أما ساوثهامبتون فقد خـُفـِّف حكمه الى السجن مدي الحياة حتى أفرج عنه جيمس الأول خلف اليزابيث

وقد اتهم اسيكس وأشياعه بالتآمر مع البابا وملك أسبانيا ، وأما الممثلون فقد برئت ساحتهم لعدم ثبوت تواطؤهم . ولعل شكسبير كان كفيلا بأن يفقد رأسه فى هذه المؤامرة الفاشلة لصلته الوثيقة بهؤلاء وهؤلاء ، ولكن اسمه لا يرد بتاتا فى هــذه المناسبة . ترى ماذا كان موقف شكسبير من سياســة عصره وماذا كانت حقيقة صلته برجالاتها ؟.. ان هذه الألغاز المحيرة هى التى جعلت الباحثين يفترضــون ويفترضون دون أن يجدوا بصيصا من النور يهديهم الى شيء محقق



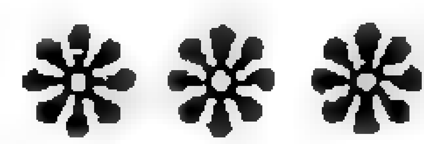
عندما يخلع ملك ملكا تتعلق أنفاس الناس وتتعلق أبصارهم فى السماء وهم يتابعون الطراد الرهيب بين الصقر القوى الفتى والصقر الضعيف الهزيل . وعندما

تسقط الفريسة من حالق تدق قلوب الناس طربا لانتصار القوى أو رثاء لمصير الضعفاء ولو كانوا من الخطاة ..

ويجلس المؤرخون الى مراجعهم ، ووثائقهم ليدونوا ويثبتوا ويفسروا بعقل هادىء ونفس باردة كيف بدأت الملحمة وكيف انتهت وما أسبابها فى الواقع والمنطق وما نتائجها فى الواقع والمنطق أيضا ، ونحمد نحن لهم هذا الهدوء وهذا البرود ونسميه « موضوعية » البحث وحيدة التاريخ . أما الفنان الذى يتصدى للمسرح ، فلا يكتفى بهذا الصراع الخارجى بين الضعف والقوة أو بين الخير والشر ، بل يلبس جلد الصقر المنتصر ويلبس جلد الصقر الصريع ويلبس جلد الجمهور ، ويلبس جلد الأجيال كلها ، ويتحول بشرقية الفن الى كل شىء فى الوجود ، فيحب ويكره ، ويتعذب ويفرح ، ويقلق ويصفو ، ويثور ويهدأ ، ويشمخ ويذل ، ويضطرب بكل نقائض الحياة فهو الملاك النورانى وهو الشيطان المريد ، وتتسلسل فيه حلقات الخير والجريمة. ويحس باحساس المؤرخ الشاعر ساكفيل وأصحابه

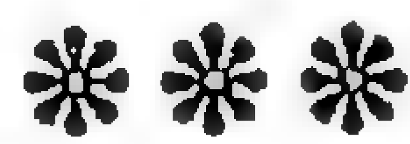
ممن كتبـوا « مرآة الحكام » عام ١٥٥٩ . فينشـد قائلا :

« الدم يطلب الدم
« كالآلىء الندى التى تطلب ثمنها
« والثأر جزاء عادل للثأر ..
رباه يا عادل حكمك قويم
فما نكيله نحن للغير يكال لنا غدا ..
اتعظوا يا ولاة الارض بعبرة الماضى
فالدم يجلب الدم ، ان جرى فلن يجف أبدا .. »



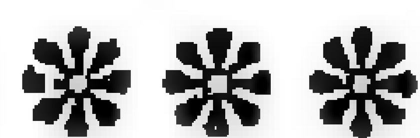
وبهذا نقترب من ذلك القانون الرهيب الذى حكم مآسى اليونان ولوث أبطالها السفاحين جيلا بعد جيل . وحين بدأ شكسبير يكتب للمسرح استوحى اسلافه ومؤرخى عصره الذين دونوا تاريخ انجلترا شعرا أو بروح الشعراء ، ولا سيما أصحاب « مرآة الحكام » (١٥٥٩) و« تاريخ » ادوارد هول (١٥٥٨) و«اتحاد أسرتى لانكستر ويورك النبيلتين الشهيرتين» ، لادوارد هول (١٥٤٨) و«سقوط الولاة» الذى نقله ليدجيت (١٣٧٣ ـ ١٤٥٠) عن بوكاشيو وتاريخ «فرواسار الذى

ترجم الى الانجليزية (١٥٢٣ ـ ١٥٢٥) و «تاريخ خيانة ريتشارد الثانى ملك انجلترا ومصرعه» المترجم أيضا عن الفرنسية الى الانجليزية ، والكتب الأربعة الأولى حول الحرب الأهلية لصمويل دانيل (١٥٩٥) و«تاريخ» هولنشيد (١٥٨٧). وكأنما أراد شكسبير أن يفعل لأمته ما فعله هوميروس لأمة اليونان من قبل فيدون تاريخ أيامها وأبطالها وأمجادها وآثامها بلسان الشاعر لا بقلم المؤرخ ، فتناول حقبة متصلة الحلقات من تاريخ انجلترا تتجاوز مائة عام ، وجعل من ملوكها أبطالا لمسرحياته التاريخية التى بدأ بها حياته المسرحية ..



وكانت تلك الحقبة هى الفترة التى تناحرت فيها أسرتا لانكستر ويورك على عرش انجلترا فيما يسمى بحرب الوردتين ، الوردة الحمراء والوردة البيضاء ، وكان ختامها انتقال الملك الى أسرة تيودور التى كانت اليزابيث آخر سبط لها فى عصر شكسبير . وهكذا كتب شكسبير مسرحية « ريتشارد الثانى » ومسرحية « هنرى الرابع » الأولى ومسرحية « هنرى الرابع » الثانية ، ومسرحية « هنرى الخامس » ومسرحيات « هنرى السادس »

الثلاث ومسرحية «ريتشارد الثالث» ، وختمها بمسرحية «هنرى الثامن» مؤسس أسرة تيودور ، فيبلغ مجموع المسرحيات التى مسرح فيهـا شكسبير تاريخ انجلترا تسع مسرحيات ؛ اذا أضفنا الى هذه القائمة مسرحية « الملك جون » ، منها ثمانية متصلة الحلقات أو تكاد أن تكون كذلك ، أى ما يعادل ربع انتـاجه المسرحى البالغ سبعا وثلاثين مسرحية ، وهو ما يدل على حدة حاسـة شكسبير التاريخية . فاذا أضفنـا الى هـذه المسرحيات الانجليزية مسرحيـاته الرومانيـة مثل : « يوليـوس قيصر » و « انطونيوس وكليـوبانرا » و « كريولانوس » تأكد هذا المعنى فى نفوسنا ، وبرز منه معنى آخر لا يقل عنه أهمية ، وهو أن شكسبير الذى أجمع نقـاد العالم كله أو كادوا على أن أدبه العظيم المحير خال تماما من أية وجهـة نظر سـياسية واجتماعية يمكن استنباطها من آثاره ، ربما أراد أن يقول لنا شيئا محددا من خلال مسرحياته التاريخية هذه التى كدسها تكديسا ..

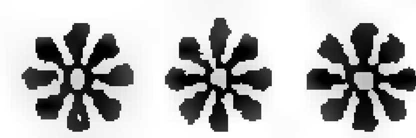


فما قصة كل هؤلاء الملوك المتعاقبين ، الا قصة اللعنة

التى نزلت على عرش انجلترا طوال مائة عام من التناحر بين أسرة لانكاستر وأسرة يورك ، وكلاهما من سبط ادوارد الثالث ، ولم ترتفع الا بعد أن آل الملك الى هنرى السابع سليل لانكاستر الذى تزوج من اليزابيث سليلة يورك فحقن الدماء ونشر السلام فى ربوع انجلترا ومهد لعصر الاستقرار الذى بدأ بحكم هنرى الثامن ثم اليزابث الأولى . واللغز المحير هنا هو أن شكسبير الذى كتب عن كل هؤلاء الملوك المتعاقبين كسر السلسلة عند هنرى السابع ، فلم يمسرح قصته ولا قصة الوئام الذى نشره بزواج لانكستر من يورك

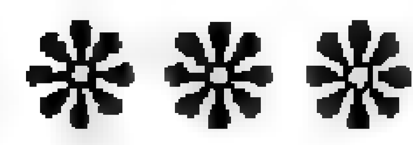
أتراه يريد أن يقول: انهذا الزواج الذى أثمر أسرة تيودور وأثمر بها هنرى الثامن واليزابيث الجالسة على العرش فى عصره لم يكن زواجا مقدسا وانما كان زواجا انتهازيا ، وتاج انجلترا لا يزال على رؤوس مغتصبيه واللعنة التى حلت على عرش بلاده منذ أن اغتصب هنرى بولنجبروك مولى لانكستر المسمى هنرى الرابع العرش من ريتشارد الثانى ابنعمه واغتاله لم ترتفع بعد عن العرش . ان كتب التاريخ والأدب تروى ان ايرل اسيكس الشاب الذى أعدم وهو فى

الثالثة والثلاثين من عمره وكان فى فترة من الفترات أحد عشاق الملكة الشمطاء اليزابيث الأولى وهى بين الستين والسبعين من عمرها كان طامعا فى عرش انجلترا فدبر مؤامرة فاشلة لخلعها واغتيالها فأعدم عام ١٦٠١ فى برج لندن وفى الليلة السابقة لثورة اسيكس الفاشلة مباشرة قيل ان المتآمرين وشوا رجلا يدعى فيلبس وهو مدير مسرح الجلوب الذى كان شكسبير قطبا من أقطابه ليقدم « ريتشارد الثانى » ويعرض على الناس مأساة الملك الضعيف المتردد الكثير النزوات المصطفى للمتملقين المقصى للراشدين الذى حق خلعه بظهور ثائر مقدام قوى اليد والجنان مثل هنرى بولنجبروك الذى خلع ريتشارد الثانى واعتلى عرشه باسم هنرى الرابع



فاذا ذكرنا ما ترويه كتب الأدب والتاريخ عن ولاء شكسبير لأسيكس ، وعما يظن من ارتباطه بفتنته لم نستبعد أن شكسبير كان موغل التورط فى سياسة عصره ، ثائرا على اليزابيث ، ومتآمرا مع المتآمرين على خلعها باعتبارها قد اغتصبت العرش من بنت عمها مارى ستيوارت . وبعد ألم تدون كتب التاريخ أن الملكة

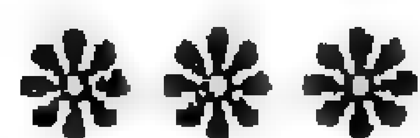
اليزابيث قالت تلك الكلمة المشهورة : « أنا ريتشارد الثانى : ألا تعرفون ذلك ؟ »



والمعروف أن مأساة « ريتشارد الثانى » سجلت فى السجل الرسمى لمطبوعات ذلك العصر فى ٢٩ أغسطس عام١٥٩٧، وانها نشرت أثناء حياة شكسبير أربع مرات كان أولها فى نفس عام تسجيلهـا ، ولكن « مشهـد الخلع » أى خلع الملك (الفصل الرابع . المشهد الأول الأبيات ١٥٤ ـ ٣١٨) حذف فىالطبعات الثلاث الأولى التى صدرت أثناء حكم الملكة اليزابيث ربما لاعتراض الرقيب فلما ماتت اليزابيث (١٦٠٣) ظهر مشهد الخلع فى الطبعة الرابعة التى صدرت عام ١٦٠٨ . ولا يعرف على وجـه التحقيق متى كتب شكسبير « ريتشـارد الثانى » ، ولكن يظن انها من ثمار عام ١٥٩٤ أو ١٥٩٥ ليس فقط بعلة أسلوبها الغنائى المشحون بالعاطفة ، بل لظن الباحثين أن هناك اشارة اليها فى خطاب مؤرخ فى ٧ ديسمبر عام ١٥٩٥ موجه الى السير روبرت سيسل، يقول فيـه مرسله السير ادوارد هوبى : « ان الملك ريتشارد سيمثل أمام ناظريك بعد العشاء » ، ويظن ان

ذلك يشير الى عرض خاص لهذه المسرحيـة فى قصر ذلك النبيل ..

ولعل من المهم ، أن نذكر أن المصادر الفرنسية التى يظن أن شكسبير قد تأثر بها تنطوى على عداء سـافر لهنرى الرابع وأسرة لانكستر وتحيز واضح لريتشارد الثانى وأسرة يورك ، فجان كريتون مثلا وهو صاحب « تاريخ ريتشارد الثانى ملك انجلترا » يقرر فى وصفه لمأساة ريتشارد الثانى أن « السبب الوحيد لخلعه وخيانته كان بغير شك ولاءه فى حب والد زوجته ملك فرنسا » ولكن أيا كان الأمر فان المصادر الأخرى التى يعتقد أن شكسبير قد استعان بها تصور ريتشارد الثانى أيضا فى صورة الملك الأحمق الضعيف المستسلم للملذات المحيط نفسه بحاشية من المتملقين النافر من صحبه الناصحين العقلاء ..



وهكذا كانت أمام شكسبير صـورتان احـداهما تصوره فى صورة الشهيد والأخرى تصوره فى صورة الملك الفاسق ، وقد اسـتطاع شكسبير بأسـتاذيته فى المسرح أن يدغم الصورتين فى صورة واحدة ، فيجعلنا

نرفض ريتشارد الثانى ملكا ونعطف عليه انسانا كما ذكر العلامة دوفر ويلسون ، فهو فى الفصلين الأولين يجعلنا ننفر منه لكثرة تعسفه وحمقه فهو ينفى نبلاءه مثل هريفورد ونورفولك أو يرسلهم الى القتال لاقصائهم

وهو يتسبب فى قتل دوق جلوستر بيد غريمه بولنجبروك الذى امتلأ قلبه حقـــدا عليه نتيجة لنفيه من البلاد ، ولكننا لا نلبث أن نعطف عليه بعد عودة بولنجبروك الى انجلترا من منفاه ليجمع الحشود ضده ويحاصره حتى ينهار انهياره الأخير ، فيقبل التنازل عن العرش ثم يلقى مصرعه حتى يستقر العرش تحت هنرى بولنجبروك الذى ارتقاه باسم هنرى الرابع ، ولكن ما أن يبـــدأ ريتشارد الثانى فى الانهيار حتى تتجمع حوله وحول ضعفه عواطفنا ونبكى معه فى رثاء النفس بعد السقوط من حالق وتأخر رحمة السماء عن ملك كان يظن انه « معبد الله المقدس » بلغة العصور الوسطى وظل الله على الأرض ، بل ونبدأ ننظر الى بولنجبروك فى ساعة انتصاره نظرنا الى مغتصب ارتقى العرش بقوة البأس لا بالحق الشرعى ..

وهكذا تبدو لنا هذه الجريمة الأولى بداية سلسلة متصلة الحلقات من الغــدر والخيانة وســفك الدماء والأطمــــاع التى لا تنتــهى بين أسرة يورك وأسرة لانكاستر ، وتجلجل فى آذاننا كلمات اسقف كارلايل الذى وقف الى جوار مليكه فى محنته مستصرخا نبلاء المملكة حتى لايتوجوا بولنجبروك المنتصر بقوله :

« ولو انـكم توجتموه ، فهذه نبوءتى لـكم :

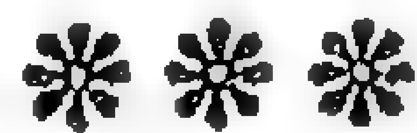
لسوف تسمد الأرض دماء الانجليز

وتئن الأجيال القادمة من هذه الفعلة الشنعاء

لسوف ينزح السلام الى بلاد الترك والكفار ..

وتضطرب بالحرب الضروس أرضنا أرض السلام

ويمزق الأخ أخاه ويقتتل ذوو الأرحام »



وقد تحققت هذه النبوءة وحقت هــذه اللعنة على الانجليز أكثر من مائة عام ، هى موضوع مسرحيات شكسبير التاريخية ، أو كما وصف السير جون هايورد تلك الحقبة الفظيعة من تاريخ بلاده فى كتابه « تاريخ هنرى الرابع » الذى صدر عام ١٥٩٩ : « لقد حكم الملك هنرى المملكة طوال حيــاته فى جو من السخط

والقلاقل وهذا عين ما فعله ولده الملك هنرى الخامس الذى أفرغ كراهية الناس وضيقهم بحكمه فى حروبه المتصلة مع الفرنسيين . ولكن خلفه الثانى الملك هنرى السادس جرد من ملكه وألقى مع ولده الصغير فى غياهب السجن ، ثم أعدما اما بأمر الملك ادوارد الرابع أو بتواطؤه ..

ولم ينج أيضا هذا الملك من هذا المصير ، فقد مات والكثيرون يظنون ويعلنون صراحة انه مات مسموما ، وبعد موته جرد ولداه من أملاكهما وسجنا ثم ذبحا .. فعل ذلك بهما عمهما القاسى دوق جلوستر الذى قتل فى المعركة واستحق مصرعه لأنه كان طاغية ومغتصبا ، ولما لم يكن له ولد فقد انتهت المأساة بوفاته . وهذه كلها عبر نادرة ورائعة تثلج صدور المضطهدين ، وترعب قلوب الظالمين .. فالله فى حكمته الخفية قد لا يحمينا دائما من المهالك ، ولكنه ينتقم لما ينزل بنا من ظلم واضرار . وهى دليل على ان كل ما ترتكبه من مظالم له يوم حساب ، وكثيرا ما يأتى القصاص بنفس الطريقة وبنفس القدر الذى ترتكب به الجرائم »

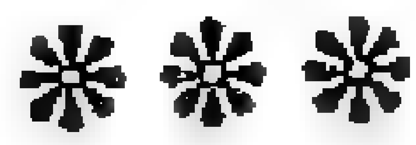
هذا الكلام الذى نشر فى عهد اليزابيث عد يومئذ دعوة للثورة عليها . لأن اليزابيث بعد أن ارتقت عرش انجلترا خضبت يديها بالدماء ، وفى عام ١٥٨٧ قطعت رأس بنت عمها مارى ستيوارت أو مارى ملكة الاسكتلنديين وملكة فرنسا وصاحبة الحق الشرعى فى عرش انجلترا ، فى برج لندن باسم حماية انجلترا من الكثلكة والكاثوليك . بعد أن سجنتها ثمانية عشر عاما رغم ان مارى ستيوارت لجأت الى بلاطها بعد اعتزالها الملك فى عام ١٥٦٨ وقد ماتت اليزابيث بعد ذلك عام ١٦٠٣ بلا زوج ولا ولد ، فآل ملك انجلترا من جديد الى آل ستيوارت فى شخص خلفها جيمس الأول وأخلافه ، وأوشكت المملكة أن ترتد فى عهدهم الى الكثلكة والكاثوليك . وقد كان المؤرخون ومعهم الناس يؤمنون ايمانا عميقا بأن الدم لا يورث الا الدم وان الله بالمرصاد للملوك الظالمين

فهل كان شكسبير يؤمن بما كان يؤمن به أهل عصره عامتهم وخاصتهم على السواء ؟.. وماذا كان موقفه من الملكة اليزابيث التى ذبحت بنت عمها الملكة مارى واستولت على عرشها لتحمى دولتها البروتستانتية من

الكاثوليكية ؟.. وما اصرار شكسبير على مسرحة تاريخ انجلترا فى تلك الفترة الدامية التى لم يهدأ فيها ذوو الأرحام حتى قتل بعضهم بعضا ؟.. وهل جسّد شكسبير أمام الناس قصة بولنجبروك القوى المغتصب وفتكه بابن عمه ريتشارد الثانى ملك البلاد الشرعى الضعيف ليذكرهم بمصرع الملكة مارى ستيوارت على يد بنت عمها اليزابيث ؟.. أم انه كان يبغى لأسباب أخرى مظاهرة الثوار على اليزابيث مثل اسيكس وغيره من النبلاء الذين قطعت اليزابيث رؤوسهم فى برج لندن ؟

وهل كانت لشكسبير معتقدات كاثوليكية خفية لازمته حتى فى فنه المسرحى ؟.. ان شكسبير فى طائفة عظيمة من مسرحياته التاريخية وغير التاريخية لايفتأ يردد على ألسنة أبطاله التمجيد لحق الملوك الالهى وقداسة أشخاصهم ، فهل كان هذا من محض مقتضيات المسرح أم انه كان جزءا لا يتجزأ من عقيدة كاثوليكية كان يضمرها ولا يجسر على اعلانها فى عصر الفتنة الكبرى بين البروتستانت والكاثوليك ، يوم كانت الكثلكة فى بلاده كلمة مرادفة فى بعض الأحايين للخيانة العظمى جزاؤها الموت المحقق ، وللولاء القومى الضعيف فى

الأحوال العادية . ان ريتشارد الثانى قرب مصرعه يشبه نفسه بالمسيح بعد العشاء الأخير !



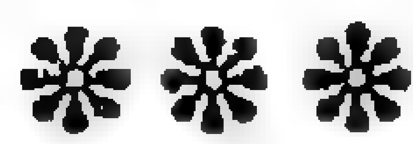
كل هذه أسئلة حائرة ليس من السهل الاجابة عليها ، وهى موضوع جدل لا ينتهى بين النقـاد والباحثين . ولكن من المحقق ان البلدة التى نشأ فيهـا شكسبير نفسـه كانت أيام نشـأته ممزقـة بين الـكاثوليك والبروتستانت سواء بين سادتها أو بين أهلها ، شأنها فى ذلك شأن أكثر بلاد انجلترا وان المقاطعة كلها التى تحتويها وهى واريكشاير ، كانت فى هذا الصدد كما قال المؤرخ راوس : « نموذجا مصغرا كاملا لداخلية البلاد فى انجلترا فى عصر نشأة شكسبير ، فكانت أهم البيوتات فيها وهم آل كومبتون وآل اندرهيل وآل سمرفيل وآل آردين من الكاثوليك بينما كان آل ددلى وآل جريفيل وآل لوسى من البروتسـتانت . أما آل ثرويكمورتون فقد انقسموا الى شيعتين : شيعة من الكاثوليك وأخرى من البروتسـتانت . والثابت ان شكسبير كان ينتمى الى أسرة نصفها الأعرق والأقوى والأثرى ، وهو أسرة أمه مارى آردن ، من المزارعين

الكاثوليك المتمسكين . أما أسرة أبيه ، جون شكسبير، القفاز وتاجر الأصواف فلم يعرف عن ولائها الديني شيء واضح ، الا ان جون شكسبير نفسه ظل مقصيا أو أقصى نفسه عن مجلس مدينة ستراتفورد أكثر حياته لأسباب غير معروفة رغم وجود ما يثبت انه كان من أهل الحيثية فيها ، وربما كان لمعتقداته الدينية دخل فى ذلك ، فى زمن كان فيه كاثوليك انجلترا ، ولا سيما الساعين منهم الى المجد والحظوة مثل وليم شكسبير ، يلبسون مائة قناع لاخفاء كثلكتهم حتى لا تعوق تقدمهم فى الحياة ..

ولعل قبر شكسبير الغريب ، داخل كنيسة ستراتفورد تحيط به قبور زوجته آن هاثاواى وبنته سوزانا وزوجها الدكتور هول يخفى شيئا عن سر هذا الرجل العظيم الذى جرت حياته مجرى الألغاز ، ليس فقط لأن قبر شكسبير يقع تحت مذبح الكنيسة مباشرة كأنه قطبها الروحى وهو امتياز قل نظيره الا فى البلاد الكاثوليكية، وليس فقط لأن كنيسة ستراتفورد ذاتها تحمل بعض رموز الكثلكة الى اليوم ، بل لأن النقش المحفور على قبر شاعر الخلود ، وهو أربعة أبيات من نظمه ولكنها

ليست من جيد الشعر ، أغرب نقش حفر على قبر ، فهو يقول :

« أيها الصديق الكريم مرضاة ليسوع احجم
عن نبش الرماد المحتوى ههنا
بورك من تجاوز عن هذه الأحجار
واللعنة على من حرك رميمى »



هذه اللعنة القابعة تحت هيكل الكنيسة وهو آخر مكان ينبغي أن نذكر فيه اللعنات كأنما تدعو قارئها دعوة الى فض مغاليق هذا القبر العجيب ، فهى تذكرنا بأساطير الكنوز الملعونة فى أيام الوثنية الأولى سواء لدينا أو فى شعوب الشمال . وهى تذكرنا بأساطير الكنوز التى تحرسها التنانين أو خرافىالوحوش. ولكم حاول الباحثون عبثا أن يفتحوا هذا القبر الملغز لعلهم يجدون مخطوطا واحدا بخط شكسبير أو أى أثر من آثاره يعينهم على اجلاء سيرته الغامضة ولكنهم عبثا ينتظرون حتى يأذن لهم اسقف كوفنترى بذلك ولا أحسبه فاعلا فى يوم من الأيام مخافة أن تحل به لعنة شكسبير

الفصل الرابع

قصة الغواية والهداية
في مسرحية هنري الرابع

- هل كتب شكسبير مأساة ذات روح الكوميديا ؟
- فولستاف والأمير هال هما الشيطان وتلميذ الشيطان



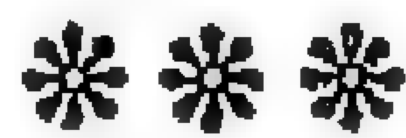
قصة الغواية والهداية

فى السادس عشر من ابريل ، أى فى اليوم التالى لزيارتى مدينة ستراتفورد ، دخلت مسرح شكسبير الملكى فى الساعة الثانية بعد الظهر ، ولم أغادره الا فى الحادية عشرة مساء . تسع ساعات متصلة فى المسرح منها ساعة واحدة فى الكافتيريا وثمانى ساعات شاهدت فيها مسرحية «هنرى الرابع» الحلقة الأولى ، ومسرحية «هنرى الرابع» الحلقة الثانية . ولم أكن وحدى الذى اقترف هذا العمل ، مشاهدة مسرحيتين فى يوم واحد ، فقد لاحظت ان أكثر جيرانى فى القاعة ، وعامة من رأيت من المشاهدين ، كانوا هم هم ، لم يتبدلوا . وكان تفسير ذلك بسيطا ، وهو أن كثرتهم المطلقة كانوا مثلى من الطارئين على ستراتفورد ، جاءوها من مختلف أرجاء انجلترا ، أو جاءوها من مختلف أرجاء المعمورة

ليشاهدوا غرض مسرحيات شكسبير ثم يرحلوا عن البلدة فى أول قطار . ولقد كانت تجربة فريدة حقا ، لأنى ما كنت أتصور أن فى طاقة البشر أن يتحملوا ثمانى ساعات من الاستماع المتواصل والنظر المتواصل فاذا بى أكتشف ان الفن العظيم قدير على أن يستولى على الانسان تماما بل ويعزله عن موكب الحياة . بل اكتشفت ما هو أخطر من ذلك وهو ان طاقات الفنان الأصيل طاقات خطيرة تمكنه من اتيان العجائب . فقد كان الممثلون فى مسرحية « هنرى الرابع » الأولى هم هم فى مسرحية «هنرى الرابع» الثانية . أو كان أكثرهم كذلك ..

وكلما ذكرت « هيوجريفيث » الذى كان يؤدى دور فولستاف العظيم يجول ويصول على المسرح ثمانى ساعات كاملة دون كلل . زاد عجبى من هذه الطاقة الفنية النادرة .. بل لا أغالى ان قلت : ان هيوجريفيث مرت به الساعات لا يهمد ولا يخمد وانما تزداد ناره اشتعالا كأنه فرن يطعم بوقود الشعر الخالد كلما أطعموه اشتد وهجا ..

هكذا فعل شكسبير بممثليه وجمهوره فى مسرحيتى « هنرى الرابع » الأولى والثانية . فشخصية فولستاف فىهاتين المسرحيتين ثم فى «زوجات وندسور المرحات» هى أعظم شخصية كوميدية ابتكرها خيال شكسبير . وباستثناء بعض شخصيات موليير لعلها أعظم شخصية كوميدية فى تاريخ الأدب المسرحى كافة .. هو ليس كلاما فكاهيا ولا موقفا مضحكا ولا سخرية اجتماعية ولا سلوكا يقهقه له الناس ، انه انسان من لحم ودم . انســـان ضخم الجثة ، جسيم الابعاد النفسية ، يكاد لضخامته وجسامته أن يملأ المسرح كله ، وهو بغير شك يملأ كل نفوسنا لأننا لا نجد له نظيرا .. ومع ذلك ، فشخصية فولستاف ليست كل مسرحيتى «هنرى الرابع»؛ لأن «هنرى الرابع» بجزئيها مأساة تاريخية كبيرة تمثل مجرد حلقتين فى تاريخ انجلترا الذى تصدى شكسبير لمسرحته ، وهى نتيجة لازمة لمأساة « ريتشارد التانى » وهى أيضا مقدمة لازمة لمـــأساة « هنرى الخامس »



و«هنرى الرابع» ــ رغم فولستاف ــ ليست كوميديا ولا تراجيديا ، بل هى تراجيكوميديا ، أى تراجيديا

مضحكة رغم غرابة هـذا القـالب .. فقـد عودنا شكسبير أن يخفف مآسيه من حين لحين بمشـهد أو مشهدين هزليين ليكسر حدة التوتر العاطفى ، أما هنا فان القصد « المأسوى » نسيج جَدل جدلا محكما من مادة كوميدية ..

ومع ذلك ، فقد بقى التاريخ هو التاريخ ؛ وبقيت المـأساة هى المـأساة ، ومن وسط التاريخ والمـأساة برز فولستاف أخطر شخصية كوميدية ابتكرها خيـال شكسبير ..

ترى ماذا وراء هذه التجربة الخطيرة فى المـأساة المضحكة ؟ ..

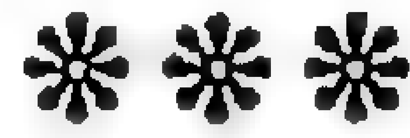
ان من يتأمل حلقتى « هنرى الرابع » يجد أنهما مسرحيتان تدوران حول موضوع واحـد . وهـذا الموضوع هو موضوع « تربيـة الأمير » ولى عهـد المملكة . وهذا الأمير هو البرنس هنرى أو البرنس هال حسب اسمه الشائع ، ابن الملك المغتصب هنرى الرابع (بولنجبرك) الذى خلع ريتشارد الثانى من العرش واغتاله وجلس فى مكانه . وكما نرى فى مأساة ريتشارد الثانى ان جرثومة الضعف فى قاهره المغتصب

هنرى الرابع هى امتلاؤه بمجد السلطة الدنيوية واجتراؤه على مليكه الذى يمثل ظل الله على الأرض ، نرى فى مأساة « هنرى الرابع » ان جرثومة الضعف فى ولى عهده البرنس هال ، هى امتلاؤه بشهوات الدنيا ولذائذها بما أقصاه عن ذات الفضيلة . والمفروض ان تربية الأمير تكون بالذات نموذجا للتربية الفاضلة التى تجعل منه نموذجا للفضائل ، وأن يكون مؤدبه أوسع الناس علما وأرجحهم عقلا وأسماهم خلقا ، أما الأمير هال فلا يجد من يؤدبه الا الفارس الفاسق فولستاف الذى يجذبه بفجوره كما يجذب المغناطيس الحديد . ان فولستاف هو الشيطان ، والأمير هال هو تلميذ الشيطان وقصة صحبتهما هى قصة الغواية والسقوط ، ثم قدرة الانسان فى النهاية أن يفك عنه بالكفاح والشجاعة والولاء للمثل العليا اغلال الغواية ، وأن يتحرر من سحر ابليس ..

هذه هى اللعنة التى كتبها القدر على الملك المغتصب هنرى الرابع : أن يعيش العمر معذبا لأن ولى عهده الشاب هوى الى حضيض الرذيلة فأصبح ملك الحانات والمواخير ..

ولقد تعودنا أن نرى قصة غواية الانسان وسقوطه وتجربته مع الشيطان دائما فى صورة المأساة التى تتمزق لها القلوب . هــذه الصــورة التى ورثناها عن أدب الرنيسانس لاتزال قائمة بيننا الى اليوم ، ولعل أوضح مثل لها مأساة فاوست الذى باع روحه للشيطان مقابل نعيم الدنيا ثم جاءه القصاص الفظيع ، أما العصــور الوسطى فقد كان لها رأى آخر فى قصة الشيطان مع الانسان وفى قصة الغواية والسقوط . كانت العصور الوسطى لا تقرأ فى شخصية الشيطان أو فى ســقوط الانسان أى معنى من معانى المأساة ، بل كانت تجد فى صاحب القرنين والذنب شخصية كوميدية صرفا تتجمع فيها كل معانى السخرية والاحتقار ، ولا ترى فى ثورته على الله أو فى افساده للانسان أى مدعاة للعطف أو أى مبررات تلطف من حكمنا عليه . كان هذا رأى العصور الوسطى فى قصــة العصيان الأول وفى قصــة الغواية الأولى وفى قصة كل عصيان وكل غواية ، لأن العصور الوسطى كانت تؤمن بالاختيار والمسئولية وبقدرة العقل على التمييز بين الخير والشر ، وبالتالى فالخطيئة عندها ــ ليست من الجبر الأعلى ــ بل مجرد جنوح عن العقل

ونزول بالرضا عما في الانسان من ذات الله ، وهـذا يدعو للاحتقار والزراية والسخرية ولا يستدر من القلب ذرة من الرحمة الا الأمل فى توبة الخطاة أو رجوعهم الى طريق العقل . وهكذا بنى شكسبير قصة فولستاف منبع الغواية والفساد مع الأمير الطائش هال بناء كوميديا يقوم على السخرية والاحتقار على غرار ما كانت العصور الوسطى تفعل بشخصية فاوست



وكما وجد شكسبير المادة التاريخية فى « ريتشارد الثانى » فى « تاريخ » هولنشيد ومن شاكله من المؤرخين المعاصرين أو السالفين ، وجد أيضا المادة التاريخية لبقية مسرحياته التاريخية فى نفس المصادر واستمدها منها .. فماذا قال هولنشيد عن حكم هنرى الرابع الذى جعله شكسبير عنوانا للحلقتين التاليتين من مسرحياته التاريخية ؟

قال هولنشيد ان هنرى بولنجبروك بعد أن خلع ريتشارد الثانى واغتاله واستولى على عرشه وحكم مكانه باسم هنرى الرابع كان جالسا الى مائدته ذات يوم ثم سمعته حاشيته يقول بقلب حزين : أما من

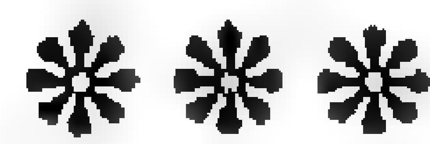
صديق يخلصنى من هذا الذى فى حياته موتى وفى موته حياتى ؟.. فعرفت الحاشية برغبة الملك واهتموا لها ولا سيما فارس يدعى السير بيرس اكستون ، فخرج هـذا الفارس من البلاط بين ثمانية من أشداء الرجال ، وحين بلغوا بومفريت حيث كان ريتشارد الثانى سجينا أمروا بأن يخدم الملك المخلوع بكل أدب وتحية لأنهم كانوا يعلمون أن منيته قد دنت . ولاحظ ريتشـارد الثانى هذا التغير فاستفسر عن أسبابه ، فلما أبلغوه بأنها أوامر السير بيرس أدرك حقيقة الموقف وتهيج وطعن حارسه وهو يلعن هنرى لانكاستر (بولنجبروك) والجميع

وهنا اقتحم السير بيرس برجاله عليه الغرفة ونشبت بينه وبين ريتشارد الثانى معركة ضارية قتل فيها ريتشارد بمفرده أربعة من الرجال ، ولكن السير بيرس والباقين تجمهروا عليه .. وفى النهاية تمكن السير بيرس من أن يجندل الملك المخلوع بضربة من بلطته شجت رأسه وقتلته على الفور . ويقال ان السير بيرس اكستون بعد أن فتك بالملك المخلوع انخرط فى البكاء المرير من وخز الضمير ..

أما الملك هنرى الرابع ، فلم يهنأ طويلا بالعرش الذى اغتصبه ، فقد انتقض عليه كثير من نبلائه الخاصاء ، ولا سيما نبلاء اسكتلندا وويلز ، وأخصهم ايرل نورثمبرلاند وأخوه ايرل ووستر، واللورد هنرى برسى الشهير باسم هوتسبير ، ولد ووستر ، وكانوا من قبل من أخلص أنصاره ، وتحدوه علنا وتآمروا على خلعه مع أوين جلنداور ، نبيل ويلز، وتولية ابن عمهم ادموند ايرل مارش . وقد كان جلنداور فى المنفى بأمر هنرى الرابع فحرروه من منفاه ، مما أحنق هنرى الرابع عليهم . واتفقوا فيما بينهم على تقسيم المملكة الى ثلاثة أشطار: انجلترا ويحكمها ايرل مارش وويلز ويحكمها جلنداور واسكتلندا ويحكمها هنرى برسى الشهير بهوتسبير

وهكذا جيش الثوار الجيوش وحشدوها عند شروزبرى وأشاعوا فى الناس أن الملك ريتشارد الثانى لايزال على قيد الحياة ، ولم يكن صعبا عليهم تأليب الناس على هنرى الرابع فقد كانت الناس تعرف بأنه اغتصب العرش اغتصابا وسفك دم مليكه بوحشية وانه نهب أموال الرعية بالضرائب والمصادرات

وكانت هذه اللعنة التى نزلت على أسرة لانكاستر ألا يعرف حكمها الهدوء والاستقرار ملكا بعد ملك وأن يخوضوا فى بحار من الدماء .. وكأنما دبر القدر أن يكيل هوتسبير لبولنجبروك بمثل ما كاله بولنجبروك لريتشارد الثانى . ولكن هنرى الرابع ما أن عرف بتجمع أعدائه عليه حتى خرج على رأس جيشه الى شروزبرى ومعه ولده الامير هنرى ، أمير ويلز ، الشهير باسم برنس هال . وجرت فى شروزبرى ملحمة كبرى كاد هنرى الرابع أن يفقد فيها حياته وسقط فيها حامل علمه وكان رجال هوتسبير يهتفون « اسبرانزا يا برسى » أى الأمل يابرسى أما رجال هنرى الرابع فكانوا يستصرخون سانت جورج القديس حامى انجلترا أن يسحق أعداءهم. وفى هذه الملحمة أبلى ولى العهد برنس هال بلاء تحدثت به صحائف التاريخ ، وانجلت المعركة عن قتل هوتسبير وفرار جيش الثوار

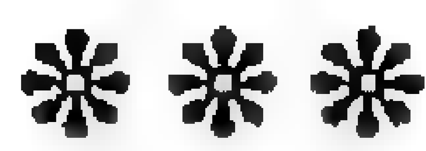


وكان ولى العهد ، برنس هال ، فتى اشتهر فى المملكة كلها بطيش الشباب وبعربدته وسلوكه الجامح واقباله على الملذات بما لا يناسب مقامه ، وكان يماشى رفقة

السوء الذين زينوا له فتنة الخمر والنســاء ومختلف الصبوات ، وكان شعبى الطبع يخالط العــامة ويرتاد أماكن لهوهم ويقطع الطريق على جباة الضرائب ويضرب القضاة . ودس له بعض رجال الحاشية عند أبيه الملك هنرى الرابع فغضب عليه غضبا شديدا وأقصاه عنه ، ولكن الامير لم يلبث أن سعى للقاء والده واسترد ثقته فيه ..

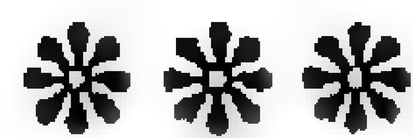
قيل ، وحين أصاب الفالج الملك هنرى الرابع كان يرقد على فراش الموت واضــعا تاجه على الوســادة بجواره . ودخل عليــه الأمير هال ذات مرة مخــدعه فوجده فى غيبوبة تامة فظن وظن الجميع معه أن الملك قد مات ، فحمل الأمير هال التاج وانصرف . ثم أفاق الملك فلم يجد تاجه بجواره ، ولمــا أبلغوه بما جرى أرسل فى طلب ابنه فاعتذر له بما كان ووعده أن يدافع عن تاجه بسيفه كما فعل أبوه نفسه من قبل . وهكذا مات هنرى الرابع فى ٢٣ مارس ١٤١٣ عن سنة وأربعين عاما بعد أن حكم ١٣ سنة و ٥ شهور وبضعة أيام ، وكان عهده مليئا بالمنغصات رغم انه فى نهاية عهــده كسب قلوب النبلاء والرعية بتغير طباعه

وبعد موته تولى مكانه ولى عهده الامير هنرى (برنس هال) ، ولكن هذا الامير المستهتر ما أن وضع التاج على رأسه حتى تخلى تماما عن حياة المجون ونزوات الشباب ، بل وأقصى رفقة الحان والماخور من محيطه تماما فى غلظة وصرامة



هذا مجمل ما ذكره المؤرخ هولنشيد عن هنرى الرابع وولى عهده البرنس هال قبل أن يتولى العرش مكانه باسم هنرى الخامس . ويرجح الباحثون أن شكسبير كتب مسرحيتيه عن « هنرى الرابع » فى ١٥٩٦ ـ ١٥٩٧ أو فى ١٥٩٧ ـ ١٥٩٨ كما يرى تشمبرز ، وان كانت الحلقة الاولى لم تسجل فى سجل المطبوعات الا فى ٢٥ فبراير ١٥٩٨ . وفى نص المسرحيتين ما يدل على أن شكسبير لم يعتمد على تاريخ هولنشيد وحده بل اعتمد أيضا على عدة مصادر أخرى من أهمها مسرحية مجهولة المؤلف اسمها « انتصارات هنرى الخامس الشهيرة » وقد مثلت نحو عام ١٥٨٨ ثم « الحاكم » لتوماس اليوت (١٥٣١) ، ثم تاريخ الحرب الاهلية وهى قصيدة قصصية للشاعر دانييل (١٥٩٥)

ثم الموال الشعبى المشهور فى الأدب الانجليزى باسم « تشيفى تشيز » حول حوادث هذه الفترة . وتعدد هذه المصادر يستدل عليه بورود وقائع فى حلقتى «هنرى الرابع » تستقصى كل منها من مصدر معين ولا ترد فى غيره ..



وقد ظهرت من « هنرى الرابع » الأولى ست طبعات فى حياة شكسبير (١٥٩٨ و ١٥٩٩ و ١٦٠٣ و ١٦٠٤ و ١٦٠٨ و ١٦١٣) بينما لم تظهر من هنرى الرابع الثانية فى حياته الا طبعتان الاولى فى ١٦٠٠ والثانية فى ١٦١٠ ، مما يدل على شعبية الأولى وعدم شعبية الثانية ..

وأيا كان الأمر فان أهم ما فعله شكسبير فى حلقتى « هنرى الرابع » ليس مجرد مسرحة تاريخ انجلترا ، ولكن اقدامه على :

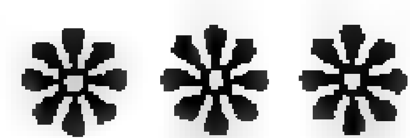
١ ـ اقتحام مجال الكوميتراجيديا فى قوة واقتدار بما جعل هذا القالب المسرحى قالبا معترفا به فى الأدب الانجليزى ولا سيما ان الحلقتين تنتميان من حيث تاريخ التأليف لنفس الفترة التى أنشئت فيها « تاجر

البندقية » التى يردها تشمبرز الى ١٥٩٦ ـ ١٥٩٧ وهى تجـربة شـكسبير الخطيرة المعكوسـة فى التراجيكوميديا ..

٢ ـ بناء الكوميديا على « الشخصية » ببنائها حول شخصية محورية هى شخصية فولستاف مما غير مجرى الكوميديا تماما عما كان عليه من قبـل ، وقد كانت الكوميديا من قبل تعتمـد على المواقف وعلى اللعب بالالفاظ وعلى نقد السلوك فأصبحت ببناء شـخصية شيلوك فى « تاجر البندقية » وبناء شخصية فولستاف فى « هنرى الرابع » تقوم على كوميديا الطبائع

وقد التزم شكسبير بوجه عام بالخطوط التاريخيـة التى وجدها فى هولنشيد وسواه ولكنه فى محاولتـه نسج خيوط المسرحية حول تصوير العلاقة بين الملك هنرى الرابع وابنه العربيـد الفتى برنس هال ، أراد تفسير غواية الأمير الشاب بصحبة رفقـاء الغواية ، فجعله يلازم شخصية معروفة فى التاريخ الانجليزى هى شخصية السير جون أولدكاسل التى وجدها شكسبير ناجحة على المسرح الانجليزى منذ ١٥٨٨ أى منذ ظهور مسرحيـة « انتصارات هنرى الخامس المشـهورة »

المجهولة المؤلف فاستغلها فى حلقتى « هنرى الرابع » ثم فى « زوجات وندسور المرحات » . أما السير جون أولذكاسل الاصلى وهو لورد كوبهام ، فقد روت عنه كتب التاريخ انه كان فارسا شجاعا متشيعا لجماعة من الاصـــلاحيين المنشقين الذين انتشروا فى القرن الرابع عشر ، وكانوا يدعون لمناهضة الكاثوليكية وتقليم أظافر الكهنوت ووضع حد للنفوذ الواسع الذى كان يتمتع به رجال الدين فى الدين والدنيا معا ، فاتهمتهم البابوية والكنيسة الكاثوليكية عامة بأنهم زنادقة ، فلما قاموا بثورتهم المعروفة اشترك فيها السير جون اولدكاســـل وسقط فيها شهيدا عام ١٤١٨ . ويبدو أن أولدكاسل هذا كان أثناء حيـــاته من أضرى أعداء الكثلكة لأن شخصيته فيما بعد أصبحت شخصية أسطورية تنسج حولها الروايات التشهيرية سواء على المسرح أو فى شعر الشعراء . وفى كتاب فولر عن « عظماء انجلترا » وغيره نص صريح على أن الكاثوليك أو«البابويين»كانوا هم أكبر مصدر للتشهير به



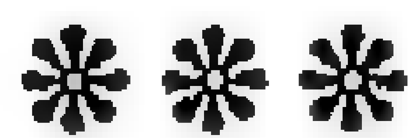
وقد كان اسم السير جون فولستاف رفيق الأمير هال

العربيـــد ، وسائقه فى طريق الغواية ، أول الأمر فى مسرحيتى « هنرى الرابع » هو السير جون أولدكاسل (لورد كوبهام) وكان فى بلاط الملكة اليزابيث سليل من أسرته هو اللورد كوبهام كما أن أسرة كوبهام كانت ذات سطوة فى عصر شكسبير فغضب كوبهام وأسرته غضبا شديدا وعد تصوير سلفه الفارس الشهيد فى هذه الصورة الشنيعة تشهيرا به وبهم . وكان من نتائج ذلك أن شكسبير غير اسم السير جون اولدكاسل فى مسرحيتى « هنرى الرابع » الى اسم السير جون فولستاف ..

وحين نشرت المسرحيتان فى ١٥٩٨ و ١٦٠٠ اختفى منها اسم أولدكاسل وحل محله اسم فولستاف ، ولكن فى نهاية الحلقة الثانية أثرا لهذا التغيير، اذ نجد شكسبير يقول مصححا أو معتـــذرا أو متهكما عن فولستاف «أولدكاسل مات شهيدا فهذا الرجل رجل سواه» ، كما أن فى المسرحيتين شواهد عروضية تدل على انكسار الأبيات بعد اجراء هذا التغيير فى الأسماء وما شاكل ذلك

ويبدو أن موضوع أولدكاسل فولستاف كان حيا فى تلك الفترة ، فقد ظهرت مسرحيتان فى ١٦٠٠ بقلم أربعة

من كبار كتاب العصر هم : منداى ودرايتون وويلسون وهاثاواى ، باسم «سيرة السير جون أولدكاسل» الحلقة الأولى والثانية (وقدضاعت الثانية) . وفى الحلقة الأولى دفاع عن أولدكاسل الفارس « الشهيد » وتنويه بايمانه وشجاعته وتنديد بتزييف المزيفين . وسواء أكان هذا بناء على طلب أسرة كوبهام أم أن شخصية أولدكاسل ـ فولستاف تحولت الى رمز لصراع ايديولوجى خفى بين الأجنحة المحافظة فى الدين من الكاثوليك وأشباههم داخل كنيسة انجلترا نفسها ممن يؤمنون بضرورة الكهنوت والسلطة المركزية وبين الأجنحة المناهضة لسلطة رجال الدين من متطرفى البروتستانتية والبيوريتان وعامة من يريدون جعل الدين أمرا خاصا بين الله وضمير الفرد لا دخل لرجال الدين فيه ، فهذه كلها أشياء تستحق الدراسة لأنها قد تمكننا من استكشاف بعض معتقدات شكسبير ومعاصريه الأساسية فى الدين والسياسة جميعا

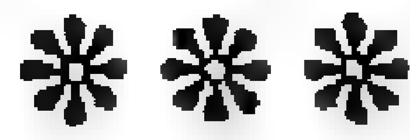


فكيف صور شكسبير الفارس أولدكاسل أو فولستاف هذا ؟

صوره فى صورة الرجل البدين المسرف فى البدانة كأنه كتلة من الشحم ، الرجل الشره الأكول المقبل على لذائذ المائدة ، الرجل السكير العربيد المقبل على لذائذ الشراب بغير حساب . الرجل الفاسق زير النساء المقبل على شهوات الجسد ، الرجل الجبان الرعديد الذى يفر من المعارك ولكنه مع ذلك الرجل الفشّار الذى تجاوز البارون مونشهاوزن الالمانى وماريوس الفرنسى فى بلاغة الفشر ولا سيما الفشر بشجاعته وشدة وطأته على الأعداء . صوره فى صورة الوغد الذى لا خلاق له ، فهو يعيش على مكاسب النساء ويسرق وينشل وينصب الكمين للمارة ويقطع عليهم الطريق ويجردهم من نقودهم . وهو مع كل هذه الرذائل شخصية ترغمنا على التعلق بها لأنه طيب القلب ، ولأنه صاحب «فلسفة» فى الخسة تدفعنا الى الضحك دفعا ..

ان فولستاف ليس مجرد مهرج جاء به شكسبير على المسرح ليسلى الأمير الخليع ويرافقه فى صبواته ، بل هو شخصية ذات أبعاد جسيمة ماديا ومعنويا بحيث يملأ ظله المسرح كله طوال المسرحيتين فيكاد أن يحجب كل من عداه بما فيهم الملك هنرى الرابع وغريمه هو تسبير

وولى عهده الشاب وباحتجابهم فى ظله تكاد أن تحتجب معهم حوادث التاريخ لولا قدرة شكسبير العجيبة على النسج والربط والحبك والحل



أما لماذا اختـــار شـــكسبير اسم فولســتاف أو « فاستولف » كما كان يسمى ليحله محل أولدكاسل فقد تعب الباحثون فى تفسيره ولا سيما وأن الســير جون فولستاف مثل صاحبه السير جون أولدكاسل فيما يقول الرواة شخصية تاريخية ، وقد روى فولر فى كتابه « عظماء انجلترا » أن فولستاف كان فارسا لا يقل شجاعة وشهامة واستقامة عن أولدكاسل نفسه ، وأن شكسبير وكتاب المسرح عامة قد أساءوا الى سمعته بلا مبرر ..

وفى رأيى المتواضع أن البحث عن شخصية فاستولف أو فولستاف لاينبغى أن يقف عند الشخصيات التاريخية التى يصعب تفسير أسباب قيام كتاب المسرح بتشويهها بل بالاهتمام بها أصـــلا ، فهى فى النهاية أتفه من أن تستحق كل هذا العناء وانما ينبغى أن يكون فى تقاليد المسرح وفى رموزه أولا وقبل كل شىء . ويخيل الى أن

شخصية فاستولف أو فولستاف ليست الا صيغة أخرى من شخصية فاوست ــ مفيستوفوليس التى علمتنا كتب تاريخ المسرح انها كانت تعالج معالجة كوميدية خلال العصور الوسطى قبل أن تحولها روح الرينسانس الى شخصية تراجيدية وتقرأ فيها مأساة غواية الانسان وانهياره ، ولا سيما منذ مارلو الذى وضع أساس الشخصية المأساوية فى فاوست . والمعروف أن قصة فاوست أو فاوستوس ليست الا قصة الانسان الغوى الذى باع الآخرة بالدنيا فاستمع الى غوايات الشيطان أو رسوله مفيستوفوليس وباع روحه الشيطان بصك موقوت مقابل أن يمكنه الشيطان من كل ما فى الدنيا من متاع الغرور : العلم الدنيوى والقوة والمال والمجد والسلطة والنساء وكل متعة تعرفها الحواس .. فكان له ما أراد حتى استوفى أجله وجاء وقت القصاص فقذفه الشيطان فى الجحيم ولم يشفع له ندم ولا توبة ..

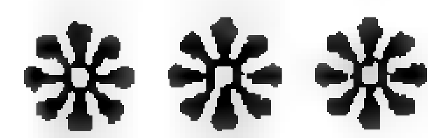
هذه الشخصية الفاوستية كانت فى أوروبا الكاثوليكية أيام العصور الوسطى مادة مسرحية خصبة ، ولكن أبناء العصور الوسطى لم يروا فيها معالم المأساة وانما وجدوها موضوعا للسخرية والنقد اللاذع . فالذى فعله

شكسبير انه عاد بالشخصية الفاوستية الى ما كانت عليه فى أوروبا الكاثوليكية وجعل منها شخصية يضحك منها الناس بعد أن جعل مارلو منها موضوع تراجيديا يأسى الناس لها .. أو بعبارة أخرى فلنقل ان فاستولف أو فولستاف شكسبير هو بمثابة رد شكسبير الكوميدى على تراجيديا مارلو « الدكتور فاوستوس » (١٥٨٨)

ومن يتأمل شخصية فولستاف والدور الذى لعبه فى اغواء الأمير الشاب برنس هال يجد أن فولستاف لم يكن مجرد رجل غوى بل كان مصدر الغواية نفسه بمثل ما كان مفيستوفوليس مصدر الغواية بالنسبة لفاوست ، ولكنه يندحر فى النهاية لأن الامير الشاب استطاع فى آخر لحظة ، وبجهاده وفضائله الذاتية ، أن يتحرر من تأثيره الخبيث ويرتقى العرش الذى ينتظره ..

والمشهد الأخير فى « هنرى الرابع » الثانية ، بعد تتويج الأمير هال باسم « هنرى الخامس » ، يصور محاولة فولستاف أن يتسلل الى جوار الملك الجديد بحق الاخاء الطويل فى الرذيلة ، ولكن الملك يتنكر له فجأة ويقلب له ظهر المجن بل ويأمر بتأديبه تأديبا مع

عشرة السوء .. وهـذا فى ظنى هو المعنى البـاطنى لشخصية فولستاف الذى فتن كالشيطان الأمير الشاب، وهو رمز فتنة الانسان .. بسحر الدنيا ، ولكن الأمير الشاب عرف انه لاسبيل الى ارتقائه العرش الا بالتخلص منه .. ومما نعرفه عن معارضات شكسبير لمارلو الذى كان معلمه وأستاذه رغم تساويهما فى السن نجد أن هذه ليست أول مرة يرد فيها شكسبير على مارلو . فهو قد كتب عن « تاجر البندقية » بعد أن كتب مارلو عن « يهودى مالطـة » وهو قد كتب عن مسرحيـاته التاريخية بعد أن عبّد له مارلو الطريق بمأساة «ادوارد الثانى » . كوميديا فولستاف وسقوط منبع الغواية هى الرد على تراجيديا فاوست وسقوط ضحية الغواية



فاذا عدنا الى البطانة التاريخية فى مسرحيتى « هنرى الرابع » وجدنا أنها متمشية مع السياق العام لتفـكير شكسبير : ان هنرى الخامس رغم توبته وازوراره عن الرذيلة عند ارتقـائه العرش ، لا يرتقى العرش بالحق الالهى كما يرتقيه القديسون والمجاهدون فى سبيل الله كما تقول نظرية العصر الوسيط ، وانما يرتقيه بقـوة

بأسه وبقوة سيفه أى بالحق الطبيعى . أنظر الى هذا الحوار الذى يجرى فى « تاريخ » هولنشيد بين الملك هنرى الرابع وهو على فراش الموت وبين ولى عهده البرنس هال . حول تاج المملكة : قال الملك وهو يتنهد : « يابنى العزيز ، لا يعلم الا الله ان كان لى حق فى هذا التاج » فأجاب الأمير هنرى : « ان مت ملكا فسيكون هذا الاكليل من نصيبى وقد وطنت النفس على أن أحافظ عليه بسيفى كما حافظت أنت عليه بسيفك » فقال الملك انه سيدعو له الله أن يلهمه الصواب فيما يفعل ، ثم مال على جنبه الآخر وأسلم الروح . هذه الكلمات تصبح فى شكسبير («هنرى الرابع» الثانية)

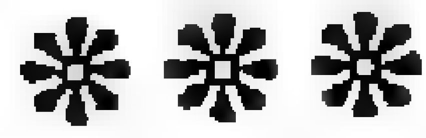
الملك هنرى :

كيف استوليت على التاج ، غفر الله لى ما فعلت !
ولتكن مشيئته أن يبقى التاج معك فى سلام عميم

الامير هنرى :

أى مولاى النبيل !
أنت فزت به ولبسته وحافظت عليه وأعطيتنى اياه
اذن فحقى فيه واضح وأصيل ..

وعن هذا الحق سأدافع أمام العالم كله دفاع المستميت ..



فهنا تعالج مشكلة السلطة على أساس زمنى بحت . أما فى « ريتشارد الثانى » فهى تعالج على أساس الحق الالهى . أنظر الى ريتشارد الثانى فى محنته بعد أن قهره بولنجبروك وجرده من كل شىء يتطلع الى مرآته ويتأمل وجهه ويرثى نفسه :

الملك ريتشارد :

هات المرآة ! ففيها سأقرأ صفحة وجهى :
أين الغضون العميقة ؟ لست أراها
كيف تلطم الأحزان هذا الوجه وتترى ضرباتها
ثم لا تحفر فيه أعمق الندوب !
أيتها المرآة المداهنة كأتباعى يوم نعمتى !
انك لخادعة ! ..
أهذا هو الوجه الذى أظل تحت سقفى
كل يوم عشرة آلاف رجل
أهذا هو الوجه الذى أعشى كالشمس أبصار الناظرين ؟

أهـذا هو الوجـه الذى انكسفت أمامه الخطوب العديدة ؟

ثم انكسف أخيرا أمام وجه بولنجبروك ؟

أرى مجدا زائلا يتلألأ فى هذا الوجه

والوجه زائل كالمجد الذى يتلألأ فيـه .. (يحطم المرآة على الأرض)

ها هى المرآة قد تحطمت الى مائة كسرة

أيها الملك الصموت ! تأمل العظة من هذه اللعبة : فحزنى قد حطم وجهى فى غمضة عين ..

هنرى بولنجبروك :

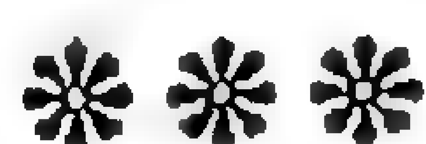
انما حطم ظل حزنك ظل وجهك

***

ان « المجد الزائل » الذى يتحدث عنه ريتشارد الثانى فى رثائه لنفسه ليس الا المجد الالهى أو قبسا من روح الله الذى كانت العصور الوسطى المؤمنة بأن الملك هو ظل الله على الأرض تعتقد أنه يتلألأ فى وجوه الملوك فيعشى كالشمس أبصار الناظرين وكأنهم فى حضرة الرحمن ..

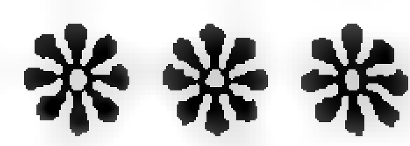
وريتشارد الثانى ، يرى المجد يزول من وجهه ،

فيهشم المرآة الى الف كسرة حتى لا يواجه الكسوف الأخير . أما بولنجبروك فيجبيه ــ لا ندرى أمعزيا أم معنفا أم متهكما بحق الملوك الالهى : انما يعيش الملك المخلوع فى عالم من الظلال وليس فى الحقيقة النورانية . فحزنه ليس حقيقة بل ظل من الظلال والضياء المتلألىء فى وجهه ، ليس حقيقة بل ظل من الظلال ، ظل لا مادة فيه أكثر من صورته هو على صفحة المرآة . فالهادم ظل والمهدوم ظل . أما الحقيقة ، فمن يدرى ما الحقيقة ؟ أهى فى سيف المغتصب القوى ؟ أم هى فى اللألاء الالهى الذى لا محالة يزول عن وجوه الملوك الضعفاء الذين لا يستحقون حمل ذلك الضياء ؟



أيا كان الأمر فهنرى الرابع (بولنجبروك) يعرف هنا ويعرف ساعة موته فى مسرحية « هنرى الرابع » الثانية انه ليس من الفرع الملكى المقدس الذى يجلله الضياء الالهى وان حقه فى طرف سيفه لا أكثر ولا أقل . وولده الأمير الشاب ، البرنس هال ليس لديه ما يقوله عندما يتسلم التاج ويلبسه باسم هنرى الخامس الا أنه سيحمى ما اغتصبه أبوه بحد الحسام . وهذا هو معنى

اللعنة التى كتب عنها شكسبير : ان ريتشارد الثانى كان آخر ملك يحكم بالحق الالهى وكل من تلا ذلك من ملوك انجلترا مغتصبون وطدوا ملكهم بالقوة لا بارادة الله ، ومن أجل هذا روت الدماء أرض انجلترا واقتتل ذوو الأرحام ، ولن يعود سيف الى غمده حتى يعود التاج فيستقر على رأس المختار بارادة السماء . ان قصة مصرع ريتشارد الثانى وانتقال الملك الى أسرة لا تفهم أن للعرش سلما غير القوة الدنيوية هو فى الواقع قصة مصرع العصور الوسطى وانتقال الملك الى الدولة الزمنية بالمفهوم الحديث



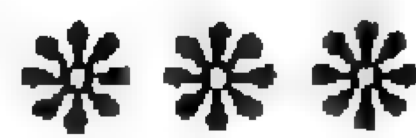
الامير هنرى :

أنت مدين لله بميتة . (يخرج)

فولستاف :

كلا لم يحن موعدها بعد . ولست أحب أن أفى بدينى قبل حلول أجله . وما دام الله لم يدعنى اليه فما حاجتى الى أن أبادر اليه ؟ ومع ذلك فلا بأس . ان

الشرف يخزنى لكى أتقدم . ولكن ترى ماذا يكون الحال لو وخزنى الشرف لكى أتراجع بعد أن أتقدم ؟ كيف يكون الحال ؟ أيستطيع الشرف أن يركب ساقا بترت ؟ لا .. أو ذراعا ؟ لا .. أيســتطيع الشرف أن يسكن جرحا أليما ؟ لا .. اذن الشرف ليس جراحا ماهرا ! ما الشرف ؟ مجرد كلمة ! وما هذه الكلمة ؟ مجرد هواء .. هذا هو الحساب المضبوط ! من حاز الشرف ؟ حازه من مات يوم الاربعاء . أتراه يحسه ؟ لا. أتراه يسمعه ؟ لا . اذن فالشرف لا يحس ولايسمع؟ نعم هو كذلك بالنسبة للموتى . ولكنه أتراه يعيش مع الأحياء : لا ، فان ألسنة السوء لن تسمح بذلك . اذن فلا حاجة بى الى ذرة من الشرف . الشرف مجرد شارة بهذا أختم تعاليمى (يخرج) («هنرى الرابع» الحلقة الاولى ٥ ـــ ١)



عندما التقى الجمعان فى معركة شروزبرى المشهورة، جيش « هنرى الرابع » ملك انجلترا ، وجيش الثائر الاسكتلندى هوتسبير وأعوانه ، وعلا صهيل الخيل ولمع صليل السيوف فى مثار النقع فوق رؤوس المحاربين

الأشداء ، انخلع قلب الفارس البدين الرعديد السير جون فولستاف فطرح نفسه أرضا بين جثث القتلى والجرحى وتظاهر بالموت حتى ينجلى اليوم الرهيب

وحين حثه الأمير هال أن يقتحم المعمعة قائلا انه مدين لله بميتة ثم انصرف للقتال ، قلب فولستاف الأمر على كل وجوهه وطلع علينا بهذه « الفلسفة » فلسفة الجبناء التى سماها «تعاليمه». والكلمة التى يستعملها شكسبير لكلمة « التعاليم » ، وهى «كاتكزم» كلمة دينية تطلق على التعاليم التى يلقن بها الاطفال المسيحيون مبادىء الدين المسيحى ؛ وهى دائما فى صيغة السؤال والجواب على طريقة : « من خلقك ؟ » « الله » . « من فداك ؟ » «المسيح» وهكذا . أو بمعنى آخر فان موعظة فولستاف ينبغى أن تفهم على أنها صفحة من انجيل الجبناء أو انجيل الناس المجردين من الأخلاق . وهى ليست صفحة جادة ان تليت علينا غضبنا أو اكفهرت وجوهنا بل صفحة فكهة تفيض بالسخرية من جبن الجبناء وتلدغ منطقهم المعكوس فى مقتل . ولكنها فى الوقت نفسه ترسم لنا صورة حية لفولستاف الفارس بالاسم فقط ، لأنه فى حقيقته نقيض الفروسية فى كل صفاته

وفى حلقتى هنرى الرابع تتعاقب المشاهد الفكهة التى تجسد أمامنا شخصية فولستاف فى كل أبعادها المضحكة . فبعد المشهد الأول الذى نرى فيه الملك هنرى الرابع غاضبا على ولى عهده الشاب الخليع الذى لوث شرفه بالعربدة والرذيلة بما جعل أباه الملك يقصيه عن رحابه نرى الأمير هال ونديمه فولستاف متلازمين ، ونحسب أولا ان فولستاف هو مجرد مضحك للأمير ولكن سرعان ما يتضخم أمامنا فولستاف حتى تطغى شخصيته على كل شخصية عداه . حتى الأمير هال يسميه : « الوغد مضلل الشباب » . ولكن فولستاف يتهم الأمير هال بأنه يستطيع أن يفسد قديسا ..

ويدبر هال ، وتابعه بوينز ، لفولستاف مقلبا ليكشفا به جبنه وخوفه من القتال رغم تشدقه الدائم بالشجاعة . وتنصب الجماعة كمينا لقطع الطريق على بعض المسافرين ليلا ثم يتخلى الأمير هال وتابعه بوينز عن فولستاف ويتركانه ليجابه الموقف وحده . وسرعان ما تتلاحق الضربات على فولستاف فيفر هاربا ..

ولكنه بعد ذلك يدعى أمام الأمير انه صمد صمود الأبطال ، ويصف المعركة وصفا ملحميا وكأى فشار مفطور على الفشر تأخذه الحماسة ، وفيما هو يروى خبر صراعه مع الرجلين المسافرين ، اذا بالرجلين يصبحان أربعة ، واذا بالأربعة يصبحون سبعة ، ثم تسعة ، ثم أحد عشر رجلا . ثم يحس فولستاف فجأة بأنه تجاوز فى فشره الحدود، ثم يدرك ان الأمير وصاحبه هما اللذان تصديا له فى زى المسافرين وأوسعاه ضربا ولكما فى الظلام ، وانهما رأياه وهو يفر هاربا وبدلا من أن يسقط فى يده خجلا نجده ببديهة سريعة يتبجح ويدعى انه كان على علم بذلك ، ولكن معاذ الله أن يقتل ولى العهد ، وهذا سر فراره !

وحين يأتى رسول يدعو الأمير للمثول أمام والده ينصح فولستاف الأمير أن يدرب نفسه على مواجهة تقريع أبيه . وهكذا يمثل فولستاف دور الملك هنرى الرابع فيجلس على كرسى مطبخ كأنه جالس على العرش ويمسك بيده خنجرا بدلا من الصولجان ويضع على رأسه الأصلع وسادة بدلا من التاج ، ويبدأ فى تقريع هال بلغة ملكية غاية فى الفخامة ثم لايلبث أن يغلبه

طبعه فيرتد الى أصله ويستخدم لغة المتحذلقين من رجال البلاط ، وينتهي بأن يأمر هال بأن ينبذ كل صحبة السوء ما عدا فولستاف النبيل !.. ويجدها فرصة سانحة لتعديد مناقبه الشخصية . وهنا يعزل هال فولستاف ويمثل مكانه دور الملك ويتخذها مناسبة لسب فولستاف وتعييره ببدانته وشراهته وسكره المتواصل ويقرر نفيه من البلاد ، فيدافع فولستاف عن مزايا هذه النقائص كلها ويختم دفاعه بقوله : « ان نفيت جاك البدين فقد نفيت الدنيا كلها » والمعنى واضح : أى لذائذ الدنيا كلها .. !

ثم يأتى رجال الأمن الى الحانة للقبض على فولستاف لأنه قطع الطريق على مسافرين وهى تهمة كانت عقوبتها الشنق فترتعد فرائصه ويتضرع الى الأمير هال ألا يسلمه ، فيخفيه الأمير ويتستر عليه ويكذب على البوليس حتى ينصرف..وعندما يزيح الستار الذى اختفى وراءه فولستاف يجده يغط فى نوم عميق بعد أن شرب عدة جالونات من الخمر ، فينشل الأمير ما فى جيب فولستاف من نقود . وحين يستيقظ فولستاف ورأسه ينمزق من صداع الخمر تبدأ بينه وبين صاحبة الحان

معركة حامية بدأ فيها فولستاف الهجوم لأنها تطالبه بسداد دينه لها وهو ٢٤ جنيها وستة قمصان من أفخر القماش ..

وقصده أن يسكتها بصراخه ، ويعلن انه سيضرب الأمير هال الذى نشله علقة لا تنسى ، فلما يظهر الأمير تختفى جعجعته . ويعلن الأمير أن أباه قد عفا عنه ، وانه ماض معه الى قتال الثوار ويعين فولستاف فى وظيفة عسكرية ولكن الحرب عند فولستاف ليس معناها الشرف فى خدمة الملك والوطن ، بل مناسبة للاثراء من توريد الأنفار وتسريحهم ، وهو يمضى الى المعركة ، لا بنصل ولا بمسدس ولكن بقربة من الخمر ، فالخمر سلاحه فى السلم والحرب ..

وهو ينبطح أرضا ويتماوت حتى تنجلى المعركة ثم يهنىء نفسه على السلامة قائلا : « ان الحكمة هى نصف الشجاعة ، نصفها الأفضل» وحين يسقط الثائر هوتسبير مجندلا فى دمائه يزعم فولستاف انه هو الذى صرعه ويطعن الجثة بسيفه ثم يحملها على كتفه ، أما هال الذى يعرف الحقيقة فلا يفضحه أمام الناس رفقا به ..

وهكذا ينتقل بنا شكسبير فى «هنرى الرابع» الحلقة

الثانية ، من مغامرة فولستـافية الى مغامرة فولستافية وينسج النسيج بعد النسيج من مشاهد الفشر والجبن والنصب على الرجال والنساء وادعاء الشجاعة العنترية والكذب المفضوح والحيلة الواسعة والبراعة فى التخلص من المآزق بذلاقة اللسان أو بالنكتة الحاضرة ، حتى تكاد شخصية فولستاف ومغامراته أن تحجب مأساة التاريخ لولا حرص شكسبير أن يذكرنا بها تذكيرا لكى يمهد لمسرحيته التالية « هنرى الخامس » وليربط كل ذلك بمسرحياته الثلاث عن « هنرى الرابع » الحلقة الأولى الى هنرى الرابع الحلقة الثانية حتى نفقد عطفنا على هذا السكير المهذار ، فلا نلوم الأمير هال على اقصائه وتأديبه بعد توليه عرش انجلترا كأنه الشيطان الذى ساقه الى الغواية فى أيام شبابه اللاهى

ان فولسـتاف بغير شك أعظم شخصية كوميـدية خلقتها عبقرية شكسبير ، وهو المثل الأعظم لما يسميه النقادكوميديا الطبائع ، وهو ضرب من الكوميديا يقوم على السخرية من الشخصيـة الانسانية المركبة تركيبا خاطئـا من الداخل بحكم التكوين النفسى والعقلى واختلال الغرائز فى القيام بوظائفها وليس نتيجة لسلوك

خارجى مشين أو شـــكل اجتمــاعى معيب أو نتيجــة للمواقف الشاذة أو الملتبســـة أو نتيجة لمجرد الفكاهة اللفظية والحديث المرح . ان فولســتاف ليس نمطا اجتماعيــا متكررا ولا مجموعة من المواقف المضحكة ولا طــائفة من هزلى النكات . انه شخصيــة متفردة لا تتكرر . شخصية جسيمة الأبعاد عميقة الأغوار ذات فلسفة خطيرة لأنها تجرد الحياة بالواقعيــة المطلقــة وبالمادية التى لا تعرف الحدود من كل معانى المثالية ومن كل أثر من آثار الأخلاق ، وتبلغ فى هــذا مدى يجعلنا نستكثر أن نصفها بمنافاة الأخلاق ، ولا نجد ما نصفها به الا انها « لا أخلاقيــة » بمعنى انها تقع خارج دائرة الأخلاق تماما كأنما مقاييس الأخلاق ليس لها وجود ..

وهى حالة من الفساد تتجاوز فساد الشيطان لأن من عرف الشر يمكن أن يعرف الخير ، أما من جهل الخير والشر معا فلا سبيل الى انقاذه

الفصل الخامس

مأساة "ماكبث"

- هل كان ماكبث بطلا تراجيديا أم مجرد سفاح ملكيين ؟
- "بريخت" بين ساحرات ماكبث وجرارات الشيوعيين .



ماساة « ماكبث »

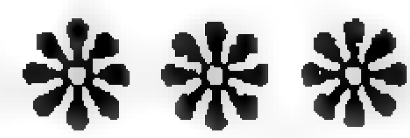
يستاء بعض كتاب المسرح فى مصر حين يعلمون انى عجزت عن اتمام مشاهدة مسرحية تعرض لهم فانصرفت بعد ستارين أو ثلاثة أو أربعة أو قبلما تنتهى المسرحية على أية حال .. ويعجب البعض من صراحتى حين لاأكلف نفسى مشقة اخفاء ذلك ولو حرصا على شعور المؤلفين والممثلين والمخرجين.. ومنهم من يتهمنى بنقص الموضوعية لأنى لا أتم مشاهدة العمل الفنى حتى الستار الأخير بما يتيح لى اصدار حكم نهائى عليه ، وأنا هنا أعلن انى لا أقدم على هذا أبدا الا اذا قررت انى لن أتعرض للمسرحية ناقدا بخير أو بشر . وأعلن أيضا انى لا أطبق هـذا السلوك على ما أشاهده على المسرح المصرى وحده . فحين ذهبت الى مسرح الميرميد بلندن لمشاهدة « ماكبث » فى التاسع عشر من ابريل وكنت فى صحبة

مخرج يابانى ، بلغ بنا الضيق برداءة التمثيل والاخراج حدا جعلنا ننصرف بعد الفصـــل الثالث . التقت عينانا فى أضواء الانتراكت فأدرك كل منا فى صمت ما كان يجول بنفس صاحبه . وسرنا معا فى صمت حتى وجدنا أنفسنا خارج المسرح فى أقرب تاكسى ، وعدنا من حيث أتينا ..

وأنا أعتقد انه ليس من ســـوء الأدب أن ينصرف مشاهد أو ناقد قبـــل الســـتار الأخير . انما ســـوء الأدب أن ينصرف والتمثيـــل جار على المسرح فيزعج الآخرين ..

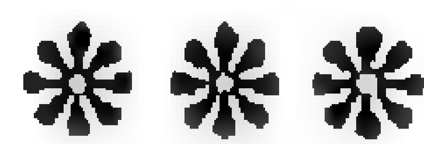
وأنا أعتقـــد انه لا زال من حقـــوق الانســـان الأولية أن يحمى الانسان نفسه من الأدب الردىء ومن الفن الردىء وليس هناك ما يلزمك بأن تمضى فى أكل بيضة فاسدة الى آخرها ، اذا تأكدت بعد قضـــمة أو قضمتين انها فاسدة . وقد كان أسلافنا فى القرن التاسع عشر وبعض أسلافنا فى القرن العشرين أقل منا تهذيبا فكانوا يقـــذفون الممثلين والعـــازفين ومؤلفى المسرح والموسيقى بالطمـــاطم والبيض الفاســـد تعبـــيرا عن احتجاجهم ..

وأنا لا أنصح أحدا باتباع هذا المسلك ، ولا سيما وان الفنون الجماعية يصعب فيها تحديد مسئولية الفشل الا على الناقد أو الخبير المتمرن ولكنى احض الناس حضا على الاستمساك بحقهم فى الانسحاب فى صمت بين الفصول ، اذا كان مايرونه أو يسمعونه مصدر تعذيب لهم ، فالأدب والفن لم يخلقا ليكونا من أدوات التعذيب ..



من أجل هذا انسحبت بعد مشاهدة الفصل الثالث من مأساة « ماكبث » العظيمة لشكسبير لأن ما رأيته كان كافيا لاقناعى بأنى رأيت عرضا بالغا فى السوء لمسرحية بالغة فى الروعة . ولن أطيل فى تحليل أسباب هذا الفشل الذريع فى مهرجان شكسبير ، وانما أكتفى بملاحظة عابرة هى ان قصة اغتيال ماكبث للملك الطيب دنكان واستيلائه على عرشه هى فى هيكلها الظاهرى ــ لا فى جوهرها ــ قصة اغتصاب اجرامى انتهت بوقوع المغتصب فى يد العدالة. هى فى هيكلها الظاهرى قصة بانلجى أخذ ما ليس له قوة واقتدارا وخاض فى بحر من الدم بسبب ذلك ثم دفع الثمن . أما جوهرها

فهو ليس كذلك . فجوهرها هو قصة الصراع الداخلى بين الخير والشر فى قلب بطل طموح ، وقصة تسمم عقله درجة درجة حتى انتهى الى السقوط ثم الافحاش فى الاجرام ، ثم التكفير ، وهى قصة مقاومة النفس المسمومة لما يسرى فيها من سم ؛ مقاومة خفية جبارة رغم ارادة الشر ، تجعل ميزان العقل معلقا بشعرة ، ثم انهيار النفس والعقل والكيان كله تحت ضغط العبء الثقيل الذى لا يحتمل بالاستسلام للنور ستانيا أولا ، ثم للموت كما حدث لليدى ماكبث . كل هذه الأعماق النفسية لم يركز وولتر هودجز ــ مخرج الميرميد ــ على استكشافها حتى فى الحدود التقليدية ، وركز على ابراز الصراع الخارجى فحافظ على الهيكل وضاع منه الجوهر ..



وهكذا ظهر أمامنا « ماكبث » فى صورة البلطجى الغاصب فلم تكن بنا حاجة لنرى بقية سيرة البلطجى طريد العدالة ، فانصرفنا ، آسفين على كل هذا المجد الشكسبيرى الذى أضاعه مخرج لم يفهم مقصد هذه المأساة العظيمة ..

لعل من الخير أن نركز على مختلف المشاكل التى تعترض فهم النـــاس لمسرحيـــة « ماكبث » وتتناولها بالتحليل ولنبدأ بموقف المحدثين . ففى الوقت الذى نجد مدير مسرح الميرميد مثـــلا يعتذر عن اختيـــار « ماكبث » بالذات للعرض فى مسرحه بأنها ناجحة جدا من حيث شـــباك التـــذاكر ، نجد أن أكثر الـــكتاب الماركسيين فى أيام الحنبلية الماركسية وامامهم بريخت بالذات ، كانوا يحملون على ماكبث حملة شـــعواء

وفى مقدمة كتبها بريخت «لماكبث» أذيعت عام ١٩٢٧ ذكر بريخت : ان طائفة من أصدقائه الذين يحترم رأيهم احتراما كاملا أعلنوا له انهم يضيقون تماما بمسرحية «ماكبث» خاصة ، وبشعر شكسبير بوجه عام، وبالشعر بوجه أعم ..

هم يعترضون على الشعر عامة ، لأنه يمنع الناس من التركيز على الواقع ومن اصلاح حال المجتمع ، ولهذا يجدونه نشاطا يؤذى أكثر مما يفيد . وهم يجدون كلام الساحرات خلوا من المعنى لأنه قائم على الغيبيـــات واقحام لا معنى له لقدر ميتافيزيقى ، وهم لايؤمنون بالقدر الميتـــافيزيقى . وهم يرون ان احاطة شكسبير

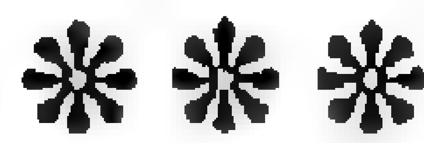
للأراضى البور التى تظهر عليها الساحرات بكل هـذا السحر الغامض الجميل سخافة رومانسية ، ولاسيما فى زمننا ، لأن الأراضى البور لا مكان فيها للساحرات أو المخلوقات الخرافية وانما فيها مكان فقط للمحاريث البخارية والجرارات . فزمننـا هو زمن استصـلاح الأراضى البور ، وزمننا هو زمن استصـلاح البشر وتحويلهم من مغتالى ملوك الى اشتراكيين حقيقيين ، فهذا فى قاموس الماركسية ليس فقط أنفع بل أكثر شعرا ..

وبريخت طبعـا لايوافق على هـذه الآراء ولكنه يحترمها ويحترم أصحابها ويعتقد انه يجب استدراجهم الى المسرح . ولكنه مع ذلك يرى فى مسرحية «ماكبث» وجوه نقص عديدة ، ويعتقد انها من الناحية الدرامية تنهـار أمام النقـد الحديث كما انهـا من الناحيـة السيكولوجية كدراسة لنفسيـة قاتل تنهار أمام علم النفس الحديث . فهو يجد انها كدراما خالية تماما من المنطق الذى يمكن أن يجعل منها عملا متماسكا وهو ـ ليثبت رأيه ـ يستشهد بأن نبوءة الساحرات الثلاث اللواتي ظهرن فى الفلاة أمام بصر ماكبث وبصر بانكو

قامت على ان ماكبث نفسه سيصبح ملك اسكتلندا . اما بانــكو فان أبنــاءه من دونه ســيكونون ملوك اسكتلندا . فماذا نرى ؟.. نرى ان ماكبث فعلا يغتصب العرش ويتوج ملكا ، وحين يواجه مصيره الأليم يخلفه على العرش مالكولم ابن الملك المقتول دنكان . ومن رأى بريخت انه ما دام شكسبير قد أعدنا نفسيا لنبوءة الساحرات لأن يتولى بنو بانكو عرش اسكتلندا ، فمن حقنا أن ننتظر أن يختم شكسبير مسرحيتــه بارتقــاء فليانس عرش البلاد بعد مصرع ماكبث . ولكن الذى يحدث هو ان هذا الشطر من النبوءة لا يتحقق وبهذا لاتكتمل الدورة التى رسمها شكسبير ، فاذا أضفنا الى هذا ان شكسبير بعد أن جعل ماكبث يرسل الى القائد بانكو من يفتك به ليتخلص منه ، جعل فليانس ولد بانكو يفر من قبضة ماكبث ويسبب له اضطرابا كبيرا مما يجعلنا ننتظر أن يكون لفليانس دور حاسم فى نهاية المسرحية ، ثم ينتهى الأمر باختفاء فليانس نهائيا وحل الأزمة على يد مالكولم ابن الملك دنكان . ويضــيف بريخت أن المشاهد الوســطى ، وهى قلب مسرحيــة «ماكبث» ، وتمثل المعارك الضارية التى خاضها ماكبث

بسبب جريمته لايمكن تمثيلها اليوم على المسرح بنجاح. وهو لهذا كله يرى فى هذه الدراما ضعفا فى البناء وضعفا فى الاقناع سواء بتماسك المنطق أو بصدق التحليل النفسى ، بل ويشك فى امكان نجاحها على مسارح القرن العشرين

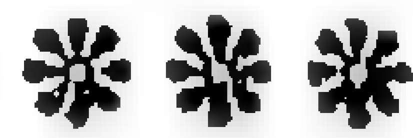
ورغم كل هذه الاعتراضات فبريخت لايرفض شكسبير جملة بل يرى فى بعض أعماله وبعض وجوهه ما يستحق التمجيد . وهو يعرض رأى الكاتب الملحمى الفريد دوبلن القائل بأن القالب الدرامى كله عاجز عن تصوير الحياة بأمانة نظرا لقصوره عن تصوير الحقيقة مباشرة وان كل ما تستطيع الدراما أن تصوره أو تعبر عنه ليس تجارب الحياة ولكن حالة مؤلفيها النفسية والعقلية ..



ويؤيد بريخت هذه النظرة ، ولا سيما بالنسبة للمسرحيات التى تدور حول القضايا الفكرية . غير ان بريخت يستثنى درامات شكسبير من هذا الحكم ، وربما الدرامات القائمة على الأسس الشكسبيرية ، من هذا الحكم العام بالذات بسبب طبيعتها الملحمية هذه

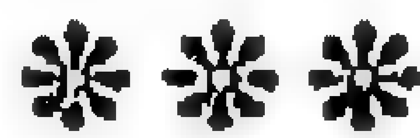
التى تجعلها عسـيرة التمثيل على المسرح ، ولكنها فى الوقت نفسه تجعلها قادرة على تصوير الحياة ..

وهو يرى ان الأسلوب الوحيـد لبلوغ المضمون الواقعى لشكسبير واستخراجه هو التركيزعلى مضمونه الفلسفى . وهذا فى نظر بريخت هو الأسلوب الملحمى . ان شكسبير ناقص فى البنـاء الفنى لأنه كان يكتب لجمهور ساذج بسيط لايحاسب على البناء الفنى ولكنه رغم سذاجته وبساطته كان يفكر كثيرا فى الحياة وطبيعتها ومشكلاتها، وأعمال شكسبير قائمة أساسا على التفكير فى الحياة وطبيعتها ومشكلاتها . أما كتاب المسرح فى القرن الأخير فهم متفوقون فى الذكاء بمعنى المهـارة ولكنهم ناقصون فى الحكمة ، على عكس شكسبير ..



ان شكسبير لم يكن بحاجة الى بناء مسرحياته لأن جمهوره هو الذى يقوم ببنائها عوضا عنه بعقله وخياله وطريقة استجابته . وشكسبير مثلا لم يكن يحلم بأن يرتب موقفا انسانيا فى نهاية الفصل الثانى ليمهد لمـا سيقوله فى الفصل الخامس ، وانما كل شىء فيه يخرج خروجا « طبيعيا » من مقدماته دون حيل فنية أو تحايل

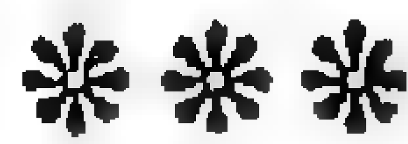
لاحكام البنـاء ، ومن هنا كانت فصوله غير مترابطة منطقيا ، لأن الطبيعة شيء والمنطق شيء آخر . فأحداث الحياة تتعاقب تعاقبا طبيعيا كالتيار فى المجرى ، ولكنها لا تخضع للترتيب المنطقى ولا للاحكام المنطقى ولا تتبع تنظيما مرتبا ولا تصميما ملفقا . ولذا فليس هناك ما هو أقتل لفن شكسبير من اخراجه على المسرح ليبدو منطقيا أو واضحا . ان شكسبير بطبيعته غامض كالحياة . انه كالمادة الخام لم تخضع بعد للصياغة . وهذا هو سر قوته ومجده انه طبيعى كالطبيعة ، حى كالحياة ، مادى كالمادة الخام فى حالتها الأولى . وهذا بالذات هو مصدر قوته .. ان ما تسميه الكلاسيكية مصدر ضعف شكسبير، وهو خلوه من الشكل وتمرده على القالب ، هو بالذات مصدر عظمته . ان مسرح شكسبير تذكرة دائمة لنا بأن المادة المطلقة لا تزال قادرة على الحياة ، وانها أقوى من كل مايرسم لها من حدود



بهذه الآراء استطاع بريخت أن ينقذ أدب شكسبير بالنسبة للماركسية ، والماركسيين .. ان شكسبير لا يتحدث عن ضرورة استصلاح الأراضى البور ولا

يتغزل فى الجرارات والمحاريث البخارية ، ولكنه أقوى من كل ما صنعته يد المدنية بفنها المفتعل . انه الطبيعة الرعناء بكل قواها الرهيبة التى لا تخضع لنظام ولا تجرى وفقا لخطة معلومة مرتبة ، انه الحياة بتيارها العرم الجياش الذى يتدفق فى مجار لم تشقها يد الانسان . وفى هذا تكمن واقعية شكسبير وطبيعته وماركسيته أيضا .. هذا هو رأى بريخت

ولكن نقطة البداية عند الباحثين والنقاد ليست هذه الزاوية الفلسفية التى عالج منها بريخت مشكلة الشكل والمضمون فى شكسبير ، وانما هى الزوايا الأخرى التى تتناول المتن والتاريخ والمؤثرات قبل أن تتناول الأبعاد الفلسفية والكونية لهذا العمل الفنى العظيم . فلنعد معهم الى هذه الزوايا التقليدية التى لابد من الكشف عنها نحو فهم أعمق لمضمون هذه المأساة ولقالبها معا ..



يرى الباحثون ان شكسبير كتب «ماكبث» بين عام ١٦٠٣ وعام ١٦٠٦ ، ويرجح تشيمبرز ان « ماكبث » من انشاء الموسم المسرحى عام ١٦٠٤ ــ ١٦٠٥ وهو

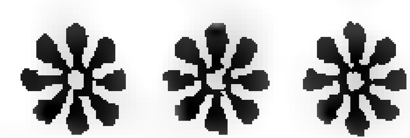
نفس الموسم الذى ينسب اليه « الملك لير » . ومشكلة « ماكبث » من حيث اثبات تاريخ انشائها هى انها على خلاف عديد من مسرحيات شكسبير لم تنشر لأول مرة الا فى طبعة الفوليو الشهيرة عام ١٦٢٣ . ويرجح الباحثون بل ويكادون يقطعون ، انها طبعت فى فوليو عام ١٦٢٣ (وهو يجمع كل مؤلفات شكسبير) عن نسخة الملقن الخطية طبعا ، ويستشهدون على ذلك بأن التوجيهات المسرحية فيها مفصلة تفصيلا يتجاوز المعتاد، ثم انه يلاحظ على مسرحية «ماكبث» ان نصها قد جرى عليه التعديل بالاختصار وبالاضافة ، ربما فى سنوات لاحقة على سنة انشائها .. وأيا كان الأمر «فماكبث» بصورتها الحالية هى أقصر مسرحية كتبها شكسبير باستثناء «كوميديا الأخطاء» فهى مكونة من ٢١٠٦ بيتا وتمثيلها لايستغرق ساعتين . ويظن ان ماكبث تشمل بعض المشاهد والأبيات المقحمة على شكسبير مثل مشهد الساحرات فى الفصل الثالث المنظر الخامس ، وينسب الترقيع الى الكاتب المسرحى توماس ميدلتون المعاصر لشكسبير نظرا لتكرر أناشيد الساحرات فى مسرحية ميدلتون « الساحرة » (عام ١٦٠٩) واختلاف نسيجها

وعروضها عن المألوف فى شكسبير ، وقد كان من رأى الناقد الشاعر الكبير كوليريدج ان مشــهد البواب فى « ماكبث » مقحم أيضا على مسرحية شكسبير (الفصل الثانى ، المشهد الثالث) ، ولكن أكثر الباحثين اليوم لا يقرون كوليريدج على رأيه

ويحاول البــاحثون استقصــاء مصــدر مشــاهد الساحرات الثلاث فى ماكبث ، ويعتقد البعض انها متأثرة بمسرحية اســمها « العرافات الثــلاث » لكاتب يدعى ماثيو جرين ، قدمت فى أكسفورد فى ٢٧ أغسطس عام ١٦٠٥ كذلك يظن أن ميدلتون استخدم مشاهد رقصة الساحرات الواردة فى مسرحية بن جونسون « كرنفال الملكات » . كما يظن أيضا ان لاهتمام الملك جيمس الأول ، خلف اليزابيث الذى تولى عرش انجلترا عام ١٦٠٣ ، بالسحر والكهانة الى حد جعله يكتب مؤلفا فى هذا الموضوع باسم « علم الجن » (ديمونولوجيا) ، علاقة ما ، ويظن أن الملك جيمس نفسه كتب خطابا الى شكسبير حول هذا الموضوع تعليقا على مسرحية ماكبث وان هذا الخطاب كان فى حوزة السير وليم دافننانت ، ابن شكسبير الروحى ، بحسب ما تجرى الروايات ..

أما سخرية شكسبير من الجزويت فى مشهد بواب القلعة ، حيث يقول : ان القس الجزويتى يحلف زورا على الرأى ونقيضه ، وأنه يرتكب خيانة الوطن فى سبيل الله، فالمعروف ان مذهب الجزويت فى «المراوغة» والقدرة على اثبات أى رأى بالحجة كان معروفا فى انجلترا ولا سيما منذ محاكمة روبرت ساوثويل فى عام ١٥٩٥ ، وقد تجدد الكلام فيه منذ محاكمة الأب هنرى جارنيت بتهمة الاشتراك فى مكيدة البارود المشهورة فى ٢٨ مارس عام ١٦٠٦ التى حاول فيها جاى فوكس نسف البرلمان الانجليزى ، كما ان اللورد سالسبورى حمل حملة شديدة على « المراوغة » الدينية فى كتابه « الرد على بعض المنشورات الفاضحة » (عام ١٦٠٦) . وكان كتابه واسع الذيوع . كذلك الاشارة الى الفلاح الذى شنق نفسه أملا فى رخاء لم يتحقق وهى من وحى تدهور سعر الغلال فى الأعوام ١٦٠٥ — ١٦٠٧ ، كانت فكرة شائعة وقد وردت فى كوميديا بن جونسون : « كل الناس ساخطون » التى أخرجت عام ١٥٩٩ ، ثم تجدد عرضها من البلاط عام ١٦٠٥ . أما شخصية الشبح الذى يجلس على رأس المائدة ، شبح الملك القتيل

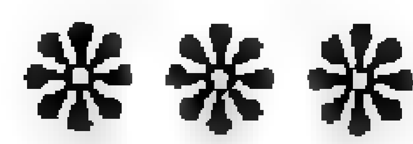
دنكان ، الذى أقض مضجع ماكبث وأسلمه للرؤى المجنونة ، فاه ما يقابله فى مسرحية « البيوريتانى » أو « المتطهر » التى سجلت فى سجل المطبوعات فى ٦ أغسطس عام ١٦٠٧ ، ولكن يظن انها أنشئت قبل هذا التاريخ. وفى مسرحية «فارس الهون المشتعل» لبومونت وفلتشر (عام ١٦٠٧) وفى « سوفونيسبا » (عام ١٦٠٦) لمارستون اشارات تدل على معرفة بمسرحية ماكبث ، كما ان قصة ماكبث وردت فى كتاب وليم وارنر « استمرار البيون » أو « استمرار انجلترا القديمة » (عام ١٦٠٦) . كل هذه الشواهد وغيرها يجمعها الباحثون فى محاولتهم التثبت من تاريخ انشاء مأساة ماكبث لشكسبير وهم يرجحون انها من عمل عام ١٦٠٦ .



أما الخامة التاريخية التى استعملها شكسبير فى مسرحية ماكبث فمعروف انه استمدها مباشرة من « تاريخ » هولنشيد ، ومعروف أيضا ان هولنشيد نفسه استمد معلوماته عن تاريخ اسكتلندا ، حيث تجرى حوادث المأساة من كتاب ــ باللاتينية ــ لفيكتوربويس

اسمه « تاريخ اسكتلندا » (عام ١٥٢٧) ، وهـذا الكتاب نفسه مستمد من كتاب لجون فوردان باللاتينية اسمه «تاريخ اسكتلندا» نحو عام١٣٨٤ ومن كتاب آخر لأندرو وينتون باسم «تاريخ اسكتلندا الاصلى» نحو عام ١٤٢٤ ، وهو باللاتينية أيضا ، ويظن أن هولنشيد وهو مصدرشكسبيرالرئيسى ، اعتمد علىترجمة انجليزية وضعها جون بيلنـدون لكتاب بوبيس ظهرت فى عام ١٥٣٦ أو على ترجمة أخرى له لوليم ستيوارت لم تنشر حتى عام ١٨٥٨ ولكنها كانت مخطوطا منذ عام ١٥٣٥، وربما كانت فى متناول هولنشيد . وقد حار الباحثون فى تفسير المواضع التى اختلف فيها شكسبير من رواية هولنشيد لقصة « ماكبث » وذهب البعض الى انه قرأ كتاب وينتون أو قرأ سواه . ولكننا نعرف من تاريخ المسرح فى عصر اليزابيث انه كانت هنـاك تراجيـديا اسمها « ملك الاسكتلنديين » مثلت فى البـلاط عام ١٥٦٧ ـ ١٥٦٨ ولا يعرف على وجه التحقيق ان كانت هذه المأساة تدور حول قصة ماكبث أم لا. كذلك كانت هناك مأساة باسم « مالكولم ملك الاسـكتلنديين » اشترتها فرقة الأميرال من تشارلز ماسى عام ١٦٠٢ .

ومالكولم هو ابن الملك دنكان الذى قتله ماكبث فى مأساة شكسبير المشهورة وفى تاريخ اسكتلندا المعتمد.



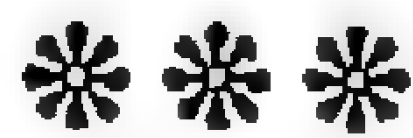
ومما يجدر ذكره أيضا انه كان هناك موال باسم « موال ماكيدبيث » سجل فى سجلات هذه الفترة عام ١٥٩٦ وأشار اليه الممثل كيمب ، زميل شكسبير عام ١٦٠٠ فى مذكراته « الأيام التسعة العجيبة » حيث يقول : « وشوبعر بدأ النظم بتأليف القصة المسروقة حول ماكدويل أو ماكدوبيث أو أى ماك ، فأنا على يقين من ان الاسم فيه ماك ولكنى لم أر القصيده قط»

ولعل من أهم ما ينبغى ذكره فى هذا الصدد رأى الأستاذة ونساتلى القائل بأن مسرحية ماكبث لشكسبير هى مسرحية رمزية تدور حول مؤامرة البارود وحول مذبحة سان بارثولوميو المشهورة التى ذبح فيها الكاثوليك البروتستانت فى باريس وحول قتل دارنلى زوج مارى استيوارت ملكة الاسكتلنديين وحول اتصالات بين الملك جيمس وايرل بوثويل زوج مارى ستيوارت الثانى ..

وبهذا نعود مرة أخرى الى علاقة شكسبير بسياسة عصره واستخدامه الفن للتعبير عن مراميه السياسية . وأيا كان الأمر فانه لمما يلفت النظر حقا ان تراجيديا ماكبث لم تصدر فى أية طبعة أثناء حياة شكسبير ، فلم تنشر لأول مرة الا فى فوليو عام ١٦٢٣ عن نسخة الملقن البالغة الفساد . ونحن نقطع بعدم نشرها قبل هـذا التاريخ لأن سجل المطبوعات لهذه السنة وهو يحدد أسماء المنتفعين من حقوق التأليف ، يقول صراحة عن ماكبث : « انها من تلك المسرحيـات التى لم يسبق تسجيلها لحساب أناس آخرين» . ويقصد لغير بيربيدج وهمنج وكونديل وكيمب وعامة الممثـلين من شركاء شكسبير وأصدقائه ممن اشتركوا فى جمع أعماله فى مجموعة فوليو عام ١٦٢٣ سواء من الطبعات السالفه أو من مخطوطات الملقنين أو من الذاكرة . فلعل هنالك سرا وراء عدم نشر « ماكبث » أثناء حياة شكسبير ..

أما عن تمثيل هـذه المسرحية ، فان أقدم اشـارة الى عرضها هى الاشارة الواردة فى كتاب سيمون فورمان الذى يقول انه شاهدها فى ربيع عام ١٦١١ تمثل على مسرح الجلوب (أى نحو ست سنوات بعد تأليفها) .

ان الأستاذ الدكتور هوتسون يذكرنا بأن شكسبير كان شديد الاهتمام بمؤامرة البارود التى حاول بها المتآمرون من الكاثوليك الجزويت نسف البرلمان الانجليزى لصالح الكثلكة فى انجلترا . وهو يذكرنا بأن أكثر المتآمرين كانوا من موطن شكسبير وعلى صلة شخصية به وان بعضهم كانوا من أقربائه . فشكسبير قد عرف كاتسبى وجرانت منذ طفولته ، وان تريشام وكاتسبى وجرانت وونترز كانوا أبناء عمومة لآل بوشيل ومن أنصارهم ، وآل بوشيل هؤلاء كانوا من أصهار شكسبير عن طريق زوج بنته جوديث . كذلك يذكرنا الدكتور هوتسون ان المتآمرين كانوا يرتادون حانة الميرميد الشهيرة بلندن تلك الحانة التى كان شكسبير ومارلو وبن جونسون وكثير من أدباء العصر يرتادونها ، ويذكرنا ان بن جونسون قد تعشى مع كاتسبى وونترز أياما قليلة قبل حدوث الانفجار الذى كان سينسف ايرل ساوثهامبتون وأصدقاءه ..



أما قصة ماكبث كما رواها هولنشيد وهو مصدر شكسبير الأول ، فقوامها انه بعد موت مالكولم ملك

اسكتلندا خلفه على عرشـــها حفيده دنكان ابن بنتـــه بياتريس وكان دنكان هذا مثلا للوداعة ولهذا آل اليه العرش . وكان لمالكوم بنت أخرى اسمها دوادا زوجها من نبيل شجاع هو سانبيل ايرل جلاميس ، وأنجب جلاميس ابنا شجاعا اسمه ماكبث . وكان ماكبث خليقا بأن يحكم البـــلاد لولا قسوة ُبـــاعه ، بدا دنكان بوداعته وانطبـــاعه على الرحمـــة وابن خالته ماكبث بقســـوته وميله الى الضراوة وكأنهما طرفا نقيـــض ، وبذلك كان دنكان أجدر بأن يحكم الدولة وكان ماكبث أجدر بأن يقود الجيش . وكانت بداية حكم دنكان هادئة لايعكر صفوها شيء ، ولكن تساهله فى معاقبـــة المخطئين شجع كثيرا من العصاة أن يثيروا الفتن والقلاقل فى مملكته . وكان بانكو هو ايرل لوخكرهابر، والجد الأعلى لأسرة ستيوارت التى آل اليها فيما بعد عرش اسكتلندا ، يقوم بجباية الضرائب المستحقة للملك . ثم ازداد الاضطراب فى المملكة وتزعم نبيـــل كبير يدعى ماكدونالد العصاة الثائرين على ســـلطة الملك دنكان ولاسيما من جزر الغرب ومن ايرلندا ومن قبائل كيرنيس وجالوجلاس ..

وتقـدم ماكبث ، واضـطلع بالخروج فى حمـلة مع بانكوهو لاخضاع العصاة . وكان له ما أراد فقهر جيش ماكدونالد وشتت أتباعه فاعتصم ماكدونالد فى القلعة ولما يئس من النجاة ذبح زوجته ثم فتك بأولاده ثم قتل نفسه حتى لايقع أسيرا فى قبضة ماكبث ويتعرض لوحشيته ..

ولما دخل ماكبث القلعـة ، ورأى ما رأى ، قطع رأس ماكدونالد الميت وأرسلها الى الملك دنكان . أما الجسد فأمر بتعليقه ليكون عبرة للغير . وهكذا عاد الهدوء الى اسكتلندا . ولكن ماكبث فى عودته وجد ان سوينو ملك النرويج قـد غزا اسكتلندا ليخضعها لارادته فسار ماكبث اليه على رأس جيشه وسحقه وقتل من قواته من قتل وفر من فر عائدين فى سـفنهم الى بلادهم . وبهذا اكتمل النصر لماكبث ، وأنقذ اسكتلندا من العصاة والغزاة ..

ثم مرض الملك دنكان مرضا غريبا وأصابته الحمى ولم يعد يذوق للنوم طعما وكان سبب ذلك ان بعض الساحرات كن يكدن له ، فكانت احداهن تشوى على النار دمية صنعت من الشمع على هيئة الملك تماما بينما

كانت الأخرى تتلو الرقى على الدمية . واتفق انماكبث وبانكوهو كانا يتريضان فىالفلوات بجوارغابة فوريس حيثكان الملك مريضا فصادفتهما ثلاثساحرات وحيت الأولى ماكبث قائلة : « المجد لك يا ماكبث ايرل جلاميس » وحيته الثانية قائلة : « المجد لماكبث ايرل كودور » وحيته الثالثة قائلة : « المجد لماكبث ملك اسكتلندا منذ الآن » . أما بانكوهو فقد تنبأت له الساحرات بأنه لن يكون ملكا ولكن نسله سيكونون ملوكا على اسكتلندا . وحسب ماكبث وبانكوهو أول الأمر ان ما شاهدا وسمعا من هواجس الخيال المحموم واتخذا منه موضوعا للدعابة ولكن سير الحوادث أثبت ان الساحرات الثلاث كن يقرأن الغيب أو يملكنه كأنهن ربات القدر . فقد أصبح ماكبث ايرل جلاميس بموت أبيه ثم أصبح ايرل كودور باعدام ايرل كودور الخائن ومصادرة أملاكه واعطائها لماكبث

وذات مساء ذكر بانكوهو ماكبث مداعبا بنبوءة الساحرات وما تحقق منها ، قائلا انه لم يبق منها ليتحقق الا تتويج ماكبث على اسكتلندا .. فأخذ ماكبث يقلب الأمر، وقرر أن يدبر أمره للاستيلاء على العرش. وكان

يجب أن يتريث حتى تحين الظروف المواتية ولكن الملك دنكان أعلن ولده مالكولم أميرا على كمبرلاند وبهذا جعله وليا للعهد يخلفه بعد موته . وهكذا وضع حجر عثرة فى طريق ماكبث ، وقرر ماكبث أن يبادر الى خطته

وكانت كلمات الساحرات تلهب خياله ، ولكن زوجته بوجه خاص كانت تدفعه الى ذلك دفعا ، فقد كانت تريد أن تصبح ملكة . وأجهز ماكبث على الملك دنكان فى انفرنيس بعد أن تواطأ مع عصبة من النبلاء ثم توجوه ملكا على البلاد . أما رفات دنكان فقد دفنت مع رفات أسلافه وكان ذلك عام ١٠٤٦ . وبعد أن فتك الحراس بالملك وهو نائم بأمر ماكبث قبل صياح الديك ، فتك ماكبث بالحراس ليخفى جريمته . وأخذ يشتط فى الظلم باسم الاقتصاص للملك المقتول حتى بدأ أعيان الدولة يشتبهون فى أن له يدا فى الجريمة ..كذلك فتك ماكبث بمالكولم دف . أما ولدا الملك دنكان وهما مالكولم كومور ودونالدبين فقد فر أولهما الى انجلترا حيث استقبله الملك ادوارد بالترحاب بينما فر الآخر الى ايرلندا خشية أن يفتك بهما ماكبث

ولم يكن ماكبث رغم انتصاره وظفره بما أراد

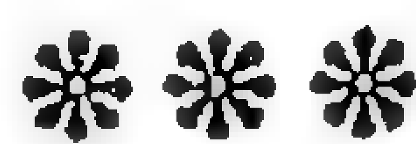
سعيدا بل كان على العكس من ذلك شقيا ، فاستبد به وخز الضمير كما استبدت به المخاوف أن يذيقه غيره من الكأس التى أذاقها لسلفه . كما أن نبوءة الساحرات بالنسبة لبانكو ظلت تطارده ، فقرر التخلص من بانكو وولده فليانس ؛ فاستأجر لهما قتلة يقتلوهما بعد خروجهما ليلا من قصره . وفى هذا الكمين استطاع القتلة أن يجهزوا على بانكو، ولكن ابنه فليانس استطاع أن ينجو بحياته ولجأ الى ويلز . ولما كثرت جرائم ماكبث اشتد رعب الناس منه واشتد رعبه من الناس ؛ وكأنما استمرأ الدماء ، فأخذ يغتال نبلاء دولته ليتخلص من أعدائه وليكدس خزائنه بأموالهم المصادرة وبنى لنفسه قلعة منيعة على مرتفع شاهق فى دنسينين ليشيع الرعب فى كل القلوب ، وسخر أعيان دولته فى بناء هذه القلعة. وهنا حذرت الساحرات ماكبث من ماكدف ايرل فايف الذى كان صاحب سطوة وبأس ، وقلن له ان ماكدف سيعمل على تدميره فرتب الأمر لاغتياله

وكانت احدى الساحرات قد تنبأت لماكبث بأنه لن يموت بيد رجل ولدته امرأة ، ولن يعرف الهزيمة حتى تتحرك الاشجار من غابة برنان الى قلعة دنسينين .

وظن ماكبث أن هذا وذاك من باب المحال فاطمأن قلبه، وشجعه هذا على الامعان فى الطغيان ، وأراد ماكدف أن يفر الى انجلترا ليدعو مالكولم أن يعود ويطالب بعرش أبيه ، ولكن ماكبث الذى بث عيونه فى كل مكان عرف بأمره فسار اليه فى جنده وحاصر قلعة فايف حاسبا أن ماكدف لايزال فيها ، وذبح زوجة ماكدف وبنيه، وصادر أملاكه وأعلن خيانته . ولكن ماكدف كان قد نجح فى بلوغ انجلترا لاقناع مالكولم بالعودة الى اسكتلندا لانقاذها من الطاغية ماكبث ، وأخيرا قبل مالكولم أن يسير الى اسكتلندا وجهزه ملك انجلترا بجيش من عشرة آلاف مقاتل ، وتجمع من حول مالكولم الأعوان والأنصار ، وتحصن ماكبث فى قلعة دنسينين حين تألب عليه الأعداء ..

فلما بلغ مالكولم غابة بيرنان ، أمر رجاله أن يقتلعوا أغصانها ليستخفوا وراءها ففعلوا وساروا الى قلعة دنسينين وكأنهم غابة تتحرك . فعجب ماكبث حين رأى مشهد هذه الغابة تتحرك نحوه وتذكر نبوءة الساحرة وأحس بأن نهايته قد اقتربت ولكنه قاتل بشجاعة ..

وأخذ ماكدف يطارده دون كلال ليقضى عليه فازداد ماكبث ضراوة مفاخرا بأنه قد كتب له أنه لن يموت بيد رجل ولدته امرأة فأجابه ماكدف قائلا : انه لم يولد كما يولد سائر الناس بل انه خرج الى الدنيا بعملية القيصرية فهو اليد الضاربة التى أرسلها القضاء لتخليص الناس من شرور ماكبث . وانقض ماكدف على ماكبث وصرعه وحز رأسه وعلقها على الصارى ليشهدها الجميع . وهكذا كانت نهاية ماكبث الطاغية بعد أن جلس على عرشه المغتصب ١٧ عاما وتولى مكانه الوريث الشرعى مالكولم ولد دنكان ..



هذا هو الهيكل العام لقصة صعود ماكبث وانهياره كما رواها هولنشيد . وقد التزم بها شكسبير فى أغلب مراحلها التزاما دقيقا . ولعل فيها الاجابة على تساؤل بريخت والمعترضين على فنية شكسبير بأنه كان ينبغى وفاء منه للصدق الدرامى أن يجعل فليانس ولد بانكو يرتقى العرش بعد ماكبث كما قالت نبوءة الساحرات . ولكن التاريخ يقول غير هذا ، فهو يرد العرش الى آل دنكان ، أصحابه الأصليين بعد مصرع الطاغية وهو فى

اعتقادى أقرب الى الصـــدق الفنى من تنفيـــذ نبوءة الساحرات بجميع حذافيرها ، وأقرب الى قانون العدالة فى الأرض والسماء ، ذلك القانون الذى تقوم عليــه كل تراجيديا راقية ، وبهوحده تكتمل الدورة الدرامية ونحس بتمام القصاص ومن بعده بالغفران . ولو ان شكسبير لم يرد لصاحب الحق حقه من نهاية المأساة كما رد لفورتنبراس حقه فى عرش السينور لأحسسنا أن مأساة ماكبث ليست تراجيديا وانما مجرد حلقـــة دموية مفتوحة فى سلســـلة من الاغتصابات الدموية مفتوحة ، وربما حلقة فى ملحمة لم تتم فصولا ، ولكنها ليست دراما ذات بداية ووســط ونهاية كما يقـــول أرسطو ..

ان قصـــة بلوغ بنى بانكو عرش المملكة ، كمـــا جاء فى نبوءة الساحرات سواء بارتقاء فليانس نفســه أو بارتقاء سبطه فى تاريخ لم تحـــدده النبوءة ، هى موضوع مسرحية أخرى لا نعرف كيف نسميها لأننـــا نجهل موقف شكسبير من أسرة بانكو : أكان يعدهم من المغتصبين أم كان يعدهم من ذوى الحق الالهى بقوة النبوءة الشهيرة ..

أما موقف شكسبير من آل بانكو هؤلاء فهو من أهم ما ينبغى البحث فيه ، فما آل بانكو هؤلاء كما ذكر لنا هولنشيد الا أسرة ستيوارت التى كانت تحكم اسكتلندا يومئذ تحت صولجان مارى ستيوارت الكاثوليكية غريمة اليزابيث الاولى ، ثم تحت صولجان جيمس الخامس ملك اسكتلندا الذى ارتقى عرش انجلترا أيضا بعد أن ماتت اليزابيث دون وريث عام ١٦٠٣ . وكان داعية لحق الملوك الالهى ومؤمنا بالسحر والسحرة ، فشكسبير اذن قد تناول موضوعا يتصل رأسا بنظام الحكم فى عصره . أما هولنشيد فقد وقف موقف الحياد الدقيق فلم يوح لنا بأن أسرة بانكو كانت ملوثة وملعونة كأسرة ماكبث رغم اقترانهما فى نبوءة واحدة ..

فهو حين يتحدث عن الساحرات الثلاث ، صاحبات النبوءة يسوق فيهن رأيين قائلا : « ولكن فيما بعد كان الرأى الشائع أن هؤلاء النسوة هن أحد أمرين اما الأخوات العجيبات ، أى ربات القدر كما نقول أو من العرائس أو الحوريات اللائى وهبن القدرة على التنبؤ بفضل علمهن بالسحر . » بعبارة

أخرى هو لا يريد أن يحسم اذا كانت الســاحرات الثلاث من قوى الخير أم من قوى الشر . فلو كن من قوى الشر ، كان آل ستيوارت الجالسون على عرش اسـكتلندا فى عصره ثم على عرش انجلتـرا فى عصر شكسبير جماعة من المغتصبين لا فرق بينهم وبين ماكبث المغتصب وان كنّ من قوى الخير ، أو مجرد رسل تقرأ الغيب المكتوب للبشر. كان فى هذا اعتراف بشرعية أسرة ستيوارت . ولكن ينبغى أن نقول ان سرد هولنشيد للأحداث ليس فيه شيء واحـد يمكن أن يلطخ اسم بانكو رغم قسوته فى الحكم على ماكبث . فهل كان شكسبير يفكر كما كان يفكر هولنشيد ؟.. لعله يكفى أن نقول أن شكسبير جعـل ماكبث يخشى فى بانكو « طبيعته الملكية » ويخشى فيه « هدوء عقله الجسور» ويخشى فيه حكمته ويقول بعد أن لوثته الجرائم : « ان عبقريتى تقف أمامه خجلى كالمذنبين » ان الحديث عن الطبيعة الملكية يقربنا خطوات من نظرية الملك بالحق الالهى . فان كان هذا رأى شكسبير فى بانكو حقا ــ لا رأى ماكبث وحده ــ كان من حقنا أن نتصور أن هذا رأيه المستتر فى آل بانكو ، أسرة ستيوارت

فلننظر الآن الى جميع تراجيديات شكسبير على الأقل الهامة منها ، فماذا نجد ؟ نجد أن المأساة التى تحل بالبطل تحل به نتيجة لخطأ جسيم ارتكبه أو لخطأ جسيم فى تكوينه ، خطأ مهما كان جسيما لا يرقى الى مرتبة الخطيئة أو الشر ، فهم فى صميمهم أخيار لا يداخلهم الشر وانما ينتهون الى الكارثة بسبب افراطهم فى الخير أو بسبب نقص فى تكوينهم النفسى يجعل التفاهم بينهم وبين الحياة والأحياء مستحيلا .

الملك لير ؟ مأساته من سذاجته وافراطه فى الطيبة الذى بلغ حد الحماقة فجر الكوارث على نفسه وعلى غيره .

عطيل ؟ مأساته من سذاجته وافراطه فى الثقة العمياء الذى أسلمه فى النهاية الى الافراط فى عدم الثقة ، ذلك الافراط الذى اتخذ صورة الغيرة المدمرة العمياء .

هاملت؟ مأساته من انطوائيته المسرفة التى جعلته يأكل نفسه أكلا ويعيش فى جحيم داخلى يجعله دائما يقف على تخوم العالم الخارجى ، فلا ندرى ولا يدرى هو أين تقوم الحدود بين الحقائق والظلال ، جحيم داخلى كثيف الأبخرة كجحيم سارتر فى « الباب المغلق » كلما

أطل منه على العالم وجد الجحيم الخارجى أشد سعيرا وأكثف أبخرة فارتد يائسا الى جحيمه الداخلى .

انطونيوس وكليوباترا ؟.. مأساتهما من خضوعهما لشريعة الحب رغم انهما مكبلان بأصفاد الدولة والمسئوليات السياسية

يوليوس قيصر وبروتوس ؟ ..

مأساتهما من أن قيصر نما نموا غير طبيعى بحيث تجاوز حجمه حجم البشر واقترب من حجم الآلهة ومن ان بروتوس آمن بالحرية والأخلاق ايمان الفيلسوف الباسل لا ايمان « الأمير » الذى اجتمع له دهاء السياسى مع قوة الجندى الضاربة

ماكبث وحده من أبطال شكسبير هو الذى داخل الشر نفسه رغم سلامة معدنه ، وقهر فيه الشر الخير حتى آل الى الاجرام وتسمم عقله والتوى فى سراديب مظلمة لم ينفذ اليها بصيص من نور .. انه يمثل أعمق وأنضج رؤيا الشر عند شكسبير كما قال الأستاذ ولسون نايت . ومع ذلك فشكسبير شيء وهولنشيد شيء آخر

ان قصة ماكبث فى هولنشيد .. هى مجرد قصة سفاح رهيب .. أما فى شكسبير فهى مأساة بطل سقط من حالق بعد أن لوثت روحه الأطماع والشهوات : أهو بطل أم هو مجرم ؟ ..

هـذه هى المسـألة .. انه بطل تحول الى مجرم .. وآية بطولته ليست مجرد أمجاده فى القتال أو ولائه العميق الأول للملك الوديع « معبد الله المقدس » ولكن تلك الحرب الكونية التى نشبت داخل نفسه واشتركت فيها الساحرات والتنبؤات والأشباح وعناصر الطبيعة الهائجة مع الأطمـاع والشهوات وتحريض الزوجـة الضارية التى لا تكف عن تأنيب قوى الخير فيه حتى يختل فى ضميره الميزان.. حتى هذه المرأة الضارية نأسى لها بعد حين فحين نراها بعد الجريمة وبعد أن تحقق لها كل ما أرادت تنهار من الداخل المتصدع رغم كل ما بدا عليها من قسوة وحشية ، فتعيش فى أحلام الموت وفى هذيان الجريمة وفى أسقام لا يعرف كنهها نطس الأطباء ثم ينتهى أمرها الى الموت . أما القائد الجسور المتزن ماكبث ، فان سقوطه فى الجريمة بعد طول تردد

يتطور به الى النهاية العكسية ، فهو لا يتصدع تحت عبء الضمير بل يزداد تماسكا فى الشر وتحجرا فى الاجرام ويتلوث عقله ويتسمم قلبه ويزداد جشعا وطغيانا ويرى وراء كل أكمة عدوا بعين العقل وبعين الوهم جميعا ، فيخوض فى بحار من الدماء حتى يطهر فى الأفق من يضع له حدا ويكمل نبوءة الساحرات . ان نقطة التحول فى حياة ليدى ماكبث كانت ليلة الجريمة ، أما نقطة التحول فى حياة ماكبث فكانت يوم قرر ازالة بانكو وابنه لتغيير مجرى القضاء . ان سنده الأوحد لقتل ملكه والاستيلاء على عرشه كان نبوءة الساحرات وقد تنبأت الساحرات له بالملك ولبنى بانكو بالملك من بعده ..

ولو ان ماكبث رضى بما رسمه له القضاء ، فاكتفى بالعرش لرأينا فيه عند مصرعه مأساة الانسان الذى تحاصره الأقدار .. ولكن ماكبث بعد أن استولى على السلطة أفسده السلطان فلبس درعه وخرج لينازل القضاء نفسه حتى لا تنفذ كلمته فى عرش اسكتلندا ، فكانت هذه بداية فساده الحقيقى ، ولذا كان مصرعه لا مصرع الفريسة المحاصرة ، ولكن مصرع أبطال

اليونان الذين لوثهم « الهوبريس » أو الكبرياء فظنوا أنهم يستطيعون أن ينازلوا الآلهــة فى قممها أو انهم يســتطيعون أن يوقفوا دوران الكون وأن يغــيروا نواميس الوجود



الفصل السادس

شكسبير والتفرقة العنصرية

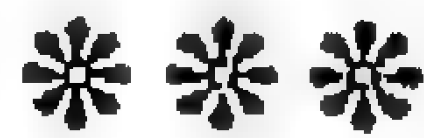
- الأسود والأبيض فى مأساة عطيل .
- الجنس والموت فى أدب شكسبير .
- ديدمونة تقدم القربان المقدس على مذبح الحب .



شكسبير والتفرقة العنصرية

٢١ ابريل عام ١٩٦٤ ، ليلة افتتاح « عطيــل » فى مسرح الأولدفيك بلندن. الكل ينتظر الحدث الكبير : السير لورانس أوليفييه سيظهر فى دور عطيل لأول مرة فى حياته بعد تردد وتهيب طال سنوات وسنوات . هذا الذى مثل هاملت واكتسح ، ومثل ماكبث واكتسح ، ومثل ريتشارد الثالث واكتسح ، بل ومثل شخصيــة ياجو الشرير فى مأساة « عطيل » نفســها واكتسح . هذا الذى اكتسح فى كل ما مثل ، أخيرا يقــدم على الدور الوحيد الذى كان يقف أمامه بقلب واجف دور « عطيل » ولا يجسر على تمثيله وأخيرا أعلن للناس : الآن أعتقد انى سيطرت على دور « عطيل » . هــذا الدور الذى خلد الممثل كين حين مثله فى مسرح دروری لين عام ١٨١٤ رغم قسوة الناقد العظيم وليم هازليت عليه ..

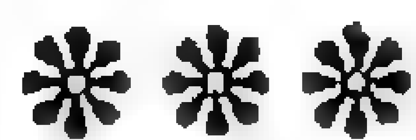
هذا الدور الذى شــهر الممثل سالفينى حين مثله فى بوسطون عام ١٨٨٣ . هذا الدور الذى كان يخاف منه عامة الممثلين الانجليز .. وقالت فيه الين تيرى : انه لا يناسب الطبع الانجليزى ولم يقربه ممثل انجليزى كبير منذ سنوات وكان آخر من مثله الممثل الايرلندى ماكماستر والممثــل التشيكوسلوفاكى فردريك فالك انتهى أخيرا الى سيد ممثلى شكسبير فى القرن العشرين، لورانس اوليفييه . ونحن ننتظر . ولندن كلها تنتظر . وبعد ثلاث ساعات خرجنا . ولم يكن بين المشــاهدين واحد فى اعتقادى لايهتف من أعماق قلبه : لقد انتصر اوليفييه .. انتصر أكثر مما يجب . انتصر على الدور . انتصر على نفسه . انتصر على كل من أمامه من ممثلين وممثلات . وأكاد أقول انتصر على شكسبير ولســان حاله قائل : لم تعد فى فنّك ألغاز تستعصى على فنى !



وخرجت ممتعضــا من ديدمونة « ماجى سميث » التى بدت تافهة أمام هذا الجبار ، وبغير شك ناقصة فى القوة والطهــارة وهما أهم عنصرين فى شخصيتهــا . وخرجت حائرا فى أمر ياجو « فرانك فنلاى » الذي

أتقن أيما اتقان ، ومع ذلك لم يكن مقنعا . وخرجت أقول عن الباقين جميعا : لا بأس

أما أوليفييه وحده فقد غزا كل القلوب . لقد كسف بظله العظيم كل من حوله وكأنهم دخلوا دائرة المحاق . حتى جون دكستر مخرج المسرح القومى ، توارى فى ظلال اوليفييه ، فلم تعد تحس له وجودا . الويل لمخرج يسوس ممثلا عظيما



وكان المشهد الأخير مشهد قتل عطيل لديدمونة فى فراشها مشهدا مثيرا فى حد ذاته ، مثيرا لأنه يختلف عن كل ما ألفه الخيال فى تجسيد اسقاطات الغيرة عند عطيل واستجابات الخوف والاحتجاج عند ديدمونه .

كان أقرب شيء الى تجسيد تفسير الكاتبة الأمريكية مارى مكارثى حيث تقول : « ان المشهد الأخير فى عطيل مشهد جنسي ـ لاشك فيه ـ فهناك جنس صارخ فى منظر القتل ، وفى حجرة النوم ، وفى شعر ديدمونه الطويل المشط . وهناك جنس فى المشهد السابق له حيث تعد اميليا ديدمونه للفراش وفيه تتحدث المرأتان عن قرون الرجال وملاءات الفراش والشفاه السفلى

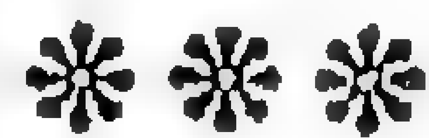
وتغنى فيه ديدمونه أغنية الصفصاف . لقد كان فى عقل عطيل صورتان لشخصية ديدمونه ، ولم يكن يستطيع أن يحيى الأولى ، صورة ديدمونة البريئة ، الا بقتل الثانية » ..

وهذا التفسير ، بغير شك ، تفسير صادق لشكسبير لأنه يستخرج الى السطح العلاقة الحميمة الدفينة بين الحب والموت وبين الجنس والقتل والسادية والماسوكية، وسائر هذه الالتواءات فى الاحساس والسلوك النابعة من أغوار النفس الحيوانية . والمشكلة الحقيقية فى تمثيل مشهد القتل فى عطيل هى كيف تمكن المحافظة على هذه الاسقاطات الحيوانية الملتوية داخل الاطار الدرامى الأكبر ، اطار البطل المصاب بجنون الغيرة العمياء وهو يدمر الفريسة الطاهرة البريئة أى كيف يمكن المحافظة على هذه الايحاءات الجسدية مع تذويبها فى المأساة النفسية الشاملة بل المأساة الكونية التى تحكم مصائر البشر من خلال سلطان النجوم وأبراج السماء كما يظهر فى مونولوج عطيل. واعتقادى ان الجزء الأكبر من نجاح لورانس اوليفييه فى مشهد القتل راجع الى ادراكه لهاتين الضرورتين معا واقامة

التوازن بينهما ولكنى شخصيا كنت أوثر ألا أحس بجدية الموقف الا من خلال الايحاء فقط . ان فى قتل عطيل لديدمونه نوعا من قتل عطيل لنفسه ، أو هو قتل الانسان لجسده الآثم الخسيس القابل دائما للسقوط لانقاذ الروح الطاهرة فى كل نورانيتها ، واذا كانت لديدمونه فى نفس عطيل شخصيتان : احداهما ملوثة ، والأخرى طاهرة ، كما تقول مارى مكارثى . فان عطيل نفسه واجه أيضا ــ باللاوعى طبعا ــ فى دخيلته رجلين أحدهما ملوث والآخر برىء . أحدهما أسود كالفحم والآخر أبيض كالثلوج . وهذه حقيقة رمز الأســود والأبيض فى مأساة عطيل أو هكذا ينبغى أن تفهم ..

انها ليست مجرد تقابل بين المغربى الأسود والبندقية البيضاء ، ولكنه تقابل ومواجهة بين الشر والخير وبين الظلام والنور داخل النفس وخارجهــا على مستوى الانسان وعلى مستوى الكون كله ، وما قصة عطيــل الا شريحة واحدة فى قصة هذا التضاد الأزلى الأبدى حيث تبلغ المأساة ذروتها حين نرى الكائن الأســود فى عطيل يقدم روحه البيضاء فى شخص ديدمونه قربانا على مذبح الحب وكأنه كاهن يقيم أقدس الطقوس وهو

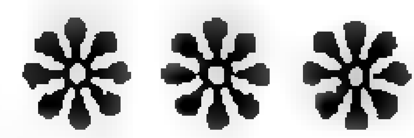
يقدم ذبيحته الى ربه . ان جو القداسة الذى أحاط به شكسبير مشهد قتل ديدمونه كفيل بأن يبرز هذه الأبعاد الكونية فى مأساة « عطيل » ويخرجها عن مجرد قصة تدور حول فظائع الغيرة البلهاء الى مأساة الانسان نفسه حين يفترس جسده الأسود روحه البيضاء فتتزلزل لهذا السقوط أركان الكون . وبعد أن ينحر عطيل روحه البيضاء ينتحر فيقدم بهذا جسده الأسود كفارة لخطيئته حتى تبعث روحه وتهدأ سريرة السماء ، وبهذا تتم الدورة الأخلاقية العظمى التى حدثنا أرسطو عنها قائلا : انها وراء كل فكرة تراجيدية .. دورة الجريمة ، ثم العقاب ، ثم الغفران ..



وهذا التفسير النفسى الميتافزيقى يقودنا الى اعادة النظر فى شخصية ياجو الشرير نفسه والى طرح هذا السؤال الخطير: هل ياجو شخصية مستقلة قائمة بذاتها أم انه جزء خبيىء من شخصية عطيل نفسه أو الوجه الآخر من تكوينه النفسى ؟.. ان فن شكسبير الدرامى بأغواره المعقدة ، قد علمنا وعودنا أن نطرح دائما هذه الأسئلة التى تفرض نفسها فرضا لأن الاجابة عليها هي

بمثابة المفاتيح الصحيحة لفهم الدراما الشكسبيرية

فلنأخذ مثلا هذا السؤال المحورى فى مأساة «ماكبث» ان ماكبث وبانكو يلتقيان بالساحرات الثلاث صاحبات النبوءة المشهورة . وبديهى انه ليس من داع لاثارة مشكلة تثار أحيانا وهى الى أى مدى كان شكسبير يؤمن ـ جريا على معتقدات عصره ـ بوجود الساحرات والجان وكافة مخلوقات الخيال وجودا موضوعيا خارجيا ..

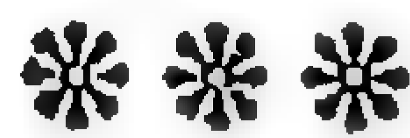


ان شكسبير كان يؤمن بوجود الساحرات بنفس المعنى الذى كان يؤمن فيه بوجود آلهة الأولمب أو آلهة الرومان أو آلهة الوثنيات السكسونية فى الملك لير وما شابهها ، باعتبارها رموزا موضوعية لمعان انسانية وقوى رمزية تقابل القوى الطبيعية التى تتدخل فى مصائر البشر . لا أكثر ولا أقل . وعدم الايمان بوجود الساحرات أو الآلهة وجودا ماديا لا ينفى عنده اطلاقا وجودها بكامل وظائفها فى عقل الانسان وخياله وضميره . ومن هنا فالسؤال هو: هل كانت الساحرات الثلاث دافعات ماكبث الى الجريمة والاغتصاب مجرد

امتداد لخياله المريض ، الطموح الى درجة مرضية ؟ أم انهن يمثلن قوى خارجية عن نفس الانسان كالأقدار التى تتحكم من الخارج فى مصير الانسان وتدفعه الى الهاوية دفعـا ؟ هنا يتركنا شكسبير معلقين دراميا وفلسفيا لأنه لايعطينا الاجابة الصريحة بل هو يعقد الأمر علينا عامدا متعمدا حتى نقع فى الاشكال الأكبر اشكال موقف الانسان بين الجبر من الخارج والاختيار من الداخل ، فهو يقيم شاهدا على ظهور الساحرات هو بانكو حتى لا نجزم بأن ما رآه ماكبث لايتجاوز أن يكون تجسيدا لأطماعه الخفية ، وهو بتحقيق النبوءات الثلاث الواحدة بعد الأخرى يؤكد وجودهن الموضوعى كقوى خارجة عن ضمير ماكبث .. وهو رغم كل ما ساقه لتصوير سقوط الانسان وكأنه من عمل الجبر العظيم لايعفى الانسان من مسئولية اختيار الشر بدليل الانهيارات النفسية المتعاقبة سواء بتصدع ليدى ماكبث أو بتحجر ماكبث ذاته الى الدرجة الشيطانيـة

فاذا ما تأملنا هاملت وجدنا شكسبير وقد جاء بشبح الملك القتيل ليدفع ولده الأمير الشـاب الى قتل عمه الملك القـاتل المغتصب كلوديوس . فلا نعلم ان كان

شبح الأب القتيل هو مجـرد نسج مريض من نسج خيال الأمير هاملت الذى ثار فى اللاوعى على استئثار عمه بفراش أمه فالتمس العذر لتدميره وصور له وهمه وقوع جريمة فى بلاط السينور أم ان الشبح كان له وجود موضوعى ، وان الجريمة وقعت بالفعـل ، وان الانتقام ضرورة حقيقية . هذا الشك الذى يعترينـا لايعترينا وحدنا وانما يعترى هاملت نفسه الذى يفترسه الشك فلا يدرى ان كان ما رأى شـبح أبيه فعلا أم شيطانا خبيثا خرج من الجحيم ليخـاتله ويدفعه الى دماره ، ويجعل هاملت من هذا الشك مبررا لتردده المشهور فى الأخذ بثأر أبيه ..



أما فى عطيل فالوضع يختلف بعض الشىء لأن ياجو ليس شخصا غيبيا من شخوص العالم الآخر، كالأشباح والساحرات ولكنه رجل من لحم ودم رغم ان مشاعره وأفكاره وسلوكه تجعله أشد نكرا من زبانية الجحيم

ومع ذلك فانه لا يسعنا الا أن نحس احساسا قويا انه ربما كان تجسيدا لذلك النصف الشيطانى الخبيىء فى نفس عطيـل ذلك الرجل الآخر القابع فى قرارته

والذى لا يستطيع عطيل أن يواجهه فى نفسه تحت أى الظروف ، ومن هنا فقد سلخه شكسبير عن نفس عطيل وجعل له وجودا مستقلا كاملا الى حد التجسيد التام فى عالم الواقع لا فى عالم الوهم .. أو قل هو التجسيد الانثروبومورفى للأفعى الماكرة القابعة فى قرارة كل منا

وهى ماكرة لأن روح الخير فى فطرتنا نقية وقوية وبطولية مثل نفس عطيل فلا سبيل لروح الشر أن تفسد روح الخير الا بالتسلل اليها والتسرب فيهـا بالدهاء والمخاتلة ..

وفى هذه الحـالة ، يكون ياجو هو ما يسمى فى علم النفس بالأنا الأخرى لعطيل المناقضة له ، أو أن ياجو هو بمثابة الأنا السفلى وعطيل بمثابة الأنا العليا فى نفس هذا البطل المسكين . فياجو ملازم لعطيل كظله لا جسدا فحسب ولكن روحا وفكرا كذلك . والثقة التى لا تعرف الحدود التى أعطاها عطيل لياجو تلك الثقة التى جعلته يعيره أذنه باستمرار ويستمع لوسواسه باستمرار ويصدق كلامه بلا تحفظ لا تفسير لها فى بعض الأحيان الا ان هناك شطرا خفيا من نفس عطيل كان يحب خفية أن يشك فى طهارة ديدمونة المسكينة وأن

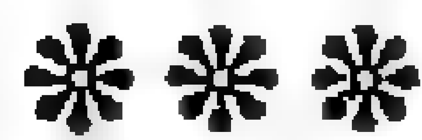
يفتك بها . وهذا الجانب فى ـ نفس عطيل ـ وفى نفس كل منا ، هو ما نسميه ياجو ..

هذا الشطر قابع فى نفس كل ذكر نحو الأنثى ولكنه فى حالة عطيل اتخذ أبعادا غاية فى الجسامة ـ ليس فقط بعلة انه أسود البشرة غليظ الشفتين كما يقول شكسبير موحيا انه أقرب ما يكون الى فكرته عن الزنوج ، مما يجعل زواجه من امرأة بيضاء يحمل معه عقد العنصرية الطبيعية فى ذلك الزمان ويجعله فى قرارته لايستطيع أن يصدق أن ديدمونه يمكن أن تحبه حقا ـ ولكن أيضا ، وربما قبل كل شىء ، بسبب قرب عطيل من فطرة الطبيعة البكر التى لم يصغها أو يصقلها أو يفسدها بعد انضباط المدنية وخنوثتها ممثلة فى أبناء البندقية وفى حضارة البيض بوجه عام . وفى حالة افتراض ازدواج شخصية عطيل ـ ياجو ينبغى أن نفهم مونولوجات عطيل ومونولوجات ياجو وما يجرى بينهما من حوار حول عفة ديدمونه على انها مساءلات داخلية أسقطت الى الخارج ..

هذا هو السبب الذى من أجله كتب جيمس بولدوين يقول : انه كان يبغض شكسبير بسبب مسرحية عطيل

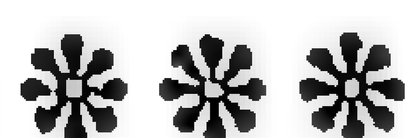
التى رأى فيها نموذجا للفن العنصرى والتحامل على السود وابرازهم فى صورة قوى الطبيعة الفطرية التى لم تستأنس بالمدنية فهى تدمر كل معانى الطهارة والبراءة الممثلة فى البنت البيضاء ديدمونه .كان جيمس بولدوين يبغض شكسبير ويتهمه بالعنصرية حتى تغلغل فى أدبه وفنه فأدرك ان مقاصد شكسبير أعلى من كل هذه السخافات لأنه لا يعالج فى الواقع مشكلة السود والبيض ، وانما يعالج مشكلة الأسود والأبيض فى النفس الانسانية ..

ولا شك أن اليهودى السطحى قد يتخذ هذا الموقف من أدب شكسبير وفنه حين يقرأ لأول مرة « تاجر البندقية » ويرى الصورة البشعة التى رسمها شكسبير لليهودى المرابى شيلوك . فما أن يتغلغل فى أدب شكسبير وفنه حتى يجد انه لم يكن معاديا للسامية أو معاديا لليهود بالذات بل لعله كان متعاطفا مع عقد الاضطهاد التى حملوها عشرات القرون فجعلت منهم أشبه شىء بوحوش آدميين ..



ولسبب غير معروف نشرت مأساة «عطيل» ـ رغم

نجاح تمثيلها لأول مرة ــ متأخرة عام ١٦٢٢ ، أى بعد وفاة شكسبير بست سنوات فى طبعة من الحجم الصغير هى طبعة الكوارتو الأولى ، وكان ذلك بعد تسجيلها فى سجل المطبوعات فى ٦ أكتوبر عام ١٦٢١ لحساب توماس ووكلى . ثم ظهرت فى طبعة الفوليو الأولى الشهيرة عام ١٦٢٣ ثم أعيد طبعها عدة مرات خلال القرن السابع عشر ، فى عام ١٦٢٨ وفى عام ١٦٣٠ وفى عام ١٦٣٩ وفى عام ١٦٥٥

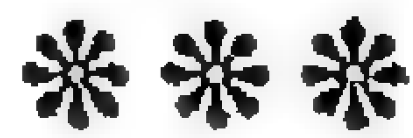


أما عن تاريخ تمثيل «عطيل» لأول مرة ، فقد مثلت فى البلاط فى أول نوفمبر عام ١٦٠٤ وهناك ما يثبت أيضا انها مثلت فى عام ١٦١٠ وفى موسم عام ١٦١٢ ــ ١٦١٣ (فى البلاط) وفى عام ١٦٢٩ وفى عام ١٦٣٥ وفى عام ١٦٣٦ (فى البلاط) . ويرجح الباحثون أن « عطيل » من انشاء عام ١٦٠٤ ، وطبعة الكوارتو الأولى (عام ١٦٢٢) والفوليو الأولى (عام ١٦٢٣) طبعتان جيدتان من حيث النص المنشور ، ولكن بهما بعض الاختلافات فى النص

وأما المصادر التى أخذ عنها شكسبير قصة «عطيل»

فأهمها كتاب « ايكاتوميتى » للكاتب الأيطالى جيرالدى سنثيو (عام ١٥٦٥) كذلك يظن انه تأثر بمسرحية ديكر وميدلتون «المومس الشريفة» وهى مثل «عطيل» من انتاج عام ١٦٠٤ . وفى أحد المراجع الايطالية الحديثة الصادرة عام ١٨٨٢ اشارة الى جريمة قتل فى البندقية حدثت فعلا عام ١٦٠٣ ، وفيها قتل أحد نبلاء البندقية زوجته . ولكن من المهم أن نذكر أن المصدر الأول الذى أخذ شكسبير عنه قصة « عطيل » ، وهو كتاب جيرالدى سنثيو أورد القصة دون ذكر لاسم عطيل أو لاسم حامل علمه ، ولا يعرف من أين جاء شكسبير بالاسمين . أما عن تأخر طبع « عطيل » حتى عام ١٦٢٢ ، فان « عطيل » لم تكن فريدة فى هذا الأمر فالمعروف انه حتى عام ١٦٢٢ كانت هناك ١٩ مسرحية من مسرحيات شكسبير لم تطبع بعد ، أو على الأقل ليس هناك دليل على انها طبعت . والخلاصة ان من الباحثين من حاول اثبات ان « عطيل » من انتاج عام ١٦٠٢ وان منهم من قال انها من انتاج عام ١٦١١ ، وان هؤلاء وهؤلاء اعتمدوا على حجج ووثائق تبين انها مزورة أو مزعزعة . والخلاصة أيضا ان مصدر

«عطيل» الأول كان الكاتب الايطالى جيرالدى سنثيو. وان هناك فى المسرحية ما يثبت ان شكسبير كان متأثرا فى بعض صوره الشعرية فى « عطيل » بكتاب المؤرخ القديم بلينى المعروف باسم « التاريخ الطبيعى » الذى ترجمة فيليمون هولاند وطبع عام ١٦٠١



فما هى قصة عطيـل كما وردت فى كتاب سنثيو : « هيكاتومينى » التى نشرت لأول مرة بالايطاليـة فى صقلية عام ١٥٦٥ وأعيد طبعها مرارا فى ايطاليا وترجمت الى الفرنسية وطبعت عام ١٥٨٤ وترجمت الى الاسبانية وطبعت عام ١٥٩٠ وترجمت الى الانجليزية بقلم و . بالا ، وطبعت عام ١٥٩٥ ، فكانت فى متنـاول يد شكسبير فى أية لغة من هذه اللغات !..

يقول سنثيو : انه كان يعيش فى البندقية مغربى عظيم الشجاعة وكان هذا المغربى موضـع احترام عظيم فى جمهورية البندقية نظرا لخدماته ، وقد عشقته سيـدة فاضلة باهرة الحسن اسمها ديدمونه ، لا عشق المرأة للرجال ، ولكن اعجابا بشجاعته وبطولته . وقد بادلها المغربى حبا بحب ، ورغم معارضة أسرة ديدمونه التى

كانت تريد لها أن تتزوج من رجـل آخر ، تزوجت ديدمونه من هذا المغربى وعاشا معا فى سعادة غامرة ، ثم حدث أن قرر سادة البندقية تعيين المغربى قائدا على قبرص وهو شرف عظيم ، ولكن المغربى حزن لهـذا التشريف لأنه سيقصيه عن أحضان زوجته معتقدا انها لن ترضى بمصاحبته الى مقامه الجديد، فحزنت ديدمونه لحزنه كما عجبت لابتئاسه لهذا التكريم . ولما علمت سر حزنه وابتئاسه قالت له : انه حيثما ذهب ذهبت معه ولو اخترقت من أجله النيران بدلا من عبور الميـاه ، فحبها له بغيرحدود، وطلبت ديدمونه من زوجها المغربى أن يجهز لرحلتها بما يناسب المقام من موكب مجيد ..

وهكذا سافر المغربى مع زوجته فرحا على ظهر سفينة ومعه جنوده وبلغ قبرص بعد رحلة نعم فيها ببحر هادىء وديع . وكان بين جنوده حامل علم ، وهو رجل جذاب الشخصية الى درجة عظيمة ولكنه فاسد الخلق تماما

وأحب المغربى لسذاجته هذا الرجل الخسيس وأدناه منه . وكان حامل العلم هـذا أيضا قد اصطحب معه زوجته وكانت امرأة جميـلة وعالية الخلق فأحبتهـا ديدمونه حبا جما . كذلك كان مع المغربى ضابط برتبة

كابتن كان أثيرا عند المغربى ، وكانت ديدمونه تغدق عليه عطفها لما رأته من حب زوجها له . ثم حدث أن حامل العلم الدنىء هذا وقع فى غرام ديدمونه ، وكان غرامه يائسا ، فسرعان ما أدرك انها لن تستجيب له ، فلم يجرؤ على الافصاح لها عن حبه . وأقنع حامل العلم نفسه ان انصراف ديدمونه عنه انما سببه انها تعشق الضابط المرافق للمغربى ، فعقـد عزمه على التخلص منه . ثم تحول حبه الأعمى لديدمونه الى كره أعمى لها فقرر أن يوغر صدر زوجها عليها حتى لاتبقى فى قلبه ذرة من الحب لها . وأخذ حامل العلم يدبر مختلف الخطط الفظيعة لتحقيق مأربه ، وسرعان ما سنحت له الفرصة المواتية ، فقد حدث أن الضـابط اشترك فى مشاجرة حطت من قدره كجندى مما جعله يفقد رتبته ، وأحست ديدمونه بالعطف الشديدعليه فذهبت تتوسط له عند زوجها فى الحاح ليعفو عنه ويرد اليه مكانته ..

وهنا أوحى حامل العلم الخبيث للقائد المغربى أن زوجته انما تتشفع للضابط بكل هذا الالحاح لعلاقة خفية بينهما ، ونجح حامل العلم فى تسميم عقل القائد المغربى وايغار صدره على زوجته . ثم تطور التلميح فغدا

تصريحا ، وزعم حامل العلم انه انما يبلغ القائد بخيانة زوجته فى ألم عظيم ، ولكن واجبه وولاءه يلزمانه بذلك ، وأفهمه ان ديدمونه انما عشقت هذا الضابط البندقى لأنها غدت تنفر منه بسبب بشرته السوداء ..

وهنا غضب المغربى غضبا شديدا ، وهدده بالعقاب على هذا التشهير ما لم يثبت له برؤية العين صحة ادعائه . وكان حامل العلم يعرف صعوبة ذلك لعلمه بعفة ديدمونة ، ولما طال انتظار المغربى للدليل المادى احتال حامل العلم على سرقة منديل كان المغربى قد أهداه لزوجته وكان المنديل آية من آيات النسيج على الطراز المراكشي ، وكان كل منهما يعتز به أيما اعتزاز . وبينما كانت ديدمونه تلاعب طفلة حامل العلم فى بيته سرق حامل العلم المنديل من زنارها بخفة ومهارة فلم تحس به ولم تفتقد المنديل الا بعد أيام ، وعندئذ انزعجت انزعاجا شديدا . ثم اندس الدساس الأثيم الى مخدع الضابط ووضع المنديل على وسادته حيث وجده الضابط فى الصباح ..

وكان الضابط يعرف أن منديل « ديدمونة » فأراد اعادته اليها وقصد الى دار القائد المغربى وطرق

بابه الخلفى بعد خروج القائد ، ولكن لسوء حظه كان القائد قد عاد فجأة لأمر من أموره ، وصاح غاضبا : « من الطارق ؟ » ففر الضابط دون أن يجيب . وأثار هذا ريبة القائد فأخذ يحاصر ديدمونه بالأسئلة والغيرة تأكل قلبه وديدمونه لا تعرف بماذا تجيب ، وسر حامل العلم الخبيث بازدياد شكوك القائد . واتفق معه على أن يختبىء ليسمع ما يدور بينه وبين الضابط من حديث حول هذا الموضوع حين يفاتح حامل العلم الضابط فيه ، ونفذت الخطة . وتظاهر حامل العلم الماكر باشاراته وضحكاته بأنه يحادث الضابط فى الموضوع ، أما الحقيقة فهى انهما كانا يتحدثان فى شىء آخر تماما ..

وأوهم حامل العلم القائد بأن الضابط اعترف له انه يزور ديدمونة كلما خرج القائد من داره وان ديدمونة أهدته فى آخر لقاء بينهما المنديل المغربى. وطالب القائد المغربى زوجته بالمنديل ولما عجزت عن اظهاره تيقن من خيانتها ، ولم يعد يفكر الا فى شىء واحد وهو كيف يقتلها ويقتل عشيقها المزعوم دون أن يقع عليه اللوم ..

واستبدت به كآبة شديدة وعاملها معاملة شاذة لم تفهم لها سببا ، فاستولى عليها حزن عميق وبكت بكاء

مرا وهى تسأل زوجة حامل العلم أن يأتيها زوجها بسر انتقاض زوجها عليها ، بوصفه موضع ثقة القائد . وقالت ديدمونه انها تخشى أن تصبح بشقائها مثلا لتحذير بنات البندقية من معصية الآباء فى الزواج من رجال يختلفون عنهن فى الطبيعة وأسلوب الحياة .

وكانت زوجة حامل العلم تعرف بكل ما يجرى ولكنها لم تبح لها بشىء ، خوفا من بطش زوجها وقد أراد زوجها أن يستخدمها فى قتل ديدمونه ولكنها أبت . وكان كل ما استطاعت أن تفعله هو تحذير ديدمونه من فعل شىء قد يثير الريبة فى صدر زوجها

وأصر القائد المغربى على رؤية المنديل الذى كان فى حوزة الضابط . وكانت للضابط زوجة تحسن التطريز وشغل الابرة فلما أبصرت المنديل قررت أن تصنع لنفسها مثيلا له قبل اعادته الى صاحبته .. وفيما كانت جالسة تشتغل فيه عند نافذتها أبصرها حامل العلم وفى يدها المنديل . فنبه المغربى الى ذلك فتيقن نهائيا من خيانة زوجته . ووعد القائد المغربى حامل العلم بمكافأة كبيرة ان هو قتل الضابط فتربص حامل العلم للضابط ذات ليلة حالكة الظلام وهو فى طريقه الى عشيقته

وداهمه بسيفه فبتر ساقه اليمنى . وتجمع الجنود على صياح الضابط الجريح ففر حامل العلم ولكنه لم يلبث أن عاد بجمع من الناس على مصدر الصياح ، وشرع يواسى الضابط وكأنه لا صلة له بهذه الجريمة ، معتقدا ان الضابط لا بد سيقضى نحبه

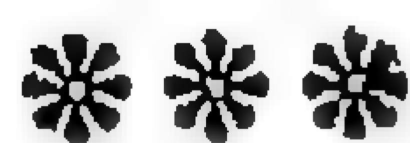
وحين علمت ديدمونة الطيبة بما جرى للضابط المسكين أبدت حزنها الشديد عليه فثارت ثائرة القائد المغربى وأخذ يشاور حامل العلم فى طريقة قتلها على الفور ..

وانتهى رأيهما الى ضربها بجورب مليء بالرمل حتى تلفظ أنفاسها لكيلا يصاب جسدها بأى جراح تدل على انها اغتيلت وكانت هذه الخطة من بنات خيال حامل العلم ، وتتمة للخطة اتفقا على هدم جزء من السقف آيل للسقوط حتى يقال انه سقط عليها فصرعها . وهكذا اختبأ حامل العلم فى غرفة مجاورة وأحدث جلبة حسب الاتفاق واستيقظت ديدمونة وخرجت لترى ما الأمر فهاجمها حامل العلم وسقطت على الأرض تستغيث وهنا أخذ وزجها يكيل لها أفحش السباب قائلا انها ليست الا بغيا تلقى جزاءها العادل

لأنها أنبتت القرون فى رأس زوجها . ثم قضى عليها حامل العلم بضربة ثانية ، ثم جذبها الرجلان ومدداها على الفراش وجرحاها فى رأسها وحطما سقف الغرفة ولما فرغا من كل ذلك تعالى صياحهما بأن المنزل ينهار . وحين رأى الجيران ديدمونة مسجاة حزنوا عليها حزنا شديدا ..

أما القائد المغربى ، فما أن فرغ من جريمته حتى استولى عليه جنون من جنون الحزن العظيم وطاف بالبيت بحثا عن ديدمونة ، ثم تملكه حقد أعمى على حامل العلم الذى سبب كل هذه الكوارث ، ورغب فى قتله لولا خوفه من قوانين البندقية ، فاكتفى بعزله ، فثارت ثائرة حامل العلم وقرر تدمير القائد المغربى وانطلق الى الضابط الجريح وأعلمه أن القائد المغربى هو الذى دبر كمين اغتياله بسبب الغيرة وانه قتل ديدمونة مدعيا ان السقف سقط عليها .. فتقدم الضابط باتهام القائد المغربى ــ بجرائمه أمام حكومة البندقية وشهد حامل العلم على صدق الاتهام . وسيق هذا « البربرى » من قبرص الى البندقية وعذب عذابا فظيعا ليعترف ، ولكن كل أدوات التعذيب لم تنجح فى

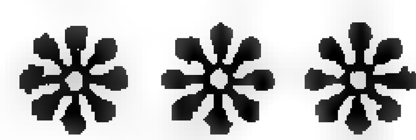
استخلاص كلمة واحدة منه ، فاكتفى بنفيه بدلا من اعدامه ، وفى المنفى اغتاله أهل ديدمونة ثأرا لها . أما حامل العلم فقد مضى فى دناءته حتى ختم حياته فى السجن تحت آلات التعذيب بسبب جرائمه الكثيرة الاخرى . وهكذا حق القصاص الالهى فى قتلة ديدمونة وكانت زوجة حامل العلم هى التى روت كل هذه الأحداث الأليمة بعد موت زوجها ؛ فقد كانت على علم بكل ما جرى



هذه هى القصة كما وردت فى جيرالدى سنثيو ، وقد حافظ شكسبير على هيكلها العام ، ولكنه أجرى عليها عديدا من التعديلات سواء من بنات خياله أو من مصادره الأخرى . ويلاحظ أن رواية سنثيو لم يرد بها من الأسماء الا اسم ديدمونة . ومعنى هذا أن شكسبير جاء بأسماء المغربى عطيل والوغد ياجو وزوجته اميليا والضابط مايكل كاسيو وغيرهم مثل برابانتيو ورودريجو وعامة الشخصيات الثانوية من مصادر أخرى . أما فى تفسير أسماء الشخصيات واستقصاء مصادرها فيظن العلماء أن اسم ديدمونة هو صيغة من

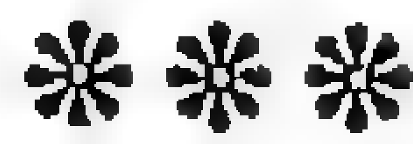
الاسم اليونانى ديدموث

ويؤولونها بمعنى «الشقية» أو « الضائعة الأمل » كما ورد فى المحقق جولانكز . أما اسم « نوثيللو » أو « عطيل » كما نسميه نحن فى العربية ، فقد جاء فى المحقق ستيفنز انه ورد فى كتاب رينولدز « انتقام الله من الزنا » وفى هذا الكتاب يرد اسم ياجو أيضـا . كذلك يرد اسم عطيل واسم ياجو معا فى كتاب آخر من عصر شكسبير اسمه « تاريخ أيوردانوس » طبع عام ١٦٠٥ ولكن هذا تاريخ لاحق لتاريخ تمثيل دور عطيل لأول مرة فى البلاط فى أول نوفمبر ١٦٠٤ حسب ما تقول الوثائق . ولعل شـكسبير اطلع على هذين الكتابين فى المسـودة قبل طبعهما ، ولكن أقرب الى الاحتمال أنه استعان بمصادر أخرى ..



أما اسم ياجو فهو ليس الا صيغة من اسم «يعقوب» بالايطالية ومنه أيضا « ياكيمو » (يواقيم) . واسم ياجو يرد أيضا فى « تاريخ » هولنشيد الكتاب الثالث (طبعة ١٥٧٨) ، وهو من أهم مصـادر شـكسبير ولا سيما فى مسرحياته التاريخية ، ولكن ياجو الذى

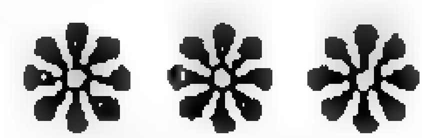
ورد ذكره فى هولنشيد لا صلة له بياجو عطيل .
فهولنشيد يقول : « نصب اياجو أو ياجو .. حاكما على بريطانيا فى السنة الثانية للخليقة ٤ ـ ١٦٧٠ » .



ومنذ مأساة «عطيل» لشكسبير نجد اسم ياجو يتكرر فى بعض المسرحيات فهو شخصية ثانوية فى مسرحية لتوماس ديكر اسمها « زوجتى فى لندن » قبل (١٦٢٥) وفى مسرحية « سويتنام أو عدو المرأة » (١٦٢٠) حيث نجد ياجو نبيلا شريفا من نبلاء صقلية . أما اسم اميليا فقد كان اسما شائعا منذ « سيرة تبسيوس » لبوكاشيو العظيم ومن خلال تشوسر وغيره شاع الاسم فى عامة الآداب الأوربية ..

أما المعلومات التاريخية الواردة فى « عطيل » ولا سيما ما يتصل منها بموقفه قبرص بين البندقية والأتراك ، فنحن نعرف ان سليم الثانى وضع خطته لغزو قبرص عام ١٥٦٩ وانه استولى عليها عام ١٥٧١ ، وكانت هذه هى المحاولة الوحيدة لاستيلاء الترك على الجزيرة منذ أن سقطت فى أيدى البندقيين عام ١٤٧٣ .
فحوادث « عطيل » التاريخية تدور اذن خلال الفترة

١٥٦٩ ـ ١٥٧١ ، أو على وجه التحديد فى مايو ١٥٧٠ حين يروى التاريخ أن القائد مصطفى وهو أحد قواد سليم الثانى غزا قبرص . وعلى كل ، فهذه المعلومات التاريخية كانت ميسورة لشكسبير ففى رحلة الرحالة الانجليزى هاكليوت المشهورة التى طبعت فى ١٥٩٩ وصف كامل لسقوط جزيرة رودس فى أيدى الترك عام ١٥٢٢ . ولسقوط قبرص فى أيديهم عام ١٥٧٢ . وقد كانت كتابات هاكليوت بين أيدى كافة المثقفين فليس هناك شك فى أن شكسبير اطلع عليها



ولكن بغض النظر عن كل هذه التفاصيل اللازمة لفهم تاريخ «مأساة عطيل» ، وهى جميعا توحى بأن شكسبير قد استقصى قصة « عطيل » أو « أوثيللو » أو « أوتيللو » فى مراجع عدة ليس كتاب جيرالدى سنثيو الا أحدها ، من اللازم أن نذكر أنه تجاهل فى سنثيو بعض مراحل القصة مثل قول سنثيو ان ياجو سرق منديل ديدمونة مستعينا بطفلته الصغيرة التى كانت ديدمونة تحبها ، وبنى دور عشيقة كاسيو المجهولة الاسم فى سنثيو والتى سماها شكسبير بيانكا « أى

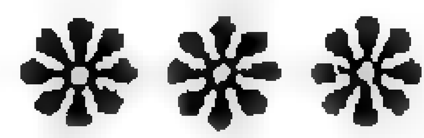
البيضاء » بحيث جعل لها صلة بمنديل ديدمونة

كما غير شكسبير الطريقة التى انتهى بها منـديل ديدمونة الى يد ياجو . كذلك تجاهل شكسبير ما جاء فى سنثيو من أن زوجة كاسيو كانت تطرز فى نافذتها منديلا شبيها بمنديل ديدمونة فرآها ياجو وعطيل وبهذا جعلها سنثيو محور « الاكتشاف » الدرامى ــ بلغة أرسطو ــ الذى أدى الى الكارثة . كذلك تجـاهل شكسبير طريقة قتل ديدمونة فى سنثيو بالجورب الملىء بالرمل وحكاية ادعاء سقوط السقف واستعانة عطيل بياجو لقتل زوجته ، وهى استعانة لا تصدر عن بطل عظيم ولا تذكر الا عن جبان خسيس ، واستعاض عن كل ذلك بمشهد القتل الخالد حيث نرى عطيل يخنق ديدمونة فى فراشها بيديه ..

كذلك تجاهل شكسبير رواية « سنثيو » فى مصرع عطيل وياجو ، فجعل مصرع عطيل بيده لا بيد أعدائه وجعل مصرع ياجو بيد العدالة والقانون جزاء له على اثمه العظيم فى هذه المأساة وليس جزاء آجلا على آثام مقبلة ..

كذلك سلح شـكسبير ياجو بأسـباب غير مجرد

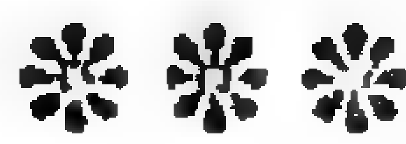
عشقه لديدمونة ، فجعله يحقد على كاسيو انه نال ما كان ينبغى أن يناله هو من مرتبة فى الدولة بفضل ايثار عطيل الذى جعله نائب حاكم الجزيرة أى نائبه بدلا من ياجو كذلك جعل شكسبير ياجو بعقله المسموم يتوهم أو يوهم نفسه أن عطيل كان يضاجع زوجته اميليا ليقنع نفسه بوجود حافزين فظيعين للانتقام : الرتبة المسروقة والفراش المسروق



ولكن أهم من كل هذا ومن غيره أن شكسبير بنى شخصية عطيل بناء جديدا هو بناء درامى فجعل من عطيل بطلا تراجيديا نأسى لمحنته لا مجرد بربرى أحمق غيور جبان كما صوره سنثيو وجعل من موضوع المأساة دراسة عميقة فى الغيرة لا مجرد عظة للناس فى مضار الزواج المختلط ، أو كما تقول ديدمونة فى سنثيو انها تخشى انها ستصبح عبرة لبنات ايطاليا « لكيلا تتزوج احداهن رجلا فرقت بينه وبيننا الطبيعة والسماء وأسلوب الحياة .. » وهو قد جعل من شخصية ياجو لا مجرد دساس ماكر رخيص كما فى سنثيو بل دراسة نفسية عميقة فى الفطرة الملتوية المسمومة التى يتغلغل

الشر فى كل شعابها تغلغل الدم فى شعيرات الجسد ..

وهو قد حول هذه القصة «الاجتماعية» المعاصرة الى شيء آخر يتناول الصدام بين الفطرة النبيلة ملهمة الفضائل العظمى وملهمة الخطايا العظمى وبين الخلق المدنى الذى هذبه العقل وثقفته قوانين المجتمع والعقائد المكتسبة ..



أنظر الى منابع الأخلاق فى عطيل تجد انها جميعا صادرة عن الفطرة البسيطة بكل تناقضاتها وهو لهذا يتجه من نقيض الى نقيض فى قفزة واحدة أو ما يشبه القفزة الواحدة ، فهو ينتقل من الثقة العمياء الى الغيرة العمياء وهو حار الدم سريع الغضب . وهو نبيل بلا حدود شجاع بلا حدود مخلص بلا حدود . ونحن نعلم من مسرحية عطيل ان عطيل اعتنق المسيحية سواء عن اقتناع أو بسبب خدمته فى جيوش البندقية ونعلم أيضا انه كان مخلصا فى هذا الاعتناق . ولكننا نحس ان المسيحية التى اعتنقها عطيل كانت مجرد سلوك خارجى اجتماعى مساو لدماثة الأخلاق وللتصرفات الكريمة

ولكنه كان دائما يرتد الى عقيدته الأولى كلما مر فى

أزمة نفسية أو هاجت روحه من أعماقها كما يقول الاستاذ تشارلتون فيتفوه بألفاظ ويعبر عن مشاعر لا علاقة لها بالمسيحية التى نعرفها ، ويعود بنا الى جو وثنى شبيه بالجو الذى يرتد اليه الملك لير رغم أن قصة الملك لير على الاقل فى روايتها القديمة المعروفة تنتمى الى فترة كانت فيها انجلترا الانجلوسكسونية قد تحولت الى المسيحية ، واذا كانت قصة «الملك لير» تعود بنا الى وثنية الآلهة النوردية ووثنية عبادة الطبيعة ، فان الوثنية التى يرتد اليها عطيل وثنية من نوع آخر، وثنية غامضة اختلطت فيها الصوفية بالسحر بعبادة النجوم بالايمان بأن مصائر البشر وكل ما فى الحياة تحكمه أفلاك السماء وأبراجها ، وما حكاية المنديل الذى نسجته أم عطيل وطرزته بالنقوش السحرية وأهدته الى أبى عطيل حتى لا يتحول عنها حبه مدى الحياة الا نموذج من نماذج هذا الايمان «بالعمل» أو بالسحر ، وما مناجيات عطيل للنجوم الطاهرة وللسماء المرمرية الا شواهد على هذه الوثنية المغربية وليس بمستبعد أن شكسبير كان يعرف أن المغاربة كانوا مسلمين حتى قبل ضمهم الى الامبراطورية العثمانية بقرون ، أى منذ الفتح العربى

البعيد ، ولكن شكسبير جعل عطيل يرتد الى وثنية الأجداد لا الى اسلام الآباء . الى أنواع من العقائد لا نجد لها مثيلا الا فى وصف القديس أوغسطين وآباء الكنيسة عامة لديانة شمال افريقيا قبل ٤٠٠ ميلادية ، بل ووصف اليونان والرومان لمعتقدات شمال افريقيا وجوهرها يتصل بأثر النجوم على حياة البشر . فعطيل فى هياجه يقسم على الانتقام قائلا : « والآن بحق هاتيك السماء المرمرية ههنا أعطى العهد لكلماتى بكل ما يجب من خشوع لليمين المقدس » وحتى ياجو البناءفى يرتد مثل عطيل الى وثنية « البربر » قبل أن يعرفوا توحيد المسيحية أو توحيد الاسلام فيقول : « آلا فاشهدى أيتها الأنوار المشتعلة أبدا فى كبد السماء » أما القانون الأخلاقى الذى راض عطيل نفسه عليه فهو بسيط ليس فيه من عقد المدنية شىء ، بسيط ببساطة الفطرة النبيلة وقوام هذا القانون ان الحياة تيار دفاق من العواطف وليس عمليات عقلية تنظم الحياة ، قانون فيه الحياة مساوية للشعور كذلك المثل الأعلى الأخلاقى الذى أقام عطيل عليه حياته لا علاقة له بالأخلاق المسيحية وهو أقرب الى الفكرة الرواقية القائمة على الوفاء المطلق وعلى

احتمال الشدائد ومواجهة الخطوب بجبهة عالية نبيلة

والواقع ان ردة عطيل كلما تجلى على حقيقته الى هذه العقائد الوثنية ذات أهمية بالغة ليس فى مجرى الدراما فحسب ولكن فى فهمنا لمصدر قصة عطيل نفسها ليس بالضرورة كما عرفها شكسبير من مراجعه المجهولة ولكن كما هى فى اطارها الأسطورى الأصيل . وان كان يجوز لى أن أتقدم برأى فى مصدر هذا الاطار الأصيل فانى أرى أن قصة عطيل أو أوتيللو ليست الا احدى الصيغ الفولكلورية لأسطورة أطلس الموروثة عن الميثولوجيا اليونانية تلك الأسطورة التى تقول ان التيتان أو المارد العظيم أطلس تمرد على الآلهة فحكمت عليه الآلهة أن يرفع بيديه قبة السماء الى أبد الآبدين ، شأن جبل أطلس الشامخ فى شمال افريقيا الذى يحمل على منكبيه الى اليوم قبة السماء . وكما تحولت فى المرجل الكبير الذى انصهرت فيه الميثولوجيا الوثنية الى فولكلور التوحيد فى قرون التوحيد الأولى، كما تحولت فى هذا المرجل الكبير مأساة أوريست الى مأساة تلك الشخصية المزدوجة شخصية هاملت ــ هوراشيو ــ كذلك تحولت مأساة أطلس الى مأساة عطيل

الفصل السابع

عدو البشر

- قصة عدو البشر بين شكسبير وموليير وإبسن.
- "تيمون" الأثيني بين حضارة الذهب وجحيم الفطرة.
- سفالة تيمون الأثيني وسفالة الخديو إسماعيل.

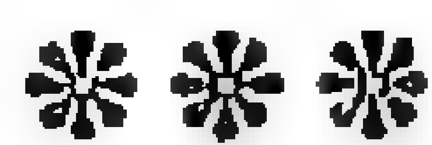


عدو البشر

٢٣ ابريل ١٩٦٤ ..

كانت هذه خاتمة المطاف فى رحلتى الى شكسبير : الرحلة الى مدينــة تشيشستر بجنوب انجلترا حيث انشىء منذ سنوات قليلة مسرح شكسبير .. كان يشرف عليه السير لورانس اوليفييه أيضا وقد استضاف هذا المسرح منذ السابع من ابريل فرقة كندية تعرف باسم فرقــة ستراتفورد اونتــاريو لتقــدم أمام الجمهور الانجليزى مسرحيتين لشكسبير هما : تراجيديا «تيمون الاثينى» وكوميديا « خاب سعى العشاق » وكلاهما من أعمال شكسبير الثانوية . وتكررت التجربة الرائعة التى مررت بهـا فى ســتراتفورد ، فــدخلت مسرح تشيشستر فى الثانية بعد الظهر ولم أخرج منه الا نحو الحادية عشرة مساء . تســع ســاعات متوالية داخــل

المسرح لا يتخللها الا ساعتان للاستراحة فى كافيتيريا المسرح .. وبعد ذلك العودة الى لندن فى نفس الليلة

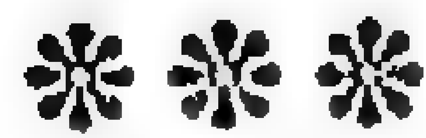


وخرجت من تجربة تشيشستر بدرسين هامين . نحن عادة نقرأ « تيمون الاثينى » و « خاب سعى العشاق » ولا نفكر بتاتا فى رؤيتهما على المسرح لرداءتهما أو على الأصح لعدم جودتهما ، فما هناك ممول أو مخرج يتصدى عادة لمثل هذه الأعمال الثانوية لشكسبير أو سواه خشية الخسارة الفادحة . ولكن الفرقة الكندية أثبتت ان أعمال شكسبير الثانوية ذاتها لو قدمت باتقان لا تترك فى المسرح مكانا لقدم ! لا فى حفلة واحدة ولكن فى كل الحفلات ، كان المشاهدون يفدون الى تشيشستر بالقطار وبالسيارة من سائر أرجاء انجلترا . أما الدرس الثانى الذى تعلمته من تجربة تشيشستر فهى ان فى كندا فرقة شكسبيرية رائعة هى فرقة ستراتفورد أو نتاريو ومخرج عظيم هو مايكل لانجهام الذى استطاع أن يتحايل على هذه النصوص المخلخلة أحيانا والمملة أحيانا والرديئة أحيانا والمتلألئة أحيانا والعميقة أحيانا فيجعل منها

نصوصا حية تشد المشاهدين شدا . وتمنيت أن أرى لانجهام وفرقته فى مصر ..

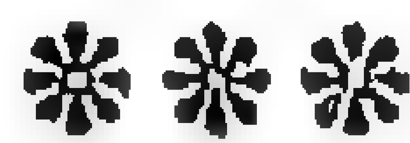
وكان أول ما فعله مايكل لانجهام انه قدم « تيمون الاثينى » فى الملابس المصرية ، فنقلها من جوها اليونانى الرومانى الى جو منطقة الشرق الأوسط ، وجدد كل تفاصيل الحياة فيها بحيث تتمشى مع عادات الحياة فى يومنا هذا : الأبطال يلبسون البدل والفساتين ولا يلبسون التوجا أو التونيكا كما فى العالم القديم . رجال الدين يظهرون فى زى الأسقف مكاريوس ولا يظهرون فى زى الفلامنوس الرومانى . على الرؤوس طرابيش وقبعات وكاسكيتات وعلى السيقان تزالك وحول الخصور أحزمة تتدلى منها المسدسات.. لاسيوف على المسرح وانما بنادق ومتراليوزات وقنابل مسيلة للدموع . والنساء كذلك خرجن لتوهن من عند الكوافير فى ملابس السهرة . وموسيقى الرقص من موسيقى الجاز والساكسوفون يعوى فى أرجاء المكان بعبقرية ديوك اليجتون . ماذا تريد بعد هذا الا أن تسمع شعر شكسبير البالى فتخال انه يتحدث اليك بلغة اليوم ، وكأن انجليزية عصر اليزابيث لهجة من

لهجات الانجليزية الحديثة . وسمى المخرج تجربته هذه « ما بعد السويس » أى ما بعد حرب السويس التى أممت فيها القنال وسقط فيها ايدن ووقفت فيها انجلترا وحدها دون صديق وقد تخلى عنها العالم كله مثل تيمون الاثينى ..



وهنا بيت القصيد . قلت بعد أن شاهدت « تيمون الاثينى » على مسرح تشيشستر : هـذا عرض رائع ، ولكنه عرض استعمارى . وهـذه لعبـة الفن الرفيع الخبيث . لماذا بعد السويس ؟.. ان قصة تيمون الاثينى باختصار قصة رجل طيب أسرف فى الثقة بالناس وأسرف فى الاحسان اليهم والجود عليهم حتى أفلس فتخلى عنه كل أصدقائه فثار واعتزل العالم وآثر على صحبة البشر العزلة فى الفلاة وصحبة وحوش الغاب . والمخرج يريد أن يقول : هذه كانت حال انجلترا فى محنة السويس ، أو هذا ما حسبته يريد أن يقول . ولا أعرف ان كان المشاهدون قد فطنوا الى مرماه أم حسبوا التجربة مجرد تجديد فى أزياء المسرح ونسوا مرماه وسط الصخب الشكسبيرى

قلت : نعم .. هذا فن استعمارى ولكنه رائع حقا . وخطر لى خاطر : ان هــذا الفن رائع لأنه متنع فى جوهره . ان المخرج أخطأ فى القياس . ان تيمون الاثينى ليس انجلترا ورئيس وزرائها دزرائيــلى ولكنه مصر الخديو اسماعيل . لقــد أفلست مصر فى شق قنــاة السويس لتطعم العالم وتغذيه بشريان الحياة ، فماذا كانت النتيجة ؟.. تنكر لها دليسبس وفرنسا ووقفت بقية الدول تتفرج عليها وهى تحتل عام ١٨٨٢ ويحجز عليها الدائنون . وبقية القصة فى عزل الخديو وموته وحيدا بعيــدا عن الأضــواء ، هكذا ينبغى اخراج « تيمون الاثينى » بلغة السياسة الدولية . هكذا تبقى للاخراج روعته واقناعه ، وهكذا يبقى لشكسبير مغزاه الخالد فى كل زمان ومكان



منذ تناول شكسبير موضوع عدو البشر فى «تيمون الاثينى » نجد هذا الموضوع يتكرر فى الآداب العالمية بصور مختلفة كليا أو جزئيا فى عدة مؤلفات مسرحيــة بلغت قمتها فى « عدو البشر » (الميزانتروب) لموليير العظيم (١٦٦٦) و « عدو الشعب » لابسن العظيم

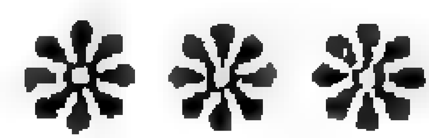
(١٨٨٢) وفيما بينهما « ڤيلانت موليير » لفابرديجلانتين الفرنسي و « مدرسة الفضائح » لشريدان الانجليزى و«عدو البشر» لشيلرالعظيم . ولاشك انمأساة «تيمون الاثينى » الشـــكســـبيرية لا يمكن أن تقاس بتـــاتا بكوميديا « عدو البشر » لموليير أو بمأســاة « عدو الشعب » لابسن من ناحية العمق أو الاتقان الفنى ، فهى مسرحيــة متوســطة القيمة بمقاييس الفن العظيم وربما كانت دون المتوسط بقليل

أما فى موليير فان السيست المثالى المؤمن بالفضيلة يكره البشر ويعتزلهم فى مكان قفر لأن محبوبته الشابة اللعوب الطائشـــة تشجع كل مغازل وتفتح للعشـــاق صدرها ، ويصدم السيست المثالى بزيف الناس فيفر من صحبتهم ويعتكف وحده فى مكان مهجور وقد صور موليير السيست فى صـــورة فكهة تجعلنا نسخر منه وتتهكم عليه ولكن دون أن نحتقره ، فهو مرسوم بشىء من العطف على مثاليته الساذجة واستسلامه بلتوهم انه يستطيع اصلاح نفوس الناس ، وقد وجد بعض النقاد ان موليير قد صور نفسه فى شخصية السيست ، لأنه كان مثله مدلها بحب زوجة شابة لعوب طائشة عابثة

تشجع كل مغازل وتفتح للعشاق صدرها . وقد اعتكف موليير نفسه بعيدا عن الناس ودفن نفسه فى عمله فرارا من حياة المجتمع الزائفة .. أما فى ابسن فان الدكتور ستوكمان المثالى المؤمن باصلاح المجتمع وبضرورة وقاية قريته وزائريها من الأوبئة التى ستأتى بها المياه الملوثة ، يفاجأ بأن كل من كان يعتقد فيهم الايمان بالخدمة العامة من رؤساء البلد الى رجال الصحافة قوم فاسدو الضمير لايفكرون الا فى منفعتهم الشخصية ولا يجدون بأسا من تعريض صحة الناس للخطر اذا كان فى استئصال مصدر الوباء انتقاص من دخلهم ، بل ويدافعون عن مالهم الحرام بضراوة لا تعرف الحدود فيصورونه أمام أهل البلدة بأنه عدوهم الأول الذى يريد أن يسىء الى سمعة بلدتهم أمام من يؤمونها من المستشفين بادعائه انه اكتشف ان مياه البلدة ملوثة تهدد بالوباء ، ويصدق الغوغاء البلهاء هذا التشهير فى خادمهم المخلص ويعلنون فى مجلس المدينة ان الدكتور ستوكمان «عدو الشعب» فيخرج ستوكمان من البلدة ناقما على كل من فيها كأنه مسيح غير غفور يحمل صليبه على طريق العذاب ويأوى الى كوخ معزول وقد

تجمع من حوله اثنى عشر صبيا من متشردى المدينة كأنهم حواريوه لبناء الحياة الجديدة

هذه قصة عدو البشر ، الرجل المثالى الذى يبدأ حياته بقلب عامر بالحب مؤمنا بالانسانية وبالفضائل والقيم العليا ، واهبا نفسه وكل ما يملك من أجل اخوته من الناس ، وحين يصدم فى أحلامه بعد أن يرى الناس على حقيقتهم ينقلب الى ساخط على البشر زاهد فى صحبتهم ، وبقانون الاضداد ينقلب فيه الحب العظيم الذى لا يعرف الحدود الى كره عظيم لا يعرف الحدود. وقد وجد موليير فيها مادة للكوميديا ووجد فيها ابسن مادة للتراجيديا ولكن مهما اختلفت التفاصيل ، فالجوهر واحد فى جميع الأحوال وهو تحول من يفجع فى مثالياته فى اصلاح الانسانية وخدمتها من النقيض الى النقيض



أما فى شكسبير فان مثالية « تيمون الاثينى » لم تتخذ صورة الحب ولا صورة الايمان بالاصلاح بل اتخذت صورة أبسط وأقرب الى فطرة الانسان وهى الكرم الحاتمى الذى يجعل الانسان يجود بالمال والنفس لاسعاد الغير أو لانقاذهم من المحن . فتيمون

كما صوره شكسبير كان نبيلا من نبــلاء اثينا واسع الثراء وكان يحب أصحابه ويسخو معهم سخاء بلا حدود يأدب لهم المآدب الفاخرة ويهديهم بأنفس الهدايا وكلما نزلت بأحدهم ضائقة مالية خف لنجدته وأنقــذه اما بأمواله واما بضمانه عند دائنه ، وكان لا يعرف للملكية معنى فكل ما يملكه كان ملكا مشاعا لكل قاصد وراغب فهو لايرد لأحد سؤالا ولا يقبض عن أحد شيئا.. فكان من الطبيعى أن يحيط به المنافقون الذين لا هم لهم الا استنزاف أمواله تحت ستار الصــداقة الزائفة . فلما نضبت أمواله وتراكمت عليه الديون لجأ الى من أغدق عليهم العطايا فقلبوا له ظهر المجن ، ولجأ الى من أنجدهم بماله فأعرضوا عنه . فثارت ثائرته ونقم على الجنس البشرى بأكمله وآثر أن يهجر المدينة بأكملها وأن يختار له مستقرا وسط الطبيعة الوحشية يأكل وينام كما يأكل وينام أهل الفطرة ولم يتبعه فى كل ذلك الا تابعه الوفى ومدير شئونه فلافيوس الذى أراد أن يلازمه على كره منه وكأنه كلبه الوفى ..

وفى أثناء اقامته فى هذا المكان الموحش عثر تيمون على كنز عظيم خبيىء تحت الأرض وكان يستطيع بهذا

الكنز أن يسدد كل ديونه وأن يسترد مكانته بين نبلاء اثينا بل وأن يصبح فيها أثرى ثرى وأن ينتقم لو أحب ممن خذلوه وخانوا حبه الذى كان يعطبه بغير حساب . ولكنه أبى أن يفعل ذلك بل آثر أن يقيم فى ذلك المكان الموحش . وأن يركل الذهب بقدمه بل وأن يوزعه على عبيد الذهب من أصدقاء الماضى المنافقين فهكذا أصبح تيمون يرى الأمر : ان الذهب يلوث روح الانسان ويخرجه عن انسانيته فهو أعظم لعنة يمكن أن تنزل ببنى البشر . وبناء عليه فان أعظم انتقام يستطيع تيمون أن ينزله بأعدائه هو أن يهبهم الذهب فيتحولوا الى وحوش كاسرة ويأكل بعضهم البعض الآخر . وهكذا عاش تيمون فى هذا الهياج الفريد لا تعرف ان كان عاقلا أم مجنونا حتى أدركته الوفاة فمات فى عزلته كالحيوان الجريح ..

ان موضوع تيمون الاثينى يمكن أن نخرج منه أحد شيئين : اما قصة رجل متلاف سفيه فقد القدرة على التمييز بين الكرم والتبديد وبين سخاء القلب والعته . وهو فى هذه الحالة يمكن أن يستدر عطفنا مهما أصابه من محن ، وبالتالى لا يمكن أن يصلح

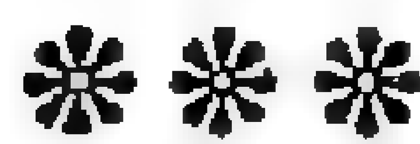
موضـوعا للتراجيـديا . أما وقد اتخذ شكسبير منه موضوعا لمأساة فهو اذن وعلى وجه التحقيق لا يقصد أن يتناول قصة تيمون من هـذه الزاوية التى تصلح للسخرية والتهكم ولا تصلح للأسى والألم . أما الشيء الآخر الذى يمكن أن يخرج من موضوع تيمون الاثينى فهو قصـة رجل خبر خسة طبـاع الانسان المدنى ، الانسان الذى أفسدته المدنيـة والحياة الاجتمـاعية المعقدة فسودت قلبه وألهمته النفاق والنفعية والأنانية بأسوأ ما فى هذه الكلمة من معنى ، وهو عبادة الانا ، فجعلته أضرى من وحوش الغاب ، وأمكر من الثعلب وأنتن من الظربان وأكثر تقلبا من الحرباء ، وهذا معنى استئناس تيمون الاثينى الى وحوش الغاب بعـد أن سقطت عن عينيه الغشاوة فرأى زيف أصحابه من وجهاء المدينة وآثر أن يموت وحده كالكلب الجريح على أن يعود الى المجتمع المدنى الزائف . بهذا المعنى وحـده يمكن أن ننظر الى قضية تيمون الاثينى نظرة العطف وأن نرثى لبلواه وأن نغفر له شططه وحمقه سواء فى سذاجة تفاؤله الأول أو فى قتامة تشاؤمه الأخير وهذا

هو المعنى الذى قصد اليه شكسبير بمأساة « تيمون الاثينى » ..

ان « تيمون الاثينى » ليست مأساة هياج رجل عظيم الفؤاد يفجع فى آماله وتسلب حقوقه فيعلنها حربا عوانا على من خانوه أو تخلوا عنه ، والا لكانت مجرد تكرار لمأساة « كريولانوس » بطل كريولى الرومانى الذى سحق أعداء مدينته ودرأ عنهـا الخطر ثم خرج من تضحياته صفر اليدين فآلى على نفسه أن يثأر لنفسه من وطنه الجاحد . ان « تيمون الاثينى » صرخة احتجاج على فساد المجتمع المدنى ولا أقول دعوة الى حيـاة الفطرة والعودة الى الطبيعة ، ولكن دراسة لجذور هذا الفساد تنتهى بخلاصة واضحة وهى ان الذهب أو ما نسميه اليوم « الملكية الخاصة » هو أس فساد المجتمع المدنى ، فهى التى تحيل الرجال الى منافقين والنساء الى بغايا وتلهم الجميع النذالة والغدر والجحود فتجعلهم يعضون اليد التى أحسنت اليهم ويتجهون كالمغطسين حيثما لمع أمامهم بريق الذهب فيتحاسدون ويتقاتلون وقد تجردوا من كرامة الانسان وشرفه . باختصـار : الذهب يجرد الانسـان من كل قيم الأخـلاق . وفى

الحالات القصوى ، مثل حالة تيمون الأثيني ، أولى بالرجل الفاضل أن يعايش وحوش الفلاة من أن يعايش البشر فى مجتمع بعبد اله المال . ومأساة تيمون الاثينى نابعة من اسرافه فى الطيبة والسذاجة والثقه الطفوليه فى الناس وعجزه عن ادراك هذا القانون الأولى الذى يحكم الحياة المدنية ، وهذه السذاجة نوع من الحماقة لا تقل حمقا عن حماقة الملك لير الذى وثق ثقة عمياء فى أقرب المقربين اليه ، وهم بناته المنافقات وأزواجهن الغادرون ونزل لهن فى شيخوخته عن عرشه ومملكته فوجد نفسه فى النهاية مجردا من كل شىء ، حتى السقف الذى يظل رأسه واللقمة التى يتبلغ بها حرم منهما فى وحشية دونها وحشية الحيوان الضارى ولم يتبعه فى محنته الا بنته المسكينة كورديليا التى أبت أن تثقف لسانها بلغة النفاق فسارت معه الى الفاجعة الأخيرة كملاك نورانى تكاثرت عليه الشياطين ولم تتركه الا جثة هامدة . هذا هو عنصر الخير الصريح الذى يطل علينا دائما فى أعمال شكسبير ، وسط عواصف الشر الهائجة ، فيذكرنا دائما أن البشر مهما كانت طينتهم من صلصال مظلم ثقيل فان الخير كائن فيها كالشرارة

الأولى التى أودعها الله فى طينة الانسان : هى شرارة صغيرة وهى مع ذلك تتقد فى اصرار فلا تستطيع أن تحجبها أكثف الكلمات



لا أحد يعرف متى كتب شكسبير مسرحية « تيمون الاثينى » ولكن معروف انهـا طبـعت لأول مرة مع المجموعة الكاملة لأعمال شكسـبير فى طبعـة الفوليو الصادرة عام ١٦٢٣ . ويرجح البـاحثون اعتمادا على أسلوبها وخصائصها العروضية ومختلف الأدلة الداخلية فى متن المسرحية انها أنشئت فيما بين ١٦٠٦ و ١٦١٠ . ويضعها تشيمبرز بين مؤلفات الموسم المسرحى ١٦٠٧ ـ ١٦٠٨ دون قطع أو تأكيد وعنـده انها من فترة « كريولانوس » و « بريكليس » ويظن سابكس انه ربما كانت هناك اشارة اليها فى مسرحيـة لجون داى اسمها « الفكاهة تلهث » (١٦٠٧ ـ ١٦٠٨) حيث تتحدث عن جنون الوجيه الذى أعطى كل ما يملك لأتباعه ثم شحذ من الغير لنفسه

وقد ظهرت « تيمون الاثينى » فى فوليو ١٦٢٣ فى حالة سيئة مشوهة بين التراجيديات ، مما أثار حولها

جدلا عنيفا بين العلماء وتعددت بشأنها نظريات الباحثين. فمن قائل انها ليست من عمل شكسبير جملة ، ومن قائل انها كانت مجرد خامة أو مسودة أولى من مسرحية لشكسبير تركها فى حالتها الخام ثم تناولها بالصياغة أو التنقيح كاتب مسرحى آخر أقل منه موهبة : قيل هايوود وقيل تيرنر وقيل ويلكز وقيل تشابمان وقيل فيلد وقيل ميدلتون . ومن قائل ان « تيمون الاثينى » كانت أصلا مسرحية لكاتب معاصر لشكسبير ثم أجرى عليها شكسبير الرتوش اللازم ، وأصحاب هذا الرأى ينسبونها أحيانا لويلكنز وأحيانا لتشابمان وأحيانا لجون داى وأحيانا لميدلتون . أما رأى تشيمبرز ، عميد علماء شكسبير ، فهى انها من عمل شكسبير فعلا ولكنها مجرد مسودة ناقصة ، أو مشروع مسرحية وان شكسبير لم يصغ منها صياغة جيدة الا بدايتها ونهايتها . أما قلبها فقد تركه بغير صياغة . وليس هناك ما يدل على انها طبعت أو مثلت أثناء حياة شكسبير . أما أهم مشكلات النص التى واجهها العلماء فبلبلت آراءهم على هذا النحو فهى ان « تيمون الاثينى » مسرحية اختلط فيها الشعر الممتاز بالشعر الردىء والمواقف المسرحية الممتازة

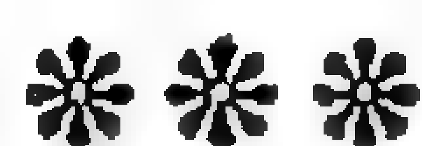
بالمواقف المسرحية السخيفة أو البـاردة . وانها مليئة بالأبيات المكسورة ومليئة بالنثر الذى يمكن وزنه ، كما انها مليئة بالمتناقضات . باختصار ان عدم الانسجام يسود « تيمون الاثينى » . هذه خلاصة آراء الباحثين حول هذه المسرحية

أما مصادر « تيمون الاثينى » فمعروفة . فقصـة تيمون واردة بايجاز فى « سير » بلوتارك الشهيرة التى استمد منها شكسبير كثيرا من خامات مسرحياته الرومانية (انظر سيرة مارك انطونيوس وسيرة السيباديس) . وقد روى الشـاعر بينتر فى « قصر الملذات » ١٥٦٦ قصـة تيمون الاثينى عن سير بلوتارك . كذلك نجد قصة تيمون الاثينى معالجة بالتفصيـل فى محاورة من محاورات الكاتب اليونانى الرومانى الساخر لوسيان ، وهى محاورة « عدو البشر » (الميزانتروب) ، وقدكانت هذه المحاورة ذاتها هى الأساس الذى بنيت عليه مسرحية مجهولة المؤلف من عصر شكسبير اسمها « تيمون » لم تطبع الا بعد القرن التاسع عشر ، ويظن دايتون ان شكسبير استفاد من محاورة لوسيان ونقل عنه بعض عباراته حرفيا رغم ان نص لوسـيان اليونانى لم يكن

مترجما الى الانجليزية فى عصر اليزابيث . وربما قرأه شكسبير اما فى أصله اليونانى أو فى ترجماته الايطالية أو فى ترجمة فيلبير برتيان الفرنسية (١٥٨٢) وعلى كل فقد كانت هناك عدة معالجات مسرحية لقصـة تيمون الاثينى ، فقد تناولها فى الأدب الايطـالى فى القرن الخامس عشر ماتيو نوياردو كما تناولها جاليوتو ديل كاديتو ، كل فى مسرحية باسم « تيمونى » أما فى الأدب الانجليزى المعاصرلشكسبير فنجد ان الكاتبين الكبيرين بومونت وفليتشر قد استمدا موضوع تيمون الاثينى من محاورة لوسيان المعروفة فى مسرحيتهما « انتصـار الزمن » (فى « أربع روايات فى رواية ») ، وان كان الباحثون عادة يؤرخون هذه المسرحية بتاريخ لاحق على تاريخ « تيمون » الشكسبيرية

ولعل أهم رأى فى موضوع تاريخ مسرحية «تيمون الاثينى » هو رأى فربلانك الذى ذهب فى ١٨٤٢ الى أن شكسبير فى الفترة الأخيرة فى حياته قد انتابه شعور عميق بكره البشر واحساس بالمرارة الشديدة فوجـد فى موضوع تيمون الاثينى تعبـيرا صـادقا عن هجاء الطبيعة الانسانية جملة بدلا من اضاعة وقته على هجاء

نماذج معينة من الناس أو أشخاص بعينهم كما يفعل صغار الكتاب ؛ فكتب هذه المسرحية على عجل تاركا فيها بعض الفجوات ثم طوى أوراقه وأهملها لظرف ما أو لسبب ما ، فلما احتاج اليها زملاؤه فى المسرح مثل الممثلين همنج وكونديل لتمثيلها بعد وفاته فى ١٦١٦ أعطوها لكاتب مسرحية مثل هايوود ليكمل فجواتها ويجعلها صالحة للعرض على المسرح، ومن هنا الاختلاف البين فى الأساليب الواضح فى هذه المسرحية والاختلاف البين فى الموهبة أيضا . ولكن فربلانك يؤكد أن المسرحية فى صلبها من عمل شكسبير . وهذا بوجه عام هو التفسير الذى نحا اليه فليبى وهوتسون ورولف وغيرهم ممن بحثوا مشكلة «تيمون الاثينى» مع بعض الاختلاف فى التفاصيل ..



وقصة « تيمون الاثينى » كما وردت فى سيرة مارك انطونيوس (سير بلوتارك) تشبه انطونيوس نفسه بتيمون الاثينى وتقول :

« ان انطونيوس هجر المدينة وازور عن صحبة أصدقائه وابتنى لنفسه بيتا فى البحر بجوار جزيرة

فاروس ، وأسس هذا البيت على ركام مصطنعة ألقيت في البحر بأمره ، وفي هذا البيت عاش عيشة رجل نفى نفسه من صحبة البشر أجمعين قائلا انه سيعيش حياة كحياة تيمون لأنه أوذى كما أوذى تيمون من قبل ، وانه غاضب على كل البشر فعاد لا يثق بانسان ما بسبب جحود أولئك الذين أحسن اليهم . وقد كان تيمون هذا مواطنا من اثينا عاش حول فترة حرب البلوبونيز كما يستفاد من أفلاطون ومن كوميديات ارسطوفانيس وقد تهكم عليه هذان الكاتبان وسمياه بالأفعى السامة وبعدو البشر ، لأنه جفا صحبة الناس جميعا ما خلا السبياديس وهو فتى مجترىء ووقح ، فكان يحتفى به ويدعوه الى مائدته ويعانقه في غبطة . وحين عجب ايمانتوس (الفيلسوف) من ذلك وسأله عن سر احتفائه بهذا الشاب وحده مع كرهه لسائر الناس أجابه تيمون بقوله : انني أفعل ذلك لأني أعلم انه سوف ينزل بالاثينيين المكاره العظيمة في يوم من الأيام . وكان تيمون هذا يرضى بصحبة ايمانتوس من وقت لآخر لأنه كان يشبهه كثيرا في طبعه وفي ظروفه ولأنه كان أيضا يحتذى به في أسلوب حياته . وذات مرة ، حين كانوا

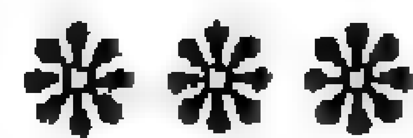
يحتفلون احتفالا مهيبا بالعيد المسمى بعيد خوا فى اثينا وهو عيد الموتى الذى يسكبون فيه النبيذ ويقدمون فيه القربان على أرواح الموتى ، احتفل الرجلان بهذا العيد وحدهما . وقال ايمانتوس لصاحبه : هذه مأدبة عظيمة يا تيمون . فأجابه تيمون قائلا : أجل ، وكانت تكون أعظم لو لم تكن حاضرا . كذلك روى عن تيمون هذا انه وقف ذات مرة ، والناس مجتمعون فى السوق لحسم بعض الشئون واعتلى منبر الخطابة الذى اعتاد الخطباء أن يخطبوا منه فى النـــاس . ولمـــا عم الصمت وأنصت كل امرىء ليسمع ماسيقوله ، فقد عجب الناس لرؤيته فى ذلك المكان فبدأ خطابه أخيرا بقوله : أى سادتى رجال اثينا ، ان فى دارى فناء صغيرا نبتت فيه شجرة تين ، وقد شنق كثير من المواطنين أنفسهم على هذه الشجرة . ولما كنت قد أزمعت أن أقيم مكانها بناء رأيت من الخير افهامكم جميعـــا انه قبـــل أن تقطـــع الشجرة ، من كان منكم يائسا من حياته فهو يستطيع أن يشنق نفسه عليها قبـــل فوات الأوان . وقد مات تيمون فى مدينة هال ، ودفن على شاطىء البحر ، ولكن حدث أن البحر فاض وأحاط بقبره من جميع الجهات

حتى لا يستطيع أحد أن يقترب منه . وقد خط على شاهد القبر : ها هنا ترقد جثة شقية سلبت منها روحها الشقية فلا تسألوا عن اسمى ، وليفتك الطاعون بكل من عاش بعدى . وقد روى ان تيمون نفسه هو الذى نظم هذه الأبيات أما الأبيات الشائعة فى هذا المعنى فهى من نظم الشاعر كاليماخوس وهو يقول :

ها هنا أرقد ، أنا تيمون الذى كنت أثناء حياتى أمقت كل الأحياء . مر على قبرى والعن ما شئت أن تلعن ، ولكن اياك أن تتوقف الى جوارى ..

وهناك جملة أشياء أخرى يمكن أن نرويها عليك عن تيمون هذا ، ولكن يكفينا الآن هذا القدر من الكلام..»

هذه قصة عدو البشر كما وردت فى بلوتارك ، ولكن كثيرا من تفاصيلها كما وردت فى شكسبير نقلها شكسبير عن محاورة الكاتب اليونانى الساخر لوسيان حول هذا الموضوع ..



أما فى « خاب سعى العشاق » فنحن فى بلاط فرديناند ، ملك نافار حيث نرى الملك ونبلاءه الثلاثة بيرون ولونجافيل ودومان يعاهدون ملوكهم على أن

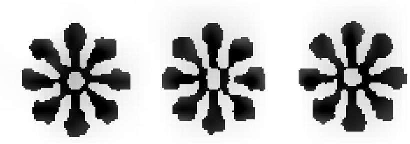
يصاحبونه فى حياة النساك التى قررها لنفسه ويوقعون على عهد أن يعتزلوا العالم ثلاث سنوات لايرون فيها وجه امرأة وأن يكتفوا بوجبة واحـــدة فى اليوم وأن يصوموا يوما كاملا من كل أسبوع ولا يناموا أكثر من ثلاث ســاعات من كل يوم . تعاهـــدوا على أن يتخلوا عن كل ملذات الحياة لينقطعوا للــدرس مع ملكهم . ولكننا نرى ان هؤلاء النبلاء ، غير مقتنعين بما تعاهدوا عليه ، فهم يسخرون من الزهد فى الدنيا ويؤثرون الدرس فى كتاب الحياة على الدرس فى الكتب الأكاديمية ، وهم يوقعون العهد كارهين ويعرفون أنهم سيحنثون باليمين قبل أن يلتزموا به ، ولا سيما وانهم يعرفون ان أميرة فرنســا الجميــلة وافدة على بلاط الملك فى سفارة — مع وصيفاتها الجميلات لتفاوضه فى تسليم مقــاطعة اكويتين . ويقرر الملك ونبــلاؤه استدعاء فارس اسبــانى اســمه ادريانو دى ارمادو ليتسلوا بحديثه عمــا هم فيه من حرمان ، فهو رجل متعجرف تائه فى السحاب غارق فى الأوهام يختــال بنفسه عجبا ويحب البــلاغة وطنطنة الحديث . وهنا يدخل عليهم الضابط دل (غبى) ومعه الفلاح المهرج

كستارد « تفاحة » ويقرأ عليهم خطابا من الفـــارس ارمادو يقول فيه : ان الفســـاد قد استشرى فى نافار ويتحدث عن ضبط كستارد متلبسا بالغرام مع الفلاحة جاكنيتا فى حديقة الملك ، وهو ينتظر أمر مولاه الملك فيمن كسر قانون العفة الذى فرضه الملك على ولايته فيحكم الملك على كستارد بالعيش الجاف لمدة أسبوع تحت حراسة دون ادريانو دى ارمادو . فلما انتقل الى حيث ارمادو نكتشف انه عاشـــق ولهان مدله بحب جاكنيتا رغم انه فارس وأنها فلاحة ، ونراه يشبه نفسه بهرقل وشمشون وسليمان الحكيم الذين أرداهم سهم كيوبيد ..

ثم نرى أميرة فرنسا وقـــد جاءت مع وصـــيفاتها الجميلات روزالين وماريا وكاترين الى بلاط نافار تطلب لقاء الملك المعتكف الذى أقسم ألا تزعج سكون بلاطه امرأة حتى تنقضى ثلاث سنوات من الدرس المتصل . وكانت كل من الوصيفات تعشق واحدا من حاشية الملك ، فماريا تعشق لونجافيل وكاترين تعشق دومان وروزالين تعشق بيرون ، فقد سبق لهن أن التقين بهؤلاء الفتيان النبلاء فى حفلات الأشراف . وتذهب كل منهن تدبج

أجمل المديح فى محبوبها أمام الأميرة . وكانت الأميرة ووصيفاتها يعلمن بالعهد الذى قطعه ملك نافار على نفسه مع رجال حاشيته . وينشأ حرج شديد فالملك محرج بين قسمه ألا يرى امرأة مدة ثلاث سنوات وبين واجب الضيافة نحو الأميرة الجميلة ويجد مخرجا من هذا الحرج فى أن تعسكر الأميرة وحاشيتها خارج قصره ، وكأنها تحاصره . أما الأميرة فقد جاءت لتطلب فك رهن ولاية اكوينتين التى استولى عليها ملك نافار بحجة أن أباها ملك فرنسا لم يسدد ما عليه من دين قديم ، وهى تؤكد أن الدين قد استوفى وان وثائقها تثبت ذلك . وأخيرا نعرف أن ملك نافار قد وقع فى غرام أميرة فرنسا كما ان أصحابه الثلاثة وقعوا فى غرام وصيفاتها الثلاث . ثم تقع عدة مفاجآت لأن هؤلاء العشاق رغم تعاهدهم على النسك يكتبون رسائل الغرام خلسة كل الى محبوبته ، ولكن الرسائل لاتصل الى الفتيات بل تقع فى أيدى الملك وأصحابه ويفتضح عشق بيرون ولونجافيل ودومان وحبهم لماريا وروزالين وكاترين كما يفتضح عشق ملك نافار لأميرة فرنسا وحب ارمادو المضحك للفلاحة جاكنيتا . وينسى كل

نفسه وعهده فيسبح بجمال محبوبته ويباهى به .
وهكذا حنث كل فى يمينه من أجل الحب ومرضاة للجمال ، واعترف الملك وفتيانه للأميرة وصاحباتها بما يحملون لهن من غرام . ولكن الأميرة أثنت الملك على حنثه بعهده واشترطت عليه ألا يكون بينهما زواج حتى يقضى سنة كاملة فى عزلة النساك ، وأن يبر بقسمه حتى ينقضى عام حدادها على أبيها ملك فرنسا . وهكذا كان أمر الوصيفات الثلاث مع الفتيان الثلاثة . ويقبل الجميع هذا الشرط ويعيشون فى انتظار الزفاف الآجل، ومعهم ارمادو عاشق جاكنيتا



فى أيام شكسبير طبعت كوميديا « خاب سعى العشاق » عدة مرات فى طبعة الكوارتو . طبعت فى ١٥٩٨ ثم سجلت فى سجل المطبوعات فى يناير ١٦٠٧ ثم سجلت مرة أخرى فى سجل المطبوعات فى نوفمبر ١٦٠٧ باسم ناشر آخر ، وأخيرا جمعت فى الفوليو الأول عام ١٦٢٣ مع أعمال شكسبير الكاملة ضمن الكوميديات . فيرجح تشيمبرز أن « خاب سعى العشاق » من انشاء الموسم المسرحى ١٥٩٤ ــ ١٥٩٥،

وهى على وجه القطع سابقة على تاريخ صدورها الأول (١٥٩٨) لأن الطبعة الأولى هذه تقول ان النص المطبوع مطابق للنص الممثل أمام « سموها » يقصد الملكة اليزابيث ، وانه نص مزيد منقح بقلم وليم شكسبير ، مما يدل على أن النص الأصلى كان مختلفا عن النص المطبوع . أما دوفر ويلسون فيرى ان هذه الكوميديا من انشاء ١٥٩٣ وانها مثلت يومئذ فى قصر ايرل ساوثهامبتون ، ومن العلماء مثل جراى من يعود بها الى ١٥٩١، وقدكانت هناك فكرة تقليدية فى الدراسات الشكسبيرية ان « خاب سعى العشاق » هى احدى مسرحيات شكسبير الأولى من حيث تاريخ تأليفها ان لم تكن أسبقها جميعا . وأيا كان الأمر فاننا نعلم انها مثلت ثانية أو ثالثة عام ١٦٠٥ اما فى قصر ساوثهامبتون أو فى قصر كرانبورن . وأكثر الصعوبات فى تحديد تاريخ النص ناشئة من اشتمال المسرحية على اشارات تاريخية معاصرة مختلفة التواريخ ، ولكن لعل هذا ناشىء من كثرة التعديلات التى كانت تجرى على النصوص المسرحية بعد تأليفها ، قبل طبعها وبعد طبعها أحيانا. أما الذين يذهبون الى أن « خاب سعى العشاق » تنتهى

الى بواكير انتـاج شكسبير فأكثر أدلتهم قائمة على طبيعة بنائها وأسـلوبها ومجانستها من حيث البنـاء والأسلوب لتقاليد الكوميـديا اللفظيـة التى وضع أساسها جون ليلى صاحب « اوفويز » المشـهورة فى الثمانينات والتى كانت ذات أثر خطير فى تلوين الكوميديا الانجليزية حتى شكسبير بالألاعيب اللفظية ، وقد كان شكسبير نفسه بين من فتنوا فى شبابه الأول بمنهج ليلى فى الفكاهة اللفظية وقلده تقليـدا فى بعض أعمـاله الباكرة . فلما نضج تحرر من ربقته درجة درجة وسار على نهجه الخاص فى بناء كوميديا الطبائع أو كوميديا الشخصية الانسانية ..

أما عقدة « خاب سـعى العشـاق » فلا يعرف لها مصدر محدد ، ولكن هناك اشـارات وشخصيـات تاريخية بعضـها معروف وبعضـها ملتبس أو خاطىء تصادفنا فى هذه المسرحية . هناك مثلا خلافات تاريخية معروفة ترجع الى نحو عام ١٤٢٥ بين شارل ملك نافار وبين ملك فرنسا حول صفقة بينهما وفى هـذه ملامح من الحكاية الواردة فى شكسبير بأن فرديناند ملك نافار ابن شارل ، كان يملك جزءا من مقاطعة اكويتين بفرنسا

كضمان لدين قدره ٢٠٠٫٠٠٠ كراون . كذلك فى زيارة أميرة فرنسا لفرديناند بعض أصـــداء لزيارة مرجريت دى فالوا ، أميرة فرنسا وهى بنت كاترين دى مدسيس الشهيرة ــ لزوجها هنرى الرابع ملك نافار عام ١٥٧٨ بعد فراقهما وقيام مشاكل بصـــدد مهرها الذى كانت تدخل فيه بعض بلاد مقاطعـــة اكويتين . وقد وصفت مرجريت دى فالوا هذه الزيارة واحتفالاتها فى مذكراتها ، وكان فى معيتها رتل من وصيفاتها كما فى المسرحية تماما واستأنفت علاقة الزوجية لأجل مع زوجها هنرى الرابع. وفى مذكرات مرجريت دى فالوا سرد لقصة موت هيلين دى تورنون فى مدينة لييج ببلجيكا (برابانت كما كانت تسمى) ووصف لزيارة مرجريت دى فالوا لها فى تلك البلاد عام ١٥٧٨ ، وهذه حوادث يشير اليها شكسبير من خلال تصرفات أبطاله فى « خاب سعى العشاق » .

ولكن الغريب فى كل هذا ان « مذكرات » مرجريت دى فالوا كانت لا تزال مخطوطة لم تطبع بعد حين كتب شكسبير مسرحيته ولم تطبع الا عام ١٦٢٨ ، وكذلك كتب برانتوم وغيره عن حيـــاة هنرى الرابع وزوجته مرجريت لم تكن قد صدرت بعد ..

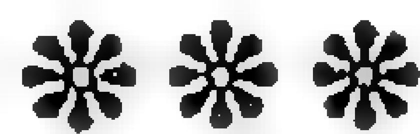
فكيف حصل شكسبير على هذه المعلومات التاريخية الخاصة ببلاط فرنسا وأمرائها وبتاريخها ؟.. هل سمعها من رحالة عصره ؟.. أم سمعها بشخصه فى رحلات قام بها فى أوربا ؟ أم انه كان يخالط رجال البلاط الانجليزى مخالطة حميمة ونقل عنهم هذه الألوان من الأحاديث التى تجرى عادة فى بلاط الملوك وقصور النبلاء ؟.. ثم ان شخصيـات المسرحيـة من الرجال وهم : بيرون ولونجافيل ودومين كانت أسماء معروفة لنبلاء فرنسيين لدى ساسة انجلترا على الأقل فى عصر شكسبير، فارمان دوق بيرون ، وشارل دوق بيرون ، وهنـرى دوق لونجافيل كانوا من أنصـار هنرى الرابع المعروفين فى انجلترا على الأقل بين المشتغلين بالسياسة بسبب مناصرتهم لهنرى الرابع ملك نافار فى حروبه للظفر بعرش فرنسا وتوحيدها تحت تاج واحد ، وهى حروب وقعت بين ١٥٨٩ و ١٥٩٣ . أما دوق مايين فـكان من أعـدائه المعروفين . وهذا يجعل من المرجح أن « خاب سعى العشاق » أنشئت بعد هذا التاريخ . أما السخرية من الروس وملابسهم وعاداتهم ، فيظن أنها مستوحاة من زيارة المبعوث الروسى لخطبة ايفان الرهيب امبراطور

المسكوف لليدى مرجريت هاستنجز عام ١٥٨٣ ، مع تبادل السفراء بين انجلترا وروسيا فى نفس العام كما أن كتاب جايلز فلتشر عن « عادات دولة الروس » صدر عام ١٥٩١ ..

وهناك شخصيات أخرى مثل النحوى المتحذلق هولوفرنيز الذى استعاره شكسبير من أعمال الكاتب الفرنسى الساخر رابليه وهكذا .. أما سبب شهرة هنرى الرابع ملك نافار ثم ملك فرنسا فى انجلترا ، فقد كانت راجعة الى انه كان ملكا بروتستانتيا وان انجلترا البروتستانتية حالفته بالجيوش لمناوأة الحلف الكاثوليكى ولمساعدته على ارتقاء عرش فرنسا . وقد كان فى قمة شعبيته فى انجلترا نحو عام ١٥٩١ . ولكن هنرى الرابع لم يلبث أن اعتنق الكثلكة بعد انتصاره ليتاح له حكم فرنسا وتوحيدها ، وانسحبت القوات الانجليزية التى كانت تؤيده من الأراضى الفرنسية عام ١٥٩٣ . كذلك هناك اشارات فى «خاب سعى العشاق» للطاعون الذى انتشر فى لندن بين ١٥٩١ و ١٥٩٤ وللفتن التى ثارت فى لندن بين ١٥٨٦ و ١٥٩٣ ضد الأجانب اللاجئين فى انجلترا ، وأكثرهم من الهوجونوت الفرنسيين

وبروتستانت أوربا الفارين الى انجلترا من الاضطهاد الكاثوليكى ، بسبب مزاحمتهم للانجليز فى أرزاقهم . كذلك هناك عدة اشارات تدل على أن فرديناند ملك نافار فى « خاب سعى العشاق » ليس الا هنرى ملك نافار ثم ملك فرنسا باسم هنرى الرابع فى أيام شكسبير. فالاشارة الى « أكاديمية » الملك فيها اشارة الى تولى هذا الملك (هنرى الرابع) رعاية الأكاديمى فرانسيز الوليدة يومئذ وقصة اعتكاف ملك نافار وانصرافه الى الدرس فى كوميديا شكسبير لها مايقابلها فى الواقع فنحن نعلم ان هنرى الرابع « نافار » اعتزل العالم للدرس والفلاحة أيضا وهناك خطاب اليه من زوجته مرجريت دى فالوا من عام ١٥٨٣ تقول فيه مرجريت لزوجها : « لو كنت رجلا شريفا لهجرت الزراعة وتخليت عن نزوة تيمون وعدت للعيش بين الناس» . وما تيمون هذا الا تيمون الاثينى الذى اعتزل العالم لأنه فقد ثقته فى البشر. كذلك هناك اشارات الى عادات هنرى الرابع الخاصة مثل جنوحه الى الطيش فى ركوب الخيل والى اعتياده أن يحبر كل صفحاته فى كل ما يكتب بحيث لا يترك هامشا . كذلك نجد ان أسماء مركاديه وبوابيه ودى

لاموت فى المسرحية هى أسماء أشخاص حقيقيين وجدت أسماؤهم فى سجلات هنرى الرابع .وقد حاول الأستاذ ليفران أن يثبت أن « خاب سعى العشاق » لابد وأن تكون من قلم كاتب كان يعرف هنرى الرابع وأحوال البلاط الفرنسى معرفة شخصية . ولكن ليس هناك ما يدعو لافتراض مؤلف آخر غير شكسبير فالمحتمل أن شكسبير جمع كل هـذه التفاصيل من أصدقائه من النبلاء الانجليز الذين كان يخالطهم ربما أكثر مما كان يخالط رجال القلم



فما هو مغزى « خاب سعى العشاق » ؟ ان المعنى الواضح من هـذه الكوميديا يدل على أن مقصد شكسبير الأول فيها هو ان الحب هو أعظم مدرسة فى الحياة فالمسرحية كلها تهكم بحياة الاعتكاف والرهبانية التى كان الناس يلجأون اليها فى العصور الوسطى للحكمة ، فالمسرحية بهذا المعنى جزء لا يتجزأ من دعوة الهومانزم أو الدعوة الانسانية التى اقترنت بحركة الرنيسانس الأوربية ولبها ان للحياة الانسانية قيمة فى ذاتها بغض النظر عن الحياة الأخرى وبغض

النظر عن كل اعتبار آخر ، وان القسم الذى يقسمه الرهبان النساك ثلاثا ، ومن يتشبه بهم : على العفة وعلى الطاعة وعلى الفقر هو خيانة للحياة ذاتها ولذا فالحنث بهذا القسم كما تقول المسرحية هو اب الدين وجوهره أما ختام المسرحية ، وهو يفسر عنوانها فقد خرج عن كل ما ألفناه فى تاريخ الكوميديا التى تنتهى دائما « بالجاموس » أو الزواج ، وبالحياة فى التبات والنبات وانجاب الصبيان والبنات . فأبطال هذه الكوميديا لايتزوجون فى النهاية ولكن ينتظرون الزواج بعد عام ، ثم يفاجأون بأغنية ختامية تذكرهم بما ينتظر جميع أزواج الأرض من قرون فى فصل الربيع ومن صقيع جنسى فى فصل الشتاء . أما من ناحية البناء الكوميدى فان « خاب سعى العشاق » عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من المبارزات الكلامية الساخرة بين كل مجموعة من أشخاصها التى تتجلى فيها الفكاهة من ذكاء الاجابة كما تتجلى النكتة . فكل شخصياتها حتى الفلاحة جاكنبتا يتفنون فن اللعب على اللفظ والتورية والتعريض والتلميح والاحراج والتهكم والعبارات الموجهة كالصواريخ أو الألعاب النارية ، كل ذلك فى

بيان مصقول متقن الصنعة كأنه من أحاديث الظرفاء فى مجتمع مترف يتقن فن الكلام ويعرف طرق ادارته . فمسرحية « خاب سعى العشاق » تبدو وكأنها كوميديا وضعت خصيصا لتمثل فى بلاط الملكة أو فى قصر نبيل من أولئك النبلاء الذين كانت تزورهم اليزابيث دوريا وتشرفهم باقامتها فى زياراتها المشهورة ، وغلبة هـذا الجانب اللفظى فى الفكاهة والاعتماد أولا وقبل كل شيء على ذكاء الحديث من دون الاعتماد على كوميديا المواقف أو كوميديا الطبائع هو ما يربط «خاب سعى العشاق» بمنهج الفكاهة الكوميدية الذى وضع جون ليلى أساسه فى الأدب الانجليزى ابان الثمانينات ، وهو ما جعل بعض العلماء يحددون تاريخ انشائها ببواكير التسعينات معتقدين انها التقليد الطبيعى الذى يقوم به كاتب شاب فى أولى مسرحياته للنماذج المشهورة السابقة عليه مباشرة . كذلك نلاحظ ان شكسبير فى « خاب سعى العشاق » بنى شخصية الفارس الفشار ارمادو والعالم المتحذلق هولوفورنيز على طريقة الكوميديا ديللارتى الايطالية التى كانت شائعة فى عصره ، وهى فى النهاية متسلسلة عن «كوميديا الأقنعة»

الرومانية ، ولا سيما كما نجدها فى بلوتوس وتيرنس ، حيث الكوميديا تقوم على نماذج بشرية أو اجتماعية مسطحة مقولبة محددة الأبعاد ثابتة السمات ، كشخصية المعلم المتحذلق أو شخصية الجندى الجعجاع أوشخصية الأجنبى صاحب الرطانة .. الخ .. الذين يضحكوننا بحذلقتهم أو جعجعتهم أو رطانتهم ويدفعوننا الى السخرية منهم . وهذا كله ما يجعل « خاب سعى العشاق » عملا من أعمال شكسبير الثانوية التى مهما قيل فى طرافتها فهى قليلة الأغوار وليس فيها شيء واضح مما تطور اليه شكسبير بعد نضوجه ، وهو هجاء الطبائع المتفردة لا هجاء النماذج المتكررة ، وتصوير الشخصيات الحية بذاتها ، لا تصوير أو قوالب الحياة

هذا مجمل ما رأيته وما سمعته فى مهرجان شكسبير بين لندن وستراتفورد وتشيشستر ، وقد كان أكثره رائعا حقا ، ولكن كم كنت أتمنى المزيد . وهكذا آن أوان العودة الى الديار ومعى هذه الجعبة الصغيرة الكبيرة . كذلك كانت معى جعبة أخرى ليست مليئة بالفن ولكنها مليئة بالألغاز . فبعد أربعمائة سنة من هذا الشاعر الخالد لايزال علماء العالم حائرون كما

كانوا حـائرين أيام درايدن وبنتلى ورو وسـمويل جوسون وكوليردج وهازليت وبرادلى فى حقيقة هذا الرجل العظيم . بل لاأغالى ان قلت انحيرتهم قد زادت اليوم عما كانت فى الماضى لأن نقاد الماضى كانوا يكتفون من شكسبير بفنه . أما « أساتذة » اليوم فهم يبحثون فى أسرار حياته الملغزة دون أن يهتدوا الى جواب قاطع صريح . من كان هـذا الرجل ؟ وكيف تعلم ؟ وماذا كتب ؟ وماذا كانت مقاصـده مما كتب ؟ وما علاقاته برجال عصره وبنسـائه وبمجتمعه وبساسته وبأدبائه وكيف بدأ وكيف تطور وكيف انتهى ؟ كل هذه أسئلة لاتزال حائرة وفى كل عام تصدر فى شرحها المجلدات دون أن تأتى باليقين. وكلهذه المشكلات الشكسبيرية تدعونا الى مزيد من الاستكشـاف فى أدب شكسبير وسيرته

الفصل الثامن

مشكلات عويصة

- مشكلات شكسبيرية باقية بغير حل :
- السيدة السمراء : عشيقة شكسبير تدعى ماجورا
- شكسبير يموت من الإفراط في السكر

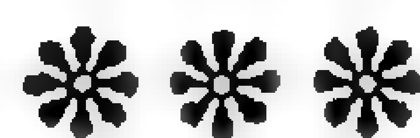


مشكلات عويصة

فى آخر الأنباء أذاعت وكالات الأنباء على أسلاك التيكرز بتاريخ ٢٠ يونيو ١٩٦٤ أن مدرس رياضة فى اسكتلندا يدعى نورمان توماس « اختبر » أعمال شكسبير وأعمال الفيلسوف الانجليزى فرانسيس بيكون ، ايرل فيرولام ، المشهور خطأ بلورد بيكون ، بواسطة الحاسبات الالكترونية فأثبتت له الحاسبات الالكترونية عن طريق عد حروف الجر والعطف انه أيا كان مؤلف مسرحيات شكسبير فهو لايمكن أن يكون لورد بيكون !.. وهذه اللمسة العلمية هى أحدث محاولة لاستكشاف شىء عن حياة هذا الغامض العظيم وليم شكسبير ، ولكنها بالطبع لن تكون الأخيرة

تقول : وما سر هذه البلبلة الكبيرة حول سيرة هذا الرجل وأدبه رغم ان أمامنا من مؤلفاته سبعا وثلاثين

مسرحية و ١٥٤ قصيدة منظومة فى قالب «السونيته» وقصيدتين قصصيتين هما « فينوس وأدونيس » و « اغتصاب لوكريس » ؟ فمنذ منتصف القرن الماضى وطائفة لا حصر لها من الباحثين الصادقين والدراويش المخرفين لايفتأون يصدرون الكتب عاما بعد عام لاثارة أسئلة محيرة حول سيرة شكسبير وأدبه آنا بالصدق وآنا بالافتعال أو للاجابة على هذه الأسئلة المحيرة آنا بالصدق وآنا بالافتعال ..



ويمكن تلخيص هذه المشاكل الشكسبيرية فيما يلى :

١ ـ مشكلة من هو شكسبير ؟ الشائع تقليديا عن شكسبير انه كان رجلا ربع متعلم أو نصف متعلم على أكثر تقدير ، فهو لم يتم تعليمه حتى فى مدرسة مدينته الصغيرة ستراتفورد ، فنحن نعرف عن نيكولاس رونى ١٧٠٧ ان أباه سحبه من هذه المدرسة المجانية قبل اتمام تعليمه لضيق ذات يده حتى يساعده فى عمله أيا كان هذا العمل . وعن دورال فى ١٦٩٣ أن شكسبير ألحق صبيا بدكان قصاب ولكنه هرب من هذه المهنة ، وعن اوبرى ان أباه كان كلما ذبح عجلا كان يذبحه بأسلوب

رفيع ويلقى خطابا ربما فى رثائه . والمعروف عن الأب جون شكسبير انه لم يكن قصابا ولكن صانع قفازات ، ولعل سلخ الماشية لاستخدام جلودها فى صناعة القفازات كان جزءا من عمله . الشائع اذن عن وليم شكسبير ، « فلاح ستراتفورد » كما يسميه كارلايل ، و « معلم نفسه » كما يقول ماثيو آرنولد انه كان ناقصا فى الثقافة . فكيف أتيح لهذا الجلف أن ينشىء كل هذا الأدب العظيم الدال على فلسفة عميقة وثقافة واسعة واحساس عميق وذكاء خارق ؟ لابد أن يكون فى الأمر لغز ولا بد من حل هذا اللغز

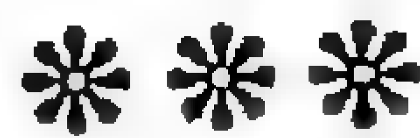
وفى ١٨٥٧ بدأت الكاتبة الأمريكية ديليابيكون هذا الخط الطويل من التكهنات فزعمت أن شكسبير أو الكاتب الذى ألف كل هذه الأعمال ليس الا اللورد بيكون . وأيدها فى ذلك و. هـ. سميث الانجليزى ومسز هنرى بوت ثم ناثانيل هولم واغناطيوس دونولى فى أمريكا عام ١٨٨٦ . وفى ١٨٨٦ أيضا تألفت فى لندن « جمعية أنصار بيكون » وأصدرت مجلة تدعى « بيكونيانا » لاثبات أن لورد بيكون هو المؤلف الحقيقى للأعمال المنسوبة لشكسبير وفى ١٨٩٢ صدرت

فى شيكاغو مجلة أخرى بنفس الاسم ولنفس هــذا الغرض . وقــد ظلت النظرية البيكونية هى النظــرية السائدة حتى نهاية القرن التاسع عشر . أما فى القرن العشرين فقد اشترك علماء القارة الأوربية فى هــذه المعركة ، وبأبحاث جديدة حاول بعض العلماء الألمــان اثبات أن شكسبير الحقيقى هو روجر مانرز ، ايرل رتلاند الخامس ، أما علماء فرنسا فقد حاولوا اثبات أن شكسبير الحقيقى هو وليم ستانلى ، ايرل داربى السادس . ثم حاول الأستاذ لونى أن يثبت أن شكسبير الحقيقى ليس الا ادوارد فير ، ايرل اكسفورد السابع عشر ..

أما أحدث نظرية من أمريكا ، فهى نظرية كوفمان القائلة بأن مؤلف مسرحيات شكسبير ليس الا الشاعر الكبير كريستوفر مارلو مؤلف «تيمورلنك» « الدكتور فاوست » و « يهودى مالطة » الذى ولد مع شكسبير فى ١٥٦٤ وتعلم فى كامبــريدج .. وقيــل انه قتــل فى مشاجرة فى حانة عام ١٥٩٣ بعــد أن صــدر الأمر بالقبض عليه بسبب بعض كتاباته الالحاديه التى عثر عليها جواسيس الملكة اليزابيث عند الكاتب المسرحى

توماس كيد . وفى رأى كاوفمان ان مارلو لم يمت فى المشاجرة بل شفى واختفى وظل يكتب للمسرح تحت هذا الاسم المستعار ، اسم هـذا الممثل التافه فى ستراتفورد ، وليم شكسبير الذى بدأ نجمه يصعد فى سماء لندن عام ١٥٩٣ . هذه أهم الروايات البوليسية التى يشغل بها بعض العلماء أنفسهم ويشغلون معهم الناس فى البحث عن حقيقة شكسبير .. أما مدرسة بيكون فجوهر دعوتهـا قائم على شىء شبيه بعلم اليازرجة ، فأغلب أبنائها من أعضاء الماسونية أو دعاتها ثم على شىء من التوافق فى الأفكار والأساليب بين كتابات بيكون وكتابات شكسبير . وأما المدارس الأخرى فجوهر دعوتها قائم على خصائص الأساليب والأفكار وعلى دراسات العروض وعامة مانسميه بالأدلة الداخلية التى تستقى من باطن النصوص ذاتها . وأما نظرية مارلو فخطؤها الأول انها تنسى ان مارلو قد اغتيل أو قيل أنه اغتيل عام ١٥٩٣ . بينما الأدلة متوفرة على ان هذا « الغراب المحدث » الذى يتحدث عنه جرين عام ١٥٩٣ كان قد أنشأ من قبل على الأقل مسرحيات « هنرى السادس » التاريخية التى يشير

اليها جرين نفسه فى بقية كلامه .. وخطؤها الأكبر أنها تتجاهل أن مارلو بلغ نضــوج فنه فى الثمانينات من القرن السادس عشر بينما نجد أن بواكير انتاج شكسبير فى أوائل التسعينات مختلفة عنها فى النسيج الشعرى والمسرحى وتحمل سمة قلة النضوج الملازمة عادة لبداية الفنان ..



٢ ـ مشكلة صحة الأعمال المنسوبة الى شكسبير:
وهى مشكلة مستقلة عن مشكلة هوية الكاتب الذى ألف أعمال شكسبير . فالكثرة المطلقة من العلماء الذين يرفضون هذه الافتراضات الخاصة بشخصية المؤلف تواجههم مشكلة من نوع فريد وهى انه نظرا لعــدم طبع كل أعمال شكسبير أثناء حياته أو لتعدد الطبعات المختلفة من مسرحياته ونظرا لصدور بعض مسرحياته دون أن تحمل أسمه أثناء حياته ولصدور أخرى تحمل اسمه بعد موته رغم استحالة وجود علاقة بينه وبينها لأســباب مختلفة ، كثرت شكوك البــاحثين والنقــاد وجدلهم حول تحديد المسرحيات التى تنسب اليه وحده والتى تنسب اليه بالاشتراك مع آخرين . فالمعروف انه

فى حياة شكسبير لم تصدر أية طبعات الا من المسرحيات الآتية : « هنرى السادس » الحلقة الثانية و « تيتوس اندرونيكوس » ١٥٩٤ . « هنرى السادس » الحلقة الثالثة ١٥٩٥ . « روميو وجولييت » و « ريتشارد الثانى » وريتشارد الثالث ١٥٩٧ . « خاب سعى العشاق » وهنرى الرابع الحلقة الأولى ــ ١٥٩٨ . وهنرى الخامس وهنرى الرابع الحلقة الثانية . وتاجر البندقية . وضجة فارغة . وحلم منتصف ليلة صيف ــ ١٦٠٠ « زوجات وندسور المرحات » ــ ١٦٠٢ . « هاملت » ــ ١٦٠٣ الملك لير ــ ١٦٠٨ ترويلوس وكريسيدا وبريكليس ــ ١٦٠٩ . وهذه تعرف بطبعة الكوارتو الأولى أى (القطع المتوسط) . وفى أثناء حياة شكسبير نجد بعض أعماله الى جانب هذه مسجلة باسمه واسم ناشره فى سجل المطبوعات ولكن يبدو أنها لم تطبع وهذه هى:كما تحبها وانطونيوس وكليوباترا. وفى ١٦٢٢ صدرت طبعة كوارتو بعد وفاة شكسبير بست سنوات من مسرحية «عطيل» . وأخيرا فى ١٦٢٣ صدرت طبعة الفوليو الأول (القطع الكبير) تجمع أعمال شكسبير كاملة وبها ٣٦ مسرحية منها هذه المذكورة

وعددها ١٩ ومعها مسرحيات أخرى لم يسبق طبعها وعددها ١٧ مسرحية منها : ماكبث ، ويوليوس قيصر، وترويض الشرسة ، وانطونيوس ، وكليوباترا ، وكريولانوس ، ودقة بدقة ، وقصة الشتاء ، وتيمون الاثينى ، وسيمبلين ، وهنرى الثامن ، والليلة الثانية عشرة ، والملك جون ، وكوميديا الأخطاء ، وسيدان من فيرونا ، وهنرى السادس الأولى ، وهنرى السادس الثالثة ، والخير فيما ينتهى بخير ؛ والعاصفة ، وأهمية الفوليو الأول من أنه قد أعده هيمينج وكونديل رفيقا شكسبير من الممثلين فى فرقة كبير الأمناء وفرقة الملك ، وكانا بالطبع يعرفان ماذا ألف شكسبير وماذا لم يؤلف لأنهما كانا يمثلان فى مسرحياته وقد كانت فى أيديهم مخطوطات مسرحياته ولأن شكسبير لم يكتب على ما نعلم لغير فرقة كبير الأمناء التى سميت فيما بعد بفرقة الملك بعد تولى جيمس الأول عرش انجلترا فى ١٦٠٣ ، كما ان الفوليو مصدر بمرثية للشاعر المسرحى الكبير بن جونسون صديق شكسبير وزميله فى القلم عشرات السنين ..

ونظرا لاختلاف النصوص الشكسبيرية من انكوراتو

الأول الى الفوليو الأول بل ونظرا الى اختلافها من الكوارتو الأول الى الكوارتو الثانى حيثما تعددت الطبعات أثناء حياة شكسبير نفسه ، حاول المحققون تفسير هذه الاختلافات ، فمن قائل ان الاختصارات أو الزيادات أو التعديلات فى المشاهد أو التنقيحات فى الأشعار من عمل الممثلين ، ومن قائل انها من عمل شكسبير نفسه ، ومن قائل انها من عمل كتاب مسرحيين عاصروا شكسبير وراجعوا أعماله لحسن اعدادها للمسرح أو المطبع ومن قائل ان بعض هذه الأعمال وضعه شكسبير بالاشتراك مع غيره من كتاب المسرح

أما المتطرفون من أمثال الأستاذ روبرتسون فيذهبون الى أن « ريتشارد الثالث » وريتشارد الثانى وهنرى الخامس ويوليوس قيصر وكوميديا الأخطاء كلها ليست من عمل شكسبير ولكن من عمل الشاعر مارلو . وينسب روبرتسون أيضا روميو وجولييت الى الشاعر بيل كما ينسب سيدان من فيرونا الى الشاعر جرين وينسب ترويلوس وكريسيدا والخير فيما ينتهى بالخير ودقة بدقة الى الشاعر تشابمان . ويعلق روبرتسون على ذلك بقوله ان شكسبير تناول كل هذه الأعمال التى وضعها الغير

بالتمثيل والاعداد والتعديل لكى يجعلها صالحة للتمثيل فى فرقته (فرقة كبير الأمناء ثم فرقة الملك) ؛ ويستدل على رأيه بأدلة داخلية من باطن النصوص ذاتها ينصب أغلبها على الأسلوب وعلى العروض وعلى الهجاء وعلى أسماء الأعلام وعلى لوازم الشعراء وعلى بعض المشاهد المعدلة ، وهى كلها حجج غير كافية وحدها لاثبات شىء لأن أدباء عصر اليزابيث كانوا أبناء مدرسة أدبية واحدة وبيان يتشابه بحيث يصعب جدا تمييز أسلوب أحدهم من أسلوب الآخر ..

أما المعتدلون من أمثال الأستاذ دوفر ويلسون والأستاذ بولارد فيكتفون بقولهم : ان « روميو وجولييت » و « هنرى الخامس » و « هاملت » فقط كانت مسرحيات موجودة فعلا قبل عام ١٥٩٣ بأقلام غير شكسبيرية وان ما فعله شكسبير هو انه قومها وأصلحها بحيث جعلها فى حالتها المعروفة الآن . ولكن دوفر ويلسون وبولارد لايشكان فى أن شكسبير مسئول عن تأليف بقية الأعمال المنسوبة اليه. ويحصران عملية الرتوش الشكسبيرية فى هذه المسرحيات الثلاث

ولعل أرجح رأى فى الدراسات الشكسبيرية هو

رأى تشيمبرز القائل بأن كل أعمال شكسبير المنسوبة اليه من قلمه فعلا وانه لم يشترك مع غيره الا فى هنرى الثامن وربما فى « ترويض الشرسة » وفى بريكليس وفى مسرحيتى « القريبـان النبيـلان » و « ادوارد الثالث » وهما مسرحيتان لم تردا فى الفوليو الأول رغم ان طبعـة الكوارتو تنسب بريكليس الى شكســبير وتنسب اليه الاشتراك فى « القريبان النبيلان » ويرى تشيمبرز أن التعديلات والاصلاحات العديدة فى كثير من مسرحيات شكســبير لا ترقى الى درجـة اعادة الصيـاغة وانه من الصعب تحديد مجريها كما انه ينبه الى التعديلات التى أجريت بسبب الرقابة

وليست الطبعات وحدها أو ســجل المطبوعات هى الأسانيد الوحيدة على نسبة هذه المسرحيات أو بعضها الى شكسبير ، فهناك مثلا طبعة الكوارتو من تيتوس اندرونيـكوس وروميـو وجوليت وهنرى الخامس لا تحمل اسم شكسبير رغم صدورها أثناء حيـاته . وانما هناك أيضا كتابات نقاد العصر الذين ذكر بعضهم أسماء بعض مسرحيات شكســبير وأهمهم فرانسيس ميرز وجابرييـل هارفى وبن جونســون وجون ويفر

وهناك أيضا سجلات الفرق المسرحية وسجلات ادارة الملاهى . وكل هذه مجتمعة قد ساعدت على عمليات التثبيت والتحديد . ومما يزيد الأمر تعقيدا ان مجرد ظهور اسم مؤلف على طبعة الغلاف فى عصر اليزابيث وما بعده ليس كافيا لاثبات انه مؤلف المسرحية . فهناك نصوص كثيرة مزورة أو محولة اما للاستغلال التجارى من جانب الناشر اللص أو بسبب جهل الناشر . مثال ذلك ان اسم وليم شكسبير يظهر على صفحة الغلاف وفى سجل المطبوعات على انه مؤلف مسرحيات «مأساة يوركشاير » و « المتلاف اللندنى » و « السير جون اولدكاسل » ، وهى مسرحيات لا علاقة له بها . كذلك تظهر حروف اسمه الأولى « و. ش. » على غلاف مسرحية اسمها « لوكرين » ١٥٩٥ وأخرى اسمها « توماس لورد كروMويل » ١٦٠٢ ، وثالثة اسمها « البيوريتانى » ١٦٠٧ . وقد أضيفت كل هذه المسرحيات الى مجموعة أعماله فى الفوليو الثالث الصادر عام ١٦٦٤ ، ولكن العلماء استبعدوها جميعا . كذلك نسبت الى شكسبير مسرحية طبعت فى أيامه وتحمل الحروف الأولى من اسمه ، وعنوانها « العهد

المضطرب » ، ولكن تبين ان هذه هى المسرحية التى استقى منها شكسبير مسرحيته « الملك جون » .

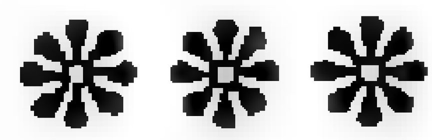
ومما يزيد الأمر تعقيدا أن اشتراك أكثر من مؤلف فى تأليف المسرحية الواحدة كان أمرا عظيم الشيوع فى عصر اليزابيث فقد كان مؤلفو المسرح طبقة من الكتاب المحترفين . وكان عدد المشتركين فى تأليف المسرحية الواحدة يصل أحيانا الى سبعة مؤلفين . فمثلا مسرحية « ديدو » تحمل اسم الشاعرين مارلو وناش ومسرحية « المرآة » تحمل اسم جرين ولودج . ومسرحيات « جوربودوك » و « تانكريد وجيسموندا » و « جوكاستا » و « لوكرين » و « مصائب الملك آرثر » كتبت كل منها بتعاون مؤلفين يتراوح عددهم بين مؤلفين وسبعة مؤلفين فى وقت واحد . وسجلات هنسلو المعروفة عن المسرحيات التى كانت تمثلها فرقة «الأميرال» المنافسة لفرقة شكسبير وفرقة ايرل ووستر بين ١٥٩٧ و ١٦٠٤ تدل على استشراء عادة التعاون هذه ، فمن بين ١٣٠ مسرحية جديدة ذكرت السجلات أن ثمنها قد دفع لمؤلفيها كان أكثر من نصفها ثمرة للتعاون بين مؤلفين الى خمسة مؤلفين ، ومن أهم هذه

الأسباب التى دعت الى شيوع هذا الأسلوب فى الانشاء ان أكثر المسرحيات كان قصير الأجل ، وما لم ينجح منها كان يهمل ويمثل غيره على وجـه السرعة ، مما جعل الفرق المسرحية بحاجة دائمة الى تموين مستمر بالمسرحيات الجديدة . ومن المعروف أن الكاتب انتونى منداى مثلا ارتبط بتأليف مسرحية لتمثل فى بلاط الملكة فى مدى أسبوعين. ثم هناك عنصر هام وهو حاجة الكتاب الى المال ، فقد كان كتاب المسرح جماعة من المحترفين الذين يعيشون من أقلامهم بعكس الشعراء الغنائيين . وكانت أهم الأسماء الواردة فى عمليات الاشتراك فى التـأليف أسـماء بومونت وفلتشر وتشتيـل وديكر وميدلتون وويستر وورولى وتشابمان وجونسون ومارستن وويلسون ، كما ان أسماء الكتاب الذين كانوا يؤلفون لفرقة كبير الأمناء « فرقة شكسبير » غير معروفة لعدم بقاء سجلات هـذه الفرقة ولكن يظن انها كانت نفس المجموعة التى كانت تكتب للفرق الأخرى

كل هذه الظروف المحيطة بطريقة التأليف المسرحى فى عصر اليزابيث هى التى سببت كل هذه الاشكالات فى تحديد ما كتب شكسـبير وما لم يكتب وما كتبه

شكسبير بمفرده وما كتبه بالتعاون مع غيره . ولما كان شكسبير من كتاب المسرح المحترفين فلا داعى لاستثنائه من هذه العمليات ، وربما كانت له يد فى مراجعة كثير من المسرحيات التى كانت تكتب لفرقته وفى اصلاحها أو لعله اشترك فى تأليفها ؛ والعكس أيضا صحيح ، فربما كان لغيره يد فى بعض ما كتب سواء عن طريق الاشتراك أو المراجعة . وهذا هو الذى فتح الباب لتخمينات لا حصر لها بين العلماء حول مشكلة اثبات صحة الأعمال المنسوبة الى شكسبير ومدى مسئوليته عنها . ومن هذه المشكلة تفرعت مشكلة أخرى تعرف بمشكلة الكرونولوجيا أى تاريخ تأليف مسرحيات شكسبير وترتيبها الزمنى ، وهى مشكلة هامة لأنها تعيننا على دراسة تطور فن شكسبير الدرامى وأسلوبه الشعرى وتعيننا على تتبع اتجاهات نموه وتفكيره وربما بعض وجوه حياته . ومن التهم التى وجهت الى شكسبير انه كان يأخذ مسرحيات غيره ممن سبقوه ويعيد صياغتها على طريقته وان هذا هو الذى مكنه من تحقيق هذا الانتاج الضخم وهو ٣٧ مسرحية فى عشرين عاما ، ولو انه كان يبتكر مسرحياته من أصولها

لما تمكن من اعطائنا هذا المحصول الوفير . هــذه هى مشكلة من ألّف ؟ وماذا ألّف ؟ ومتى ألّف ؟



٣ ـــ مشكلة السونيتات : وهذه أيضا من أعوص المشاكل الشكسبيرية فالى جانب أعماله المسرحية الكثيرة هذه أنشأ شكسبير أربعة دواوين طبعت كلها فى أيام حياته وهــذه الدواوين هى : « فينوس وادونيس » طبعت فى ١٥٩٣ وهى قصيــدة قصصية حول هــذه الأسطورة المشهورة ثم « اغتصاب لوكريس » طبعت فى ١٥٩٤ وهى أيضا قصيــدة قصصــية ثم « العنقاء واليمامة » طبعت فى ١٦٠١ وهى قصــيدة رمزية ، ثم « السونيتات » ومعها « شكوى عاشــق » فى نفس المجلد طبعت فى ١٦٠٩

والسونيتــات وعددها ١٥٤ ، عبارة عن مقطوعات شعرية غنائية كل منها مؤلف من ١٤ بيتا وتلزم ترتيبا خاصا للقوافى وتعــالج موضــوعات كالحب والموت وتأملات الحيــاة عامة ، وهى قالب محدد الاطار من الشعر أخذته الآداب الأوربيــة عن الشــاعر الايطالى العظيم بترارك الذى خلد غرامه لحبيبته لورا فى سونيتاته

المشـــهورة ، وقد انتقـــل الى انجلترا عن طريق ايطاليا وفرنسا ولاسيما من خلال رونسار وشعراء البلياد وقد بلغ به أسلاف شكسبير المباشرين ومعاصروه درجةعالية من الاتقان رغم سرقاتهم الصارخة من شـعراء القارة الأوربية . والسونيته فى النهاية مأخوذة عن صقلية ولعل لها علاقة تاريخية بالموشحات الاندلسية

المهم هو أن هذه السونيتات التى أنشأها شكسبير تعد من أهم ألغاز حياته لجملة أسباب . ولا يعرف على وجه التحقيق متى نظمها شكسبير، ولكن يظن انه نظمها متقطعة خلال سنوات من ١٥٩٣ الى ١٥٩٨ على أقل تقدير ، وكانت تتداول بين أصدقائه كمخطوطات كما كتب فرانسيس ميرز عام ١٩٥٨ . ولكنها لم تطبع على أية حال الا فى ١٦٠٩

واللغز فى هذه السونيتات الجميلة هو انها جميعـا توجه الخطاب باستمرار الى فتى جميل لايكل شكسبير عن وصف بهاء وجهه ويتغزل فيه أعذب الغزل وكأنه من أجمل الغيد . وليست هناك أية شبهة فى أن المخاطب فى هذه السونيتات ذكر لأن الضمير المستعمل هو ضمير المذكر وباستمرار ، ولأن شكســبير يستخدم فى بعض

السونيتات كلاما جارحا من غزل المذكر ، مما جعل الباحثين بلا استثناء تقريبا يجزمون بأن شكسبير كان مصابا بالشذوذ الجنسى ، وانه كان بالفعل يعشق فتى من فتيان عصره حار الباحثون فى تحديد هويته . فهو آنا يخاطبه قائلا : « أيها الغلام الجميل » وآنا يصفه قائلا : « يامولى هواى » وآنا يخاطبه قائلا : « ياسيد هواى وسيدته » فى السونيته رقم ٢٠ حيث يقول : « لك وجه امرأة رسمته الطبيعة بيدها » ومع ذلك فهذا الحبيب رجل بكل ما فى هذه الكلمة من معنى بحيث يأسر قلوب الرجال ويفتن أرواح النساء . حتى ان الطبيعة التى خلقته ليكون امرأة عشقته وأضافت اليه شيئا فحرمت الشاعر منه . والسونيتات الأولى وعددها ١٧ تحض هذا الفتى الجميل أن يتزوج حتى يتسلسل جماله فى ذريته ، وبعض السونيتات تتحدث عن ان هذا الفتى الجميل سرق معشوقة الشاعر ــ وهى امرأة سمراء وصرف قلبها عنه ، ولكن الشاعر يغفر له ما فعل . وبعض السونيتات تذكر الفتى الجميل بأن جماله قد خلد وتحدى الموت بفضل خلود شعر الشاعر

الخ . كذلك يتحدث الشاعر عن شاعر آخر ينافسه دون تحديد لاسمه ..

وقد انقسم البـاحثون الى ثلاث شـيع فى تحديد شخصية هـذا الحبيب الجميل : ان السونيتات مهداة الى شخص مرموز له بالحروف الأولى من اسمه وهى مستر « و. هـ. W.H. » وشكسبير ليس صاحب الاهداء وانما الناشر توماس ثورب هو صاحبه ، وان كان هناك اعتقاد عام بأن شكسبير راجع تجارب الطبـع بنفسه لخلو الكتاب من الأخطاء المطبعية . والاهـداء يسمى المهدى اليه « المنجب الأوحد لهذه السونيتات » ومن هنا ساد الظن بأن المهدى اليه هو معشـوق شكسبير فذهب الباحثون يبحثون على شخص وثيق الصـلة بشكسبير ، فقال بعضهم كدوفر ويلسون والكثيرون انه وليم هوبرت « و. هـ » ايرل بميروك وان الشاعر المنـافس هو تشابمان ، وقال بعضهم مثل راوس ان الحبيب هو ايرل ساوثهامبتون راعى شكسبير الشهير ، وان المهـدى اليه « و. هـ » هو وليم هارفى زوج أم ساوثهامبتون ، وانه سمى منجب القصائد الأوحد لأنه سلم المخطوط للناشر ثورب ، أما الشاعر المنافس فهو

عند راوس وغيره كريستوفر مارلو . أما أحدث الآراء فهو رأى لسلى هوتسون الذى يقول : ان « و. هـ »

هو وليم هاتكليف ، وهو محام كان جميل الصورة ومشهورا فى الثمانينات والباحثون يجمعون عادة على ان هذا المعشوق كان من النبلاء وانه كان حميم الصلة بشكسبير بدليل ان شكسبير يخاطبه بضمير المفرد على غير عادة الانجليز الذين يستعملون فى الخطاب ضـــمير الجمع ولا سيما مع من هم أعلى منهم مقاما . أما وليم هربرت ايرل بمبروك ووليم ريوذسلى ايرل ساوثهامبتون فصلتهما بشكسبير معروفة وهما النبيلان اللذان أهدى اليهما مجلد الفوليو عند صـــدوره عام ١٦٢٣ ، لأنهما بسطا حمايتهما أعواما طويلة على شكسبير ومسرحه ، وقد سبق لشكسبير الشاب أن أهدى ديوانه «فينوس وادونيس » ١٥٩٣ ثم « اغتصـــاب لوكريس » ١٥٩٤ الى ايرل ساوثهامبتون وفى اهداء « لوكريس » يقول شكسبير لساوثهامبتون « كل ماعملته ملك لك ، وكل ماسأعمله ملك لك أيضا ، فأنت جزء من كل ما أملك ، أنا المخلص لك » . أما سخاء ساثهامبتون مع شكسبير فقد كان حديث الكثيرين ، وقد ذكر الشاعر المعروف

السير وليم دافنانت الذى كان يشيع عن نفسه صدقا أو كذبا انه ابن غير شرعى لشكسبير فقد كانت أمه مسز دافنانت عشيقة شكسبير يبيت عندها كلما نزل اكسفورد فى طريقه من لندن الى ستراتفورد وبالعكس. ذكر السير وليم دافنانت ان ساثهامبتون وهب شكسبير ألف جنيه ليعينه على شراء شىء لم يحدده ، والهبة ممكنة ولكن المبلغ مبالغ فيه . فالمعروف ان كل مشتريات شكسبير من عقار مدى حياته ومن حق تحصيل العشور فى كنيسة ستراتفورد لم يصل الى ألف جنيه ، والأرجح أن هناك صفرا زائدا ، وان شكسبير استخدم المبلغ فى شراء نصيبه فى فرقة كبير الأمناء عند تكوينها عام ١٥٩٤

وأيا كان الأمر فان هذه صفات ترشح ايرل ساوثهامبتون أو ايرل بمبروك ليكون هذا « الغلام الجميل » وهذا الصديق البهى ، فكلاهما كان وثيق الصلة بشكسبير يبسط عليه حمايته ، وكلاهما كان جميل الطلعة فى حياة صباه وشبابه الى حد يفتن الناظرين ، وكلاهما كان نبيل المحتد ، وكلاهما عرف عنه انه كان عازفا عن الزواج فى سن الشباب رغم المحاولات المتكررة من أسرته لتزويجه . وساوثهامبتون

بالذات على الأقل عرف عنه الشذوذ الجنسى شابا وكهلا وكلاهما كان فى سن يسمح بقيام مثل هذه الصله بينه وبين شكسبير ومارلو « الذى اشتهر أيضا بشــذوذه الجنسى بين الشعراء » نحو عام ١٥٩٢ حين كان شكسبير ومارلو معــا فى الثامنــة والعشرين وكان ساثهامبتون « ١٥٧٢ ــ ١٦٢٤ » يومئذ فى سن التاســعة عشرة ، وكان بمبروك ١٥٨٠ ــ ١٦٣٠ يومئذ فى الثانية عشرة . فاذا كانت الســونيتات من ثمار ١٥٩٢ ــ ١٥٩٤ كما يذهب راوس وسواه ، فهذا يستبعد بمبروك طبعا لأن سنه لم تكن حينئذ سن زواج أو بلوغ . وان كانت من ثمارالسنوات التالية ١٥٩٥ ــ ١٦٠٠ كما يقول تشيمبرز جاز ما يذهب اليه دوفر ويلسون وغيره بشأن بمبروك كل ما نعلمــه عن السونيتات انها كانت تتــداول فى مخطوطاتها بين أصدقاء شكسبير ــ حتى عام ١٥٩٨ . ولكننا لا نعرف متى نظمت على وجه التحقيق

أما الدكتور هوتســون مرشــح وليــم هاتكليف ١٥٦٨ ــ ١٦٣١ على انه صديق شكسبير الجميل ، فهو يرى ان صــديق شكســبير لم يكن من النبــلاء الحقيقيين ولكن كان نبيلا بالمجاز ، فهو قد انتخب أميرا

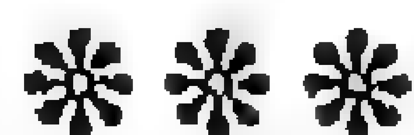
للكرنفال فى يناير ١٥٨٨ فى احتفال كان يؤخذ يومئذ مأخذ الجد ، فكان له بلاط وهمى طبعا وكان يستقبل فعلا فى البلاط على غرار ما نفعل اليوم بملكات الجمال وملوك كمال الأجسام الخ .. وهوتسون بهذا ينسب السونيتات الى عامى ١٥٨٨ و ١٥٨٩ حين كان عمر شكسبير ٢٤ سنة وعمر وليم هاتكليف ٢٢ سنة وعمر بمبروك ٨ سنوات وعمر ساثهامبتسون ١٤ سنة . ولكن رغم براعة الدكتور هوتسون وعلمه الغزير ، فالأرجح أن رأيه هذا مجرد شطحة من شطحات العلماء ، وهو فى جميع الأحوال قد عجز عن اثبات أهم ركن من أركان حجته وهو متى وأين وكيف التقى شكسبير بالمحامى الشاب وليم هاتكليف

أما بالنسبة للسيدة السمراء التى ورد ذكرها فى السونيتات وقال شكسبير عنها ان صاحبه الجميل اختطفها منه فقد حار فى تعيينها الباحثون أيضا ، ولا يعلم على وجه التحقيق ان كانت سمراء البشرة أم مجرد سمراء الشعر . وذهب البعض الى انها مارى فيتون ١٥٧٨ ــ ١٦٤٧ عشيقة وليم هربرت ايرل بمبروك فى ظن البعض مثل توماس تيلور وفرانك هاريس وكانت

نحو ١٥٩٥ احدى وصيفات الملكة اليزابيث وخليلة وليم هربرت عام ١٦٠٠ فطردت من البلاط وأرسل عشيقها الى سجن البحرية . وفى رأى آخر انها بنيلوبى ليدى ريتش وفى رأى ثالث انها مسز دافنانت أم الشاعر السير وليم دافنانت التى قيل ان شكسبير كان يعاشرها كلما نزل بمدينة اكسفورد . أما آخر الآراء ، وهو رأى الدكتور هوتسون فهى انها امرأة تدعى لوس أو لوسى مورجان واشتهرت باسم لوسى نيجرو . بدأت حياتها فى خدمة الملكة اليزابيث عام ١٥٨٠ ثم انتهت بالدعارة وادارة ماخور وحكم عليها بالحبس فى سجن برايدويل بسبب احتراف البغاء وبعد خروجها من السجن عادت الى الدعارة ويقال انها ختمت حياتها باعتناق الكاثوليكية وانها ماتت بالسفلس . فهذه السيدة لم تكن سمراء بالمعنى المفهوم وانما سميت كذلك بسبب لقبها « نيجرو » الذى اشتهرت به . وقد كان هذا أيضا رأى الأستاذ هاريسون قبل هوتسون . ولكن ان كان الأمر كذلك فكيف نفسر وصف شكسبير اياها فى السونيتات بأنها سيدة كاملة الصفات ؟

هذه حكاية السونيتات الشهيرة وهذه هى الألغاز

التى تكتنفها . وقد اجتهد العلماء فى محاولة استكشاف غوامضها أملا فى الوصول الى خيط يهدينا الى حياة شكسبير الغامضة التى لا نعرف عنها الا أقل من القليل

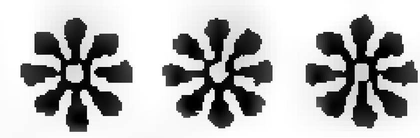


٤ ـ مشكلة ثقافة شكسبير : ولعل هذه أكبر مشكلة شكسبيرية يواجهها العلماء ، فمن الناحية التقليدية نحن نعرف عن معاصريه ومن خلفوه من الكتاب انه كما قال صديقه الشاعر الكبير بن جونسون : « انه كان يعرف لاتينية قليلة ويونانية أقل » وهذا يؤيد ما يقال انه لم يتم تعليمه الرسمى حتى فى مدرسة ستراتفورد وفى أبيات معاصره الشاعر فرانسيس فلتشر عنه يقول فيه : « ههنا أتخلى عن العلم ان كان بى بعض العلم وأصفى من العلم هذه الأشعار فاجعلها صافية منه صفاء خير ما نظم شكسبير من أشعار سيسمعها الخلق من أفواه الوعاظ حين يعلموهم الى أى مدى يستطيع بشرى أن ينفذ مستهديا بضوء الطبيعة الخافت » .. ولكن هناك أدلة فى أدب شكسبير تدل على انه كان مطلعا على أهم آثار التراث اليونانى والرومانى الذى كان أقله مترجما الى الانجليزية وأكثره

لا سبيل الى قراءته الا فى اليونانية أو اللاتينية . وأيا كان الأمر فشهادة بن جونسون مهما كانت صادقة فهى لا تدل على شيء كثير ، لأن بن جونسون كان أعلم كتاب عصره فى اللغات القديمة وكان يترجم أعمال اللورد بيكون الى اللاتينية . فهى فى الواقع شهادة لشكسبير لا عليه ، وهى بمثابة قول أستاذ جهبذ فى أستاذ آخر انه أمى أو جاهل على سبيل المجاز . كذلك هناك حوار طويل بالفرنسية فى « هنرى الخامس » يدل على أن شكسبير كان يعرف الفرنسية بل أن هناك فى أعماله المختلفة ما يدل على أنه كان ملما بالايطالية كذلك ، ويظن البعض أن شكسبير زار فرنسا وايطاليا وألمانيا والأراضى الواطئة فى فترات مختلفة من حياته . وأيا كان الحكم عليه فأدبه يدل على انه كان يخالط طبقة النبلاء مخالطة صميمة ، فهو عارف بسلوكهم وأسلوبهم فى الكلام والتعامل والتفكير والدس بدرجة مذهلة كأنه أحدهم أو كأنه ولد ببابهم وتربى فى قصورهم . وهو رأى يتحيز له بعض العلماء . وأيا كان الأمر أيضا فلعل السنوات الثمانى الغامضة تماما فى حياة شكسبير بين اختفائه من ستراتفورد نحو ١٥٨٤

وظهـوره فى لندن نحو ١٥٩٢ ، وهى فترة التكوين العقلى الحقيقية فى حياة أى انسان بين سن العشرين وسن الثامنة والعشرين ، هى المفتاح الحقيقى لثقـافة شكسبير ، فلو عرفنا أين قضاها وكيف قضاها ومع من قضاها فلربما ألقت أضواء قوية على ثقافة شكسبير .

وأنا شخصيا ممن يميلون الى الاعتقاد بأن شكسبير ، رغم غموض تاريخه الثقافى كان يعرف التراث اليونانى واللاتينى كما ذهب الأستاذ تشيرتون كولنز وانه كان يعرف الفرنسية والايطاليـة معرفة جيـدة تمكنه من الاطلاع على المصادر الأدبية والتاريخية من أصولها ، كما أرجح أن شكسبير كان يتنفس فى جو نبلاء عصره تنفسا طبيعيا وانه زار كثيرا من بلاد القارة الأوربية



هذه عجالة عن سيرة هـذا المارد العظيم وعن أدبه الخالد . أما اسمه الغريب ومعناه « هز الرمح » أو هاز الرمح فقد أمكن العثور على سمىّ له كان يعيش فى القرن الثالث عشر بقرية كلوبتون من ضواحى ستراتفورد اسمه وليم شكسـبير فان كان بينهمـا رحم فوليـم شكسبير الجد الأعلى قد شنق فى جريمة سرقة . واسم

شكسبير كما نعرفه محير حقا لأنه هجاء ثابت فى الوثائق وفى الأدب بصيغ عجيبة نذكر منها :

Shakespert, Schakosper, Shexper, Saxpere, Sashpierre, Chacsper, Sadspere, Shaksb ye, Shaxbee, Shakeschafte, Shakstaff.

ولم يعثر أحد على كلمة واحدة بخط يده ، وانما كل ما بقى من هذا الكاتب الذى حبّر وحبّر هو تسع امضاءات مكتوبة بخط كخرابيش القطط على وثائق قانونية مثل وصيته وطلبه أن يباح لأسرته استعمال شعار « جنتلمان » وبعض حجج الملكية العقارية والقضايا المدنية التى رفعها على الغير مطالبا بسداد دين . وان صحت الروايات فيه فقد كان هذا الرجل زير نساء . ومصابا بالشذوذ الجنسى وسكيرا من طراز عظيم . بل لقد ورد فى جون وارد انه مات من السكر أو من سيروز الكبد ، فهو يقول : « ان شكسبير ودرايتون وبن جونسون اجتمعوا فى مجلس أنس ويبدو أنهم أفرطوا فى الشراب لأن شكسبير مات من حمى أصابته من ذلك».. حتى بنته سوزانا بنت السفاح الأثيرة عنده ورد عنها أنها رفعت عام ١٦١٣ قضية فى ستراتفورد على من شهروا بها بتهمة السكر مطالبة

بتبرئة سمعتها من هذه التهمة . نوادر ونوادر تروى عن حياة شكسبير العظيم ، ولكن لا سبيل الى التحقق منها ، وهى لا تلقى الا أبهت الأضـواء على حيـاته الغامضة وأدبه الشامخ . فان كان شكسبير ذلك الممثل الخامل الذى قال عنه رو ان أعظم دور أداه على المسرح كان دور الشبح فى « هاملت » ، فهو قد ترك للممثلين أدوارا تتحـدى أعظم المواهب الى آخر الزمان واذا كان شكسبير ذلك الفلاح الجاهل من ستراتفورد فقد ترك للانسانية ذخرا من المعرفة لا ينفـد الى الأبد ، واذا كان شكسبير ذلك الفاسق السكير فهو قد ترك لنا فى أدبه مدونة فى الفضيلة لا تجبها الا رسـالات السماء . واذا لم يكن شكسبير هو الذى كتب كل هذا التراث العظيم ، فأيا كان الذى كتبه فهو قد ملأ العالم نورا ونشر فى الدنيا ألوية الجمال ..

فهرس

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

كتب ظهرت من يناير سنة ١٩٦٣

١٤٢ ـ تاريخ الحب ورسائله الخالدة :
ابراهيم المصرى

١٤٣ ـ رسالة التوحيد :
الشيخ محمد عبده

١٤٤ ـ أزمات الشباب :
الدكتور اوجست ايكورن

١٤٥ ـ هذه حياتى :
عبد العزيز فهمى

١٤٦ ـ الشيوعية والانسانية :
عباس محمود العقاد

١٤٧ ـ ٢٠ سنة فى حجرة الاعترافات :
الدكتور فريدريك لويس

١٤٨ ـ أبناؤنا وبناتنا :
جان جاك روسو

١٤٩ ـ مبادىء فى السياسة والادب والاجتماع :
أحمد لطفى السيد

١٥٠ ـ وجوه فى الظلام :
أمينة السعيد

١٥١ ـ رجال عرفتهم :
عباس محمود العقاد

١٥٢ ـ غراميات نابليون بونابرت
جان سافان

١٥٣ ـ المسلمون والاسلام :
الشيخ محمد عبده

١٥٤ ـ الى القرآن الكريم :
الشيخ محمود شلتوت

١٥٥ ـ الغذاء السحرى :
هـ . ج . ويلز

١٥٦ ـ فلسطين والضمير الانسانى :
محمد على عاوبة

١٥٧ ـ الدين والحضارة الانسانية :
الدكتور محمد البهى

١٥٨ ـ كازانوفا :
ستيفان زفايج

١٥٩ ـ نوابغ النساء :
صوفى عبد الله ودكتور نظمى لوقا

١٦٠ ـ أنا :
عباس محمود العقاد

١٦١ ـ ابتسامات ودموع وظلمات واشعة :
للانسة مى

١٦٢ ـ الائمة الاربعة :
أحمد الشرباصى

١٦٣ ـ صقر قريش :
على ادهم

١٦٤ ـ انت .. وانا :
الدكتور امير بقطر

١٦٥ ـ حياة قلم :
عباس محمود العقاد

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــــدة : السيد هاشم بن على نحاس – ص٠ب ٤٩٣

البحـرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد – ص٠ب ٢١

البـــرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سـنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجـــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

نيجـــيريا : Mr. Mohamed Said Mansour
Atlas Library Company
25, Nnamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA

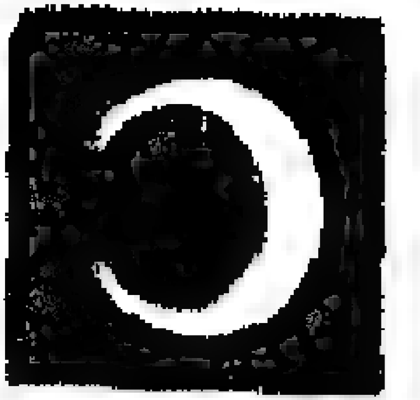


هذا الكتاب

في ابريل ١٩٦٤ شهد العالم المهرجان الكبير والاحتفالات العديدة التى أقيمت في كثير من البلاد بمناسبة مرور أربعمائة سنة على ميلاد شكسبير العظيم • وقد أوفد « الأهرام » الاستاذ الدكتور لويس عوض للمشاركة في هذه الاحتفالات والكتابة عنها ، وكانت ثمرة هذه الرحلة هذا الكتاب الذى نشر يومئذ كسلسلة من المقالات فى جريدة الاهرام

وفى هذا الكتاب القيم استطاع الدكتور لويس عوض أن يحقق جملة أمور : فهو لم ينقل صورة حية لمهرجان شكسبير الى القارىء العربى فحسب ، بل نقل القارىء العربى بخياله الى المحيط الفنى الكبير فى لندن وباريس وستراتفورد وتشيشستر وفى كل مكان نزل فيه ليتابع الحركة المسرحية • وفى هذا الكتاب يلتقى الدكتور لويس عوض الكاتب الكبير بالدكتور لويس عوض أستاذ الادب الانجليزى ،فكتاب « البحث عن شكسبير » مناسبة اتخذها صاحب هذا الكتاب ليتغلغل فى أسرار حياة شكسبير وفنه ويعالج أهم القضايا الشكسبيرية التى تشغل العلماء : من كتب هذه المسرحيات الخالدة ؟ ومتى كتبها ؟ وكيف كتبها ؟ وماذا كانت معتقداته الاساسية فى الدين والسياسة والحياة ؟ وما درجة ثقافته وما مدى علمه واستفادته بآداب القدماء والمعاصرين ؟ وماذا كانت صلته برجالات عصره ؟ وأهم من هذا كله ما هى المفاتيح الحقيقية لفن شكسبير ؟ وهل لدراماته الكبرى « ماكبث » و « عطيل » و « هنرى الرابع » وغيرها معزى انسانى مستور بحجاب الفن نحس بوجوده دائما ولا نراه لاول وهلة ؟

ان « البحث عن شكسبير » اضافة حقيقية الى الدراسات الشكسبيرية .

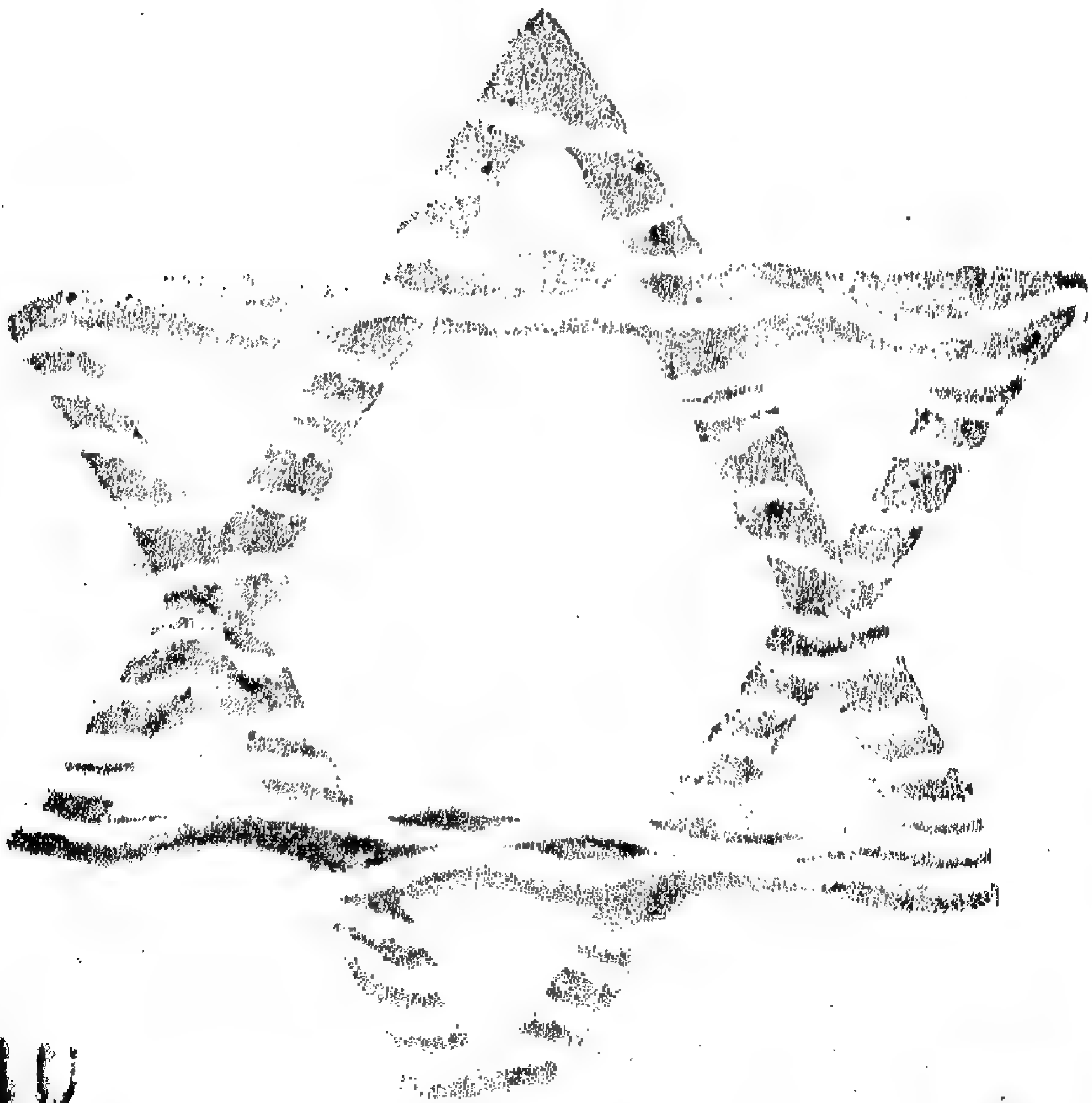


كتاب الهلال

١٠ قروش

إسرائيليات

أحمد بهاء الدين





كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

العدد ١٦٨ – ذوالقعدة ١٣٨٤ – مارس ١٩٦٥

No. 168 — Mars 1965

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

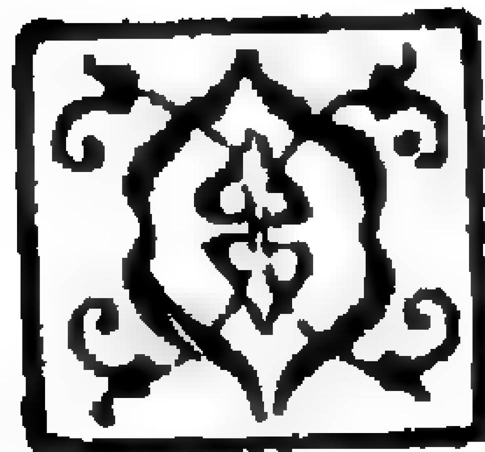
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى – فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا – فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم – فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف – فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

إسرائيليات

بقلم

أحمد بهاء الدين

دار الهلال

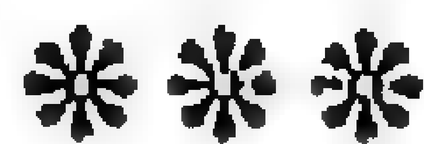
مقدمة

مع أن اسرائيل موضوع تطرقه الصحافة والاذاعات فى شتى أنحاء البلاد العربية كل يوم بل وكل ساعة .. فان ما نعرفه عنها قليل !

يخيل لى أن أكثر حديثنا يتجه الى « اسرائيل بمعناها المباشر ، الماثل للعين المجردة » ، أى اسرائيل الدولة التى قامت بالغزو ، والتى تحتل من الأرض العربيـــة مساحة محددة . اسرائيل التى قامت بفعل قوى أجنبية ، وما زالت تستمر بفعل هذه القوى . اسرائيـــل التى لا تقنع بما حققت : بل انها لا تكف عن طلب المزيد من المهاجرين ، وعينها دائما على المزيد من التوسع

اسرائيل ، بهذا المعنى المباشر الماثل للعين المجردة ، نتحدث عنه كل يوم وكل ساعة .. ولكن الذي لا نتحدث

عنه كثيرا ، ولا تتوقف عنده الا نادرا هو : اسرائيل بمعنى التحدى الحضارى الذى تنطوى عليه .. التحدى الحضارى لهذه الأمة العربية . فقد كان قيام اسرائيل فى حد ذاته علامة من علامات ضعف المنطقة العربيـة وتخلفها الحضارى



مهما كانت القوى التى ساهمت فى اقامة اسرائيل ، فلا مفر من الاعتراف بأن الحركة الصهيونية النشيطة هى التى لعبت الدور الأساسى ، وهى التى جعلت تدخل هذه القوى الدولية لحسابها أمرا ممكنا

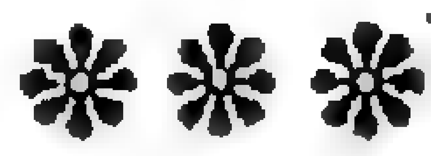
ومهما كانت ــ أيضا ــ هــذه القوى التى ضحت بمصالح العرب : فلا مفر من الاعتراف بأن الحـركة العربية كانت على درجة من الضعف والتفكك وعدم الدراية بحقائق العصر ، جعلت انتصار هذه القوى عليها سهلا وممكنا

تلك هى الحقائق التى يجب أن نواجهها .. واذا لم نعترف بهذه الحقائق ونواجههـا ، فكأننا لم نتعلم من كارثة فلسطين شيئا !

واذا كنا لا نعترف بهذه الحقائق ، فكأننا لا نعرف

ـ بعد ـ أبعاد الصدام مع اسرائيل ..

ان هذا الصدام ليس معركة عسكرية وليس معركة سياسية . انه شيء أوسع من هذا وأعمق . انه معركة حضارية . والحرب والسياسة ليسا سوى عنصرين عابرين من عناصر واحتمالات المعركة الكبرى الطويلة الأمد ، هى هذه المعركة الحضارية ..



والكيان العربى الذى يستطيع أن يواجه تحدى اسرائيل ، ويتخطاه .. ليس مجرد حشد عسكرى قوى أو عمل سياسى بارع . ان هذه أيضا عناصر هامة : ولكن الأهم منها أن يكون هذا الكيان نفسه مستكملا سائر أسباب القوة الحضارية : من تقدم مادى ومعنوى وثقافى وعلمى ..

ولكى نفهم التحدى الذى تفرضه اسرائيل علينا ، يجب أن نفهمها من الداخل .. يجب أن نفهم العوامل القديمة والجديدة التى تدخل فى تكوين هذا التحدى .. سواء كانت هذه العوامل موجودة فى التاريخ القديم أو فى التاريخ المعاصر.. سواء كانت هذه العوامل موجودة داخل اسرائيل أو خارج حدودها .. سواء كانت هذه

العوامل موجودة فى مجال السياسة ، أو الاقتصاد ، أو الفكر ، أو الفن ، أو التراث ..

اننى أطالب بأن تكون الجبهة التى نواجه عليها اسرائيل أوسع من الكيلومترات التى تتكون منها حدودها الجغرافية .. لأن هذه الجبهة بالفعل ، شئنا أم أبينا ، أطول من هذه الحدود .. وأعمق من المسافة التى تفصل بين خطوط الهدنة .. والبحر !

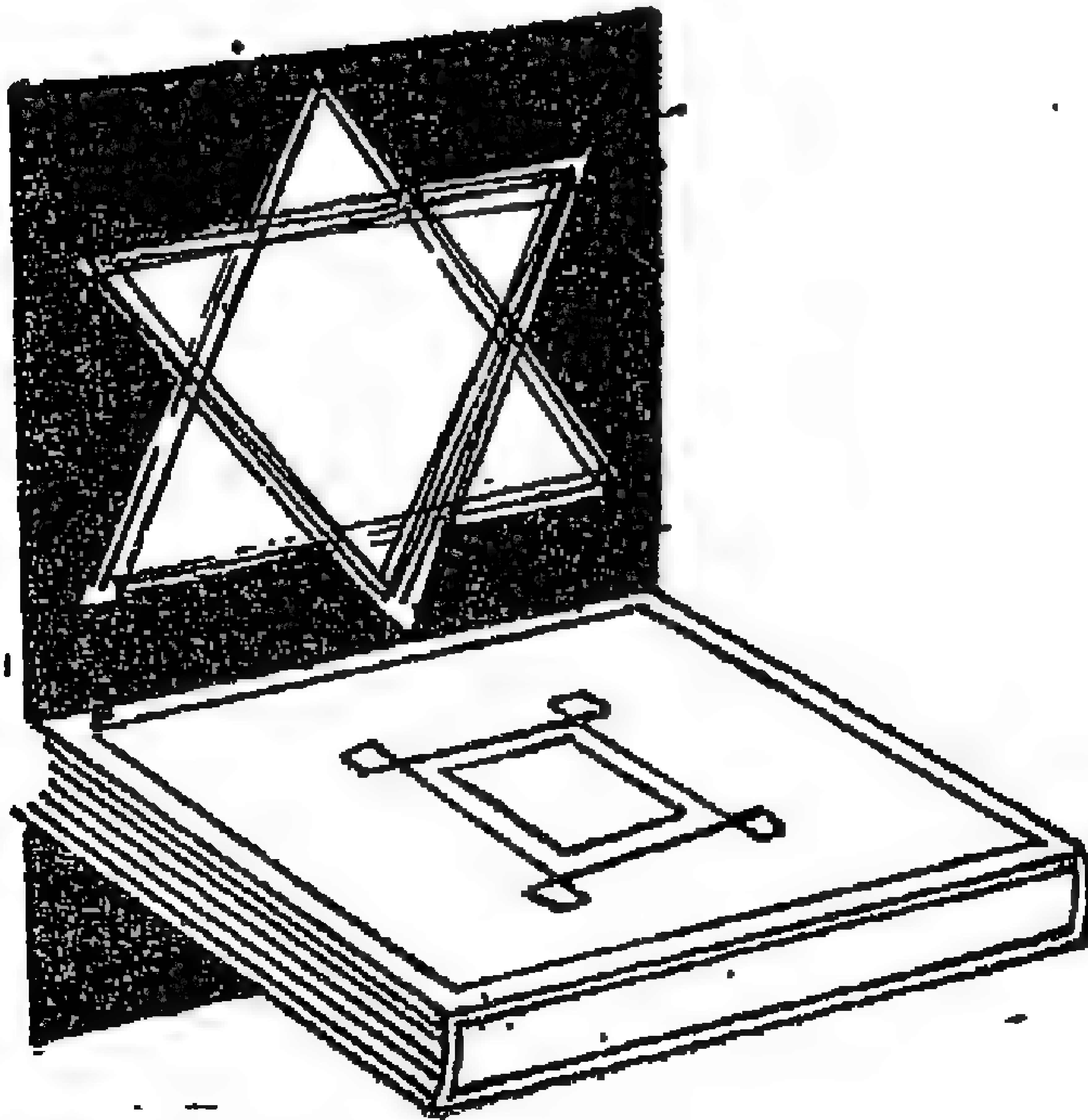
والكتاب الذى بين يديك محاولة فى هذا الاتجاه

احمد بهاء الدين

الفصل الأول

مدخل إلى اسرائيل !

- أسرار العمل الدبلوماسي الصهيوني خلال نصف قرن
- الفرق بين اليهودية والصهيونية
- قيصر روسيا .. والخليفة التركي .. ثم إلى لندن
- متى انتقلت قيادة الحركة إلى أمريكا ؟
- وايزمان .. من روزفلت إلى ترومان
- رد فعل العرب



هذا الكتاب بالغ الاهمية ..

انه لا يستعرض تاريخ الحركة الصهيونية أو تاريخ اسرائيل .. ولكنه يركز على نقطة واحدة هي : العمل الدبلوماسي الصهيوني ، الذي كان يتم دائما على كل مستويات السلطة والنفوذ في أوروبا وأمريكا ..

انه يروي قصة الحركة الصهيونية وهي تضغط على أبواب الخليفة التركي ، ثم القيصر الالماني ، ثم رئاسة الوزارة الانجليزية .. وأخيرا : البيت الابيض والكونجرس في الولايات المتحدة ...

ومؤلف الكتاب شاب اسمه « الن تايلور » والعنوان الاصلي للكتاب هو : Prelude to Israel أي « مدخل الى اسرائيل » . والكتاب نفسه مطبوع في الولايات المتحدة الامريكية ، فهو لا يمكن أن يتهم بانه متحيز ضد الصهيونية ، لاي سبب من الاسباب ..

وليست قيمة الكتاب في أنه وثيقة خطيرة ضد الحركة الصهيونية وضد اسرائيل وضد الدول التي ساعدتها على أن تقوم .. ولكن قيمته أيضا في أنه درس خطير للعرب ، يفتح عيونهم على مايدور في هذا العالم من تيارات تحتية ومن أساليب في العمل السياسي ...

يقول المؤلف ان هدفه من هذا الكتاب هو الكشف عن جذور الصهيونية كحركة سياسية ، وكيف تبلورت أهدافها

ثم كيف انطلقت تعمل فى سبيل تحقيق هذه الاهداف

ومن البدء ، ينبه المؤلف الى أن القول الشائع بأن الصهيونية حركة دينية ، قول غير صحيح .. فهى فى الواقع حركة سياسية ، قامت تحمل الرد السياسى على نزعة معاداة السامية ، ذلك الرد الذى تلخص فى : خلق دولة صهيونية ، واعطاء « اليهودية » صفة القومية

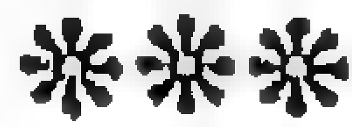
انها حركة سياسية ، غير دينية ، قامت فى شرق أوربا من جراء اضطهاد اليهود في روسيا وبولندا وألمانيا .. ولكنها ، طمعا فى تأييد يهود العالم ، عمدت الى استخدام تلك الفكرة الرومانتيكية ، « فكرة العودة » .. ومن هنا خلط الناس بين « الصهيونية » وبين « اليهودية » ، رغم ان الصهيونية فى أساسها حركة غير دينية

الخطأ الثانى الشائع ، الذى يقول المؤلف انه يريد أن ينفيه ، هو : الوهم الذى يظن أن قيام دولة اسرائيل جاء مصادفة ، نتيجة للامل اليهودى القديم فى العـــودة الى فلسطين . وهذا غير صحيح . فالحقيقة التى يريد أن يثبتها الكتاب هى أن اسرائيل قامت نتيجة للجهـــــد المخطط المنظم الذى بذلته الحركة الصهيونيـــة . ان الصهيونية تبدو لمن يتأملها تأملا عابرا، حركة مليئةبالفرق والشيع والاحزاب ، ولكن من يحلل سياستها وتصرفاتها ، يجدها تتم فى ترتيب وتنسيق عجيبين ، يوحى بوجود قيادة واحدة على الدوام . ويقول المؤلف هنا : انه قد يكون من المتعذر أن نثبت وجود قيـــــادات عليا تقـــــوم بهذا التخطيط . ولكن النظر الى انسجام تصرفاتهـــــا يجزم بوجود هذا التصميم المدروس

ملاحظة ثالثة وأخيرة يسجلها المؤلف فى تقديمـــه للكتاب ، هي : ان كلمة الصهيونية فى كتابه انما تنصرف

الى الصهيونية السياسية • ففى بدء الحركة الصهيونية كانت هناك صهيونيتان على الاقل : صهيونية ثقافيـــة ، تهتم ببعث اللغة اليهودية والثقافة اليهودية ، وصهيونية سياسية لا تستهدف سوى اقامة الدولة اليهودية

وهذه الصهيونية السياسية ، كانت فى البدء مستعدة لاقامة الدولة فى أى مكان آخر ممكن ، غير فلسطين ، مما يؤكد أنها كانت منصرفة فى الدرجة الاولى الى اسباغ صفة القومية السياسية على العنصر اليهودى ، وأن فكرة«العودة» الدينية الى فلسطين لم تظهر الا فيما بعد ، كورقة رابحة لا غير ..



فكرة الصهيونية فى حد ذاتها ، عاشت خـــلال قرون طويلة كناحية من نواحى اليهودية والمسيحية على السواء• فى اليهودية كانت تعيش نتيجة ربط اليهودية بالمملكة العبرية القديمة فى فلسطين • وفى المسيحية ، بدأت توجد منذ عصر كرومويل حين كان هناك اعتقاد بان مرور الف سنة على رسالة المسيح سيضمن اعادة اليهود الى فلسطين

ولكن الصهيونية كحركة صهيونية ، ليست سوى من مواليد القرن التاسع عشر • فقد بدا لبعض الوقت أن حركة التحرر والمساواة التى بدأت تغزو أوروبا ســوف تحل مشكلة اليهود • ولكن اعترض ذلك عقبتان : العقبة الاولى جاءت من اليهود انفسهم ، الذين كرهوا ما يحمله هذا التحرر من احتمال اندماجهم فى الآخرين .. حتى ان ناحوم جولدمان ، الرئيس الحالى للحركة الصهيونيـــة العالمية ، يقول « ان اقامة دولة يهودية هـــدفه حفظ الشعب اليهودى من خطر التحرر والاندماج » • أما العقبة الثانية فكانت من أوروبا نفسها : فحين بدأ التسامح الدينى يسود ، أخذ التعصب القومى الذى كان بارزا فى القرن

التاسع عشر يتخذ مظهرا عنيفا ، جعل عملية تقبل اندماج اليهود فى القوميات البازغة يصبح صعبا من جديد

ثم جاء حادث هام : هو حادث اغتيال القيصر اسكندر الثانى فى روسيا سنة ١٨٨١ ، فقد أرادت السلطات الروسية وقتها ان تجعل من اليهود كبش الفداء فى هذا الحادث ، فاندلعت عاصفة من ذبح اليهود واضطهادهم .. أدت الى موجة من الهجرة الى غرب أوروبا وأمريكا • ولكن ثلاثة الاف من المهاجرين اليهود ذهبوا فى تلك السنة الى فلسطين • وفى سنة ١٨٨٢ أقاموا « مستعمرة ريشون ليزيون « بالقرب من يافا

وفى نفس تلك السنة ، ظهرت فى روسيا لاول مرة حركة عرفت باسم Chibbath Zion أى «حب صهيون»، وكان أنصارها يتجمعون فى حلقات اسمها « أحباء صهيون »

كانت أهداف هذه الجماعات هى الهجرة الى فلسطين واحياء اللغة العبرية • وهكذا ظهرت لاول مرة بذور الصهيونية السياسية

وقد تم الاعتراف بهذه الجمعيات فى سنة ١٨٩٠ تحت اسم « جمعية مساعدة الصناع والمزارعين اليهود فى سوريا وفلسطين »

كان رئيس هذه الحركة يحمل اسم « ليون بنسكر Leon Pinker » • وكان قبل ذلك رئيسا لاحدى جماعات أحباء صهيون • وهو فى الواقع أول من دعا الى اقامة وطن قومى لليهود ، دون التمسك بأى مكان معين لهذا الوطن ..

ولكن هذه الحركة لم تلبث أن تصدت لها معارضتان : الاولى من اليهود أنفسهم ، الذين عارضوا فكرة الوطن

اليهودى أياكان ، والمعارضة الثانية من الامبراطورية العثمانية اذ أصدر الباب العالى سنة ١٨٨٨ فرمانا يقضى بمنع اية هجرة جماعية يهودية الى أراضى الدولة العثمانية ، ولا يسمح للحجاج اليهود بقضاء أكثر من ثلاثة أشهر فى فلسطين ..

وتجمدت الحركة تماما ..

أما الرجل الذى دفع بهذه الحركة الى الوجود مرة أخرى فهو يهودى مجرى ، تعلم فى فيينا ، اسمه تيودور هرزل

كان هرزل قانونيا بدراسته ، ولكنه كان يعمل صحفيا يراسل احدى صحف فيينا من باريس ، حين اثيرت « قضية دريفوس » الشهيرة فى فرنسا ، سنة ١٨٩٤

وأدرك هرزل ما تنطوى عليه ظروف هذه القضية من نزعة عدائية للسامية . ووصل هرزل الى نتيجة هى انه اذا كانت فرنسا بلد الحريات يمكن أن تهب عليها عاصفة من هذا النوع ، فمعنى ذلك انه من الممكن ان تتخذ معاداة السامية أشكالا أشد عنفا وقسوة فى سائر بلاد أوروبا التى ليس لها أى حظ من التحرر الفرنسى ..

وفى صيف نفس السنة ، ١٨٩٤ ، أصدر هرزل كتابا صغيرا بعنوان « الدولة اليهودية » : يدعو فيه الى اقامة مستعمرة يهودية تحت وصاية انجلترا ، تكون فى فلسطين أو في الارجنتين ، على أن تتطور بعد ذلك الى دولة يهودية قومية مستقلة ذات سيادة

ولا شك أن حديث هرزل عن امكان اقامة وطن قومى لليهود فى الارجنتين ، يستوقف النظر . فهو يدل على أن الحركة الصهيونية ظهرت الى الوجود لاسباب سياسية فقط هى الرد على حركة معاداة السامية ، وليس لتحقيق نبوءات اليهودية القديمة فى العودة الى فلسطين . وقد بقى جوهر

الصهيونية هكذا دائما سياسيا تماما ، وغير ديني. صحيح أن فكرة «العودة» الرومانتيكية قد أدخلت عليها بعد ذلك، ولكن لا لسبب سوى الاستفادة من جلابيتهـــا في كسب الانصار . اما الحركة الصهيونية فقد بقيت على الدوام كما ولدت : حركة عملية واقعية لا مذهبية •• حركة سياسية للرد على مشكلة سياسية معينة ، لا لتحقيق نبوءة دينية

كان لنشر كتاب هرزل ردود فعل مختلفة ، ولكنه جمع حوله عددا لا بأس به من الانصار ، شجعه على الدعوةالى عقد أول مؤتمر صهيوني عالمي ، وهي الفكرة التي سبق ان اقترحها نفس الرجل الذي نحت كلمة « صهيونية » وهو ناثان برنباوم Nathan Birnbaum .

وفي أغسطس ١٨٩٧ ، انعقد أول مؤتمر صـــــهيوني عالمي ، في مدينة « بال » السويسرية • وفي خطـــــاب الافتتاح ، قال هرزل « اننا هنا لنضع حجر الاساس في بناء البيت الذي سوف يأوى الامة اليهودية » • ثم اقترح برنامجا من ثلاث نقط :

أولا ـ تشجيع القيام بحركة هجرة منظمة واســـعة النطاق الى فلسطين

ثانيا ـ الحصول على اعتراف دولي بشرعية هذا التوطن في فلسطين

ثالثا ـ انشاء منظمة دائمة لضم صفوف يهود العـــالم اجمع وراء القضية الصهيونية

ويقول المؤلف : ان هذه الاهداف الثلاثة ظلت وما تزال هي المهمات الاساسية للحركة الصهيونية : جمع اليهود في فلسطين • الحصول على تأييد الدول الاجنبية • وكسب اليهود الى صف الفكرة الصهيونية

واذا كان هرزل قد استخدم كلمة « دولة » فى التعبير عن هدف الصهيونية ، الا أن المؤتمر فى قراراته النهائية فضل استخدام كلمة Heimstatte أى Homestead حتى لا يحدث رد فعل عنيف

ويرى المؤلف أن هرزل أثناء مناقشة الصياغة وهل يقال دولة أو وطن قومى ، قال : « لا تهم الصياغة ! سيقرأها اليهود على أى حال على أنها « دولة يهودية »

وقبل أن يتم المؤتمر أعماله ، كان قد فرغ من وضع أول نظام للمنظمة الصهيونية العالمية ، بما فيها من أجهزة قيادية وأجهزة تقوم مقام وزارة الخارجية فى أى بلد . فمنذ سنة ١٨٩٧ كان قد تم وضع الخطة ، ورسم الاهداف واقامة « جهاز حكومة » يتولى التخطيط والتنفيذ

وانطلق هرزل ، بوصفه أول رئيس للمنظمة الصهيونية العالمية ، الى العمل

كان هرزل يعلم جيدا ، أن حجر الاساس فى اقامة هذا الحلم ، هو : موافقة الدول الاجنبية ذات الشأن ، نفس الخط الذى لم تتركه الصهيونية لحظة واحدة ، قبل قيام دولة اسرائيل وبعد قيامها ...

ولجأ هرزل أول الامر الى أحد الحكام الاقوياء فى اوربا ، هو الامبراطور غليوم الثانى : بداية المرحلة وراء الاقوياء من المانيا الى انجلترا ثم الى امريكا ...

لجأ هرزل الى القيصر غليوم الثانى الذى كانت تراوده أحلام قدسية فى الشرق ، اذ قابله فى القسطنطينية ، سنة ١٨٩٨ ، خلال رحلة القيصر فى أرجاء الامبراطورية العثمانية . واقترح هرزل على القيصر اقتراحا خبيثا : اقترح عليه انشاء شركة لاستثمار الاراضى ، يباشرها الصهيونيون تحت حماية ألمانيا واشرافها . وقال القيصر انه سيفكر فى الامر . وطارد هرزل القيصر حتى

قابله مرة ثانية خلال نفس الرحلة ، فى فلسطين ، يوم ٢ نوفمبر سنة ١٨٩٨

ولكن القيصر كان قد عقد عزمه على الرفض • وقال ان مثل هذا العمل سوف تعتبره الامبراطورية التركية تدخلا غير مباشر فى شئونها • وقد يثير الدول الاخرى المتربصة بنهاية الامبراطورية التركية المريضة : انجلترا وفرنسا وروسيا ••

وقرر هرزل أن يقصد الباب العالى مباشرة • وفى مايو سنة ١٩٠١ توصل الى مقابلة السلطان العثمانى فى القسطنطينية • وطرح عليه نفس الموضوع بشكل آخر ملائم له ، هو : ان يقوم اليهود بمساعدة السلطان على اعادة تنظيم المالية التركية المرتبكة ، واستثمار الاراضى المهملة فى الامبراطورية مقابل السماح بالهجرة الى فلسطين • ولكن السلطان قال انه لا يستطيع أن يسمح بهجرة يهودية جماعية الى فلسطين

وازاء هذا الفشل ، نقل هرزل نشاطه الى الدولة التى اقترحها من قبل ، كراعية للحركة الصهيونية ، وهى انجلترا ••

وفى سنة ١٩٠٢ ، دخلت المنظمة الصهيونية فى مباحثات جدية مع الحكومة الانجليزية بقصد اقناع انجلترا بمنح الحركة جزءا من شبه جزيرة سيناء ، يقيمون فيها وطنهم القومى ، كجزء من الامبراطورية البريطانية

كانت انجلترا فى ذلك الوقت تحتل مصر ، التى تتبعها شبه جزيرة سيناء ، وكانت سيناء بذلك أقرب مكان ، تحت النفوذ الانجليزى ، الى فلسطين • ولا شك أن الحركة الصهيونية اختارتها ، رغم جفاف الطبيعة فيها ، كنقطة ملائمة للوثوب على فلسطين عندما يحين الوقت •

فضلا عن أن سيناء أيضا مكان جرت فيه ذكريات دينية يهودية • ولنتذكر هنا ، أن بن جوريون ، بعد هذه المباحثات بنصف قرن ، انتهز فرصة حرب السويس التى شنها على مصر بالاشتراك مع انجلترا نفسها ، ليقف فى برلمان دولة اسرائيل ويعلن ضم سيناء الى اسرائيل !

المهم ، ان المباحثات توقفت • لان انجلترا ، كما يقول المؤلف ، وجدت معارضة مصرية .. لسنا نعرف قصتها بالضبط ، ولكنها فى رأى المؤلف : كانت أول اشارة الى معارضة العرب فى اقامة وطن قومى يهودى على أرضهم ..

وبعد سنة ، توصل هرزل الى عقد مشروع اتفاق آخر مع الحكومة البريطانية يقضى بمنح أوغندا للمنظمة الصهيونية بقصد تعميرها والتوطن فيها • وقدم هرزل هذا المشروع الى المؤتمر الصهيونى السادس • ولكن يبدو أن المؤتمر لم يتحمس للفكرة كثيرا ، أو وجدها محتاجة الى دراسة ، فقرر فقط ارسال بعثة الى أوغندا لدراسة امكانياتها

ومات هرزل سنة ١٩٠٥ ، قبل اتخاذ اى قرار نهائي فى الموضوع ، فكانت النتيجة ان الحركة الصهيونية انقسمت بعد موته الى فريقين : فريق يرى أن المخرج الوحيد لليهود هو الاسراع بقبول أى عرض لاقامة دولتهم ، فى فلسطين أو فى غيرها • وفريق يرى انه اما فلسطين والا فلا لأن فلسطين هى المكان الوحيد الذى يمكن أن ينجذب يهود العالم اليه

فلما جاء المؤتمر الصهيونى السابع سنة ١٩٠٥ ، انتصر الفريق الثانى ، واتخذ المؤتمر قرارا يعلن أن الحركة الصهيونية يجب أن تستهدف اقامة وطن اليهود القومى فى فلسطين بالذات

ومن سنة ١٩٠٥ ، الى سنة ١٩١٤ ، يوم نشبت الحرب العالمية الاولى ، كان التوطن اليهودى فى فلسطين يتزايد فى صمت والحاح ، حتى وصل عدد المستوطنين الجدد الى ١٢ ألفا ، يعيشون فى تسع وخمسين مستعمرة ..

وكان النفوذ الصهيونى ، قد هاجر بنفس الكثافة الى لندن حيث تركز هناك : فانجلترا كانت القوة العالميــة الكبرى ، التى يمكنها أن تمنح اليهود مايشاءون ..

كانت الحرب العالمية الاولى نقطة تحول تاريخية ، بل وفرصة ذهبية للحركة الصهيونية

فها هى الامبراطورية التركية، واضعة اليد على فلسطين، تدخل فى صدام مسلح حاسم مع انجلترا ، التى بدأت تتقبل الحركة الصهيونية وتبحث عن طريقة مناســبة لاستخدامها . والرهان على انهيار الامبراطورية التركيــة المريضة وانتصار انجلترا والحلفاء ليس صعبا . لهذا كان طبيعيا أن تجد الحركة الصهيونية فى هذه الحرب فرصتها الذهبية ، بشرط : أن تضع كل ثقلها الى جانب انجلترا وأن تتأكد من حصولها على الثمن المناسب

وبرز فى هذه المرحلة اسم « حاييم وايزمان » . وكانت ترشحه لقيادة الحركة الصهيونية ظروف كثيرة

فهو من جهة ، كان احد الداعين الى تآلف واندماج كل التيارات فى الحركة الصهيونيةا ، والى ضرورة الجمع فى آن واحد بين الجوهر السياسى للحركة والورقــة العاطفية الرابحة ورقة « العودة »

وهو من جهة أخرى ، كان قد توطن فى انجلترا وبدأ فيها نشاطا سياسيا واسعا بالفعل . ففى سنة ١٩٠٤ هاجر هذا الكيميائى الروسى الى لندن حيث عاش وبدأ يتصل بالكتاب والصحفيين والساسة من جميع الاحزاب

وكان أول نجاحين له هما : أولا توصله الى عقد صداقة قوية مع لورد بلفور ، الذى لم يكن قد أصبح وزيرا بعد ، والذى قال مرة وهو يقدم وايزمان الى بعض أصدقائه : « هذا هو الرجل الذى جعلنى صهيونيا ! » ..

وثانيا توصله الى كسب « سكوت » رئيس تحرير المانشستر جارديان ، احدى الصحف الكبرى ذات النفوذ

وكان « سكوت » هذا هو الذى عرف وايزمان الى بعض الوزراء الانجليز لاول مرة : عرفه على « هربرت صامويل » ، الوزير اليهودى ، كما عرفه على « لويد جورج » الذى أصبح رئيسا للوزراء فيما بعد : وهكذا بدأ تمهيد الارض لكى تمارس الدبلوماسية الصهيونية عملها وتؤتى ثمارها ..

ويتساءل المؤلف : ترى ما هو السبب الدفين وراء تلك الموجة من تأييد الصهيونية ، التى نمت ، ويا للغرابة ، فى هذا المجتمع الانجليزى المسيحى ؟ ..

ويورد المؤلف رد المؤرخ الانجليزى الكبير ارنولد توينبى على هذا السؤال ..

يقول توينبى : ان المصدر الاول لهذه الموجة هو شعور دفين بالذنب لدى بعض غير اليهود ، الذين هم فى قرارة نفوسهم معادون للسامية ، رغم عدم رضاهم العقلى عن هذا الشعور ، فهم « يكفرون » عنه بتأييد اليهود علنا . والمصدر الثانى فى رايه هو ان هذا نموذج انجلو سكسونى من نماذج المكيافيلية الممتزجة بالفرنسية !!

أى نموذج من قدرة الانجلوسكسون على مزج أهدافهم السياسية والمصلحية بشعارات تبدو انسانية

واظن ان هذا التفسير الثانى هو الاصدق ، مع عدم استبعاد التفسير الاول استبعادا نهائيا

فمصلحة الانجليز فى تبنى هذه الحركة الصهيونية واضحة : فحيثما حل الاستعمار الانجليزى نجده يعمد الى اقرب مشكلة من مشاكل الاقليات فيخلقها اذا لم تكن موجودة ، وينميها اذا كانت موجودة ، وذلك بقصد استخدامها فى خلق مشكلة تصرف الشعب عن مشكلته مع الاحتلال • ولكى يوجد دائما « نقطة ضعف » داخلية فى المجتمع يبنى عليها وجوده ، واستمرار تدخله • ولكى يكون له فى النهاية قطاع من المجتمع مستفيد من وجود الاستعمار ومرتبط به

وفى منطقة كبرى بالغة الخطورة كالمنطقة العربية •• وابان ثورة عربية كانت تتبلور تحت جنح الظلام التركى المنسحب •• لماذا لا يوجد هذا الجسم الطارىء الغريب ، هذا الجسم الصهيونى ، الذى قدم نفسه لانجلترا بالتأكيد على أنه مندوب لها ، وقطعة مرتبطة بها ، أبقى لها فى المنطقة من أى جيش مسلح ؟

فاذا غطت انجلترا هذه المصلحة بغطاء انسانى شفاف هو : الرغبة فى حل المشكلة اليهودية .. واذا كسبت الى جانب ذلك تأييد كل اليهود لها ، وتحولهم الى شبه عملاء لحسابها ، بأموالهم وانتشارهم الاوربى الكبير .. فلماذا ترفض انجلترا كل هذا الاغراء ..

ويضيف المؤلف الى هذا كله : ان كثيرا من الغربيين قد خلطوا بين الصهيونية والليبرالية ، وهى نزعة التحرر الانسانى والمساواة • فظنوا ان الصهيونية تحاول حل مشكلة اليهود ، وحل مشكلة اليهود خطوة منطقية مع موجة التحرر الانسانى والمساواة • وجهلوا بسبب هذا الخلط ان « المتحررين » حقاهم اليهود الداعون الى اندماج اليهود فى المجتمعات التى يعيشون فيها ، اما اليهود الصهيونيون ، فهم انما يقدمون حلا عنصريا دينيا

متعصبا ، وليس حلا انسانيا متحررا متسامحا

المهم ، ان الاداة الصهيونية في انجلترا بدأت تتحرك ، بدرجة عالية من التنظيم والدراية ..

ففى نوفمبر ١٩١٤ ، كتب « حاييم وايزمان » الى صديقه رئيس تحرير المانشستر جارديان شارحا الخط الصهيونى فقال بالحرف الواحد :

« من الممكن الان ان نقول انه اذا وقعت فلسطين فى دائرة النفوذ البريطانى ، واذا شجعت انجلترا بعد ذلك توطن اليهود هناك ، كمستعمرة بريطانية ، فاننانستطيع ان نوجد خلال الثلاثين سنة القادمة حوالى مليون يهودى فى تلك البلاد : فيطورونها ، وينقلون الحضارة اليها ، ويكونون بمثابة حرس فعال لقناة السويس »

وقد أسعفهم فى هذا الجزء الاخير أن لورد كتشنر كان من رأيه ايضا ان فلسطين هى الموقع الاستراتيجى الذى يجب الاعتماد عليه للدفاع عن قناة السويس فى المدى الطويل .. فأخذوا ينشرون هذا ويذيعونه ..

تلك اذن هى الخطة الصهيونية لمرحلة الحرب العالمية الاولى :

١ ـ ان ينتصر الحلفاء ، وعلى راسهم انجلترا

٢ ـ ان تكون فلسطين من تصيب انجلترا

٣ ـ أن تسهل انجلترا استيطان اليهود فى فلسطين

٤ ـ ان ينتهى الامر بسيطرة اليهود على فلسطين ، فى مقابل استمرارهم فى خدمة مصالح انجلترا بحراسةقناة السويس لحسابهم

ويلاحظ المؤلف ان كل هـذه النقط الاربـع قد تحققت ..

وأضيف : انها تحققت حتى وقوع حرب السويس . فاشتراك اسرائيل مع انجلترا فى الهجـــوم على مصر ، بمناسبة تأميم قناة السويس ، فى المؤامرة المشهورة ، هو حدث غريب ساقته الظروف لتأكيد تنفيذ البند الرابع من هذا « التفاهم »

وأظن أن نظرة المصلحة الانجليزية فى موضـــــوع الصهيونية كلها ، منذ مطلع القرن العشرين ، أصبحت واضحة تماما .. غـــير محتاجة الى تحليـــلات توينبى النفسية !

وفى ذلك الوقت كان لويد جورج وهربرت صمويل قد بدءا فى اقناع سائر الوزراء الانجليز بهذه السياسة . حتى تعهد سير ادوارد جراى وزير الخارجية باقامة مثل هذه الدولة فى المستقبل ، منضما بذلك الى انصـــار الصهيونية فى مجلس الوزراء البريطانى

ولكن هذه السياسة ، مع ذلك توقفت قليلا مصطدمة بعقبتين :

العقبة الاولى : هى ان اسكويث رئيس الوزراء كان مرتبطا بسياسة احلال العرب محل الاتراك كأصـــدقاء وحلفاء لانجلترا فى الشرق الاوسط

والعقبة الثانية : ان كتلة كبرى من اليهود ، كانوا يرون ان حل مشكلة اليهود هو الذوبان فى المجتمــــع الاوروبى ، وأن خلق دولة صهيونية معناه زيادة النزعة المعادية للسامية فى أوروبا ، بدلا من اطفائها ..

ويروى المؤلف انه فى تلك الاثناء ، عرف وايزمان من لويد جورج ، الذى كان رئيسا للجنة المجهود الحربى ، ان انجلترا تبحث عن طريقة علمية لانتاج مادة الاسيتون واستخدامها فى انتاج المتفجرات بكميات كبيرة : وعكف

وايزمان سنة كاملة فى أبحاث متصلة لهذا الغرض ، حتى نجح أخيرا فى انتاج المادة المطلوبة • وبناء على ذلك ، وبتوسط لويد جورج ولورد بلفور الذى كان قد اصبح وزيرا ، تم تعيين حاييم وايزمان فى مركز مرموق فى وزارة البحرية البريطانية • ويقول المؤلف ان وايزمان انطلق يعمل فى المجهود الحربى البريطانى دون ان يثير موضوع فلسطين • ولكن بلفور قال له مرة « اتعلم انك بعد الحرب قد تحصل على القدس التى تريدها » فسبب انهماك وايزمان فى عمله ، والثمن الذى كان يتوقعه ، لم يكن خافيا على أحد

فى تلك المرحلة بالضبط ، اى فى سنة ١٩١٥ ، بدأت الحكومة البريطانية تتخذ لاول مرة خطوات جديدة ورسمية فى إتجاه الصهيونية • وهى خطوات يقول المؤلف انها كانت مشوبة بالحذر ، لعلم الوزراء المؤيدين للصهيونية بميل رئيس الوزراء «اسكويث» الى التزام جانب العرب ••

ففى مارس ١٩١٥ ، أرسل سير ادوارد جراى وزير خارجية انجلترا الى سير ادوارد بوكانان سفير انجلترا فى سان بطرسبورج ، عاصمة روسيا القيصرية فى ذلك الوقت •• ارسل اليه مذكرة يشرح فيها رأى الحكومة البريطانية فى العلاقة بين فلسطين والصهيونية العالمية • كانت المذكرة تقول ان فلسطين هى الثمن الذى يمكن بواسطته كسب تأييد اليهودية العالمية كلها الى جانب الحلفاء • وكانت تقول ايضا انه لو اطلقت المنافسة بين العرب واليهود فى فلسطين فسوف تقع فلسطين تحت ادارة اليهود ••

وكانت تعليمات وزير الخارجية البريطانية الى سفيره تقضى بتسليم المذكرة الى « سازانوف » وزير الخارجية الروسى • ورد الروس على المذكرة بالموافقة ، بشرط

المحافظة على مصالح الكنيسة الروسية فى الاراضى المقدسة

وفى نفس السنة ، عين « مارك سايكس » مساعدا لوزير الحرب البريطانى ، واصبح الشرق الاوسط بالذات داخلا فى اختصاصه • وبالتالى كان لابد أن تتجه شبكة الدبلوماسية الصهيونية الى هذا الوجه الجديد ، بغيـــة اصطياده • وبالفعل تولى أمره صهيونى انجليزى اسمه « موسى جاستر » ، اعترف سايكس بعد ذلك بانه كان الرجل الذى حوله الى نصير للصهيونية ، بعد توليـــه منصبه الخطير

وبعد وصول مذكرة سير ادوارد جراى الى ســــــان بطرسبورج بقليل ، وصل سايكس الى العاصمة الروسية، حيث بدأ مباحثاته الشهيرة التى انتهت باتفاقية «سايكس ـ بيكو » المعروفة فى التاريخ العربى

كان المنطق الذى استخدمه سايكس هو : ان اليهود الامريكان يمكن ان يفيدوا قضية الحلفاء فائدة عظيمــة بمساهمتهم فى اقناع امريكا بدخول الحرب فعـــلا الى جانب الحلفاء • وقال سايكس لجورج بيكو وزيرخارجية فرنسا : ان اعطاء الصهيونية حق اقامة وطن قومى فى فلسطين هو الورقة الوحيدة التى يمكن بها كسب يهود العالم بما فيهم يهود امريكا • وعلى الفور ارسلت الحكومة الفرنسية استاذا يهوديا فرنسيا ، اسمه فكتور باخ الى الولايات المتحدة ليقنع يهودها بان انجلترا وفرنســـا تضمنان حماية المستعمرات اليهودية فى فلسطين بعـــد الحرب • ولكن مهمة باخ فشلت فى أمريكا • فلم يكن اليهود هناك وقتها مهتمين بالامر ، فبدأ سايكس نفسه يفقد اهتمامه بالصهيونية بعد ان وجد انها لن تســـهم فى جر امريكا الى الحرب

ولكن اتفاقية سايكس ـ بيكو لم تقض على اى حال بتسليم فلسطين الى العرب ، انما قضت بتسليمها للانجليز ، مما ابقى الفرصة مفتوحة على مصراعيها أمام الدبلوماسية الصهيونية لمواصلة العمل ..

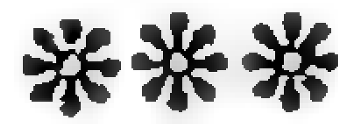
وفى اكتوبر سنة ١٩١٦ ، توصل الى سايكس صهيونى آخر ، أرمنى الاصل ، اسمه جيمس مالكولم ، نجح فى اثارة اهتمام سايكس من جديد بفائدة الحركة الصهيونية اذ اقنعه بان هناك قاضيا صهيونيا كبيرا فى امريكا ، هو القاضى برندايس « الذى تحمل اسمه الجامعة الامريكية التى أعطت بن جوريون دكتوراه فخرية منذ سنوات » ، وان هذا القاضى له نفوذ خاص لدى الرئيس الامريكى ويلسون ، وبالتالى يستطيع ان يساهم فى اقناع ويلسون بدخول الحرب الى جانب الحلفاء ضد المانيا . واقتنع سايكس من جديد بهذه الفكرة ، فعاد يستحث مجلس الوزراء البريطانى على قبول فكرة الدخول فى مفاوضات مباشرة مع المنظمة الصهيونية العالمية حول فلسطين . واخيرا وافق مجلس الوزراء البريطانى . واختير مالكولم هذا وسيطا بين الطرفين . وبدأ ممثلو الصهيونية العالمية فى انجلترا يستعدون لانتهاز الفرصة الكبيرة التى انفتحت امامهم ..

كان طلبهم الاول هو ان يسمح لهم باستخدام وسائل الاتصال الانجليزية للاتصال بالصهيونيين فى مختلف انحاء العالم . وببساطة غريبة وافق مجلس الوزراء البريطانى على هذا الطلب الذى بدا له عاديا . ولم ينتبه ، فى رأى المؤلف الى ان هذه سابقة خطيرة فى التعامل الرسمى مع الصهيونية ، وفى ان وسائل المواصلات والاتصال البريطانية انما بدأت تستخدم فى الايحاء الى يهود العالم كلهم بأن بريطانيا تؤيد الحركة الصهيونية

بالذات من بين سائر التيارات اليهودية

وفى تلك المباحثات ، قدم الصهيونيون الى الحكومة الانجليزية مذكرة بعنوان « برنامج لانشاء ادارة جديدة فى فلسطين من وجهة نظر الحركة الصهيونية » .وكانت المذكرة تقترح انشاء شركة يهودية شبه حكومية تحت رعاية حكومتى انجلترا وفرنسا ، مهمتها تشجيع اليهود على التوطن فى فلسطين واستثمارها

وكانت سنة ١٩١٦ سنة سعيدة فى حياة الحركة الصهيونية . فقد ترك اسكويث رئاسة الوزارة ، وحل محله لويد جورج ، الذى كان قد انضم الى معسكر الصهيونية بالفعل ، كما عين لورد بلفور وزيرا للخارجية. وبهذا اصبحت القضية الصهيونية مكسوبة مقدما



بعد شهرين بالضبط من تشكيل الوزارة البريطانية الجديدة ، قرر مجلس الوزراء تكليف مارك سايكس بالدخول فى مفاوضات رسمية مع الحركة الصهيونية . وانعقدت الجلسة الاولى فى بيت « موسى جاستر » ، الرجل الذى جاء ــ منذ قليل ــ ان سايكس قال عنه انه هو الذى كسبه الى هذه الصهيونية

حضر من الجانب الصهيونى موسى جاستر وهربرت صمويل ، وحاييم وايزمان وهارى ساشر ، وقد تكلموا جميعا فى ضرورة اعطاء اليهود صفة قومية ووضعا رسميا فى فلسطين ، مع منح نفس القومية لكل يهود العالم فى نفس الوقت ، دون ان يكون لهذا اثر على وضعهم فى بلادهم من الناحية السياسية . كما طالبوا باباحة الهجرة الى فلسطين دون اى قيد

وقال سايكس ان هناك بعض الاعتبارات التى قـــد تحول دون تحقيق هذه المطالب كلها : فروسيا مترددة ، والعرب سوف يعارضون ، وفرنسا ما زالت تطالب بأن تكون « سوريا الكبرى » كلها من نصيبها بعد الحرب ، بما فيها فلسطين

وكانت نقطة الارتكاز فى حديث الجانب الصهيونى : ان الكيان الصهيونى الذى سيولد ســـيكون جزءا من الامبراطورية البريطانية ، وحارســـا مضمونا لها فى المنطقة ..

ويقول المؤلف معقبا على هذا الاجتماع : انه بالرغم من ان سكان فلسطين كانوا من العرب ، الا ان الصهيونيين لم يحسبوا حتى تلك اللحظة حسابهم قط . ولم يناقشوا موقفهم فى أى مؤتمر من مؤتمراتهم السنوية . لذلك فقد خرج الصهيونيون من هذا الاجتماع وفى ذهنهم ان المشكلة الحقيقية ، بعد كسب انجلترا ، هى اقناع فرنسا ايضا ..

وقد حل الصهيونيون مشكلة روسيا بالموافقة على مبدأ اقامة هيئات دولية تشرف على الاماكن المقدسة . فبقيت فرنسا التى تطالب بسوريا كلها بما فيها فلسطين .. ثم ايطاليا ، التى يوجد فيها نفوذ البابا المسيحى

وفى ٨ فبراير ١٩١٧ ، رتب ســـايكس لقاء بين سوكولوف وزير خارجية روسيا وجورج بيكو وزيـــر خارجية فرنسا فى مقر السفارة الفرنسية بلندن ، وقال سوكولوف ان الصهيونيين يعتقدون انه من المهم جـــدا لمصالحهم ان تكون انجلترا هى التى تشرف على فلسطين بعد الحرب . ونجح سوكولوف فى كسب جورج بيكو ، ولكن بقى أن يكسب بقية الوزارة الفرنسية ، التى كان معظم أفرادها يتمسكون بضرورة استيلاء فرنسا على سوريا

الكبرى كلها ، وكان المتحمسون لهذا الهدف يسمون « بالحزب السورى »

وفى مارس سافر سوكولوف مع سايكس ، والصهيونى الارمنى مالكولم الى باريس .. حيث بدءوا الضغط على الجهات الفرنسية ذات النفوذ . ومن هناك سافر سايكس مع سوكولوف الى روما حيث يقول المؤلف « أن سوكولوف استطاع ، بعد جهد شديد ، ان يزيل مخاوف بابا المسيحيين بشأن مستقبل الفئات غير اليهودية فى فلسطين ، فى حالة اقامة وطن قومى لليهود هناك »

وعندما عاد سايكس وسوكولوف من روما الى باريس ، قدم اليه « جول كامبون » سكرتير عام وزارة الخارجية الفرنسية مذكرة باسم الحكومة الفرنسية تعبر فيها عن تأييدها لمطالب الحركة الصهيونية

ماذا تغير فى ذلك الوقت ، فجعل الفريق المؤيد للصهيونية فى الوزارة الفرنسية ينتصر ؟ ..

انه تدخل مباشر من البارون ادموند روتشيلد ، الذى كان وايزمان قد اقنعه منذ زمن بالانضمام الى جانب وجهة النظر الصهيونية داخل اليهودية العالمية ، فكان روتشيلد يحمل معه كل ثقل تلك الاسرة المالية الشهيرة ، ذات الدور الطويل فى تاريخ السياسة الاوروبية ..

هكذا اعلن بلفور انه مستعد لاصدار بيان يعلن فيه تأييد انجلترا الرسمى لمطالب اليهود فى فلسطين : ففرنسا موافقة ، وروسيا موافقة ، والبابا موافق ، والقاضى الصهيونى الامريكى براندايس أكد له من جديد ان الرئيس الامريكى ويلسون موافق

وصدر وعد بلفور الشهير ..

صدر محتويا على ثلاث نقط :

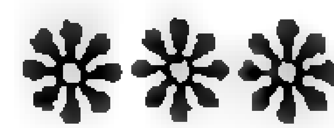
أولا ـ تأييد انجلترا لاقامة وطن قومي لليهود في فلسطين

ثانيا ـ تعاون انجلترا مع اليهود لهذا الهدف

ثالثا ـ ان لا يؤثر هذا على حقوق المجتمعات غير اليهودية الموجودة في فلسطين ، ولا على حقوق اليهود المقيمين في مختلف انحاء العالم

وكان هذا اقل مما طلبه اليهود • ولكنه كان نقطة تحول بالنسبة لهم • وسهل الامر لهم نجاحهم في دفع لويد جورج الى الادلاء بتصريح قال فيه « انه اذا اصبح اليهود اغلبية في فلسطين ، فانه من الممكن عندئذ ان تصبح فلسطين (كومنولث يهودي) •• »

أي : يا أيها اليهود ! عليكم بالهجرة ! ويوم تصبحون أغلبية ، ستكون لكم فلسطين



بالرغم من أن الحركة الصهيونية كانت تتجه بسرعة الى التركيز على الولايات المتحدة الامريكية ، الا أن بريطانيا بقيت مركزا رئيسيا للنشاط الصهيوني ، طالما أن بريطانيا مازالت هي الدولة المنتدبة في فلسطين . وعلى هذا ظل حاييم وايزمان وكثيرون من قادة الحركة الصهيونية يركزون التأثير الصهيوني على مركز السلطة في بريطانيا

وكان هذا بالطبع يقتضي منهم أيضا الالحاح في توجيه الرأي العام الوجهة التي تجعل مهمتهم في التأثير على الجهات العليا أكثر سهولة • مع استمرارهم في نفس الوقت في كسب شتى العناصر اليهودية غير الصهيونية الى جانبهم من جهة ، وفي مواصلة الهجرة الى فلسطين رغم كل القيود من جهة أخرى

ولم تكن حكومة جوزيف تشيمبرلين على علاقة حسنة بالحركة الصهيونية ، ولكن وايزمان ورفاقه ظلوا على صلة مستمرة بكل الشخصيات التى يمكن أن تكون فى مركز السلطة يوما من الايام • ففى ذلك الوقت بالذات ، مثلا ، عمد وايزمان الى التعرف على ونستون تشرشل والتردد عليه أكثر من مرة والحصول على موافقته على مبدأ اسباغ صفة الدولة على المجتمع اليهودى فى فلسطين •• كما ظل حريصا على ابقاء نفس الصلة مع لورد هاليفاكس وزير الخارجية ••

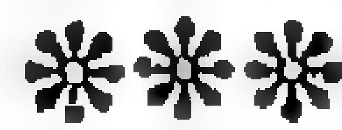
فلما تألفت وزارة تشرشل سنة ١٩٤٠ ، لم يكسب الصهيونيون فقط رئيس الوزراء الجديد ذا الميول الصهيونية ، بل كسبوا أيضا وجود وزراء آخرين كثيرين فى هذا الاتجاه

يظهر هذا واضحا من قصة السفينة « باتريان » التى يرويها وايزمان فى مذكراته • فقد ضبطت السلطات البريطانية سفينة تحمل ٢٠٠٠ مهاجر يهودى يحاولون النزول فى فلسطين بشكل غير قانونى ، فمنعوا السفينة من الاقتراب من الشاطىء • وتصادف ان انفجرت الباخرة وأصيبت بعطب ، وذهب وايزمان الى لورد لويد وزير المستعمرات يطلب منه اصدار أمر الى السلطات فى فلسطين بالسماح لهم بالنزول • وقال لورد لويد لوايزمان : لقد أصدرت أمرا بمنعهم من النزول ، لاننى أعرف انك سوف تذهب الى تشرشل وتستصدر منه أمرا بالغاء هذا القرار ، لقد سبقت وطلبت منه ألا يتدخل فى ذلك ، فلا تتعب نفسك بالذهاب اليه

ثم يعقب وايزمان قائلا : ولكن لورد لويد نسى أن يسبقنى الى لورد هاليفاكس، فذهبت اليه •• واستصدرت منه أمرا بالسماح لهم بالدخول ••

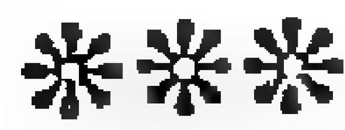
كذلك نجح وايزمان فى اقناع الحكومة البريطانيـــة بتكوين فرقة يهودية تقاتل الى جانب الحلفاء ، والغاءالاتجاه المضاد الى تكوين فرقة فلسطينية عربية ويهودية • وكانت تلك الفرقة اليهودية هى نواة جيش اسرائيل ، الذىحارب خلال الساعات الحرجة التى تلت اعلان قيام دولةاسرائيل

وقد كان العمل من أجل ايجاد هذه الفرقة اليهودية عنيفا ومتواصلا فى جمع المجالات ، من الصحافة ، الى اقتراحات يقدمها النواب من حزبى المحافظين والعمال فى البرلمان ، الى ضغط واقناع لدى الساسة والقـــــــادة العسكريين • وفى سبتمبر ســـنة ١٩٤٤ أعلنت وزارة الحرب البريطانية أنها قررت المساعدة فى تكوين مثل هذه الفرقة ••وبعد أنوجدتالفرقة ، اصبح لهاعلمها المستقل• وفى الاستعراضات العسكرية أصبحت تحمل هذا العلم ، مؤكدة فى الاذهان أن « اليهودية » أصبحت « قومية » لا مجرد دين : وكان ذلك العلم هو نفس علم دولة اسرائيل اليوم ••



وفى أكتوبر ١٩٤٤ ، بعد شهر واحد من تكوين الفرقة الصهيونية المسلحة ، طلبت الوكالة اليهودية من الحكومة البريطانية تحويل فلسطين الى « كومنولث يهودى » وأن تسمح بهجرة مليون ونصف مليون يهودى الى فلسطين ، بحيث يصبح اليهود فى فلسطين أغلبية تسمح باعـــلان الدولة • واستطاع وايزمان أن يحصل على موافقة ونستون تشرشل الشخصية على اقامة الدولة اليهودية ، على الاقل فى جزء من فلسطين • ويعتقد المؤلف أن حكومة العمـــال التى جاءت بعد تشرشل ــ وخصوصا وزير خارجيتهـــا ارنست بيفن ــ كانت أقل تعاونا مع الصهيونيين منحكومة

المحافظين ، وأن حكومة تشرشل لو بقيت بعد الحرب لقامت هي باعلان دولة اسرائيل



وفى خلال ذلك كله كانت الوكالة اليهودية تخلق أمرا واقعا خطيرا في فلسطين : بالهجرة السرية المستمرة ، وبالدعاية الهائلة بين يهود اوروبا ، دعاية كانت تجعلهم يتدفقون على مكاتب الهجرة السرية بالالاف .. وبتهريب الاسلحة الى فلسطين على نطاق واسع ، وبتكوين جيش الهاجاناه ، وبالسيطرة على الاقتصاد اليهودى كله وبجهاز المخابرات الذى كان يشترك فيه كل يهودى يعمل فى حكومة فلسطين ، حتى أصبحت هناك دولة داخل الدولة ، دولة لها كل فروع الدولة وملامحها وأجهزتها ..

ويقول المؤلف : انه حتى الاعمال الارهابية من قتل ونسف ، التى كان زعماء الصهيونية يستنكرونها فى تصريحاتهم ، كانت تتم بالتفاهم معهم .. بدليل أن بن جوريون رفض وقتذاك أن يتخذ أى موقف ضدهم ، وبدليل أن الوكالة تفاهمت مع هؤلاء الارهابيين بعد انتهاء المعركة تفاهما كاملا، دل على وجود تفاهم سابق وقديم

على أن أخطر قرار اتخذته الحركة الصهيونية العالمية خلال الحرب العالمية الاولى كان : الانتقال بمركز الثقل فى نشاطها الى أمريكا !

ما أشبه الليلة بالبارحة !

فى غضون الحرب العالمية الاولى ، قررت الصهيونية العالمية أن تلعب بورقة بريطانيا ، مؤمنة بأنها ستكون القوة الاولى المسيطرة على السياسة الدولية بعد النصر . ويومها نجح تنبؤهم وأمكن أن يضعوا أقدامهم الاولى فى فلسطين ..

وفي غضون الحرب العالمية الثانية ، أدركت الصهيونية العالمية أنها لابد أن تنقل مركز نشاطها الى أمريكا ..

لماذا ؟ ..

لان نجم انجلترا أخذ فى الافـــول .. ولانهـــم بعد أن كسبوا من وراء بريطانيا حق اقامة وطنهم القومى فى فلسطين ، آن الاوان للخطوة الثانية وهى : خطوة الدولة اليهودية المستقلة ، وهذه خطوة قد تعارضها بريطانيا ، التى لم تفكر لحظة فى أن يكون مآل هذا « الكومنولث اليهودى » الى الاستقلال عنها . وفى هذه الحالة لن تقدر على الضغط على بريطانيا سوى أمريكا ..

ولم تكن أمريكا قد دخلت الحرب بعـــد ، وكانت الصهيونية تعرف مدى حرص بريطانيا على حسن علاقات أمريكا معها ، ومدى رغبتها فى ادخالها الحرب الى جانبها : فلو استطاعت الصهيونية أن تقنع أمريكا .. فستكون بريطانيا كلها اذانا مصغية لصوت أمريكا !

وكان عليهم أن يكسبوا فى أمريكا ثلاث قوى :

الرأى العام ..

والكونجرس ..

والحكومة ..

أما بالنسبة للرأى العام ، فسرعان ما تكونت الهيئات الداعية للقضية الصهيونية ، مركزة على الرأى العـــام المسيحى بالذات . وفى نفس الوقت الذى كانوا يركزون فيه على رجال الدين البروتستنت ، مستغلين تفسيرهم «للعهد القديم» ، كانوا يتصلون فى نشاط هائل باتحادات نقابات العمال ، وبالمجالس النيابية فى الولايات المختلفة ، وبأعضـــاء الحزبين الجمهورى والديموقراطى .. فلم تأت سنة ١٩٤٤ حتى كانت برلمانات ٣٣ ولاية قد أصدرت

توصيات تؤيد فيها المطالب الصهيونية ، وحتى كانت انتخابات تلك السنة حافلة بالوعود بتأييد مطلب الصهيونية ..

وأكبر حليف لهم فى رأى المؤلف كان : جهل الرأى العام تماما بقضية فلسطين

وقد حققت الصهيونية نفس النجاح بين اليهود الامريكيين أيضا . فبينما لم يكن الصهيونيون يمثلون أكثر من خمسة فى المائة من يهود أمريكا قبل الحرب العالمية الثانية ، استطاعوا قبيل نهاية الحرب أن يجعلوا أى يهودى يخاف أن يجاهر بأنه مختلف مع الصهيونية .. وبينما كانوا يشرحون - علنا - « حاجة اليهود الاوروبيين الى ملجأ » بعد جرائم النازية ، كانوا يعملون سرا من أجل فكرة اقامة الدولة وفى فلسطين بالذات ، بدليل أنهم حاربوا مشروعا لروزفلت لتوطين اليهود فى دول العالم بوجه عام

أما مع الكونجرس ، فقد بدأ الامر بقيد اسماء ٦٧ شيخا و ١٤٣ نائبا من مجلسى الكونجرس فى قائمة أعضاء منظمة صهيونية مستترة تحت اسم « اللجنة الامريكية لفلسطين » . وفى ديسمبر سنة ١٩٤٢ ، وضع ثلث أعضاء الكونجرس توقيعاتهم الى جانب توقيعات ١٥٠٠ شخصية أمريكية أخرى على بيان يطالب بانشاء جيش يهودى ..

وفى أكتوبر ١٩٤٣ ، نجح الضغط اليهودى المنظم فى جعل الكونجرس يصل الى حد اصدار قرار رسمى بتأييد مطالب الحركة الصهيونية فى اقامة دولة يهودية فى فلسطين لولا أن الجنرال جورج مارشال ، القائد العام للجيش الامريكى ، تدخل مطالبا بايقاف القرار ، لان هذا قد يؤثر

على المجهود الحربى فى منطقة حســـــــاسة هى المنطقة العربية ..

ولكن الجهد لم يتوقف .. انما استمر فى اصـــدار القرارات والبيانات والنداءات ، التى أدت بتراكمها من حيث الكم ، الى تغير كيفى فى الموقف .. فقد أصبح الكونجرس الامريكى فىسنوات قليلة مؤيدا للصهيونية.. بمزيج من الجهل بالموضوع والتأثر بالمصالح المحليـــة والضغط والاغراء والالحاح

***

وبقيت بعد ذلك السلطة التنفيذية العليا فى البــلاد . وكالعادة : كانت الحركة الصهيونية تترك مهمة الاتصالات العليا بالشخصيات الكبرى الى رجلها المحنك فى هذاالمجال منذ الحرب العالمية الاولى : حاييم وايزمان ..

وكان وايزمان يؤمن فى اتصالاته بحقيقة غريبة ثبت انها فى محلها : كان لايضيع وقتها مع الخبــراء وكبــار الموظفين الرسميين لان هؤلاء على خبرة كاملة بمثل هذه الموضوعات ، وكثير منهم يعرفون الشرق الاوسط جيدا ، فكانت الصهيونية تجد أنه من الصعب دائما أن تضلل هؤلاء أو تحملهم على اتخاذ موقف ضد العرب ، أماالاتصال بالزعماء الكبار فكان أجدى : فهؤلاء خبرتهم بالمنطقة قليلة والتأثير عليهم من خلال المصالح السياسية المحلية ممكن . ثم أن من سلطتهم أن يضربوا برأى الخبراء عرض الحائط الامر الذى كان يحدث كثيرا كما يقول المؤلف

ويقول المؤلف أيضا : انه فى خلال الحرب الاولى كان رأى الاجهزة المحلية البريطانية ضد الصهيونية ، لكن وايزمان قهر هذه الاجهزة باستيلائه على عقول رؤسائهم

السياسيين فى لندن . وقد كرر نفس الشيء فى امريكا خلال الحرب العالمية الثانية

وقد كان روزفلت شخصية صعبة المراس بالنسبة لوايزمان ، بينما كان ترومان على العكس تماما ..

يقول المؤلف : ان وايزمان قابل روزفلت لاول مرة سنة ١٩٤٠ ، ويومها حاول أن يجس نبض روزفلت ازاء مطلب اقامة دولة يهودية . ولكنه وجد روزفلت من أولئك الساسة الدهاة واسعى الافق .. رفض أن يقع فى شراكه ، وقال انه يعتقد أن أى حل لمشكلة فلسطين يجب أن يكون حلا عربيا يهوديا

وفى سنة ١٩٤١ ، ذهب وايزمان الى أمريكا للمرة الثانية ، ولكنه لم يتمكن من مقابلة روزفلت ، فقابل وزير الخارجية الامريكية سمنر ولز الذى كانت الصهيونية قد كسبته الى جانبها بالفعل ، فانضم الى وايزمان فى محاولة اللف على روزفلت

وفى سنة ١٩٤٢ ، أرسل روزفلت الى حاييم وايزمان يطلب منه القدوم الى أمريكا للمساعدة فى الابحاث العلمية التى كانت جارية لانتاج المطاط الصناعى ، فسافر وايزمان الى أمريكا فى ابريل ١٩٤٢ ليبقى هناك أكثر من سنة متصلة : يعمل فى الكيمياء بعض الوقت ، وفى السياسة الصهيونية كل الوقت، نفس قصة الحاقه بوزارة البحرية البريطانية فى الحرب الاولى للمساهمة فى أبحاث انتاج مادة الاسيتون التى تستخدم فى صنع المتفجرات !

وقبل عودته ــ بعد هذه المدة الطويلة ــ الى لندن ، تمكن من مقابلة روزفلت مرة أخرى بحضور وزير الخارجية سمنر ويلز ، ومرة أخرى وجد وايزمان أن روزفلت مازال مصمما على أن أى حل يجب أن يتم بموافقة العرب واليهود

معا . وقال له وايزمان : لو انتظرنا موافقة العرب فلن نصل الى أى حل أبدا .. وأكد له أن خير وسيلة هى أن تقف أمريكا وبريطانيا معا وراء انشاء الدولة الصهيونية ، فلا يجد العرب مفرا من الرضوخ ازاء القوة الهائلة التى تواجههم ، وقال له : ان هذا هو ما حدث بالضبط يوم أصدرت بريطانيا وعد بلفور ولم يقدر العرب وقتها على عمل أى شىء

ولكن روزفلت لم يتزحزح . كان روزفلت يرى مصالح أمريكا البترولية البازغة فى الشرق العربى . وكان ذاهبا الى رحلة سوف يجتمع فيها مع الملك عبد العزيز ال سعود فبدأت النقمة الصهيونية تتحول ضده .

وفى ١٨ أغسطس ١٩٤٣ ، وصل الامر الى تهـديد روزفلت نفسه : فقد أعلن ايمانويل سيلر ، العضـو الصهيونى فى الكونجرس ، أنه سيطالب باجراء تحقيق فى أسباب معارضة الخارجية الامريكية لمطالب الصهيونية المشروعة . وكان هذا ضغطا غير مباشر على روزفلت ، عن طريق التلويح باثارة تهمة معاداة السامية ، التى تثيرها الصـهيونية فى وجه كل من يجسر على أن يختلف مع مخططاتها السياسية

ولكن روزفلت مات ، وجاء ترومان ، الذى وضع البيت الابيض فى يد الصهيونية ، بعد أن وضعت الصهيونية يدها على الرأى العام ، وعلى الكونجرس .. .

***

بعد أيام قليلة فقط من وفاة روزفلت ، وتولى هارى ترومان مكانه .. كان الكاهن اليهودى الصهيونى « وايز » يزور الرئيس الجديد . وقبل المقـابلة ، كان ادوارد ستيتينيوس ، وزير الخارجية ، قد حذر ترومان من هذا

اللقاء ، وحذره من الاستجابة لمطالب الصهيونية فى اقامة دولة يهودية فى فلسطين وفتح أبواب الهجرة غير مشروطة اليها • وشرح الوزير لرئيسه أيضـــا سياسة الرئيس الراحل روزفلت حول هذا الموضوع • ورغم هذا كله فقد كانت زيارة الكاهن الصهيونى « وايز » بداية الاندفاع السريع لترومان فى اتجاه الصهيونية• أو كما يقول المؤلف « فى خدمة الصهيونية »

وعند هذه النقطة ، يحاول المؤلف أن يلتمس لترومان الاعذار على هذا التأييد المتزايد

يقول أن ترومان ، بسبب نزعته الليبرالية ، كان دائما على استعداد لان يتحمس لاداء خدمة لليهود أو لاى أقلية اخرى • وقد كانت هذه دائما وســـيلة من وســـائل الصهيونية فى كسب غـــير اليهود الى قضيتهم : بأن يوهموهم ان تأييد هجرة اليهود الى فلسطين يتفق مـــع المبادىء المتحررة ، فى حين ان الحـــل الحقيقى للمشكلة اليهودية هو فى استيعاب اليهـــود وذوبانهم فى الشعوب التى ينتمون اليها ويعيشون فيها

كذلك فان هذا فى رأى المؤلف نجاح للدعاية الصـــهيونية خلال الحرب ، التى ربطت فى الاذهان ربطا مضـــللا بين مشكلة اليهود فى أوروبا وبين هدف الصهيونية فى آقامة دولة اسرائيل ، رغم ان هذا شىء وذاك شىء آخر

وأخيرا يقول المؤلف : ان ترومان أشار فى مذكراته بعد ذلك الى انه يعتقد ان وعد بلفور باقامة وطن قومى لليهود كان يتفق تماما مع مبادىء ويلسون فى حق تقرير المصير التى أعلنها بعد الحرب العالمية الاولى ، ولو أن ترومان تمعن قليلا لادرك أن وعد بلفور كان عملا مناقضا على طول الخط لمبادىء ويلسون • فلو طبق حق تقرير المصير حقا

فى فلسطين ، بسكانها العرب ، لما امكن أبدا ان يقوم اى وطن قومى لليهود هناك ..

ولسنا نظن أن هذه التفسيرات التى ساقها المؤلف لشرح الحوافز التى جعلت ترومان يندفع فى خدمة الصهيونية الى هذا الحد .. تفسيرات صحيحة . فاذا قبلنا أن الرأى العام العادى يمكن تضليله عن الملامح الاساسية لقضية ما ، فمن المتعذر أن نقبل امكانية تضليل رئيس دولة كبرى ، بمالها من اجهزة وخبراء ومستشارين عن حقيقة يمكن أن يدركها أى تلميذ : وهى أن حق تقرير المصير يتعارض مع غزو شعب ما بشعب طارىء غريب ..

فالمؤلف يغفل الاعتبارات المصلحية والضغط السياسى الداخلى ، الذى جعل ترومان يندفع هذا الاندفاع

***

ويعود المؤلف الى سرد تطور الحوادث فيقول انه مع صيف سنة ١٩٤٥ ، أصبح نفوذ الصهيونية على ترومان واضحا .. ففى ٣١ أغسطس اتخذ ترومان أول موقف علنى له الى جانب الصهيونية بمطالبة مستر كليمنت اتلى رئيس الوزراء البريطانى بأن يقبل مائة ألف مهاجر صهيونى جديد فى فلسطين . وقد كان بيرنز ، وزير خارجية أمريكا ، قلقا من رد فعل هذا الموقف فى البلاد العربية ، فأعلن فى ١٨ أكتوبر « أن الحكومة الامريكية لن تساند أى قرار نهائى يغير الموقف الاساسى فى فلسطين بدون استشارة اليهود والعرب على السواء » . فكأن وزارة الخارجية الامريكية كانت ما تزال تحاول أن تتشبث بالرأى الذى كان روزفلت قد اتخذه من قبل ، والذى كان ترومان قد أحيط به علما على أى حال

وقد اعترف ترومان بعد ذلك فى مذكراته بأنه بينما

كان يحاول الضغط على بريطانيا للتساهل فى مشكلة الهجرة الى فلسطين ، كان الصهيونيون يجعلون مهمته أكثر صعوبة بمحاولتهم استخدام النفوذ الامريكى فى تأييد اقامة دولة يهودية . ففى ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٤٥ ، تلقى ترومان برقية من القسيسين وايز وسيلفر يطالبان باتخاذ موقف لا فى تأييد قبول مائة الف مهاجر جديد فحسب بل وفى تنفيذ « روح » وعد بلفور باقامة دولة يهودية ، رغم أن هذا هو « روح » المبادىء الصهيونية ، ولا يمت الى « روح » وعد بلفور بشىء

ويقول المؤلف ان استغراب ترومان هذا دليل آخر على سذاجته السياسية ، فلو كانت لديه أى فكرة عن العمليات الصهيونية فى امريكا خلال الحرب لادرك ان استخدام الصهيونية لمشكلة اليهود الاوروبيين ولوعد بلفور ولكل شىء لم تكن له غاية سوى استخدام أمريكا فى اقامة دولة صهيونية

ومن هنا جاء قوله فى مذكراته « كنت اعتقد أن حل مشكلة اليهود الانسانية فى أوروبا أولى بالاهتمام من أهداف الصهيونية فى اقامة دولة يهودية » .. فهنا أيضا يتضح عجز ترومان عن فهم الصهيونية . فالصهيونية لم تهتم أبدا بمشكلة اللاجئين اليهود كقضية انسانية لها ألف حل ، انما كانت تستغلها فحسب فى اقامة دولة يهودية

ففى خلال الحرب مثلا ، فكر روزفلت فى مشروع لاسكان اليهود اللاجئين فى بلاد العالم التى ترحب بهم . وعهد روزفلت بهذا المشروع الى « موريس . ل . ايرنست» ولكن ارنست لم يلبث أن اكتشف أن المشروع الذى كان يظن أنه عمل انسانى عظيم لانقاذ اليهود الاوروبيين ، انما تنظر اليه الصهيونية على أنه عمل خطير يهدد أهداف الحركة

الصهيونية ، فكتب يقول « لقد دهشت ، بل وشعرت بالاهانة ، عندما وجدت زعماء اليهود يهاجمون هذا المشروع ويصفونني بأنني خائن . وقد اتهموني علنا بأنني أعمل في هذا المشروع وأشجع استقبال اليهود في شتى انحاء العالم لكي أخرب أهداف الصهيونية السياسية وهكذا وجدت ان كل اصدقائي من الصهيونيين يعارضون مشروع روزفلت . لقد وجدوا أن اهدافهم تهددها مشروعات روزفلت الكريمة الانسانية »

وقد تكرر هذا الموقف الصهيوني مرتين بعد نهاية الحرب ..

ففي ١٥ ديسمبر ١٩٤٦ ، عندما بدأت الامم المتحدة تدرس مشروعا يدعو الدول الاعضاء الى فتح أبوابها للاجئين اليهود ، تقبل الصهيونيون هذا القرار بفتور شديد ..

كذلك عندما بدأ مجلس النواب في الكونجرس الامريكي سنة ١٩٤٧ يدرس مشروعا لتقبل بعض المهاجرين في الولايات المتحدة ، عبر الصهيونيون عن نفس البرود ازاء المشروع : فهدف اقامة دولة يهودية سياسية كان يعلو عندهم فوق كل اعتبار . وما كانت قضية اللاجئين اليهود تهمهم الا بقدر ما يمكن استغلالها في هدفهم السياسي

وقد كانت سنة ١٩٤٦ في الولايات المتحدة سنة انتخابات ، وانتهز الصهيونيون الفرصة طبعا للحصول على أكبر قدر من المكاسب ..

ففي ولاية نيويورك ، عرف ان توماس ديوي ، مرشح الحزب الجمهوري للرئاسة ، كان يفكر في اصدار بيان في تأييد الصهيونية لفائدة هذا البيان في حملته الانتخابية . وعلى الفور ، أسرع « ليمان » و « ميد » ، المرشحان

عن الحزب الديمقراطى المتصبى محافظ المدينة ونائبها فى الكونجرس ، الى ترومان ليبلغاه النبأ ويلحا عليه فى ضرورة اصدار بيان مماثل باسم الحزب الديمقراطى وكانت النتيجة أن صدر بيان آخر من ترومان أعلن فيه تصميمه على ضرورة ادخال مائة الف يهودى الى فلسطين، وأصبحت الدولة والحزبان الكبيران على السواء منغمسين فى تأييد الصهيونية تماما . فلما تذمر ترومان بعد ذلك من أسراف الصهيونيين فى الضغط عليه ، لم يكن ممكنا أن يتراجع عن الموقف الذى اتخذه بالفعل . كان اسفه متأخرا : فقد لوى الصهيونيون بالفعل ذراع الدولة ، وأصبح قيام دولتهم وشيكا

وقد كانت قيمة الحكومة الامريكية الكبرى فى هذه المرحلة بالنسبة للصهيونية ، هى الضغط على حكومة حزب العمال فى بريطانيا ..

فعندما القى ارنست بيفن بيانا فى يونيو سنة ١٩٤٦ عارض فيه قبول مائة الف يهودى فى فلسطين ، رفع عضوا الكونجرس الامريكى عن ولاية نيويورك احتجاجا مباشرا الى الوزير البريطانى ، ولكن الاخطر من ذلك ان الصهيونية اتجهت الى أعضاء الكونجرس المرتبطين بها لتحركهم فى اتجاه هام : ففى ذلك الوقت بالضبط كان الكونجرس يدرس مشروعا لمنح انجلترا قرضا قدره ٣٫٧٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ويقول المؤلف ان تهديد الصهيونية لبريطانيا بعرقلة هذا القرض فى الكونجرس، كان له أثر فعال جدا فى ارغام بريطانيا على التراجع واتخاذ موقف اكثر ملاءمة للصهيونية ..

ويذكر المؤلف ان أرنست بيفن شكا من انه كان فى مقدوره ان يصل الى حل يرضى العرب واليهود فى فلسطين

لولا اصرار ترومان على حكاية دخول المائة الف يهـــودى وقال بالحرف الواحد « اننى لا أستطيع أن أحل أى مشكلة حلا وديا ، اذا تحولت هذه المشكلة الى ورقة فى انتخابات محلية ! » ..

ويعتقد المؤلف أن بيفن كان يرى بوضوح الفارق بين مشكلة اليهود كمشكلة انسانية عامة وبين قضية الصهيونية فى اقامة دولة سياسية يهودية فى فلسطين.

كان هذا الوضوح فى فهم الموقف فى بريطانيا، كما يقول المؤلف، هو الشىء الذى لم يتحمله الصهيونيون، فمضوا يتحدون الحكومة البريطانية الى أقصى الحدود، بالضغط السـافر عليها من خلال صنيعتهم ترومان، وبالارهاب المسلح فى فلسطين نفسها .. فبينما كان وايزمان يعلن علنا استنكاره للارهاب المسلح الذى تمارسه عصـابات « الهاجاناه » و « شتيرن » و « أرجون زفاى ليومى » كانت هذه العصابات كلها تعمل فى انسجام دقيق تحت قيادة وتوجيـه الحركة الصهيونية التى يتكلم وايزمان باسمها ..

وفى نفس الوقت ظلت عمليات الهجـرة غير الشرعية مستمرة، وقد نشر الصهيونيون دعاية واسعة فى العالم كله تقول ان تدفق اليهود من أوربا فى أعقاب الحرب الى فلسطين كان عملا تلقائيا غير مرتب، فى حين أن كل الادلة تؤكد أن هـذه الهجرة كانت مدفوعة ومنظمة بواسطة شـبكة صهيونية سرية واسعة . ويشير المؤلف هنا الى تقرير سرى لمخابرات الجيش الامريكى الثالث فى أوربا، يقـول انه تأكد وجود حركة صهيونية سرية هى التى تنظم تسلل ٢٠٠٠ يهودى كل اسبوع الى منطقة الاحتلال الامريكى فى اوربا . وان هذه الحركة تضـم كثيرين من

العسكريين اليهود الذين كانوا فى صفوف الحلفاء. وكانت هذه الحركة تنظم بعد ذلك تسللهم من جديد الى شواطىء البحر المتوسط وهناك يركبون سفناً أعدتها الحركة الصهيونية لنقلهم الى فلسطين . وهناك تقرير آخر يقول ان أطعمة هيئة الاغاثة الدولية UNRWA كانت تحول الى مساعدة عملية التهريب غير الشرعية هذه

ومن أكبر الادلة على ان هذه الهجرة لم تكن تلقائية ، ان كل المهاجرين كانوا من الشبان والشابات الاصحاء الذين يمكن ان يلعبوا دورا فى اقامة أسرائيل ، ولو كان الامر أمر هجرة تلقائية لما تم هذا الفرز والاختيار

الدليل الثانى هو انه عندما اذاع الجنرال الامريكى فردريك مورجان ، رئيس فرع هيئة الاغاثة فى ألمانيا ،هذا التقرير عن نشاط الصهيونية السرى ، لم يلبث أن صدر قرار بفصله من منصبه بتهمة معاداته للسامية!

كان الذى أصدر القرار هو مدير عام المنظمة ، هربرت ليمان : نفس الشخص الذى جاء ذكره منذ قليل ، حين ضغط على الرومان لاصدار بيان يؤيد هجرة اليهود الى فلسطين .. !

الدليل الثالث الذى يسوقه المؤلف على أن الهجرة لم تكن عفوية : هو انه حين بدأت بريطانيا تنفذ اجراءات فعالة لايقاف الهجرة .. بدأت على الفور حملة اكتتاب علنية من اليهود البريطانيين لتسهيل هجرة اليهود الى فلسطين ..

***

ونصل بعد ذلك الى المرحلة التى طرحت فيها القضية على الامم المتحدة

فازاء الشلل الكامل الذى أصيبت به بريطانيا من جراء الضغط الامريكى الهائل والعمليات الارهابية الضخمة فى فلسطين والهجرة السرية التى لا تنقطع ، قررت بريطانيا ان تحيل الامر الى الامم المتحدة

وعندما ظهرت فى أفق الامم المتحدة فكرة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، لم يكن التقسيم فى حد ذاته مرضيا لليهود الذين يريدون فلسطين كلها ، ولكنهم أسرعوا بالموافقة لسبب تكتيكى : فالتقسيم يحمل فى بذوره الاعتراف بحقهم فى اقامة دولة سياسية ، وهذا نصر كبير وخطوة ضخمة الى الامام بالنسبة لهم ..

وطبعا استطاع الصهيونيون ان يجعلوا الولايات المتحدة تعلن موافقتها على مبدأ التقسيم : وبهذا كسبوا نصف المعركة فى الامم المتحدة ، بحكم النفوذ الهائل الذى كان لامريكا فى المنظمة الدولية بعد الحرب .

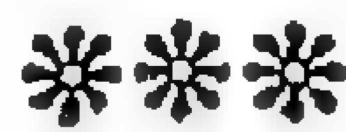
وفى نوفمبر ، اكتشف وايزمان ان الوفد الامريكى حاول أن يكسب رضاء العرب عن فكرة التقسيم بأن عرض عليهم ان يكون النقب جزءا من الدولة العربية . وعلى الفور ، استطاع وايزمان ان يتصل بترومان ، وبعد لقاء واحد معه ، أرسل ترومان تعليماته الى الوفد الامريكى بأن يسحب هذا العرض الخاص بالنقب من العرب !

يقول حاييم وايزمان فى مذكراته : « ان هذا القرار (من ترومان) فتح الطريق أمام قرار الامم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر .. »

وهذا صحيح !

فأكثر الدول الاعضاء كانت واقعة تحت النفوذ المباشر لامريكا بعد الحرب . وقد بقيت بعض الدول الصغيرة

تقاوم : هاييتى ، ليبيريا ، الفلبين ، الصين ، أثيوبيا ، اليونان ».. وهنـــا تحركت الاداة الصهيونية الهائلة فى جميع أنحاء العالم تمارس ضغطاً لا مثيل له .. ضغطها كان معظمه يوجه من خلال الولايات المتحـــدة الامريكية : الحكومة الامريكية تضغط . أعضاء الكونجرس يضغطون على الحكومات الاجنبية رأسا ، وعلى حكومتهم لكى تضغط على هذه الحكومات ، شركة فايرستون للمطاط طلب منها أن تضغط على حكومة ليبيريا لكى تصـــوت الى جانب التقسيم . القاضيان افرانكفورتر ومورفى يتصلان بحكومة الفيلبين .. وهـــكذا



وفى يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، أصدرت الامم المتحدة قرارها بالتقسيم ..

ويقول المؤلف : انه بعد أن تم اتخاذ القرار بالفعـل ، بدأت المناقشة حول سلامة الاساليب التى اتبعتهـــا الصهيونية ، وما زالت هذه المناقشة فى رأيه قائمة الى الان

ففى ٢٧ نوفمبر ١٩٤٧ ، كتب حاييـــم وايزمان الى ترومان رسالة ينفى فيها « الاتهامات » الموجهة الى الحركة الصهيونية من انها تمارس ضغطا غير لائق على وفودالدول فى الامم المتحدة . ولكن ترومان نفسه كتب فى مذكراته بعد ذلك يقول : « الحقيقة هى ان الضغط الذى وقع على الامم المتحدة فى ذلك الوقت لم يكن له مثيل قـط . وان البيت الابيض تعرض لضغط فى نفس الوقت ، ولا أظن أن البيت الابيض تعرض لمثل هذا الضغط فى أى وقت . ان اصرار والحاح الزعماء الصهيونيين ، الذى تحركه دوافـع سياسية مصحوبة بالتهديدات ، قد ضايقنى وازعجنى حقا

.. بل أن بعضهم كان يطلب منا أن نضغط على دول ذات سيادة للحصول على الاصوات المطلوبة فى الجمعية العامة »

***

ورغم أن القرار صدر بالفعل ، الا أن الضغط لم يخف . بقى هدف آخر مهم وهو : الاعتراف !

وفى مجال الاعتراف الدولى ، لابد من الحصول على اعتراف أمريكا أولا .. ليسهل الباقى

ويقول المؤلف : ان ترومان ازاء هذا الالحاح والضغط الذى زاد عن حده ، اضطر الى رفض مقابلة أى ممثل صهيونى ، ولكن بالرغم من تعليمات رئيس الجمهورية ، تمكن الصهيونيون من الوصول اليه

ففى مارس ١٩٤٨ ، طلب وايزمان مقابلة ترومان وبناء على تعليمات ترومان ، رفض هذا الطلب . وفجأة تلقى ترومان زيارة من مستر « ايدى جالوبسون » ، وهو يهودى أمريكى وصديق حميم وقديم لترومان ، وأخذ يلح عليه فى أن يقابل وايزمان . ويقول المؤلف أن ترومان ضعف أمام هذا الضغط الذى لامثيل له ، وقابل وايزمان فى ١٨ مارس ، وفى هذا اللقاء تحسن الجو من جديد بين ترومان ووايزمان ، وانفتح الباب لقرار أمريكى جديد هو : الاعتراف باسرائيل يوم ١٤ مايو ، بعد احدى عشرة دقيقة فقط من اعلان قيام الدولة

ويعقب المؤلف قائلا : أن أمريكا جرت عادتها دائما على أن تكون حذرة ومتمهلة فى اعترافها بأى حكومة جديدة . وخروجها عن هذه القاعدة ، على هذا النحو السافر ، يظهر لنا الى أى حد نجحت الصهيونية فى استخدام السياسة الامركية كأداة لها

الفصل
الثالث

مناقشات إسرائيلية

- المجتمع اليهودي في العالم
- هجرة .. أو لا هجرة
- الاندماج في المجتمعات الأخرى
- أيهما يخدم إسرائيل : التحرر … أم التعصب ؟



يقول بن جوريون « •• ان اسرائيل ليس لها فى العالم غير حليف واحد وفى : هو الشعب اليهـــــودى • ان اسرائيل هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لا أقارب لها •• سواء من ناحية الدين او اللغة او الاصل •• كتلك القرابات التى تربط مثلا بين الـــدول العـــربية او الاسكندنافية أوالبوذية أوالكاثوليكية أو الانجلوسكسونية •• اننا شعب يعيش فى هذا العالم بمفرده »

وهذا صحيح ! ••

فقد تكون خيانة الدولة التى كانت تستعمر فلسطين « انجلترا » لوثيقة انتدابها قد لعبت دورا رئيسيا فى اقامة دولة اسرائيل • وقد تكون رغبة الدول الاستعمارية الاخرى فى اقامة رأس جسر لها فى المنطقة قد لعبت دورا رئيسيا آخر • ولكن المؤكد أن القوة التى جاهدت وناضلت طوال خمسين سنة ، والتى ضغطت وساومت وتحالفت وتسللت لاقامة دولة اسرائيل ، هى : اليهودية العالمية •• أو المجتمع اليهودى العالمى الذى كانت الحـــركة الصهيونية بالذات هى الاداة العنيفة المنفذة فيه ••

وما تزال هذه اليهودية العالمية تلعب دورها الاكبر فى حماية اسرائيل وفى النضال ضد العرب

وقد كنت اشعر دائما انه من المفيد لنا أن نفهم المجتمع

اليهودى العالمى بقياداته وتناقضاته وخباياه ، الصهيونية منها وغير الصهيونية ، بوصف هذا المجتمع فى مقدمة القوى التى يرتبط بها نمو اسرائيل أو انكماشها ، بل يرتبط بها وجودها او عدمه ..

والاصل ، هو أن الصهيونى غير اليهودى ..

اليهودى .. هو الفرد الانجليزى او الفرنسى أو العربى الذى يعتنق الدين اليهودى ، تماما كالمواطن الذى يعتنق أى دين اخر

والظن الشائع عن الصهيونى هو انه اليهودى الذى يؤمن بضرورة قيام دولة اسرائيل ويساعدها بكل انواع المساعدات .. حتى ولو بقى كما هو : يهوديا انجليزيا أو فرنسيا أو أمريكيا ..

ولكن بن جوريون يقول لنا : لا ! ان هذه صهيونية مزيفة ! بل أنه لا يرضى ان يطلق عليها وصف الصهيونية !

ان الصهيونى فى رأيه هو اليهودى الذى يريد العودة الى جبل صهيون ، هو اليهودى الذى يحس أنه اذا كان يعيش فى أى بلد آخر ، غير اسرائيل ، فهو يعيش فى منفى ! وأنه آن الاوان لانتهاء عصر النفى والتشرد ، ولابد من العودة الى أرض اسرائيل ! ..

ويستطرد بن جوريون ، فى محاضرة مطبوعة له ، قائلا : « .. أما أولئك اليهود الذين يعتبرون أنفسهم جزءا من الشعب الامريكى او الانجليزى أو الفرنسى ، أولئك اليهود الذين لا يشعرون انهم يعيشون فى منفى ، أولئك اليهود الذين لا يرون ان مستقبلهم ومستقبل أولادهم واحفادهم لا يمكن أن يوجد الا فى اسرائيل ..

هؤلاء اليهود جميعا انما يذوبون تدريجيا فى حضارة

غير يهودية ولغة غير يهودية • ان هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم ـ كذبا ـ لقب الصهيونيين بحكم انتمائهم الى منظمات تحمل هذا الاسم ، هم فى الحقيقة خطر على مستقبل اليهودية .

وفى دراسة أخرى ل « بن جوريون » ، نجد أنه يدفع هذا المنطق خطوة أخرى الى الامام ، فيتساءل : من هو اليهودى ؟ وما هى مقومات الشعب اليهودى فى شتى انحاء العالم ؟ ..

ويرد بن جوريون على هذه الاسئلة قائلا : ان ما يربط بين اليهود ليس الدين اليهودى ! بدليل أن الحركة الصهيونية فيها يهود متدينون ويهود لا دينيون ، أى يهود ملحدون لا يؤمنون بوجود الله . و لاالعنصر الواحد بعد هذا التشتت الواسع بين اليهود فى شتىالبلادوالقوميات. ولا اللغة الواحدة بدليل ان اللغة العبرية كادت تختفى تماما قرونا طويلة ، ومعظم يهود العالم لا يعرفونها ولا يتكلمونها : ان ما ربط بين اليهود وجعل تلك الصفات الاخرى كالدين والعنصر واللغة ـ صفات قابلة لان تجمعهم من جديد ، هو صفة أخرى أساسية ، هى : رؤيا العودة .. الايمان بأن الخلاص هو فى العودة الى جبل صهيون حيث أقام داود معبده الاول .. أى الى أرض اسرائيل

ويستطرد بن جوريون فى تأكيد صفة « العودة » « واستخلاص » الارض التى كانت لهم ـ كالعلامة الاولى المميزة لليهودى فيقول : ان شعب اليهود يختلف عن كل شعوب العالم • واليهودى نفسه يختلف عن كل من حوله فى أى مجتمع بسبب هذه الصفة بالذات ، فكل الشعوب نشأت واستمرت ملتصقة بالارض الخاصة بها • قد تحتلها دول أخرى • أو يستعبدها نظام حكم معين • قد

تنمو وقد تضمحل • ولكنها دائما موجودة فوق أرضها • باستثناء اليهود • الذين عاشوا عشرات من القـــرون مطرودين مما يعتبرونه أرضهم • مصرين على العودة اليها• ومن هذه الصفة نشأت عزلتهم ، ونشأ انفرادهم بصفات خاصة بهم ••

والخلاصة التى يريد ان ينتهى اليها بن جوريون هى انه اليوم وقد قامت دولة اسرائيل عند جبل صهيون •• فقد جاءت لحظة الامتحان النهائى الحاسم لكل يهودى على وجه الارض : فمن لا يعود اليـــوم ليس « صهيونيا » بالتأكيد ، ثم هو يهودى يعرض نفسه للذوبان فى مجتمعات أخرى غير يهودية •• اى يعرض اليهودية ذاتها للانقراض •• ولا يتأخر بن جوريون عن ابراز الجانب العملى لهذه الفلسفة كلها ، فهو يقول فى مؤتمر للصهيونية العالمية : ان مشكلة دولة اسرائيل الكبرى هى الامن ، وأمن اسرائيل لا يحققه اى جيش مهما بلغ تسليحه ، انما يحققه ان « يعود » الى اسرائيل ، بسرعة ، مليونان من اليهود على الاقل فى كل عام •• الى أن تتم عودة يهود العالم أجمعين !

ويقول بن جوريون ، فى تحقير لبق لحياة اليهـــود خارج اسرائيل : اننى لا أحتقر شايلوك الذى كان يعيش على الربا فى مدينة البندقية (يشـــير الى الشـــخصية الشهيرة فى مسرحية شيكسبير « تاجر البنـــدقية ») فاليهودى ، طالما بقى فى مثل هذه الظروف ، مضطر الى مثل هذه الحياة ! »

اى ان اليهودى لا يمكن ان يكون كريما شريفا الا فى دولة يهودية هى دولة اسرائيل ••

هذا الكلام كله ، ليس عقيدة فردية يعتقدها دافيـــد بن جوريون وحده وانما هى وجهة النظر الاساسية التى

تقوم عليها دولة اسرائيل

جولدا مايير ، ايضا ، لها محاضرة مطبوعة عنوانها : « ماذا نريد من يهود العالم » تقول فيها ، مثلا :

ـ ان اليهودى الانجليزى الذى ينشد بحكم انجليزيته نشيد « حفظ الله الملكة » كيف يمكن ان يكون فى نفس الوقت صهيونيا ؟

ـ اننى اصدق من يقولون ان اليهود فى امريكا كانوا يبكون فى لحظات الخطر التى أحاقت بنا ٠٠ ولكننى أقول ان دموعهم لا تكفينا !

لم تذكر جولدا مايير شيئا آخر هو : نقودهم !

ـ بعد قيام دولة صهيون ٠٠ لا يمكن أن يعد صهيونيا الا ذلك الذى يحمل حقائبه ويأتى على الفور !

ـ جميل جدا ان يعطينا اليهود فى الغرب تأييدهم وحماسهم وأموالهم ٠ ولكن هذا لا يكفى ٠ هذه المشاركة من بعيد لا تكفى ٠ فمن بعيد ، لا يمكن ان تتم زراعة النقب ! وبقاء اسرائيل يتوقف على ما اذا كان ممكنا ان نزرع صحراء النقب وجبال الجليل ! اننى لا أستطيع أن أفصل أمن اسرائيل عن تعمير النقب والجليل ! اننى كلما سمعت اغانى اسرائيل يرددها اليهود فى نيويورك ولوس انجليس وشيكاغو رقص قلبى طربا ! ولكن ترديد الاغانى عن النقب فى نيويورك أو بوسطن لا يعمر النقب ! انما تعمرها هذه الاغانى اذا كانت تقنع الشباب اليهـــودى بالهجرة الى النقب ، والا فسوف يبقى اليهود يعيشون فى أمريكا ٠٠ ويغنون عن النقب من امريكا ٠٠ ولكن النقب سوف يبقى خاليا مهجورا

ـ هناك فى روسيا ثلاثة ملايين يهودى ٠ ولكن لا أحد

يعرف هل يأتون الينا يوما أم لا يأتون قط ! ولكن يهود الدول الغربية .. الذين لهم مطلق الحق فى الحضور .. والذين يؤيدوننا الى أقصى الحـــدود .. لماذا لا يأتون ؟

انتهى كلام جولدا مايير ! ...

الى هذا الحد ، تذهب اسرائيل فى الضغط على يهود العالم الخارجى من اجل الحصول على مهاجرين جدد : خصوصا والارقام تقول ان الاقبال اليهودى على اسرائيل من حيث الهجرة ، قد جف أو كاد ..

فمع اختفاء حكاية اضطهاد اليهود ، التى جلبت المهاجرين بمئات الالاف فى اعقاب الحرب ، من ذا الذى يريد ان يذهب الى اسرائيل ؟ ..

وهذا يظهر لنا امرين :

الاول : هو مغزى اصرار اسرائيل ، على اثارة قصة اضطهاد اليهود وتجديدها ، ونشر الذعر منها .. حتى يشعر اليهودى فى كل مكان بالخطر ، ان لم يكن الخطر الماثل فالخطر المحتمل ، وبالتالى يفكر فى الهجرة الى اسرائيل ..

وما نشر يوما ما من ان بعض عملاء اسرائيل هم الذين يرسمون صليب النازية المعقوف على معابد اليهود .. منطقى جدا .. لحاجة اسرائيل الماسة الى اثارة هذا الفزع من الخطر .. بل والخطر نفسه احيانا !

وهناك رأى قوى فى اسرائيل يقول : انه لابد من تدمير حياة اليهود فى بعض الدول حتى يضطروا للهجرة الى اسرائيل ..

والثانى : هو ان اسرائيل ، حيث لا يفلح هذا السلاح ، لا تجد مفرا من بعث أعتق الافكار العنصرية المتعصبة ، فى سبيل كسر ولاء اليهودى نحو اى بلد يعيش فيه ،

وفى سبيل شق ما بين اليهودى وبين الاخرين ، والى حد الذهاب الى التبشير رسميا بفكرة ان اليهود شعب مختار ممتاز وان العالم سوف يظل يضطهده لهذا السبب ، بكل ما تحمله هذه الافكار من سموم ، فى سبيل تحقيق هدف الصهيونية المعلن .. زحف عشرة ملايين يهـــودى الى فلسطين ، بما فى ذلك من نية التوسع الظاهرة ، زحفا على الاراضى العربية الاخرى خارج فلسطين ذاتها ..

وكثير من المفـــكرين اليهود ، يعارضون هذه الافكار .. لا يقبلون القول بأن دولة اسرائيل هى المكان الطبيعى لكل اليهود .. بل كانوا يعارضون قيام دولة اسرائيل نفسها .. ايمانا منهم بأن قيامها على الاسس التى تقوم عليها انما يتم ضد حركة التاريخ التقدمية ، بل وايمانا منهم بأن قيام دولة اسرائيل فى ذاته قد يكون سببا فى اضطهاد اليهود فى الدول الاخرى مستقبلا .. لان اسرائيل كدولة لابد أن تكون لها مع الزمن مواقفها المؤيدة والمعادية لدول أخرى ، وفى حالات العداء سوف يكون اليهود فى وضع لا يحسدون عليه ..

ولكن هذه الأصوات ضاعت أو خفتت تحت تأثير انتصار فكرة قيام الدولة سنة ١٩٤٨ .. وان بقى أصحـــاب هذه الاصوات يضعون ايديهم على قلوبهم ..

هذه الاصوات اليهودية هى الاصوات التى تعـــارض فكرة اسرائيل القائلة بأن الهجرة اليها أمر حتمى على كل يهودى ..

يقول المؤرخ اليهودى الانجليزى سيسيل روث :(.. ان الصفة التى ميزت اليهودى دائما هى انه كان أشبه بمواطن عالمى ، ظروفه تجعله يتحرك عبر الحدود والخلافات القومية المألوفة وقد ادى بذلك رسالة مرموقة فى حضارة أوربا

مثلا فى القرن التاسع عشر •• ولكن قيام دولة اسرائيل يهدد باختفاء هذا اليهودى • فقيام دولة اسرائيل فى الواقع انما يتمم رسالة هتلر فى القضـــاء على اليهودى الاوربى وامكانياته الواسعة !! ••

ثم ان الحركة الصهيونية قد رفعت فوق رؤوس اليهود الانجليز عصا غليظة من التهديد ، الذى لا يمكن التخلص منه احيانا الا بكتابة شيك على احـــد البنوك تبـرعا لاسرائيل •• ! »

ويستطرد سيسيل روث قائلا فى وصف حالة هؤلاء اليهود النفسية فيقول : « ان هؤلاء اليهود الذين عارضوا قيام دولة اسرائيل يتمنون الان نجاحها ولا شك ، بعد ان قامت بالفعل •• ثم انهم يعرفون ان فشلها سيكون ضربة معنوية هائلة لليهود فى كل مكان من العالم • ولكنهم مع ذلك قلقون •• فهم يرون ان اليهـــود فى كل دولة أصبحوا لا يشاركون فى أى مسألة تهم البلاد التى يحملون جنسيتها الا اذا كانت هذه المسألة تتصل باسرائيل ، وهذا يهدد بعزلهم فى المدى الطويل • ثم ان اليهود الانجليز كان من السهل عليهم مثلا أن يؤيدوا اسرائيل خلال حربهـا سنة ١٩٥٦ ضد مصر لان انجلترا كانت ضد مصر •• ولكن ماذا يكون موقفهم لو جد ما يجعل اسرائيل ــ كدولة ــ تقف فى لحظة ما ضد مصالح انجلترا الاساسية بصورة أو بأخرى ؟ •• »

ويقول « سالو بارون » استاذ التاريخ اليهودى فى جامعة كولومبيـــا بأمريكا •• « ان بعض الصهيونيين يركزون على القول بأن موجة معاداة السامية يمكن ان تهب فى اى وقت ، لان هذا الخطر هو الدافع الوحيـــد الذى يجعل الشباب اليهودى يهاجر الى اسرائيل •ولكننى أقول لهم أن هذا غير صحيح • فالهجرات الجماعية ،

تاريخيا ، لا تقع الا تحت تأثير ضغط سياسى او اقتصادى عنيف واقع بالفعل ، ولهذا فان كلام بن جوريون عن مليون أو مليونى مهاجر ينتظرهم فى اسرائيل خطـــأ تماما • يضاف الى ذلك ان نزعة معاداة السامية تختفى وتتلاشى بالفعل ! ان بن جوريون وجولدا مايير لا يكفان عن الكلام عن قصص اضطهاد اليهود وتاريخهم البائس المحـــزن وقد ضاق الشباب اليهودى فى شتى دول العـــالم ذرعا بهذا الكلام لانهم يرونه متناقضا مع الحياة التى يتمتعون بها فى كل المجالات • أما القول بأن شعب اليهود شعب مختار ، له تاريخه الفريد •• فكل شعب من شعوب العالم له تاريخه الفريد ، وله ملامحه الخاصة به ! »

وهذا يقودنا الى نقطة أخرى بالغة الاهمية ، الى سؤال آخر يدور حوله شد وجذب كثير فى أوساط اليهودية العالمية ، هو : مستقبل اليهود فى العالم الخارجى ، بصرف النظر عن وجود دولة اسرائيل أو عدمه ••

ومناقشة هذا السؤال ، أيضا تظهر لنا اين تقف دولة اسرائيل ، والفلسفة التى بنيت عليها ، من حركة التاريخ العصرى ••

فهناك رأى يهودى قوى ، وهو الرأى السليم فيمـــا أعتقد ، يقول ان التطور والتحرر السياسى والاجتماعى فى مختلف انحاء العالم يحل مشكلة اليهود ، وبالتالى يقضى على « وجود اليهود » بالشكل التاريخى القديم لهـــذا الوجود •• أى بالشكل المنعزل المنفرد بذاته المنطوى على نفسه

فالمراحل السابقة من التاريخ الانسانى ، والتـــاريخ الاوربى فى الحقيقة بوجه خاص ، بما فى تلك المراحل من اضطهاد دينى ، وتفرقة عنصرية ونظم طبقية اقطاعية

واتوقراطية .. هذه الظروف كلها كان من طبيعتها ان تبقى القضية اليهودية قائمة ، وأن تجعل اندماج اليهود في المجتمعات التى يعيشون فيها صعبا الى حد بعيد . ولكن عصر التنوير والتحرير العقليين ، ورياح المساواة التى تكتسح أمامها كل شىء ، والتسامح الذى يطـــرد التعصب بسرعة ، وانتشار الحريات العامة وتطبيق مبادىء حقوق الانسان .. كل هذا التطـــور جعل « القضية اليهودية » بشكلها القديم تتغير . وفتح الباب لاول مرة أمام المجتمعات اليهودية لان «تذوب» وتندمج فى البلاد التى تعيش فيها ..

وليس معنى هذا « الاندماج » أو فى الاصطلاح العلمى assimilation هو أن يختفى اليهود كيهود .. ان معناه أن يبقى اليهودى يهوديا كما أن المسلم سيظل مسلما والمسيحى مسيحيا ..

ولكن الذى سيختفى هو احساس اليهود ، لنقل فى انجلترا مثلا بأنهم نوع مختلف ، وشعب قائم بذاته ، تفصله عن الانجليزى العادى هوة واسعة . وبالتالى سوف يقل ارتباطه الخاص بدولة اسرائيل ، وسوف يصبح ولاؤه السياسى والقومى الوحيد لانجلترا ، وسوف تنتهى من ذهنه نهائيا فكرة « العودة »

هذا التطور الذى لا مفر منه نحو الاندماج ، بحكم اننا اصبحنا فى عصر الحرية الدينية والمساواة يشهد عليه ، ويعترف به ، كثير جدا من المفكرين اليهود ، بل وبعضهم يحبذونه تحبيذا .. بينما تحاول دولة اسرائيل وممثلوها في اليهودية العالمية ان ترفضه وتقف فى وجهه بأى طريقة من الطرق ..

يقول سالو بارون ، أستاذ التاريخ اليهـــودى الذى

سبقت الاشارة اليه : ان هـــــــذا الذوبان او الاندماج assimilation معنـــــــاه أن يصـــــبح المرء جزءا من الشعب الذى يعيش فيه • ومعناه فى حالة اليهود هو ان يصبحوا جزءا من الاغلبية القومية التى يعيشون فيها•

وأنه مع بزوغ عصر التحرر والتنوير والمساواة بدأ اليهود يواجهون هذا الاحتمال لاول مرة فى تاريخهم الطويل •• الان لابد أن يتحول اليهودى الذى يعيش فى فرنسا الى « فرنسى يهودى » كالفرنسى المسيحى • ومعنى ذلك ان « المجتمع اليهودى الخاص » فى العالم يتلاشى • اذا لم تعثر اليهودية على حل سريع لهذا الموقف »

ويعترف سالو بارون بأن تفكير الصهيونية بالطريقة القديمة يجعلها ـ مع الزمن ـ تقف موقفا معاديا لحركة التحرر والمســـــاواة والتسامح ، احساسا منهـــا بأن هذا التحرر العالمى يسحب رصيدها من اليهود الـــذين تعتبرهم رعايا لها •• مآلهم هو العودة اليها •• ثم يحذر اصدقاءه الصهيونيين من هذا الاتجاه • بل ويذهب سالو بارون بعيدا فى تنبؤه فيقول انه بمنطق الذوبان والاندماج الذى لابد أن يؤدى عصر التحرر اليه •• لن تبقى كنيسة عبرية واحدة فى العالم ولكن ستصبح هنـــــاك كنيسة « عبرية كاثوليكية » وكنيسة « عبرية بروتســتانتية » وكنيسة « عبرية اسلامية ! »

هذه الظاهرة التاريخية ، ظاهرة اتجاه اليهـــود الى الاندماج فى مجتمعاتهم واختفاء مشكلتهم ، لا يختلف أحد على وجودها •• ولكن الخلاف فى اليهودية العالمية وفى الحركة الصهيونية هو حول طريقة مواجهتها ••

فهناك من بين اليهود من يرحبون بها ويعتبرونها تطورا طبيعيا لمشكلة اليهودى ••

وهناك الذين يخافون منها ، بل ويعتبرونها أخطر على اليهود من القنبلة الذرية ، ومن هتلر ، ويحاربونها فى غير لين ..

من الفريق الاول مثلا ، نجد « أوسكار هاندلين » وهو استاذ يهودى للتاريخ الامريكى فى جامعة هارفارد . انه يقف ليلقى محاضرة فى مؤتمر صهيونى دولى فيقول : أنا واحد من اليهود الذين ذابوا فى المجتمع الامريكى . لم أكن صهيونيا قط . وكنت أعارض قيام دولة اسرائيل فكريا ، وان كنت الان اتمنى لها النجاح !

ثم يستطرد فى الدفاع عن فكرة ذوبان اليهــــودى الامريكى فى بلاده فيقول ان اليهود فى أمريكا ليسوا أقلية لانه لا توجد فى أمريكا أغلبية . أمريكا أمة تقوم على التعدد . فيها جماعات كثيرة بعضها على اساس الدين كالبروتستانت والكاثوليك واليهود . وبعضها على أساس اللون كالزنوج السود وابناء الكاريبى السمر . وبعضها على أساس مراحل الهجرة ومصادرها كالســــــويديين والايطاليين والايرلنديين فليس هناك فى أمريكا «أغلبية» حتى يقال أن اليهود أقلية

ويرد على ساسة اسرائيل الذين يهاجمون حياة اليهودى الامريكى التى تقوده تدريجيا الى الذوبان . فيقول ان كل ما فى الامر هو أن اليهود يصبحون تدريجيا مثل جيرانهم ومثل الجميع . لانهم حتى لو سيقوا كرها الى مدارس يهودية تعلمهم اللغة العبرية، فانهم مع ذلك يتعرضون لنفس الاشعاع الثقافى والمعنوى والاجتماعى الذى يتعرض له كل أمريكى .. من خلال الحياة اليومية ، والاختلاط ، والاذاعة والصحافة والتليفزيون، والذين يعارضون فى ذلك انما يريدون فى الواقع اقامة سور يعزل اليهود عن سائر

مواطنيهم بكل ما يحمله هذا من اخطار ‥ ان اليهودى الامريكى الان ليس سوى ذلك الذى يعتبر نفسه يهوديا بحكم الوراثة ، وهو يمر حاليا بمرحلة انتقال ‥

ولكن ليس كل يهودى يواجه هـــذا الموقف ‥ اى موقف انتصار حركة المساواة وانتهاء مشكلة اليهود ‥ بنفس الحالة النفسية ‥

فالمؤرخ الصهيونى « رفائيل ماهلر » يولول ويقول ان المجتمع اليهودى اخذ فى الذوبان منذ اكثر من مائة سنة ٠ ففى خلال عصور الاقطاع وما شابهها كانت للهيـــودى وظيفة اقتصادية معينة يعتمد عليها وجوده وتقوم عليهـا شخصيته ووحدته ٠ اما الان فاليهود يتشتتون بين شتى وظائف الحياة الاجتماعية والاقتصادية وبالتالى يذوبون٠ تختفى لغتهم وتختفى تقاليدهم بل ويغيرون اسماءهم لكى لا تنم عن يهوديتهم ، يتأمركون أو يتفرنسون ‥الى آخره

وينتهى « ماهلر » الى القول بأن الحل الوحيد لانقاذ اليهودية ومنع تحولها من شعب واحد حيثما كان الى مجرد ديانة يدين بها ناس مختلفون ينتمون الى شعوب مختلفة ‥ هو : جمعهم فى اسرائيل !

وهذا يقودنا الى أصحاب الموقف الثالث ، وهو موقف اسرائيل الرسمى والفكرى ، الذين يرفضون ان تحـــل المشكلة اليهودية فى العالم ويريدون اذكاءها ، حتى انهم ليقولون مع « آرى تاتاكودار » أستاذ علم الاجتماع فى الجامعة العبرية « ان اليهودى حقا هو من يشعر بأن هناك « مشكلة يهـــودية » حتى لو عاش بمفرده فى جزيرة نائية !! »

اى أن اليهودى فى رأيه هو الذى يشعر باضطهاد حتى ولو لم يوجد من يضطهده !!

ان اسرائيل ترفض رفضا شديدا ان يعيش اليهودى الامريكى أو اليهودى الفرنسى كأمريكى أو فرنسى • فهى تهاجم حياتهما وتحقرها •• وهى تطالب فى الحاح بأن يقيم اليهود فى كل مكان مدارس خاصة بهم ويتعلموا اللغة العبرية ويتشبعوا بالثقافة اليهودية الخاصة ويقـاوموا التأثر المحلى بثقافة وحضارة البلاد التى يعيشون فيهـا أو كما يقول « ماهلر » هذا : « ايجاد نوع من التعليم والتثقيف يقود اليهودى الى الهجرة »

وهذه السياسة ، اذا كانت لا تجد نجاحا يذكر فى قطع ما بين اليهود وبلادهم وتوجيههم الى الهجـرة .. فهى على الاقل تنجح نجاحا كبيرا فى ارهابهم واشعارهم بالذنب ، ودفعهم الى تعويض عدم هجرتهم بأن يساعدوا اسرائيل الى أقصى ما يستطيعون : ماليا ومعنويا وسياسيا ودعائيا ••

فأخشى ما تخشاه اسرائيل اليوم ، هو ان تتحـول اليهودية الى دين فقط ، لا الى قومية كما تريدها هى • لانها اذا تحولت الى دين فقط • واذا تحرر العالم من مشاكل التفرقة والاضطهاد ، فأى دين فى العالم يأمر كل ابنائه بأن يعودوا الى مهبط هذا الدين ؟ •• واى عاقل يقبل منطقا معناه ان يعود كل المسيحيين فى العالم الى القدس وكل المسلمين فى العالم الى مكة ؟ ••

وما أسخف فكرة « العودة » المزعومة اذن ، وما أبعدها عن منطق الدين ومنطق الحياة ؟ •• وما اكثر ما تبدو الهجرة اليهودية فى تلك اللحظة عارية الا من اهدافهـا السياسية والاستعمارية الرجعية المتعصبة ••

الفصل الثالث

إسرائيل .. والماء !

اليهودى لم يكن فلاحًا قط .. ولكن الحركة الصهيونية تريد خلق الفلاح اليهودى لأول مرة منذ قرون . لأنها تعرف أن الزراعة هى أكبر ما يجعل لأى شعب جذورا حقيقية فى الأرض التى يسكنها..



نظرة الى مشكلة مياه الاردن ، من داخل اسرائيل ..

فما الذى يجعل اسرائيل – فى الواقع – تصمم الى هذا الحد على تحويل كل قطرة تستطيع تحويلها من مياه نهر الاردن ، الى درجة المغامرة بحرب شاملة مدمرة ؟

ان اليهودى – تقليديا – ليس فلاحا . والشعب اليهودى منذ قرون ليس شعب فلاحين . انه شعب مدن ، يميل نشاطه دائماً الى التركز بسرعة فى مهن المال والتجارة ..

وهناك دراسة عميقة المغزى ، للمؤرخ الصهيونى « رفائيل ماهلر » ، عن وضع اليهود الاقتصادى فى البلاد المختلفة وفى ظل النظم الاجتماعية المتعددة ، من رأسمالية الولايات المتحدة الامريكية الى شيوعية الاتحاد السوفييتى .. يلاحظ فيها المؤرخ الصهيونى ان اليهود ليس بينهم فلاحون قط . وان هذا كان شأنهم فى كل البلاد التى عاشوا فيها ، باستثناء بولندا ، وبعض أماكن معزولة فى روسيا القيصرية . بل ان وجودهم فى الصناعة نفسها يقل فى العادة بينما يزداد تركزهم دائما وبسرعة فى أعمال التجارة والمال ، وفى المهن الحرة كالطب والمحاماة والصحافة وغيرها ..

ففى الولايات المتحدة مثلا ، من خمسين سنة ، كان ٦٠٪ من اليهود الامريكان يعملون فى الصناعة ، لكن هذه النسبة

تقل كثيرا حتى تكاد تنعدم . وفى الاتحاد السوفيتى لايكاد يوجد يهودى فلاح ، بل ويقل وجودهم أيضاً كعمـــال صناعيين ، فهم حتى فى مؤسسات الدولة يعملون كما عمل اجدادهم منذ القرون الوسطى :باعة فى المخازن والمحلات. ويقطع المؤرخ الصهيونى بأنه لا يوجد اليوم أى مجتمع يهودى زراعى ذى قيمة فى أى بلد من البـــلاد التى يوجد فيها اليهود

ويستطرد المؤرخ قائلا : ان هذا بالطبع معناه ان ثمـة ارتفاعا متزايدا فى مستوى معيشة اليهودى حيثما كان . ولكن اتجاه اليهود دائما الى الانحصار فى اماكن اقتصادية محددة – هى مراكز المال والتجارة – يعد مصدرا خطيرا من مصادر النزعة المعادية للسامية ، وسببا من أسباب اتساع الهوة بين اليهود وغيرهم من أبناء البـــلاد التى يعيشون فيها ..

فاليهود – كما يقول المؤرخ – لا يساهمون أبداً فى عملية أساسية من « عمليات الانتاج » فى أى بلد ، ســواء كان انتاجا زراعيا او صناعيا .. انما هم يعملون فى المـــال والتجارة فقط .. الامر الذى يبذر بذور النقمـــة عليهم ..

ان النزعة المعادية للسامية واضطهاد اليهــود فى رأى المؤرخ ، بذورها اقتصادية تماما ، ومرجعها اساسا الى هذا الوضع الاجتماعى الاقتصادى العجيب الذى يصــل اليه اليهود دائما .. حتى القول بأنه لاتوجد نزعة معادية لليهود فى امريكا ، لايقبله المؤرخ « ماهلر » .. اذ يقـــول ان هذا أمر غير مضمون فى المســـتقبل . ثم يلاحظ ان الموقف فى امريكا أو فى ولاية نيويورك مثلا يشبه الوضع فى برلين سنة ١٩٣٠ فى ابان موجة كراهية اليهود الجارفة : من حيث ازدياد تركز اليهود فى الاعمال المالية والمهن

الحرة كالطب والمحاماة . فنصف المحامين والاطباء فى ولاية نيويورك يهود . وهذا التركز الاقتصادى والاجتماعى يثير كراهية الجماهير الكبيرة التى تعمل فى شتى الاعمـــال الانتاجية المجهدة القليلة الاجر كالزراعة والصناعة

ويروى المؤرخ أنه قضى شهرين فى جولة فى بولندا تحت النظام الشيوعى وكان فيما يبدو يناقش ويدرس قضايا اليهود وأنه كثيرا ماسمع عمالا وعاملات يسألونه « لماذا لا نجد من بين اليهود اى عامل صناعى مثلنا ؟ .. لمـــاذا لا نراهم فى هذه الاعمال المجهدة ؟ » ويروى انه قرأ اخيرا ان الاتحاد السوفييتى قرر أنه ليس من حق أى قومية من قوميات الاتحاد السوفييتى ان يكون لها نسبة بين طلبة الجامعات اكثر مما لها من نسبة بين عمال المناجم . ثم يعقب قائلا: انه لايوجد عامل مناجم يهودى واحد لا فى روسيا ولا فى امريكا !

ان تركز اليهود فى مواقع اقتصادية معينة كان دائمـــا عاملا يفرق بينهم وبين سائر المواطنين : فى نظر أنفسهم وفى نظر سائر المواطنين على السواء ! ومنذ العصـــور الوسطى كانت كلمة « اليهودى » فى أوربا معناها كلمة التاجر . . .

وأنقل عن المؤرخ الصهيونى حرفيا قوله « . . ان بعض المفكرين يقولون ان التجارة بالعكس مهنة تجمع بين النـــاس ولا تفرقهم . ولكن هذا كلام سطحى . ان اليهود يعملون حقا فى التجارة وهم بذلك يتصلون بســـائر الناس .. حتى الفلاح المتوسط فى العصور الوســـطى كان لايستطيع ان يعيش بدون ان يتردد على السوق ، لان الاقتصاد وقتهـــا كان يقوم كله على التجارة . فاذا أخذنا اليهود الذين كانوا يملكون الحانات فى بولندا فسوف نجد أنهم بالطبـــع يحتكون بالفلاحين .. فالفلاحون لا يكادون يتـــركون

الحانات . انهم يقضون فيها اجازاتهم ويحتفلون فيهـــا بزيجاتهم وأفراحهم ، ولكن هل « اندمج » اليهود فيهم كنتيجة لذلك ؟ بالطبع لا ·· لان اليهودى هو من يملك الحانة ، والباقين هم الفلاحون ! »

ولعلنى استطردت قليلا ، وراء هذه الدراسة للمؤرخ الصهيونى « رفائيل ماهلر » ولكننى أعود الى الخيط الاصلى للموضوع وهو أن اليهودى ـ تقليديا ـ ليس فلاحا ، وان شعب اليهود منذ قرون مديدة شعب مدن ، يميل نشــــاطه دائما الى التركز بسرعة فى مهن المال والتجارة ··

ولكن الحركة الصهيونية الحديثة ادركت منذ وقت مبكر ، أن الزراعة هى التى تمنح الشعب اســـتقراره ، وتغرس جذوره فى الارض . ولذلك كان من أول اتجاهاتها خلق الفلاح اليهودى والزراعة اليهودية . ومنــذ قدوم المهاجرين الاوائل الى فلسطين بالذات ـ دون سائر بـلاد العالم ـ عمدوا الى خلق نواة المزرعة اليهودية ...

فخلق الزراعة اليهودية قرار سياسى وليس قرارا اقتصاديا · وهذا الطابع السياسى هو الذى لازم نمـــو الزراعة اليهودية من أيام الهجرة الاولى ، والتمهيـــــد للاغتصاب ، حتى مشروع تحويل نهر الاردن

وقد توصلت اسرائيل الى أســـلوب هو اســـلوب « المستعمرة الزراعية » أو الكيبوتز » ، وهو وحـــدة زراعية وعسكرية فى نفس الوقت حتى تستطيع أن تقاتل وتقاوم خلال عملية الاغتصاب ضد السكان العـــرب ، ولتكون بمثابة حصون دفاعية بعد انشاء دولة اسرائيل : تقوم على الاقل بمهمة الدفاع المؤقت ، نظرا لطول حدود اسرائيل وتعذر ايجاد جيش عامل على طول هذه الحدود، وبسبب ندرة اليد العاملة . فأوجدوا المستعمرة الزراعية

التى يسكنها الفلاح الجندى فى نفس الوقت ..

وبعد تأسيس دولة اسرائيل ، استمرت سياسة ايجاد المجتمع الزراعى لنفس الاسباب السياسية فى الدرجة الاولى ، ولهذا نجد ان اسرائيل تتعمد اقامة المستعمرات الزراعية فى المناطق النائية ، وفى الصحارى غير المسكونة كالنقب ، وفى مناطق الحدود بوجه عام ، حتى ولو كانت ظروف الزراعة فى تلك المناطق صعبة او غير اقتصادية مدفوعة بنفس الاحساس السياسى ، وهو : ان الزراعة هى التى تشغل الارض فعلا ، وتكسب الملكية الدائمة لصاحبها . .

ان هذا الدافع يكمن وراء محاولة اسرائيل تحويل نهر الاردن ، وزراعة النقب ، اكثر مما يكمن أى سبب آخر

وفى هذه المحاولة .. لم تصطدم اسرائيل بمشكلة الارض ، ولكنها اصطدمت بمشكلة الماء ...

وقد قرأت دراسة علمية مفصلة ، عن مشكلة الماء والزراعة فى اسرائيل ، صدرت باللغة الفرنسية فى باريس ، قام بها أستاذ فرنسى يهودى ، اسمه « جوزيف كلاتزمان » ، مدير معهد الدراسات العملية ، ومستشار معهد التنمية الصناعية والاجتماعية فى فرنسا .. بعد أن زار اسرائيل أكثر من مرة لاتمام هذه الدراسة .. كما قرأت دراسة باللغة الانجليزية عن « اقتصاد اسرائيل » بقلم الكاتب الاسرائيلى الكس روبنز بعد ان عمل مستشارا لوزارات المالية والصناعة والتجارة فى اسرائيل ما يقرب من تسع سنوات

تقول هذه الابحاث : ان اسرائيل لديها حاليا ٥٠٠ الف هكتار صالحة للزراعة لو أمكن توفير الماء لها ، ولكن الماء لا يصل حاليا الا الى ١٣٠ ألف هكتار منها فقط ..

وكل المياه المتوافرة فى اسرائيل الان لا تزيد على ١٣٠٠

مليون متر مكعب فى السنة ، وحوالى ثلثى هذه الكمية يأتى من الآبار والثلث الباقى من الانهار والجداول ومياه الوديان ، ومن هذه الكمية يذهب ٦٠ مليون متر سنويا الى الصناعة و ١٧٥ مليون متر للاستهلاك العادى و ١٠٤٠ مليون متر للزراعة ..

ومن هذا الاستخدام العنيف لمياه الآبار ، يتزايد خطر ازدياد نسبة ملوحة الأرض الزراعية ، خصوصا فى تلك المناطق القريبة من شاطىء البحر ..

وليست المشكلة التى تواجه اسرائيل هى قلة الماء فقط ، ولكن المشكلة ايضا هى ان كل المياه المتوافرة موجودة فى جزء معين منها ، فى حين انها تريد ان تشغل بالزراعة أماكن أخرى بعيدة عن مصادر المياه ، للاسباب التى سبق ذكرها ، الامر الذى يجعلها تضطر الى تحمل نفقات باهظة لحفظ المياه ونقلها الى مناطق بعيدة كالنقب ..

ولهذه الاسباب كلها أصبح سعر الماء مرتفعا فى اسرائيل، بل وأحيانا غير اقتصادى ..

وفى بحث « كلاتزمان » دراسة مفصلة لتكاليف الماء ولاسعاره ، يمكن ان تستخلص منها أن سعر المتر المكعب الواحد من المياه المطلوبة للزراعة يصل أحيانا الى ٢٥ مليما ، فاذا كان الهكتار يحتاج الى سبعة آلاف متر مكعب من الماء فى السنة فمعنى ذلك ان تكاليف رى الهكتار الواحد تصل أحيانا الى حوالى ١٧٠ جنيها ! ..

وقد بنى الباحث دراسته على أساس تكاليف وأسعار مؤسسة « ميكورو » الاسرائيلية شبه الحكومية التى توزع حوالى ٥٠٠ مليون متر مكعب من الماء سنويا فى اسرائيل

ولهذا تضطر الدولة الى ان تبيع الماء للفلاحين بأقل من تكاليفه ، ولكن الاقتصاد القومى يتحمل من جراء ذلك عبئا باهظا ، يتزايد يوما بعد يوم .

وأهم ما فى البحث ، هو ان طريق المستقبل فى اسرائيل، فيما يتعلق بالماء ، مسدود تماما . .

ان اسرائيل تحلم بأن يصل عدد سكانها سنة ١٩٨٠ ، هكذا يقول المؤلف ، الى اربعة ملايين . .

ولكن الحساب الدقيق يقول أنه مع استخدام كل مصادر المياه المعروفة ، بما فى ذلك تحويل نهر الاردن ، فان هذه الزيادة فى السكان سوف تستهلك فى الصناعة وفى الاستعمالات العادية كمية متزايدة من الماء ، لا يبقى منها للزراعة الا ألف مليون متر مكعب فقط ، أى اقل من المياه المخصصة للزراعة حاليا !!

فالطريق مسدود تماما !

ولهذا ، تبذل اسرائيل جهودا علمية وتجريبية جبارة فى محاولة استنباط محاصيل زراعية تحتاج الى كمية أقل من المياه ..

ولكن الخبراء لا يرون فى هذه التجارب ما يمكن أن يسد عطش اسرائيل . .

ولذلك ينتهى جوزيف كلاتزمان الى رأى قاطع ، هو انه لا مستقبل لاسرائيل الا اذا نجحت تجربتان عمليتان أساسيتان :

الاولى : هى تجربة تحويل مياه البحر الملحة الى مياه عذبة ، بتكاليف قليلة

والثانية : هى تجربة استخدام المطر الصناعى . .

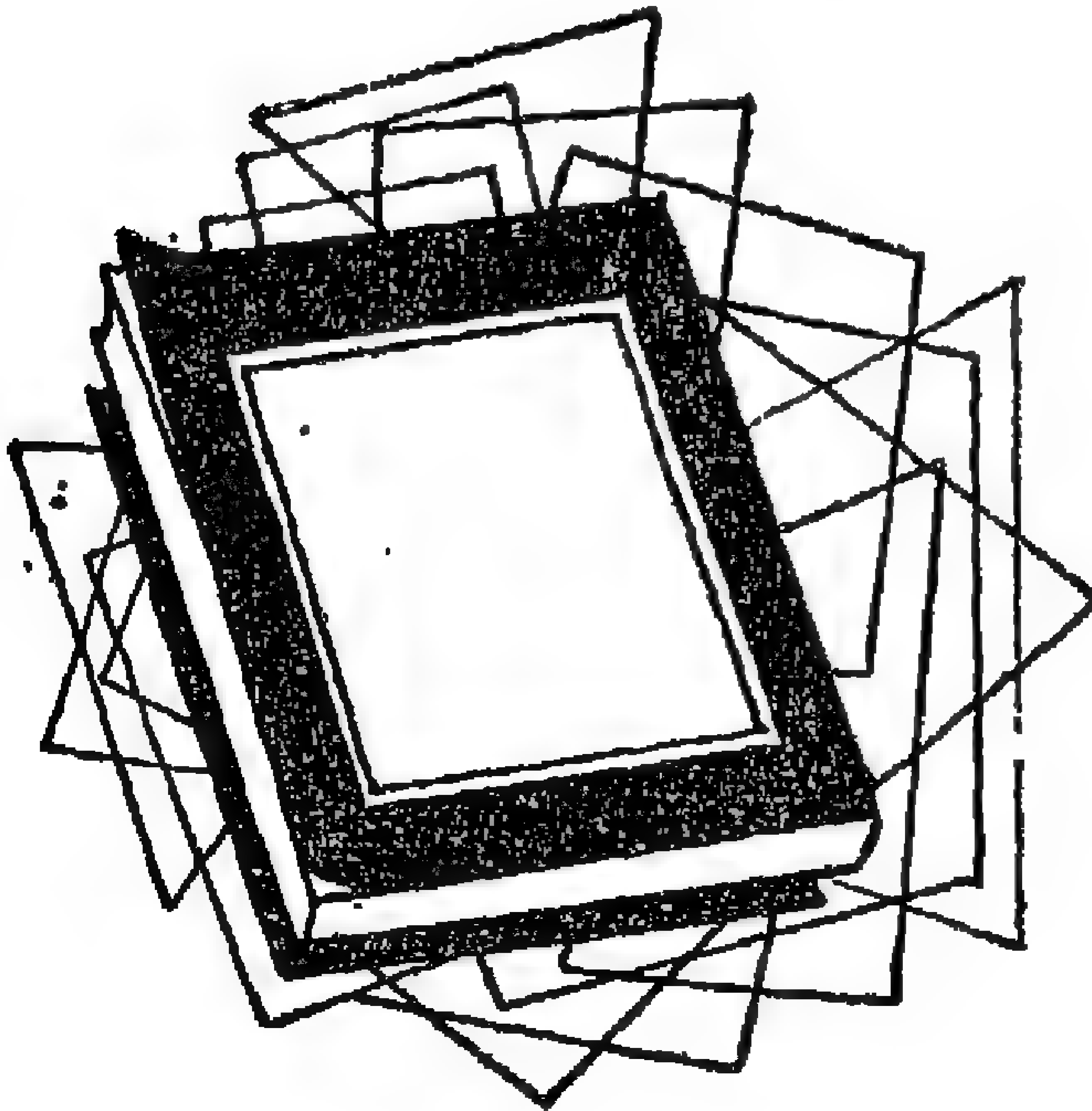
أما مصادر المياه المعروفة حاليا ، حتى ولو حولت اسرائيل نهر الاردن ، فهى لا يمكن ان تروى عطش اسرائيل ، اذا زاد عدد سكانها بالقدر الذى ترجوه لنفسها ..

الفصل الرابع

طوبى للخائفين!

رواية للكاتبة الإسرائيلية يائيل دايان

يائيل دايان ، ابنة القائد الصهيوني العسكري المعروف موشى دايان ، هي مؤلفة هذه الرواية التى تشرح لنا عن "عقل اسرائيل" و"نفسيتها" أكثر مما تشرحه لنا عشرات من المؤلفات .



هذه رواية ألفتها فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها . الفتاة اسرائيلية صهيونية ، اسمها « يائيل دايان » ، بنت موشى دايان القائد العسكرى الصهيونى المعروف ، وأقرب المقربين الى بن جوريون ، والوزير فى حكومة اسرائيل أكثر من مرة ..

وقد ألفت « يائيل دايان » وهى فى التاسعة عشرة من العمر رواية اسمها « وجه جديد فى المرآة » ، كانت محل تعليقات شتى ، ولكنها لم تستوقفنى كثيرا ..

أما هذه الرواية فقد استوقفتنى بشدة لا لانها رواية مكتوبة باتقان فنى كبير فحسب ، ولكن لانها أشبه أن تكون تحقيقا نفسيا عن مجتمع اسرائيل ودولة اسرائيل .. وهو الشيء الذى يجب أن نتابعه باستمرار ..

وقد كنت جالسا فى شرفة فندق « سان جورج » فى بيروت حين دخل الشرفة صحفى هندى تعرفت به فى القاهرة منذ سنوات .. حاملا حقائبه ، آتيا من سفر .

وسألته : من أين أنت قادم ؟

فقال لى : من اسرائيل !

وقبل أن تقفز الدهشة الى وجهى قال : ليس مباشرة! فأنا قادم الآن من قبرص . ولكننى قبل قبرص كنت فى تل أبيب

ورأى أنني سوف أنهال عليه بالاسئلة فبادرني مرة أخرى يقول :

ـ سنتحدث فيما بعد . فان على آن أنجز هنا أشياء كثيرة قبل أن أسافر غدا الى دمشق . ولكنى سأترك لك هذه الرواية التى صدرت منذ أسابيع .. اقرأها .. وسوف تجد فيها الرد على كثير من الاسئلة .. وليكن حديثنا بعد أن تفرغ من قراءتها ..

وقال لى وهو يحمل حقائبه من جديد : ان كل بلد فيه الآن أكثر من بنت تحاول أن تكون « فرنسواز ساجان » .. وهذه هي « فرنسواز ساجان اسرائيل »

وترك لى الصحفى الهندى رواية اسمها « طـوبى للخائفين ! »

القصة تبدأ فى قرية صهيونية قرب الحدود السورية اسمها « بيت عون » .. وفلسطين ما زالت فلسطين .. أى قبل انشاء دولة اسرائيل بقليل ..

ومحور القصة فى صفحاتها الاولى صبى صغير اسمه نيمرود ، أبواه « ايفرى » و « مـريام » مهاجران جاءا من روسيا قبل سنوات . والصراع فى هذه الصفحات الاولى يدور حول تربية الصبى الصغير والعوامـل التى تتنازعه . وهى فى نفس الوقت العوامل التى تتنـازع المجتمع اليهودى فى تلك القرية ..

ان الاولاد الصغار فى القرية يهربـون من أهليهم الى منطقة غير مطروقة ، بالقرب من المقابر ، يلعبون فيهـا لعبتهم المفضلة وهى « من هو القوى ؟ » . وفيها يحاول كل صبى ان يثبت انه أقوى من الآخرين بأى طريقة يختارها .. بأن يتسلق مثلا شجرة اعلى من الشجرة التى يتسلقها سواه أو بأن يسبح عبر نهر الاردن فى الماء البارد مدة

أطول من سواه .. او ان يضع يده على النار المشتعلة ويتحمل لسعها أكثر من سواه !

وفى القرية رجل اسمه « جيديون » يسميه أهل القرية « الصخرة » .. فهو نموذج القوة العضلية .. والشجاعة البدنية .. والاستهانة بالخطر .. وهو كما يتهامس أهل القرية مشترك فى احدى العصابات الصهيونية السرية .. ويشترك فى اعمال ارهابيةمجهولة .. ويعود الى القرية سالما متكبرا ..

ان كل أب فى القرية يريد ان يشب ابنه مثل «جيديون» هذا . وان يحمل بدوره يوما لقب « الصخرة » .. وهذا ما يريده أيضا « ايفرى » لابنه الصبى « نيمرود » رغم معارضة أمه المسالمة « ميريام » التى لا تبرح المطبخ ..

ولكن الصبى تربطه علاقة زوجية باسكافى عجوز فى القرية اسمه «لاميش» فهو يذهب الى دكانه حيث يتفرج عليه وهو يصنع الاحذية ويستمع منه الى قصص وحكايات عجيبة ..

ان الاب لا يحب تأثير لاميش على ابنه .. ان لاميش يحدثه أحاديث يهودية قديمة. عن الله . والدين . والكتاب المقدس.. الى ان كان يوم، رأى فيه جيديون «الصخرة» الصبى نيمرود يدخل مع العجوز لاميش الىالمعبداليهودي .. أو الكنيسة اليهودية .. ودهش جيديون وغضب ورأى فى هذا افسادا للطفل . فأسرع ونقل الخبر الى أبيه ..

وعندما عاد الصبى من المعبد الذى لا يذهب اليه الا القليلون ثار أبوه فى وجهه بحديث له مغزى عميق :

ــ أيام زمان ، حين كنا يهودا فى روسيا وغيرها ،كان من الضرورى بالنسبة لنا ان نطيع التعليمات . ونحافظ

على ديننا ، اما الآن فقد أصبح لدينا شيء أهم ! الارض ! انت الآن اسرائيلي ، ولست مجرد يهودى ! أتعرف ماذا كان اسمى الحقيقى فى روسيا ؟ .. كان اسمى «موتل» . هل تتصور ذلك ؟! نعم كان اسمى «موتل» ولكننى غيرته حين جئت الى هنا وسميت نفسى « ايفرى » . لقدتركت هناك ملابسى ومتاعى وأقاربى .. وعثرت هنا على رب جديد . هذا الرب الجديد هو خصب الارض وزهر البرتقال . الا تحس بذلك ؟

واخذ ايفرى حفنة من تراب الارض وسكبها فى كف الصبى وقال له : امسك هذا التراب .. اقبض عليه .. تحسسه .. تذوقه .. هذا هو ربك الوحيد .. اذا أردت أن تصلى للسماء فلا تصل لها لكى تسكب الفضيلة فى أرواحنا .. ولكن قل لها أن تنزل المطر على أرضنا . هذا هو المهم ! اياك أن تذهب مرة أخرى الى المعبد . اذا أردت أن تسلى نفسك وتتعلم شيئا فاذهب وتعلم حلب البقر !

وليس هناك أقوى من هذا المشهد ، فى التدليل على ما جاء ذكره فى فصل سابق : من ان الصهيونية حركة سياسية لا دينية !

وتحاول الام أن تخفف من غلواء الاب ، تحاول أن تقول له ان الماضى لا يمكن أن يمحى بأكمله حتى بعد الهجرة . ولكن الاب لا يقبل هذا الكلام . ويستطرد قائلا لها ولابنه: هناك .. كنت أخاف من القسيس .. من أبى وأمى .. من عسكرى البوليس .. من الطبيعة .. ومن نفسى .. هناك لم يكن من حق الطفل اليهودى ان يكون قويا أو يتسلق شجرة .. كان عليه فقط ان يبقى فى دكان أبيه لا يبرحه

ولكن الصبى نيمرود يحتفظ بعلاقته « السرية » مع

الاسكافى العجوز لاميش الذى يحـدثه عن الله .. وعن عواطف الحب والشفقة .. وعن ذكريات أيام قديمة فى قرية روسية بعيدة ..

حتى يجىء يوم يحتفل فيه أهل نيمرود بعيد ميلاد ابنهم .. ويدعون له كل الاولاد والبنات

وفى غمرة الضجة والصخب اثناء حفلة عيد الميـلاد يظهر الاسكافى العجوز لاميش .. لقد جاء يحمل لفافة فى يده قال انها هدية أحضرها لنيمرود فى عيد ميلاده. ويفرح نيمرود بحضور لاميش بينما يستقبله أبوه فى فتور مهذب ويدعوه لتناول الشاى . ثم يفتح نيمرود الهدية : انها أرنب من الجلد .. صنعه لاميش من بقايا الجلدالتى تملأ دكانه .. وقد ركب للارنب زرارين صغيرين فى مكان العينين . وتصايح الاطفال وضحكوا من نيمرود وبدأوا يقولون ان نيمرود نفسه أرنب لانه لا يشترك فى لعبة « من هو القوى » . وانفجر سخط ايفرى ، فأخذه لاميش الى حجرة بعيدة عن الاولاد وانفجر فيه مهددا متوعدا اذا ظل يتصل بابنه ويبثه المشاعر التى يبثها فيه

قال له :

ــ انك لم تتغير عما كنت عليه فى قريتنا الروسيــة منذ سنوات بعيدة .. الهجرة لم تغير فيك اى شىء .. فأنت لا تهتم بالارض .. وجلدك ما زال أصفر اللون ! لم يكتسب أى سمرة بعد .. انك .. يهودى جدا !

ويرتجف الاسكاف العجوز بالغضب والاسى ، ويقول له:

ــ كيف تجرؤ يا ايفرى على أن توجه لى هذا الكلام ؟. بل كيف تجرؤ يا « موتل » . يا ابن القسيس «نمخاس»؟ أن تغيير اسمك لا يغير حقيقتك ! انك فى قرارة نفسك خائف .. خائف مثل موتل ابن القسيس نمخاس تماما ! ان الله رزقك ابنا بديعا ، ولكن ماذا أنت صانع به ؟ ..

ـ ليس هذا شأنك . انك تريد ان تراه يشب مثل أى يهودى آخر فى قرية أوربية . ولكن ابنى لن يكون هكذا . انه سيكون نوعا جديدا

ـ الانسان ليس له نوع قديم ونوع جديد وابنك كائن انسانى حساس . خذ أى قطعة من الجلد الطرى .. انك تستطيع أن تظل تطرقها وتدبغها حتى تصبح فى صلابة الحديد .. ولكن .. آه .. ان أى شىء فى هذه الحالة يمكن أن يكسرها .. انك بذلك تخسر الجلد .. ولا تحصل على الحديد ..

ـ اننى أريد أن يكون نيمرود شجاعا

ـ الشجاعة صفة حميدة .. اما عدم الخوف فهو صفة بشعة ذميمة .. انك تمارس تأثيرك عليه ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم .. تريد أن تقتلع منه كل خوف .. ولكن يبقى له خوف رهيب ـ خوفه من أن يخاف ! هذا ما يسيطر عليه الآن . انه لن يكون شجاعا اذا مضيت فى تربيته على هذا النحو . ولكنه سيشب عاجزا عن أن يخاف ، وسوف يكرهك لهذا السبب يوما ما !

ـ وما العيب فى الا يخاف ؟

ـ من لا يخاف لا يستطيع أن يحب . والله يريد منا أن نحب . ابنك سيتمنى أن يحب . ولكن عدم الخوف سوف يجعله وحيدا .. معزولا .. عزلة قاتلة .. انك تريد أن تتخلص من ذاتك القديمة .. ولكنك لست واثقا من ذاتك الجديدة .. ولهذا تحاول أن تصب ابنك فى هذا القالب الذى تتخيله ! ..

وحين ينصرف لاميش والضيوف ، يترقب الصبى المهموم الهدية التى أعدها له أبوه .. وفض الاب لفافته بعناية وحرص كبيرين ، فبدا نصل لامع حاد ـ خنجر مرهف ..

وقال ايفرى لابنه : هيه ‥ ما رأيك ؟ خنجر حقيقى ! تستطيع أن تقطع به أى شىء !

وقال الصبى لنفسه انه لا يعرف ما اذا كان يريد أن يقطع أى شىء على الاطلاق .. لقد رأى مثل هذا الخنجر مع الاولاد الذين من سنه . ان هذا الخنجر حلم كل صبى فى القرية . اما هو ..

وقال الاب ساخرا : نعم ‥ تستطيع أن تقطع به أى شىء ‥ حتى ذيل الارنب الجلدى

وقال الصبى وكأنه قد تذكر فجأة :

ــ اين ارنبى ؟

ــ فى حجرتك .. على الرف .. انك طبعا لا تريد أن تلعب بمثل هذه اللعب التافهة

ودخل الصبى حجرته الصغيرة لينام ‥ حاول أن يضع الارنب معه فى الفراش ولكن الفراش كان ضيقا ، فوضعه على مقعد مواجه له ... ووضع بجواره السكين

ان غرفته مليئة بألعاب اشــــتراها له أبوه ‥ مدافع ودبابات وبنادق .. ثم تذكر البندقية الحقيقيـــــة التى يحتفظ بها أبوه ‥ وكيف أن أباه يعلمه كل يوم جمعة كيف يستعملها وينظفها ‥ وتذكر كيف أن أمه لاتستطيع الآن أن تضىء الشموع كل يوم جمعة . لقد قال لها أبوه انه لم تعد هناك حاجة الى مثل هذا . ان الرب القديم لم يعد موجودا .. وتتردد عيناه بين الارنب الجلدى بعينيه المصنوعتين من الازرار وبين الســـــكين المرهف .. حتى ينام ‥

وفى لمحات سريعة تجتاز المؤلفة فترة الحرب العالمية الثانية ، واشتراك العصابات الصهيونية الى جانب انجلترا ،

ثم ما بعد الحرب ، ثم حرب فلسطين ، وأخيرا اعــلان دولة اسرائيل ..

وكيف نجد الصبى الصغير «نيمرود» وقرية«بيتعون» بعد هذه الخطوب ؟

لقد مات العجوز « لاميش » . مات حزينا لانه رأى تعاليمه تذبل ، ورأى المجتمع من حوله يتجه الى عبــادة القوة وعدم الايمان بالله ، وعدم الاعتراف بالحب والخوف

اما «جيديون» او « الصخرة» كما كان يسميه أهــل القرية ، ورمز القوة والالحاد والثأر من كل الحياةالقديمة التى قاساها اليهود ، فقد عاد من احــدى « مهماته السرية » حطاما . انفجر فيه لغم فمزق له ذراعيهواحدى ساقيه .. عاد جسدا مشوها عاجزا عن الحركة ..

وقد حاولوا أول الامر ان يمنعوا نيمرود من زيارته . ولكنه تسلل يوما اليه . وقد دهش حين دخــل البيت فوجد « الصخرة » يبكى . لقد كان جيديون يمثل كل ماهو نقيض لاميش . ولكن ما اشبههما الآن :«لاميش ميت ومدفون تحت قطعة من الحجر ، وجيديون ميت حى ، مربوط الى سريره ، عاجز عن عمل أى شيء .. لايستطيع أن يسير .. لا يستطيع أن يضم امرأة ..

ــ ولكنك تستطيع ان تقرأ .. وتستطيع ان تفكر .. وتستطيع أن تتكلم ..

ــ كلا . ان الصخرة لا عقل لها . اننى لم أكن اخاف حين كان لى جسد قوى يستطيع أن يمارس أى شيء ، وعضلات استطيع ان آمرها ، وأطــراف تطيعنى ، اما الآن ، وقد فقدت كل هذا .. فماذا بقى لى .. ؟!

ودهش نيمرود اكثر حين قال له جيديون : انه الآن

يحسد لاميش بعد ان كان يكرهه ويحتقره !!

— أتذكر يوم غضبت منك حين أخذك الى المعبد ؟ لقد كنت غيورا . ذلك انني لم أذهب الى المعبد قط . وطالما اجتاحتني رغبة خفية كي أصلي • ولكن المجتمع هنا لم يكن يقبل من « الصخرة » أن يصلي ، أو يكون له رب •• كان على « الصخرة » أن يكون رمز النموذج الجديد ، القوى الذى لا يخاف ، ولا يحتاج الى اله !

على انه من خلال هذا كله لم يكن هناك مفر من ان ينمو « نيمرود » فى القالب الذى « يريده له الجو السائد فى بيت عون » ، وان تهمل احلامه الارنب الجلدي وتتعلق بالسكين ذى النصل المرهف الحاد !

« أصبحت الحياة بالنسبة لنيمرود حياة جسـد ، ومادة . افراحه جسدية وآماله جسدية . هدفه هـو الاثبات المستمر لقوته الجسدية . اما الجانب الاخر من نيمرود فقد اختفى تماما .. فى حالات قليلة كان يبدو هذا الجانب الاخر كأنه طيف شاحب بعيد ، فيقوم نيمرود برحلة على قدميه فى انحاء البلاد ، وقد يقوى على ان يحب منظرا جميلا من مناظر الطبيعة ، بل وتصل به الحساسية أحيانا الى درجة أن يقطف بعض الازهار ، وينسى للحظة انه يجب ان يكون قويا فحسب •• ولـكن تلك كانت حالات عابرة سرعان ما تختفى ، وبينما كان جيديـون الصخرة يتضاءل فى فراشه الى « صخرة صـغيرة » ثم الى « لاميش جـديد » كان نيمرود يتحـول الى « صخرة » . كل مافى الامر انه لم يثبت صفاته تلك فى الحرب اذ انه كان صغيرا جدا حين قامت الحرب وانتهت . ولكن لا بأس ، فان أباه يؤكد له دائما انه لا مفر من الحرب يوما ضد العرب ، لا مفر من الحرب !

ويطرق باب نيمرود شيء جديد .. قصة حب ..

فقد نزل فى قرية « بيت عون » مجموعة من البنات المهاجرات القادمات من بودابست فى المجر . ومن بين المجموعة التقته عينا الفتاة الشقراء « ايللى » بعينى الشاب القوى ، الصخرة ، نيمرود ..

هل يتزوج نيمرود من فتاة مهاجرة مختلفة عنه فى عاداتها وتقاليدها وأفكارها ؟ سؤال تثيره الام ، ثم تزيحه جانبا .. ولا تعترض ..

ولكن السؤال الاساسى يبقى بين نيمرود والفتاة . انه يحبها . يحبها حبا من نوع خاص وكأنها مجرد امتداد لجسده او لقدراته الجسدية المادية البحتة ، والفتاة تلاحظ هذا وتتحمله ، وترجعه اول الامر الى انه يمارس تجربته الاولى مع النساء . ولكنها تكتشف فى القرية اشياء غريبة .. تكتشف ذات ليلة اللعبة التى يمارسها الاولاد الصغار « من هو القوى » وتصرخ حين ترى صبيا يضع يده فى النار لكى يثبت انه قوى . وتعود اليها ذكرى كل بشاعات الحرب فى أوربا . وتجرى باكية الى جيديون ، الصخرة سابقا ، الراقد فى فراشه ابدا ، يقول شعرا حزينا يائسا ! ..

انها لا تتحمل هذا الذى رأته . لان معناه انها لو تزوجت فسوف يشب اولادها على نفس التعاليم

ويقول لها جيديون « تسأليننى عن تفسير لهذا ؟ انظرى الى جيدا ! أنا التفسير ! انا الاجابة على سؤالك ! سخافة .. شجاعة زائفة ! » ثم أشار الى ساقيه المقطوعتين وقال :

« لا عقل ! لا حكمة ! نتائج عظيمة وخطر عظيم ! »

وقال فيما قال انه يصاب بغثيان من « نموذج الانسان الجديد » الذى يصنعونه فى البلاد .. وقال لها ان نيمرود يريد ان يكون صخرة والصخرة لا يمكن ان تتحول الى

نبات حى قادر على التنفس ..

« وكان جيديون يلهث ، وقلبه يدق فى صوت أشبه بدقات عصا فى يد رجل أعمى ، يسير متعثرا ، مترددا ، فى ظلام مطبق بدون هدف .. ! »

وفى تلك المرحلة تعبر القصة شخصيات اخرى ثانوية وصور جانبية ولكنها ذات دلالة . فهناك اليهـــودى اليمنى « زكى » الذى ترسم القصة فيه نموذجا لعلاقة اليهود الشرقيين باليهود الاوربيين داخل اسرائيل . فهم تابعون ضعفاء ، يعترفون — كما تقول المؤلفة عن زكى — بضعفهم وعجزهم وحاجتهم الى قيادة وحماية اليهودى الاوربى .. وهناك «رينا» بنت المزرعة التى يمكن ان تعد صورة من « النموذج الجديد » الذى تحاول اسرائيـــل ان تصنعه فى عالم المرأة . وهناك «يورام » الشاب ابن المدينة — تل أبيب — الذى جاء مع فرق التدريب العسكرى الى القرية . وهناك الحديث المتواصل عن حوادث الحدود . والمؤلفة تزعم بالطبع ، بشكل غير مباشر ، ان العرب دائما هم المعتدون ، وان اليهود يتحدثون دائما عن « الرد » ، مقابلة العدوان بالعدوان ، تلقين العدو درسا . يقولون هذا كله فى لهجة أقرب الى الغيظ منها الى الحقد ، وأقرب الى التعب منها الى التحفز ! » ..

ويذهب نيمرود وايللى وبعض الاصـــحاب يوما الى المدينة ، الى تل أبيب . وهنا ترسم المؤلفة صورة غريبة للتناقض بين المزارع وبين المدن فى اسرائيل . فهى تقول ان ابناء « بيت عون » شعروا كأنهم ســافروا الى دولة أخرى .. وعندما جلس نيمرود ، ابن المزرعة ، فى المقهى واستمع الى مناقشات الناس من حوله ، دهش وذعر .. انهم يقولون عن اصطدامات الحدود انها وحشية وبشعة بدلا

من أن يمجدوها. وهم يتحدثون عن السلم، بل ويقترحون ايقاف الهجرة الى اسرائيل والموافقة على عــودة بعض اللاجئين العرب الى ديارهم ! وعندما دخــل نيمرود فى حديث مع بعض الناس سألوه من أين هو فقال « من بيت عون » فسألوه « اين تقع بالضبط ؟ » فجرح جرحا عميقا حين وجد أن الناس فى تل أبيب لم يســمعوا عن اسم بيت عون قط . ولكن الذى أثاره الى أقصى حد هو أن « رينا » نموذج « الانسان الجديد » بين البنــات .. آثرت أن تترك القرية وخطيبها السابق لتتزوج شــابا وسيما ناعما من تل أبيب !

وعندما عاد الى بيت عون سأله ابوه .. «هل صحيح اننا سنقوم باجراء عسكرى بمناسبة تبادل اطلاق النار على حدود سوريا » فقال نيمرود مستهزئا « لا أظن .. فالناس فى تل أبيب يتحدثون عن السلام ! كأننا نحن.. نريد الحرب ! » وتستطرد المؤلفة قائلة « ولكنــه كان يكذب . انه يريد الصدام والآن اكثر من أى وقت مضى . أنه يريد أن يقفز الى القتال أو فليعد الى رحم أمه وكأنه لم يولد قط ! ان الصخرة تنمو فى باطنه حتى أوشكت أن تقتل أى شىء رقيق فيه . ان « الصبار » نبات ضخم وقوى وملىء بالعصير ولكنه ينكمش فى بعض المواســم ويفقد مافيه من عصير ولا يبقى منه الا الشوك الحاد . والشوك فى نيمرود بدأ يتجه الى الداخل ويقتل فيه أى شىء يمكن ان يكون عذبا . ولهذا فعندما نظر الى الارنب الجلدى فجأة سخر من نفسه وقرر ان يهــديه الى « ايللى » .. ليتخلص منه ..

وقد قرر نيمرود ان يحل مشكلة قلقه وازمته النفسية منذ عاد من تل أبيب بمشروع غريب .. فهناك وراء حدود

اسرائيل ، فى الارض العربية الممتدة ، يشرف جبل شامخ اسمه « جبل الثلج » حيث تلتقى حدود اسرائيل وسوريا ولبنان ..

وتسجل المؤلفة ما تسميه « يوميات نيمــــرود » فى رحلته الغريبة . ارتدى ثيابا عربية للتنكر وأخفى خنجره بين طيات ثيابه وعبر الحدود ليلا ، صاعدا الى الجبل ..

رحلة غريبة مملوءة بالرمز ، جياشة بالكلمات والعبارات التى تحمل اكثر من معناها المباشر . ان فيها حلم الاسرائيلى بالتوسع خارج حدوده الحالية . وان هذه الجبال عبر الحدود هى ملك له . وفيها احساس الاسرائيلى بالغرور العميق منذ اقام دولته « اننى لا اطلب معركة ، ولكننى أطلب شيئا اتحداه وأتغلب عليه . وداعا يا بيت عون . ابنك خارج لكى يغتصب الجبال العذراء ! » ثم يتحدث عن شعوره المعقد نحو العربى « اننى لست مســـالما ولا باحثا عن التهدئة . ولكننى ايضا لا اهتم بالحرب . لا أستطيع أن اقتنع بأن هؤلاء الناس اعدائى .. ربما لانهم قريبون جدا ، يمكن لمسهم بأصابع اليد ، لو اننى استطيع ان أتجنب رؤية « العربى » واتصوره نوعا من الوحش ، فلربما استطعت ان أكرهه وان اقاتله وأحاربه . ولـكن هذه ليست الحقيقة . اننى اعبر حدوده لمجرد انه يملك شيئا جميلا أريد أن ألمسه ! »

وحين يصعد الجبل يعاود تحديه : « هأنذا على قمـة جبل الثلج اصيح كما كنت افعل وأنا صغير « من هو القوى ؟ » ولكن أصداء صوتى هذه المرة تتردد فى الاردن ، وعلى ضفاف نهر الليطانى ، وعلى الطريق الصـــاعد الى دمشق ، وفى السماء ! »

ولا نرى « العربى » فى الرواية كلها الا ونيمرود عائد ،

متلصص ، من رحلته الرمزية الغريبة الى جبل الثلج فيلمح ظهر عربى عجوز يحمل بندقية ، ويكتب فى رمز آخر « كنت أفكر فى بندقيته ، ويدى على خنجرى • هل يطلق على النار اذا رآنى ؟ اسهل شىء ان أهاجمه من الظهر واطعنه وأجهز عليه ! ولكن هذه ليست لعبة عادلة . ولكنه ــ أيضا ــ اذا اكتشف وجودى فستكون هذه نهاية أشياء كثيرة .. لو رآنى فاننى ضائع لا محالة

ويتزوج نيمرود من ايللى . ويبنيان بيتا جديدا فى المزرعة . ويشن الاسرائيليون هجوما ليليا على قرية سورية . وتبرر المؤلفة الهجوم طبعا بتحرش السوريين بحدود اسرائيل . ويشترك نيمرود أخيرا فى القتال الذى كان يتحرق اليه • ويعود وفى ذراعه جرح خفيف •وتقول له زوجته ايللى انه يفضل ان يتخلل رصاص العدو شعر رأسه على أن تتخلله أصابع زوجته ••

وايللى تعيش فى حياتها مع نيمرود لكل الاسباب والصفات التى سبق سردها • وهى حامل ولا تريد أن يشب ابنها مثله • ولكن الحدث الذى جعلها تنفجر وتثور وتهرب من البيت هو مرض ام نيمرود ثم وفاتها .. لقد ذعرت ايللى وهى ترى نيمرود يعبر هذه المرحلة بلا انفعال . لم يجد فى وفاة امه أكثر من مجرد حادث بديهى وطبيعى لا مفر منه ولا يحتاج الى حزن ولا حتى الى أن يذهب الى فراش موتها ! كأن هذه المرأة العجوز ليست أمه ولا تمت اليه بأى شىء !

وهربت ايللى الى بيت صاحبتها التى تزوجت فى تل أبيب « افتحوا النوافذ ! •• افتحوا النوافذ والابواب والارحام والا آختنقنا جميعا ! لقد تزوجت صخرة ــ شجرة ميتة •• واديا أجرد لا ينبت فيه شىء ! •• هل تستطيع

الصخرة أن تحب ؟ لا أريد طفلا ! لا أريد أن أنجب منه !»

وحين يذهب نيمرود الى أصحابها ليعيدوها اليه يقولون له « ان المسكينة تحبك ! تحب ما فيك من قوة تبعث على الغثيان . هذه أرض طيبة . انها لا تأكلنا . ولكننا نحن نأكل انفسنا .. »

وبعد أن تهدأ اعصاب ايللى ، يصالحها زوجها ، وتعود لتلد طفلها فى بيت عون ..

ماذا بقى فى القصة من احداث ؟

بقى حادثان أساسيان ..

الاول هو موت « جيديون » . فقد مات منتحرا برصاصة آفرغها فى جوفه بعد أن ترك رسالة طويلة لنيمرود ، خليفته فى حمل لقب الصخرة .. رسالة قال فيها « اننى احس بالذنب نحوك . فقد قتلت الجانب الطيب فيك ــ وهو الخوف . لقد كنت نموذجا سيئا لك . لقد قتلتك لاننى نفسى قتلت بنفس الطريقة من قبل ..

« لقد كنت فاسدا وقويا فى البداية وهأنذا أنتهى فاسدا وضعيفا .. ان المرء يحتاج الى شجاعة لكى يخاف .. ولم تكن لدى هذه الشجاعة . ولا انت فأنت مهدد بمصيرى ــ سوف تجن وتدمر كل ما حولك ، وتدمرنفسك قبل كل شىء . نصيحتى لك أن تترك أولادك يلعبون كالاطفال . لا تدعهم يشبون على هذا الطراز الجديد الذى يزعمون .. لا تصنع منهم صخورا . اننى أترك الارض لالحق بمن هم أحسن منى مثل لاميش ! »

الحادث الثانى : أو المشهد الاخير الذى تختتم به «ياثيل

دايان » قصتها هو ان ابن نيمرود قد اصبح صبيا

وقد ذهب بدوره الى حيث يلتقى الاولاد ويلعبون لعبة « من هو القوى » وقد أراد أن يثبت قوته فقفز فى نهر الاردن ليعبره . ولكنه يشرف على الغرق . وفى تلك اللحظة يمر نيمرود صدفة بالمكان فيرى ابنه على وشك الغرق « وفجأة تحطم كل شىء • لقد وقف الصخرة يرتعد• كان نيمرود النموذج الجديد ، الصخرة ، يرتجف ذعرا . كان الخوف الساحق يمزقه . كل مخاوفه القديمة التى اخفاها .. واغرقها .. وقتلها .. قفزت فجأة على السطح تسخر منه وتغزو قلبه واعصابه .. وقفز بلا وعى فى الماء لينقذ ابنه .. فلما انقذه فوجىء الاولاد بالصخرة يبكى كالاطفال ..

وعندما عاد الى البيت وهو ما زال يبكى قال له ابوه « ايفرى » : « ابك يا ابنى .. لا تخجل ! ابك ! ضع ابنك فى فراشه وحدثه بحكايات لأميش القديمة ، وحاول أن تصلى ! »

وفى الفراش ، اخرج نيمرود من الدولاب أرنبا مضحكا من الجلد له عينان من الازرار •• أعطاه للطفل !

هكذا قدمت « يائيل دايان » صورة لمجتمع اسرائيل من وجهة نظرها .. التى تمثل بغير شك وجهة نظر واسعة الانتشار داخل اسرائيل .. كما قال لى الصحفى الهندى الذى اعارنى الرواية ..

ومن سطور هذه الرواية وما فيها من خلجات نفهم :

ــ ان اسرائيل دولة اقامها ناس لا علاقة لهم بالدين ولا يعترفون به . بل انهم هاربون من دينهم قبل أى شىء آخر . رغم ان اسرائيل اقامت دعايتها وحجتها فى احتلال

فلسطين على اساس الدين ·· انهم ناس يثأرون لاحتقار المجتمع الاوربى واضطهاده لهم

ان اسرائيل أقامت ضجة كبيرة حول فكرة انها تخلق نوعا جديدا من الناس أطلقت عليه اسم نبات « الصبار » ليكون جنسا ممتازا على سائر البشر فهذه الدعوة ـ العنصرية فى أساسها ـ تمزقها المؤلفة تمزيقا شديدا وتدمغها بالفشل الذريع .. وبأنها تشويه للانسان لا غير ..

اننا اذا تأملنا فى هذه الفكرة وآثارها ونظرتها فسوف نجد أنها « نازية » مائة فى المائة ! ·· لها نظرة النازية الباردة الوحشية الى الصفة العنصرية ، والى الانسان كجسد وأداة لا شفقة فى استخدامها أو تدميرها

وان فكرة القوة .. والغزو .. والتوسع .. والعدوان .. عميقة راسخة الجذور فى بناء مجتمع اسرائيل

وان الجيل الجديد ينتقد كل هذا .. ولكنه مصاب الى حد كبير بنفس الأمراض .. فهو حائر .. يكاد يرى ان انشاء دولة اسرائيل بالنسبة له لم يكن حلا للمشكلة ولكنه كان بداية مشكلة هائلة ..

مشكلة تتلخص فى عبارة : الى آين ؟ !

الفصل
الخامس

جان بول سارتر ومشكلة اليهودي

أين أخطأ سارتر، وأين أصاب في كتابه التحليلي عن مشكلة اليهودية ؟



جان بول سارتر فيلســـوف وفنان اشتهر باتخاذ مواقف سياسية كثيرة ، تنطوى عادة على الوقوف الى جانب الحق والعدالة والمساواة ، والانتصار للمضطهدين ونضاله المشهود من أجـــل حرية الجزائر واستقلال الجزائر مازال ماثلا . وصـموده فى وجه العســكرية الرجعية فى فرنسا كان رمزا لبطولة المثقف الذى يشعر بمسئوليته نحو المجتمع

جان بول سارتر من الفنانين الذين صمدوا قبل ذلك فى وجه الطغيان النازى . وطالما هاجم فى مؤلفاته كل ما تنطوى عليه النازية من عنصرية وتعصب قومى

ومن المنطقى أن يكون لسارتر بعد ذلك موقف قوى ضد « أعداء الســامية » أى أصحاب دعوة التعصب العنصرى ضد اليهود ..

من المنطقى أن يكون له هـذا الموقف ، وهو موقف عادل بالتأكيد . لأن دعوة معاداة الســامية والتعصب العنصرى ضد اليهود هى دعوة رجعية مظلمـة كدعوة معاداة الزنوج وكنزعة اضـــطهاد أى أقلية من أى نوع وكأى دعوة عنصرية أخرى

ولكن هذا كله لايبرر المبالغة . ولا يبرر الخروج على المنطق السليم والجموح وراء الرغبة فى تبرير كل مايصدر

عن اليهود . وكل ماهو يهودى ومن هو يهودى .. ولو أدى الامر الى اتهام العالم كله والتاريخ الانسانى كله بأقسى الاتهامات

ولكن هذا هو ماجمح اليه جان بول سارتر بالضبط .. فى هذا الكتاب الذى سوف أحاول أن أعرض بعض ماجاء فيه بعد استطراد قليل من هذه المقدمة ..

***

ونحن العرب قد وجدنا أنفسنا — من حيث لانريد — طرفا فى كل ماله صلة باليهود .. بما فى ذلك حكاية « معاداة السامية » . ذلك أن اليهود ، الذين واجهوا على يد المجتمعات الاوربية اضطهادا طويلا ، وصل الى قمته فى غرف الغاز التى أقامها هتلر لاعدام الجنس اليهودى .. هؤلاء اليهود وجدوا أن حل قضيتهم الوحيد هو فى أن ينشئوا مدرسة للتعصب العنصرى لاتقل عن الهتلرية ، هى الصهيونية . وان تتبلور هذه النزعة العنصرية فى وطن ودولة لهم ينشئونها على أشلاء مليون عربى .. !

هكذا — من حيث لانريد — وجدنا أنفسنا محتاجين الى أن نرهف السمع لكل مايقال عن اليهود أو المسألة اليهودية ..

لماذا ؟ ...

هل لاننا نكره أن يدافع المدافعون عن اليهود فى المجتمعات التى ينتمون اليها .. فرنسية أو انجليزية أو أمريكية ؟ ..

كلا .. فاننا نؤمن أن اليهودى كالمسلم والمسيحى له حق الحياة فى الوطن الذى ينتمى اليه . بل ان دعوتنا الاساسية ضد اسرائيل تستند الى أن اليهودى يجب

أن يبقى فى الوطن الذى ينتمى اليه .. لا أن يهاجر منه لينشىء دولة عنصرية باغية فوق قطعة من أرضنا

نحن اذن نتمنى لليهودى طيب المقام حيث يكون . لا لأن هذه هى العقيدة الانسانية التى نؤمن بها فحسب. بل لاننا ـ أيضا ـ أصحاب مصلحة فى هذه العقيدة . نحن أصحاب مصلحة فى أن يندثر ـ فعلا ـ التعصب العنصرى بوجه عام ، والتعصب العنصرى ضد اليهود بوجه خاص . لان هذا التعصب العنصرى ، ولو بطريق غير مباشر ، هو الذى خلق اسرائيل . وهذا التعصب العنصرى هو الذى تعمد اسرائيل ـ الآن ـ الى اذكائه ، أو ايهام الناس بوجوده فى كل مكان ، لالقاء الجذوة التى خلقت اسرائيل ..

نحن اذن ـ لهذا كله ـ لانكره أن يدافع المدافعون عن اليهودى فى فرنسا أو بريطانيا أو بولندا أو أمريكا

ولكننا نرهف السمع لهذا الدفاع ، ونشك فى واقعه احيانا ، لسبب هو : ان اسرائيل تتخذه سلاحا لهـــا ضدنا ، وتصطنع منه دخانا يخفى جريمتها العنصرية فى فلسطين !

هنا فقط نتنبه ونشك وننتقد ! لانه يكون هنا ـ على أحسن الفروض ـ من ذلك النوع الذى يقال عنـــه انه « حق يراد به باطل ! »

واسرائيل الآن تقوم « بحركة التفاف » فكرية واسعة فى العـــالم أجمع ! ... انها تحـــاول بالافلام الملونة ، وبمعدات السينما سكوب ، وبالروايات ، والمسرحيات ، وبالكتب العلمية والتاريخية ، وبالمحاكمات .. أن تثقل ضمير العالم كله بالذنب نحو اليهود ! أن تشعر كل فرد وكل دولة وكل دين وكل ملة أنه مسئول عن جزء مما

حل باليهود ! وفى غمرة هذا « الشعور بالذنب » الذى تغمر اسرائيل به العالم .. تحاول أن تستخلص الضمانات لاسرائيل ، والاموال لاسرائيل ، والاعداء للعرب بوصفهم الخصوم الجدد لليهود ! .. فى غمرة هذا « الشعور بالذنب » الذى تغمر به اسرائيل العالم تحاول أن تقنع هذا العالم بأن يغفر لها ذنبها ، وأن يرى فى طرد مليون عربى نوعا من التعويض المعقول لها !

ويجب أن نعترف بأن اسرائيل قد نجحت ـ فى أماكن كثيرة من العالم ـ فى خلق هذا الشعور ! وجان بول سارتر نفسه ـ فى هذا الكتاب الذى أعرض له ، يقول ان بعض المتحررين لايرون فى اليهود الا مجرد موضوع يثبتون به تحررهم ! فالواحد منهم يتحمس فى الدفاع عن اليهود لا لاحساس باطنى قوى بالحاجة الى هذا الدفاع ، ولكن ليقول للعالم أنه متحرر !

وانني لاخشى ، أن يكون جان بول سارتر نفسه ، قد وقع فى هذه الفلطة ، وفاق كل المتطرفين فى الدفاع عن اليهود لهذا السبب .. من حيث يدرى أو من حيث لايدرى ! ..

أن العنوان الكامل لهذا الكتاب ـ ١٥٢ صفحة ـ هو « عدو السامية .. واليهودي ! » ...

وسارتر فى هذا الكتاب يشرح لنا ـ أولا ـ نظريته الفلسفية فى « الانسان » ليقيم على أساسها تبريره المطلق لكل مايصدر عن اليهود ! ..

ونظريته فى (الانسان) ـ فى محاولة للتبسيط الشديد ـ هى أنه لايوجد شيء اسمه «الطبيعة الانسانية». أى أن الانسان لاتتحدد صفاته وأخلاقه ونزعاته بمجرد مولده .. ولكن يوجد شيء اسمه « انسان فى موقف »

... بمعنى أن « الموقف » الذى يوجد فيه الانسان هو الذى يحدد ويصنع طبيعة الانسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية .. الى آخره . فالانسان لايمكن تمييزه أو فصله عن « الموقف » الذى يوجد فيه

والناس المتشابهون لايتشابهون بحكم « طبيعة » واحدة ولدوا بها ولكنهم يتشابهون بحكم تشابه «الموقف» أو « الحالة » التى يوجدون فيها . فما يجمع بين فئة من الناس هو وحدة « الموقف » وليس وحدة الطبيعة البشرية ..

والنتيجة التى يرتبها سارتر على هذا هى : انه لايوجد شىء اسمه « جنس » يهودى واحد له «طبيعة» واحدة . فالواقع ، كما يقول ، أن هناك « أجناسا » يهودية متعددة ، فالفرق بين اليهودى الروسى مثلا واليهودى اليمنى شاسع جدا كالفرق بين أى روسى وأى يمنى !

فوحدة الجنس اذن ليست هى التى تجمع بين يهود العالم ..

هل هى وحدة التراث والتاريخ ؟

فى رأى سارتر : لا ! فتاريخ وطن اسرائيل القديم قد انقطع واندثر منذ ألفى سنة . فيهود العالم فى الواقع لا يجمعهم تاريخ واحد ولا عاطفة قومية واحدة

اذن .. هل تكون وحدة الدين ؟

كلا أيضا ! فالناس من أديان كثيرة يعيشون متفرقين فى أنحاء الارض دون أن تكون بينهم هذه « الرابطة » أو « الوحدة » التى نراها بين يهود العالم . ثم ان اليهود المشتتين لهم نظرات مختلفة الى الدين نفسه . وكثير منهم ملحدون فى حقيقة الامر ولكنهم مع ذلك يتمسكون

« بطقوس » الدين فقط ، لانه يعطيهم احساسا « بالانتماء » الى فئة معينة ، فالدين بالنسبة لليهود لاقيمة له عندهم « كدين » ولكن قيمته عندهم هى « كرمز » فقط

ويخلص سارتر من هذا الى ان الشيء الحقيقى الذى يربط بين يهود العالم هو « موقفهم » ! هو موقف كل المجتمعات منهم .. ونظرة العالم اليهم !

وامضى خطوة أخرى مع منطق جان بول سارتر .. كى تكتمل فكرته أمام القارىء

ان اليهودى ـ فى رأى سارتر ـ يولد كما يولد أى مخلوق على سطح الارض .. ولكنه حين يشب يجد نفسه فى « موقف » مختلف عن الآخرين : يجد ان الناس ينظرون اليه كيهودى .. وان الدنيا تعامله كيهودى .. هو وكل يهودى مثله ..

انه يولد وحوله جو من الاستعباد والاشمئزاز والنفور والكراهية !

انه يولد ليجد نفسه فى موقف « الملعون » . واذا به يكتسب ، بالتالى ، الصفات المادية والمعنوية والسياسية والاقتصادية التى تترتب على هذا « الموقف » ..

أنه يولد ولديه القابلية الطبيعية لكى يكون مواطنا مندمجا فى الوطن .. فرنسيا فى فرنسا ، وانجليزيا فى بريطانيا .. ولكن المواطنين هم الذين يأبون عليه أن يندمج .. فلا يجد مفرا من أن يظل « يهوديا » .. وأن تظل اليهودية صفة تميزه وتفصله عن الآخرين .. ويصبح بالتالى « غير قابل » للانتماء الى الوطن ـ أى وطن ـ والاندماج فيه

ولما كان اليهودى ـ أيا كان المكان الذى يولد فيه ـ

يواجه هذا « الموقف » ... فان هذا « الموقف الواحد » بالتالى يوحد بين جميع اليهود فى العالم .. ويخلق بينهم هذه الرابطة التى نعرفها .. والتى مصدرها هو هذا الموقف « المنبوذ » وليس مصدرها وحدة الدين ولا وحدة الجنس ولا وحدة التاريخ ! ..

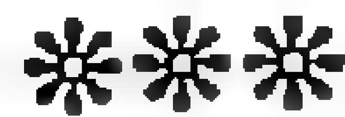
وأقدم تهمة وضعت اليهود فى هذا الوضع المنبوذ من العالم المسيحى ، هو اتهام المسيحيين لهم بأنهم قتلوا المسيح .. ولذلك فكل مسيحى أوربى يشب وهو ينظر الى اليهود على أنهم قتلة أحفاد قتلة ! ..

والفكرة التى يبنى عليها سارتر نظريته ــ الى الآن ــ معقولة الى حد بعيد . ان الذى يجمع اليهود ليس الاصل الواحد ولا الدين الواحد ولا التاريخ الواحد . وهذا أحد الادلة التى نسوقها لنقول انه لا حق لهم فى الوطن الذى اغتصبوه فى فلسطين . انما الذى يجمعهم هو وحدة « الموقف » .. موقف « النبذ » و « الابعاد » الذى يواجهونه فى أوربا بالذات

ولكن سارتر بالغ كثيرا فى ترتيب النتائج على هذه الفكرة . فذهب الى أقصى الحدود فى القاء مسئولية هذا « النبذ » على المجتمعات التى ينشأ فيها اليهود . أى على العالم كله .. فى حين لم يفكر لحظة واحدة فى أن يكون اليهود أنفسهم مسئولين ــ ولو الى حد ما ــ عن هذا النبذ الذى يعيشون فيه

ومنذ ذلك الوقت والمجتمعات المسيحية فى أوربا ترفض أن ينتمى اليهود اليها أو يندمجوا فيها ــ قوميا أو اجتماعيا ــ لقد اختارت أوربا لهم مركز « الملعون » فلم يكن أمامهم مفر من أن يسلكوا سلوك الملعون . كان محرما عليهم أن يمتلكوا الارض أو أن يخدموا فى الجيش .. فلم يكن أمامهم مفر من أن يركزوا حياتهم على النقود .

وبتركيزهم المطلق على النقود تعززت اللعنة الاولى عليهم بلعنة جديدة اقتصادية . واليوم يتهم العالم اليهود بانهم لايعملون ابدا فى اعمال انتاجية كالزراعة او الصناعة أو العمل اليدوى ولكنهم يعملون فى مهنة النقود .. فان السبب فى رأى سارتر هو أن أوربا المسيحية أبت عليهم أن ينتموا الى الوطن انتماء عاديا وأبت عليهم ممارسة أى مهنة أخرى



ويستطرد سارتر استطرادا ذكيا فى تحليل حب اليهود المشهور للفلوس ، وتفرغهم للعمل فى الاوراق المالية والبنوك والمضاربات وما الى ذلك فيقول : ان الذى يجذب اليهودى الى الفلوس ليس حب الفضة أو الذهب فى حد ذاته ، ولكن الذى يجذبه فى الفلوس هو : قوتها الشرائية أو « قدرتها على الشراء » .. الفلوس لا جنسية لها . ولا قومية ولا تراث . انها لغة عالمية .. قوتها مستقلة عن قوة القيم الاخرى التى يجد اليهودى نفسه محروما منها . « ثمن » أى شىء لايتوقف على شخصية ولا جنسية ولا دين المشترى . المشترى هو الذى يملك الرقم المكتوب فى خانة السعر . فاذا دفع الثمن فانه يصبح المالك القانونى للشىء . فالتملك بالشراء لغة عالمية لا تحتاج الا الى الفلوس . فى الآداب المحلية نقرأ دائما ان هناك اشياء كثيرة ليس لها ثمن .. لا تباع ولا تشترى كالشرف والحب والفضيلة والذوق .. الى آخره ، وهذا فى رأى سارتر أسلوب لاستبعاد اليهودى وحرمانه من نيل هذه الاشياء . ولكن هذا فى حد ذاته هو الذى يجعل اليهودى حريصا على أن يثبت أن كل هذه الاشياء يمكن شراؤها ، وأن الفلوس بالتالى هى أهم شىء . انه لايؤمن بأن اى شىء له « قيمة » ولكن كل شىء له

« ثمن » . ان « القيمة » لها معايير كثيرة غير الفلوس .. ترجع الى التراث مثلا أو الانتماء الى أصل معين أو حضارة معينة .. أو أو .. الى آخر هذه الاشياء التى يجد اليهودى نفسه محروما منها ، فهو لذلك يحاول الغاء فكرة « القيمة » التى لايستطيع أن يشارك فيها لتحل محلها فكرة « الثمن » .. أى الفلوس .. الشيء الذى يستطيع أن يمتلكه ويشارك فيه

« القيمة » شيء اجتماعى . فما ليس له قيمة فى مجتمع قد تكون له قيمة كبيرة فى مجتمع آخر . واليهودى منبوذ من كل مجتمع ، لذلك فهو يفضل الغاء فكرة « القيمة » التى لايستطيع أن يشارك فيها ، ويحل محلها فكرة « الثمن »

فلهفة اليهودى على الفلوس .. وعدم اعترافه بأى قيمة الا بالفلوس وبفكرة الثمن .. ليس مصدرهما خسة طبيعية فيه . ولكنهما «رد فعل» لحرمان المجتمع له من المشاركة فى القيم الخاصة بهذا المجتمع

يضاف الى ذلك أن اليهودى دائما قلق فى أعماقه . انه لايطمئن أبدا الى استمرار ملكيته لاى شيء . انه لايستطيع أن يثق فى أن مركزه أو ممتلكاته أو قوته فى المجتمع الذى يعيش فيه يمكن أن تستمر غدا .. تاريخه عبارة عن عشرين قرنا من التيه والتجوال .. انه مستعد فى أى لحظة لان يحمل عصاه على كاهله ويرحل . انه لايمكن أن يستشعر فعلا استقرار « الآرى » الذى لايمكن مناقشة التصاقه بأرضه وانتمائه لوطنه ، وكل القيم الاجتماعية المعترف بها فى بلاده

على هذا النحو يمضى سارتر فى سرد كثير من الصفات التى اصبحت لاصقة بشخصية « اليهودى » فى الذهن

العام ، مبررا لها جميعا بأنها رد فعل ونتيجة لمعاملة المسيحية الاوربية ، والقوميات الاوربية لليهود خلال ٢٠٠٠ سنة مستمرة من الزمان . حتى حين يقول الواحد « يهودية حسناء » يجد أن للكلمة وقعا يختلف عن وقع قوله « أمريكية حسناء » أو « يونانية حسناء » مثلا . أن كلمة « يهودية حسناء » فيها نوع من لذة الاستباحة والاغتصاب ! اليهودية الحسناء هى تلك التى جرها فرسان القوزاق من شعرها فى شوارع القرى المحترقة . اليهودية الحسناء فى الفولكلور ــ الادب الشعبى ــ الاوربى هى المقهورة المغتصبة أو الذليلة فى حب أوربى لايهتم لها كثيرا ، وسوف يتزوج آخر الامر من أوربية مثله . وفى بعض القصص الشعبية حين تموت اليهودية فى سبيل حبها اليائس لاتقدم القصة موتها على أنه استشهاد ، بل على أنه نوع من العدل ! »

« واليهودى فى فرنسا مثلا قد يصل الى أعلى الدرجات ، ويحقق أكبر قدر من الثراء ، ولكن المجتمع رغم ذلك يأبى عليه أن يلتحق التحاقا حقيقيا حتى ولو « قبل وجوده » فى كل مكان . انه قد يصبح وزيرا . ولكن الناس لايذكرونه فيقولون انه « وزير » بل انه « وزير يهودى »

وكما يرسم جان بول سارتر صورة اليهودى التى خلقها المجتمع الاوربى .. يرسم صورة « عدو السامية » .. وهو ليس المواطن الاوربى العادى ، ولا حتى الذى يقف من اليهودى هذا الموقف ، بل هو ذلك الذى يتميز بعداء خاص لليهود

يقول سارتر ان أعداء السامية ودعاة التعصب العنصرى ليسوا عادة من الاذكياء او المتفوقين بأى صورة من صور

التفوق . اى ليسوا من « النخبة » فى أى مجتمـع . ولكنهم من « العاديين تماما » أو الاقل من العاديين !

وأغلب الدعوات العنيفة ضد السامية نشأت وترعرعت بين أبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة التى لايملك افرادها شيئا .. فبمجرد تعصبهم يشعرون فجأة بأنهم يمتلكون شيئا . فالطبقة المتوسطة الصغيرة التى لاتملك الا قليلا فى ألمانيا كانت هى نواة دعوة معاداة السامية ، انها عاجزة ازاء « اليونكرز » وكبار الصناعيين الذين يملكون كل شيء فى المانيا ، وهى فى نفس الوقت لاتقبل الاعتراف بأنهـا لاتملك شيئا كالبروليتاريا ، لهذا أقبلت على دعوة معاداة السامية لانها تعطيها احساسا بالامتـلاك وبالتميز ازاء فئة أخرى ، هى اليهود ، تريد أن تسرق منها ماتملك .. وهو الوطن !

ويقول جان بول سارتر ان اليهودى .. ازاء هــذا «الموقف» الذى يجد نفسه فيه .. يختار أحد موقفين .. فريق يحاول أن يتنصل من يهوديته .. وان يتهرب منها .. وان يتستر عليها .. اى يحاول بوجه عام تخفيف وقع المقاطعة الموجهة ضده .. فهو انسان فى حالة هرب دائما من نفسه ومن وضعه ...

وفريق ثان .. يكون رد فعله عكسيا . انه يقبل اتهام العالم كله ، ويعامل العالم على هذا الأساس ، ومن هذا الفريق الثانى خرج ـ فى رأى سارتر ـ أولئك الذين دعوا الى اقامة وطن يهودى ودولة يهودية ، على أساس أن تأكيد الذات اليهودية والوجود اليهودى ، والرد على النفى الاجتماعى فى انحاء العالم لايكون الا باقامة دولة تكون لها أرض وقومية ووجود ينتمى اليه

ثم يقول : ان اقامة دولة يهودية قد تحل مشـــكلة اليهود الذين يسكنون فى تلك الدولة . ولكنها لاتحل

مشكلة اليهود الذين يفضلون البقاء في أوطانهم ، بل انها تزيد من تعقيد موقفهم . ذلك أن قيام هذه الدولة هو دليل آخر يبرهن على مايقوله خصومهم من أنهم لايحبون الانتماء الى الاوطان التي يعيشون فيها أصلا

وهو يتنبأ بأزمة شديدة بين اليهود المهاجرين الى اسرائيل من جهة .. واليهود الباقين فى أرض آبائهم وأجدادهم . فرنسا أو غير فرنسا من جهة أخرى !

الى هنا .. وأعتقد أننى أعطيت وجهة نظر سارتر فى الموضوع فرصة كافية فى حدود هذه المساحة ، وقد آن ان نتأمل كلامه معا فى سطور قليلة ..

ان الملاحظة البارزة على هذا الكتاب هى أن سارتر كتبه بلهجة المحامى ، فبالرغم من أن فيه أشياء كثيرة صحيحة وعلى درجة كبيرة من ذكاء التحليل .. فان الكتاب كله مكتوب بلهجة المحامى الموكل للدفاع عن قضية معينة . فهو يشعر أن من واجبه تبرير كل شيء . والدفاع عن كل شيء . ونفى كل مسئولية ــ صغيرة أو كبيرة ــ عن موكله !

ونحن ــ كما سبق أن قلت ــ لسنا أعداء للسامية ولا أعداء لليهود كجنس أو كدين . بل ولانختلف فى هذه الناحية عن أى رأى قال به سارتر ولكن المرء حين يفصل فى قضايا نفسية وتاريخية واجتماعية عمرها ٢٠٠٠ سنة ، لايمكن أن يلقى كل المسئولية على طرف واحد دون طرف وهو مطمئن الضمير . ولقد بالغ سارتر فى نفى أى مسئولية عن اليهود الى درجة أنه كاد يكون « عنصريا » بمعنى آخر ! فكما أن كراهية عنصر معين هو اتجاه عنصرى ، كذلك فان نسبة فضيلة الصواب المطلق الى عنصر معين هى أيضا نزعة عنصرية !

ان سارتر حين يعيد ويزيد ويؤكد ان اليهود يحاولون دائما الاندماج والذوبان فى كل مجتمع يعيشون فيه ، ولكن المجتمعات العالمية هى التى ترفض ذلك ، وهى التى تصر على ابقائهم منفصلين .. انما يتجاهل فى الواقع محاولات كثيرة جرت لامتصاص اليهود فى مجتمعات كثيرة ، ويتجاهل أن اضطهاد اليهود اذا كان قد حدث فى مناسبات كثيرة الا أنه لم يكن أبدا القاعدة المستمرة فى التاريخ

وفى بلاد كالبلاد الشيوعية ، تم فيها الغاء الدين بصفة رسمية وبالتالى تم فيها الغاء الدين كعنصر تمييز بين مواطن ومواطن ،وانفتحت بذلك فرصة ضخمةلليهود لكى يصبحوا على الزمن جزءا لايتجزأ من البلد الذى يعيشون فيه .. لم يغير هذا من الحقيقة فى شىء ، وظلت المشكلة اليهودية قائمة بنحو أو بآخر .. بمعنى أنه ظلت الرابطة اليهودية المنفصلة عن الرابطة القومية العامة فى تلك البلاد قائمة . وآية ذلك محاولات اليهود فى تلك البلاد من أجل الهجرة الى اسرائيل . بالرغم من أن كثيرين جدا من هؤلاء الراغبين فى الهجرة هم فى الواقع ملحدون ، كما يقول سارتر نفسه فى ملاحظته عن اليهود الاوربيين

انهم هنا يهربون من هذا « الاندماج » الذى يقول سارتر أنهم يطلبونه !

ولايمكن القول بأنهم يهربون من نظام اقتصادى لايحبونه مثلا .. لانه لايحدث أبدا أن تهرب « فئة بأكملها » من وطنها ، اذا كانت تحس بالانتماء الى هذا الوطن بالمعنى الذى يفهمه اى مواطن فى أى وطن لمجرد اعتراضها على النظام الاقتصادى

وقد ركز سارتر حديثه خلال صفحات طوال عن

اشتراك اليهود الفرنسيين فى المقاومة السرية ضد النازى وضد الاحتلال الالمانى . وأشاد طويلا ببطولتهم وقال مامعناه انهم بهذا دفعوا أعظم ضريبة يمكن أن يدفعها أى فرنسى

ولكن هذا المثل لايصلح دليلا مطلقا على رغبتهم فى الاندماج والانتماء المطلق الى المجتمع الذى يعيشـــون فيه . والسبب هو أن العدوان النازى لم يكن موجها ضد « فرنسا » وحدها ، انما كان موجها أيضـا ضد « اليهود » بالذات . كان هتلر يهدد اليهود أكثر ممـا يهدد فرنسا .. فهم هنا أمام خصم للطائفة لا مجرد خصم للوطن . ولهذا فهم قد حاربوا هتلر كيهود قبل ان يحاربوه كفرنسيين . حاربوا حرب الدفاع عن بقاء اليهود لا حرب الدفاع عن عظمة فرنسا مثلا !

والدليل على ذلك ان هناك أمثلة كثيرة تدل على أن اليهود فى هذا الوطن أو ذاك لم يكونوا يختارون دائما الانتماء الى الوطن فى ساعات مجد الوطن وساعات ذله على السواء ، وهو الانتماء الحقيقى . انما كانوا كثيرا مايعتبرون أنفسهم كتلة خارج دائرة الوطن ، لها حرية اختيار الوطن وتغييره وفق المصلحة التى يرونها ..

سارتر نفسه يشير الى الثورة الوطنية البولندية التى نشبت فى القرن التاسع عشر ضد الاحتلال الروسى . وكيف أن يهود وارسو برفضهم الانضمام الى الثورة كانوا يهدفون الى تحقيق مركز ممتاز لانفسهم عن طريق موالاة المغتصب الروسى

وسارتر يقول ان قيصر روسـيا كان يضطهد يهود روسيا فى نفس الوقت الذى كان يمالىء فيه يهود بولندا ويمنحهم الامتيازات . وأن الســـبب هو أن القيصر

اعتبرهم فئة منفصلة عن الوطن فى الحالتين . فالفئة المنفصلة فى وطنه هى خطر علىوطنه ولذلك يضطهدهم . والفئة المنفصلة فى وطن بولندا تفيد سياسته ضد بولندا فهو لهذا يمالئهم !

ولكن هل دفاع سارتر هذا يبرىء اليهود ـ تماما ـ من مسئولية الموقف ؟

واذا فرضنا ان موقف الاضطهاد داخل روسيا كان « مفروضا » عليهم ولا حيلة لهم فيه .. فهل موقف ممالأة المستعمر فى بولندا ايضا كان مفروضا عليهم ولا حيلة لهم فيه ؟!

بالطبع .. لا ! ..

مثل آخر أضربه لا لان له دلالة خاصة ، ولكن لانه كان محل جدل بالذات ، هو : اليهود فى الجزائر ! ..

ان اليهود الجزائريين من سكان البلاد الاصليين . ومنذ الاحتلال الفرنسى للجزائر على الاقل يمكن القول ان حظهم وحظ أبناء سائر الاديان كان واحدا . فلا يعقل أن يضطهدهم الجزائريون وهم أنفسهم مضطهدون . ولكن اليهود هناك وجدوا الفرصة المناسبة بعد الاحتلال لكن يختاروا الجنسية الفرنسية وينضموا بكل كيانهم الى الكيان الطارىء على الجزائر ، صاحب الامتيازات ويتخلصوا من جلدهم الجزائرى القديم وكان هذا قبل أن تقرر فرنسا اعطاء الجنسية الفرنسية لكل سكان الجزائر بعشرات من السنين .. وبعد مرور حقبة طويلة ، وبعد اشتعال النار تحت بوتقة الثورة الجزائرية ، اصبح اليهود الجزائريون جزءا من الاوروبيين ومن مشكلة الاوروبيين

ليس صحيحا اذن هذا الموقف الذى يتخذه سارتر .. من طلب البراءة التامة لكل المجتمعات اليهودية فى كل زمان ومكان .. وطلب الادانة الكاملة لكل المجتمعات الانسانية الاخرى فى كل زمان ومكان ! ...

وكما أن المحامى الذكى يعمد عادة الى اخفاء واهمال نقط الضعف فى موقف موكله ، كذلك فان سارتر يمر مرور الكرام على نقط الضعف الاساسية فى موقف اليهود اليوم ..

ان الكتاب ـ مثلا ـ مشحون بطاقة هائلة ضد أى اتجاه عنصرى . فماذا عن الدعوة العنصرية فى داخل المجتمع اليهودى .. وهى الدعوة الصهيونية ؟

لاشىء !

بالرغم من أن سارتر أشبع كل شىء يتصل بالمسألة اليهودية عرضا وتحليلا فانه لم يذكر الصهيونية الا فى سطور تعد على أصابع اليد الواحدة ! ..

رغم أن الصهيونية كدعوة كان عمرها أكثر من نصف قرن عندما كتب هذا الكتاب !

رغم أن الصهيونية ـ كدعوة عنصرية ـ أقدم من النازية نفسها بعشرات من السنين !..

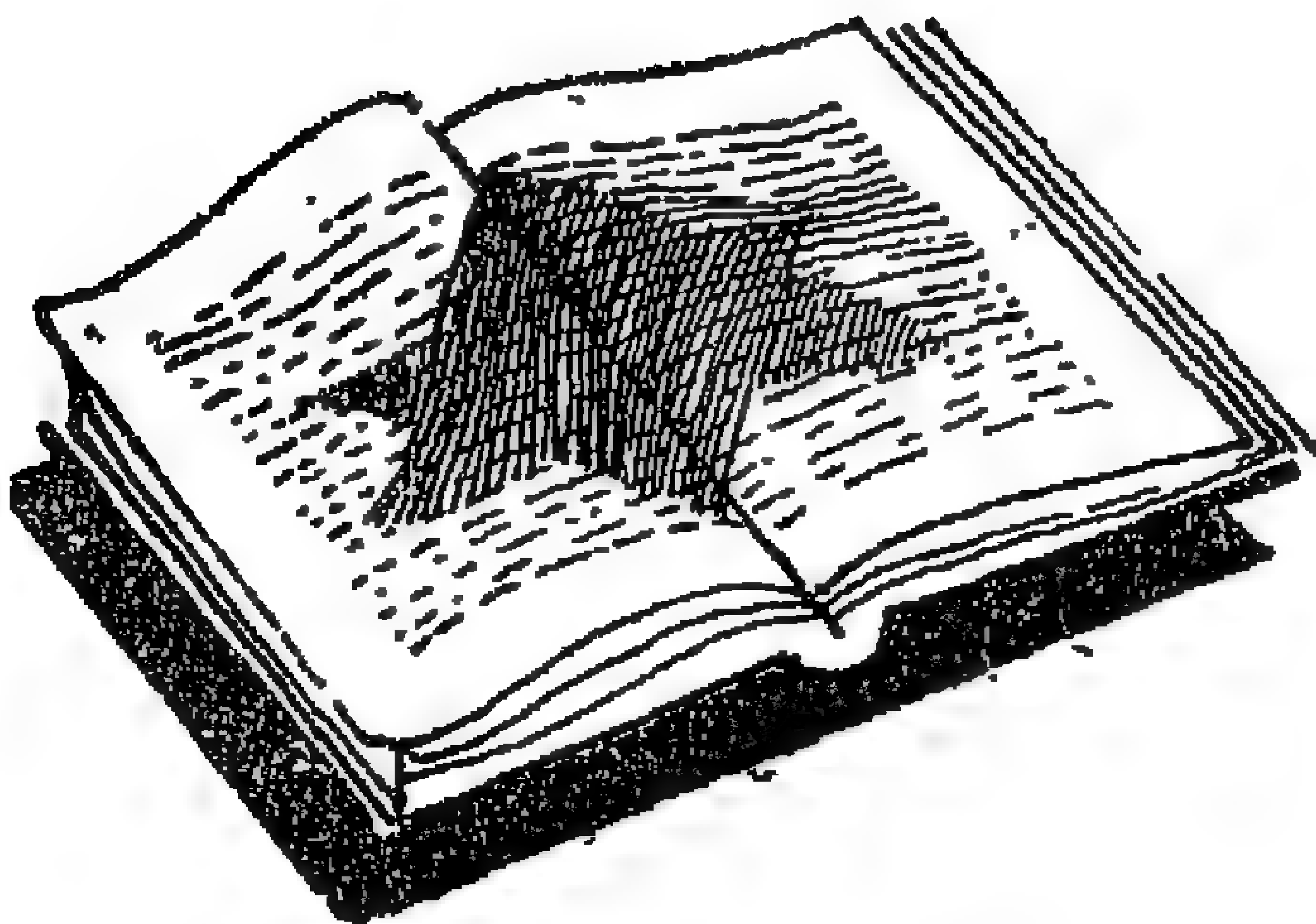
لانه لو وضع الصهيونية فى مكانها المناسب من الاهمية ، فكأنه وضع اليهود أو فئة كبيرة منهم تحت رحمة كل مدافعه الثقيلة التى يصوبها فى كتابه الى النزعات العنصرية والى كل أنواع التعصب

ومن المؤكد أن أى دراسة للمسألة اليهودية الان لاتهتم بالدعوة الصهيونية فكريا وسياسيا وتاريخيا .. تكون دراسة ناقصة ومتحيزة الى حد كبير ! ..

الفصل
السادس

مذكرات بن جوريون

قصة الحركة الصهيونية ، كما يرويها بن جوريون ، من إلقاء الخطب المتفرقة في القرى اليهودية الروسية سنة ١٩٠٠ إلى تأسيس أول مستعمرات يهودية في فلسطين ، إلى حرب السويس !



من الصفحات الاولى لهذه المذكرات ، يلاحظ القارىء أن بن جوريون لم يحاول قط ان يكتب فى هذا الكتـــاب كمؤرخ ولا حتى كسياسى متقاعد ، ولكنه كتبه كسياسى مازالت عينه على المسرح ، ينتظر الساعة التى يعود فيها الى الظهور : أى انه كتب فقط ما يناسب مواقفـــــه السياسية والمستقبلة ...

والحقائق التى اخفاها بن جوريون ــ بالطبع ــ أهــم من الحقائق التى ذكرها ..

ومع ذلك ، فماذا يقول بن جوريون فى مذكــراته التى ظهرت منذ شهور ؟

يقول دافيد بن جوريون :

« منذ آلاف السنين ورغبة اليهود فى العودة الى أرض اسرائيل لا تموت . وأحيانا كانت هذه الرغبة تتعـــدى مجرد رغبة العودة الى الرغبة فى زراعة الارض ذاتها : ففى سنة ١٥٩٣ ، جاء « دون جوزيف ناسى » مع اتباعه من اسبانيا الى فلسطين ، حيث أقام اول مستعمرة زراعية فى الجليل ، على شاطىء بحيرة طبريا

ومنذ اكثر من مائة سنة حاول مليونير انجليزى يهودى، اسمه السير « موسى مونتفيور » ، أن يقنع اليهود المتوطنين فى فلسطين بأن يتحولوا الى فلاحين ، ومن أجل هـــذا

الهدف : اقيمت أول « بيارة » يهودية من « بيارات » البرتقال ، بالقرب من يافا ، سنة ١٨٥٦

وبعد ثلاثين سنة أسست منظمة يهودية فرنسية ، اسمها التحالف الاسرائيلى العالمى ، اول مدرسة زراعية فى فلسطين ..

وفى سنة ١٨٧٨ ، آسس يهودى من القدس أول قرية يهودية كاملة سماها « بتاح تكفاه Petah Tikva » أى : باب الامل !

ثم بدأت الهجرة ، مع التحول الى زراعة الارض بالذات تتوالى : موجات فقيرة تأتى من روسيا وشرق اوربا بوجه عام ، وأموال تأتى من غرب أوربا ، برز من بين دافعيها اسم البارون « ادمون دى روتشيلد » رجل العائلة المالية الشهيرة ، التى كانت تمول أغنى حكومات اوربا كما تمول اقسى حروبها : نفس العائلة التى مولت شراء انجلترا لاسهم قناة السويس التى كانت تملكها مصر ، على يد « الخديو اسماعيل »

وفى سنة ١٨٩٦ ، أصدر صحفى ومؤلف مسرحى يهودى اسمه « تيودور هرتزل » كتابا صغيرا ، أطلق عليه اسما غريب الوقع فى ذلك الوقت وهو بالالمانية Der judenstaat أى « الدولة اليهودية »

كان هرتزل قد ارسلته صحيفة نمسوية الى باريس ليبعث اليها بتفاصيل محاكمة الضابط الفرنسى اليهودى « دريفوس » ، فتأثر بما وجد من نزعة الى معاداة السامية فى هذه المحاكمة ، فألف هذا الكتاب

ومن يوم صدور هذا الكتاب الصغير ، ولدت الحركة الصهيونية العالمية ، التى وضعت نصب عينيها اقامة دولة يهودية

ولم تحدد الحركة الصهيونية مكان هـــذه الدولة ، فى البدء ، بفلسطين . انما كانت مستعدة لقبول أى مكان يمكنها أن تقيم فيه الدولة الحلم

هكذا ذهبوا فى البداية الى الخليفة التركى العثمـانى ليعطيهم مكانا ما فى الشرق الادنى ولكنه رفض . وفى سنة ١٩٠٢ تحولوا الى القوة الجديدة البازغة ، انجلترا ، لكى تسمح لهم باقامة هذه الدولة فى العريش وما حولها من صحراء سيناء ولكن ندرة الماء فى تلك المنطقة من جهـــة ومعارضة لورد كرومر الذى كان يحكم مصر فى ذلك الوقت من جهة اخرى ، أجهز على الفكرة ، ثم جـــاء جوزيف تشيمبرلن وزير المستعمرات البريطـــانى وعـرض على الصهيونية ان تقيم وطنها فى اوغندا ، وهو الاقتراح الذى قسم الحركة الصهيونية وقتذاك الى قسمين : قسم يقبل العرض وقسم لا يقبله

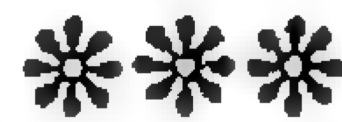
عند هذه النقطة يقول بن جوريون فى كتـــــابه « اسرائيل : سنوات التحدى » .. « ان الثورة الروسية قامت سنة ١٩٠٥ ثم تمكن القيصر من قمعها » . ويعترف بن جوريون ان هذه الثورة التحررية لو نجحت لادت الى رفع الاضطهاد عن اليهود الروس ، ولأثرت بالتالى على اقبال اليهود الروس على الهجرة ، ولكن الثورة اخمدت . وسيطر الحكم المظلم من جديد . فبدأت موجة من الهجرة الى فلسطين عرفت باسم « الهجرة الثانية » بعد ان اطلق اسم الهجرة الاولى على الموجة التى اقامت اول مستعمرات زراعية فى فلسطين سنة ١٨٨٢ . وقد كان بن جوريون من مهاجرى هذه « الموجة الثانية »

فقد ولد بن جوريون ، كما يقول فى ١٦ ديسمبر سنة

١٨٨٦ ، فى مدينة بولندية صغيرة اسمها « بلونيسك » كانت فى ذلك الوقت جزءا من روسيا القيصرية . كان أبوه محاميا . وكان بيته مقرا لنشاط يهودى كبير . فلم يلبث دافيد بن جوريون ان أصبح واحدا ممن يشـــتركون فى الجمعيات اليهودية ويعملون فيها بنشاط كبير

وفى سنة ١٩٠٦ ، وجد ان القاء الخطب فى القـــرى الروسية لا يكفى ، فقرر ان يهاجر الى فلسطين : وفى ذلك الصيف ركب مع بعض اليهود الروس باخرة روسية عبرت بهم الي البحر المتوسط ، بعد ان حصلوا على تصريح تركى بالاقامة فى فلسطين مدة ثلاثة شهور ، وبعد اســبوعين فى البحر رست سفينتهم فى يافا

ويقول بن جوريون ان أمله خاب حين وجد اليهـــود الموجودين فى فلسطين يعيشون حياة « الافندية » على حد تعبيره : يحصلون على ايراداتهم من تأجير الارض للغير او من المهن الاخرى التى « فرضت على اليهود » يقصد الربا والسمسرة وشتى أعمال المال



كان واضحا له ان مثل هذه الحياة لا تخلق شــــعبا ملتصقا بالارض « فبين الارض والشعب ، لابد ان تقوم رابطة من العمل »

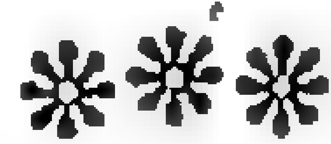
وبهذا الاتجاه الى العمل ، لا الى خلق « طبقة عليا من اليهود » ، بدأ اليهود يغرسون أول جذور لهم فى فلسطين بالعمل اليدوى المباشر فى كل مهنة ، وباحياء اللغة العبرية، واقامة مدارسها ، وتثبيتها فى الحياة العامة قدر الامكان: الى هذا العمل بالذات ، يرجع بن جوريون بدء ميلاد دولة اسرائيل

وكان بن جوريون من بين اولئك الذين عملوا فى زراعة

البرتقال، والعنب، وصناعة النبيذ، ويقول : انه بينما كان يسير وراء المحراث فى الحقل ، كان يهتم بما تحقق بعد ذلك من اقامة الدولة : بينما كانت موجة الهجرة الثانية مستمرة ، من الشباب الذين يندفعون وينتشرون فى حقول العمل اليدوى بالذات

وكما تعلموا زراعة الارض ، بدأوا يتعلمون الدفاع عنها: بدأوا يكونون جماعات سرية مسلحة مدربة على القتال حملت من ذلك الوقت اسم « الهاجاناه »

ولما كانت البلاد التي يحدث فيها كل هذا تابعة فى ذلك الوقت للدولة العثمانية ، واليها سوف يتجه عمل اليهود لكسب مزيد من الحقوق ، فقد قرر بن جوريون ، وزميل آخر له اسمه «أسحق بن زفى» الذى أصبح بعد ذلك ثانى رئيس لدولة اسرائيل بعد وفاة « وايزمان » ، قرر الاثنان السفر الى القسطنطينية لدراسة اللغة التركية والقانون التركى



وجاءت الحرب العالمية الاولى لتضع حدا لدراستهما ، فعادا الى القدس . وهناك اعتقلتهما السلطات التركية بتهمة التآمر ضدها ثم طردتهما من البلاد فذهبا الى الاسكندرية . وفى الاسكندرية نظر الانجليز اليهما ايضا نظرة شك وارتياب بسبب قدومهما من المناطق التركية ، فأعطوهما تأشيرة دخول الى امريكا ، وأرسلوهما الى الولايات المتحدة الامريكية

وصل بن جوريون وبن زفى الى نيويورك سنة ١٩١٥ . فبدءا على الفور الاتصال بالمنظمات اليهودية هناك . وكانت دعوتهما هي : اقناع الشباب الصهيونى بدراسة الزراعة وتعلمها لكى يصبحوا قادرين على الهجرة والزراعة فى

فلسطين بعد الحرب . كذلك بدأت الحركة الصهيونيةتدعو الى تكوين فصيلة يهودية تحارب مع قوات الحلفاء وتدخل معهم فلسطين بعد طرد الاتراك بمساعدة القاضي برنديس الذي أصبح عضوا فى المحكمة الاتحادية العليا الامريكية بعد ذلك . ولكن الفكرة نجحت فى انجلترا وليس فى أمريكا . وبالفعل تكونت هذه الفصائل وانضمت الى جيوش «اللورد اللنبي » التى اقتحمت فلسطين ولم يشر بن جوريون الى الثورة العربية التى قامت قبل ذلك ضـــد الاتراك والتى سهلت مهمة اللنبي الى حد بعيد : فأغلب الظن ان ســـعى اليهود الى المساهمة فى المجهود الحربى للحلفاء كان توجسا من مجهود العرب الحربى وردا عليه

وفى سنة ١٩١٥ ، وعدسير «هنرى ماكماهون» المندوب السامي البريطانى فى مصر الشريف حسين أمير مكة بأن انجلترا اذا حررت بلاد العرب من الاتراك فستردهـــا الى العرب وتنصبه ملكا عليها . ورغم ان هذا الوعد لم يشمل فلسطين ، الا ان وايزمان كما يقول بن جوريون انتبه الى ما قد تجره امانى العرب ، فاسرع يعمل على اســتصدار وعد انجليزى باقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين من جهة، وعلى الاتفاق مع الشريف حسين من جهة أخرى . وبالفعل، حصل وايزمان على وعد بلفور من انجلترا سنة ١٩١٧ . وفى ٣ يناير ١٩١٩ حصل على أتفاق مع فيصل ابن الشريف حسين أمير مكة يعترف فيه بوعد بلفور هذا ويعد بأحسن العلاقات بين الدولة العربية التى ستنشأ فى الشرق وبين « فلسطين » ..

وبعد شهرين من الاتفاق ، عزز فيصل موقفه بخطـاب اكد فيه هذا المعنى وأرسله الى القاضى الصهيونى الامريكى « فيلكس فرانكفورتر » ، عضو الوفد الصهيونى الى مؤتمر فرساى فى فرنسا

ويقول بن جوريون: ان اتفاقية «فيصل - وايزمان» هذه لم يكن لها أي شأن . فالعرب فى فلسطين وفى كل الاقطار المجاورة بما فيها العراق التى اصبح فيصل نفسه ملكا عليها ، رفضوا رفضا باتا ان يعترفوا بهذه الاتفاقية

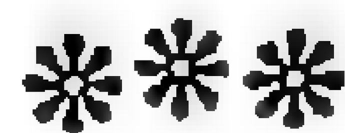
ويروى بن جوريون انه حضر المؤتمر الصهيونى العالمى سنة ١٩٣٣ على رأس وفد «الماباى» وهو حزب العمال اليهودى فى فلسطين ، وكان يمثل أكبر كتلة فى المؤتمر لاول مرة ، فتم انتخاب بن جوريون عضوا فى المجلس التنفيذى للمنطقة الصهيونية والوكالة اليهودية : اذن فقد أصبح بن جوريون زعيما !

ويقول بن جوريون انه كان يرى ان أهم شيء هو الاسراع فى تهجير اكبر عدد ممكن من اليهود الى فلسطين ، ولكنه لم يعد ممكنا فى نفس الوقت تجاهل موقف العرب ، ولذلك فقد حاول ان يجد صيغة توفق بين امال الصهيونية وآمال القومية العربية ، وذلك بالدخول فى مباحثات مع بعض العرب البارزين فى فلسطين ومصر وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية

« وتمهيدا لمقابلاتى مع العرب ، تحدثت مع المندوب السامي ، الجنرال سير أرثر ووتشوب ، الصديق الوفي للقضية الصهيونية ، وسألته عما اذا كانت الحكومة الانجليزية توافق على اتفاق عربى صهيونى فى هذا الشأن . ورد المندوب السامى البريطاني على قائلا انه لا يعرف رأى حكومته فى هذا الموضوع ولكنه يعتقد شخصيا انها سوف توافق . وقد لعب دكتور يهوذا ماجنس أول رئيس للجامعة العبرية فى القدس دورا كبيرا فى ترتيب مباحثاتي مع العرب، رغم اختلافى معه حول الكثير من زوايا القضية الصهيونية . وقد اتصلت المباحثات واللقاءات اكثر من سنتين فى فلسطين ، وفى البلاد العربية المجاورة ، وفى جنيف ، مقر

اللجنة الفلسطينية السورية .. ولكنهـــا لم تؤد الى اى نتيجة »

وفى سنة ١٩٣٣ وصل «هتلر» الى الحكم فى المانيا. وبدات موجة جديدة من الهجرة اليهودية الى فلسطين . وبدأت مقاومة العرب الفلسطينيين لهذه الهجرة تتخذ شـــكلا عنيفـا ..

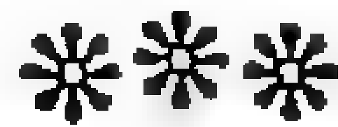


ووقف بن جوريون فى فبراير سنة ١٩٣٧ فى اجتمـــاع «الهستدروت» ـ اتحادنقابات العمال الصهيونى ـ يقول ان العرب لن يفهموا الا لغة القوة . وان التبـــاحث معهم لايجدى . انما لابد لهم أن يشعروا بأن الصهيونية قوة يحسب لها حساب ، وانها عامل حاسم فى الموقف ، وليست مجرد عنصر ثانوى

وفى نوفمبر ١٩٣٦ ، ارسلت انجلترا لجنة ملكية تحت رئاسة « اللورد بيل » لتبحث موضوع العلاقات العربية اليهودية فى فلسطين . وفى العام التالى نشر التقرير وكان يدعو الى تقسيم فلسطين . ولكنه لم يلبث ان دفن

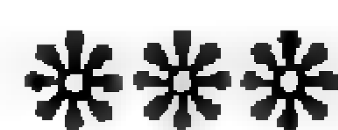
وفى سنة ١٩٣٩ ، دعت انجلترا الى مؤتمر عربى يهودى انجليزى فى لندن ، هاجم العرب فيه الانتداب البريطـــانى واقتراح التقسيم على السواء . اما موقف انجلترا فقـــد اوضحته فى الكتاب الابيض الذى نشر فى تلك السنة ، وكان يقرر ادخال ٧٥ الف يهودى فى الخمس سنوات التالية . على الا يدخل البلاد اى يهودى اخر بعد ذلك الا بموافقة العرب . وشنت الصهيونية حملة واسعة على هـــذا الكتاب الابيض . وفى مقدمة من هاجموه فى البرلمـــان البريطانى نفسه ، واحد من كبار اصدقاء الحركة الصهيونية:

« ونستون تشرشل » الذى كان يحمل لواء المعارضة ضد رئيس الوزراء « نيفيل تشيمبرلن »



ثم انفجرت الحرب العالمية الثانية .. ويحـاول بن جوريون أن يسجل فى تاريخ هذه الحرب أن العـرب وقفوا فيها الى جانب هتلر، بينما وقفت الحركة الصهيونية الى جانب الحلفاء . وهو تصوير كاذب وغير صحيح .. فالحكومات العربية ذاتها كانت موالية للحلفاء بل ومستسلمة لهم .. اما الشعوب العربية فكانت تطلب خروج الجميع من انجليز وفرنسيين والمان من بلادها ، وهـو موقف اتخذته كثير من القيادات الوطنية فى البلاد الخاضـعة للاستعمار .. مثل غاندى وحزب المؤتمر فى الهند مثلا . اما الافراد الذين لجأوا الى المانيا فرارا من اضطهاد الانجليز لهم .. فهم لا يعطون الصورة الكاملة عن « موقف العرب »

ومضت الصهيونية خلال الحرب ، تنظم الهجرة الشرعية وغير الشرعية الى فلسطين ، بواسطة الاداة العسكرية التى أسستها الصهيونية منذ ١٩٢٠ باسم الهاجاناه ويعترف بن جوريون هنا ان قوات اليهود العسـكرية ـ الرمزية فى الواقع ـ التى قاتلت الى جانب الحلفاء فى اوربا كانت مهمتها تنظيم وتسهيل هذه الهجرة غير الشرعية . فلما اقتربت قوات روميل من الشرق الادنى، أسس الصهيونيون نوعا آخر من القوات العسكرية اسمه « فرق البالماخ » لتقوم بمهمة مقاومة الالمان خلف خطوط القتال فيما لو احتلوا فلسطين



وفى خلال هذا كله ، كان همهم الوحيد هو التفكير فى مستقبل فلسطين بعد الحرب

ويقول بن جوريون انه كان واضحاً لهم أن ألمانيا سوف تنهزم حتما فى النهاية وتنتصر انجلترا • وقد أصبح رئيس وزراء انجلترا ونستون تشرشل نفسه صـــديق الصهيونية العريق • ولكن كان واضحا لهم أيضا أن انجلترا وان كانت ستخرج منتصرة الا أنها ستخرج أيضا ضعيفة • أما مركز الثقل فهو ينتقل بسرعة الى الولايات المتحدة الامريكية • فالى هناك ، حيث توجد أكبر وأغنى جالية يهودية ، يجب أن ينتقل العمل

وهكذا ذهب بن جوريون الى أمريكا منذ سنة ١٩٤٠ ، ليعمل بين المنظمات اليهودية هناك • وفى مايو سنة ١٩٤٢ اتخذ مؤتمر الصهيونيين الامريكيين قرارات عرفت باسم «مقررات بلتيمور» ،نسبة الى الفندق الذى انعقد المؤتمر فيه . وكانت هذه القرارات تقول « أن مشكلة السلام فى العالم لن تحل الا بحل مشكلة تشرد اليهود فى العالم بغير وطن •• وانه لذلك لا بد من منح الوكالة اليهودية سلطة كافية لتحول فلسطين الى « كومنولث يهودى » بعـــد الحرب » .

وانتهت الحرب • وانقلب الحال فجأة فى انجلترا ، فقد خرج تشرشل من الحكم وجاء حزب العمال • فهل هى صدمة للصهيونية ؟

كلا ••

يقول بن جوريون : « ان حزب العمال كان قد سبق له أن اتخذ خلال الحرب قرارات تدعو الى قيام دولة يهودية ، قرارات فيها ما هو أكثر مما طالبت به الوكالة اليهودية نفسها فى أى وقت ، وخصوصا قرار يقضى باقتـــــلاع كل العرب فى الدولة اليهودية ونقلهم الى البـــــلاد العربية المجاورة ! »

ولكن المشكلة فى رأى بن جوريون لم تكن فى عـــدم حماسة حزب العمال فى خدمة الصهيونية ، ولكن فى عدم قدرته .. وعدم قدرة انجلترا بوجه عام ! .. يضاف الى ذلك أن مجلس الوزراء ليس هو كل شىء فهناك أيضـــا جهاز الدولة وأجهزة المستعمرات ، التى يعتقد بن جوريون أنها كانت قد أصبحت كلها ، منذ صدور الكتاب الابيض، معادية للصهيونية

هكذا أصبح لا مفر من احتمالين : اما الدولة اليهودية ، واما تنفيذ الكتاب الابيض

وهنا يشن بن جوريون حملة على وزير خارجية العمال بالذات ، ارنست بيفن ، الذى كان مسنودا فى رأيه من آتلى رئيس الوزراء . ويقول انه وصل الى الاقتناع بأنه لابد من الاصطدام بانجلترا ، وبعرب فلسطين ، وبالدول العربية المجاورة .. « والا بقى اليهود أقلية مغلوبة فى بلد عربى ! » ولهذا لا بد للصهيونية من شىء أساسى وهو : القوة !

لا نظير فيما أعرف من كتابات .. لهذا التبجح !

انه يتحدث عن فلسطين ، كأنهـــــــا بلد خال من السكان !

انه فى لحظة واحدة يقلب صفحة الحديث عن العدل والانسانية والديموقراطية حين يصل الى النقطة الحاسمة ، ليتحدث عن أشياء أخرى تماما : القوة ! السلاح ! اقتلاع الشعب من مكانه ! تحويل الاغلبية الى أقلية !

يستطرد بن جوريون قائلا : انه كان دائمـــا رئيس المجلس التنفيذى للوكالة اليهودية دون أن يتولى وزارة بعينها . فلما انشئت وزارة الدفاع لاول مرة سنة ١٩٤٦، تولى الاشراف عليها وهناك بدأ على الفور بدراسة القــوة

الحقيقية لفرق الهاجاناه فوجدها سنة ١٩٤٧ ، كالاتى :

١٠٫٠٧٣	بندقية عادية
١٫٩٠٠	بندقية أوتوماتيكية
١٨٦	مدفع رشاش
٤٢٤	مدفع رشاش خفيف
٦٧٢	مدفع مورتر عيار بوصتين
٩٦	مدفع مورتر عيار ثلاث بوصات

وعلى الفور بدأ العمل لاقامة صناعة أسلحة حربية في فلسطين ، وفي تهريب المعدات والاسلحة من الخارج • ويقول بن جوريون انها جاءت من أمريكا بالذات التى كانت على وشك تخفيض صناعاتها الحربية بعد أن انتهت الحرب وحين يقول بن جوريون انهم حصلوا بمليون دولار على أسلحة تساوى ملايين كثيرة نفهم أن الامر لم يكن مجرد شطارة ، انما كان ينطوى بغير شك على تسهيلات رسمية غير عادية ••

أما الدول التى رضيت ـ كدول ـ أن تبيع لهم الاسلحة فكانت : تشيكوسلوفاكيا وفرنسا !

وفى تقرير أصدره بن جوريون فى ذلك الوقت لفرق الهاجاناه ، قال ان العدو المقبل هو انجلترا والعرب • ولكن الامر يختلف « فخلافنا مع انجلترا سياسى • واذا لجأنا أحيانا الى أعمال عسكرية ضدها فلمجرد تأكيد موقفنا السياسى » أما ازاء العرب فالمعركة عسكرية • ثم يدعو الى تدريب الهاجاناه بحيث تصبح قادرة على قتال « الدول العربية » لا العرب الفلسطينيين وحدهم

***

وفى مايو سنة ١٩٤٧ ، طرحت قضية فلسطين للمناقشة فى جلسة خاصة للجمعية العامة للامم المتحدة • ولاول مرة

يسمح للوكالة اليهودية بأن تشترك فى الجلسة وكان السؤال الذى يشير الى مفترق الطرق هو : هل هناك علاقة بين مشكلة اليهود فى العالم وبين فلسطين « كما يقول الصهيونيون » .. أم أن كلا منهما مشكلة منفصلة ، كما يقول العرب ؟

وأيدت تركيا والهند وأفغانستان رأى العرب ، بينما أيد الباقون كلهم رأى الصهيونية !

فقد كان « الوجود العربى الدولى » فى ذلك الوقت فى قاع سحيق من الضعف وعدم القدرة على التأثير !

ثم تقرر تكوين لجنة استقصاء من احدى عشرة دولة

وقررت أغلبية اللجنة تقسيم فلسطين الى دولتين احداهما عربية والاخرى يهودية ، يجمعهما اتحاد اقتصادى

وفى يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ صوتت ٣٣ دولة بما فيها أمريكا والاتحاد السوفييتى فى صالح هذا القرار . وصوتت ضده ١٣ دولة : الست دول العربية الاعضاء فى ذلك الوقت وأربع دول اسلامية هى باكستان وأفغانستان وايران وتركيا ، وثلاث دول لا هى اسلامية ولا عربية وهى الهند واليونان وكوبا . وامتنعت عن التصويت عشر دول من بينها انجلترا

وفرح الصهيونيون واليهود فى كل مكان . بينما أعلن العرب أنهم لن يقبلوا القرار وأنهم سوف يقاومونه بكل الوسائل ..

***

فى صفحات قليلة يطوى بن جوريون قصة الحرب التى نشبت عقب انسحاب انجلترا من فلسطين بين الدول العربية واسرائيل .. واعلانه قيام دولة اسرائيل فى اجتماع كبير بتل أبيب .. والبيان الذى أذاعه بذلك من محطة الاذاعة

السرية التى كانوا قد أعدوها لتصبح اذاعة علنية فى تلك الليلة .. بينما كانت الطائرات المصرية تقذف قنابلها فى أول غارة على تل أبيب .. ثم أحداث القتال ، والهدنة الاولى ثم الهدنة الثانية .. ثم تكون اسرائيل بعد هذه الخطوب عند حدودها الحالية « التى يقول انها أضافت الى اسرائيل فوق نصيبها المقدر فى قرار التقسيم بما يصل الى الثلث » ، ثم كل الاحداث السياسية حتى سنة ١٩٥٣، حين قرر أن يستقيل من رئاسة الوزارة ويعتزل فى قرية « سدى بوكر » فى صحراء النقب

ولا أظن أننا فى حاجة الى سرد ما رواه عن هـــذه الاحداث . ذلك أن الاحداث نفسها معروفة . ولكن المهم هو أن نقف عند « طريقة بن جوريون » فى سرد هذه الاحداث ، والنظر الامين الى هذه الطريقة يثير الملاحظات التالية :

● يكشف بن جوريون منذ البداية عن نواياه تجـــاه قرار التقسيم ، الذى يتظاهر باحترامه ، حين يقول انه تلقى قرار التقسيم بمشاعر مختلطة . صحيح أن هـــذه أول مرة تعترف فيها المنظمة العالمية بقطعة أرض لاقامة دولة عليها لليهود ، ولكنه يرى أن هذه القطعة لا تكفى ، ثم انها مجزأة تربط بينها ممرات تقع تحت رحمة الارض التى تركها القرار للعرب

ثم انها تحرم اسرائيل من مساحات شاســـــعة فى النقب

وهذه النية هامة . فهى تكشف عن أن خطة اسرائيل الحربية للتوسع سنة ١٩٤٨ لم تكن عفوية استدعتهـــا الظروف الخارجية وحدها وتؤكد أن اسرائيل لا ترى حتى

هذا الذى حصلت عليه خاتمة لآمالها • انما هو فى رأيها خطوة ، يجب التوسع بعدها : كلما سنحت الظروف

● ان بن جوريون يحاول أن يصور الامر على أن انجلترا والعرب كانوا يقفون في جهة ، والحركة الصهيونية التى تطورت الى دولة اسرائيل وحدها فى الجهة المقابلة • فالقارىء الحسن النية لا يلبث أن يعجب بهذه القوة الصهيونية الصغيرة التى هزمت تحالفا من سبع دول عربية ودولة كبرى هى بريطانيا

فهو يريد أن يقلب « الصورة الاستعمارية » الحقيقة التى كانت موجودة فى المنطقة وقتذاك ، مصورا اسرائيل على أنها كانت فى موقف القوة الاستقلالية التحررية التى تحاول أن تدافع عن نفسها ضد قوة استعمارية وبريطانية ••

والواقع هو عكس ذلك تماما ••

فالحقيقة الاستعمارية البسيطة فى المنطقة فى ذلك الوقت هى : ان انجلترا كانت الدولة التى تستعمر المنطقة بجيوشها ونفوذها على السواء ، بما فى ذلك فلسطين نفسها • وانه تحت سمع الدولة الاستعمارية وبصرها وبتشجيعها فتحت أبواب اسرائيل للهجرة «الشرعية» وغير الشرعية وصدرت التصريحات تلو التصريحات ـ بدأ من وعد بلفور ـ لخلق أسس قانونية لايجاد كيان يهودى على أرض عربية • أما اذا تحرك العرب ، فهنا تتصدى لهم هذه القوة الاستعمارية بالضرب والقهر والكبت ••

فالشعب العربى هو الشعب الذى كان واقعا تحت سطوة الاستعمار : يرى جزءا من بلاده يقتطع منه ببطء دون أن يقدر على شىء

دون أن يقدر على شيء : بسبب التخلف الاقتصادى والاجتماعى المفروض عليه • وبسبب الحكومات العميلة التى نصبها الاستعمار ومنحها « وهم » الاستقلال لا حقيقته وبسبب الجيوش المصطنعة التى كان كثير من ضباطها انجليز ، وكان مصدر تسليحها وشريان حياتها انجليزى • وبسبب الوجود الاستعمارى الصريح ممثلا فى قوات الاحتلال العسكرية فى هذه البلاد العربية

لم تكن انجلترا والعرب اذن فى صف ووكالة بن جوريون فى صف • انما كانت انجلترا تقف وقد كبلت العرب بكل القيود ، تشهد النمو الصهيونى فى تشجيع مستتر ••

و « حادث الحرب » ليس وحده هو الذى صنع اسرائيل انما صنعتها كل الاحداث السابقة منذ الحرب العالمية الاولى ووعد بلفور : وفى خلال هذا كانت انجلترا تضرب بقوة السلاح كل محاولة لاى نمو عربى فى المنطقة نحو الاستقلال ، بينما كانت تسمح للوجود الصهيونى بأن ينمو ويتبلور يوما بعد يوم

واذا كان قد بدا ، فى اللحظات الاخيرة ، ان انجلترا قد أصبحت « عصبية المزاج » فى وجه السياسة الصهيونية وأنها حاولت أن توقف المد الصهيونى عندذلك: فذلك لان الحركة الصهيونية قد كشفت فى هذه الساعات الاخيرة عن أنها تخطت السياسة الانجليزية بالفعل • وانه بعد أن كان الظن أن الدولة الجديدة أو الكيان الجديد سيكون تابعا لانجلترا كفلسطين القديمة بصورة أو بأخرى ظهر أن ولاءها قد انتقل نهائيا الى أمريكا ، وأنها تهدف الى الاستقلال التام وطرد الانجليز ، فأصبحت بذلك تشكل حقيقة جديدة مربكة لانجلترا فى فترة ما بعد الحرب

باضطراباتها وبما ظهر خلالها من تشقق فى بنـــاء الامبراطورية البريطانية كله ..

● وكما أن بن جوريون يحاول أن يزيف وضع القوى الاستعمارية فى المنطقة ، فهو يحــاول أن يظهر القوى الدولية الكبرى ــ وفى مقدمتها أمريكا ــ وكأنها قامت فى هذه المأساة بدور ثانوى ، بينما قام بن جوريون والستمائة ألف يهودى فى فلسطين بالعبء كله . وهذا أيضا تصوير مضلل لحقيقة ما حدث . ان مهارة الحركة الصهيونية ولا شك هى أنها استطاعت أن تنظم قوى اليهودية العالميـة حيثما كانت لتأييدها . وأنها استطاعت من خلال هـذه اليهودية العالمية أن تضغط وترجو وترشو وتلح وتنـذر وتساوم وتضلل حتى تمكنت من تحويل الدول الكبرى الى موقف تبنى القضية الصهيونية

وهنا بالذات يبدو فشل العرب الحقيقى خلال تلك الفترة : فقد تمكنت الصهيونية من اقناع دول العــالم أنها قوة لها حسابها فى ميزان الصداقة أو العداء ، بينما أعطى العرب عن أنفسهم ، بحــكم كل ظروف التخلف والاستعمار ، صورة الذى لا يكسب أحد من صداقته ولا يخشى أحد من عداوته

ولكن هذا كله شيء .. وكون الصهيونية هى التى تولت بقوتها الذاتية تحقيق أغراضها فى فلســطين ، شيء آخر ..

فالقوى الدولية التى سمحت بالهجرة غير الشرعية من قلب أوروبا الى شاطىء البحر ، ثم سمحت للسفن المشحونة بالسفر فى البحر المتوسط تحت سمع الاساطيل وبصرها ثم أمرت بايقاف القتال ساعة تحرج وضع اليهود بالهدنة الاولى ، ثم سمحت باستمرار القتال ساعة قوى ساعد

اليهود بعد الهدنة ، ثم سمحت بتخطى اسرائيل حدود التقسيم رغم قرارات الامم المتحدة ، ورغم مصرع رجــل الامم المتحدة «فولك برنادوت» • هذه القوى الدولية التى كانت توجه ، على لسان ترومان ، انذارات مدوية بضرورة قبول مائة ألف مهاجر يهودى فى فلسطين قبل آخر السنة والتى كانت فى نفس الوقت من خلال عملائها وسلطانها ووجودها المسلح فى البلاد العربية تدمر كل رد فعـــل جدى ازاء هذه الاحداث : هذه القوى بمصالحهــــــا السياسية والاستراتيجية الكبرى هى التى قامت وقتهـا بالدور الاساسى فى ايجاد اسرائيل ، وهى الخصم الحقيقى الذى تمكن آخر الامر من قهر العرب

ونضال العرب فى السنوات التى تلت ١٩٤٨ ، ضد الاستعمار والرجعية العميلة فى شتى صورها ، كان أحد بواعثه الدرس الذى تلقاه العرب من مأساة فلســـطين ذاتهـــــا ••

● ويحاول بن جوريون أن يستفيد الى أقصى الحدود من قصة الهجرة العربية من فلسطين : فهو تارة يدلل بها على جبن العرب وتفككهم •• وتارة يحاول أن يبث فى القارىء شعورا بأن عامة العرب كانوا راضين بالتقسيم حين يقول ان العرب بدأوا يهاجرون تلقائيا من المناطق التى جعلها مشروع التقسيم جزءا من دولة اسرائيل •• وتارة يصف الامر ، بشكل غير مباشر ، وكأنه تقلص الظلمة أمام انتشار النور والحضارة

والواقع أن مأساة الهجرة تحتاج الى دراسة مســـتقلة خاصة بها • ولكن الذى يمكن أن يقال فى هذا المجال ، هو أنها بالفعل كانت حدثاً خطيرا وظاهرة ذات دلالة بعيدة المدى ، يفسرها بضعة اشياء :

ـ يفسرها ، ولنعترف ، تخلف الامة العربية حضاريا • فبينما كان المجتمع الفلسطيني العربى صورة من المجتمع العربى فى كل مكان : زراعيا اقطاعيا بدائيا ، بعيدا عن العمل الصناعى والتنظيم النقابى والزراعة العلمية المنظمة والنظرة العلمية التنظيمية فى كل شىء ، كانت الموجة الصهيونية الغازية مزودة بهذا كله تسندها قوى دولية استعمارية عديدة ، الامر الذى أكسبها ساعة الصدام الحاسم ميزة كبرى لا شك فيها

ـ ويفسرها القيادة الخاطئة الجاهلة التى منى بها العرب • قيادة لم تتمكن من أن تعطى خط السلوك والتصرف لجماهيرها ، وهل تبقى أو ترحل ، بل ان هذه القيادات كانت تبدو مشجعة لهذه الهجرة ، جاهلة أنها ببقاء العرب فى أماكنهم انما تجعل قيام اسرائيل كله أمرا شبه مستحيل ، رغم كل الظروف

ـ ويفسرها ، وهو اعتبار اساسى وان كنت قد أبقيته حتى النهاية ، ان الصهيونيين جعلوا المدنيين الامنين هدفا أساسيا لهم ، فارتكبوا ضدهم المذابح الشهيرة فى ديرياسين وغيرها ليجعلوا بقاءهم مستحيلا : فهم أيضا من خريجى مدرسة هتلر الوحشية واللا أخلاقية كالنازيين سواء بسواء.

***

بعد ذلك ، يقفز بن جوريون فى كتابه الى أحداث حرب السويس سنة ١٩٥٦ ، وهجوم اسرائيل على شبه جزيرة سيناء خاتما به الكتاب ••

وهو فصل أشبه بقصة من صميم الخيال ••

فقد روى الاحداث على أن اسرائيل هى التى هجمت وهى التى حاربت وهى التى قررت متى تتقدم ومتى تتراجع ..

ولكن ، لسوء حظ بن جوريون ، فان كتابه صدر في نفس الاسابيع التى صدرت فيها كتب اخرى أحدثت ضجة كبرى ، خصوصا كتاب « السويس : سرى جدا » للمؤلف الاسرائيلى ميشيل بن زوهار ..

وهو الكتاب الذى يشرح قصة الفصل التالى ...



الفصل
السابع

حرب السويس

- إيدن يطلب الإذن بالهجوم على مصر
- ٣ خطط لغزو مصر
- طبع أوراق بنكنوت مصرية في فرنسا
- التخلص من عبد الناصر
- متى تقرر اشتراك إسرائيل ؟
- معاهدة سيفر السرية
- بن جوريون يطلب تدمير الطيران المصري قبل أن يدخل الحرب



لايمكن الفصل بين قصة اسرائيل ، وقصـــة حرب السويس ..

وحتى الان ، ما زالت هناك موجة طاغية جديدة من الكتابة ـ فى اوروبا وأمريكا واسرائيل ـ عن حــــرب السويس ، والكتب الجديدة تصـــدر مثقلة بأسرار بالغة الخطورة والغرابة .. ويؤدى نشرها بالتالى الى ضجة كبرى وجدل عنيف . ولا يمكن أن يعيش القارىء هنا فى عزلة عن هذه الاسرار والمنازعات التى تهمه فى الدرجـة الاولى ..

ثم أن اذاعة هذه الاسرار الخطيرة ، عما كان يدور فى واشـــنطون ولندن وباريس وتل أبيب وغيرها ، بصرف النظر عن خطورة هذه الاسرار وغرابتها ، فان فيها دروسا لا تقدر بثمن ، انها تعلمنا كيف تدور عجلة الفكر والعمل فى الدوائر السياسية والعسكرية العليا فى تلك البلاد

يضاف الى ذلك أن كثيرا من القوى التى حركت أداة الحرب ضدنا ، بسبب تصادم مصالحها معنا ، ما زالت فى مراكز الحكم أو التأثير فى الحكم فى بلادها ، وما زالت بعض مصالحها تصطدم بنا .. فالقصـــة لم تذهب بكل ذيولها بعد ..

ومن ابرز واخطر الكتب التى ظهرت عن حرب السويس أخيرا كتابان :

الاول : كتاب « دالاس والسويس » للمؤلف الامريكى هيرمان فينر ، الذى ثارت بسببه ضجة عنيفة فى البرلمان الانجليزى ، جعل المعارضة تطالب سلوين لويد بالاستقالة .. لان الكتاب يسجل أنه كذب على البرلمان البريطانى حين قال انه لم يتآمر مع اسرائيل على الهجوم ضد مصر ، فى حين أن المؤلف يروى أن سلوين لويد طار الى باريس سرا وقابل بن جوريون هناك قبل الغزو بأيام

وقد سئل المؤلف ، فى برنامج تليفزيونى ، عن مصدر هذه الواقعة ، فقال : انه سمعها من كريستيان بينو ، وزير خارجية فرنسا فى ذلك الوقت ، والرجل الثالث الذى كان فى الاجتماع السرى .. مع سلوين لويد ، وبن جوريون ..

وفى باريس اتصلت جريدة لوموند بالوزير الفرنسى السابق ، وحاولت أن تسأله عن صحة الواقعة .. فرفض ان يكذبها !

والكتاب الثانى هو : « السويس : سرى جدا » للمؤلف الاسرائيلى « ميشيل بن زوهار » ، وهو كتاب يذيع أدق الاسرار واخطرها عن خطة الغزو والمؤامرات التى سبقتها ..

والمؤلف الاول حاقد طول الكتاب على دالاس لانه يعتقد أن دالاس هو الذى عرقل الهجوم على مصر زمنا طويلا ، فلما وقع الهجوم فعلا ، تخلى عن حلفائه ، مما جعل عبد الناصر ينتصر .. الامر الذى يندم عليه المؤلف ندما شديداً ..

والمؤلف الثانى ، يرى فى تآمر اسرائيـــل السرى مع بريطانيا وفرنسا صفحة مشرقة .. يزهو بها

ولكن تبقى بعد ذلك الفائدة الكبرى للمعلومات الخطيرة التى يدليان بها ..

ان الكتاب الاول يركز على الجانب السياسى الدبلوماسى .

والكتاب الثانى يركز على جانب التآمر والتنفيذ ..

الكتاب الاول يروى القصة عن أمريكا

والكتاب الثانى يرويها عن لندن وباريس وتل أبيب

ولهذا آثرت أن أقدم الكتابين ـ بل الوثيقتين ـ معـا فى سرد واحد لانهما ترويان قصة واحدة ..

ربما كانت حرب السويس تعد « حربا صغيرة » اذا قيست بعدد الايام الخاطفة التى استمر فيها القتـــال المسلح ..

ولكنها كانت « حربا » بأوسع معانى هذه الـــكلمة واخطرها : اذ تعرضت فيها أقـــدار دول كبرى ودول صغرى للخطر .. وتعرضت فيها مبادىء النظم السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية للامتحان .. كما تعرض العالم كله ـ فى بعض مراحل الحرب لكارثة محققة

وكل يوم ، تفتح الاسرار عن جوانب أخرى فى هذه القصة التى لم نعرف كل جوانبها بعد ...

والكثير جدا مما يحدث فى عالم اليوم ، ترتب فى الواقع على الاحداث الكبرى لهذه الحرب القصـــــيرة : حرب السويس

يقول ـ مثلا ـ هيرمان فينتر ، مؤلف الكتاب الاول : ان النزعة الاستقلالية فى اوروبا ، التى يمثلهـا ديجول ،

والتى تريد الا تكون تابعة لامريكا .. قد اصبحت عقيدة لدى دوائر أوروبية كثيرة ، منذ تجربة حرب السويس ، وما يسميه المؤلف خيانة دالاس لحلفــائه الاوروبيين ، واخضاع مصالحهم لمصالحه .. أى مصالح أمريكا ، كما تصورها ..

وكأى حرب ، كانت هناك أحداث جسـيمة أدت الى وقوعها ، بل جعلت نشوب الحرب حتميا ..

هذه الاحداث ، كما تكشف عنها هذه الكتب هى :

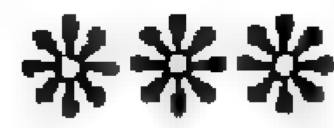
- صفقة الاسلحة بين مصر والاتحاد السوفييتى
- حلف بغداد ووقوف مصر فى وجهه
- ارتباط مصر بمساعدة الثورة فى الجزائر
- اعتراف مصر بالصين الشيوعية
- السد العالى ، وسحب دالاس العرض الخــاص بتمويله ، ثم تأميم عبد الناصر لشركة قناة الســويس ردا على ذلك

بل ان من يتأمل أثر هذه الاحداث فى العالم الخارجى، وما كان يدور بسببها وراء الكواليس فى لنـدن وباريس وواشنطون وتل أبيب يجد انه كان من المستحيل الا تقع الحرب ! ..

ولما كانت هذه الاحداث ليست ، هى فى حد ذاتهــا الموضوع الرئيسى لهذا الحديث ، فلا بأس أن يكون المرور بها سريعا خاطفا ، بقدر ما يقف بنا - فى وضوح - عنـد بدء مؤامرة الحرب ذاتها ، وما أحاط بها من أسرار عجيبة

فهذه الاحداث أو المعــارك التمهيدية التى أدت الى الحرب ، كانت لها ردود فعل مختلفة لدى أربع دول هى

أمريكا وبريطانيا وفرنسا واسرائيل . كل دولة منها لها خط يسير مع مصالحها السياسية . وفى بعض الظروف كانت هذه الظروف تتفق وفى ظروف أخرى كانت تختلف وتتناقض وتضطرب



فالبنسبة لبريطانيا ، يكشف الكاتب الاول « دالاس والسويس » عن انها كانت أول دول الغرب تنبها الى خطر عبد الناصر والثورة المصرية عليها . فصفقة الاسلحة قوت عبد الناصر وأخرجت مصر من دائرة الخضوع فى تسليحها للغرب . ومعركته ضد حلف بغداد عزلت انصار بريطانيا الى حد بعيد . وهكذا كانت بريطانيا أول الدول تفكيرا فى التدخل المسلح ضد مصر ..

يروى الكتاب ان انطونى ايدن طار الى واشنطون فى فبراير سنة ١٩٥٦ ، أى قبل سحب عرض السد العالى وتأميم القناة ، حيث قابل ايزنهاور وجون فوستر دالاس وطلب منهما أن تشترك أمريكا مع بريطانيا فى عمل مسلح ضد عبد الناصر . وكان الاساس الذى استند اليه فى هذا الطلب هو أن عقد صفقة الاسلحة السوفييتية فيه خرق « للبيان الثلاثى » . وهو البيان الانجليزى الفرنسى الامريكى الذى أعلنت فيه الدول الثلاث وصايتها على الحدود القائمة فى الشرق الاوسط

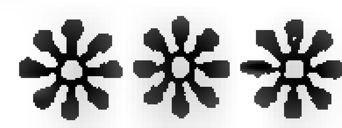
ولم يكن دالاس اقل انزعاجا من صفقة الاسلحة . بل ان الكتاب يروى انه ساعة سمع النبأ صاح فى أعوانه قائلا « هذا أخطر حادث دولى منذ حرب كوريا ، بل منذ الحرب العالمية » ولكن دالاس مع ذلك رفض قبول طلب ايدن . وتذرع فى ذلك بأن أى استخدام للقوات الامريكية

المسلحة يحتاج الى اذن من الكونجرس ، وهو أمر بالغ الصعوبة ...

وقدم ايدن لايزنهاور ودالاس ما يثبت أن عبد الناصر هو سبب كل « المشاكل » فى العراق ولبنان وسائر البلاد العربية . ولكن الجانب الامريكى ظل متمسكا بموقفه ..

وعندما عاد ايدن الى بلاده ، لم يخف دالاس ارتياحه من هذا التطور ، وقال لاعوانه أن ايدن كان يقف أشبه بالوسيط المعتدل بين الاتحاد السوفييتى وامريكا ، فالان قد اضطرته ظروف الشرق الاوسط الى طلب الالتصاق بأمريكا والوقوف معها فى عمل مشترك ..

ومن ساعتها ، بدأت توجد حفرة من الشك بين ايدن ودالاس ، حتى اصبحت مع أحداث السويس هوة عميقة



اما بالنسبة لامريكا ، فالكتابان يصوران لنا كيف ان سياستها فى تلك الفترة كانت مزيجا من عناصر شتى : فالدبلوماسيون الامريكيون ينصحون بالتفاهم مع عبد الناصر ومهادنة الحركة العربية بوجه عام . والصهيونيون وبعض الزعماء الامريكيين فى الداخل يؤيدون خطا معاكسا . وبريطانيا وفرنسا تشكوان من مصر باستمرار . وايزنهاور لا يريد الحرب بأى ثمن ، خصوصا كلما اقتربت معركة انتخابات الرئاسة . ودالاس تضطرب فى نفسه عوامل شتى : من تركيز على معركته المقدسة ضد الاتحاد السوفييتى . ونفور من الارتباط المطلق بمصالح امريكا وشك فى اسرائيل . وغيظ مستمر من تمرد عبد الناصر . ورغبته فى تحقيق ما يريده ايزنهاور فى عدم نشوب أى قتال ..

على أن أهم عمل ايجابى قام به دالاس فى تلك الفترة هو ولا شك سحب العرض الامريكى الخاص بتمويل السد العالى ...

فازاء تذمره من تمرد عبد الناصر ، خصوصا بعد اعترافه بالصين الشيوعية ، والضغط المسلح عليه من حلفائه الغربيين لتأديب عبد الناصر قبل أن تستشرى النار ، وبحثه عن وسائل أخرى غير الحرب ، بدت فكرة سحب عرض السد العالى وكأنها تلبى كل هذه الحاجات

صحيح ان جورج همفرى وزير مالية امريكا كان قدقدم رأيا قاطعا ضد تمويل السد العالى على اساس ان مصر لا يمكن ان تنهض بالتزامات مثل هذا المشروع . وصحيح ان بعض نواب الجنوب طلبوا عدم ابرام القرض لان السد العالى سيزيد المساحات المزروعة قطنا ، مما يؤدى الى منافسة القطن الامريكى « !! »

وصحيح ان بعض حلفاء أمريكا « تركيا وايران وباكستان » احتجوا على مساعدة أمريكا لدولة محايدة تقاوم امريكا . وصحيح أن اعتراف عبد الناصر بالصين الشيوعية كان قد هيأ الرأى العام الامريكى لمثل هذا القرار . ولكن المؤلف مع ذلك يعتقد أن هذه كلها « اسباب » للقرار .. ولكنها لا تعبر عن كل «دوافع» جون فوستر دالاس : آن الدافع الاكبر هو الرغبة فى تأديب هذا الضابط المصرى ، حديث العهد بالسياسة الذى يثير الاضطراب فى كل مكان ، ويهدد الغرب ويرهبه ، ويرفض المساومة

***

وقد اخذ دالاس رأى حلفائه فى سحب العرض ، ولكنه احتفظ لنفسه بحق اختيار الوقت ، والكاتب يسجل

كيف أن دالاس بقى ، الى ما قبل اعلان القرار للسفير المصرى فى واشنطون بساعات ، وهو غير مجمع رأيه على قرار حاسم ..

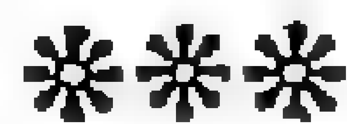
ويروى المؤلف ان بريطانيا وفرنسا كان لهما موقفان محددان من قصة سحب القرض ...

فقد ذهب كوف دى مورفيل ، وزير خارجية فرنسا حاليا وسفير فرنسا فى أمريكا فى ذلك الوقت الى دالاس وقال له : انه يحذر بشدة من الاقدام على سحب القرض. وقال له انه كان سفيرا فى القاهرة سنوات طويلة ويعرف عبد الناصر جيداً ويعرف انه سيرد ردا عنيفا على هذا العمل .. !

وأشار كوف دى مورفيل الى أن رد الفعل قد يؤثر على قناة السويس .. ولكن دالاس استبعد الفكرة ساخرا ..

اما بريطانيا ، فقد وافقت على سحب القرض ولكن سفيرها قال لدالاس « Play it long » .. أى ليكن السحب على دفعات . فلا يقول لمصر : لا ! ولكن يقول ان الامر يحتاج الى اعادة بحث . ثم يتراجع تدريجيا ...

ولكن دالاس اختار الطريقة العنيفة ، طريقة الرفض القاطع فى اللحظة التى يلحق فيها السحب أكبر الضرر بعبد الناصر ، لانه فى رأى المؤلف كان تحت تأثير الدافع الذى سبقت الاشارة اليه : دافع توجيه الضربة بقصد الاهانة والتأديب ..



يروى المؤلف انه عندما كان دالاس يقول للسفير المصرى احمد حسين « ابحث عن فلوس السد فى روسيا ! »

بلهجة المنتصر ، كان هناك اثنان ينتظران نهاية المقـابلة ليتناولا معه طعام الغداء : هنرى لوس صاحب مجلة تايم وجاكسون صاحب مجلة فورتشن • وقد روى الاثنان أن دالاس جاء اليهما فى اعظم حالات الغبطة والابتهـــاج • وأبلغهما الخبر وكأنه يبلغهما قصة « ضربة معلم » وجهها الى الاتحاد السوفييتى ومصر معا •• فلا الاتحادالسوفييتى قادر على تمويل السد ولا مصر قادرة على الرد ... وقال لهما فى عرض الحديث ، فخورا بنفسه : « ناصر يهددنى ؟ •• لست أنا !! »

•• هكذا ، لم يكد دالاس يعرف من أخيه الن دالاس مدير المخابرات الامريكية فى ذلك الوقت أن عبد الناصر قد أمم شركة قناة السويس ، حتى احتقن وجهه ،وغضب غضبا لم يسبق له مثيل ••

والمؤلف يقول : ان خبر التأميم كان صدمة حياته

ونترك دالاس عند صدمة التأميم ، لنعود اليه بعـــد أن نستكمل باقى الخيوط ••

وقد بقى أن نعرف خط سياسة فرنســــا ، وخط سياسة اسرائيل فى نفس هذه الفترة

وهنا يجب أن نسرد الخطين معــــا : اذ ولدت من التقائهما أول فكرة محددة عن غزو مصر .. ولذلك كان لهذا الجزء اهمية خاصة فى التمهيد للاحــداث المقبلة الدامية ..

وفى هذه النقطة بالذات ، سوف أعتمد أساسا على الكتاب الثانى « السويس : سرى جدا » للكاتبالاسرائيلى ميشيل بن زوهار

عندما القى حلف بغداد ظله على الاحداث فى الشرق الاوسط ، كان هم فرنسا ان يفشل الحلف ، انه طريقة

لنشر السيطرة البريطانية نهائيا على المنطقة كلها ، بعد الاجهاز على نفوذ فرنسا المتبقى فى سوريا ولبنان

هكذا توجهت فرنسـا - فيمن توجهت اليهم - الى اسرائيل تسألها سؤالا صريحا : هل أنت مع الحلف ، أم ضد قيامه ؟

وردت اسرائيل قائلة : ان خصومها الحقيقيين هم مصر وسوريا !

كانت اسرائيل تنظر الى المسألة من زاوية واحدة : ان الحلف لا يفيد مصر ، ولكنه يفيد العراق،وأعداء اسرائيل الاساسيون هم أعداؤها الرابضون على حدودها مباشرة. فكانت اسرائيل ترى فى الحلف صدمة لا شك فيها لمصر اساسا وللعرب بوجه عام . ففى الحلف دول معترفـة باسرائيل مثل تركيا وايران . ودولة اخرى غير معترفة باسرائيل ولكن ليس لديها أى عداء نحوها وهى باكستان. يضاف الى ذلك ان الحلف يمزق الجبهة العربية ، وكل هذا ينطوى على فوائد كبـيرة لاسرائيل بصـورة او بأخرى ..

ولكن اسرائيل محتاجة الى أسلحة فرنسا فهى تراوغ وتناور ..

واستمر هذا الموقف حتى طلبت فرنسا من اسرائيـل أن تحدد موقفها نهائيا من الحلف : ضـده . أو معه . هكذا ، وقد أصبح ظهر اسرائيل الى الحائط ، بحـكم اعتمادها الاساسى فى التسليح على فرنسا ، قالت بلسان موسى شاريت فى الكنيست ، انها ضد الحلف ، ارضـاء لفرنسا . ولكن هذا الاعلان الكلامى لم يؤثر فى ترحيب اسرائيل الحقيقى بالحلف ...

قال دبلوماسى اسرائيلى فى ذلك الوقت « فى كل مرة ،

كنا نذهب الى وزارة الخارجية الفرنسية فى طلب أسلحة، كان المسئولون الفرنسيون يزجون السؤال التقليدى : ولكن ما هو موقفكم أولا من حلف بغداد ؟ .. وفى نفس الوقت كان هناك وعد من بريطانيا بتسليم غواصتين الى اسرائيل ، فكنا نخشى أن تؤدى أية معارضة جدية منا للحلف الى الغاء هذه الصفقة ! ... »

المشكلة الاخرى التى ثارت بين فرنسا واسرائيل فى ذلك الوقت هى مشكلة هجرة اليهود من تونس والجزائر والمغرب . فمع اشتداد الحركة الاستقلالية هناك ، واحتمال حصول هذه البلاد على استقلالها ، نشطت اسرائيل لبث دعاية صهيونية بين يهود تلك البلاد ،بقصد دفعهم للهجرة الى اسرائيل ... الامر الذى أثار حفيظة فرنسا ..

قال موسى شاريت للمؤلف « لقد غضبت فرنسا لسببين : السبب الاول هو أن هجرة واسعة بين السكان اليهود سوف توحى للجميع بأن الوجود الفرنسى هناك فى طريقه للزوال ، مما يزيد الضغط عليه . والسبب الثانى هو أن يهود شمال افريقيا كانوا دائما من العناصر الموالية لفرنسا والتى تعتمد عليها فرنسا ولا أحد يحب أن يرى العناصر التى يعتمد عليها تهاجر وتترك البلاد »

وفى تصريح أدلى به موسى شاريت وقتها لجريدة الموند قال : « أن الضمانات التى تتوافر لليهود فى تونس أو فى المغرب تحت الحماية الفرنسية لا تتوفر بنفس الدرجة فى تونس مستقلة أو فى مراكش مستقلة . ولذلك يجب أن تظل اسرائيل مفتوحة الذراعين ليهود شمال افريقيا

***

ولكن أحداث الجزائر لم تلبث أن أصبحت القضية

الاولى . بحيث أثبتت ان أثرها على الشرق الاوسط سيكون أعمق بكثير من أثر حلف بغداد

ففي سنتى ١٩٥٣ – ١٩٥٤ ، اصبحت القاهرة مركزا رئيسيا للنضال ضد النفوذ الفرنسي فى شمال افريقيا . وأخذ صوت العرب من القاهرة يثير الخواطر ضد فرنسا .. « بشكل صدم حتى منديس فرانس الذى كان يأمل فى الوصول الى حل مع شمال افريقيا ! »

« .. ثم لم يلبث عبد الناصر ان استقبل فى القاهرة تحت راية الوحدة العربية ، قادة الثورة الجزائرية ، كما بدأ يزود جيش التحرير الجزائرى بكل وسائل المساعدة فقد فتح لهم مخازن السلاح ، بغير حد .. »

واخذت الصحف الفرنسية تنشر صورا تثبت ان بعض المقاتلين الجزائريين قد تدربوا فى القاهرة ،وبالتدريج بدأ اسم ناصر يستخدم كرمز لعداوة فرنسا ..

وكان من الطبيعي بعد ذلك ان ينتشر العطف على اسرائيل بين كل دعاة « الجزائر الفرنسية » وكل الفرنسيين وقتها كانوا من دعاة الجزائر الفرنسية ! ولم يلبث ان تم التقارب بين الموقفين « فرنسا فى شمال افريقيا واسرائيل فى الشرق الاوسط » كل منهما جزيرة من الحضارة الغربية ، ورأس جسر للعالم الغربى ، وسط بحر من الكراهية العربية »

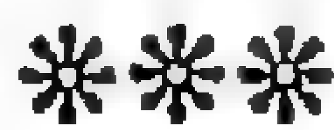
« وشيئا فشيئا أخذ يتبلور الرأى القائل ان مساعدة أسرائيل وتسليحها هو الذى يجعلها تقهر عبد الناصر : ان ضرب رأس الثورة الجزائرية يقضى عليها . هذه الرأس اسمها ناصر ، وتوجد فى القاهرة ، ولا احد يمكن أن يضربه هناك سوى اسرائيل »

ثم بدأ هذا الجو يقود الى خطط مشتركة

ففى بيت احد الاصدقاء ، التقى آثنان من الرجال سرا: الاول فرنسى ، اسمه « آبل توماس » ويعمل مديرا لمكتب « بورجيس مانورى » وزير الداخلية والمسئول مباشرة عن حرب الجزائر • والثانى اسرائيلى هو « م • ناحمياس » المبعوث الخاص لوزارة الدفاع الاسرائيلية

وبسرعة اتفق الاثنان على أنه من مصلحة فرنسا ان تتقوى اسرائيل عسكريا ، ثم لم يلبث ناحمياس ان قابل بورجيس مانورى ، وفى المرة التالية كان الذى قابل مانورى هو شمعون بيريز ،وكيل وزارة الدفاع الاسرائيلية وكان اقناع الضباط الفرنسيين ووزارة الدفاع الفرنسية سهلا : فالجيش هو الذى يقاتل فى الجزائر ويشعر أكثر من غيره بالحاجة الى حليف فى المعركة المسلحة ..

كان ذلك فى أواسط سنة ١٩٥٥ ، وهكذا بعد أن اطمأن الاسرائيليون لحلفاء اقوياء فى وزارة الدفاع الفرنسية فى « الجنرال كوينج » وزير الدفاع الذى قاتل معه الضباط الاسرائيليون خلال الحرب العالمية ـ وجدوا فى بورجيس مانورى حليفا آخر بالغ الاهمية ، وقد جاء دليل أهميته وولائه لهم سريعا ..



فقد دق جرس التليفون يوما فى السفارة الاسرائيلية فى باريس ، وكان المتكلم هو « رجلنا فى مرسيليا » كما يقول المؤلف . وكان يقول ان السفن على وشك أن تشحن دفعة من الدبابات A MX 13 الى مصر . وكان قد تمت قبل ذلك الموافقة على توريد عدد من هذه الدبابات الى مصر والى اسرائيل على السواء ، وفى المجلس الوزارى

الذى يجب أن يقر هذه الصفقة ، استطاع «انطوان بيناى» ان يسهل صفقة مصر ويعطل صفقة اسرائيل ، وعلى الفور وصلت الدبابات الى رصيف مرسيليا تمهيدا لشحنها الى مصر ..

وعلى الفور اتصلت السفارة الاسرائيلية « ببورجيس مانورى وبالجنرال ليكونت » مدير مكتب « الجنرال كوينج »

واتصل ماتورى بالجنرال كوينج ، الذى أصدر قرارا بعدم شحن أى سلاح الى مصر ، ووصل الامر الى مرسيليا ، حيث كان يوجد الكولونيل عكاشة « الدكتور ثروت عكاشة الملحق العسكرى المصرى فى فرنسا فى ذلك الوقت » وطار عكاشة على الفور الى باريس . وسأل وزارة الخارجية التى لم تكن تعرف شيئا عن أمر الجنرال كونيج . واستجوبه « انطوان بيناى » نفسه فى الامر ، فرد عليه قائلا : نعم ، انا الذى اصدرت الامر . ولن اعدل عنه الا اذا شحنت دبابات اسرائيل فى نفس الوقت !

يقول المؤلف : ان الجو وقتها فى باريس كان معاديا لمصر ، اذ كانت الصحف بالصدفة ملأى بصور الاسلحة المصرية فى الجزائر !

واحتدمت الازمة الوزارية . وفى النهاية انتصر « كوينج » فقد شحنت دبابات اسرائيل ، وتلكأت دبابات مصر

وظهرت الدبابات الفرنسية فى عرض عسكرى اسرائيلى فى تل أبيب ، وبدأت الهمسات تترى عن قرب بيع طائرات ميستير وأوراجان لها ، الامر الذى زاد من قلق البلاد العربية ..

لقد باعت فرنسا بالفعل ١٠٠ دبابة لاسرائيل وعددا

من الطائرات . وفى خطابه يوم ٢ أكتوبر ذكر عبد الناصر هذه الارقام وهو يبرر عقده لصفقة الاسلحة مع الاتحاد السوفييتى

وقد ظلت المجموعة الفرنسية المؤيدة لاسرائيل تتزايد باستمرار ، مع تفاقم الحرب فى الجزائر

« .. اليمين الفرنسى ، رغم عدائه التقليدى الغامض للسامية واعتقاده بعدم دوام اسرائيل بدأ يحبها ، والاشتراكيون الفرنسيون بدأوا يتعاطفون مع تجارب اسرائيل فى الزراعة والصناعة ومشروعات الهستدروت ، ثم هناك قضية الجزائر التى تضع البلدين فى موقف واحد من العرب . « لاكوست مثلا ، انه اشتراكى ولكنه أيضا الحاكم العام للجزائر ، فلديه سبب قوى لكى يصبح مؤيدا لاسرائيل » . ثم هناك اليهودية الفرنسية. قال « جيلبير » السفير الفرنسى فى اسرائيل وقتها للمؤلف أن اليهود الفرنسيين قد بدأوا يذوبون فى المجتمع الفرنسى منذ مطلع هذا القرن ، وبالتالى كانوا لا يحبون أن يعرفوا أى شىء عن الصهيونية ، وبعد وعد بلفور ، عندما أثار وايزمان الامر أمام مؤتمر فرساى ، وقف سيلفيان ليفى ، ممثل اليهودية الفرنسية ، وهاجم وايزمان والصهيونية هجوما عنيفا ، أن اليهودية الفرنسية لم تشأ ابدا أن تقوم اسرائيل .. لماذا ؟ « لانها لم تكن صهيونية قط ، ولانها كانت تخشى من تهمة العدوان المزدوج التى تعرضت لها خلال الاحتلال فى الحرب العالمية الثانية »

ولكن هذا كله تغير مع استمرار اسرائيل ونجاحها ، ومع اقتراب سياستها وسياسة فرنسا « ولما كان جزء كبير من الصحافة الفرنسية والسينما الفرنسية مملوكا

لليهود ، فقد امكنهم أن يوسعوا الشعور المؤيد لاسرائيل بنجاح كبير »

فى فبراير سنة ١٩٥٥ ، عاد بن جوريون من عزلته فى سد بوكر الى الحكم ، عاد بسبب ما سماه ضعف وسائل الدفاع الاسرائيلية . ثم لم يلبث ان أمر بالهجوم الاسرائيلى المشهور على أحد معسكرات الجيش المصرى بالقرب من غزة ..

وسرعان ما تعددت حوادث الحدود بين البلدين

هل زادت حوادث التسلل المصرية الى اسرائيل بسبب عنف الهجمات الاسرائيلية ؟ أم ان عنف الهجمات الاسرائيلية كان بسبب زيادة حوادث التسلل ؟ انها حلقة مفرغة فى رأى المؤلف ..

المهم .. ان عبد الناصر أصبح فى حاجة الى السلاح . فرنسا لا تعطيه بسبب الجزائر . وبريطانيا وأمريكا لا تعطيانه بسبب حلف بغداد . وهكذا اتجه الى الاتحاد السوفييتى

هذه الصفقة الشهيرة سجلت موت « البيان الثلاثى » فى الشرق الاوسط ..

وازداد قلق اسرائيل ..

ان التقارير عن التسلح المصرى الجديد مخيفة . وسباق التسلح الذى بدأته اسرائيل كما يقول المؤلف نفسه ـ باللجوء الى فرنسا ـ قد انقلب عليها .. فحرب الفناء اذن قد تقع ولابد لها من اسلحة اخرى حديثة سواء لاعادة التوازن او للاستعداد لحرب وقائية ضد مصر

يقول المؤلف « اسلحة لاعادة التوازن أو للجولة الثانية : تلك كانت الفكرة الطاغية على السياسة الاسرائيلية فى الشهور التالية . وهكذا بسبب المبادرة الاسرائيلية الى شراء الاسلحة تفجرت الاحداث حتى

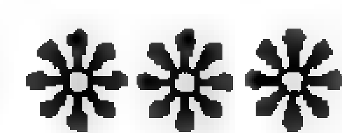
وصلت الى حرب السويس »

ان استقلال مصر بمصادر اسلحتها أصبح حقيقة كبرى قلبت كل حسابات الغرب واسرائيل ..

وامام الكنيست ، وقف رئيس الوزراء الاسرائيلي الداعى الى التهدئة موسى شاريت ، يتكلم عن احتمال الحرب الوقائية . ويطلب السلاح من الجميع . ثم طار على الفور الى باريس حيث قابل وزراء خارجية الدول الكبرى وهم يستعدون لمؤتمر جنيف ، قابل ادجار فور وهارولد ماكميلان وانطوان بيناى . وتكلم مع مولوتوف بالروسية . كما قابل جون فوستر دالاس

وفى جو الاستعداد للحرب الوقائية ، عاد بن جوريون الى تسلم رئاسة الوزارة

قال شاريت انه فى نهاية اكتوبر ١٩٥٥ طلب من ادجار فور رئيس وزراء فرنسا ان تسلم فرنسا الى اسرائيل طائرات « ميستير ٤ » التى تستطيع ان تقاوم الميج التى حصل عليها عبد الناصر . فوافق ادجار فور ووعد بالمساعدة . ولكنه حين ذهب وقابل انطوان بيناى وجد هذا « رسميا ، باردا ، جافا »



ولكن بعد قليل ، عقد فى باريس مؤتمر لسفراء فرنسا فى الشرق الاوسط ، برئاسة انطوان بيناى

فى هذا المؤتمر ، كان السفراء الفرنسيون فى البلاد العربية يتزعمهم دى شايلا سفير فرنسا فى القاهرة ، يطالبون بمحاولة جديدة لتحسين العلاقات بين فرنسا والبلاد العربية . بينما كان جيلبير السفير الفرنسى فى اسرائيل ضد هذا الرأى على طول الخط

وقرر المؤتمر سلوك الاتجاه الاول ، عاد دى شايلا الى

مصر يقول لعبد الناصر انهم لن يقدموا اسلحة الى اسرائيل بل سوف يرسلون اسلحة الى مصر ، نظير ايقاف الحملة على فرنسا فى شمال افريقيا

***

يقول المؤلف : ان بيناى كان مستعدا لاى شىء مقابل ان تشترك فرنسا فى بناء السد العالى الذى كانت المباحثات بصدده قد بدأت بين مصر والدول الغربية

يقول موسى شاريت للمؤلف : « ان وزارة الدفاع (أى بن جوريون) كانت ترفض رفضا مطلقا ان تدخل الظروف السياسية فى اعتبارها . فعندما كنت افاوض دالاس فى جنيف ، قامت هى بهجوم مفاجىء على « الكونتيلة » فى مصر ، فتغير موقف دالاس . وعندما كنت على وشك الحصول على صفقة اسلحة من فرنسا ، هاجم الجيش مواقع سورية فى طبرية ، فقال لى انطوان بيناى « كيف تهاجمون السوريين وهم اصدقاء لنا ؟.. » وأمر بتأخير تسليم الاسلحة التى سبق الاتفاق عليها مع اسرائيل

ويقول المؤلف انه من ابرز ملامح هذه الفترة فى باريس وتل ابيب على السواء : الخلاف بين وزارة الدفاع ووزارة الخارجية فى كل من البلدين

فظروف اسرائيل جعلتها تخضع كل شىء لمشكلة الامن وبالتالى لوزارة الدفاع . حتى اصبح المعيار الوحيد لصداقة أى بلد لاسرائيل هو مقدار ما تزودها به من اسلحة . ونوع هذه الاسلحة ، لا اكثر ولا أقل

ويروى الكتاب كثيرا من القصص التى تشبه احيانا الروايات البوليسية ، عن سعى اسرائيل للحصول على الاسلحة من فرنسا

بالنسبة لطائرات ميستير مثلا :

يقول المؤلف ان اول وعد تلقته اسرائيل ببيع طائرات « ميستير ٤ » لها ، كان من منديس فرانس رئيس وزراء فرنسا سنة ١٩٥٤

وعندما جاء ادجار فور فى رئاسة الوزارة بعد منديس فرانس ، كرر هذا الوعد ..

وتم بالفعل اعداد الطائرات . ودهنت بألوان دولة اسرائيل ، ووقفت فى المطار تنتظر الامر بالطيران الى تل أبيب ، ولكن احدى الصحف نشرت صورة لها ، واذا بالامر يشتهر والصفقة تتوقف ، ولم يعرف سفير اسرائيل بتوقف الصفقة الا حين ذهب لحفلة توقيع الصفقة !

وقيل له انه ظهر ان الطائرات المستير لا يمكنها ان تطير من باريس الى تل ابيب دون توقف ، ولكن السبب الحقيقى وفق معلومات المؤلف هو أن امريكا تدخلت لايقاف الصفقة

وعاودت اسرائيل بذل الجهود ..

وذهب وزير فرنسى — لايذكر المؤلف اسمه — الى ادجار فور رئيس الوزارة وقال له : هل ترضى ان تضع طياريك فى طائرات اقل من « ميستير ٤ » ليواجهوا طائرات الميج التى حصل عليها عبد الناصر ؟

وقال ادجار فور : بالطبع لا !

وتمت الصفقة ، فى ١٢ نوفمبر ١٩٥٥

كانت هذه نقطة تحول بالنسبة لاسرائيل ، ونقطة تحول فى علاقات اسرائيل مع فرنسا

ان « اخوة السلاح » تنمو بين البلدين

ولكن ادجار فور قرر الاستقالة فجأة ، واجراء انتخابات عامة ..

وارتبكت خطط اسرائيل : فمن القادم يا ترى بعد الانتخابات ؟...

يروى الكتاب ان شمعون بيريز ، وكيل وزارة الدفاع الاسرائيلية ، والرجل المسئول عن هذه الصفقات كلها ، عاش فى فرنسا شهرا كاملا مع عشرات من معاونيه : اقتحم المعركة الانتخابية فى فرنسا كما اقتحمها المرشحون . طاف بكل زعماء الاحزاب والمرشحين البارزين يشرح لهم الموقف ، ويحصل منهم على الوعود ، ويشرح لهم كيف ان الطريقة الوحيدة لضرب ثورة الجزائر هى التخلص من عبد الناصر ، والقاعدة الوحيدة للتخلص من عبد الناصر هى اسرائيل .

يروى المؤلف ان اجتماعات بيريز مع المرشحين كانت تتم احيانا فى سيارة اللورى المكللة بلافتات الدعاية التى يتخذها المرشح مقرا متنقلا له ..

وعندما ذهب بيريز الى جى موليه فى دائرته الانتخابية ، وعده موليه بالمساعدة .. ويروى المؤلف ان بيريز قال لموليه : ارجو الا تكون مثل اشتراكى اخر هو ايرنست بيفن ، كان معنا وهو مرشح فلما تولى الحكم اصبح ضدنا .. يشير بذلك الى وزير خارجية بريطانيا السابق فى حكومة العمال

فرد عليه جى موليه قائلا : كلا ! سوف اثبت لك اننى لست مثل بيفن !

ومن اغرب ما حدث خلال تلك الفترة ، ان الحكومة الفرنسية اعطت بيريز ، وكيل وزارة الدفاع الاسرائيلية ، مكتبا ومقرا دائما لمدة شهر فى مقر رئاسة الوزارة الفرنسية بحجة احتياجه اليه لتنفيذ صفقة الاسلحة ومن هذا المقر الرسمى كان بيريز يتصل بشبكات عملاء

اسرائيل المنتشرين فى انحاء فرنسا ويدير « المعـــركة الانتخابية » الخاصة ، مستخدما مكاتب الدولة وتليفوناتها وتسهيلاتها

ونجح جى موليه فى الانتخابات ..

يقول المؤلف : ان وصول جى موليه الى السلطة كان نقطة تحول فى علاقة فرنســا باسرائيل .. وفى التمهيد للحرب

***

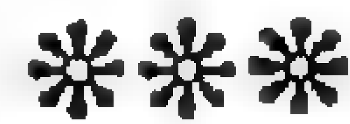
ذهب مئات آلاف المصريين الى الميدان فى الاسكندرية يستمعون الى الحل الذى وعدهم به عبد الناصر لتمويل السد العالى وفى ضحكة قصيرة ، أعلن عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس

وبينما كان الجنود المصريون يحيطون مكاتب الشركة فى الاسماعيلية والسويس وبورسعيد . كان سكرتير انطونى ايدن يقتحم عليه مائدة المشاء التى اقامها تكريما لفيصل ملك العراق ونورى السعيد . كان الامر مفاجأة كاملة له . أما فى فرنسا فيقول المؤلف ان المخابرات الفرنسية كانت تشك فى الامر منذ اسبوعين

وفى نفس الليلة اجتمع الوزراء البريطانيون الكبار مع قادة اركان الحرب ، مع سفيرى امريكا وفرنسا ، وفى يوم ٢٩ وصل « كريستيان بينو » الى لندن . وفى نفس اليوم وصل « روبرت مورفى » مبعوث ايزنهاور الخاص ، اذ كان دالاس متغيبا فى بيرو . وطلب سلوين لويد وكريستيان بينو من مبعوث ايزنهاور ان تشترك امريكا مع الدولتين فى عمل حربى سريع للاستيلاء على القناة . وبدون انتظار أجلت فرنسا رعاياها عن مصر ، ثم تبعتها انجلترا بعـد قليل ..

وبعد يومين كان قد تجمع فى ميناء « طولون » اسطول مبدئى للغزو : بارجتان وحاملتا طائرات و ٢١ مدمرة ، وست غواصات • وفى لندن كان يوجد « الاميرال نومى » ، قائد الاسطول الفرنسى ، لينسق العمليات الحربية بين الدولتين . وكان فى حساب الدولتين حتى هذه اللحظة ان امريكا سوف تشترك معهما • ان الوقت ثمين • والدولتان تضغطان من اجل السرعة . ان الاستيلاء على قناة السويس فى رأيهما سوف يؤدى الى اسقاط عبد الناصر . وفى نفس اليوم الذى كانت انجلترا فيه تستدعى الاحتياطى ، كان « الكولونيل بريور » يهبط فى لندن ومعه كشف كامل بكل القوات الفرنسية التى سوف تشترك فى المعركة

قال ضابط فرنسى للمؤلف « •• لمدة ثمانية ايام كانت القيادة الفرنسية والانجليزية تعمل فى نشاط هائل لبدء الهجوم .. ولكن فى اليوم الثامن جاءت مذكرة اجلت فكرة التدخل فورا ، وبعدها آخذ التعاون الانجليزى الفرنسى شكل التمرينات العسكرية « فحسب »



وهناك تفسير لهذا الذى حدث ..

ففى اول اغسطس ، اجتمع فى لندن ايدن وجى موليه وجون فوستر دالاس . وقال دالاس لاول مرة بشكل نهائى حاسم ان امريكا لن تشترك فى أى عمل مسلح ضد مصر . وعلى الفور قال القادة الانجليز : ان القوة التى استعدت للغزو كان فى حسابها اشتراك قوة امريكية معها . اما بعد هذا الموقف الجديد ، فهى غير كافية للغزو . ولذلك لابد من التأجيل ، للاستعداد من جديد ، على اساس عدم وجود قوات امريكية

وقد روى انطونى ايدن بعد ذلك فى مذكراته ، ان فكرة التدخل المسلح فورا تأجلت لسببين : الاول عدم امكان تجميع قوة ضاربة كافية فى وقت قصير ، والثانى هو الامل فى الوصول الى حل سلمى

قال دالاس فى هذا الاجتماع : ان الحكومة الامريكية لا يمكن ان تدخل فى عمل عسكرى بدون موافقة سابقة من الكونجرس ، ثم اطلع الحاضرين على رسالة من ايزنهاور يطلب فيها المفاوضة أولا قبل البحث فى أى اسلوب آخر . والغريب ان المؤلف يقول ان سلوين لويد انضم اخيرا الى رأى دالاس بينما ظل بينو يلح فى التدخل الفورى

واخيرا قبل الجميع فكرة دالاس فى اقامة مؤتمر دولى لبحث مشكلة قناة السويس ، على ان ينعقد المؤتمر فى ١٦ اغسطس

كان هذا فى رأى المؤلف هو اول انتصار لدالاس . فمنذ تلك اللحظة ، وطوال شهرين بعد ذلك ، ظل يعارض أى محاولة للقيام بغزو مسلح ضد مصر

انعقد المؤتمر فى ١٦ اغسطس وانفض يوم ٢٢ ، بعد ان تبنى اقتراح دالاس بايجاد جهاز دولى يدير القناة . وفى يوم ٣ سبتمبر سافر منزيس الى القاهرة حاملا هذا الاقتراح الذى قبلته ١٨ دولة من ٢٢ . ولكن عبد الناصر رفض الاقتراح ..

ولم يذعن دالاس لضغط انجلترا وفرنسا فخرج باقتراح جديد هو تكوين ما يسمى بجمعية المنتفعين بالقناة ، وقبل ايدن وموليه مرة اخرى الذهاب الى مؤتمر لندن الجديد الذى عقد فى ١٦ سبتمبر . ولكن لما كان دالاس قد رفض مبدأ استخدام القوة فى تمرير سفن الدولة المنتفعة ، فلم يبق لدى المؤتمر فى حقيقة الامر أى

شيء يقوم به . فلم يكد دالاس يترك العاصمة البريطانية الى جزر برمودا لقضاء بضعة أيام من الراحة ، حتى كانت انجلترا وفرنسا قد قررتا الذهاب الى مجلس الامن

ولم تكن انجلترا وفرنسا تشكان فى أن الفيتو الروسى سيقف فى وجهيهما فى مجلس الامن . ولكن ، كان هذا الاجراء مقصودا به فتح الباب لاستخدام القوة بعد ذلك ، ولهذا كان دالاس يعـــارض حتى فى الذهاب الى الامم المتحدة ..

وقبل ترك هذه المرحلة ، اذكر ان الكاتب هرمان فيز قال ان ايدن اقترح على دالاس ان يسافر هو على رأس البعثة الى مصر لمقابلة عبد الناصر بدلا من منزيس . اراد بذلك أن يرى دالاس بنفسه « تعسف » عبد الناصر ، وان يعود ـ اذا رفض عبد الناصر ـ ثائرا لكرامته . ولكن دالاس اعتذر بحجة أن لديه اعمالا كثيرة فى واشنطون .. ووقع الاختيار على منزيس

فى خلال هذا كله ، كانت الاستعدادات الحربية قائمة على قدم وساق ، فطوال هذه المباحثات والمفاوضات لم يغير الانجليز والفرنسيون رأيهم لحظة واحدة فى ضرورة التدخل المسلح . غاية مافى الامر ، انهم بعد ان تأكدوا من ان أمريكا لن تشترك ، اعادوا الخطة القديمة الى القيادة العليا لتضع خطة جديدة ، تقوم بها الدولتان بمفردهما

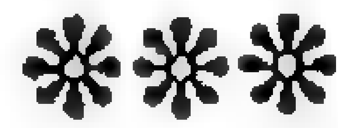
وفى « البدروم » المحفـــور عميقا تحت ارض وزارة الحرب البريطانية ، حيث توجد قيادة العمليات الحربية ، ممتدة الى ما تحت ارض نهر التيمز ، عكف الجنرالات الانجليز والفرنسيون بغير انقطاع على وضع الخطـــة الجديدة

واطلق على القيادة المشتركة اسم سرى هو **Terrapin**

وكان أعلى المسئولين يجهلون الامر كله ، باستثناء رئيسى وزارتي الدولتين وعدد قليل جدا من الوزراء . كانت هذه القيادة السرية ساهرة تضع الخطة تلو الخطة ، وعلى بعد امتار منها مؤتمرات ومفاوضات ومباحثات وســـاسة لا يعرفون شيئا

ومنذ البداية ، قال الجنرالات انه يلزمهم ستة أسابيع على الاقل لاعداد الحملة العسكرية ووضعها فى وضــع الاستعداد للحركة ، وعلى ذلك فالغزو يمكن ان يبدأ فى منتصف سبتمبر

كانت الخطة الاولى التى اقيمت على اساس اشتراك امريكا فيها قد اطلق عليها اسم Hamilcar أما هــذه الخطة الثانية فقد أطلق عليهــا اسم موســـكتير وتم وضعها فى وقت سريع جدا : آخر اغسطس



وكانت خطة موسكتير تقضى بالنزول فى الاسكندرية ، ثم شق الطريق رأسا الى القاهرة ، على اساس ان اسقاط عبد الناصر هو الهدف الاساسى . وفى دوســـيهات ال Terrapin الى الان المشروع الكامل للحكومة المصرية التى كانت ستحل محل عبد الناصر . وقد قام بعض عملاء فرنسا وانجلترا المجهولين باتصالات ببعض العرب المقيمين فى القاهرة . وتم طبع منشورات باللغة العربية لتلقى على مصر ، وتم فى فرنسا طبع بنكنوت مصرى لتستخدمه قوات الاحتلال ، وتم تخزين كل هذا فى مخازن سرية جدا ..

قصة غريبة تعيد الى الاذهان نفس خطـــة الانجليز القديمة ضد ثورة عرابى

ولكن خطة الموسكتير لم يقدر لها ايضا ان تعيش طويلا ،

ففي سبتمبر بدأ اعداد خطة أخرى هى : الموسكتير المنقحة . ذلك ان الساسة حكموا على الخطة الاولى بأنه سيصعب تبريرها امام الرأى العام ، اذ ستجرى العمليات الحربية فيها بعيدا جدا عن القناة ، التى هى ذريعة التدخل العسكرى . أما الخطة الجديدة فكانت تقضى بالنزول فى بورسعيد ، ثم الزحف على طول القناة الى السويس ، مع اندفاع قوة اخرى من القناة الى القاهرة لاسقاط عبد الناصر

وتبريرا للحملة ، كان المفروض ان تسافر قافلة من السفن الى القناة ، ثم ترفض دفع الرسوم للادارة الجديدة . وهنا سوف يمنعها المصريون من العبور ، فينفجر الخلاف ويبدأ الغزو . وللتأكد من ان المصريين سوف يمنعون القافلة ، رئى أن تكون من بين سفن القافلة سفينة اسرائيلية . وان المصريين حتما سوف يمنعون أى سفينة اسرائيلية من العبور . وفى تلك الاثناء كانت قوات الغزو تتجمع فى صمت فى قبرص ، ومالطة ، وبعض موانى شمال افريقيا .. والغريب ، انه رغم كل الجهود البريطانية والفرنسية فى حشد « ارمادا » بحرية ، وتجميع أعداد ضخمة من الجنود وفرق الباراشوت والطائرات وسفن النقل حتى اصبحت قبرص كلها ترسانة مسلحة .. رغم هذا كله فقد كانت القوات دائما غير مستعدة تماما للقتال لماذا .. ؟

المؤلف يرجع السبب مرة اخرى الى امريكا . فجون فوستر دالاس ــ كما قال كريستيان بينو بعد ذلك ــ كان يريد أى شىء الا ان يقع غزو مسلح فرنسى انجليزى قبيل انتخابات رئاسة الجمهورية فى أمريكا . وكان هذا يفت فى عضد الحشد العسكرى ، اذ يضطره الى انواع من السرية تعطله

وكانت انجلترا بالذات هى التى بدأت يداها ترتعشان ، كلما فكرت فى موقف امريكا . الامر الذى غاظ فرنسا ، التى مضت فى حشدها بنفس النشـــاط واخذت تلوم الجانب البريطانى على تأخره فى تنفيذ خطة الحشـــد العسكرية والتعلل بهذا السبب أو ذاك ..

***

اذن ، فما الحل ؟

قال الفرنسيون : « اذا كان يبدو ان الانجليز يترددون فلنجرب اسرائيل ! »

ولكن . متى ذكر اسم اسرائيل لاول مرة ، فى هـــذه العملية كلها ؟..

فى غرفة العمليات الحربية ، بعيدا فى أعماق الارض ، تحت مبنى وزارة الحـــرب البريطـانية ، وبينما دخان السجاير منعقد ومختلط بالمناقشات . ثارت مشكلة ان عملية الغزو كلها ، ليس لها « قاعدة » قريبة من مصر قربا كافيا ..

وقال جنرال فرنسى ، شاء المؤلف ان يحتفظ باسمه سرا « ان اسرائيل هى اقرب ارض الى منطقـــة العمليات المقبلة ، فلماذا لا نجرب الاستفادة منها ؟ .. »

كانت هذه اول مرة ..

وعنـــدما عاد الجنرال الفرنسى الى باريس ، وراجع رؤساءه فى الامر ، دهش حين وجدهم يوافقونه على المضى فى الاقتراح !..

وقد لامه بعض زملائه بعد ذلك بزمن ، اذ قالوا له لاشك انه كان يعرف ان اسرائيل فى العملية من قبل .. وان اقتراحه لم يكن بريئا !

والواقع ، كما يقـــول المؤلف الاسرائيلى ، انها كانت موجودة . .

ففي اول اغسطس عقد اجتماع بالغ السرية بين بعض الاسرائيليين وبعض كبار رجال وزارة الدفاع الفرنسية . وفى يوم ٧ اغسطس اجتمع هؤلاء الاسرائيليون مع هيئة اركان حرب الجيش الفرنسي ، بحضور آبل توماس ، مدير مكتب بورجيس مانورى . وفى هذا الاجتماع تمت صفقة اسلحة ضخمة بالغة الاهمية . وتلك كانت الخطوة الاولى الاكيدة ..

فقد كانت فكرة التعاون بين فرنســـا واسرائيل فى « موضوع السويس » بصـــــفة عامة تنمو بسرعة فى اجتماعات القادة الفرنسيين والاسرائيليين . بل ان فكرة شن هجوم على مصر ، اثيرت مرة فى اجتمـــاع تم بين بورجيس مانورى وزير الداخلية وشيمون بيريز فى يونيو السابق .. ثم ترددت الفكرة اكثر من مرة ، ولكن دون ان تتبلور فى صورة « عملية » محددة

فبعد ان ابرمت صفقة الاسلحة الروسية التى قلبت ميزان القوى ، بدأت اسرائيل تفكر فى « حرب وقائية » سريعة . ولكن حتى بعد أن تسلمت اسرائيل الاســلحة الفرنسية الحديثة ، لم يكن فى مقدورها أن تضمن نجاح مثل هذه الحرب . كانت اسرائيل توازن التفوق المصرى فى العدد بتفوقها فى النـــوع . فلمـــا حصلت مصر على الاسلحة الحديثة ، أصبحت متفوقة على اسرائيل كمـــا وكيفا ...

لهذا أصبحت اسرائيل تنظر الى فكرة الحرب الوقائية على انها ضرورة حتمية . وكلما سافر شاريت اوبيريز الى أوروبا لشراء اسلحة ، خلال ســـنة ١٩٥٥ ، كان كل منهما يمر بفرنســـا ليسأل حكامهـــا : ماذا يكون موقفهم

بالضبط ، فى حالة قيام اسرائيل بحرب مسلحة ضـد مصر ؟ ..

ولم يكن الفرنسيون يربطون أنفسـهم بشيء ، ولكنهم كانوا يشجعون الفكرة . فالجنرال جيوم شجع الجنرال ديان . وجي موليه ، عشية الانتخابات العامة ، وعد بيريز بكل مساعدة ، وبورجيس مانورى وكل رجاله كانوا مع اسرائيل مائة فى المـائة : اليمين الفـرنسي كان يشـجع اسرائيل بسبب دور عبد الناصر فى الجزائر ، واليســار كان يشجع اسرائيل على أساس أن عبد الناصر هو هتلر آخـر ، ولا يجب أن تقع ميونيخ أخرى ، هكذا قال جى موليه بالضبط . كذلك قال « اننى أساعد اسرائيل لانها دولة اشتراكية توشك على الزوال كمـا زالت أسـبانيا الاشتراكية فى وجه فرانكو . سنة ١٩٣٦ لم نكن أقوياء ولهذا زالت أسبانيا ، أما سنة ١٩٥٦ ، فاننـا أقوياء ، ولهذا لن تزول اسرائيل »

هكذا كان حكام الجمهورية الفرنسية الرابعة يشجعون اسرائيل : وبعضهم شجعها الى أبعد من هذا ، الى حـد الاشتراك معها فى أى خطة ضد مصر ..

ولكن أمريكا كانت ، كما سبق ، تعرقل تسليم الاسلحة الى اسرائيل ..

كذلك كان موسى شاريت ـ فى رأى المؤلف ـ ضد أى محاولة غزو عسكرى . صحيح أنه طرق كل الابواب لشراء الاسلحة . وانه اقتحم مؤتمر جنيف لفتح ملف اسرائيل أمام مولوتوف وايدن وماكميلان وبيناى وادجار فور .. للدفاع عن اسرائيل التى تعرضت للهجوم : فشاريت كان يعتقد دائمـا أن الامم المتحدة والقـانون الدولى والرأى العام العالمى تشكل كلها عقبـة خطيرة فى وجه مثل هـذا العمل .. وان الدول الاسيوية الافريقية بالذات سـوف

يكون رد فعلها غاية فى السوء . وشاريت يعتقد دائما أن العالم الاسيوى الافريقى يمكن أن يكون عالما صديقاً لاسرائيل « مسالمة » لا محاربة ، وانه يمكن أن يسهم فى تحويل علاقة اسرائيل بالعرب

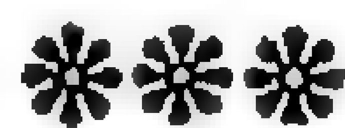
ولكن شاريت كان الاضعف . فكان عليه أن يرضخ لبن جوريون أو يرحل . وقد آثر أن يرحل ، فاستقال يوم ١٨ يونيو ١٩٥٦.

قال بن جوريون يومها : ان المخاطر الجديدة توجب خلق انسجام كامل بين وزارتى الخارجية والدفاع . ان وزارة الخارجية فى حاجة الى قيادة جديدة تماما . ولهذا يجب على شاريت ان يستقيل

وبهذا بدأت اسرائيل تستعد جديا لشن الحرب : حرب وقائية صغيرة اما أن تفرض بها الصلح على العرب واما أن تضمن لها الهدوء بضع سنوات أخرى

وفى هذه الظروف جاءت أزمة السويس

يؤكد المؤلف هنا : ان الازمة لم تغير موقف اسرائيل . فاسرائيل كانت ستشن هجومها المسلح على مصر على أى حال . ولكن أزمة السويس سهلت لها أصعب مهمة وهى الحصول على الاسلحة بكميات وفيرة ..



ليلة ٢٦ يوليو .. نفس الليلة العجيبة التى أعلن فيها عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس كان شيمون بيريز فى باريس ..

وفى اليوم التالى ، واسم مصر يملأ كل الصحف ، ذهب بيريز الى وزارة الخارجية الفرنسية وفى ذهنه سؤال واحد : هل يغير هذا الحادث ، أخيرا ، برود وزارة الخارجية الفرنسية تجاه اسرائيل ، ورغبتها المستمرة

فى التفاهم مع العرب ؟

ولكنه خرج بلا نتيجة ..

ومن يومها ، لم يطرق بيريز باب وزارة الخارجية . بل ان اتصالات اسرائيل كلها برئيس الوزارة ووزير الحربية والقيادة الفرنسية جرت فى سرية تامة عن وزارة الخارجية . من يومها لم تعرف وزارة الخارجية الفرنسية شيئا

قال كريستيان بينو « كانت الكاى دورسيه تعارض السويس . ان أحدا فيها لم يعرف السر أبدا . بل اننى كنت أذهب الى الاجتماعات الخاصة بهذا الموضوع بمفردى ، وأنا أقود سيارتى بنفسى ، وأنظر خلفى حتى أتأكد من ان أحدا لا يتبعنى »

فاذا اجتمع بينو بأحد فى بيته .. اجتمع به فى الشقة الخاصة .. وفى حجرة نومه بالذات .. حتى لا يثير الشبهات !

ولكن، حتى ذلك الوقت لم تكن فكرة التعاون العسكرى فى عملية حربية قد طرحت . صحيح أن خطوات خطيرة كانت قد اتخذت ، ولكن عدا هذه الخطوة

من هذه الخطوات الخطيرة : انشاء « قيادة عسكرية سرية » تختص بموضوع العلاقات الفرنسية الاسرائيلية!

ولكن فرنسا ، طوال هذا الوقت ، كانت ماضية فى السر فى تخطيطها المشترك مع انجلترا ، محتفظة باسرائيل فى يدها الاخرى . لربما تحتاج اليها اذا فشل تخطيطها مع انجلترا لسبب أو لاخر . واسرائيل نفسها لم تكن تفكر فى عمل عسكرى مشترك : انها تريد فقط الاسلحة لتتابع حربها الخاصة بها

كل ما كان يعرفه بينو هو : ان اسرائيل تريد الاسلحة

لتقوم بحرب منفردة ضد مصر . عندما يصل انشغال أمريكا بانتخابات الرئاسة الى أقصاه

وهكذا تمت الصفقة الكبرى للاسلحة فى ذلك الاجتماع السرى ، يوم ٧ أغسطس ..

وعرف أن انجلترا تؤيد هذه السياسة ..

وبعيدا عن أى أجهزة أخرى فى الدولة كان جى موليه وبينو ، وبورجيس مانورى ، والقيادة العسكريه .. يفاوضون الاسرائيليين رأسا ، ويعطونهم كل ما يشاءون من سلاح . « وأصبح هذا الامر روتينا عاديا . ان فرنسا واسرائيل لهما الآن هدف موحد تماما ، هو : « قهر مصر » . فلم تعد هناك أى عقبة على الاطلاق ، تعرقل تسليم الاسلحة الى اسرائيل

وفى سبيل تسهيل تسليم الاسلحة الى اسرائيل ، لجأت الحكومة الى أساليب لا سابق لها ولا مثيل فى تاريخ الدول ..

فاذا كان الاتفاق الاول ينص على تسليم ٢٤ طائرة مستير .. فتزوير بسيط فى الاذن ، يتحول الرقم الى عشرات ومئات ..

أو يستخدم نفس الاذن ، أكثر من مرة ، وفى كل مرة تسلم مصانع « مارسيل داسو » ـ الرجل الذى خطفت احدى العصابات زوجته فى باريس منذ مدة ـ ما تحتوى عليه الاذون المزورة . بناء على تعليمات صريحة من الحكومة الفرنسية ..

وكانت الطائرات تهبط فى شمال افريقيا ، أو فى برنديزى فى ايطاليا . بعد أن اغمضت حكومة ايطاليا عيونها على « هجرة هذه الطيور النفاثة الى اسرائيل » على حد تعبير المؤلف .. !

يروى السفير الفرنسى فى اسرائيل « جلبير العقيد » أنه كان يقف فى مطارات اسرائيل مع بيريز ، ومع ليفى أشكول رئيس وزراء اسرائيل الحالى ووزير المالية فى ذلك الوقت ، يرقصون طربا لمشهد وصول الطائرات « المستير ٤ » .. وكلما هبطت طائرة . صاح بيريز فى وزير المالية : وهذه ربع مليون دولار أخرى وفرتها عليك ! » ..

وعلى أمواج البحر ، تأتى سفن حربية فرنسية لتعزيز السلاح البحرى الاسرائيلى ، ثم يرتدى بحارتها الفرنسيون ثيابا مدنية ويتركونها فى تل أبيب ، ويعودون من طريق استانبول ، الى فرنسا ...

وخلال ليال طويلة ، تشحن الناقلات الضخمة الرابضة فى موانىء فرنسا بالدبابات ، والمدافع ، وصناديق قطع الغيار ، ثم تبحر تحت جنح الليل الى اسرائيل ..

أما على شواطىء اسرائيل ، فكانت السرية تتم بطريقة اخرى ..

كانت احدى فرق دبابات الجيش الاسرائيلى تأتى الى منطقة معزولة على الشاطىء وتعسكر فيها . وتقوم طول النهار بمناورات حامية ، حتى اذا جاء الليل ، اقتربت من الشاطىء تلك السفن الفرنسية المشحونة بالدبابات والمدافع . وتتم عملية التفريغ طول الليل ، وتبحر السفن . وتتحرك الاسلحة الجديدة الى النقب . دون ان يعرف أهالى القرى الفرق بين اسلحة المناورات والاسلحة الجديدة ..

ومن اهم الاسلحة التى نقلت بكميات ضخمة ، مدافع S.S. — 10 الصاروخية المضادة للدبابات ، التى أراد الغرب أن يجربها فى الدبابات السوفييتية خلال معركة سيناء ..

وقد بلغ من سرعة نقل الاسلحة ، وكثرة كمياتها ، ان فرنسا لم تسأل اسرائيل عن الرقم الحقيقى للاسلحة التى وردتها اليها ، الا بعد انتهاء حرب السويس كلها بشهور!

ولم تكن فرنسا حتى ذلك الوقت تفكر فى تحالف طويل المدى مع اسرائيل : ففى حالة ما اذا تقرر القيام بهجوم مع بريطانيا من قاعدة قبرص ، فساعتها كانت فرنسا سوف تشرح الامر لحلفائها البريطانيين — أى انها كانت تفضل أن يتم الامر بدون اسرائيل . وهذا ما كان يقلق اسرائيل جدا ، التى كانت تريد ان تشترك فى الحرب ، لحساب نفسها

ولما يضيق صدر فرنسا باعتراضات دالاس ، وبتردد انجلترا ، كانت تميل بشدة الى فكرة القيام بحرب منفردة مع اسرائيل

كانت الاحتمالات هى : هجوم فرنسى اسرائيلى على حدود مصر من النقب . وهجوم اسرائيلى منفرد على الاردن لايقاف الانتخابات التى كانت على وشك الاجراء والتى كانت ستقرب ما بين الاردن ومصر . وارسال سفن الى القناة ، لتعترض مصر على مرورها ، وتكون الحرب الشاملة

كانت الخطط تتبلور فى بطء ، وفى ارتباك احيانا ..

وفى ٢٠ سبتمبر هبط فى مطار تل أبيب وفد فرنسى رسمى ، من بين أعضائه بالتأكيد آبل توماس والكولونيل مانجان ومع الوفد خطة عامة : أن تقوم اسرائيل بهجوم مباشر على مصر . أما مساعدة فرنسا فلن تقف عند حد الاسلحة « والتأييد الدبلوماسى فقط » بل ان سلاح الطيران الفرنسى والاسطول الفرنسى يمكنهما المشاركة فى تأييد الجيش الاسرائيلى وحماية اسرائيل من رد الاسلحة

المصرية وقاذفات ناصر . ثم يصحب هذا التدخل مباشرة تدخل انجليزى فرنسى على أرض مصر ، مع انزال قوات مشتركة . أما الموعد التقريبى المحدد ، فهو أول نوفمبر»

وتكونت فى فرنسا « حكومة داخليـة » لهذه الحرب من : جى موليه رئيس الوزراء ، بورجيس مانورى وزير الحربية ، كريستيان بينـو وزير الخـارجية ، لاكوست حاكم عام الجزائر « ! » وشابان دالمـاس رئيس مجلس النواب . وفى رواية أخرى أن دالماس كان يجرى اخطاره بالخطوط العامة فقط ، بسبب علاقته بديجـول ، حتى يكون الجنرال على معرفة بالامر

كانت «حكومة الحرب» هذه قد اقتنعت بعد فشل مهمة بعثة منزيس وفكرة جمعيـة المنتفعين بالقنـاة أن التدخل المسلح بحجة القناة أصبح صعبا ، فلم تبق حجة لهذا التدخل الا قيام حرب بين مصر واسرائيل ..

وتأكيـدا للخطة ، قام جسر جـوى بين باريس وتـل ابيب : أسفار يومية يقـوم بهـا الجنرالات الفرنسـيون والاسرائيليون لدراسة الخطة واستكمالها . ابرز هـؤلاء كانوا الجنرال شال وجوهر من فرنسـا نفس الجنرالين اللذين قادا العصيان المسلح فى الجزائر ضد ديجول ، ثم حكم عليهما بالسجن بعـد ذلك وموشى ديان وبيريز وبن ناثان من اسرائيل

وفى مبنى وزارة الدفاع الفرنسية ، شـارع سـان دومينيك ، اقيمت محطة ارسال تكون على صـلة دائمـة بتل أبيب

وفى يوم ١٠ أكتوبر ، تم الاتفـاق على كل التفاصيل : بما فى ذلك نقل ورشة فرنسية كاملة لاصلاح الطائرات من « ريمش » الى اسرائيل ..

كل هـذا وفرنسا واسرائيل يؤرقهما شيء هام هو : موقف انجلترا ..

ان عدم اشتراك انجلترا فى الهجوم معهما يعطيها حرية تصرف تسمح لها بعرقلة كل شيء ، لو أرادت

ثم ان اسرائيل كانت تضع فى مقدمة شروطها للهجوم على مصر : تدمير كل المطارات المصرية من أول يوم ، منعا لحركة طائرات عبد الناصر .. وفرنسا ليس لديها قنابل حديثة ، فى حين أن بريطانيا تملك قاذفات « كانبيرا » الشهيرة ..

وكانت انجلترا تعرف بأن ثمة مفاوضات بين اسرائيل وفرنسا . ولم تكن تعترض . ولكن بقى أن تلتقى أطراف المثلث الثلاثة وجها لوجه انجلترا وفرنسا واسرائيل

وانطلق كريستيان بينو يعمل !

كانت هناك اذن عمليتان منفصلتان ، كل منهما تستعد لغزو مصر . عملية اسرائيلية ـ فرنسية وعملية فرنسية ـ انجليزية وقد حاول الانجليز أن تنفذ العمليتان منفصلتين ، حتى لا تتهم بالتآمر مع اسرائيل ، بينما صممت اسرائيل على أن يلتقى الثلاثة وجها لوجه ، ويعملون معا .. وهذه هى القصة ..

***

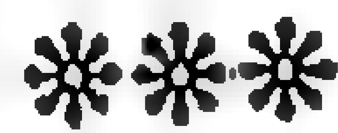
فى نهاية سبتمبر ، وصل الى اسرائيل ضابط انجليزى يهودى اسمه الكولونيل روبرت هنريك . وعلى الفور ذهب الى لقاء بن جوريون

كان يحمل رسالة سرية جدا من الحكومة الانجليزية تقول : ان انجلترا تحذر اسرائيل من اى هجوم على الاردن . وهى تبلغ اسرائيل انه لا مانع لديها ، فى حالة

هجوم انجلترا على مصر ، أن تبادر اسرائيل بدورها بالهجوم .. فى هذه الحالة سوف يكون على انجلترا أن تستنكر ـ علنا ـ هجوم اسرائيل على مصر ، وتستنكره بكل شدة .. ولكنها ساعة ابرام الصلح تتعهد بأن تحصل على أحسن شروط ملائمة لـ « اسرائيل !! »

استمع بن جوريون الى هذه الرسالة وسكت

ان انجلترا تعرف نصف الحقيقة . تعرف أن هناك تحالفا مسلحا بين فرنسا واسرائيل ، ولكنها لا تعرف أكثر من ذلك .. لا تعرف أن التحالف يشمل « القيام بعمل عسكرى مشترك » .. فقد كان الجانب الفرنسى يخاف أن تفضل انجلترا فى اللحظة الاخيرة عدم المغامرة بمصالحها فى البلاد العربية فتعدل عن الحرب ، لهذا آثر أن يبيتها فى الظلام



وقد صدق ظن الفرنسيين ..

فبعد فشل شكوى انجلترا وفرنسا ضد مصر فى مجلس الأمن ، طار ايدن وسلويد لويد الى باريس يوم ٢٦ . كان يبدو أنهما تراجعا عن فكرة الحرب وأخذا يبحثان عن مخرج كريم من الازمة كلها

وكان لدى ايدن اقتراح محدد :

ان هناك انتخابات على وشك أن تجرى فى الاردن . وكل التقارير تدل على أن أصدقاء عبد الناصر سوف يكتسحونها . والحل هو أن تدخل القوات العراقية ، قوات نورى السعيد الاردن ، وتمنع الانتخابات وتخلق ظروفا جديدة تسمح بضم الاردن الى حلف بغداد ، ان هذا سيكون ضربة قاصمة لعبد الناصر ذهب ايدن الى

حد القول بانها قد تسقطه فى مصر . أو على الاقل تنتقم من تأميم شركة القناة . وفى ظل هذا يمكن التفاوض معه بشأن القناة ..

ولكن هذه الخطة تحتاج الى مساعدة فرنسا .. كيف ؟ .. ان فرنسا عليها أن تقنع اسرائيل بعدم الاعتراض على دخول القوات العراقية الى الاردن

ولكن جى موليه رد على طلبات ايدن ردا عنيفا ..

قال له : ان هذا كله حل لا تجنى فرنسا أو اسرائيل من ورائه شيئا . ولو ضغطت فرنسا على اسرائيل على هذا النحو فلن تقبل اسرائيل أن تشترك مع فرنسا مرة اخرى فى عمل ضد عبد الناصر . ثم ان القيام بانقلاب فى الاردن لا يؤدى الى أسقاط عبد الناصر ، واسقاط عبد الناصر هو الهدف الرئيسى للسياسة الفرنسية الان

وبعد مناقشات دامت عشر ساعات ، لم يصل الطرفان الى شىء . ولكن هذا الحوار كان له أثر واحد : هو اندفاع فرنسا اكثر واكثر فى طريق الاعتماد على اسرائيل ، حتى وصلت الى اتفاق ١٠ اكتوبر سنة ١٩٥٦ .. الذى سبق ان أشرت اليه

أما اسرائيل ، فمضت فى تحرشاتها على طول الحدود الاردنية : لقد اكتشفت أن هذا يساعد على تحويل الأنظار عن ترتيباتها لغزو مصر . وفى منتصف أكتوبر ، سكتت انجلترا بدورها على هذه التحرشات ، اذ كانت قد انضمت الى فرنسا واسرائيل ، واكتمل المثلث

وطار بينو ومعه الجنرال شال الى لندن يحاولان اقناع انجلترا مرة أخرى . ولكن الذى أقنع انجلترا نهائيا فى راى المؤلف هو تأكدها ان اسرائيل مصممة نهائيا على الهجوم على مصر . ففى يوم ١٥ أكتوبر ، وفى وسط

اتجاه الانظار الى الاصطدامات على حدود الاردن ، قال بن جوريون : « لا يجب أن ننسى أن العدو الاول لنا هو مصر » . وبعد ساعات من هذا التصريح ، كان ايدن يتصل تليفونيا بموليه ويخطره أنه آت الى باريس فى اليوم التالى

وفى غرفة مغلقة ، اجتمع ايدن ولويد وموليه وبينو . وبعد انتهاء الاجتماع طارت الى بن جوريون برقية سرية تقول له « تستطيع أن تثق تماما من موقف بريطانيا »

لقد نشر فى الصحف صبيحة هذا الاجتماع ، ان موضوعه كان أزمة الحدود بين الاردن واسرائيل . وهذا غير صحيح . ففى هذا الاجتماع اتخذ قرار خطير : الهجوم على السويس !

ففى هذا الاجتماع ، أخطر الفرنسيون ايدن ولويد عن نية اسرائيل الحاسمة للهجوم . وبعد تردد طويل ، ورفض من جانب لويد ، قبل ايدن الاشتراك فى الغزو..

أما حجة الغزو ، وهى ارسال سفينة اسرائيلية الى القناة تقوم مصر بمنعها من المرور ، فقد رفضها الانجليز بتاتا . ثم قبلوا أن تكون ذريعة التدخل هى « حماية القناة من القتال بين مصر واسرائيل »

واتفق الطرفان على ان يتم فى هذه الحالة تنفيذ الهجوم طبقا لخطة « موسكتين المعدلة » وقد أشرت اليها أيضا فى الاسبوع الماضى

واشترط الانجليز ، ألا يقوم أى تنسيق بينهم وبين اسرائيل ، انما تنفرد فرنسا فى التآمر مع اسرائيل ، وتظل انجلترا بعيدة تماما عن المؤامرة ، انما تشترك مع فرنسا فقط فى القسم الثانى وهو : التدخل فى القناة لحمايتها من القتال !

كان هم الانجليز : الا يتورطوا فى اى عمل يقيم الدليل على تآمرهم مع اسرائيل ، خشية ان يعصف هذا بمصالحهم فى العالم العربى

ولكن مع تقدم الخطة ، وضرورات التنسيق ، لم يكن هناك مفر من انغماس انجلترا مع اسرائيل فى المؤامرة ذاتها ..

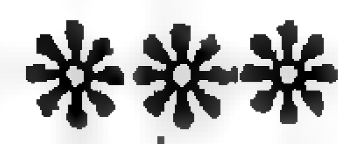
صاح وزير فرنسى فى المؤلف « الانجليز لايعرفون عن اتفاقنا مع اسرائيل ؟ .. كيف ؟ .. اننـــا لم ننفرد باسرائيل بعد ذلك فى أى اجتماع الا نادرا ! »

قال بول جونسون مؤلف كتاب « حرب السويس » : ان البرقيات الفرنســية الاسرائيلية التى التقطتهـــا المخابرات الامريكية تؤكد علم انجلترا بكل التفاصيل » ..

منذ ١٦ أكتـوبر ١٩٥٦ ، بدأت أداة الحرب المثلثـة تدور بسرعة .. فى مقر القيادة البريطانية ، يعاد النظر فى خطة « موسكتير » لتلائم المنظر الجديد : منظر التدخل « للفصــل » بين قوات مصر واسرائيــل . اجراءات أمن هائلة . برقيــات الشرق الاوســط تنقل من الخارجية وتصبح فى يد الســكرتارية الخاصــة لرئيس الوزراء بمفرده . دبلوماسيون كثــيرون انجليز تنقطع عنهم كل المعــلومات عن الشرق الأوســط . خبــير فى الوزارة فى الشئون العــربية يمنح اجازة طويلة .. عــدد آخر من الرسميين تأتيهم دعوات مفاجئة للسفر الى الخارج وترك العاصمة البريطــانية حتى لا يعرفوا ويعارضوا . ســير والتر مونكتــون وزير الدفاع يستقيل يوم ١٨ أكتــوبر لانه عارض فى الغزو ، فيحل محله انطونى هيد المتحمس للقتال ..

وفى يوم ١٧ أكتوبر تستدعى اسرائيل سفراءها من

لندن وباريس وموسكو وواشنطن . ويقوم حاجز من الكتمان حول سفراء أمريكا وملحقيها العسكريين فى لندن وباريس وتل أبيب .. الملحق العسكرى الامريكى فى تل أبيب يكتب الى حكومته ملاحظا ان الملحقين الانجليزى والفرنسى قد انقطعا عن رؤيته وبدءا يتشاوران ويسافران بمفردهما . بعد ان كان الثلاثة على اتصال دائم .. المخابرات الامريكية فى روما تلاحظ زيادة غير عادية فى البرقيات الشفرية المتبادلة بين باريس وتل أبيب ..



من واشنطن ، يصف المؤلف الآخر ، هيرمان فينر نفس اللحظة فى العاصمة الامريكية : دالاس غاضب ثائر على توقف انجلترا وفرنسا عن تداول معلوماتهما مع أمريكا كالعادة . لا تقارير قط تأتى من سفرائه فى لندن وباريس .. وهو لا ينقطع عن ابداء شكوكه فى الامر

وفى نفس الوقت بدات تحركات كبرى لتركيز القوات الفرنسية الانجليزية فى قبرص ومالطة : فى وضع استعداد حاسم أمام بور سعيد ..

ويسأل الضباط الانجليز : ما هو موعد الغزو ؟ فيقول لهم الساسة : سنخطركم قبله بأسبوعين !

والواقع ان الموعد ظل يتأرجح زمنا طويلا . كان الموعد المفضل هو يوم ٦ أو ٧ نوفمبر ، اى يوم انتخابات الرئاسة فى أمريكا بالضبط . ولكن تحديد الموعد فى النهاية تم بطريقة درامية مثيرة ..

فى احدى الليالى هبطت فى مطار اسرائيل الطائرة الضخمة «DC 4» التى كان الرئيس ترومان قد

اهداها للجنرال ديجول . ونزل منها الكولونيل مانجان .
وبعد ساعات كانت الطائرة تعود الى فرنسا وتهبط فى
مطار « فيلا كوبلاى » الحربى بالقرب من باريس ، وينزل
منها ثلاثة اسرائيليين ..

وصاح جى موليه الواقف عند سلم الطائرة : كيف
لا يعرف الناس بن جوريون بشعره المنكوش الابيض
وموشى ديان بالعصابة السوداء على عينيه !

وكان معهما أيضا سيمون بيريز ، وعلى الفور ، توجه
الجميع الى بيت قريب منعزل ، تحت كتمان مطلق
وحراسة مشددة ..

***

لماذا جاء بن جوريون الى باريس فى هذا الوقت ،
وبهذه الطريقة التى دمغت المؤامرة كلها أمام التاريخ ؟ ..
لماذا وقد أصبح كل شىء معدا للعمل ؟ ..

قال جى موليه بعد ذلك مرة : « لم يكن ممكنا أن
أقدم على هذا العمل الخطير دون أن أرى بن جوريون
وجها لوجه »

وقال مرة أخرى : « لقد جاء بن جوريون يقول لى
ان عبد الناصر لديه ١٢٠ طائرة ميج و٨٠ طائرة اليوشين
ومعنى هذا ان اسرائيل ستضيع ! لقد انقذت اسرائيل
فى سنة ١٩٥٦ » !

ولكن ألم ترسل فرنسا طائرات الميستير الى اسرائيل
بكميات وفيرة من قبل ؟ ..

الواقع ان بن جوريون قد وجد فى اللحظة الاخيرة ان
هذا كله ليس كافيا ! ان مصر تملك قاذفات قنابل مخيفة

اسرع من الصوت . فى دقائق تستطيع ان تكون فوق تل أبيب وحيفا وبئر سبع وتدمرها دون ان يكون لدى اسرائيل أى دفاع ضدها ..

وقرر بن جوريون ألا يتحرك قبل أن يضمن « مظلة جوية » تحميه . ان انجلترا وفرنسا ستتدخلان حقا بعد ان يشتبك هو مع القوات المصرية بقليل ولكن ماذا عن الساعات الاولى ، التى ستكون فيها اسرائيل بمفردها ضد مصر ؟ . ماذا عن « الصدمة الاولى » للقتال مع مصر ، واسرائيل وحدها ؟ ...

ثم .. الانجليز ؟ هل يضمنهم بن جوريون حقا ؟ .. أو أنهم يمكن ان يتخلوا عنه فى اللحظة الاخيرة ؟ ..

وبسرعة تأكد بن جوريون من جى موليه واطمأن : ستزوده فرنسا بمظلة جوية وبحزام بحرى

ومع ذلك لم يطمئن . بل طلب طلبا آخر : طلب تدمير كل المطارات المصرية فى الساعات الاولى للقتال ..

ولكن فرنسا ليس لديها طائرات من قاذفات القنابل البعيدة المدى . لا بد من الحصول على طائرات « كانبيرا » الانجليزية . فهل يرضى الانجليز ؟ ..

بعد ساعة ونصف ، وصلت المؤامرة الى قمتها ، فقد انطلقت السيارات بالفرنسيين والاسرائيليين الى بيت قريب فى منطقة « سيفر » فى ضواحى باريس ، حيث التقى الكل بسلوين لويد وعدد من أقرب مساعديه ..

فى أول أكتوبر تم اتفاق فرنسا واسرائيل

فى نصف أكتوبر تم اتفاق فرنسا وانجلترا

الآن ، يتم لقاء الثلاثة معا ، فى مكان واحد ..

أخيرا ، التقى الانجليز ، اساتذة فن المراوغة ، وجها

لوجـه مع بن جوريون ، الامر الذى كانوا لا يريدونه قط ..

كان ذلك يوم ٢٣ أكتوبر . وبعد اللقاء مباشرة طـار سـلوين لويد الى انجلترا وترك مسـاعديه . وبقى بن جوريون فى فرنسـا يومين ، حتى جاء رد لويد الى مساعديه ..

لقـد تم الاتفـاق فعلا على تدمير المطارات المصرية فى الساعات الاولى حتى تتوفر الحماية لاسرائيل .. وتم الاتفاق على صيغة الانذار الفرنسى البريطانى الذى سيوجه الى مصر واسرائيل . وعلى موقف الدولتـين فى الامم المتحدة . واتفق أيضا على تقديم موعد الغزو : فروسـيا مشـلولة بحكم أحـداث المجر وأمريكا مشـلولة بحـكم انتخابات الرئاسة . وعلى هذا تقرر انتهاز الفرصة وأن يكون الموعد هو ٢٩ أكتوبر ..

تم الاتفاق من ٣ نسخ . ولا شك ان انجلترا وفرنسا قد احرقتا الآن نسختيهما اللتين تدلان على اغرب مؤامرة فى التـاريخ الحـديث

ولكن المؤكد ان بن جوريون يحتفظ بنسخته الثمينة ، عليها توقيع سلوين لويد ، فى مكتبه !

وفى اليـوم التـالى عاد بن جوريون الى تل أبيب ، واعلنت اسرائيـل التعبئة العـامة ، واخطرت القيـادة الفرنسية البريطانية بموعد الغزو . وتحركت فعلا عجلة الحـرب ..

وقفة قصيرة ، قبل استئناف القصة مع المؤلف عنـد هذه اللحظة التاريخية الرهيبة . اللحظة التى تورط فيها المتآمرون حتى قمة رءوسهم ..

يتساءل المؤلف :

ـ ما هي الاهـداف التي يريد الغزاة تحقيقهـا بهذه الحرب التي يستعدون لها ؟ ما الذي دفعهم الى هـذا الموقف البالغ الخطورة ؟

يجيب المؤلف :

ـ بالنسبة لاسرائيل الهدف بسيط وواضح :

ضرب قوة الجيش المصري . وتدمير الاسلحة الروسية المكدسة . والقضـاء على مواقع « الفدائيـين » الذين يتسللون منها الى اسرائيل ، وقتل القيادة العسـكرية المشتركة « المصرية السورية الاردنية » وهى فى المهـد ، تلك القيادة التى كان يجب ان تصبح قائمة ابتداء من يوم ٢٨ اكتوبر الى قبل الغزو بيـوم واحد . كذلك كانت اسرائيل تريد كهدف بعيد المدى : اسقاط حكم عبد الناصر واقامة حكم اكثر اعتدالا ..

ويزعم المؤلف أن اسرائيل ، لهذه الاسباب ، لم تكن مرتاحة الى اشتراك انجلترا وفرنسا معها فى الحرب . فهذا سوف يوسع المسألة . ويسلب اسرائيل ميزة احراز النصر بمفردها . فضلا عن ان هذا يربطها بقضية الدول الاستعمارية . انها كانت تفضل أن تخوض الحـــرب بمفردها ، وانجلترا وفرنسا تساعدانها عسكريا وسياسيا من وراء ستار فحسب . ومع ذلك ، فهى ازاء المزايا الكبرى التى كانت تعود عليها من الغزو الثلاثى ، مستحيل ان ترفض هذه الشركة ..

وقد بقى امر الحرب سرا ، الا بالنسبة لعدد قليل من وزراء حزبى « ماباى » و « احدوت أفودا » . أما الباقون فلم يعرفوا الا يوم ٢٨ اكتوبر ، اى ليلة الغـــزو . وزارة

الخارجية باستثناء جولدا ماير لم تكن تعرف . السفير الاسرائيلى فى باريس كان يعرف عن أمر التسليح لا غير

يروى المؤلف ان بن جوريون عقد اجتماعا لسفراء اسرائيل فى انجلترا وفرنسا وأمريكا يوم ١٧ أكتوبر . وفى أثناء المناقشة سألهم بن جوريون عرضا : « وماذا تظنون يكون رد فعل الدول الكبرى لو اضطرت اسرائيل الى مهاجمة مصر ؟ »

ورد السفراء جميعا قائلين ان هذا سوف يكون كارثة ! وسوف تعترض كل الدول الكبرى على موقف اسرائيل

وكتب بن جوريون على ورقة أمامه « هل نقول لهم ؟ » وأعطى الورقة لجولدا ماير الجالسة معهم ، فردتها اليه بتعليق يقول « قطعا لا » .. فلم يقل لهم شيئا ..

أما موسى شاريت ، رئيس الوزراء السابق ، فلم يعرف الا من نهرو ، اذ كان مجتمعا معه فى نيودلهى ساعة جاءت أول أنباء الغزو !

هذا عن اسرائيل ، فلماذا ذهبت فرنسا الى الحرب ؟ ..

يعدد المؤلف الاسباب بترتيب أهميتها كالآتى :

أولا ــ الجزائر . فقد ظن الفرنسيون ان اسقاط عبد الناصر هو الطريقة الوحيدة لاخماد ثورة الجزائر

ثانيا ــ ان التأميم كان انتصارا « عربيا » ..

والعروبة فى رأى بعض الفرنسيين هى الخصم الاول لفرنسا فى العالم الاسلامى

ثالثا ــ شركة قناة السويس ومساهموها الاقوياء والصغار على السواء ، وقدرتهم على الضغط على الحكومة

رابعا ـ حاجة فرنسا النفسية الى نصر عسكرى بأى شكل بعد هزائمها الطويلة فى ساحات القتال من الهند الصينية شرقا الى المغرب العربى غربا

ان ايدن فى رأى المؤلف لم يكن متحمسا أول الامر . وحين اندفع فى المغامرة تشققت من حوله الجبهات : فى داخل الوزارة ، كان يؤيده دنكان سانديز وماكميلان وانطونى هيد ، بينما كان يعارضه ناتنج ، ويعارضه بشدة ريتشارد بتلر « ولى العهد » داخل حزب المحافظين فى ذلك الوقت ، فى حين ظل سلوين لويد مترددا

وفى الجيش البريطانى أيضا كله ثمة أكثر من رأى . فريق يتزعمه لورد مونتباتن ويعارض الغزو أصلا . وفريق يتزعمه الجنرال تمبلر يؤيد فكرة الحرب ولكن يعارض فى الذهاب الى الحرب جنبا الى جنب مع اسرائيل ..

فماذا كانت العلاقة بين « الحلفاء الثلاثة » ؟

يقول المؤلف ان التحالف والتفاهم بين فرنسا واسرائيل كان قويا للغاية . أما انجلترا فكانت هى العنصر القلق فى الحلف الثلاثى . كانت تشعر أن بين فرنسا واسرائيل روابط لا تعرفها كلها . وكان هذا يقلقها . وفى نفس الوقت كانت لا تريد أن تدفع ثمن المعرفة ، وهو الاشتراك الكامل ، لانها ظلت مهتمة بأن تتحاشى أى شىء ينم عن تآمرها مع اسرائيل مقدما خشية رد الفعل لدى العالم العربى

لهذا التقى الساسة الانجليز والاسرائيليون واتفقوا . ولكن العسكريين لم يلتقوا قط . فكان هناك حربان : حرب فرنسية انجليزية فى بور سعيد . وحرب اسرائيلية فى سيناء والانجليز مرتبطون بالاثنين .. ولكنهم

يحاولون ألا ينم أى شيء عن هذه الرابطة ..

ثم يقف المؤلف عند نقطة بالغة الاهمية : هل كانت امريكا تعرف أن ثمة هجوما على سبيل اليقين ، وبالتالى كان فى امكانها ايقافه ، أم انها لم تكن تعرف ؟

يروى المؤلف ان وزيرا فرنسيا قال له :

ـ ان دالاس كان يعرف بالتأكيد : لقد حرصنا على ان نجعل الامريكان يعرفون .. بشرط الا يعرفوا بشكل رسمى ، حتى لا تكون لديهم ذريعة رسمية لتعطيل الهجوم : لقد كان آلن دالاس ، أخوه ، يعرف بأن هناك ترتيبات ضخمة تتخذ للحرب ، هل معقول انه لم يقل له ؟ ..

اذن ، هل يكون ايزنهاور هو الذى قلب الامور على الحلفاء ؟ ..

ازاء هذه الاسئلة ، أعود مرة أخرى الى الكتاب الاول « دالاس والسويس » ، الذى يروى القصة من الجانب الآخر للمحيط ، من الولايات المتحدة الامريكية ..

يقول المؤلف « هيرمان فينر » ، ان أنباء الاستعدادات العسكرية المريبة كانت تتسرب بالفعل الى أمريكا ..

ففى باريس ، أسر وزير فرنسى بالانباء الى دوجلاس ديلون وزير مالية أمريكا حاليا ، وسفيرها فى باريس فى ذلك الوقت ..

كما ان اشاعات الحرب ترددت ليلة فى ردهات البرلمان الفرنسى ، فأسرع نواب من « أصدقاء » السفارة الامريكية الى التليفونات ، يخطرونها بالامر

كما أن بعض ضباط المخابرات الفرنسية عملوا على « تسرب » السر الى زملاء لهم فى المخابرات الامريكية .. وفى نفس الوقت ، لاحظت المخابرات الامريكية فى ايطاليا

زيادة هائلة فى برقيات الشفرة المتبادلة عبر البحر الابيض بين باريس وتل أبيب !

فكيف لم يتصرف دالاس فى الوقت المناسب ، لايقاف العملية ؟ ..

هناك رأى يقول ان دالاس كان يعتقد ان المحاولة لن تتم الا بعد ٦ نوفمبر ، أى بعد انتخابات الرئاسة الامريكية . وبالتالى فمن مصلحة الحكومة الامريكية ان يبدو كل شىء هادئا سلميا حتى يوم الانتخابات ، خشية التورط فى مشاكل عاتية قبلها ، بما قد يتركه هذا من أثر على نتيجتها ...

ولكن دالاس ، ابتداء من يوم ١٦ أكتوبر ، بدأ الفأر يلعب فى عبه . فقد انقطعت فجأة التقارير السرية الانجليزية والفرنسية المعتادة . وأحس السفراء الامريكان انهم فى ظلام دامس وان المسئولين فى باريس ولندن وتل أبيب يتهربون منهم ..

ثم توالت الاحداث بسرعة مذهلة ..

ففى يوم ١٩ أكتوبر جاءت أخبار أزمة بولندا مع روسيا . وجاءت تقارير تشير الى بوادر اضطرابات فى المعسكر الشرقى

هذا هو اليوم الذى كان دالاس يحلم به ، ويعمل له ، ويتنبأ به ! انه هو صاحب الرأى القائل : ان المعسكر الشرقى سينهار من الداخل ، وها هى نبوءته توشك ان تتحقق ..

ثم جاءت انباء ضبط الاسطول الفرنسى لباخرة يونانية اسمها « آثوس » كانت تنقل أسلحة مصرية الى ثوار الجزائر ! وباسم مراقبة شواطىء مصر ، ابحر الاسطول الفرنسى الى شرق البحر الابيض ، والواقع انه اتخذ الامر

ذريعة لكى ينفذ احد شروط الحرب المقبلة : حماية شواطىء اسرائيل !

وفى يوم ٢٢ أكتوبر ، نجحت فرنسا فى خطف أحمد بن بيللا ورفاقه من قادة الثورة الجزائرية ، فى حادث الطائرة الشهير ، وطار الفرنسيون فرحا : انه فأل حسن لحربهم المقبلة فى مصر ..

وبينما كان الفرنسيون ينقلون بن بيللا الى السجن ، يوم ٢٣ ، كان بن جوريون يصل الى باريس سرا ، فى رحلته التى سبقت الاشارة اليها ، ليلتقى بموليه وسلوين لويد ويوقع اتفاقية « سيفر » السرية

وفى ٢٣ انفجرت الاضطرابات فى المجر ! ونشب القتال المسلح فى بودابست نفسها !

هذا أسعد يوم حقا فى حياة جون فوستر دالاس ! ان وزارة الخارجية كما يقول المؤلف تفيض بالغبطة والحبور! يا لها من أيام مثيرة !

واغتبط أيضا المتآمرون .. فهذه الاحداث سوف تشل يد روسيا كما أن الانتخابات تشل يد آمريكا ! لم يكن ممكنا ان تشن حرب ضد مصر وعبد الناصر فى ظروف أحسن من هذه !

وبقدر ما اغتبطت لندن وباريس ، اكفهر الجو فى وزارة الخارجية الامريكية !

فقد جاءت رسالة من السفير الامريكى فى اسرائيل تقول ان التعبئة العامة قد أعلنت سرا هناك !

هذا آخر علامة كانت منتظرة !

واستدعى دالاس سفير اسرائيل ابا ايبان وسأله عن الامر فقال له هذا : لابد أنها عملية دفاعية !

واستدعى الدريتش السفير الانجليزى وسأله عن التعبئة العامة الاسرائيلية ، فقال له انه لا يعلم . وكل ما يعرفه ان حكومته حذرت اسرائيل من أى عمل ضد الاردن . فسأله دالاس : ومصر ؟ .. فقال السفير . لا أعرف عنها شيئا !

وأرسل ايزنهاور رسائل سريعة الى بن جوريون يحذره من أى عمل مسلح ..

ولكن بعد مضى ساعات ، من آخر رسالة كتبها أيزنهاور ، عبرت قوات اسرائيل حدود سيناء

***

لقد بدأت الحرب !

فماذا نفذ من تفاصيل الاتفاق السرى .. وماذا لم ينفذ ؟

يقول « ميشيل بار زرهار » مؤلف كتاب « السويس : سري جدا » ان التفاصيل التى اتفق عليها فى باريس ولندن وسيفر للهجوم على مصر ، تم تنفيذها حرفيا ، بما في ذلك الانذار الذى وجه من انجلترا وفرنسا يوم ٣٠ اكتوبر الى مصر والى اسرائيل ! ذلك الانذار الذى اشترك فى كتابته : جى موليه وسلوين لويد .. وبن جوريون !

وكما سبق : كان فى مقدمة هذه التفاصيل : حماية اسرائيل حماية مطلقة من بطش القوات المسلحة المصرية !

فقبل بدء الهجوم الاسرائيلى على مصر بأيام ، وصلت الى المطارات المجاورة لتل ابيب قوة من طائرات الميستير وطائرات سابر ف ـ ٨٦ ، الفرنسية .. بطياريها

الفرنسيين وجنودها .. بل وبعدد كبير من الميكانيكيين ، وكمية هائلة من قطع الغيار ...

جزء من هذه القوة لم يشترك فى الهجوم على مصر ، انما كانت مهمته فقط حماية مدن اسرائيل من الطائرات المصرية : وفى كل مرة اطلقت فيها صفارات الانذار ، كانت هذه الطائرات تسرع محلقة فى الجو ..

فلما دخلت انجلترا وفرنسا الحرب رسميا بعد الانذار المزيف ، واتسع نطاق هجمات الطيران البريطانى على المطارات المصرية ، استطاعت هذه القوة الفرنسية ان تتحرر من مجرد الدفاع عن المدن الاسرائيلية ، وتشترك اشتراكا ايجابيا الى جانب قوات اسرائيل ضد الجيش المصرى فى سيناء

وكانت مهمة الطيران الفرنسى الاساسية ضرب خطوط الامداد المصرية الى سيناء

***

وفجأة ، تلقى الطيران الفرنسى فى اسرائيل برقية عاجلة من القيادة الفرنسية فى قبرص تقول « اضربوا الاقصر ! »

فقد علم الغزاة أن المدينة التاريخية فيها ممرات جوية حديثة للطائرات الاسرع من الصوت ، وان الطائرات « اليوشين ٢٨ » المصرية رابضة هناك

وصرخت اسرائيل تطلب تدمير مطار الاقصر ووقعت مشادة عنيفة بين انجلترا وفرنسا .. لماذا ؟

السبب هو انه كان قد تم قبل العدوان تقسيم دقيق لاختصاص كل دولة فى المناطق التى تضربها بقنابلهما ، فلما طلبت فرنسا السماح لها بضرب الاقصر ، اعترضت

انجلترا ، وأخيرا ، سمحت انجلترا للطيران الفرنسى بأن يخترق « مجال اختصاصها لمدة يوم واحد ، يقوم خلالها بضرب الاقصر !

ولم يكن هذا هو كل ماتلقته اسرائيل من عـــون من الطيران الفرنسي فى حربها ضد مصر ، فقبل القتال وبعده كانت طائرت النقل الفرنسية تقيم جسرا جويا لنقـــل الاسلحة الى اسرائيل •• كذلك فان الطائرات التى انزلت فرق الباراشوت الاسرائيلية فى قلب سيناء كانت طائرات فرنسية • ثم جاءت طائرات فرنسية اخرى من قبرص رأسا لتسقط لهم معداتهم فى وسط سيناء

هكذا كانت القوات الاسرائيلية تقاتل فى ســـيناء والامدادات الفرنسية تهبط عليها من الســماء بما فى ذلك الماء والبترول وقطع الغيار والسيارات الجيب المصفحة • وقد رأى راندولف تشرشل ، الذى طـــار الى اسرائيل بمجرد بدء القتال ، بنات تل ابيب يرفهن علنا عن ضباط الطيران الفرنسيين الذين يشتركون فى القتال •• كما يقول المؤلف ••

وبنفس الطريقة ، يصف الكتاب كيف ان الســـفن الحربية الفرنسية الثلاث « كيرســــانت » و « بوثيه » و « سيركوف » تصدت للمدمرة المصرية ابراهيم الاول وضربتها امام شاطىء اسرائيل ..

كما ان السفينة الحربية «كير سانت» مع سفينة اخرى حربية فرنسية اسمها « جورج ليجى » قامتا بضرب رفح وشاطىء سيناء من البحر لتمهيد الطريق امام الهجـــوم الاسرائيلى . وكان هذا يتم ليلا ، حتى لا يعرف احد اى سفن تقوم بالضرب

وتفاصيل هذه القصص غريبة ...

ففى يوم ٢٩ اكتوبر ، عصرا ، اتصل الكولونيل «نيشرى» الملحق العسكرى الاسرائيلى فى باريس بالاميرال الفرنسى بارجو قائد الاسطول الفرنسى الرابض فى شرق البحر الابيض ، وطلب منه ضرب رفح والعريش

وكان هناك فى ذلك الوقت اسطولان فرنسيان متصلان فى المنطقة : اسطول مرتبط باسرائيل رأسا ، ومهمته حمايتها من البحرية المصرية ومساعدة حملتها ضد مصر .. وأسطول مرتبط بالانجليز ويكون جزءا من القوة التى تستعد للنزول فى بور سعيد بالاشتراك مع القوات الانجليزية ..

ورد الاميرال بارجو قائلا ان سفن الاسطول الاول ليس لديها الا مدافع ١٣٧ ملليمترا وهى لا تكفى لضرب رفح والعريش ، فلابد من ضم البارجة « جورج ليجى » المزودة بمدافع عيار ١٥٢ ملليمترا حتى يتسنى القيام بالضرب

ولكن البارجة « جورج ليجى » كانت جزءا من القوة التى تستعد لغزو بورسعيد مع الانجليز يوم ٦ نوفمبر ! لهذا كان لابد من استئذان الجنرال كيتلى الانجليزى ، القائد العام للقوات الفرنسية الانجليزية التى ستغزو مصر ورد كيتلى قائلا : « لا مانع . بشرط الا اعرف هذا رسميا فكأنكم لم تطلبوا منى شيئا ، وكأننى لم أسمح لكم بشىء !»

ومن اطرف اللحظات التى مرت بها المؤامرة ، ما حدث يوم ٤ نوفمبر

ففى ذلك اليوم ، لم تكن القوات الفرنسية والانجليزية قد بدأت بعد فى النزول فى بورسعيد ، ويومها اراد ابا ايبان

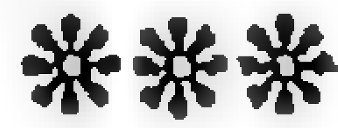
ان يوهم الامم المتحدة ان اسرائيل قد قضت على المقاومة المصرية فقال : لقد توقف القتال فعلا فى سيناء !

وذعرت لندن وباريس !

انهما ستغزوان مصر بحجة وجود القتال ! فماذا يريد ابا ايبان ؟ هل غدرت اسرائيل بهما ، وتلقت مساعداتهما حتى تحتل سيناء ، ثم تقول ان القتال قد انتهى ؟ .. وكيف تتدخل الدولتان الان ؟

واهتزت اسلاك التليفون بين لندن وباريس تبحث عن بن جوريون شخصيا وتسأله تفسير هذا الموضوع .. حتى هدأ بن جوريون من روعهم وقال انه لم يقصد بذلك الى قبول قرار وقف اطلاق النار وبالتالى ايقاف الغزو

فالغزو اذن يستطيع ان يستمر .



يعتقد المؤلف ان من اكبر أخطاء الغزو تردد الانجليز ، وعدم جرأتهم فى « التآمر » مع اسرائيل بنفس الصراحة التى تآمر بها جى موليه معهم

كان الانجليز يستعدون للقتال وفرائصهم ترتعد من احتمال واحد : أن ينكشف تآمرهم المسبق مع اسرائيل !

ولكن المعركة كانت تقتضى مزيدا من التعاون وجها لوجه بين العسكريين الانجليز والاسرائيليين ، اذ لم يكن وقت المعركة يسمح بتوسط الفرنسيين بين الاثنين فى كل عملية حتى يظل الانجليز يزعمون انهم غير مشتركين مع اسرائيل !!

ومن اخطر اللحظات التى ترتبت على هذا الجو ، قصة غريبة يرويها المؤلف ...

فقد كان المفروض ان يبدأ انزال قوات فرنسا وانجلترا في بورسعيد يوم ٦ نوفمبر ، ولكن ازاء تفاقم الجو الدولى خطر لفرنسا واسرائيل لتقديم موعـــد الغزو الانجليزى الفرنسي من ٦ الى ٣ نوفمبر ، كسبا للوقت .. كمـــا اقترحوا أن يتم الغزو بانزال قوات برآشوت على طـــول القناة فى نفس الوقت ، لا فى بورسعيد وحدها ، ثم التقدم الى الداخل كما تقضى الخطة الاصلية : لان هذا اصـــبح تخطيطا بطيئا جدا ازاء سرعة الاحداث وتطورات المعركة

وسأل الانجليز : ولكن من الذى يمون هذه القوات ،التى ستنزل دفعة واحدة على طول القناة ؟

وكان الرد : اسرائيل .. من سيناء

وعرض الامر على القيادة البريطانية العليا فى لندن

كان معنى هذا انكشاف التآمر علنا وفى عز المعركة ...

وانقسم الانجليز ..

ولكن ضابطا معينا فى القيادة ، رأى ان هذا معنـــاه الذهاب بعيدا فى المغامرة ، والتورط فى عمل جديد سوف يجعل انكشاف التامر محققا .. هذا الضابط هو اللورد مونتباتن

انه ليس ضابطا عاديا .. انه قائد عام الاسطول ، وقريب الملكة ، وحاكم الهند السابق ، واكبر اســـم عسكرى فى القيادة البريطانية

ولم يضيع مونتباتن لحظة واحدة . فقد خـــرج من القيادة العامة رأسا الى القصر الملكى حيث طلب أن يقابل الملكة فورا

وفى لهجة دراماتيكية احاط الملكة بالامر : وقال لهـا ان انجلترا على وشك ان تكشف اوراقها فى اخطـر مقامرة أقدمت عليها ، وان نتيجة انكشاف المؤامرة مع اسرائيـل هى : انهيار كل مصالح انجلترا فى الشرق العربى بضربة واحدة

وازاء هذا التحذير ، اتصلت الملكة اليزابيث تليفونيـا بأنطونى ايدن وطلبت منه الحضور فورا الى القصر ..

وعندما وصل ايدن الى القصر ، قالت له الملكة : انهـا قـد أحيطت علمـا بكل ما يدور وخصـوصا بالخطـوة الجديدة التى توشك الحكومة أن تقدم عليهـا . ونظرا لخطورة هذه الخطوة الجديدة على مصالح الدولة ، فهى تطلب من انطونى ايدن أن يستشير مقدما زعيم المعارضة، هيو جيتسكيل !

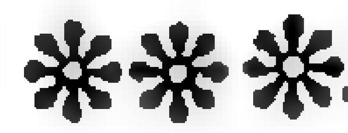
وأدرك ايدن أن هذا الكلام معناه مطالبته بالتراجع عن المغامرة الجديدة داخل المغامرة الجارية بالفعل ! ذلك أن جيتسكيل كان على رأس حزب العمـال يعارض العملية كلها علنا ويشن عليها حربا شعواء ...

هكذا طلب ايدن العـدول عن الفكـرة الفرنسـية الاسرائيلية ، والالتزام بالخطة القديمة : خطة الغزو يوم ٦ نوفمبر ، فى بور سعيد ، حتى لا ينكشف تآمر انجلترا مع اسرائيل !!

الى هذا الحد كان حرص انجلترا على أن يبقى تآمرها المسبق مع اسرائيـل سرا لا ينكشف ! الى هـذا الحـد كانت تعتقد أنه من السهل خداع العالم !

ان تقديم قصة الحرب ذاتها ليست مهمة بقدر أهمية قصـــة الترتيبات التى سبقت الحرب : فهذه المؤامرات والترتيبات هى التى تكشف أعماق المصالح الاستعمارية، وابعاد التآمر الســـياسى ، تكشف الكراهية الاستعمارية العميقة لظهور أى قوة مستقلة فى المنطقة العربية.

قصة عمرها مئات السنين ، ولكنها تتبدى فى حجمها الحقيقى من خلال قصة الشهور التى سبقت بدء العدوان المشترك على مصر ، بهدف واحـــد هو ضرب الثـــورة فى مصر ... وبأمل واحد هو أن يؤدى ضرب الثورة فى مصر الى انهيار كل الحركات الثورية التحررية فى كل أنحــاء العالم العربى ...



قال ميشيل بارزوهار ، المؤلف الاسرائيلى ، فى ختام الكتاب :

« لقد ولد الغزو ميتا ! أما الانتصار الحقيقى فقد كان انتصار عبد الناصر ، الذى خرج من المعـــركة وهو بطل العالم الثالث ، أى عالم اسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. ان كل عملية السويس ، التى ارادت أن تقضى عليه ، قد كللته فى النهاية بأكاليل الغار ! »

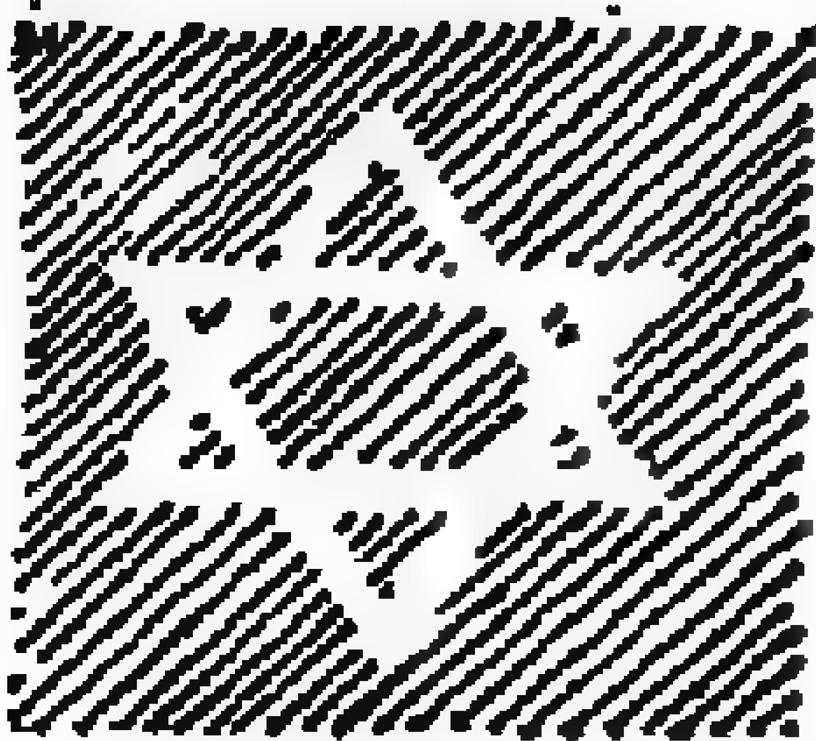
الفصل
الثامن

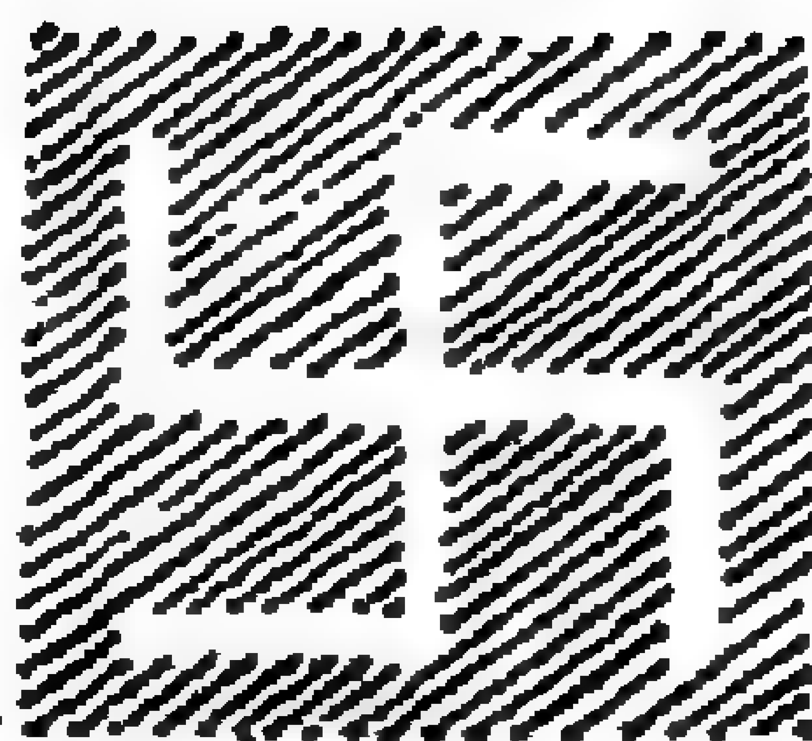
الصهيونية .. والنازية

إن أشد الذين يزعمون أنهم شعب مختار لهم اليهود

إن الحركة الصهيونية قد جمعت بين جنبيها أسوأ ما في الحضارة الغربية

أرنولد توينبي



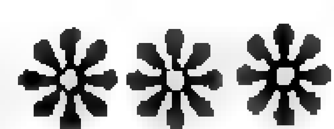


« أن أشهر الذين يزعمون أنهم شعب مختار هم اليهود . فالحركات الصهيونية النازية سواء فى ادعاء هذه الصفة العنصرية غير الصحيحة

« أن الحركة الصهيونية قد جمعت بين جنبيها أسوأ ما فى الحضارة الغربية: القومية العمياء، والاستعمار ! فان استيلاء الحركة الصهيونيــــة على بيـــــوت وأراضى وأملاك ٩٠٠ ألف عربى فى فلسطين ، هم الآن لاجئون ، ليس أرقى من الناحية الاخلاقية من أبشع الجرائم التى ارتكبت خلال الخمسة قرون الاخيرة بواســـطة الغزاة والمستعمرين . وهــذا هو حكمى الاخير على تاريخ الصهيونيـــة فى فلسطين ..

« ان اليهود من بين كل شعوب العالم ، لهم أطول تاريخ فى التعرض للاضطهاد . وقيام اليهود بتحميل طرف ثالث مسئولية الاضطهاد الذى لاقوه على يد الغرب يشكك المرء فى الطبيعة الانسانية كلها »

ارنولد توينبى



قبض البوليس فى نيويورك مرة على شاب يرسم شارة الصليب المعقوف واذا به طالب يهودى ! وقد كشف هذا عن رغبة الصـــهيونية فى ايهام العالم بأن بذور النازية مازالت باقية تهدد اليهود .. لكى تستفيد من ذلك !

ان كراهية اليهود ، فى العالم المسيحى قديمة . فى حين لم تكن هناك كراهية قديمة بين اليهود والمسلمين ، ولا بين اليهود والعرب

وسبب كراهية العالم المسيحى الغـــربى لليهود ..

يرجع الى الدين • فاليهود هم الذين قاوموا المسيح واضطهدوه وتآمروا عليه • وفى التاريخ المسيحى أن اليهود هم الذين قتلوه وصلبوه ! وهذه قصة يقرأها كل تلميذ مسيحى فى كل مكان من العالم ، خصوصا اذا كان كاثوليكيا وتستطيع ان تحس هذا بوضوح فى روما بلد البابا •• وعاصمة الكاثوليكية ! وتستطيع ان تحسه بوضوح أكثر اذا علمت بالجهود الجبارة التى تبذلها اسرائيل لكى تجعل الفاتيكان يعترف بها !

والمؤرخ اليهودى الفرنسى « جول ايزاك » يقول : انه من المألوف اذا طلب طفل يهودى فى المدرسة من طفل مسيحى ان يلعب معه « ان يرد عليه الطفل المسيحى قائلا : كلا • لانكم قتلتم المسيح !

وقد روى لى شاب ايطالى أنه كان يسكن وهو طفل مع أهله فى عمارة كبيرة فى روما •• وفى الدور الاول من العمارة كانت تسكن أسرة يهودية •• فكان أهله يقولون له : « اياك أن تعرف سكان الدور الاول اليهود أو تدخل شقتهم •• والا خطفوك وذبحوك كما فعلوا بالمسيح ! » وانه عاش سنوات يسرع فى صعود السلم عندما يعبر الدور الذى تسكنه الاسرة اليهودية !

وبصرف النظر عن الاسباب التاريخية أو الاجتماعية • فمن المؤكد ان اليهود ، على مر الزمن ، أصبحوا مجتمعا مغلقا على نفسه يقف موقف العزلة ، واحيانا العداء ، مع شعور بالتفوق ، ازاء سائر اجناس الارض وشعوبها ••

وهذه النزعة العنصرية ، تبلورت فى شكل سياسى عنصرى سافر بظهور الحركة الصهيونيه ••

ان الحركة الصهيونية لا تؤمن بأن الناس كلهم سواء•

وبأن كل انسان ينتمى الى الشعب الذى ولد فيه ويعيش فيه • انما تؤمن بأن هنـــاك صفات خاصة تجمع بين اليهود كعنصر واحد من دم واحد وعرق واحد وأصـــل واحد وان الرابطة بين اليهود أسمى من رابطة الوطن أو أى رابطة أخـــرى •• ولذلك فهى تدعو الى اقامة وطن قومى يكون ســكانه يهودا وشعبه يهودا وجنســيته اسرائيلية ! •• ومعنى هذا أيضا أن اليهودى فى المانيا او فرنسا أو امريكا يجب أن يشعر أن ولاءه الاول لدولة اسرائيل وليس لالمانيا أو فرنسا أو أمريكا !

ولا يجب أن ننسى ان الحركة الصهيونية ولدت فى أوروبا ولم تولد فى البلاد العربيـــة • انها وجدت فى أوروبا بالولادة •• ولكنها وجدت فى الوطن العربى بالغزو الخارجى والهجرة • والسبب هو أن كراهية اليهود لم تكن موجودة بين العرب ، فلم تنجح عندنا حركة صهيونيـة متعصبة ، كما نجحت فى أوروبا •• ولكنها جاءت بالهجرة والغزو مع اليهود الذين عاشوا فى أوروبا وتربت عندهم عقدة العداء والكراهيـــة والتعصب العنصرى هناك •• وبن جوريون وموشى ديان وكل أقطاب اسرائيل ليسوا من أبناء فلسطين ولكنهم مهاجرون من روسيا وبولندا والمانيا وغيرها ! انما ولدت كراهية الصهيونية عندنا من حضورها الى بلادنا واغتصابها فلسطين لاقامتها وطنـــا عنصريا على أشلاء شعب عربى ! ••

ومن الاشـــياء الطبيعية والمنطقية ان ظهور حركة عنصرية لابد ان يؤدى الى اصـطدامها بحركات عنصرية أخرى • فاذا كان هناك شعب يزعم أنه أرقى الشعوب وأنقاها •• فمن البديهى أن يصطدم مع أى شعب آخر يقول أنه أرقى الشعوب وأنقاها !

ومن هنا .. كان اصطدام الصهيونية بالحركة العنصرية الالمانية ، أى النازية أمرا طبيعيا بل وحتميا ! ..

أن النازية كانت تقوم على أســـاس ان الالمان عنصر ممتاز خلق لكى يسود ويقود سائر الشعوب والاجناس والالمانى بناء على هذه الفكرة يجب أن يكون من ســـلالة ألمانيـــة طاهرة لم تلوث بأى عنصر آخر . ولذلك كان على عضو فرق الشباب الهتلرى مثلا .. اذا أراد أن يتزوج أن يحصل على موافقة الحزب على زواجه . وكان الحزب يتحرى عن الزوجة ويتعقب أجدادها وسلالتها لكى يتأكد من انها سلالة المانية سليمة قبل ان يوافق على أن تتزوج أحد أعضاء فرق الشباب الهتلرى !

واليوم .. نرى أسرائيل تقرر أن الاسرائيلى يجب أن تكون أمه اسرائيلية .. وأم أمه اسرائيلية .. لكى يثبت أن دمه يهودى خالص !

نشرت جريدة النيويورك تايمز الامريكية ، المشهورة بعطفها القوى اسرائيل ، رسالة لمراسلها فى اسرائيل ، فى عدد ١٩ يناير ١٩٦٥ تقول :

« تحت المظهر اللامع لهذه الدولة » تختفى معتقـــدات شديدة التعصب

« وقد تجلت هذه الحقيقة اخيرا فى قضية السيدة «رينا عيتانى » التى تقطن فى الناصرية . فبعد ان عاشت هذه السيدة كل حياتها على أنها يهودية ، فوجئت بهم هنـــا يقولون لها انها ليست كذلك ..

« لقد كان ابوها يهوديا . وشبت فى المانيا كيهودية وقد اضطهدها النازيون لانها يهودية . واعتقلها الانجليز

فى قبرص لانها يهودية • وجاءت الى اسرائيل كيهودية ، فمن الذين تسللوا اليها بالهجرة غير الشرعية • وعاشت رينا فى احد المعسكرات اليهودية ، وساهمت فى بنـــــاء اسرائيل بيديها ..

« وتزوجت رينا يهوديا فى اسرائيل ، وعاشت تمارس الشعائر اليهودية • ولكن فجأة ، منذ بضعة اسابيع ، اعلنت وزارة الداخلية ـ بناء على بلاغ سرى قدم لها ـ ان هذه السيدة ليست يهودية ، لان الوزارة علمت ان امها لم تكن يهودية

« والقوانين اليهودية تعتبر السلالة من ناحية الام هى السلالة التى يعتمد بها فى نقاء الدم اليهودى • وهـــكذا وجدت رينا ان القانون يعتبرها « غير نظيفة » طبقـــا لنصوص العهد القديم ••

وقد فجرت هذه القضية مناقشة حادة اختلفت فيهـــا الآراء حول تعريف : من هو اليهودى

يقول المراسل « لا احد يسأل هذا السؤال اكثر من يهود اسرائيل نفسها .. ولا توجد بعد اجابة ترد على كل جوانب هذا السؤال بما فيها الاجابة العامة التى تقول : ان اليهودى هو الذى يقبل اعتراف اليهودى ويعيش طبقا له • فهم يعتقدون ان انواع التراث قد اختلطت بحيث اصبح التراث لا يكفى لهذه التفرقة

وتمتد مظاهر التعصب هذه الى ابسط الاشياء • فاذا كان هناك زوجان يهوديان يسكنان غرفة واحدة فى فندق فلا يستطيعا أن يطلب احدهما « ساندوتش» دجاج والآخر ساندويتش جبن فى نفس الوقت « لانه يجوز وضع اللحوم والألبان فى مطبخ واحد !

هذه هى الصهيونية •• وهذه هى النازية !

دعوتان تقومان على نفس الاساس •• ولذلك فهما تتصارعان وتتبادلان أبشع العداء !

والتاريخ يقول : ان الصهيونية ظهرت قبل ظهور النازية ! واذا كان النازيون قد ذبحوا اليهود وليس اليهود هم الذين ذبحوا النازيين •• فهذا لا يرجع الى أن الصهيونيين طيبون والنازيين رديئون •• ولكن يرجع الى ان النازيين الألمان كانوا أقوى وأكثر من اليهود • ولو تصورنا ان وضع القوة كان عكسيا لقام الصهيونيون بنفس المذابح ضد النازيين

هل هذا دفاع عن النازية ؟

كلا بالطبع • فالنازية صفحة سوداء فى تاريخ الفكر العالمى والحضارات العالمية • ولكن الصهيونية أيضا صفحة سوداء • وكل منهما تستند الى نفس المنطق والفلسفة العنصرية المقيته التى يجب محوها من الارض • وهذه نقطة هامة جدا ، علينا أن نوضحها لانفسنا وللعالم جيدا •• حتى لا تحاول اسرائيل الاستفادة من سخط العالم على النازية وعدائه لها ! وحتى لا تبدو أمام العالم كأنها نقيض النازية وعكسها •• والواقع أنها تقاتلها لانها شبيهتها ومنافستها !!

وليس معنى هذا أن النازية ظهرت نتيجة لظهور الصهيونية والتعصب اليهودى العنصرى • ولكن النازية عندما وجدت وظهرت •• كان طبيعيا أن تصطدم باليهود •• للاسباب التى سلف ذكرها ••

ولكن ظهور النازية يرجع الى أسباب كثيرة ، بعضها خاص بألمانيا نفسها ، وبعضها الاخر خاص بتطورات المجتمع العالمى بوجه عام ••

فالالمان ـ باستثناء روسيا التى ظلت أوروبا تعتبرها دولة أسيوية الى عهد قريب ـ وجدوا أنهم أكبر شعب فى القارة الاوروبية كلها ·· وهو شعب غنى نشيط منتج قوى ميال للانتظام ·· ومع ذلك فقد تأخرت نهضة ألمانيا السياسية زمنا طويلا ، بحكم تمزقها الى ولايات كثيرة ، وبحكم تحالف سائر دول اوروبا على منع وحدة المانيا خوفا منها . فبريطانيا والنمسا وفرنسا وروسيا تحالفت طويلا لمنع وحدة الدويلات الالمانية فى دولة واحدة · وكل هذا من شأنه أن يخلق حركة قومية متعصبة كرد فعل ، وقد حققت ألمانيا وحدتها فعلا بالحرب على يد « بسمارك » · حاربت امبراطورية النمسا ثم امبراطورية فرنسا قبل أن تحقق وحدتها كشعب ، فظلت هذه الروح كامنة فى نفوس كل هذه الاطراف زمنا طويلا

يضاف الى ذلك أن الثورة الصناعية عندما اكتملت فى ألمانيا وأصبحت قوة هائلة ·· وجدت أن بلادا أخرى قد سبقتها فى مجال التطور الطبيعى للرأسمالية فى ذلك العصر ، وهو الاستعمار .. فبينما كانت بريطانيا وفرنسا وروسيا وهولندا وبلجيكا تمرح فى مستعمرات شاسعة ، كانت ألمانيا محرومة الا من القليل ، فلهذا تفاقم العداء بينها وبين هذه الدول وانفجر هذا العداء فى الحرب العالمية الاولى

والاذلال الذى أنزله الحلفاء بألمانيا بعد الحرب الاولى ، هو الذى أعطى شهادة الميلاد لحركة عنصرية أقوى وأعتى ، اذ ظهر هتلر على مسرح السياسة الالمانية برسالة أساسية هى استعادة الاراضى المفقودة من ألمانيا ·· ثم ما تلى ذلك من نشر دعوة التفوق الالمانى ونقاء

العنصر الالمانى والدكتاتورية السوداء التى ذبحت من الالمان أنفسهم مثلما ذبحت من سائر بلاد أوروبا !

لقد قال المؤرخون عن « بسمارك » الذى حقق وحدة ألمانيا : انه جعل ألمانيا كبيرة .. والالمان صغارا !

وبنفس المنطق يمكن أن تقول عن هتلر والنازية : انه جعل ألمانيا مخيفة .. ولكنه جعل الالمان خائفين !!

وقد اندثر هتلر ..

فما الذى بعث النازية اليوم ؟ ..

كنت فى فرانكفورت يوما فلاحظت أن المكتبات وأكشاك الصحف مليئة بالكتب التى تهاجم النازية والهتلرية وتصور فظائعها وجرائمها ! لا توجد واجهة مكتبة أو كشك صحف تخلو واجهته من كتاب عليه رسم جماجم وخرائب ونيران وفوقها عنوان عن النازية أو الهتلرية !

ومع ذلك فالمراقبون الاجانب يقولون ان النازية تبعث فى ألمانيا الغربية اليوم ..

ان ألمانيا الغربية تنتشر فيها جمعيات ومنظمات للشباب وللطلبة .. منظمات تظهر عليها بوادر النازية .. فأعضاؤها يلبسون الاحذية الطويلة وقمصانا عسكرية وأحيانا خناجر كخناجر الكشافة ! والالمانى يقبل بطبيعته على من ينظمه فى طوابير واستعراضات وفرق ترفع الريات وتلبس الخوذات وبعض هذه الجمعيات تنظم مواكب بالمشاعل على الطريقة النازية ! وفى حانات البيرة ظهر من يسكر فيصيح : عاش هتلر ! ولو حكم عليه بالحبس سنة ! ..

وبعض هذه المنظمات يحمل أسماء قادة الحرب الاخيرة من الجانب الالمانى مثل « جودريان » و « دونيتز » ..

ومنذ بضعة شهور فوجىء الناس برجال وشباب يملأون بعض الحانات يغنون ويشربون ويتبادلون التحية •• ثم ظهر أن اليوم هو ٢٠ ابريل •• عيد ميلاد هتلر !! ••

وبعض زعماء هذه المنظمات بدأوا يصبحون فى مصاف الزعماء البارزين الذين لهم أتباع وعابدون ! كل واحد يرشح نفسه لان يكون هتلر آخر •• ولان يكون نجما عالميا خلال سنوات قليلة •• مثل : جنتر هيسلر •• والفريد زيتزمان •• وبيتر برناو وكل منهم كان من أعضاء فرق العاصفة الهتلرية القديمة ! ••

وفى نفس الوقت تقول التقارير الالمانية أن بين كل عشرة مدرسين يوجد ثلاثة على الاقل يؤمنون بالنازيةلانهم من تلاميذها القدامى •• ودروسهم للصبيان والشبان مشحونة بالدعاية الظاهرة والخفية للنازية وهتلر ••

فكيف يعتنق عدد كبير من شباب ألمانيا مثل هذه الفكرة النازية العنصرية المتعفنة ، رغم الدعاية المركزة ضدها ؟

ربما بسبب هذه الدعاية المركزة ذاتها ! ••

فبعد الحرب الاخيرة ، وقف كل الحلفاء من الشعب الالمانى موقف الاساتذة الذين يريدون تأديب الشعب الالمانى وتهذيبه • وكان هناك اتجاهان : اتجاه يحاول تصوير المأساة كلها لالمانيا على أنها جريمة حزب معين وزعيم معين هو الذى جر شعب ألمانيا الى هذا الموقف •• واتجاه آخر يحاول أن يجعل الجريمة جريمة الشعب الالمانى كله

ولا يوجد شعب على وجه الارض يمكن أن يقبل فكرة دمغه ــ كشعب ــ بالاجرام ، ولو فترة قصيرة جدا من حياته ! •• وهذا الاسلوب لا يؤدى الا الى الاستفزاز ،

واستثارة كوامن الكبرياء خصوصا فى شعب متقـــدم ممتاز فخور كالشعب الالمانى .. لا يمكن أن يقبل طويلا أن يقف بين الاخرين موقف المذنب الخاطىء الذى يجب أن يؤكد توبته كل يوم !

وفى هذه الاسابيع بالذات ، تجد أن صحافة بريطانيا عادت تتجه هذا الاتجاه ، أى اتجاه ادانة الشعب الالمانى كله ، لان بريطانيا مختلفة مع ألمانيا اختلافا شديدا فى الاتجاه السياسى والاتجاه الاقتصادى فى أوروبا .. فسياسة ألمانيا تحول دون الغاء خطر الحرب بالتفاهم مع روسيا فى أوروبا ، وألمانيا هى حجر الاساس فى السوق الاوروبية المشتركة التى تهدد بطرد الاقتصاد الانجليزى من القارة الاوروبية !

وقد أشارت الصحف الانجليزية من جديد الى قصة معهد الوثائق الامريكى الذى يشغل بيتا فى ضواحى برلين ان هذا القصر فيه كل أوراق وأرشيف الحزب النازى ، وقد سقطت فى يد الجيش الامريكى قبل أن تحرق .. وهذه الوثائق تضم أسماء عشرة الملايين ألمانى وألمانية الذين كانوا أعضاء فى الحزب النازى . وتضـم كل أوراق المحاكمات الجائرة التى أعدم فيها ٦٤ ألف مواطن خلال حكم هتلر ! وهذه الوثائق توضع عليها حراسة مسلحة قوية ، ولا يسمح لاى مخلوق بالاطلاع عليها الا باذن من حكومة أمريكا أو من حكومة ألمانيا !

ان الصحف الانجليزية تطالب بنبش هذه الوثائق .. وبكشف كل رجل أو امرأة أو شاب او فتاة كان عضوا فى حزب هتلر .. وكل قاض حكم فى قضية من قضايا هتلر السياسية .. الى آخره ! ومعنى هذا ادانة الشعب الالمانى كله ! لان الشعب كله كان خاضعا بطريقـة أو

بأخرى لحكم هتلر ، وكان مضطرا أن يعيش فى موكبه شيبا وشبانا وجنودا وضباطا وقضاة ومحامين !

ثم ان الشعب الالمانى يرى أن هؤلاء الحلفاء الذين يهاجمونه ويدمغونه بالجريمة ، ليسوا ملائكة ، ان أيديهم جميعا ملوثة بدماء شعوب المستعمرات ! انهم يحمون الحرب الاستعمارية فى الجزائر والتفرقة العنصرية فى أفريقيا ! ثم انه اذا كان الالمان قد دمروا وقتلوا فى البلاد التى احتلوها ، فان الحلفاء قد دمروا ألمانيا تدميرا وشردوا أهلها تشريدا . وهذا كاف لكى ينتهى الحساب ! والقاء كل المسئولية فى الحرب على ألمانيا فيه تجاهل للحقيقة الانسانية وهى أن الحرب كانت حربا استعمارية الى حد ما من الطرفين .. حرب نظامين رأسماليين يتنافسان على سيادة العالم ! فما كان يخطر ببال انجلترا وفرنسا ، أن تنتهى الحرب بتشديد قبضتهما على المستعمرات واحتكارهما للاسواق

ولا شك فى أنه يضاف الى هذه الاسباب النفسية سبب آخر أساسى .. هو أن تقسيم ألمانيا يشعر الشعب الالمانى بهوان عميق ! فبرغم كل النجاح الذى احرزته ألمانيا بعد الحرب من جديد ، فأن استمرار تقسيمها وتوزيعها وتبعيتها يجعل الالمانى يشعر انه ما زال يعيش فى مستوى أقل من أى مواطن من أى وطن آخر !

وهو نفس الموقف الالمانى فى الفترة التى ظهر فيها هتلر ! لان هذه الظروف كلها تؤدى الى رد فعل حتمى فى صورة نزعات قومية متطرفة تقوم على العدوان ومقابلة الاحتقار بالاحتقار والاستعلاء بالاستعلاء !

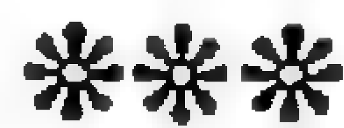
كل هذه الاسباب .. النفسية والسياسية .. توجد تربة خصبة لكى تزدهر فيها بعض بذور النازية فى نفوس

الشباب الالمانى ! ان شباب أى شعب يحب مجد بلاده ويأبى اذلالها ! واذا اتجه حب المجد وجهة خاطئـــة .. كانت الكارثة !

والحل العميق لهذه المشاكل ليس فى تطهير المدارس من المدرسين ولا فى اعتقال هؤلاء الشبان

وانما الحل هو الحل السياسى الكبير ، هو انهـــاء وضع ألمانيا الشاذ والعمل على توحيدها ، ونشر منطق من السلام على أوروبا .. يجعل أى نزعة عدوانية غير ذات موضوع .. !

وانه لمن المهم ـ استكمالا للصورة ـ ان نذكر ان هذه النزعات النازية ، اليمينية ، قد تكون اشتدت فى ألمانيا نتيجة أيضا لظهورها فى بلد مجاور ملاصق ، هو فرنسا ! فالعصابات السرية الارهابية فى فرنسا .. والجمعيات الفرنسية التى تتعقب الجزائريين وتقتلهم فى ألمانيـــا نفسها .. وخطر استيلاء فرق الباراشوت على الحكم .. وظهور نعرة عظمة فرنسا وقيادتها لاوروبا ورســـالتها الخالدة .. كل هذه أشياء حركت ولا شك عوامل المنافسة التقليدية بين البلدين . وان كان القادة الرسميون مثل ديجول وأديناور على وفاق ! ..



ونعود الى اليهودية والصهيونية !

ان اليهودية فى ألمانيا بالذات لم تعد مشكلة !

ففى أيام هتلر كان اليهود فى ألمانيا يحسبون بالملايين .. أما اليوم فان عدد اليهود فى ألمانيا الغربية هو ٤٣ ألفا فقط فى شعب تعداده أكثر من خمسين مليونا !

وعلى العكس .. فقد زاد عدد اليهود زيادة كبيرة فى

أماكن أخرى ‥ ففى الولايات المتحدة خمسة ملايين وفى الاتحاد السوفييتى ثلاثة ملايين وفى بريطانيا نصف مليون وفى فرنسا ٣٣٠ ألفا وفى رومانيا ١٨٠ ألفا وفى المجر ٨٠ ألفا وفى استراليا ٤٣ ألفا !

فعدد اليهود فى ألمانيا الغربية اليوم أقل عددا وأقل نسبة الى عدد السكان ! ومركز الثقل اليهودى لم يعد فى ألمانيا ‥

ولكن الصهيونية العالمية ‥ اقتنصت هذه البادرة الصغيرة فى ألمانيا ‥ بادرة ظهور بعض منظمات نازية الطابع ‥ لكى تعيد استثمار القصة القديمة . فانطلقت القوى الصهيونية فى البلاد الاخرى تثير الخواطر ، وتزيف العلاقات كمحاولات لاستعادة عطف الرأى العام العالمى ‥ وهذا يفيدها فى خلق نوع من الالتفاف العاطفى والمعنوى حول اسرائيل من جهة ورفع سيل التبرعات والمساعدات لها من جهة أخرى

وليس أعجب ، فى هذا المجال ، من قصة ايخمان مع اسرائيل ‥

وقد أذاع القصة مستشار بن جوريون الخاص لشئون العلاقات العامة .. « موشى بيرلمان » الذى نشرها كاملة فى كتاب أصدره بعنوان « خطف ايخمان »

تقول القصة : ان يوم ٢١ مارس هو أول أيام الربيع. ولكنه كان يوما مشئوما بالنسبة لايخمان . ففى يوم ٢١ مارس سنة ١٩٣٥ تزوج ايخمان ‥ ويوم ٢١ مارس سنة ١٩٦٠ ، كان اليوم الحاسم فى مصيره ، اليوم الذى تقرر فيه اختطافه نهائيا !

لقد كان ايخمان ــ بعد فراره من أوروبا ــ يعيش فى ضاحية « سان فرناندو » القريبة من مدينة بوينس

ايريس عاصمة الارجنتين . كان يسكن هو وزوجته وأولاده الثلاثة فيلا متواضعة منعزلة . وكان يعمل في مصانع مرسيدس بنز فى الطرف الاخر للمدينة .. فكان عليه أن يسير كل يوم حوالى ٣٠٠ متر الى محطة الاوتوبيس الواقعة على الطريق الزراعى المهجور ، ليركب الاوتوبيس الذى يوصله الى محل عمله

ولم يكن أحد يعرف أن هذا هو ايخمان. كان المعروف فقط ان السيدة ربة البيت هى « أرملة ايخمان » . وأن أيخمان نفسه مات . أما الرجل الذى يعيش معها فهو زوجها الثانى ويدعى « ريتشارد كليمنت » . هذه هى القصة التي كان الناس يعرفونها . والتى عاشت هذه الاسرة بها ثمانى سنوات كاملة ، من سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٦٠ ، دون أن يقلقها أحد !

ولكن فى تلك الشهور الاولى من سنة ١٩٦٠ ، كان هناك من يراقب ايخمان ، دون أن يشعر ...

لقد استأجرت مخابرات اسرائيل بيتا يقع على بعد ٢٠٠ متر تقريبا من بيت ايخمان . لا تفصله عنه الا الحقول . وخلف نافذة مفتوحة لا تنسدل عليها الا الستائر المعدنية ، كان يوجد « تليسكوب » قوى جدا، يستطيع أن يرى كل شيء فى بيت ايخمان .. ويستطيع الناظر فيه أن يسجل كل حركة يقوم بها ايخمان من لحظة أن يستيقظ من النوم صباحا الى أن يركب الاوتوبيس الذى يحمله الى المصنع صباحا .. ومن لحظة نزوله من الاوتوبيس عصرا ، الى ان يأوى الى فراشه ! ..

كان الذى يجلس وراء هذا التليسكوب يدعى «جاد»، وهو ليس اسمه الحقيقى طبعا ، ولكنه اسمه المستعار .

فاذا انطلق الاوتوبيس حاملا « ايخمان » الى المصنع . ترك « جاد » التليسكوب . ليدق التليفون لرجل آخر من مخابرات اسرائيل اسمه « دوف » ليقول له كلمة واحدة هى « كاراجيل » وهى كلمة عبرية معناها « كالعادة ! » اما « دوف » هذا الذى يتلقى هذا التليفون فهو يقيم فى شقة أخرى استأجرتها مخابرات اسرائيل أمام المصنع الذى يعمل فيه ايخمان، ومعنى ذلك أن يبدأ فى مراقبته من لحظة نزوله من الاوتوبيس امام المصنع الى أن يدخل فيه .. ثم فى أثناء خروجه منه آخر النهار !

ولم يكن دوف يراقبه من تليسكوب .. انما كان يأخذ فى يده حقيبة أوراق عادية وينزل الى الشارع ، ويقف على محطة الاوتوبيس التى سينزل عندها ايخمان . وعندما ينزل ايخمان يحاول دوف أن يتبعه دون أن يثير شكوكه . ان فى حقيبة اليد التى يحملها دوف توجد كاميرا حساسة جدا. عدسة الكاميرا هى زرار الحقيبة. وبينما دوف يسير فى براءة ، يضغط دوف بأصبعه على زرارين فى يد الحقيبة ، فتلتقط صورا متوالية لايخمان من جميع الزوايا !

ولكن .. لماذا كانوا يحاولون التقاط صوره كل يوم .. ويرسلون هذه الصور الى تل أبيب ؟

السبب هو انهم لم يكونوا متأكدين مائة فى المائة ان هذا الرجل هو ايخمان بالفعل !

فمنذ سنة ١٩٥٢ ، عندما اختفت زوجته وأولاده من النمسا فجأة، انقطع خيط المطاردة الاسرائيلية لايخمان. كانوا لا يصدقون أن الرجل قد مات . ولكنهم لا يعثرون له على أثر ..

ويقول المؤلف : ان أهم عناصر المطاردة فى هذه المسائل هم افراد الجاليات اليهـودية فى شتى بلاد العالم .. ومعنى ذلك أن كثيرا من افراد الجاليات اليهودية فى كل بلاد العالم يتجسسون مباشرة لحساب اسرائيل ، ولو على البلاد التى ينتمون اليها . وفى سنة ١٩٥٩ كان هناك تاجر يهودى استطاع ان يدخل المجتمع الارجنتينى دون ان يعرف احد انه يهودى . وعلى هذا الاساس اختلط بمجتمع الالمان الذين يعيشون فى بوينس ايريس . وعلى اساس هذه الثقة سمع يوما أن أرملة ايخمان تعيش فى أطراف المدينة مع زوج جديد اسمه ريتشارد كليمنت . وارسل اليهودى الارجنتينى المتنكر برقية سريعة بذلك الى مخابرات تل أبيب .. فبدأت المطاردة من جـديد لمعرفة هل هذا الزوج حقا اسمه كليمنت ، أم أنه ايخمان نفسه ؟ ..

ان ايخمان برغم خطورة مركزه أيام هتلر ، فان صوره قليلة . الذين يعرفونه شخصيا قليلون جداً . فقد كان حريصا دائما على ان يبقى فى الظل . ومن هنا كانوا يلتقطون له سرا ، عشرات الصور من كل الزوايا ويرسلونها الى تل ابيب ، حيث يجرى عرضها على كل من عرفه أو رآه أو لديه صور له

وقد كان المرجح انه هو ايخمان .. ولكن الدليـل القاطع لم يكن متوافرا

ومضت مراقبة ايخمان فى دقائق حياته يوما بعد يوم واسبوعا بعد اسبوع ، لتسـجيل كل حركة له . كان منتظما فى حياته جدا . لاشىء يتغير أبدا . وفى يوم من الايام .. حدث تغير بسيط .. لقد اشترى ايخمـان عند عودته من المصنع باقة فاخرة من الورد ، حملهـا

معه .. وعندما وصل الى البيت فتحت له زوجته .. واعطاها باقة الورد فى اعزاز كبير !

واخذ الذين يراقبـونه يفكرون فى السبب . ما هى المناسبة التى تجعله يشترى هذا الورد اليوم ؟. واخذوا يراجعون ما لديهم من أوراق تضم كل المعلومات عن حياة ايخمان .. واكتشفوا السر !

ان اليوم هو يوم ٢١ مارس سنة ١٩٦٠ ! ..

وقد تزوج ايخمان من زوجته يوم ٢١ مارس سـنة ١٩٣٥ !

اذن فلابد أن هذا الرجل هو ايخمان نفسـه . من المستحيل - اذا كان زوجا ثانيا لارملة ايخمان أن يحضر لها باقة ورد فى ذكرى زواجها الاول ! ومن المستحيل أن يكون شراء الورد يوم ٢١ مارس بالذات ، بعد ٢٥ سـنة على الزواج ، مجرد مصادفة

لقد ارسلوا تلك الليلة برقية الى تل أبيب نصـها : « الرجل هو الرجل » وعلى الفور بدأ التفكـير فى الخطوات التالية ..

كيف يمكن - أولا - أن يتم خطفه ؟ وأين - ثانيا - يوضع ايخمان فى بوينس ايريس حتى يتم اخراجه من البلاد ؟

وكيف يمكن - ثالثا - تهريبه من الارجنتـين الى اسرائيل ؟ ..

وكان لابد من حل المشكلتين الثانية والثالثة قبـل تنفيذ عملية الخطف ! ..

أما عن المكان الذى يمكن أن يسجن فيه ايخمان بعد خطفه ولو لبضعة ايام .. فكان هناك اقتراحان : الاول

هو وضعه فى فيلا من الفيلات المنعزلة التى يملكها أحد يهود الارجنتين وهم كثيرون وأغنياء . والاقتراح الثانى هو استئجار فيلا تكون ملائمة لهذا الفرض ، حتى لا يورطوا أحدا من أفراد الجالية اليهودية فى مغامرات قد تنكشف ..

ويقول المؤلف انهم اختاروا الحل الثانى واستأجروا بالفعل بيتا معزولا أعدوه لهذا الفرض . وقد لا يكون كلام المؤلف صحيحا . ولعلهم ، وهذا مرجح بسبب السرعة وضيق الوقت ، استخدموا بالفعل بيت أحد يهود الارجنتين ولكن المؤلف، وهو مستشار بن جوريون للشئون العامة ، يريد أن يبعد عن جاليات اليهود فى شتى البلاد شبهة قيامهم بأعمال غير مشروعة لحساب دولة أجنبية .. هى اسرائيل !

أما عن وسيلة نقله الى الخارج فهى اما البر أوالبحر أو الجو ..

ان نقله بالبر سهل جدا .. ولكن الى دول أخرى فى أمريكا اللاتينية وهذا لا يقترب به من اسرائيل ...

ان أنسب طريقة هى البحر . بشرط أن تكون الباخرة اسرائيلية . لان قبطان أى باخرة من جنسية أخرى لو ارتاب فى الامر فسوف يطلق سراح ايخمان وينزله فى أول ميناء تمر به السفينة . كذلك يجب أن تكون الباخرة الاسرائيلية باخرة بضاعة لا باخرة ركاب . لان باخرة الركاب سيكون فيها ناس كثيرون من جميع الجنسيات وقد يكتشفون الامر ويثورون

ولا شك أن الباخرة أسلم من الطائرة . لان الطائرة لا يمكن أن تطير رأسا الى مطار اللد فى اسرائيل . بل انها ستتوقف فى عدة مطارات . وأحيانا تجرى عمليات

تفتيش الطائرات .. ولكن ميزة الطائرة انها تصـــل بايخمان بعد ٢٤ ساعة فقط . أما الباخرة فانهـــا تستغرق أسابيع . وقد يذيع نبأ اختفائه وتحدث ضجة قبل ان يصبح ايخمان فى اسرائيل فعلا . ثم ان حراسته خلال هذه الاسابيع فى الباخرة صعبة جدا . فمن الممكن أن يقذف بنفسه الى البحر فى أى لحظة !

وتقرر استخدام الطائرة، رغم كل ما فيها من مخاطر. ولا يمكن طبعا ان تكون طائرة ركاب عادية . لابد أن تكون طائرة خاصة

وتم اعداد كل شيء . تم استئجار طائرة لايكشف المؤلف عن شركة الطيران التى قدمتها لهم .. وتم استئجار بيت واعداد غرفة فيه كزنزانة ليس فيها اى أثاث . وتم رسم خط الطيران . فالطائرة ستطير رأسا الى مطار فى غرب أفريقيا ، لا يكشف المؤلف عن اسمه ومن غـــرب أفريقيا الى اسرائيل . وبقاء ايخمان فى البيت بعد خطفه لا يجب أن يزيد على ثلاثة أيام . لن تذهب زوجتـــه خلالها الى البوليس والا فمعنى ذلك أنها تعتـــرف بأن زوجها هو ايخمان . وهى لن تفعل هذا الا بعد زمن .. أى بعد أن تيأس !

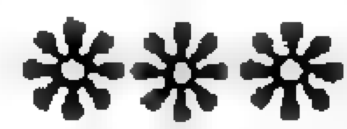
وقصة الخطف نفسها عادية . وقفوا له بســـيارة بالقرب من محطة الاوتوبيس التى ينزل فيها . وتظاهروا بأن فى السيارة عطل حتى لا يثيروا شبهات العابرين . واختاروا ساعة عودته الى البيت لانها ساعة ما بعـــد الغروب والنور باهت والطريق لا يمر به أحد . وعندما اقترب منهم ايخمان هجموا عليه مرة واحدة ، وقفزوا به الى حفرة على جانب الطريق الزراعى حيث أتمـــوا ضربه وربط يديه دون أن يكونوا عرضة لان تراهم سيارة

عابرة ، ثم صعدوا به الى السيارة .. التى انطلقت بسرعة .. و « اذا تحركت حركة واحدة فسوف تضرب بالرصاص ! » .. وكانوا قد عصبوا عينيه حتى لا يعرف مقر السجن الذاهب اليه ..

وعندما دخلوا به الى البيت .. واغلقوا الابواب .. أضاءوا الانوار القوية ورفعوا العصابة عن عينيه • وسأله واحد منهم : من أنت ؟ ..

وكان قد أدرك كل شيء • فقال : أنا أدولف ايخمان

وجعلوه يخلع ملابسه كلها .. ويقف تحت الضوء عاريا تماما .. وفتشوه وفتشوا ثيابه تفتيشا دقيقا .. خشية أن يكون معه أى شيء يمكن أن ينتحر به !



وهنا يروى المؤلف قصة مضحكة ساذجة. انه يحاول ايهام العالم أن ايخمان ذهب الى اسرائيل طائعا مختارا .. فهذا ما قالته حكومة اسرائيل فى تبرير عملها الذى هزأ بكل قانون دولى أو قانون خاص • فالمؤلف يقول انهم قالوا له انهم سيأخذونه الى اسرائيل حيث تجرى له محاكمة عادلة فهل لديك اعتراض ، فقال : لا

ثم يقول المؤلف ان ايخمان رحب بالمحاكمة لكى يتخلص من العبء الذى يثقل ضميره !

ومن المضحك طبعا أن نتصور أن أيخمان كان مختارا! وان اسرائيل بعد جهود وترتيبات ومغامرات ونفقات سنة كاملة ، كانت مستعدة أن تتركه لو قال انه يرفض المحاكمة !

وبالمثل ــ يحاول المؤلف أن يوهمنا أن الوثيقة التى كتبها ايخمان تبرر ــ قانونا ــ عملية الخطف... وثيقة

قال فيها « أنا الموقع أدناه ، أدولف أيخمان أعلن بملء حريتى (!) حيث أن شخصيتى الحقيقية قد عرفت . فلا أجد داعيا لمواصلة تجنب العدالة ، وأعلن رغبتى فى الذهاب الى اسرائيل لاواجه المحاكمة ! واننى أكتب هذه الوثيقة بملء حريتى ، دون تهديد أو ترغيب ، لاننى أريد ان أحصل أخيرا على سلام النفس ! »

وتحت ذلك توقيع ايخمان وتاريخ « بوينس ايرس فى مايو ١٩٦٠ »

وغرض اسرائيل من ذلك واضح ..

ان محاكمة أيخمان فى اساسها غير شرعية لان اسلوب خطفه غير شرعى . ولان القانون الذى يحاكمونه به غير شرعى . انه عمل انتقامى سافر متجرد من كل تبرير شرعى . وقد حاولوا تغطية ذلك بارغام أيخمان طبعا على كتابة هذا الاقرار . ومن المؤكد أنه كتبه فى سجون تل أبيب .. ولكنهم أرخوه بتاريخ وجوده فى الارجنتين ليقولوا انه سافر الى اسرائيل بارادته وليس خطفا

ولكن .. اذا كان الامر كذلك ففيم اذن كان كل هذا لمحاولة نقله سرا ؟ ..

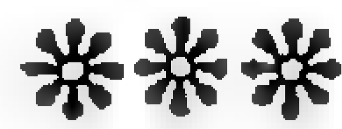
وجاء يوم نقله ..

أعطوه فى الليل قهوة فيها مخدر قوى فنام على الفور ثم خلعوا ملابسه وألبسوه بيجاما وروب دى شامبر وعلى الباب كانت تنتظره سيارة فارهة .. فقد قالوا انه رجل غنى مريض جدا ومسافر الى الخارج ليعرض نفسه على طبيب عالمى . وهذا يفسر انه فاقد الوعى . وانه فى ملابس النوم . وانه يستأجر طائرة خاصة ! فى المطار اجتازوا به الجمرك بأوراق مزيفة . ونقلوه فى « نقالة » الى الطائرة وهو مخدر تماما وغائب عن الوعى

.. ومعه اثنان من مخابرات اسرائيل فى ثياب المرضين!
... ومعهم كميات من القهوة المزودة بالمخدر ، يسقونه منها كلما لاح انه على وشك أن يفيق ! ..

وقال بن جوريون فى البرلمان الاسرائيلى أن ايخمان جاء بملء ارادته

شىء هام يلوح فى كل سطور القصة .. ولا يمكن تصورها بغيره هو : العدد الهائل من العملاء الذين يساعدون مخابرات اسرائيل ويعملون لها .. كلهم يهود مواطنون فى بلاد أخرى .. يظهرون الولاء للبلاد التى تطعمهم وتؤويهم .. ولا يبطنون الا الولاء لاسرائيل !



وقد أشار محامى ايخمان الى ان المتهم لديه قصة غريبة قديمة تعرف فى الدوائر السرية باسم قصة اللوريات !

وخلاصة قصة « اللوريات » كما ذكرت الصحف هى : أن ايخمان خلال الحرب عرض على الوسطاء الصهيونيين أن يسلمهم مليون يهودى من معسكرات الاعتقال فى مقابل أن يسلموا ألمانيا عشرة الاف سيارة لورى عسكرية تساعد الجيش الالمانى فى حربه ضد الاتحاد السوفييتى ! وان الوسطاء الصهيونيين رفضوا هذه الصفقة !

والمفهوم أن ايخمان سوف يروى هذه القصة لكى يوضح أنه لم يكن متعصبا لاعدام اليهود .. وانما كان ينفذ الاوامر فقط .. بدليل أنه اقترح مثل هذا الاقتراح !

وقد رجعت الى أحد الكتب التى أحتفظ بها عن اسرائيل .. ذكرت اننى سبق أن قرات فيه هذه القصة الغريبة ..

الكتاب اسمه « الطرق السرية Secret Roads » وهو من تأليف الكاتبين الصهيونيين الانجليـــزيين جون كيمش ودافيد كيمش ..

والكتاب يروى التاريخ السرى للهجرة اليهودية من أوربا الى فلسطين خلال الفترة بين ١٩٣٨ و ١٩٤٨ .

وهو مطبوع سنة ١٩٥٤ .. أى قبل أن يتوهم أحد أنه من الممكن القبض على ايخمان أو العثور عليه .. بل كان الراى السائد أن ايخمان قد قتل ..

وليست قصة اللوريات هى السر الوحيـــد الغريب الذى يرويه الكتاب .. بل انه يلقى الضوء على علاقات كثيرة بين ألمانيا النازية وبين قيام دولة اسرائيل !

والقصة التى يرويها الكتاب لقضـــية اللوريات تتلخص فى أن المانيا كانت تحـــارب فى جبهتين فى وقت واحد .. ضد السوفييت شرقا وضد الحلفاء غربا .. وفى خلال ذلك كانت هناك علاقات قوية بين الجستابو الالمانى وفرق العاصفة النازية من جهـــة وبين بعض ممثلى الحركة الصهيونية من جهة أخرى ..

وكان ايخمان هوضابط فرق العاصفة المختص بشئون اليهود ، وقد اتخذ مقرا له فى قصر روتشيلد فى فينا . واستدعى أيخمان يوما ممثل الحركة الصهيونية السرية

وطلب منه أن يسافر الى استانبول ليقدم هذا العرض: أن يحرر لهم مليون يهودى مجرى من نزلاء معسكرات الاعتقال ويسلمهم اليهم ليبعثوا بهم الى فلســـطين فى مقابل أن يقوموا بتسليم المانيا الاتى : ٢٠٠ طن من الشاى ــ ٨٠٠ طن من البن ــ مليونا علبة صابون ــ عشرة آلاف سيارة لورى

وطار المبعوث الى استانبول ، ثم طار الى سويسرا

ليتصل بزعماء الصهيونية هناك . وكان لابد من حمل هذا العرض الى الانجليز ، فوصل المبعوثون الصهيونيون الى القاهرة ، وعرضوا القصة على اللورد موين ، وزير الدولة البريطاني المقيم فى القاهرة خلال الحرب . ولكن لورد موين رفض الدخول فى أية مباحثات مع الالمان ..

وعلى الفور ذهب الدكتور حاييم وايزمان ، الذى أصبح أول رئيس لدولة اسرائيل ، الى لندن وقابل تشرشل وعرض عليه الفكرة . ولكن تشرشل رفض . وقال تشرشل أن الاتحاد السوفييتي يشك فى أن الدول الغربية تحاول عقد صلح منفرد مع ألمانيا ليتفرغ هتلر لمحاربة الاتحاد السوفييتي ، ولذلك فان أية مفاوضات أو تسليم مهمات الى المانيا سوف يؤكد شكوك الاتحاد السوفييتي فى حلفائه الغربيين ..

على أن هذه القصة ليست أهم ولا أغرب ما فى الكتاب ..

ان فى الكتاب صفحات كثيرة تروى قصة التفاهم التام بين النازية الالمانية وبين الحركة الصهيونية على تسهيل هجرة اليهود الى فلسطين .. وتأييد فكرة قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين !

ومن سخرية القدر أن ايخمان نفسه كان فى بعض المراحل من أبطال حركة هجرة اليهود الى فلسطين !

واترك الكتاب لمؤلفيه الصهيونيين يرويان القصة :

فى سنة ١٩٣٨ ، قبيل الحرب العالمية .. كان الكابتن كارل أدولف ايخمان يجلس الى مكتب فى مبنى يحمل لافتة تقول : « المكتب المركزى للهجرة اليهودية » . . وكان يستقبل بانتظام شابا صهيونيا اسمه « بارجيلاد »

ان بار جيلاد صهيونى قادم من فلسطين . انه يرأس

٤٠٠ صهيونى يسكنون مستعمرة يهودية اسمها « كفار جيلادى » ، بالقرب من الحدود بين سوريا وفلسطين

كان الاثنان يدرسان فكرة هامة ..

الفكرة هى اقامة « معسكرات تدريب » فى المانيا ، يتدرب فيها الشبان اليهود لفترة مؤقتة ، تمهيدا لهجرتهم الى فلسطين . ولما كانت الهجرة الى فلسطين ممنوعة ، فسيكون على الحكومة النازية لا مجرد السماح باقامة معسكرات التدريب فقط ، بل تسهيل خروجهم من البلاد سرا بأوراق مزورة ، تسهل لهم الوصول الى فلسطين !

وكان كل ما طلبه ايخمان هو أن يدفع اليهود مبالغ كبيرة للدولة الالمانية نظير ذلك . وفى مقابل ذلك سوف يحطم ايخمان كل روتين خاص بالهجرة .. لكى يسهل لهم ارسال أكبر عدد ممكن الى فلسطين ..

أما عن معسكرات التدريب ، فقد قال ايخمان لمحدثه « بارجيلاد » : ان ألمانيا النازية مستعدة لان تعطيهم بعض المزارع الواسعة لكى يقيموا فيها مراكز تدريب وتجميع الشبان اليهود تمهيدا لتهريبهم الى فلسطين..

وكانت الحركة الصهيونية لا ترحب بهجرة اليهود المسنين الى فلسطين .. وهم اليهود الذين يملكون نفقات السفر .. وكانت تفضل استقدام الشبان الاقوياء الاصحاء فقط !

ويقول المؤلفان : وقد حافظ ايخمان على كلمته فيما يتعلق بكل التعهدات التى تعهد بها . فقد منحهم المزارع والادوات اللازمة للتدريب الزراعى ، بل انه فى احدى المرات طرد عددا من الراهبات من احد الاديرة ، لكى يوفر لليهود كل وسائل التدريب التى تلزمهم فى احدى المزارع !

ويتساءل المؤلفان : ما هو السر وراء هذه الخطـــة النازية ؟ ..

ثم يقولان ردا على ذلك : ان هتلر نفسه وافق على هذه الهجرة السرية الى فلسطين لاسباب كثيرة ، فهوأولا يفضل أن يهاجر اليهود الالمان لا الى البلاد المحيطـــة بالمانيا مثل فرنسا وأيطاليا وغيرهما، بل يفضل أن يراهم يبتعدون عن ألمانيا .. الى مكان مثل فلســـطين .. يضاف الى ذلك أن هجرة اليهود الى فلسطين وقيـــام دولة صهيونية هناك سوف يوقعان الانجليز فى متاعب مع العرب واليهود على السواء .. وكل متاعب تحدث لبريطانيا هى فوائد لالمانيا !

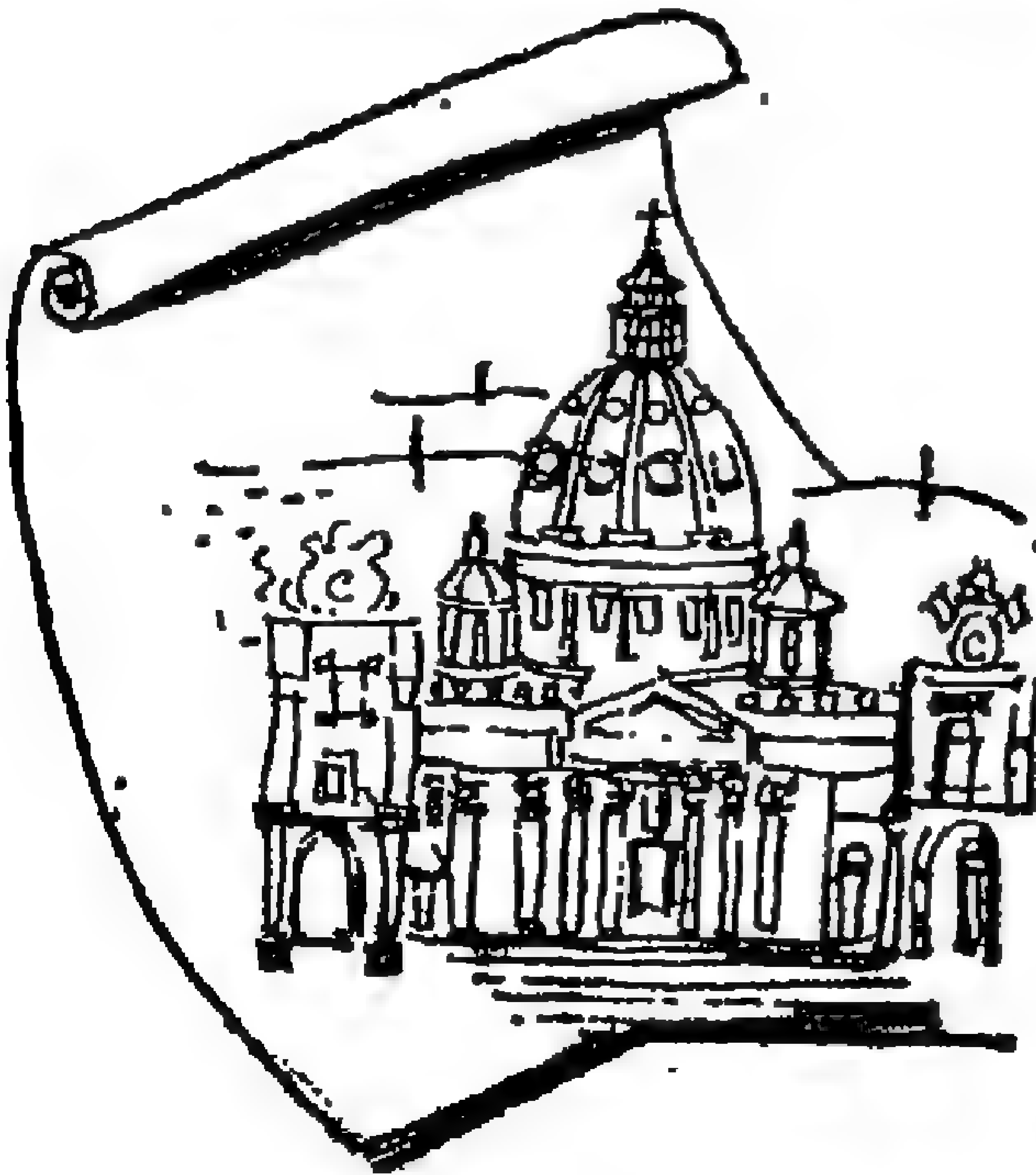
ولهذا فان ايخمان ـ كما يقول المؤلفان ـ اشترك فى وضع حجر الاساس الذى قامت عليـــه بعد ذلك دولة اسرائيل !

وفي مارس سنة ١٩٣٩ سافر من برلين أول فوج من الشبان اليهـود الالمان .. بناء على هـــذه الخطة .. واعطاهم النازيون قطارا خاصا .. وجمعوهم فى القطار الى فينا حيث انضم اليهم فوج اخر تحت اشراف ايخمان شخصيا ! .. ثم يستمر الكتاب فى وصف الرحلة الاولى حتى وصلوا الى شواطىء فلسطين .. وهبطوها سرا .. وتسللوا الى المستعمرات اليهودية المتفرقة !

الفصل
التاسع

البابا .. والكنيسة
ووثيقة تبرئة اليهود

- قصة العلاقة بين البابا بيوس الحادي عشر والنازي
- هل هناك لدى إسرائيل ما تضغط به على الفاتيكان ؟



قصة البابا ، والمؤتمر الكاثوليكى العالمى والوثيقة التى أصدرها لتبرئة اليهود الحاليين من دم المسيح ، وما يشاع عن وجود ضغط صهيونى على الكنيسة الكاثوليكية .. كل هذه خيوط تتجمع منها قصـــة من أعجب القصص السياسية فى هذا العصر !

ولعل الكتابة التحليلية الواقعية فى هذا الموضـــوع تكون بالغة الحرج ، لانها تصدم كثيرا من المشاعر فى كثير من الجبهات

هل هى قصة دينية تدور حول صلب المسيح ؟

هل هى قصة عنصرية تتصارع فيها النزعات السامية والمعادية للسامية والصهيونية وغيرها ؟

هل هى قصة سياسية تحتدم فيها مواقف الشيوعية والنازية والراسمالية وما اليها ؟ ..

انها كل هذا !

ولست أظن أن من مهمة هذا الكتاب أن يتصدى لهذا الجانب او يتعمق فيه . ان المسيحية تقول ان اليهـــود هم الذين صلبوا المســـيح ثم قالوا ان دمه عليهم وعلى ابنائهم من بعدهم فهم مسئولون عن هذا الجرم حتى اليوم، والتعديل الذى أراد الفاتيكان ان يدخله هو ان يهود اليوم، بعد ما يقرب من الفى سنة ليسوا مسئولين ولا ملعونين على هذا الجرم . أما الدين الاسلامى فهو يعلن ان الجريمة

ذاتيا لم تقع قط ، وبالتالى فلا مسئولية هناك ولا مسئولين !

الموضوع الدينى اذن قديم . والجدل فيه قديم . ولو كان ما استجد من راى الفاتيكان مسألة دينية فحسب ، لما أثار هذا الضجيج كله

ولكن أول امتداد لهذه القضية هو : الامتداد العنصرى

ان الاضطهاد العنصرى ظاهرة قديمة ، عرفتها أوروبا بالذات عبر القرون الوسطى وحتى العصر الحديث .. كما جاء فى الفصل السابق

والحروب الدينية والعنصرية ، والمذابح الدينية والعنصرية ، تشغل جانبا باهظا من تاريخ القارة الاوروبية كلها ..

ومن بين المظاهر العنصرية القديمة فى اوروبا : نزعة معاداة السامية التى كانت تجد التعبير عنها فى اضطهاد اليهود ، جيلا بعد جيل ، على يد النظم الاوروبية الدينية والدنيوية ..

فما انزله هتلر باليهود ، لم يكن اول ما انزل بهم فى ظل الحضارة الاوروبية بشتى تقلباتها ..

هذه العنصرية ، والنزعة المعادية للسامية ، لم تعرفها المنطقة العربية قط . أولا لان العرب ساميون . وثانيا لان الدين الاسلامى لم يقل بنظرية صلب المسيح . وان كان العرب قد أصبحوا فجأة وفى القرن العشرين ضحايا لعدوان صهيونى يهودى متعصب ، يتمثل فى احتلال فلسطين وتشريد العرب واقامة دولة اسرائيل ..

وكأن العرب المتسامحين يدفعون بذلك ثمن قرون من التعصب العنصرى الاوروبى ، كانت قمتها هى ما ارتكبه هتلر فى منتصف القرن العشرين !

وعندما كان الباحثون والمؤرخون ينقبون عن أسباب اضطهاد اليهود المستمر فى أوروبا ، كانوا يصطدمون دائما بسبب كبير بين الاسباب هو : ما يسجله التاريخ عن جريمة اليهود فى صلب المسيح !

ودائما .. كان هناك حلان متصارعان للمشكلة اليهودية ..

حل يقول بتجميعهم فى دولة واحدة ، تكون وطنا قوميا لهم . وهذا الحل كان يتفق عليه المتعصبون ضد اليهود ، أولئك الذين يريدون لهم أن يختفوا من حياة بلادهم ، والمتعصبون من اليهود ، اولئك الذين تكونت منهم الحركة الصهيونية ، التى وصلت الى اقامة دولة اسرائيل على اشلاء شعب عربى !

وحل ثان يقول بان انتشار روح التحرر والتسامح والمساواة ، واختفاء نزعات التعصب الدينى والعنصرى، سوف تؤدى الى ذوبان اليهودى فى البلاد التى يعيش فيها حين يحس أن له ما لابنائها من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات . وهو الحق الذى يسمى بال Assimilation وقد سبق الحديث عنه فى فصل سابق

والخلاف ، فى العالم اليهودى نفسه ، ما زال حتى الان حادا بين الاتجاهين ، حتى بعد قيام دولة اسرائيل.. فبصرف النظر عن أن كل يهودى - بالتأكيد - يتمنى ان تظل وتزدهر دولة اسرائيل ، وهذا أمر طبيعى ، فان هذا الخلاف يتمثل فى قضايا اخرى ، كقضية الهجرة الى اسرائيل ..

وكلنا نذكر الانفجار العنيف الذى حدث منذ سنتين تقريبا ، حين ندد بن جوريون بكل يهودى يعيش خارج اسرائيل ويرفض الهجرة اليها ، ذاهبا الى حد اتهامه

فى يهوديته ذاتها .. فتصدى له يهود انجليز وفرنسيون وامريكان ، ممن لا يريدون بالطبع التضحية بحياتهم فى تلك البلاد والهجرة الى اسرائيل . فيومها ايضـــا كان راى اصـــحاب بن جوريون ان ما يراه اليهود اليوم من موجة تسامح فى الغرب أمر عارض ويمكن ان يتحطم فى اى مناســـبة . وبالتالى فليس لليهودى الا دولته . فى حين كان من راى خصومه ان الاتجاه الى الاندماج وال Assimilation قوى ونهائى . والتطور الانســانى لا يسمح برجعة الى الوراء فى مجال التمييز العنصرى والدينى ..

المهم هو : أن مصلحتنا الواقعية والســـياسية تكمن بالتاكيد فى الاتجاه الثانى الذى يهدف الى اندماج اليهود فى بلادهم المختلفة ، وليس فى الاتجـــاه الذى يرمى الى التمييز ضدهم وبالتالى الى تجميعهم فى دولة اسرائيل ، وتدعيمها بالملايين فوق الملايين عن هذا الطريق ..

وحين نجد اسرائيل والحركةالصهيونية العالمية تعملان من اجل تحويل موقفنا نحن العرب من اسرائيـــل ، من موقفسياسى وطنى الى موقف عنصرى تاريخى ، يجب ان ننتبه ، وان نكشف هذه المحاولات فى مهدها

اولا ، لان النزعة المعادية للسامية غريبة ـ تاريخيا ـ عنا وهى نزعة أوروبية فى الدرجة الاولى

وثانيا ، لان مصلحتنا السياسية هى فى انتشار موجة التحرر الاوروبية ، التى تجعل اليهود يجـــدون مكانهم الطبيعى فى مختلفبلاد العالم ، لا فىدولة اسرائيل القائمة غصبا على ارض عربية هى فلسطين !

ووثيقة الفاتيكان الاخيرة ، من هذه الزاوية غير الدينية يمكن ان تخدم دعاة هذا الاتجاه الثانى ..

ولكن هل المسالة بهذه البساطة ؟ ..

هل المسألة كل المسألة هى ان هذا الاتجاه الى التحرر والقضاء على الحزازات العنصرية اتجاه سليم ويناسب فى منطقة تاريخنا ومصلحتنا .. وخلاص ؟ ...

ان السياسة - مع الاسف - لا تعرف هذه المثاليات. ولذلك فعلينا ان ننقب عما وراء هذا من ظلال . وهذا ينقلنا الى الجانب الثالث من جوانب القضية الغريبة ..

ان الحركة الصهيونية - بفروعها المتشعبة - تعمل فى الواقع على مستوى عدة جبهات واتجاهات ..

حيث تستطيع تحريك الشكوك القديمة ، والتلويح باحتمالات عودة الاضطهاد ، لتدفع مزيدا من اليهود الى الهجرة الى اسرائيل .. تتحرك ..

وحيث لا تستطيع ، ان تعمد الى استغلال الاتجاه المتحرر الداعى الى ازالة كل أسباب التمييز : بان تربط هذا التحرر لا بقضية اضطهاد اليهود الاوروبية القديمة، ولكن بقضية اسرائيل والدولة الصهيونية الجديدة . حتى انها ، بنشاطها فى مجال الفكر بالذات ، تنجح أحيانا فى ان تجعل تأييد اسرائيل والصهيونية ،علامة من علامات الفكر والتمدن ..

وحيث لا يسعفها التعصب ولا يسعفها التحرر ، تعمد الى سلاح عجيب خطير ، هو سلاح عقدة الذنب ، وابتزاز هذه العقدة ..

.. كيف ؟

أمامنا نموذج شهير فى اسلوبها تجاه المانيا الغربية : فالنظام الهتلرى قد اباد من السوفييت الملحدين والبولنديين الكاثوليك والبلقانيين الارثوذكس أكثر مما أباد من اليهود . ولكن حسابات كل هذه المذابح ختمت واغلقت ، وبقى حساب اليهود مفتوحا .. لان هناك من يحرك عملية استغلاله باستمرار ، وتحويله الى عقدة يكفر

عنها بالتعويضات والاعانات

فهل هناك « عقدة » تبتز بها الصهيونية الفاتيكان ؟
نعم .. !

وهذا ما كشفت عنه الوثائق الخطيرة التى نشرت أخيرا..

فقد ازيح الستار لاول مرة عن جزء جديد من ارشيفات الاوراق الخاصة بالدولة النازية الهتلرية ، وكان الجزء الجديد خاصا بالعلاقة بين المانيا النازية والبابا الاسبق ، بيوس الثانى عشر ..

ان « النازية » هى احدى الخطايا الكبرى للحضارة فى القرن العشرين . خطيئة يتنصل منها الان كل فرد وكل مؤسسة ، كما يتهرب السليم من الاجرب ..

فهل يمكن ان يكون البابا نفسه ، بمركزه الروحى الهائل ، قد انزلق ، أيام المد النازى الرهيب ، الى تأييده ؟ ..

لعلنا نذكر مسرحية « المندوب » التى اثارت ضجة كبرى فى العالم سنة ١٩٦٤ ، والتى دارت حول البابا بيوس الثانى عشر ، وسكوته خلال الحرب العالمية الثانية ، بينما جنود هتلر يجمعون اليهود من الشوارع المحيطة بالفاتيكان ذاتها ، الى حيث كانوا يبادون فى غرف الغاز .. سكوته رغم معارضة بعض رجال الكنيسة له ، سكوته رغم ان الامور وصلت فى أوروبا الى درجة لا تسمح لاحد بالسكوت أو الحياد السلبى ..

وكانت الطريقة التي استغلت بها المسرحية تنم عن ابتزاز واضح للكنيسة الكاثوليكية وتهديد لها بكشف هذه الصفحة ..

وقد جاءت الوثائق الرسمية التى أذيعت اخيرا ـ

ولعل أذاعتها أيضا ليست مصادفة ـ لتؤكد ان ما ذهبت اليه المسرحية ، فى أساسه صحيح ..

ولكن ماهو « المنزلق » الذى انزلق منه البابا بيوس الثانى عشر الى تأييد هتلر أو السكوت عنه ؟ ..

ان البابا بيوس الثانى عشر ، قضى سبعة عشر عاما من حياته فى الكنيسة ، يعمل فى المانيا ، قبـــل ان ينتخب للبابوية . وشهد هناك فترة العشرينات والثلاثينات حين كادت الحركة الشيوعية تستولى على الحكم فى المانيـــا ثم لم يقهرها الا لجوء الرأســـمالية الى دكتاتورية هتلر لتدميرها ..

والذى يبدو لى ، من قراءة الوثائق المنشورة ، انه منذ ذلك الوقت تكون لديه اقتناع مبسط : ان الشـــيوعية بوصفها دعوة الحادية ، هى الخصم الاعظم للكنيســة ، والنازية هى الاســـلوب الوحيد الذى نجح فى وقف الشيوعية . وبالتالى فعلى الكنيسة ان تقف من النازية موقفا مؤيدا .. أو موقفا غير معاد على الاقل

هذا التفسير ، يؤكده تصرف البابا بعد ذلك خــلال الحرب العالمية الثانية . فمن بين الوثائق المنشورة ، على سبيل المثال :

فى يوم ٢ مارس ١٩٣٩ ، انتخب بيوس الثانى عشر بابا على الكنيسة الكاثوليكية . وفى يوم ٦ مارس ارســـل خطابا الى هتلر ، ينبئه بهذا الامر

والخطاب نفسه اجراء روتينى ، يرسله اى بابا جديد الى رؤساء الدول المختلفة لدى انتخابه .. ولكن الباحثين فى أرشيف الدولة الهتلرية وفى أرشيف الفاتيكان نفسه لاحظوا أمرين : الاول ان الخطاب المرســل الى هتلر هو أطول الخطابات المرسلة الى رؤساء الدول وأكثرها حرارة، والثانى ان البابا قد وقع بيده ، لا على الخطاب الاصلى

المكتوب باللغة اللاتينية كالعادة ، ولكن أيضا على الترجمة المرفقة بالخطاب

وبعد ارسال الخطاب بأسبوع تقريبا ، ارسل «بيرجن» السفير الالمانى فى الفاتيكان رسالة الى وزير خارجيته فى برلين « فون ريبنتروب » يقول فيها ان البابا تعمد أن يشعره بأن أول خطاب أرسله الى رئيس دولة كان خطابه الى هتلر

ولم تكد تمضى أسابيع على انتخاب البابا ، حتى كانت الازمة التى ساقت الى الحرب العالمية الثانية قد انفجرت، وهى ازمة مطالبة هتلر بضم اجزاء من بولندا الى بلاده

ماذا كان رد فعل البابا خلال هذه الازمة ، مع ملاحظة ان بولنـــدا حتى ذلك الوقت كانت أكثر دول أوروبا كاثوليكية تقريبا ؟

أرسل الى « بيك » رئيس بولندا يقترح عليه اعطـاء الاقليات الالمانية مزايا جديدة . ثم أرسل اليه مرة أخرى يقول له « ان اعطاء دانتزيج ويويلنيا الى المانيا قد ينقذ السلام » ويومها ثار « بيك » ورد عليه قائلا : ان نشر رسائل البابا سوف يصدم الرأى العام البولندى الكاثوليكى

واشتعلت الحرب ، اذ اجتاح هتلر بولنـــدا كما هو معروف فى سبتمبر ١٩٣٩ ، أى بعد ستة أشهر فقط من انتخاب البابا السيىء الحظ !

وبتاريخ أول يناير ١٩٤٠ ، أى بعد نشـــوب الحرب واجتياح بولندا وتحطيمها بأربعة أشهر ، أرسل القـــائم بأعمال سفارة المانيا فى الفاتيكان رسالة يسجل فيهـــا مقابلته الاخيرة للبابا ، ويروى فيها ان البابا أبقاه لديه أكثر من الوقت الرسمى المحدد للزيارة ، وانه قال له خلال المقابلة أن ما يشـــــاع عن نفور البابا من النظم الشيوعية « الدكتاتورية » غير صحيح . بدليل علاقاته

الطيبة مع انظام الايطالى القائم « وهو نظام موسولينى الفاشستى »

وقد كان البابا يصدر بيانات يعرب فيها عن أسفه ، بوجه عام ، على الدم المراق ، عندما هاجمت المانيا بولندا ، وبعد ذلك هولندا ، وبلجيكا ، وفرنسا . ولكن لوحظ انه لم يصدر حتى مجرد بيان عام عندما هاجم هتلر النرويج والدانيمارك . ولوحظ ان جريدة « اوسر فاتورى رومنو » الناطقة بلسان البابا ، كتبت فى اليوم التالى لهذا الهجوم الاخير تقول : « انه لا يوجد فى النرويج سوى ٢٠٠٠ كاثوليكى فقط . واذا كان البابا له رايه فى الموقف من الناحية الاخلاقية ، الا انه ، من الناحية العملية ، يجب أن يفكر فى مصير ٣٥ مليون كاثوليكى يعيشون فى المانيا »

وفى ارشيف المانيا الهتلرية ، ان المندوب البابوى فى المانيا كان يقابل مدير ادارة البروتوكول فى وزارة الخارجية الالمانية يوم ١٠ يونيو سنة ١٩٤٠ ، خلال اجتياح القوات الالمانية لفرنسا ، فقال له انه مسرور للغاية من الانتصارات العسكرية الالمانية ، وانه يتمنى الا تتأخر ايطاليا فى دخول الحرب الى جانب هتلر ، وكان هذا الحديث قبل دخول ايطاليا الحرب بساعات !

الوثائق التى نشرت أخيرا حافلة بهذا النوع من التقارير . لا أظن ، بعد تقديمها كنماذج ، انه من المهم سرد الكثير منها . ولكن من المهم القفز الى الوثائق الخاصة بسنوات الحرب الاخيرة ، عندما بدأت المانيا النازية تنهار ، وبدأت القوات السوفييتية تزحف من أطراف آسيا الى قلب أوروبا ..

ففى سنة ١٩٤٣ ، توجد خطابات ـ نشرت ـ كتبها السفراء الالمان لدى الفاتيكان ، خلاصتها : أن البابا يقول

ان هناك أرضا مشتركة بين الكنيسة والمانيا هى محاربة الشيوعية . وانه لذلك لا يمكن العمل من اجل اعلان هدنة بين الحلفاء الغربيين وهتلر ، تسمح له بتركيز كل قوته ضد الاتحاد السوفييتى بل يجب ان يقوم بين هتلر والحلفاء الغربيين تحالف ايجابى ضد الاتحاد السوفييتى

وعندما أخذ الحلفاء موقفا ، عدم التفاهم مع المانيا الا بعد التسليم بدون قيد ولا شرط .. نقلت التقارير المنشورة ان البابا كان معترضا على هذا الموقف من هتلر

وفى تلك الاوقات بالذات ، اشتدت حركة النازية ضد اليهود ، وتمت واقعة القبض على يهود روما بالذات

ولم يتحرك البابا : لانه كان لا يريد أن يسهم فى اضعاف موقف المانيا ، التى ظل يعتقد انها الحاجز الوحيد ضد غزو الشيوعية لاوروبا

ومن يقرأ الوثائق المنشورة سوف يلاحظ ان هذا « التفاهم المتبادل » بين البابا وهتلر ، ليس معناه ان العلاقات بينهما كانت « سمنا على عسل » . فقد كانت تمر بفترات بالغة الصعوبة والتوتر ، ولكن هذا كله كان يقف عند حد معين لا يتعداه : محافظة على اقتناع البابا بفكرة ان المانيا الهتلرية هى الحاجز الوحيد ضد الشيوعية ..

والذى زاد وضع البابا صعوبة ، أن رايه هذا لم يكن يوافقه فيه كل رجال الكنيسة الكاثوليكية ، خصوصا الذين تعرضوا لمحنة الاحتلال النازى فى فرنسا وبولندا وغيرها . وهنا أيضا تنم الوثائق عن انه كان هناك صراع حاد داخل الكنيسة الكاثوليكية حول الموقف من النازية بوصفها عدوانا على كل الشعوب والاجناس

وحين نعود الى أسماء أقطاب الكنيسة الكاثوليكية التى ظهرت على السطح فى مؤتمر الفاتيكان الاخير ، والتى

اشتد بينها الجدل حول وثيقة تبرئة اليهود وغيرها من الوثائق ، نجد انها نفس الاسماء تقريبا ، التى اختلفت حول قضيـــية الموقف من انازية ، منذ خمس وعشرين سنة . وكلهم كرادلة فوق السبعين من العمر !

وهذا كله بالطبع غير خاف على اسرائيــــل ولا على الصهيونية العالمية ، ومن هذه الثغرة تستطيع بالتأكيد ان تمارس داخــــل الفاتيكان ارهابا من نوع الارهاب الذى تمارسه علنا فى المانيا الغربية : بتهديد كل سياسى وكل موظف كبير بكشف علاقته القديمة مع انازى للتشـــهير به وتدمير مستقبله .. فى الوقت الذى تمارس فيــــه جهدها على مستوى آخر ، للربط بين قضية « التحرر» بوجه عام وقضية « أسرائيل » الـــــدولة ، والصهيونية الحركة ، لا اليهودية كدين فحسب ..

تلك هى طبيعة الارض التى نواجهها فى هذه المشكلة ، بتعقيداتها المختلفة وأبعادها الواقعيــــــة : وتصرفنا ـ خصوصا الدعائى ـ ازاءها يجب أن يكون شيئا آخـر غير مجرد رد الفعل الصارخ العصبى ، تصرفنا يجب ان يؤكد على عدة معان هامة لتطورنا القومى والاجتماعى كله

ـ ان مبادىء التحرر والتسامح والبعد عن العنصرية هى مبادئنا ، وان اسرائيـــــل هى مظهر حركة عنصرية رجعية هى الصهيونية ، وهى تركة اضطهادات أوروبية غير عربية ، وان الفهم الحقيقى لقضايا التحرر والمساواة هو الى جانب العرب لا ضدهم ، وعلى العرب أخذ زمام المبادرة فى هذا المجال ..

ـ اننا مستعدون دائما لنكشف كل محاولة أسرائيلة لاستغلال الدين والهيئات الدينية فى قضايا سياســـية فنحن لن نقبل أن تســـوى أوروبا تركتهــا العنصرية والسـياسية الثقيلة .. على حسابنا !

الفصل العاشر

أبا إيبان والقومية العربية

أبا إيبان ، اليهودي الفلسطيني ، الذي يجيد اللغة العربية ، وتعمق في دراسة التاريخ العربي والتراث العربي ، وترجم مؤلفات توفيق الحكيم إلى اللغة العبرية يشرح رأيه في القومية العربية .. والوحدة العربية



الكتاب الذى اقدمه فى هذا الفصل يوضح لنا نقطة الارتكاز التى يقف عليها التفكير الاسرائيلى والدعوة الاسرائيلية فيما يتعلق بنا . انه كتاب يتحدث عنا نحن العرب وعن حركة القومية العربية ، كتاب يحاول ان يفلسف الماضى والحاضر والمستقبل . أما مؤلفه فهو من أبرز الاسماء السياسية والفكرية فى اسرائيل

ان المؤلف هو « أبا ايبان » اليهودى الفلسطينى الذى يجيد اللغة العربية ، ويتعمق فى دراسة التاريخ العربى والتراث العربى والذى شغل منذ سنوات منصب مندوب اسرائيل فى الامم المتحدة ثم سفيرها فى أمريكا

كان ابا ايبان قبل الحرب العالمية الثانية يقوم بتدريس اللغة العربية والادب العربى فى جامعة كامبريدج ، ويومها نشرت صحفنا اسمه لاول مرة عندما ترجم رواية توفيق الحكيم الشهيرة (يوميات نائب فى الارياف) . ولما قامت الحرب العالمية ، عملت المنظمات الصهيونية على تعيينه ضابط اتصال لدى قيادة القوات البريطانية فى القدس لينظم علاقتها بالمتطوعين الصهيونيين . واشترك ابا ايبان بعد ذلك فى كل الاحداث التى ادت الى ظهور اسرائيل . ثم ارسلته اسرائيل ليكون اول ممثل لها فى الامم المتحدة ثم ليكون سفيرا لها فى واشنطون ...

والكتاب اسمه « موجة القومية »

فى البدء ، يدافع ابا ايبان من فكرة القومية بوجـــه عام . فيقول ان البلاد التى تتهم الحركات القـــومية بالتعصب وضيق الافق هى البلاد التى اكتملت حـركتها القومية . فكل بلد كان دائما يتحمس لقوميته ، وكنه يتهم قومية الاخرين بالتعصـب ! ثم يقـول ان محـاولة احلال (العالمية) محل القوميةخطأ . لان القوميةوالعالمية ليستا شيئين متعارضين . فالعالمية هى مجمـــوع من الوحدات القومية . وتعدد اللغات والثقافات وتنـــوع التراث الفنى ، وغير ذلك من مميزات القوميات المختلفة، كلها أشياء تساهم فى اثراء العالم وتنويعه . ان وجودها فى العالم يشبه احتواء العالم على سهول وبحار وانهـــار وغابات ووديان ، مما يجعل العالم اكثر جمـــالا واكثر ثراء ..

ثم يقول المؤلف : ان مركز الحـــركات القومية التى تشغل العالم الان قد انتقل من أوربا الى اسيا وافريقيا . وبعد ان يذكر عدداً من هذه الحركات يقول : ان أكثرها سطوعا وبزوغا كان ولا شك تحرر الامة العربية وتقدمها فى الطريق نحو هذه الحرية (فقد حقق العرب استقلالهم فى ظل اكثر من ١٠ دول عربية مستقلة عدد سكانها اكثر من ٨٠ مليونا ومساحتها اربعة ملايين ميل مربع ، تذ ثروات طبيعية هائلة ، وتضم مراكز الحضارة العربيةالتى وصل فيها العقل العربى الى أقصى درجات الاشعاع ، مثل القاهرة ودمشق وبغداد والمدن المقدسة فى شبه الجزيرة العربية . ثم يقول : انه لم يحدث فى تاريخ العرب ان كانت لديهم الفرص الهائلة ، سياسيا واقتصاديا ، التى تتوافر امامهم الان .. فرص ضـــخمة تزيدها ذكريات المجد ثراء » ..

وبعد سطور اخرى من التقريظ والاعجاب يضـــع أبا ايبان أول نصل حاد تحت هذا الحرير فيقول : (.. ولكن القومية العربية ، رغم كل هـــذه النتائج الباهرة ، لا تواجه العالم بوجه سعيد بالنصر ، بل تواجهه بمرارة عنيفة)

هذه الفقرة العابرة ، تتفرع منها فى أنحاء الـــكتاب خيوط كثيرة رقيقة ، تحاول ان تنســـج لدى القارىء احساسا بأن العـــرب يجب ان يكونوا راضين قانعين سعداء بما حققوه ، وانه ليس هناك ما يستحق مرارتهم ابدا . ويكمل هذا ان المؤلف لا يشير فى كل الكتاب بكلمة واحدة الى الطريقة التى ولدت بها اسرائيل . ولا يشير بكلمة واحدة الى أن هناك شيئا اسمه مليون لاجىء ، فهو يعرف انه يخفى أسبابا قوية للمرارة

ونعود الى منطق أبا ايبان .. فنجد انه يقول ان هذه المرارة ترجع الى ثلاث حلقات من التوتر ، يسجلها بهذا الترتيب :

الاولى — توتر علاقات العرب ببعضهم البعض

الثانية — توتر علاقتهم بالغرب

الثالثة والاخيرة — توتر علاقتهم باسرائيل

وتفسير أبا ايبان لما يسميه توتر العلاقات بين العرب انفسهم يرجع فى رأيه الى وجود تياران : تيار يحاول جذب البلاد العربية فى اتجاه الوحدة والمركزية ، وتيار يحاول أن يدافع عن تنوع الاقطار العربية وتعددها واختـــلاف ظروفها وضرورة تحقيق اللامركزية فيها . وصراع هذين التيارين فى رأى أبا ايبان هو السبب الاكبر فى كل توتر فى العلاقات العربية ، وبالتالى فى المنطقة بوجه عام ..

وفى صراحة كاملة ، وحماسة بالغة ، ينضم ابا ايبان الى (التيار الثانى) الذى يعارض الاتجـــاه العربى الى مزيد من الوحدة ، ويشـــغل صـــفحات كثيرة من كتابه فى سرد الشـواهد السياسيةوالتاريخية والفكريةوالاقتصادبة التى تبرر وجهة نظره ..

وهذه عينة من هذه الادلة :

البلاد العربية ، تاريخيـــا ، تعودت ان تعيش دولا متفرقة .. وفى الفترات القصيرة التى اتحدت فيها ، كان توحيدها بالغزو العسكرى لا بالرضى والاختيار ..

طبيعة العرب هى ان يعيشوا منفصلين لا ان يعيشوا متحدين . وقد عاشوا منفصلين حتى فى فترات استقلالهم . فليس صحيحا ان تفرق العرب وانفصالهم يرجعان الى تآمر الدول الاجنبية الكبرى او تدخلها ..

صحيح ان الثقافة العربية واحـــدة والتراث العربى واحد واللغة العربية واحدة . وصحيح أيضا ان التكوين النفسى والدوافع العاطفية للعرب واحدة . وصحيح ان هناك طريقة فى التفكير والكلام ، فى الحزن والفـرح ، فى الحب والكراهية ، خاصة بالعرب وحدهم . ولكن هـذا كله لا يؤدى حتما الى الوحدة السياسية . فدول امريكا اللاتينية مثلا بينها هذا التشابه دون ان تخطر الوحـدة ببالها ، فلا تصـــدقوا ان هذه العوامل المشتركة تؤدى حتما الى تدمير الحدود السياســـية الحالية بين الدول العربية والى خلق دولة عربية واحدة ..

فى صفحات كثيرة ، يدق أبا ايبان بشدة على هـــذه الحجج .. يريد أن يحفر فى الاذهان فكرة واحدة : هى ان القومية العربية والتحرر العربى لا علاقة لهما بالدعوة

الى الوحدة .. ومن يقرأ الكتاب يجد ان أبا ايبان يحس احساسا قويا أن هناك شعورا عارما بحتمية هذه الوحدة. وهو يعرف ان هذا الشعور فى حد ذاته خطـوة هامة فى طريق الوحدة . فهو يحاول ان يزعزع هذه الحتمية ..

ومن الممكن طبعا تعقب كل هذه الحجج واحدة بعـد الاخرى . ولكنه قد يكون من الاسهل هنا ان نريح السيد أبا ايبان .. ونقول له : ثم ماذا .. بعد هـــذه الحجج كلها ؟ .. لنفرض ان العرب لم يتحدوا حقا منــذ الف سنة . هل تشك حقا فى أنهم (يريدون) اليوم ان يكونوا متحدين ؟ وانهم يرون مصلحتهم فى هذا الاتحاد ؟ ..

ثم .. هل كان اليهود دولة واحدة منذ آلاف السنين بل .. هل عاشوا معا منذ آلاف السنين ؟..هل تشترك فى عمليات احضار اليهود من كل انحاء الارض .. من اليمن الى روسيا الى امريكا الى المانيا .. ناس لم يلتقوا قط ، ولم تتصل الارض بينهم قط ، ولم يكونوا قومية واحدة قط ... هل تقوم بهذا كله ، وتبرره ، ثم تريدنا ان نصدق ان العرب .. بكل هذه الظروف التى تجمـع بينهم ، لا يصلحون لان يتحدوا ؟ !

ان هذا الثوب العلمى لا يخفى الدعوة السياســـية السافرة . اسرائيل تريد ان تبقى الدول العربية ممزقة لان هذه هى مصلحتها الاساسية ..

وأبا ايبان بعـد كل هذا المجهود يحس انه ما زال يقف ضد التيار .. وان حججه واهية كســدود الطين التى يجرفها النهر ، فيلجأ الى الدفاع قائلا : ان هناك نغمة شائعة الان فى كل مكان من العالم تقول : يجب ان نتفاهم مع القومية العربية ! يجب ان نعترف بالقومية العربية ! واذا كان هذا معناه ان تبقى البلاد العربيـــة

متمتعة بحق الانفصال فليس على هذا أى غبار ، اما اذا كان معنى هذا « الاعتراف بحق احدى الدول العربية فى ان تضم اليها الدول العربيه الاخرى بوسائل مختلفة .. فهنا الخطأ والخـــطر » ..

وأبا ايبان يعرف طبعا ان مسألة « ضم » احدى الدول العربية بالقوة غير واردة . وهو يعرف جيدا ان مصر وسوريا مثلا حين اختارتا الوحدة ، كان اختيارهما حرا حرية كاملة . ولكنه هنا فى الواقع ، انما يحـــارب متقهقرا . انه يشعر انه خسر نصف المعركة ، اذ ان العالم قد اعترف فعلا بأن هناك شيئا اسمه القومية العربية . ولو ان ابا ايبان كتب كتابه هذا منذ عشر سنوات مثلا لقال انه لا يوجد شيء اسمه القومية العربية . ولكنه الان ، وقد اصبح عاجزا عن محو فكرة القومية العربية ، يحاول الا يخسر نصف المعركة الآخر .. يحـــاول ان يوقفها فى اذهان الناس عند هذا الحد .. يحاول ان يحول بينها وبين ان تتطور الى فكرة الوحدة

القومية العربية شيء .. وأى وحدة عربية شيء آخر ، هذه هى الفكرة التى يدور حولها بألف وسيلة ووسيلة !

وبعد ان يشن أبا أيبان حملة على عبد الناصر ، يقول ان هناك فى العالم من ينتصرون لعبد الناصر فى خلافه مع بعض خصومه فى البلاد العربية بسبب ان خصومه رجعيون . ثم يستطرد قائلا : ان القوانين الدولية ومواثيق الامم المتحدة تحمى كل الحكومات ، سواء أكانت رجعية أم غير رجعية !

طبعا القوانين الدولية تحمى كل حكومة سواء أكانت رجعية أم غير رجعية ، ولكنه بقوله هذا انما يستند الى حجة واهية جديدة ..

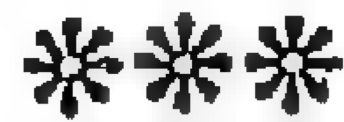
الخلاف هنا ايضا يرجع الى ان ابا ايبان لا يريد ان يعترف بوحدة الامة العربية التى نؤمن بهـــا نحن . وايماننا بوحدة الامة العربية معناه اننى هنا فى القاهرة مثلا اشعر اننى انتمى الى نفس الشعب الذى يسكن فى اى قطر عربى . الاحساس الذى يربطنى بالمواطن الذى يسكن الخرطوم مثلا او بغداد او عمان ، لا يختلف عن الاحساس الذى يربطنى بالمواطن الذى يسكن طنطا او الاســكندرية . الحظ ينتظــرنا واحد والمســتقبل الذى نصنعه واحد . وبقاء الرجعية او الاستعمار فى قطر عربى معناه بالتالى ان الرجعية او الاســتعمار ما زالا موجودين فى « الوطن » العربى وما زال يقاسى منهمــا « الشعب » العربى !

وانه لمن الغريب حقا ان يصدر هذا الكلام عن اسرائيل بالذات . اسرائيل التى لديها قانون يبيح لها ان تحاكم كل من أساء الى يهودى فى اى بقعة من العالم ! فاسرائيل تعلن انها وكيلة كل من يعتنق الديانة اليهودية ســواء اكان انجليزيا ام امريكيا ام يابانيا !!

ويجب ان اذكر بهذه المناسبة ان ابا ايبان يبنى كتابه طبعا على اساس ان اليهودية قومية . وهو افتراض خاطىء تماما ، وافتراض رجعى الى اقصى الحدود . فما كان الدين أبدا قومية . فالاديان تتجه الى جميع القوميات . وكل قومية تشتمل على اكثر من دين . وافتراض اسرائيل ان اليهودية قومية معناه اعتراف منها بان مئات الالوف من العرب الذين يعيشون فى فلسطين لا يمكن ان يحملوا نفس قومية دولة اسرائيل ، لانهم مسلمون ومسيحيون . وهو بالتالى اعتراف بان الدولة التى يقيمونها تنطوى على تفرقة عنصرية صريحة وصارخة !

وان برنامجها بالتالي ينطوي ولابد على واحد من أمرين اما طرد العرب من بلادهم مرة اخرى ، واما ابقاءهم على اساس وجود درجتين من المواطنين ..

الى هنا ينتهى كلام ابا ايبان عن اول اسباب التوتر فى رأيه ، وهو « التوتر داخل العلاقات العربية »



السبب الثانى من اسباب التوتر فى رأى أبا ايبان هو توتر العلاقات بين العرب وبين الدول الغربية ..

وهنا ايضا ، يريد ابا ايبان ان يقول شيئا هاما : يقول ان هناك فكرة بدأت تشيع فى دوائر الغرب تقول ان اسرائيل هى السبب الوحيد لسوء العلاقات بين العرب والدول الغربية .. وأن علاقات العرب بالدول الغربية يمكن ان تتحسن كثيرا .. لولا اسرائيل !

ويحاول أبا ايبان أن يعمل على تقويض هذه الفكرة بكل ما يملك من قوة . لانه لا يريد ابدا ان تفكر الدول الغربية لحظة واحدة فى ان تختار بين اسرائيل والامة العربية التى تزداد قوة وأهمية ! وهو من أجل هذا يدخل فى بحث تاريخى ليثبت ان علاقات العرب بالدول الغربية سيئة من الاصل ، وان اسرائيل ليست السبب فى هذا أبدا !

فهو يقول ان نظرة العرب الى الغرب مرت بثلاث مراحل : فى المرحلة الاولى كان العرب ينظرون الى أوربا نظرة ازدراء واستهزاء ، وذلك ايام تفوق الحضارة العربية ، فى حين كانت اوربا غارقة فى الظلام . ويقول أبا ايبان ان العرب معهم حق فى هذه النظرة .. وهو ينقل فقرة من كتاب « المسعودى » المؤرخ العربى القديم

يقول فيها عن الاوربيين ما معناه : « ان دمهم بارد ، اجسادهم ضخمة ، أجلاف ، عاداتهم خشنة ، فهمهم غبى، والسنتهم ثقيلة ! » ، والمرحلة الثانية كانت بالعكس ، مرحلة خضوع العرب لاوربا واعترافهم بسيطرتها وتفوقها خلال فترة انهيارهم • ثم المرحلة الثالثة التى نعيشـــها الان •• ويقول عنها ابا ايبان : ان العرب فيها لايشعرون نحوها بالخضوع . ولكن المشـــكلة ان البعض منهـــم يصر على أن النفوذ الاستعمارى لم يندثر بعد • ان هؤلاء البعض من العرب لا يكتفون بأنهم حققوا المساواة مـــع الغرب ، بل يصممون على « تسوية الحساب » والانتقام من اخطاء الماضى • المهم فى هذه النقطة هو ما ينطلق ابا ايبان الى محاولة تأكيده حين يقول : ان الازمة بين العرب وبين اسرائيل ازمة سطحية عابرة بســـيطة اذا قيست بالازمة الاصيلة العميقة بين العرب والدول الغربية ، فلا تصدقى ايتها الدول الغربية ان اسرائيل هى سبب غضب العرب عليك •• بدليل ان علاقات الدول الغربية سيئة مع عدد كبير من الدول الافريقية والاسيوية ، لاسـباب لا علاقة لها باسرائيل !

ولا شك ان اسباب خلافاتنا مع الغرب كثيرة ، ولكن من الواضح طبعا ان اسرائيل سبب رئيسى • وهو بعد ان ادعى انه لم يعد هناك اى اســـتعمار ، ذكر بنفســـه اندونيسيا حيث كان الاستعمار ساعة صدور كتابه يحتل اجزاء من البلاد ، وذكر الجزائر حينما كان الاســـتعمار يذبح المواطنيين العرب ويشردهم ويريد سلخ هذا القطر من الوجود العربى (كأن ابا ايبان أيضا لا يعتـــرف بأن الجزائر عربيـــة . فهـــو بذلك قد رد بنفســـه على ادعائه ان الاســـتعمار قد انتهى ولم يبق منه الا حساب الماضى فحسب . ولكن كلامه عن الغرب والعرب يكشف

لنا جانبا رئيسيا فى تكتيك اسرائيل السياسى ، وما تبذله من مجهود لاقناع العرب بأن اسرائيل لا علاقة لها بمشاكل الغرب معنا !

بقى السبب الثالث للتوتر وهو : العلاقة بين القومية العربية واسرائيل !

ومرة اخرى يحاول ابا ايبان ان ينفى ما يقال من ان اسرائيل هى سبب المرارة التى يحملها العرب نحو البلاد المسئولة فى نظر العرب عن وجود اسرائيل • وهو يقول انه لا اعتراض لديه على القومية العربية ما دامت لا تغير من الوضع القديم ، وهو تعدد الحكومات العربية وتنوعها « طبعا » •• وان عيب القومية العربية الثانى فى نظره « بعد عيب السعى الى الوحدة » هو انها لا تريد لغيرها ما تريده لنفسها •• فهى لا تريد للقومية الاسرائيلية ما تريده لنفسها !

وقد شرحت فيما سبق لماذا لا يوجد شىء اسمه قومية يهودية ••

وحتى اذا افترضنا جدلا ان هذه القومية موجودة فان الاعتراف الذى يريده ابا ايبان معناه ان اى قومية اخرى تستطيع ان تأتى من اى مكان فى العالم ، ثم تذبح مئات الالوف من ابناء قوميتى ، وتطرد مليونا منهم ، وتحتل أرضهم بالقوة •• لانها تريد أن يكون لها قطعة ارض فى هذا المكان بالذات !

ان أبا ايبان يختتم كلامه بالحديث عن ميثاق الامم المتحدة ، وكيف ان كل التصرفات يجب ان تكون بناء عليه ، وفى مقدمتها احترام الشعوب والحكومات المستقلة ••

ونحن نوافقه طبعا على احترام ميثاق الامم المتحـــدة وضرورة السير على أحكامه ..

ولكن من اى تاريخ يبدأ هذا الاحترام ؟

هل يبدأ من لحظة وضع هذا الميثاق ؟ ... اذن فان ايجاد اسرائيل فى حد ذاته كان أكبر عدوان على ميثاق الامم المتحدة الى الان ..

أم ان أبا ايبان يريد ان يبدأ احترام ميثـــاق الامم المتحدة من لحظة وجود اسرائيل ، اى من لحظـــة فوز المعتدى بنتيجة عدوانه ؟

الفصل
الحادى عشر

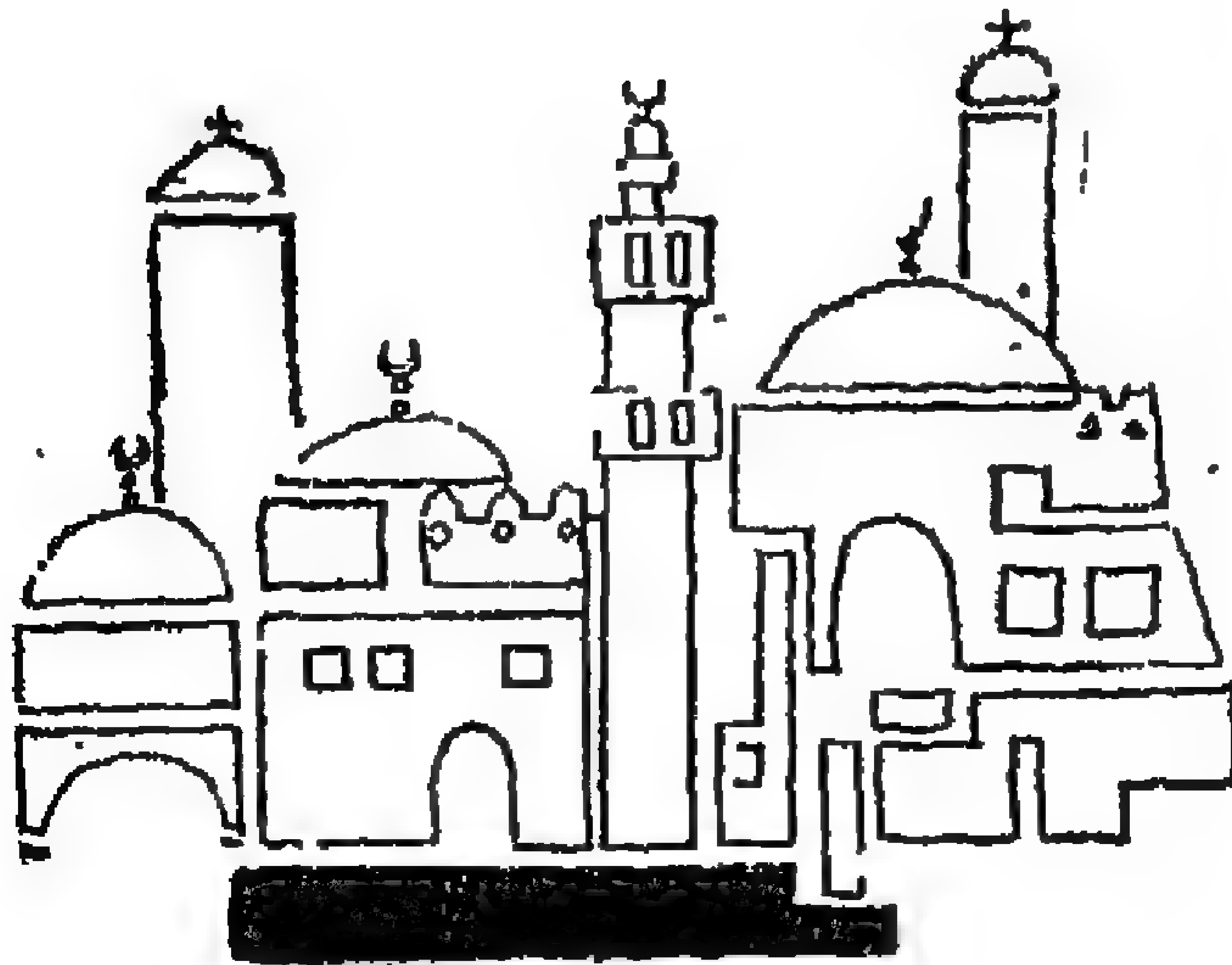
أقدار متصادمة

لقد دق القرن أبواب هذا الشرق العربي مرتين يفصل بينهما أكثر من مائة وخمسين سنة :

المرة الأولى : حين جاء نابليون على رأس الجيش الفرنسي ليحتل مصر ، وليغزو هذا الشرق كله !

والمرة الثانية : حين جاءت إسرائيل منبثقة من قلب أوروبا ..

فماذا عن المستقبل ؟



عنوان هذا الفصل « اقدار متصادمة » استعيره من كتاب بهذا العنوان للمؤلفين الصهيونيين جون ودافيد كيشى ..

ويقصد المؤلفان بالأقدار المتصادمة ، اقدار العرب .. واقدار اسرائيل : فكأن الامانى القومية العربية والامانى القومية الاسرائيلية قد بعثت فى وقت واحد تقريبا ... لكى يقع بينهما هذا الصدام الذى ما زال قائما ، كل من الطرفين كامن متحفز للآخر على أحد جانبى الجبل ...

واذا كنت أريد من وراء هذا الكلام شيئا ، فهو : ان ينظر قومى الى المسألة بأعمق مما ينظرون ، وأن يستخلصوا من البحث نتائجه العميقة بأشجع مما يفعلون الآن ..

واذا كان عجزنا ازاء اسرائيل فى الماضى سببه هو أننا كنا « متخلفين » فلا بأس من ان نعترف بهذه الحقيقة . لاننا بهذا الاعتراف وحده ، يمكن ان نصل حقا الى علاج صحيح ...

انها اقدار متصادمة بالفعل ..

ونتيجة هذا الصدام ستؤثر فى حياتنا الى مدى اطول وعلى نحو اعرض وأعمق مما يتصور المتصورون ...

ولقد دق القدر ابواب هذا الشرق العربى مرتين اساسيتين يفصل بينهما اكثر من مائة وخمسين سنة :

المرة الاولى ، حين جاء نابليـــون على رأس الجيش الفرنسي ليحتل مصر ، وليغزو هذا الشرق كله .. فكانت أول مرة منذ اجيال سحيقة من الظلام ، يكتشف فيهـــا أهل هذا الشرق وجود الحضارة الغربية الحديثة الطاغية، ويعرفون ان ظلام الامبراطورية العثمانية ليس كل شيء..

والمرة الثانية ، حين جاءت اسرائيل ، منبثقة ومندفعة من أوربا نفسها ، على النحو الذى سوف نتأمله بعد قليل.

ونحن الان نضـــحك ونتعجب ، حين نقـــرأ فى تاريخ « الجبرتى » وصفه لقاء المماليك والشعب لنابليـــون والجيش الفرنسي . نضحك حين نقرا ان المماليك خرجوا بالحداد المطهمة والسيوف المذهبة ليقاتلوا مدفعية نابليون الثقيلة . وحين نقرا ان الدراويش خرجوا بالرايات يرددون الاذكار ليقهر الله جند نابليون ، الزاحفين فى مربعات مـــن النار . وربما يغلبنا الاسى ونحن نقرا الجبرتى وهو يصـــف الواقعة فيقول « فلما سقط عليهم القنبر (اى القنابل) وعاينوه ، ولم يكونوا قد رأوه أو شاهدوه ، صـــاحوا : ياسلام ياسلام من هذه الالام ، ياخفى الالطاف نجنا مما نخاف !! »

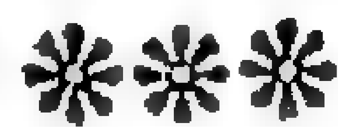
ما معنى هذا ؟ ...

معناه ان دورة الحضارة التى ماتت فى بلادنا قرونا طويلة، بينما انطلقت تدور وتهدر فى اوربا ، كانت قد خلقت هـــذا الفارق السحيق المخيف

شعبنا لم تكن تنقصه البسالة ، فقد هرب المماليـــك بذهبهم وحريمهم وبقى الشعب يثور مرة بعد اخرى . انما كانت تنقصه الحضارة . الحضارة التى هى العلم ، الخبرة ، والثقافة ، والبـــارود ، وادراك روح العصر بسياساته وافكاره وعناصر الصراع فيه . وليس ادل على

ذلك من ان نابليون ، مبعوث اوربا وممثلها القوى ، جاء بأول مطبعة وجاء بعلماء وخبراء يكتشفون بلادنا ، ويرسمون خرائطها ويدرسون مواردها ، ويستكشفون حتى آثارها وتاريخها . ذلك ان المجتمع الراكد المظلم المتخلف كان يعيش فوق هذا كله دون أن يعرفه او يهتم به . كان مجتمعا جف ماء الحياة فيه ، وماتت خلاياه ، وضمرت اطرافه ، وانطفأ سراج عقله .. وان ظل يتاوم ويقدم الضحايا سنة بعد اخرى .. دون ان يصل الى شيء ..

كانت الحملة الفرنسية هى التحدى الخطر والصدمة الكبرى . بعدها لم تعد الامبراطورية التركية ابدا كما كانت . ولم يعد الشرق العربى ابدا كما كان . بدات الخلايا تتنبه ، والعقل يتحسس ، والقلب ينتفض . بدات المقاومة هنا وهناك ، تضىء وتخبو ، تحبو وتتعثر ، ولكن فى الطريق الصاعد دائما ، حتى الفصل الاخر ، الفصل الطويل الذى بدأ بالحرب العالمية الاولى والثورة العربية وثورة ١٩١٩ ، وانتهى بالحرب العالمية الثانية ..



وقد بدا ، فى غمرة الآمال التى شملت العالم كله بعد الحرب الثانية ، وفى موجة ثقة الشعب العربى بما حققه وتفاؤله بمستقبله ، أن نهاية هذه الحرب ستغسل معها آخر آثار الاستعمار فى الشرق العربى وستزيل آخر العوائق التى تمنع العرب من الانطلاق . ولكن اوربا كانت تعد للعرب الصدمة الثانية الهائلة : صدمة اسرائيل ! صدمة طرد الشعب العربى طردا ، من جزء هام عزيز من بلاده ، واقامة دولة وشعب غريب دخيل مكانه . والاحتلال العسكرى اهانة . والاستعمار الاقتصادى اهانة . والتفرقة

العنصرية اهانة ، ولكن لا أظن ان هناك اهانة تعادل طرد الشعب طردا من بلاده وتحويلها الى دولة اخرى
ولكن ما هى اسرائيل ؟ . .
من الزاوية التى تحدثت عنها فى هذا الكتاب ، يهمنى اسجل من ملامح اسرائيل ما يلى :

* ان الصهيونية ، فى اساسها ، حركة سياسية « دنيوية » وليست حركة دينية . هكذا كانت منذ اوجدها واسسها « هرتزل » الى ان توارثها « وايزمان » ثم « بن جوريون »

وقد سبق سرد الادلة على هذه الحقيقة . فالصهيونية ولدت كحركة سياسية للرد على اضطهاد اليهود فى شرق اوربا . كانت الفكرة من البداية ان احسن حل لهذا الاضطهاد والاحتقار ان يتجمع اليهود — او بعضهم — فى دولة وجنسية فيكسبون الاحترام والمساواة مع الآخرين . اما الدين فكان لابد ان يمتزج بالدعوة لسببين ، الاول : هو ان الاضطهاد المنصب عليهم كان له طابع دينى ، والثانى : هو ان الدين يصلح شعارا عاطفيا لاقناع اليهود بتأييد الحركة الصهيونية السياسية . واما فكرة العودة الى فلسطين بالذات ، فقد اتخذت شعارا لاثارة الحماسة العاطفية والدينية . بدليل ان بعض القائمين بالحركة ناقشوا مرة فكرة اقامة دولتهم فى تنجانيقا ، كمستعمرة بعيدة خالية .

والدليل الاهم على ذلك هوانه حتى بعد ان اقيمت دولة اسرائيل فعلا ، لم يهرع اليهود اليها كما كان الناس يظنون انما ذهب اليها فقط الذين يعيشون فى بلاد اضطهدوا فيها او فى بلاد ذات مستوى منخفض من المعيشة . اما يهود غرب اوربا مثلا ويهود امريكا ، فلم يذهب منهم احد الى

ارض الميعاد رغم صيحات بن جوريون التى وصلت به ـ من شهور ـ الى حد اتهام كل يهودى يرفض الحياة فى اسرائيل بأنه خارج على الديانة اليهودية . وهى التصريحات التى اثارت ضجة مازال الجميع يذكرونها . .

* ان اسرائيل هى بنت اوربا ، وان كانت بنتها غير الشرعية . فاضطهاد اليهود فى اوربا امر صحيح تاريخيا . وكونهم ذبحوا بالآلاف ـ وبمئات الآلاف ـ حقيقة واحدة . والذى ارتكب هذا الجرم هو حضارة اوربا . الامر الذى دفع مئات الآلاف منهم الى الفرار ، فى اعداد قليلة قبل النازية وفى اعداد كبيرة بعدها . ولكن هؤلاء المهاجرين كلهم اوربيون بغير شك . ومن هنا تنشأ علاقتهم المعقدة بأوربا ، علاقة ابن السفاح بأبيه . ان الاب فى هذه الحالة يخجل من ابنه الذى انجبه سفاحا . انه لايحب ان يراه الناس أو ينسبونه اليه . انه لا يستطيع ان يجعله يعيش معه فى بيته تحت سقف واحد ومع أولاده الشرعيين . ولكنه مع ذلك لا ينسى انه ابنه وانه ينتمى اليه ، فهو يحرص على مساعدته ، والاهتمام بأمره ، عن بعد !

اوربا خجلى من حضارتها التى اثمرت ـ فيما اثمرت من خير وشر ـ مذابح اليهود . ولكنها ليست مستعدة ان تجعلهم يعيشون تحت سقفها . والا لتدفق اليهود الى غرب اوربا ولم يبرحوها . فلا بأس بأن يذهبوا الى مكان آخر ، على ان تعولهم اوربا وترعاهم

والغريب ان الصهيونيين المتعصبين يساورهم نفس الشعور . فاذا كان كثير من اليهود يفضلون لو بقوا فى أوربا ، فلا شك ان فيهم الذين يؤمنون بأن اوربا يمكن ان تضطهدهم فى اى وقت وانهم لذلك يجب ان تكون لهم دولة مستقلة فى مكان ما . ولكن حتى هؤلاء لم يتحولوا

مثلا الى اقامة مجتمع معاد لاوربا ناقم على اضطهادها له. انهم حريصون ــ بعد ان اقاموا دولتهم ــ على ان ينتموا لاوربا ويظلوا جزاء لاصقا بها .. ابن السفاح يبعد عن ابيه واخوته الذين لم يولدوا سفاحا ، ولكن يحاول ان يكون نفسه وينجح ، ثم يعود للانتساب لهم كما يعود الند للند ..

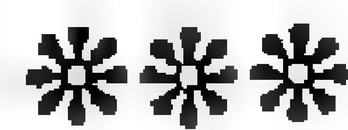
اسرائيل اذن تكونت بفعل الحركة الصهيونية لاقامة دولة يهودية من جهة ، وبفعل اوربا من جهة اخرى . وهى تعيش بالدافعين معا . ولكن الخلاصة ان اسرائيل هى نطفة من اوربا تنمو حيث تلامس جلدنا

وما هو وضع امريكا ، وهى صاحبة الدور الاول فى اقامة دولة اسرائيل ؟ ..

دورها يمكن شرحه فى كلمة واحدة : ان كل الاسباب التى تجعل امريكا مرتبطة بأوربا ، تجعلها بالتالى مرتبطة باسرائيل !

وقد سمعت من يهودى غير صهيونى فى امريكا منذ سنة ، ان من اسباب حماسة امريكا بعد الحرب لاقامة اسرائيل ، الا تتجه هجرة اليهود الهاربين من النازى .. الى امريكا نفسها !

اوربا اذن .. او الغرب .. او الحضارة الغربية .. هى التى ارسلت اسرائيل فى النصف الاول من القرن العشرين الى الوطن العربى ، كما ارسلت نابليون فى النصف الاخير من القرن الثامن عشر .. لنفس الاهداف الاستعمارية مع الفوارق المعروفة طبعا فى سائر الظروف



فكيف لقينا هذا الزحف الجديد ؟ ..

انما الآن ـ لاننا قريبون من المأساة ـ لا نسترجع القصة الا بالحزن والاسى . ولكن الناس بعد مائة سنة لن يجدوا هذا الذى حدث اقل غرابة مما حدث حين التقى المماليك بالحملة الفرنسية منذ اكثر من مائة وخمسين سنة ! ! . .

فالصدام الذى وقع على ارض فلسطين سنة ١٩٤٨ ، وما قبلها وما بعدها ، لم يقع بين كذا الف جندى عربى وبين كذا الف جندى اسرائيلى . كلا . انما كان الصدام بين : اوربا بقوتها الحضارية والمادية .. بسلطتها السياسية وخبثها الدولى من جهة ، وبين العرب بنظمهم المفككه ، ونظمهم الاقطاعية ، وفقرهم المادى من جهة اخرى . .

كان المماليك فى اواخر القرن السابع عشر احسن من حكام العرب وملوكهم سنة ١٩٤٨ . فالمماليك على الاقل قاتلوا قبل ان يهربوا بحريمهم ومجوهراتهم تاركين الشعب الذى سرقوه واجاعوه بمفرده . اما فى سنة ١٩٤٨ فقد كان بعض الساسة العرب يلتقون بجولد ماير وموشى ديان فى السر لكى يخطط معهما المعركة التمثيلية التى سيموت فيها آلاف الجند . وكان فاروق يتاجر فى الاسلحة . وكان نورى السعيد وعبد الاله يأمران الجيش العراقى بألا يتحرك على الاطلاق .. الى آخر القصص التى اصبحت حقائق معروفة ذائعة !

فهنا ايضا وجد الشعب نفسه متروكا امام اداة ضخمة حديثة هائلة .. وكان الشعب ايضا لا تنقصه الشجاعة ولا البسالة .. ولكن تنقصه الاداة !

كانت الصهيونية ـ باختصار شديد ـ تمثل الغرب بكل قوته ، ومعرفته بأدوات العصر الحديث السياسية

والعلمية والحضارية .. بينما كان الشعب العربى مختنقا من الاستعمار الغربى ، ومن الاذناب المحليين ، ومن مماليك القرن العشرين فى صور جديدة ..

ثم ماذا ؟ . . .

الذين يحبون جمال عبد الناصر فى هذا العالم والذين يكرهونه على السواء ، لن يجدوا مفرا ، وهم يؤرخون ويحللون الصدام بين أقدار العرب واسرائيل ، من أن يقسموا قصة هذا الصدام قسمة حاسمة الى مرحلتين :

قبل عبد الناصر ، وبعد عبد الناصر . .

لقد نبت من هذا كله جيل جديد كافح على مستويات مختلفة وبامكانيات متباينة فى شتى الاقطار العربية من أجل نقلة جديدة فى حياة العرب ، جيل لا شك ان عبد الناصر هو اكبر رموزه ، واكبر من وضع هذه الامال موضع التنفيذ

قبل عبد الناصر ، فى حدود الزاوية التى اعالجها فى هذا المقال ، ماذا كان هناك ؟ . . .

من ناحية الصهيونية ، نجد أنه من أهم الدراسات التى يجب ان نعرفها حقا تاريخ تلك الحركة وعملها الدائب فى قلب أوربا وأمريكا منذ ولدت . كيف كانت تستخدم الضغط والمساومة ، والرجاء والاملاء . كيف كانت تضع فى قلب الشرق الاقطاعى مزارع صهيونية تعاونية مؤسسة على أن تكون كل منها وحدة انتاجية واستهلاكية وعسكرية محاربة معا ، تكون نقطة للهجوم كما تكون قلعة تصمد للحصار فى نفس الوقت . وكيف كانت تؤسس نقابات عمالية قوية تمسك بأعصاب المرافق وتتغلغل وتقيم الصلات فى شرايين الحركات العمالية العالمية من جهة

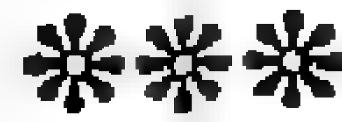
أخرى .. وكيف انها تدرك فى خلال الحرب ان بريطانيا التى منحتها وعد بلفور لن تصبح القوة البازغة فى نهاية الحرب ، فتنقل ـ الصهيونية ـ نشاطها الى نيويورك ، ويكمن وايزمان هناك ليمارس كل أنواع الضغط والاقناع والمساومة مع روزفلت ثم ترومان ، ليجد ترومان فى نهاية الحرب فى مركز من يصدر الاوامر الى آتلى فى لندن .

وكيف انها حتى فى هذا كله لم تغفل عن أن روسيا هى القوة الاخرى البازغة ، فهى تحوم حولها ، وتقنعها بأن العرب هم برادع الانجليز وانهم غير موجودين كقوة فعالة، فتحقق مالم يحققه احد ، وهو اجتماع أصوات امريكا وروسيا على انشاء دولة اسرائيل . وكيف كانت الصهيونية تقيم مصانع السلاح والذخيرة فى قلب فلسطين .. مصانع كاملة نقلتها سرا قبل المعركة التى كانت تعرف انها آتية .. الى اخره .. الى آخره . كانت « أوربا تمارس كل خبرتها وقوتها وسلطتها ودهائها معا

وفى مقابل ذلك ، من ناحية العرب .. ماذا كان هناك ؟

يلخص الامر كله ان نقول ان كل الطبقات الحاكمة فى البلاد العربية كانت لا تخرج عن دائرة بريطانيا ولا ترى سوى شمسها ، منذ أعاد الانجليز خديو مصر الى العرش بقوة السلاح بعد أن أخمدوا الثورة العرابية .. ومنذ لبس لورانس العقال فى قيادة الثورة العرابية خلال الحرب العالمية الاولى .. منذ ذلك الوقت لم تر الفئات الحاكمة فى كل البلاد العربية شيئا الا انجلترا . ولم تعترف بشىء الا بسلطة الانجليز وسطوتهم وقدرتهم . وهكذا فبالنسبة لفلسطين كان كل الجهد هو رجاء الانجليز ، ومفاوضتهم ، والغضب منهم يوما ، لمهادنتهم يوما اخر .. وانجلترا

وأوربا كلها تبيعهم يوما بعد يوم .. وهم يقبلون منهـا هذه يوما بعد يوم ! ..



ولقد كانت الشعوب تقاوم هذا كله . وتحاول أن تتغلب على تخلفها الرهيب : تارة بانتفاضات شعبية باسلة تسفح الدم ، وتارة بمحاولات فردية باسلة لنشر نور الوعى أو لاقامة منشآت اقتصادية وانتاجية وعلمية حديثة . ولكن هذا الانطلاق الى العصر الحديث والى الحضارة لم يكن أبدا جهدا قوميا شاملا تشترك فيه الحكومة مع الشعب والمال مع العمل والعلماء مع البسطاء فى حركة عضوية واحدة ...

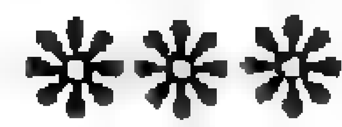
.. الا حين بدأت المرحـلة التى يرمز لها ويمثلها عبد الناصر

والاحداث القريبة معروفة ومذكورة يكفى هنا ذكر بعضها

* فصفقة الاسلحة ، وتحطيم الاحلاف العسكرية ، وتمصير المؤسسات القومية والمالية والانتاجية ، وتكتيل الراى العام العربى الشعبى فى لحظات خارقة يضغط فيها الشعب العربى بأكمله على العدو ضغطة واحدة رغم أنف حكوماتها ، والانطلاق فى رحلة الحياد الجسـور حين كان طريقها مايزال شـائكا وعرا مهلكا .. كل هذا أدى الى وضـع جديد تماما ، هو : ان قوتنـا الذاتيـة وارادتنا الذاتية فى مقاومة اسرائيل لم تعد متوقفة على رغبة اوربا أو الغرب كله ، أى على آباء اسرائيل الطبيعيين، كما كان الحال من قبل

ويكفى للدلالة على عمق التحول ، اننا بعـد أن كنا

معزولين تائهين ، وبعد أن كان ساستنا يذهبون الى الامم المتحدة مثلا أشبه بالقرويين الضائعين فى مدينة صاخبة ، بينما الشرق والغرب معا يؤيدان اسرائيل .. أصبح الان نصف العالم ـ المعسكر الشرقى ـ يعادى اسرائيل ويساندنا تماما ، واصبحت كتلة كبرى من دول آسيا وافريقيا تدير ظهرها لاسرائيل ، بينما المعسكر الغربى نفسه يتردد طويلا قبل أن يجاهر بمساندتها على حسابنا كما كان يفعل من قبل ..



ولم يتم هذا التحول بخطب منبرية فى الامم المتحدة . او بمذكرات قانونية ترسل الى وزارات الخارجية فى لندن أو موسكو أو واشنطون . انما تم ببناء قوة ذاتية مرهوبة الجانب ، وبوجود من يدرك أدوات السياسة الدولية الحديثة ودقائقها ، وبخلق مفاهيم عربية جديدة وحمايتها وسحق أعدائها

ثم هناك رفع شعار الثورة الاجتماعية ، وهى فى الواقع حجر الاساس لبناء اى مستقبل ناجح لنا فى هذا الصدام الطويل ..

انها ثورة لتحقيق العدل من جهة ، وللحاق بالعصر الحديث وامتلاك أدواته من جهة أخرى ..

والثورة الاجتماعية تبدو الان وكأنها محور الجدل والصراع فى العالم العربى . والهياكل الرجعية التى اندحرت واثبتت افلاسها امام اسرائيل سنة ١٩٤٨ وما بعدها تشن اليوم حملات ضاربة على الثورة الاجتماعية وحين تعجز هذه الهياكل الرجعية عن مهاجمة الثورة الاجتماعية مواجهة ، ومن الامام ، تعمد الى محاولة ايهام

الشعب العربى بان انجاز هذه الثورة الاجتماعية يبعدنا عن ساحة الصراع ضد اسرائيل ..

وهذا هو التضليل بعينه .. وهو أخطر تضليل يجب علينا أن نكشفه فى هذه الفترة ونفضحه بشجاعة ..

لقد قادتنا هذه الهياكل الرجعية مرة ضد اسرائيل .. ونحن نعرف ماذا كانت النتيجة ..

هذه الهياكل الرجعية التى هى رمز تخلفنا القديم ، تكتشف اليوم أن استمرار تخلفنا ضرورى لبقائها . ولكن استمرار تخلفنا ضرورى لبقاء اسرائيل أيضا ! . « ان التخلف هو الشىء الوحيد الذى يضمن لاسرائيل أن تبقى فى أرضنا الى الابد »

وليس أمرا خاليا من الدلالة ان متوسط دخل اليهودى فى فلسطين قبل حرب فلسطين كان ١٤١ جنيها فى السنة بينما متوسط دخل العربى كان ٥٠ جنيها .. وان مجموع انتاج اليهود فى فلسطين ـ الاقلية ـ كان ٨١ مليونا بينما كان مجموع انتاج العرب ـ الاغلبية ـ فيها ٦٢ مليونا

المعركة لا يحسمها كذا ألف جندى وكذا وكيت من السلاح . ان هذا هام وحيوى الى أقصى الحدود ، ولكن أى جيش لا يؤدى مهمته الا اذا كان مستندا الى مجتمع قوى متقدم سليم . قدرة أى جيش مرتبطة ارتباطا عضويا بقدرة المجتمع نفسه وفعاليته ..

الثورة الاجتماعية اذن .. والثورة الصناعية .. والثورة الثقافية واقامة مجتمع سليم عصرى متحضر ، هى المعركة الجدية التى تحسم معركة هذه الاقدار المتصادمة فى مداها الطويل ..

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البـــرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سـنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجـــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

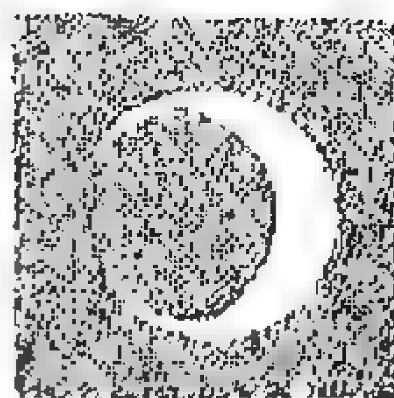


هذا الكتاب

منذ ما يقرب من نصف قرن ، وقضية اسرائيل ، والصهيونية ، هى القضية الاولى المؤثرة فى حياة العرب . وقد صدرت كتب كثيرة عن اسرائيل وعدوانها . ولكن حتى الآن لم يكتب العرب كثيرا عن اسرائيل او الصهيونية بابعادها واعماقها الشاملة ..

ان التحدى الذى تفرضه علينا اسرائيل ليس تحديا عسكريا أوسياسيا فقط ،ولكنه تحد « حضارى » بأوسع معانيه .. فى السياسة والاقتصاد والفن والفلسفة والمبادىء الانسانية وفهم حركة التاريخ

وهذا الكتاب الصغير الحجم يفتح آفاقا شاسعة للبحث والتأمل فى هذه المجالات ..



كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

حقائق الإسلام وأباطيل خصومه

١٦٩

عباس محمود العقاد

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

العدد ١٦٩ - ذو الحجة ١٣٨٤ - أبريل ١٩٦٥

No. 169 — Avril 1965

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

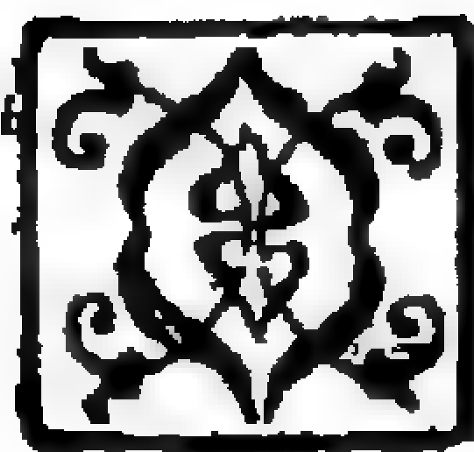
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى - فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا - في بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم - في الامريكتين ٥ دولارات ونصف - في سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنـة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليماً ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



ـلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

حقائق الإسلام

وأباطيل خصومه

•

بقلم

عباس محمود العقاد

•

دار الهلال

تقديم
بقلم: أنور السادات

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ..

أما بعد ، فقد طال التصدى للاديان ، بقصد النيل منها ، وبغير قصد ، واستمرأ الكثيرون التخفف من أحكامها ، بدعوى يدعونها وبغير دعوى . وهان على بعض الهيئات أن تشكك فيما فرغ منه العلم . وحار بين هؤلاء وهؤلاء كثيرون ، حتى أصبح أمر الدين شكا وتظنينا . وهذه ظاهرة من شأنها ان تشغل بال المؤتمر الاسلامى ، وتبلغ من عنايته واهتمامه مبلغا بعيدا ...

حدث هذا بدعوى حرية الفكر ، وحرية البحث . ومادرى هؤلاء جميعاً أن حرية الفكر تتطلب غزارة معرفة ، واتساع أفق ، وعمق بحث ، وسلامة منطق ، ونصوع حجة ، وايمان قلب ، وانصاف رأى ، واستقامة مذهب ، وتنزها عن الهوى ..

ولما كان محل اتفاق ان الاستاذ عباس محمود العقاد موفور النصيب من هذا كله ، كان طبيعيا ان يتجه التفكير اليه ، وكان طبيعيا أن يرتاح هو الى هذا الاتجاه ،

---

* هذه المقدمة كتبها السيد أنور السادات حينما كان الامين العام للمؤتمر الاسلامى . وقد طبع المؤتمر هذا الكتاب طبعته الاولى بإتفاق مع مؤلفه سنة ١٩٥٧ م

لما أخذ نفسه به من مؤازرة الحق وتأييده ، ومقاومة الباطل وتفنيده . .

وها هو ذا كتابه « حقائق الاسلام وأباطيل خصومه » يخرجه المؤتمر الاسلامى لكل معنى بالثقافة ، راغب فى تمييز الحق من الباطل ، راج ان يقف على أصول الاسلام ومبادئه ، ليحقق به المؤتمر غرضا من أغراضه ، هو نشر الثقافة الدينية خالصة مما يشوبها من شبهات ، ويعلق بها من ريب

هذا ، والنية أن يترجم الكتاب الى اللغة الانجليزية ، واللغات الأسيوية ، ليعم نفعه ، وليكون له الاثر المرجو . .
والله سبحانه هو المستعان ، وهو ولينا ، وهو نعم المولى ونعم الوكيل . .

أنور السادات

فاتحة
بقلم : المؤلف

بسم الله ، وعلى هدى من الايمان بالله ..

وبعد فهذا كتاب عن فضائل الاسلام وأباطيل خصومه، يتقاضانا التمهيد له أن نقدم بين يديه بكلمة موجزة عن فضل الدين كله أو فضل العقيدة الدينية فى أساسها ..

اذ لا محل للكلام على فضل دين من الأديان ما لم يكن أمر الدين كله حقيقة مقررة ، أو ضرورة واضحة ، ولامعنى كذلك لأن نقصر الخطاب على المؤمنين المصدقين ولانشمل به المتشككين والمترددين ، بل المنكرين والمعطلين .. لأن المتشكك والمعطل أولى بتوجيه هذا الخطاب من المؤمن المصدق ، ولا فضل لدين على دين ما لم يكن للدين كله فضل مطلوب تتفاوت فيه العقائد كما يتفاوت فيه من يعتقدون ومن لايعتقدون .. هل للدين حقيقة قائمة ؟ . هل للدين ضرورة لازمة ؟ ..

سؤالان متشابهان ، بل سؤال واحد فى صورتين مختلفتين ، ولسنا نزعم ان الصفحات القليلة التى نقدم بها هذا الكتاب كافية للاجابة عن هذا السؤال الذى يجاب عنه كل يوم بما يتسع بعد الجواب الواحد لألف جواب . ولكننا نزعم ان هذه الكلمة الموجزة كافية لموضعها المقدور من هذا الكتاب ، لأنها تكفى لهذا الموضوع

اذا تركت شكوك المترددين والمنكرين مضعوفة الأثر منقوضة الأساس ، وتكفى لموضعها اذا تركت من يشك ويتردد وقد أحس الوهن فى بواعث شكه وأسباب تردده، وبحث عن جانب الحقيقة فيها فلم يجده ، أو بحث عنها فوجدها فى الجانب الآخر أقرب الى العقل والبداهة وأجدر بالاتجاه فى وجهتها الى نهاية المطاف ..

ونحن فى بداءة الطريق نحب أن نصحب القارىء على بصيرة من الباب الذى نستفتح به طريق البحوث فى هذا الكتاب ، بل نستفتح به الطريق فى كل بحث تشعبت حوله المسالك واضطربت عنده الآراء .. وبابنا هذا قبل كل طريق من تلك الطرق ان نسأل : اذا كان هذا الامر غير حسن فما هو الحسن ؟ ثم هذا الذى نستحسنه كيف يكون ؟ وأى الأمرين اذن هو الاقرب الى العقل أو الايسر فى التصوير ؟ فان كان ما نستحسنه هو الاقرب الى عقولنا والأيسر عندنا فى الامكان فقد حق لنا أن نفضله وننكر ما عداه ، وان عرفنا بعد المقابلة بينهما ان الذى ننكره أقرب الى العقل والامكان من الذى نستحسنه .. فقد وجبت علينا مراجعة التفكير ووجب فى رأينا ، قبل رأى غيرنا ، أن نصنع الاناة ونتردد فى الحزم والتفضيل

ونبدأ الآن من البداءة فى هذه الفاتحة فنقول ان أكبر الشبهات التى تعترض عقول المتشككين والمنكرين شبهتان: هما شبهة الشر فى العالم ، وشبهة الخرافة فى كثير من العقائد الدينية . وخلاصة شبهة الشر أنهم لا يستطيعون التوفيق بين وجود الشر فى العالم وبين الايمان باله قدير كامل فى جميع الصفات . وخلاصة شبهة الخرافة فى كثير من العقائد الدينية أنهم لا يستطيعون التوفيق بين العقائد وبين المحسوسات والمعقولات التى تتكشف عنها معارف البشر كلما تقدموا فى معارج الرقى والادراك

شبهة الشر

أما شبهة الشر فهي من أقدم الشبهات التى واجهت عقل الانسان منذ عرف التفرقة بين الخير والشر ، وعرف أنهما صفتان لا يتصف بهما كائن واحد .. وربما كان تفريق الانسان الهمجي بين شعائر السحر وبين شعائر العبادة مقدمة الحلول الكثيرة التي عالج الانسان البدائى أن يحل بها هذه المشكلة العصية .. ثم ترقى الانسان فى معارج الحضارة والادراك فاهتدى الى حل اخر أوفى من هذا الحل الساذج وأقرب الى المعقول ، وذاك حيث آمن بالاهين اثنين وسمى أحدهما باله النور وسمى الآخر باله الظلام .. وجعل النور عنوانا لجميع الخيرات والظلام عنوانا لجميع الشرور

الا أن هذا الحل على ارتقائه ووفائه بالقياس الى الحلول البدائية فى عقائد القبائل الهمجية لن يرضى عقول المؤمنين بالتوحيد ولن يحل لهم مشكلة الشر فى الوجود ولن يزال فى عرفهم حتى اليوم ضربا من الكفر يشبه جحود الجاحدين وتعطيل المعطلين

ولعلنا لم نطلع على حل لهذه المشكلة العصية أوفى من الحل الذى نطلق عليه اسم حل الوهم ، ومن الحل الذي

نطلق عليه اسم حل التكافل بين أجزاء الوجود

وخلاصة حل الوهم ، أن القائلين به يعتقدون أن الشر وهم لا نصيب له من الحقيقة وأنه عرض زائل يتبعه الخير الدائم . ومن الواضح أن هذا الحل لا يفض الاشكال ، ولا يغنى عن التماس الحلول الاخرى التي تريح ضمير المعتقد به ، فضلا عن المعترضين عليه .. اذ لا نزاع فى تفضيل اللذة الموهومة على الالم الموهـــوم .. ولا يزال الاعتراض على الالم لغير ضرورة قائما فى العقول ما دام فى الامكان أن تحل لذاتنا الموهومة محل الامنا الموهومة

وخلاصة الحل الذى نطلق عليه اسم حل التكافل بين أجزاء الوجود أن المعتقدين به يرون أن الشر لا يناقض الخير فى جوهره ، ولكنه جزء متمم لـــــه أو شرط لازم لتحقيقه .. فلا معنى للشجاعة بغير الخطر ، ولا معنى للكرم بغير الحاجة ، ولا معنى للصبر بغير الشدة ، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقيصة تقابلها وترجح عليها . وقد يطرد هذا القول فى لذاتنا المحسوسة .. يطرد فى فضائلنا النفسية ومطالبنا العقلية ، اذ نحن لا نعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع ، ولا نستمتع بالرى ما لم نشعر قبله بلهفة الظمأ ، ولا يطيب لنا منظر جميل ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح

وهذا الحل ــ حل التكافل بين أجزاء الوجود ــ أوفى وأقرب الى الاقناع من جميع الحلول التى عولجت بها هذه المشكلة على أيدى الحكماء أو على أيدى فقهاء الاديان ، ولكنها لا تغنى الحائر المتردد عن سؤال لابد له من جواب وهو : لماذا كان هذا التكافل لزاما فى طبيعة الوجود ؟ ولماذا يتوقف الشعور باللذة على الشعور بالالم أو يتوقف تقدير قيمة الفضيلة على وجـــــود النقيصـــــة وضرورة

الاشمئزاز منها ؟ .. أليس الله بقادر على كل شيء ؟ أليس من الاشياء التي يقدر عليها أن يتساوى لديه خلق اللذة وخلق الالم ؟ أليس خلق اللذة أولى برحمة الاله الرحيم من خلق الالم كيف كان وكيف كان موقعه من التكافل بينه وبين اللذات ؟

وعندنا أن المشكلة كلها بعد جميع ما عرضناه من حلولها انما هي مشكلة الشعور الانساني وليست في صميمها بالمشكلة العقلية ولا بالمشكلة الكونية ..

وهنا نعود الى الباب الذى نستفتح به مسالك هذه المشكلات ونسأل أنفسنا : اذا كان الاله الذى توجد النقائص والآلام فى خلقه الها لا يبلغ مرتبة الكمال المطلق ، فكيف يكون الاله الذى يبلغ هذه المرتبة في تصورنا وما ترتضيه عقولنا ؟ ..

أيكون الها قديرا ثم لا يخلق عالما من العوالم على حالة من الحالات ؟ أيكون الها قديرا يخلق عالما يماثله فى جميع صفات الكمال ..

هذا وذاك فرضان مستحيلان أو بعيدان عن المعقول ، كل منهما أصعب فهما وأعسر تصورا من عالمنا الذى ننكر فيه النقائص والالام ..

فأما الاله القدير الذى لا يخلق شيئا فهو نقيضة من نقائض اللفظ لا تستقيم فى التعبير بله استقامتها فى التفكير ، فلا معنى للقدرة ما لم يكن معناها الاقتدار على عمل من الاعمال ..

وأما الكمال المطلق الذى يخلق كمالا مطلقا مثله فهو نقيضة أخرى من نقائض اللفظ لا تستقيم كذلك فى التعبير بله استقامتها فى التفكير ، فان الكمال المطلق صفة منفردة لا تقبل الحدود ولا أول لها ولا اخر .. وليس فيها محل لما هو كامل وما هو أكمل منه . ومن البديهى أن يكون

الخالق أكمل من المخلوق وألا يكون كلاهما متساويين فى جميع الصفات • وألا يخلو المخلوق من نقص يتنزه عنه الخالق ، فاتفاقهما فى الكمال المطلق مستحيل يمتنع على التصور ولا يحل تصوره مشكلة من المشكلات • وأى نقص فى العالم المخلوق فهو حقيق أن يتسع لهذا الشر الذى نشكوه ، وأن يقترن بالالم الذى يفرضه الحرمان على المحرومين ، وبخاصة اذا نظرنا الى الاجزاء المتفرقة التى لابد أن يكون كل جزء منها قاصرا عن جميع الاجزاء ، وأن يكون كل شىء منها مخالفا لما عداه من الاشياء

فوجود الشر فى العالم لا يناقض صفة الكمال الالهى ولا صفة القدرة الالهية •• بل هو ولا ريب أقرب الى التصور من تلك الفروض التى يتخيلها المنكرون والمترددون ولا يذهبون معها خطوة فى طريق الفهم وراء الخيال المبهم العقيم ••

وقد يختلف مدلول القدرة الالهية ومدلول النعمة الالهية بعض الاختلاف فى هذا الاعتبار •• فمدلول القدرة الالهية يستلزم — كما تقدم — خلق هذا العالم الموجود ، ولكن مدلول النعمة الالهية يسمح لبعض المتشائمين أن يحسبوا أن ترك المخلوقات فى ساحة العدم أرحم بها من اخراجها الى ساحة الوجود ، ما دام الالم فيه قضاء محتوما على جميع المخلوقات • ومهما يكن من شيوع التشاؤم بين طائفة من المفكرين فليس تفسير النعمة الالهية بترك المخلوقات فى ساحة العدم تفسيرا أقرب الى المعقول من تفسير هذه النعمة الالهية بانعام الله على مخلوقاته بنصيب من الوجود يبلغون به مبلغهم من الكمال المستطاع لكل مخلوق ••

وليس الشر اذن مشكلة كونية ، ولا مشكلة عقلية ، اذا

أردنا بالمشكلة أنها شيء متناقض عصى على الفهم والادراك، ولكنه فى حقيقته مشكلة الهوى الانسانى الذى يرفض الالم ويتمنى أن يكون شعوره بالسرور غالبا على طبائع الامور ..

واذا كانت فى هذا الوجود حكمته التى تطابق كل حالة من حالاته ، فلابد من حكمة فيه تطابق طبيعة ذلك الشعور، ولا نعلم من حكمة تطابق طبيعة ذلك الشعور غير الدين..

ان الشعور الانسانى فى هذه المشكلة الجلى يتطلب الدين . فهل ثمة مانع يمنعه من قبل العقل أو من قبل المعرفة التى يكسبها من تقدمه فى العلم والحضارة ؟ هنا يستطرد بنا الكلام على مشكلة الشر الى الكلام على مشكلة الدين او مشكلة التدين فى جملته .وخلاصتها كما قدمنا عند المترددين والمعطلين أن الاديان قد اختلطت قديما بكثير من الخرافات وأن العقل يتعسر عليه أحيانا أن يوفق بين عقائد الدين وحقائق المعرفة العلمية

شبهة الخرافة

وهنا نعود مرة اخرى الى سؤالنا الذى افتتحنا به هذه الكلمة فنسأل المترددين والمعطلين : اذا كان التدين على هذه الحالة التى وجد بها غير حسن فى تقديركم فكيف يكون الحسن ؟ وكيف تتصورونه ممكنا على نحو أقرب الى العقل وأيسر فى الامكان ؟

وكأننا بهم يقترحون دينا لا يركن اليه الا النخبة المختارة من كبار العقول الذين لا تتسرب الخرافة الى مداركهم فى عصر من العصور ، كائنا ما كان موقع ذلك العقل من درجات التقدم والحضارة

هذا ، أو يقترحون دينا يتساوى فيه كبار العقول وصغارهم تساويا اليا لا عمل فيه لاجتهاد الروح وتربية الضمير واستفادة المستفيد من كفاح الحوادث وتجارب الحياة

هذا ، أو يقترحون دينا يتبدل فى كل فترة تبدلا اليا كلما تبدلت معارف الامم فى مختلف الازمنة أو مختلف البلدان

ومهما نسترسل فى تصور المقترحات التى تخطر للمترددين والمعطلين فلا نخال أننا منتهون الى مقترح

يرونه ويراه غيرهم أقرب الى التصور وأيسر من الدين فى تاريخه المعهود • فان اطوار التدين كما نشأت من أقدم عصورها الى اليوم لا تزال اقرب الى المعقول من كل مقترح ذكروه أو ذكرناه على ألسنتهم بين هذه الفروض

فالنخبة المختارة من كبار العقول لا تحتاج الى تعاليم الدين كما تحتاج اليه طوائف البشر من الجهلاء او صغار العقول • وقد يتنزه أبناء النخبة المختارة عن الخرافة فى اونة محدودة ولكنهم لن يتنزهوا عنها فى كل اونة مع التسليم بتطور العلم وتطور الادراك الذى يستفيد من جملة العلوم ••

أما أن يتساوى الناس تساويا اليا فى كشف حقائق الكون من أول عهد البشر بالتدين الى اخر عهدهم المقدور لهم من الحياة الارضية ـ فانما هو نكسة بهم الى حالة لا فرق بينها وبين احوال الجماد او أحوال الالات التى لا عمل فيها لاجتهاد الروح ولا لتربية الضمير

وأما أن تتبدل العقائد فى كل لحظة تتغير فيها مدركات العلوم ومدركات المعرفة على العموم فتلك حالة نحاول أن نتصورها فى أطوار الجماعات فلا نرى أنها قابلة للتصور فى جماعة واحدة تعيش من أسلاف الى أخلاف مئـــات السنين ، أو الوف السنين ، اللهم الا اذا تصورنا عقول هذه الجماعة وضمائرهم فى صورة الصفحات التى تنقلب صفحة بعد صفحة حين تعرض على قرائها وهم يريدون تقليبها أو لا يريدون

كل هذه الصور يقترحها من يشاء ولا يكلف نفسه أن يتمادى مع صورة منها فى التخيل أو يعالج تطبيقها فى الواقع اذا استطاع •• وما هو بمستطيع ••

ونكاد نقول عن نشأة التدين بين جماعات البشر كما

نشأ فى عالم الواقع أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان ، لولا أننا نرى أن الزمان المتطاول قد يمكن فيه اليوم ما لم يكن ممكنا بالامس وقد يمكن فيه غدا ما ليس بممكن فى يومنا هذا ، ولا فى الايام التى سلفت · وقد يمكن فيه عند قوم فى العصر الواحد مايتعذر على آخرين فى العصر نفسه ·· الا أننا ندين بقول القائلين : « أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان » اذا نظرنا الى تطور الدين نظرة تحيط بأطواره كلها فى جميع الازمنة وبين جميع الاقوام وينبغى أن نذكر أن التعبير الرمزى والعقيدة الايمانية لازمتان من لوازم الشعور الدينى لا تنفصلان عنه ولا يتأتى لنا أن نفهم ظواهره وخوافيه ما لم نكن على اســـــتعداد لتفسير هذا التعبير وقبول ذلك الايمان

ولسنا نقبل التعبير الرمزى والعقيدة الايمانية ترخصا مع الدين وحده برخصة لا نلتمسها مع سائر المدركات الحسية أو النفسية ، لاننا نعلم ان التعبير الرمزى والعقيدة الايمانية لازمتان من لوازم تكوين الانسان فى مدركات حسه ومدركات نفسه على اختلاف الاساليب ومعـــارض الادراك

فأى أدراك للانسان أصدق عنده من ادراك العيان ؟ وما هى حقيقة هذا الادراك ان لم يكن فى صميمه تعبيرا رمزيا نضع له من الاسماء ما ليس بينه وبين الواقع مطابقة غير مطابقة الرمز للحقيقة التى ترمز اليها ؟ فنحن نسمى الالوان بأسمائها ثم نرجع الى حقائقها فلا نعلم لها حقيقة فى الواقع الا أنها ذبذبات كما يقال فى أمواج الاثير ، ولا نعلم للاثير من حقيقة فى الواقع غير أنه كما يقال فرض نقول به لاننا لا نريد أن نقول بفرض العدم او بفـرض الفضاء والخلاء

ومن أمثلة العقيدة الايمانية التى نلمسها فى كل حى أو نلمسها فى كل مولود ، أن الآباء والامهات يحبـــون ذريتهم ولا يقبلون بديلا منها ، ولو كان البديل خيرا من تلك الذرية واجمل منظرا وافضل مخبرا وأدعى الى الغبطة والرجاء • ولا بقاء لانواع الاحياء اذا قامت الابوة على عاطفة غير هذه العقيدة الايمانية التى يرتبط بها قوام الحياة • ولا يختلف اثنان فى وصف هذا الحنان الابوى بالمغالاة اذا أردنا أن نجرد الحياة من صواب العاطفة أو صواب العقيدة ولا ندين فيها بغير صواب العقول

فاذا وجب علينا ان نقبل التعبير الرمزى والعقيــــدة الايمانية فى مدركات الدين فنحن لا نترخص مع الدين وحده بهذه الرخصة الشائعة عندنا نحن بنى الانسان فى جميع مدركاتنا ، بل نحن نسوى بين رخصة الدين ورخصة الحس ورخصة العقل فى هذه اللغة الحيوية التى ينطق بها كل حى مع اختلاف الظروف والعبارات

على أننا لا نبتغى بدعا من العقل اذا ميزنا الدين برخصة لا تساويها رخصة قط فيما تدركه الحواس أو تدركـه العقول • لان مدركات الدين تشمل اصول الوجـــود وأسرار الخليقة وتتطلع الى بواطن الغيب كما تتطلع الى ما وراء حدود هذا العالم المحدود ، كما ارتفعت بهــــا اشواقها الى سماء الكمال المطلق : كمال الخالق المبـدع لجميع هذه المخلوقات •

فاذا قبلنا من عقولنا وحواسنا ان تقنع بالتعبير الرمزى والعقيدة الايمانية فى ادراك خليقة محدودة من هـــذه الخلائق التى لا عداد لها فانه لمن الشطط أن نسوم العقل ادراكا للحقيقة المطلقة يخلو من الرموز ويتجرد من عنصر الايمان

ولنكن واقعيين مع الواقعيين في كلامنا عن مشكلة الدين . فاننا كنا الى الان في هذه الفاتحة عقليين ، نحتكم الى البرهان في محاسبة الدين ومراجعة الشبهات التي تواجه المترددين والمعطلين ويواجهون بها عقائد الاديان على الاجمال

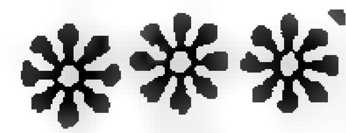
فماذا لو أضفنا الى حجة العقل حجة الواقع من تجارب التاريخ وتجارب الحاضر في شئون الجماعات الانسانية وشئون كل فرد من بني الانسان على حدة بينه وبين جماعته أو بينه وبين نفسه ؟

ان تجارب التاريخ تقرر لنا اصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى ، ولا تسمح لاحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغني عنه في علاقته بتلك الجماعة أو فيما بينه وبين سريرته المطوية عمن حوله ، ولو كانوا من أقرب الناس اليه . ويقرر لنا التاريخ أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الانسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من العوامل المؤثرة في حركات الامم فانما تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة في التمكن من اصالة الشعور وبواطن السريرة

هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ولا قوة العرف ولا قوة الاخلاق ولا قوة الشرائع والقوانين اذ كانت هذه القوة انما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه ، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه ، أو العلاقة بينه وبين نوعه على تعدد الاوطان والاقوام . أما الدين فمرجعه الى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره . وميدانه يتسع لكل ما في الوجود من ظاهر وباطن ، ومن علانية وسر ، ومن ماض

أو مصير ، الى غير نهاية بين آزال لا تحصى فى القدم وآباد لا تحصى فيما ينكشف عنه عالم الغيوب . وهذا على الاقل هو ميدان العقيدة الدينية فى مثلها الاعلى وغايتها القصوى وان لم تستوعبها ضمائر المتدينين فى جميع العصور

ومن أدلة الواقع على اصالة الدين ، أنك تلمس هـذه الاصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة والجماعة التى لا دين لها أو لا تعتصم من الدين بركن ركين . وكذلك تلمس هذه الاصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة وفرد معطل الضمير مضطرب الشـعور يمضى فى الحياة بغير محور يلوذ به وبغير رجاء يسمو اليه . فهذا الفارق بين الجماعتين ، وبين الفردين ، كالفارق بين شجرة راسخة فى منبتها وشجرة مجتثة من اصولها ، وقل أن ترى أنسانا معطل الضمير على شيء من القوة والعظمة الا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم اذا حلت العقيدة فى وجدانه محل التعطل والحيرة



وبعد ، فنحن نختم هذه الفاتحة كما بدأناها بالتنبيه الى غرضنا من هذه المناقشة الوجيزة لشبهات المترددين والمعطلين على التدين فى أساسه ، فنقول فى ختامها كما قلنا فى مستهلها اننا لا نحسب أن مناقشة من المناقشات فى هذا الموضوع الجلل تحسم الخلاف وتختم المطاف . ولكننا نطمع بحق فى الابانة عن مواطن الضعف من تلك الشبهات ونعلم أنها أضعف من أن تقتلع اصول العقيدة الدينية من الطبيعة الانسانية ، وأنها تتهافت تباعا كلما استحضر الباحث فى خلده شرائط الدين المعقولة التى تلازمه حتما فى رأى المؤمن بدين من الاديان وفى رأى المنكر لجميع الاديان على السواء

فمن شرائط الدين اللازمة أن تدين به جماعة يمتد

أجلها وراء اجال الافراد وتتعاقب فيها الاجيال حقبة بعد حقبة الى أمد بعيد • فلا يؤخذ على الدين اذن أنه يناسب هذه الاجيال حيث تأخرت كما يناسبها حيث تقدمت على مر الزمان مع تطور العلم والحضارة

ومن شرائط الدين اللازمة أن تدين به الامة فى العصر الواحد على تفاوت ابنائها فى المعرفة والسجية والرأى والمشرب • فلا يؤخذ على الدين اذن أن يدخل فيه حساب العالم والجاهل وحساب الرفيع والوضيع وحساب الطيب والخبيث وحساب الذكى النابغ والغبى الخامل

ومن شرائط الدين اللازمة أن يريح الضمير فيما يجهله الانسان — ولابد أن يجهل — من شئون الغيب وأسرار الكون • لانها الشئون والاسرار التى لا يحيط بها عقله المحدود ولا تبديها له ظواهر الزمان والمكان • فلا يؤخذ على الدين أذن أن يتولى تقريب هذه الاسرار الابدية بأسلوب المجاز والتشبيه أو بأسلوب الرمز الذى تدركه العقول البشرية على مقدار حظها من الفطنة والنفاذ الى بواطن الامور وخفايا الشعور

ومتى توفرت النفس على تسليم هذه الشرائط اللازمة لكل دين من الاديان فقد وجب على العارفين أن يضطلعوا بالتوفيق بينها وبين مطالب الجماعة ومطالب الزمن ومطالب السريرة فى أعماقها ، حيث تتصل بعالم الغيب وعالم الشهادة صلاتها التى لا تنقطع لمحة عين

***

وظاهر من سياق الكلام عن الدين فى هذه الفاتحة أننا نعنى به التدين على اطلاقه ونريد أن ندل على أصالته فى حياة الفرد وحياة الامة ، ومتى عرفنا للتدين أصالته فى كلتا الحياتين منذ ألوف السنين •• فليس ما يمنع أن

يكون بين الديانات التى آمن بها البشر قديما وحديثا ديانة أفضل من ديانة وعقيدة أقرب من عقيدة الى الكمال ..

وانما تفضل الديانة سواها بمقدار شمولها لمطالب الروح وارتقاء عقائدها وشعائرها فى افاق العقل والضمير وكذلك كانت الديانة الاسلامية ـ كما امنا بها ـ ملة لا تفضلها ملة فى شمول حقائقها ، وخلوص عبادتها وشعائرها من شوائب الملل الغابرة ..

وذلك هو موضوع هذا الكتاب فيما يعرضه من حقائق الاسلام وفيما يعرض له من أباطيل المفترين عليه ..

ان بعض العقائد ليصيب النفس بما يشبه داء الفصام ، لانه يقسم الشخصية الانسانية على نفسها ، ويمزق الضمير الحائر بين نوازع الجسد ونوازع الروح وبين سلطان الارض وسلطان السماء وبين فرائض السعى وفرائض العبادة .. وشمول العقيدة الاسلامية هو الذى يعصم ضمير المسلم من هذا الفصام الروحانى وهو الذى يعلمه أن يرفع رأسه حين تدول دولته أمام المسيطرين عليه ، وهو الذى يحفظ كيان الامم الاسلامية أمام الضربات التى تلاحقت عليها من غارات الفاتحين أو غارات الحروب الصليبية أو غارات الاستعمار والتبشير

وشمول العقيدة الاسلامية هو الذى حقق للاسلام ما لم يتحقق لعقيدة غيره من تحويل الامم العريقة التى تدين بالكتب المقدسة الى الايمان به عن طواعية واختيار ، كما آمنت به الامم المسيحية والمجوسية والبرهمية فى مصر وسوريا وفارس والهند والصين

ولقد عزى انتشار الاسلام فى صدر الدعوة المحمدية الى قوة السيف ، وما كان للاسلام يومئذ من سيف يصول به على أعدائه الاقوياء ، بل كان المسلمون هم ضحايا

السيف وطرائد الغشم والجبروت ، وان عدد المسلمين اليوم بين أبناء الهند والصين وأندونيسية والقارة الافريقية ليبلغ تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع ، وما روى لنا التاريخ من أخبار الغزوات الدينية فى عامة هذه الاقطار ما يكفى لتحويل الالاف المعدودة — فضلا عن مئات الملايين — من دين الى دين

ولقد عزى انتشار الاسلام بين السود من أبناء القارة الافريقية الى سماح الاسلام بتعدد الزوجات ، وما كان تعدد الزوجات بالامر الميسور لكل من يشتهيه من أولئك السود المقبلين على الدين الاسلامى بغير مجهود • ولكنهم يجدون الخمرة ميسرة لهم حيث أرادوها وقد حرمها الاسلام أشد التحريم •• فلم ينصرف عنه السود لانه قد حال بينهم وبين شهوة الشراب التى قيل أنها كانت شائعة بينهم شيوع الطعام والغذاء

انما هو شمول العقيدة الاسلامية دون غيره هو العامل القوى الذى يجمع اليه النفوس ويحفظ لها قوة الايمان ، ويستغنى عن السيف وعن المال فى بث الدعوة ، كلما تفتحت أبوابها أمام المدعوين اليها بغير عائق من سلطان الحاكمين والمتسلطين

قلنا فى باب العقيدة الشاملة من كتابنا عن الاسلام فى القرن العشرين :

« ويبدر الى الذهن ان الشمول الذى امتازت به العقيدة الاسلامية صفة خفية عميقة لا تظهر للناظر من قريب ولا بد لاظهارها من بحث عويص فى قواعد الدين وأسرار الكتاب وفرائض المعاملات ، فليست هى مما يراه الناظر الوثنى أو الناظر البدوى لاول وهلة قبل أن يطلع على حقائق الديانة ويتعمق فى الاطلاع

ومن المحقق ان ادراك الشمول من الوجهة العلمية لا يتأتى بغير الدراسة الوافية والمقارنة المتغلغلة فى وجوه الاتفاق ووجوه الاختلاف بين الديانات وبخاصة فى شعائرها ومراسمها التى يتلاقى عليها

المؤمنون فى بيئاتهم الاجتماعية

ولـكن الناظر القريب قد يدرك شمول العقيدة الاسلامية من مراقبة أحوال المسلم فى معيشته وعبادته ، ويكفى أن يرى المسلم مستقلا بعبادته عن الهيكل والصنم والايقونة والوثن ليعلم انه وحدة كاملة فى دينه ويعلم من ثم كل ما يرغبه فى ذلك الدين أيام أن كان الدين كله حكرا للـكاهن . ووقفا على المعبد وعالة على الشعائر والمراسم مدى الحياة

لقد ظهر الاسلام فى ابان دولة الـكهانة والمراسم وواجه اناسا من الوثنيين أو من أهل الـكتاب الذين صارت بهم تقاليد الجمود الى حالة كحالة الوثنية فى تعظيم الصور والتماثيل والتعويل على المعبد والـكاهن فى كل كبيرة أو صغيرة من شعائر العبادة ، ولاح للنـاس فى القرن السابع للميلاد خاصة ان (المتدين) قطعة من المعبد لا تتم على انفرادها ولا تحسب لها ديانة أو شفاعة بمعزل عنه : فالدين كله فى المعبد عند الـكاهن ، والمتدينون جميعا قطع متفرقة لا تستقل يوما بقوام الحياة الروحية ولا تزال معيشتها الخاصة والعامة تثوب الى المعبد لتتزود منه شيئا تتم به عقيدتها ولا تستغنى عنه مدى الحياة ..

لا دين بمعزل عن المعبد والـكاهن والايقونة ، سواء فى العبـادة الوثنية أو فى عبادة أهل الـكتاب الى ما بعد القرن السابع بأجيال متطاولة ..

فلما ظهر المسلم فى تلك الآونة ظهر الشمول فى عقيدته من نظرة واحدة ، ظهر انه وحدة كاملة فى أمر دينه يصلى حيث شـاء ولا تتوقف له نجاة على مشيئة أحد من الـكهان ، وهو مع الله فى كل مكان ..

فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ

ويذهب المسلم الى الحج فلا يذهب اليه ليغتنم من أحد بركة أو نعمة يضفيها عليه ولـكنه يذهب اليه كما يذهب الالوف من اخوانه. ويشتركون جميعا فى شعائره على سنة المسـاواة ، بغير حاجة الى الـكهانة والـكهان . وقـد يكون الـسدنة الذين يراهم مجاورين للـكعبة خداما لها وله يدلونه حين يطلب منهم الدلالة ، ويتركهم ان شاء فلا سبيل لاحد منهم عليه

فاذا توسع قليلا فى العلم بشعائر الحج علم ان الحج لا يفرض عليه زيارة قبر الرسول ، وان هـذه الرسالة ليست من مناسك الدين وانها تحية منه يؤديها من عنده غير ملزم ، كما يؤدى التحية لـكل دفين عزيز محبوب لديه

واذا توسع قليلا فى مكان ذلك الرسول من الدين قرأ فى القرآن الكريم :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بشرٌ مثلكُم يُوحَى إِلَيَّ ... »

« سورة الكهف »

وقرأ فيه : « فإِنْ أَعْرَضوا فما أَرسلناكَ عليهم حَفيظاً ، إِنْ عليكَ إِلاّ البَلاغُ »

« سورة الشورى »

وقرأ فيه : «قُلْ أَطِيعُوا الله وأَطيعُوا الرسولَ فإِنْ تَوَلَّوْا فإِنَّمَا عليهِ ما حُمِّل وعليكُم ما حُمِّلْتُمْ ، وإِن تُطيعُوه تَهتَدُوا ، وما عَلَى الرسولِ إِلا البلاغُ المُبِينُ »

« سورة النور »

وقرأ فيه : « وما أَنْتَ عليهمْ بِجَبَّارٍ »

« سورة ق »

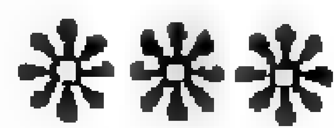
وقرأ فيه : « استَ عليهمْ بمسيْطِرٍ »

« سورة الغاشية »

وقرأ فيه : «وما أَرسلناكَ إِلا كَافَّةً لِلناسِ بَشِيراً ونَذِيراً»

« سورة سبأ »

وقرا فيه آيات لا تخرج فى وصف الرسالة عن معنى هذه الآيات



مر بنا ان فساد رجال الدين كان من أسباب انصراف أتباعهم عن دينهم ودخولهم أفواجا فى عقيدة المسلمين

مثل هذا لا يحصل فى أمة اسلامية فسد فيها رجال دينها ... فما من مسلم يذهب الى الهيكل ليقول لكاهنه : خذ دينك اليك فاننى لا أومن به ، لاننى لا أومن بك ، ولا أدى فى سيرتك مصدقا لاوامرك ونواهيك أو أوامره ونواهيه

كلا ... ما من رجل دين يبدو للمسلم انه صاحب الدين وانه حين

يؤمن بالله يؤمن به لانه اله ذلك الرجل الذى يتوسط بينه وبين الله أو يعطيه من نعمته قواما لروحه

« . . . والذينَ تدعُونَ من دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِن قِطمِيرٍ . إِنْ تدعُوهم لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُم ولو سَمِعوا ما استَجابُوا لَكُم وَيومَ القيامةِ يكفرونَ بِشِرْكِكم ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خَبيرٍ . يا أَيُّهَا الناسُ أَنتُمُ الفُقَراءُ إِلى اللهِ واللهُ هوَ الغَنيُّ الحَميدُ »

« سورة فاطر »

نعم كلهم فقراء الى الله ، وكلهم لا فضل لواحد منهم على سائرهم الا بالتقوى ، وكلهم فى المسجد سواء ، فان لم يجدوا المسجد فمسجدهم كل مكان فوق الارض وتحت السماء

ان عقيدة المسلم شىء لا يتوقف على غيره ولا تبقى منه بقية وراء سره وجهره ، ومن كان اماما له فى مسجده فلن ترتفع به الامامة مقاما فوق مقام النبى صاحب الرسالة : النبى الذى يبشر وينذر ، ولا يتجبر ولا يسيطر ، ويبلغ قومه ما حمل وعليهم ما حملوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين

ومنذ يسلم المسلم يصبح الاسلام شأنه الذى لا يعرف لاحد حقا فيه أعظم من حقه أو حصة فيه أكبر من حصته ، أو مكانا يأوى اليه ولا يكون الاسلام فى غيره

كذلك لا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيا والآخرة ، أو بين الجسد والروح ، ولا يعانى هذا الفصام الذى يشق على النفس احتماله ويحفزها فى الواقع الى طلب العقيدة ولا يكون هو فى ذاته عقيدة تعتصم بها من الحيرة والانقسام

وابتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ منَ الدُّنيا » . « سورة القصص »

وتوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى باللهِ وَكِيلاً . مَاجَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ » « سورة الاحزاب »

فاذا كانت العقيدة التى تباعد المسافة بين الروح والجسد تعفينا من العمل حين يشق علينا العمل ـ فالعقيدة التى توحد الانسان وتجعله كلا مستقلا بدنياه وآخرته شقاء له من ذلك الفصام الذى لا تستريح اليه السريرة الا حين يضطر الى الهرب من عمل الانسان الكامل فى حياته ، وحافز له الى الخلاص من القهر كلما غلب على أمره ووقع فى قبضة سلطان غير سلطان ربه ودينه

ومن هنا لم يذهب الاسلام مذهب التفرقة بين ما لله وما لقيصر لان الامر فى الاسلام كله لله « بل لله الامر جميعا » .. « ولله المشرق والمغرب » .. « رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون »

وانما كانت التفرقة بين ما لله وما لقيصر تفرقة الضرورة التى لا يقبلها المتدين وهو قادر على تطويع قيصر بأمر الله ... وهذا التطويع هو الذى أوجبته العقيدة الشاملة وكان له الفضل فى صمود الامم الاسلامية لسطوة الاستعمار وايمانها الراسخ بأنها دولة دائلة وحالة لابد لها من تحويل

وقد ابت هذه العقيدة على الرجل ان يطيع الحاكم بجزء منه ويطيع الله بغيره ، وأبت على المرأة أن تعطى بدنها فى الزواج لصاحبها وتنأى منه بروحها وسريرتها ، وابت على الانسان جملة أن يستريح الى « الفصام الوجدانى » ويحسبه حلا لمشكلة الحكم والطاعة قابلا للدوام ..

ان هذا الشأن العظيم ـ شأن العقيدة الشاملة التى تجعل المسلم « وحدة كاملة » ـ لا يتجلى واضحا قويا كما يتجلى من عمل الفرد فى نشر العقيدة الاسلامية ، فقد أسلم عشرات الملايين فى الصحارى الافريقية على يدى تاجر فرد أو صاحب طريقة منفرد فى خلوته لا يعتصم بسلطان هيكل ولا بمراسم كهانة ، وتصنع هنا قدرة الفرد الواحد ما لم تصنعه جموع التبشير ولا سطوة الفتح والغلبة ، فجملة من أسلموا فى البلاد التى انتصرت فيها جيوش الدول الاسلامية هم الآن أربعون أو خمسون مليونا بين الهلال الخصيب وشواطىء البحرين الابيض والاحمر ، فأما الذين أسلموا بالقدرة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين من الملايين ، او هم كل من أسلم فى الهند والصين وجزائر جاوة وصحارى افريقية وشواطئها ، الا القليل الذى لايزيد فى بداءته على عشرات الالوف

* * *

وينبغى أن نفرق بين الاعتراف بحقوق الجسد وانكار حقوق الروح، فان الاعتراف بحقوق الجسد لا يستلزم انكار الروحانية ولا الحد من سبحاتها التى اشتهرت باسم التصوف فى اللغة العربية أو اشتهرت باسم « الخفيات والسريات » فى اللغات الغربية Mysticism

اذ لا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد كما لا يوصف بالشمول

دين ينكر الروح ، وقد أشار القرآن الكريم الى الفارق بين عالم الظاهر وعالم الباطن فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وذكر تسبيح الموجودات ما كانت له حياة ناطقة وما لم تكن له حياة ..
« وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ..
وأشار الى هذه الاشياء ، بضمير العقلاء ، وعلم منه المسلمون ان الله أقرب اليهم من حبل الوريد وانه نور السموات والارض وانه « هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم »

وحسب المرء أن يتعلم هذا من كتاب دينه ليبيح لنفسه من سبحات التصوف كل ما يستباح فى عقائد التوحيد ، ولعله لم يوجد فى أهل دين من الاديان طرق للتصوف تبلغ ما بلغته هذه الطرق بين المسلمين من الكثرة والنفوذ ، ولا وجه للمقابلة بين الاسلام وبين البرهمية أو بين البوذية مثلا فى العقائد الصوفية . فان انكار الجسد فى البرهمية أو البوذية يخرجها من عداد العقائد الشاملة التى يتقبلها الانسان بجملته غير منقطع عن جسده أو عن دنياه ..

وحسب المرء أن يرضى مطالبه الروحية ولا يخالف عقائد دينه ليوصف ذلك الدين بالشمول ويبرأ فيه الضمير من داء الفصام

كذلك يخاطب الاسلام العقل ولا يقصر خطابه على الضمير أو الوجدان ، وفى حكمه ان النظر بالعقل هو طريق الضمير الى الحقيقة ، وان التفكير باب من أبواب الهداية التى يتحقق بها الايمان

« قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا »

« سورة سبأ »

« كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ »

« سورة البقرة »

وما كان الشمول فى العقيدة ليذهب فيها مذهبا أبعد وأوسع من خطاب الانسان روحا وجسدا وعقلا وضميرا بغير بخس ولا افراط فى ملكة من هذه الملكات

وفى مشكلة المشكلات التى تعرض للمتدين يعتدل المسلم بين الايمان بالقدر والايمان بالتبعة والحرية الانسانية ، فمن عقائد دينه « أن أجل الله اذا جاء لا يؤخر » ... « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب » ... « وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله » « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا »

ومن عقائد دينه أيضا :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . »

« سورة الرعد »

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ »

« سورة هود »

« وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ »

« سورة الشورى »

وليس فى الاسلام ان الخطيئة موروثة فى الانسان قبل ولادته . ولا انه يحتاج فى التوبة عنها الى كفارة من غيره . وقد قيل ان الايمان بالقضاء والقدر هو علة جمود المسلمين ، وقيل على نقيض ذلك انه كان حافزهم فى صدر الاسلام على لقاء الموت وقلة المبالاة بفراق الحياة ، وحقيقة الامر أن المسلم الذى يترك العمل بحجة الاتكال على الله يخالف الله ورسوله لانه مأمور بأن يعمل فى آيات الكتاب وأحاديث الرسول « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ... بل حقيقة الامر ان خلاصه كله موقوف عليه ، وان ايمانه بحريته وتدبيره لا يقتضى بداهة ان الله سبحانه مسلوب الحرية والتدبير

وأصدق ما يقال فى عقيدة القضاء والقدر أنها قوة للقوى وعذر للضعيف وحافز لطالب العمل وتعلة لمن يهابه ولا يقدر عليه ، وذلك ديدن الانسان فى كل باعث وفى كل تعلة كما أوضحنا فى الفارق بين أبى الطيب المتنبى وأبى العلاء المعرى وهما يقولان بقول واحد فى عبث الجهد وعبث الحياة

فأبو الطيب يقول من مراد النفوس :

ومراد النفوس أهون من أن   نتعادى فيه وأن نتفانى

ثم يتخذ من ذلك باعثا للجهاد والكفاح فيقول :

غير أن الفتى يلاقى المنايا   كالحات ولا يلاقى الهوانا

والمعرى يقول ان التعب عبث لانه لا يؤدى بعده الى راحة فى الحياة . ولكنه يعجب من أجل هذا لمن يتعبون ويطلبون المزيد

تعب كلها الحياة فما أعـ   ـجب الا من راغب فى ازدياد

وعلى هذا المثال يقال تارة ان عقيدة القضاء والقدر نفعت المسلمين فيقال تارة أخرى أنها ضرتهم وأوكلتهم الى التواكل والجمود ، وصواب القول انهم ضعفوا قبل أن يفسروا القضاء والقدر ذلك التفسير ، وتلك خديعة الطبع الضعيف

وتوصف العقيدة الأسلامية بالشمول لأنها تشمل الأمم الانسانية جميعا كما تشمل النفس الانسانية بجملتها من عقل وروح وضمير

فليس الاسلام دين أمة واحدة ولا هو دين طبقة واحدة ، وليس هو للسادة المسلطين دون الضعفاء المسخرين ولا هو للضعفاء المسخرين دون السادة المسلطين ، ولكنه رسالة تشمل بنى الانسان من كل جنس وملة وقبيل :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً »..

« سورة سبأ »

«قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ »..

« سورة الاعراف »

«قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »

« سورة البقرة »

« إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَالذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ »

« سورة البقرة »

فهذه عقيدة انسانية شاملة لا تخص بنعمة الله أمة من الامم لانها

من سلالة مختارة دون سائر السلالات لفضيلة غير فضيلة العمل والصلاح :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »
« سورة الحجرات »

وفى احاديث النبى عليه السلام انه « لا فضل لعربى على عجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى »

وليس للاسلام طبقة يؤثرها على طبقة أو منزلة يؤثرها على منزلة ، فالناس درجات يتفاوتون بالعلم ويتفاوتون بالعمل ويتفاوتون بالرزق ويتفاوتون بالاخلاق

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »
« سورة المجادلة »

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم »
« سورة النساء »

« والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق »
« سورة النحل »

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »
« سورة الزمر »

***

واذا ذكر القرآن الضعف فلا يذكره لان الضعف نعمة أو فضيلة مختارة لذاتها ، ولكنه يذكره ليقول للضعيف انه أهل لمعرفة الله اذا جاهد وصبر وانف أن يسخر لبه وقلبه للمستكبرين ، والا فانه لمن المجرمين

« يَقُولُ الذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِين قَالَ الذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُم عَنِ الهدى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِين » « سورة سبأ »

وما من ضعيف هو ضعيف اذا صبر على البلاء ، فاذا عرف الصبر عليه فانه لاقوى من العصبة الاشداء

فما كان الاله الذى يدين به المسلم اله ضعفاء أو اله أقوياء ، ولكنه اله من يعمل ويصبر ويستحق العون بفضل فيه ، جزاؤه انه يكون مع الله والله مع الصابرين

بهذه العقيدة الشاملة غلب المسلمون أقوياء الارض ثم صمدوا لغلبة الاقوياء عليهم يوم دالت الدول وتبدلت المقادير وذاق المسلمون بأس القوة مغلوبين مدافعين

وهذه العقيدة الشاملة هى التى أفردت الاسلام بمزية لم تعهد فى دين آخر من الاديان الكتابية ، فان تاريخ التحول الى هذه الاديان لم يسجل لنا قط تحولا أجماعيا اليها من دين كتابى آخر بمحض الرضى والاقتناع ، اذ كان المتحولون الى المسيحية أو الى اليهودية قبلها فى أول نشأتها أمما وثنية على الفطرة لا تدين بكتاب ولم تعرف قبل ذلك عقيدة التوحيد أو الاله الخالق المحيط بكل شىء ، ولم يحدث قط فى أمة من الامم ذات الحضارة العريقة انها تركت عقيدتها لتتحول الى دين كتابى غير الاسلام ، وانما تفرد الاسلام بهذه المزية دون سائر العقائد الكتابية ، فتحولت اليه الشعوب فيما بين النهرين وفى أرض الهلال الخصيب وفى مصر وفارس ، وهى — فارس — أمة عريقة فى الحضارة كانت قبل التحول الى الاسلام تؤمن بكتابها القديم ، وتحول اليه أناس من أهل الاندلس وصقلية كما تحول اليه أناس من أهل النوبة الذين غبروا على المسيحية أكثر من مائتى سنة ورغبهم جميعا فيه ذلك الشمول الذى يجمع النفس والضمير ويعم بنى الانسان على تعدد الاقوام والاوطان ، ويحقق المقصد الاكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الشرائع وعقائد الاخلاق وآداب الاجتماع

وابراز هذه المزية — مزية العقيدة الاسلامية التى أعانت أصحابها

على الغلب وعلى الدفاع والصمود ـ هو الذى نستعين به على النظر فى مصير الاسلام بعد هاتين الحالتين ، ونريد بهما حالة القوى الغالب وحالة الضعيف الذى لم يسلبه الضعف قوة الصمود للاقوياء الى أن يحين الحين ويتبدل بين حالتى الغالب والمغلوب حالته التى يرجوها لغده المأمول ولئن كانت حالة الصمود حسنى الحالتين فى مواقف الضعف مع شمول العقيدة وبقائها صالحة للنفس الانسانية فى جملتها وللعالم الانسانى فى جملته ، ليكونن المصير فى الغد المأمول أكرم مايكون مع هذه القوة وهذا الشمول »

* * *

فى هذه العجالة عن شمول العقيدة الاسـلامية ألمامة كافية لمقصدنا فى هذا الكتاب الذى نود أن نستقصى فيه كل ما يستقصى عن حقائق الدين فى حيز هذه الصفحات

أما المزايا التى امتازت بها عقائد الاسلام وأحكامه فنحن مفردون لها مايلى من فصـول الكتاب الاربعة ، وهى مبدوءة بفصل عن العقائد ويليه فصل عن الحقوق وفصل عن المعاملات وفصل عن الاخلاق والاداب

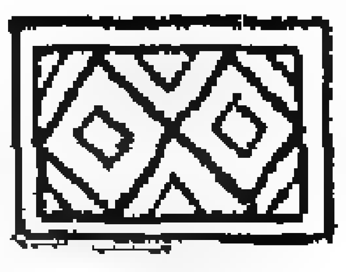
ووجهتنا التى نتجه اليها فى هذه البحوث : « أولا » أن الاسلام يوحى الى المسلم عقيدة فى الذات الالهية وعقيدة فى الهداية النبوية وعقيدة فى الانسان لا تغلوها عقيدة فى الديانات ولا فى الحكمة النظرية أو الحكمة العملية

و « ثانيا » أن أحكام الاسلام لا تعوق المسلم عن غاية تفتحها أمامه أشواط العلم والحضارة

و « ثالثا » ان فى الاسلام زادا للامم الانسانية فى طريق المستقبل الطويل يواتيها بما فيه غنى لها حيث نضبت الازواد من وطاب العقائد الروحية أو تكاد

وباسم الله نتجه فى وجهتنا ، وعلى هدى من الايمان بالله ..

العقائد

 الفصل الأول 

- العقيدة الالهية
- عقيدة النبوة
- الانسان
- الشيطان
- العبادات

العقيدة الإلهيّة

العقيدة في الاله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها • من عرف عقيدة قوم في الهم فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان ومن صحة المقاييس التي يقاس بها الخير والشر وتقدر بها الحسنات والسيئات • فلا يهبط دين وعقيدته في الاله عالية ، ولا يعلو دين وعقيدته في الاله هابطة ليست مما يناسب صفات الموجود الاول التي تتبعه جميع الموجودات

ولقد كان النظر في صفات الله مجال التنافس بين أكبر العقول من أصحاب الفلسفة الفكرية واصحاب الحكمة الدينية ، وقد كانت مهمة الفلاسفة أيسر من مهمة حكماء الاديان ، لان الفيلسوف النظري ينطلق في تفكيره وتقديره غير مقيد بفرائض العبادة وحدود المعاملات التي يتقيد بها الحكم الديني ويتقيد بها من يأتمون به من أتباعه في الحياة العامة والمعيشة الخاصة • فظهر بين الفلاسفة النظريين من سما بالتنزيه الالهي صعدا الى أوج لا يلحق به الخيال فضلا عن الفكر والاحساس

وجاء الاسلام من جوف الصحراء العربية باسمى عقيدة في الاله الواحد الاحد ، صححت فكرة الفلسفة النظرية

كما صححت فكرة العقائد الدينية ، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين ـ فى جانب النقص منهـــا ـ أعظم المعجزات التى اثبتت له فى حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة أنه وحى من عند الله

يقال على الاجماع أن صفات الاله قد ارتفعت الى ذروتها العليا من التنزيه والتجريد فى مذهب « ارســـطو » الفيلسوف اليونانى الكبير

والذين يرون هذا الرأى لا ينسون مذهب « افلاطون » امام الفلسفة الافلاطونية الحديثة وشيخ الفلسفة الصوفية بين الغربيين الى العصر الاخير . غير أنهم لا يذكرونه فى معرض الكلام على التنزيه فى وصف الله لان مذهبه أقرب الى الغيبوبة الصوفية منه الى التفكير الجلى والمنطق المعقول وطريقته فى التنزيه أن يمعن فى الزيادة على كل صفة يوصف بها الله فلا يزال يتخطاها ثم يتخطاها كلمـــا استطاع الزيادة اللفظية حتى تنقطع الصلة بينها وبين جميع المدلولات المفهومة او المظنونة . ويرجح الاكثرون أن « أفلاطون » نفسه لم يكن يتصور ما يصوره من تلك الصفات ، وانما كانت غايته القصوى أن يذهب بالتصور الى منقطع العجز والاعياء

فمن ذلك أنه ينكر صفة الوحدانية ليقول بصـــفة الاحدية ويقول أن الواحد غير الاحد لان الواحد قد يدخل فى عداد الاثنين والثلاثة والعشرة ، ولا يكون الاحد الا مفردا بغير تكرار

ومن ذلك أنه ينكر صفة الوجود ليقـــول ان الله لا يوصف بانه موجود تنزيها له عن الصفة التى يقابلهـــا العدم وتشترك فيها الموجودات أو الموجدات

لهذا يضربون المثل بأرسطو فى تنزيه الاله ولا يضربون

المثل « بأفلاطون » لان مذهبه ينقطع فى صومعة من غيبوبة الذهول لا تمتزج بحياة فكرية ولا بحياة عملية

ومذهب أرسطو فى الاله انه كائن أزلى أبدى مطلق الكمال لا أول له ولا اخر ولا عمل له ولا ارادة .. مذ كان العمل طلبا لشىء والله غنى عن كل طلب ، وقد كانت الارادة اختيارا بين أمرين والله قد اجتمع عنده الاصلح الافضل من كل كمال فلا حاجة به الى الاختيار بين صالح وغير صالح ولا بين فاضل ومفضول . وليس مما يناسب الاله فى رأى أرسطو ان يبتدىء العمل فى زمان لانه أبدى سرمدى لا يطرأ عليه طارىء يدعوه الى العمل ولا يستجد عليه من جديد فى وجوده المطلق بلا أول ولا اخر ولا جديد ولا قديم . وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التى لا بغية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها ، ولا تخرج من نطاقها عناية تعنيه

فالاله الكامل المطلق الكمال لا يعنيه أن يخلق العالم أو يخلق مادته الاولى وهى « الهيولى » .. ولكن هذه « الهيولى » قابلية للوجود يخرجها من القوة الى الفعل شوقها الى الوجود الذى يفيض عليها من قبل الاله ، فيدفعها هذا الشوق الى الوجود ثم يدفعها من النقص الى الكمال المستطاع فى حدودها ، فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقابلية ، ولا يقال عنها انها من خلقة الله الا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار

***

كمال مطلق لا يعمل ولا يريد :

أو كمال مطلق يوشك أن يكون هو والعدم المطلق على حد سواء .. ولنذكر أنه أرسطو صاحب هذا المذهب قبل كل شىء ..

ولنذكر أنه ذلك العقل الهائل الذى يهابه من يحس قدرته فلا يجترىء عليه بالنقد والتسفيه قبـــل أن يفرغ جهده فى التماس المعذرة له من جهل عصره وقصـــور الافكار حوله لا من جهله هو أو قصور تفكيره .. فانه لم يعودنا فى تفكيره احتمالا قط لا يتقصاه الى قصارى مداه ولا يستوفى مقتضياته وموانعه جهد ما فى الطاقة الانسانية من استيفاء .

لنذكر أنه أرسطو لكى نذكر أن هذا العقل النادر لم يؤت من نقص فى تصور الصفات العلوية الا لانه عاش فى زمان لم تتكشف فيه المعرفة عن خصائص هذه الكائنات الارضية « السفلى » التى نحسها ونعيش بينها ، ولو أنه عرف ما هو لاصق بها من خصائصها وأعراضها لكان له رأى فى الكمال العلوى غير ذلك الرأى الذى ارتآه بمحض الظن والقياس على غير مقيس ..

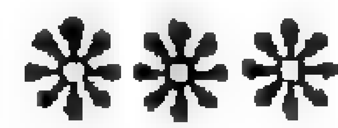
لقد كان يفهم من كمال الكائنات العلوية ــ السماوية ــ انها خالدة باقية لا تفنى لانها من نور والنور بسيط لا يعرض له الفناء كما يعرض على التركيب

ولو أن أرسطو عاش حتى علم أن المادة الارضـــية ــ السفلى ــ كلها من نور ، وأن عناصر المادة كلها تؤول الى الذرات والكهارب ، وأن هذه الذرات والكهارب تنشق فتؤول الى شعاع ــ لما ساقه الظن والقياس الى ذلك الخطأ فى التفرقة بين لوازم البقاء ولوازم الفناء ، أو بين خصائص البساطة وخصائص التركيب ..

ولعل ادراكه لذاك الخطأ فى فهم لوازم البســـاطة والكمال ، ولوازم البقاء والفناء كان خليقا أن يهديه الى فهم خطئه فى تصور لوازم الكمال الالهى ، فلا يمتنع فى عقله أن يجتمع الكمال الواحد من صفات عدة كالصفات

الحسنى التى وصف بها الاله فى الاسلام ، ومنها الرحمة والكرم والقدرة والفعل والارادة ، ولا يمتنع فى عقله أن يكون لهذه الصفات لوازمها ومقتضياتها ، اذ لا تكون قدرة بغير مقدور عليه ، ولا يكون كرم بغير اعطاء ، ولا تكون مشيئة بغير اختيار بين امرين ، واذا اختار الله امرا فهو لا يختاره لذاته سبحانه وتعالى بل يختاره لمخلوقاته التى تجوز عليها حالات شتى لا تجوز فى حق الاله ، واذا خلق الله شيئا فى الزمان فلا ننظرن الى الابدية الالهيـــة بل ينبغى أن ننظر الى الشيء الموجود المخلوق فى زمانه ثم لا مانع عقلا من أن تتعلق به ارادة الله الابدية على أن يكون حيث كان فى زمن من الازمان

لقد كان مفهوم البساطة الابدية الباقية عند أرسطو غير مفهومها الذى نلمسناه اليوم لمسا فى هذه الـــكائنات الارضية ـ السفلية ـ فلا جرم يكون مفهوم الكمال المطلق عندنا غير مفهومه الذى جعله أرسطو أشبه شىء بالعـــدم المطلق غير عامل ولا مريد ولا عالم بسوى النعمة والسعادة .. قانع بأنه منعم سعيد



وعلى هذا يبقى لنا أن نسأل : هل استطاع أرسطو بتجريده الفلسفى أن يسمو بالكمال الاعلى فوق مرتبته التى يستلهمها المسلم من عقيدة دينه ؟

نقول عن يقين : كلا .. فان الله فى الاسلام اله صمد لا أول له ولا آخر ، وله المثل الاعلى . فليس كمثله شىء ، وهو محيط بكل شىء

ثم يبقى بعد ذلك أن نسأل : هل تغض العقيدة الدينية من الفكرة الفلسفية فى مذهب التنزيه ؟

والجواب كلا : بل الدين هنا فلسفة أصح من الفلسفة

اذا قيست بالقياس الفلسفى الصحيح • لان صفات الاله التى تعددت فى عقيدة الاسلام لا تعدو أن تكون نفيا للنقائص التى لا تجوز فى حق الاله • وليس تعدد النقائص مما يقضي بتعدد الكمال المطلق الذى ينفرد ولا يتعدد • فان الكمال المطلق واحد والنقائص كثيرة ينفيها جميعا ذلك الكمال الواحد • وما أيمان المسلم بأن الله عليم قدير فعال لما يريد كريم رحيم ، الا ايمانا بانه جل وعلا قد تنزه عن نقائص الجهل والعجز والجحد والغشم، فهو كامل منزه عن جميع النقائص ، ومقتضى قدرته أن يعمل ويخلق ويريد لخلقه مايشاء ، ومقتضى عمله وخلقه أن يتنزه عن تلك « العزلة السعيدة » التى توهمها أرسطو مخطئا فى التجريد والتنزيه • فهو سعيد بنعمة كماله ، سعيد بنعمة عطائه ، كفايته لذاته العلية لا تأبى له أن يفيض على الخلق كفايتهم من الوجود فى الزمان ، أى من ذلك الوجود المحدود الذى لا يغض من وجود الله فى الابد بلا أول ولا آخر ولا شريك ولا مثيل

« ومن صفات الله فى الاسلام ما يعتبر ردا على فكرة الله فى الفلسفة الارسطية كما يعتبر ردا على أصحاب التأويل فى الاديان الكتابية وغير الكتابية

فالله عند ارسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها ،ويتنزه عن الارادة لان الارادة طلب فى رأيه والله كمال لا يطلب شيئا غير ذاته ، ويجل عن علم الكليات والجزئيات لانه يحسبها من علم العقول البشرية ، ولا يعنى بالخلق رحمة ولا قسوة •• لان الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعى اليه • ولكن الله فى الاسلام عالم الغيب والشهادة

« وَلاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ » . (سورة يونس)

وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » . (سورة يس)

« وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ » . (سورة المؤمنون)

« وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً » . (سورة الاعراف)

« أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ » . (سورة الاعراف)

« عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » . (سورة فاطر)

وهو كذلك مريد وفعال لما يريد

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ » . (سورة المائدة)

وفى هذه الاية رد على يهود العرب بمناسبة خاصة تتعلق بالزكاة والصدقات كما جاء فى أقوال بعض المفسرين، ولكنها ترد على كل من يغلون ارادة الله على وجه من الوجوه ، ولا يبعد أن يكون فى يهود الجزيرة من يشير الى رواية من روايات الفلسفة الارسطية لذلك المقال

وقد أشار القرآن الكريم الى الخلاف بين الاديان المتعددة فجاء فيه من سورة الحج :

« إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَالذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالمَجُوسَ وَالذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » (سورة الحج)

وأشار الى الدهريين فجاء فى سورة الانعام ...

« وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِين »
(سورة الانعام)

وجاء فيه من سورة الجاثية ..

«وَقَالُو مَاهِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ . وَمَالَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ انْ هُمْ الاَّ يَظنُونَ »
(سورة الجاثية)

فكانت فكرة الله فى الاسلام هى الفكرة المتممة لافكار كثيرة موزعة فى هذه العقائد الدينيـــــة وفى المذاهب الفلسفية التى تدور عليها . ولهذا بلغت المثل الاعلى فى صفات الذات الالهية ، وتضمنت تصحيحا للضـــمائر وتصحيحا للعقول فى تقرير ما ينبغى لكمـــال الله ، بقسطاس الايمان وقسطاس النظر والقياس

ومن ثم كان فكر الانسان من وسائل الوصول الى معرفة الله فى الاسلام ، وان كانت الهداية كلها من الله

ومجمل ما يقال عن عقيدة الذات الالهية التى جاء بها الاسلام أن الذات الالهية غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال فى أشرف الصفات « ... وقد جاء الاسلام بالقول الفصل فى مسألة البقاء والفناء . فالعقل لا يتصور للوجود الدائم والوجود الفانى صورة أقرب الى الفهم من صورتيهما فى العقيدة الاسلامية ، لان العقل لا يتصور وجودين سرمديين ، كلاهما غير مخلوق ، أحدهما مجرد والاخر مادة ، وهذا وذاك ليس لهما ابتداء وليس لهما انتهاء ..

ولكنه يتصور وجودا أبديا يخلق وجودا زمانيا ، أو

يتصور وجودا يدوم ووجودا يبتدى وينتهى فى الزمان

وقديما قال أفلاطون – وأصاب فيما قال . ان الزمان محاكاة للابد .. لانه مخلوق ولابد غير مخلوق

فبقاء المخلوقات بقاء فى الزمن ، وبقاء الخالق بقاء أبدى سرمدى لا يحده الماضى والحاضر والمستقبل ، لانها كلها من حدود الحركة والانتقال فى تصور أبناء الفناء ، ولا تجوز فى حق الخالق السرمدى حركة ولا انتقال

فَاللهُ هُوَ « الحَيُّ الذى لاَ يَمُوتُ » (سورة الفرقان)

« وَهُوَ الذى يحيي وَيُمِيتُ » (سورة المؤمنون)

و « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ » (سورة القصص)

وأيا كان المرتقى الذى ارتفع اليه تنزيه الفكرة الالهية فى مذهب أرسطو كما شرحناه بعض الشرح أو مذهب أستاذه أفلاطون كما أومأنا اليه بعض الايماء – فهذا التنزيه الفلسفى قمة منبتة عن البيئة التى عاش فيها « الفيلسوفان » ويكاد هذا التنزيه الفلسفى أن يكون خيالا جامحا بالنسبة الى العقائد الالهية التى كانت فاشية بين الكهان والمتعبدين من أبناء اليونان

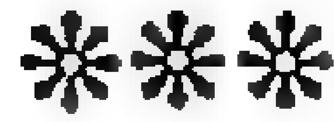
فلا شك أن صورة « جوبيتر » رب الارباب عندهم كانت أقرب الى صورة الشيطان منها الى صورة الارباب المنزهين ولو لم يبلغ وصف التنزيه عندهم نصيبا ملحوظا من الكمال ..

كان « جوبيتر » حقودا لدودا مشغولا بشهوات الطعام والغرام لا يبالى من شئون الارباب والمخلوقات الا ما يعينه على حفظ سلطانه والتمادى فى طغيانه ، وكان

يغضب على « أسقولاب » اله الطب لانه يداوى المرضى فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الارض الى باطن الهـــاوية ، وكان يغضب على « برومثيوس » اله المعرفة والصناعة لانه يعلم الانسان أن يستخدم النار فى الصناعة وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الارباب • وقد حكم عليه بالعقاب الدائم فلم يقنع بموته ولا باقصائه عن حظيرة الآلهة بل تفنن فى اختراع ألوان العذاب له فقيده الى جبل سحيق وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار حتى اذا جن الليل عادت سليمة فى بدنه لتعود الجوارح الى نهشها بعد مطلع الشمس ••• ولا يزال هكذا دواليك فى العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوض الدعاء • ومما رواه الشاعر الفيلســـــوف « هزيود » عن علـــة غضب الاله على « برومثيوس » أنه قسم له نصيبه من الطعام فى وليمة الارباب فأكثر فيه من العظام وأقل فيه من اللحوم والشحوم فاعتقد « جوبيتر » انه يتعالم عليه بمعرفته وفطنته لانه اشتهر بين الالهة بمعرفة وافرة وفطنة نافذة لم يشتهر بها الاله الكبير • ولا يغيب عنا ونحن نروى أخبار الاله الكبير منقولة عن « هزيود » ان هذا الشاعر الفيلسوف قد اجتهد قصارى اجتهاده فى تنزيه « جوبيتر » وتصويره للناس فى صورة من القداسة والعظمة تناسب صورة الاله المعبود بعد ارتقاء العبادة شيئا ما فى ديانة اليونان الاقدمين

ومما رواه الرواة المختلفون عن جوبيتر أنه كان يخادع زوجته « هيرة » ويرسل اله الغمام لمداراة الشمس فى مطلعها حذرا من هبوب زوجته الغيرى عليه مع مطلع النهار ومفاجأته بين عشيقاته على عرش « الاوليب » •• وحدث مرة أنها فاجأته وهو يقبل ساقيه « جانيميد » راعى الضأن الجميل

الذى لمحه يوما فى الخلاء فاختطفه وصعد به الى السماء فلم يتنصل « جوبيتر » من تهمة الشغف بســـاقيه .. ومضى يسوغ مسلكه لزوجته بما جهلته من لذة الجمع بين رحيق الكأس ورحيق الشفاه



ومثل الامم القديمة كمثل اليونان فى بعد الفارق بين صورة الاله فى حكمة الفلاسفة وبين صورته فى شـعائر الكهان والمتعبدين

فالهند القديمة كانت تطوى هياكلها ومعـــابدها على طوائف من الارباب منها ما يلحق بالحيوان وعناصرالطبيعة ومنها ما يلحق بالاوثان والانصاب ، وكثير منها يتطلب من سدنته أن يتقربوا اليـــه بالبغاء المقدس وسـفك الدماء ..

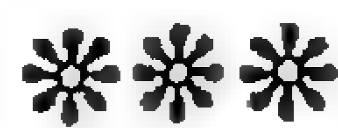
وقد انتهت هذه الارباب المتعددة الى الثالوث الابدى الذى اشتمل على ثلاث من الصور الالهية هى الاله«براهما» فى صورة الخالق والاله « فشـــنو » فى صورة الحافظ والاله « سيفا » فى صورة الهادم ... فجعلوا الهـــدم والفساد من عمل الاله الاعلى الذى يتولاه حين يتشكل لعباده فى تلك الصورة

وزادوا على ذلك أنهم جعلوا لكل اله قرينا يسمونه « الشاكتى » أو الزوجة أو الصاحبة ينسبون اليها من الشرور ما ينزهون عنه قرينها أو صاحبها

فهذه الارباب صور لا تتباعد المسافة بينهـــا وبين صور الشياطين والعفاريت والارواح الخبيثة المعهودة فى أقدم الديانات . فاذا ارتفعنا فى معارج التنزيه والتجريد بلغنا منها ذروتها العليا فى صورتين مختلفتين احداهما

صورة « الكارما » Karma والصورة الاخرى « النرفانا » Nirvana وكلتاهما تحسب من قبيل المعانى الذهنية وقل أن توصف بوصف الذات الالهية . فالكارما هى القدر الغالب على جميع الموجودات ومنها الالهة وأفلاك السماء ، وهذا القدر هو فى الواقع حالة من الحالات العامة يمكن أن نعبر عنها بأنها هى « ماينبغى » أو هى الوضع الحاصل على النحو الامثل . فليس القدر المسمى بالكارما عندهم ذاتا الهية معروفة الصفات ، ولكنه مرادف لكلمة «الانبغاء» أو كلمة « الواجب » كما وجب فى الحوادث والموجودات

والنرفانا حالة عامة كحالة الكارما . الا أنها الى العدم أقرب منها الى الوجود . لانها الحالة التى تنتهى اليها جميع الارواح حين تفرغ من عناء الوجود . وتتجرد من شواغل الاجساد وشواغل الارواح على السواء وتتساوى أرواح الالهة وأرواح البشر فى حالة النرفانا هذه كلما سعدت بنعمة الخلود غير محسوس ولا مشهود

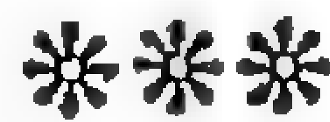


ولسنا نريد فى هذه الصفحات القليلة أن نتتبع صورة الالهية والربوبية كافة بين أمم الحضارات الاولى ، وانما نجتزىء منها بالنماذج الدالة عليها فيما ارتقت اليه من التنزيه وفيما هبطت اليه من التجسيم أو التشبيه أو التشويه ، ولهذا يغنينا عن الاسترسال فى شرح عادات الاقدمين أن نضيف الى ما تقدم مثلا اخر يتمم أمثلة اليونان والهند ، وذلك هو مثل الديانة المصرية القديمة من أبعد عهود الفراعنة الى عهد الديانات الكتابية ، وهى ـ أى الديانة المصرية القديمة ـ أرفع الديانات فيما نعلم ترقيا الى ذروة التوحيد والتنزيه ، وان كانت فى عباداتها الشائعة تهبط أحيانا الى مهبط الديانات الغابرة من

عبادة الطواطم والانصاب ، وعبادة الارواح الخبيثـــة والشياطين

بلغت ديانة مصر القديمة ذروتها العليا من التوحيد والتنزيه فى ديانة « آتون » التى بشر بهـــا الفرعون المنسوب اليه « اخناتون »

ويؤخذ من صلوات أخناتون المحفوظة بين أيدينا أنه كان يصلى الى خالق واحد يكاد يقتـــرب فى صفاته من الاله الخالق الذى يصلى له العارفون من أتبــاع الديانات الكتابية ، لولا شائبة من العبادة الوثنية علقت به من عبادة الشمس فكانت هـــذه الشمس الدنيوية رمزا ومرادفا لاسمه فى معظم الصلوات



هذه الشواهد من التاريخ القديم شواهد تمثيــل لا شواهد حصر وتفصيل ، وهى مغنية فى الدلالة على المدى الذى وصل اليه تنزيه الفكرة الالهية فى أمم التاريخ القديم جميعها ، لانها تدل على ماوصلت اليه الفكرة الالهية المنزهة فى أرفع الحضارات الاولى وهى الحضارة المصرية والحضارة الهندية والحضارة اليونانية

وجملة الملاحظات على تنزيه الفكرة الالهية عند الاقدمين أنه كان تنزيها خاصا مقصورا على الفئـــة القليلة من المفكرين والمطلعين على صفوة الاسرار الدينية

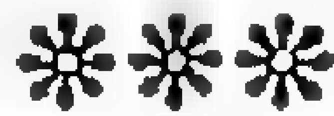
ثم يلاحظ عليه بعد ذلك أنه تنزيه لم يسلم فى كل آنة من ضعف يعيبه عقلا ويجعله غير صالح للأخذ به فى ديانات الجماعة على الخصوص

ففى الديانة المصرية لم تسلم فكرة التوحيد من شائبة الوثنية ولم تزل عبادة الشمس ظاهرة الاثر فى عبادة اتون ..

وديانة الهند لم تعلم الناس الايمـــان « بذات الهية » معروفة الصفات وليس فى معبوداتها أشرف من الكارما والنرفانا ، وهما بالمعانى الذهنية أشبه منهما بالكائنات الحية ، واحداهما ـ وهي النرفانا ـ الى الفناء أقرب منها الى البقاء

والتنزيه الفلسفى الذى ارتقت اليه حكمة اليـونان فى مذهب أرسطو يكاد يلحق الكمال المطلق بالعدم المطلق ، ويخرج لنا صورة للاله لا تصلح للايمان بها ولا للاقتناع بها على هدى من الفهم الصحيح

وكل أولئك لا يبلغ بالتنزيه الالهى مبلغه الذى جاءت به الديانة الاسلامية صالحا للايمان به فى العقيدة الدينية وصالحا للاخذ به فى مذاهب التفكير



والديانة الاسلامية ـ كما هو معلوم ـ ثالثة الديانات المشهورة باسم الديانات الكتابية ، مكانها فى علم المقارنة بين الاديان مرتبط بمكان الديانتين الاخريين وهما الموسوية والمسيحية ، وتجرى المقارنة بين الاسلام وبينهما فعـــلا فى كتابات الغربيين فلا يتورع أكثرهم من حســـبان الاســــلام نسـخة مشوهة أو محرفة من المسيحية أو الموسوية ..

والمسألة ـ بعد ـ مسألة نصوص محفوظة وشعائر ملحوظة ، لا تحتمل الجدل الطويل فى ميزان النقد والمقارنة وان احتملته فى مجال الدعوة والخصومة العصبية ، ولا حاجة فى المقـــارنة بين هذه الديانات الى أكثر من ذكر العقيدة الالهية فى كل منها للعلم الصحيح بمـــكانها من التنزيه فى حكم الدين وحكم المعرفة النظرية

ان المراجع التى تلقينا منها عقائد العبريين كما يدين بها أتباع الديانة الموسوية الى يومنا هذا مبسوطة بين أيدى جميع القادرين على مطالعتها فى لغاتها الاصلية أو لغاتها المترجمة ، وأشهرها التوراة والتلمود

فصورة الاله فى هذه المراجع من أوائلها الى أواخرها هى صورة « يهوا » اله شعب اسرائيل ، وهى صورة بعيدة عن الوحدانية يشترك معها الهة كثيرون تعبدها الامم التى جاورت العبريين فى أوطان نشأتهم وأوطان هجرتهم ، ولكن « يهوا » يغار منها ولا يريد من شعب اسرائيل أن يلتفت اليها ، لانه يريد أن يستأثر بشعب اسرائيل لنفسه بين سائر الشعوب وأن يستأثر شعب اسرائيل به لانفسهم بين سائر الآلهة ، وكان اذا غضب منهم لالتفاتهم الى غيره قال لهم كما جاء فى سفر أشعيا الثانى « بمن تشبهوننى وتسووننى وتمثلوننى لنتشابه؟» ... وكان النبى أرميا يقول لهم بلسان الرب الههم : « ان آباءكم قد تركونى وذهبوا وراء الهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها واياى تركوا وشريعتى لم يحفظوا ... » ثم يقول الرب : « ... وأعطيتهم قلبا ليعرفوا انى أنا الرب فيكونون لى شعبا وأنا أكون لهم الها »

فلم يكن العبريون ينكرون وجود الالهة الكثيرين غير الههم الذى يعبدونه تارة ويتركونه تارة أخرى . ولكنهم كانوا يحسبون الكفر به ضربا من خيانة الرعية لملكها واعترافهم بالطاعة لغيره من الملوك القائمين بالملك فى أرض غير أرضه وبين رعية غير رعيته ، واذا تركوا«يهوا» حينا من الزمن ثم آثروا الرجعة الى عبادته فانما يرجعون اليه لاعتقادهم بالتجربة المزعومة أنه أقدر على النكاية بهم وأن الآلهة الاخرى عجزت عن حمايتهم من سخطه وانتقامه

وقد وصفوه فى كتبهم المقدســـة فقالوا عنه مرة أنه يحب ريح الشواء وقالوا عنه مرة أخرى أنه يتمشى فى ظلال الحديقة ليتبرد بهوائهـــا وقالوا عنه غير هذا وذاك أنه يصارع عباده ويصارعونه وأنه يخاف من مركبـات الجبال كما يخافها جنوده ، وغبروا ردحا من الدهر وهم يسوون بينه وبين عزازيل شيطان البرية فيتقربون اليه بذبيحة ويتقربون الى الشيطان بذبيحة مثلها

ومن تتبع نعوت « يهوا » من أوائل أيام العبريين فى أوطان نشـــأتهم وأوطان هجرتهم الى أواخرها قبل عصر الميلاد المسيحى — لم يتبين من تلك النعوت أنهم وسـعوا أفق العبادة لهذا الاله ولا أنهم وسعوا مجـــال الحظوة عندهم ، بل أنه يتبين من نعوته السابقة واللاحقة أنهـم كانوا يضيقون أفق عبـــادته ويحصرون مجال الحظـوة عندهم جيلا بعد جيل ، فكان شعبه المختار فى مبدأ الامر عاما شـاملا لقوم ابراهيم ثم أصـــبح بعد بضعة قرون محصورا مقصورا على قوم يعقوب بن أسحق ثم أصـــبح بعد ذلك محصورا مقصـــورا على قوم موسى ثم على أبناء داود وعلى من يدينون لعرشه بالولاء ... ومن ذريته كان ينبغى أن يظهر المسيح المخلص لهم فى آخر الزمان

***

وجمد العبريون على عقيدتهم الالهية فظل « يهوا » الها عبريا يستأثر به أبناء يعقوب بن اسحق ولا يرجو الخلاص بمعونة منه الا الذين يدينون بالولاء لعرش داود وذريته من بعده ، فلم يتغير هذا الاعتقاد بين العبريين قبل عصر الميلاد المسيحى ولم يأت التغيير فيه من قبل أبناء اسرائيل المحافظين على عقيدتهم الاولى بل أتى هذا التغيير من قبل المصلحين المجددين فى الدين اليهـودى وقام به من بينهم

رسول مغضـــوب عليه فى شرعتهم متهم بالمـــروق من زمرتهم ، وهو عيسى بن مريم رضوان الله عليه

وابتدأ عيسى بن مريم دعوته الاولى مختصـــا بها بنى اسرائيل دون سواهم من العالمين ، وذكرت لنا الاناجيـل تفصيل الحوار الذى دار بين السيد المسيح وبين المـرأة الكنعانية التى توسلت اليه أن يخرج الشيطان من ابنتها فروى أنجيل مرقص فى الاصحاح السابع :

ان امرأة بابنتها روح نجس سمعت به فأتت وخرت عند قدميه وكانت المراة أممية — أى من أبناء الامم غير الاسرائيلية — وفى جنسها فينيقية سورية . فسألته أن يخرج الشيطان من ابنتها ، واما يسوع فقال لها دعى البنين أولا يشبعون ، لانه ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للـكلاب فأجابت وقالت نعم يا سيد . والـكلاب أيضا تحت المائدة تأكل فتات البنين . فقال لها : لاجل هذه الـكلمة ، اذهبى قد خرج الشيطان من ابنتك ... »

ورواية متى لهذه القصة تشبه رواية مرقص حيث جاء فى الاصحاح الخامس عشر من الانجليل المنسوب اليه

ان السيد المسيح « خرج من هناك وانصرف الى نواحى صور وصيداء ، واذا امراة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة ارحمنى يا سيد يابن داود . ابنتى مجنونة جدا فلم يجبها بكلمة . فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين اصرفها لانها تصيح وراءنا فأجاب وقال : لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة ، فأتت وسجدت له قائلة يا سيد أعنى فأجاب وقال ليس حسنا ان يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب ، فقالت نعم ياسيد والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة ! عظيـم ايمانك ، ليـكن لك كما تريدين . فشفيت ابنتها من تلك الساعة »

ونحن نعلم من هذه القصة ومن جملة أخبار التـلاميذ فى الاناجيل أن السيد المسيح قد ثابر على اختصاص بنى اسرائيل بدعوته ولم يتحـــول عنهم الى غـيرهم الا بعد اصرارهم على رفضه ولجاجتهم فى انكار رسالته فوجـــد بعد اليأس منهم أنه فى حل من صرف الدعـــوة عنهم الى

الامم المقيمة بينهم ، وضرب المثـــل لذلك بصاحب الدار الذى أقام وليمة العرس فى داره وأرسل الدعوة الى ذويه وجيرانه فتعللوا بالمعاذير والشـــواغل ولم يســـتجيبوا لدعوته ، فأطلق غلمانه الى أعطاف الطريق يدعون مـن يصادفهم من الغرباء وعابرى السبيل ، على غـير معـرفة بهم ولا صلة بينه وبينهم ، حتى امتـــلأت بهم الدار ولم يبق على الموائد مكان لمن أختصهم بالدعوة فأعرضوا عنها

ويلاحظ فى قصة المرأة الـــكنعانية أنها كانت تدعو المسيح بالسيد ابن داود ، وأن عقيـدة العبريين لم تزل تعلق آمالهم بالخـلاص على يد رســول من ذرية داود ومن سلالة يعقوب بن اسحق بن ابراهيم

ومضى عصر المسيح وجاء بعده عصر بولس الرســول وعقيدة الخلاص الموقوف على سلالة ابراهيم الخليل باقية مســلمة بين العبــريين الجامدين على تقاليدهم وبين المسيحيين المتحررين من تلك التقاليد ، وانما أضيف اليها تفسير جديد لهذه البنوة وهو أنها بنوة روحية لا تتوقف على بنوة الجســد ولا فارق فيها بين من يحيـــون سـنة ابراهيم الخليل من العبريين أو من الاميين الذين يسميهم العبريون « بالجوييم » .. أى الاقوام الغرباء

فالعقيدة الالهيه كما دان بها العبريون وجمدوا عليهـا الى عصر الميلاد انما هى عقيدة شعب مختار بين الشعوب فى اله مختار بين الآلهة ، وليس فى هذه العقيدة ايمـان بالتوحيد ولا هى مما يتسع لديانة انسانية أو مما يصح أن يحسبه البـاحث المنصف مقدمة للايمان بالاله الذى يدعو اليه الاسلام

ثم تطورت هذه العقيدة الالهية بعد ظهور المســيحية فانتقلت من الايمان بالاله لابناء ابراهيم فى الجســد الى

الاله لابنـــاء ابراهيم فى الروح ، وانقضى عصر السيد المسيح وعصر بولس الرسول واتصلت المسيحية بالامم الاجنبية وفى مقدمتها الامة المصرية فشاعت فيها على أثر ذلك عقيدة الهية جديدة فى مذهب العبريين وهى عقيدة الثالوث المجتمع من الاب والابن والروح القدس ، وفحواها أن المســـيح المخلص هو ابن الله وأن الله أرســله فداء لابناء آدم وحواء وكفارة عن الخطيئة التى وقعا فيها عندما أكلا من شـــجرة المعـــرفة فى الجنة بعد أن نهاهما عن الاقتراب منها

وظهر الاسلام وفحوى العقيدة الالهية كما تطورت بها الديانة المسيحية أن الله الاله واحد من أقانيم ثلاثة هى الآب والابن والروح القدس وأن المسيح هو الابن من هذه الاقانيم ، وهو ذو طبيعة الهية واحدة فى مذهب فــريق من المسيحيين وذو طبيعتين الهية وانســـانية فى مذهب فريق آخر

ومن البديهى أن الباحث الذى يريد تطبيق علم المقارنة بين الاديان على المســـيحية والاسلام مطالب بالرجوع الى حالة الديانة المسيحية حيث ظهرت دعوة الاســـلام فى الجزيرة العربية ، فلا يجوز لاحد من هــؤلاء الباحثين ان يزعم أن الاسلام نسخة محرفة من المسيحية الا اذا اعتقد أن نبي الاسلام قد أخذ من المسيحية كما عرفها فى بيئته العربية وفيما اتصل به من البيئات الاخرى حول جزيرة العرب • ومهما يكن من تطور العقائد المسيحية فى سائر البيئات ومختلف العصور فالعقيدة المسيحية التى يجوز لصاحب المقارنة بين الاديان أن يجعلها قدوة للاسلام انما هى عقيــدة المسيحيين فى الجزيرة العربية وما حولها ، وقد وصف جورج سيل مترجم القرآن الى اللغة الانجليزية

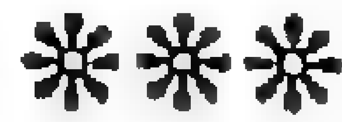
حالة المسيحيين فى الحجاز وفى سائر الانحاء القريبة منه فقال ما ننقله من ترجمة مقدمته للقرآن :

« انه من المحقق ان ما ألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الاحوال فى صدر المائة الثالثة للميلاد قد اضطر كثيرين من نصاراها أن يلجئوا الى بلاد العرب طلبا للحرية وكان معظمهم يعاقبة فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة . وأهم القبائل التى تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طىء وقضاعة وأهل نجران والحيرة ... ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد فى بلاد العرب لزم عن ذلك ولا بد انه كان للنصارى أساقفة فى مواضع جمة لتنتظم بهم سياسة الكنائس وقد تقدم ذكر أسقف ظفار وقال بعضهم كانت نجران مقام أسقف وكان لليعاقبة أسقفان.. يدعى أحدهما أسقف العرب باطلاق اللفظ وكان مقامه باكولة وهى الكوفة عند ابن العبرى أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أبى الفداء ، وثانيهما يدعى أسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة . أما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريكهم »

الى أن يقول :

« أما الكنيسة الشرقية فانها أصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوى مرتبكة بمناقشات لاتكاد تنقضى ، وانتقض حبلها بمماحكات الاريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع . على أن الذى ثبت بعد البحث ان كلا من بدعتى النساطرة واليعقوبية كانت أولى بأن تدعى اختلافا فى التعبير عن المعتقد من أن تدعى اختلافا فى المعتقد نفسه ، وبأن تدعى حجة يتغلب بها كل من المتناظرين على الآخر أولى من أن تدعى سببا موجبا لالتئام مجامع عديدة يتردد اليها جماعة القساوسة والاساقفة ويتماحكون ليعلى كل واحد منهم كلمته ويحيل القضايا الى هواه ، ثم ان نافذى الكلمة منهم وأصحاب المكانة فى قصر الملك كان كل واحد منهم يختص نفرا من قواد الجيش أو من أصحاب الخطب يكون له عليهم الولاء ويتقوى بهم ، وبذلك صارت المناصب تنال بالرشى والنصفة تباع وتشترى جهارا . أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك دماسوس وارسكينوس فى المشاحنة على منصة الاستقفية — أى أسقفية روما — ما أفضى الى احتدام نار الفتنة وسفك الدماء بين حزبيها .. وكان أكثر ما تنشأ المناقشات من القياصرة انفسهم ولا سيما القيصر قسطنطينوس فانه اذ لم يقدر أن يميز بين صحيح الدين المسيحى وخرافات العجائز ربك الدين بكثير من المسائل الخلاقية ... هذا ما كان عليه حال النصرانية فى غير بلاد العرب . أما فى بلاد هذه الامة التى هى موضوع بحثنا فلم تكن خيرا من ذلك ... فكان فى نصارى العرب قوم يعتقدون

ان النفس تموت مع الجسد وتنشر معه فى اليوم الآخر وقيل ان أوربيجانوس هو الذى دس فيهم هذا المذهب ، وكم وكم من بدعة انتشرت فى جزيرة العرب حتى لا نقول نشأت فيها ؟ ! .. فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بألوهية العذراء مريم ويعبدونها كأنما هى الله ويقربون لها أقراصا مضفورة من الرقاق يقال لها كليرس وبها سمى أصحاب هذه البدع كليريين ... وفضلا عن ذلك فقد اجتمع أيضا فى جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الاسماء لجأوا اليها هربا من اضطهاد القياصرة .. »



كانت عقائد الفرق المسيحية فى جزيرة العرب ، وفى العالم المترامى حول جزيرة العرب على هذا النحو الذى وصفه رجل متعصب على الاسلام لا يتهم بمحاباته ولا يظن به أنه يتجانف على المسيحية وهو قادر على مداراتها. ومن الواضح البين أن عقائد الفرق المسيحية على ذلك النحو لم تكن مما يغرى بالاعجاب أو مما يدعو الى الاقتداء. ومن الواضح البين أن موقف الاسلام كان موقف المصحح المتمم ولم يكن موقف الناقل المستعير بغير فهم ولا دراية

فقد جاء الاسلام بالدعوة الى اله منزه عن لوثة الشرك: منزه عن جهالة العصبية وسلالة النسب ، منزه عن التشبيه الذى تسرب من بقايا الوثنية الى الاديان الكتابية

فالله الذى يؤمن به المسلمون اله واحد لم يكن له شركاء : « سبحانه وتعالى عما يشركون »

وما هو برب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة ولكنه هو « رب العالمين » خلق الناس جميعا ليتعارفوا ويتفاضلوا بالتقوى فلا فضل بينهم لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

وَجَعلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » (سورة الحجرات)

وهو واحد أحد « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدْ » (سورة الاخلاص)

لا يأخذ انسانا بذنب انسان ، ولا يحاسب أمة خلفت بجريرة أمة سلفت ولا يدين العالم كله بغير نذير

« وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . (سورة فاطر)

***

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (سورة البقرة)

***

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً »

(سورة الاسراء)

***

ودينه دين الرحمة والعدل ، تفتتح كل سورة من كتابه « باسم الله الرحمن الرحيم »

« وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ » (سورة فصلت)

و « هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ »

(سورة الحديد)

«وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً» (سورة الاعراف)

« وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » (سورة يس)

***

وللباحث فى مقارنات الاديان أن يقـول ما يشاء عن هذا الاله الواحد الاحد رب العالمين ورب المشرقين والمغربين. الا ان يقول انه نسخة مستمدة من عقائد عرب الجاهلية أو عقائد الفرق الكتابية التى خالطت عقائد الجاهليين على النحو الذى وصفه جورج سـيل فى مقدمته لترجمة القرآن الكريم ، فان العقيدة الالهية التى تستمد من تراث الجاهليين لن تكون لها صبغة أغلب من صبغة العصبية ولا مفخرة أظهر من مفاخر الاحساب ، ولن تخلو من لوثة الشرك ولا من عقابيل العبادات التى امتلأت بالخبائث وحلت فيها الرقى والتعاويذ محل الشعائر والصلوات

ومعجزة المعجزات أن الاسلام لم يكن كذلك بل كان نقيض ذلك فى صراحة حاسمة جازمة لا تأذن بالهوادة ولا بالمساومة • فما من خلة كانت أبغض اليه من خلة العصبية الجاهلية والمفاخرة الجاهلية والتناجز الجاهلى على فوارق الانساب والاحزاب

فمن صميم بلاد العصبية خرج الدين الذى ينكر العصبية ••

ومن جوف بلاد القبائل والعشائر خرج الدين الذى يدعو الى اله واحد « رب العالمين » ورب المشرق والمغرب ورب الامم الانسانية جميعا •• بغير فارق بينها غير فارق الصلاح والايمان

على أن الباحثين الذين يصطنعون سمت العلم من علماء المقارنة بين الاديان فى المغرب يطلقون نعوتهم على الاسلام

سماعا فيما يظهر من مقرراتهم أو من مكرراتهم التقليدية التى لا يبدو منها أنهم كلفوا عقولهم جدا وحقاً أن تلم ألمامة واحدة بهذا الدين فى جملة أو تفصيل

ففى كتاب من أحدث الكتب عن أديان بنى الانسان ألفه أستاذ للفلسفة فى جامعة كبيرة يقول المؤلف المتخصص لهذه الدراسات بعد الاشارة الى السيف والعنف والاقتباس من النصرانية والصابئية والمجوسية :

« ان محمدا أسبغ على الله ــ ربه ــ ثوبا من الخلق العربى والشخصية العربية .. » (١)

ويقول المؤلف ان :

« الحقيقة » التى قررها هنا تتجلى للباحث كلما تقدم فى دراسة هذا الدين العربى وهذه الشخصية الالهية العربية »

بهذا النعت التقليدى ينعت المؤلف آله الاسلام بعد أن تقدم فى دراسته على حد قوله .. فماذا كان عساه قائلا لو أنه لم يسمع باسم الاسلام الا على الاشاعة من بعيد ؟

لعله لم يكن بحاجة الى التقدم وراء البسملة فى سورة الفاتحة ليعلم أن المسلم يدين برب العالمين وأنه يصف ربه بالرحمة مرتين عند الابتداء بكل سورة من سور كتابه ... ولعله كان يحسن المقارنة جدا ، وحقا ، لو أنه قنع بهذه الصفة من صفات آله الاسلام وقارن بينها وبين الصفات التى يختارها غير المسلمين فلا يذكرون الله فى مفتتح دعواتهم بغير صفة القوة والجبروت Almighty

فالله رب العالمين ، ملك يوم الدين ، لم يكن نسخة

(١) Man's Religions, by Professor John B. Noss. Franklin and Marshall college.

محرفة من صورة الله فى عقيدة من العقائد الكتابية ، بل كان هو الاصل الذى يثوب اليه من ينحرف عن العقيـدة فى الاله كأكمل ما كانت عليه وكأكمل ما ينبغى أن يكون

ومن ثم كانت هذه العقيدة الالهية فى الاسلام مصححة متممة لكل عقيدة سبقتها فى مذاهب الديانات أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية Theology

فهى عقيـدة كاملة صححت وتممت عقيدة الهند فى الكارما والنرفانا ، لانها عقيدة فى خواء أو فناء مسلوب الذات لا تجاوب بينه وبين أبناء الحياة

وهى عقيدة كاملة صححت وتممت عقيدة المعلم الاول بين فلاسفة الغرب الاقدمين ، لانه كان على خطأ فى فهم التجريد والتنزيه ، ساقه هذا الخطأ الى القول بكمـال مطلق كالعدم المطلق فى التجـرد من العمل والتجرد من الارادة والتجرد من الروح

ودين يصحح العقائد الالهية ويتممها فيما سبقه مـن ديانات الامم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها ـ تراه مـن أين أتى ومن أى رسول كان مبعثه ومدعاه ؟

من صحراء العرب ..

ومن الرسـول الامى بين الرسل المبعوثين بالكتب والعبادات ..

ان لم يكن هذا وحيا من الله فكيف يكون الوحى من الله ؟ ..

ليكن كيف كان فى أخلاد المؤمنين بالوحى الالهى حيث كان ، فما يهتدى رجل « أمى » فى أكناف الصحراء الى ايمان بالله أكمل من كل ايمان تقدم الا أن يـكون ذلك وحيا من الله ، وانه لحجر على البصائر والعقول أن تنكر الوحى على هذه المعجزة العليا لانه لا يصـدق عليها فى صورة من صور الحدس أو الخيال

عقيدة النبوة

نمت فى الاسلام فكرة النبوة كما نمت الفكرة الالهية، فبرئت هذه الرسالة السماوية من شوائبها الغليظة التى لصقت بها فى عقائد الاقدمين من أتباع الديانات الوثنية والديانات الكتابية ، وخلصت من بقايا السحر والكهانة كما خلصت من شعوذة الايهام الخيالى وبدوات الجنون الذى كانوا يسمونه قديما بالجنون المقدس ، لاعتقادهم أن المصابين به يخلطون هذيانهم بوحى الارواح العلوية التى تستولى عليهم ، ونمت نبوة الاسلام نماءها الاوفى حين خلصت من دعوى الخوارق والمغيبات ، وهى آية النبوة الكبرى فى عرف الاقدمين

ولم تكن براءة النبوة من هذه الشوائب عرضا مسوقا فى أطواء العقيدة بغير قصد ولا بينة ، بل كان وصف النبوة على هذه الصفة المطهرة فريضة مكتوبة على المسلم يعلمها من نصوص كتابه ويؤمن بها ايمانه برسالة نبيه ..

فما النبوة بقول ساحر ولا يفلح الساحرون ، وما النبى بكاهن ولا مجنون ..

«وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ، لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ، وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ» (سورة الحجر)

فليست الخوارق مما يغنى النبى فى دعوة المكابر المفتون . انه ليزعمها اذن ضربا من السحر أو السكر ولو فتح له الأنبياء بابا من السماء

ولقد جاءت الخوارق طائعة لنبى الاسلام فصدقها الناس وأبى لهم أن يصدقوها أو يفهموها على غير حقيقتها ، ولو أنه سكت عنها لحسبوها له معجزة من المعجزات لم يتحقق مثلها من قبل لاحد من المرسلين

مات ابنه ابراهيم وانكسفت الشمس ساعة دفنه وتصايح المسلمون حول القبر : انها لآية من آيات الله أن تنكسف الشمس لموت ابن محمد عليه السلام . وكسوف الشمس يومئذ خبر من أخبار الفلك الثوابت أيده حساب الفلكيين فى العهد الاخير ، فلو كان صلوات الله عليه رسولا من الرسل الذين يتصيدون الخوارق أو ينكرونها لانهم لا يستطيعون أن يدعوها لما كلفته هذه الخارقة الا أن يسكت عنها فلا يدعيها ولا ينكرها ، ولكنه لم ينس فى ساعة حزنه أمانة الهداية للمؤمنين بدينه ، وبادرهم لساعتها مذكرا لهم بآيات الله

« وان الشمس والقمر آيتان له لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته .. »

وما نحسب أن النبوة تعظم بكرامة قط أكرم لها من التوكيد فى القرآن الكريم بتمحيص هذه الرسالة السماوية لهداية الضمائر والعقول ، غير مشروطة بما غبر فى الاوهام من قيام النبوة كلها على دعوى الخوارق والانباء بالمغيبات

« وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ »

(سورة يونس)

***

« قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَاشَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »

(سورة الاعراف)

***

« قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ »

(سورة الانعام)

«وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ»

(سورة الانعام)

***

بهذه الفكرة الرشيدة عن النبوة يفرق الاسلام بين طريقين شاسعتين فى تاريخ الاديان : طريق موغلة فى القدم تنحدر الى مهد النبوات الوثنية حيث تشتبك العبادة بالسحر والكهانة ثم تتقدم فى خطوات وئيدة يلتقى فيها الخبل باليقظة ، وتختلط فيها الخرافة بالالهام الصادق والموعظة الحسنة

وطريق تليها موغلة فى المستقبل يفتتحها صاحب النبوة الاخيرة فيعلن انه يفند السحر والكهانة ويزرى بقداسة الجنون أو جنون القداسة ، ويروض بصيرة الانسان على قبول الهداية وان لم ترضها له روعة الخوارق ودهشة الغيب المجهول . لانه يروض البصيرة الانسانية على أن تنظر وتبصر ، ولا يستوى الاعمى والبصير ..

ومن تأمل هذا الفارق بين الطريقين الشاسعتين فى تاريخ الاديان لا جرم يطيل التأمل فلا يرى عجبا أن تكون هذه النبوة خاتم النبوات . اذ كان الاصلاح بعدها منوطا بدعوات يستطيعها من لا يدعى خارقة تفوق طاقة الانسان ، ولا يهول العقول بالكشف عن غيب من الغيوب لايدريه الانسان ..

***

وأبعد شىء عن البحث الامين أن تنعقد المقارنة بين هذه النبوة الاسلامية ونبوءات أخرى تقدمتها فيزعم الباحث

أنها نسخة محرفة منها أو منقولة عنها ، فان الفارق بين نبوءة تقوم حجتها الكبرى على هداية العقل والضمير ونبوءات تقوم حجتها الكبرى على الغرائب والاعاجيب — لهو من الفوارق البينة التى لا يمترى فيها باحثان منصفان ، ودع عنك الفارق بين نبوءة تدعو الى رب العالمين ونبوءة تدعو الى رب سلالة أو رب قبيل • وربما اعترى الخطأ مقياسا من مقاييس البحث فتساوت لديه الزيادة والنقص وتعادل أمامه الراجح والمرجوح • فأما أن يرجح النقص على الزيادة فذلك هو الخطأ الذى لا ينجم الا من زيغ فى الطبع أو عناد يتعامى عمدا عن الشمس فى رائعة النهار ••

والواقع أن النبوة الاسلامية جاءت مصححة متممة لكل ما تقدمها من فكرة النبوءة كما كانت عقيدة الاسلام الالهية مصححة متممة لكل ما تقدمها من عقائد بنى الانسان فى الاله

ومن عجيب الاستقصاء أن القرآن الكريم قد أحصى النبوءات الغابرة بأنواعها فلم يدع منها نوعا واحدا يعرفه اليوم أصحاب المقارنة بين الاديان ، ومن تلك الانواع نبوءة السحر ونبوءة الرؤيا والاحلام ونبوءة الكهانة ونبوءة الجذب أو الجنون المقدس ونبوءة التنجيم وطوالع الافلاك ، وكلها مما يدعيه المتنبئون ويدعون معه العلم بالغيب والقدرة على تسخير نواميس الطبيعة ، ولكنها على اتفاقها فى هذه الدعوة تختلف بمصادرها ونظرة الناس اليها أيما اختلاف

فنبوءة السحر يغلب عليها أنها موكلة بالارواح الخبيثة تسخرها للاطلاع على المجهول او السيطرة على الحوادث والاشياء ، ونبوءة الكهانة يغلب عليها أنها

موكلة بالارباب لا تطيع الكاهن ولـكنها تلبى دعواته وصلواته وتفتح لها مغالق المجهول فى يقظته أو منامه وترشده بالعلامات والاحلام ولا تلبى سائر الدعوات والصلوات • ولكنهما ـ نبوءة السحر ونبوءة الكهانة ـ تخالفان نبوة الجذب والجنون المقدس لان الساحر والكاهن يدريان بما يطلبان ويريدان قصدا ما يطلبانه بالعزائم والصلوات ، ولكن المصاب بالجذب او الجنون المقدس مغلوب على أمره ينطلق لسانه بالعبارات المبهمة وهو لا يعنيها ولعله لا يعيها ، ويكثر بين الامم التى تشيع فيها نبوة الجذب أن يكون مع المجذوب مفسر يدعى العلم بمغزى كلامه ولحن رموزه واشاراته ، وقد كانوا فى اليونان يسمون المجذوب « مانتى Manti » ويسمون المفسر « بروفيت Prophet » أى المتكلم بالنيابة عن غيره ومن هذه الكلمة نقل الاوربيون كلمة النبوة بجميع معانيها ، وقلما يتفق الكهنة والمجذوبون الا أن يكون الكاهن متوليا للتفسير والتعبير عن مقاصد المجذوب ومضامين رموزه واشاراته • ويحدث فى أكثر الاحيان أن يختلفا ويتنازعا لانهما مختلفان بوظيفتهما الاجتماعية مختلفان بطبيعة النشأة والبيئة • فالمجذوب ثائر لا يتقيد بالمراسم والاوضاع المصطلح عليها ، والكاهن محافظ يتلقى علمه الموروث فى أكثر الاحيان من آبائه وأجداده ، وتتوقف الكهانة على البيئة التى تنشأ فيها الهياكل والصوامع المقصودة فى الارجاء القريبة والبعيدة ، ولا يتوقف الجذب على هذه البيئة لانه قد يعترى صاحبه فى البرية كما يعتريه فى الحاضر المقصود من أطراف البلاد

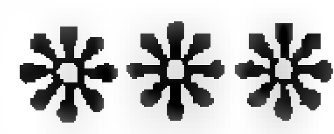
والمقارنة بين النبوة الاسلامية وبين النبوءات التى شاعت فى تاريخ العبريين تغنينا عن تعميم المقارنة فى

عامة الديانات التى سبقت ظهور الاسلام ، لأن العبريين قد آمنوا بهـــذه النبوات جميعا وبينهم ظهرت الديانة الموسوية التى كانت أولى الديانات الكتابية ومرجع المقارنة فى مسائل النبوة وشعائر العقيدة التى تدور عليهـــا المقارنة بين عبادات أهل الكتاب

وقد عرفت قبائل العبريين نبوءات السحر والكهانـة والتنجيم كما عرفتها الشعوب البدائية وابتكرت منها ما ابتكرت على سنة الشـــعوب كافة ، واقتبست منها ما اقتبست بعد اتصالها بجيرانها فى المقام من أهل البادية أو أهل الحاضرة • ولكنها على خلاف الشائع بين المقلدين من كتاب الغربيين قد تعلمت النبوة الالهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب ولم تكن لهذه الكلمة عند العبريين لفظة تؤديها قبل وفودهم على أرض كنعان ومجاورتهم للعرب المقيمين فى أرض مـــدين « •• فكانوا يســـمون النبى بالرائى او الناظر أو رجل الله ولم يطلقوا عليه اســـم النبى الا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين فى التوراة ، وهم ملكى صادق وأيوب وبلعـــام وشعيب الذى يســـمونه « يثرون » معلم موسى الكليم • ويرجح بعضهم انه الخضر عليه السلام للمشابهة بين لفظ يثرون وخثرون وخضر فى مخارج الحروف ، ولما ورد من أخبـــار الكليم مع الخضر عليهما السلام فى تفسير القرآن الكريم

ومن علماء الاديان الغربيين الذين ذهبوا الى اقتباس العبريين كلمة النبوة من العرب الاستاذ هولشر Holscher والاستاذ شميدت Schmidt اللذان يرجحـــان أن الكلمة دخلت فى اللغة العبرية بعد وفود القوم على فلسطين • الا أن الامر غنى عن الخبط فيه بالظنون مع المستشرقين ، من يفقه منهم اللغة العربية ومن لا يفقه منها غير الاشباح

والخيالات ، فان وفرة الكلمات التى لا تلتبس بمعنى النبوة فى اللغة الغربية كالعرافة ، والكهانة ، والعيافة ، والزجر ، والرؤية ، تغنيها عن اتخاذ كلمة واحدة للرائى وللنبى ، وتاريخ النبوات العربية التى وردت فى التوراة سابق لاتخاذ العبريين كلمة النبى بدلا من كلمة الرائى والناظر ، وتلمذة موسى لنبى « مدين » مذكورة فى التوراة قبل سائر النبوات الاسرائيلية ، وموسى الكليم ولا ريب رائد النبوة الكبرى بين بنى اسرائيل



والمطلع على الكتب المأثورة بين بنى اسرائيل يتبين منها انهم آمنوا بهذه النبوات جميعاً ، وانهم بعد ارتقائهم الى الايمان بالنبوة الالهية ما زالوا يخلطون بين مطالب السحر والتنجيم ومطالب الهداية ويجعلون الاطلاع على المغيبات امتحانا لصدق النبى فى دعواه أصدق وألزم من كل امتحان ، ولم يرتفع بأكبر أنبيائهم ورسلهم عن مطلب الاتجار بالكشف عن المغيبات والاشتغال فى التنجيم

ففى أخبار صموئيل أنهم كانوا يقصدونه ليدلهم على مكان الماشية الضائعة وينقدونه أجره على ردها .. « خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب وفتش عن الاتن .. فقال شاول للغلام .. فماذا نقدم للرجل ؟ لان الخبز قد نفد من أوعيتنا وليس من هدية نقدمها لرجل الله .. ماذا معنا ؟ فعاد الغلام يقول : هو ذا يوجد بيدى ربع شاقل فضة »

ويؤخذ من النبوءات التى نسبوها الى النبى يعقوب جد بنى اسرائيل أنهم كانوا يعولون عليه فى صناعة التنجيم فان النبوءات المقرونة بأسماء أبناء يعقوب تشير الى أبراج السماء وما ينسب اليها من طوالع ومن أمثلتها عن شمعون ولاوى أنهما ، « أخوان سيوفهما آلات ظلم فى مجلسهما

لا تدخل نفسي .. لانهما في غضبهما قتلا انسانا وفي رضائهما عرقبا ثورا .. »

وهذه اشارة الى برج التوأمين وهو برج اله الحرب « زجال » عند البابليين ، ويصورون أحد التوأمين وفي يده خنجر ويصورون أخاه وفي يده منجل .. وتشير عرقبة الثور الى برج الثور الذى يتعقبه التوامان

ومن الامثلة في هذه النبوءات المنسوبة الى يعقوب مثل يهودا .. « جرو أسد جثا وربض كأسد ولبوة . لا يزول قضيب من يهودا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب »

وهذه اشارة الى برج الاسد ، وهو عند البابليين برجان يبدو أمام احدهما برج يشير الى علامة الملك الذى تخضع له الملوك (١)

وتجرى النبوءات عن سائر الاسماء — اثنى عشر اسما — كل اسم منها يوافق برجا من ابراج السماء على مثال ما قدمناه ..

وقد كثر عدد الانبياء في قبائل بنى اسرائيل كثرة يفهم منها أنهم كانوا في أزمنتهم المتعاقبة يشبهون في العصور الحديثة اصحاب الاذكار ودراويش الطرق الصوفية ، لانهم جاوزوا المئات في بعض العهود واصطنعوا من الرياضة في جماعاتهم ما يصطنعه هؤلاء الدراويش من التوسل الى حالة الجذب تارة بتعذيب الجسد ، وتارة بالاستماع الى الات الطرب

جاء في كتاب صموئيل الاول :

أن شاول أرسل لاخذ داود رسلا « فرأوا جماعة الانبياء يتنبأون وشاول واقف بينهم رئيسا عليهم ، فهبط روح الله على رسل شاول فتنبأوا هم أيضا وأرسل غيرهم فتنبأ هؤلاء ... فخلع هو أيضا

---

(1) The oracles of Jacob by Eric Burrows

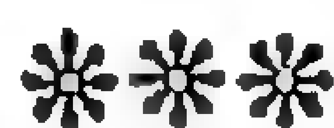
ثيابه وتنبأ هو أيضا أمام صموئيل وانتزع عاريا ذلك النهار كله وكل الليل » .

وجاء في كتاب صموئيل كذلك :

« ... انك تصادف زمرة من الانبياء نازلين من الاكمة وامامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون، فيحـــــل عليهم روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول الى رجل آخر »

وكانت النبوة صناعة وراثية يتلقاها الابناء من الاباء كما جاء فى سفر الملوك الثانى : « اذ قال بنو الانبياء لا ليشع هو ذا الموضع الذى نحن مقيمون فيه أمامك قـد ضاق علينا فلنذهب الى الاردن

وكانت لهم خدمة تلحق بالجيش فى بعض المواقع كما جاء فى سفر الايام الاول حيث قيل أن داود ورؤســاء الجيش » افرزوا للخدمة بنى اساف وغيرهم من المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج



وهؤلاء المئات من المحسوبين على النبوة لبثوا بين قبائل اسرائيل وقرا فادحا لا يصبر القوم على تكاليفه المرهقة الا المنفعـــة ينتظرونها من زمرة المتنبئين الذين يثبت لهم صدقهم ، وليست هذه المنفعة الا الاعتماد حينا بعد حين على بعض المتنبئين فى الكشف عن الخبايا والانذار بالكوارث المتوقعة ، وأهم ما كان يهمهم من هذه الكوارث أن يحذروا غضب « يهوا » لانهم جربوا أنه أقدر على النقمة من سائر الارباب ..

وحدث ما لابد أن يحدث فى هذه الحالة من الاسفاف بالكشف الروحى تسخيرا له فى المطالب اليومية على حسب الحاجة اليه فى حينه . فبـــدلا من أن يكون الكشف الروحى لمحة من لمحات الصفاء ترتفع فيها حجب الهـوى والضلالة عن البصيرة فتدرك مالا تدركه فى عامة أوقاتها — أصبح هذا الكشف صناعة ملازمة لكل من يدعى النبوة

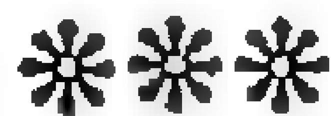
بحق أو بغير حق ، ووجب على النبى فى عرفهم أن يكون مستعدا بكراماته ومعجزاته كلما أرادها أو أريدت منه ، وروى القوم من أنباء هذا الاستعداد ما يشبه الاستعداد للمباراة بين فرق الرياضة من الطرفين المتقابلين ، وقد ثبتت لهم غلبة انبياء يهوا على أنبياء البعل على أثر مباراة من هذه المباريات بينهم فى التنبؤ والانذار بالاخطار

جاء فى كتاب الملوك الاول :

ان « ايزابل » امرأة أخاب ملك اسرائيل قتلت مئات من انبياء يهوا فلم ينج منهم غير خمسين خبأهم أحد الوزراء المخلصين للدين ثم ظهر النبى « ايليا » متحديا للملك قائلا كما جاء فى الاصحاح الثامن عشر من الكتاب المذكور :

« .. ولما رأى أخاب ايليا قال له أخاب : أأنت هو مكدر اسرائيل. فقال : لم أكدر اسرائيل بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وبسيرك وراء البعليم . فالآن أرسل واجمع الى كل اسرائيل الى جبل الكرمل وأنبياء البعل اربع المئة والخمسين وأنبياء السوارى أربع المئة الذين يأكلون على مائدة ايزابل فارسل أخاب الى جميع بنى اسرائيل وجميع الانبياء الى جبل الكرمل فتقدم ايليا الى جميع الشعب وقال حتى متى تعرجون بين الفرقتين . ان كان الرب هو الله فاتبعوه ، وان كان البعل فاتبعوه ، فلم يجبه الشعب بكلمة. ثم قال ايليا للشعب : أنا بقيت نبيا للرب وحدى وأنبياء البعل أربعمائة وخمسون رجلا . فليعطونا ثورين فيختاروا لانفسهم ثورا واحدا ويقطعوه ويضعوه على الحطب . ولكن لا يضعون نارا وأنا أقرب الثور الآخر وأجعله على الحطب ولكن لا أضع نارا . ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب . والاله الذى يجيب بنار فهو الله . فأجاب جميع الشعب وقالوا : الكلام حسن فقال ايليا لانبياء البعل : اختاروا لانفسكم ثورا واحدا وقربوا أولا لانكم أنتم الاكثر وادعوا باسم آلهتكم ، ولكن لا تضعوا نارا ، فأخذوا الثور الذى أعطى لهم وقربوه ودعوا باسم البعل من الصباح الى الظهر قائلين : يابعل أجبنا فلم يكن صوت ولامجيب . وكانوا يرقصون حول المذبح الذى عمل وعند الظهر سخر بهم ايليا وقال : ادعوا بصوت عال لانه اله لعله مستغرق او فى خلوة أو فى سفر أو لعله نائم فيتنبه . فصرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عادتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم ولما جاز الظهر وتنبأوا الى حين اصعاد التقدمة ولم

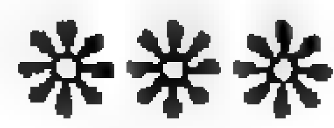
يكن صوت ولا مجيب ولا مصغ ، قال ايليا الى جميع الشعب تقدموا الى فتقدم جميع الشعب اليه فرمم مذبح الرب المتهدم ثم أخذ ايليا اثني عشر حجراً بعدد أسباط بنى يعقوب الذى كان كلام الرب اليه ، قائلا : اسرائيل يكون اسمك ، وبنى الحجارة مذبحا باسم الرب ، وعمل قناة حول المذبح تسع كيلتين من البذر ثم رتب الحطب وقطع الثور ووضعه على الحطب وقال : املأوا أربع جرات ماء وصبوا على المحرقة وعلى الحطب ثم قال : ثنوا فثنوا ، وقال : ثلثوا فثلثوا . فجرى الماء حول المذبح وامتلأت القناة أيضا ماء وكان عند اصعاد التقدمة ان ايليا النبى تقدم وقال : أيها الرب اله ابراهيم واسحق واسرائيل ليعلم اليوم انك أنت الله فى اسرائيل وانى أنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الامور استجبنى يا رب استجبنى ليعلم هذا الشعب انك انت الرب الاله وانك أنت حولت قلوبهم رجوعا فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ولحست المياه التى فى القناة . فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا : الرب هو الله الرب هو الله فقال لهم ايليا : امسكوا أنبياء البعل ولا يفلت منهم رجل . فأمسكوهم فنزل بهم ايليا الى نهر قيشون وذبحهم هناك وقال ايليا لآخاب : اصعد كل واشرب لانه حس دوى مطر . فصعد أخاب ليأكل وليشرب ، وأما ايليا فصعد الى رأس الكرمل وخر الى الارض وجعل وجهه بين ركبتيه وقال لغلامه : اصعد تطلع نحو البحر فصعد وتطلع وقال : ليس شىء . فقال : ارجع سبع مرات ، وفى المرة السابعة قال هو ذا غيمة صغيرة قدر كف انسان صاعدة من البحر . فقال : اصعد قل لآخاب أشدد وانزل لئلا يمنعك المطر وكان من هنا الى هنا أن السماء اسودت من الغيم والريح وكان مطر عظيم فركب أخاب ومضى الى يزرعيل . وكانت يد الرب على ايليا فشد حقويه وركض أمام أخاب حتى تجىء الى يزرعيل »



وقد صاحبت القوم هذه الفكرة عن النبوة الحاضرة عند الطلب منذ أوائل عهودهم الى أواخر عهدهم بالانبياء قبل ظهور السيد المسيح .. فلم تكن النبوة عند القوم فى هذه العهود كافة الا صناعة مرادفة لصناعة التنجيم أو لصناعة الفراسة المنذرة بالكوارث المتوقعة . فهى اما استطلاع للخبايا أو صيحة فزع من نقمة « يهوا » الذى تعودوا أن يعاقبهم بالمصائب الحسية كلما انحرفوا عن سـنته ،

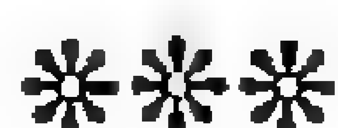
وأشركوا بعبادته ربا آخـــر من ارباب الشــــعوب التى ينازعونها وتنازعهم على المرعى والمقام

وما يكون للقوم ان يفهموا من النبوة معنى غير معناها هذا ، لانهم قد تعلموا من احبارهم وكتبة اسفارهم أن انبياءهم قد حلوا فى محل العرافين العائفين والســـحرة والرقاة الذين ينقلون أقوال الالهة فى غير بنى اسرائيل .. فهؤلاء جميعا لا يصدقون لانهم ينقلون المعرفة من أرباب غير « يهوا » رب اسرائيل ، وأما شعب اسرائيل فقد قيل لهم : « .. فيقيم لك الرب الهك نبيا من وسطك من اخوتك مثلى له تسمعون حسب كل ما طلبت من الرب الهك فى حوريب يوم الاجتماع قائلا : لا أعود أسمع صوت الرب الهى . ! ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا لئلا أموت قال لى الرب قد احسنوا فيما تكلموا . أقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون ان الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه . وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى . وان قلت فى قلبك كيف نعرف الكلام الذى يتكلم به الرب مما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبى . فلا تخف منه ــ ١٨ سفر الثنية »



وهكذا وقر فى أخلاد الشعب من أحباره وعلمائه الى عامة جهلائه أن الكشف على الغيب مرادف لمعنى النبوة ، وأن وقوع الخبر هو امتحان الصدق الوحيد الذى يمتحن به الانبياء الصادقون فيما يتحدثون به عن الاله ، وأن الفرق بين أنبيائه وبين السحرة والعرافين والرقاة فى

الامم الاخرى انما هو فرق بين أناس يحسنون الكشف عن الغيب ، وأناس يخطئون فى هذه الصناعة ، لانهم ينقلون تنبؤاتهم عن آلهة كذبة لا يستحقون العبادة

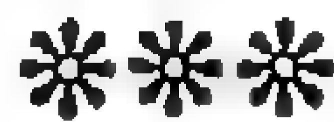


وانه لمن المتفق عليه بين أتباع الديانات الكتابية أن بنى اسرائيل لم يعرفوا النبوة على مثال أتم وأكمل من نبوة موسى الكليم · ومع هذا كان أرفع ما تصوروه من معنى وحى الله اليه عليه السلام أنه كان يخاطبه فما الى فم وعيانا بغير حجاب ، وفى ذلك يقول كاتب الاصحاح الثانى عشر من سفر الخروج ان الله « نزل فى عمود سحاب ووقف فى باب الخيمة ودعا هارون ومريم فخرجا كلاهما فقال : اسمعا كلامى · ان كان منكم للرب فبالرؤيا استعلم له وفى الحلم آكمله · وأما عبدى موسى فليس هكذا · بل هو أمين فى كل شىء · فما الى فم وعيانا أتكلم معه لا بالالغاز »

وكان اعتقادهم ان موسى عليه السلام يسمع كلام الرب فما الى فم وعيانا بغير حجاب فى كل قضية من قضايا الشعب يعرضونها عليه ، حتى علمه نبى مدين أن يكل القضاء الى أناس من ذوى ثقته وخاصة قومه يلقنهم أحكام الشريعة ويوليهم أمر القضايا الصغيرة مكتفيا بما يعضل عليهم من كبار القضايا · وفى ذلك يقول كاتب الاصحاح الثانى عشر من سفر الخروج :

« وقد حدث فى الغد ان موسى جلس ليقضى للشعب فوقف الشعب عند موسى من الصباح الى المساء · فلما رأى حمو موسى كل ما هو صانع للشعب قال : ما هذا الامر الذى أنت صانع للشعب ؟.. ما بالك جالسا وحدك وجميع الشعب واقف عندك من الصباح الى المساء ؟.. فقال موسى لحميه ان الشعب يأتى الى ليسأل الله : اذا كان لهم دعوى يأتون الى فاقضى بين الرجل وصاحبه وأعرفهم فرائض الله وشرائعه . فقال حمو موسى له : ليس جيدا هذا الامر الذى أنت

صانع . انك تكل أنت وهذا الشعب الذي معك جميعا . لان الامر أعظم منك لا تستطيع أن تصنعه وحدك . الآن اســــمع لصوتي فأنصحك . فليكن الله معك . كن أنت للشعب أمام الله وقدم أنت الدعاوى الى الله وعلمهم الفرائض والشرائع وعرفهم الطريق الذي يسلكونه والعمل الذي يعملونه ، وأنت تنظر من جميع الشعب ذوى قدرة خائفين الله أمناء مبغضين الرشوة وتقيمهم عليهم رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات . فيقضون للشعب كل حين ويكون ان كل الدعاوى الكبيرة يجيئون بها اليك وكل الدعاوى الصغيرة يقضون هم فيها وخفف عن نفسك فهم يحملون معك ... »

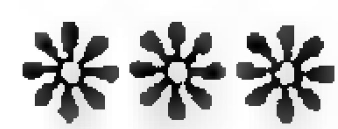


وبعد نحو ستة قرون من النبوة الموسوية انتهى عهد الانبياء فى بنى اسرائيل ، ولم يتغير معنى النبوة عندهم فى هذه الفترة الطويلة . بل انحدر الى ما دون ذلك بكثير ، لان موسى الكليم كان يخـــاطب الغيب ليتلقى الشريعة . وينقل الى الشعب تحذير الله بنصوص ألفاظه، وأما الانبياء بعده فقد تكاثروا بالمئات ليخاطبوا الغيب فيما دون ذلك من الخبايا اليومية ، أو ليتخذوا العلامات والالغاز نذيرا للشعب بالخسائر الحسية التى تصيبه من جراء الخروج على شريعة موسى

ويتلخص تاريخ النبوة بين بنى اسرائيل اذن فى كلمات معدودات : انهم قد استعاروا فكرة النبوة من جيرانهم العرب الذين ظهر فيهم ملكى صادق على عهـــد ابراهيم الخليل ، وظهر فيهم بعد ذلك أيوب وبلعام وشعيب ، ففهموا من النبوة معنى غير معنى الرؤية والعرافة والسحر والتنجيم ، وانهم ما زالوا يتعلمون من جيرانهم الى أن أتى موسى الكليم الذى تتلمذ على حميه نبى مدين قبل جهره بدعوته وبعد أن جهر بهذه الدعوة فى مصر وخرج بقومه منها الى أرض كنعان ، ولكنهم أخذوها وسلموها فنقصوا منها ولم يزيدوها ، وما كان لهم من حيلة فى زيادتهـــا

لانها ـ كما فهموها ـ غير قابلة للزيادة والارتقاء ، ولا مناص من تدهورها مع الزمن وهي موقوفة على قوم دون سواهم لا يشاركون الاقوام فى هداية واحدة ولا فى جامعة انسانية ترتفع بمقاييس الاخلاق والفضائل مع ارتفاع بنى الانسان

كانت قبائل اسرائيل محصورة فى نفسها ، وكانت عبادتها محصورة فى حدودها ، وكانت قبلتها القصوى من العبادة أن تسلم فى عزلتها مع الهها الذى احتكرته واحتكرها ، فلم تطلب من النبوة الا ما تلتمسه من السلامة فى تلك العزلة : صناعة موقوفة على استطلاع الغيب لتحذيرها من الضربات التى تواجهها ولا تخشاها من آله غير آلهها



وبعد ستة قرون من آخر رسالة فى بنى اسرائيل يستمع العالم الى صوت من جانب الجزيرة العربية يدعو الى رب العالمين : رب العربى والاعجمى ، ورب الابيض والاسود ، ورب كل عشيرة وكل قبيلة ، لا يستأثر بقوم ولا يؤثر قوماً على قوم ، الا من عمل صالحا واتقى حدود الله ..

صوت نبى ينادى كل من بعث اليه أنه لا يعلم الغيب ، ولا يملك خزائن الارض ، ولا يدفع السوء عن نفسه فضلا عن قومه ، ولا يعلم أن الخوارق والمعجزات تنفع أحدا لا ينتفع بعقله ولا يتفكر فيما يسمع من نبى أو رسول !

صوت نبى يقول للناس انه انسان كسائر الناس ، وهو بشير يهدى الى الحق والرشد ، نذير يحذر من الباطل والضلال ..

أى مشابهة بين الصوتين ؟ ..

بل اى اختلاف قط بينهما يجاوز هذا الاختلاف ؟..

يرثى لمن يقول ان الصوتين سواء . فأما من يقول ان النداء باسم رب العـــالمين نسخة محرفة من النداء برب القبيلة بين شركائه من أرباب القبائل ـ فانما هو خطأ حقيق أن يسمى عجزا فى الحس ، لانه أظهر للحس من أن يحتاج الى اطالة بحث أو تعمق فى تفكير ..

ونختم الكلام على النبوة كما نختم الكلام على العقيدة الالهية سائلين : كيف تسنى لنبى الاسلام أن ينفرد بهذه الدعوة وحيدا فى تاريخ الاديان ؟ ..

الارادة الالهية هى الجواب الذى لا معدى عنه لمن يسأل ذلك السؤال ..

ومن آمن بالاله فلا معدى له عن ارادة الله فى تفسير هذه الظاهرة التى لا نظير لها فى أديان الكتابيين وغير الكتابيين .. نعم لا معدى له عن ارادة الله ولو وصف الرسول بما شاء من نفاذ البصيرة وسمو الضمير .

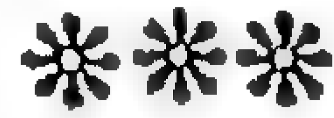
الإنسان

الانسان حيوان ناطق ..

الانسان حيوان مدنى بالطبع ..

الانسان حيوان راق ..

الانسان روح علوى سقط الى الارض من السماء ..



هذه التعريفات أشهر ما اشتهر من التعريفات المحيطة بمعنى الانسان :

أولها ـ محيط به من جانب مزاياه العقلية ..
وثانيها ـ محيط به من جانب علاقاته الاجتماعية ..
وثالثها ـ ينظر الى ترتيب الانسان بين أنواع الاحياء على حسب مذهب التطور ..

ورابعها ـ ينظر الى تعريف الانسان بهذه الصفة الى قصة الخطيئة التى وقع فيها ادم حين أكل من شجرة المعرفة بغواية الشيطان ..

وكل هذه التعريفات تحيط بمعنى الانسان من بعض نواحيه ، واخرها لا يحيط بمعناه الا عند من يؤمن بقصة

الخطيئة ويؤمن معها بميراث الخطيئة فى بنى ادم وحواء ..

وأما تعريف الانسان بما وصف به فى القرآن الكريم وأحاديث النبى عليه السلام فقد اجتمع جملة واحدة فى تعريفين جامعين :

الانسان مخلوق مكلف ..

والانسان مخلوق على صورة الخالق ..

فالاسلام لا يعرف الخطيئة الموروثة ، ولا يعرف السقوط من طبيعة الى ما دونها ، فلا يحاسب أحدا بذنب أبيه ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وليس مما يدين به المسلم أن يرتد النوع الانسانى الى ما دون طبيعته ، ولكن مما يؤمن به أن ارتفاع الانسان وهبوطه منوطان بالتكليف ، وقوامه الحرية والتبعة . فهو بأمانة التكليف قابل للصعود الى قمة الخليقة ، وهو بالتكليف قابل للهبوط الى أسفل سافلين ، وهذه هى الامانة التى رفعته مقاما فوق مقام الملائكة ، وهبطت به مقاما الى زمرة الشياطين :

« إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ » .

(سورة الاحزاب)

***

« بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بصير » . (سورة القيامة)

***

وبهذه الامانة ارتفع الانسان مكانا عليا فوق مكان

الملائكة ، لانه قادر على الخير والشر ، فله فضل على من يصنع الخير لانه لا يقدر على غيره ولا يعرف سواه

« وَيَدْعُو الإِنسَانُ بِالشرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجولاً » . (سورة الاسراء)

***

وبهذه الامانة هبط الانسان غرورا وسرفا الى عداد الشياطين :

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكلِّ نبِيٍ عَدوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخرفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ... »
(سورة الانعام)

***

« إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الْشَّيَاطِينِ » .
(سورة الاسراء)

***

وما من نقيصة من نقائص النفس لا تعرو الانسان من قبل هذه الامانة : أمانة التكليف :

« إِنهُ ليئُوسٌ كَفورٌ » . (سورة هود)

« إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » . (سورة ابراهيم)

« إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا» . (سورة المعراج)

« وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شيْءٍ جَدَلاً » .

(سورة الكهف)

« إِن الإِنْسَانَ لَيطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى » .

(سورة العلق)

« إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » . (سورة العاديات)

« إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ » . (سورة العصر)

« بلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيفجُرَ أَمَامَه» . (سورة القيامة)

« وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا » . (سورة الاسراء)

« وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً » . (سورة النساء)

« إِنْ يَتبِعُونَ إِلاَّ الظنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى أَمْ للإِنْسَانُ مَاتمَنَّى » .

(سورة النجم)

فهذا الانسان يتردى من أحسن تكوين الى أسفل

سافلين ، ولا يزال فى الحالين انسانا مكلفا قابلا للنهوض بنفسه بعد العثرة ، قابلا للتوبة بعد الخطيئة ، محاسبا بما جنت يداه غير محاسب بما جناه سواه

« وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَاسَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى » ...

(سورة النجم)

***

« وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ » . .

(سورة الاسراء)

***

« وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

(سورة الانعام والاسراء وفاطر والزمر)

***

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ، إِلاَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » .

(سورة التين)

***

ذلك جماع ما يوصف به الانسان تمييزا له من العجماوات ، وتمييزا من الارواح العلوية على السواء ..

ولهذا كان فى أحسن تقويم ..

ولهذا يرتد الى اسفل سافلين ..

وقوام التقويم الحسن الايمان وعمل الصالحات ، وسبيل الارتداد الى أسفل سافلين مطاوعة الهوى والغرور والسرف وطغيان القوة والغنى ومنع الخير

والهلع من البلاء والعجلة مع الضعف والاغراء ..

وقصة آدم مثل لما يعرض للانسان من الخطيئة والنجاة ..

خطيئته لاتدينه أبدا ولا تدين أبناءه أبدا ، ونجاته رهينة بتوبته وما ينتفع به من علم ربه ..

« وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » ... (سورة طه)

***

« فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » . (سورة البقرة)

***

ومن تمام خواص الانسانية فى عقيدة المسلم أن قابلية التكليف فى الانسان متصلة بقابلية العلم ويسرة الانتفاع بقوى الجماد والحيوان فى مصالحه وشئون معاشه ..

***

« اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ... » (سورة العلق)

« وَعَلَّمَ آدمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قَالُوا

سُبْحانَكَ لا علمَ لَنَا إلاَّ مَاعَلمْتَنَا إنَّكَ أنتَ العَلِيمُ الحَكِيم.»
(سورة البقرة)

***

«وَلقد كَرَّمنا بنى آدمَ وَحَمَلْنَاهُم فى البرِّ والبحرِ وَرَزَقناهُم من الطيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً »
(سورة الاسراء)

***

« سخّر لكُمْ مَافِى الأرْضِ » ...
(سورة الحج)

***

« سخَّر لكُمْ مَافِى السَّمٰوَاتِ » ...
(سورة لقمان)

***

هذا العلم الذى استعد له الانسان هو مناط التكليف وهو مآل التبعة التى نهض بها هذا المخلوق المفضل على كثير من المخلوقات الامين على نفسه وعليها بما وهب له الله من قدرة ومن دراية

فاذا قامت الكفارة على الخطيئة الموروثة فى المسيحية، فالأمانة فى الاسلام هى التى يقوم عليها الخلاص ويرجع اليها التكليف وتكتب عليها تبعته فى حياته غير مسئول عما سلف من قبله : تبعة يحملها بما كان له من قدرة عليها وعلى سائر مخلوقات الله التى فى ولايته

ولا بد أن تعرض لنا مسألة القدر مع مسألة

التكليف . ومسألة القدر ــ كما لا يخفى ــ هى معضلة المعضلات فى جميع الأديان ومذاهب الحكمة والفلسفة ؛ لأنها هى مسألة الحرية الانسانية والارادة المختارة، وهى فى الحق مسألة الانسان الكبرى فى علاقته الابدية بالكون، فلا نهاية لها الى آخر الزمان ، ولم تواجهها عقيدة غابرة أو حاضرة بأفضل مما واجهها به الاسلام

ونظرة موجزة فيما انتهت اليه العقائد والمذاهب فى الأمم الغابرة والحاضرة تمهد لنا وسيلة المقارنة بين مسألة القدر فى تلك العقائد والمذاهب جميعا وبين هذه المسألة فى الديانة الاسلامية كما بسطتها آيات القرآن الكريم

كان الهنود الاقدمون يجعلون للقدر الحكم الذى لاحكم غيره فى جميع الموجودات ومنها الالهة والناس والأحياء والنبات والجماد، ولا فكاك من قبضة «الكارما» فى أدوارها التى تتعاقب بين الوجود والفناء الى غير انتهاء ، ولا اختيار للانسان فى الحالة التى يولد عليها لأنها مقدورة عليه من قبل ميلاده منذ ازل الآزال ، ولا تبديل لها الى أبد الآباد حتى ينفصل من دولاب الخلق، باجتناب الولادة واللياذ بعالم الفناء أو عالم « النرفانا » المطلق من قيود « الوعى » والشعور بالشقاوة أو النعيم

وحل المجوس مشكلة القدر بعقيدتهم فى الثنوية وانقسام الوجود بين اله النور واله الظلام . فكل ما غلب عليه اله النور فهو خير وكل ما غلب عليه اله الظلام فهو شر ، ولا عاصم لاله النور نفسه من غلبة الشر عليه فى تلك الحرب السجال التى لا تنتهى الابنهاية للكون كله تتخبط فيها الظنون

وآمن اليونان بغلبة القدر على العباد والمعبودين . ورواياتهم عن ضرباته تمثله للناس هازئا بهم متحديا لهم

يطاردهم ويتجنى عليهم ويريهم عجزهم عن الفرار من نقمته أو نقمة رسوله « نمسيس » Nemesis ربة الثأر التي تأخذ الجار بذنب الجار وتلاحق البعيد بجريرة القريب ..

وآمن المصريون الأقدمون بالقدر وبالحرية الانسانية : فأقاموا في العالم الآخر محكمة سماوية يقف الميت بين يديها ويحاسب على أعماله وتحسب له أو عليه صلوات الكهنة والشفعاء

وآمن البابليون بالطوالع التي تلازم الانسان بحكم مولده تحت نجم من النجوم يحسب في علمهم من نجوم السعود أو نجوم النحوس . وجعلوا للأيام نجوما تدور معها ولا تخرج هذه الأيام من طالعها ، وجعلوا للفصول نجوما تتداولها ولا تتغير في مجاريها الا بما يكون من وساطة المنجمين وضحايا أصحاب القرابين

والديانة الاسرائيلية تؤمن — على ما هو معلوم — باختيار الاله لشعب يؤثره على سائر الشعوب وذرية يؤثرها على سائر الذراري ، واناس يؤثرهم على سائر الناس قبل خروجهم من بطون الأمهات . فبورك يعقوب وحاق السخط الالهي بعيسو وهما في البطن جنينان توأمان ، وأصابت البركة والسخط بنيهما الى أعقاب الأعقاب : « ومن أحشائك يفترق شعبان ، شعب يقوى على شعب وكبير يستعبده صغير .. » .. ولم يبلغ القدر عند بني اسرائيل أن يكون نظاما كونيا يجرى علية قضاء الله مجرى النواميس والشرائع الأخلاقية . بل كان « يهوا » يجرى فيه على حكم ثم يندم عليه ويبدله تارة بعد تارة على حسب الحالة التي تطرأ بغير حسبان .. قال النبي ارميا يتحدث باسم يهوا .. « قم أنزل الى بيت الفخاري وهناك اسمع كلامي . فنزلت الى بيت

الفخاری اذا هو يصنع عملا على الدولاب . ففسد الوعاء الذى كان يصنعه من الطين بيد الفخارى فعاد وعمله وعاء آخر كما حسن فى عينى الفخارى أن يصنعه ، فعاد الى كلام الرب قائلا : أما أستطيع أن أصنع لكم كهذا بيدى يا بيت اسرائيل ؟ يقول الرب : هوذا كالطين بين الفخار أنتم كهذا بيدى يابيت اسرائيل . وتارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالقلع والهدم والأهلاك فترجع تلك الأمة التى تكلمت عليها عن شرها فأندم على الشر الذى قصدت أن أصنع بها ، وتارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالبناء والغرس فتفعل الشر فى عينى فلا تسمع لصوتى فأندم على الخير الذى قلت انى أحسن اليها به »

وقد ذكر فى سفر الخروج أن يهوا وصف نفسه فقال:

« أنا الرب الهك الله غيور • أفتقد ذنوب الآباء فى الابناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى • وأصنع احسانا الى الوف من محبى وحافظى وصاياى »

ثم جاءت المسيحية بعد الاسرائيلية فربطت بين خطيئة آدم وقضاء الموت عليه وعلى أبنائه ، ومن لم يربط بين الخطيئة وقضاء الموت من المتأخرين جعل الهلاك الروحى قضاء محتوما بديلا من موت الجسد . وأقدم ما جاء من أقوال الرسل المسيحيين عن قضاء الموت فى الانسان كلام بولس الرسول من رسالته الى أهل روما . فانه فى هذه الرسالة يقرر أن الأكل من الشجرة هو أصل الشر فى العالم الانسانى ، وكفارته الموت الذى يصيب الجسد ولا تكون كفارة الروح الا بفداء السيد المسيح ، وقد عاد بولس الى مثل الفخار والخزف فقال : « ماذا نقول ؟ ألعل عند الله ظلما ؟ .. حاشا لله . لأنه يقول لموسى : أرحم من أرحم وأراف بمن أراف . فليس الأمر لمن يشاء أو لمن يسعى ، بل الله الذى يرحم •• ومن أنت

أيها الانسان حتى تحارب الله ؟ ألعل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتنى هكذا ؟ أليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة اناء للكرامة وآخر للهوان ؟ فماذا ان كان الله ـ وهو يريد أن يظهر غضبه ويبين قوته ـ احتمل بأناة كثيرة آنية غضب مهيأة للهلاك، ولكى يبين غنى مجده عمل آنية رحمة قد سبق فأعدها للمجد .. »

وتتباعد آراء العلم الطبيعى والفلسفة النظرية فى هذه المسألة كما تباعدت عقائد الأديان وأقوال المتدينين فيها، وزبدة آراء العلماء الطبيعيين الى أوائل القرن العشرين أن قوانين المادة تحكم كل شىء فى عالم الجسد فهى ضرورات حتمية لا موضع فيها للحرية الانسانية الا أن تجرى فى مجرى تلك القوانين، ثم جدت فى القرن العشرين نظريات تشكك فى هذه الحتمية المقيدة بالنواميس والقوانين يقول بها كبار العلماء من طبقة نيلز بوهر الدنمركى Niels. Bohr صاحب جائزة نوبل للعلوم عن سنة ١٩٢٢ وهيزنبرج Heisenborg الألمانى صاحب جائزة نوبل للعلوم سنة ١٩٣٢ والأول يقرر أن الكهارب لا تتبع فى انتقالها قانونا مطردا تجرى عليه فى الذرة وهى عنصر المادة ، والثانى يقرر أن التجربة العلمية لا تأتى فى تكرارها بنتيجة واحدة وأن التجارب جميعا تؤيد اللاحتمية ولا تؤيد الحتمية التى اصطلح عليها جمهرة العلماء الطبيعيين الى أوائل القرن العشرين، ويرد على هيزنبرج علماء آخرون فيقولون ان التجارب تختلف لأن آلات الضبط العلمى لاتحيط بجميع العوامل التى تتكرر فى كل تجربة ، وأننا اذا تحققنا من وحدة العوامل فى كل تجربة متكررة فالنتيجة لاشك واحدة

ولا نحصى مذاهب الفلاسفة وتفريعاتهم على هذه

المذاهب في مسألة القدر والحرية والجبرية والحتمية واللاحتمية . الا اننا نستصفي منها زبدة جامعة لمذهب الواقعيين ومذهب الروحيين او المثاليين . فزبدة مذهب الواقعيين أن الانسان يفعل ما يريد ولكنه لا يريد ما يريد ، وهم يعنون بذلك أن الارادة تختار ، ولكن هذه الارادة نفسها مقيدة بتكوين الانسان الذي تشترك فيه الوراثة وبنية الجسم وضرورات البيئة ، فلا يخلق الانسان ارادته ، بل تولد فيه هذه الارادة وتنشأ معه بغير اختياره ، فيفعل كما يريد ولكنه لا يريد كما يريد

وزبدة مذهب الروحيين أو المثاليين أن الانسان جسد وروح .. فجسده خاضع لاحكام المادة كسائر الاجساد ، وروحه طليق مختار يخضع لجسده في أمور ويخضع هو جسده في أمور ، وهو المسئول اذا انقاد لدواعي جسده ولم يجهد جهده للانتفاع بحريته في مقاومة تلك الدواعي وموازنتها بما يصلحها عند فسادها ويقومها عند اعوجاجها ..

وجميع هذه المذاهب لا تحل مشكلة القدر على الوجه الحاسم الذي تتفق عليه العقول وترتاح اليه الضمائر . وليس فيها ــ بتفصيلاتها ــ عقيدة تفضل عقيدة المسلم أو تقترب من حل لمسألة القدر لم تقترب منه تلك العقيدة ..

وقبل أن نجمل أقوال الثقات في تفسير آيات القرآن الكريم نعود الى مشكلة الشر التي قلنا في فاتحة هذا الكتاب انها مشكلة شعورية وليست مسألة عقلية في جوهرها . ومشكلة القدر هي مشكلة الشر بعينها معادة في عبارات أخرى ، اذ هي مشكلة المحاسبة على الشر الذي يفعله الانسان ويريد أن يعلم مبلغ نصيبه من التبعة في احتمال جزائه

وليس فى الأمر مشكلة عقلية . لأن العقل لا يستطيع ـ مع الايمان بوجود الله ـ أن ينكر قدرته وحكمتـــه وعدله فى اجراء حكمته وقدرته

والعقل كذلك لا يستطيع أن يعتقد أن الانسان المكلف والحجر الجامد سواء فى الاختيار ، ولا يستطيع أن ينكر التفاوت بين الناس فى الحرية أو التفاوت بين أعمال الفرد الواحد فى الاختيار على حسب الرغبة والمعرفة

وانما تبرز المشكلة عندما تمس الانسان فى شعوره ويحتاج الى التوفيق بين قدرة الله وعدله فيما يصيبه من ألم الجزاء وعذاب الندم والتبكيت ..

ولا شك عندنا فى حقيقة واحدة نعتقد أنها تلم شعث الخلاف كثيرا بعد طول التأمل فيها ..

تلك الحقيقة أن العدل الالهى لا تحيط به النظرة الواحدة الى حالة واحدة ، ولا مناص من التعميم والاحاطة بحالات كثيرة قبل استيعاب وجوه العـــدل فى تصريف الارادة الالهية ..

ان البقعة السوداء فى الصورة الجميلة وصمة قبيحة اذا حجبنا الصورة ونظرنا الى تلك البقعة بمعزل عنها ، ولكن هذه البقعة السوداء قد تكون فى الصورة كلها لونا من ألوانها التى لا غنى عنها أو التى تضيف الى جمال الصورة ولا يتحقق لها جمال بغيرها ..

ونحن فى حياتنا القريبة قد نبكى لحادث يصيبنا ثم نعود فنضحك أو نغتبط بما كسبناه منه بعد فواته ..

***

فالنظر الى الكون فى ألف سنة يكشف لنا من دلائل التوفيق بين القدرة الالهية والعدل الالهى ما لا تكشفه النظرة اليه فى سنة واحدة ، وندع القول عن النظرة للحـــادث

الواحد فى الناحية الواحدة من حياة فرد بعينه من أفراد الامم الانسانية ..

وعلى هذا النحو نقول اننا نقترب من التوفيق بين القدرة الالهية والعدل الالهى ولا نقول اننا نحيط بدلائل هـذا التوفيق جميعها . فان الاحاطة بدلائل الحكمة الالهية أمر غير معقول فى حكم العقل نفسه . اذ كان العقل المحدود لا يحيط بالقدرة التى ليست لها حدود ..

وعلى هذا النحو تتوارد آيات القرآن الكريم عن قدرة الله وعن حرية الانسان وعن عدل الله فى اجراء قدرته ومحاسبة المخلوق على حريته :

« وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً » .

(سورة الانسان)

***

« وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » ...

(سورة السجدة)

***

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » ...

(سورة الانفال)

***

« كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » ...

(سورة الطور)

***

« وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ » ...

(سورة فصلت)

« وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلعِبَادِ » ... (سورة آل عمران) .

***

« إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعلمونَ »

(سورة الاعراف)

ولعل الصعوبة الكبرى انما تساور العقل من فهم قوله تعالى :

« وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا »

(سورة السجدة)

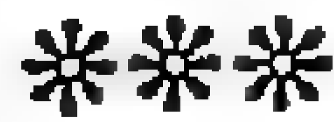
فلم لا يشاء الله أن تؤتى كل نفس هداها على السواء ؟

وتذليل الصعوبة في الجواب نفسه . فان الهداية اذا ركبت فى طبائع الناس كما تركب خصائص الاجسام على السواء بين كل جسم وجسم فتلك هى الهداية الآلية التى لا اختلاف بها بين مدارك الارواح ولوازم الاجسام المادية . ومن اختار ذلك فانما يختار لنوع الانسان منزلة دون منزلته التى كرمته وفضلته على سائر المخلوقات .

فالعدل فيما اختاره الله للانسان أعم وأكرم مما يختاره الانسان لنفسه اذا هو آثر الهداية التى تسوى بينه وبين الجماد ..

وأيا كان القرار الذى يسكن اليه المسلم بعد تلاوة هذه الآيات فمن الصدق لضميره أنه لابد أن يكون فى ذلك القرار عمل للعقيدة الايمانية ، وعمل العقيدة الايمانية هو أن يعالج شعور القلق بشعور الطمأنينة والثقة ، وبخاصة اذا أيقن العقل أن قدرة الله لن تكون الا على هذه الصفة وأن حرية الانسان لن تكون الا على هذا الوجه ، وأن حريته على هذا الوجه لا تناقض امكان العدل الالهى متى التمسنا دلائل هذا العدل فى آيات الكون كله ولم نقصرها على حادث

فى حياة مخلوق يتغير شعوره بآلامه وعواقبها من حين الى حين ..



وكثيرا ما تمر بنا فى رحـــلات الغربيين الى الشرق الاسلامى كلمات منقولة عن التركية والعربية مثل كلمة : « قسمة » وكلمة « مكتوب » وكلمة « مقدر » يرددونهـا بالالفاظ محرفة عن ألسنة العامة فى البلاد التى يرحلون اليها ، ويفهمون منها أن المسلم جبرى مستغرق فى الجبرية يستسلم للحوادث ولا يرى أن المحاولة تجديه شيئا فى اصلاح شأنه أو تغيير قسمته . ومما لا مراء فيه أن هــذه الجبرية مسموعة على أفواه الجهلاء شائعة بينهم فى عصور الجمود والاضمحلال ، ولكنها اذا نسبت الى الدين لم يكن لنسبتها اليه سند من الكتاب الكريم ، ولا من الحــديث الشريف . فان جبرية المسلم العارف لكتابه وسنة نبيه لن تكون كجبرية أحد من الذين امنوا قديمـــا بالكارما الهندية أو بالطوالع البابلية أو بالقدر الغاشم فى الاساطير اليونانية ، ولا يستطيع المسلم العارف لكتابه وسنة نبيه أن يدين بجبرية كجبرية المؤمن باصطفاء الله لسلالة من السلالات وخروج سائر السلالات من حظيرة رحمته ونعمته ولا يستطيع ان يدين بجبرية كجبــرية المؤمن بوراثة الخطيئة وقبول الكفارة عنها بعمل غير عمله . وانما جبرية المسلم على حسب علمه بدينه جبرية ينتهى اليها كل من آمن بقدرة الله وعدله ، وآمن بأن الهداية من طريق التكليف أصح وأدنى الى العدل الالهى من هداية آلية تتركب فى طبائع الناس جميعا كما تتركب خصائص المادة فى طبائع الاجسام

وبعد فنحن نكتب هذا الفصل عن الانسان فى العصر الذى زيد فيه تعريف محيط الانسان على التعريفات المحيطة التى اشتهرت من قبل وأجملناها فى أول هذا الفصـــل لنضيف اليها التعريف المحيط بحقيقة الانسان فى عقيدة الاسلام ..

هذا التعريف الجديد الذى زيد فى العصر الاخير هو تعريف العلماء النشوئيين القائلين بمذهب التطور أومذهب النشوء والارتقاء ، ومعظمهم يعرفون الانسان بأنه حيوان راق .. فيضعون هذا التعريف مقـابلا لقول القائلين أن الانسان روح منكوس أو ملك ساقط من السماء ..

ما قول المسلم فى هذا المذهب الجديد ؟ أتراه يصدقه ؟ أتراه يكذبه ؟ وهل فى نصوص دينه ما يفسر هذا المذهب تفسير الموافقة والقبول ؟ وهل فى نصوص دينه ما يفسر تفسيرا يوجب عليه رفضه والاعراض عنه ؟

نحن لا نحب أن نقحم الكتاب فى تفسير المذاهب العلمية والنظريات الطبيعية كلما ظهر منها مذهب قابل للمناقشة والتعديل ، أو ظهرت منها نظرية يقول بها ناس ويرفضها اخرون ، ومهما يكن من ثبوت النظريات المنسوبة الى العلم فهو ثبوت الى حين لا يلبث أن يطرق اليه الشك ويتحيفه التعديل والتصحيح ، وقريبا رأينا من فضلائنا من يفسر السموات السبع بالسيارات السبع فى المنظومة الشمسية ، ثم تبين أن السيارات أكثر من عشر ، وأن الصغار منها تعد بالمئات ولا يحصرها الاحصاء ، فليس من الصواب اذن أن تقحم أصول العقيدة فى تفسير أقوال وآراء ليست مـن الاصول فى علومها ولا يصح أن تتوقف عليها الاصول ، وحسب الدين من سلامة المعتقد وموافقته للعقل أنه لا يحول بين صاحبه وبين البحث فى العلم وقبول الرأى الذى تأتى

به فتوح الكشف والاستنباط . وعلى هذه السنة يرجع المسلم الى آيات كتابه واحاديث نبيه فلا يرى فيها منعا يمنعه أن يدرس التطور ويسترسل فى مباحثته العلمية الى حيث يلهمه الفكر وتقوده التجربة ..

***

« ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشهادةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ، الذى أحسَنَ كلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ » . (سورة السجدة)

***

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ » ...

(سورة المؤمنون)

***

واذا اعتقد المسلم أن خلق الانســـان الاول مبدوء من الارض وأنه مخلوق من سلالة أرضية فلا عليه بعد ذلك أن يسفر مذهب التطور عن نتيجته المقررة كيف كانت على الوجه القاطع المتفق عليه ، فما يكون فى هــــذه النتيجة نقض لعقيدة المسلم فى أصل الانسان : انه جسد من الارض وروح من عند الله ، وليس فى وسع العـــالم النشوئى أن يدحض هذه العقيدة برأى قاطع أحق منها بالتطبيق والايمان

***

يقول نيتشه فى احدى كلماته التى لا ندرى أفى جد أم

مزاح : ان الانسان قنطرة بين القرد والسوبرمان

وكاد يمزح من يقول هذه الكلمة وان لم يقصد الى المزاح • فان القنطرة التى قصاراها أن تنقل الانسان من قرد الى سوبرمان لا توجد ولا يمكن أن توجد •• فتلك قنطرة لا يبنيها القرد ولا يبنيها السوبرمان ولا تبنى نفسها بيديها ولا تبنيها الطبيعة التى قد تخطو من حالق الى الهاوية وقد تخطو من الهاوية يمنة ويسرة الى غير وجهة

انما الاحجى أن يقال ان الانسان قنطرة من الارض الى السماء يبنيها الله :

قنطرة قرارها أسفل سافلين وذروتها أعلى عليين

معراج من التراب المجبول الى أفق الارواح والعقول

«يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ».

(سورة الانشقاق)

وانه لملاقيه لانه مخلوق على صورته كما جاء فى الحديث النبوى الشريف ••

مخلوق على صورة الخالق ••

يرتفع من التراب الى السماء أوجا فوق أوج فى طريق عسر طويل هو طريق النهوض بأمانة التكليف ••

وما من مسلم يدين بصورة جسدية للاله الواحد الاحد الذى « ليس كمثله شيء » وله المثل الاعلى ••

صورته فى خلد المسلم كوجهه ويده المذكورين فى القرآن الكريم : صورة تناسب كماله ووجه ويد تناسبان ذلك الكمال ••

والانسان مخلوق على صورة الخالق لان صورته جل وعلا هى صورة كاملة من الصفات الحسنى فى مثلها الاعلى ••

رحمة وكرم وعمل ومشيئة ومجد وعظمة وفتح وابداع وانشاء ..

وكل صفة من هذه الصفات مطلوبة من الانسان على غاية ما يستطيع ..

لا يرتقي ذلك المرتقى الذى لا يدرك بالابصار ولابالعقول ولكنه يرتقى قادرا على الارتقاء من التراب الى السماء ..

مخلوق على صورة الخالق ..

مخلوق تهبط به أمانة التكليف الى أسفل سافلين وترتفع به الى أعلى عليين ..

ذلك هو الانسان فى عقيدة الاله الواحد الاحد الذى لا أول له ولا اخر ..

ذلك هو الانسان فى عقيدة النبى الصادق الامين : نبى يدعو الى رب العالمين ..

الشيطان

فى الكلمة التمهيدية التى قدمنا بها لكتابنا عن «ابليس» قلنا ان معرفة الانسان للشيطان كانت فاتحة خير .. لانه لم يعرف الشيطان الا بعد ان عرف الخير والشر ، وعرف الفرق بين الشر والضرر . فعرف ان الشر لا يجوز وكان كل ما يعرفه منه أنه لا يسر ولا يوافق مآربه وشهواته ، وعرف أن مخالفة المآرب والشهوات لا تكون شرا على الدوام بل هى خير فى كثير من الاحيان ، ومن ثم عرف كيف يكبح مآربه وشهواته وهو راض مطمئن لانه يعلم أنه عامل للخير مستقيم على نهج الصلاح

وقارنا فى فصول الكتاب بين أسلوب الدين فى تعليم الاخلاق وأسلوب التلقين والتعليم الذى سميناه بالاسلوب الاكاديمى ، أو اسلوب المطالعة والدراسة . وأن بين الاسلوبين فى أعماق النفس وفى ميادين العمل لبونا جد بعيد ، لان حدود الخير والشر فى أحدهما حيوية تمتزج بالشعور والوجدان وتسمو الى تقديس الخيرات او تنحدر الى النفور من نجاسة الشرور ، وما الاسلوب الاخر — اسلوب التلقين والمطالعة — الا أسلوب اوراق واذواق تنقسم فيه معانى الخير والشر فى الضمير

والفكر كأنها اقسام فى صفحات أو تصنيفات فى الودائع والمخزونات

وختمنا كتاب أبليس بكلمة عن مقاييس الحقائق التى تعددت وتنوعت فلا تقاس كلها بمقياس الحساب أو مقياس المعمل أو مقياس التجربة المحسوسة ، وبخاصة ماكان منها متصلا بالضمير والوجدان

«ولا نخال أن السريرة الانسانية تكشف عن اعماقها بعلم من العلوم كهذا العلم ــ علم المقارنة بين الاديان ــ وعلم الدراسات النفسية ، وهو فى خطواته الاولى أوعلى ابواب النتائج التى لاتتفتح الابين التردد والانتظار

« لكن الفائدة المبكرة التى خلصت للعقل الانسانى من بواكير البحث فى العلمين ان مقاييس الحقائق تختلف وتتعدد ، وأن الحقائق كلها لا تقاس بأرقام الحساب وانابيق المعامل وتجارب العلميين ومناظر الفلكيين »

« فهاهنا حشد من العقائد والاخيلة تمتلىء به سيرة النوع الانسانى فى نحو مائة قرن يدركها التاريخ ..

«ماهى فى ارقام الحساب أو انابيق المعامل اوتجارب الطبيعة او مناظر الفلكيين ؟ ..

« سهل على ادعياء العلم ان يعرفوها بكلمتين : حديث خرافة ! ..

وحديث الخرافة يجب ان يلغى . فتعالوا نلغه ونعهد لادعياء العلم جميعا أن يبدأوا بالنوع الانسانى فى تعلم الخير والشر والقداسة واللعنة على برنامج غير هذا البرنامج ، وتربيته .. غير هذه التربية .. وليتسلم ادعياء العلم هذا النوع الانسانى قبل مائة قرن وليأخذوا فى تعليمه الابجدية من هذه الدروس ..

« ولنفرض اولا فرضا مستحيلا أنهم سيكونون قبل

مائة قرن على معرفة بما يسمونه اليوم خـــرافة وما يسمونه تحقيقا ومايسمونه دراسة منطقية او علمية..

« وليبدأ النوع الانسانى فى هذه المدرسة بفلســفات الاخلاق على مذاهبها ، وفروضها ، واحتمالاتها ، وردودها ومناقشاتها ..

« واليحفظ فلسفات الاكاديمية كلها ويتخرج عليها ..

«ولقد حفظها ولقد تخرج منها بما شاء له ادعيـــاء العلم من آراء ..

«ولقد وصلنا بعد الرحلةالطويلة الى القرن العشرين فلماذا نقول ؟

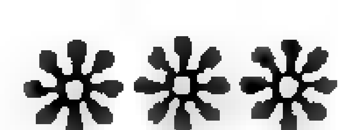
« نقول ان هذا فى الحق هو حديث الخرافة الذى لايعدو الالفاظ والعناوين واسماء المدارس والمريدين ..

« لكن النوع الانسـانى ترك هذه الاكاديمية قبل مائة قرن وامعن فى طريقه الذى هداه اليه القدر واعدته له الفطرة . ونتيجة هذا الطريق انه أعطى الحياة النابضـــة لكل خلق من أخلاق الخير والشر والقداســـة واللعنة ، وان علم العلماء اليوم لايستطيع أن يقيم الفوارق الحية المحسوسة بين خلق وخلق فارقا واحـدا كالفـــارق الذى نفهمه ونحسه ونحياه حين نتــكلم عن الخلائق الالهية والخلائق الملكية أو الخلائق الشيطانية أو عما يجعلها من الخلائق السمـاوية او الخلائق الارضيـــة او الخلائق الجهنمية ..

« ان العلماء الذين يستعيرون تعبيراتهم المجازية من هـذه الفوارق لايفعلون ذلك لعبا بالالفاظ او تظــرفا بالتمثيل والتشبيه ، ولكنهم يستعيرون ذلك التعبــير لانه أولى واوضح واقوى من كل تعبير يستعيرونه من المدرسة النفعية أو المدرسة السلوكية أو المدرســـة الانفعاليـــة

ومدارس روح الجماعة أو تضامن الهيئات والبيئـــات وما اليها من ألفاظ ناصلة ومعان حائلة واسماء لم تخلق من مسمياتها شيئا وهيهات أن تخلقه ولو تسمت بها مئات القرون .. وغاية ماتبلغه أنها تأتى الى محصول القرون بعد زرعه ونقائه واستوائه وحصده ، فتكتب العناوين على غلاته ويبادره ولا تأمن بعدذلك ان تضل بين تلك العناوين التى كتبتها بيديها

« فهذه الحقائق الوجدانية والقيم الروحية لا تقــاس بمقياس الارقام وأنابيق المعامل ومن أراد أن يقيسها بهذا المقياس فهو الذى سيخطىء لا محال ، كما يخطىء كل واضع لامر من الامور فى غير موضعه ، وكل من يقيس شيئا وهو يجهل كيف يقاس .. »



ان الايمان شوق عميق من أشواق النفس الانسانية ينساق اليه الانسان بباعث من فطرته ..

أما الشيء الذى يحتاج الى أناة الفكرة ورحابة الصدر وقياس كل حقيقة بما يناسبها من مقاييسها وخصـائصها فذلك هو النفاذ الى أسرار الايمان ..

وكل العقائد الايمانية سواء فى الحاجة الى اناة الفـكر ورحابة الصدر وحسن القياس للنفـــاذ الى أسرارها . ولكن العقيدة فى عمل الشيطان أحوج هذه العقائد جميعا الى التسليم بسعة الحقائق وتعدد المقاييس التى تكشف عن بواطنها وتنفذ الى كنه مدلولاتها ..

ومن حضرت فى ذهنه سعة الحقائق وجد بين يديه صعوبة لا صعوبة مثلها فى رفض فكرة الشيطان كمــا يرفضها أدعياء العلم الذين لو جروا على سننهم فى اثبـات

الأشياء لرفضوا وجود المادة الملموسة عجـــزا منهم عن ادراك أصولها ، وما أصولها الا العناصر التى تنشـــق شعاعا متحركا فى أثير لا وزن له ولا حجم ولا حركة ولا لون ولا طعم ولا تعرف له صفة واحدة من صـــفات الأجسام بله الارواح ..

وما نعلم من شيء كهذه العقائد فى بواعث الخير والشر قد تراءت فيه يد العناية الالهية آخذة بيمين هـــذا الانسان الضعيف ــ بل هذا الحيوان الجهول ــ تقوده من عماية الجهالة الى هداية التمييز بين الفضـــيلة والرذيلة وبين الحلال والحرام وبين الفرض والمحظور ..

ومن ثم نرى أن مراحل الانتقال فى تصور روح الشر ــ أو تصور الشيطان ــ قد تكون من أوضـــح المعالم لمتابعة الضمير الانسانى فى ارتقـــائه وتمييزه ، وانه لمن السهل أن تعرف الانسان بمقدار ما يشعر به نحو الشر من النفور أو الخوف . وليست بهذه السهولة معرفتنا للانسان بمقدار مايتمثله من المثل العليا للخير والفضيلة . لأن المثل العليا بطبيعتها تبتعد عن الواقع وتمتزج بالآمال والفروض ، ويشبه هـــذا فى عالم الحس أن قيـــاس الانحطاط بالنسبة الى الحضيض سهل محدود المسافات ولكن قياس الصعود والارتفاع بالنسبة الى الآفاق العليا أصعب من ذلك بكثير

ونحن ــ بالمقارنة بين هذه المراحل فى تصور فكـــرة الشيطان وسلطان الشر على النفس البشرية ــ نستطيع أن نبين مرحلة العقيدة الاسلامية من هذه المراحل وأن نعرف منها مدى قوة الضمير الانسانى فى مواجهة قـــوة الشر كما طرأت على العقائد لأول مرة فى تاريخ الاديان يبدأ الانسان خطواته المتعسرة فى طريق الخـــير والشر حيوانا ضعيفا يفهم الضرر ولا يفهم الشر ولا يدريه ، واذا

فهم الضرر فانما هو الضرر فى جسده أو فيما يطلبه الجسد من مطالب الطعام والشراب والأمن والراحة ، وكانت الأرواح كلها ضارة تلاحقه بالأذى والاساءة ما لم يتوسل الى مرضاتها بوسائل الشفاعة والضراعة أو بوسائل الضحايا والقرابين

ثم انقسمت الأرواح عنده الى ضارة وغير ضارة ، وما لم يكن ضارا منها فليس امتناعه عن الضرر لأنه يحب الخير أو يكره الشر ، بل هو يمتنع عن الأضرار به لانه روح من أرواح أسلافه وذوى قرابته يصادقه كما يصادق الأب ذريته والقريب ذوى قرباه

ثم طالت مرحلته فى هذه الطريق حتى سنح له بصيص من التمييز بين الضرر الذى يجوز والضرر الذى لايجوز، وقد سنح له هذا البصيص من عادة الارتباط بالعهود والمواثيق بينه وبين أربابه وبينه وبين عشرائه وحلفائه ، فما كان مخالفا للعهود والمواثيق فهو ضرر مستغرب لا يجوز ، وما كان ضررا لا يجوز فهو لون من ألوان الشر الذى كان مجهولا قبل الارتباط بعهود الصلاة والعبادة أو عهود المحالفة والولاء

وربما غبر الانسان فى هذه المرحلة عشرات القرون حتى وصل الى عهد الحضارات العليا ووصل من ثم الى الديانات التى تلائم عقله وضميره فى كل حضارة منها

هنالك عرف الشر والخير وعرف التمييز بين مايجوز وما لا يجوز ، وهنالك ظهرت بين أممه المتقدمة قوى الشر الكونية التى تتصرف فى الوجود كله وتقضى فيه قضاء يمتد أثره وراء عمر الانسان الواحد ووراء أعمار الأجيال والاقوام ..

وأرفع ما ارتفع اليه الانسان فى هذه المرحلة عقيدة الهند فعقيدة الثنوية فعقيدة مصر الفرعونية ..

فكانت عقيدة الهند أن المادة كلها شر أصيل فيها فلا خلاص منه الا بالخلاص من الجسد ، وكان الشر عندهم مرادفا للهدم والفساد ، يتولاه الاله الواحد فى صورة من صوره الثلاث : صورة الخالق وصورة الحافظ وصورة الهادم الذى يهدم بيديه ما بناه وما حفظه فى صورتيه الأخريين ..

وكانت عقيدة الثنوية من مجوس فارس أن الشر من عند اله الظلام وأن الخير من عند اله النور ، وأن الغلبة أخيرا لاله النور بعد صراع طويل ..

وكانت عقيدة مصر الفرعونية أن الاله « سيت » شرير مع أعدائه ومخالفيه ، وربما كان منه الخير لاتباعه ومؤيديه ، ولم يكن خلاص الروح عندهم منفصلا عن خلاص الجسد، ولا العالم الآخر عندهم مخلوقا على مثال أرفع من مثال الحياة فى وادى النيل ..

ويميل علماء المقارنة بين الأديان الى تفضيل العقيدة الهندية على العقيدتين الفارسية والمصرية ، ولكنه تفضيل لا يقوم على أساس صحيح . لأن الغاء الخير فى عالم المادة بحذافيره لا يفسح فيه مجالا للخير ولا يجعل الخلاص منه الا كالخلاص من مكان موبوء حدوده كحدود الأبعاد والمسافات وليس فى هذه العقيدة الهندية ما يجعل للهدم لازمة غير لازمة الخلق والحفظ ،. فكلها من لوازم عمل الاله بغير تفرقة بين هذه الأطوار تأتى من الاله أو تأتى من العباد ..

وربما كانت عقيدة مصر الفرعونية أقرب هذه العقائد الثلاث الى تنزيه الضمير الانسانى من لوثات الوثنية ، لأنها جعلت للشر نزعة منفردة بين نظم الأكوان ، كأنما هى نزعة التمرد فى عالم يقوم على الشريعة والنظام ..

ثم تميزت من بين عقائد القبائل البدائية والحضارات العليا عقائد الديانات الكتابية التى يدين بها اليوم أكثر من نصف الأمم الانســــانية ، ويتغلغل أثرها فى الأمم الأخرى شيئا فشيئا ولو لم تتحول عن عقائدها الأولى..

تميـزت بين ديانات الأولين الديانة العبـرية والديانة المسيحية والديانة الاسـلامية ، وكانت الديانة العبرية جسرا بين عدوتين : أحداهما عدوة الوثنية والأخــرى عدوة التوحيد والتنزيه ..

ولهذا لم تتميز قوة الخير وقوة الشر بفاصل حاسم فى الديانة العبرية ، فكان الشر أحيانا من عمل الشيطان وأحيانا من عمل الحية ، وكان الشر بهذه المثابة تارة ضررا لا يجوز ، وتارة أخرى ضررا ماديا يأتي من حيوان كريه الى الناس لما ينفثه من سموم قاتلة ، ولم يكن الشيطان منفصلا من زمرة الملائكة بل كان من زمرة الحاشية الالهية التى تنفث سموم الوشاية والدسيسة ..

وقد كانوا ينسبون العمل الواحد مرة الى المعبود«يهوا» ومرة الى الشيطان ، فجاء فى كتاب صموئيل الثانى أن الرب غضب على اسرائيل فأهاج عليهم الملك داود وأمره باحصائهم واحصاء يهوذا معهم ، وجاء فى كتاب الايام أن الشيطان هو الذى وسوس لداود بأجراء هذا الاحصـــاء ولم يرد اسم الشيطان قبل ذلك فى كتب التوراة مقرونا بأداة التعريف التى تدل على الاعلام كأنه كان واحدا من أرواح كثيرة تعمل هذه الاعمال التى انحصرت بعد ذلك فى روح واحد يسمى الشيطان ، ويستعين بمن على شاكلته من الارواح ..

***

ثم انتقلت فكرة الشيطان مرحلة واسعة بعد ظهور المسيحية فتم الانفصال بين الصفات الالهية والصـــفات

الشيطانية ، وأصبح للاله عمل وللشيطان عمل ، ولكنه عمل جسيم يوشك أن يضارع عمل « أهريمان » اله الظلام. لانه سمى فى الاناجيل باسم رئيس هذا العالم واسم اله هذا الدهر ، وكانت له مملكة الدنيا ولله ملكوت السموات، واستقل بشطر كبير من قصة الخليقة فى السماء والارض، فلولاه لما وقعت الخطيئة ولا سـقط الجنس البشرى ولا وجبت الكفارة بالفداء ..

وانتقلت فكرة الشيطان أبعد مراحلها بعد ظهورالاسلام، فهو قوة الشر لا مراء ، ولكنها قوة لا سلطان لها على ضمير الانسان ما لم يستسلم لها بهواه أو بضعف منه عن مقاومة الاغراء ..

« إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيهِمْ سُلْطَانٌ » ...

(سورة الحجر)

« إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً » .. (سورة النساء)

« وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُم » ...

(سورة ابراهيم)

فمن أطاع الشيطان فقد أطاع نفسه فظلمها ولم يظلمها الشيطان :

« قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ... (سورة الاعراف)

وما يكون لشيطان أن يطلع على الغيب أو ينفذ الى أسرار

العالم المجهول :

« لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ »
(سورة سبأ)

وما يكون للشيطان أن يضر أحدا بسحره

« وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » ...
(سورة البقرة)

وما كان لهم من سحر الا أن تضل الابصار والبصائر كأنما ضلال المسحور ضرب من ضلال المخمور

« إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ »
(سورة الحجر)

« يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى » (سورة طه)

***

فما كان سحر الشيطان الا ضربا من الخيال أو الخبال ، وما كان له بقوة من قوى السحر أو قوى العلم أن يهزم ضمير الانسان ، وكل هذه القوة الخفية بجميع خصائصها التى تراكمت حولها فى العقائد الغابرة منتهية الى وجود كأنه العدم أو كأنه الوهم الذى يملك الضمير الانسانى أن يتجاهله ويمضى على سوائه غير ملتفت اليه لو شاء ، وأنه ليشاء فلا يكون له عليه من سلطان لمشيئة الشيطان ، اذ لامشيئة له فى أمر يوسوس به الا أن يشاءه الانسان

***

بهذه العقيدة الوجدانية الفكرية أقام الاسلام عرش

الضمير ، وثل عرش الشيطان ..

***

ومن حق البحث الامين على الباحث المنصف أن يضيفها الى عقائد الأسلام فى الله وفى النبى وفى الانسان ، فاذا عرف الانصاف فما هو بقادر على أن يزعم أن الاســـــلام ديانة محرفة من ديانة سبقت ، واذا عرف الصواب فما هو بقادر على أن يجحد مرتقاه فى أطوار الايمان وأنه غاية ما ارتفع اليه ضمير المؤمن فى ديانات الاقدمين والمحدثين

العبادات

يعرف الدين بعباداته بين اناس كثـــيرين لا يعرفونه بعقائده ، وربما استدلوا على العقائد بالعبادات لان العبادة فرع من العقيدة يشاهد عيانا فى حيز التنفيذ أو التطبيق • ولكنها ــ على هـــذا ــ من فروع العقـــائد التى يقل فيها الخلاف وتضيق حولها مواضع الجدل فى الخصـــومات المذهبية •• اذ كان الغالب على العبادة أنها شعائر توقيفية تؤخذ بأوضاعها وأشكالها ، ولا يتجه الى الاعتراض الى وضع من أوضاعها الا أمكن أن يتجه الى الوضع الاخر لو استبدل منها ما يقترحه المقترح بما جرى عليه العمـــل وقامت عليه الفريضة منذ نشأتها ••

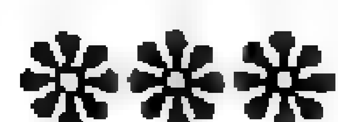
لماذا يكون الصوم شهرا ولا يكون ثلاثة أســـابيع أو خمسة ؟ ..

لماذا تكون حصة الزكاة جزءا من عشرة أجزاء ولا تكون جزءا من تسعة أو من خمسة عشر ؟..

لماذا نركع ونسجد ولا نصلى قياما أو قياما وركوعا بغير سجود ؟..

من اعترض بأمثال هذه الاعتراضات فليس مايمنعه أن يعود الى الاعتراض لو فرض الصيام ثلاثة أسابيع ،

أو فرضت الزكاة فوق مقدارها أو دون هذا المقــدار ، أو فرضت الصلاة على وضع غير وضعها الذى اتفق عليه اتباع الدين ٠٠ :



وليس معنى ذلك أن هذه الاوضاع لاتعرف لهـــا أسباب تدعو اليها وتفسر لنا اتباعها دون غيرها ، ولكنها فى نهاية الامر أوضاع « توقيفية » لاموجب من العقل للتحكم فيها بالاقتراح والتعديل ، لان المقترح المعــدل لن يستند الى حجة أقوى من الحجة التى يرفضها ويميل الى سواها

ويسرى هذا على كل تنظيم فى أمور الدنيا ولا يسرى على أمور الدين وحده . فلماذا يكون عدد الكتيبة فى جيش هذه الامة ٥٠ ــ مثلا ــ ويكون فى جيش أمة غيرها ٤٠ أو مائة ؟ ولماذا يجعل اللون الاخضر رمزا لهـــذا المعنى فى ألوان العلم القومى عند قوم من الاقوام ، وهو مجعول لغير هذا المعنى عند أقوام آخرين ؟

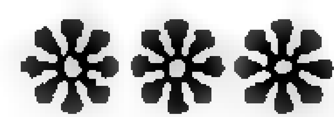
لامناص فى النهاية من أسباب توقيفية يكون التسليم بها أقرب الى العقل من المجادلة فيها ، لهذا يقل الخلاف بين أصحاب الاديان فى شعائر العبادة حيث يكثر فى كل كبيرة وصغيرة من شئون العقائد الفكرية أو عقـــائد الضمير ٠٠

الا أن هذا كله لايقضى علينا بقبول كل عبادة على كل وضع يخطر على البال . ولا يمنعنا أن نفاضل بين العبادات فنرى منها عبادة أفضل من عبادة وفريضة أولى بالاتباع من فريضة . اذ لاشك أن العبادة التى تؤدى غرضها أفضل من العبادة التى لاتؤدى هذا الغرض ولا تؤدى غرضا من الاغراض ، ولا شك فى وجود المــزايا التى تتفاوت بها العبادات وان لم تكن هذه المزايا داخلة فى

الغرض المقصود بشعائر العبادات

والغرض من عبـادات الاديان ينطوى على أغـراض متشعبة يضيق بها الحصر لانها تقابل أغراض الدنيـا جميعا بأغراض الدين . ولـكننا قد نجمعها جهـد المسـتطاع فى تنبيه المتـدين على الدوام الى حقيقتين لاينساهما الانسان فى حياته الخاصة أو العامة الا هبط به النسيان الى درك البهيمية واستغرق فى همـوم مبتذلة لافرق بينها وبين هموم الحيوان الاعجم ، ان صح التعبير عن شواغل الحيوان الاعجم بكلمة الهموم ..

احدى الحقيقتين التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه اليها ضمير الانسان على الدوام هى وجوده الروحى الذى ينبغى أن تشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية وغير شهواته الحيوانية ..

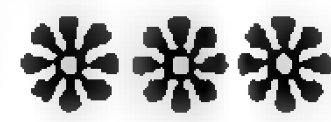


والحقيقة الاخرى التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه اليها ضميره هى الوجود الخالد الباقى الى جانب وجوده الزائل المحدود فى حياته الفردية ، ولا مناص من تذكر الفرد لهذا الوجود الخالد الباقى اذا أريد فيه أن يحيا حياة تمتد بآثارها الى ماوراء معيشته اليومية ووراء معيشة قومه بل معيشة أبناء نوعه . وعبثا يترقى الانسان من مرتبة البهيمية الى مرتبة تعلوها ان جاز أن يعيش أيامه يوما بعد يوم وهو لايذكر أنه مطالب بواجب أكبر من واجب الساعة أو واجب العمر كله ، فان الترقى فى كل صورة من صوره يفضى الى غاية واحدة هى خـلاص الانسان من ربقة الانحصار فى مطالب اليوم والساعة أو مطالب العمر المحدود بحياته الفردية

عبادة المسلم فى جميع فرائضها تتكفل له بالتنبيه الدائم الى هاتين الحقيقتين ..

أنه فى صلاته يستقبل النهار ويتوسطه مرتين ثم يختمه ويستقبل الليل بالوقوف بين يدى الله كأنه يستهديه فى عمله ويؤدى اليه الحساب عن هذا العمل من ساعةاليقظة الى الساعة التى يستسلم فيها للرقاد أو ينطوى فيهاتحت جنح الظلام ...

وان المسلم فى صيامه ليذكر حق الروح من شرابه وطعامه ، ويذكر أنه ذو ارادة تأخذ بيديها زمام جسدها ولا تترك لهذا الجسد أن يأخذ بزمامها ويتصرف بها على هواه ، وأصح مايكون الصيام الذى ينبه الضمير الىهذه الحقيقة أن يقدر المرء على ترك الشراب والطعام فترة من الزمن ، ولا يكون قصاراه منها أن يستبدل شرابا بشراب وطعاما بطعام ..



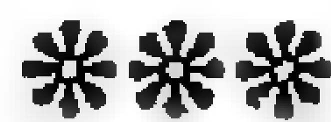
أما الزكاة فى فرائض الاسلام فهى المذكر له بحصة الجماعة من ماله الذى يكسبه بكده وكدحه ، وهى المذكر له بأن يعمل لغيره ولا يعمل لنفسه وكفى ، وهى الامتحان له فيما تهوى الانفس من المال والمتاع ، حيث كان الصيام امتحانا له فيما تهوى الانفس من الشراب والطعام ..

واذا كان الاسلام دينا يدعو الناس كافة الى عبادة رب العالمين فالحج هو الفريضة التى تتمثل فيها هذه الاخوة الانسانية على تباعد الديار واختلاف الشعوب والاجناس، وهى فى اصطلاح العرف الشائع بين الناس بمثابة صلة الرحم وتبادل الزيارة بين أبناء الاسرة الواحدة يجمعها الملتقى فى المكان الذى صدرت منه الدعوة اليها ، وهو أجدر مكان فى بقاع الارض أن يتم فيه هذا اللقاء ..

ولا حاجة الى بيان حكمة الركن الاول من أركانالاسلام وهو ركن الشهادتين . شهادة أن لا اله الا الله ، وشهادة أن محمدا رسول الله ..

فهاتان الشهادتان هما الركن الذى تقوم عليه أركان العبادات الاسلامية ، وبغيره لايكون المسلم مسلمابعقائده وعباداته ..

والشهادتان أسهل العبادات بلفظهما لانه لايعدو أن يكون نطقا بكلمات معدودات ، ولكنهما بمعناهما أصعب الاركان فى الاديان لانهما انتقال من دين الى دين بل مرحلة واسعة بين تاريخ وتاريخ ..



وعلى هذه الوتيرة وما شابهها فى الفرائض الاسلامية يتاح للمسلم أن يوفق بين عباداته التوقيفية وبين أدائها للغرض من العبادة ، وهو تذكيره بوجوده الروحى وتذكيره بوجود اسمى من وجوده وأبقى . واذا كان تحقيق الغرض من العبادة هو ميزان التفاضل بين الشعائر التوقيفية فحسب الاسلام من مزية فى شعائره أنه يوفق بين أوضاعها واغراضها هذا التوفيق ، لو لم تكن له مزية أخرى ..

على أن عبادات الاسلام قد امتازت بين عبادات الاديان بمزية لا نظير لها فى ارفعها وارقاها بالنظر الى حقيقتها أو بالنظر الى جماهير المتدينين بها ، وتلك مزيته البينة التى يرعى بها استقلال الفرد فى مسائل الضمير خير رعاية تتحقق لها فى نظام حياة ..

فالعبادات الاسلامية بأجمعها تكليف لضمير الانسان وحده لا يتوقف على توسيط هيكل أو تقريب كهانة

يصلى حيث أدركه موعد الصلاة : فأينما تكونوا فثم وجه الله ..

ويصوم ويفطر فى داره او فى موطن عمله ، ويحج فيذهب الى بيت لا سلطان فيه لاصحاب سدانة ولا

حق عنده لاحد فى قربانه غير حق المســاكين والمعوزين ..

ويذهب الى صلاة الجماعة فلا تتقيد صلاته الجامعــة بمراسم كهانة او اتاوة محراب ، ويؤمه فى هذه الصلاة الجامعة من هو أهل للامامة بين الحــاضرين وباختيارهم لساعتهم ان لم يكن معروفا عندهم قبل ذلك ..

انه الدين الذى نتعلم منه أن الانسان مخلوق مكلف ..

لاجرم تقوم عباداته على رعاية حق الضمير المســئول واستقلاله بمشيئته أكرم رعاية ..

ومرة أخرى نعود فى ختام هذا الفصل عن العقــائد فنسأل : أهذا هو الدين الذى يستبيح من يدرى مايقول أن يزعم انه نسخة محرفة من دين قديم ؟..

الفصل الثاني — المعاملات



تمهيد

من العلماء المشتغلين بالمقارنة بين الاديان من يسلم لعقائد الدين سموها ونزاهتها ولكنه مع هذا يعيب الدين نفسه بشرائعه وأحكام معاملاته . اما لانه يرى أن الاديان ينبغى أن تكون مقصورة على العقائد والوصايا ولا تتعرض للتشريع وأحكام المعاملة التى تصطدم بالحوادث العملية وتجرى مع تقلبات الاحوال فى البيئات المختلفة والازمنة المتعاقبة على سنن شتى ، ولا تخضع للنص الواحد فى جميع أطوارها وملابساتها

هذا ، أو لأنه يعيب المعاملات لذاتها ويرى فيها نقصا يتجافى بها عن مبادىء العدل وأصول الآداب المرعية بين أمم الحضارة ..

وقد تعمدنا — من أجل هذا — أن نتبع الكلام على العقائد الاسلامية بالكلام على المعاملات الاسلامية ، وتحرينا فى الكلام على هذه المعاملات أن نقصرها على أبواب المعاملة التى وردت فيها أشد الشبهات على الشريعة الاسلامية فى العصر الحاضر ، من جانب علماء المقارنة بين الأديان أو من جانب المبشرين العاملين على تحويل المسلمين فى بلادهم عن عقائدهم وأحكام دينهم . ونقدم بالقول — على التخصيص — تلك المعاملات التى

قيل انها علة تأخر المسلمين وعجزهم عن الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم في ميادين الأعمال الاقتصادية والشرائع العملية ، ونعني بها معاملات الشركات والمصارف ومعاملات الجزاء والعقاب في القوانين . فليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نبسط القول في المعاملات بمعناها المعروف بين الفقهاء من معاملات البيوع أو معاملات الأحوال الشخصية وما اليها من أبواب الأحكام التي لا ترد الشبهة عليها من خصوم الاسلام وممن يفترون الأباطيل عليه . وربما تناولنا بعض هذه الأبواب في موضعه من الكلام على الحقوق الاجتماعية ، ولكننا لا نحسبها من مواطن الشبهة التي يقال من أجلها انها قد حالت بين المسلمين فعلا وبين النهوض بأعباء الاعمال الاقتصادية وأعمال التشريع في العصر الحديث.

والذي نراه من مراجعة النقد الديني أن المنكرين لتعرض الاديان لشئون المعاملات مخطئون لا يجشمون عقولهم مؤونة الرجوع الى نشأة الشرائع الدينية في أوقاتها ومناسباتها . والا لعرفوا أن هذه الشرائع لازمة للعاملين بها لزوم العقائد والوصايا الاخلاقية ، وأن العقائد تصطدم بالواقع كما تصطدم به أحكام الشرائع ، فلا معنى لاختصاص أحكام الشرائع وحدها بالنقد اذا كانت العقائد معها عرضة للامتحان مع تقلبات الاحوال وتجدد الطوارىء والضرورات

والواجب في رأينا أن يكون النقد كله موجها الى المعاملات لذاتها اذا كان فيها ما يجافي مبادىء العدل وأصول الاخلاق ويحول دون مجاراة الآخذين بها لسنن التطور والتقدم وضرورات الحياة العملية جيلا بعد جيل

ولو أن النقاد الدينيين كلفوا أنفسهم أن يتتبعوا أسباب التشريع في الاديان الكتابية الكبرى لعلموا أنها قامت

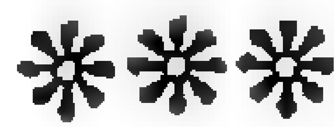
بقيام تلك الاديان فى ظروف تحتم النظر فى التشريع كما تحتم النظر فى الاعتقاد ، ولعلموا أن أديان الحضارات الاولى التى استغنت عن وضع نصوص القوانين لم تكن لتستغنى عنها لولا أنها نشأت فى دول عريقة الحكومات والاحكام ، ومن أعرق تلك الحضارات الاولى حضارة مصر وحضارة بابل وحضارة الهند وحضارة الصين . فهذه جميعا قد ظهرت فيها الكهانة مجاورة للدولة صاحبة القوانين والاحكام ، ولم تخلص العقائد فيها مع ذلك من الامتزاج بالقوانين فى مصادرها وأسانيدها يوم كان كل أمر مقدس واجب الطاعة مستمدا من الاوامر الالهية . ولكن رسالة الدين هنا لم تكن منعزلة عن رسالة الدولة فى عقائدها ولا فى شرائعها ، فلما قامت رسالة الانبياء من دعاة الاديان الكتابية قامت بمعزل عن الدولة بل قامت ثائرة على الدول من حولها فوجب لها مع العقائد تشريع يتناول أحوال المعاش وأحكام المعاملات

الاديان الثلاثة

ويصدق هذا القول على الاديان الكتابية الثلاثة بغير استثناء للمسيحية التى يخطر لبعضهم أنها تعمدت أن تقصر الدين على العقائد والوصايا دون القوانين والمعاملات

فالواقع أن السيد المسيح قد جاء مؤيدا لشرائع العهد القديم ولم يجىء مبطلا لها أو معطلا لاحكامها : جاء متمما للناموس ولم يجىء هادما للناموس . وكان العالم من حوله مكتظا بالشرائع الدينية والشرائع الدنيوية : للهيكل شرائعه من أراد أن يتبعها ويعمل بها فذلك اليه . ومن هنا استطاع المسيح أن يقول للذين تعمدوا أن يحرجوه فى مسألة الضرائب : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله .. » فلم يجد من لوازم رسالته أن يثور على

شرائع الدولة ولا على شرائع الدين . ولما جاءه المكابرون من اليهود بالمرأة الزانية ليأمر برجمها ويصطدم من ثم بسلطان الهيكل رد عليهم كيدهم باحراجهم كما أحرجوه ، فقال لهم : « من لم يخطىء منكم فليرمها أولا بحجر » فلم يقل ان حكم الرجم باطل ولم يأمر به فيقيم الحجة عليه لاصحاب السلطان فى هيكل العبادة والشريعة ، وكانت ثورته فى لبابها ثورة على الرياء فى دعوى الامناء على الشريعة الدينية ، ولم تكن ثورة على الاحكام والنصوص كما وردت فى كتب العهد القديم



أما الديانة الكتابية الاولى فمهما يكن الرأى فى نصوص شرائعها اليوم فقد كان التشريع فيها يوم الدعوة اليها لازما كلزوم الدعوة الى العقيدة أو الوصايا الاخلاقية : كان موسى عليه السلام يقود شعبا بغير دولة الى أرض يقيمون فيها حكما غير الحكم الذى خضعوا له فى موطنهم الذى تركوه من أرض الدولة المصرية . فلم تكن رسالته رسالة عقيدة وحسب ، ولم يكن قيام العقيدة ميسورا بغير قيام القانون

وكل نقد يوجه الى أحكام المعاملات يمكن أن يوجه مثله الى العقائد والوصايا . لان التحجر وسوء الفهم غير مقصورين على الاعمال والتطبيقات ، أو سبيلهما الى العقائد النظرية أيسر من سبيلهما الى الوقائع العملية . اذ كانت الوقائع العملية مما يضطر المخطىء الى الشعور بالخطأ من أول وهلة ، الا اذا تغير شعوره وتغير وجدانه فارتفع بنفسه وبأحوال معيشته من الخطأ الى الصواب

ولمن شاء أن يشير الى المعاملات فى كتب الشرائع السماوية كما يشاء ولكنه يحيد عن جادة الانصاف اذا اختص الشريعة الاسلامية بنقده كأنها الشريعة الكتابية

الوحيدة التى تعرضت للمعاملات . فان الشريعة المنسوبة الى موسى عليه السلام قد تناولت من أمور المعيشة ما هو اليوم من شئون الاطباء ، وتناولت من تشريع الجزاء والعقاب أحكاما لا يقرها اليوم أحد من المؤمنين بها ، وان كان من المؤمنين بايحاء الشريعة من الله الى كليم الله

فمن الشئون التى كان يتولاها الكاهن تمحيص اعراض العلل والادواء وعزل المصابين بها واعلان نجاستهم على الملأ لاعتقادهم أن المرض الخبيث المعدى نجاسة منافية للطهارة الدينية أو ضربة من الضربات الالهية ، ويشرح كتاب اللاويين فى الاصحاح الثالث عشر منه مثلا من ذلك فيقول فى بيان المعاملة الواجبة للمصابين بالبرص :

« اذا كان انسان قد ذهب شعر رأسه فهو أقرع . انه طاهر . وان ذهب شعر رأسه من جبهة وجهه فهو أصلع . انه طاهر . لكن اذا كان فى القرعة أو الصلعة ضربة بيضاء ضاربة الى الحمرة فهو برص مفرخ فى قرعته أو فى صلعته كمنظر البرص فى جلد الجسد فهو انسان أبرص ، انه نجس ، فيحكم الكاهن بنجاسته . ان ضربته فى رأسه . والابرص الذى فيه الضربة تكون ثيابه مشقوقة ورأسه يكون مشقوقا ويغطى شاربيه وينادى : نجس نجس ! كل الايام التى تكون الضربة فيه يكون نجسا . انه نجس يكون وحده خارج المحلة ... »

وكان الكاهن يتولى من شئون الطعام والشراب ما هو ألصق بالمعيشة اليومية من شئون الطب ومعاملة المصابين بالعلل والسقام ، فالكاهن هو الذى يزكى الطعام المباح ويستولى على نصيب المعبد منها واليه المرجع فى التمييز بين الاطعمة المطهرة والاطعمة النجسة من لحوم الحيوان

وتناولت الشريعة معاملات الجزاء والعقاب فى الجرائم التى تقع من الناس وفى الاصابات التى تقع من الحيوان ويجزى بها الحيوان كما يجزى بها صاحبه فى بعض الاحيان . ومن أمثلة ذلك عقاب الثور الذى ينطح انسانا

كما جاء فى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الخروج :

« انه اذا نطح ثور رجلا فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ، وأما صاحب الثور فيكون بريئا . ولكن اذا كان ثورا نطاحا وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل ... »

وتقرر الشريعة كيف تكتب على الالواح وكيف تكون الالواح التى تكتب عليها كما جاء فى سفر الخروج ، بل تقرر ملابس الهيكل وأنواع الانسجة التى تخاط منها ثياب الكهان والخدم بأمر من الله لموسى تكرر ذكره فى الكتب الخمسة المنسوبة اليه

هذه الاوامر المفصلة فى معاملات المعيشة ومعاملات الجزاء والعقاب مستغربة على السواء فى رأى الناظرين اليها من وجهة نظر غير وجهة المتدينين المتشبثين بها الى اليوم . ولكننا — بعد الالمام بها — نعود فنكرر أنها لا تسوغ القول بقصر الدين على العقائد والوصايا دون الشرائع والمعاملات . فان الخطأ يعترى العقيدة كما يعترى الشريعة ، ومرجع الامر اذن الى الصلاح والفساد لا الى العمل أو الاعتقاد . وما كانت عقائد بنى اسرائيل باثبت على الزمن من معاملاتهم وشرائعهم التى تداولوها بعد عصر موسى الكليم ، ولعل حاجتهم الى معاملات تشبه تلك المعاملات فى الجملة كانت أشد من حاجتهم الى عقائدهم كما تداولوها بعد عهودهم المهجورة

وكل ما يجوز لنا أن نستخلصه من دراسة الشريعة المنسوبة الى موسى أن بنى اسرائيل لم تكن لهم رسالة عالمية انسانية ، وأنهم قد وافقتهم عقائدهم ومعاملاتهم فى عزلتهم بين أبناء الحضارات الاولى . فلما انتهت رسالتهم المحدودة بما يوافقهم تفرقوا بين الامم من غير

دولة ولا سيادة على أحد ، فلم يقم لهم سلطان يتولى فرض عقائدهم ومعاملاتهم على الامم ولا على انفسهم ، وانقضى دورهم التاريخى فى أمر العقائد وأمر المعاملات

وكذلك تتفق النظرتان الى هذا التاريخ المشحون بدلالاته ومغازيه : نظرة المؤمن بحكمة الغيب العجيبة فى تسيير مقادير الشعوب ، ونظرة المؤمن بعبرة التاريخ دون سواه

معاملات الاسلام

وعلى هذه السنة من المساواة بين حق الدين فى نشر العقائد وحقه فى فرض الشرائع والمعاملات ننظر الى معاملات الدين الاسلامى كما ننظر الى عقائده فلا نرى فيها ما يعوقه عن أداء رسالته العالمية الانسانية التى توافرت له بدعوته الى اله واحد هو رب العالمين أجمعين وخالق الامم بلا تمييز بينها فى الحظوة عنده غير ميزة التقوى والصلاح : رب المشرقين والمغربين يصلى له المرء حيث شاء ، فأينما تكونوا فثم وجه الله

فما منع الاسلام قط معاملة بين الناس تنفعهم وتخلو من الضرر بهم والغبن على فريق منهم ، وأساس التحريم كله فى الاسلام أن يكون فى العمل المحرم ضرر ، أو اجحاف ، أو حطة فى العقل والخلق . وما فرض الاسلام من جزاء قط الا وهو « حدود » مقدرة بشروطها وقيودها ، صالحة على موجب تلك الشروط والقيود للزمان الذى شرعت فيه ، ولكل زمان يأتى من بعده .. لانها لا تتجمد ولا تتحجر ولا تتحرى شيئا غير مصلحة الفرد والجماعة ، وكفى باسم « الحدود » تنبيها الى حقائق الجزاء والعقاب فى الاسلام . فانها « حدود » بينة واضحة تقوم حيث قامت أركانها ومقاصدها وتحققت حكمتها وموجباتها .

والا فهى حدود لا يقربها حاكم ولا محكوم الا حاقت به لعنـــــــة الله

والشبهة المتوافرة فى العصر الحـــاضر انمـــا ترد على المعاملات الاسلامية من قبل الناقدين والمبشرين ، لانهـــا تمس ضرورات المعيشة المتجددة فى كل يوم ، وترصـــد للمسلم فى طريقه حيث سار وأينما اضطربت به صروف الرزق والكسب ومرافق العمل والتدبير . ويتحـــرى الناقد الموطن الحساس من نفس المسلم حين يلقى فى روعه أن شيئا فى دينه يغل يديه عن العمل فى عصر المصارف والشركات ، وأن شيئـــا فى دينـــه يتقهقر به الى الوراء ولا يصلح للتطبيق فى عصر النظم الحكومية التى تجـــرى القضاء والجزاء على أصول العلم والتهذيب

وليس فى المصـــارف والشركات شىء نافع برىء من الضرر والغبن يحرمه الاسلام ..

وليس فى أصول العلم والتهذيب شىء يناقض حـــدود الجزاء فى شريعة الاسلام ..

تتلخص شبهة المعاملات الاقتصادية فى مسألة واحدة هى مسألة الربا الذى يقول الناقدون انه قوام المصارف والشركات ..

وتتلخص شبهة القضاء والجزاء فى حـــدود السرقة والزنا والخمر والمقارنة بين عقوباتها فى الاسلام وعقوباتها فى الشرائع الموضوعة التى تسمى بالشرائع العصرية ..

حكم الربا

ولا ينسى القارىء المسلم ــ قبل أن يضع نفسه موضع المتهم المطالب بالدفاع عن دينه ــ أن الناقدين والمبشرين يغالطونه ويغالطون أنفسهم حين يختصون الاسلام بالنقد فى مسألة الربا ــ على التخصيص ــ فان الربا محـــرم

أشد التحريم فى اليهودية والمسيحية من شرائع العهد القديم الى شرائع الكنيسة فى القرون الوسطى الى شرائع اللوثريين وأتباعهم بعد عصر الاصلاح . وقد كان تحريم الربا فى اليهودية والمسيحية عاما مجملا بغير بيان للفارق بينه وبين المعاملات المحللة من صفقات البيوع والمبادلات .

وأما فى الاسلام فما من تحريم قط ورد فيه الا وهو مشفوع بحدود تقيم الفاصل بينه وبين الكسب الحلال

حرم الربا تحريما باتا فى الكتب المنسوبة الى موسى عليه السلام فجاء فى الاصحاح الثانى والعشرين من سفر الخروج :

« ان أقرضت فضة الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى »

وفيه بعد ذلك :

« ان ارتهنت ثوب صاحبك فالى غروب الشمس ترده اليه ... لانه وحده غطاؤه . هو ثوب لجلده . فى ماذا ينام ! »

وجاء فى الاصحاح الثالث والعشرين من سفر التثنيه :

« لا تقرض أخاك ربا . ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء ما مما يقرض بربا ... »

وسرى هذا التحريم الى عهد النبى حزقيال والنبى نحميا . فقال النبى فى الاصحاح الخامس من كتابه :

« انى بكيت العظماء والولاة وقلت لهم انكم تأخذون الربا كل واحد من أخيه ... »

والمقصود باشارة نحميا أن الربا المحرم انما هو الربا الذى يأخذه الاسرائيلى من أخيه . لان الربا المأخوذ من أبناء الامم الاخرى مباح كيف كان ، والاصحاح الثالث والعشرون من سفر التثنية المنسوب الى موسى عليه السلام صريح فى اباحة أخذ الربا من الآجنبى حيث يقول مخاطبا شعب اسرائيل :

« للاجنبى تقرض بربا ولكن لاخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب الهك فى كل ما تمتد اليه يدك ... »

فليس هذا تحريما انسانيا منبعثا من شعور بالرحمة والعدل فى المعاملة ، ولكنه تحريم عصبية يبيح من القسوة على أبناء الامم الانسانية كافة ما يحرمه فى معاملة الاسرائيلى لاخيه

وقد سرى تحريم الربا فى شعب اسرائيل دون غيره الى ما بعد قيام المسيحية واعلانها الدعوة الى جميع الامم لانهم أبناء ابراهيم بالروح ... فحرمت الربا فى غير شعب اسرائيل ولم تقيد تحريمه بقوم من المؤمنين دون آخرين ..

ثم سرى تحريم الربا من أوائل عهد المسيحية الى قيام حركة الاصلاح وانشقاق الكنائس عن كنيسة رومة البابوية .. فاتفقت الكنائس جميعاً على تحريم الربا واشتد « لوثر » فى هذا التحريم حتى وضع رسالة عن التجارة والربا حرم فيها كثيرا من البيوع الربوية كالبيع المعروف فى الفقه الاسلامى باسم بيع « النجش » أو المعروف باسم بيع السلم . والنجش هو التواطؤ على رفع السعر لاكراه الآخرين على قبول الشراء بزيادة على سعر السوق . والسلم هو بيع الآجل بالعاجل بزيادة فى سعر المبيع

قال لوثر فى شرح أنواع الربا التى تروج باسم التجارة ما نلخصه فيما يلى :

« ان هناك أناسا لا تبالى ضمائرهم أن يبيعوا بضائعهم بالنسيئة فى مقابل أثمان غالية تزيد على أثمانها التى تباع بها نقدا ، بل هناك أناس لا يحبون أن يبيعوا شيئا بالنقد ويؤثرون أن يبيعوا سلعهم جميعا على النسيئة » ... ثم قال :

ان هذا التصرف مخالف لاوامر الله مخالفته للعقل والصواب . ومثله فى مخالفة الاوامر الالهية والاوامر العقلية أن يرفع البائع السعر لعلمه بقلة البضاعة المعروضة أو لاحتكاره القليل الموجود من هذه البضاعة ، ومثل ذلك وذاك أن يعمد التاجر الى شراء البضاعة كلها ليحتكر بيعها ويتحكم فى رفع أسعارها

وبادر لوثر على أثر ذلك الى دفع الاعتراض الذى قد يعترض به

من يحتج بتصرف يوسف عليه السلام قبل أعوام المجاعة فقال : « انه اذا شاء أحد أن يحتج بسلوك يوسف كما ورد فى سفر التكوين حين جمع كل الحبوب التى كانت فى البلاد ثم اشترى بها فى وقت المجاعة للملك مصر كل ما فيها من أموال وماشية وأرض مما يبدو حقا كأنه احتكار — فالجواب على ذلك ان صفقة يوسف هذه لم تكن احتكارا بل مبايعة شريفة كما جرت عادة البلاد ، فانه لم يمنع أحدا أن يشترى كما اشترى خلال سنوات الرخاء وانما كان عمله من وحى الحكمة التى يسرت له أن يجمع حبوب الملك فى سنوات الرخاء بينما كان الاخرون يخزنون منها القليل أو الكثير

قال لوثر انه من التصرفات التى تدخل فى باب المرابأة ولا تدخل فى باب التجارة ان يعمد أحدهم الى الاحتكار من طريق الترخيص اذا عجز عن الاحتكار من طريق المغالاة ، فيبيع ما عنده بالسعر الرخيص ليكره غيره على البيع بهذا السعر فيحل بهم الخراب

وقال انه من قبيل الغش والاحتيال أن يبيع أحد ما ليس فى يده لانه يعلم موضع شرائه فيستطيع أن يعرض على مالكه ثمنا دون الثمن الذى يفرضه على طالب الشراء

وعد لوثر من الربح المحرم أن يتآمر التجار الكبار فى أوقات الحروب على اشاعة الأكاذيب لدفع الناس الى بيع ما عندهم واحتكاره بين أيديهم ، ثم تقدير أثمانه على هواهم ، وقال ان بعض الممالك الاوربية — كالمملكة الانجليزية — تعقد فى عاصمتها مجلسا يراقب الاسواق ويدبر الوسائل لاحتجان السلع المرغوب فيها لاحتكارها ومقاسمة الدولة فى ارباحها

وقال انه من الحيل المعهودة لترويج الربا باسم التجارة أن تباع السلعة الى أجل ويعلم البائع أن شاريها لا بد أن يبيعها فى هذا الاجل بأقل من ثمنها ليسدد ما عليه من الدين ويشتريها بالثمن الذى يضطره اليه

قال : وهناك تصرف آخر مألوف بين الشركات وهو أن يودع أحد مبلغا عند تاجر : ألف قطعة من الذهب أو ألفين على أن يؤدى له التاجر مائة أو مائتين كل سنة سواء ربح أو خسر ... ويسوغ هذه الصفقة بأنها تصرف ينفع التاجر لانه بغير هذا القرض يظل معطلا بغير عمل ، وينفع صاحب المال لانه بغير هذا القرض يبقى ماله معطلا بغير فائدة

ومما أخرجه لوثر من أبواب التجارة المشروعة والحقه بالربا المحرم أن يخزن البائع غلاله فى الاماكن الرطبة ليزيد فى وزنها ، وأن يزوق السلعة ليغرى الشارى ببذل الثمن الذى يربى على ثمنها ، وأن يتخذ من وسائل الاحتكار أو الاغراء ما يمكنه من جمع الثروة الضخمة ، لانه — أى لوثر — يقرر فى رسالته ان التجارة المحللة لم

تكن قط وسيلة لجمع الثروات الضخام ، وانه اذا وجدت ثروة ضخمة فلا بد هنالك من وسيلة غير مشروعة

ولعل لوثر قد بلغ فى تحريم البيوع المريبة وألحاقها بالربا الممنوع أو الملعون ما لم يبلغه أحد قبله ولا بعده من رؤساء الدين المسيحى فى العصور المتأخرة . ومما لا ريب فيه أن الحالة النفسية التى تساور المصلح الاجتماعى أو الواعظ الدينى باعث قوى على التشدد فى حظر المحرمات وذرائعها واتقاء الشبه التى توقع الابرياء فى حبائلها . وهذه الحالة النفسية قد كانت على أشدها فى القارة الاوربية بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر فى ابان الدعوة الى حركة الاصلاح . فقد كان لوثر يرجو أن يعمل الملوك والامراء ورؤساء الدين على كف أذى المرابين والمغالين بالبيع والشراء فخاب أمله فيهم أجمعين وثبت له من معرفته بهم ومن اشاعات الناس عنهم أنهم يشجعون الربا والمغالاة بالارباح لمقاسمة أربابها وابتزاز القروض والاتاوات منهم وتسخيرهم فى محاربة بعضهم بحبس البضائع واحتكار الاسواق . وقد دفعته هذه الحالة النفسية الى ضروب من التحريم لو أخذت بها أوربة الاستعمارية بعده لما قامت لها قائمة ولا جمعت ثرواتها الضخام التى قال بحق انها لا تجتمع من تجارة بريئة ولا من ربح حلال

ونحن انما نشير الى الحالة النفسية التى دفعت لوثر الى التشدد فى حظر المحرمات وذرائعها لكى نلم بالحالة النفسية التى تلقى بها المسلمون زحف المصارف والشركات الاوربية على بلادهم وسيطرتها على حكوماتهم وشعوبهم . فما بلغ من ضرر المرابين بالشعوب الاوربية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر أن يفقدهم كرامة أوطانهم وأن يذل رؤوسهم ونفوسهم كما فعلت المصارف والشركات

الاجنبية بالشـــعوب الاسلامية منذ أغارت عليها مؤيدة بجيوش الدول من ورائها • فهذه المصارف والشركات هى التى مهدت للامتيازات الاجنبية سبلها وهى التى نصبت شباك الديون لتسويغ الغزو والاحتلال باسم المحافظة على الحقوق وضمان سدادها ، وهى التى تذرع بها الساسه لخنق النهضـــات الوطنية فى ابانها واثقالها بالقيود والاعباء التى تعجزها عن مجـــاراة الغـــرب فى صناعته وتجارته وتكفل للاســـتعمار أن ينشب أظفاره أبدا فى أبدانها ..

فاذا حق للمصـــلح الكبير « لوثر » أن يتشـــاءم من المصـــارف والشركات وأن يحتسب ثرواتها الضـــخام فى عداد السرقات الملعـــونة وهى لا تجنى على استقلال الامم ولا تذلها للواغلين عليها ، فخليق بالمسلمين ــ ولا ريب ــ أن يتشـــــاءموا من تلك المصارف والشركات مرات وأن يستريبوا بها ولا يروا فيها لاول وهلة ما يغريهم بالتشبه بها والتسابق بينهم على منهاجها • فهى بلاء تعوذوا منـــه وأجفلوا من قدوته ، ولهم العذر كل العذر اذا أغرقوا فى الخـــوف منها حتى أوجســـوا خيفة من خيرها الذى لم يعرفوه ، لانهم عرفوا شرها ولم يسلموا من بلائه أعواما طوالا قد طالت بحســـاب المصـــائب بأضعاف ما طالت بحساب الايام ..

على أن الاســـلام نفسه قد ظهر فى ابان حالة نفسية تشبه الحالة التى أصـــابت الغرب بين القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ، وتشبه الحالة التى أصابت المســـلمين على أيدى المستغلين والمستعمرين • وقد كان ما حرمه الاسلام من الربا وذرائعه بلاء كهذا البلاء الـــذى شقيت به شعوب الغرب وشقيت به الشعوب الشرقية والاســـلامية • فقد كان الربا الذى وجده فى الجاهلية

فنهى عنه وحرمه حقيقــا بالتحريم فى كل شرعة وكل مكان ، ومن اطلع على وصفه كما كان يوم حكم الاســلام بتحريمه لم يستطع أن يقول فيه قولين ، ولا أن يجعــل للشرائع موقفا منه غير موقف التحريم الشديد بغير هوادة تبيح للمحتال أن يتسلل اليه بذرائعه ودواعيه ..

فسر الامام الطبرى قوله تعالى :

« يا أَيُّهَا الذِينَ آمَنوا لاَ تأْكلُوا الرِّبَا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تفْلِحُونَ » . (سورة آل عمران)

فقال فى أســباب نزول الآية : « انما كان الربا فى الجاهلية فى التضعيف وفى السن : يكون للرجل فضل دين فيأتيه اذا حل الاجل فيقول له : تقضينى أوتزيدنى، فان كان عنده شىء يقضيه قضى والا حوله الى السن التى فوق ذلك ، ان كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون فى السنة الثانية ثم حقة ثم جذعة ثم رباعيــا ثم هكذا الى فوق . وفى العين يأتيه فان لم يكن عنده أضعفه فى العام القــابل ، فان لم يكن عنده أضــعفه أيضا فتكون مائة فيجعلهــا الى قابل مائتين ، فان لم يكن عنــده جعلها أربعمائة ، يضعفها له كل سنة أو يقضيه .. »

كان هذا هو الربا الذى تعاطاه الجــاهليون وتعاطاه معهم أهل الكتاب من بلاد يثرب ، وكانت الآيات المتقدمة أولى الآيات التى نزلت بالنهى عنه وتحــريمه . فمنعــه الاسلام كما يمنعه اليــوم كل قانون معمول به فى بلاد المصــارف والشركات وكل ما استحــدثه من ضروب المعاملات التى تسمى بالمعاملات العصرية . وما من قانون

ينتظم عليه أمر الجماعة لا يحرم هذه المعاملة المنكرة ولا يشدد العقاب عليها .

وكان آخر ما نزل من القرآن الكريم آيات فى تحريم الربا نزلت قبل وفاة النبى عليه السلام بأقل من ثلاثة أشهر وهى من قوله تعالى فى سورة البقرة :

« الذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَيَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إنمَا البيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ ربِّهِ فانتَهى فلهُ مَا سَلَف وَأَمْرُهُ إلى اللهِ وَمَن عَادَ فأُولئِكَ أَصحَاب النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون ، يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدقَاتِ وَاللهُ لاَيحِبُّ كلَّ كفَّارٍ أثيمٍ . إنَّ الذِينَ آمنُوا وَعملوا الصالحاتِ وَأقامُوا الصلاَةَ وَآتوُا الزكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يحزنونَ . يَا أَيُّهَا الذِينَ آمنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإنْ لَمْ تفْعَلُوا فَأْذَنوا بحرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَتَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلمُونَ وَإنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ

تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »

(سورة البقرة)

ولا خلاف بين المسلمين على موضوع الربا الذى وردت فيه جميع هذه الآيات . فهو ربا الجاهلية المعروف بربا النسيئة ، وأحاديث النبى عليه السلام فى ذلك وأقوال المفسرين لا موضع فيها لخلاف

ففى الصحيحين أن النبى عليه السلام قال : انما الربا فى النسيئة

وسئل الامام أحمد عن الربا الذى لا يشك فيه فقال : هو أن يكون له دين فيقول له أتقضى أم تربى ؟ فان لم يقضه زاده فى المال وزاده هذا فى الاجل ..

روى الامام ابن القيم ذلك فى أعلام الموقعين وقسم الربا الى نوعين : جلى ، وخفى ، فتحريم الاول قصدا وتحريم الثانى وسيلة . فأما الجلى فربا النسيئة ، وهو الذى كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، مثل أن يؤخر دينه ويزيده فى المال كلما أخره زاد فى المال حتى تصير المائة عنده آلافا مؤلفة ، وفى الغالب لا يفعل ذلك الا معدم محتاج .. وأما الربا الخفى فهو ذريعة للربا الجلى وهو ما استحدث بعد الجاهلية من بيع الجنس بالجنس على غير سواء . فيباع الدرهم بدرهم وزيادة وتباع الكيلة بكيلة وزيادة ، من غير مطال أو تأخير اجتنابا للحكم القاطع فى ربا النسيئة ، ويسمى هذا الربا بربا الفضل لزيادة أحد المبيعين على الآخر . ويقول ابن القيم انه من البيع الذى يتخذ ذريعة للربا الممنوع . فهو حرام حيث يكون ذريعة

للحرام ، ولا اتفـــاق على القطع بتحريمه لاختلاف بعض الصحابة فيه كعبد الله بن عمر ، وابن عبـــاس ، وابن الزبير ، وزيد بن أرقم ، وسعيد بن المسيب ، وعـروة بن الزبير ، وما يحرم سدا للذرائع يباح للمصلحة كما قال الامام ابن القيم فى الجزء الاول من أعلام الموقعين (١)

والحكم الفصـــل فى هذا البيع الذى كانوا يتخذونه ذريعة للربا قول النبى عليه السلام :

« الذهبُ بالذهبِ والفضة بالفضة والبُرُّ بالبُرِ والشعيرُ بالشعيرِ والتمرُ بالتمرِ والملحُ بالملحِ مِثْلاً بِمِثْل سواءً بسواء يَدًا بِيَدٍ ، فإذا اختلفتْ هذه الأصناف فبيعوا كيفَ شِئتم إنْ كانَ يدًا بيدٍ .. »

وواضح من هذا الحـــكم أنه يحرم الربا الذى ستروه باسم البيع والشراء .. فما يكون لاحد أن يشترى صنفا بصنف مثله على غير سواء الا أن يكون سفيها أو مضطرا .. والسفه والاضطرار كـــلاهما مبطل للبيـــع المشروع . فاذا اختلف الصنفان قيمة فلا حـــرج فى المبايعة لانهما يختلفان بالمقايضة ، فلا وجه للتحريم هنا ولا التباس بين البيع المحلل والربا الممنوع

***

وبالمقارنة بين الاديان الكتابية بعد تلخيص الحـــكم الاسلامى فى مسألة الربا ــ نعلم أن الناقدين لا حجة لهم فى اختصاص الاسلام بالنقد لما يزعمونه من تعويقه أعمال

---

(١) راجع الجزء الثـــالث من تفسير المنار

الحضارة بتحريمه هذه المعاملات • لانه لم ينفرد بتحريم الربا بين هذه الاديان ، حتى ما كان من قبيل البيوع التى تدس الربا وراء ستار من البيع والشراء • فهذه أيضـــا قد حرمتها المسيحية على ما تقدم فى رسالة « لوثر » التى أخـــذت بها جميـــع المـــذاهب مع مـــذهب الكنيســـــــة البروتستانتية ••

وبغير حاجة الى المقـــارنة بين الاديان الكتابية نعلم أن هؤلاء الناقدين لا حجة لهم أصلا على الاسلام فيما حـــرمه من ربا النســـيئة أو ربا الفضـــــل بأنواعه • كما حرم الاسلام من هذه المعاملات كل تصرف فيه ظلم واضطرار وأكل للحقوق بالباطل وابتزاز للاموال فى غير عمل ولا طائل • وازدهار الحضارة مرهون بالغاء كل تصرف من هذا القبيل ، غير مرهون على زعمهم بحمـــايته والاغضاء عنه وعن ذرائعه • وفى وسع المصـــــارف والشركات أن تتجنبه وتمضى فى عملها حيث كانت فى البلاد الاسلامية، فليس فى الاسلام نص ولا تأويل يحرم التصرف النـــافع الذى لا اضطرار فيه ولا اغتصاب للحقوق ، وما كان من قبيل الاضطراروالاغتصاب فى أعمال المصارف والشركات فقد حرمته القـــوانين الوضعية بما اشترعته من قيـــــود الرقابة وحدود الربح والفائدة ، فما استطاعت حـــكومة من الحكومات المتحضرة أن تقف مـــكتوفة اليدين لتطلق أيدى المرابين فى تثمير الديون بغير ثمرة للمدين ، وبغـــير ربح غير ربح الدائن المتحكم فى فرائس الضنك والاضطرار

ولا نحب أن ندع هذا الموضوع قبل الالمـــاع فى هـــذه العجالة الى مذاهب الفلاسفة والعلماء فى الربا بعد الالماع الى مذاهب الاديان فيه

فمن أقدم البحوث الفلسفية عن الربا بحث المعلم الاول

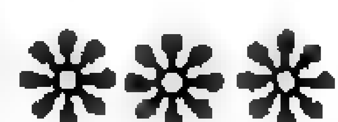
أرسطو – فى كتابه عن السياسة – ومذهبه فيه أنه ربح مصطنع لا يدخل فى باب التجارة المشروعة ، وعنده أن المعاملة على أنواع ثلاثة : معـــاملة طبيعية وهى استبدال حاجة من حاجات المعيشة بحاجة أخرى كاستبدال الثوب بالطعام ، ومعاملة صناعية وهى كاستبدال النقد بحاجـة من حاجات المعيشة وهى التجـــارة التى لا حرج فيها ، ومعاملة مصطنعة ملفقة وهى اتخاذ النقد نفسه ســـلعة تباع ، فانما حق النقد أن يكون وسيلة للمبايعة ومعيارا تعرف به اسعار السلع المختلفة ، وأما اتخاذه سلعة تباع وتشرى فهو خروج به عن غرضه وابتذال للتجارة فى غير مصلحتها ..

واعتمـد الحبـر الفيلســـوف توما الاكوينى – حجة المسيحية فى القرون الوسطى – رأى أرسطو هـــذا فى النقد فأوجب به تحريم الربا من الوجهة الفلسفيةوأخرج من تعريف الربا كل تصرف لا يحدث فيه تبادل النقدفعلا وانما يؤخر فيه اعطاء النقد لسداد ريع أو أجـرة أو ثمن بضاعة ... وعقب توما الاكوينى أتباع ، نظروا فىتعريف الربا من الوجهة الفلسفية العلمية فلم يجعلوا منه ما هـو بمثـــابة تعويض الدائن عن فوات ربح كان فى وسـعه Lucrum Cessans أو تعويضـــه عن خســـارة أصـــابته من جراء دينه Damnum Emergens أو عن خسارة أصابته من جراء المماطلة فى الوفاء بحقه فىموعد السداد المحدود

ودرج الفلاسفة على اعتماد رأى أرسطو وتوما الاكوينى فى النقد الى فاتحة عصر الفلسفة الحديثة ، فقـال دافيد هيوم Hume فى كتاب المحاضرات السياسية الذى طبع سنة ١٧٥٢ « ان النقد ليس مادة للتجارة ولكنه أداتها...

وانه ليس دولابا من دواليب التجارة ولـكنه الزيت الذى يلين مدارها »

وبدأت فلسفة الاقتصاد الحديث بدراسات « أبى الاقتصاد » آدم سميث Adam Smith (١٧٢٣ ـ ١٧٩٠) وهو معاصر للفيلسوف دافيد هيوم ، ورأيه فى ريع الارض أنه اذا تكاثر فى حساب الثروة العامة كان من قبيل الكسب بغير عمل ، وهو لا يمنع الربح من الديون ولكنه يحده ويستحسن الاقلال من قيمته ، وعلى هذا الرأى درج الاقتصاديون المحدثون الى عهد المذهب الاقتصادى الجديد الذى هدم كثيرا أو بدل كثيرا من آراء الاقتصاديين السلفيين ، ولـكنه حافظ على رأيهم فى استحسان الاقلال من ربح الديون وزعم ان القليل منه يشجع المقترضين على الانتفاع بالاموال المدخرة ولايرهقهم بأعباء السداد أو يحرمهم ثمرة العمل الذى يجتذبون الاموال المدخرة الى أسواقه بدلا من تعطيلها فى خزائن الشركات وودائع الصناديق



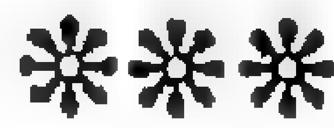
وتعتبر قضية الربا فى القرن العشرين من القضايا المؤجلة أو المعلقة الى حين ٠٠ لان الانقلابات التى تجمعت من حوادث هذا القرن قد نقلت القضية من البحث فى الثمرة الى البحث فى جذور الشجرة من أصولها : كانوا يسألون من قبل عن ثمرات الاموال المحللة أو المحرمة ولمن تكون ؟ فأصبحوا اليوم يسألون عن الاموال من مصادرها الى مواردها لمن تكون كلها ومن هو صاحب الحق الاول فى ثمراتها ؟

فالاقتصاديون الماديون ينكرون ملك رؤوس الاموال أصلا ، ويرفضون السماح للفرد بملك شىء يمكن أن

يسمى مالا أو رأس مال ، ولا معيار عندهم لحق الفرد فى أجور العمل الا ما تفرضه له الجماعة من نفقة على قدر الحاجة اليها ، ولا موضع للكلام عن الارباح المحللة أو المحرمة حيث لا يكون رأس مال ولا يكون أصل معترف به تتفرع عليه الفواضل من المكاسب والاجور

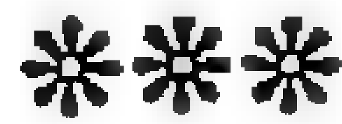
وغير الاقتصاديين الماديين يعترفون للفرد بحق الملك وحق حيازة الاموال ولكنهم ينتقلون فى توزيع المرافق الكبرى شيئا فشيئا الى الملكية العامة أو الملكية على المشاع باسم التأميم أو الاستيلاء ووضع خطط التعمير

والمذهبان معا يتفقان على ضرورة الحد من الثروات الكبيرة بعد استيفاء جميع الضرائب والرسوم ، فاذا بقيت لصاحب المال حصة من الربح تزيد على مقدار معلوم أخذتها الدولة باسم الامة ، وفاقا لمبدأ من مبادىء التشريع مصطلح عليه بين أمم الحضارة التى تكثر فيها الثروات الضخام وتكثر فيها النفقات العامة للتعمير والمعونة أو للحيطة والدفاع



ونحن لا نريد أن نقارن هنا بين الاسلام والديانات الكتابية فى قضية الربا بأنواعه . ولكننا نريد أن نقارن بينه وبين المذاهب الاقتصادية التى يظن أصحابها أنهم يحيطون بحكمة التشريع عامة فى جميع العصور لانهم حسبوا أن فترة من فترات الزمن تستوعب هذه الحكمة وتفرغ منها على نحو لا يقبل المراجعة والتعديل . فاذا خيل اليهم فى وقت من الاوقات أن الحضارة مرهونة بنظام معلوم فى المصارف والشركات خطر لهم أن يفرضوا هذا النظام بعجره وبجره على الماضى والحاضر والمستقبل فى المشرق والمغرب وبين جميع الملل والاقوام ، وطلبوا الى

أصحاب العقائد أن ينسخوها والى أصحاب الشرائع أن ينقضوها ، والى أصحاب المبادىء الخلقية والفكرية أن يقتلعوها من جذورها ، واجترأوا على من يناقضهم وينظر الى ما فوق أنوفهم فاتهموه بالجمود والنكسة وألقوا عليه تبعة الفساد والرجعة بالعقول الى الوراء



وها هي ذى قواعد الحضارة التي يتعللون بها تتطلب اليوم من نظم الاقتصاد ما لم تكن تتطلبه قبل خمسين سنة ، وسوف تتطلب بعد خمسين سنة ما لم تتطلبه اليوم ، فما هو الميزان العادل الذى تصح فيه الموازنة بين هذه المذاهب وبين الدين ، هل نبيح لهذه المذاهب المتقلبة أن تفرض سلطانها على الدين الذى لا مزية له أن لم تركن منه ضمائر الامم الى قرار مكين ثابت على تقلب الزعازع والاحوال ؟ هل ننتظر من الدين أن يعرقل هذه المذاهب ويأخذ الصواب منها بذنب الخطأ فيحرم الصواب والخطأ على السوء ؟ ..

لا هذا ولا ذاك ..

بل يمضى كل مذهب الى مداه المقدور ، ويتسع الدين لاحداث الزمن فلا يتصدى لها في مجراها ولا يمنعها أن تذهب الى مداها ، وأن تضطرب اضطرابا لمستقر لهاتمحصه الايام

« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ » . (سورة الرعد)

وتلك هي مزية الاسلام بين المذاهب والاديان ، لايقف

فى طريق رأى صالح ولا يحول بينه وبين التجارب تنبذ منه ما لاسبيل الى قبوله وتبقى منه ماهو صـــالح للبقاء ..

وتلك الزعازع التى تمخضت عن حوادث القرن العشرين ينظر اليها الاسلام وهو ثابت على قراره المكين ، فلا يمنع صالحا منها أن يثبت صلاحه ، ولا يدع لفاسد منها أن يطغى بفساده طغيانا لا رجعة فيه

انه لايمنع الملكية العامة ، بل يأمر بها فى مرافق الجماعة ولا يبيح أحدا ان يملك موارد الماء والنار والكلاء ، كمـا جاء فى الحديث الشريف (١) ، ومن فقهـــائه فى مذهب الظاهرية من يشترط العمل لاستحقاق الكسب حتى فى تأجير الارض وزراعة الشجرة وجنى الثمرات

ولا يبطل الاسلام ملكية الاحاد . ولكنه يخول الجماعة أن تحتسب لها نصيبا منها يقدره الامام بتفويض من الامة، وتزيد حصة الجماعة كيف زادت فلا ينكر الاسلام هـذه الزيادة ، لانه يحرم كنز الذهب والفضة ويأمر بتوزيع الثروة بين الناس :

« كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَينَ الأَغْنِياءِ مِنْـكُمْ »

(سورة الحشر)

وقوام الامر كله فيما يبيح ويمنع مرجع واحد ثابت على الزمن ثبوت الجماعة البشرية ، وهو المصلحة العليا التى تتقدم فيها مصلحة الكثير على مصلحة القليل ، ويتقدم فيها حساب الزمن الطويل على حساب الزمن القصير

---

(١) روى ابن ماجه باسناد صحيح عن أبى هريرة قال رسول الله « ثلاث لا يمنعن : الـكلأ والماء والنار » وروى أحمد وأبو داود : « الناس شركاء فى ثلاثة : الكلأ والماء والنار »

ولتكن المصلحة ملكا أو ربحا أو تجارة أو مرفقا تتداوله الايدى باسم من الاسماء حينا بعد حين ، فما كان فيه ظلم واكراه وأكل للاموال بالباطل فهو حرام ، وما برىء من هذه الافات جميعا فهو حلال لايمنعه أحد ، ومن منعه من رعية أو امام فهو المخالف لعقيدة الاسلام

حدود الجزاء

ويقال عن حدود الجزاء اجمالا ما يقال عن الربابأنواعه، فلا حجة لمن يختص الاسلام بالنقد فى مسائل الحدود . لانه لم يفرض على جريمة من الجرائم عقابا أقسى مما فرضته الاديان الكتابية قبله ، وما فرضته الشرائع الموضوعة فى أوانه

ولا حجة لمن ينقدالعقوبات لانه يقارن بينها وبينعقوبات العصر الحديث . فان الحدود فى الاسلام بينة لاتناقض مصلحة الجماعة فى زمن من الازمان

ولقد كانت الشريعة الاسلامية ضرورة لامحيد عنها فى ابان الدعوة الاسلامية . فلم يكن من الميسور ولا من المعقول أن تلبث الامة الاسلامية حقبة من الزمن على شريعة الجاهلية أو تمضى فى حياتها العامة هملا بغيرشريعة يدين بها الحاكم والمحكوم ، ونزلت شريعتها فى حينهاعلى مثال لا تفضله شريعة عاصرتها فى جملتها ولا فى تفصيلها، وتعاقبت بعدها العصور وما فى عارض من عوارضها حالة لم تقدر لها الشريعة كفايتها من التصرف والتوفيق

ولسنا فى هذا الكتاب بحاجة الى أن نضيف شيئا فى موضوع الحدود الى ما أجملناه عنه فى رسالتنا عن الشيوعية والاسلام ·· فان الافاضة فى البحوث الفقهية ليست من أغراض كتابنا هذا ولم تكن من أغراض ذلك الكتاب ، وبحسبنا من مسألة الحدود أن نجلو الشبهة عن قواعدها وندع للمستزيد أن يتوسع فى شروحها وتفريعاتها

حيث يطيب له المزيد منها . فانما استقرت حكمة الاسلام على جلاء القواعد وتوطيد القاعدة سليمة يقام عليها ما يقام من بناء سليم

« تنزلت الشريعة الاسلامية فى الجزيرة العربية على عهد الجاهلية ، يوم كانت شريعتها الغالبة بين جميع القبائل العربية شريعة الغارات التى تستباح فيها دماء المغلوب وأمواله ونساؤه وكل مملوك له فى حوزة الفرد أو حوزة القبيلة ، وكان أهل الكتاب يدينون بشريعة موسى التى لم يبطلها السيد المسيح ولها حدود مفصلة فى التوراة وقصاص تؤخذ فيه العين بالعين والسن بالسن ، كما ذكرها القرآن الكريم »

« فاذا جاء الاسلام بعقوبات لا تصلح لعهد الدعوة لم يعط التشريع حقه فى ذلك العهد ولا فى العصور التالية ، ولكنه يعطى التشريع حقوقه جميعا اذا صلح لزمانه ولم ينقطع صلاحه لما بعده ولم يمتنع فيه باب الاجتهاد عند اختلاف الاحوال . فيشتمل جزاؤه على جنايات الحدود والقصاص وعلى الجنايات التى تستحدثها أحوال المجتمعات ويأخذها الشارع بما يلائمها من موجبات الجزاء »

« وهذا ما صنعه الاسلام فى جنايات الحدود والقصاص وفى غيرها من الجنايات التى تدخل عند الفقهاء فى باب التعزير ، وعلينا أن نذكر :

« أولا — أن الحدود مقيدة بشروط وأركان لابد من توافرها جميعا بالبينة القاطعة والا سقط الحد أو انتقل الى عقوبات التعزير اذا كان ثبوته لم يبلغ من اليقين مبلغ الثبوت الواجب لاقامة الحدود »

« وأن نذكر — ثانيا — أن القصاص مشروط فيه العمد وارادة الاذى بعينه . فان لم يثبت العمد فالجزاء الدية

أو التعزير ، وقد يجتمعان أو يكتفى بالدية دون التعزير أو بالتعزير دون الدية »

« ولنذكر أن جرائم التعزير تشمل جميع الجرائم التى يعاقب عليها بالسجن أو بالغرامة أو بالعقوبات البدنية »

« ولنذكر أن جرائم التعزير تشمل جميع الجرائم الاسلامية توجب درء الحدود بالشبهات للشك فى ركن من أركان الجناية أو ركن من أركان الشهادة . فلا يقام الحد ، وينظر ولى الامر فى التأديب بعقوبة من عقوبات التعزير »

ولنضرب المثل بأكبر جنايات الحدود وأشيعها فى الجاهلية العربية وجاهليات الامم فى عنفوانها ، وهى جناية قطع الطريق والعبث فى الارض بالفساد . ففى هذه الجناية يقول القرآن الكريم :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

(سورة المائدة)

« فهذه جناية لها عقوبات متعددة على حسب الاضرار والجرائر ، ومنها القتل والصلب وقطع الاطراف والنفى وهو بمعنى النبذ من الجماعة اما بالسجن أو بالاقصاء ، ويلزم العقاب من لزمته أحكام الدين ، فاذا كانت جنايته

قد انتهت بالتوبة قبل أن يلزمه قضاء الاسلام فهذا هو الباب الذى فتحه الاسلام لابتداء عهد وانتهاء عهد غير بأوزاره وعاداته وانطوى حساب الجناية والعقاب فيه بانتهائه » ..

« وأشد هذه العقوبات لم يكن شديدا فى عرف أمة من الامم عوقب فيها من يقطعون الطريق ويعيشون فى الارض بالفساد مع حضور الحذر وكثرة مغرياته وقلة الزواجر الاجتماعية التى تحمى المجتمع من أضراره وجرائره . وقد كانت عقوبات القتل والتمثيل قائمة فى جميع الامم مع قيام الجريمة وقيام أسباب الحذر منها ، وظلت كذلك الى القرن السابع عشر فى البلاد الاوربية التى استقر فيها الامن بعد الفزع ، وانتظمت فيها حراسة الطريق بعد الفوضى التى طغت عليها من جراء فوضى الجوار بين الحكومات »

« وتلحق بجناية قطع الطريق جناية السرقة التى لا غصب فيها ، وشروطها أن يكون السارق عاقلا مكلفا وأن يكون المال المسروق محرزا مملوكا لمن يحرزه بغير شبهة ، بالغا نصاب السرقة كما يتفق عليه الفقهاء ، وكل جريمة من قبيل السرقة لم تثبت فيها هذه الاركان المشروطة فلا يؤخذ فيها الجانى بحد السرقة ويؤخذ فيها بعقوبات التعزير . وعند الضرورة القاهرة التى يقدرها الامام يجوز العفو كما عفا عمر بن الخطاب رضوان الله عليه عن الغلامين السارقين فى عام المجاعة »

« ولا بد أن يمتد نظر الباحث على مدى مئات السنين قبل أن يسأل عن صلاح الشريعة لعصر من العصور . ولا محل لسؤاله اذا أراد أن يحصر هذه الشريعة فى زمن واحد وبيئة واحدة . ولكنه يحسن السؤال اذا عرض أمامه أحوالا للامم فيها القديم والحديث وفيها الهمجى

والمتحضر وفيها المسالم المأمون والشرير المحذور ثم سأل : هل فى الشريعة قصور عن حالة من الحالات التى تعرض لتلك الامم فى جميع أطوارها ؟ وهل هناك عقوبة نصت عليها الشريعة لم تكن صالحة من تلك الحالات ؟

« فكهذا توزن الشرائع التى تحيط بالمجتمعات فى مئات السنين ، وبغير هذا الوزن تكثر منافذ الخطأ أو يبطل السؤال فلا محل للسؤال (١) »

روح الاسلام سمحة

وغنى عن القول بعد هذه الاعتبارات أن فهم الشريعة بنصوصها لا يغنى عن فهمها بروحها وحكمتها ..

وروح التشريع الاسلامي كما ظهرت فى نصوص الاحكام وأركان الثبوت روح سمحة جانحة الى العذر وتمهيد الطريق للتوبة والصلاح . فليست العقوبة غرضا مطلوبا لذاته يبادر اليها ولى الامر خفيف الضمير معفى من الحرج والمراجعة . ولكنها ضرورة يدفعها ما دفعتها الشبهة والامل فى التوبة والصلاح . وليس الامام الذى يتحرج من اقامة الحد فى غير موقعه من الثبوت وتوافر الاركان مخالفا للاسلام مقصرا فى اقامة حدوده . بل المخالف للاسلام المقصر فى اقامة الحدود من يهجم على العقوبة قبل أن يستوفى أركانها ويدرأ كل شبهة فيها تأتى لمصلحة المتهم أو لمصلحة الجماعة . وانما الامام الحق فى الاسلام من يذكر أن اطلاق المذنب خير من ادانة البرىء ، وأن التحرج أولى ما يكون بمن يعاقب على الحرج فى أمور الدنيا والدين . »

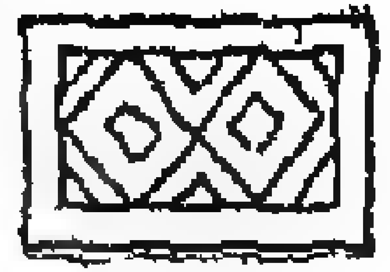
وسيأتى البيان عن مهمة الامام فى تطبيق الحدود

---

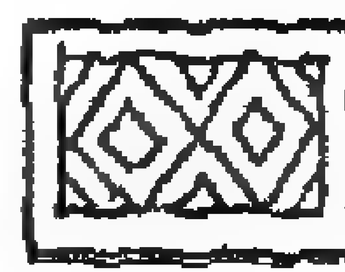
(١) من كتاب الشيوعية والانسانية للمؤلف

والاحكام وتقدير المصالح والضرورات فى أمور الجزاء وأمور السياسة الشرعية على التعميم . ولكننا ننتهى بهذه العجالة عن المعاملات الى غايتها اذا عرفنا أن الاسلام لا يوجب على الناس معاملة تضر ولا ينهاهم عن معاملة تفيد ، وأنه يؤدى للمؤمنين به خير ما تؤديه العقيدة الثابتة على تعاقب الاجيال : لا تمنع التجربة الصالحة أن تثبت صلاحها ولا تفرط فى الدائم اللازم ذهابا مع العاجل المشكوك فيه ..

الحقوق



الفصل الثالث



- الحرية الإسلامية
- الأمة
- الأسرة
- زواج النبي
- الطبقة
- الرق
- حقوق الحرب
- حق الإمام

الحرية الاسلامية

أصدق ما قيل فى الاديان العالمية انها ثورات واسعة ولا تقاس السعة فى هذه الثورات بامتداد المكان ولا بكثرة العدد لانها أوسع ما تكون اذا نشبت فى داخل النفس الانسانية وكانت القوة الثائرة والقوة المتغلبة فيها مملكة واحدة : هى مملكة الضمير

ولا نهاية يومئذ لمظاهر التبديل والتغيير التى تتكشف بها الثورة فى تلك المملكة الصغيرة الكبيرة ، لانها تلحق بكل ما تزاوله النفس من شئونها الباطنة والظاهرة : تلحق بالافكار والهواجس الخفية ، وتلحق بالعادات أو الاخلاق ، وتلحق بالعرف والقانون ، وتلحق بالنظم الاجتماعية والدساتير الحكومية ، وتلحق بالحاكمين والمحكومين ، وتلحق بكل مملكة لانها لحقت قبل ذلك بتلك المملكة الصغيرة الكبيرة .. مملكة الضمير !

وأوسع ما تكون ثورة الضمير اذا جاءت من قبل الثورة فى تقدير الحقوق ..

ان الثائر لضيق نزل به يهدأ اذا انفرج ذلك الضيق ، وانه ليثور كما تثور الريح المحجوزة والحيوان الحبيس ، ما هو الا أن يرتفع الحجاز وينفتح الباب حتى تهدأ الثورة ويسكن الثائر والمثير . ولكنه اذا وثب وثبته فى

سبيل حق يؤمن به لا يرجع عنه أو يظفر به كما يطلبه ، واذا ظفر به لنفسه لم يكفف عن الطلب وهو يراه مضيعا عند غيره ، ويكاد يلمس فى كل شيء نذيرا له بضياع الحق وحافزا على حمايته أن يضيع . فانما الثورة الباطنة هى محضأ الثورة الظاهرة ، وطالب الحق هو المطلوب الذى لا ينام عن طلبه ، وهو الرقيب على سريرته قبل كل رقيب ..

ولم تعلن فى ثورات العالم الدينية حقوق عامة للانسان قبل ثورة الاسلام فى القرن السادس للميلاد . لان الانسان نفسه لم يكن عاما فيوليه الدين حقوقا عامة ، وانما ولد هذا الانسان ــ العام ــ يوم آمن الناس باله يتساوى لديه كل انسان وكل انسان ، ويوم نيطت حقوقه بواجباته بغير تفرقة بين قبيل وقبيل .

فمن تحصيل الحاصل أن يقال ان حقوق الانسان لم تكن منظورة من ثورة دينية قبل ثورة الدين الذى دعا الناس الى عبادة رب العالمين ، فانما توجد الحقوق العامة اذا وجد صاحبها الذى يستحقها ويؤدى لها فرائضها ، ولم يوجد لهذه الحقوق صاحب مضطلع بها فى ثورة دينية قبل ثورة الاسلام .. اذ لم يكن هناك الانسان الذى يتساوى فى كل قبيل وكل مكان

على أننا نرجع الى تاريخ الثورات الاجتماعية أو السياسية قبل الاسلام فلا نراها تخالف الثورات الدينية المعاصرة لها فى كبير طائل ولا نرى بينها حركة يصدق عليها أنها حركة « حقوق انسانية » بمعنى من معانى هذه العبارة كما نفهمها فى العصر الحاضر . فربما كان بينها ما يسمونه بحركات الديمقراطية فى بلاد اليونان ، وربما بدا لهم من كلمة الديمقراطية أنها من حركات الشعوب فهى على هذا خليقة أن تحسب من حركات الحقوق

الانسانية ، وليست هي كذلك حتى فى دلالتها اللفظية التي نشأ منها الغلط فى فهم حقيقتها . لان كلمة «ديموس» اليونانية كانت تطلق على المحلة التي تسكنها القبيلة ، ثم أطلق النظام الديمقراطي عندهم على الحكومة التي تشترك القبائل فى انتخابها ، ولم يكن اشتراكها فى الانتخاب اعترافاً بحق انساني يتساوى فيه آحاد الناس ، وانما كان اعترافاً بالقبيلة واتقاء لمعارضتها واضرابها عن العمل فى الجيش وتلبية نفير الدفاع .

ومثل هذا الحق فى رومة حق « التربيون » الذي تنتخبه القبيلة ويشتق من اسمها ، Tribe ، ولا شأن لانتخابه بما نسميه اليوم حقوق الانسان

وقد توالت على اليونان والرومان أنواع من الحكومات الديمقراطية لم يكن لها من مبدأ تقوم عليه غير انها خطط عملية لأمن الفتنة واستجلاب الولاء من المجندين للجيش والاسطول من أبناء القبائل وأصحاب الصناعات . وآية ذلك أن الحكومة الديمقراطية نشأت بين الاسبرطيين أصحاب النظم والاجراءات الادارية ولم تنشأ بين الأثينيين أصحاب الفلسفات والبحوث النظرية ، وليس هذا بالمستغرب من اليونان الأقدمين اذا نظرنا الى حقوق الانتخاب فى الديمقراطيات الغربية الى أواسط القرن العشرين .. فان هذا الحق كان يتدرج فى التعميم على حسب الحاجة الى الناخبين فى مصانع الحرب وفى جيوش المقاتلين ، فناله العمال فى البلاد الصناعية قبل أن يناله الزراع ، ونالته المرأة بعد ان اصبحت عاملة فى المصانع تنوب فيها عن الجند المقاتلين ، وناله السود فى الولايات المتحدة بعد اضطرار الدولة الى خدمتهم فى المصانع وفى الجيوش على التدريج بين الحربين العالميتين

غير هذا ولا ريب هو المقصود بالديمقراطية الانسانية،

فانها حقوق معترف بها للانسان وليست خطط عملية يوجبها تكافؤ القوى بين الطوائف وجماهير الناخبين . وليست الديمقراطية الانسانية مما يتصور بغير عناصرها الثلاثة التى لا انفصال بينها : وهى المساواة والمسئولية الفردية وقيام الحكم على الشورى وعلى دستور معلوم من الحدود والتبعات ، وهذه هى العناصر الثلاثة التى نادى بها الاسلام لاول مرة فى تاريخ الانسان

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » (سورة الحجرات)

« كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » (سورة الطور)

« وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » (سورة الشورى)

ونبى الاسلام هو القائل صلوات الله عليه :

« لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلاَ لِقُرَشِيٍّ عَلَى حَبَشِيٍّ إِلاَّ بِالتَّقْوَى »

وهو القائل صلوات الله عليه فى خطبة الوداع :

« أَيُّهَا النَّاسُ . إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، كُلُّكُمْ لآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، وَلَيْسَ لِعَرَبِى عَلَى عَجَمِى وَلاَ لِعَجَمِى عَلَى عَرَبِى وَلاَ لِأَحْمَرَ عَلَى أَبْيَضَ فَضْلٌ إِلاَّ بِالتَّقْوَى »

وهو القائل صلوات الله عليه :

« يَا مَعشَرَ قُرَيْشٍ ! اشْتَرُوا أَنفُسَكُمْ . لاَ أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً . وَيَابَنِي عَبدِ مَنَاف ! لاَ أُغْنِي عَنكم مِنَ اللهِ شَيئاً . يَاعَبَّاسَ بنَ عَبدِ المطلِب ! مَا أغنى عنك من اللهِ شيئاً . يَافَاطمة بنتَ محمدٍ ! سليني مَا شئتِ من مَالى . لاأغنى عنك من الله شيئاً »

***

وطالما قيل عن هذه الديمقراطية الاسلامية أنها هى الديمقراطية العربية نقلها الاسلام من بيئة الصحراء التى نشأ فيها ..

وهى كلمة من كلمات القشور التى تجوز على الاسماع بغير عناء لأن الطلاقة شبيهة بالمعهود من الصحراء فى الحس والخيال

الا أن الطلاقة الحسية — فيما وراء القشور — لا تشبه حرية الحقوق فى أصل من أصولها التى تقوم عليها .. انها كطلاقة الريح فى الفضاء وطلاقة العصفور فى الهواء وطلاقة الاوابد بعيدا من المطاردين والاعداء ، وشتان الحرية الانسانية — حرية الحقوق المرعية — وهذه الطلاقة التى يتمتع بها الحيوان والانسان على السواء بمعزل عن العوارض والرقباء ..

فاذا تركنا هذه الطلاقة فى بيدائها الغافلة عنها وبحثنا عن حرية الحقوق فى حكومة من حكومات الجاهلية لم نجد ثمة الا استبدادا بالامر كأشد ما عرف الاستبداد فى دولة

من دول الطغيان ذوات الصولة والصولجان . فقد كانت القدرة على الظلم قرينة بمعنى العزة والجـــاه فى عرف السيد والمسود من أمراء الجزيرة من أقصاها فى الجنوب الى أقصاها فى الشمال . وما كان الشاعر النجاشى الا قادحا مبالغا فى التدح حين استضعف مهجوه لان :

قبيلته لا يغدرون بذمة
ولا يظلمون الناس حبة خردل

وما كان حجر بن الحارث الا ملكا عربيا حين سام بنى اسد أن يستعبدهم بالعصا وتوسل اليه شاعرهم عبيد ابن الابرص حيث يقول :

انت المـــلك فـــوقهم وهم العبيـــد الى القيـــامه
ذلـــوا لســـوطك مثلمـــا ذل الاشـــيقر ذو الخزامه

وكان عمرو بن هند ملكا عربيا حين عود الناس أن يخاطبهم من وراء ستار ، وحين استكثر على سادةالقبائل أن تأنف أمهاتهم من خدمته فى داره ..

وكان النعمان بن المنذر ملكا عربيا حين بلغ به العسف أن يتخذ لنفسه يوما للرضى يغدق فيه النعم على كل قادم اليه خبط عشواء ، ويوما للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح الى المساء ..

وقد قيل عن عزة كليب وائل أنه سمى بذلك لانه كان يرمى الكليب حيث يعجبه الصيد فلا يجسر أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه ، وقيل « لا حر بوادى عوف » لانه من عزته كان لا يأوى بواديه من يملك حرية فى جواره ، فكلهم أحرار فى حكم العبيد

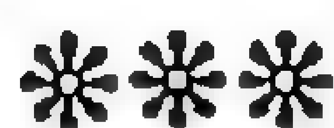
ومن القصص المشهورة قصة عمليق ملك طسم وجديس الذى كان يستبيح كل عروس قبل أن تزف الى عريسها ، وفيه تقول فتاتهم عفيرة :

فان أنتم لم تغضبوا بعد هذه
فكونوا نساء لا تعاب على الكحل
ودونكم طيب العروس فانما
خلقتم لاثواب العروس وللنسل

ويستوى أن تصح هذه القصة على علاتها أو لا تصح منها الا الرواية وانظم الموضوع • فانها لصحيحة بجوهرها كل الصحة اذا وقر فى أذهان الرواة والسامعين أن الظلم حق للقادر المعتز بقدرته ، وأن اذلال الاعزاء علامة العزة فوق كل عزيز • ولو لم يكن هذا دأب الملوك فى معهود العرب الاولين لما قالت احدى الملكات فيما رواه القرآن الكريم على لسانها :

« إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ »

« سورة النمل »



فالديمقراطية الاسلامية اذن لم تكن نباتا عربيا نما فى الجاهلية وورثه الاسلام منها • لان الديمقراطية لم يكن لها وجود فى الجاهلية بوجود الامارة والرئاسة الحكومية ، وما كان منها غير ذلك من قبيل الطلاقة المرسلة فى الصحراء الواسعة فانما هو طلاقة مادية كطلاقة الطائر فى جوه أو كطلاقة الهواء الذى لا عائق له فى فضائه والماء الذى لا عائق له فى مجراه • وتلك الطلاقة المادية — ان جاز أن نسميها حرية — فانما هى الحرية التى يستمتع بها المرء لانها شىء مزهود فيه لا يجد من يضادره أو يرغب فيه ..

ولم تكن الديمقراطية الاسلامية كذلك نباتا منقولا من تربة أجنبية لان الديمقراطية الاسلامية ديمقراطية حقوق

تلازم الانسان ، وما نبت قبلها من الديمقراطيات فهو على أحسنه خطط عملية تمليها الضرورة على حسب الحاجة اليها ، وليس هناك « انسان » يحق له أن يطلبه اذا فقد القدرة عليه ، لان هذا « الانسان » صاحب الحق فى الديمقراطية باعتباره « انسانا » مساويا لسائر أبناء آدم وحواء لم يكن له وجود مفهوم قبل الدعوة الاسلامية ..

لم تنبت الديمقراطية الاسلامية فى تربة الصحراء ولا فى تربة الحضارة ، ولكنها كانت معجزة الهية مثلها فى الظهور بين الجاهليين كمثل الايمان بالاله الواحد الاحد الذى لا يحابى قوما لانهم قومه دون سائر الاقوام ولا يلعن قوما لانهم ورثوا اللعنة من الآباء والاجداد

حق الانسان والايمان بالله رب العالمين ــ كلاهما معجزة الهية تجلت بها قدرة الله على غير مثال سابق متسلسل من أسبابه فى بيئته ولا فيما جاورها من البيئات فان السوابق التى سلفت قبل الدعوة الاسلامية كانت كسوابق المرض الذى يتطلب الدواء ولم تكن كسوابق العلاج الذى ينتهى بالشفاء ، وتلك هى السوابق التى تتجلى فيها قدرة الله على يد رسول من رسله ينبعث بالهداية ملهما موفقا بوحى من الله ، فيصنع المعجزة التى لم تمهد لها أسبابها ودواعيها ، لان أسبابها الخفية ودواعيها الكامنة فى السريرة الانسانية تفوت ذرع العقول ولا تدخل فى الحساب ..

ولسنا نحب أن يفهم القارىء من كلامنا أن المعجزة الالهية تقلب أوضاع الامور وتأتى فى أوانها بغير سبب مقدور ، وانما نريد أن الاسباب لا تنكشف كلها لعلم الانسان وان علم الله هو الذى يحيط بالخوارق التى لا تدخل فى الحسبان ..

فالمرض الذى يؤدى الى الموت سبب ، والمرض الذى يؤدى الى العلاج المنقذ سبب ، فاذا اختلط علينا السببان وجاء الشفاء من حيث نتوقع الهلاك والفناء . فتلك معجزة من المعجزات الالهية علمها عند الله ، واسبابها غير الاسباب التى نقدرها لها قبل وقوعها ..

نشأت الدعوة الاسلامية فى بيئة مريضة بأدواء العصبيات وضروب الضلال فى اختلاط من العبادات والخرافات .. فلو جرت الاسباب التى ندركها فى مجراها المعهود فالدعوة التى تأتى من قبل هذه البيئة لن تدعو الى اله واحد يتساوى لديه جميع الناس ، ولن تمنح الانسان حقا واحدا يتساوى فيه جميع الناس ..

ولكن هذه الدعوة جاءت بهذا وذاك : جاءت بالدعوة الى رب العالمين والى الحق الذى يتساوى فيه ابناء ادم وحواء ، وجاءت بذلك لان انسانا واحدا خلق الله فيه من قوة الروح ما يكافىء تلك العصبيات جميعا وتلك الضلالات جميعا ويتغلب عليها ويجريها فى غير مجراها. ذلك هو رسول الله ..

وتلك هى المعجزة الالهية ..

واسبابها نفهمها الان ، بعد ان هدينا اليها ، ولكننا لم نكن لنفهمها لو ترقبناها قبل وقوعها وانتظرناها من حيث تنتظر الاسباب العاملة فى حياتنا ، ولا سيما الاسباب التى نحسبها اليوم من الاسباب « الطبيعية » دون سواها ..

معجزة من المعجزات الالهية أن تجىء الدعوة الى رب العالمين من صحراء لا تعرف غير الفوارق بين العصبيات والانساب ..

ومعجزة مثلها أن يجىء من تلك الدعوة حق الانسان

الذى يرفعه عمله ولا يرفعه نسبه ، أيا كان هذا النسب بين الاعراق والاقوام ..

ولا انفصال بين المعجزتين بعد الروية فى السبب الذى تنبعثان منه والنهاية التى تؤديان اليها ..

كلتا المعجزتين صادرة من ينبوع واحد .. فمن آمن برب العالمين لم يؤمن برب فريق دون فريق من الناس ، ومن آمن بالمساواة بين أعمال الناس وحقوقهم فلن يؤمن برب غير ربهم أجمعين ..

ويقال بحق ان الانسان يتطلب المثل الاعلى فى الصفات الالهية ، وانه من أجل هذا لاينزه حاكمه عن صفة يقبل الاتصاف بها فى حق الله

ومن البديه أنه لايتخيل حاكمه منزها عن المحاباة بين رعاياه اذا جاز عنده أن الله لايتنزه عن المحاباة بين خلقه فى غير عمل ولا مزية

فلا جرم كان الايمان برب العالمين ايمانا بحق العدل والمساواة ، وايمانا بالديمقراطية التى تقوم على هذا الحق فى الارض وفى السماء

ولله المثل الاعلى

والله فى عقيدة المسلم هو أحكم الحاكمين

فهو الحاكم الذى لايظلم أحدا ولا يحاسب احدا بغير تكليف ولا يغير ما بالعبد حتى يغير ما بنفسه ، ولا يأمر الحاكم بأمر الا كان هذا الامر من شريعته فى عباده ، ومن نواميسه فى قضائه وقدره ..

« وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » . (سورة الكهف)

« إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » . (سورة النساء)

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » . (سورة الانفال)

« إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » (سورة الرعد)

« وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » . (سورة الاسراء)

« وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ » . (سورة فاطر)

***

واذا كان هذا عهد الله على نفسه أمام خلقه فالثورة التى جاء بها الاسلام فى عالم الحقوق أرفع وأوسع من أن تحسب من تلك الثورات التى تبتدىء وتنتهى فى نطاق الحركات الاجتماعية أو السياسية . انها ثورة كونية ترتفع بالحقوق والقيم فى نظر الانسان الى أعلى فأعلى والى أكمل فأكمل . فلا تبقى له من علاقة ببنى نوعه أو بالكون الذى يحتويه الا ارتفعت بمقدار ما ارتفع عنده من حق ومن قيمة . .

***

ومن أجمل ما فى الاسلام أن هذه الحقوق العليا فيه لا تحرم الانسان حقه فى الحياة ولا تزهده فى طيباتها ومحاسنها ، فحق الضمير لايجور على حقه فى الحياة الدنيا . وهو مأمور بالسعى والعمل والاستمتاع بما يكسبه بسعيه وعمله من نعمتها وزينتها ، أمره بذلك كأمره برعاية حقه من العدل والحرية والكرامة . .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً » .

(سورة البقرة)

« يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ » .

(سورة البقرة)

« يَابَنِي آدمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » . (سورة الاعراف)

« لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ » . (سورة المائدة)

ونقول ان الامر بحق الحيــاة من اجمـــل ما جاء به الاسلام . لان الانسـان لم يتعود من الدين قبله أن يأمره بهذا الحق ، وانما تعود من أديان كثيرة أن تنهاه عنه ، وأن تجعل زهده فى الارض شرطا لحظوته فى السماء

الأمّـة

آمن المسلمون بالحقّ الإلهى فجعلوا الامة مصدرا لجميع السلطات ومرجعا لجميع المسئوليات . وهذا هو الحق الالهى اذا فهم على سوائه ولم تنحرف به الأهواء الى غير معناه ، خدمة للمطامع وتزجية للمآرب عند ذوى السلطان

لا مصدر للسلطة العامة فى الاسلام غير الامة ..

ولا مرجع فيه للمسئولية العامة غير الامة ..

ولا تعارض بين هـذا وبين نصـوص الكتـاب وسنة الرسول ..

فان النصوص والسنن لا تقوم بذاتها ، بل تقوم بمن يفهمها ويعلمها ويعمل بها ويؤديها على وجوههـا ، وكل أولئك تشمله الامة بما انطوت عليه خاصتها وعامتها ، وجملة ذوى الحل والعقد والعاملين من عليتها وسوادها .

فهى التى تأتمر بنصـوص الكتـاب والسنـة ، وهى المسئولة عن صوابها وخطئهـا حيث ائتمرت به واتفقت عليه أو اختلفت فيه ..

وأول ما تقرر من ذلك الحق كان فى حياة النبى عليه السلام . فانه كان مامورا بمشـاورة أمتـه ، وكان الامر بينهم شورى فى كل شأن من الشئون غـير التبليغ الذى خصه الله به ولولاه لم تكن الدعوة الى هذا الدين ..

« وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ » . (سورة آل عمران)

« وَأَمْرُهُمْ شورَى بَيْنَهُمْ » . (سورة الشورى)

ولما قبض عليه السلام الى الرفيق الاعلى كانت ولاية الامر بعده لمن توليه الامة وتبايعه على الخلافة ، وتولاها من تولاها من الخلفاء الراشدين بالبيعة العامة ، ولم يدع احد بعدهم حقا فى ولايتها بغير هذه البيعة ..

ولا يوجد فى الاسلام حق بغير تبعة . فحق الامة فيه وتبعتها متكافئان متساويان ..

حقها تام وتبعتها تامة ..

حقها تام لايصدها عنه ذو سلطان بغير رضاها ، وتبعتها تامة لايعفيها من جرائرها عذر من الاعذار ..

وهى متكافلة متضامنة فى حقوقها وتبعاتها ، لانها متكافلة متضامنة فيما يصيبها من عواقب أعمالها ..
« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » ..

فلا عذر لها فى ضلال تنساق اليه متابعة لأسلافها ، ولا عذر لها فى ضلال تنساق اليه متابعة لأحبارها وكبرائها ، فان اللائمة لتعود عليها فى ذلك كله كما عادت على الذين من قبلها ..

« وَإِذَا قِيلَ لهم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ » (سورة البقرة)

« قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ » . (سورة التوبة)

***

« قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » .

(سورة النساء)

هذه المسئولية التامة المتناسقة بين طوائف الامة وطبقاتها — تمليها شريعة تامة متناسقة فى عقائدها وتكاليفها ، ولولا هذا التناسق فى الدين الاسلامى لكان اضطلاع الامة بمسئولياتها العامة من النقائض التى لاتعقل فى قسطاس العدل أو فى منطق الواقع ، لانها تسوم الناس من جانب ماتبطله من الجانب الآخر

فالاحبار والكهان فى الامم الخالية كانوا يقومون بينها هيئة مفروضة عليها مرسومة بمراسمها الموروثة وأزيائها المقررة وأتاواتها المضروبة عليها كأنهـا ضرائب الدولة ، وكانت هذه الهيئة قائمة فى الطليعة تهتدى فيهتدى من يليها ، وتضل فلا يملك أحد سبل الهداية من ورائها . وكان سبيل الهداية الوحيد أن يتصدى نبى من الانبياء لهذا السد المغلق فيحطمه ويفتح فيه الثغرة التى يسلكها من يتطلع الى بصيص من النور يطالعه من لدنها

ولو فرض الاسلام على الامم هيئة كهذه الهيئة لما استقام للامة حقها العام ولا تسنى لها أن تضطلع بتبعاتها العامة . الا أنه أعفاها من طغيان الكهانة وفتح أمامها منادح للفكر الانسانى لم تكن مفتوحة من قبله ، فجعل النصيحة حقا لكل قادر عليه من أولى الفهم والدراية ، وجعل العلم

وظيفة عامة يطلبها من يشاء ويتولاها من يشاء ولا سلطان له على الناس غير سلطان القدوة الحسنة والاقناع بالحجة والبينة الصادقة ، وهو المسئول ان خان هذه الامانة ، والمستمعون له هم المسئولون ان سمعوها فلم يستجيبوا لندائها

« وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ » . (سورة آل عمران)

***

« وَمَا هَلَكَ الامَمُ مِنْ قَبْلِهِمْ إِلاَّ لأَنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ » .

(سورة المائدة)

***

وأن كلمة « المنكر » وحدها لكافية فى الدلالة على هذه الفريضة العامة . فانها من الانكار الذى يشيع بين الناس فلا يجرى بينهم أمر من الامور أنكروه ولم يتعارفوا عليه . فاذا اصطلحوا على المنكر وجهلوا الامر بالمعروف فتلك أيضا جريرتهم يحاسبون عليها مادام من حقهم أن يتجنبوها ، ولا ظلم ولا حيف فى هذه المسئوليات العامة بين الامم . بل الظلم والحيف أن يتساوى الجاهلون والعارفون ، أو تتساوى جماعة الجهلاء الذين نفعتهم ويلات الجهل وبلاياه فجهدوا جهدهم للخلاص منه ، وجماعة الجهلاء الذين سدروا مع الجهل ولم يشعروا بويلاته وبلاياه . ولا يحل فى قسطاس العدل على كل حال أن تكون الأمة مصدرا لجميع السلطات الا اذا كانت مع هذا مرجعا لجميع التبعات والمسئوليات . .

«ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»
(سورة آل عمران)

ولا يحسب على الاسلام أن المسلمين لم يحفظوا حقهم ولم يضطلعوا بتبعتهم ، وانما يحسب عليه أنهم حفظوا الحق ثم ندموا على حفظه واضطلعوا بالتبعة ثم ندموا على الاضطلاع بها ، أو يحسب عليه أنهم ضيعوا الحق فلم يصبهم بلاء من تضييعهم اياه ، وانهم نكصوا عن التبعة فلم يصبهم بلاء من النكوص عنها . ولم يحدث من هذا مايدعو المسلم الى الندم على ايمانه بدينه ، ولكنه قد حدث منه مرارا مايدعوه الى الندم على التفريط فى أوامر هذا الدين القويم ونواهيه

***

ولعله من علامات الخير أن تدول الدول وأن يذهب ما أفسدت من أمور الدين والدنيا وتبقى للمسلم عقيدته فى حقوق أمته مصونة فى قلوب المحافظين والمجددين ، ملحوظة فى آراء الوادعين والثائرين ، يقول أشدهم محافظة ما يقوله أشدهم قلقا وثورة ، ويتلاقى الماضى والمستقبل لديهم أجمعين على كلمة سواء يسمعها من شاء بعد أربعة عشر قرنا كما سمعها أسلافه قبل اربعة عشر قرنا فى صدر الاسلام وأبان الدعوة المحمدية

يقول امام من أشهر الائمة المتأخرين بالمحافظة على القديم :

ان كتب الكلام ... « كلها مطبقة متفقة على أن منصب الخليفة والامام انما يكون بمبايعة أهل الحل والعقد وأن الامام انما هو وكيل الامة وأنهم هم الذين يولونه ملك السلطة وانهم يملكون خلعه وعزله وشرطوا لذلك شروطا أخذوها من الاحاديث الصحيحة . وليس لهم مذهب سوى هذا المذهب ... » (١)

---

(١) الشيخ محمد بخيت فى كتابه عن حقيقة الاسلام واصول الحكم

ولا يفوتنا فى ختام هذه الكلمة عن حقوق الامة أن ننبه الى حقيقة النسبة الى الامة حيثما وردت فى القـرآن الكريم . فان كتاب الله يعنى بهذه الكلمة أن الخطاب الالهى موجه الى الامم عامة لاتستأثر به أمة ولا تحجب عنه أمة خـلافا لمن قال من بنى اسرائيل ان « الامم » لاتتلقى خطابا من الله وانهم وحدهم ــ أمة اسرائيل ــ قد استأثروا بهذا الخطاب دون خلق الله.

ويدل على ذلك أن كلمـة « الاميين » قد وردت فى القرآن الكريم مقابلة لاهل الكتاب أو لاهل الكتاب من بنى اسرائيل خاصة فى غير موضع ، فالاميون قد وردت فى سورة آل عمران مرتين منسوبة الى كل أمة غير بنى اسرائيل :

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ »

(سورة آل عمران)

« وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ »

(سورة آل عمران)

***

وقد وردت بهذا المعنى حيث جاء فى القرآن الكريم أن الله « بعث فى الاميين رسولا » .. تكذيبا لدعوة الذين يزعمون أن الله تعالى لايخاطب الامم ، وتذكيرا لهم بأن الامة هى موضع الخطاب من الله كلما بعث اليها برسول

« وَإِن مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ » (سورة فاطر)

الأسـرة

الاسرة هى الامة الصغيرة ، ومنها تعلم النوع الانسانى أفضل أخلاقه الاجتماعية ، وهى فى الوقت نفسه أجمل أخلاقه وأنفعها ..

من الاسرة تعلم النوع الانسانى الرحمة والكرم ، وليس فى أخلاقه جميعا ماهو أجمل منهما وأنفع له فى مجتمعاته

فالرحمة فى اللغة العربية من الرحم أو القرابة ، وهى كذلك فى اللغات الهندية الجرمانية . لان كلمة « كايند kind مأخوذة كذلك من الرحم ، وكلمة الطفل التى تتمثل الرحمة كلها فى العطف عليه مأخوذة منها ..

والكرم فى اللغة العربية مأخوذ من النسب الصريح الذى لا هجنة فيه ، وهو فى اللغات الهندية الجرمانية مأخوذ كذلك من « الجانر » Genre ... والمنسوب اليها هو الكريم ..

واذا تتبعنا سائر الفضائل والمناقب الخلقية المحمودة بلغنا بها فى أصل من أصولها على الاقل مصـــدرا من مصادر الحياة فى الاسرة . فالغيرة والعزة والوفاء ورعاية الحرمات كلها قريبة النسب من فضائل الاسرة الاولى ، ولاتزال من فضائلها بعد تطور الاسرة فى أطوارها العديدة منذ عشرات القرون ..

ولا بقاء لما كسبه الانسان من أخلاق المروءة والايثار اذا هجر الاسرة وفكك روابطها ووشائجها

فمن عادى الاسرة فهو عدو للنوع الانسانى فى ماضيه ومستقبله . ولا يعادى الاسرة أحد الا تبينت عداوته للنوع الانسانى من نظرته الى تاريخ الاجيال الماضية . كأنه ينظر الى عدو يضمر له البغضاء ويهدم كل ما أقامه من بناء ..

وما من سيئة تحسب على الاسرة بالغة ما بلغت سيئاتها من الكثرة والضرر هى مسوغة لمحب بنى الانسان أن يهدم الاسرة من أجلها ويعفى على آثارها ..

فحب الاسرة — حقا — قد سول للناس كثيرا من الجشع والاثرة ، ومن الجبن والبخل ، ومن الكيد والاجرام ..

وكذلك حب الانسان نفسه قد فعل هذا فى العالم الانسانى وزيادة ..

ولكننا لانمحو الانسان ولا نمحو الاسرة من أجل الاثرة وأضرارها . وانما نمحو الاثرة ما استطعنا ونوفق بينها وبين الايثار غاية ما يستطاع التوفيق بين الخليقتين ، ونفلح فى ذلك مع الزمن لاننا أفلحنا كثيرا فى تعميم روابط الاسرة الصغيرة بين أبناء الاسرة الكبيرة ، وهى الامة ، ولاننا أفلحنا كثيرا فى تعميم المنافع والمرافق من هذه المثابة فضلا عن المناقب ومكارم الاخلاق . فلولا الاسرة لم تحفظ صناعة نافعة توارثها الابناء عن الآباء ثم توارثها أبناء الامة جمعاء ، ولولا الاسرة ما اجتمعت الثروات التى تفرقت شيئا فشيئا بين الوارثين وغير الوارثين من الاعقاب ، ولولا الاسرة لاستجاب لدعوة الهدم والتخريب كل من لا خلاق له من حثالات الخلق ونفاياتهم فى كل جماعة بشرية . فالاسرة هى التى تمسك اليوم ما بناه

النوع الانسانى فى ماضيه ، وهى التى تؤول بهغدا الى أعقابه وذراريه حقبة بعد حقبة وجيلا بعد جيل ..

لا امة حيث لا أسرة ..

بل لا آدمية ، حيث لا أسرة ..

ولن ينسى الناس أنهم أبناء آدم وحواء الا نسوا أنهم أبناء رحم واحد وأسرة واحدة ، كائنا ما كائن تأويلهم لقصة آدم وحواء ..

ومتى علمنا أن واجب الانسان لبنى نوعه فى الاسلام ـ انما هو واجب الاسرة الكبرى التى جمعت أخوة الشعوب والقبائل لتتعارف بينها ، فقد علمنا شأن الاسرة فى هذا الدين وعلمنا ان قرابة الرحم والرحمة حجة القرابة بين الاخوة من أبناء آدم وحواء ، وأنها هى شفاعة كل انسان عند كل انسان ..

***

تقوم الاسرة فى الاسلام على أنها كيان دائم تراد له السعة والامتداد والوئام ..

وتتحقق سعة الاسرة وامتدادها ووئامها بنظامين من النظم التى شرعها لها الاسلام ، وهما نظام المحارم فى الزواج ونظام الميراث ..

فالاسلام يحرم الزواج بالاقربين ولا يبيح من ذوى القرابة الا من أوشكوا ان يكونوا غرباء ، فالزواج يجمع منهم فى الاسرة من أوشكوا أن يتفرقوا كأبناء العمومة والخؤولة ..

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ

وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَاقَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً » (سورة النساء)

والمقاصد من هذا التحريم منوعة لانحصيها فى هذا المقام ، أجلها وأجداها توسعة الاسرة ووقايتها من شواجر الخصومة والبغضاء ، وأن يتحقق بالزواج من أسباب المودة والنسب مالم يتحقق بالقرابة ، فيرجع الى الاسرة من أوشك أن ينفصل عنها ، ويحرم الزواج بذوى القرابة الحميمة التى لا حاجة بها الى توثيق النسب والمصاهرة ، وهما فى القرآن الكريم من آيات خلق الانسان كما جاء فى سورة الفرقان :

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً » (سورة الفرقان)

ويشرع الاسلام نظام الميراث لان الاسرة كيان يعيش ويتصل بعد انقضاء أعمار أعضائه . ولا اعتراض على نظام الميراث من وجهة النظر الى طبائع الاحياء ولا من

وجهة النظر الى المصلحة الاجتماعية ، فان الابناء يرثون من آبائهم ما أرادوه وما لم يريدوه ، وحق لهم أن يرثوا ماخلفوه من عروض كما ورثوا عنهم ماخلفوه من خليقة لا فكاك منها ، ولا غبن على المجتمع فى اختصاص الابناء بثمرة العمل الذى توفر عليه الآباء ، لان هذه الثمرة اذا بقيت فى المجتمع كان الورثة أحق بها من سواهم ، وكان الغبن فى النهاية أن يتساوى العامل لغده والعامل الذى لاينظر الى غير يومه وساعته ، أو يتساوى من يعمل ويبنى للدوام ومن لايعمل ولا يبالى مايصيب المجتمع بعد يومه الذى يعيش فيه

***

ويتحقق وئام الاسرة وامتدادها بما فرضه الاسلام من حقوق لكل عضو من أعضائها ، فلا حق لانسان على انسان أعظم من حق الآباء والامهات فى الاسلام على الابناء والذرية . وبحسبك أنه كاد أن يكون البر بهم مقرونا بالايمان بوحدانية الله

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) (سورة الانعام)

وكادت الطاعة لهم الا يسبقها واجب غير واجب الطاعة للاله المعبود

(وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ

جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) (سورة لقمان)

***

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

(سورة الاسراء)

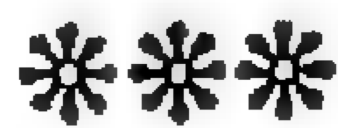
وفى القرآن الكريم غير الوصايا فى هذه الآيات وصايا مثلها تذكر كلما ذكر الوالدان ، وفيه من الآيات ما يتصل به شكر الانسان لنعمة الله على ابويه بدعائه الى الله أن يصلح له ذريته وان يلهمه العمل الذى تصلح به حياته الباقية

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة الاحقاف)

وربما سبق الى الخاطر فى عصرنا هذا أن البر بالابناء لا يحتاج الى وصية دينية كوصية الابناء بالآباء ، لما ركب فى طباع الاحياء من حب البنين والرقة لصغار الاطفال على العموم . الا أن أحوال الامم وأحكام شرائعها قبل الاسلام تنبىء عن مسيس الحاجة الى هذه الوصية ، لان أخطاء العرف الشائع فيها كانت أشد من أخطاء العرف الشائع فى معاملة الابناء للآباء .. فكان الولد فى شريعة الرومان بمثابة العبد الذى يملكه والده ويتصرف فيه برأيه فى كل ما يرتضيه له قبل بلوغ رشده ، وكانت شريعة حمورابى توجب على الاب الذى يقتل ولدا لغيره أن يقدم ولده لابى القتيل يقتص منه بقتله ، وكان اليهود يقتلون الابناء والبنات مع أبيهم اذا جنى الاب جناية لم يشتركوا فيها ولم يعلموها ، ومن ذاك ما فى الاصحاح السابع من كتاب يشوع حين اعترف عخان بن زارح بسرقة الرداء النفيس والفضة :

« فأرسل يشوع رسلا فركبوا الى الخيمة واذا هى مطمورة فى خيمته والفضة تحتها . فأخذوها من وسط الخيمة وأتوا بها الى يشوع والى جميع بنى اسرائيل وبسطوها أمام الرب . فأخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع اسرائيل معه وصعدوا بهم الى وادى عجور فقال يشوع: كيف كدرتنا يكدرك الرب فى هذا اليوم. فرجمه جميع بنى اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورجموهم بالحجارة واقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة الى هذا اليوم. فرجع الرب عن حمو غضبه ولذلك دعى اسم ذلك المكان وادى عجور الى هذا اليوم »



أما عرب الجاهلية الذين نزل فيهم القرآن الكريم فقد أبيح بينهم قتل الاولاد وجرت بينهم شريعة الثأر من الابن بذنب أبيه مجرى العرف المحمود . فلما جاء الاسلام أثبت للولد حقا فى الحياة والملك كحق أبويه ،

وشرع له من مولده حقوق الرضاع والحضانة ، وكان أبر بالابناء من آبائهم وأمهاتهم ، لانه كان يأخذ العهد عليهم ألا يقتلوا أبناءهم ويحميهم مما لا يحتمون منه بحنـــان الابوة والامومة ..

***

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَلاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ) (سورة الممتحنة)

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ)

(سورة الانعام)

وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) (سورة الاسراء)

***

أما حقوق الاسرة من حيث الروابط الزوجية فقد جاء الاسلام فيها بالجديد الصالح واقام حقوق الزوجين على أساس العدل بينهما ، وأقام العدل على أساس المساواة بين الحقوق والواجبات ، وهى المساواة العادلة حقا فى هذا الموضوع . اذ كانت المساواة بين الذين لا يتساوون بأعمالهم وكفايتهم ظلما لا عدل فيه

ولم يهبط الاسلام بمنزلة المراة فى جانب من جــوانب حياتها العامة او حياتها البيتيـة التى وجدها عليها ، ولكنه ارتفع بها من الدرك الذى هبطت اليه فى الحضارة الغابرة

وعقائد الأمم التى تأثرت بتلك الحضارات قبل ظهوره ، وكلها لم تكن على حالة مرضية فى بلاد العالم المعمور

كانت المرأة فى الحضارة الرومانية تابعا له حقوق القاصر أو ليست له حقوق مستقلة على الاطلاق

وكانت فى الحضارة الهندية عائقا للخلاص من دولاب الحياة الجسدية ، وخلاص المرء مرهون « بالموكشا » أى بالانفصال عنها ، وكان حقها فى الحياة منتهيا بانتهاء أجل الزوج ، تحرق على جدثه عند وفاته ولا تعيش بعده الا حاقت بها اللعنة الأبدية وتحاماها الآل والأقربون

وكان للمرأة فى الحضارة المصرية القديمة حظ من الكرامة يجيز لها الجلوس على العرش ويبوئها مكان الرعاية فى الاسرة ، ولكن الامة المصرية كانت من الامم التى شاعت فيها عقيدة الخطيئة بعد الميلاد وشاع فيها مع اعتقاد الخطيئة الابدية ان المرأة هى علة تلك الخطيئة وخليفة الشيطان وشرك الغواية والرذيلة ، ولا نجاة للروح الا بالنجاة من أوهاقها وحبائلها

وكانت معيشة البداوة فى الجاهلية العربية تمنح المرأة بعض الحرية لانها كانت عضوا نافعا فى تلك المعيشة البدوية تسقى وترعى وتنسج وتستخرج الطعام من الالبان والثمرات ، ولكن هذه المعيشة البدوية نفسها كانت ترغب الآباء فى ذرية البنين وتزهدهم فى ذرية البنات ، لأن البنين جند القبيلة وحماة حوزتها وعدتها فى شن الغارات والتأهب لردها ، فلم يكن أبغض الى الاب من خبر يأتيه بمولد انثى ولو كان ذا وفر ووفرة ، ومنهم من كان يئد البنات أشفاقا من العار ان لم يئدهن خشية املاق ، والى ذلك يشير القرآن الكريم حيث جاء فى سورة النحل

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة النحل)

وتكررت الاشارة اليه حيث جاء فى سورة الزخرف بعد تسفيه الذين جعلوا للرحمن جزءا من عباده :

(... أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

(سورة الزخرف)

فلما بعث النبى صلوات الله عليه بالدعوة الاسلامية لم تكن للمراة منزلة مرضية ولا حقوق مرعية فى وطن من أوطان الحضارة أو البداوة ، فرخص الاسلام عنها هـذه الوصمة وخولها من الحقوق ما يساوى حقوق الرجل فى كل شىء الا فى حق القوامة :

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

(سورة النساء)

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

(سورة البقرة)

وهذا الذى عنيناه بالمساواة بين الحقوق والواجبات لأن المساواة بين الرجل والمرأة فى جميع الكفايات والاعمال امر لم يقم عليه دليل من تكوين الفطرة ولا من تجارب الامم ولا من حكم البداهة والمشاهدة ، بل قام الدليل على نقيضه فى جميع هذه الاعتبارات . ولم تتجاهل الامم فوارق الجنسين الا كان تجاهلها لها من قبيل تجاهل الطبيعة التى تضطر من يتجاهلها الى الاعتراف بها بعد حين ، ولو من قبيل الاعتراف بتقسيم العمل بين جنسين لم يخلقا مختلفين عبثا بعد ان غبرت عليهما الوف السنين وأحرى أن يكون طول الزمن مع تطور الاحوال الاجتماعية سببا لاختصاص كل منهما بوظيفة غير وظيفة الجنس الآخر ، ولا سيما فى الخصائص التى تفترق فيها كفاية الحياة البيتية وكفاية الحياة الخارجية ، فان طول الزمن لا يلغى الفوارق بل يزيدها ويجعل لكل منها موضعا لا يشابه سواه ..

ان تكوين الفطرة فى مسألة النسل التى هى قوام حياة الاسرة يفرق بين الذكر والانثى تفرقة لاسبيل الى الاغضاء عنها فى حياة النوع الانسانى على الخصوص . فان وظيفة النسل طليقة فى الرجل يصلح لها ما صلحت بنيته طول حياته الى السبعين وما بعد السبعين ، ووظيفة التناسل فى المرأة مقيدة بالحمل مرة واحدة فى كل عام وقلما تصلح لها المرأة بعد الخامسة والاربعين او الخمسين فى أكثر الاحوال ..

وفى تجارب الامم شواهد ملموسة على الفارق الاصيل بين الجنسين فى الكفاية العقلية والكفاية الخلقية . فان المرأة على العموم لا تساوى الرجل فى عمل اشتركا فيه ، ولو كان من الاعمال التى انقطعت لها المرأة منذ عاش الجنسان فى معيشة واحدة . لا تطبخ كما يطبخ ولا تتقن

الازياء كما يتقنها ولا تبدع فى صناعة التجميل كما يبدع فيها ولا تحسن أن ترثى ميتا عزيزا عليها كما يرثى موتاه ، وهى منذ بدء الخليقة تردد النواح وتنفرد بأكثر مراسم الحداد . ومن اللغو ان يقال ان هذه الفوارق انما نجمت من عسف الرجل واستبداده ، فان الرجل لم يكن ينهى المرأة أن تطبخ وأن تخيط الثياب وأن تتزين أو ترقص أو تترنم بالاغانى والاناشيد ، ولو أنه نهاها فاستطاع ان ينهاها فى بيتها وفى الدنيا الرحيبة لقد كان ذلك منه دليلا على غلبة العقل والارادة لا ريب فيه

وندع الارادة فى كل شىء ونتأمل الغريزة الجنسية المركبة فى اناث جميع الانواع . فهل من المجهول الخفى أن الانثى تكتم ارادتها ولا تجهر بها وأنها تتصدى للذكر حتى يلتفت اليها ؟ وهل من المجهول الخفى أن أصوات الذكور تغلظ وتقوى بعد بلوغ النضج لانفرادها بالدعاء الجنسي واقتران هذا الدعاء بالنمو فى كل قوة تكفل لها الغلبة والسبق فى صراع الانتخاب الجنسي ؟ وهل مما يستطاع ادعاؤه هنا أن هذه الفوارق الاصيلة قد خلقها ذكور الحيوان ولم تكن عن حكمة عميقة فى بنيان الجنسين . ينقاد اليها الذكور كما ينقاد اليها الاناث ؟

واذا اعتبرنا مسألة القوامة من وجهة « ادارية » بحت واعتبرنا ان الاسرة هيئة لا غنى لها عن قيم يتولاها فمن يكون هذا القيم من الزوجين ؟ اتكون القوامة للمرأة أم تكون للرجل ؟. اتكون حقوق الابناء فى ذمتها أم تكون فى ذمته ؟ ..

ان هذه الامور من وقائع الحياة التى لا ترحم من يتجاهلها ولا تحلها تحيات الاندية ولا جعجعة الفروسية الكاذبة فى بقاياها المتخلفة من عصورها المنقرضة ، وما كان للمرأة فى أحسن حالاتها فى تلك العصور المنقرضة

من مكانة غير مكانة العشيقة في قصص الغرام .. كأنما هى مباهاة الفارس بشجاعته تعلو به فى كل موقف له مع المخلوقة الضعيفة ان يكون كموقفه مع الانداد والنظراء

ولا نحب ان نغضى عن البـــاعث الذى يتذرع به من ينكرون قوامة الرجل لادعاء المساواة بين الجنسين . فانهم يتذرعون لدعواهم هذه باضطرار المرأة الى الكدح لنفسها أحيانا فى ميدان العمل طلبا للقوت ولوازم المعيشة فهذه ولا مراء حالة واقعة تكثر فى المجتمعات الحديثة كلما اختلت فيها وسائل العيش وتأزمت فيها اسباب الكفاح على الارزاق . ولكننا نراهم كأنهم يحسبونها حالة حسنة يبنون عليها دعائم المستقبل ولا يحسبونها حالة سـيئة تتضافر الجهود على اصلاحها وتدبير وسائل الخلاص منها، وما هى فى الواقع الا كالحـالة السيئة التى دفعت الآباء والامهات الى الزج بأطفالهم فى ميدان الكفاح على الرزق فأنكرتها القوانين وحرمتها أشد التحريم ، ولم تجعلهـا حجة تسوغ بقاءها وتقيم عليها ما تستتبعه من النظـم الحديثة فى الاسرة أو فى الحياة الخارجية

واذا أعطيت هذه الاعتبارات قسطها من الجد والروية صح لدينا ان الاسلام قد جاء بالهداية الصالحة فى تقرير مكان المرأة من الاسرة بالقياس الى الحالة التى كانت عليها قبل الدعوة الاسلامية ، وبالقياس الى الحالات التى يحتمل ان تؤول اليها فى جميع الظروف والعوارض الاجتماعية . اذ رفعها الاسلام من الهوان الذى ران عليهـا من ركام العادات الخالية ، وأقام حقوقها الزوجية على الاساس الذى يحسن فى جميع الاحوال ان تقام عليه

ان الاسلام لم يمنع الاكتفاء بزوجة واحـــدة بل استحسنه وحض عليه ، ولم يوجب تعدد الزوجـات بل أنكره وحذر منه ، ولكنه شرع لأزواج يعيشون على الارض

ولم يشرع لازواج تعيش فى السماء ، ولا منـــاص فى كل تشريع من النظر الى جميع العوارض والتقـــدير لجميع الاحتمالات ، وفى هذه الاحتمالات ولا ريب ما يجعل اباحة التعدد خيرا وأسلم من تحريمـــه بغير تفرقة بين ظروف المجتمع المختلفة او بين الظروف المختلفة التى يدفع اليهــا الازواج ..

***

وينبغى أن ننبه الى وهم غالب بين الجهلاء والمتعجلين من المثقفين عن سنن الاسـلام فى تعـدد الآزواج قبــل الاسلام .. اذ الغالب على أوهامهم أن الاسلام هو الدين الوحيـد الذى أباح تعـدد الزوجات أو انه أول ديـن أباحه بعد الموسوية والمسيحية

وليس هذا بصحيح كما يبـدو من مراجعة يسـيرة لاحـكام الـزواج فى الشرائع القديمة ، وفى شرائع اهل الكتاب . فلا حجر على تعدد الزوجات فى شريعة قديمة سبقت قبل التوراة والانجيل . ولا حجـر على تعـدد الزوجات فى التوراة او فى الانجيل ، بل هو مباح مأثور عن ألانبياء أنفسهم من عهد ابراهيم الخليل الى عهد الميلاد، ولم يرد فى الاناجيل نص واحـد يحرم ما أباحه العهـد القديم للآباء والانبياء ولمن دونهم من الخاصة والعامة ، وما ورد فى الاناجيل يشير الى الاباحة فى جميع الحالات والاستثناء فى حالة واحـدة . وهى حالة الاسقف حين لا يطيق الرهبانية فيقتنع بزوجة واحـدة اكتفـاء باهون الشرور . وقد استحسن القديس أوغسطين أن يتخـذ الزجل سرية مع زوجته اذا عقمت هذه وثبت عليهــا العقم ، وحرم مثل ذلك على الزوجة اذا ثبت عقم زوجها لان الاسرة لا يكون لها سيدان (١) واعترفت الكنيســة

(١) كتاب الزواج الامثل Bono Conjugali

بأبناء شرعيين للعاهل شرلمـان من عـدة زوجات ، وقال وستر مارك Westermark العالم الثقة فى تاريخ الزواج أن تعـدد الزوجات باعتراف الكنيسـة بقى الى القرن السابع عشر وكان يتكرر كثيرا فى الحالات التى لاتحصيها الكنيسـة والدولة ، وعرض جروتيوس Grotius العالم القانونى المشهور لهذا الموضوع فى بحث من بحوثه الفقهية فاستصوب شريعة الآباء العبرانيين والانبياء فى العهـد القـديم

فالاسلام لم يأت ببدعة فيما أباح من تعدد الزوجات ، وانما الجديد الذى أتى به انه أصلح ما أفسدته الفوضى من هذه الاباحة المطلقة من كل قيد ، وأنه حسب حساب الضرورات التى لا يغفل عنها الشارع الحكيم ، فلم يحرم أمرا قد تدعو اليه الضرورة الحازبة ويجـوز أن تكون اباحته خيرا من تحريمه فى بعض ظروف الاسرة او بعض الظروف الاجتماعية العامة

أما أن هذه الظروف قد تضـطر أناسـا الى الزواج بأكثر من واحدة فالامر فيها موكول الى الذين يعـانون تلك الضرورات من الرجال والنساء ، ومن تلك الضرورات أن يحتفظ الرجل بزوجته عقيمـا أو مريضـة لا يريد فراقها ولا تريد فراقه ، ومنها أن يتكاثر عدد النساء فى أوقات الحروب والفتن مع ما يشـاهد من زيادة عـدد النساء على عـدد الرجال فى كثـير من الاوقات ، فاذا رضيت المرأة فى هـذه الاحوال أن تتزوج من ذى حليلة فذلك أكرم لها من الرضا بعلاقة الخليلة التى لا حقوق لها على زوجها وأكرم لها كثيرا من الرضا بابتذال الفاقة أو بذل النفس فى سوق الرذيلة

ومن حسنات التشريع فى جميع هذه الضرورات أنه يحسب حسـابها ولا ينسى الحيطة لاتقـاء ما يتقى من

أضرارها ومن سوء التصرف فيها .. وكذلك صنع الاسلام بعد اباحة تعدد الزوجات للضرورة القصوى ، فانه اشترط فيه العدل ونبه الرجال الى صعوبة العدل بين النساء مع الحرص عليه :

(فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) (سورة النساء)

(وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ)
(سورة النساء)

واشترط على الازواج القدرة على تكاليف الحياة الزوجية والتسوية فى السكن والرزق بينهم وبين الزوجات ...

(... أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ)
(سورة الطلاق)

(... وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بالمعْرُوفِ)
(سورة البقرة)

ولا يسقط عن الزوج واجب الاحسان فى المعاملة سواء اتصلت بينه وبين حليلته آصرة الزواج أو انتهت بينهما هذه الآصرة الى الفراق بغير رجعة :

(الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ)
(سورة البقرة)

بل لا يسقط عنه هذا الواجب حتى فى حالة الطلاق بعد زواج لم تنعقد فيه الصلة بين الزوجين :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ المؤمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً)

(سورة الاحزاب)

وهناك حيطة تعدل سلطان التشريع كله فى أمر تعدد الزوجات ، لانها تكل القول الفصل فيه الى اختيار المرأة فان شاءت قبلته وان لم تشأ رفضته فلا يجوز اكراهها عليه ولا يصح الزواج اذا بنى على الاكراه

وفى الحديث الشريف :

« لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن »

وفيه : « ان الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأمر واذنها سكوتها »

وقد أبطل النبى عليه السلام زواجاً اكرهت فيه فتاة بكر على الزواج بأمر أبيها لمصلحة له فى زواجها بابن أخيه ، وحدثت عائشة رضى الله عنها فيما رواه النسائى : « أن فتاة دخلت عليها فقالت : ان أبى زوجنى من ابن اخيه يرفع لى خسيسته وانا كارهة ، فقالت : أجلسى حتى يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأرسل الى أبيها فدعاه فجعل الامر اليها فقالت : يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبى ولكن أردت ان اعلم النساء ان ليس للاباء من الامر شيء »

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فيما رواه أحمد وأبو داوود وابن ماجة « ان جارية بكرا أتت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة فخيرها رسول الله ... »

وعلماء الفقه متفقون على أن للمرأة الرشيدة أن تلى جميع العقود بنفسها وأن توكل فيها من تشاء ولا يعترض عليها ، وأنها أحق من وليها بالامر فى عقود الزواج اذا خالفها ولم يستأمرها

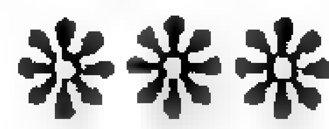
ولا حرج على المرأة فى تشريع تعدد الزوجات متى كان الرأى فيه موكولا الى مشيئتها تأبى منه ما تأباه وتقبل منه ما لا ترى فيه غضاضة عليها أو ترى أنه ضرورة أخف لديها من ضرورات تأباها ..

ثم يأتى العرف الاجتماعى فيتولى تنظيم التشريع فوق هذه الولاية الموكولة الى الزوجات ، وان العرف الاجتماعى ليقدر فى هذه الشئون على تنظيم أقوى من كل سلطان ، ومن أمثلة التنظيم الذى يتولاه العرف كما قلنا فى غير هذا الكتاب : « انه يحد من رغبات الطبقة الغنية فى هذه المسألة كما يحد من رغبات الطبقة الفقيرة فيها على اختلاف أنواع الحدود . فالطبقة الغنية أقدر على الانفاق وأقدر من ثم على تعدد الزوجات ، ولكن الرجل الغنى يأبى لبنته أن تعيش مع ضرة أو ضرائر متعددات ، والمرأة الغنية تطلب لنفسها ولابنائها نفقات ترتفع مع ارتفاع درجة الغنى حتى يشعر الاغنياء أنفسهم بثقلها اذا تعددت بين زوجات كثيرات . فلا ينطلق الغنى فى رغباته على حسب غناه ، بل يقيم له العرف حدودا وموانع من عنده تكف من رغباته لتثوب به الى الاعتدال ولهذا نرى فى الواقع أن الطبقات الغنية تكتفى بزوجة واحدة فى معظم الاحيان . وربما كان للاختيار نصيب

من ذلك كنصيب الاضطرار . لان الاغنياء يستوفون حظوظهم من العلم والثقافة فيدركون بلطف الذوق مزايا العطف المتبادل بين زوجين متكافئين فى الكرامة والشعور

« والطبقة الفقيرة لا ترفض المرأة فيها ما ترفضه المرأة الغنية من معيشة الضرائر ، ولكن العجز عن الانفاق يمنعها أن تنطلق مع الرغبة كما تشاء ، فلا تستبيح تعديد الزوجات بغير حدود . وهكذا تقوم الشريعة فى تعدد الزوجات بما عليها ويقوم العرف الاجتماعى بما عليه ، ويقع الالزام حيث ينبغى أن يقع مع الرغبة والاختيار (١) »

ومما يعمله العرف الاجتماعى فى أحوال الضرورة أن يكون الزوج غنيا وأن تكون المرأة المرغوب فيها من الطبقة الفقيرة ، ففى هذه الحالة ترغب المرأة المخطوبة فى قبول تعدد الزوجات باختيارها أو تضطر اليه تطلعا منها الى معيشة أحب من معيشتها ، فلا تزال الضرورة فى هذه الحالة أكرم لها من ضرورة تغريها بالتفريط فى العرض طمعا فى المال



على أن العرف الاجتماعى ـ مع سلطانه الغالب ـ قد يستفيد من روح الدين وحكمة التشريع فوق ما يستفيده من نصوصه فى أوامره ونواهيه . وروح الدين الاسلامى التى سرت الى العرف فى المجتمعات الاسلامية أن الزواج رحم ومودة وسكن

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم)

---

(١) كتاب الفلسفة القرآنية للمؤلف

فلا زواج بغير مودة ورحمة ، ولا حكمة للزواج ان لم يكن ملاذاً يأوى منه الزوجان معا الى سكن يلقيان عنده أعباء الصراع العنيف فى الحياة الخارجة الى حين . وخير الزواج ما استطاع أن يدبر للانسان كهفا أمينا يثوب اليه كلما ألجأته المتاعب والشواغل الى ظلاله . وانه ليعيش من الدنيا فى جحيم موصول العذاب ان لم يكن له فيها ذلك الكهف الامين وذلك الملجأ الحصين .. فان عز عليه أن يجده كما أراده فليس ذلك بحجة على أن حياة الجحيم هى الحياة المثلى وان كهوف الامان ليست بالمطلب الجدير بالطلب والصيان

ومن قديم الزمن هيأت الامومة طبيعة المرأة لتدبير ذلك السكن وتزويده بزاد المودة والرحمة . ومن أراد أن يتكلم بلغة « الاستغلال » والانتفاع بالفرص فله أن يقول ان النوع الانسانى خليق أن يستغل الفوارق بين طبيعتى الجنسين لينتفع بكل منهما غاية ماينتفعه فى موضعه وبحاله . وليكن ذلك من قبيل تقسيم العمل وتخصيص كل طبيعة لما يناسبها ولا يكن خصومة على دعاوى المساواة أو الرجحان . فما خلق الجنسان ليكون كل منهما مساويا لصاحبه فى طراز واحد من المزايا والملكات ، وانما خلقت لكل منهما مزاياه وملكاته ليكمل بها صاحبه ويزيد بها ثروة النوع كله من خصائص النفس وألوان الفهم والشعور

وعلى هذه السنة الطبيعية الاجتماعية ، من تقسيم العمل واتقان كل عامل لضرب من ضروبه يتعاون الزوجان كل فيما هو أصلح له من مطالب الحياة : على الرجل شطر الكفاح فى سبيل الرزق وكفاية أهله مئونة الكدح فى مضطرب الزحام والصراع ، وعلى المرأة شطر السكن الامين وكلاءة الجيل المقبل فى نشأته الاولى ، وليس

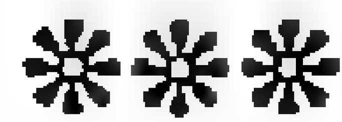
بالشطر الزهيد حضانة الغد واعداد مستقبل الانسانية مرحلة بعد مرحلة على الدوام

***

وتحتوى الشريعة الاسلامية تفصيلا مسهبا عن حقوق كل من الزوجين قبل الآخر وقبل الاسرة فى مجموعها ، وكلها تتجه الى هذه الغاية المقصودة من اقامة الاسرة على المودة والرحمة ، ولا ينحرف عنها حق من الحقوق عن هذه الغاية بلا استثناء حق التأديب لرب الاسرة . فان حق التأديب لاينفي المودة والرحمة ولم ينفهما فيما هو أمس بالمودة والرحمة وهو تربية البنين وتربية المتعلمين ، وتخويل رب الاسرة حق التأديب بدل من احوال كثيرة كلها غير صالح وكلها غير معقول فى شئون القوامة البيتية، فاما أن يكون لرب الاسرة هذا الحق فى معظم الشئون البيتية واما أن يستغنى عن التأديب فى الاسرة أو يوكل التأديب فيها الى دور الشرطة والقضاء فى كل كبيرة وصغيرة تعرض للزوجين على الرضا والغضب والجهر والنجوى . هذا أو يكون التأديب المسموح به أن ينصرم حبل الزواج وأن ينهدم بناء البيوت على من فيها من الآباء والامهات والبنين

ولا يخفى أن عقوبات التأديب انما توضع للمسيئات والمسيئين ولا توضع لمن هم غنيون عن التأديب متورعون عن الاساءة ، وليس من أدب التشريع أن تسقط الشرائع حساب كل نقيصة تسترذلها وتأنف منها ، فما دامت النقيصة من النقائص التى تعرض للانسان ولو فى حالة من ألوف الحالات فخلو التشريع منها قصور يعاب على الشريعة ولا يمتنع به الضرر الواقع من تلك النقيصة . ولو حذف من القوانين كل عيب تأنف من ذكره لما بقيت فى تلك القوانين بقية تستلزمها الضرورة الموجبة لبقائها .

اذ كانت العيوب التى لا تأنف الاسماع منها أهون الاضرار الاجتماعية وأغناها عن التشريع والعقاب



والادب العام ـ بعد ـ شيء غير عقوبات التأديب فى القانون . فالحياء يأبى للرجل الكريم أن يضرب امرأته وأن يعاملها بما يغض من كرامتها . ومما أنكره النبى عليه السلام غير مرة أن يضرب الرجل امرأته وهو يأنس اليها فى داره : « أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العير » ؟

الا أن الخلائق المستحسنة ـ خلائق الكرامة والحياء ـ ليست هى الخلائق التى توجب الحساب والعقاب وليست هى الخلائق التى يقف عندها التشريع وتبطل بعدها فرائض الزجر والمؤاخذة . فاذا وضعت العقوبات فى مواضعها فلا مناص من أن يحسب فيها الحساب للحميد والذميم من الاخلاق والعيوب ، بل لا مناص لحسبان الحساب للذميم خاصة لان الضرورة هنا ضرورة النهى والردع وليست ضرورة الثواب والتشجيع . وبين الوعظ والهجر والعقوبة البدنية تتفاوت العقوبات الزوجية فى الاسلام ثم يكون التحكيم أو الفراق :

(وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً . وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحاً

يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا انَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً) ..

(سورة النساء)

وانه لمن السخف الرخيص أن يقال ان جنس النساء قد برىء من المرأة التى يصلحها الضرب ولا يصلحها غيره ، ونقول انه سخف رخيص وخيم لانه ذلك السخف الذى يضر كثيرا ولا يفيد أحدا الا الذى يشترى سمعة الكياسة فى سوق الحذلقة « التقليدية » ويسميه الغربيون بينهم باسمه الذى هو به حقيق : وهو اسم الدعى المتحذلق Snols ولقد وجد هؤلاء فى أمم لم تستكثر عقوبة الجلد على كرامة الرجولة وكرامة الجندية ، وغبرت مئات السنين وهى تعلن القوانين التى توجب العقوبة البدنية لمن يخالفون الاوامر او النظم العسكرية ، وان لهم مع ذلك لمندحة من العقوبات المستطاعة فى المعاهد العامة كالحبس والتأخير وتنزيل الرتبة وقطع الاجور والحرمان من أنواط الشرف والفصل من الخدمة . فلولا أنها حذلقة خاوية لا تفيد أحدا ولا تدل على كياسة صادقة لما جاز فى عرف هؤلاء الادعياء أن تسرى عقوبة الجلد فى مؤاخذة الجنود وأن تمتنع بعد اخفاق الحيل جميعا فى عقوبة النشوز

ولم تترك هذه العقوبة على كراهتها بغير حدها المعقول الذى تمليه كل مشكلة بحسبها من الخلق المعهود فى آداب الزوجين ، وانما حدها الصالح أن تكون أصلح من الفراق وهدم بناء الاسرة فى تقدير الرجل والمرأة . فان لم تكن كذلك فهى المضارة التى توجب التحكيم بين الاسرتين ، أو توجب الطلاق بحكم الشريعة مرجعها الاخير الذى ينبغى أن يؤخر الى أقصاه بعد انقطاع الحيلة وذهاب الرجاء فى الوفاق ..

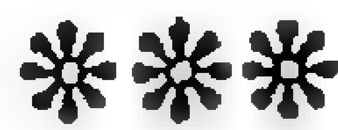
(وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) .

(سورة البقرة)

ويحق للمرأة عند نشوز زوجها واعراضها أن تلجأ الى حكم غير حكمه ترضاه قبل شكواها من أذى المضارة التى توجب الطلاق ..

(وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ)

(سورة النساء)



فاذا جاز لباحث يتوخى الصدق أن يعقب على تشريع الاسلام فمن واجبه أن يحمد لهذا التشريع أنه قدر للواقع حسابه وأحاط كل تقدير بما يستدعيه من الحيطة والضمان الميسور فى أمثال هذه العلاقات ، وان نظرة الشريعة الاسلامية الى حقوق المرأة من مبدئها قد كانت نظرة تصحيح لما سلف من الشرائع ، واتمام لما نقص فيها ..

فلم يكن للزواج حدود فى الشرائع الوضعية ولا فى الشرائع الدينية قبل الاسلام ، ولا كان فيها ما يعتبر شريعة واقية مقدرة لاحواله وضروراته عند المقارنة بينها وبين الشريعة الاسلامية

كانت المرأة كالرقيق فى قوانين الدولة التى كانت تسمى أم القوانين وهى الدولة الرومانية

وكانت حطاما يحرق بقيد الحياة على ضريح زوجهـا في الديانة البرهمية ..

وكانت ديانة العهد القديم تبيح لمن يشاء أن يتزوج ما يشاء بلا قيد ولا ضمان ، وبهذه الاباحة وردت فيـه أخبار ابراهيم ويعقوب وموسى وداود وسليمان

ثم جاءت المسـيحية فلم تنقض حكما من أحـكام الناموس في أمر الزواج . وسئل بولس الرسـول عن شرط الاسقف فكتب في رسالته الاولى الى تيموثاوس انه ينبغي أن يكون « بلا لوم بعل امرأة واحدة » وهو تخصيص لا موجب له لو كان هذا هو الحكم العام المرعى بين جميع المؤمنين بالدين

***

وظل آباء الكنيسة في الغرب يبيحون تعدد الزوجات ويعترفون بأبناء الملوك الشرعيين من أزواج متعددات ، فلما منعته بعد القرن السابع عشر على أثر الخلاف بينها وبين الملوك الخارجين عليها كانت حجة منعه أن الاكتفاء بالواحدة أخف الشرور لمن لا يقدر على الرهبانية ، ولم يكن منعه اكبارا لشأن المرأة يوم كان الخلاف بينهم على أنها ذات روح أو أنها جسد بغير روح ... ولم يكن بينهم خلاف يومئذ على أنها حبالة الشيطان ، أبعد ما يكون الانسان عنها أسلم مايكون .

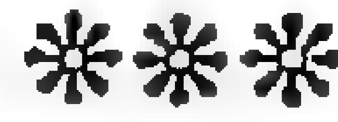
وبينما أمم الحضارة في اجماعها هذا على تلك النظرة الزرية الى المرأة كانت أمة الصحراء تقضي فيها قضاء لا خيار بينه وبين ماعداه : كانت تتشاءم بمولدها ولا تبالي أن تعاجلها بالدفن في مهدها ، مخافة العـار أو مخافة الاملاق

ومن تلك الزاوية النائية عن العالم تقبل عليه دعوة سماوية تنصفها من ظلم وترفعها من ضعة وتبسط لها

كنف المودة والرحمة وتنتزع لها من القلوب عدلا أعيى على الرؤوس ، وتقيد من مباح الزواج ما لم يقيده عرف ولا قانون ، وتجعل لها الخيار بين ما ترضاه منه وما تأباه، وتستجد لها حياة يستحى المنصف والمكابر أن يجحدا فضلها العميم على ماكانت عليه

وأما بعد هذا فماذا جاءت به القرون بعد القرون من زيادة لها على نصيبها من عدل الاسلام ؟ ..

خير مالها فى الاسلام لم يدركه خير مالها فى العصر الحديث ، وشر مايصيبها من الاسـلام رحمة ونعمـة بالقياس الى الشر الذى يسلمها العصر الحديث اليه ..



ولاتزال فضائل العصر الحديث فى حاضرها ومآلها دعوى لم يؤيدها ثبوت من حوادث الواقع ولا من مبادىء النظر ..

فأما حوادث الواقع فشكوى المرأة منها فى بيتها وفى دنياها كأسوأ ماكانت فى عهد من العهود ..

وأما مبادىء النظر فلا خير للمرأة أن تكون على مبدأ القرون الوسطى شيطانا يسلم الانسان ماسلم منه ، ولا خير لها أن تكون على مبدأ الفروسية الكاذبة ملكا فى مباذل السوقة ، ولا هى فى خير مع الناس حتى يقنعوا لها الطبيعة ــ ان استطاعوا ــ ويقنعوا أنفسهم قبلها أن المرأة والرجل ندان متساويان متعادلان ..

زواج النبى

يندر أن يطرق خصوم الاسلام موضوع الزواج دون ان يعرجوا منه الى زواج النبى ويتذرعوا به الى القدح فى شخصه الكريم والتشكيك من ثم فى دعوته المباركة ودينه القويم ..

وللاسلام خصوم محترفون وخصوم ينكرونه على قدر جهلهم به وبسيرة نبيه عليه السلام

ولا خفاء بخصومه المحترفين .. فهم جماعة المبشرين الذين اتخذوا القدح فى الاسلام صناعة يتفرغون لهـا ويعيشون منها ، وصناعتهم هذه لا تصطنع عملا لها اهم واخطر من عملها فى تبشير المسلمين او الوثنيين واشباه الوثنيين لكيلا يتحولوا من الوثنية الى الاسلام . فلا غنى لاصحاب هذه الخصومة – او هذه الحرفة – من اختلاق المآخذ وتصيد التهم التى تجرى بها أرزاقهم وتتصل بهـا أعمالهم ، سواء عرفوا الحقيقة من وراء هذه المآخذ وهـذه التهم أو جهلوها وأعرضوا عن البحث فيها ، لانهم يريدون الاتهام ولا يستريحون الى معرفة تهدم كل ما عملوه وتصرفهم عن كل ما ألفوه وعقدوا النية عليه

أما خصوم الاسلام من غـير زمرة المبشرين فأكثرهم يخاصمونه على السماع ، ولا يعنيهم ان يبحثوه ولا أن

يبحثوا دينا من الاديان حتى الدين الذى آمنوا وشــبوا من حجور أمهاتهم عليه • وقليل من اولئك الخصــوم غير المحترفين من يتلفق الدراسات الاسلامية تلفقا لايفيـد الدارس ولا يبتغى منه الا ان يعلم ما تعلمه لطائفـــة من التلاميذ يكفيهم منه أن يعرف من أخبار الاســلام مالم يعرفوه • وبعض هؤلاء الدارسين المدرسين حسن النيـة لا يأبى أن يعترف بالحقيقة اذا استمع اليها ، وبعضهم سيء النية لانه مسخر فى خدمة الاستعمار وما اليها من الدعايات الدولية ، فلا يعنيه من المعرفة الا ما يملى له فى عمله ويمهد لدعايته ••

وما اتفق خصوم الاسلام عن سوء نية على شيء كما اتفقوا على خطة التبشير فى موضوع الزواج على الخصوص فكلهم يحسب أن المقتل الذى يصاب منه الاسلام فى هذا الموضوع هو تشويه سمعة النبى عليه السلام ، وتمثيله لاتباعه فى صورة معيبة لا تلائم شرف النبوة ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق فى طلب الاصلاح ، وأى صورة تغنيهم فى هذا الغرض الاثيم كما تغنيهم صورة الرجل الشهوان الغارق فى لذات الجسد العازف فى معيشته البيتية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح

انهم لعلى صواب فى الخطة التى تخيروها لاصابة الاسلام فى مقتله من هذا الطريق الوجيز ••

وانهم لعلى أشد الخطأ فى اختيارهم هذه الخطة بعينها ، اذ أن جلاء الحقيقة فى هذا الموضوع أهون شيء على المسلم العارف بدينه المطلع على سيرة نبيه ، فاذا بمقتلهم المظنون حجة يكتفى بها المسلم ولا يحتاج إلى حجة غيرها لتعظيم نبيه وتبرئة دينه من قالة السوء الذى يفترى عليه

فلا حجة للمسلم على صدق محمد عليه الســـلام فى

رسالته أصدق من سيرته في زواجه وفي اختيار زوجاته، وليس للنبوة من آية أشرف من آيتها في معيشة نبي الاسلام من مطلع حياته الى يوم وفاته

ما الذي يفعله الرجل الشهوان الغارق في لذات الجسد اذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغه محمد بين قومه ؟

لم يكن عسيرا عليه أن يجمع اليه أجمل بنات العرب وأفتن جواري الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية

ولم يكن عسيرا عليه أن يوفر لنفسه ولاهله من الطعام والكساء والزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة في زمانه

فهل فعل محمد ذلك بعد نجاحه ؟ ..

هل فعل محمد ذلك في مطلع حياته ؟ ..

كلا : لم يفعله قط بل فعل نقيضه وكاد أن يفقد زوجاته لشكايتهن من شظف العيش في داره ..

ولم يحدث قط أن اختار زوجة واحدة لانها مليحة أو وسيمة ، ولم يبن بعذراء قط الا العذراء التي علم قومه جميعا أنه اختارها لانها بنت صديقه وصفيه وخليفته من بعده : أبي بكر الصديق رضي الله عنه

هذا الرجل الذي يفتري عليه الاثمة الكاذبون أنه الشهوان الغارق في لذات حسه ـ قد كانت زوجته الاولى تقارب الخمسين وكان هو في عنفوان الشباب لا يجاوز الخامسة والعشرين وقد اختارته زوجا لها لانه الصادق الامين فيما اشتهر به بين قومه من صفة وسيرة ، وفيما لقبه به عارفوه وعارفو الصدق والامانة فيه ، وعاش معها الى يوم وفاتها على أحسن حال من السيرة الطاهرة والسمعة النقية ، ثم وفي لها بعد موتها فلم يفكر في الزواج حتى عرضته عليه سيدة مسلمة رقت له في عزلته فخطبت له السيدة عائشة

باذنه ، ولم تكن هذه الفتاة العزيزة عليه تسمع منه كلمة ترضيها غير ثنائه على زوجته الراحلة ووفائه لذكراها

وما بنى — عليه السلام — بواحدة من أمهات المؤمنين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة وانما كانت صلة الرحم والضن بهن على المهانة هى الباعث الاكبر فى نفسه الشريفة على التفكير فى الزواج بهن . ومعظمهن كن أرامل مأيمات فقدن الازواج أو الاولياء وليس من يتقدم لخطبتهن من الاكفاء لهن ان لم يفكر فيهن رسول الله

فالسيدة سودة بنت زمعة مات ابن عمها المتزوج بها بعد عودتها من الهجرة الى الحبشة ولا مأوى لها بعد موته الا أن تعود الى أهلها فيكرهوها على الردة أو تتزوج بغير كفؤ لها أو بكفؤ لا يريدها

والسيدة هند بنت أبى أمية — أم سلمة — مات زوجها عبد الله المخزومى ، وكان أيضا ابن عمها ، أصابه جرح فى غزوة أحد فقضى عليه ، وكانت كهلة مسنة فاعتذرت الى الرسول عليه السلام بسنها لتعفيه من خطبتها ،فواساها قائلا : سلى الله أن يؤجرك فى مصيبتك وأن يخلفك خيرا ، فقالت : ومن يكون خيرا لى من أبى سلمة ؟ وكان الرسول عليه السلام يعلم أن أبا بكر وعمر قد خطباها فاعتذرت بمثل ما اعتذرت به اليه ، فطيب خاطرها وأعاد عليها الخطبة حتى قبلتها

والسيدة رملة بنت أبى سفيان تركت أباها وهاجرت مع زوجها الى الحبشة فتنصر زوجها وفارقها فى غربتها بغير عائل يكفلها ، فأرسل النبى عليه السلام الى النجاشى يطلبها من هذه الغربة المهلكة وينقذها من أهلها اذا عادت اليهم راغمة من هجرتها فى سبيل دينها ، ولعل فى الزواج بها سببا يصل بينه وبين أبى سفيان بوشيجة النسب فتميل

به من جفاء العداوة الى مودة تخرجه من ظلمات الشرك الى هداية الاسلام

والسيدة حورية بنت الحارث سيد قومه كانت بين السبايا فى غزوة بنى المصطلق فأكرمها النبى عليه السلام أن تذل ذلة السباء فتزوجها وأعتقها وحض المسلمين على اعتاق سباياهم فأسلموا جميعا وحسن اسلامهم ، وخيرها أبوها بين العودة اليه والبقاء عند رسول الله فاختارت البقاء فى حرم رسول الله

والسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فعرضها أبوها على أبى بكر فسكت وعرضها على عثمان فسكت . وبث عمر أسفه للنبى فلم يشأ أن يضن على صديقه ووليه بالمصاهرة التى شرف بها أبا بكر قبله ، وقال له : يتزوج حفصة من هو خير لها من أبى بكر وعثمان

والسيدة صفية الاسرائيلية بنت سيد بنى قريظة خيرها النبى بين أن يردها الى أهلها أو يعتقها ويتزوجها فاختارت البقاء عنده على العودة الى ذويها ، ولولا الخلق الرفيع الذى جبلت عليه نفسه الشريفة لما علمنا أن السيدة صفية قصيرة يعيبها صواحبها بالقصر ، ولكنه سمع احدى صواحبها تعيبها بقصرها فقال لها ما معناه من روايات لا تخرج عن هذا المعنى : انك قد نطقت بكلمة لو ألقيت فى البحر لكدرته ، وجبر خاطر الاسيرة الغريبة أن تسمع فى بيته ما يكدرها ويغض منها

والسيدة زينب بنت جحش — ابنة عمته — زوجها من مولاه ومتبناه زيد بن حارثة ، فنفرت منه وعز على زيد أن يروضها على طاعته ، فأذن له النبى فى طلاقها ، فتزوجها عليه السلام لانه هو المسئول عن زواجها ، وما كان جمالها خفيا عليه قبل تزويجها بمولاه . لانها كانت بنت عمته

يراها منذ طفولتها ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها

والسيدة زينب بنت خزيمة مات زوجها عبد الله بن جحش قتيلا فى غزوة أحد ، ولم يكن بين المسلمين القلائل فى صحبته من تقدم لخطبتها ، فتكفل بها عليه السلام ، اذ لا كفيل لها من قومها

وهذا هو الحريم المشهور فى أباطيل المبشرين وأشباه المبشرين ، وهذه هى بواعث النفس التى استعصى على المبطلين أن يفهموها على جليتها ، فلم يفهموا منها الا أنها بواعث انسان غارق فى لذات الحس ، شهوان !

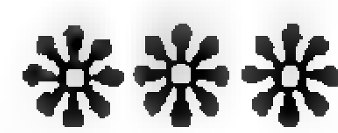
ولقد أقام هؤلاء الزوجات فى بيت لا يجدن فيه من الرغد ما يجده الزوجات فى بيوت الكثيرين من الرجال مسلمين كانوا أو مشركين . وعلى هذا الشرف الذى لا يدانيه عند المرأة المسلمة شرف الملكات أو الاميرات ، شقت عليهن شدة العيش فى بيت لا يصبن فيه من الطعام والزينة فوق الكفاف والقناعة بأيسر اليسير ، فاتفقن على مفاتحته فى الامر واجتمعن يسألنه المزيد من النفقة وهى موفورة لديه لو شاء أن يزيد فى حصته من الفيء ، فلا يعترضه أحد ولا يحاسبه عليه . الا أن الرجل المحكم فى الانفس والاموال سيد الجزيرة العربية ــ لم يستطع أن يزيدهن على نصيبه ونصيبهن من الطعام والزينة ، فأمهلهن شهرا وخيرهن بعده أن يفارقنه ولهن منه حق المرأة المفارقة من المتاع الحسن ، أو يقبلن ما قبله لنفسه معهن من ذلك العيش الكفاف ..

ولو أن هذا الخبر من أخبار بيت النبى كان من حوادث السيرة المحمدية التى تخفى على غير المطلعين المتوسعين فى الاطلاع لقد كان للمبطلين بعض العذر فيما يفترونه على نبى الاسلام من كذب وبهتان . الا أنه خبر يعلمه كل من

اطلع على القرآن ووقف على أسباب التنزيل ، وليس بينها ما هو أشهر فى كتب التفسير من أسباب نزول هذه الايات فى سورة الاحزاب :

(يَا أَيُّهَا النبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ انْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً . وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً)

(سورة الاحزاب)



وأقل المبشرين المحترفين ولعا بالتفتيش عن خفـــايا السيرة النبوية خليق أن يطلع على تفاصيل هذا الحادث بحذافيره · لانه ورد فى القرآن الكريم خاصا بالمسألة التى يتكالب المبشرون المحترفون على استقصاء أخبارها واحصاء شواردها ، وهى مسألة الزواج وتعدد الزوجات وقد كان لهذا الحادث الفريد فى سيرة النبى صدى لم يبلغه حادث من الحوادث التى عنيت بها العشيرةالاسلامية حين كانت فى بيئتها المحدودة تحيط بايمانهــــا احاطة الاسرة بأبيها

حدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « كنا تحدثنا أن غسان تنتعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبى يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بابى ضربا شديدا وقال : أثم هو ؟ ففزعت فخرجت اليه ، وقال : حدث أمر عظيم ! قلت : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا بل أعظم منه وأطول ·· طلق النبى صلى الله عليه وسلم نساءه ·· »

ولما تألب ربات البيت يشكون ويلحفن فى طلب المزيد من النفقة لبث النبى فى داره مهموما بأمره ، وأقبــــل أبو بكر فوجد الناس جلوسا لا يؤذن لاحد منهم • فدخل الدار ولحق به عمر بن الخطاب فوجد النبى واجما وحوله نساؤه ، فأحب أبو بكر أن يسرى عنه بكلمة يقولها •• وكأنه فطن لسر هذا الوجوم من النبى بين نسائه المجتمعات حوله • فقال : « يا رسول الله ! لو رأيت بنت خارجة •• سألتنى النفقة فقمت اليها فوجأت عنقها • ! فضحك النبى وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة • فقام أبو بكر الى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر الى حفصة يجأ عنقها ، ويقولان : تسألن رسول الله ما ليس عنده ؟ فقلن : والله لا نسأل رسول الله شيئا أبدا ليس عنده •• »

وهجر النبى نساءه شهرا ، يمهلهن أن يخترن بعدالروية بين البقاء على ما تيسر له ولهن من الرزق وبين الانصراف بمتعة الطلاق • وبدأ بالسيدة عائشة فقال : انى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلى فيه حتى تستشيرىأبويك فسألته : وما هو يا رسول الله ؟ فعرض عليها الخيرة مع سائر نسائه فى أمرهن • فقالت : أفيك يا رسول الله أستشير قومى ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة • وأجاب أمهات المسلمين بما أجابت به السيدة عائشة ، وانتهت هذه الازمة المكربة بسلام ، وما استطاع صاحب الدار ـ وهو يومئذ أقدر رجل فى العالم المعمور ـ أن يحل أزمة داره بغير احدى اثنتين : أن يجمع النية على فراق نسائه أو يقنعن معه بما لديهن من رزق كفاف ••

أعن مثل هذا الرجل يقال انه حلس شهوات وأسير لذات ؟ ••

أعن مثله يقال انه ابتغى من رسالته مأربا يبغيه الدعاة

غير الهداية والاصلاح ؟ ..

فيم كان هذا الشقاء بأهوال الرسالة وأوجالها من ميعة الشباب الى سن لا متعة فيها لمن صاحبه التوفيق والظفر أو لمن صاحبته الخيبة والهزيمة ؟ ..

ومن أراد الدعوة لغير الهداية والاصلاح فلماذا يريدها ، وما الذى يغنمه من ورائها ؟ ..

أتراه يريدها مخاطرا بأمته وحياته مستخفا بالهجرة من وطنه والعزلة بين أهله ، ليسوم نفسه بعد ذلك عيشة لا يقنع بها أقرب الناس منه وأعلاهم شرفا بالانتماء اليه ؟

أمن أجل الحس ولذاته يتزوج الرجل بمن تزوج بهن وهو سيد الجزيرة العربية وأقدر رجالها على اصطفـــاء النساء الحسان من الحرائر والاماء ؟ ..

وهل يتزوج بهن الشهوان الغـــارق فى لذات الحس ليقتدين به فى اجتواء الترف والزينة وخلوص الضمـــير للايمان بالله وابتغاء الدار الآخرة ؟

وما مأربه من كل ذلك ان كان له مأرب فى طويته غير مأربه فى العلانية ؟ وعلام يجاهد نفسه ذلك الجهاد فى بيته وبين قومه ان لم تكن له رسالة يؤمن بها ولم تكن هذه الرسالة أحب اليه من النعمة والامان ؟

ان المبشرين المحترفين لم يكشفوا من مسألة الزواج فى السيرة النبوية مقتلا يصيب محمدا أو يصيب دعوته من ورائه ، ولـكنهم كشـــفوا منها حجة لا حجة مثلها فى الدلالة على صدق دعوته وايمانه برسالتهواخلاصه لها فى سره كاخلاصه لها فى علانيته ، ولولا أنهم يعولون على جهل المستمعين لهم لاجتهدوا فى السكوت عن مسألة الزواج خاصة أشد من اجتهادهم فى التشهير بها واللغط فيها ..

وعلم الله ما كانت براءة محمد من فريتهم مرتهنة بجلاء

الحقيقة فى مسألة الزواج والزوجات • فان أحدا يفقه ما يفوه به لا يسيغ أن يقول أن عملا كالذى قام به محمد يضلطع به رجل غارق فى لذات الحس مشغول بشهوات الجسد • ولئن كان كذلك ثم استطاع أن يتم دعوته فى حياته وأن يبقيها تامة قوية لخلفائه ليكونن اذن آية الآيات على تكوين من الخلق لا يدانيه تكوين ••

ولسنا نعتقد أن دينا رفيعا يسوِّل للمتدين به أن يفترى الاباطيل على خلق الله ، وأقبح من ذلك فى شرع الدين الرفيع أن يكون الافتراء على الناس سبيلا الى التبشير بكلمات الله ، ولكن المبشرين المحترفين لا يدينون بالله ولا بالناس ، وانما يدينون بعبادة الجسد الذى ينكرونه ذلك الانكار ويؤمنون به فى أعمالهم وأقوالهم أخس الإيمان

الطبقة

الطبقة فى المجتمع هى الفئة التى تتشابه به فى درجة العمل ونمط المعيشة ومأثور الخلق والعـــادة ، وهى — بعد الامة والاسرة — أكثر الوحدات الاجتماعية ذكرا وأكبرها خطرا فى العصر الحاضر

والناس مصطلحون على تقسيم الطبقـــات الى ثلاث : غنية وفقيرة وميسورة ، أو عليا ودنيا ووسطى ، ولعــله تقسيم مستعار من مرتفعات المكان التى يمكن أن تنقسم الى فوقية وتحتية ومستوية ، أو من الرسوم الجغرافية التى يمكن أن تنقسم الى شرقية وغربية ومتوسطة ، أو من تنظيمات الجيوش التى يمكن أن تنقسم الى طليعة وساقة وقلب . أما تقسيم المجتمع الى ثلاث طبقات من حيث درجات العمل وانماط المعيشة ومأثورات الخلق والعادة فهو تقسيم على وجه التشبيه والتقريب ، كأنه تقسيم الناس الى ثلاثة الوان بين البياض والســواد ، أو تقسيمهم الى ثلاثة أشكال من ملامح الوجوه . وكلها تقسيمات تقبل على وجه التشبيه والتقريب لا على وجه الدقة والتحقيق

فلا نهاية للفوارق بين الناس فى الطائفة الواحــدة ولا فى العمل الواحد ، ولا يوجد فاصل واحد تنحصر فيه

أسباب التفرقة بين طائفة وطائفة أو بين واحد وواحد من أبناء الطائفة .. لان المرجع في أسباب هذه التفرقة لا يقف بنا فى النهاية دون الظاهرة الكونية التى لا يشذ عنها كائن واحد بين السموات والأرضين ، فليس فى أجرام السموات الواسعة جرمان يتساويان فى الحجم أو فى الحركة أو فى الضوء أو فى المسافة ، وليس على فرع واحد من شجرة ورقتان تتساويان فى السعة أو فى اللون أو فى الموضع أو فى مادة العصارة النباتية ، وليست هنالك ورقة واحدة تتساوى فى وقتين من أوقات النهار والليل ..

واذا بلغ من عمق هذه الظاهرة الكونية واتساعها أن تتمثل فى المادة الجامدة فى تركيبها المحدود فأحرى بالجماعة الانسانية التى لا تنحصر تراكيبها الحسية والمعنوية الا تضيق فيها عوامل هذه الظاهرة حتى تنحصر برمتها فى سبب من أسباب الاخلاق أو سبب من أسباب الفكر أو أسباب الاقتصاد أو أسباب العوارض الطبيعية . فان هذه العوامل المتشابكة فى كل جماعة انسانية تتساند وتتناظر وتعمل عمل الاضداد كما تعمل عمل الاشباه فى كل معرض من معارض الحياة . ونحسب أنه لو جاز أن يكون بينها عامل أضعف من سائر العوامل لكان أضعفها جميعا عامل الاقتصاد الذى زعم جماعة الماديين التاريخيين أنه هو عاملها الوحيد أو عاملها الذى لا يقوى على مناهضته عامل سواه ..

فى بلاد الطبقات ــ بلاد الهند ــ لم تكن السيادة العليا لطبقة التجار وذوى الاموال والمرافق الصناعية والزراعية ، بل كان هؤلاء معدودين من الطبقة الثالثة أو الثانية على أكبر تقدير ، ومن فوقهم جميعا طبقة المقاتلين

وفرسان الحروب وذوى الشجاعة والدربة على استخدام السـلاح ..

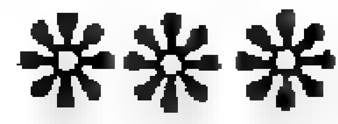
والإقطاعيون فى أوربا لم يكونوا يوما من أيامهم طبقة متفقة فى المصلحة أو متجاورة على وئام وسلام . بل كان اسمها نفسه مشتقا من المنازعة والخصـومة ، وكانت العداوة بين كل فارس منها وجيرانه أشد من العداوة بين الفـارس والفـلاح

ورأس المال زال من البلاد الروسيـة ، وزال معـه أغنياؤها وسراتها ونبلاؤها ، وظهرت فيها ـ مع هـذا ـ طبقة حاكمة من الخبراء والمهندسين لا تدانيها فى سطوتها واستبدادها طبقة حاكمة فى أشهر البلاد باستبداد نظم الصناعة ورؤوس الاموال

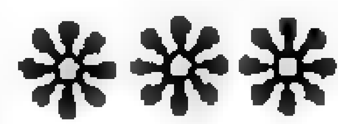
والصناعة الكبرى لم تكن هى الطور الاقتصادى الاخير الذى جرد العمال طبقة مستقلة تتقدم الصفوف لما يسمونه حرب الطبقـات ، ولكنهم تجردوا لهذه الحرب لانهم تجمعوا فى أمكنة متقـاربة يتفقون فيها على المطالب والحركات ويستطيعون باتفاقهم أن يعطلوا الاعمـال فى المصانع ويكرهوا أصحابها على الاصغاء اليهم ، وكذلك فعل العمال فى عهد الرومان قبل عهد الصناعة الـكبرى بنحو عشرين قرنا حين ثاروا بقيادة « سبارتكوس » . وفعل عمال سبرطة قبلهم ما فعـلوه ، ومنهم طوائف « الهيلوب » الذين كانوا يقتسمون حصة من غلال الارض الزراعية كما كانوا يتقاضون الاجور

والطبقة الغنية يخرج منها من يخرج ويدخل اليها من يدخل كلما تغيرت فيهم صفاتهم النفسية أو الفكرية . فغنى اليوم فقير الغد ، وفقير الامس غنى اليوم ، على حسب صفاتهم أو حسب الفرص التى تتهيـأ لهم ويسوسـونها بعقـولهم وأخـلاقهم ، لا لان العوامل

الاقتصادية وحدها هى التى تخلق طبقات المجتمع وتبقيها الى أن تتبدل هذه فتتبدل تلك معها ، كأنهما ــ معا ــ كتلة صماء تتغير من فترة الى فترة ولا عمل فيها لارادة الداخلين فيها ولا الخارجين منها



وستبقى الطبقات ما بقى الناس مختلفين ، وسيبقى الاختلاف بينهم بلا عد وبلا حد ، يقسمه من يريد التقريب والايجاز ثلاثا ثلاثا أو أربعا أربعا أو اثنتين اثنتين ، الا انه سيرجع فى مئات الفوارق والوفها الى تلك الظاهرة الكونية التى لا تدع ورقتين على فرع واحد من الشجرة الواحدة متشابهتين كل التشابه فى تركيب الاجزاء ، وأحرى الا يتشابه التركيب فى الجماعات الانسانية ولو تشابهت ظروفها الاقتصادية كل التشابه فيما بدا واستتر وفيما يملكه الافراد أو تملكه الجماعات من ارادة وتدبير



ويحق لنا ان ننظر الى المسألة من وجهة أخرى غير وجهة الواقع الذى لا حيلة لنا فيه . فنسال : أترانا نسلم لهذه الظاهرة الكونية لانها قضاء حتم ينفذ فينا كما ينفذ فى الكون كله من أعلاه الى أدناه ؟ أترانا نبدل من هذه الظاهرة الكونية لو ملكنا التبديل فى حياتنا الانسانية ، فلا تدع بين الانسان والانسان موضعا لاختلاف التركيب فى الاجسام أو فى الاخلاق أو فى العقول أو فى الاحوال والاطوار ؟

لو أننا فعلنا ذلك لظلمنا أنفسنا وحرمنا النوع الانسانى ثروة من الافكار والعواطف والاذواق يجنى علينا الحرمان منها أفرادا وجماعات .. فان هذه الثروة النفسية هى التى تميزنا من الاحياء الدنيا ، وهى التى تميز المتقدمين

منا على المتأخرين ، وهى التى تفيدنا من تنويع الكفايات وتوزيع الاعمال وتجعل كل فريق منا لازما لكل فريق بين سكان الكرة الارضية قاطبة أو بين السكان فى كل بقعة من بقاعها على انفراد . ويظل هذا التنويع فى أفكارنا وأخلاقنا وأذواقنا ثروة نفسية نحرص عليها ولو ثبت أنها — فى أصولها — ضرورات اجتماعية تقسرنا عليها المنفعة المادية والحاجة الحيوانية . فان الضرورات التى تفتح لنا آفاقا من الفكر والخلق والذوق تنوعها وتوسع جوانبها خير من الضرورة التى تحبسنا فى أفق ضيق يهبط بنا شيئا فشيئا الى حضيض تحت حضيض من الحيوانية العجماء

فلو أننا ملكنا زمام أمانينا بأيدينا لما طاب لنا أن نلغى طبقات الناس التى يخلقها تنوع الافكار والاذواق ، ولا بد أن يخلق معها اختلافا فى درجات الأعمال وانماط المعيشة ومأثورات العرف والعادة . فان شر المجتمعات لمجتمع متشابه قليل المزايا يصدق عليه ما قاله الشاعر العربى بفطرته السليمة فى بنى الهجيم :

وبنو الهجيم قبيلة ملعونة

حص اللحى متشابهو الالوان

وان مجتمعا كهذا المجتمع الضيق المتشابه فى أحوال أبنائه وأطوارهم لشر من المجتمع الذى تتنوع فيه الاحوال والاطوار ولو طغى فيه أناس على آخرين وثار فيه المقهورون على الطغاة القاهرين ، فانه يؤول فى آخرة المطاف الى بقاء الاصلح من الفريقين أو بقاء الصالح من أخلاق كل فريق

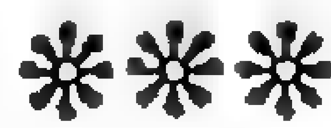
ولعلنا نرجو من هذا الصراع خيره فى هذا العصر اذا كان من آثار شروره ان نعلم بها ، وأن نعرف ما نحذره

منها ، ونسعى الى اجتنابه بما فى وسعنا . فاذا لم يكن من أمانينا أن نمحو الاختلاف لانه محو للتنويع أو محو لثروتنا الانسانية — فليكن من أمانينا ان نجعله اختلافا لا طغيان فيه ولا استئثار ، ولا مذلة فيه من الجانب الاخر ولا حرمان

وخير المجتمعات اذن مجتمع يسمح للكفايات والمزايا الخلقية بالمجال الذى يناسبها فى الحياة العامة ، ولكنه لا يسمح لها بأن تحرم أحدا حقه أو تقف بينه وبين مجاله الذى استعد له بما هو أهله ، ولو لم يولد فيه ولم يكن منه بالنسب والوراثة

وهذا المجتمع هو الذى يأمر به الاسلام ويحمده ويزكيه بتعاليمه ووصاياه ..

فهو لا يمنع التفاوت بين أقدار الناس وان كانوا من الانبياء والمرسلين :



(وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة الاسراء)

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) (سورة البقرة)

ولا يسوى الاسلام بين العلماء والجهلاء ، ولا بين المؤمنين فى صدق الايمان

(هَلْ يَسْتَوِي الذِينَ يَعْلَمُونَ وَالذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر)

(يَرْفَعِ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ) (سورة المجادلة)

وليس من العدل فى الاسلام ان يختلف الناس فى العمل ويتساووا فى الارزاق ، فهم مختلفون فى درجات الرزق كاختلافهم فى درجات العلم والايمان

« نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ » (سورة الزخرف)

« وَاللهُ فَضلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ »

(سورة النحل)

الا ان هذا التفاضل فى العلم او فى الرزق لايقوم على النسب الموروث ولا على الغصب والسطوة ، وانما يقوم على العمل ولا يحق لاحد ان يحتفظ به الا بمقدار ما يبتغى فيه بعمله

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » (سورة الحجرات)

« وَهُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيما آتاكُم » . (سورة الانعام)

(وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِما عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُون)

(سورة الانعام)

ولا يخفى ان المجتمع الاسلامى مجتمع ضمائر ونفوس يخاطبها الدين ، ولديها سبل الخطاب الذى يراد به صلاح العقول والأبدان . فاذا خص الاسلام طائفة بالخطاب فتلك هى الطائفة التى تمتاز بالعلم والقوامة الفكرية فى الأمة ، ولا يحمد الاسلام من مجتمع انسانى ان يخلو من هـــذه الطائفة التى تناط بها النصيحة وتوكل اليها مهمة الهداية الى الرشد والتحذير من الضلالة فى مصـــالح الدين والدنيا . وتلك هى جماعة أهل الذكر وجماعة الداعين الى الخير والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكـــر ، وهى الجماعة التى سماها فقهاء الاسلام بعد ذلك بأولى الحل والعقد ووكلوا اليها ترشـــيح الامام والرقابة على ولاية الأمور ، تطوعا لاينديهم له أحد ولا يفرضه أمر مرسوم يتحكم فيه سلطان الدولة ، ولكنها أمانة العلم ينهض بها من هو أهل لها ويستمع له من يستمع وهو مسئول عن صوابه أو خطئه فى الثقة والاختيار

***

(فاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَتَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

***

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ) (سورة آل عمران)

***

واسوأ المجتمعات فى الدين الاســـلامى مجتمع اقوام لا يتواصون بالخير ولا يتناهون عن منكر فعلوه . الا ان

الاسلام يعنى بالضمائر والنفوس ويقرن الى ذلك على الدوام عنايته بمرافق الدنيا ومصالح الأجسام

فالمسلم مأمور كما تقدم — فى غير موضع — بأن يستوفى نصيبه من طيبات دنياه ، وله أن يجمع من المال مايستحقه بعمله وتدبيره ولكن فى غير اسراف ولا استئثار ولا احتكار

كسب المال مباح محمود ، ولكن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى الخير ملعونون مستحقون للعذاب الأليم :

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (سورة التوبة)

وصلاح المال أن تتداوله الأيدى

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

(سورة الحشر)

وليس من الخير فى غنى المال أن يجمعه الانسان حتى يطغيه

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

أما المحتكرون فهم منبوذون من المجتمع الاسلامى يبرأ منهم ويلعنهم الله ، كما جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » وكما جاء فيها : « من احتكر طعاما اربعين يوما يريد به الغلاء فقد برىء من الله وبرىء الله منه »

ودفعا للحيلة فى المضاربة بالنقد أو بالطعام لاحتكاره وتحليل الربا عليه قد نهى عليه السلام أشد النهى عن مبادلة المعادن والأطعمة المتماثلة بزيادة فيها فقال فى روايات متشابهة : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد . فمن زاد أو اشتراه فقد أربى .. »

والاسلام يحب للمسلم أن يعمل ويكسب ويكره له أن يتبطل ويتكل على غيره . وأحاديث النبى عليه السلام تؤكد الأوامر الالهية فى هذا المعنى فيما يجمعه قوله تعالى :

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

(سورة التوبة)

والنبى عليه السلام يقول « ان الله يحب العبد المحترف ويكره العبد البطال » ..

ويقول : « أفضل الكسب كسب الرجل بيده »

وكان الخليفة العظيم عمر بن الخطاب مؤسس الدولة الاسلامية يقول : « والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة . فان من قصر به عمله لا يسرع به حسبه ... »

فلا عذر فى المجتمع الاسلامى لمن يقعد عن العمل والكسب وهو قادر عليهما . أما الذى يقعد عنهما اضطرارا لعجز أصابه أو حرج وقع فيه فله على المجتمع حق مفروض لا هوادة فيه يؤديه عنه كل من ملك نصاب الزكاة وهى احدى الفرائض الخمس التى بنى عليها الاسلام ، ولم يتكرر فى القرآن الكريم ذكر فريضة منها كما تكرر ذكر هذه الفريضة بلفظها أو بلفظ يدل عليها

كالصدقة والاحسان والبر واطعام اليتامى والمساكين ومن الآيات التى ورد فيها الحض على الزكاة ما يعلم المسلم أن البر فى العقيدة وايتاء المال لأصحاب الحق المشروع فيه :

(لَيْسَ البِرَ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ).

(سورة البقرة)

ومما ورد فى الحض على الزكاة باسم الصدقات مع بيان مستحقيها قوله تعالى فى سورة التوبة :

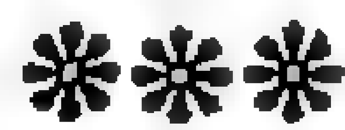
(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينَ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالمؤَلفةِ قُلوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ) (سورة التوبة)

وتجب الزكاة على الأنعام والماشية وعلى الأموال وعروض التجارة وغلات الزروع . ونصاب الزكاة فى الابل خمس وفى البقر ثلاثون وفى الغنم أربعون ، ونصابها فى الأموال والعروض وثمرات الزروع يضارع هذه القيمة على وجه التقريب ، والحصة المفروضة على النصاب تضارع ربع العشر من رأس المال ، والحصة المفروضة على الثمرات تضارع العشر مما يسقيه المطر

ونصف العشر مما تسقيه الغروب وأدوات الري على اجمالها ..

ففى كل سنة يستحق الموزون المفتقرون الى المعونة جزءا من أربعين جزءا من رؤوس الاموال فى الامة ، أو جزءا من عشرة أجزاء من ثمرات الزراعة وما اليها، وهو مقدار من الثروة العامة لا يخصص مقدار مثله فى الامم الحديثة التي تقررت فيها حصة من موارد الدولة للانفاق على العجزة والشيوخ ومن يستحقون العون لغير تفريط أو تقصير ..

ومن الآيات المتقدمة نعلم أن المستحقين للزكاة ثمانية أصناف هم : (١) الفقراء وهم الذين يملكون شيئا دون نصاب الزكاة ويستنفدونه فى حاجاتهم وضروراتهم و(٢) المساكين وهم الذين لا يملكون شيئا و (٣) عمال الزكاة وهم موظفو الدولة الذين يحصلونها أو يوزعونها و (٤) المؤلفة قلوبهم وهم المسلمون حديثو العهد بالاسلام ممن تخشى عليهم الفتنة أو الكفر يتألفهم الاسلام ولا يعملون ما يؤذى المسلمين و (٥) الأرقاء الذين يفتدون من الأسر بالمال و(٦) المنكوبون بالمغارم و(٧) المجاهدون الذين يحتاجون الى النفقة و (٨) الغرباء المنقطعون عمن يعولهم ، وكل من هو فى حكم هؤلاء اضطرارا الى رعاية المجتمع وعجزا عن ولاية أمره بنفسه



ولم يقصد الاسلام بفريضة الزكاة أن يجعلها حلا لمشكلة الفقر فى المجتمعات الانسانية . فانما تحل مشكلة الفقر فى المجتمع الاسلامى بالعمل والسعى فى طلب الرزق يتعاون على تدبير وسائلهما ولاة الأمر وطلاب الأعمال ويحاسب الامام على التوانى فى هذه المهمة كما يحاسب

على التوانى فى سائر مصالح الرعية. ولاشك أن الاسلام قد صنع فى حل مشكلة الفقر من أساسها صنيعه الذى لم يسبقه اليه دين من الأديان الكتابية أو أديان الحضارات الغابرة . فانه مسح عن الفقر قداسته التى جللته بها عبادات الأمم وأحاطته بها فى الصوامع والبيع والمحاريب المنقطعة عن العمران، ومسح عنه تلك القداسة من جذورها حين أنكر تعذيب الجسد وحرمانه ، وحين رفع عن الجسد مسبة الدنس والنجاسة المتأصلة فى دخيلة التكوين . فأوجب على المسلم أن ينعم بطيبات الرزق وأنكر عليه أن يحرم مما أحل الله من تلك الطيبات التى لا تقف عند حدود الضروريات بل تتخطاها الى الزينة والجمال . ومن استهان بأثر هذه النظرة السليمة الى الفقر فليتخيل كيف كانت مشكلة الفقر تساس للعلاج بين أناس ينظرون اليه نظرة التقديس وينظرون الى متاع الجسد نظرة الزراية والتدنيس ؟ وليتخيل الفارق البعيد بين مجتمع يعمل على تعظيم الفقر واعتبار العمل فى طلب الرزق غلطا تبتلى به الروح من غواية الجسم المرذول ، وبين مجتمع يعمل على ايجاب السعى ويلوم أبناءه على تحريم الطيبات والزهد فى الدنيا، ويؤاخذ الانسان اذا مد يده بالسؤال وعنده قوت يكفيه مؤونة السؤال ..

ان الاسلام قد جاء بالوسيلة التى لا غنى عنها فى مكافحة الفقر وحل مشكلته يوم جعله ضرورة لا تباح للمسلم الا كما تباح الضرورات التى لا حيلة فيها ولا اختيار معها . وانما فرض الزكاة لمن أصابتهم تلك الضرورات وأقعدتهم عن السعى واستنفدوا — مع المجتمع — كل حيلة فى تدبير العمل المستطاع . ومن لم يكن منهم مستطيعا عملا بتدبير من الامام أو بتدبير من

نفسه فهو مكفول الرزق بما تجبيه الدولة من حصة الزكاة حقا معلوما يتقاضونه من الأمام ولا هوادة فيه

وليست حصة الزكاة بالقدر الصغير عند المقارنة بينها وبين الحصة التى تخصص من ثروة الأمة فى المجتمعات الحديثة للانفاق على العجزة والشيوخ والمنقطعين عمن يعولهم ، فانها ـ كما هو معلوم ـ تضارع جزءا من أربعين جزءا من ثروة الأمة فى كل سنة، أو تضارع عشر الثمرات الزراعية وما اليها ، وليس فى مجتمع من المجتمعات ـ حتى الشيوعية منها ـ من يزيد على هذا القدر فى الانفاق على ذوى الحاجات من العجزة والشيوخ . الا أن الاسلام مع هذا لم يقصر الاحسان على فريضة الزكاة ولا أسقط عن القادرين واجب الغوث لمن يعرفونهم ويقدرون على امدادهم بما يعينهم على شدائدهم . اذ ليست الزكاة هى كل ما يصنعه المحسنون القادرون على الاحسان ، ولكنها هى الاحسان الذى تفرضه الدولة وتستخلصه من المفروض عليهم عنوة ان لم يؤدوه طواعية فى موعده المعلوم ..

واذا انفصلت مشكلة الفقر ومشكلة الطبقات على هذا النحو فالعاطلون كلهم فى كفالة المجتمع والطبقات كلها عاملة منتجة تنحل مشكلتها بتصحيح أوضاعها وتوطيد هذه الاوضاع على نظام عادل فى مجتمع سليم

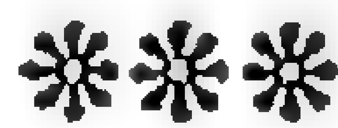
وآخر الحلول التى أسفرت عنها تجارب القرون المتطاولة فى مشكلة حرب الطبقات ـ أن هذه المشكلة لا تزال بازالة الطبقات بل بازالة الحرب بينها ، وأن هذه الحرب تمنع كلما تقاربت الفجوة الواسعة بين الطبقات فلا افراط فى الغنى ولا افراط فى الفقر ولا سبيل لفريق منها أن يجور على فريق سواه . وقد ابتدع خبراء الصناعة والاقتصاد فى العصر الأخير وسيلة للتقارب بين

ذوى الأموال وطوائف الصناع والعمال أن يشتركوا فى المصلحة الكبرى متعاونين عليها مساهمين فيها ، اما بتوزيع الحصص على تفاوت مقاديرها ، واما بتعميم المرافق التعاونية التى تتلاقى فيها منافع المنتجين والمستنفدين وأرباح البائعين والشراة

وليس فى هذا الحل شرط من شروطه لا تيسره تعاليم الاسلام ووصاياه . فان التعاون أدب من آدابه يأمر به الناس جميعا وتندب للتنبيه اليه أمة تتواصى بالمعروف وتتناهى عن المنكر.

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ) . (سورة المائدة)

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) . (سورة العصر)



وواجب الكبار فيه كواجب الصغار . فليس من المسلمين كبير لا يرحم الصغير وصغير لا يوقر الكبير كما جاء فى الحديث الشريف: « ليس منا من لم يوقر الكبير ويرحم الصغير ، ويأمر بالمعروف ، وينه عن المنكر »

وانه لما ييسر هذا التعاون بين طوائف الأمة أن تقرر فيها كفالة الضعفاء فرضا محتوما على القادرين ، وأن يمتنع حبس المال فى أيدى فريق من الناس فلا افراط فى الغنى ولا افراط فى الفاقة ، ولا استئثار ولا حرمان

ولا تحل مشكلة الطبقات بالرأى أو بالواقع الا على هذا النحو الذى ينتهى الى ازالة حرب الطبقات ولا ينتهى الى ازالة الطبقات . فالعالم بخير ما دام فيه

أنواع الكفايات وفوارق المزايا والصفات ، ومادامت هذه الأنواع والفوارق فيه يتمم بعضها بعضا ويجرى بعضها على معونة بعض . والعالم على شر ما يكون اذا زال فيه كل خلاف بزوال الأداة المختلف عليها : يتنازع الناس الأموال فتزول الأموال ، ويتنازعون الحكم فيزول الحكم ، ويتنازعون الحرية فتزول الحرية ، وما هم فى الحق بقادرين على ازالة شيء واحد يتنازعون عليه، فلو أزالوا فوارق الأرزاق لم يزيلوا الفوارق بينهم على الذكاء والغباء ، أو على القوة والضعف أو على الجاه والخمول ، أو على الوسامة والدمامة ، أو على الذرية والعقم ... ولو أنهم أزالوها لزالوا أجمعين ؛ ولكنهم باقون برحمة الله

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) (سورة هود)

الـرّق

شرع الاسلام العتق ولم يشرع الرق . اذ كان الرق مشروعا قبل الاسلام فى القوانين الوضعية والدينيـة بجميع أنواعه : رق الأسر فى الحروب ، ورق البيـع والشراء ، ومنه رق الاستدانة أو الوفاء بالديون

وكانت اليهودية تبيحه ، ونشأت المسيحية وهـو مباح فلم تحرمه ولم تنظر الى تحريمه فى المستقبل ، وأمر بولس الرسول العبيد باطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح ، فقال فى رسالته الى أهل أفسس :

« أيها العبيد ! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، ولا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين ان مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبدا كان أم حرا .. »

وأوصى الرسول بطرس بمثل هذه الوصية ، وأوجبها آباء الكنيسة لأن الرق كفارة من ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم ، وأضاف القديس الفيلسوف توما الأكوينى رأى الفلسفة الى رأى الرؤساء الدينيين فلم يعترض على الرق بل زكاه. لأنه على رأى أستاذه أرسطو حالة من الحالات التى

خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما يناقض الايمان أن يقنع الانسان من الدنيا بأهون نصيب ..

ومذهب أرسطو فى الرق أن فريقا من الناس مخلوقون للعبودية لأنهم يعملون عمل الآلات التى يتصرف فيها الأحرار ذوو الفكر والمشيئة . فهم آلات حية تلحق فى عملها بالآلات الجامدة ، ويحمد من السادة الذين يستخدمون تلك الآلات الحية أن يتوسموا فيهما القدرة على الاستقلال والتمييز فيشجعوها ويرتقوا بها من منزلة الاداة المسخرة الى منزلة الكائن العاقل الرشيد ..

وأستاذ أرسطو ـ أفلاطون ـ يقضى فى جمهوريته الفاضلة بحرمان العبيد حق « المواطنة » واجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من سادتهم أو من السادة الغرباء ، ومن تطاول منهم على سيد غريب أسلمته الدولة اليه ليقتص منه كما يريد

وقد شرعت الحضارة اليونانية نظام الرق العام ، كما شرعت نظام الرق الخاص أو تسخير العبيد فى خدمة البيوت والأفراد ، فكان للهياكل فى آسيا الصغرى أرقاؤها الموقوفون عليها ، وكانت عليهم واجبات الخدمة والحراسة ، ولم يكن من حقهم ولاية أعمال الكهانة والعبادة العامة

وانقضى على العالم عصور بعد عصور وهذا النظام شائع فى أرجائه بين الأمم المعروفة فى القارات الثلاث ، ينتشر بين أمم الحضارة وقبائل البادية التى تكثر فيها غارات السلب والمرعى ، ويقل انتشاره بين الأمم الزراعية عند أودية الأنهار الكبرى كوادى النيل وأودية الانهار الهندية . الا أن الأمم فى الأودية الهندية كانت

تأخذ بنظام الطبقة المسخرة أو الطبقة المنبوذة ، وهى فى حكم الرقيق العام من وجهة النظر الى المكانة الاجتماعية والحقوق الانسانية

وعلى هذه الحالة كان العالم كله يوم مبعث الدعوة الاسلامية من قبل الصحراء . ليس فيه من يستغرب هذه الحالة أو من يشعر بحاجة الى تعديل فيها حيث يكثر الارقاء أو حيث يقلون ..

ففى البلاد التى كثر فيها عدد الأرقاء كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فيها مرتبطة بأعمال الرقيق فى البيوت والمزارع والمرافق العامة ، فلم يمكن تغيير هذه الاوضاع مما يخطر على البال ، ولم يكن تغييرها مستطاعا بين يوم وليلة ، لو أنه خطر على بال أحد

وفى البلاد التى قل فيها عدد الارقاء لم تكن هناك مسألة حازبة أو معجلة تسمى مسألة الرقيق وتستدعى من ذوى الشأن اهتماما بالتغيير والتعديل

وكان عدد الأرقاء قليلا فى البادية العربية بالقياس الى أمم الحضارة اذ كان عددهم بين المسلمين الأوائل لا يزيد على عدد الأصابع فى اليدين ، فلم يكن بدعا من الدين الجديد ان يترك الحالة فى الصحراء العربية — وفى العالم — على ما كانت عليه : حالة لا يستغربها أحد ، ولا يفكر أحد فى تغييرها أو تعديلها . ولكنه لم يتركها ، ولم يغفلها ، ولم يؤجلها بين الاغضاء والاستحسان لهوانها وقلة جدواها . بل جرى فيها على دأبه فى علاج المساوىء الاجتماعية والأخلاقية : يصلح منها ما هو قابل للاصلاح فى حينه ، ويمهد للتقدم الى المزيد من الاصلاح مع الزمن كلما تهيأت دواعيه

ونحن نحب أن نلخص ما صنعه الاسلام فى هذه المسألة

قبل أربعة عشر قرنا فى بضع كلمات : أنه حرم الرق جميعا ولم يبح منه إلا ماهو مباح الى الآن . وفحوى ذلك أنه قد صنع خير ما يطلب منه أن يصنع ، وان الأمم الانسانية لم تأت بجديد فى هذه المسألة بعد الذى تقدم به الاسلام قبل ألف ونيف وثلثمائة عام ..

فالذى أباحه الاسلام من الرق مباح اليوم فى أمم الحضارة التى تعاهدت على منع الرقيق منذ القرن الثامن عشر الى الآن ..

لأن هذه الأمم التى اتفقت على معاهدات الرق تبيح الأسر واستبقاء الأسرى الى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأسرى أو التعويض عنهم بالفداء والغرامة ..

وهذا هو كل ما أباحه الاسلام من الرق او من الأسر ، على التعبير الصحيح ..

وغاية ما هنالك من فرق بين الماضى قبل أربعة عشر قرنا وبين الحاضر فى القرن العشرين ان الدول فى عصرنا هذا تتولى الاتفاق على تبادل الأسرى أو على افتداء بعضهم بالغرامة والتعويض . أما فى عصر الدعوة الاسلامية فلم تكن دولة من الدول تشغل نفسها بهذا الواجب نحو رعاياها المأسورين ، فمن وقع منهم فى الأسر بقى فيه حتى يفتدى نفسه بعمله أو بماله ، اذا سمح له الآسرون بالفداء ..

فماذا لو ان الدول العصرية بقيت على خطة الدول فى القرن السادس للميلاد ؟ ماذا لو أن الحروب اليوم انتهت كما كانت تنتهى فى عصر الدعوة الاسلامية بغير اتفاق على تبادل الأسرى او على افتكاكهم من الأسر بالتعويض والغرامة ؟ ..

كانت حالة الأسرى اليوم تشبه حالة الأسرى قبل أربعة عشر قرنا فى حقوق العمل والحرية والتمتع بالمزايا

الآجتماعية ، وكان كل أسير يظل فى موطن أسره رقيقا مسخرا فى الخدمة العامة أو الخاصة محروما من المساواة فى حقوق المواطنة بينه وبين أبناء الآمة الغالبة ..

حالة كحالة الرق التى سمح بها الاسلام على كره واضطرار ..

ولكن الاسلام لم يقنع بها فى ابان دعوته ، وأضاف الى شريعته فى الرق نوافل وشروطا تسبق الشريعة الدولية بأكثر من ألف سنة . فاذا كانت الشريعة الدولية لم تعرف الدولة فى فكاك رعاياها من الأسر فقد سبق الاسلام الى فرض هذا الواجب على الدولة فجعل من مصارف الزكاة انفاقها « فى الرقاب » أى فكاك الأسرى ، وان يحسب للأسرى حق من الفىء والغنيمة كحق غيرهم من المقاتلين ..

واذا كان ارتباط الأسرى ضربة لازب فى الحروب الحديثة فالاسلام لم يجعله حتما مقضيا فى جميع الحروب، وحرص على التخفيف من شدته ماتيسر التخفيف منه وجعل المن فى التسريح أفضل الخطتين :

(فإما مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا)

(سورة محمد)

وحث المسلمين على قبول الفدية من الاسير أو من أوليائه :

(وَالذينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الذى آتَاكُمْ)

(سورة النور)

وقد كثرت وصايا النبى عليه السلام بالأرقاء فقال في بعض الاحاديث « لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت ان الناس لا تستعبد ولا تستخدم » وكانت من آخر وصاياه قبل انتقاله الى الرفيق الاعلى وصيته « بالصلاة وما ملكت ايمانكم » ونهى المسلمين ان يتكلم أحد عما ملك فيقول : عبدى وأمتى . وانما يذكرهم فيقول فتاى وفتاتى كما يذكر أبناءه وبناته . وكان عليه السلام يعلم صحابته بالقدوة فى معاملة الرقيق كما يعلمهم بالفريضة والوصية ، فكان يتورع عن تأديب وصيفته ضربا بالسواك ، وقال لوصيفة أرسلها فأبطأت فى الطريق : « لولا خوف القصاص لاوجعتك بهذا السواك »

ومن الوسائل الفردية التى تحرى بها الاسلام تعميم العتق وتعجيل فكاك الأسرى انه جعل العتق كفارة عن كثير من الذنوب ، كالقتل الخطأ والحنث باليمين ومخالفة قسم الظهار

(وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا . فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ . وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ) . (سورة النساء)

(لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ

مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَاتُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) (سورة المائدة)

(وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا) (سورة المجادلة)

ويحسب من الرذائل المأخوذة على الانسان السيىء أنه لا يقتحم هذه العقبة أو لا ينهض بهذه الفدية المؤكدة :

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ)

(سورة البلد)

فالعتق اذن هو الذى شرعه الاسلام فى أمر الرق ، وأما نظام الرق بأنواعه فقد وجده مشروعا فحرمه جميعا ، ولم يبح منه الا ماهومباح الى اليوم فىنظام الاسرىوتسخيرهم فى أعمال من يأسرونهم من المتقاتلين . وسبق القوانين الدولية بتقريره الزام الدولة واجب السعى فى اطلاق أسراها واعتاقهم بالفداء ، وشفع ذلك بالوسائل الفردية فيما تنتقل به الذمة الى الافراد من مالكى الارقاء بعد وفاء الدولة بذمتها

ولا يقال هنا أنه عمل كثير أو قليل ، بل يقال انهالعمل الوحيد الذى أستطيع فى محاربة نظام الرق ولم تستطع أمم الانسانية ماهو خير منه فى علاج هذه المسائل الى الآن ..

اى شفاعة كانت لاولئك المساكين المنسيين فى عصر يصفونه بحق ــ فى تاريخ العالم ــ بأنه عصر الجهـــالة والظلمات ؟

لقد كانوا ــ على كثرتهم أو قلتهم ــ أهون شأنا من أن يحفل بهم صاحب شريعة أو ولاية ، ولم يبلغ من مسألتهم فى جزيرة العرب ولا فى بلد من بلاد العالم أن تسمى مشكلة تلح على ولاة الامر أن ينظروا فى حلها بما يرضى العبيد أو بما يرضى السادة المتحكمين فيهم : كانت مســألتهم من المسائل المفروغ منها أو من مسائل العادة التى يتقبلها الناس على علاتها ولا يستغربون منها شيئا يدعوهم الى تعديلها ، بل الى الكلام فيها . فاذا بالاسلام يملى لهم على المجتمع حلا كحل الظافر المنتصر فى كفاح يسام مغلوبه مالم يكن ليرضاه باختياره ، واذا بالنظام العريق فى أمم الحضارة بقية من بقايا الامس رهينة بيومها الموعود

شأن الارقاء فى الجزيرة العربية أهون يومئذ من أن يدعو ولاة الامر الى عناية به على قصر أو على اختيار

وشأن الاسرى فى حروب الدول يومئذ كشأن الطريدة من الحيوان لاتسلم من التمزيق الا لتغنى غناء المطيـــة المسخرة فى غير رحمة ولا مبالاة بحساب . وشرائع الدين ــ كشرائع العرف ــ قدوة لا يقاس عليها ما شرعه الاسلام بغير سابقة فى أمر الاسرى ولا فى أمر الارقاء

شريعة العهد القديم كما نص عليها الاصحاح العشرون من كتاب التثنية تقول للمقاتل المؤمن بها :

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصلح . فان أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك . وان لم تسالمك بل عملت معــك حــربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والاطفال والبهائم وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب

الهك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الامم هنا . أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبقى منها نسمة ما بل تحرمها تحريما ... »

وأقسى من هذا الجزاء جزاء المدن التى ينجم فيهاناجم بالدعوة الى غير آله اسرائيل ، فانها كما جاء فى الاصحاح الثالث عشر من كتاب التثنية

« فضربا تضرب بحد السيف وتحرم بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف تجمع كل أمتعتها الى وسط ساحتها وتحرق بالنار .. المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب الهك ، فتكون تلا الى الابد لا تبنى بعده ... »

فالقدوة فى حروب الدين وحروب الفتح تغرى بالقسوة ولا تغرى بالعفو والرحمة . وأحرى بعرب الجاهلية أن يكونوا فى قسوة بنى اسرائيل أو أشد منهم قسوة لانهم أهل بادية مثلهم « يدهم على كل انسان ويد كل انسان عليهم » كما قيل عنهم فى العهد القديم .. فاذا عللت وصايا الرق فى الاسلام بالعلل الطبيعية التى تسيغها عقول منكريه فماذا يقول الذين ينكرون الدعوة الاسلامية تعصبا لدين آخر ؟ وماذا يقول الذين ينكرونها من الجاحدين للاديان ؟ ..

يقول المنكرون المتعصبون لدين غير الاسلام أن الدعوة برمتها تلفيق رجل دجال . ولا ندرى كيف تسيغ عقولهم أن يكون الرسول الدجال أرفع أدبا وأشرف خلقا وأبر بالانسانية الضعيفة من الرسل الصادقين المصدقين

ويقول المنكرون من أنصار العلل الطبيعية أن الدعوة الاسلامية وليدة البلاد العربية خرجت من أطواء عقائدها وتقاليدها ومأثوراتها . ولا ندرى كيف يكون الابهام والغموض اذا كان هذا هو التعليل والتفسير ، فاننا لانقول شيئا ترضاه العقول وتستريح اليه اذا قلنا ان البيئة

العربية جاءت بنقيض المنتظر منها .ونقيض المنتظر من العالم حواليها ..

ان تصديق أعجب الخوارق لاجدر بعقول الفريقين من قبول هذا اللغو الذى صدقوه واطمأنوا اليه . ونحن أيضا نريد للدعوة الاسلامية سببها المعقول فلا نرى تناقضا بين هذا السبب وبين الواقع الذى لاغرابة فيه الا اذا أوجبنا نحن على عقولنا أن تستغربه متعسفين

فالغريب عندنا أن يأتى رجل دجال بما لم تأت به أرفع الحضارات والديانات من قبله ، والغريب عندنا أن يكون محمد مبعوثا بارادة الامة العــربية وهى ماهى فى أيام الجاهلية ..

أما الواقع الموافق للعقل ، ولا مناقضة فيه لنواميس الكون ، فهو أن يخلق الله انسانا كاملا يلهمه الحق والرشد ويعينه الى الهداية عليهما بعمل يســتطيعه ويستطيع الناس ان يفهموه ــ متى حدث ــ كما يفهمون جــلائل الاعمال ــ الا انهم لايستطيعون أن يتوقعوه اذا قصروه على المألوف المعهود فى سياق التاريخ

وهذا تفسيرنا لوصايا الرق فى الاسلام ، ترتضيه عقولنا ونقول عن يقين أنه أقرب الى العقل من معجزة الدجــل ومعجزة النقائض المستحيلة ، ونحسب أن المكابرة تقصر عن الذهاب الى الامد الذى يدفعها اليه من لايفرقون بين الدجل والصدق أو لايفرقون بين الواقع والمستحيل

***

وتنطوى القرون ويتكشف الزمن عن ازمة الرق الكبرى فى التاريخ الحديث

ان وصايا الاسلام فى مسألة الرق خولفت كثيرا وكان من مخالفيها كثير من المسلمين ، ولكن الاسلام ــ على الرغم

من هذه المخالفة المنكرة ــ لايضيره ولا يغض منه قضاء التجربة العملية عند الموازنة بين جناية جميع المسلمين على الارقاء وجناية الاخرين من اتباع الاديان الكتابية

فالقارة الافريقية ــ فى بلاد السود ــ مفتوحة أمام أبناء السواحل المجاورة لها منذ مئات السنين ، ولم تفتح للنخاسين من الغرب الا بعد اتصال الملاحة على ساحل البحر الاطلسى فى العالم القديم والعالم الجديد

وفى أقل من خمسين سنة نقل النخاسون الغربيون جموعا من العبيد السود يبلغ عدد الباقين من ذريتهم ــ بعد القتل والاضطهاد ــ نحو خمسة عشر مليونا فى الامريكتين : عدد يضارع خمسة أضعاف ضحايا النخاسة فى القارات الثلاث منذ أكثر من الف سنة ، وهو فارق جسيم بحساب الارقاء يكفى للابانة عن الهاوية السحيقة فى التجربة العملية بين النخاستين ، ولكنه فارق هين الى جانب الفارق فى حظوظ أولئك الضحايا بين العالم القديم والعالم الجديد . فان فى الامريكتين الى اليوم أمة من السود معزولة بأنسابها وحظوظها وحقوقها العملية ، وليس فى بلد من بلاد الشرق أمة من هذا القبيل ، لان الاسود الذى ينتقل اليها يحسب من أهلها بعد جيل واحد ، له مالهم وعليه ماعليهم بغير حاجة الى حماية من التشريع أو نصوص الدساتير

حقوق الحرب

شاع عن الاسلام أنه دين السيف ، وهو قول يصح فى هذا الدين اذا أراد قائله أنه دين يفرض الجهاد ومنه الجهاد بالسلاح ، ولكنه غلط بين اذا أريد به أن الاسلام قد انتشر بحد السيف أو أنه يضع القتال فى موضع الاقناع ..

وقد فطن لسخف هذا الادعاء كاتب غربى كبير هو توماس كارليل صاحب كتاب « الابطال وعبادة البطولة » فانه اتخذ محمدا عليه السلام مثلا لبطولة النبوة وقال ما معناه :

« ان اتهامه بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم . اذ ليس مما يجوز فى الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته ، فاذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين مصدقين وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها »

والواقع الثابت فى أخبار الدعوة الاسلامية أن المسلمين كانوا هم ضحايا القسر والتعذيب قبل أن يقدروا على دفع الاذى من مشركى قريش فى مكة المكرمة ، فهجروا ديارهم وتغربوا من أهليهم حتى بلغوا الى الحبشة فى هجرتهم ، فهل يأمنون على أنفسهم فى مدينة عربية قبل

التجائهم الى « يثرب » واقامتهم فى جوار أخوال النبى عليه السلام ، مع مابين المدينتين من التنافس الذى فتح للمسلمين بينهما ثغرة للامان ؟ ولم يكن أهل يثرب ليرحبوا بمقدمهم لولا مابين القبيلتين الكبيرتين فيهما « قبيلتى الاوس والخزرج » — من نزاع على الامارة فتح بينهما كذلك ثغرة أخرى يأوى اليها المسلمون بعد أن ضاق بهم جوار الكعبة ، وهو الجوار الذى لم يضق من قبل بكل لائذيه فى عهد الجاهلية

ولم يعمد المسلمون قط الى القوة الا لمحاربة القوة التى تصدهم عن الاقناع ، فاذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها حاربوها لان القوة لاتحارب بالحجة والبينة ، واذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء

لذلك سالموا الحبشة ولم يحاربوها ، ولذلك حاربوا الفرس لان كسرى أرسل الى عامله فى اليمن يأمره بتأديب النبى أو ضرب عنقه وارسال رأسه اليه ، وحاربوا الروم لانهم أرسلوا طلائعهم الى تبوك فبادرهم النبى عليه السلام بتجريد السرية المشهورة الى تخوم الحجاز الشمالية ، وعادت السرية بغير قتال حين وجدت فى تبوك أن الروم لايتأهبون للزحف على بلاد العرب ذلك العام

ولم يفاتح النبى عليه السلام أحدا بالعداء فى بلاد الدولتين . انما كتب الى الملوك والامراء يبلغهم دعوته بالحسنى ، ولم تقع الحرب بعد هذا البلاغ بين المسلمين وجنود الفرس والروم الا بعد تحريضهم القبائل العربية فى العراق والشام على غزو الحجاز واعدادهم العدة لقتال المسلمين . وقد علم المسلمون باصرارهم على اغتنام الفرصة العاجلة لمباغتتهم بالحرب من أطراف الجزيرة ، ولولا اشتغال كسرى وهرقل بالفتن الداخلية فى بلادهما

لبوغت المسلمون بتلك الحرب قبل أن يتأهبوا لمدافعتها أو التحصن دونها

وفى الجزيرة العربية لم تقع حرب بين المسلمين وقبائلها الا ان تكون حرب دفاع أو مبادرة الى اتقاء الهجوم المبيت فى أرض تلك القبائل ، وكانت العداوة سافرة بين المسلمين ومشركي قريش لايكتمها المشركون ولا يواربون فيها ولا يخفون أنهم عقدوا النية على الايقاع بمحمد وأصحابه وفض العرب من حوله وايذاء كل من يدخل منهم فى دينه . فلم تكن بين المسلمين والمشركين حالة غير حالة الحرب الا فى أيام صلح الحديبية ، ثم عادت الحرب سجالا بين الفريقين حتى تم فتح مكة وانتقلت الحرب من قتال سافر بين المشركين والمسلمين الى قتال بالدس والمكيدة بين هؤلاء وزمرة المنافقين . وقد حرص الاسلام على تسمية كل عدو من أعدائه باسمه لايعدوه ولم يخلط بين حرب الشرك وحرب النفاق . لانه لايحاسب على العداوة بالنيات كما يحاسب على العداوة بالاعمال

أما قبائل الجزيرة العربية فى غير قريش فلم يحاربهم الاسلام الا حرب دفاع أو حرب مبادرة لاتقاء الهجوم من جانبها ، وأخبار السرايا الاسلامية فى بلاد العرب معروفة محفوظة بأسبابها ومقدماتها ، وكلها كما أحصاها المؤرخ العصرى ـ أحمد زكى باشا ـ حروب دفاع واتقاء هجوم ..

« ونذكر من بعد ذلك غزوة بنى قينقاع من يهود المدينة ، فقد حاربهم المسلمون لنقضهم العهد بعد غزوة بدر الكبرى وهتكهم حرمة سيدة من نساء الانصار ، ثم غزوة بنى غطفان ولم يخرج المسلمون لقتالهم الا بعد أن علموا ان بنى ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برئاسة دعثور المحاربى للاغارة على المدينة ، ثم سرية عاصم بن ثابت

الانصارى وكانوا مع رهط عضل والقارة الذين خانوهم ودلوا عليهم هذيلا قوم سفيان بن خالد الهذلى الذى قتله عبد الله بن انيس ، ثم سرية المنذر بن عمرو وهم سبعون رجلا يسمون القراء أخذهم عامر بن مالك ملاعب الاسنة لطمعه فى هداية قومه وايمانهم فلم يرع قومه جواره وقتلوا القراء ، ثم غزوة بنى النضير من يهود المدينة وذلك لنقضهم العهد والقائهم صخرة على النبى صلى الله عليه وسلم لما كان فى ديارهم ، ثم غزوة دومة الجندل ولم يخرج المسلمون لقتالهم الا لما علموا أن فى ذلك المكان أعـــرابا يقطعون الطريق على المارة ويريدون الاغارة على المدينة ، ثم غزوة بنى المصطلق وهؤلاء ممن ساعدوا المشركين فى أحد ولم يكتفوا بذلك بل أرادوا جمع الجموع للاغارة على المدينة ، ثم غزوة الخندق وكانت مع الاحزاب الــذين حاصروا المدينة ، ثم غزوة بنى قريظة من يهود المدينـــة لنقضهم العهد واجتماعهم مع الاحزاب ثم غزوة بنى لحيان لقتلهم عاصم بن ثابت واخوانه الذين حزن عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم غزوة الغابة لاغارة عيينة ابن حصن فى أربعين راكبا على لقاح للنبى صلى الله عليه وسلم كانت ترعى الغابة ، ثم سرية محمد بن مسلمة الى القصة لما بلغ المسلمين أن بذلك الموضع ناســـا يريدون الاغارة على نعم المسلمين التى ترعى بالهيفاء ، ثم سرية زيد بن حارثة لمعاكسة بنى سليم الذين كانوا من الاحزاب يوم الخندق ، ثم سرية زيد كذلك للاغارة على بنى فزارة الذين تعرضوا له ، ثم سرية عمر بن الخطاب لمـــا بلغ المسلمين من أن جمعا من هوازن يظهرون العـــداوة للمسلمين ، ثم سرية بشير بن سعد لما بلغهم من أن عيينة ابن حصن واعد جماعة من غطفان مقيمين بقرب خيبر

للاغارة على المدينة . ثم سرية غالب الليثى ليقتص من بني مرة بفدك لانهم أصابوا سرية بشير بن سعد ، ثم غزوة مؤتة وكانت لتعرض شرحبيل بن عمرو الغسانى للحارث ابن عمير الازدى رسول النبى صلى الله عليه وسلم الى أمير بصرى يحمل كتابا وقتله اياه ، ولم يقتل للنبى صلى الله عليه وسلم رسول غيره حتى وجد لذلك وجـــدا شديدا . ثم سرية عمرو بن العاص لما بلغهم من ان جماعة من قضاعة يتجمعون فى ديارهم وراء وادى القرى للاغارة على المدينة ، ثم سرية على بن أبى طالب لما بلغهم من أن بنى سعد بن بكر يجمعون الجموع لمساعدة يهــود خيبر على حرب المسلمين ، ثم غزوة خيبر لان أهلها كانوا أعظم محرض للأحزاب ، ثم سرية عبد الله بن رواحة لما بلغهم من أن باين رزام رئيس اليهود يسعى فى تحريض العرب على قتال المسلمين ، ثم سرية عمرو بن أمية الضمرى لقتل أبى سفيان جزاء ارساله من يقتل النبى عليه الصلاة والسلام غدرا ، ثم حرب العراق لما ارتكبه كسرى عندما أرسل اليه كتابا عرض عليه فيه الاسلام ، فانه مزق الكتاب وكتب الى بازان ــ أمير له باليمن يقول له : « بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى فسر اليه فاستتبه فان تاب والا فابعث الى برأسه . أيكتب الى هذا الكتاب وهو عبدى ؟ » فبعث بازان بكتاب كسرى الى النبى صــلى الله عليه وسلم مع فارسين يأمره أن ينصرف معهما الى كسرى فقدما اليه وقالا له : شاهنشاه بعث الى الملك بازان يأمره أن يبعث اليك من يأتى بك ، وقد بعثنا اليك فان أبيت هلكت وأهلكت قومك وخربت بــلادك . فليس بعد ذلك عذر للمسلمين فى امتناعهم عن حرب الفرس خصوصاوقد كان للعرب ثارات كثيرة فى ذمة العجم .. ثم غزوة تبوك لما بلغ المسلمين من أن الروم جمعت الجموع تريد غزوهم

فى بلادهم ، وقد أعتبها فتح الشام والقسم الاعظم من دولة الروم » (١)

فهذا حق السيف كما استخدمه الاسلام فى أشد الاوقات حاجة اليه ..

حق السيف مرادف لحق الحياة ، وكلما أوجب الاسلام فانما أوجبه لانه مضطر اليه أو الى التخلى عن حقه فى الحياة وحقه فى حرية الدعوة والاعتقاد . فان لم يكن درءا للعدوان والافتيات على حق الحياة وحق الحرية فالاسلام فى كلمتين هو دين السلام ..

وأيسر من استقصاء الحروب وأسبابها فى صدر الاسلام أن نلقى نظرة عامة على خريطة العالم فى الوقت الحاضر لنعلم أن السيف لم يعمل فى انتشار هذا الدين الا القليل مما عمله الاقناع والقدوة الحسنة . فأن البلاد التى قلت فيها حروب الاسلام هى البلاد التى يقيم فيها اليوم أكثر مسلمى العالم ، وهى بلاد أندونيسية والهند والصين وسواحل القارة الافريقية وما يليها من سهول الصحارى الواسعة . فأن عدد المسلمين فيها قريب من ثلثمائة مليون ، ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد الا القليل الذى لا يجدى فى تحويل الآلاف عن دينهم بله الملايين ، ونقارن بين هذه البلاد والبلاد التى اتجهت اليها غزوات المسلمين لاول مرة فى صدر الدعوة الاسلامية : وهى بلاد العراق والشام . فان عدد المسلمين فيها اليوم قلما يزيد على عشرة ملايين يعيش بينهم من اختاروا البقاء على دينهم من المسيحيين واليهود والوثنيين أو أشباه الوثنيين . ومن المفيد فى هذا الصدد

---

(١) المحاضرة السابعة من المحاضرات الاسلامية

أن نعقد المقارنة بين البلاد التى قامت فيها الدولة الاسلامية والبلاد التى قامت فيها الدول المسيحية من القارة الاوربية. فلم يبق في هذه القارة أحد على دينه الاول قبل دخول المسيحية. وقد أقام المسلمون قرونا فى الاندلس وخرجوا منها وأبناؤها اليوم كلهم مسيحيون ...

وأنفع من الاحصاءات والمقارنات أن تتفهم دخيلة الدين من روحه التى تصبغ العقيدة بصبغتها فيما يعيه المتدين على قصد منه أو فيما ينساق اليه بوحى من روح دينه كأنه عادة مطبوعة لا يلتفت الى قصده منها. وروح الاسلام فى العلاقة بين المسلم وسائر بنى الانسان تشف عنها كل آية وردت فى القرآن الكريم عن حكمة الاجتماع من أكبر الجماعات الى أصغرها، ومن جماعة النوع الانسانى فى جملته الى جماعة الاسرة، وطبيعة الاجتماع فى كل مخلوق انسانى منذ تكوينه فى أصلاب آبائه وأجداده. فما هى حكمة الاجتماع فى الشعوب والقبائل؟ وما هى حكمة الاجتماع فى بنيان الاسرة؟ وما هى حكمة الاجتماع فى خلق الانسان فى بطن أمه؟ ..

حكمتها كلها فيما يتعلمه المسلم من كتابه أنها وشيجة من وشائج المودة والرحمة، وسبيل الى التعارف والتقارب بين الغرباء.

فالتعارف هو حكمة التعدد والتكاثر بين الشعوب والقبائل من أبناء آدم وحواء:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا). (سورة الحجرات)

والمودة والرحمة هى حكمة الاجتماع فى الاسرة:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) .

(سورة الروم)

والنسب هو حكمة الاجتماع من خلق الانسان منذ تكوينه فى صلب ابيه :

(وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً).

(سورة الفرقان)

والمؤمنون اخوة ، والناس اخوان من ذكر وأنثى ، وشر ما يخشاه الناس من رذائلهم انها تلقى بينهم العداوة والبغضاء :

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ)

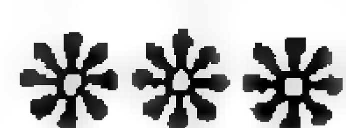
(سورة المائدة)

والعداوة والبغضاء هما الجزاء الذى يصيب الله به من ينسون آياته ويكفرون بنعمته ، وهما الجزاء الذى اصاب الله به اهل الكتاب بعد ما جاءهم من البينات فضلوا عن سوائه ولم يبق لهم من دينهم غير اسم يدعونه :

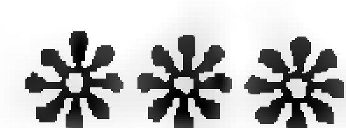
(وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) .

(سورة المائدة)

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (سورة المائدة)



ولا خفاء بروح الدين كما توحيه الى وجدان المسلم هذه الآيات وما في معناها من كلمات كتابه • فانها تلهمه أن المودة والرحمة حكمة الله فى خلقه ، وأن العداوة والبغضاء عقاب لمن يضلون عن حكمته ومغبة السوء التى تستدرجهم اليها الرذيلة والمعصية • ومن آمن بالله على هدى هذا الدين فقد آمن باله يرضيه من عباده أن يسلكوا سبيل المودة والسلام ويسخطه منهم أن يسلكوا سبيل العداوة والعدوان ••



وقد تعددت آراء المشترعين وأصحاب الآراء فى القوانين بين طائفة ترى أن الانسان مطبوع على الشر وأن حالة الحرب هى الحالة الطبيعية بين الناس حتى تتقرر بينهم حالة غيرها من أحوال المصالحة والتراضى على المسالمة والامانة ، وطائفة ترى أن الانسان ـ بطبعه ـ مخلوق وديع يدفعه الخوف والحاجة الى الشكاسة فيتعدى على كره ويصد

العدوان على كره وتجرى عادته على وفاق ما تمليه عليه معيشة الامن والرخاء أو معيشة القلق والاضطراب

والاسلام دين ينظر الى هذه المشكلة نظرة الدين ولا يعنيه الواقع ليجعله مثلا مختارا للعلاقة بين الناس . بل يعنيه الواقع ليختار لهم ما هو أجدر باختيارهم وأصلح لشئون أفرادهم وجماعاتهم ، ويروضهم على أن يكونوا خيرا من الواقع فيما يطيقونه وينفعهم أن يطيقوه

فالعلاقة بين الناس فى دستور الاسلام علاقة سلم حتى يضطروا الى الحرب دفاعا عن انفسهم او اتقاء لهجوم تكون المبادرة فيه ضربا من الدفاع . فالحرب يومئذ واجبة على المسلم وجوبا لا هوادة فيه ، وهو ــ مع وجوبها ــ مأمور بأن يكتفى من الحرب بالقدر الذى يكفل له دفع الاذى ، ومأمور بتأخيرها ما بقيت له وسيلة الى الصبر والمسالمة ويتكرر هذا الامر كلما تكرر الاذن بالقتال والتحريض عليه، وكل تحريض أمر به ولى الامر فى القرآن فهو التحريض على تجنيد الجند وحض العزائم على حرب لم يبق له محيد عنها ، ولا غرض له منها الا أن يكف بأس المعتدين عليه وعلى قومه ، ثم لا اكراه له فى هذه الحرب على متطوع لقتال أو نجدة وهذا هو موضــــع التحريض فى قوله تعالى :

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً) .

(سورة النساء)

أما اوامر القتال فمن آياتها فى القرآن الكريم ماورد فى سورة البقرة :

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا
إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى
عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ)

وفى سورة النحل :

(أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ
مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)

وفى سورة الانفال :

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ)

وفى سورة النساء :

(فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ
فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً)

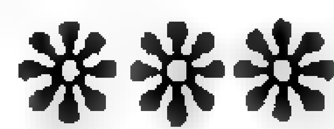
***

أما المشركون الذين لم يصدوا المسلمين عن دينهم ولم

يبادئوهم بالعدوان فلا حرج على المسلم أن يبر بهم ويعدل في معاملتهم وأن يعاهدهم ويوفى لهم عهدهم الى مدته والى أن ينقضوه مخالفين بما عاهدوا عليه ان لم يكن له أجل محدود :

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الممتحنة)



(إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

(سورة التوبة)

ولم يجعل الاسلام وفاء المعاهدين بعهودهم تدبيرا من تدبيرات السياسة أو ضرورة من ضروراتها التى تجوز فيها المراوغة عند القدرة عليها . بل جعله امانة من أمانات العقل والضمير وخلقا شريفا يكاد الخارج عليه ان يخرج من آدميته ويسلك فى عداد السائمة التى لا ملامة عليها :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً)

(سورة النحل)

***

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَيُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَيَتَّقُونَ)

(سورة الانفال)

***

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

(سورة التوبة)

***

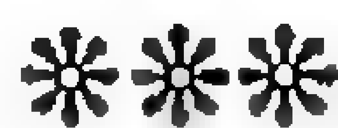
ومن توكيد الاسلام لواجب الوفاء بالعهد أنه يحرم على المسلمين أن يستجيبوا القوم منهم يستنصرونهم فى الدين اذا كان بينهم وبين أعداء المستنصرين لهم عهد وميثاق :

(وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ)

(سورة الانفال)

ولا يبيح الاسلام لولى الامر أن يستخدم السيف فيما شجر بين المسلمين من نزاع يخاف أن يفضي بينهم الى القتال الا اذا بغت طائفة منهم على الاخرى فله بعد استنفاد الحيلة فى الاصلاح بينهما أن يقاتل الفئة الباغية حتى تكف عن بغيها :

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (سورة الحجرات)



وفيما عدا العلاقة التى تنعقد بين المسلمين وابناء دينهم أو بينهم وبين المعاهدين لا تكون الامة التى لا ترتبط بالدين ولا ترتبط بالعهد الا عدوا يخاف ضرره ولا يؤمن جانبه الا على وجه من الوجهين : أن يقبل الدين أو يقبل الميثاق

والاسلام يسمى بلاد هذا العدو « دار حرب » لانها بلاد لا سلام فيها للمسلم ، ويفرق بين حقوقها وحقوق المسلمين أو حقوق المعاهدين ، ولا يعترف لها بهذه الحقوق أو تلك الا أن تدين بالاسلام أو تقبل الصلح على عهد متفق عليه ..

وليس معنى هذا التقسيم الطبيعى فى الحقوق أن الاسلام يكره القوم على قبوله اذ أن نص القرآن الكريم يمنع الاكراه فى الدين :

(لَاإِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَاانْفِصَامَ لَهَاوَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (سورة البقرة)

ولكن معنى تقسيم البلاد الى بلاد سلم وبلاد حرب ان بلاد الحرب لا تدخل فى السلم الا اذا قبلت الدين وتعاهدت على الصلح بقتال أو بغير قتال .. وتأبى طبيعة الامور تقسيما لحقوق السلم والحرب غير هذا التقسيم

ومتى وقعت الحرب فلا قتال لاحد غير المقاتلين ولو كان من بلاد الاعداء ، ولم يكن النبى عليه السلام وخلفاؤه يتركون المقاتلين من المسلمين المتوجهين الى الحرب بغير وصاية مشددة يحاسبونهم عليها فيما يتبعونه من خطة قبل الرعايا المسالمين من أعدائهم ، وخلاصة هذه الوصايا كما أجملها الخليفة الاول أبو بكر الصديق : « ألا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم للصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له »

وتشتمل تعاليم الاسلام على أحكام مفصلة لكل حالة من الحالات التى تعرض بين المتحاربين فى اثناء القتال او بعده . وهى حالات الامان والاستئمان والمهادنة والموادعة والصلح على معاهدة

فالامان هو « رفع استباحة الحربى ورقه وماله حين قتاله أو العزم عليه »

والاستئمان هو « تأمين حربى ينزل لامر ينصرف بانقضائه » ..

والمهادنة « عقد لمسلم مع حربى على المسالمة مدة ليس هو فيها على حكم الاسلام » ..

والموادعة « عقد غير لازم محتمل النقض ، للامام أن ينبذه حسب قوله تعالى : « وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » ..

ويشترط فى حالة النبذ أن يبلغه القائد الى جنده والى الاعداء وهم على حكم الامان حتى يعلموا بانتهاء الموادعة (١) ..

والوفاء بالشرط المتفق عليه فى كل حالة من هذه الحالات فريضة مؤكدة بنصوص القرآن الكريم ونصوص الاحاديث النبوية ، تقدمت بها الامثلة فى معاهدات النبى عليه السلام ومعاهدات خلفائه رضوان الله عليهم ، وأشهرها عهد الحديبية قبل فتح مكة وعهد بيت المقدس بعد فتح الشام ..

فالنبى عليه السلام قد اتفق على عهد الحديبية بعد هجرته من مكة بست سنوات .. وكان يريد الكعبة معتمرا مع طائفة من صحبه فتصدى له المشركون وحالوا بينه وبين البيت الحرام ، فقال النبى عليه السلام لرسولهم : « انا لم نجىء لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين . وان قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فان شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس .. فان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا والا فقد حموا ، وان هم أبوا فوالذى نفسى بيده لاقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى وينفذن الله أمره» . ثم أنفذت قريش رسولها

(١) تراجع البدائع للكاسانى وشرح حدود الامام الاكبر للتونسى وزاد المعاد لابن القيم

سهيل بن عمرو العامرى فاتفق مع النبى عليه السلام على أن يرجع النبى وصحبه فلا يدخلوا مكة تلك السنة ، فاذا كانت السنة القادمة دخلوها فأقاموا فيها ثلاثا بعد أن تخرج منها قريش ، وتهادنوا عشر سنين لا حرب فيها ولا أغلال ولا أسلال ، ومن أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده اليهم ، ومن أتى قريشا من المسلمين لم يردوه ، واستكثر المسلمون هذا الشرط فقال عليه السلام : نعم انه من ذهب منا اليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فيجعل الله له فرجا ومخرجا . ومن أحب منهم أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ..

ثم أخذ النبى عليه السلام فى املاء العهد وابتدأه «بسم الله الرحمن الرحيم » فأبى سهيل بن عمرو أن يبدأ العهد بهذه الفاتحة الاسلامية وقال بل يكتب : باسمك اللهم . فأجابه النبى الى ما طلب ومضى يملى قائلا : هذا ما قاضى عليه رسول الله . فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك ولا قاتلناك ، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك ..

وبينما هم يكتبون العهد لم يفرغوا منه أقبل أبو جندل ابن سهيل بن عمرو يرسف فى القيود فرمى بنفسه بين المسلمين ، فقال سهيل : هذا يامحمد أول ما أقاضيك عليه وأخذ بتلابيب ولده . فقال النبى لابى جندل :«يا أبا جندل ! قد لجت القضية بيننا وبينهم ولا نغدر..» ومضى النبى وصحبه على رعاية عهدهم حتى نقضته قريش وأمدت بنى بكر بالسلاح والأزواد فى حربهم لبنى كعب فأصبح المسلمون فى حل من نقض ذلك العهد ، وعمدوا الى مكة فاتحين ففتحوها بعد ذلك بقليل

أما عهد بيت المقدس فذلك هو العهد الذى كتبه الخليفة عمر بن الخطاب لأهل ايليا ، وهو أشهر العهود فى

صدر الاسلام بعد عهد الحديبية ، وفيه يقول الخليفة العظيم : « انه أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، وانه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار على أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وأن يخرجوا منها الروم واللسوت ، ومن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام معهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية .. ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بينه وبين صلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم »

وقد حدث أثناء التعاهد على هذا الصلح حادث كحادث أبي جندل عند كتابة صلح الحديبية ، فحان موعد الصلاة والخليفة العظيم فى كنيسة بيت المقدس ، ولا مانع عند المسلم من اقامة الصلاة فى الكنائس أو فى معابد الاديان غير الاسلام . اذ أينما تكونوا فثم وجه الله ، ولكنه أشفق أن يقيم الصلاة فى مكان فيحرص المسلمون بعده على احتجاز ذلك المكان الذى صلى فيه أمير المؤمنين . فخرج من الكنيسة وصلى فى جوارها ولم يبح لنفسه أن يورط اتباعه فى ذريعة يتعللون بها لمخالفة عهد من عهوده

وكلا العهدين ، عهد مكة وعهد بيت المقدس ، يفند زعم الزاعمين أن الاسلام يعتمد على الاكراه فى نشر دعوته وثانيهما — وهو عهد الصلح فى الشام بعد هزيمة دولة الروم — واضح فى بيان الشروط التى يعرضها الاسلام على المعاهدين بعد الحرب التى ينتصر فيها . فمن أحب أن يقيم فى مكانه فله أن يقيم وهو آمن على نفسه ودينه

وحريته ، ومن أحب ان يرحل الى بلاد الدولة المنهزمة فله أن يرحل كما أراد وهو آمن فى طريقه ، ومن دان بالاسلام فهو مقبول فى زمرة المسلمين ، ومن بقي على دينه فليس عليه الا أن يؤدى الجزية فتحميه الدولة مما يحمى منه سائر رعاياها وله ما لهم وعليه ما عليهم الا الحرب ، فانها لا تطلب منه فى خدمة دين غير دينه

وشرع الاسلام القتال على درجات فلم يشرع حالة الا وضع لها حدودها وبين للمسلمين ما يجب عليهم فيها ، وتم له فى نحو عشرين سنة قانون دولى كامل لأحوال الحرب مع المقاتلين على اختلافهم ، فأتم فى القرن السادس ما بدأت فيه أوربا فى القرن السابع عشر ، ولم يزل قاصرا عن غايته مهملا فى ساعة الحاجة اليه

بدأ النبى عليه السلام دعوته واستجاب له من استجاب من قومه وهو لا يأذن بقتال . فلما اشتد به وبأصحابه ما أصابهم من أذى المشركين فعذبوهم وفتنوهم وأخرجوهم من ديارهم كان ذلك بداءة الاذن بمقاتلة المعتدين فى الحد الذى يكفى لدفع العدوان ، كما تقدم ، ولا يبقى بعده أثر للضغينة والانتقام :

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) . (سورة الحج)

وكان النبى صلوات الله عليه يعاقب فى حروبه بمثل ما عوقب به ولا يجاوزه الى اللدد فى الخصومة ، فاذا انتهت الحرب على عهد من العهود وفى به وأخذ على اتباعه أن يفوا به فى غير أغلال ولا أسلال ، أى فى غير خيانة ولا

مراوغة . وثابر على الوفاء فى جميع عهوده ، وثابر أهل الجزيرة من المشركين واليهود على الغدر بكل عهد من تلك العهود ، وعقدوا النية سرا وجهرا على اعنات المسلمين واخراجهم من ديارهم .. لا يحرمون حراما فى مهادنتهم ولا فى مسالمتهم ولا يزالون يؤلبون عليهم الاعداء من داخل الجزيرة وخارجها . وأصروا على ذلك مرة بعد مرة حتى أصبحت معاهداتهم عبثا لا يفيد ولا يغنى عن القتال فترة الا ردهم اليه بعد قليل ، ووضح من لدد القوم واصرارهم عليه أنهم لا يهادنون الا ليتوفروا على جمع العدة وتأليب العدو من الخصوم والاحلاف ، فبطلت حكمة الدعوة الى العهد ولم يبق للمسلمين من سبيل الى الامان معهم الا أن يخرجوهم من حيث ارادوا أن يخرجوا المسلمين ولا يبقوا أحدا غير مسلم فى تلك الجزيرة التى أبت أن تكون وطنا للمشركين وأحلافهم دون سواهم . فانتهت حكمة التخيير بين المعاهدة والقتال ، ووجب الخيار بين أمرين لا ثالث لهما ، وهما الجوار على الاسلام أو على الخضوع لحكمه ، فلا جوار فى الجزيرة لاحد من المشركين وأحلافهم اليهود الا أن يدين بالاسلام أو بالطاعة

« وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ »

(سورة البقرة)

وقال النبى عليه السلام يومئذ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فمن قالها عصم منى ماله ودمه الا بحقها وحسابهم على الله »

وفى هذا المعنى ينص القرآن الكريم على محاربة أهل الكتاب الذين تحالفوا مع المشركين ونقضوا العهود المتوالية بينهم وبين النبى كما تقدم فى ذكر الغزوات والسرايا :

(قَاتِلوا الَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَاحَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) . (سورة التوبة)

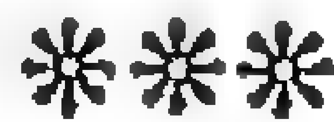
والوجه الوحيد الذى ينصرف اليه هذا الحكم أنه حيطة لا محيد عنها لضمان أمن المسلمين مع من يجاورونهم فى ديارهم ويتآمرون على حربهم ، فلا يحل للمسئول عن المسلمين أن يكل أمانهم الى عهد ينقض فى كل مرة . ولكنه يأمن عليهم فى جوار قوم مسلمين او قوم مطيعين للدولة يؤدون لها حقها ، فهم اذن لا يملكون من الاستقلال بالعمل فى طاعة تلك الدولة ما يملكه المعاهد المؤمن على عهوده

***

وعلى الجملة شرع الاسلام حكما لكل حالة يمكن أن توجد بينه وبين جيرانه على الحذر أو على الامان . فنص على حالة الدفاع والعدوان ، ونص على الدفاع الواجب فى حدوده على حسب العدوان ، ونص على التعاهد والمسالمة الى مدة او الى غير مدة ، ولما بطلت جدوى المعاهدة لم تبق له خطة يأخذ بها أعداءه غير واحدة من اثنتين : الحرب أو الخضوع للاسلام ايمانا به أو طاعة لموالاته ، ولم يجعل الايمان بالاسلام حتما على أعدائه المصرين على العداء . بل جعله خيارا بين امرين ، ومن سام الاسلام ان يرضى بغير هذين الامرين فقد سامه ان يرضى بحالة ثالثة لا يرضاها أحد وهى حالة الخوف الدائم من عدو متربص

به لا تجدى معه المهادنة ولا يؤمن على عهد من العهود

وانقضى عهد النبى صلوات الله عليه والمسلمون يعلمون حدودهم فى كل علاقة تعرض لهم بين أنفسهم وبينهم وبين جيرانهم : علاقة المودة والوئام ، وعلاقة الشغب والفتنة . وعلاقة الحرب أو علاقة التعاهد أو علاقة الموادعة والمهادنة أو علاقة الامان والاستئمان . وهذه العناية باقامة الحدود وبيان واجباتها هى وحدها حجة قائمة للاسلام على خصومه الذين يتهمونه بأنه دين الاكراه الذى لا يعرف غير شريعة القوة أو شريعة السيف . فمن كان لا يعرف غير شريعة السيف فما حاجته الى بيان لكل حالة من حالات السلم والحرب بأحكامها وواجباتها وحدودها وتبعاتها ؟ لا حاجة به الى حد من هذه الحدود ما دام معه السيف الذى يجرده متى استطاع ، ولا حاجة به الى حد من هذه الحدود ما دام عزلا من السيف مغلوبا على كل حال . فانما يبحث عن تلك الحدود من يضع السيف فى موضعه ويأبى أن يضعه فى موضع المسالمة والاقناع ، وكذلك كانت شريعة الاسلام منذ وجب فيه القتال ، ولم يوجبه الا البغى والقسر والعنت والاخراج من الديار



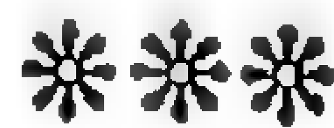
وبينما كانت هذه الحدود معلومة مقسومة بأقسامها وتبعاتها فى شريعة الاسلام كانت العلاقة بين الامم فى القارات الثلاث فوضى لا تثوب الى ضابط ولا يستقر بينها السلام الا حيث يمتنع وجود المحارب فيمتنع وجود الحرب بالضرورة التى لا اختيار فيها ..

كانت شريعة الرومان أن كل قوى يجاورك عدو تقضى عليه . فلم يكن للقارة الحديثة (التى سموها بقرطاجنة) من ذنب الا انها دولة قوية تعيش على العدوة الاخرى

من بحرهم الذى أغلقوه دون غيرهم Mare clausum أو الذين سموه بحرنا وحرموا على غيرهم أن يشاركهم فيه Mare Nostrum وكذلك كانت شريعة فارس فى الشرق مع من يجاورها ، وكذلك كانت شريعة الاسكندر وخلفائه على دولته الواسعة، وكذلك بقيت شريعة الدول فى القارة الاوربية الى القرن السابع عشر أول عهدهم بالبحث فى الشرائع الدولية وحقوق الحرب والسلام . فلم يلتفتوا قط الى البحث فى الحقوق يوم كان الحق كله للسيف تتولاه دولة واحدة تخضع من حولها من الرعايا المتفرقين ولا تنازعها دولة أخرى فى ولايتها عليهم واستبدادها بأمرهم : لم تكن هناك شريعة فى الحقوق يوم كانت شريعة السيف كافية مغنية لمن يملكه اذا غلب ولمن يخضع له اذا حقت عليه الغلبة . فلما انقسمت الدولة الكبرى فى القارة الاوربية تفرقت الدول شيعا وتنازعت العروش والتيجان تنازع الحطام الموروث لا تنازع الحقوق والواجبات بين الامم والشعوب . ويومئذ – فى أوائل القرن السابع عشر – بدأت بحوثهم فى حدود الحرب والسلام وتصدى فقيههم الكبير جروتيوس Grotius لاستنباط هذه الحدود من وقائع الاحوال فيما سماه بقانون الحرب De Jury Beit ، ولا يزال بينهم أساس المراجع الى العصر الحديث . لم يحدث فيه جديد ذو بال الا انهم يرجعون عنه الى الوراء عدة قرون ، فيبيحون اليوم ما كان محظورا من اقتحام الحرب بغير علة أو بلاغ

وان القارىء المسلم ليبتسم حين يقرأ فى مراجع تلك البحوث الفجة انها بحوث فى شريعة تسرى على العالم الأوربى الذى كان معروفا يومئذ باسم العالم المسيحى Christendom ولا تسرى على العالم المحمدى Mohammedenism لانه عالم جهالة لا يفقه هذه الحدود ولا يلتزم بواجباتها وتبعاتها .. فمن دواعى السخرية حقا ان يقال هذا عن

دين يتناول المتعلم المبتدىء فيه مرجعا من مراجع أصوله التى فرغ البحث فيها منذ القرن السادس للميلاد فيرى فيه احكام الاعلان والتبليغ والنبذ والمعاهدة والصلح والذمة والهدنة والموادعة والسفارة والوساطة ، ويرى لكل حكم من الاحكام واجباته على المسلم فى حالتى ابرامه ونقضه وواجبات الامام والرعية فيه مفصلة مرددة كأنها صيغ العقود التى يتحرى فيها الموثقون غاية التوكيد والتقييد منعا للاغلال والاسلال كما جاء فى أول عهد بين الاسلام والمشركين . فان القارىء المسلم حين يمر بذلك السخف المضحك فى بواكير القانون الدولى عند القوم ليحس كأنه على مشهد من الاعيب أطفال يتواصون فيما بينهم على كتمان أسرارهم عن كبارهم .. لان هؤلاء الكبار الخبثاء اغرار لا أمان لهم على تلك الاسرار !



ومن البديهى أن الاديان تعليم يبين للناس مواطن التحليل والتحريم ، وليست هى بالقوى المادية التى تجرهم من أعناقهم الى الخير وتحيطهم بالسدود لتصدهم عن مقارفة الشر ، وليست هى بترياق الساعة الذى يقال فى أساطير السحر انه يبرىء الادواء لساعته ويخلفها بالصحة السابغة والشباب الخالد .. وقصاراها من الهداية انها كالمصابيح التى تنير المسالك امام السالك وتبطل العذر لمن يسلك أسوأ الطريقين على علم بما فيه من السوء والعوج وما فى غيره من السداد والاستقامة ، وهى على هذا كسب عظيم لبنى الانسان يضيرهم أن يفقدوه . فالناس يخالفون القوانين والآداب كل يوم ولا يقال من أجل هذا انهم لم يكسبوا شيئا بتدوين القوانين والمطالبة برعايتها ، وانهم فى الزمن الذى يخالفون فيه القانون لا يزالون كما كانوا

فى زمن الهمجية السائمة لا يميزون بين المحرم والمباح ولا يعرفون أنهم خالفوا القانون أو لم يخالفوه

والمسلمون قد تعلموا أصول « القانون الدولى » قبل ظهور القانون الدولى فى الغرب بأكثر من عشرة قرون ، فخالفوه كثيرا فيما بينهم وخالفوه كثيرا فيما بينهم وبين غيرهم ، وتمحلوا المعاذير احيانا لتسويغ الحرب التى لا تسوغ ونقض العهود التى يوصيهم الدين برعايتها ، وظهر بينهم المجرمون الدوليون كما يظهر المجرمون والعصاة مع كل قانون وكل عرف مأثور . الا أن هؤلاء المجرمين ـ كثروا أو قلوا ـ لم يبطلوا فضيلة دينهم ولم ينسخوا أحكامه بعصيانهم ، وذهبوا وبقيت تلك الاحكام ماثلة أمام ولاة الامر يطيعونها أو يسول لهم الطمع أن يتعدوا حدودها ، فلا يجسروا على تعديها جهرة الا أن يتمحلوا لها معاذيرها ويبدلوا معالمها ، ومن لج به البغى فتعدى حدودها ولم يكترث لعواقب العدوان لم ينج من تلك العواقب فى مصيره وانتهى به البغى الى نهاية كل جامح عسوف مستبد برأيه

ولما تجاورت دول الاسلام ودول الغرب حول البحر الابيض المتوسط كانت شريعة الدول الغربية فى القانون الدولى هى الشريعة التى خلفتها لها دولة الرومان :

من جاورك فهو عدوك تخضعه أو يخضعك وتبدأ بالحرب متى استطعت أو يبدؤك هو بالحرب متى استطاع ...

وكانت هذه الشريعة على أشدها فى معاملتهم لبلاد المسلمين لانهم أفردوها بعداء واحد فوق كل عداء ..

واذا وضع الميزان بين هذه الدول فى هذه الفترة ذهبت كل غدرة من جانب الدول الاسلامية بغدرة مثلها من جانب الدول الغربية وبقيت فى كفة الغرب غدرات كثيرة لا نظير لها ولا مسوغ لها غير شريعة العداء الدائم فى جميع الاحوال ..

والترك العثمانيون هم مضرب المثل عند الغربيين للشريعة التى تجوز فى معاملات الغرب ولا تجوز فى معاملات الامم الاخرى . ومنهم من يخلط بين كلمة التركى وكلمة المسلم فيظن أن المسلمين كلهم من الترك ، ويكتب كتابهم يومئذ عن قسوة التركى وذمة التركى ولباس التركى ولغة التركى وهو يشمل بالكلمة جميع المخالفين للاوربيين من المسلمين . وحقهم فى عرف القوم انهم لا حق لهم معروف بين حقوق الادميين

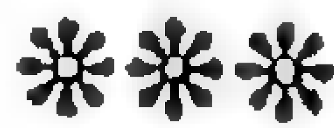
ولكن هؤلاء الترك لم يكن من شريعتهم قط أنهم يعاملون اناسا سلبت حقوقهم واستبيحت دماؤهم وأموالهم لهم بلا سبب ولا مسوغ غير الخلاف فى الدين . وطالما هم سلاطين الترك باكراه المسيحيين فى بلادهم على الاسلام أو تستباح دماؤهم وأموالهم فنهاهم عن ذلك شيوخ الاسلام وقيدوهم بالفتاوى الشرعية التى لا تبيح للسلطان المسلم أن يقتل ذميا أو يقتل مخالفا يقبل أداء الجزية بعد تخييره بينها وبين الاسلام .. ولولا هذه الفتاوى لاستطاع سلاطين الترك أن يحولوا أوربة الشرقية الى الدين الاسلامى فى جيل واحد أو جيلين ، ولولا ان الفتوى الشرعية كانت لها رهبتها فى ضمير السلطان المسلم لما اكترث لها أولئك السلاطين الاقوياء المتحكمون فى ممالكهم ولا سيما أيام الفتوح التى أضافت الى قوتهم عظمة المجد وخيلاء الظفر والسطوة . فقد كانت رهبة الفتوى من العالم العارف بأوامر الدين ونواهيه تخيف بطل الحرب الذى لا تخيفه الجيوش والمعامع لانها رهبة من الله سيد السادة وملك الملوك القادر على أن يخذل المنتصر وينصر المخذول ، بل كانت هذه الرهبة تزلزل العروش تحت أربابها وتطيح بهم من فوقها ، وكثيرا ما لجأ اليها المنكرون لحكم السلطان فاستندوا اليها فى جواز خلعه ، وكثيرا ما لجأ

اليها السلاطين أنفسهم لاجازة ولاية بعدهم لاتجيزها لهم قوة السيف والمال ، أو لاجازة العقاب الذى يحلونه بالعصاة ولابد له من سند شرعى يسوغه لولى الامر القادر عليه ، وما استطاع السلطان ان يوقع بجمع « الانكشارية» المتمردين على الاصلاح الا بسند من تلك الفتاوى يحتمى به من غضب الله وغضب رعاياه

ومن أضاليل فقهاء الغرب فى القانون الدولى أنهم أسقطوا حقوق الترك فى المعاملات الدولية لانهم مغيرون على البلاد الاوربية فى غير مسوغ للاغارة عليها ، وهم ـ أى هؤلاء الفقهاء ـ لا يشق عليهم أن يعلموا مسوغ تلك الاغارة لو كان لهم ميزان واحد للمعاملات بين الدول يزنون به حقوقها جميعا على سواء . فان العالم الاوربى ـ باتفاق ملوكه وأمرائه وبابوائه ـ قد شهر الحرب على العالم الاسلامى فى حروبه الصليبية قبل زحف الترك العثمانيين على اسيا الصغرى فى أواخر القرن الثالث عشر للميلاد وكانت أخبار مذابح المسلمين فى بيت المقدس وفى المغرب الاندلسى تجوب افاق القارة الافريقية الى أقصاها جنوبا ، وتتغلغل فى انحاء العالم الاسلامى من الحجاج والمهاجرين فى كل عام ، فلا تدع مسلما فى الارض بمعزل عن الشعور بحالة الحرب الداهمة لانه يعلم أنها مشهورة عليه . ولعل فقهاء الغرب يجهلون عمق هذا الشعور الذى ملأ جوانب العالم الاسلامى عدة قرون لانهم يجهلون مدى انتشار الخبر الذى يهم شعوب المسلمين على افواه القوافل المترددة فى آسيا وافريقيا من الحجاج والمهاجرين . وعمق هذا الشعور هو الذى قوض دولتى الاسبان والبرتغال فى آسيا قبل سائر المستعمرين لانهما وصلتا الى الشرق الاسلامى مسبوقتين بسمعة العداوة التى لا عداوة مثلها لشعوب الاسلام . أما أن يعلم فقهاء الغرب عمق هذا الشعور فى

بلاد العالم الاسلامى ثم يستكثروا على شعب من شعوبه أن ينظر الى الغرب نظرته الى محارب يقتص منه فلا عذر له الا الاثرة العمياء التى تجيز لصاحبها أن يقتحم بلاد غيره ثم لا يفهم من اقتحام بلاده بعد ذلك الا أنه عدوان بغير سابقة وبغير حجة !

وتأبى الحوادث الا أن تجيء عفوا بما ينقض دعوى هؤلاء الفقهاء عن رعاية الاسلام للقوانين والعهود ، فيطلق الغرب نفسه لقب « سليمان القانونى » على سلطان من أكبر سلاطين القسطنطينية لم يشتهر بعمل من أعماله الحربية كما اشتهر بأعماله القانونية التى أقامت المعاملات بين الغرب وبلاده على سنن التشريع والمعاهدة ، وهذه هى السنن التى اعترف بها فى ابان مجده وقوته منحا سخية للغرب فما زالت حتى أصبحت مع الضعف قيودا وأغلالا يتحكم بها المستعمرون الغربيون فى أعناق الشرقيين !



ونحن نكتب هذه السطور عن حقوق الامم فى الاسلام وعن حقوقها عند فقهاء الغربيين بعد أن تنبهوا الى البحث فيها منذ أوائل القرن السابع عشر ولا ندرى ما مصير هذه الحقوق من الوجهة العملية فى عالمنا الحديث

فقد تقهقرت دول الغرب فى بعض احكام القانون الدولى الى ظلمات القرون الوسطى ، واسقطت حرمته فى اخطر الحقوق وهو حق المفاتحة بالحرب او حق الاغارة على الامم بغير اعلان

وان تقدم العالم الانسانى بالقانون الدولى لهو ضرورة قاسرة ليس فيها كبير فضل من نصوص واحكام ولا كبير فضل للمقاصد والنيات . فان اشتباك العالم فى المصالح بعد اقتراب انحائه بالمواصلات وتسامع الاخبار قد خلق بين الامم علاقات مقصودة وغير مقصودة ترغم القوى على

محاسنة الضعيف ، وتجعل الخطر فى بعض أطراف الكرة الارضية محسوسا به فى ابعد اطرافها من بلاد الاقويا‌ء والضعفاء ..

فهذه العلاقات مرجوة الخير مبتدئة بالامم فى طريق لا يسهل عليها النكوص عنه وهى آمنة على سلامتها وسلامة العالم الانسانى فى جملته ، فاذا صح فيها رجاء العالم الانسانى فهو رجاء يساق الغرب فيه بسائق الضرورة العمياء ويقل فيه فضل السعى والتدبير ، ولكنه رجاء يتلقاه المسلم تصديقا لايمانه بالله ولعقيدته فى حكمته . لانه يؤمن بأن التعارف بين الناس هو الحكمة الالهية من خلق الشعوب والقبائل واختلاف الاجناس والالوان

حق الإمـام

الامام فى الاسلام هو وكيـل الامة فى اقامة حـدود الله . فحقه مرادف لحق الامة ماقام بهذه الامانة . لانه يتولى الامامة لايتاء كل ذى حق حقـه ، ويملك الامر وتجب له الطاعة فيما تدعو مصلحة الامة فيه الى تشريع جديد

وطاعته مقرونة بطاعة الله ورسوله :

(أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرَ مِنْـكُمْ)

(سورة النساء)

وفى الحديث الشريف : « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الامير فقد أطاعنى ومن يعص الامير فقد عصانى . اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى كان راسه زبيبة »

وليس للامام أن يعطل حدا من حدود الله

وليس له أن يقيم حدا منها فى غير موضعه

واقامته فى غير موضعه أن يقام حيث لاتثبت أركانه ولا تدرأ شبهاته . فالامام الذى يعطل الحد مخـالف لاوامر الله ، والامام الذى يقيم حدا ليس ثابت الاركان ولا مدروء الشبهات مخالف لاوامر الله

وعلى الامام تقع تبعة الامة كلها فى تقدير مصالحها وضروراتها وتقـدير مايترتب على هـذه المصـالح والضرورات من اجراء الاحكام أو وقفها أو التوفيق بينها وبين أحوالها ...

وليس هذا من الاجتهاد الذى يجوز فيه الخلاف ، لان الاجتهاد اعتماد على تقدير لم يرد فيه نص صريح ، وأما رعاية الضرورات فقد وردت فيها نصوص صريحة لاتفهم على معنى من المعانى ان لم يكن معناها أن للاضطرار حكما غير حكم الاختيار ، وان تقدير الاضطرار فى تطبيق الشرع موكول الى ولى الامر ساعة حصوله :

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ) .

(سورة البقرة)

***

(وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَاحَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَااضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ)

(سورة الانعام)

***

(فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(سورة المائدة)

والامر بالتفكير نص صريح فى القرآن الكريم . كهذه النصوص عن الضرورات ، فليس من الدين أن يتلقى المسلم آيات ربه فى كتابه وآيات ربه فى خلقه بغير تفكير :

(فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

(سورة الاعراف)

***

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

(سورة النحل)

***

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

(سورة النحل)

***

(كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

(سورة الروم)

***

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ»

(سورة الانعام)

***

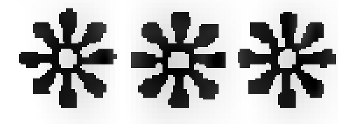
«وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» . (سورة البقرة)

***

وليس فى القرآن الكريم امر واجب على الانسان أكثر

من واجب العقل والتفكير ، وليس فيه نعى على قوم أشد من النعي على الذين لايعقلون ولا يتفكرون ..

فرعاية الضرورات نص صريح ، والامر بالتعقل والتفكير نص صريح ، ومن قال بغير ذلك فهو الذى يجتهد برأى من عنده يخالف صريح النصوص ..



اما موضع الاجتهاد الذي يطلب من الامام فى مسائل التشريع فهو الذى فصله الفقهاء فى أبواب القياس أو الاستحسان أو الاستصلاح . وقد أجملها العالم الفاضل الاستاذ عبد الوهاب خلاف فى كتابه عن مصادر التشريع الاسلامى فيما لا نص فيه فقال « انه اذا عرضت للمكلف واقعة فيها حكم دل عليه نص فى القرآن أو السنة أو انعقد عليه اجماع المجتهدين من المسلمين فى عصر من العصور وجب اتباع هذا الحكم ولا مجال للاجتهاد بالرأى فى حكم هذه الواقعة . واذا عرضت واقعة ليس فيها حكم بنص ولا اجماع ولكن ظهر للمجتهد أنها تساوى واقعة فيها حكم بنص أو اجماع فى العلة التى بنى عليها حكم النص أو الاجماع فانه يسوى بين الواقعتين فىحكم النص لتساويهما فى العلة التى بنى عليها ، وهذه التسوية هى القياس وهو أول طرق الاجتهاد بالرأى ، لان المجتهد يستنبط علة حكم النص باجتهاده برأيه ويتحقق من وجودها فى الواقعة المسكوت عنها باجتهاده برأيه

« واذا عرضت واقعة يقتضى عموم النص حكما فيها أو يقتضى القياس الظاهر المتبادر حكما فيها أو يقتضى تطبيق الحكم الكلى حكما فيها وظهر للمجتهد أن لهذه الواقعة ظروفا وملابسات خاصة تجعل تطبيق النص العام أو الحكم الكلى عليها أو اتباع القياس الظاهر فيها

يفوت المصلحة أو يؤدى الى مفسدة فعدل فيها عن هذا الحكم الى حكم آخر اقتضــــاه تخصيصها فى العلم او استثناؤها من الكلى أو اقتضاه تخصيصها فى العـــلم أو فهذا العدول هو الاستحسان . وهو من طرق الاجتهاد بالرأى لان المجتهد يقدر الظروف الخاصة لهذه الواقعة باجتهاده برأيه ويرجح دليلا على دليل باجتهاده برأيه

« واذا عرضت واقعة ليس فيها حكم بنص ولا اجماع ولا قياس ولا يتعارض فيها دليلان وظهر للمجتهد ان هذه الواقعة فيها أمر مناسب لتشريع حكم اى أن تشريع الحكم بناء عليه يحقق مصلحة مطلقة لانه يجلب نفعا أو يدفع ضررا فاجتهد فى تشريع الحـــكم لتحقيق هـــذه المصلحة فهذا هو الاستصلاح ، وهو من طرق الاجتهاد بالرأى لان المجتهد يهتدى الى الامر المناسب فى الواقعة برأيه ويهتدى الى الحكم الذى يبنيه عليه برأيه

« فواقعة القياس واقعة ليس فيها حكم بنص أو اجماع ألحقت بواقعة فيها حكم بنص واجماع ، وواقعة الإستحسان واقعة تعارض فى حكمها دليلان . وعدل المجتهد فيها عن حكم أظهر الدليلين لسند استند اليه فى العدول ، وواقعة الاستصلاح واقعة بكر لا حكم فيهـا بنص ولا اجماع ولا قياس ، وشرع فيها المجتهد الحكم لتحقيق مصلحة معينة »

***

واجتهاد الصحابة باذن النبى عليه السلام هو السند الذى يرجع اليه الفقهاء فى جواز الاجتهاد أو وجوبه عند الاضطرار اليه ، واشهر وصاياه عليه الســـلام لكبار صحبه وصيته لمعاذ بن جبل وعمرو بن العاص

وقد روى الامام احمد بسند مرفوع الى أصـــحاب معاذ من أهل حمص فقال : ان رسول الله صلى الله عليه

وسلم حين بعثه الى اليمن قال : كيف تصنع اذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله ، قال : فان لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فان لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : اجتهد رأيى لا آلو . قال معاذ : فضرب رسـول الله صلى الله عليه وسلم صدرى ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله

وروى عن عمرو بن العاص أنه جاء خصمان يختصمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : ياعمرو اقض بينهما . قال : أنت أولى بذلك منى يانبى الله . قال : وان كان . قال : على ماذا أقضى ؟ قال : ان أصبت القضاء بينهما فلك عشر حسنات وان اجتهدت فأخطأت فلك حسنة

ويلاحظ بعض رواة الاحاديث أن حديث معاذ مرفوع الى أصحاب له مجهولين فيقول الامام ابن القيم فى كتابه أعلام الموقعين ردا على هذه الملاحظة ان الحديث « وان كان عن غير مسمين فهم أصحاب معاذ فلا يضره ذلك لانه يدل على شهرة الحديث وأن الذى حدث به الحارث ابن عمرو عن جماعة من أصحاب معاذ لا واحد منهم ، وهذا أبلغ فى الشهرة من أن يكون عن واحد منهم ولو سمى . كيف وشهرة أصـحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذى لايخفى ولا يعـرف فى أصحابه متهم ولا كذاب ولا مجروح ؟ بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخيارهم لايشك أهل العلم بالنقل فى ذلك . كيف وشعبة حامل لواء هذا الحديث ، وقد قال بعض أئمة الحديث : اذا رأيت شعبة فى اسناد حديث فاشدد يديك به ... قال أبوبكر الخطيب : وقد قيل ان عبـادة بن أنس رواه عن عبـد الرحمن بن غنيم عن

معاذ ، وهذا اسناد متصل ورجاله معروفون بالثقة . على أن أهل العلم نقلوه واحتجوا به فوقفنا بذلك على صحته عندهم كما وقفنا على صحة قول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا وصية لوارث ، وقوله فى البحر : هو الطهور ماؤه والحل ميتته ، وقوله : اذا اختلف المتبايعان فى الثمن والسلعة قائمة تحالفا وترادا البيع ، وقوله : الدية على العاقلة ، وان كانت هذه الاحاديث لاتثبت من جهة الاسناد ، ولكن لما تلقنهـــا الكافة عن الكافة غنوا بصحتها عندهم عن طلب الاســـناد اها ، فكذلك حديث معاذ لما احتجوا به جميعا غنوا عن طلب الاسناد له ... »

وقد عنى الامام ابن القيم بمناقشـــة مخالفيه على ديدن فقهاء الاســـلام فى التحرج من ابداء الراى او معارضته بغير دليل والحرص على ابراء الذمة فى كل قول يأخذون به أو ينقدونه ، فأجاب المتشككين فى اسناد الحديث بالحجة التى اصطلح عليها علماء الاثر ، ولكنه كان فى غنى عن ذلك بأدلة الاجتهاد الكثيرة من أعمـال النبى عليه السلام واعمال الخلفاء الراشدين رضـوان الله عليهم . وفى هذا الامر خاصة ــ امر معاذ رضى الله عنه ــ كان الامام ابن القيم فى غنى عن مناقشة السـند باثبات حقيقة واحدة لاشك فيها وهى أن معاذا ولى القضاء قبل تمـام التنزيل ولما تتنزل الآية الشريفة : « اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا .. » ولو لم يكن من حق الامام أن يقضى بما يراه موافقا للقرآن الكريم لما أمكن أن تسند الولاية الى احد وفى القرآن الكريم بقية يجهلها الولاة . وكيفما كان تأويل المتأولين فى جواز الاجتهاد فما يكون لصاحب رأى فى الاسلام أن يزعم أن الناس أمروا بالنصـــوص

الكتابية كما تؤمر الآلات التي تساق الى عملها ولا تدرى حكمته ولا تفقه معنى لتحريم الحرام وتحليل الحلال ، وانهم لم يؤمروا بالنصوص كما يؤمر العقلاء المكلفون بالنصوص المتواترة أن يتدبروا أوامر الله ونواهيه ويتدبروا آيات الله فى الكتاب وآياته فى الارض والسماء . وبئس مثل المتعالمين الذين يحتجون بالكتب ولا يفقهونها ، فانهم كما جاء فى القرآن الكريم :

« كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ »

(سورة الجمعة)

على أن الادلة على جواز الاجتهاد ، بل على وجوبه ، كثيرة كما قدمنا فيما ثبت من أعمال النبى عليه الصلاة والسلام وأعمال خلفائه الراشدين ، ولا سيما الخليفة الثانى الذى تولى خلافة النبى فى دولة واسعة الاطراف تتطلب من الامام أن يتصرف فى تطبيق النصوص كلما عرضت له المشكلات بجديد لم يكن على عهده به قبل اتساع الدولة

فالنبى عليه السلام تدرج فى ايجاب التكليف ، وجاء فى رواية الامام أحمد : « أن وفد ثقيف اشترطوا على رسول الله الا يحشروا ولا يعشروا ولا يجمعوا ولايستعلى عليهم غيرهم ، أى لايخرجوا للغزو ولا يؤدوا الزكاة ولا يصلوا ولا يولى عليهم أحد من غير قبيلتهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : لكم ألا تحشروا ولا تعشروا ولا يستعمل عليكم غيركم ولا خير فى دين لا ركوع فيه »

وقبل النبى منهم ما اشترطوه وهو يقول كما جاء فى رواية أبى داود انهم « سيصدقون ويجاهدون » ...

أى انهم سيؤدون فرائض الاسلام متى ثبت الايمان فى

قلوبهم وشاهدوا غيرهم من المسلمين يتصدقون ويخرجون للجهاد ..

وروى أبو داود عن عبد الله بن فضالة عن أبيه قال « علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فيما علمني : وحافظ على الصلوات الخمس . قلت ان هذه ساعات لى فيها أشغال فمرني بأمر جامع اذا انا فعلته أجزأ عنى . فقال : حافظ على العصرين ـ وما كانت من لغتنا ـ فقلت : وما العصران ؟ فقال : صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها ..

ومثل هذه الرواية أن رجلا أتى النبى عليه الصلاة والسلام فأسلم على أنه لايصلى صلاتين فقبل ذلك منه ..

وروى البخارى عن أم عطية أنها قالت : « بايعنا صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا : الا يشركن بالله شيئا ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة يدها فقالت : أسعدتنى فلانة فأريد أن أجزيها . فما قال لها صلى الله عليه وسلم شيئا ، فانطلقت ورجعت فبايعها . وفى رواية النسائى أنه عليه الصلاة والسلام قال : فاذهبى فأسعديها فذهبت فساعدتها ثم جاءت فبايعت (١)

وقد صنع رسول الله ذلك ترغيبا للمشركين فى الاسلام وتأليفا لقلوبهم وتدرجا بهم فى الصبر على فرائضه وفضائله وتعويدا لهم أن يطيعوا أوامر دينهم عن رغبة فيها واقتداء حسن بمن يطيعونها

وتعددت مسائل الاجتهاد التي قضى بها الفاروق فى مدة خلافته ، فأعفى من العقوبة وأسقط سهم المؤلفة

---

(١) راجع كتاب اجتهاد نبى الاسلام لصاحب الفضيلة الاستاذ عبد الجليل عيسى أبو النصر

قلوبهم ، وفرض الخراج ، وأنشأ من المكافآت والعقوبات مالم يكن معمولا به قبل خلافته

كان يقول : لاتقطع اليد فى عذق ولا عام سنت ، وسرق غلمة لحاطب بن أبى بلتعة ناقة لرجل من مزينة وأقروا بالسرقة فقال عمر لكثير بن الصلت : اذهب فاقطع أيديهم ، ولمح فى وجوههم شحوبا فأمر بردهم وقال : أما والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى أن أحدهم أكل ما حرم الله عليه حوله لقطعت أيديهم . وأيم الله اذ لم افعل لاغرمنك غرامة توجعك . ثم قال : يا مزنى ! بكم اريدت منك ناقتك ؟ قال بأربعمائة . قال عمر : اذهب فاعطه ثمانمائة ...

وسئل الامام أحمد بن حنبل : أتعمل به ؟ قال : أى لعمرى . لاتقطع يد السارق ان حملته الحاجة على ذلك والناس فى مجاعة وشدة

واسقط عمر سهم المؤلفة قلوبهم ، وكان النبى عليه السلام قد أعطى أبا سفيان والاقرع بن حابس وعباس بن مرداس وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن كل واحد منهم مائة من الابل . وطلب عيينة بن حصن والاقرع بن حابس أرضا من أبى بكر الصديق فكتب لهما بها . فلما رأى عمر الكتاب مزقه وقال : ان الله أعز الاسلام وأغنى عنكم . فان ثبتم عليه والا فبيننا وبينكم السيف

ومن سوء الفهم أن يقال ان الفاروق خالف النص فى هذه القضية ، وانما يقال انه اجتهد فى فهم النص كما ينبغى وانه بحث عن المؤلفة قلوبهم فلم يجدهم ، لأن تأليف القلوب انما يكون مع مصلحة للاسلام والمسلمين ، فان لم يكن تأليف لم يكن هناك مؤلفة يستحقون العطاء . ولو أن عيينة والاقرع واصحابهما سئلوا يومئذ : أهم

من المؤلفة قلوبهم يستحقون العطاء لانهم ضعاف الايمان لما قبلوا أن يثبتوا فى ديوان العطاء

ولما فتحت أرض الجزيرة وما وراءها لم يشأ أن يقسمها وقال : كيف بمن يأتى من المسلمين ؟ يجد الارض قد قسمت وورثت عن الآباء . ماهذا برأى . ثم أرسل الى عشرة من الانصار وقال لهم : انى لم أزعجكم الا لأن تشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أمركم ... قد رأيت أن أحبس الارضين بعلوجها وأضع عليهم الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى من بعدهم . أرأيتم هذه الثغور ؟ لابد لها من رجال يلزمونها . أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ؟ لابد لها أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم . فمن أين أعطى هؤلاء اذا قسمت الارضين والعلوج ؟ فقالوا جميعا : الرأى رأيك ، فنعم ماقلت ومارأيت . ان تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم يتقوون به ــ رجع أهل الكفر الى مدنهم

وقد أخذ عمر بتمييز السابقين الى الاسلام بالمكافأة على الذين تبعوهم كرها ولم يشهدوا من الغزوات ماشهدوه . وانفذ فتوى على رضى الله عنه حين أفتى بمعاقبة شارب الخمر بعقوبة القاذف لأن المخمور لايملك لسانه اذا سكر وهذى ، وأمضى كثيرا من المكافآت والعقوبات على هذا القياس

ولم يتحرج الخليفة الاول من الاجتهاد بالرأى عند وجوبه ، وانما كثر الاجتهاد فى عهد الخليفة الثانى لكثرة دواعيه ، وكان الصديق يقدم على الاجتهاد أحيانا حين يحجم عنه صاحبه كما حدث فى حروب الردة حيث أمر

الصديق بحرب مانعى الزكاة وتردد عمر فى جواز حرب المسلم الناطق بالشهادتين

وسئل الصديق عن الكلالة فقال : انى سأقول فيها برأيى فان يكن صوابا فمن الله وان يكن خطأ فمنى ومن الشيطان . أراه ما خلا الوالد والولد

واجتهد عثمان وعلى كما اجتهد ابو بكر وعمر رضوان الله عليهم . فمن اجتهاد عثمان أنه يأمر بكتابة المصحف على حرف واحد منعا لاختلاف الألسنة فى القراءة ، ويوشك أن يكون لعلى رضى الله عنه رأى فى كل معضلة عرضت للخلفاء من قبله ، ربما رأى الرأى ثم عدل عنه ثم عدل عن عدوله كما حدث فى فتواه ببيع أمهات البنين . فقد كان اتفق مع عمر على منع بيعهن ، ثم قال لقاضيه عبيدة السلمانى كأنه يخيره بين البيع ومنعه . فقال عبيدة : يا أمير المؤمنين ! رأيك ورأى عمر فى الجماعة أحب الينا من رأيك وحدك . فقال : اقضوا بما كنتم تقضون ، فانى أكره الخلاف

ولم ينته الاجتهاد بعد الخلفاء الراشدين . لان الاجتهاد انما أوجبه أنه ضرورة تعرض للامام المسئول مع تقلب الاحوال وتجدد الطوارىء والمناسبات ، وأحرى أن يكون للتابعين ألزم منه للأولين الذين كانوا على مقربة من معاهد التنزيل وجيرة النبى صاحب الرسالة

غير أن أهل الذكر الذين يوليهم المجتمع الاسلامى أمانة العلم والامر بالمعروف قد بادروا الى دعم أسس التشريع واستنبطوا له الضوابط والاداب من آيات الكتاب وأحاديث الرسول ومأثور السلف الصالح فخلصت لهم من ذلك نخبة قيمة من القواعد والشروط يحق لنا أن نسميها قوانين التقنين ، وهى تقابل اليوم

مايسمى فى عرف المشترعين الغربيـــين بالحكم وجوامع الامثال Maxims

ومن هذه القواعد ان اليسر مفضل على الحظر فى أوامر الشرع ونواهيه . فحيثما أمكن السمـاح فهو أفضل من الحجر والتقييد ، لقوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ولما اثر عن النبى عليه الصلاة والسلام فى حديث السيدة عائشة انه : « ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا اختار أيسرهمـا مالم يكن اثما ، فان يكن اثما كان أبعد الناس عنه »

ومن قواعد التشريع أن المعروف عرفا كالمشروط شرطا، وما رآه المسلمون حسنا فهو حسن ، وانه « لايجوز اقامة الحد مع احتمال عدم الفائدة » و « أن الضرورات تبيح المحظورات » وانه « لا ضرر ولا ضرار » و « ان اختيـار أخف الضررين مصلحة » و « البينة على المدعى واليمين على من أنكر » و « الصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا » و « لايمنعك قضاء قضيته بالامس أن تراجع الحق » و « اياك والغضب والقلق والضجـر والتأذى بالناس »

ومن ضوابط التشريع فصل السلطات وفصل عمـل الحكم عن عمل التنفيذ ، وفى ذلك يقول أحمد بن القرافى فى الذخيرة : « ان ولاية القضاء متناولة للحكم لا يتـدرج فيها غيره وليس للقاضى السياسة العـامة .. وأما قوة التنفيذ فأمر زائد على كونه حاكمـا ... وليس للقاضى قسمة الغنائم وتفريق أموال بيت المال على المصالح واقامة الحدود وتركيب الجيوش وقتال البغاة » .

ومن ضـــوابط التشريع حق النقض « فيما خالف نص آية ، أو سنة ، أو اجماع ، أو ما يثبت من عمـل أهل

المدينة أو القياس الذى لا يحتمل الا معنى واحـــدا او الدليل القاطع الذى لا يحتمل اختلاف الاراء »

وتفصيل ذلك مستفيض فى كتب الفقهاء ..

فالامامة ، بهذه الضوابط والاداب ، مصـــدر دائم من مصادر التشريع لكل زمن بما يستجد فيه ، ولكل حالة بما يناســـبها ، يواجه به الاسلام ضرورات التشريع بغير حجـــر على الامـــام أو على الامة ، وحقهـــما فى ذلك سواء لان الامام وكيل الامة فى حمـــاية الحقـــوق ولان اجماع الامة هو الحجة التى يستند اليها الامام كلماتيسر الاجماع التام فما تيسر منهكاف فى اجراء أعمال الامامة . . ولا تقع فى الحسبان ــ بهذه المثابة ــ قضية واحدة يقـال ان مصادر التشريع الاسلامى تضـــيق عن حكمها الذى يناسب زمانها وأحوالها ، ولا يجـوز مع هذا أن نحسب الشريعة الاسلامية من الشرائع المتحجرة التى لاتقبـــل المرونة ، وان كانت كذلك لاتحسب من الشرائع الرخـــوة التى لا تتماسك على أساس متين . .

وقد حاول حاكم من أكبر حـــكام الغـــرب أن يلصق بالتشريع الاسلامى مظنة التحجـــر فى العصر الحاضر ، فشاء القدر أن يجرى عليه قصاصا كان ينعاه على التشريع الاسلامى فى معاقبة المفسدين ، لانه أمر باحراق عصـــابة من اللصوص فى مزرعة من القصب لاذت بهـــا وتحصنت فيها من مطارديها ، فى جهة البلينا من صعيد مصر ، فأمر الحاكم مفتشه من قومه بأن يشعل النار فى المزرعةويتصيد من يهرب منها ضربا بالرصاص . .

ذلك الحـــاكم هو لورد كرومر قيصر قصر الدوبارة فى القاهرة كما يلقبونه فى زمنه وقد أخذ على الشيخ العباسى مفتى الديار المصرية أنه سئل عن عقاب العصابات فذكره كما جاء فى الاية الكريمة :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ ينفَوْا مِنَ الأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

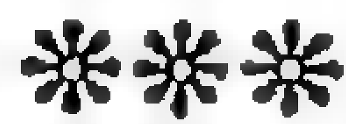
(سورة المائدة)

وهذه عقوبات فرضت فى الجزيرة العربية قبل استفتاء الشيخ العباسى (سنة ١٨٩٠) بثلاثة عشر قرنا وفيها التخيير بين القتل وقطع الاطراف وبين السجن أو الاقصاء من الديار ، وفيها العفو عمن تاب واستقام وليس فيها الاحراق الذى كان للحاكم مندوحة عنه ، لو انه آثر ان يصبر على محاصرة المفسدين حتى يستسلموا له طائعين ..

وقبل الاحتلال البريطانى لمصر ــ أثناء الاحتلال الفرنسى فى القرن الثامن عشر ــ حكم قضاة نابليون على سليمان الحلبى قاتل القائد كليبر بالقتل على الخازوق وقطع يديه ورجليه يدا بعد يد ورجلا بعد رجل ثم احراقه حيا بعد هذا التعذيب ..

أما الذين حاكمتهم محاكم التفتيش فى القرن الثالث عشر للميلاد ــ اى بعد بعثة النبى العربى بسبعة قرون ــ فحكمت عليهم بالاحراق فعدتهم مئات وألوف ، منهم العلماء والادباء والقساوسة والمتهمون بالسحر ومحالفة الشيطان، وليس منهم سفاح ولا قاطع طريق ، وذنبهم كله أنهم يحللون من المعرفة ما يحرمه رجال الدين ...

ولا نعلم أن أحداً من قضاة التفتيش أو قضاة نابليون ندم على احراق الناس بقية الحياة ، ولكننا نعلم أن خليفة مسلما عاقب لصا من عتاة الجناة المفسدين غدر بعهد الامان وقتل الابرياء وتحدى ولى الامر وأعوانه واستحق حكم الموت فأحرقه الخليفة بالنار . ذلك هو الفجاءة بن اياس بن عبد ياليل الذى وفد على الخليفة أبى بكر الصديق يسأله سلاحا يحارب به المرتدين ويحمى به الطريق ، فلما أعطاه السلاح خرج به يقطع الطريق وينهب السابلة ويحارب المسلمين ، فطارده الخليفة حتى ظفر به فألقى به فى النار ، وعاش بقية حياته يندم على هذه المثلة لأنها من غضب الحدة ، وان كان غضبا لا يعاب ..



والعبرة فى معظم هذه الاخطاء التى يقع فيها نقاد الشريعة الاسلامية من ساسة الغرب أنهم يرغبون فى توجيهها ولا يكلفون أنفسهم أن يتعمقوا فيها ، ولولا ذلك لما وجهوا نقدهم الى موضع الاستيفاء والضمان من هذه الشريعة . لانهم لم يسألوا أنفسهم قط فى أمر العقوبات التى يستعظمونها : هل هم على يقين أنها لم تكن فى حالة من الحالات رادعة او لازمة للتحذير والتخويف ؟ وهل أوجبتها الشريعة الاسلامية فى جميع الحالات ولم توجب معها عقوبة أخرى تصلح للأخذ بها فى زمانها وفى غير زمانها ؟ وهم خلقاء أن يترددوا فى النقد اذا كلفوا أنفسهم بعض هذه الاسئلة ، لانهم ينكرون على الشريعة الاسلامية شرط التشريع الذى يزعمون أنهم يطلبونه وهو الوفاء بحاجة الزمن والمطابقة لجميع الاحوال ويسقطون من حسابهم مصدر التشريع الدائم فى الاسلام وهو مصدر الامامة ومن ورائه حق الامة أو حق الاجماع . فان هذا المصدر أوفى من أكبر المصادر العصرية التى يعولون عليها

وهو مصدر السيادة . اذ كانت السيادة معززة بحق ولاة الامر وحق الاستفتاء العام ، وكانت الامامة شاملة لهذه الحقوق جميعها وتزيد عليها قداسة الدين واتفاق الامة فى جميع أزمنتها ، كأنها وحدة عامة لاتتقيد بارادة الاحياء فى فترة واحدة

ولا حاجة للأمة فى عصر من عصورها الى مصدر من التشريع أوفى من مصدر السيادة بهذا المعنى الواسع المحيط بكل حرمة من حرمات الشرع فى غير حد ولا حجر على حرية الاحياء ولا حرية الاجيال المقبلة . لان التبعة على قدر السلطة فى كل جيل من أجيال الاحياء ..

وما من جهة واحدة يستند اليها حق الامامة كله فى الاسلام ، ولا استثناء فى ذلك لصاحب الرسالة وأمين التبليغ نبى الاسلام عليه السلام » :

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ » . (سورة آل عمران)

« إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » . (سورة الكهف)

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » . (سورة ق)

***

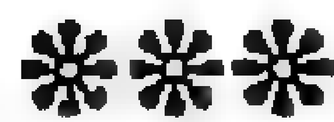
« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ » . (سورة آل عمران)

ويؤمر النبى بمشاورة المسلمين :

« وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » (سورة آل عمران)

ويؤمر المسلمون بالمشاورة بينهم :

« وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » . (سورة الشورى)

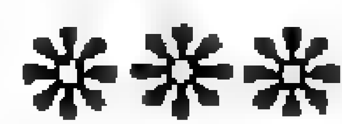


فحق الامامة اذن أعم من حق السيادة لانه فى جانبى التشريع والتنفيذ مستمد من أوامر الله وسنة رسول الله واجتهاد أولياء الامر واجتهاد الجماعة الاسلامية كلها برأيها على أتم صورة يثبت عليها

ولهذا وجبت للامامة طاعة تناسب هذه القداسة .. فلا حدود لها الا آن يامر الامام بالخروج من الدين أو بمعصية الخالق فهو لا يطاع اذن لانه ليس بأمام . وقسطاس العهد بين الامام ورعيته كما جاء فى حديث عبادة بن الصامت : « بايعنا رسول الله على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا وعلى الا ننازع الامر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » ويتمم الحديث فى رواية أخرى « الا ننازع الامر أهله الا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان .. »

ويقول النبى عليه السلام : « ان الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » ..

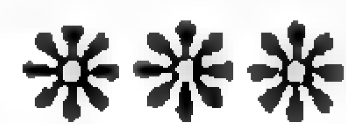
وفى الاثر « ان السلطان ظل الله فى أرضه يأوى اليه كل مظلوم من عباده فاذا عدل كان له الاجر وعلى الرعية الشكر ، واذا جار كان عليه الاصر وعلى الرعية الصبر »



وليس حق الامامة بالبداهة حق الامام لشخصه ولا هو

من الحقوق التى يمكن أن تحصر فى جهــة واحدة ، وانما يحق للامام منه ما هو حقه بموجب البيعة والامانة العامة . فهو مطيع فى هذه الامانة مطاع

ومن ثم وجب أن يتولى الامام عمله باختيار رعاياه . ولابد من البيعة العامة لكل امام مسئول تجب له الطاعة ، يرشحه من استطاع من أولى الحل والعقد وينعقد له الامر بعد اجازة هذا الترشيح بالبيعة العامة ويجوز أن يرشحه واحد أو يشترط فى ترشيحه اتفاق عدد من المسلمين تجوز لهم صلاة الجماعة . الا أن الاتفــاق على عدد المرشحين لا يغنى عن المرجع الاخير وهو اتفاق الجمــاعة بلا خلاف أو اتفاقها على القــدر الذى ترجح به الكفة وتمتنــع به الفتنة . ومن اقدم على الفتنــة فاثمها عليه يقضى فيــه الامام المختار أو يقضى فيه سلطان الجماعة حيث استقام لها سلطان مشروع



ومن تمام التكافل « والتضامن » فى المجتمع الاســلامى أن أمانة « الامامة » لا تعفى الامة من واجب النصيحــة لأمامها ، وقد جمع نبى الاسلام الدين فى كلمتين اذ قال : « الدين النصيحة » وسئل : لمن يارسول الله ؟ فقــال : « لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم »

وقال عليه السلام فى حديث آخــر : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »

وازاء هذا الواجب من الرعية واجب يتممه من قبــل الامام ، ويتأسى فيه الأئمة بصــاحب الامامة الاولى الذى قال لرجل أصابه وجل عند لقائه : « رويدك ياهذا . انما أنا بشر : أنا بن امرأة أعرابية كانت تأكل القديد »

وفى كتاب الله خطاب للنبى ولكل امام متبوع :

« وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » (سورة الحجر)

***

« وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »

(سورة الشعراء)

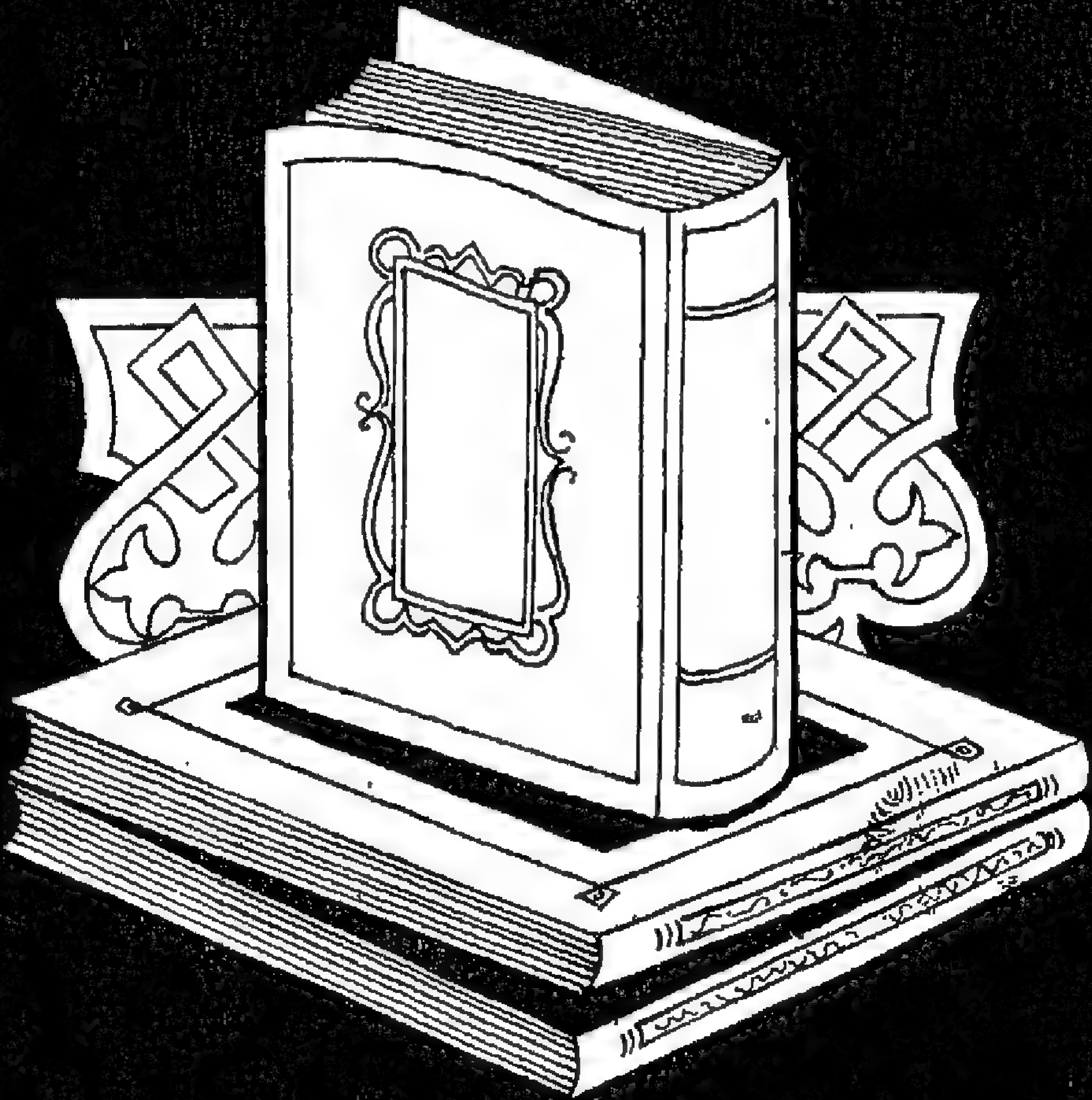
***

وختام القول فى هذا الحق المحيط بجميع الحقوق ـ حق الامامة ـ أنه باب مفتوح للتشريع فى كل عصر وكل مجتمع وانه يكفل للأمة الاسلامية مايكفله حق السيادة وزيادة .. فلا منفذ لنقد التشريع الاسلامى فى جميع مصادره ما بقى له هذا المصدر مستمدا من ضمير الانسان وحكمة الله ..

الفصل الرابع

الأخلاق والآداب

- إلنقائض المزعومة
- أخلاق الفتوة
- الأخلاق المحمودة
- مقياس الأخلاق والآداب
- هدى الأسماء الحسنى
- خاتمة



النقائض المزعومة

التناسق ظاهرة عجيبة فى الاسلام ، يلمسها من تأمل فيه والقى عليه فى مجموعه نظرة عامة بين عقائده وعباداته وبين ما يشرعه من المعاملات والحقوق ويحمده من الاخلاق والآداب ..

هنالك وحدة تامة أو بنية واحدة يجمعها ما يجمع البنية الحية من تجاوب الوظائف وتناسق الجوارح والاعضاء ..

وينـدر أن تقرأ فى كلام ناقد من الاجانب عن اللغة العربية شيئا من مآخذ التناقض فى الاسلام الا بدا لك بعد قليل أنه مخطىء ، وأن مرد الخطأ عنده الى جهل الاسلام أو جهل اللغة العربية ، وبعضهم يجهلها وهو من المستشرقين لانه يستظهر ألفاظها ولا يتذوقها ولا ينفذ الى لبابها من وراء نصوص القواعد والتراكيب ..

قرأنا لبعضهم أخيرا كتابا عن الشيطان يلم فيه بصفة ابليس فى الاسلام ويستغرب فيه ــ من هذا الدين ــ أن يقول عن الله انه أمر الملائكة بالسجود لآدم .. مع أنه الدين الذى اشتهر بغاية التشدد فى انكار الشرك وتكفير كل ساجد لغير الله ..

ومرد الخطأ فيما بدر الى الكاتب من التناقض بين

التوحيد وبين السجود لآدم أنه فهم السجود بمعنى الصلاة دون غيرها من معاني الكلمة في اللغة العربية . وفاته أن الكلمة عرفت في اللغة العربية قبل أن يعرف العرب صلاة الاسلام ، ولم يفهموا منها أنها كلمة تنصرف الى العبادة دون غيرها ، لانهم يقولون « سجدت عينه » أي أغضت ، واسجد عينه أي غض منها وسجدت النخلة أي مالت ، وسجد : أي غض رأسه بالتحية ، وسجد لعظيم : أي وقره وخشع بين يديه . ولا تناقض على معنى من هذه المعاني بين السجود لآدم وتوحيد الله . وانما السجود هنا هو التعظيم المستفاد من القصة كلها ، وهو تعظيم الانسان على غيره من المخلوقات

وبعضهم يرى أن الاسلام مناقض بطبيعته للعمل والسعي في سبيل الحياة .. لانه يفهم من الاسلام أنه التواكل وتسليم الامر الى الله بغير حاجة الى الحول والقوة ، لانه لا حول ولا قوة الا بالله ..

وجهل هؤلاء بالفهم أكبر من جهلهم باللغة .. لان الاسلام الى الله وحده وتحريم الاسلام لغيره يأبى على المسلم أن يسلم للظلم أو يسلم للتحكم من الناس أو من صروف الحياة ، وينهاه أن يستسلم للخيبة وللقسمة الجائرة ، وأن يستسلم لكل قضاء لا يرضاه ويعلم أن الله لا يرضاه

وبعضهم يرى أن الاسلام والسلم نقيضان ، لانه يفهم من كلمة أسلم أنها التسليم في الحرب Surrender أو التسليم قبل الحرب خوفا من القتال . فكل مسلم فهو خاضع للسيف هزيمة بعد الحرب أو خوفا من الحرب قبل اشهارها عليه

وهؤلاء المتحذلقون على اللغة التي يجهلونها يفوتهم

ان كلمة « أسلم » فى ميدان الحرب هى نفسها مأخوذة من اعطاء اليد أو بسطها للمصافحة ، وأن المقصود بهذه الكلمة فى الدين انها استقبال الله والاتجاه اليه ؛ فمن أسلم وجهه لله فقد استقبل طريقه وأعطاه وجهه ولم يتحول عنه الى غيره . وكل المتدينين قبل الدعوة المحمدية موصوفون بأنهم مسلمون كما جاء فى سورة البقرة :

« وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »

(سورة البقرة)

وفى القرآن الكريم أن المسلمين وصفوا بالاسلام فى الكتب الاولى كما جاء فى سورة الحج :

« وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ

عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ»

(سورة الحج)

وأكثر ما اطلعنا عليه من النقائض المزعومة فهو من قبيل هذه الاخطاء فى التفرقة بين الكلمات على معانيها المطلقة وبين هذه الالفاظ على معانيها التى قيدها الاصطلاح أو خصصتها لغة القرآن الكريم

وفيما عدا هذه النقائض وما اليها يروع الباحث فى الاسلام ذلك التناسق بين عقائده وأحكامه أو بين عقائده وأخلاقه . ولعل هذا التناسق أظهر ما يكون بين الاخلاق المتعددة التى حمدها الدين من المسلم ، وهى متفرقات تجمعها وحدة لا تستوعبها وحدتها الاسلامية .. فهى فى جملة وصفها أخلاق اسلامية وكفى

هل هي أخلاق قوة ؟ هل هى أخلاق محبة ؟ هل هى أخلاق قصد واعتدال ؟ هل هى أخلاق أجتماعية ؟ هل هى أخلاق انسانية ؟

هى كذلك أحيانا ولكنها ليست كذلك فى جميع الاحيان، لان أخلاق القوة قد تفهم على وجوه متعددة ، أو متناقضة ، يحمد الاسلام بعضها ولا يحمد بعضها ، أو يذمها جميعاً اذا فهمت على مذهب فلاسفة القوة فى العصر الاخير ..

وقد توصف الاخلاق فى الاسلام بأنها « أخلاق محبة » لان أصول العلاقات بين الناس قائمة فى الاسلام على شرعة المحبة والاخوة كأنهم من أسرة واحدة . ولكن الاسلام ينكر من المسلم أن يحب الخبيث كما يحب الطيب ، ويعرف العداوة فى الحق كما يعرف الصداقة فيه ..

وليس قوام الاخلاق كله فى التوسط أو فى القصد والاعتدال على مذهب الفلسفة اليونانية أو فلسفة ارسطو على الخصوص . وليس مآل الاخلاق كله فى الاسلام الى وحى المجتمع أو وحى الانسانية برمتها ، لان المجتمع قد يدان بأخلاقه كما يدان الفرد ، ولأن الانسانية لا ترتفع الى ما فوق جوانب الضعف فيها ان لم يكن لها من المثل العليا ما يسمو عليها أو تسمو هى اليه جيلا بعد جيل

أخلاق القوة

أخلاق القوة فى العصر الاخير مقترنة باسم « فردريك نيتشه » رسول السوبرمان الذى كاد ايمانه بالسوبرمان أن ينقلب الى عداوة للانسان

فالسوبرمان لا يرحم ولا يغفر ولايعرف للضعيف نصيبا من « الانسان الاعلى » غير نصيب الزراية والاذلال ، أو الابادة والاستئصال ، محافظة على سلامة النوع من عدوى الضعف وعواقب الابقاء على الضعفاء ، وهم فى عرفه أولى بالاجتناب من مرضى الجذام

والاخلاق عنده قسمان : قسم للسادة لا يقبله العبيد ، وقسم للعبيد لا يقبله السادة . فليس بين الفريقين جامعة انسانية تلتقى بهم فى صفة من الصفات ، بل هم أعداء يتسلط منهم القادر على العاجز ، ولا يحسن بالمتسلط أن يقبل من العاجز غير الخنوع والهبوط فى الذلة من هاوية الى هاوية ، لا نهاية لها غير الانقراض والفناء ..

والأخلاق القوة عرفت قبل نيتشه بتفسير لا تفسير فيه عند الحاجة الى تفسير ، لانه يجعل القوة مرادفة للاستحسان ، ولا ندرى منه لماذا يكون هذا الاستحسان ..

وتفسير الفيلسوف هوبز Hobbes للقوة من هذا القبيل ..

فالناس على زعم هؤلاء المفسرين يحمدون الرحمة ، لانهم يحمدون القوة ، ويرون فى الرحمة دليلا على قوة الرحيم لانه يتفضل بها على الضعيف ويترفع بها عن معاملته كما يعامل الانداد والنظراء ..

والناس يحمدون العفو ، لان الذى يعفو عن المسيء اليه يعتد بقوته ويأمنه ان وفى له بالشكر أو غدر به على السواء ..

وهم يحمدون الكرم ، لانه عطاء . ولا يملك ما يفضل من حاجته ويجود به على المفتقر اليه غير الأقوياء ..

وهم يحمدون الصبر ، لان القوى جليد يتماسك لصدمة المصاب ولا يتضعضع تحت وقره الثقيل . فهو يصبر على بلائه لانه قوى يحتمل منه ما لا يحتمله الضعيف . ولا يكون القوى جزوعا وان عظم عليه المصاب ..

وهم يحمدون الدهاء ، لانه قوة فى العقل يتمكن بها صاحب العقل القوى من تسخير الأقوياء بالاجسام ، ويحمدون الذكاء والحذق والمعرفة والبراعة فى صناعة من الصناعات ، لانها علامة من علامات القوة على نحو من الانحاء ..

وهذه الفضائل ، أو المزايا ، تفيد أصحابها قوة كما تنم فيهم على القوة التى تصدر عنها .. فهى محمودة لما تدل عليه ، ولما تؤدى اليه

أما العظمة والمجد والشجاعة فلا حاجة بها الى تفسير عند من يرجعون بالاخلاق جميعا الى القوة على هذا الاسلوب .. لانها ظاهرة بقوتها معترف بسبب الاعجاب بها بين الأقوياء أو الضعفاء ..

وقبل الرجوع بالاخلاق المثلى الى القوة على مذهب هوبز أو على مذهب نيتشه ـ كانت المدرسة اليونانية تعتبر الاخلاق الفاضلة وسطا بين طرفين ، أو تحث طالب الفضيلة على الاعتدال فى جميع الامور والاتجاه الى الحسن من كل خلق على قدر حظه من الاعتدال ..

فالشجاعة وسط بين التهور والجبن ، والكرم وسط بين الاسراف والبخل ، والصبر وسط بين الجمود والجزع ، والحلم وسط بين النزق والبلادة ، والرحمة وسط بين القسوة والخور . وكل فضيلة على هذا القياس فهى مسألة توسط فى المسافة بين غايتين ..

وفى زماننا هذا يغلب على مدارس الاخلاق أنها تؤول بالفضائل كلها الى باعث واحد وهو باعث المصلحة الاجتماعية ، أو باعث الغرائز النوعية التى يتصل بها بقاء نوع الانسان . ومن هذه المدارس ما يحصر المصلحة فى الطبقة الغالبة على المجتمع . فلا مصلحة للمجتمع كله فى الاخلاق الفاضلة التى يحمدها المجتمع فى عهد من العهود ، ولكن المصلحة فيها للطبقة المتحكمة فيه بثروتها وسطوتها . فما تراه حسنا فهو الحسن بالنسبة اليها لاستبقاء منافعها ، وهى اذن تسوم الطبقات الاخرى أن تستحسنه على المحاكاة والتقليد وان لم يكن لها خير فيه ..

القوة والاعتدال

والاسلام يحمد كثيرا من الاخلاق المحمودة فى هذه المذاهب ، ولكننا لا نستطيع أن نجمع الاخلاق الاسلامية كافة فى نطاق مذهب منها ، ولا سيما مذهب القوة فى فلسفة نيتشه ومذهب الطبقة الاجتماعية فى فلسفة الماديين

فمذهب القوة فى رأى نيتشه يناقض جميع الاديان الالهية ، ولعله يوافق دينا يعتقد اتباعه أنه دين اله واحد يختارونه ويختارهم فيستبقيهم ويمحق غيرهم من العالمين .. ولكنه لا يوافق الاديان التى تدعو الى اله واحد للاقوياء والضعفاء ، وقد تكون الاخذ بمذهب القوة فى رأى نيتشه هدما لهذه الاديان من قواعدها واقتلاعا لها من جذورها ، اذ لا قيمة للدين ما لم ينشىء أمام القوة الطاغية قوة تكبحها وتهذبها وهى قوة الضمير ، ولا رسالة للدين بين البشر ان لم تكن رسالته أن يربى فيهم وازعا للقوة البدنية وقوة المطامع والشهوات . وقد تعلم الناس دهرا طويلا أن حماية المريض غير حماية المرض ، وأن العناية بالمرضى تؤول على الدوام الى عناية بالصحة ، يستفيد منها الاصحاء كما يستفيد منها المصابون . وليس بالعسير عليهم أن يتعلموا كذلك أن حماية الضعيف غير حماية الضعف ، وأن العناية بالضعفاء تؤول الى عناية شاملة يستفيد منها الاقوياء والضعفاء . أو تكون فائدة الاقوياء منها مقدمة على فائدة الضعفاء

وتفسير « هوبز » للقوة لايقرب مذهب القوة كثيرا الى حقيقة الاخلاق الاسلامية . لأن الاسلام لايحمد من الاخلاق أنها حيلة ملتوية أو مستقيمة الى طلب القوة ، بل يحمد منها فى كل شأن من شئون الانسان أنها وسيلة الى طلب الكمال ، ويحبب الى الانسان أحيانا أن يؤثر الهزيمة مع الكمال على الظفر مع القوة ، اذا كان الظفر وسيلة من وسائل القوة الباغية التى لاتتورع عن النجاح بكل سلاح

ومذهب الفلسفة اليونانية ينتهى بنا الى مقياس للأخلاق شبيه بمقاييس الهندسة والحساب بعيد عن

تقدير العوامل النفسية والقيم الروحية فى الاخلاق العليا على التخصيص . وقد تصدق هذه الفلسفة اذا كان المطلوب من الانسان أن يختار بين رذيلتين محققتين . فانه فى هذه الحالة يحسن الاختيار بالتوسط بين طرفين متقابلين كلاهما مذموم ومتروك . الا أننا لانقول من أجل ذلك أن الكرم نقص فى رذيلة البخل ، أو نقص فى رذيلة السرف ، ولا نقول من أجل ذلك أن الكرم اذا زاد أصبح سرفا ، وان السرف اذا نقص أصبح كرما . بل تكون الزيادة فى الكرم كرما كبيرا ، والنقص فى السرف سرفا قليلا ، ولا يكون الكرم أبدا درجة من درجات السرف ، ولا البخل أبدا درجة من درجات الكرم . بل هى أخلاق متباينة فى الباعث متباينة فى القيمة ، يتقارب الطرفان فيها أحدهما من الآخر ، ولا يتقارب الطرف من الوسط كما يظهر من قياس الهندسة أو قياس الحساب

وقد رأينا فى مباحث العلل النفسية التى كشفها العلم الحديث أن الشذوذ يقرب بين المسرفين والبخلاء فى أعراض متشابهة ، وان العلة الكامنة فى التركيب قد تظهر فى الاسرة الواحدة بخلاقى أحد الاخوين ، وسرفا فى الاخ الآخر . أو تظهر فى أحدهما هوسا بالاقدام والاقتحام ، وتظهر فى أخيه هوسا بالحذر والاحجام . فلا افراط هنا ولا تفريط فى « كمية » واحدة تقاس بمقياس الهندسة والحساب ، ولكنها خلائق متباينة تختلف بالباعث لها وتختلف بقيمتها فى معايير الاخلاق

ولو صح مذهب الفلسفة اليونانية أو مذهب أرسطو على الاصح لما جاز للانسان أن يطلب المزيد من فضيلة الكرم – مثلا – لانه ينتقل على هذا الرأى الى رذيلة السرف والتبذير . الا أن زيادة الكرم لاتكون الا زيادة فى فضيلة مشكورة ، ولابد من التفرقة بين زيادة الكرم

وزيادة العطاء . فانهما فى الواقع أمران مختلفان ، وقد قيل لا خير فى السرف ولا سرف فى الخير . وفى القول الثانى توضيح لازم للقول الاول ، لأن زيادة الخير الى اقصى حدوده واجبة لاتخرج به عن كونه خيرا محمودا يزداد حمده مع ازدياده ، ولا يحسب من السرف على وجه من الوجوه

وانما يلتبس الامر على أصحاب مدرسة التوسط فى جميع الامور لانهم ينظرون فى تقدير الكرم الى المال المبذول والى مصلحة الباذل فى حساب المال ، ولا التباس فى الامر اذا نظروا الى الباعث والموجب والمصلحة فى عمومها ولو ناقضت مصلحة الباذل فى بعض الاحيان

فمن كانت طاقته أن ينفق ألف دينار ولا يتقاضاه الواجب أو تتقاضاه مصلحته أن ينفق ألفين فهو مسرف ما فى ذلك خلاف .. لانه يفعل شيئا يضره ولا توجبه عليه مصلحة أكبر من مصلحته . أما اذا كان باعث الانفاق شيئا غير مصلحته وغير هواه وكان حبس المال فى يديه ضارا وخيم العاقبة على الناس وعليه فى النهاية ــ فالكرم ان يزداد فى الانفاق على حسب المصلحة العظمى ، وعلى قدر التضحية وانكار الذات يكون حظ البذل من الفضيلة المحمودة أو حظه من الخير الذى لا سرف فيه

وتصعب المقارنة بين التطرف والتوسط حين تكون المسألة مسألة درجات ولا تكون هناك مقادير تعد بالارقام . فاذا ترخصنا فقلنا ان الكريم هو الذى يبذل الف دينار ، وان المسرف هو الذى يبذل ألفين أو ثلاثة آلاف ، والبخيل هو الذى يبذل مائة أو لايبذل شيئا على الاطلاق ــ فمن هو الشجاع ومن هو المتهور ومن هو الجبان ؟

.. ليست هنا مقادير تعد بالارقام . فاذا عرفنا أن

الجبان هو الذى يحجم من الخطر فمن هو الشجاع ؟ ومن هو المتهور ؟ ان التهور ليكونن أفضل من الشجاعة اذا قلنا أن الشجاع قليل الاقدام على الخطر وان المتهور كثير الاقدام عليه ، أو قلنا ان درجة الخطر الذى يقدم عليه المتهور أعظم من درجة الخطر الذى يقدم عليه الشجاع . ولكننا حين نقول ان الشجاع هو الذى يقدم على الخطر حيث يجب الاقدام عليه ، نرجع بالفضيلة والرذيلة الى مقياس الواجب وتقديره ، وتصبح المسألة هنا مسألة قدرة على فهم الواجب والعمل به ، وليست مسألة اعداد أو أبعاد ... فالمتهور والجبان كلاهما عاجز عن فهم الواجب والعمل به ، والشجاع هو القادر على الفهم والعمل ، ولا يستقيم فى التعبير اذن أن نقول ان المتهور أكثر شجاعة من الشجاع ، وأن الجبان أقل شجاعة منه ، لانهما معا خلو من الشجاعة الواجبة بغير افراط أو تفريط .

ولن يشذ الانسان عن الاعتدال فى الطبع اذا هو آثر أن يذهب فى كل فضيلة الى نهايتها القصوى ، فماذا يعاب فى جمال الوجوه — مثلا — اذا انتهى الى غاية لا غاية بعدها فى معهود الابصار ؟ وماذا يعاب فى جمال الاخلاق اذا انتهى الى مثل تلك الغاية فى معهود البصائر ؟ ان كلمة من كلمات اللغة العربية العامرة بمدلولاتها النفسية والفكرية لتهدينا الى قسطاس الحمد فى كل حسنة مأثورة . فكلمة « ناهيك » حين نقول ناهيك من رجل أو ناهيك من عمل أو ناهيك من خلق — هى قسطاس الثناء فيما تنشده النفوس الانسانية من كل فضل منشود . فهو الفضل الذى ينتهى بنا الى النهاية فلا نتطلع بعده الى مزيد

غير أن مذهب الاعتدال — مع هذا — أقرب المذاهب

الى فهم الاخلاق المحمودة فى الاسلام ، على اعتبار أن خلق الاعتدال فضيلة مستقلة تدل على طبع سليم وعقل رشيد يقدران لكل عمل قدره ولا يمنعهما الاعتدال أن يذهبا به الي غاية الكمال ، اذا كان له هذا القدر بين أقدار الاخلاق

مقياس الاخلاق والآداب

ومذهب المصلحة الاجتماعية لا يناقض مكارم الاخلاق الاسلامية كل المناقضة ولا يوافقها كل الموافقة ..

مجمل الرأى فى الاسلام أن المجتمع يقاس بالدين وليس الدين يقاس بالمجتمع ، فقد يسفل المجتمع فتنفق فيه الآراء والاهواء على مصلحة يأباها الدين ويحسبها مضرة أو مفسدة يؤنب المجتمع من أجلها كما يؤنب الافراد

وربما كانت مصلحة النوع الانسانى أصدق المقاييس للخلق المحمود فى الاسلام . ولكن النوع الانسانى يترقى فى العلم بمصالحه حقبة بعد حقبة ، ومن حوافزه الى الترقى أن تكون أمامه أمثلة عليا للاخلاق أرفع من مألوف الاخلاق التى يسترسل معها بغير جهد وبغير رياضة وبغير تربية مفروضة عليه ، يعتقد أنه يتلقاها ممن هو أكبر من الانسان وأحق منه بالطاعة والاصغاء الى هدايته وتعليمه ..

لابد من الفضائل الالهية فى تعليم الانسان مكارم الاخلاق ، وما اكتسب الانسان أفضل أخلاقه الا من الايمان بمصدر سماوى يعلو به عن طبيعته الارضية

وهذا هو المقياس الاوفى لمكارم الاخلاق فى الاسلام ..

ليس مقياسها الاوفى أنها أخلاق قوة ، ولا أنها أوساط بين أطراف ، ولا أنها ترجمان لمنفعة المجتمع أو منفعة النوع الانسانى بأجمعه فى وقت من الاوقات ..

وانما مقياسها أنها أخلاق كاملة ، وان الكمال اقتراب من الله ..

. وقد يكون الكمال كالجمال مقياسا غير متفق عليه قابلا للتفاوت ـ بل للتناقض ـ كما تتفاوت مقاييس العرف وتتناقض فى كثير من المعقولات والمحسوسات ... لكننا نقول قولا مفيدا حين نقول ان الانسان يحب أجمل الوجوه ، أو أجمل الشمائل ، أو أجمل الخصال ، ونقول قولا مفيدا حين نضع الكمال فى موضع الجمال .. الا أن الاسلام يقرن المثل الاعلى فى كل فضيلة بالصفات الالهية ..

... ولله المثل الاعلى ...

وكل صفة من صفات الله الحسنى محفوظة فى القرآن الكريم ، يترسمها المسلم ليبلغ فيها غاية المستطاع فى طاقة المخلوق ..

ولا تكلف نفس الا وسعها كما جاء فى غير موضع من الكتاب الحكيم

ليس للاخلاق الاسلامية مقياس جامع من القوة ، ولا من التوسط بين الاطراف ، ولا من منفعة أمة قد تناقضها منفعة أمة غيرها ، ولا من منفعة الامم جميعا فى عصر يتلوه عصر غيره بمنفعة أكرم منها وأحرى بالسعى اليها ..

فالدين الاسلامى بعقائده وآدابه ، أو بجملته وتفصيله ، يستحب القوة للمسلم ويأمره باعداد عدتها من قدرة الروح والبدن ، ولكنه يستحبها قوة تعطف على الضعيف وتحسن الى المسكين واليتيم ، ويمقتها قوة تصان بالجبروت والخيلاء ولا ينال الضعفاء منها غير الهوان والاذلال ..

« إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » (سورة لقمان)

« فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ » (سورة النحل)

«أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ » (سورة الزمر)

ولا يستحب الاسلام القوة للقوى الا ليدفع بها عدوان الاقوياء على المستضعفين العاجزين عن دفع العدوان :

« وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ » (سورة النساء)

ولم يوصف الله بالكبرياء فى مقام الوعيد للكبرياء بالنكال والاذلال ، الا ليذكر المتكبر الجبار أن الله أقدر منه على التكبر والجبروت

والاسلام يزكى مذهب التوسط فيما يقبل التوسط بالمقادير او بالدرجات كالانفاق الذى ينتهى الاسراف فيه الى اللوم والحسرة :

« وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً » (سورة الاسراء)

« وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً » (سورة الفرقان)

« كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» (سورة الانعام)

«وَكُلوا وَاشْرَبُوا وَلَا تسْرِفوا إِنَّهُ لايُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ»
(سورة الاعراف)

***

ولكن القسطاس فى فضائل الاسلام لايرجع الى المقدار والتوسط فيه ، بل يرجع الى الواجب وما يقتضيه لكل أمر من الامور . فاذا وجب بذل المال كله وبذل الحياة معه فى سبيل الحق فلا هوادة ولا توسط هنا بين طرفين ، وانما هو واجب واحد يحمد من المرء أن يذهب فيه الى أقصاه . .

ولا يصدق هذا على شئون القوة والكرم وحسب ، بل يصدق فى شئون الرحمة حيث تجب لمن هو أهل لها . .

فالاسلام على كراهته الذل لأتباعه يستحب منهم الذل فى الرحمة بالوالدين الشيخين :

« وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ »

(سورة الاسراء)

لأن الذل هنا زيادة فى الرحمة يأتى من كرامة فى النفس ولا يأتى من هوان فيها . .

وملاك الاعتدال فى الخلق الاسلامى أن المسلم يؤمر بالعمل لدنياه كما يعمل لدينه ، ويؤمر بصلاح الجسد كما يؤمر بصلاح الروح . فلا يكون فى هذه الدنيا روحا محضا ولا يكون فيها جسدا محضا . ومن أبى عليه دينه أن يكون فى هذه الدنيا جسدا محضا فمن العنت أن يقال انه يعمل ليكون جسدا محضا فى عالم الرضوان : عالم الروح والصفاء . .

وقد ضلل بعض المغرضين من دعاة الاديان عقولا كثيرة فى شتى الاقطار حين زعموا أن الخطاب بالمحسوسات فى أمر الجنة والنار مقصور على العقيدة الاسلامية ، وأن

المؤمنين بالدين لا يؤمنون بالنعيم المحسوس الا اذا كانوا من المؤمنين بالقرآن

والانبياء والقديسون فى جميع الاديان الكتابية قدتمثلوا النعيم المحسوس فى رضوان الله ووصفوه على هـــذه الصفة فى كتب العهد القديم والعهد الجـــديد وفى كتب التراتيل والدعوات . ففى العهد القـديم يصفه اشعياء يوم الرضوان فى الاصحاح الخامس والعشرين من سفره فيقول :

« يصنع رب الجنود لجميع الشعوب فى هذا الجبل وليمة سمان ووليمة خمر على دردى سمان ممخة : دردى مصفى ويفنى فى هـذا الجبل وجه النقاب الذى على كل الشعوب والغطاء المغطى به على كل الامم . يبلغ الموت الى الابد ويمسح السيد الرب الدموع من كل الوجوه »

وفى العهد الجديد يقول يوحنـــا اللاهوتى فى الاصحاح الرابع من رؤياه :

« بعد هذا نظرت واذا باب مفتوح فى السماء والصوت الاول الذى سمعته كبوق يتكلم قائلا : « اصعد الى هنا فأريك ما لابد أن يصير بعد هذا » . وللوقت صرت فى الروح ، واذا عرش يعرض على فى السماء وعلى العرش جالس » . وكان الجالس فى المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش فى المنظر شبه الزمرد وحول العرش أربعة وعشرون عرشا . ورأيت على العروش أربعا وعشرين شيخا جالسين متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم اكليل من ذهب . ومن العرش تخرج بروق ورعود وأصوات وأمام العرش سبعة مصابيح متقدة على سبعة أرواح لله . وقدام العرش بحر زجاج شبه البللور ، وفى وسط العرش وحول العرش أربعة حيـوانات مملوءة عيونا من قدام ومن وراء ، والحيـوان الاول شبه الاسد والحيوان الثانى شبه عجل والحيوان الثالث له وجه انسان والحيوان الرابع شبه نسر طائر »

ويقول فى الاصحاح العشرين :

« متى تمت الالف السنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الامم الذين فى اربع زوايا الارض ، جوج وماجوج ليجمعهم للحرب وعددهم مثل رمل البحر ... فنزلت نار من عنـد الله من السماء وأكلتهم ... وابليس الذى كان يضلهم طرح فى بحيرة النار والكبريت ، وكل من لم يوجد مكتوبا فى سفر الحياة طرح فى بحيرة النار »

ويقول فى الاصحاح الحادي والعشرين :

« ثم رأيت سماء جديدة وأرضا جديدة لان السماء الاولى والارض الاولى مضيئتان والبحر لا يوجد فيما بعد ، وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا هوذا مسكن الله مع الناس »

وكانت آمال النعيم المحسوس تساور قلوب القديسين فى صدر المسيحية فضلا عن عامة العباد بين غمار الدهماء ومن أشهر هؤلاء الاقطاب المعدودين رجل عاش فى سورية فى القرن الرابع للميلاد وترك بعده تراتيل مقروءة يتغنى بها طلاب النعيم وهو القديس أفرايم الذى يقول فى أحدى هذه التراتيل :

« ورأيت مساكن الصالحين رأيتهم تقطر منهم العطور وتفوح منهم العبير تزينهم ضفائر الفاكهة والريحان ... وكل من عف عن خمر الدنيا تعطشت اليه خمر الفردوس ، وكل من عف عن الشهوات تلقته الحسان فى صدر طهور »

واتفق أحبار الغرب وأحبار الشرق فى وصف النعيم بهذه الصفة فقال القديس أرنيوس Irenius أسقف ليون فى القرن الثانى (سنة ١٧٨ للميلاد) :

« انما السيد المسيح أنبأ يوحنا اللاهوتى أن ستأتى أيام يكون فيها كروم لكل كرمة عشرة آلاف غصن ولكل غصن عشرة آلاف فرع ، ولكل فرع عشرة آلاف عسلوج ، ولكل عسلوج عشرة آلاف عنقود ، ولكل عنقود عشرة آلاف عنبة وتعصر العنبة منها فتدر من الخمر مائتين وخمسة وسبعين رطلا » (١)

ولم يبلغ الاسلام هذا المبلغ من التمثيل بالمحسوسات ولكنه يشفعها بعقيدته التى تمنع المسلم أن يقيس نعيم الرضوان على نعيم الدنيا :

« فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

(سورة السجدة)

---

(١) راجع كتاب الفلسفة القرآنية للمؤلف

أو كما جاء فى الحديث الشريف : « فيها مالا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر »

***

ونحن لا نعرض لهذا البحث فى موضوع الاخـــــلاق الاسلامية الا لأن الاديان جميعا تنظر الى النعيم الالهى كأنه المثل الاعلى للحياة الدنيوية ، وليس فى المثــــل الاعلى فى الحياة ـ فى عقيدة المسلم ـ ما يجعله على زعم المضللين من أعداء الاسلام جسدا محضا فى أخلاقه وآدابه ، أويجور على الجانب الاخلاقى فيه ، ومن أبى عليه دينه ان يكون فى الارض جسدا محضا فمن السخف ان يقال انه يرتضى لنفسه أن يكون جسدا محضا فى جوار الله الذى بلغ بـه الاسلام غاية ما يتصوره العقل والضمير من التنزيه

وهذا قسطاس لا يخطىء فى تقــويم كل خـلق حسن يستحبه الدين فى المسلم . فانه مأمور الا ينسى نصيبه من الحياة الجسدية ، ولكنه مأمور فى الوقت نفسه أن ينظر الى صفات الله الحسنى كما تجلت فى اسمائه التى وردت فى القرآن الكريم . فهى قبلته التى يهتدى بها فى كل مكارم الاخلاق لا يكلف أن يدرك منها شأو الكمال الالهى ، ولكنه يكلف منها بما فى وسعه كأنها قطب السماء الذى يهتدى به ملاح البحر وهو يعلم انه فى فلكه الرفيع بعيد المنال

الاسماء الحسنى

والاخلاق التى يهتدى اليها المسلم بهدى الأســـــماء الحسنى كثيرة وافية بخير ما يتحراه الانسان فى مراتب الكمال المطلوبة لكمالها ، مع عموم نفعها فى حيـــاة الفرد والجماعة . ومنها : العزة ، والقدرة ، والمتانة ، والكرم ، والاحسان ، والرحمة ، والود ، والصبر ، والعـــفو ، والعدل ، والصـــدق ، والحكمة ، والرشد ، والحفاظ ،

والحلم ، واللطف ، والولاء ، والسلام ، والجمال

وكلها منشود لأنه كمال لا يقاس الا بمقياس الكمال ، وانه ليوافق مقاييس القوة والتوسط والمصلحة الاجتماعية في أجمل مطالبها واصحها على هدى الفكر وهدى الضمير ثم لا تستوعبه مدرسة خاصة من هذه المدارس المتفرقة كما تستوعبه مدرسة الاسلام ، أو مدرسة الكمال بهداية الاسماء الحسنى

وخير للمجتمع الانسانى ان تقاس الاخلاق فيه بهذا القسطاس ولا تقاس بمنفعة تفسد بفساد المجتمع نفسه، وتنحرف مع انحراف نظرته الى منافعه ومضاره . فان المجتمع قد يصاب بآفات الذل والعجز والهزال والبخل والسوء والقسوة والبغضاء وسائر الافات الموبقة من نقائض الخلائق الالهية ، فيصلحها الترياق من الدين ، أو يصلحها ان تقلع عنها ولا يصلحها ان تتمادى فيها

ان أدب الاسلام يخرج للمجتمع الانسان الكامل فيخرج له الانسان الاجتماعى الكامل فى أقوى صورة وفى أجملها يخرج له السوبرمان الذى لا يطغى على أحد ، ويخرج له الجنتلمان الذى لا يسىء الى أحد

ومن عناية الاسلام بالتفصيل والاستيفاء فى كل أمر من الامور أنه يشفع الاصول بفروعها فى مسائل الاخلاق ومسائل الفرائض والعبادات .. فمما لا خفاء به ان الرجل الذى يعرف العزة والصدق واللطف « جنتلمان » على أجمل ما تكون «الجنتلمانية» فى رأى الرجل المهذب الكريم ولكن الاسلام يستوفى صفاته بتفصيلاتها لانه يخاطب الناس كافة ويتوجه بالارشاد الى أحوج الناس اليه ، فلا يدع الارشاد الى الآداب الاجتماعية فى أدق تفصيلاتها التى تحسب من آداب المجاملات فى اللقاء والتحية بين الناس أو فى عرف السلوك فى المحضر والمغيب

لا يدخل أحد بيتا حتى يستأذن :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » . (سورة النور)

ولا يحيى بتحية الا أجابها بمثلها أو بأفضل منها :

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا » .
(سورة النساء)

ولا يحسن بالمرء ان يقول للناس الا قولا حسنا :

« وَقُولوا لِلنَّاسِ حُسْناً » (سورة البقرة)

ولا يحسن به ان يسخر ممن يستصفره ويستطيل عليه :

« لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ » (سورة الحجرات)

ولا يحسن ان يقول عن الناس سوءا فى المحضر أو المغيب :

« وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً »
(سورة الحجرات)

ولا خفاء بصفات الكمال فى القرآن الكريم ، ولـــكن الاسلام فى مجموعه بنية حية متسقة تصدر فى العقـــائد والاخلاق من ينبوع واحد . فمن عرف عقيدة المسلم عرف أن الخلق الذى يحمده الاسلام هو الخلق الذى يرتضيه انسان يؤمن بأن الله رب العالمين ، وأن النبوة تعليـــم لاتنجيم ، وان الانسان مخلوق مكلف على صورة الله ، وأن الشيطان يغوى الضعيف ولا يستولى عليـــه الا اذا اولاه زمامه بيديه ، وان العالم بما رحب أسرة واحدة من خلق الله ، أكرمها عند الله أتقاها لله

خاتمة

نختتم بهذه الكلمة فصولا كتبناها عن حقائق الاسلام واباطيل خصومه فى العصر الحاضر . ونحن نعلم ان هذه القوة الروحية الخالدة فى مفترق طريق وعرة تقف لديها لتثبت وجودها فى مستقبلها بعد أن أثبتت وجودها فى ماضيها

ولقد وقف الاسلام مرات فى مثل هــذا المفترق امام خصومه منذ قيام الدعوة المحمدية ، وصمد لحملات عنيفة كهذه الحملات التى يشنها عليه خصومه فى العصر الحاضر ، ولكنها على أكثرها كانت من قبيل الحملات المادية ، أو الحملات الحربية ، التى شنها عليه منافسوه من أرباب الدولة والسلطان ، وقل أن وقف الاسلام طويلا امام قوة يحفل بها لانها تتصدى له من الوجهة الروحية . اذ كانت القوى الروحية التى تصدت له فيما مضى تنظر الى ماضيها فتلمس فيه الفارق بينها وبينه ولا تأمن عاقبة الجولة فى هذا المجال ، وهى مجردة من عدة الدولة والسلطان ، وكانت من جانبها مشغولة بخصوماتها ومنازعاتها بين نحلها ومذاهبها ، تتجرد للحملة عليه الا أن تتأهب للغلبة عليه بقوة السلاح ..

أما حملات العصر الحديث فأهونها فيما نرى حملات الدولة والسلطان ، وهى الحملات التى شنها عليه الاستعمار

ثم ظهر منها بعد حين أنها لم تقتل فيه قوة المقاومة ولم تمنعه أن يصمد لها فى ميدان البأس والحيلة فكان صمود الإسلام لمحنة الاستعمار آية من آيات القوة الروحية التى تسعد المعتصمين بها حين تخذلهم قوة السلاح وقوة السياسة وقوة العلم وقوة المال . ولو لم يكن فى هذه العقيدة الخالدة سر أعمق جدا من أسرار العقائد الشائعة لما اعتصم المسلمون منها بمعتصم نافع أمام هذه القوى المتضافرة عليها مجتمعات

ولنا اذن أن نقول — على ثقة — ان القضية الروحية بين الاسلام والاستعمار قضية بلغت حلها المأمول او كادت أن تبلغه فهى قضية مفروغ منها فى هذا القرن العشرين

ولنا منذ الساعة ان نقول على ثقة ان حملات الخصوم الذين يهاجمون الاسلام صائرة الى هذا المصير .. الا أننا ننظر الى قوى معروفة من الجانبين ، ونرى ان فرصة الإسلام فى هذه الجولة خليقة أن تبعث فى الصدور املا أكبر من الامل فى مجرد الثبات والصمود ، وبخاصة حين نذكر أن العدة التى يعتد بها خصوم الاسلام فى حملاتهم عليه هى عدة سلبية لا يعتمدون فيها على حجتهم وبيناتهم كما يعتمدون فيها على ضعف العقائد عامة فى عصر المادية الطاغية على العقول والضمائر . فهم ضعفاء يجردون الحملة على الاسلام لظنهم ان الشبهات المادية زلزلته من داخله وفتحت بين أهله ثغرة ينفذ منها المهاجم وان ضعف وضعفت معه حجته وبيناته . فإذا انكشفت هذه الرغوة عن زبدتها وعرضت قوى الاسلام وقوى خصومه عرضا يناسب هذا العصر الحديث فالذى يتقدم هو الاسلام والذى يرتد أو يذعن للحقيقة هو الخصم المستعد للانصاف

يتلقى الاسلام أشد الحملات فى العصر الحاضر من منكريه لانهم يحترفون التبشير بدين آخر ، أو من منكريه

لانهم ينكرون جميع الاديان

وكلا الخصمين لا يستطيع أن ينال من الاسلام اذا وزن بميزان واحد وأخذ بمعيار واحد فيما يؤيده من دعواه وفيما ينكره من دعوى الاسلام . .

لا يستطيع المبشر المحترف ان ينال من الاسلام بما يدعيه عليه من التحريف والتشويه للاديان التى سبقته، فان عقائد الاسلام فى الاله وفى النبوة وفى الخيروالشر وفى حقوق الانسان ارفع واصلح مما جاءت بهالاديان التى سبقته اذا وزنت كلها بميزان واحد يأخذ هنا بما يأخذ به هناك . وليس فى عقائدالاسلام ما يعتبره المنصف نكسة الى الوراء أو يعتبره تطورا فى عقيدة تترقى مع الزمن حسبما يعرض لها من الظروف والملابسات . فان من هذه العقائد ـ كالعقيدة فى رب العالمين ـ ما ينقض عقائدالشرك وعقائد العصبية والاستئثار ، ويصدر من بيئة مشحونة بمفاخر العصبيات والسلالات ، وانه لمن تعسف القول ان يقال انها هى البيئة التى يتطور فيها الايمان بآله القبيلة ليصبح الها واحدا يؤاسى بين الشعوب والقبائل ،يحاسبها بأعمالها ولا يحاسبها بآبائها وانسابها ، او بما سلف من خطايا الاباء والاسلاف .. ومن ينكر النبوة على صاحب الدعوة لعلة من العلل الماجنة التى يتمحلونها فهو مرغم على انكار نبوات كثيرة يتقبلها ولا يشك فى مصدرها السماوى ومعاذيرها المقبولة عند الله ..

والمؤمنون بالعهد القديم يؤمنون بما جاء فيه عن داود عليه السلام ، ويؤمنون برضوان الله عنه واختصاصه بالبشارة الالهية من ذريته ، ويقرأون ما جاء فى الاصحاح الخامس عشر من سفر صموئيل الثانى عن قصة داود مع قائده « أوريا » وزوجته التى بنى بها بعد تعريضه للقتل وهو فى خدمته يهجر داره ويجازف بحياته لمحاربة أعدائه .. يقول راوى القصة كما جاءت فى الاصحاح

الخامس عشر من كتاب صموئيل الثانى :

« ... قال داود لاوريا : اقم هنا اليوم أيضا وغدا أطلقك . فأقام أوريا فى أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود فأكل امامه وشرب وأسكره ، وخرج عند المساء ليضطجع فى مضطجعه مع عبيد سيده والى بيته لم ينزل . وفى الصباح كتب داود مكتوبا الى يوآب وأرسله بيد أوريا وكتب فى المكتوب يقول : اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت ، وكان فى محاصرة يوآب المدينة انه جعل أوريا فى الموضع الذى علم ان رجال البأس فيه ... فلما سمعت امرأة أوريا انه قد مات رجلها ندبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها الى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا واما الامر الذى فعله داود فقبح فى عينى الرب .. »

فمن كانت هذه القصة فى عقيدته لاتغض من النبوة ولا تدعو الى انكارها فليس له أن ينكر نبوة رسول الاسلام لما يتعلل به من أحاديث زواجه ولو صح منها كل مايدعيه وهو غير صحيح . وليس له ــ وهو يزن النبوات بميزان واحد ــ أن يستنكر النبوة على صاحب رسالة ترتقى بالعقيدة الالهية وبالرسالة النبوية ذلك المرتقى الذى لايخفى على بصير يفتح عينيه ولا يغمضهما بيديه.

أما الذين يحملون على الاسلام من غير المتدينين فهم جماعة الماديين الذين ينكرون الاسلام لانهم ينكرون جميع الاديان ، ويرفضون وجود الله فيرفضون الايمان بصدور شىء من الاشياء من عند الله .

وآفة هؤلاء الماديين ضيق الافق العقلى أو ضيق حظيرة النفس فى حالتى التصديق والانكار.

فهم ينكرون الرسالة النبوية لانهم لايقدرون على تصورها فى غير الصورة التى يرفضونها ، ولعلهم يلذ لهم أن يتصوروها على هذه الصورة لانها تتمشى فى طبائعهم مع شهوة الانكار التى تتسلط على عقول المسخاء ، ولا سيما المسخاء من أدعياء العلم والتفكير

ولا يراد من هؤلاء أن ينبذوا العقل ليدركوا حق

الاسلام . ولكن يراد منهم أن يوسعوا أفق العقل فيعلموا من ثم أن العقل لايمنعهم أن يدركوا حق الاسلام بل لايمنعهم أن يقبلوا عقلا أنه وحى من عند الله

فمن حقائق العقل والعلم أن الشكوك لا تبطل فرضا من الفروض الا اذا كانت قاطعة فى بطلانه، لايجوز فيها الاخذ بأخذ الرأيين المختلفين .. فما هى شكوكهم التى يوردونها على الاسلام فتمنع أن يكون دينا صالحا أو تمنع أن يكون دينا من عند الله

لا يجوز أن ينكروه لما فيه من التعبيرات الرمزية . لان التعبيرات الرمزية متمثلة فى كل حاسة من حواس الاحياء ، متمثلة فى شعوره الوجدانى وشعوره الذى يعول فيه على البصر أو على الخيال . ولا يجوز لهم أن ينكروه لأن الجهلاء يفهمونه كما يفهم الجهلاء كل شيء . فكل حقيقة كبرت أو صغرت لابد أن يفهمها الجهلاء فهما يخالف ما يفهمه منها العارفون وذوو البصر والدراية . ولا يجوز لهم أن ينكروه لأن العصور المتعاقبة تتدرج فى فهمه والنفاذ الى سره . فكهذا ينبغى أن تتدرج العصور فى النفاذ الى سر الدين الذى تدين به أجيال بعد أجيال ، وهكذا يكون الخطاب فى الاديان لانها لاتدين النفوس اذا توجه بها الخطاب اليوم ليلغى بعد يوم من الايام

فاذا وجد الدين الصالح فلن يكون فى وسع العقل أن يتصوره فى غير هذه الصورة من التعبيرات الرمزية ومن اختلاف العلماء والجهلاء فى فهمه ومن تفاوت الاستعداد له على حسب الاستعداد بين الاجيال والامم . وانه لعقل بديع ذلك العقل الذى ينكر الشيء ثم لايستطيع أن يتصوره حقا الا على الصورة التى أنكرها .. !

ونحن لم نكتب فصول هذا الكتاب لنبشر بالاسلام هؤلاء الماديين المتعطشين الى انكار كل معنى شريف من

معانى الحياة البشرية ، ولكننا كتبناه للمتدين المنصف الذى يستطيع أن ينظر الى دينه والى هذا الدين نظرة واحدة ، وكتبناه أولا وآخرا للمسلم الذى يتلقى حملات خصوم الاسلام من المتدينين وغير المتدينين ، ليعلم أنه خليق أن يطمئن الى حقائق دينه فى هذا العصر سواء نظر اليها بعين العقل أو بعين الايمان ، وانه خليق أن يواجه الغد بما يؤمن به من عقائد دينه ومعاملاته وحقوقه وآدابه وأخلاقه فلا يعوقه عائق منها أن يجارى الزمن فى المستقبل الى أبعد مجراه

واذا وفى المسلم بأمانة الشكر وعرفان الجميل فلا ينسى أنه مدين لهذا الدين الحنيف بوجوده الروحى ووجوده المادى فى حاضره الذى وصل اليه بعد عهود شتى من عهود المحنة والبلاء . ولولا قوة بالغة يعتصم بها المسلم من هذه العروة الوثقى لضاع بوجوده الروحى ووجوده المادى فى غمار يمحوه ولا يبقى له على معالم بقاء .. ومن حق هذا الدين عليه أن يسلمه الى الاعقاب قوة يعتصم بها العالم فى مستقبله بين زعازع المحن التى ابتليت بها الانسانية فى هذا الزمن العصيب .. ولعله من نصيب هذا الميراث فى غده القريب أن يكون مصداقا لنبوءة الاسلام بحكمته جل وعلا فى خلق عباده شعوبا وقبائل متفرقين ، ولعل هذا الدين القويم الذى دعا أول دعوة الى رب العالمين أن يكون دين الشعوب والامم متعارفين متسالمين مسلمين . ولا تكونن أمانة الدين يومئذ سياسة حسنة نخدم بها نحن المسلمين حاضرنا ومصيرنا ، بل هو الايمان بارادة الله كما تتجلى لخلقه يؤديها كل من عرفها بمقدار ما عرف منها ، وسيذكرها كل من ينجو بها من أمم العالم فيذكر الرسالة الالهية التى تفتتح باسم الله الرحمن الرحيم وتختتم بحمد الله رب العالمين

فهرس

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس – ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد – ص.ب ٢١.

البرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND



هـذا الكتـاب

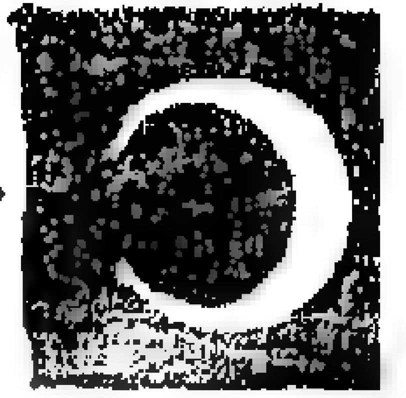
« جاء الاسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة فى الاله الواحد الاحد ، صححت فكرة الفلسفة النظرية كما صححت فكرة العقائد الدينية ، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين — فى جانب النقص منها — أعظم المعجزات التى اثبتت له فى حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة أنه وحى من عند الله ..

« ووجهتنا التى نتجه اليها فى الدراسات التى ينطوى عليها هذا الكتاب ، اولا : أن الاسلام يوحى الى المسلم عقيدة فى الذات الالهية وعقيدة فى الهداية النبوية وعقيدة فى الانسان لايعلوها عقيدة فى الديانات ولا فى الحكمة النظرية او الحكمة العملية . وثانيا : ان احكام الاسلام لاتعوق المسلم عن غاية تفتحها امامه اشواط العلم والحضارة ، وثالثا : ان فى الاسلام زادا للامم الانسانية فى طريق المستقبل الطويل يواتيها بما فيه غنى لها حيث نضبت الازواد من وطاب العقائد الروحية أو تكاد ..

المؤلف

كتاب الهلال

١٠ قروش



سلسلة
ثقافية
شهرية

مختارات من برنارد شو

الدكتور عمر مكاوي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

العـــدد ١٧٠ – محرم ١٣٨٥ – مايو ١٩٦٥

No. 170 Mai 1965

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

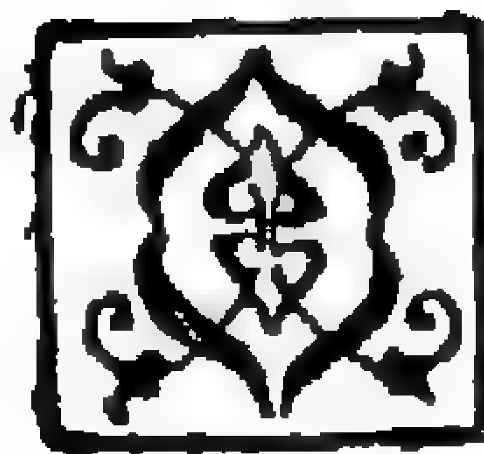
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى – فى الســـــودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشـــا ســـوريا لبنانيا – فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٢٠٠ مليم – فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف – فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنـــة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

مختارات

من برنارد شو

فى السياسة والنقد

ترجمة

الدكتور عمر مكاوى

دار الهلال

مقـــدمة

لم أعرف أن الاختيار من « شو » الكاتب الموسوعى الذى احاط ــ أو كاد ــ بمعارف عصره ، وبلغت مؤلفاته نحو ٣٤ مجلدا منها ١٥ مجلدا مسرحيات عدا رســـائله التى نشر بعضها فى عامنا هذا ، فبلغت عدة مجلدات اخرى ــ لم اعرف ان الاختيار منه مشكلة صعبة بل ورطة محيرة الا بعد ان كابدته .. انها اشبه بالمشكلة التى تعترض كتاب الموسوعات ودوائر المعارف ، وكلهم يجمعون على انهـــا ليست فى ماذا تختار بل فى ماذا تدع . وقد ترجم الى العربية من مسرحيات شو ومؤلفاته حتى الآن عدد كبير ، وان كان متناثرا ، فى فترة تزيد على ثلث قرن . ولكن ما بقى من شو غير مترجم لا يزال كثيرا وهاما جدا .. فكان أول حرصى على أن تكون « المختارات » ــ أو اكثرها ــ مما لم تسبق ترجمته ، ثم أن تكون مطابقة لمقتضى الحال

وفى رايى ان من أهم ما كتب شو ــ عدا المسرحيات ومقدماتها ــ هو كتابه « جوهر الابسنية » الذى لم يترجم بعد الى العربية ــ للاسف ــ والذى ينبغى أن يترجم بلا ابطاء بعد دراسة كافية ، وبيد اكثر تخصصا واشد تمكنا ، أسوة « بكانديد » فولتير و « حرية » ستيوارت مل . ومن ثم كان اول ماتبـــادر الى ذهنى عنـــدما عرضت فكرة

« المختارات » من شو أن أنقل أكبر قدر مستطاع من « جوهر الابسنية » فأخذت منه ثلاثة فصول كاملة . وانصح القارىء العربى المثقف ان يبدأ بقراءة مسرحيات ابسن المترجمة ـ على الاقل ـ وهى نحو عشر مسرحيات من أهم مسرحياته حتى لا يفوته الكثير من اشارات شو وتعليقاته على شخصيات المسرحيات

يقول برتولد برخت عن شوفى «مقالاته عن المسرح» (١) : « كلنا نصور المرابى فى صورة الجبان واللص والمتوحش، ولا يخطر ببالنا لحظة أن نسمح له وبأى حال من الاحوال أن يكون شجاعا ـ ولكن شو يفعل ذلك » . واحسب ان برخت قد أصاب بعبارته هذه المرمى تماما وفتح مغاليق شخصية شو ومسرحه بضربة واحدة ..

فالواقع ان « جوهر الشوئية » على وزن « جوهر الابسنية » هو أن شو انسان متمرد يريد التغيير ، تغيير المجتمع وتغيير الانسان . ولا يقف تمرده على التقاليد المحافظة فى السياسة والاجتماع والدين والاخلاق والفن والعلم وكل ما هو « جاهز » سلفا ، بل يتجاوز ذلك الى ما يسميه البورجوازيون « مثلا عليا » اى القضايا الاخلاقية المسلم بها ، والتى لا تقبل الجدل او الامتحان فضلا عن الخروج عليها أو الانحراف عنها . ان خصوم شو الالداء هم القطيع السائرون فى الحياة كالهائمين على وجوههم ، الذين يطفون على سطح الحياة كالقش الذى يطفو على سطح التيار بلا وعى ولا ارادة ولا حياة ـ يفعلون ما يفعله كل شخص آخر ويتركون ما يتركه كل شخص اخر بلا وعى ولا ارادة ولا حياة ، لان الحياة

---

(١) Brecht on Theatre اختيار وترجمة John Willet
الناشر Methuen لندن سنة ١٩٦٤

عنده ارادة .. وارادة تغيير وتطور الى ما هو ارقى وانضج واحسن .. فالتقليديون والروتينيون الجامدون أموات أموات وان لم يدفنوا بعد ، أما أبطال الحياة الحقيقيون فهم ابطال التغيير ، أبطـال التمرد على التقاليد المتعفنة والروتين الجامد والقضايا « الجاهزة »

وشو عندما يظهر الجانب الشجاع فى المرابى ، والناحية الاصيلة فى تاجر الموت ، وموضع القوة فى العاهرة وزير النساء والنصاب والبورجوازى النفعى انما يريد ان يحقق من الناحية الفنية « انفصـــالا » عمليا فى ذهن ووجدان القارىء أو المشاهد عن المثل العليا السائدة ، مهما كانت هذه المثل حميمة الى النفس قريبة اليها قرابة الرحم .. يريد أن يحقق هذا « الانفصال » لكى تتضح وتبرز ارادة الانسان حرة متحررة من كافة الارتباطات الادبية والمادية بكل ما ورثه عن اجداده وما وجد عليه آباءه الاولين — هذا التحرر من الارتباط هو الشرط الجوهرى لحـــرية الارادة ، أى للالتزام ..

ولكن شو — مثل ابسن — لا يريد التحرر من اجل التحرر والا أصبح « نهلستيا » عدميا يريد الهدم للهدم ، أو ميتافيزيقيا يريد الفن للفن ، أو أبيقـــــــــــوريا يريد المتعة للمتعة ، بل يريد للانسان أن يحقق ارادته فى الانفصال لكى يجد حريته فى الاختيار .. اختيار ما يشاء من العقائد ، والالتزام بما يشاء من اخلاق وقيم حتى وان كانت هى العقائد والاخلاق والقيم التى تمرد عليها وانفصل عنها من قبل . فاذا قال قوم — بل اذا قالت الدنيا كلها — ان المرابى جبان ولص ومتوحش ، لم يأخذ هذا القـــول على عواهنه بديهية لا تقبل المناقشة ، بل نظر فيه خاليا من كل فكرة سابقة ومن كل تقليد سائد ومن كل التزام

موروث ليصدر حكمه عليه بارادته الحرة الحية الواعية . ولا تتأثر هذه الارادة بشيء الا بالظروف الموضوعية المباشرة — كما لا تتأثر ارادة الانسان الواعى الا بالظروف الموضوعية المباشرة عندما ينزل من بيته الى الشارع فيقرر هل يسير على قدميه أم يستدعى « تاكسيا » ..

ان شو — مثل ابسن — يريد انسانا جديدا متجددا سواء فى نظرته للامور أم فى تصرفاته قبلها ، يريد انسانا حرا بمعنى الكلمة أصيلا بمعنى الاصالة ، انسانا يستمد انسانيته رأسا من قوة الحياة المتطورة المتغيرة التى هى كل يوم فى شأن ..

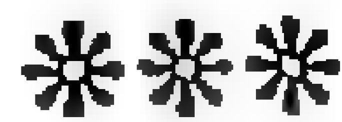
هذا هو جوهر شو ، وهذا هو جوهر ابسن ، وهو جوهر كل انسان متحرر . وهذا — فى رأيى — هو جوهر الانسان العربى فى هذه الحقبة من تاريخنا بعد أن قطعنا هذا الشوط الرائع المجيد فى طريق تحررنا السياسى والاقتصادى والعسكرى والاجتماعى . فان احوج ما نحتاج اليه فى مرحلتنا هذه أن نتحرر نفسيا بمعنى أن نعود الى انفسنا والى تراثنا العظيم والى تاريخنا القريب والبعيد — وأن ننظر الى هذا كله كما ننظر الى حاضرنا ومستقبلنا بعيون جديدة ، وقلوب جديدة ، وعزم جديد . ولهذا اخترت من كتاب « جوهر الابسنية » على صغره ثلاثة فصول كاملة ، ولو اتسع الحيز لزدت ..

ومن العجيب ان شو على معرفة قراء العربية به — كناقد موسيقى — ، لم يكن يقرأ له أحد مقالا واحدا فى الموسيقى فضلا عن كتابه الشهير « الفاجنرى الكامل » . ومقالات شو فى النقد الموسيقى جمعت فملأت ثلاثة مجلدات . وكان شو يفخر بأنه كان فى صباه المبكر يستطيع ان يميز أى لحن فى أية حركة من اية سيمفونية مشهورة

بمجرد السماع ، بل كان يصفر هذه الالحان بفمه ، وظل يعزفها على معزفه حتى قبل مماته فى سن الرابعـــة والتسعين . وظل يعمل ناقدا موسيقيا فى مجلتى «ستار» و « وورلد » اكثر من ست سنوات ، وبلغت مقالاته من الحيـــوية ما جعل بعض النقـــاد يقولون انها تجعلك ــ تسمع ــ الموسيقيين انتظـــام وهم يقدمون روائعهم بمجرد قراءتك لسطورها . وكان شـــو يردد دائما قول شكسبير : ان الشخص الذى لا تملأ الموسيقى وجدانه لهو شخص غير جدير بالثقة . وعلى هذا ــ وعلى الرغم من ان معرفتى بالموسيقى لا تتجاوز معرفة المســـتمع العادى ــ بدا لى ان من غير الممكن ان تخلو « مختارات من شو » من شىء ولو قليل من نقده الموسيقى . وكان الذى استرعى نظرى على الفور مقاله : « فاجنر الثـــورى » الذى اضافه الى كتابه الفاجنرى الكامل كرد على الذين انتقدوه لانه أقحم السياسة ومبادئه الاشـــتراكية على الموسيقى ، وفن الموسيقى هو الفن المجـــرد الكامل كما يقولون ..

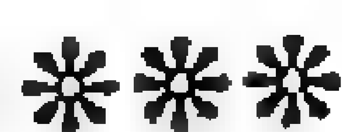
وكان لابد من أن يسبق هذا المقال ، الموضوع الذى دعا اليه وهو عرض شو للحلقة الاولى من رباعيـــة فاجنر الخالدة اوبرا « خاتم النبلونج » وهى حلقة « كنز الراين » كما اخترت مقالا عن بتهوفن كتب بمناسبة مرور مائة عام على وفاته ، ولم يخل ايضا من ذلك العنصر السياسى نفسه ولعل فى المقالات الثلاث ما يردع دعاة ــ أو ادعيـــاء ــ الفن للفن ، واللامعقول ، واللامنتمى فى بلدنا ، الذى يبنى الاشتراكية . أما مافيها من قصور واضح ــ وخاصة فى المصطلحات الموسيقية الفنية ــ فانى آمل ان يستفز نقادنا المتخصصين فى الموسيقى أن يبدأوا ويعيدوا ترجمة النقد الموسيقى لشو وخاصة كتابه الباقى عن فاجنر

وبالنسبة لشو وشكسبير ، اخترت أجزاء من مقالات ومقدمات متفرقة . وهذه هى المرة الوحيدة ــ عدا خطاب شو الطويل فى أمريكا ــ التى اقتطفت فيها اجزاء من المقالات ولم اترجمها كاملة . وسبب ذلك ان شــــو كان يدخل فى تفاصيل خاصة بالمناظر وبالموسيقى المصاحبة وبتمثيل الممثلين واخراج المخرجين مما لا يعنى القارىء العصرى فى شيء خاصة وقد مضى وقت طويل على عرض المسرحيات التى تناولها شو بالنقد .. غير أن أهم مايلفت النظر فى نقد شو لشكسبير انه لا يغض من قدر الشاعر العظيم بقدر ما يغض من قدر عباده ومقلديه الذين يؤلهونه تأليها بلا وعى ولا تفكير . فهو يعرف ويؤكد عظمة شكسبير حتى فى أقذع مقالات الهجاء التى كالها له ، ولكنه كان يؤكد أيضا ان شكسبير لم تكن له فلسفة واضحة اومفيدة لنا لانه كان يقف على رأس حقبة معينة من التاريخ ، تاريخ الفن المسرحى المتطور .. وهذه الحقبة انتهت ، وانعصرنا يطالب بشكسبير آخر جديد . أما من هو هذا الشكسبير الجديد فقد يكون ابسن أو ستريندبرج أو شو نفسه ؛ وقد وصف كلا منهم بأنه شكسبيرى حقيقى . وهو فى هذا امين مع نفسه صادق مع فلسفته فى التطور الخلاق وحسبه معرفة بفضـــل شكســـبير انه كان يحج الى ستراتفورد ــ أون ــ آفون حتى ليقول انهـــا اصبحت مسقط رأس ثان له ، وانه يعرف شخصيات شكسبير الثانوية ــ من صغره ــ كما لو كانوا من معارفه الاحيـاء الذين يلقاهم فى الطريق



وحديث شو عن داروين يكشف ضعف شو وقوته معا .. ضعف حجته كلما هاجم العلم والعلماء ، وقوة حجتـــه

كفنان اصيل . ولذلك فالجزء الخاص بالتطور وعلاقته بالمسرح ، فيه من القوة والاصـــالة والتمكن ماليس فى هجومه بل فى هجائه لداروين والداروينيين ، كما ان فيه عرضا تمهيديا لديانته الجديدة التى بلورها فى مسرحية « عودة الى متوشالح »



أما عن المقالات السياسية فقد اخترت مقالة المساواة التى كتبها سنة ١٩٤٤ ، وجعلتها فاتحة المختارات لعلها تساهم فى حسم البلبلة أو ـ على أحسن الفروض ـ عدم الوضوح ـ الذى نعانى منه بشأن قضية المساواة فى الدخل وهو فى هذه المقالة يعالج هذه القضية الحيوية معالجة واضحة ومركزة ، ويلم بها من جميع أطرافها ، ثم يضعها فى موضعها الحقيقى .. وهى ان مشكلة المساواة ليست مساواة فى الفرصة ولا هى مساواة رقمية فى الدخل بين الناس بل هى مشكلة الحد الاعلى للاجور وللدخل المسموح به فى مجتمع يبنى الاشتراكية

واخترت مقالة « عن الفقر » آملا ان يصدر عنـــدنا تشريع أو ما يقوم مقام التشريع يحرم الدعوة الى الفقر أو استحسانه أو الصبر عليه ، بل يضعها فى مرتبـــة الخيانة لقضية الاشتراكية والحضارة . أقول هذا لانه يحز فى نفسى اننا ما زلنا نسمع مثل هذه الدعوة تتعالى من فوق بعض المنابر كأنها المرض المتوطن ..

ومقال « مشكلة الارض » نموذج لاســـلوب شـــو الاستطرادى المحبب الذى ينتقل برشاقة خطو وخفة روح من اخطر القضايا الى مشكلة شخصية يشرح من خلالها هذه القضايا الخطيرة بوضوح ووفاء . وهى مقالة مفيدة فى وقت يدور فيه سباق غير عادل بين مدينتنا وقريتنا ..

المدينة تركض وتستأثر بكل شيء أو بأحسن الاشـياء والقرية وراءها تلهث زاحفة لا تنال الا القليل . واحسب ان هذا السباق سيظل فترة طويلة يمثل اخطر مشاكل تطورنا الاقتصـادى والنفسي ، فبعد ان حقق انتاجنا الصناعى (انتاج المدينة) تفوقه الحاسم على انتاجنـا الزراعى (انتاج القرية) باستكمال ثورتنا الصناعية الاولى بقيادة القطاع العام ، وبعد زوال الآثار النفسية والاقتصادية والسياسية لعقدة اننا بلد زراعى لا نحسن لابرة تشكيلا ، بعد هذا ستعود مشكلة الارض — وهى فى جوهرها مشكلة الملكيـة الفردية لها — لتحتل مكانها الطبيعى وهى مركز الصدارة من حياتنا ، بانعكاس اثر الثورة الصناعية نفسها على الارض وعلى مشكلة الارض . وسوف يتضح هـذا خاصة عندما نشرع فى « مكننة » الزراعة وكهربة الريف كله .. فان اراضى وادى النيل الخالد كانت وما زالت وستظل من اخصب واسخى اراضى الدنيا

وفى مقاله الفساد فى الدولة « تنبيه وتحـذير الى ان الايمـان بالاشـتراكية ضرورى لتطبيقها ، وأنه لا اشتراكية بدون اشتراكيين ، وان التنظيم السياسى الذى عقدنا العزم على تشكيله — حكومة وشعبا — هـو الضمان الحقيقى لتثبيت دعائم انتصاراتنا الاشتراكية

ويحتوى المقتطف من خطابه الطويل فى امريكا على نقد لاذع للنظام الرأسمالى الاحتكارى هناك ، واجه به شـو الامريكان مواجهة فى عقر دارهم وفى خلال أسوأ ازماتهم الاقتصادية الدورية ، فضـلا عن انه يشتمل على بعض التنبؤات الطريفة فى السياسـة الدولية عامة ، وعن الصين بصفة خاصـة ..

أما مقالاه عن نيتشه وتولستوى ، ففيهما رأى ناضج واصيل وغزير عن الفيلسوف والكاتب الكبير اللذين

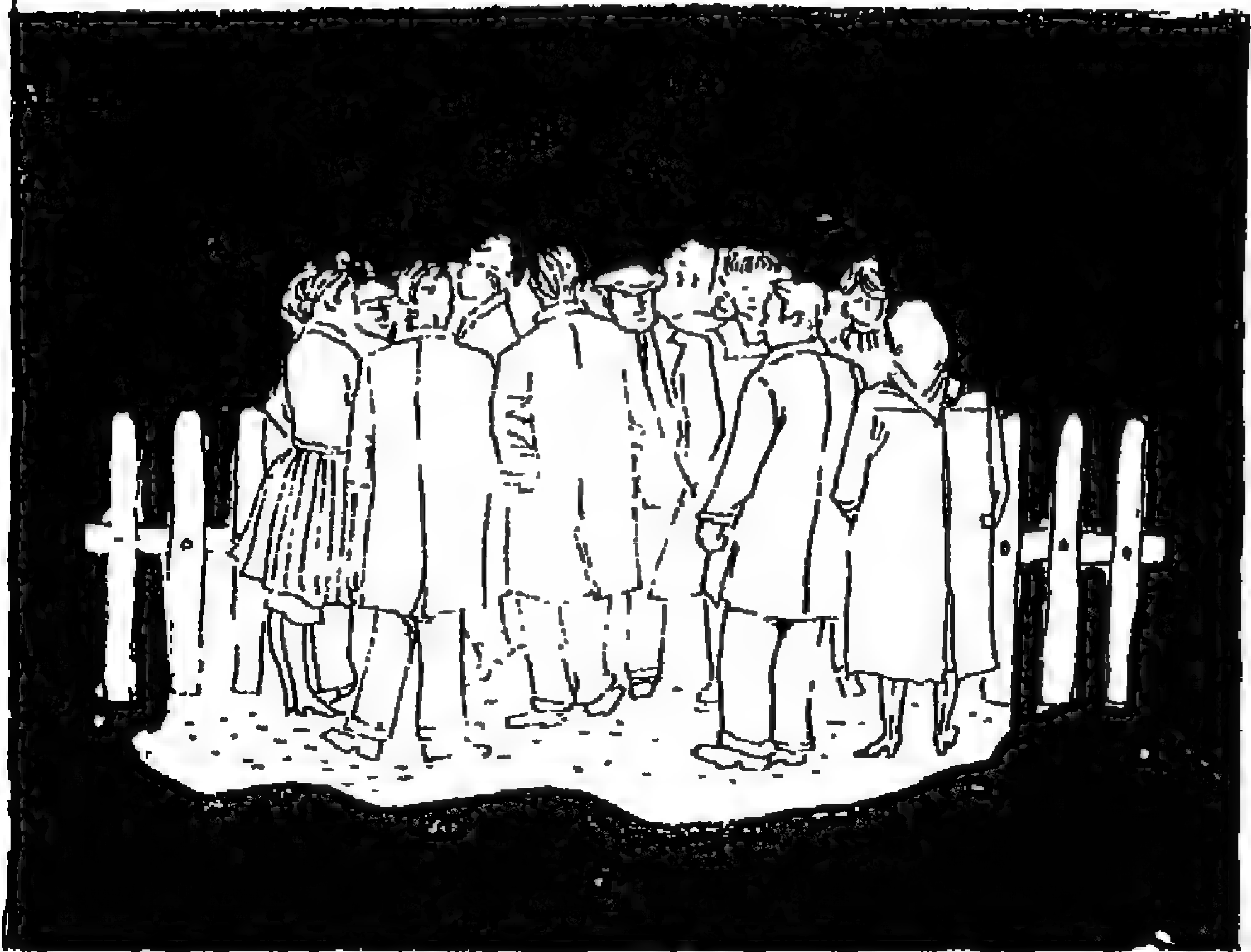
ترجمت أكثر اعمالهما الى العربية والفت عنهما الكتب ويعرفهما المثقفون العرب كل المعـــرفة ..

بقيت كلمة عن الهوامش .. فقـــــد احتاجت هذه « المختارات » على صغرها الى اكثر من ثلثمـــائة هامش وتعليق واشارة .. ولكنها مع ذلك لاتفى ولا يمكن ان تفى بالغرض منها . فمازلت اعترف بأن هناك اسماء وأشـياء لم أستطع — رغم جهدى الفردى — معرفة مرمى الكاتب منها .. فلعل الترجمة الوافية الكاملة لشو تحتاج ممن هو اولى بها ، لا الى أن يقرأ ويدرس ماكتب شو وماكتبه الناس عن شو بل ان يقرأ ماقرأه شو أيضـــا وهو شيء مستحيل على شخص بمفرده . وانى اترك هذا النقص لخبراء الموسيقى والمسرح والادب العربى والانجليزى أن يستروه وان يرأبوه . ولا شك انه مما يزيد مكتبتنـــا العربية الاشتراكية ثراء ان تعاد ترجمة اعمال شــــو : مسرحيات ومقالات وكتب وكل شيء لا مرة بل مرات .. فاذا نجحت هذه المختارات — على علاتها — فى حث اقلام جديدة متجددة على تناول شو بالترجمة والتعليق والبحث فانها تكون قد حققت اكثر من الغرض منها

دكتور عمر مكاوى

الفصل الأول

- المساواة .
- مشكلة الأرض .
- شو يتحدث عن الفقر .
- الفساد في الدولة .



المســـــاواة

الديموقراطية معناها المساواة ، ولكن ما معنى المساواة ؟
.. واضح أنها لا تعنى أننا سواء كلنـــــا فى الموهبة السياسية أو ـ والحق يقــال ـ فى أى موهبــة أخرى : فالطبيعة تقسمنا بقسوة لا ترحم وعناد لا يلين الى خليط مختلط من البشر المختلفين فى الموهبة والقدرة والاستعداد: فيهم نسبة من البلهاء ونسبة من العباقرة . ولكن لما كانت احتياجات هؤلاء الناس الجسدية متساوية ، فمن الممكن تقسيم الطعام والملبس والمأوى بينهم بالتساوى . كمـا أن كلهم ـ على السواء ـ لا غنى عنهم فراش الكابينة مثلا ، على ظهر المركب يحتاج الى قدر اكبر من الطعام ، وملابسه تبلى بسرعة اكبر من أميرال الاسطول الطاعن فى السن : على أننا لو اعطينا كلا منهما دخلا متساويا فسوف تكفل لهما احتياجاتهما لان كلا منهما لا غنى عنه للاسطول على حد سواء ـ وحياتهما المشتركة المتمدنة جزء لا غنى عنه لحياة الامة وتمدنها بل والحق يقال لحياة العالم وتمدنه . ونحن ندفع لامراء الاسطول الذين هم من نفس الرتبة ،

(*) الفصل السابع من الدليـــل السياسى للجميع طبعـة كونستابل سنة ١٩٤٥ لندن

مرتبات متساوية سواء كانوا أمراء من طراز بنج (١) أم من طراز نلسون ، وندفع لفراشى الكباين أجورا متساوية أيضا سواء كانوا سراعا خفافا أم بلداء ثقلاء ، وكل المجتمعات المتمدنة تتألف فى الغالب من طبقات من الناس تتساوى كل طبقة فيما بينها فى الاجوروالمرتبات،وتتفاوت هذه من طبقة الى أخرى بحسب المستوى المألوف فىالمعيشة ولا تتفاوت من فرد الى آخر مهما اختلفت شخصيات الافراد ومواهبهم،والواقع اننا لايمكننا تقدير الفروق فىالشخصية وفى الموهبة بحساب النقود : فلا يسع أى شخص مثـــلا أن يقر الاوضاع التى تتيح لمستر جوزيف لويس (٢) أن يكسب فى خمس عشرة جولة ، مدةكل منها ثلاث دقائق، أكثر مما يكسبه أنيشتين (٣) فى خمسة عشر عاما أو أن يصدق أن ما بذله جو من جهة يفوق ما بذله انيشتين بمائة وثمانين ألف مرة ، لمجرد أنه بطل العـــالم فى الملاكمة • ويستحيل على أى شخص أن يحدد دخـــل الاثنين بحسب مزايا كل منهما •• فذلك أشبه بأن يتفرغ شخص لاحدى الاسر ويحسب لها الفرق بالقروش والملاليم بين قيمـــة القلاية وقيمة الانجيل

وتتحدد أسعار القلايات والاناجيل ، لا على أســـاس مزاياها بل على أساس التكاليف الحقيقية لانتاج القلايات والاناجيل ، أى لانتاجها فى أسوأ الظروف وأقلها ملاءمة • وعلى هذا نجد أن الاناجيل أرخص من زجاجات البراندى ،

---

(١) J. Byng ١٧٠٤ — ١٧٥٧ اميرال بريطانى أرســـل لنجدة الحامية البريطانية فى مينوركا فهزمه الفرنسيون واعتزل وظيفته وحوكم واعدم رميا بالرصاص • وهو على نحو ما نقيض نلسون

(٢) جو لويس بطل العالم فى الملاكمة

(٣) A. Einstein ١٨٧٩ ـ ١٩٥٥ صاحب النظـــرية النسبية التى تنهض عليها نظرية انشطار الذرة ويعد أعظم علماء هذا العصر . نال جائزة نوبل سنة ١٩٢١

والبذلات أرخص من خواتم الماس مع أن قيمتها الاستعمالية ـ أى منفعتها ـ أكبر الى حد غير محدود • والحل أن تسيطر الحكومة على الانتاج وتتحكم فيه بحيث تخضعه لنظام الاسبقية : تبدأ أولا فى انتاج الاشياء المرغوب فيها اجتماعيا بحيث لا يتمكن أى انسان من شراء خاتم من الماس فى الوقت الذى يمشى فيه أطفال الامة عراة أو فى خرق مهلهلة، وأن تعمل الحكومة على ألا يدفع المواطنون فى السلع التى يشترونها أكثر من متوسط تكاليف انتاجها • وتلك ذروة عالية من ذرى الاشتراكية أو من المدنية الرفيعة أو من الانسانية العلمية أو أيا ما تكون التسمية التى نختارها لها • وقبل بلوغ هذه الذروة يتعين على الحكومة أن توفر للبلاد فراشين للكباين وأمراء للبحار ، ومن ثم عليها أن تحدد أجورهم ••

وهنا ما أيسر على أى سياسى ديموقراطى أن يقفز الى النتيجة التالية : حيث أن أسعارنا جميعا متساوية لاننا نتساوى جميعا فى تكاليف طعامنا وكسائنا ومأوانا بصورة لائقة مهما اختلفت قدراتنا ومواهبنا ، فالحل البسيط المباشر هو أن نمنح جميعا نفس النصيب المتساوى من الدخل القومى • غير أن هذه النتيجة ستأخذ بتلابيبه ليواجه حقيقة أخرى ثابتة هى أن تكاليف انتاج أمير من أمراء البحر أكبر من تكاليف انتاج فراش الكابينة ، وان كانت احتياجاتهما كبشر متساوية • فلو اننا نزلنا بهما معا الى مستوى أقل التكاليف ، توفر لدينا فائض من فراشى الكباين ولا شىء من أمراء البحر لان تكاليف انتاج العامل بصفته عاملا تختلف باختلاف نوع العامل المطلوب• ففى اليابان تبلغ تكاليف عامل القطن بنسا فى الساعة ، وتبلغ فى لانكشاير عشرين بنسا • وفى روسيا القيصرية

كانت تكاليف انتاج عامل عادى ٢٤ شلنا فى الشهر ، ولدينا فى الكومونولث البريطانى عمال افريقيون سود الوجوه ينتظر منهم المستوطنون حمر الوجوه أن يشكروهم ويسبحوا بحمدهم لانهم وفروا لهم اكواخا يأوون اليها وشرائط نحيلة من الارض يزرعونها حدائق ومنوا عليهم بالرعوية البريطانية وبتعليم مسيحى على أيدى المبشرين وبثمانية شلنات فى الشهر كمصروف جيب

والان اقول انه لا سبيل لتوفير العدد اللازم من المشرعين والقانونيين ورؤساء الاعمال والاداريين والاساتذة الجامعيين والمحامين والاطباء ورجال الدين والفنانين والفلاسفة فى مثل هذه الظروف : فهؤلاء يتكلفون تعليما وتدريبا وتثقيفا وحدا أدنى من المعيشة الخصوصية والدماثة والحس المرهف ، وشيئا من الفراغ ، وعندما انتوت الحكومة السوفييتية فى روسيا منح جميع العمال نصيبا متساويا من الدخل القومى الذى ينتجونه بعملهم ، تبين لها أنهم لا ينتجون ما يكفى لمنح كل منهم ما يزيد كثيرا عن خبز الكفاف الذى كان يكسبه أرخص عامل فى عهد القيصرية . وواجهت أحد أمرين : اما أن تضاعف الدخل القومى بنسبة هائلة بحيث تتمكن من منح كل عامل أجرا يهيىء له معيشة فى مستوى أرباب المهن الفنية المذكورة سابقا ، وهو أمر يستحيل تحقيقه فى التو والساعة ، واما أن تستغنى تماما عن أرباب المهن هؤلاء من موظفى الخدمة العامة من المتعلمين وهو بمثابة نزع مسمار الدنجل من عربة النظام الشيوعى ، وبالتالى انهياره وسقوطه فى هوة سحيقة لا أمل له فى الخروج منها . واضطرت الحكومة السوفييتية اذن ، الى طرح شعار المساواة فى الدخل جانبا ، واسقاطه من حسابها مؤقتا ، الى أن يزيد النصيب القومي المعد للتوزيع ويزيد

ويزيد ، حتى يصل الى مســـــتوى تصيب أرباب المهن الفنية • ومن الممكن بلوغ هذا المستوى ، بل ان بلوغـه قريب وعلى مرمى البصر • ولكن الى أن يتحقق هــــذا الهدف ، تكونت فى روسيا السوفييتية طبقة بيروقراطية وطبقة أرباب المهن الفنية ويتمتع أبناء الطبقتين بايرادات ودخول تبلغ عشرة أضعاف ايرادات ودخول الحطـــابين والسقايين

وما أسرع ما يتبين رجل الدولة الذى يهـــــدف الى تحقيق شعار المساواة فى توزيع الدخل ، أن عليــه أولا وقبل كل شيء أن يحدد حدا أقصى للاجور يكفى لصيانة الموهبة الفنية ولا يسمح بتبديد أية عبقرية ادارية بحيث لا ينقص هذه ولا تلك وسيلة من وسائل استــــتثمارها وتنميتها الى أقصى حد ممكن لصالح المجتمع • ولما كان هذا الحد الاقصى للاجور يزيد فى أول الامــــر عن الرقم الذى توصل اليه عندما قسم جملة الدخل القومى على عدد السكان فى البلاد بالتساوى ـ فقد تعين عليــــه أن يبقى دخول البيروقراطيين والمهنيين والفنيين عند الحد الاقصى المحدد ، على أن يتحمله الدخل القومى أولا ، وبعدذلك يوزع الباقى بأحسن طريقة ممكنة جاعلا نصب عينيه تحقيـــق المساواة فى الدخل مع الحرص على استخدام كل خطة فى متناول يده لمضاعفة الدخل القومى ومضاعفته باستمرار وعلى شريطة أن يستخدم كل زيادة جديدة فى الدخل القومى لرفع الحد الادنى للاجور الى المرتبـــــة التى تعلوه ثم الى المرتبة التى تعلوها حتى تتساوى جميع المراتب عند الحد الاقصى المحدد فى أول الامر ـ أى الى أن تتحقق المساواة فى الدخل عمليا ، وان لم يتحقق حســـابيا • ذلك أن المساواة الحسابية أو الرقمية فى الدخل ليست هدفافى حد ذاتها • فقد سبق أن ضاق صدر ستالين بالسياسيين

الذين لم يتعجلوا فقط تطبيق شعار المساواة قبل أن يصبح في حيز الامكان فحسب ، بل لانهم فشلوا في أن يتبينوا أن هذه المساواة عندما تتحقق عمليا ، ستكون قد فقدت صفة الاستعجال التي تتصف بها في الوقت الحاضر • وهكذا ضاق صدر ستالين بهم واحتقرهم ووصفهم بأنهم « تجار مساواة »

وحتى اذا نحن ألقينا نظرة على المجتمع الرأسمالى ، لرأينا أن هناك مستوى معينا لا تكون فيه للمســـاواة الرقمية أية أهمية • حقا ان الفرق الطبقى بين صـــاحب ايراد مائتى جنيه فى السنة أو أقل ، وبين صاحب ايراد ألفى جنيه أو أكثر هو فرق شاسع ، بل هوة ســـحيقة مدمرة ـ لان طبقة أصحاب المائتين تتمتع بعنفوان بدنى هائل وشبق شديد للحياة ، وتتميز بالجد والمثابرة ـ اعتادت عليهما منذ نعومة الاظافر ومع ذلك فالفقر قـــد حرمها من استثمار وتنمية طاقاتها الطبيعية فى مجــال القيادة والموهبة ، أما طبقة أصحاب الالوف فقد أنهكهـا كسلها وتطفلها وحرمها ثراؤها ـ بنفس الدرجـة ـ من التزاوج الصحى مع العمال • هذا مع ملاحظة أنه لاوجود لمثل هذا الحـــرمان من التزاوج أى الحرمان من فرحة اختيار الازواج الصالحين ـ بين طبقة أصحاب الالوف • ويتمتع أبناء طبقــة أصــحاب الخمسين ألف جنيه فى السنة (أى طبقة المليــونيريين) بنفس التعليم ونفس التربية ونفس النشأة ، كما أن المستقبل مفتــوح أمامهم على قدم المساواة ، وهم يختلطون ويتزاوجون فيما بينهم على قدم المساواة : فهم منضــمون الى نفس النــوادى ويأكلون نفس الطعام ويرتدون نفس الازياء ويقطنـــون نفس الاحياء ونفس الشوارع فى نفس الضواحى العصرية للمدن والعواصم • حقا ، قد يملك بعضهم خمسة بيوت

ولا يملك آخرون سوى بيتين لكل منهم ‥ ولكن الواحد منهم لا يمكنه أن يسكن الا فى بيت واحد فى المرة الواحدة ، وهم يتعاملون مع نفس المحامين ونفس الاطباء ويشترون من نفس المحلات . وبالاختصار هم مختلطون متزاوجون فيما بينهم . اذن ، ليست هناك غير مزية تافهة جدا فى أن يكون المرء أغنى من جاره عشر مرات ، ويتضح هذا عندما نرى مليونيرين من أمثال كارنيجى وبيرمونت مورجان وفورد وموريس يتنازلون طوعا عن فائض أموالهم ويؤسسون مراكز ومؤسسات روكفلر وادارات للحجاج وما شاكل ذلك للتخلص من أموالهم التى لا يحتاجون اليها ، وليؤدوا بها عملا صالحا

ان الحلم الذهبى للرجل الفقير هو أن تؤول اليه تركة تبلغ قيمتها عشرين ألف جنيه . ولكن هذه العشرين ألفا تجعل الرجل الغنى يسب ويلعن لانها تثقله بمتاعب المطالبة بها واستثمارها . وعلى هذا فالمجتمع كله — عندما ينشأ سائر أبنائه ويتربون فى مستوى خمسة آلاف جنيه فى السنة كحد أدنى للدخل ، سوف يحقق ويثبت الاهداف الرئيسية لمبدأ المساواة فى الدخل ، وشعار المساواة فى الدخل . وحتى فى هذه الحالة ، فسيبقى على الحكومة واجب أساسى ، أن تعمل على ألا تنزلق طبقة من الناس أو طائفة من المواطنين مرة أخرى الى هوة الفقر أى الى مستوى أدنى من الحد الادنى المقرر، وهذا لا يستلزم منها أن تمنع أى فرد من أن يصبح أثرى من ذلك ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وما دام راغبا فى الثراء ويعتقد أن الثراء يستحق التعب والازعاج ، بل لعل الدولة أن ترى تشجيع مثل هذه المطامح كحافز لزيادة الانتاج . وقد وجد الاتحاد السوفييتى أن من المستحيل زيادة الانتاج ، أو حتى المحافظة على مستواه الا بعد تطبيق نظام العمل

بالقطعة وتحديد الاجر على أساس انتـــاج العمل ، على الرغم من أنف « تجار المساواة »

وعندما تبلغ الاشتراكية الديموقراطية حد الاكتفـــاء فى أدوات الانتاج ، والمساواة فى الفرصــــة ، وتوفر امكانية التزاوج الصـــحى بين جميـــع أفراد الامة على المستوى القومى ـ مع الاحتفـاظ بالانتـــاج فى سيره الطبيعى بادئا بالضروريات ومنتهيا بالكماليات ، وتختفى من البلاد أحكام القضاء الظالمة بسبب نشـــاط مرتزقة المحامين ، فان الاشتراكية الديموقراطية تكون قد أنجزت مهمتها . فتلك هى أهدافها الحقيقية ، وليس من بينهـــا ذلك الهدف الرقمى التجريدى الذى يقصـــده شـــعار المساواة المطلقة فى الدخل . عندئذ ستتم تسويةالفوارق الطبقية القائمة فى المجتمع ، فلا تحرم أعظم الامكانيات الفطرية فى الانسان من ضروريات الحيـــاة وأســـباب الانطلاق ـ ولكنها مع ذلك ســـتبقى محتفظة بطبيعتها الانسانية بكل ما فيها من ابتكار وطموح ومنافسة . بل ان الطبيعة الانســـانية ســـــتكون فى أكمل حالاتها ، وسيتوفر لها الرواد الممتازون وفرسان الحلبة الافـذاذ كما سيكون فيها أيضاالمتوسطون والتقليديون والمتخلفون نسبيا ، كل فى مكانه الطبيعى ، وكل يأكل ملء بطنه ، ويتعلم ملء طاقتـــه ، ويبلغ أقصى ذروة تحمله اليهـا استعداداته والجميع قادرون على التزاوج الصحى فيما بينهم بلا حائل او عائق

ان المساواة ، لا يمكن أن تذهب الى أبعد من ذلك

شــو يتحدث عن الفقر

صورت فى شخصية المليونير آندر شافت رجـــلا بات يدرك بعقله وروحه ، ومن واقع تجربته العملية ايضا تلك الحقيقة الفطرية التى لا يمكن ان تقاوم ، والتى نستبشعها كلنا ونرفضها : الا وهى أن أعظم شرورنا هو الفقر ٠٠وأن اسوأ واخبث جرائمنا هى جريمة الفقر ، وأن أول واجب ينبغى التضحية بكل اعتبار اخر فى سبيله هو اولا وقبل كل شيء ، الا نكون فقراء ٠ « فقراء لكن شرفاء » ،«فقراء محترمون » : يالها من عبارات لا يمكن احتمـــــالها او السكوت عليها ! فضلا عن انها منافية للاخلاق الكريمة ٠ انها تشبه تماما أن نقول : هو «سكير لكنه لطيف المعشر» او هو « نصاب لكنه متحدث لبق بعد العشاء » او هو « مجرم رائع فى اجرامه » أو ما الى ذلك من العبارات٠ان اهم شيئين زعمت الحضارة انها وفرتهما وهيأتهما للناس هما الامن والطمأنينة ولا يمكن أن يتوافر آمن أوطمأنينةفى ظل اسوأ الاخطار على الاطلاق : خطر الفقر ، عندمايتسلط

(*) من مقدمة مسرحية « ميجور باربارا » بعنوان انجيل آندر شافت طبعة بنجوين سنة ١٩٦٠ ــ ترجمت المسرحيـــة فى بيروت ، وعرضـــت فى البرنامج الثاني للاذاعة العربية ولكن النص لم ينشر مطبوعا »

على رأس كل انسان، وحيث لا تعد الحماية المزعومة التي توفرها الحضارة لنا ولاشخاصنا من اعمال العنف والعدوان ، الا نتيجة عرضية لوجود قوة بوليسية مدججة بالسلاح ، بينما المهمة الحقيقية الملقاة على عاتق هذه القوة ليست الا ارغام الرجل الفقير على أن يبقى ناظرا الى اطفاله الصغار وهم يتضاغون من الجوع ، وناظرا فى الوقت نفسه الى الكسالى العاطلين وهم يتخمون كلابهم المدللة بطعام قد يطعم أطفاله من جوعهم وينفقون عليها أموالا قد يكسوهم من عرى

والعجيب ان من اشق الامور على الاطلاق ، أن تحمل الناس على أن يدركوا أن الشر شر · مثال ذلك أن نلقى القبض على أحد الرجال ، فنوقع عليه عامدين متعمدين ، جزاء منكرا وضررا بالغا بالزج به فى السجن سنوات مثلا والمفروض أن هذا الضرر البالغ المتعمد يعد من قبيل القسوة الشيطانية وان الاعتراف بذلك لا يحتاج الى درجة غير عادية من جلاء الذهن ووضوح الرؤية · ولكننا فى انجلترا نلاحظ ان مثل هذا الاعتراف البديهى ، يثير حملقة الدهشة والاستغراب يتلوها تبرير بان الضرر الذى أوقعناه بالرجل ، انما هو جزاء وفاق او حكم عادل او اى شىء اخر لا غبار عليه ، وقد تتلو هذا التبرير محاولة حماسية للادعاء باننا اذا لم نرتكب يوميا أمثال هذه الافعال الضارة الغبية بمن نسميهم لصوصا ومجرمين ، اى بتوقيع احكام السجن والحبس عليهم ، فسوف نسلب وننهب ونذبح ذبحا فى مضاجعنا ونحن نيام · وحتى لو كان هذا صحيحا ــ وهو ليس بصحيح ــ فلا فائدة من انكار اننا باستبدال جرائم نرتكبها نحن بجرائم نعانى منها ، انما نستسلم للامر الواقع ونعترف على انفسنا بالعجز وقلة الحيلة

ومثال آخر : مرض الجدرى شر منكر ، ولـــكن اذا قلت اننا بازاء مرض الجدرى مخيرون بين احـــد امرين أحلاهما مر : اما ان نخضع ونستسلم للمرض واما ان نقضى عليه بحزم ، وذلك بالقاء القبض على جميع المصابين بالمرض ومعاقبتهم بالتطعيم الواقى منه ، اذا قلت هذا ضحك الناس منى ، لانه لا يوجد من يستطيع ان ينكر ان النتيجة ستكون وقف انتشار الجدرى الى حد ما لاننى حملت الناس على تجنبه بزيادة عنايتهم بانفســـهم وبمن حولهم ، وستزداد ايضا نسبة الوقاية الظـــاهرية من المرض لاننى ارغمت الناس على اخفائه بلهفة شديدة خوفا من العقاب . ومع ذلك فسوف يتوفر لدى الناس ــ يوما ما ــ من الحكمة والبصيرة ما يجعلهم يدركـــون ان نشر الجديرى عن عمد عن طريق التطعيم ــ هو عمـــل شرير ومنكر ينبغى صرف النظر عنه والبحث عن غـــيره من الاجراءات الصحية ذات الطابع الانسانى الخالص (١) . والحالة التى تقابل هذه ، حالة الرجل يقتحم على بيتى ويسرق مآسات زوجتى : المنتظر منى ببداهة ، ان اسرق من عمره عشر سنوات وأن اذيقه طوال هذه السنوات العشر صنوف العذاب . فاذا حاول الرجل ان يفلت من انتقامى البشع باطلاق الرصاص على ، شنقه خلفائى من بعدى . وخلاصة النتائج التى توحى بها احصـــائيات البوليس تشير الى اننا نوقع اشنع الاضرار باللصـــوص الذين تقبض عليهم لا لشىء الا لندفع بقيتهم الى اتخـــاذ كافة الاحتياطات الفعالة حتى لا ينكشف امرهم ويقعوا فى

---

(١) يندد شو هنا بالتطعيم الاجبارى ومضاره المحتملة على اســـاس أنه عدوان غاشم على حرية الانسان لانه كان من كبار أنصار الرفق بالانسان وبالحيوان ومن كبار خصوم تشريح الكائنات الحية . وله فى مقدمة مسرحية « حيرة الطبيب » الفصول الضافية عن ذلك

ايدينا ، وهكذا بدلا من انقاذ ماسات زوجاتنا ، اذا بنا ننقص كثيرا احتمالات استردادها هذا اذا كنا سنسترد‌ها على الاطلاق ، ونزيد احتمالات اطلاق الرصاص علينا اذا دفعنا حظنا العاثر لازعاج اللص اثناء تأدية عمله

ما اكثر ما نبعثر احكام السجن والتعذيب بالحبس الانفرادى وعلى السرير الخشبى (١) ،وبالجلد،ذات اليمين وذات الشمال فى نزق اجرامى على المرضى المصابين بعجز خلقى او بنشاط عصيانى • ولكن هذا النزق الاجرامى ليس شيئاً اذا قيس بالسفاهة التى نحتمل بها الفقر ونصبر عليه ونطيق وجوده بيننا كما لو كان الفقر دواء صحياً مقويا للكسالى ، او فضيلة ينبغى التحلى بها كما كان يتحلى بها القديس فرانسيس (٢) ، اذا كان الرجل بليدا ، فليبق فقيرا ، واذا كان سكيرا فليبق فقيرا واذا لم يكن جنتلمانا فليبق فقيرا ، واذا كان يتعاطى الفنون الجميلة او العلوم البحتة بدلا من تعاطى التجارة والمال فليبق فقيرا ، واذا اختار ان ينفق شلناته الثمانية عشرة التى يكسبها فى المدينة كل اسبوع او شلناته الثلاثة عشرة التى يكسبها فى الريف كل أسبوع ، على بيرته واسرته بدلا من ادخارها لشيخوخته ، فليبق فقيرا • الشخص الذى لا يستحق ، لا يأخذ شيئا ، وليبق فقيرا ان الفقر جزاؤه العادل ، وهنا يمكن القول ايضاً ــ وان خرج الكلام عن الموضوع الى حد ما ــ طوبى للفقراء !

والان ، لننظر فى عبارة «فليبق فقيرا» وماذا تعنى • ان معناها ان يبقى الرجل ضعيفا ، وان يبقى جاهلا وان يبقى نواة للامراض وبؤرة للاوبئة ، معناها ان يبقى معرضا

---

(١) يقابله « البرش » فى سجوننا
(٢) القديس المتقشف مؤسس مذهب الفرنسسكان

قائما لا تغلق ابوابه ، للقذارة والدمامة ، معناها أن يبقى اطفاله مرضى بالكساح من سوء التغذية وان يبقى هـو لئيما دنيئا رخيصا يجر وراءه رفاقه في الفقر الى مستواه اللئيم الدنيء ، ببيع نفسه بثمن بخس ليخطف منهم عملهم ويؤديه بدلا منهم ، معناها ان تبقى بيـوته عششا من الصفيح تحول مدائننا الى اكوام مسمومة من القمـامة الكريهة ، معناها أن تبقى بناته مريضـات بأمراض الشوارع يعدين بها شبابنا ، وان يبقى ابناؤه موغرة صدورهم لينتقموا من الامة كلها بتحويل رجـالها الى خنازير وضعفاء وقساة ومنافقين وبلهاء ومـرضى بالعقم السياسي اى يجنون كافة الثمـار الاخـرى الوبيلة للاضطهاد والظلم وسوء التغذية ، معناها ان يبقى « الذى لا يستحق » لكى يصبح اقل اسـتحقاقا ، وان يبقى المستحق ليكدس لنفسه لا كنوزا في الجنة بل فظـائع وأهوالا فى جهنم على ظهر هذه الارض . فاذا كان الامر كذلك ، فهل من الحكمة والعقل حقا ، ان يبقى انسان ، انسان واحد فقيرا ؟ ولو كان الانسان لصـا ناجحا او مقتحما للبيوت او منتهكا للحرمات او قاتلا سفاكا الى اقصى الحدود التى تسعها بواعثه الانسانية ــ وهى حدود مهما ترامت فلا قيمة لها نسبيا فى هذه الاتجاهات ــ الا يكون اذاه وضرره اقل من ذلك بعشر مرات ؟ لنفرض اننا الغينا جميع العقوبات المفروضة على مثل هـذه الجرائم ، وقررنا اعتبار الفقر كبيرة الكبائر ، والجريمة الوحيدة التى لا نطيق وجودها بيننا ، ثم قررنا قتل كل شخص بالغ يقل دخله السنوى مثلا عن ٣٦٥ جنيها قتلا هادئا بلا ألم ولكن بلا تردد ، وقررنا تغـذية وتسمين وكساء وعلاج كل طفل جائع نصف عارى بالقوة الجبرية، الا يعتبر هذا خطوة جبارة نحو تحسين وتقدم نظامنـا

القائم الذي دمر حتى الان هذا العدد العديد من الحضارات والمدنيات ، ويقوم الان كما هو واضح ـ بتدمير حضارتنا هذه بنفس الطريقة وبنفس الاسلوب ؟

ترى هل هناك اصول لمثل هذا التشريع فى نظامنا البرلمانى الحالى ؟ اقول ان هناك تشريعين من هذا القبيل يمدان جذورهما فى التربة السياسية وقد ينموان ويستويان بشكل ظاهر الى شيء له قيمة : احدهما تشريع قانونى ينص على وضع حد ادنى للاجور والآخر خاص بمعاشات الشيخوخة • ولكن هناك خطة افضل من الاثنين واحسن : منذ وقت مضى ، ذكرت موضوع معاشات الشيخوخة وضرورة التوسع فيها حتى تشمل الجميع بلا استثناء ، أمام احد زملائى الاشتراكيين هوكوبدن ـ ساندرسون الفنان الشهير فى فن تجليد الكتب والطباعة قال كوبدن ـ ساندرسون : « ولماذا لا تكون المعاشات للجميع وطول العمر ؟ » وهكذا بضربة معلم واحدة ، وضع الحل للمشكلة الصناعية كلها • نحن فى وقتنا هذا نقول للمواطن بصراحة فظة : « اذا اردت الحصول على مال ، فاذهب واكتسبه • » كأن الحصول على المال او عدم الحصول عليه مسألة خاصة به وتعنيه وحده بينما لا نقدم له اية ضمانات حتى ولا فرصة اكتساب المال : على العكس نحن قد نظمنا صناعتنا بطريقة جعلناها تعتمد اعتمادا مكشوفا ومفضوحا على جيش احتياطى من العمال المتعطلين ، ليكفلوا لسوق العمل « المرونة اللازمة » ان طريق العقل والحكمة ينبغى ان يكون طريق كوبدن ـ ساندرسون : اى ان نعطى كل رجل ما يكفيه ليعيش عيشة طيبة من اجل تأمين المجتمع ضد أى أحتمال لظهور حالة واحدة مصابة بذلك المرض الخبيث ـ مرض الفقر ، ومن ثم نضمن لكل رجل

بالضرورة أن يكسب ما يكفيه

اما أندر شافت ـ بطل مسرحية ميجور باربارا ـ فهو ببساطة انسان عرف حقيقة الفقر وادرك انه كبـــيرة الكبائر وجريمة الجرائم ، وعرف بعد ذلك عن يقين ، أن المجتمع قد خيره بين أحد أمرين : اما ان تبتليه بالفقر ، واما ان يمارس تجارة مربحة فى أدوات الموت والدمار • وعلى الفور ، فطن اندرشافت الى ان المجتمع فى الـــواقع لم يخيره بين ممارسة رذيلة مربحة مدرة للمال ، وبين التخلق بفضيلة التواضع والقناعة ، بل جعله يختار بين عمل تجارى مزدهر ، وعار يضع صاحبه فى صـــفوف الجبناء • وهكذا سلك اندرشافت سلوكا يصمد بجدارة للاختبار « الكانتى » (١) ، الذى لم يصمد له سلوك بيتر شيرلى (٢) ، الذى هو من نطلق عليه اسم الفقير الشريف• أما اندرشافت فهو ما نسميه الغنى الوغد • شيرلى هـــو عازر واندرشافت هو دايفز (٣)

ومهما قيل من قول ، فان ما فى العالم من شقاء انما يرجع الى ان الاكثرية الساحقة من الناس يفعلون مثلما يفعل بيتر شيرلى «عازر» ويؤمنون بما يؤمن به • ولو أنهم فعلوا مثلما يفعل اندرشافت «دايفز» وآمنوا بمـــا يؤمن به ، لاندلعت ثورة انسانية خيرة ، لا يمكن تقدير مدى ما تنطوى عليه من خير • فيقول اندرشافت ان سعى المرء وراء الثراء ، هو عندى مســـألة شرف ، وانا على استعداد للقتل فى سبيلها وللمخاطرة بحياتى نفسها من اجلها • هذا الاستعداد لان تقتل وتقتل . « يا قاتـــل يا

---

(١) سيوضح شو كنه هذا الاختبار فى موضع تال من المقال

(٢) الشخصية المثالية فى المسرحية : الفقير الشريف

(٣) Lazavus and Dives شخصيتان فى انجيل لوقا الاصحاح ١٥ يمثلان الشحاذ والغنى

مقتول » كما يقول اندرشافت ، هو الاختبار النهـــائى للاخلاص • ان اندرشافت هو من طراز فراوسارت (١) مؤرخ القرون الوسطى الذى كان يرى فى حياة السلب والنهب حياة طيبة بل هى النموذج الامثل للحياة الطيبة ، ولم تتخدر أوصاله بمشاعر الجمهور التى تستنكر القتـــل والنهب ، لان هذه المشاعر يغذيها ويحملها اناس قـــد يقتلون هم اذا لم يقتلوا ، ولا يخدعون بالمـــديح الزائف الذى يكيله الاغنياء للفقراء وقناعة الفقراء لانه مديح لا يتجاوز اطراف الالسنة ، فهم الاغنياء الذين يمتدحون الفقر وهم العصاة الذين يستحثون الفقراء على طاعة اولى الامر ، وهم العاطلون الطفيليون الذين يسرقون الفقـــراء بدون شجاعة ، ويأمرونهم بدون تفوق • لقد وضــــع فراوسارت نصب عينيه أن يحيا حياة طيبة ، وجعل ذلك واجبه الاول الذى يأتى قبل الواجبات الاخرى جميعـــا والتى هى فى رأيه ليست واجبات على الاطلاق بل شرور محضة اذا ما تعارضت مع هدف بلوغ الحياة الطيبـــة • وهو عندما فعل ذلك ، كان سلوكه يتسم بالشـــجاعة ويستحق الاعجاب ، فاذا ما حللناه التحليل النهـــائى ، أمكن اعتباره سلوكا انسانيا مشربا بحب المجموع ومتفقا مع الصالح العام • أما مجتمع العصور الوسطى فكان من الناحية الاخرى يسلك سلوكا سيئا بالغ السوء عندما نظم اموره بهذا الغباء الشديد أى عندما جعل من الممكن فراغ الحياة الطيبة عن طريق السطو والسلب والنهب • ولو كان جميع معاصرى الفارس يتمتعون بما كان يتمتع به من شجاعة وحزم وارادة قوية ، لكان طريق السطو والسلب والنهب هو اقصر طريق الى حبل المشنقة • وهذا ينطبق

---

(١) J. Froissrt ١٣٣٧ – ١٤٠٥ الكاتب الفرنسى الذى سجل أحداث وأحوال أوروبا فى القرن الرابع عشر فى يومياته Chronique

علينا تماما فى وقتنا الحاضر : فلو كنا نتمتع بما يتمتع به اندرشافت من شجاعة وحزم ووضـــوح فى الرؤية لكانت أية محــاولة يبـــذلها اى شخص للعيش مما يسمى « الايراد المستقل » هى اقصر الطـــرق الى غرفة الاعدام • ولكن شكرا لبلاهتنا السياسية وجبننــــا الشخصى « وكلتا الخصلتين من ثمرات الفقر الوبيلـــة ، ان قضت تقاليدنا المثلى بان اول شرط للحياة الطيبة ، هو ان يكون للانسان « ايراد مستقل » يعيش منه دون ان يعمل • ومن ثم يهدف جميع العقلاء الى أن يكون لهم مثل هذا « الايراد المستقل » حريصين بالطبع على اضــــفاء الصفة الشرعية والاخلاقية والقانونية عليه ، وعلى سائر التصرفات والافعال التى تؤدى اليه ، والمشــــــاعر والاحاسيس والافعال التى تدور حوله ، حريصين على مساندته والدفاع عنه باعتباره احد الدعائم الاســاسية التى نهض عليها بناء المجتمع • والا ، فماذا يمكنهم ان يفعلوا غير ذلك ؟ انهم يعرفون بالطبع انهم لم يصبحوا ولم يكونوا اغنياء الا لان الاخرين فقراء • ولكن لا حيلة لهم فى الامر : فالواجب على الفقراء أن يرفضوا الفقـــر عندما يكرعون منه كفايتهم • وفى وسعهم ان يرفضوه بسهولة : أما مظاهرات الدعاية القائلة بغير ذلك ، والتى يشنها الاقتصاديون والقانونيون والاخلاقيون والمتبعـــون أهواءهم من الذين استأجرهم الاغنياء للدفاع عنهم او من الذين يتبرعون بها مجانا بدافع من سفاهة مجردة او دناءة صرفة ، هذه المظاهرات لا تنطلى الا على الذين يريدون أن تنطلى عليهم ، ولا تخدع الا الذين يلذ لهم أن يخدعوا

ثم ان طبقة اصحاب « الايراد المستقل » ليست بالطبقة المتماسكة الثابتة فى الدفاع عن قواعدها • وسـبب ذلك اننا لسنا عصابات من قطاع الطرق كالتى كانت تسرح

وتمرح فى العصور الوسطى فى بقاع شبه خالية يقطنها سكان متفرقون • فان الفقراء الذين تنهبهم ونسطو عليهم كثيرون منتشرون ، وفقرهم منتشر كالوباء يحول بيننا وبين الحياة الطيبة التى نضحى بهم من أجلها • فنجـــد اغنياء وارستقراطيين يتمتعون بادراك متطور للحياة ، رجالا من أمثال راســـكين (١) ، ووليم موريس (٢) ، وكروبوتكين (٣) ولديهم شهية اجتمـاعية هائلة وآمال شخصية من العسير اشباعها ، فهم لا يقنعون بمنـــازل جميلة يسكنونها ، بل يريدون مدنا جميلة ، ولا يرضيهم أن تتحلى زوجاتهم بالماسات والجواهر وأن تكون لهم بنات يانعات كالزهر ، بل يشكون مر الشكوى لان الخادمة ليست مهندمة الثياب ، ولان الغسالة تفوح منها رائحة الخمر ، والخياطة مصابة بالانيميا ، ولان كل رجـــل يلقونه ليس صديقا ، بل كل امرأة ليست بطلة فى قصة غرامية • انهم يشمخون بأنوفهم اشمئزازا من مجـــارى الجيران العطنة ، وتجيش نفوسهم بغضا لهندسة البيوت المجاورة لبيوتهم ، ولا تسرهم النماذج التجارية التى صممت لترضى أذواق الاجلاف «ولا يسعهم هم أن يحصلوا على غيرها » ، ولا يستطيعون النوم أو الجلوس فى راحة على أثاث خرطه النجارون كما لو كانوا قد ذبحوه ذبحا ، الهواء نفسه لا يطيب لهم تماما ففيـــه الكثير من دخان المصانع ، ثم انهم يطالبون بعد ذلك ، بأشياء تجريدية

---

(١) J. Raskin ١٨١٩ ـ ١٩٠٠ كاتب وناقد بريطاني تقدمى

(٢) W. Morris ١٨٣٤ ـ ١٨٩٦ شاعر انجليزى ورجل اعمـــال ناجح • واشتراكى ومصلح اجتماعى له شأن • وان كان شـــو يدرجه تجاوزا ـ فى صفوف الشيوعيين « انظر الفصل الثانى »

(٣) Prince. P. Kropotkin ١٨٤٢ ـ ١٩٢١ الامير الروسى والزعيم الفوضوى الكبير • آراؤه الفوضوية أمعن فى التطرف من « تجار المساواة » الاشتراكيين

كالعدالة والشرف والوسط الاخلاقى النبيل ، وأن تجمع الناس علاقة صوفية بدلا من علاقة الدرهم والدينار . ثم يعلنون فى نهاية المطاف أنك اذا سطوت وسلبت ونهبت بيديك وعلى صهوة جوادك وأنت لابس زردك الحديدى ، فقد تعتبر حياتك فى وقت من الاوقات حياة طيبة ، أما السطو والسلب والنهب بأيدى رجل البوليس والمدعى العمومى والجندى ، ونقدهم على ذلك أجرا شحيحـــا ، فليس من الحياة الطيبة فى شىء ، بل انه ليقضى على كل امكانية لاية حياة يحتملها أو يتسع لها صدر انسان . ثم انهم يهيبون بالفقراء أن يثوروا، وما أن يتبينوا أن الفقراء قد فوجئوا بل صدموا بدعوتهم هذه التى تنبو عنها أخلاق « الجنتلمان » ، حتى انقلبوا على الفقراء ، ونفضوا ايديهم يائسين من البروليتاريا ، وانهالوا عليها ينتهرونهـــا ويعيبون عليها قناعتها اللعينة الملعونة (Verdammté Bedurfnislosig Keit)

غير ان هجومهم على المجتمع على هذا النحو ، ظل على اية حال يفتقر الى الوضوح ، لان الفقراء لا يشاطرونهم اذواقهم ولا يفهمون شيئا من انتقاداتهم للفن ، ولا يريد الفقراء الحياة البسيطة ولا الحياة الحافلة بألوان الجمال، بل على العكس يريدون ان يتمرغوا فى كل الوان المباذل الباهظة النفقات مما تزور عنه فى غضاضة نفوس النخبة المثقفة من الاغنياء . وشفاء الفقراء من تكالبهم على الحلوى الرخيصة غير الصحية لا يكون بالتقشف والتعفف بل بالتخمة والاكتظاظ ، فما يمقته الفقراء ويخجلون منه من صميم قلوبهم ، هو الفقر والحرمان . ومن الحماقة ان تطلب منهم أن يتشاجروا على الفرق بين عدد عيد الميلاد الممتاز من مجلة لندن نيوز المصورة وبين كلمســـكرت

تشوسر ، فهم يفضلون النيوز : كما أن الفرق بين ملبس سمسار البورصة المؤلف من قميص رخيص رث وياقة منشاة ، وبين ملبس وليم موريس المؤلف من قميص غالى الثمن مصبوغ باللون الازرق بعناية فائقة ، هو فى نظرهم فرق مخجل وشائن ومزر بموريس • واذا ما نشب بينهم نزاع بهذا الشأن على الاطلاق ، فانهم يقفون مدافعين عن الياقة المنشاة وقميصها ولابسها • والشعار الذى يرفعه الارستقراطيون شعار : « اطرحوا عنكم نيركم ايها العبيد، لكى تصبحوا دجالين » ليس بالشعار الذى يستنفر الناس لحمل السلاح ، ولن يكون أحسن حالا لو استبدل بالدجالين كلمة القديسين • فكلتا الكلمتين تعنيان رجالا عباقرة ، والرجل العادى لا يريد ان يحيا حياة العبقرى ، بل يفضل أن يحيا حياة «الكولى» (١) البسيط اذا لم يكن بد من الاختيار بينهما • أما ما يريده الرجل العادى فعلا ، فهو المزيد من النقود • ومهما التبست عليه الامور فهو أمام الرغبة فى مزيد من النقود ، يقف واضح الرؤية غير ملتبس عليه • قد لا يفضل أو يفضل مسرحية ميجور باربارا على تمثيليات درورى لين الصامتة ، ولكنه يفضل دائما وفى كل الاوقات ، خمسمائة جنيه على خمسمائة شلن ••

والآن ، اذا أخذنا نستنكر تفضيله هذا للمال على ما عداه ، واعتبرناه لؤما فيه وانحطاطا ، وعلمنا تلاميذنا أن الرغبة فى جمع المال اثم مبين وكبيرة من الكبائر ،فكأننا نتحمل ونحمل الآخرين معنا أكبر مسئولية فى الافتراء والكذب والنفاق • ان اهتمام عامة الناس بالمال وجمع

---

(١) Cooly لفظة يطلقها المستعمرون على المواطن من أبناء المستعمرات الذى يقوم بأخطر الاعمال نظير لقمة العيش

المال هو احدى الحقائق الساطعة التى يرجى من ورائها الخير فى حضارتنا الراهنة ، واحدى النواحى السليمة فى ضميرنا الاجتماعى • المال هو أهم شيء فى الدنيا ، انه يمثل الصحة والقوة والشرف والسخاء والجمال كما يمثل الحرمان من المال ، المرض والضعف والعار والشح والدمامة تماما وبنفس الدرجة من الوضوح والتأكيد • وليست أقل مزايا المال ولا أهون فضائله أنه يقطع دابر سفلة الناس ويستأصل شأفتهم ، بقدر ما يعزز جانب الشرفاء ويزيدهم شرفا • ان المال لا يصبح لعنة الا عندما يرخص عند بعض الناس الى شيء تافه لا قيمة له ، ويغلو عند اخرين الى شيء يستحيل عليهم الحصـــول عليه ، وبالاختصار لا يصبح المال لعنة الا فى الظروف الاجتماعية الغبية التى تصبح فيها الحياة نفسها لعنة ، لان الاثنين معاً : المال والحياة لا انفصام بينهما • المال هو العدادالذى يجعل عملية « توزيع » الحياة ممكنة ، بل انه الحيـــاة نفسها كما أن الجنيهات وأوراق النقد هى الامـــوال ، وأول واجب على كل مواطن ، أن يصر على الحصول على المال بشروط معقولة ، وهذا لا يتفق مع الحاصـــل الآن : فنحن نعطى للرجل ثلاثة شلنات مقابل كده وكدحه عشر أو اثنتى عشرة ساعة ، ونعطى رجلا آخر ألفـــا من الجنيهات بلا مقابل . ان حاجة الامة الصارخة ، ليست الى أخلاق أفضل أو الى خبز أرخص أو الى العفة او الى الحرية او الى توبة الاخوات الســـاقطات والاخـــوان الساقطين ، ولا الى بركة المولى تعالى والى روح المحبـــة والاخوة الروح الثالوث المقدس •• لا • ان حاجة الامةهى بكل بساطة : الى القدر الكافى من المال • والشر والاثم والرذيلة التى ينبغى تشديد النكير عليها ليست الفاحشة أو الجشع أو الطمع أو خزعبلات رجـال الدين الكهنوتية

أو ألاعيب الملوك السياسية والديماجوجية أو الاحتكار أو الجهل أو الخمر أو الحرب أو الطاعون او اى شيء ممـا يعتبره المصلحون كبش الفداء .. لا . ان ما ينبغي على الامة أن تشدد النكير عليه بكل بساطة :الفقر

رجع بصرك كرة واحدة بين أطراف الارض ، ثم لتثبته على هذه الحقيقة الواحدة الواقعة تحت أنفك مبـاشرة ، وعندئذ من تحيرك اراء آندرشافت أقل حيرة فيما عـدا احساسه الدائم بأنه لا يزيد عن كونه أداة فى قبضة قـوة الحياة التى تستخدمه لتحقيق أغراض أوسع وارحب من أغراضه هو . فاذا حيرك هذا منه ، فحيرتك ترجع الى أنك تمشى فى ظلمات داروينية زائفة (١) ، أو أنك تهيم فى دياجير الغباء المجرد . أن جميع المتدينين ـ بشرط أن يكون تدينهم تدينا حقيقيا ونقيا ـ لديهم هذا الاحساس نفسه الذى يحس به آندرشافت . وهم يفهمون ويعـذرون آندرشافت المتصـوف ، وكذلك من الطبيعى بل من المحتوم أن يفهم آندرشافت ويقدر موقف واراء ابنتـه العضو فى جيش الخلاص هى وحبيبها الجمهورى تلميـذ يوروبيدس . وعلى أية حال ليس هذا بالجديد على خشبة المسرح : ان الجديد فى المسرحية ـ على حسب علمى ـ هو ورود آية معينة فى انجيل آندر شافت تنص على أن المال هو أول شيء يحتاجه الانسان ، وعلى أن الفقر هو أخس خطيئة يرتكبها الانسان والمجتمع

وبطبيعة الحال ، لم أتوصل الى هـذا المفهوم الدرامى هكذا فجأة وبلا تمهيد ، ولا أنا استعرته من نيتشه أو من اى انسان مولود وراء القنال الانجليزى . لقد ظل صمويل

(١) يقصد الايمان بمبدأ الانتخاب الطبيعى والبقـاء للاصلح وهو ما يرفضه شو « انظر فصل شو وداروين »

بطلر (١) الذى يعد فى دائرة اختصـــاصه ، أعظم كاتب انجليزى ظهر فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، ظل فى ثبات ومثابرة ينفث فى الدين روح الاسقف لود(٢) الذمية وما فيها من وجدان حى وما تدعو اليه من تأكيد فضيلة الاهتمام الدائم الجاد بالمال وقيمة المال • ومما يكاد يدفع المرء الى اليأس من الادب الانجليزى أن يرى تلك الدراسة الفذة للحياة الانجليزية فى رواية « طريق كل البشر » التى نشرت بعد وفاته ، لم تترك فينـــا الا أثرا ضئيلا .. ضئيلا لدرجة أننى عندما قمت بعد بضع سنين بوضع تمثيليات فيها من آراء وأفكار صمويل بطلر الحرة نصيب واضح ، وهى أفكار ذات بصيرة نافذة الى أعمـــاق المستقبل ، لم أقابل الا بلفظ مبهم وضجة غامضة عن صلة هذه الافكار بابسن ونيتشه ، وأكاد أحمد الله أنهم لم يقولوا شيئا عن صلتها بألفرد دى موسيه(٣) وجورج صاند(٤) •

---

(١) Samuel Butler ١٨٣٥ – ١٩٠٢ احد كبار الروائيين الانجليز فى القرن التاسع عشر . أهم أعماله Way of all flesh طريق كل البشر « ترجمت » ، Erehwon وهى مقلوب كلمة No where وفيها ينقد القيم الاجتماعية المعاصرة وخاصة علاقات الاباء بالابناء

(٢) Bishop W. Load مولود فى ١٥٧٣ بانجلترا وكان كبير أساقفه كنتربرى ومصلحا دينيا وبعد ثورة كرومويل البرلمانية البورجوازية حوكم وقطعت رأسه فى برج لندن

(٣) Alfred de Muset ١٨١٠ – ١٨٥٧ الشاعر والكاتب المسرحى الفرنسى . أحـــد كتاب الدراما الرومانسيين • والرومانسية هى اشد ما أعان شو عليه الحرب فى نقده الادبى . أهم مسرحياته Un caprice ، Le chandelier

(٤) Aurore Qupin أو جورج صاند ١٨٠٤ – ١٨٧٦ الكاتبة الفرنسية الرومانسية التى انتحلت اسم رجل . أهم رواياتهـــا : Lelia Valentine Indiana وقد اتهمت بالانحراف الجنسى والدعوة الى حـــرية الحب . من عشاقها موسيه وشوبان

الواقع أن الانجليز لا يستحقون أن يكون لهم رجال عظماء.
فهم يتركون بطلر يموت مجهول الاسم تقريبا ، بينما يقودهم شخص مثلي ـ أنا الايرلندى الذى لا وزن له اذا قورن ببطلر ـ من خطامهم حتى يذيع اسمى وصيتى ، ويعلن عنى فى كل مكان لدرجة أن أصبحت حياتى نفسها عبئا على ـ وفى صقلية شارع اسمه فياصمويل بطلر . وعندما تقع عليه عين السائح الانجليزى فهو اما أن يتساءل قائلا : من يكون صمويل بطلر هذا بحق الشيطان ؟ .. فاذا كان أكثر علما ، تعجب عن الدافع الذى حدا بالصقليين أن يخلدوا ذكرى مؤلف هوديبراس (١)

على أية حال ، المرء لا يمكن أن ينكر تلهف الانجليز على الاعتراف بالعبقرى بشرط أن يتكرم شخص ما ، ويكتشفه لهم ويعرفهم به . ومادمت قد اكتشفت لهم نفسى ، وعرفتهم بها ، واصبت بذلك شيئا من النجاح فهانذا أقدم لهم صمويل بطلر واثقا من أن الاقاويل التى سنسمعها سواء عن الجدة والابتكار أوعن الاصل الاجنبى الذى استقيت منه الافكار التى تتخذ سبيلها الان الى المسرح الانجليزى فيما يكتبه الكتاب الاشتراكيون من مسرحيات ، سوف تقل وتقل بالتدريج ، فى المستقبل . ان بين ظهرانينا كتابا احياء لهم ما كان لبطلر من اصالة وقوة وابتكار ، ولكن لا تكتشف تلك الحقائق عنهم الا بعد ما يموتون . والى أن يحين حينهم أتوجه اليهم بهذه النصيحة : أن يزدادوا استمساكا بمزاياهم ، وأن يعتبروا ذلك جزءا لا يتجزأ من صميم عملهم

---

(١) Hudibras رواية شعرية هزلية على نسق دون كيشوت . وهى من تأليف صمويل بطلر آخر . عاش ما بين ١٦١٢ ـ ١٦٨٠

مشكلة الأرض

ترى ما رأى أهل المدن فى مشكلة الارض الزراعية اذا ما احتكموا الى المنطق والعقل السليم ؟ يتلخص رأيهم فى المشكلة ، فى أن الفلاح يجب أن يملك الارض التى يفلحها : فاذا لم تكن الارض ارضه ، واذا لم يكن له أن يصد عنها الواغلين والقانون من ورائه يحميه ، فكيف يطمئن الى أنه سيضع يده على محصوله ويستهلكه ؟ اذن فلنسمح له من كل بد أن يملك قطعة أرضه ، وأن يصد عنها الواغلين — وفى هذه الحالة يروج الفلاحون كل بحسب جهده واجتهاده وأمانته ، وبالاختصار بحسب ما يتمتع به من شخصية طيبة واستعداد طبيعى مقابل العمل الفنى الصعب الذى يقوم به • واذا لم تتحسن حالة الرجل واسرته ماليا — فى مثل هذه الظروف ، كان لنا أن نستنتج ونحن مطمئنون أنه اما أخطأ فى اختيار مهنته وعليه فى هذه الحالة ان يجرب حياة المدينة ، واما ان فى تركيب شخصيته مسمارا قلقا فى غير موضعه ، ومن ثم

(*) من الدليل السياسى للجميع طبعة كونستابل لندن سنة ١٩٤٥

فالفقر والفشل هما جزاءه الحق • هذا هو منطق الاخلاق الفطرية البدائية التى كان يتخلق بها مزارعو الارض من الرواد الاوائل ، وهى أخلاق عملية الى حد كبير وان ادى تطبيقها الى نتائج فاجعة فى الاراضى التى ما زالت فيها مناطق خصبة متساوية فى خصوبتها ومتاحــــة بلا مقابل لكل من يضع يده عليها

وما نعانى منه الان ، هو استمرار بقاء هذه الاخـــلاق البدائية بعد أن أصبحت الحقائق تناقضها مناقضة صريحة فى كل موضع : فلم يعد الفلاحون العصريـون روادا فى أرض بكر ، جاهزة لهم لوضع اليد عليها ولم يعد فى وسعهم العثور على فدان واحد من الارض بلا مقابل ، أو على درجة متساوية من الخصوبة مع فدان اخر ، بل الحق يقال لم يعد فى وسعهم العثور على أرض زراعية صالحة على الاطلاق • ومع ذلك لا يزال الفلاحون الذين يضطرون للعمل ست عشرة ساعة فى اليوم ليسددوا ما عليهم من أيجار وضرائب وفوائد مستحقة على مرهوناتهم يتباهون ويقولون لك بجدية تامة ، انهم مستقلون وسادة أنفسهم ويتمتعون بالحرية السياسية التى لا تقــــــدر فوائدها بثمن ، وان الحكومات الاجنبية التى ألغت الملكية الفردية فى الارض لابد أن تكون حكومات برابرة طغاة ، متعطشين للدماء ، وان من واجبنا نحو حضارتنا ، أن نشن الحرب عليهم وأن نجتث مبادئهم البشعة من عقل الانسان وقلبه • يتعلم الفلاحون هذا فى البيت وفى المدرسة عن طريق الصحافة والراديو والبرلمان ومن افواه قضاة المحاكم وخطباء المنابر الذين يستمعون اليهم أيام الانتخابات

وهم فى هذا حسنو النية : اذ يعتقدون بصدق أنهم يدافعون عن الاساس الاجتماعى الذى ينهض عليه شرف

الفرد والمجموع ، وترتكز عليه كل الاخلاق الكريمة • مع أنهم فى الواقع يقفون فى صف الكسل والضياع والبذخ الخبيث والتطفل والفقر والكدح وسائر الشرور والمخازى التى تسير فى ركاب الملكية الفردية الانانية لمصـــــادر الثروات والخيرات العامة • ولكن دعنا لا نـنــــدفع فى التشاؤم السياسى ونقول انهم لا يحصدون الا ثمرة اثمهم وغبائهم وحمقهم • لانك اذا انشأتهم ودربتهم كفلاحين جماعيين يدفعون الربح والايجار للدولة من اجل الصالح العام كما يدفعون الضرائب لها الان ، فان نفس الدوافع الاخلاقية التى تجعلهم الان من غلاة المحافظين المتعصبين ، ستجعل منهم بلاشفة أقحاح • وروســـــيا السوفييتية أثبتت صحة ذلك

ولكى نفهم المشكلة ــ كما ينبغى أن تفهم ، لابد من استيعاب هذه الحقيقة ــ حقيقة ان الارض ليست براحا غير محدود من حيث الكم ولا هى متساوية فى القيمة من حيث الكيف فى كل البقاع • فالارض تتفاوت من فدان الى فدان بحسب موقعها : ابتداء من اراضى البناء الواقعة على النواحى الهامة فى مدينة لندن حيث تقاس بالقدم المربع ، الى الصحارى الجرداء التى لا يستطيع انسان ان يقيم صلبه عليها • وفى نطاق حدود الجزر البريطانيــة توجد بقاع ساحلية ينحسر عنها المد ، ويتمكن الاهالى من التقاط قطع الفحم بلا مقابل ويحملونها معهم الى بيوتهم فى قوارب مسطحة ، كما توجد مناجم للفحم بعيدة الغور ينحت فيها الانسان الصخر الى اعماق بعيدة ليستخرج الفحم بعد مشقات باهظة النفقات ، وقد يستغرق حفـر النفق منها عشرين سنة ، ثم ينقل الفحم بجهد شديد الى البحر من عمق قد يبلغ أميالا تحت سطح البحر • هناك أراض تفيض سمنا وعسلا ، وأراض تفيض بالبترول ،

أو مرصعة بالماس أو تتلاقى فيها عروق الذهب وتشتبك ، وفي الدورادو أراض من جميع الانواع وتقع كلها جنبا الى جنب : الصحارى التى لا تبل رمالها قطـــرة ماء ، والمستنقعات التى تتفشى فيها الملاريا والاحـــراش التى تجوس فيها الثعابين السامة والفهود أكلة لحوم البشر . وفي اجمل بقاع الارض : ايرلندا الغربية واسكتلندا ، حقول من الصخور الحجرية الصلبة التى لا تكفى اشق الجهود المبذولة فيها ، لتوفير خبز الكفاف للفلاح ما لم يحصل لنفسه على عمل موسمى فى مكان اخر كاحد عمال الحصاد . وعلى جانبى طرق الضواحى الزراعية ، تتفاوت ايجارات البيوت من ميل الى ميل بتفاوت اجرة ركوب الترام أو الاوتوبيس أو السكة الحديدية المؤدية الى أقرب سوق او مركز تجارى . واذا كانت الايجارات تتفاوت ما بين شلنات معدودة فى الاسبوع الى ألوف مؤلفة فى السنة فما ذلك الا لان الارض تتفاوت فى درجة الخصوبة او فى قربها من الاسواق او فى مزاياها وعيوبها المختلفة من كل لون . وليست هذه ارائى الخاصة فى مشـكلة الارض ، ولكنها حقائق ثابتة دامغة كحقيقة وجود نسوة بين ظهرانينا يربين أولادهن اليوم من اعانة الحرب التى تدفع لهن وقدرها جنيهان فى الاسبوع يدفعن منها ١٤ شلنا فى الاسبوع ايجارا للسكن الـــذى يأويهن ويأوى أولادهن

ولو أنك قسمت جميع الاراضى فى بلد من البـلاد الى قطع منفصلة ووزعتها كأملاك على الذين يشـــغلونها او يضعون يدهم عليها فعلا ، فالنتيجة لن تكون ثراء الناس بحسب نشاطهم وأمانتهم وقدرتهم ، ولـــكن بعضهم سيتمتع بطول العمر ويثرى ثراء الاســاطير ، وبعضهم ستفترسه الحمى ويطوى بطنه من الجـــوع ، وبعضهم

سيطرحون على قارعة الطريق متشردين معدمين ، والبقية درجات درجات بين هذه الاطراف • ولسوف يهجر تعساء الحظ رمالهم القاحلة ومستنقعاتهم الموبوءة من فورهم تقريبا، لكى يعرضوا انفسهم على السعداء المحظـــوظين ليفلحوا ويزرعوا لهم أراضيهم الخصبة ، مقـــــابل أن يضمنوا لانفسهم معاشا افضل ، ثم يقدمون بقية المحصول للمالك السعيد المحظوظ كايجـــــار أو ريع • وهكذا يصبح السعداء المحظوظون لا طبقـــة من الاثرياء فحسب ، بل يصبحون اذا شاءوا طبقة من الكسالى القـــــاعدين • وسيؤثر عدد كبير منهم ان يوضعوا فى اطار معين : اطار السيدات والسادة ويقيمون لانفسهم تقاليد ترى من العار والشنار على المرء أن يضطر للعمل لكسب قوته ، بل من العار والشنار على المرء أن يمشى فى الشارع حاملا فى يده سلة فيها طعام ، أو أن يمشى فى الشارع على الاطلاق بدلا من أن يركب عربة لها سائق ، لان فى المشى فى الشارع ما فيه من نزول عن مرتبته الاجتماعية ، وفقدان لمهابته

ثم انه بعد ما تصبح الارض ملكا لمن عليها ، سيحرم الذين يولدون بعد ذلك من الارض ، ويصبحون طبقـة جديدة من العبيد أو المماليك : طبقة اسمها البروليتاريا تعيش من بيع قوة عملها لاصــــحاب الاراضى او تعيش كفلاحين مؤاجرين او حرفيين يدفعون ايجارا للارض التى يشغلونها • وعندما يولد من البروليتاريا العـــدد الذى يزيد عن حاجة أصحاب الاراضى ، ينخفض ســــعر عمل البروليتاريا الى مستوى لا يكاد يقيم أود الانسان العامل حتى يقصر عمره من التجويع البطىء

فى مثل هذه الاوضاع ليس ثمـــــة من لديه أموال تزيد عن نفقاته ، الا اصحاب الاراضى : فاصحاب الاراضى يملكون تقريبا كل ما فى البلاد من أموال فائضـــــة ،

والاموال الفائضة تسمى رأس المـــال ، وملاك الأراضى يسمون اقطاعيين يعيشون من أملاكهم ، وقد يصبحون رأسماليين يقرضون رءوس اموالهم لاصحاب الاعمـــال مقابل ايجار أو ريع يسمى فائدة بنفس الطريقـــة التى يؤجرون بها أراضيهم • والاحتكار الطبقى لـــرأس المال يأتى فى أعقاب الاحتكار الطبقى للارض بنفس الحتميـــة التى يأتى بها الشتاء فى أعقاب الخريف

ولنذهب لحظة الى التاريخ لندرس الموضـــــوع على ضوئه : لا يزال وليم الفاتح (١) يثير الاهتمام بعد مـرور ثمانية قرون على وفاته باعتباره نموذجا مجســـدا لمزايا التهجين او التزاوج بين الطبقات ، فهو لم يكن نبيـــلا بالنشأة ولا بالوراثة بل كان ابنا غير شرعى لاحد الدوقات وحفيدا لاحد دباغى الجلود الاجلاف • وبلغ من المقدرة أن جمع جيشا من المغامرين النورمانديين وفتح به انجلترا • ولما كان ملكيا اقطاعيا ، فقد قسم الارض الى اقطاعيات كبيرة معززة بقلاع مسلحة ، وزعها على زملائه فى السلاح من الفرنسيين او تركها تحت أيدى ملاكها السكسونيين الذين لم يسببوا له المتاعب فى غزوه لبلادهم ليستفيدوا منها ويستغلوها قدر استطاعتهم بشرط أن يأخذوا على عاتقهم الدفاع عن البلاد عسكريا ، وتطبيق العـــدالة فى

---

(١) William the conqueror أو وليم الاول ١٠٢٧ ـ ١٠٨٧ ملك انجلترا وفرنسا وقد وحد فرنسا ، وجمع جيشا من النورمنديين غزا بهم انجلترا • وهوابن غيرشرعى لدوق نورماندى من « ارتيـــلا » ابنة أحد دباغى الجلود . وكان يوصف أحيانا « بابن الســـفاح » أو ابن الحرام The Bastard • وقد أنجب ولدين روبرت الذى انشق عليه وكان مثال الابن العاق الفاســد ولكنه أورثه عرش فرنسا ، ووليم الثانى الذى أورثه عرش انجلترا

مناطق نفوذهم وتمويل المؤسسات والمصالح الملكية اى أن يقدموا ـ بصفة عامة ـ نصيبهم المحلى من تكاليف الحضارة مما يثبت ولاءهم له بصفته ملكا على البــــلاد ، وتوريث اقطاعياتهم بعد موتهم كاملة غير مقسمة لوريث واحـد ذكر قادر على القيام بكافة مسئولياتهم • ولما كان الملك كاثوليكيا معمدا فقد شيد من الكنائس والاديرة بقدر ما شيد من القلاع والحصون ، ومنح الاقطاعيات التى شيدت فيها الكنائس والاديرة لرجال الدين العاملين فيها بشرط أن يتعهدوا المصالح الروحية للشعب

كان ذلك تنظيما معقولا وحكيما فى تلك الظروف ، جعل الامن مستتبا فى البلاد التى كان يقطنهـــــا مجتمع زراعى يتألف من البـــارونات والاساقفة والفلاحين ورقيق الارض ، ولكن ذلك لم يدم الا فترة قصيرة فقـــط ، اى طالما اتفقت الحقائق الواقعة مع النظام الاقطاعى • ولكن الحقائق الواقعة كالانظمة لا تظل ثابتة لمدة طويلة • فمهما كانت مقدرة الملوك والبارونات ، فهم ليســـوا الا بشرا هالكين فضلا عن أن القدرة لا تنتقل من الاب للابن بصفة دائمة ، بل غالبا ما تموت مع أصحابها • ومع ذلك فالنظام الاقطاعى لم يمهد السبيل لانتخاب القادرين على تولى الخلافة بعد الملوك والبارونات • بل على العكس من ذلك اشترط أن يكون الخليفة أو الوريث ذكرا ، وأى ذكر ، أكبر أبناء الميت • وهو يريد بهذا الشرط أن يتحـــاشى المنازعات والمشاحنات حول الخلافة او التركة ولكنه لم يكن ضمانا لكفاءة الحاكم الجديد أو الاقطاعى الجـــديد كحاكم يحكم بين الناس بالعدل وقائـــد كفء يقـــود العسكريين • كان اكبر ابناء وليم الفاتح انسانا فاشــلا ولم يخلفه على العرش مع أنه شن على ابيه حـــربا فى فرنسا واوقع به الهزيمة • وكان هناك كثيرون من امثال

هذا الابن الفاشل من بين البارونات لم يخلفوا اباءهم بل تركوا بلادهم واقطاعياتهم فى حالة فاجعة من الفـــوضى والاضطراب او انطلقوا هائمين على وجوههم يفعلون ما يفعله غيرهم من البارونات التافهين • أما القلة التى لم تكن فاشلة ولا تافهة ، فقد كانت فى الواقع حفنة من الملوك المحليين تطلعوا دائما الى السيطرة على البلاد وعلى العرش نفسه وخلع الملك المركزى • كان النظام الاقطاعى يحمل فى أحشائه منذ البداية بذور الحرب الاهلية

ثم انه خلق ايضا طبقة من الابناء الصغار المحرومين من المعاش ومن الارث ، وكانت هذه الطبقة فى انجلترا ، تتألف من عدد من العوام تربوا ونشأوا على الطبـــــاع والتقاليد الارستقراطية فى قصور البـــارونات واعتادوا الانفاق كما ينفق البارونات دون أن تكون لديهم الاموال الكافية لدفع ثمن ذلك كله • كان عليهم اما أن يعيشوا على حسنات وهبات اشقائهم الكبار واما أن يحصلوا ما استطاعوا — على احدى الوظائف العامة كضباط فى الجيش أو فى السلك الدبلوماسى أو على معاشات من الكنيسة أو من الابرشيات المحلية • أما أبناؤهم فقد فرض عليهم أن يعيشوا من مزاولة الحرف المختلفة التى كانت تمثـــل الانحطاط الاجتماعى فى أدنى صوره لدرجة أننى أذكر أن الاطباء — فى زمنى — كانوا يتقاضون أتعابهم سرا ، كأنما تقاضى الاتعاب عار يخجل منه وعليك أن تدفعه لهم خلسة كما تدفع البقشيش للخادم • ولا يزال الروب الرسمى الذى يرتديه المحامى الى الان مزودا بجيوب خلفيـــة صغيرة هى من بقايا الزمن الذى كان العميل يدس فيه أتعاب المحامى خلسة فى جيوبه هذه من وراء ظهره • ثم اضطرت سلالة الابناء الصغار فى نهـــاية المطاف ، الى التنازل عن عنجهيتهم بالتدريج ، فاحترفوا أولا تجـــارة

الجملة ثم أعمال الكتبة ثم تجارة القطاعى ثم الحـــرف اليدوية الفنية ، وأخيرا الاعمال اليدوية غير الفنية حتى جاء الوقت الذى أصبح فيه من العادى تماما أن ترى العامل الانجليزى شامخ الانف متغطرسا يعتبر نفسه ارستقراطيا أصيلا ولكن الايام هى التى ظلمته ، وتراه يدلى بصـــوته فى الانتخابات فى كل مرة للمرشح المحافظ بينما ترى الدوقات والماركيزات يؤيدون حزب العمـــال فى مجلس اللوردات ..

وهكذا وجد النظام الاقطاعى نفسه وجها لوجه أمام طبقة العوام التى تؤلف نحو خمسة فى المائة من تعـداد الشعب ممن اكتسبوا سلطة روحية هائلة أو ثروة مادية كبيرة بفضل مقدرتهم السياسية أو التجارية أو الروحية فأصبحوا كردينالات وتجارا كبارا ، وقد التزم الكاردينالات بانتظامهم فى سلك الكنيسة الكاثوليكية بتقاليد الفقـر المقدس والخضوع والتواضع ، ولكنهم سرعان ما تبينوا أن هذه الفضائل لا تكفى بغير مساندة من السلطة الزمنية ، فانضموا الى حلبة الصراع من أجل السيطرة على الدولة منحازين أحيانا الى صف البارونات وأحيانا أخرى الى صف الملك ، ولكنهم كانوا دائما وبحكم الضرورة ـ ضد الزنادقة والملحدين ، الذين يؤلفون طبقـــة المثقفين وهى طبقة لم يضعها النظام فى حسابه

أما عن كبار التجار فقد شيدوا المدن ، وسرعان ما أصبحت المدن ضخمة وقوية تنافس الكنيسة والملك معا على السلطة . وكان شارل مارتل (١) جنديا محنكا وزعيما

---

(١) Charles Martel ٦٣٨ ـ ٧٤١ م حاكم فرنسا والمانيا . شهرته أنه هو الذى أوقف الزحف الاسلامى على أوروبا عندما هـــزم الاندلسيين فى موقعتى تورز أو بواتييه سنة ٧٣٢ . م احدى المعـارك الحاسمة فى التاريخ

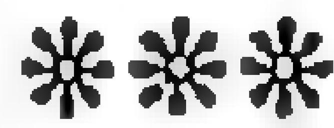
اقطاعيا عظيما عاش فى القرن الثامن فى فرنسا وكان ملكها الفعلى • واذا به يضيق بالمدن ذرعا ، فعمد ببساطة تامة الى تدميرها وهدمها كما كان يدمر ويهدم أوكار اللصوص • غير أن الملوك فيما بعد ، لم يعد فى وسعهم الاستغناء عن المدن وأموال المدن ، وكان على صدورهم أن تتسع لها • وهكذا اشترى سكان البورج (١) الارض بأموال المدن وأفسحوا رقعتها ثم استأجروا من البروليتاريا جيوشا تحارب من أجلهم ضد التاج والكنيسة والنبلاء • وكانوا دائما يتطلعون الى القضاء على جميع الاوضاع الاقطاعيــة المرتبطة بملكية الارض والى جعل الارض سلعة يتاجرون فيها كما يتاجرون فى المنتجات والبضائع المنقولة التى تنتجها مصانعهم • ولكن المتاجرة فى الارض تصبح غير ذات فائدة كبرى لهم ما لهم تشفع بالمتــاجرة فى الايدى العاملة المرتبطة ارتباطا وثيقا بالاقطاعيات بمقتضى نظام رق الارض أو نظام الاقامة على الارض الذى كان يحرم على رقيق الارض هجرة الاقطاعيات التى يعملون عليها وبيع عملهم (وفى الواقع بيع أنفسهم) لكبار التجار فى المدن • العمل كالارض اذن ، ينبغى أن يصبح سلعة تجارية تباع وتشترى كأى سلعة أخرى • وهكذا دخلت طبقة التجار حلبـــــة السياسة دخول الابطال يحملون عاليا شعار الحــــرية الشخصية والحرية الفردية

ولكنها كانت حرية عارية مجردة ، ذلك أن رقيق الارض عندما هربوا من الاقطاعيات وأراضى الكنيسة واحتشدوا فى المدن ، اكتظت بهم سوق العمل ورخصت أسعارهم

---

(١) Bourge المنطقة السكنية المحيطة بمدن العصــــور الوسطى • وسكانها من الاحرار « من غير رقيق الارض » ويســمون بورجوازيين ثم أطلق اسمهم هذا على التجار ورجال المال ثم على الطبقة المتوسطة والراسمالية ••

وأذلهم الفقر والارهاق الشديد والخضوع لمحتكرى رأس المال بلا شفقة ولا رحمة ، مما أرغمهم فى نهاية الامر على النظر فى أوضاعهم فى حسرة ومرارة وبث فيهم الوعى بأنهم أصبحوا يؤلفون طبقة جديدة تحمل آسما عاما لها هى طبقة البروليتاريا • ولم يكن لهذه الطبقة من أمل تتعلق به سواء فى ظل الاقطاع أم فى ظل الرأسمالية ـ ومن ثم أخذ البروليتاريون بالتدريج ينظمون أنفسهم ـ فى أول الامر ـ فى نقابات • ولجأ أصحاب الاراضى وسادة المال ورجال الكنيسة الى اضطهاد النقابات ومكافحتهـــا بعنف ووحشية • فلجأ البروليتاريون بعد ذلك الى التحالف مع جماعات من الاشتراكيين العقائديين وكانوا جميعـــا يهدفون الى تحقيق دكتاتورية البروليتاريا على أن يتولى الاشتراكيون القيادة الثقافية وتوفر النقابات الامـــوال اللازمة للمعركة



وقد حقق هذا التطور الذى انتهت اليه الامور ، معجزة فريدة : توحيد رجال المدينة والنبلاء وأصحاب الاراضى فى طبقة بلوتوقراطية (١) متماسكة ضد التيار البروليتارى الزاحف • وواجه كارل ماركس هذا التحدى فى ســـنة ١٨٦١ بشعاره المشهور : « يا عمال جميع البـــلاد اتحدوا ! » وأعلن حرب الطبقات من أجل القضاء على الملكية الفردية وعلى ايراداتها غير المكتسبة بالعمل ومن أجل تنظيم المجتمع سياسيا ليصبح بمثابة كومنولث تعاونى من العمال الكادحين

وفى سنة ١٨٧١ وقع الاشتباك بين الفريقين ، وقـــام البلوتوقراطيون بقمع كوميون باريس قمعا دمويا ، ولكن

(١) Plutocracy أو حكم الاغنياء ، نسبة الى بلوتو مانح الثراء فى الاساطير الرومانية القديمة

بعد مضى خمسين عاما من ذلك التاريخ انتصرت البروليتاريا فى روسيا سنة ١٩٢٠ ، وفى سنة ١٩٣٩ انهزمت البروليتاريا مرة ثانية فى اسبانيا • وفى تلك الاثناء على أية حال كان البلوتوقراطيون الذين بدأوا بالمعارضة العنيفه لاى تدخل تبديه الحكومة فى نشاطهم المالى والتجارى ، قد أخذوا يغيرون رأيهم فى هذا الشأن ، بفضل مساعى حجج الاقتصاديين البروليتاريين الذين اثبتوا لهم أن تنمية الانتاج الحديث تنمية كاملة الى أقصى حدودها عملية صعبة معقدة ، وأصعب من أن تستوعبها امكانيات المؤسسة الفردية والشركة الخاصة ، وأنها عملية لا يمكن انجازها الا بواسطة الدولة وسلطتها وامكانياتها ومواردها المالية • ولو استطاع البلوتوقراطيون الاغنياء أن يحتفظوا بسلطانهم على الدولة واستخدموها فى اثراء أنفسهم بدلا من أن يستخدموها للصالح العام فانهم يجمعون بين مزايا الانتاج الاشتراكى ومزايا التوزيع البلوتوقراطى وبذلك يجمعون ثروات هائلة لم يحلم بها اسلافهم المتنافسون • وثمة حركة شبيهة بهذه ، نمت واستشرت وقطعت السبيل على الاشتراكيين مستبدلة رأسمالية الدولة بالرأسمالية الفردية بينما احتفظ الاغنياء بالملكية الفردية سليمة لم تمس بكل ما لها من امتيازات ، واشتروا ذمم البروليتاريين بالاعانات والعلاوات والمنح والاجور المرتفعة أحيانا • وقد سميت هذه الحركة فى ايطاليا فاشية ، وفى ألمانيا اشتراكية وطنية (واختصارها نازية) ، وفى كل من هاتين البلدين سيطرت هذه الحركة على زعماء البروليتاريا وقامت بتمويلهم ووضعتهم فى مراكز السيطرة على الحكومة : وهم بالتحديد بنيتو موسولينى وادولف هتلر • أما فى انجلترا وأمريكا فكانت الحركة أقل وضوحا من ذلك بكثير وسميت

بالنيوديل (١) أو بالنظام الجديد وبهذا ضمنت لنفسها مركزا وطيدا فى كل من المعسكرين : الديمقراطى والبلوتوقراطى • ولكنها فعلت ذلك بعد أن دفعت الثمن باهظا : حربا شعواء مع ايطاليا وألمانيا من أجل زعامة أوروبا ، ذلك أن الدكتاتوريين الفاشست الجدد عندما وجهوا دعوتهم للدول الغربية لتنضم اليهم فى هجومهم الكبير على روسيا البروليتارية قوبلوا بالرفض العنيف واعتبروا ثوريين انقلابيين ، بينما اخذ الدكتاتوريان على عاتقهما القيام بمهمة يائسة : لا تتضمن اخضاع روسيا وحدها ، بل أيضا اخضاع بريطانيا وأمريكا اللتين تعارضانهما وتقاومان خططهما • وكان الحليف الوحيد الذى كانت له قيمة ما ، وكسبوه الى صفهم هو اليابان ، وعلى هذا أصبحوا فى وضع اضطرهم الى محاربة الشيوعيين والدول البلوتوقراطية معا فى تحالف متناقض ، ولكنه كان تحالفا شديد المراس مرهوب الجانب • وهذا هو تقريبا الوضع التاريخى الراهن • أما الان فلنعد أدراجنا مرة أخرى الى سياق الموضوع

أقول اننى وان كنت من الناحية النظرية شيوعيا ، ومن الناحية المهنية كاتبا مسرحيا ، فأنا فى حقيقة أمرى من الناحية الاجتماعية أعتبر من ملاك الاراضى ومن ملاكها الغائبين بالذات ، أى من هذا الضرب من الملاك الذين لا يعرفون عن أرضهم شيئا ، لا أين تقع ولا أية حدود تحدها

---

(١) New Deal سلسلة من قوانين الاصلاح الاجتماعى سنها الرئيس فرانكلين روزفلت فى الولايات المتحدة الامريكية مابين ١٩٣٣ ـ ١٩٣٥ عقب الازمة الرأسمالية الكبرى المعروفة باسم الكساد العظيم . وهدفها ايجاد العمل لملايين المتعطلين فى اعادة تشجير الغابات وبناء مشروع وادى التنيسى للرى والزراعة ، وغيرهما من المشروعات التى تشرف عليها الدولة أما النيوديل الثانى ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩ فكان يستهدف الى التأمين الاجتماعى للعمال وصغار الزراعيين

بل لم تقع عليها أعينهم قط ، ذلك لان اقطاعيتى تقع فى ايرلندا ، وعندما ورثتها كنت رجلا بالغا ومتزوجا وانسانا مسئولا • ولو كنت أعيش فى أيام وليم لتوقع منى ذلك الملك أن أطبق العدالة بين المستأجرين عندى كما يطبقها القاضى القبلى الجالس تحت النخلة ، وأن أقود هؤلاء الفلاحين فى كل المعارك التى يشنها الملك على اعدائه ، ثم كان على بعد ذلك أن أباشر زراعة الارض وأن أتحمل نصيبى فى تمويل خزانة الملك من نواح مختلفة • وأكاد أقول اننى كنت جديرا بالنهوض بتلك التبعات كما ينهض بها بعض باروناته على الاقل وبنفس كفايتهم وهمتهم • وكان أول شيء اكتشفته عن اقطاعيتى أنها ليست ملكى على الاطلاق والا سلطة لى عليها لمباشرة زراعتها أو لتوجيه ادارتها • وبدلا من أن أتلقى صكوك التمليك ، تلقيت حزمة من ايصالات الرهنية !!

ولم أدهش لذلك كثيرا ، لان عمى الذى ورثت عنه ما ورثت ، مات وهو فى حالة رثة معدما تقريبا • وقد ابتاع لنفسه حق مزاولة مهنة الطب وعاش بهذا الحق عيشة ناجحة عاملا فى خدمة نبلاء الناحية الذين أخنى عليهم الدهر وخربت بيوتهم بعدما حولت قصورهم الريفية بحدائقها الواسعة الى صفوف وصفوف من المساكن الصغيرة التى يقطنها موظفون وكتبة ممن لا تزيد مرتباتهم على خمسة عشر شلنا فى الاسبوع ، وكان لعمى خادم مخلص واحد ، يبلغ أجره فى العام سبعة عشر جنيها تدفع مؤخرا ، ثم رهن عمى ساعته الذهبية فأصبح يستعين فى جس نبض الزبائن بساعة فضية كان قد أهداها الى منذ سنوات مضت واضطر الى استعارتها منى مرة أخرى ، وكنت حاضرا معه عندما اشترى ساعته الذهبية بثلاثين جنيها ، وقد رهنها نظير ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات وظل سنوات

متمسكا بحق استردادها وفك رهنها ، باقتراض الفائدة المستحقة على هذا المبلغ .. من أمي

فلما آل الى هذا الحق أخيرا ، أخذت ايصال الرهنية الى سمسار الرهونات واستردت الساعة . ثم أخذتها الى مكان ما فى لندن حيث أودعتها لتعرض للبيع بالمزاد. فبيعت بمبلغ ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات . وبذلك حصلت على ما دفعته فيها ناقصا عمولة دلال المزاد . فلما تبين لى أنى لم أربح شيئا من الصفقة وخسرت العمولة سلمت أمري لله ، واعتبرته درسا وعظة . فطرحت جميع ايصالات الرهنية التى آلت الى فى سلة المهملات . وبعد ذلك اشتريت الاقطاعية التى كان مفروضا أن تكون ملكا لى من المرتهنين بعد سداد حسابهم ، واصبحت انا نفسى - فى واقع الامر - المرتهن الجديد والمالك الحقيقى . ولم يكن فى مقدورى احتمال هذا الوضع لو لم تكن لى موارد أخرى لا علاقة لها بالاقطاعية

وليست هذه هى نهاية القصة . فأنا لم أفهم قط لماذا كانت اقطاعيتنا توصف دائما بانها « قطعة أرض صغيرة لطيفة » . فالارض لم تعد من زمن طويل - تستخدم فى الزراعة ، ولكنها تستخدم فى بناء المساكن والمحلات التجارية عليها ، وبالاختصار أصبحت جزءا من مدينة . وقام مستأجروها بدورهم بتأجيرها لغيرهم ، وأجرها هؤلاء لغيرهم قطعا قطعا وشرائط شرائط بحيث كان فى وسعى أن أشير باصبعى الى مجموعة من البيوت المكدسة بعضها فوق بعض وأقول : هذه البيوت مبنية فوق « أملاكى » ، ولكن لا سبيل لى على أى واحد منها ، ولا يمكننى أن أجرى عليها أى تحسين بأية طريقة وان كان فى وسعى أن أستخلص من هذا المستأجر أو ذاك الذى استأجر من باطنه الايجار المقرر بحسب الرقبة أو ما

الى ذلك ، بحيث يمثل الايجار جزءا صغيرا فقط من قيمـــة الموقع • والحق أقول انني كنت واضـــعا يدى على ثلاثة بيوت أشرف عليها ولكنهـا كانت خرائب متداعية لدرجة انني عندما حاولت اصـــلاح أحـــدها واعداده للسكنى ، انهـار البنـاء من القواعد فى اللحظة التى مسته فيها معاول البنائين • كانت مرهونة بمثـل قيمتهـا الكاملة ، وزيادة . وما كان فى وسـع عمى أن يصـلحها ، ولا كان ذلك فى وسـع المسـتأجرين . أما صاحب الرهنيـــة فلم يكن من شأنه أن يتدخل ما دامت فائدته المسـتحقة تسدد له فى موعدها

وبالاختصار ، كانت « قطعة الارض الصغيرة اللطيفة » اسما على مسمى لانني لم اتمكن من التصرف فى أكثرها الا أن أجعل سـاكنيها يدفعون الايجار دون أن يسمحوا لى بالدخول فيهـا لمباشرة أى سـلطة أو أية مسؤولية عاجلة كالتى كان النظام الاقطاعى البائد يفرضها على أو على أسلافى . فأنا بصفتى مالكا لم أكن قاضيا ولا حاكما ولا قيما ولا جنديا محاربا ولا مديرا ولا مشرفا ، أى لم تكن لى أية صفة تجعلنى نافعا للبلاد • وسلطات الحياة والموت التى منحها لى الملك هنرى الثـانى (١) عنـدما منحنى اقطاعيتى ، والتى كان له أن يمارسها على شخصيا لو قصرت فى ممارستها أو أسأت استخدامها « لو كانت لديه القوة الكافية لان يفعل ذلك » ، هـذه السـلطات الرهيبة المطلقة قد ذهبت وراحت ، ومعها أيضا ذهبت الواجبات وراحت . ولم تبـق لى الا « قطعـة الارض الصغيرة اللطيفة » التى يمكننى أن أبيعها أو أن أرهنها

---

(١) Henry II ١١٣٣ – ١١٨٩ ملك انجلترا

لاى أجنبى لم يقدم لبلادى يدا فى معركة هاستنجز (١) أو فى غارة سترونج باو (٢) ، وليس فى وسعه أن يقدم اقل دليل على اهتمامه بالصالح العام قلامة ظفر

مثل هذا التطور الذى مر باقطاعية أحد البارونات حتى أصبحت « قطعة أرض صغيرة لطيفة » ، ومر فى نفس الوقت بأحد الموظفين العموميين المسؤولين (البارون) حتى اصبح طفيليا غير مسؤول عن شيء (أنا) ، مثل هذا التطور اصبح قدرا محتوما عندما تطورت دنيا الزراعة والفروسية فأصبحت دنيا التجارة والمنافسة

ومع ذلك ، بقيت عدة اقطاعيات كبرى ، نمت فوقها المدن الكبرى وتعاظمت واثرى ملاكها ثراء فاحشا ، ولا يزالون يملكون ويزاولون سلطات يمكن ان توصف بأنها سلطات الحياة والموت لانهم يستطيعون طرد الفلاح وعماله الى عرض الطريق ويستبدلون بهم قطعانا من الاغنام أو جماعات من اصحاب الدكاكين أو فرقا من الرياضيين الاغنياء الذين يدمنون صيد الغزلان البرية أو اى شخص كان يدفع لهم نظير استخدام اراضيهم مبلغا يعجز عن دفعه أى فلاح أو مزارع ، وهكذا نجد لدينا «قطع ارض صغيرة ولطيفة » و « قطع ارض كبيرة ولطيفة » اصحابها على السواء ، أناس غير مسؤولين عن شيء على الاطلاق . قد يكونون من محبى الخير والانسانية أو ما الى ذلك ولكن ليس فى نشأتهم ولا فى تربيتهم ما يمنعهم من ان يكونوا جشعين يلغون فى الترف ولوغا ، وكل الاشياء تشجعهم وتدفعهم فى هذا الاتجاه . والواجب الواضح

(١) Hastings مدينة فى شرق انجلترا والمعركة التى وقعت فيها كانت سنة ١٠٦٦ بين النورمانديين بقيادة وليم الفاتح والسكسونيين بقيادة هارولد . انتصر فيها وليم رغم قلة عدد جنوده وهى من المعارك الحاسمة فى تاريخ انجلترا

(٢) strongbaw

المفروض عليهم أن يؤجروا أراضيهم بايجارات باهظة وأن يستثمروا رءوس اموالهم بأعلى فائدة يمكنهم الحصول عليها ، ولا تفرض هـــذا الواجب عليهم منفعتهم المادية ومصلحتهم الشخصية فحسب ، بل يفرضه عليهم ضميرهم الاجتماعى أيضا

وهكذا تتحصن ملكية الارض حصانة تامة ضدالنواميس الاخلاقية ، هى حصانة تميزها تمييزا تاما عن الملكيـة المادية التى يسميها المحامون ملكية شخصية . والمفروض ان هذا التمييز قد زال بصدور تشريع سنة ١٩٢٥ الذى وضع حدا لذلك الحق الاقطاعى القديم : حق وراثة الابن البكر لاملاك أبيه ، ولكنه لا يزال سارى المفعول على أية حال . فللاقطاعى رخصة لامتلاك بندقية خاصة كملكية شخصية ، وله أن يصطاد ببندقيته حيوانات وطيـــورا معينة فى فصول من السنة وتحت ظروف معينة ، ولكن ليس له ان يصطادنى ببندقية . ومع ذلك فاذا اقمت منشأة تجارية كبرى فوق اراضيه ، أو شيدت لى بينا عليها ، فمن حقه ان ينتزع منى منشأتى التجارية برمتها أو يطردنى من بيتى طردا عندما تنتهى مدة عقد الايجار بدون أقل اعتبار لى او لمصالحى

وقد يبدو من الغريب المدهش للذين يتدبرون المسألة من زاويتها العامة ، الا تتسبب هذه الاوضاع العجيبة فى اثارة مذبحة عامة تقطع فيها رقاب اصحاب الاملاك ، والواقع أنها تسببت فعلا فى اثارة مذابح من هذا القبيل من آن لآخر : فقد شكل الفلاحون الايرلنديون قبل تطبيق قوانين شراء الارض فى آيرلندا ــ جمعيات ريبون لودجز(١) هدفها اطلاق الرصاص على اصحاب الاملاك لمجرد انهم

---

(1) Ribbon Lodges

اصحاب املاك ، واستخدمت الثورة الفرنسية سلاحا ماحقا ، هو احراق قصور الاقطاعيين الكبرى فى الريف (الشاتو) بأيدى الفلاحين ، وقد كان لهذا التكتيك الماحق نفسه ، نصيب الاسد فى اقامة الدولة الايرلندية الحرة ؛ وفى روسيا الغت الحكومة البلشفية المشكلة فى سنة ١٩١٧ الملكية الخاصة للارض (الملكية العقارية) بصفتها حقا مقررا ، وجعلت من أى محاولة لممارسة هذا الحق ، جريمة يعاقب عليها القانون

غير أن نظام الملكية الخاصة للارض ، لا يكون فى كل الاحوال على هذه الصورة التى لا تطاق بحيث تدفع الناس الى الثورة والقتل والحرق ، وهم الذين تربوا ونشأوا يعتبرونه نظاما شريفا ونظاما اخلاقيا . فالرجل الذى لا يملك ارضا ، يتفق مع احد الاقطاعيين على تأجير قطعة ارض من املاكه نظير ايجار معين فى السنة ، وهو يفعل ذلك باختياره وبارادته الشخصية ، راضيا ان يستخلص لنفسه من الارض معاشه الذى اعتاد عليه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وهو يعتقد طوال الوقت اعتقادا راسخا أن من الطبيعى أن يدفع لصاحب الارض ايجار ارضه كما يدفع لصانع المظلات ثمن مظلته . وهو لا يفهم شيئا عن مشكلة الارض ، والاغلب انه هو نفسه يتطلع ليصبح هو الاخر مالكا . ففى السوق مساحات كافية من الاراضى معروضة للبيع لمن لديه الثمن المناسب للشراء ، وحتى اذا لم يتوفر المال اللازم لسداد الثمن ؛ أمكن المشترى أن يقترضه أو أن يشترى بالرهن

غير أن الفارق بين شراء مظلة من صانع المظلات ، واستئجار ارض من صاحب الارض الذى وجدها جاهزة مهيأة للزراعة أو لاقامة المساكن عليها ، فارق جوهرى ولم يكن سرا خافيا على الاقتصاديين السياسيين . فأما

الفلاحون الثائرون فلم يكن فى جعبتهم الا أغنية : « اذا كان آدم يفلح الارض ، وحواء تغزل بالمغزل ، فمن يكون ذلك السيد الجنتلمان ؟ أما الفسيوقراطيون (١) الفرنسيون المتعلمون فقد طرقوا المشكلة بأسلوب علمى : تنادى المصلحون الفرنسيون قبل الثورة — وخاصة أبو ميرابو (٢) بالغاء الضرائب المفروضة على السلع وأن يستبدل بها ضريبة واحدة على الارض كوسيلة لتأميم الايجار أو الريع • وقد سخر فولتير (٣) من هذا الاقتراح حتى توارى أصحابه خجلا • وأوضح لهم أنه يترك ايجار رأس المال سليما لم يمس ، وبينما يتضور الاقطاعى جوعا يزداد صاحب البنك ثراء عما كان فى أى وقت مضى • ثم بعث هذا الاقتراح الى الوجود على أية حال — بعد قرن من الزمان فعرض بفصاحة غير عادية على لسان هنرى جورج (٤) الامريكى الذى انتشر كتابه « التقدم والفقر »

(١) Physiocvats مدرسة من مدارس الفكر الفرنسى فى القرن ١٨ كانوا يوصفون احيانا « بالاقتصاديين » Economists مؤسسها فرانسوا كويزنى وكانوا يضعون أهمية كبرى على الارض كمصدر للثراء وعلى فرض ضريبة واحدة على الارض • أخذ عنهم آدم سميث الذى أهدى كتابه ثروة الامم لكويزنى كما أخذ عنهم هنرى جورج فكرة الضريبة الواحدة • وقد سخر منهم فولتير

(٢) V.R Mirabeau الفيلسوف الاجتماعى الفرنسى ومن الفسيوقراطيين وهو ابو « ميرابو » خطيب الثورة الفرنسية من مؤلفاته : كتاب صديق الناس L'amé dés hommes

(٣) Violotaire أو فرانسوا — مارى آرويه • ١٦٩٤ — ١٧٧٨ الفيلسوف والكاتب المسرحى المفكر الفرنسى الساخر الذى طبع القرن الثامن عشر بطابعه حتى سمي قرن فولتير • ويعد بحق أبا للثورة الفرنسية مؤلف كانديد والقاموس الفلسفى • وكان من أول من فضح الاستغلال الرأسمالى لانه هو نفسه كان من كبار المضاربين

(٤) Henry George ١٨٣٩ — ١٨٩٧ صاحب مبدأ الضريبة الواحدة المؤدية فى النهاية الى تأميم الارض • تأثر به وبكتابه شو والفابيون آكثر من تأثروا بكارل ماركس

انتشارا واسعا وكان له الفضل فى لفت نظرى مصادفة للموضوع لاول مرة . غير ان مشكلة الارض كانت فى ذلك الوقت قد تطورت فأصبحت مشكلة سياسية لدرجة ان نقد فولتير للاقتراح سالف الذكر ، كان أقوى مما كان فى أى وقت مضى : اذ اتضح تماما ان الدولة اذا ما صادرت ريع الارض ولم تكن على استعداد لاستخدامه فى الحال كرأس مال عامل فى الصناعة ــ توقفت عملية الانتاج وجاعت البلاد . وعلى هذا بدأت حركة معينة تسمى « الاشتراكية » تتخذ سبيلها الى الظهور أى الدعوة الى تنظيم الصناعة بواسطة الدولة لصالح الشعب كله . وعندما اكتمل ظهور هذه الحركة ، كحل بديل للنظام الرأسمالى عمد الاقتصاديون الرسميون الى احاطة موضوع الايجار والريع بالتمويه والغموض

وفى تلك الاثناء كتب أحد الفرنسيين بحثا بعنوان : « ما هى الملكية ؟ الملكية سرقة » . فقال البسطاء السذج ما أسخفه! وقال أهل الجد بل ماأخونه ! غير أن هذا الفرنسى « واسمه برودون (١) » لم يكن سخيفا ولا خائنا . لقد حلل الاوضاع القائمة وتبين ان الاقطاعى والرأسمالى ما داما يستهلكان دون أن ينتجا شيئا فهما يلحقان بالمجتمع نفس الضرر الذى يلحقه به اللصوص . وأوضح هذه النقطة نفسها الانجليزى جون راسكين ــ وهو أحد الرجال العظماء المحترمين جدا ــ عندما لفت انظارنا الى ان هناك ثلاث وسائل ممكنة لكسب العيش فقط : (١) بالعمل (٢) بالتسول (٣) بالسرقة

وبعد ؛ ترى هل ملاك اراضينا لصوص ؟ يجيب على ذلك وليم موريس وهو أعظم الشيوعيين الانجليز قاطبة ، فى

(١) P. J. Proudhon ١٨٠٩ ــ ١٨٦٥ الاشتراكى الفرنسى واضع أسس المذهب الفوضوى من كتبه أيضا : فلسفة الفقر

صراحة غليظة : نعم ، لصوص ملاعين . انهم يعيشون من سرقة الطعام • غير أن دى كوينزى (١) وهو أكثر المحافظين التوريز حظا من اللباقة وذلاقة اللسان ، أطلق على الاقطاعيين اسم سادة الريف المهذبين Country gentlemen وشفع ذلك بقوله : « من من الناس اكثر منهم جدارة ؟ » أما ماركس فسماهم بورجوازيين ، وهو اسم اصبح الان عتيقا باليا لان البورجوازية الفقيرة قد حولها العمل التجارى الكبير الى طبقة بروليتارية ، أما البورجوازية الغنية فقد امتصتها البلوتوقراطية • ووصفهم كيرنس (٢) وهو احد طلائع الاقتصاديين الانجليز بانهم « ذكور النحل فى الخلية » • أما أنا شخصيا فلا اسمى نفسى لصا ، فليست لى نوايا ومقاصد غير شريفة كما أن ليس من حقى ولا من سلطتى تغيير النظام الشرعى الذى اصبحت بموجبه وتحت ظله اقطاعيا من الاقطاعيين سواء شئت ذلك ام ابيته ، غير اننى كرست حياتى السياسية كلها لبث ونشر واذاعة تلك الحقيقة سالفة الذكر وهى اننى الحق بمستأجرى ارضى نفس الضرر الاقتصادى الذى يلحقه بهم اللص او النشال او ناهب المحلات أو قاطع الطريق أو أى نوع اخر من اللصوص • أنا لست بارونا لصا ، لاننى لست بارونا ، ولكنى لص فى واقع الامر لا شبهة فى ذلك ـ لاننى ارغم مؤاجرى على النزول لى عن جزء من ايراداتهم التى اكتسبوها بجهد ومشقة دون أن أقدم لهم أو أن اكون قدمت لهم أية خدمة

---

(١) T. De Quinsey ١٧٨٥ ـ ١٨٥٩ أحد الكتاب الانجليز الذين تصدوا لشرح نظريات وأفكار الاقتصادى ريكاردو • ولكن أشهر مؤلفاته كتاب أدبى بعنوان : اعترافات آكل افيون

(٢) J. E. Cairness ١٨٢٢ ـ ١٨٧٥ الاقتصادى الايرلندى من اتباع ستيوارت مل • من كتبه : قوة العبيد • وفيه دفاع مجيد عن قضية الشماليين الامريكيين انصار تحريم الرقيق

كانت ، فى مقابله . أما أن تبعة هذا ومسئوليته لا تقع على ، أو أنه الى حد ما سوء حظ ابتليت به فلا يخفف عنهم من عبء دفع الايجار شيئا ، وأما كونى سددت الرهنيات وبسدادها أشتريت سلطاتى فى الاستغلال نقدا ، فهو بعيد كل البعد عن الموضوع ولا علاقة له به على الاطلاق فعلى اللص ان يتحمل ثمن الطفاشـــة والعتلة وبقية « عدته » التى يستخدمها فى السرقة

اذن كيف يتخلص الوطن منى ؟ لو اطلق الرصاص على أى تخلص منى بالطريقة التى تخلص بها مؤاجرو اللورد ليتريم منه فلن يجنى الوطن من ذلك شيئا الا ان يحل محلى أقرب الناس رحما الى فى حق التملك . ولو استولت الدولة أو البلدية على أرضى وألقت بى فى عرض الطريق فسوف يتطلب هذا الاجراء نشوب ثــورة بلشفية حتى تضفى عليه الصفة الشرعية ، وسيحتاج الامر الى تشكيل ادارة حكومية جديدة تتولى تشغيل جميع الاقطاعيات والاراضى فى البلاد واعدادها للعمل بنظام تام حتى تحل محلى فى الادارة ، لان اول قاعدة من قواعد نقــل الملكية الخاصة الى الملكية العامة هى أن يكون واضحا للحكومة كل الوضوح ، أنها لا ينبغى أن تقوم على مصـــادرة أى نوع من انواع الملكية الخاصة فى الارض أو فى رأس المال ما لم تكن على استعداد تام لاســـتغلالها فورا وبنفس الكفاية الانتاجية التى كانت تدار وتستغل بها من قبل ، فاذا لم نزرع الحقل ، فلن تبور أرضه وتنمو فيها الاعشاب الضارة فحسب ، بل سينتشر البوار والاعشاب الضارة فى الحقول المزروعة المجاورة ايضا

أما الحل فى حالتى الخاصة ، فهو حل بسيط للغاية : ما ان يشعر المجلس البلدى فى المدينة التى تقـــع فيها أرضى ، بحاجته الى تلك الارض لاى غرض من الاغراض

مثل اقامة محطة قوى كهربائية أو حمامات عمـــومية أو مدارس أو مخزن للترام أو مركز للبوليس أو لفـــرقة مطافىء أو قاعة عامة جديدة للمدينة أو مكتب بريد أو مكتب عمل أو ما الى ذلك من المنشآت والمؤسسات العامة فكل ما يحتاج اليه المجلس هو أن يشترى الارض بقيمتها المحددة بالضريبة المفروضة عليها ، ويدبر المبلغ اللازم لذلك بفرض ضريبة على جميع العقارات الخاضــعة للضريبة فى المدينة بما فيها قطعة ارضى . وهكذا تصبح قطعة الارض ملكية عامة دفع ثمنها جميع الملاك وانا منهم لا اتحمل اكثر من نصيبى العادل من عبء المصادرة ، وهذا الحل افضل من المصادرة بدون تعويض التى تتسبب فى خرابى وافلاسى فى الوقت الذى يفلت فيه زملائى الملاك الاخرين آمنين مطمئنين على املاكهم . ولن يكون هنـــاك أى شيء غير عادى أو غير مألوف فى العملية كلها : فالناس قد ألفوا شراء الاراضى وبيعها ، واعتادوا الضرائب التى تفرض عليهم وتتفاوت مقاديرها من سنة الى سنة . أما أنا ، فسوف يتعين على أن أبحث لى عن مجال جـــديد استثمر فيه ثمن الشراء ، فاذا كنت اشغل المكان ، تعين على أن أبحث لى عن بيت جديد أسكن فيه او محل جديد أتاجر فيه ، ولكن الجمهور لا يعير مثل هذه الامور أى اهتمام : فهى تحدث أمامه كل يوم ، لشخص أو لآخر

ولا تحتاج هذه العملية الروتينية فى الظاهر ، الا أن تتكرر وتتكرر حتى يتم نقل ملكية الاراضى كلها فى المدينة من الملكية الخاصة الى الملكية العامة ، وبذلك يتم القضاء على الملاك المحليين وقطـــع دابرهم وابادتهم ابادة تامة بصفتهم ملاكا ، وبلا ألم . ومن السهل اتخاذ مثل هـــذا الاجراء بين الحكومة وملاك الاقطاعيات الكبرى . فقد حدث بالقرب من المنطقة التى أسكنها ان اشترت احـــدى

الشركات الخاصة اقطاعية كبرى وانشأت فوقها مدينة سكنية ذات حدائق (جاردن ستى) ، ولم ترتفع بسبب ذلك قيمة الضريبة المفروضة عليها . واكتتب فى ثمنها المساهمون الفرديون ـ وكنت أنا شخصيا واحدا منهم ـ وعلى هذا أعتبر من أصحاب الاملاك البريطانيين زيادة على كونى من أصحاب الاملاك الايرلنديين . ولكن اذا شاءت الحكومة أن تجمع أمرها فى المستقبل على استغلال المدينة السكنية بطريقة أفضل وأنفع للصالح العام ، أكثر مما ننتفع بها أنا وزملائى المساهمين لصالحنا الخاص ، فانها بكل سهولة تستطيع أن تشتريها منا ، وتجمع المال اللازم لذلك بفرض ضريبة على دخول جميع أصحاب الأملاك فى البلاد . وهنا أيضا ، لا يحتاج الامر الا الى أن تتكرر العملية وتتكرر بما يكفى ليحقق فى الواقع ـ تأميما كاملا للارض بدون أى خروج أو انحراف عن مجرى الروتين العام للعمل التجارى والصفقات التجارية ، وبدون حاجة لاصدار أى تشريع ثورى ولا ذكر لكلمة التأميم أو لكلمة التعويض ، وهما كلمتان بغيضتان : الاولى يمقتها أصحاب الأملاك والثانية يمقتها المذهبيون أنصار التأميم

والعملية القانونية الوحيدة البديلة لهذا الاجراء ، هى أن يقوم الملك ـ ملك انجلترا ـ باسترداد الارض بمقتضى نص قانون اقطاعى قديم لا يزال قائما الى اليوم، وان كان منسيا باطل المفعول فى أغلب الاحوال . وكان آخر من مارس حقه فيه من الملوك ـ الملك هنرى الخامس(١) من خمسمائة سنة مضت واستفاد منه وليم الثالث (٢)

---

(١) Henry V ١٣٨٧ ـ ١٤٢٢ ملك انجلترا

(٢) William III ١٦٥٠ ـ ١٧٠٢ ملك انجلترا واسكتلندا وايرلندا

بعض الفائدة منذ مائتين وخمسين سنة . والقانون قائم على أساس أن جميع الاراضي من ممتلكات التاج . ولكن هذا الاساس انهار ولم يعد يتفق مع الحقائق المصرية ابتداء من سنة ١٦٤٩ . فضلا عن أنه لا يوجد ملوك ولا تيجان في اكثر البلاد الاوربية وفى البلاد الامريكية كلها شمالا وجنوبا

أما البديل الثورى ، فهو اعلان يصدر بأن الارض ملكية عامة ، وقطع رءوس جميع الملاك الذين لا يتمكنون من مغادرة البلاد فى الوقت المناسب كما حدث فى الثورة الفرنسية فىالقرن الثامن عشر ، أو اطلاق الرصاص على العدد القليل منهم الذى يبدى معارضة ايجابية ، وترك بقيتهم الباقية لتكييف أوضاعها على احسن ما تستطيع فى ظل النظام الجديد ، بعد أن تكون ايراداتهم قد هبطت الى الحضيض وانتزعت منهم بيوتهم كما حدث فى روسيا سنة ١٩١٧ . وفى كلتا الحالتين ، لم يسع الحكومات التى أقامتها الثورة، أن تصنع بالارض الزراعية شيئا، الا أن تعيد من جديد توزيعها على الفلاحين، وقليل منهم كانوا قادرين على زراعة الارض أو تنمية كفايتها الانتاجية . ولقد حلت اللعنة بالمزارعين الروس الصغار من الذين كانوا من قبل يكسبون الكثير من مزارعهم ويحرثونها بخيلهم مستخدمين فى ذلك فلاحين آخرين يستأجرونهم كعمال زراعيين ، ووصمتهم الثورة بأنهم « كولاك » وألقت بهم خارج مزارعهم الى حيث حل بهم الخراب . ولكن سرعان ما اضطرت الحكومة السوفييتية الى البحث عن هؤلاء الكولاك المطرودين ، بل واصطيادهم حيثما كانوا ووضعتهم من جديد على مزارعهم بنفس العنف الذى انتزعتهم به منها . ولكنهم كانوا قلة . وبقيت نحو تسعين مزرعة فى حالة رثة يعيش عليها ملاكها فى أكواخ

خشبية لا تتسع الا لسرير واحد قذر تنام عليه أسرة كاملة ، تملك موقدا واحدا وشريطا صغيرا من الارض . وكان هذا المستوى من المعيشة أقل من مستوى مزارع الكولاك بنسبة العشر . وحتى الكولاك كان مستواهم أقل بكثير من الامكانيات الحقيقية للارض . وفى النهاية ، تبين الفلاحون العاديون والكولاك أنهم كلما انتجوا ما يفيض على احتياجاتهم ، أخذته الحكومة السوفييتية فى صورة ضرائب كانت تعتبر فى الواقع ريعا اقتصاديا كالذى كانت تفرضه على الملاك انقدامى . وهكذا عمدوا الى ماشيتهم وخيولهم فقتلوها والى بذورهم فأتلفوها والى محاصيلهم فأخفوها قبل أن تحجز الحكومة عليها وفاء للضرائب . بل عمد القوزاق الى افتعال مجاعات مصطنعة بهذه الطريقة ، واضطرت الحكومة الى تركهم يموتون جوعا

وأخيرا ، كان على الحكومة السوفييتية أن تتخلص من المزارعين الملاك سواء كانوا أكفاء أم غير اكفاء ، وأن تستبدل بهم المزارع الجماعية والمدن السكنية (جاردن ستى) وحققت فى ذلك نجاحا سريعا وهائلا ، وضربت بذلك للعالم مثلا موضوعيا وعمليا ، اذ أصبح واضحا لكل ذى عينين أن ليس هناك ما يبرر التمسك بالخطة القديمة خطة ترك زراعتنا فى أيدى الفلاحين غير المتعلمين أو فى أيدى سادتنا الاقطاعيين الذين أسىء تعليمهم ، فكلهم متنافسون بدلا من أن يكونوا متعاونين ، وكل منهم يريد وينتظر منه أن يجمع فى شخصه مواهب عديدة متعددة : مواهب الاخصائى فى الكيمياء الزراعية والبيولوجى فى الثروة الحيوانية والممول والخبير فى الاحصاء ورجل الاعمال والمحاسب وبالاختصار يريد وينتظر منه أن يجمع فى شخصه من المواهب ما يستحيل

أن يتجمع فى فرد واحد فضلا عن موهبـــــة كرايتون العجيب (١) كما لم يحلم به أشد الكتاب اغراقا فى الخيال. ان الزراعة عمل من أعمال الفريق ، وليست بالعمل الفردى على الاطلاق . فليس فى وسع أى سيد ريفى اقطاعى ، وليس فى وسع أى مزارع مهما كانت مواهبه ، أن يؤلف من شخصه فريقا . أما فى المزرعة الجماعية فالعمل فى الفريق هو العمل الطبيعى الروتينى ..

ان مستقبل الارض الاقتصــــــادى ، هو فى المزارع الجماعية والمدن السكنية . أما داعية الاصلاح الزراعى الذى تتلخص كل معلوماته عنه ، أنه مجرد تحـــويل الاقطاعيات الزراعية غير المستصلحة الى أملاك صــغيرة للفلاحين ، وترك ملكية الارض فى المدن على ما هى عليــه (وما أكثر أمثال هذا الابله) فلا ينبغى الســماح له بأن يدس أنفه فى السياسة على أى وجه ، او أن تكون له بهــا أى علاقة . وعلى أية حال ، فمن المستحســن من الناحية السيكلوجية ــ أن تخطط المزارع الجمـــــاعية والمدن الســـكنية بحيث تسمح لكل بيت برقعـــة أرض خاصة ملحقة به ، يلهو فيها أهل البيت ويزرعون فيها الزهور والخضروات ، أو يحتفظون فيها ببقرتهم الخاصة أو ما اليها ..

وفى الاتحاد السوفييتى نبهوا الى هـــــــذه الظاهرة الطبيعية فى الانسان ، وهى رغبته فى أن يكون له قدر معين من المعيشة الخصوصية فتنازلوا له عن ذلك القدر على الرغم من نجاح المزارع الجماعية ، فالخصوصيات (أى أن تكون للمرء عيشته الخاصة وبيته الخاص وأشياؤه

---

(١) Admirable Crighton بطل المسرحية التى بهذا الاسم تأليف ح . م . بارى « مترجمة ومقررة على مدارسنا الثـــانوية » ويقصد بموهبته القدرة الفائقة على التحول من شخصـــــية الخـــادم المطيع الى شخصية الزعيم الآمر والعكس بالعكس ، وبسهولة تامة

الخاصة) تتيح للانسان فرصة الاهتمام بشؤونه المنزلية والعناية بها ، وهذه الشئون تختلف عن عمله بالزراعة أو بغيرها . واذا كان البيت الريفى القائم وسط المزرعة يستخدم الآن كمسكن ، فهو أبعد من أن يكون ملائما للحياة النموذجية المنشودة ، ويحدث فى بعض البلاد أن بعض العمال يسكنون بالفعل فى الورش والمسابك وفوق سطوح المحلات التى يعملون بها ، وتلك لعمرى حياة لا تطاق . ان مشكلة الارض فى جوهرها هى مشكلة الحياة الخصوصية كما هى مشكلة الحياة الاقتصادية المنتجة على قدم المساواة . فالحياة الخصوصية تنتج الاطفال ، والاطفال أهم من كل المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية ، وأهمية الاطفال مسألة حيوية لبقاء المجتمع ، كما أن التدبير المنزلى صناعة ضرورية لا غنى عنها . وليس من شك فى أن العادات العائلية سوف تتغير تغيرا عظيما كلما أثبتت الاجراءات الاشتراكية شيئا فشيئا أنها أكثر ملاءمة لها من الاجراءات الفردية . والاعتراضات التى توجه الى سكنى الفلاح حيث يعمل فى بيته الريفى ، والى سكنى العامل حيث يعمل فى ورشته والصانع فى مصنعه ، يمكن أن توجه بنفس القوة الى سكنى الطباخ فى مطبخه والغسالة فى مغسلها وربة البيت فى البيت الذى هى ربته . وبالتدريج سيختفى وابور الغاز من المطبخ ، وطشت الغسيل من المغسل ، كما اختفى واندثر المغزل ذو العجلة والنول اليدوى ، وستنتشر الاندية والمطاعم والفنادق وبيوت الضيافة والمصحات ومنتجعات الراحة والاستشفاء والمدارس ودور الحضانة ، لكى تقوم بمهمتها الاساسية : الا وهى زيادة نصيب كل فرد من الحياة الخصوصية الحقيقية بنفس السرعة التى نعمل بها على زيادة التنظيم

الاشتراكى وتعزيزه

ان الابوة والامومة صناعة مرهقة للغاية ، وقد انتقلت فعلا والى حد كبير من اختصاص الآباء والامهـــات فى البيت الى اختصاص الهيئـــــة المشرفة على التعليم فى المدرسة وعلى دور الحضانة : اى أنها انتقلت من ايدى الهواة الى أيدى المحترفين المتخصصين .

ويشغل الاشتراكيون بالهم كثيرا بالتغيـــيرات التى ستحدث أو يمكن أن تحدث فى هذه الناحية بحيث يغفلون عن الناحية الاخرى من الموضوع . فهم كلمــــا أرادوا مناقشة موضوع الثروة الصناعية مثلا ، وضـــعوا فى أذهانهم ناحية واحدة منه فقط : كيف قضت القـــوة الهيدروليكية (قوة الماء) وقوة البخار على النول اليدوى وطـــردت البروليتـــاريا من أكواخ الريف والحقتهم بالمصانع حيث جعل نظام تقسيم العمل من المتعذر على أى عامل أن يتعلم مالا يستغرق أكثر من لحظة واحـدة خاطفة من العملية الصناعية الطويلة التى يدخل فيها جمع المواد الخام وتصنيعها وتسويق الناتج من هذا التصنيع ، ثم ما لهذه الاوضاع من تأثير مدمر على الطبقات العاملة ؛ بأن أصبح العمال فى المدن الصناعية مجرد آلات ميكانيكية كالانسان الآلى (الروبوت) ، بمشاعر آدميـــة ، وكيف أنهم يقطنون عششا سكنية موبوءة بالامراض الفتـــاكة ؛ ويموت أطفالهم فيها كالذباب ، بينمـــــا تتزايد ثروات الاقطاعيين والرأســـــماليين ويتعـــــاظم بذخهم وترفهم « بالقفزات والوثبات » كما قال جلادستون (١) فى وزارة

(١) W. E. Gladstone ١٨٠٩ – ١٨٩٨ زعيم الحزب اللبرالى البريطانى . كان وزيرا للمالية ورئيسا للوزراء أكثر من مرة . وهو من غلاة الاستعماريين الانجليز – بناة الامبراطورية . ففى عهده تم قمع ثورة الهند الكبرى واحتلال مصر وقمع ثورة المهدى بالسودان وبدات حرب البوير الاولى

المالية • وبدا كما لو كان من المقدور على الانسانية أن تعمل فى المصانع والورش والمناجم دائما مادامت القوة الجبارة التى تدير المغزل الميكانيكى والمطرقة البخارية لا يمكن تقسيمها أو توزيعها ، ومادامت أكبر من امكانيات أى انسان بمفرده فيما عدا الرأسماليين

غير أن هناك ناحية أخرى من الموضوع : فنحن الآن نعرف أن من الممكن تحويل قوة الماء وقوة البخار الى قوة كهربائية ، وأن من الممكن توزيع هذه القوة الكهربائية من بيت الى بيت كما يوزع الماء والغاز ، وتستخدم فى كل كوخ حيث يستطيع الطفل الصغير أن يضىء بها لنفسه طريقه الى فراشه بالليل ، ويستطيع الحرفى الصغير أن يسيطر من خلالها ، على شلالات نياجرا ليجعلها فى خدمة أدواته الميكانيكية . وأذكر الايام التى كنت استخدم فيها مقصا يسمى مقص الفتائل لتسوية شموع الشحم التى كنت أحملها فى يدى لتضىء لى طريقى الى فراشى بالليل، وأذكر مشاعل الزيت ذات الرائحة الكريهة التى كنت أطالع عليها فى الامسيات ، وأذكر كيف كشف على الطبيب وكحت أسنانى المتسوسة بشوكة عادية من الحديد ، ثم عشت حتى رأيت أسنانى (أو مابقى منها) وهى تنقر وتحفر بالكهرباء ، ورأيت شعرى (أو مابقى منه) وهو يحلق بالكهرباء ، وحجراتى وهى لا تضاء فقط بالكهرباء بل تكنس وينفض عنها الغبار بالكهرباء التى تدار من زر مثبت بالحائط . .

لقد كان لينين الروسى أول رجل من رجال الدولة يرى فى هذه الامور أكثر من مجرد بدع أو أعاجيب أو غرائب تثير الفضول ، فقد تبين أن الوسيلة الوحيدة لنشر الثورة فى روسيا هى كهربة روسيا . وبالسرعة التى تتم بها هذه الكهربة ، ستتحول هضاب الاستبس

الروسية ، والصحارى الاسيوية الشاسعة الى مدائن متحضرة مزدهرة خالية من العشش السكنية المزرية ، وسيصبح أهاليها القبليون المتوحشون حرفيين مهرة وصناعا مثقفين ..

وهنا ـ مرة أخرى ـ لم يشغل العالم الغربى نفسه بشيء الا بالمشروعات الكهربائية الهائلة التى يتم انشاؤها وتشغيلها فى الاتحاد السوفييتى ، مثل سد نهر الدنيبر والقنوات الجديدة والمصانع المشيدة بالصلب والزجاج التى تنتج عشرات الجرارات كل يوم ، وهذا كله من عمل جماعات مدربة من العمال ، يعملون بالتوجيه والارشاد والتخطيط . وقبل أن ينشر فى بلادنا البحث الكلاسيكى الذى كتبه سيدنى وب عن روسيا (١) ، لم نكن نعلم شيئا عن تلك البلاد ، بل حتى بعد ذلك التاريخ ، لم نتنبة الى أن الحرفى الفردى والحداد والنجار وصانع الفخار والنساج ومن اليهم من الحرفيين يمكن أن يولدوا فى روسيا أو بالاحرى يبعثوا من بين الموتى فى عهد الاشتراكية التى طالما أعتقدنا أنها تخنقهم فى المهد أو تقضى عليهم فيما بعد . أما ما لفت أنظارنا فعلا ، فأعمال البيت التى أصبحت تؤدى فى المطابخ الميكانيكية ، وبالمكانس الكهربائية ، وأنها قد فندت ما كان يقال قديما من أن « عمل المرأة فى البيت لا ينتهى أبدا » ، وبذلك أقامت التوازن بين الحياة المنزلية والحياة الاجتماعية التى ظلت ومازالت تتعارض بشدة مع ظاهرة الحياة الخصوصية

---

(١) Soviet Communism. A New Civilization صدرت أولى طبعاته سنة ١٩٣٥ Sidney Webb ١٨٥٩ ـ ١٩٤٧ هو وزوجته بياتريس عن انشط وابرز الاشتراكيين الفابيين . وكان عضوا فى البرلمان وفى وزارة رمزى مكدونالد ونال لقب لورد ولكن زوجته رفضت مشاركته فيه . من مؤلفاتهما الاخرى : تاريخ الحركة النقابية ـ الديمقراطية الصناعية ـ الحكومة الانجليزية المحلية ـ ٦ اجزاء

فى ظل النظام الرأسمالى ..

ومهما كانت أهمية الناحية الاجتماعية ، فليس ثمة خطأ أفحش من الخطأ الذى يقع فيه السياسى العصرى عندما تتسلط على ذهنه هذا الجانب وحده من مشكلة الارض . فهو لا يرى الا أن الحداد الذى يعمل لحسابه الخاص ويسوى حساباته مع الدولة عن طريق محصل الضرائب والمحاسب ، يلعب دورا اسياسيا أكبر من الدور الذى يلعبه الموظف البيروقراطى فى مصنع تملكه الدولة الجماعية . وهذا السياسى العصرى هو من طينة الرجل الانجليزى صاحب النزعة الفردية المتأصلة والتى لا شفاء له منها ، وكل منهما ينظر الى الدولة الجماعية دائماً نظرة الشك والريبة على طول الخط

أما أسبابى الشخصية للشك والريبة ، فعلى العكس من ذلك على خط مستقيم . ففى وسعى مزاولة حرفتى ككاتب مسرحى بيدى وبمفردى وفى عقر دارى أو فى أية جزيرة صحراوية منقطعة . وترتب على ذلك أن أصبح الكتاب والمؤلفون أعصى الناس على التنظيم بل هم أعصى على التنظيم من قطيع من الخنازير حتى ولو كان القصد من التنظيم حمايتهم والدفاع عن مصالحهم . فهم على الورق نماذج حية لكل فضيلة ، ولكنهم فى العمل فوضويون بوهيميون يميلون للشغب والنقار وتسيطر عليهم عواطفهم ويعجزون عن المناقشة بدون أن يفقدوا أعصابهم ، ويعتبرون كل اختلاف مع رأيهم اهانة شخصية موجهة لهم ، وامراضهم هذه مزمنة مستعصية لا علاج لها ولا شفاء لهم منها . ولكن لما كانت الصحافة معدودة فى قبيل النشاط الاجتماعى ، فهى بصفتها هذه تعمل على تمدينهم وترويضهم وتهذيبهم . أما كتاب الروايات الرومانسيون الذين يقعدون بمفردهم لينظموا العالم من

وحى رءوسهم وبنات افكارهم لا يعارضهم معارض ولا يملى عليهم أحـــــد ، فلا يمكن بأى حال أن يتعلموا كيف يعيشـــــون فى مجتمـــع ســـياسى منظم مالم تتوفر لديهم بالفطرة الروح المرحة القوية ، وعلى رجال السياسة أن يحتملوهم وأن يتغاضـــوا عن سيئاتهم ويعتبروهم ضيوفا من عالم آخر . وتفسيرذلك فيما يبدو أن التحرر من الضغط الاقتصادى يتيح الفرصة للنزعة الفردية أن تنمو وتتضخم فى الاشخاص الذين لديهم حظ منها ولم يدربوا تدريبا خاصـــا ـ كالجنود ـ على الا يفكروا بأنفسهم ولانفسهم . والكتـــاب فى ظل الرأسمالية ، ليسوا متحررين من الهموم الماليـة ، بل هم أبعد الناس عن أن يتحرروا من الهموم المالية ، فليس ثمة شخص فى البلاد الرأسمالية ـ يقيم لمصالحه المادية أقل اعتبار ـ يجازف باتخاذ الادب حرفة له . وأعرف مللا دينية من النساك المتعبدين يسود بينهم قانون الرهبنة الصارم ، بحيث يؤول كل بنس يملكه أى فرد فى الملة الى ملكية الجماعة تلقائيا ، بل قد لا يكون للافراد فيهـا حق اختيار الزى الذى يرتدونه ، ولكن خبزهم اليومى مضمون لهم ، وأينما ذهبوا فمن حقهم التمتع بضـيافة أبناء الملة ثلاثة أيام على الاقل ، وقد سألت صـديقا لى ينتمى الى واحدة من هذه الملل عن الآثار السيئة التى تتركها هذه التعاليم فى أبنائها اذا كان ثمة آثار سيئة . ففكر لحظة ثم قال : أقول ، انها تنمى النزعة الفردية فى الانسان بدرجة مفزعة حتى ليصبح العضـو فى الاربعين من عمره دجالا لا شبهة فيه .. وانه لشىء ممتـــع كل الامتاع ، أن ننتظر لنرى هل ستحول الشـيوعية أبناء روسيا الى شعب من الروبوت (الآليين) أم الى شعب من الدجالين

وفى ختام حديثى ، لابد لى من الالحاح على أن العقدة فى مشكلة الارض هى النظرية الكلاسيكية للريع الاقتصادى التى خلع عليها فرديناند لاسال اسم القانون الحديدى للاجور ، (١) ولم يكن هذا القانون لسوء الحظ واضحا تراه العين ، مثل كروية الارض ، ومن ثم فهو مناقض للمنطق السليم ومخالف للاخلاق فضلا عن شدة تعقيده من الناحية الرياضية لدرجة أنى أستطيع أن أجمع خمسين خبيرا فى نظرية « التكامل الممتد » (٢) بأسهل من أن أعثر على خمسة من السياسيين يفهمون قانون الريع ويفسرون مشكلة الارض على أساسه . وليس فى استطاعة أحد أن يستخلص منه نتائج تزيد على مافى استطاعة شكسبير أن يستخلص من غزال الاوكابى(٣) أو الاكسولوتل (٤) انهم باختصار وبساطة ، لا علم لهم بأنه موجود . أما كارل ماركس فقد اثبت باشارة سخيفة اليه فى كتاب رأس المال ، انه لم يفهمه . وجون راسكين بعد أن بدأ حياته بداية مشجعة جدا كاقتصادى يفاضل ويوازن بين القيم التبادلية والقيم الانسانية ، اصطدم به وتوقف عنده وجمد تماما . ومع ذلك فقد كان لدى كارل ماركس وجون راسكين من الذكاء والثقافة والاهتمام بالمشاكل الاجتماعية أكثر مما لدى ثلاث أو أربع وزارات كاملة من الوزارات المتوسطة وأكثر مما لدى ثلاثة أو أربعة ملايين ناخب من أوساط الناخبين ! لقد كان هذا

---

(١) Iron Law of Wages وهو أن الاجور تتجه فى ظل الراسمالية دائما نحو مستوى الكفاف أى الحد الادنى

(٢) Tensor Calculus مصطلح فى باب الرياضة البحتة

(٣) Okapi نوع من الغزال الافريقى المخطط اكتشف سنة ١٩٠٠ أشبه بالزرافة

(٤) Axolotl حيوان برمائى يعيش فى بحيرات المكسيك . واين لشكسبير بهما ؟

القانون بمثابة الصخرة التى تحطم عليها مذهب كوبدن الليبرالى (١) ، وقام عليها صرح الاشتراكية أثناء الصراع بين البلوتوقراطية والديمقراطية . وما زلنا نعيش فى غمرة هذا الصراع فى الوقت الحاضر . ولما كان الاعلان عن كتاباتى والدعاية لها جزءا لا يتجزأ من طبيعة عملى ، فانى أرانى الان واقعا تحت اغراء شديد لان أضيف الى كلامى ، أن أى شخص لم يطلع على مقالتى عن الاساس الاقتصادى للاشتراكية وهى احدى المقالات الفابية ، فليتفضل وليسمح لى بأن أواصل الكتابة فى هذا الموضوع والتحدث عنه والاثارة السياسية حوله والادلاء بصوتى له فى الانتخابات أى أن أواصل تأييده بأية طريقة تصل اليها يدى فى هذه البلاد التعسة

أما الذين يشكون فى أن القانون الحديدى اختراع من عندى ، اخترعته لتعزيز قضية الاشتراكية ، فيمكنهم أن يجتهدوا ليحصلوا أولا على المؤهلات التقليدية والشهادات الاكاديمية حتى يتمكنوا من هضم واستيعاب نظرية الريع المبسوطة فى كتاب ريكاردو : « مبادىء الاقتصاد السياسى والضرائب (٢) » الذى كتبه ريكاردو قبل أن

---

(١) Liberal Cobdenism نسبة الى R. Cobden ١٨٠٤ — ١٨٦٥ السياسى البريطانى الليبرالى من اشد المتعصبين لمذهب حرية التجارة وعدم تدخل الدولة . وهو من زعماء مدرسة منشستر الاقتصادية

(٢) D. Ricardo ١٧٧٢ — ١٨٢٣ الاقتصادى الانجليزى الكلاسيكى . ونظرية الريع المشهور بها ، تتلخص فى انه بينما تميل الاجور الى الهبوط الى مستوى الكفاف ، يبقى ريع الارض فى مستوى ثابت نسبيا . ومن ثم زاد ثراء أصحاب الارض بزراعة المزيد من الارض بينما بقيت الاجور منخفضة . كتابه المشار اليه هو :

Principles of Political Economy and Taxation

وقد صدر فى سنة ١٨١٧ وجلب له الشهرة . فى وقت كانت فيه النواة الاولى للاشتراكية المثالية ، تتجمع فى انجلترا بجهود روبرت أوين الفردية

تعثر الاشتراكية لنفسها على اسم تتسمى به فى انجلترا ، ثم ينتقلون منه الى هضــــم واســتيعاب نظرية القيمة التبادلية القريبة منها ، ثم عليهم بعد ذلك هضم واستيعاب نظرية ستانلى جيفونز (١) فى الاقتصاد السياسى ، وستانلى جيفونز بهذه المناسبة هو الذى صحح أخطاء آدم سميث (٢) وكارل ماركس فى هذا الموضوع

---

(١) Stanley Jevons ١٨٣٥ ـ ١٨٨٣ الاقتصادى الانجليزى صاحب نظرية المنفعة Utility القائلة بان القيمة تحددها المنفعة ومؤلف كتاب The Theory of Political Economy ويستند اليها الفابيون الانجليز فى اكـــثر آرائهم الاقتصادية

(٢) Adam Smith ١٧٢٣ ـ ١٧٩٠ أبو الاقتصاديين الكلاسيكيين صاحب كتاب ثروة الامم (ترجم)

الفساد فى الدولة

بينما تتقدم الاشتراكية لتتخطى المرحلة النظرية الى مرحلة التطبيق ، تعمل على زيادة سلطات الدولة وافساح المجال لنشاطها ، وتعمل أيضا على افساح المجال للفساد لكى يستشرى ، كما تعمل على زيادة حجم السلب والنهب ان كان هناك سلب ونهب . فالاشتراكيون ينادون بتأميم وسائل الانتاج والتوزيع والتبادل ويستحثوننا على أن نعلم الناس ونستثيرهم وننظمهم جاعلين هذا الهدف نصب أعيننا . وهذا سليم تماما من الناحية الاقتصادية ، ولكنه أيضا يجعل الرأسمالية والاستعمار أقوى مما كانا فى أى وقت مضى اذا تم التحول من المؤسسات الخاصة الى المؤسسات العامة ــ كما يحدث الان ــ على أيدى الرأسماليين والاستعماريين الذين تمولهم الدولة (الفاشستية) والذين يكافحون من أجل مصالحهم الخاصة ، بدلا من أن يتم التحول على أيدى الشيوعيين الذين يهدفون الى الصالح العام للمجتمع كله . وسبب ذلك أن من الممكن ــ وأنا أكرر ــ من الممكن تأميم

(*) الفصل الثلاثون من « الدليل السياسى للجميع » طبعة كونستابل سنة ١٩٤٩.

وسائل الانتاج والتوزيع والتبادل واستغلالها بدقة أتم واحكام أشد بكثير مما كانت تستغل فى الوقت الحاضر بهدف زيادة الدخل غير المكتسب بالعمل ، وبهدف اعفاء أصحابه من الضريبة بينمـــا تزداد تكاليف المعيشـــة على البروليتاريا وتنقص الوســـــائل المتـــاحة أمامهم لتتحمل هذه التكاليف • ويشير « المتفـــائلون » بنشوة وجذل الى ارتفاع الاجور • فمثلا نرى أن أجـور العاملات فى المجهود الحربى قد ارتفعت من ٥ر٢ بنس فى الساعة سنة ١٩١٤ الى ٦ بنسات فى الساعة فى سنة ١٩٤١ ، وأصبحن يكسبن ٦ شلنات فى اليوم الذى يعملن فيه ١٢ ساعة بدلا من ٥ر٢ شلن • غير أن المرأة العاملة عندما تأخذ شلناتها الستة معها الى البيت يصـــادر صاحب البيت منها فورا ما بين ٨ ـ ٢٤ بنســـا ، ثم تشترى بالباقى طعامها وثيابها بأسعار شديدة الارتفاع• لقد أعلنت الحكومة أمس (فبراير سنة ١٩٤٦) عن قيام الدولة ببناء ٦٠٠٠ مسكن للعمال الزراعيين على أن يكون ايجار المسكن الواحد ١٣ شلنا فى الاسبوع يدفعها العامل من أجره الذى لا يتجاوز ٤٠ شلنا • ان مثل هذا الايجار يعتبر ايجارا فاحشا حتى بعد ارتفاع الاجور

ولست بغافل عن احتمال اختفـــاء اصحاب الاراضى والاقطاعيين والضرائب المفروضة عليهم بعد ان تشـــترى الدولة جميع ممتلكاتهم على حســـابهم كما اوضحت فى بحثى لمسألة التعويض عن المصادرة ولــــكن اصحاب الاراضى والاقطاعيين ، بعد أن يتجمع لديهم بصفة مؤقتة فائض من الاموال معـــــد للاستثمار ، يتحولون الى رأسماليين وتتحول دخـــولهم غير المكتسبة الى فوائد بدلا من الريع والايجار ، وهو تحول لا يعنى شيئا بالنسبة للبروليتـــاريا • وتستطيع الدولة أن تشترى أمــــلاك

الراســـماليين ــ وربما اشــترتها على حســـابهم بنفس الشروط التى اشترت بها أملاك الاقطاعيين ، وتنقـــل الصناعة ــ كما نقلت الارض ــ الى ملكية الدولة ، وبذلك لايصبح الاغنياء القدامى اقطاعيين أوملاكا أو رأسماليين ، ولكن ما الذى يمنعهم من أن يتحولوا الى طبقة جـــديدة دائمة من الطفيليين الكسالى بذريعة أو بأخرى ، اذا ما تركت الدولة عملية توزيع الايجار والريع والفائدة والربح بين أيديهم ؟ من الممكن الغـــاء طبقة الملاك والاقطـاعيين والرأسماليين وشطبها من الوجود بسهولة ، ولكن الريع والايجار والفائدة ستبقى تحت يد الحكومة ، وتستطيع الحكومة بنقل سيطرتها على الانتاج أن تستغل لوشاءت . فان توزيع الارباح ــ كتوزيع الايجـارات ــ سيتم وفق هواها ومشيئتها : يمكنها أن تدفع المرتبات الضـــخمة والمعاشات الكبيرة لاعضاء البرلمان مثلا ، بما فيهم أصحاب الالقاب من البارونات السابقين الذين هم ــ فى الواقع ــ أصحاب تكايا يرتعون فى تكاياهم ولا يمكن زحزحتهم عنها ، ويمكنها أن تضع نظاما للامتيازات يتدرج من اللورد أو النبيل الذى يتقلب فى النعمة والبذخ ، الى العـامل الكادح الذى يعطى له أجر الكفاف أو أجر الجوع ، جاعلة بذلك عملية التحول من الملكية الخاصة الى الملكية العامة ، تحولا الى الاسوأ

من الطبيعى جدا أن تكون هناك رغبة قديمة ــ لبرالية ــ فى بقاء المؤسسات والمنظمات السياسية الحالية بحجة أنها سوف تخلق لنا جنـــة اللـــه على الارض بطريقة أوتوماتيكية أى بدون أن تحد الدولة من الحرية الفردية أو أن تأخذ على عاتقها مهمة نشر الافكار السياســـية والدينية . والمنظمات والمؤسسات السياسية القائمـــة فى النظام الرأسمالى ، تستند فعلا الى الفردية المسيحية

التى تضع الروح الفردية أو روح الفرد فى مكان رفيع ، وتضع نفس الفرد الخالدة ذات الارادة الحرة كما خلقها الله وصورها ـ تضعها فوق السلطة الجماعية سلطة الدول الزمنية الزائلة ، والدول من صنع البشر فى هـــــذه الدنيا ، وتعتبر حياتنا فى هذه الدنيا لا أكثر من رحلة عبور قصيرة مملوءة بالخطايا والاثام ، وجزء مؤقت فى رحـــلة الابدية ، ومع ذلك فليس ثمة شىء اسمه جنة الله على الارض ، جنة تأتى هكذا أوتوماتيكيا . قد تكون الدولة الاشتراكية دولة شريرة كأى دولة أخرى ، واليقظة الدائمة والرقابة الدائمة والحرص الدائم هى ثمن الاشتراكية كما أنها ثمن الحرية أيضا • لا يمكن أن يدفع فى الاشتراكية ثمن أقل من ذلك ، ومالم تقم اليقظة على الدراسة الجيدة ، ومالم تتزود الرقابة وأجهـــزة الرقابة تزويدا كامـــلا بالمعلومات ومالم يكن الحرص حرصا واعيا فقد ينجم عنها أقصى ضرر يتصـــوره الانســان ، مع توفر أحسن النوايا وأشرف المقــاصد . ومن الاسلم على أية حال أن ننبذ جميع النظـــم الاوتوماتيكيـــة ، لانهـــا ذرائـــع للكسل السياسى والبلادة السياسية ، وأن نتدبر وندرس ونفحص سائر النظم التى تحتوى على عنصر التوجيه اليومى والدراسة اليومية العلمية لجميع الامور • ان الاعتقاد بقدوم الخلاص أوتوماتيكيا ، قد حطم الرأسمالية تحطيما ، وقطع دابر اللبرالية الكوبدنية ولســــوف يحطم الاشتراكية ويقطع دابرها بنفس الطريقة المفجعة اذا ما استسلمنا له وانخرطنا فيه

وعند التاريخ الدستورى ما يقوله فى هـــذا الشـــأن : ليس بالشىء الجديد أن تحتكر الحكومة الارض وتحتكر رأس المال : ان احتـــكار الحكومة للارض ورأس المال

موجود فعلا وفى وقتنا هذا بنص القانون . فمن الناحية القانونية ليس هناك ما يعتبر ملكية فردية للارض ، كل الارض ملك للملك ، ولا يضع أى شخص يده على قطعة ارض الا باعتبارها منحة من قبل الملك الذى يستطيع أن « يستردها » فى أى لحظة ، وحق الملك فى فرض الضرائب على رعاياه ، حق مطلق ، ليس له حد قانونى يحده ، ويقوم الملك فى الوقت الحاضر بمصادرة دخل أى واحد من رعاياه ولو كان أغناهم ، بل وما هو اكثر من ذلك : يمكنه أن يصادره بأكمله اذا كان الدفاع عن المملكة يحتاج الى ذلك . وهكذا تصبح الحكومة ــ بعد تنفيذ « نزع ملكية واضعى اليد » ــ الاقطاعى الوحيد والرأسمالى الوحيد وصاحب العمل الوحيد . ومن الممكن ان تتم عملية نزع الملكية فى نطاق القانون المعمول به حاليا . فقد انتزع هنرى الثامن (١) الاراضى من الكنيسة بدون ثورة ، كما ينتزع وزير المالية الآن ما يساوى قيمة هذه الاراضى وغيرها من الاموال بقدر ما يستطيع ان يستخلصه منا ، وبدون اى تعويض يقدمه للرأسمالية ككل . ان القانون العام فى جوهره اشتراكى الى أبعد الحدود ، وينبغى ان يكون اشتراكيا بالفعل ، تماما كما ينبغى أن يكون كل قانون دستوريا فى جوهره وطبيعته

لماذا اذن تتحول الحكومة ــ عند التطبيق ــ الى حكومة معادية للاشتراكية على هذا النحو الذى لا يطاق ولا يحتمل ، مما يجعلنا نرى السخط الثورى يغلى كالمرجل فى كل مكان ، فى كل مكان ما عدا روسيا السوفييتية ؟

الجواب على هذا السؤال هو أن الملك ووزراءه الذين

---

(١) Henry VIII ١٥٠٩ ــ ١٥٤٧ ملك انجلترا

يمارسون سلطاته ليسوا اشتراكيين — لأهم ولا الذين انتخبوهم ايضـــا . فهم يقدمون الاراضى والاقطـــاعيات للافراد لاستغلالها لمصلحتهم الفردية ، والى المزارعين الملتزمين بدفع الضريبـــة ، وهؤلاء واولئك ينهالون على المواطنين يسلخون جلودهم بلا رحمة . ويلجأ وزراء المالية عندما يضعون ميزانياتهم الى فرض ضريبة مباشرة على الدخل كآخر حل فى جعبتهم بعد أن يستنفدوا كلّ مصدر آخـر من مصادر الايراد الى أقصى حد . واذا رفض راس المال الخاص أن يتـــورط فى مشروعات لا تدر ربحا وان كانت ضرورية للبلاد (كالخدمة البريدية مثلا) تولتها الحكومات، ولكنها تبيع منتجاتها أو خدماتها بسعر التكلفة ، بل تربح منها وتستخدم هذه الارباح فى تخفيف عبء الضرائب عن أصحاب الدخول غير المكتسبة ، أو تعفيهم منها أعفاء تاما

تلك هى النتيجة المترتبـــة على تخويل الدولة حق استخدام أدوات الانتاج والتوزيع والتبادل مع ترك جهاز الدولة فى أيدى وزراء من اعداء الاشتراكية ، وزراء تعلموا فى مدارسهم ولقنوا فى بيوتهم أن التجارة الحرة والمشروعات الفردية هى الضمانات الوحيدة للازدهار والرخاء القومى، بينما يثبت الواقع المر انها انتجت الفقر والعبودية والبغاء والموت المبكر على أوسع نطاق مما دعا الى قيام الحركة السياسية التى تطلق عليها اسم الاشتراكية تسساندها حركات شعبية أخرى نطلق عليها اسماء اللبرالية ، أو الارض لمن يفلحها ، أو الفوضوية أو السندكالية أو ماعدا ذلك من الاسماء والشعارات التى تدل على فقدان الثقة بالدولة ..

ولنضرب مثلا ، وليكن مايفاخرون به دائما هو الغاء رق الارض فى بريطانيا وأمريكا : لو كنت أملك عبدا يبساع

ويشترى أو أحد أرقاء الارض وكنت مسئولاً عنه أعوله وأطعمه وآويه بعد أن ينتهى من عمله ، وتحميه قوانين خاصة بتنظيم العبودية ورق الارض حتى لا أسىء استخدام سلطاتى المخولة لى عليه ، فأى شىء يجنيه هذا العبد أو ذاك الرقيق ، اذا ما ألقيت به فى الطريق ليتضور جوعا أو ليبيع نفسه لسيد آخر ، يبيع نفسه ولكن بعد أن يكتسب صفة جديدة : صفة « العامل الحر » ؟ لقد قدمت له فى كل التأكيدات بأن فى وسعه أن يختار سيده الذى يعمل عنده ، ولكنه بعد أن يتحقق من انه أما أن يعثر فى الحال على عمل ، واما ان يتضور جوعا ، سرعان مايدرك أن سيده هو الذى يختاره وليس هو الذى يختار سيده . وعندما فقد مالكه القديم حقوقه عليه كعبد رقيق ، أمكنه أن يطرحه فى الطريق كنفاية عندما لا يصبح اهلا لاستخدامه فى العمل . وقد لوحظ بعد الغاء نظام رق الارض الاقطاعى فى انجلترا ، أن الوفيات من الجوع تضاعفت ، وكانت الحال جديرة بأن تتفاقم الى مالا قبل للمجتمع به لولا أن صدر قانون الفقراء الاليزابثى (١) . واذا بالثورة الصناعية تجعل من الوفاة بسبب الجوع ظاهرة عادية ، تسجل بانتظام فى مكاتب التسجيل الى أن وقعت الهدنة التى أنهت حرب السنوات الاربع (٢) . وبانتهاء الحرب ، لم يتمكن ملايين الجنود المسرحين من العثور على عمـــل ، مع خبرتهم فى استخدام الاسلحة الفتاكة ، وتقسية قلوبهم بأعمال الذبح

(١) Poor Law صدر سنة ١٦٠١ فى عهد الملكة اليزابث يلزم الابروشيات بتزويد الفقراء العاجزين عن الكسب بالمعـــونة المادية . وقد جرت عليه تعديلات فى سنة ١٨٣٤ وفى سنة ١٨٤٧ وفى سنة ١٨٧١ . وقد كانت ملاجىء الفقراء سبة فى جبين البـلاد . وصفها ديكنز فى رواياته Laissez - Faire صاحب مذهب حرية التجارة

(٢) الحرب العالمية الاولى

وسفك الدماء ، وأعتياد بطونهم على الوجبات المنتظمة من لحم البقر . فاضطرت الحكومة الى تعزيز قانون الفقراء باعانة البطالة حتى لا يثور الجنود المسرحون ، وبذلك ضمت قطيعا من الطفيليين الفقراء ناقصي التغذية ، الى قطيع الطفيليين الاغنياء المتخمين

وهنا وقفت البروليتاريا وجها لوجه امام هذا الفساد وما قد يتمخض عنه ، وهتفت تقول ومعها كل الحق : « هذه هى نتيجة تأميماتك الظافرة واستنكارك لمدرسة منشستر (١) بمذهبها الخاص بحرية التجارة ، ونتيجة المظاهرات التى قامت بها جمعيتك الفابية لبيان الامكانيات الاقتصادية الهائلة التي تنطوى عليها مشروعات الدولة بما تتضمنه من تأميم أدوات الانتاج والتوزيع والتبادل ! ها هم أولاء الرأسماليون يزدادون ثراء على ثراء بالتأميم بل لقد ازدادوا ثراء عما كانوا عليه فى ظل حرية التجارة . وها هى ذى الايجارات التى لم تكن تطاق ، ترتفع الان ويزداد عبئها علينا . وها نحن أولاء نستغل بلا رحمة كما كنا نستغل في أي وقت مضى . شكرا ، شكرا لك على لا شيء . شكرا لك على ما هو أقل من لا شيء . الى الشيطان أنت واشتراكيتك الدستورية التى تصك آذاننا بالوعود ثم ما أسرع ما تخيب آمالنا : أيها الفتيان: انشدوا نشيد المارسيلييز : «الى السلاح ايها المواطنون» !

ولكن المارسيلييز لا ينقذ الموقف ، ولم يثبت قط أن فى القتل والذبح والتخريب علاجا ناجعا لعيوب السياسة واساءة استخدام السلطة السياسية، أوأن فيها علاجا دائما، بل ثبت أنها غالبا تزيد خطورة المرض . ثم ان الخوف من هذه العيوب وما قد تجر اليه ، ربما منع الحكومات

---

(١) Manchester School مدرسة الاقتصاديين الكلاسيكيين الانجليز فى أربعينات القرن الماضى

الفاسدة من دفع رعاياها الى حافة اليأس ، وفى أيامنا هذه ، نرى أن جانبا كبيرا من الفساد القائم ، هو فساد غير مقصود وعفوى لدرجة ان الحكومات نفسها لا تعرف حقيقة أمره ، ولا كيف تعالجه . فاذا ما ووجهت بثورة عنيفة أمرت البوليس بأداء واجبه واستدعت قوات الجيش واعلنت حالة الحصار التى يوقف فيها العمل بجميع القوانين ماعدا القانون العسكرى ، ويكال للمتمردين بنفس كيلهم . ولو تمكن المتمردون ـ كما حدث فى الثورة الفرنسية ـ من الحاق الهزيمة بالحكومة فى تلك المعركة ، سرعان ما يتبينون أن ما يعرفونه عن طريقة تحسين الاحوال ، هو أقل مما كانت تعرفه الحكومة المهزومة، وقد أثبت « حكم الارهاب » المنافس للحكومة الرسمية أنه حكم عقيم « كالارهاب الرسمى » الذى تسبب فيه سواء بسواء . أن الارهاب لا يولد الا الارهاب المضاد ، ثم الارهاب مرة اخرى الى مالا نهاية كالحلقة المفرغة . كان المتعهد الرسمى للمقصلة أثناء حكم الارهاب فى الثورة الفرنسية هو فوكيه تونفيل . فلما دارت الدائرة عليه وارسل هو نفسه الى المقصلة لقطع رأسه ، استقبل شتائم الجمهور بأن صاح فيهم من فوق العربة « الكارو » التى كانت تنقله الى ساحة الاعدام قائلا : « أيها التعساء ! هل سيرخص ثمن خبزكم غدا ؟ » وغدا ارتفع ثمن الخبز . لقد دارت الدائرة على الجمهورية لا على فوكيه ..

أن الامانى البطولية والرغبات المخلصة والشجاعة والتضحية وسفك الدماء الذى لا يفلت منه احد ، كلها اشياء لا جدوى منها ، بل هى اسوأ من ذلك عندما لا يعرف المتنازعون مصدر العيب ولا كيف يعالجونه

ومع ذلك يعتقد كثير من الاشتراكيين أن الحكومة

الاشتراكية غير قابلة للفساد ، بينما هى فى الواقع اكثر تعرضا للفساد من الحكومة غير الاشتراكية لانها تختلف عنها فى أنها تستخدم سلطة الدولة ومالية الدولة فى تنمية الانتاج الصناعى والزراعى ، ولا تترك المنتجين وشأنهم ، قاصرة نشاطها على العمل البوليسى وفى حدود الخدمات الضرورية التى لا غنى عنها أو التى لا تدر بطبيعتها أرباحا تجارية أو التى تتجاوز أقصى امكانيات رأس المال الخاص - ومن الواضح أن هذا التوسع الهائل فى سلطة الدولة ومجال نشاطها يحمل معه توسعا هائلا فى احتمالات اساءة استخدامه ..

فالاغنياء والبلوتوقراطيون لا يزالون هم سادة الموقف : أقوى واغنى بكثير من أى وقت مضى لانهم تعلموا الدرس من الفابيين وحولوه ليخدم مصالحهم . صحيح ان مفهومهم عن النظام الراسمالى ضئيل ومحدود كمفهوم الاحزاب البروليتارية عن النظام الاشتراكى ، ولكنهم لم يكونوا فى حاجة الى تغيير مقاصدهم ونواياهم ، ولا الى تربية اقتصادية خاصة تجعلهم يتبعون حاسة الشم الغريزية فيهم التى تمكنهم من وضع أنوفهم ثم أيديهم على الثغرة التى تأتى منها الارباح ، وبهذه الحاسة الغريزية أمكنهم أن يثروا ثراء فاحشا وأن يضاعفوا سطوتهم حتى لم يعد هناك من يقاومهم بعد ان تخلوا عن مبدأ حرية التجارة واستبدلوا بالشركات الخاصة المتنافسة والاموال الخاصة والايرادات الخاصة ، شركات الدولة ومؤسسات الدولة وايرادات الدولة . قرر الفابيون فى برنامجهم أن من الضرورى أن ترصد الارباح لمنفعة وفائدة البروليتاريا ولكن العناية الالهية لم يكن لها يد فى هذا البرنامج ، فقد كان انتاج الدولة وموارد الدولة ومدخرات الدولة فى يد

فرعون مثلما كانت فى يد فابيوس «أوشافيوس» (١) .
أما الدكتاتوريون الذين بدأوا اول أمرهم اشتراكيين، فقد أطلق الرصاص عليهم، أو سجنوا، الا اذا تمكنوا من وضع أيديهم على ما يكفى من الاموال لانشاء جيش نموذجى جديد يرتدى القمصان السوداء أو البنية ، وكما قدر من قبل على الفابيين القدامى أن يصبحوا أدوات فى أيدى الزعماء النقابيين الذين استغلوهم ليقفوا على أكتافهم الى البرلمان ثم قضوا عليهم سياسيا بعد ذلك ، قدر على الدكتاتوريين أن يصبحوا ادوات فى أيدى الاغنياء البلوتوقراطيين ليجمعوا لهم الاموال ، ولولا ذلك لما كان لادولف هتلر ان يصبح دكتاتورا يملى أوامره على أحد ، بل كان حريا ان يكون طريح الشارع تصفر من حوله رصاصات البلوتوقراطيين (٢)

هكذا كانت الاوضاع عندما بدأت أنا — اخط مستقبلى السياسى : كان شعار الرأسماليين بالنسبة للدولة : « ارفعوا أيديكم عن الصناعة ! ارفعوا أيديكم عن الزراعة! ارفعوا ايديكم عن البنوك ! ارفعوا أيديكم عن صناعة السفن وعن المناجم وعن كل شيء ما عدا السياسة الخارجية وتعهد البوليس حماية الملكية الخاصة ! » وفى باث سنة ١٨٨٨ عندما وقفت أنادى بضرورة تأميم الارض فى اجتماع للجمعية البريطانية ، هب احد اساتذة الاقتصاد السياسى والاخلاق هو هنرى سجويك الذى لم يعرف عنه من قبل انه فقد السيطرة على اعصابه أو رفع صوته على أحد قط ، هب واقفا وصرخ بأعلى صوته : « ان الدعوة الى تأميم

---

(١) يشير المؤلف الى نفسه ساخرا ، وهو من مؤسس الجمعية الفابية

(٢) يشير الى محاولة هتلر الاولى لقلب نظام الحكم ، وفشلها فى سنة ١٩٢٣ ، قبل أن يحتضنه الراسماليون الالمان

الارض دعوة للجريمة ، وأنه لا يسعه ان يشجعها بحضوره . » ولم يكتف بمغادرة المنصة ، بل خرج من القاعة وصفق الباب وراءه بعنف . ولم اتمكن من اقناع اصدقائه وعارفيه الذين لم يحضروا الاجتماع ، بأنه قادر على ان يغضب مثل هذه الغضبة الصاخبة . ولكن كلمة التأميم كان لها فى نفس ذلك الرجل تأثير اللغم المتفجر ، وهو من أرق الرجال طبعا واكثرهم دماثة

أما فى ايامنا هذه الحاضرة ، اذا بشعار الرأسمالى يصبح : « أمموا ماتشاءون . . ! اجعلوا البلديات ومجالس البلديات تسيطر على ما تستطيع السيطرة عليه ! حولوا محاكمكم الى محاكم عسكرية وبرلماناتكم ومنظماتكم السياسية الى مجالس ادارة ! وعينوا فيها أكثر الخطباء شعبية و ديماجوجية ولكن بشرط ان يؤول الينا الايجار والريع والفائدة والارباح كما كانت تؤول الينا من قبل ، وعلى شرط ان تبقى البروليتاريا صفر اليدين لا تنال الا لقمة الكفاف »

هذا هو الفساد الاعظم أو البلاء الاعظم فى الاشتراكية ، وهو ما نجد انفسنا أمامه وجها لوجه فى الوقت الحاضر . انه يسمى نفسه فاشية فى ايطاليا واشتراكية وطنية فى المانيا (واختصارها نازية) ونيوديل فى الولايات المتحدة ، أما فى انجلترا فقد بلغ من الذكاء ان بقى بغير اسم ، ولكنه فى كل مكان يعنى نفس الشيء : انتاج اشتراكى وتوزيع غير اشتراكى . وعلى هذا فالبروليتاريا تكون فى ظله كالمستجير من الرمضاء بالنار : لان الفاشية ــ وهى مختصر رأسمالية الدولة ــ بعد أن تكون قد وزعت على البروليتاريا بعض المنافع بالشح والتقتير ، ووفرت بعض الوظائف البيروقراطية لافراد لم يكونوا من قبل غير اصحاب عمل عاديين ، ثم شددت الخناق على بند الخدمات العامة ،

وواصلت الدعوة الى عبادة الدولة (المسماة بالدولة الجماعية أو الشمولية والتى ستؤدى منطقيا الى الدولة الاشتراكية الحقيقية فى الوقت المناسب) . بعد ذلك كله ومع ذلك كله ، تسببت فى اشعال حرب عالمية تتحارب فيها الفاشية الانجلو - امريكية مع الفاشية الالمانية - الايطالية، لان للفاشية طابعا دوليا بينما لايزال الرأسماليون وطنيين متعصبين . فعندما تقدمت المانيا لنشر الفاشية فى جميع ارجاء الكرة الارضية ، تحت حكم الفوهرر أدولف هتلر ، وحاولت ايطاليا نفس المحاولة تحت حكم بنيتو موسولينى ، بذل الفاشيون الانجلو - أمريكان جهدهم لاحباط هذه المحاولات ، ولكى تذهب المانيا وايطاليا الى الجحيم قبل ان يرضخوا هم لاى فاشية ليست من صنع ايديهم ، وقبل أن يسيروا تحت لواء فوهرر الا الفوهرر الخاص بهم . لقد حاربوا الاجانب كما حارب أسلافهم نابليون عندما استهدف اقامة ولايات متحدة اوروبية ، ووضع الحكم المحلى فى ايدى ابناء اسرة بونابرت ومارشالاته خصوصا المتزوجين منهم من شقيقاته . ومن الملاحظ ان الفاشيين ينقسمون الى فريقين : فريق يريد ملاءمة الفاشية مع النظام البرلمانى الحزبى القديم المحصن ضد الثورات ، وفريق يرى ان الفاشية تستلزم وجود منظمات سياسية جديدة ، لانها لا يمكن أن تنمو وتتطور بغير حكومة نشيطة سريعة البت والتنفيذ ، ومن ثم ينبغى التخلص من نظام الاحزاب والوظائف المدنية التى على غرار وظائفنا الجامدة المكبلة بتقاليدها وروتينها ولجانها، العاجزة عن تحمل المسؤولية والتى تعد فى الواقع تكايا للموظفين العاجزين عن مسايرة الزمن

ولو ان هؤلاء المتحاربين ذوى النظر القصير الكليل ، قدروا موقفهم حق تقديره أو حتى اهتموا قليلا بالتقاط

فئات السياسة الحقيقية ، لاتحدوا معا ضد الاشتراكية الديموقراطية الحقيقية : اشتراكية الاتحاد السوفييتى ، وسووا خلافاتهم فيما بعد أى عندما ينتهون من تقسيم روسيا فيما بينهم . ولكن الحال هو ما نراه الآن : أتحد الفاشيون الغربيون مع روسيا القضاء على الفاشيين فى وسط وجنوب اوروبا ، واتحدوا مع الصين الشيوعية لهزيمة اليابان الرأسمالية

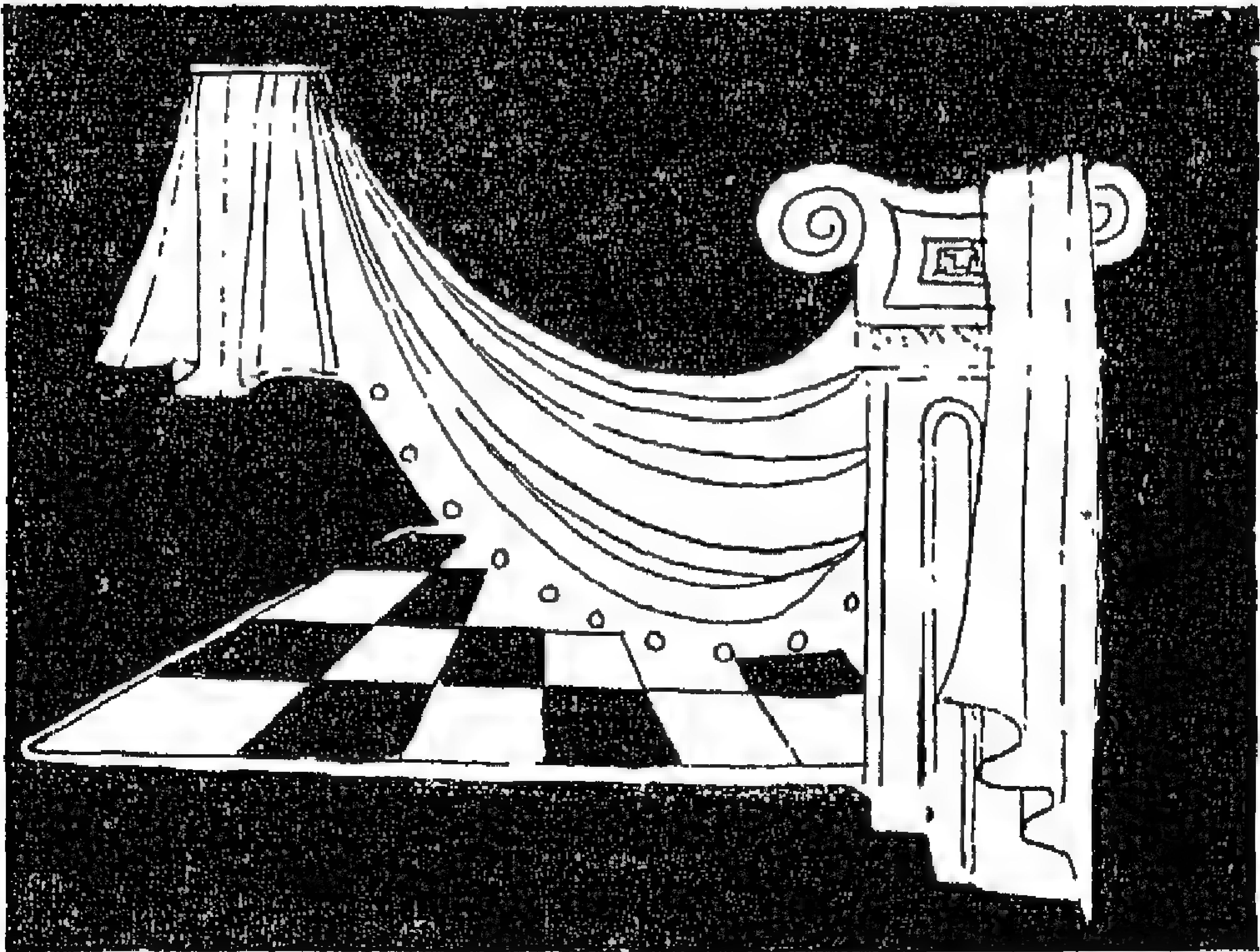
مثل هذه التناقضات المحيرة ، ستنتهى الى حل نفسها بنفسها بأن يحارب كل فريق فى الجانب الذى ينتمى اليه : البلوتوقراطية أو حكم الاغنياء ، ضد الديموقراطية أو حكم الشعب ، والفاشية ضد الشيوعية ، والانتاج الاشتراكى سيكون ملائما لكل من الفريقين ومحققا لاغراضهما . كيف يميز المواطن اذن ، بين الفاشية والاشتراكية الشيوعية فى التطبيق اليومى ؟ فهو يسلم نصيبا كبيرا من دخله لمأمور الضرائب ومحصل العوايد ، لكى تستخدمه الدولة كرأسمال صناعى منتج ، من اين له أن يعلم أن حصيلة ذلك ستعود عليه فى شكل خدمات أو سلع أو أجور أو الثلاثة معا ؟ وانها لن تمنح للمبذرين اصحاب الامتيازات لتمكنهم من حياة البذخ غير المنتجة على حسابه ؟ فاذا كان هو نفسه واحدا من هؤلاء المبذرين أو يطمع فى أن يكون واحدا منهم ويريد ان يجرب حظه تحت لواء الفاشية ، كيف له أن يتأكد من أن عكس ذلك هو الذى سيحدث ؟

لا يمكن الاجابة على هذه الاسئلة بنظريات مشحونة بالمصطلحات العامة التى تقارن بين مزايا اللبرالية القديمة أو رأسمالية التجارة الحرة ، وبين رأسمالية الفاشية وبين الشيوعية الديموقراطية . فالاحزاب الفاشستية والاحزاب الشيوعية تدعو الى نفس الاجراءات التأميمية

والى سيطرة الدولة أو المجالس البلدية على المؤسسات وتدعو بالمثل الى استبدال رأس المال العـام برأس المال الخـاص ، والرقابة الادارية العـامة بالرقابة الادارية الخاصة ، كما يتفق الفريقان على أنه لم يعد من الممكن افتتاح منجم جديد أو انزال باخرة جديدة الى البحـر بدون معونة الدولة وتدخل الدولة . وتجتاح الفلاحين والعمال الزراعيين الان موجة من الاندفاع نحو الزراعة الجماعية والمزارع الجماعية ، بحيث لم يعد فى وسـعنا أن نميز بين الشيء ونقيضه : بين مبدأ التجارة الحـرة ومبدأ لينين الخاص بالسياسة الاقتصادية الجديدة N.E.P. الذى طبق ، فى سنة ١٩١٢ ، وبالاختصار عندما تصبح الوسـائل هى نفس الوسـائل والاساليب هى نفس الاساليب ، ولكن الاهداف تختلف اختلاف الابيض عن الاسود ، لن تنفع الناخبين أية نظريات ، ولكن عليهم ان يحصلوا على مزيد من المعرفة عن الفساد وكيف يستشرى فى الواقع العملى ، وكيف يمد جذوره فى كل مكان ، عليهم أن يحصلوا على هذه المعرفة والا سرعان ما يكتشفون انهم انما يدلون بأصواتهم فى الانتخابات من اجل سلخ جلودهم وقطع رقابهم

الفصل الثانى

- فى أمـريـكا .
- شو وداروين - الداروينيـة .. وضبط النفس .
- شو وداروين - التطور فى المسرح .



فى أمــــريكا

... لم يكن الاخ جوناثان (أو العم سام) ـ وهـــو القروى البريطانى المنفى عن بلاده ـ أمريكيا قحا ، بل كان مهاجرا من بلاد أخرى ، ولم تكن له من المميزات الامريكية الا اسم يانكى ، ولم يتلق من التعليم الا مايقدمه المبشر المسيحى للغلام الزنجى ومايلى ذلك من ثقافة أوليـــة : هذا هو الامريكى القديم الذى عاش على هذه الارض منذ ٧٥ سنة مضت

وقضى هذا الامريكى وقتا طويلا يحاول أن يفعل ماتفعله أوروبا ، ولكن بطريقة سيئة للغاية ، كما لابد لى أن أنبه الى أنها كانت أيضا باهظة النفقات جدا . غير أنه ظهر الى الوجود فى نهاية المطاف ، طراز اخر من المواطنين الامريكيين يختلف اختلافا مذهلا عن الاخ جوناثان ، بل يختلف اختلافا

(*) من محاضرة القاها شو فى دار أوبرا متروبوليتان فى ابريل سنة ١٩٣٣ بدعوة من أكاديمية العلوم السياسية والمحاضرة مطبوعة فى كتيب بعنوان : « مستشفى المجاذيب السياسى فى أمريكا والوطن القريب » فى أكثر من ٦٠ صفحة

مذهلا عن أى طراز أخر من الناس الذين يمشون على ظهر الارض . ولنبدأ فى وصفه شكلا : كان انسانا مفـرطا فى البدانة والجسامة ، وفيما عدا أنه بدين جسيم ، يصعب وصفه جدا

كان ماردا جبارا : شخصا على أعظم درجة من المهابة . اذا لقيته خيل اليك انه شخصية هامة آمرة ، شخصية فيها شىء ما . ولكنك لاتستطيع أن تفهم ماهو هذا الشىء كان متحدثا فحلا ، بليغا فصيحا يطلق الحكم والامثــال الرائعة ، خطيبا مصقعا ، يصرخ ويزعق فى الاجتماعات ، ويتسيد المدعوين على موائد الغداء وعلى أوسع نطاق . ولكنه لم يكن يقول شيئا . كانت بلاغة مجردة ،وفصاحة من أجل الفصاحة ، وهى فرع من مدرسة الفن للفـن . وكنتم اذا استمعتم اليه تحيونه وتهتفون له بحمــــاس وتشعرون أن شيئا ما سيحدث فى نهاية الامر ، ولـكن هذا الشىء لم يحدث قط

كان شخصا من النوع «المدوى» الصاخب كالطبل الاجوف اذا كان لى أن أستخدم هذا التعبير . كان جبارا ضخما ولكنه كان خاليا من أى شىء جديد أو مختلف لدرجة اننا كنــا ونحن فى أوروبا نترنح مذهولين من هيله وهيلمانه ، ومن خلو ذلك الهيل والهيلمان من أى معنى على الاطلاق . وكنا نقول : ترى ماسر هذا الرجل الهائل الجبار الذى يتحـدث بكل هذه الفخامة وليس لديه ما يقول ؟ هـذا الرجل الذى يتمتع بذهن شديد الحيوية ، ولكنه فى نفس الوقت فارغ شديد الفراغ ، لانه لايبدو عليه أن يعرف أى شىء له أى مدلول . هو دائما جهير الصـوت يجعجــع عن التفاهات ويقتبس من الشعراء بصوت عال كالرعد لا لشىء الا ليؤكد بديهية لا تحتاج الى تأكيد أو يشير الى شىء مبتذل أو حديث معاد

وأرانى الان واقعاً تحت اغراء شديد لان أذكر أحدمشاهير الامريكيين ــ وقد مات منذ فترة ــ كان يمثل هذا الطراز من الناس أصدق تمثيل · ولكن لا حاجة بى لان أسميه باسمه لانكم جميعا تستطيعون او الناجحون منكم فى الحياة على الاقل ــ ان يقولوا : اجل ، هو بلا شك يعنى فلانا عضو الكونجرس أو فلانا النائب أو أية شخصية شهيرة لم تنتخب بعد

والان ، ترى اى عيب يعيب هذا الطراز من الرجال ؟ أقول ان عيبهم أن ليست لهم ركائز ثقافية يرتكزون عليها ليست لديهم أية نظرية عصرية شاملة عن المجتمع ، بل ليست لديهم أية نظرية أمريكية عن المجتمع الامريكى · واذا جاز لى أن أستعير تعبير صديقى البروفيسور أرشيبالد هندرسون (١) عالم الرياضيات قلت انه ليس لديه « اطار للمراجع » (٢) يستند اليه ، وليس لديه مسلمات علمية من أى نوع . هو طراز من البشر معلق فى الهواء ، ومن ثم لن تحصل منه الا على الريح ·· وان كانت والحق يقال ريحا عاتية زاخرة الى حد رهيب

مثل هذا الطراز من الرجال ، هو ماانتج عن شخصيات العم سام الفريبة ، وهو الطراز الموجود الآن فى أمريكا وأذهل الدنيا بصفته الامريكى النموذجى الامريكى القح أو الامريكى مائة فى المائة . كان نموذجا فريدا لا مثيل له فى الرجال · لقد طوفت فى الافاق كثيرا ، ولكنى أشهد

---

(١) Prof. Archibalc Hendersoı الكاتب والعالم الرياضى الامريكى صاحب مؤلفات عن شو منها Playhoy and Prephet وصاحب B.S. Table - Talk of G. B.S. الدعوةالموجهة لشو لزيارة أمريكا

(٢) Frame of referance مصطلح رياضى مترجم فى بعض قواميسنا العلمية بمناط الاستاذ وهو على حسب معجم المجمع اللغوى : مايتخذ مرجعا يتمين بالنسبة اليه مواضع النقط

انى لم أر فى أى بلد آخر شبيها بهذا الامريكى القح ، الامريكى مائة فى المائة

ذهب هذا الامريكى يستعرض نفسه فى أوروبا كسياسى متشدد صلب الرأى ، ولقى هناك فشلا ذريعا ، وكان فشله بصفة خاصة كسياسى متشدد صلب الرأى . وكان عيبه أنه كان سياسيا بلا دستور سياسى يرجع اليه فى أفكاره المتشددة وارائه الصلبة. ولو أنك قلت له ذلك الان ، لاوشك أن يغمى عليه من الدهشة اذا كان من اللائق للمارد الجبار أن يغمى عليه ، ولكان حريا أن يقول: «ماذا . . ؟ أليس لى دستور سياسى ؟ أليس هناك شىء اسمه دستور فى أمريكا ؟ هل انت مجنون ؟ أمريكا عندها الدستور الامريكى على سن ورمح . أمريكا تتحدث دائما عن دستورها »

واذا كان المخاطب انجليزيا يفتقر الى الفطنة رد عليه بقوله : « حقا ان أمريكا تتكلم دائما عن دستورها ، ولكنها تتناول هذا الدستور بالتعديل من آن لآخر ، ومن ثم فهو يبدو دستورا ناقصا لم يستكمل بعد على غير ماتظن . » والحق أنكم اذا فحصتم الدستور الامريكى لوجدتم أنه ليس فى واقع الامر دستورا ، ولكنه تعهد بالفوضوية . انه ليس أداة للحكم بل بمثابة تعهد للشعب الامريكى بأنه لن يحكم أبدا ، وهذا بالضبط هو مايريده الامريكيون

. . . لقد أقمتم فى غمرة فزعكم من الدكتاتوريين وحكم الدكتاتوريين مجتمعا كل رئيس وردية فيه دكتاتور وكل ممول دكتاتور وكل صاحب عمل دكتاتور ، ويضع كل هؤلاء الدكتاتوريين حياة العمال ومعاشهم تحت رحمتهم تماما ، ولا يشعرون نحو المجتمع الذى يعيشون فيه بأية مسئولية عامة . ولكى تقيموا رمزا لهذه الاوضاع ، رمزا يعبر عن فشل كل أنواع الحكومات فى بلدكم ،

نصبتم فى ميناء نيويورك صنما بشعا تسمونه « الحرية» ان الشيء الوحيد الذى ينقص هذا التمثال ، أن تخطوا على قاعدته العبارة التى كتبها دانتى على باب جهنم : « ياداخل هذا المكان ، ودع كل أمل ! »

... أرسل لى أمريكى بارز ـ لن أذكر اسمه ـ خطابا تلقيته صباح أمس يقول فيه :

... بالله لا تحكم على الولايات المتحدة ببؤرتيها الموبوءتين : « هوليوود ونيويورك » ولم أدهش لذلك ، فهوليوود هى اشد بقاع العالم منافاة للاخلاق . ولكنكم لن تفهموا مرادى من هذا القول . ففى اللحظة التى استعمل فيها عبارة منافاة الاخلاق ، يبدأ كل أمريكى فى التفكير فى ملابس السيدات الداخلية . لذلك أرجوكم ألا تظنوا أنى أعنى بعبارتى ، ذلك الشيء الضرورى جدا الذى يسمى جاذبية جنسية ، وهو شيء مرغوب فيه الى أقصى حد فى المسرح والسينما ، بشرط أن يعالج معالجة حسنة ، ويستخدم كأداة تربوية حقيقية بقدر المستطاع

كلا ، ان ماتدعو اليه هوليوود ، وتفسد به الدنيا أيما أفساد، هو دعوتها الى الفوضوية. ان هوليوود تضع أمام جمهورها من الاطفال سلسلة من الابطال الشبان محاطين بهالة من المجد والعظمة ، وكل منهم فوضوى يميل الى العنف ولا يتردد فى استخدامه ، جوابه الوحيد على كل شيء يزعجه او يمتهنه او يمتهن بلدته أو أبويه أو فتاته او قانونه الشخصى الذى صاغه لنفسه عن الرجولة والفحولة .. ان يناول الشخص الذى أزعجه أو امتهنه أو أساء اليه ، لكمة فى الفك

انى لاتساءل لماذا لاترفعون قضية على مؤسسات الافلام لانها تحرض شبابكم على الاخلال بالنظام وتعكير

صفو الامن ؟ لماذا تصفقون وتهللون لابطال الشـــاشة هؤلاء الذين ترونهم دائما مشغولين بكيل اللكمات للناس فى الفك عندما لايكونون مشغولين فى تقبيل البطلة ؟ انها جريمة يعاقب عليها القانون ، ان تلكم مواطنا من مواطنيك فى فكه . متى نرى فيلما أمريكيا يصدر من هوليوود ، ويتصرف فيه البطل تصرف انسان متمدن ـ وبدلا من أن يناول خصمه لكمة فى الفك ، يستدعى رجل البوليس ؟ هأنذا الاحظ أنكم استقبلتم كلامى ببرود وامتعـــاض . ولعلكم تحسبون أن استدعاء رجل البوليس فى الافلام على هذا النحو ، سيكون شيئا مملا يبعث على الضجر . ولكنه لن يبعث على ضجركم واملالكم ايها السيدات والسادة ، بقدر مايضجرنى ويضجر كل انسان متمدن ذلك السيل الذى لا ينقطع من اللكمات فى الفك ، حاولوا بربكم أن تتخلصوا منها . وفوق كل شىء ، حاولوا أن تتخلصوا من النزعة الفوضوية الجاهلة التى تكمن وراء هذه اللكمات ، وتقول للرجل أن فى وسعه أن ينفذ قانونه الاخلاقى الخاص بقبضة يده ، وان يعتبر نفسه قاضيا ومحلفا وصـاحب الدعوى ..

... أنا مسلم بأن أوضاعكم الراهنة ليست مشجعة(١) فالبروليتاريا عندكم متعطلة عن العمل ، ومعنى تعطـــل البروليتاريا عن العمل ، ان نظامكم الرأسمالى متعطل عن العمل . ويستطيع أى خبير من خبراء العلم السياسى أن يقول لكم أن المبرر الوحيد لبقاء نظام الملكيـــة الفردية فى الارض ورأس المال ـ وهو النظام الذى تعيشون وتعملون فى ظله الان ـ هو أنه يضمن للجماهير العاملة أعمالا ووظائف بصفة دائمة (والاقتصاديون الرأسماليون يقدمون الحجج

(١) كانت الولايات المتحدة فى ذلك الحين سنة ١٩٣٣ تمر بذروة ازمتها الاقتصادية الكبرى المسماة « بالكساد العظيم » ١٩٢٩-١٩٣٤

والبراهين على صحة ذلك ، ولكنها حجج وبراهين مصاغة على الورق ببراعة) ، مع أن النتيجة الحتمية لهـــذا النظام ، انه يخلق طبقة صغيرة من الملاك ، طبقة فاحشة الثراء وهي في نفس الوقت طبقة كسولة بليدة متطفلة لا تعمل وانما تعيش على كد الجماهير التى لا تملك شيئا ، ولا تحصل الا على خبز الكفاف ، ولكن النظام الرأسمالى (كما يقول الاقتصاديون الرأسماليون) يضمن لهذه الجماهير خبز الكفاف على الاقل وبصفة دائمة . اذن لابد من أن تتوفر الاعمال والوظائف للمتعطلين ، ولابد للعاملين من ان يحصلوا — على خبز الكفاف مقابل عملهم

فاذا ما حنث النظام الرأسمالى بعهده ، وخاب أمــل البروليتاريا فيه (وبالرغم من تأكيـــدات الاقتصـــاديين الرأسماليين فان نظامهم لم يف قط ولا فى أية لحظة بهذا العهد ولم ينفذه قط ولا فى أية لحظة التنفيذ الكامل) ، ولم يزد عدد المتعطلين عندكم عن النسبة القديمة التافهة نسبة الـ ٥ ٪ فى بعض المهن ، ٨ ٪ فى بعضها الأخر ، ٢ ٪ فى غيرها فقط بل زاد وتضاعف عدد المتعطلين حتى أصبحوا يقدرون بالملايين — هنا — يكون النظام الرأسمالى كله قد توقف وتعطل فعلا عن العمل ، وتكون مهمتكم العاجلة ، بل اشد مهامكم الحاحا أن تبحثـــوا لكم عن نظام آخر افضل منه

فاذا نحن تركنا البروليتاريا الامريكيـــــة وشأنها ، فما خطب الفلاحين الامريكيين ؟ ان فلاحيـــكم مفلسون ، وهم الان فى حالة ثورة مسلحة . وحتى صحف بـلادكم تخبركم بذلك لو قرأتموها بعناية مع العلم بأن الصحف فى جميع البلاد المتمدنة فى الوقت الحاضر ، تصدر من أجـل تحقيق غرض واحد : هو اخفاء الحقيقة عن الجمهـور ، وخاصة اذا كانت متعلقة بمثل هـذه الامور . وماذا عن

أصحاب الاعمال الامريكيين ؟ عندما كنت شابا صغيرا ، كان صاحب العمل فى امريكا هو سيد الموقف فى الصناعة. كان يستخدم البروليتاريا لحسابه الخاص ، ولتحقيق ربحه الخاص . وكان يستخدم أرض صاحب الملك ويدفع له ايجارا . وكان يستخدم رأس مال الرأسماليين ويدفع لهم فوائد . اما ماتبقى فهو ملكه الشخصى الخاص . وبذلك كانت جميع المشروعات التجارية فى البلاد فى يديه . كان صاحب العمل فى ذلك الوقت ، هو بلا نزاع فارس الحلبة فى جميع الجمهوريات الصناعية . وكان فى استطاعة اى رجل يفك الخط ويعمل حساب الدوبية ويتمتع بنصيب معقول من المقدرة على ادارة الاعمال ، أن يبـــدأ حياته كصاحب عمل براس مال صغير ادخره بنفسه او اقترضه من اسرته او من اصدقائه

ولكن كل هذا راح وانقضى . صاحب العمل اليــوم بروليتارى ينتمى الى البروليتاريا . انه مجــــرد مدير مستخدم ، يعيش بمرتب أو بماهية مع نسبـــة مئوية لتشجيعه على العمل لحساب الاخرين بنفس الهمـــة والنشاط والجهد الذى كان يعمل به لحسابه الخاص . لقد كشفت الاختراعات العلمية عن طرق جـديدة لجمع الثروة ، طرق تستلزم اقامة منشآت هائلة الحجم تتكلف مبالغ أسطورية من رءوس الاموال . كان صاحب العمل القديم رجلا مهما جدا اذا كان فى وسعه ان يتحـــكم فى رأس مال قدره خمسة آلاف دولار . اما اليوم فالدولارات اللازمة لمجرد الشروع فى بعض المشروعات التجـــارية الكبرى تعد بمئات الملايين ، وصاحب العمل القديم عاجز كل العجز عن العثور عن مثل هذه المبالغ الجسيمة أو عن منع المشروعات التجارية الكبرى من ابتلاع المشروعات الصغيرة . وهكذا سقط صاحب العمل من عليائه ،وأصبح

لا حول له ولا قوة ، خاضعا لسلطان طبقة جديدة من الناس حرفتهم واختصاصهم أن يجمعوا له هـــذه الملايين من الدولارات : تلك هى طبقة الممولين . والممولون هم سادة الموقف وفرسان الحلبة فى الوقت الحاضر . انهم يديرون دفة بلادكم وهم فى هذا الوقت بالذات يدفعون بها نحـــو الهاوية ، ومع ذلك لازلتم تتركون لهم ادارتها

ولكى أقنعكم بمدى خطورة الموقف الذى تقفـه بلاد تسمح للممولين الفرديين أن يحكموها وأن يتحكموا فيها ، أرجو ان تسمحوا لى بأن أبين لكم أى طراز من الناس ذلك الممول . ان الممول هو النقيض المباشر لرجـــل الدولة . الممول يفكر دائما فى شخص واحد بمفرده عنده مبلغ من المال ، وما يمكن هذا الشخص أن يفعله بماله فى الوقت المناسب حسبما يشاء . ولكن رجل الدولة يضع دائما فى اعتباره ملايين الافراد سواء كان لديهم أموال أو ليس لديهم شىء ، وما يمكن أن يرغموا بقوة القانون على فعله كل يوم سواء شاءوا ذلك أم أبوه . هذه هى الطريقة التى ركبت بها عقلية الممول التى تسير وفقا لعادات ثابتة تجعله عاجزا عن ادراك وجهة نظر رجل الدولة الذى يتعـين عليه فى كل خطوة تشريعية يخطوها أن يقول لنفسه : «هذا شىء ينبغى على كل شخص فى البلاد غنيا كان أم فقيرا ـ أن يقوم به فى نفس الوقت ، لو أصدرت هذا القانون »

والان أقول ان هناك اشياء يستطيع شخص معين أن يقوم بها ، ولا يستطيعها كل شخص بصفة مطلقة . مثـــال ذلك : لنفرض انك تملك معاشا صغـــيرا ــ ولتبسيط الامر سأضع رقم ٥ دولارات فى السنة قيمة لهذا المعاش . وسوف تقول : أن معاش الدولارات الخمسة فى السنـة ليس بالشىء الكثير ، وأفضل عليه مبلغا كبـــيرا أفك به ضيقتى او ابدأ به مشروعا تجاريا صغيرا . وبناءعليه ، تذهب

الى الممول الذى تعرفه والمسمى سمسار بورصة وتقول له : « انظر يا فلان . أنا عندى ايراد ثابت مقداره خمسة دولارات فى السنة وأريد أن أجمع لنفسي مائة دولار نقدا. هل يمكنك أن تحصل لى على مائة دولار مقـــابل ايراد الخمسة دولارات فى السنة ؟ » وسيجيبك السمسار على الفور قائلا : « بكل تأكيد . المسألة سهلة تماما . كل ما على هو أن آتيك بشخص عنده مائة دولار فائضة على انفاقه ، ويريد مبادلتها بايراد خمسة دولارات فى السنة يضمها الى ايراده الثابت . لا شىء أسهل من ذلك . انها عملية تتم كل يوم »

وول ستريت والبورصات والاسواق المالية وماليها ، ليست أكثر من أسواق يتبادل فيها الناس ايرادات ثابتة بأموال جاهزة أو سائلة وبالطريقة التى شرحتها بالضبط. فائض النقود عند شخص ، يشترى له ايرادا اضافيـــا يضمه الى ايراده الثابت . . والايراد الثابت عند شخص آخر ، يشترى له مبلغا مجمدا من النقود السائلة أو الجاهزة للانفاق . أما الاغلبية الساحقة من الناس التى لا تملك ايرادات ثابتة تبيعها ولا أموالا جاهزة تستغنى عنها ، فلا أحد يعبأ بها على الاطلاق ...

وهكذا يكتسب الممول المحترف الذى يقوم بهذا النوع من الصفقات التجارية طول الوقت والذى تدرب عقله فى البورصات وصبت روحه فى قالب وول ستريت، يكتسب عادة ثابتة هى عادة الجلوس على مكتبه والامساك بقـلم وورقة ، ويضع رقما يمثل جميع موارد البلاد ويضربه فى عشرين . وهكذا ترون ان العملية تتم على هـذا النحو : فبالنسبة له ، كل شخص عنده خمسة دولارات فى السنة يساوى مائة دولار . وهو متأكد من صحة هذه المعـــادلة تماما لانه يعرف انه يستطيع فى أية لحظة أن يذهب الى

سوق المال وأن يجمع مائة دولار بمبادلتها بايراد خمسة دولارات فى السنة ، ويعرف أيضا أن حاصل ضرب خمسة فى عشرين يساوى مائة . وتلك هى المسألة كلها !

والان ، ماذا يحدث عندما تجعلون من رجال المال رجالا للدولة ؟ انهم يعتقدون ان أول واجباتهم هو معرفة مقدار الضرائب الذى يمكنكم أن تتحملوه . ولذلك ، عليهم أن يعرفوا مقدار الثروة التى تحت أيديكم ليفرضوا ضرائب عليها . وهكذا يصدرون امرهم الى احد الكتبة ليحسب لهم ثروة الولايات المتحدة برمتها . وفى الحال يستنتج الكاتب حساب ضريبة الدخل أى الايراد الاجمالى للبلاد كلها ، فيضربه فى عشرين ويقدم حاصل الضرب على انه الثروة الموجودة فى الولايات المتحدة ، اى الثروة المعدة لفرض الضرائب عليها . ولما كان رجل المال يفتقر الى عقلية رجل الدولة فهو ينسى دائما ان القانون اذا دفع جميع أصحاب الايرادات الثابتة الى بيع ايراداتهم فى نفس الوقت ، تحولت البورصة الى سوق يوجد فيه بائعون ولا يوجد مشترون ، وستصبح قيمة أموالهم وأوراقهم المالية « زيرو » فقط لا غير .. !

معنى هذا ان رجال المال يعيشون فى عالم الوهم . فهم يعتمدون على شىء وهمى يسمونه رأس مال البلاد ، وهو ماليس له وجود ، وكل خمسة دولارات يحسبونها مائة دولار ، ومعنى هذا ان كل رأسمالى وكل ممول وكل صاحب بنك وكل سمسار هو ٩٥ فى المائة مجنون . وأنتم الان ، وفى الواقع ، تتركون مصير بلادكم فى أيدى هؤلاء المجانين !

... أنتم تصفقون لى . ومع ذلك هذا هو ماتفعلونه ببلادكم الآن بالضبط . ان أول حرف فى الفباء العلم السياسى يقول لكم ان أول شىء يجب عليكم أن تفعلوه

للخروج من أزمتكم الحالية ، هو ان تؤمموا بنوككم . حسنا والله تفعلون ! لماذا لا تؤممونها الآن فورا ، بدلا من مجرد القعود والتصفيق لى ؟!

... ولا يفتأ رجال المال يدفعونكم دفعا للمخـــاطرة ويزجون بكم الى مجازفات رهيبـــة ، ستنتهى بتدميركم حتما ، لو أصررتم عليها . ولكن ، لا تلقوا باللوم على رجال المال . فهم مخلصون وشرفاء ووطنيون . انهم يصنعـــون هذا الصنيع بمشروعاتهم التجارية والمالية ، ويرون انهـــا طريقة ناجحة وفعالة . ويحسبون ـ قياسا على هذا ـ انها لو طبقت على مشروعات شخص آخر ، فلابد أن تنجح وأن تثمر . ولعل هذا يحفزكم بل يحتم عليكم ان تربوا سلالة من رجال الدولة ، ليحلوا محل رجال المال فى حكم بلادكم

ولأضرب لكم مثلا فريدا : لقد خضنا معا غمار حرب عالمية فى أوروبا . واقرضتم أوروبا نحو خمسة مليارات من الدولارات بضمان انجلترا . وماذا جنيتم نظير ذلك ؟ تدمير ثلاث امبراطوريات ، وحلول النظـــام الجمهورى الامريكى كنظام قومى نموذجى ، محل الحكومات الملكية فى اوروبا . ان معظم ملوك أوروبا الآن فى المنفى مطرودين وبقيتهم هم من تسمونهم ملوكا دستوريين ومعناه أنهـم ليسوا ملوكا على الاطلاق وبذلك يتمتعون فى عروشهـــم الوهمية بوقت طيب وبشعبية بين مواطنيهم تدخل السرور على قلوبهم . وانا أقول ان هذه الثمـرة التى جنيتموها نظير نقودكم ، كانت عادلة تماما . ولكن هناك أمرا آخر ، ستكون له أهمية أكبر من ذلك فى المستقبـــل : ذلك أنكم أنقذتم روسيا . واستنتج من تصفيقكم أننى وجدت على الاقل ، بعض الامريكيين الذين يعلمون أنهم أنقذوا روسيا

عندما سقطت القيصرية ، حاولت روسيا أن تجـرب شكل حكومتـكم فأقامت ماتسميه جمهورية بورجوازية .

ولكن البلاد كانت فى حاجة يائسة لاعادة بنائها . ولم تستطع الجمهورية البورجوازية أن تصنع شيئا الا أن تتكلم وتتكلم كالكونجرس تماما ، فسقطت بلا حول لها ولا قوة ، عندما قبض البلاشفة على زمام الموقف وفرضوا حكومة ايجابية حقيقية على بلادهم الحائرة . وكانت أمام البلاشفة مهمة مروعة تواجههم : روسيا بسكانها البالغ عددهم مائة وستون مليونا من الفلاحين الجهلة نصف المتوحشين الذين لا يعرفون شيئا عن التطور الصناعى العصرى ، ولا كيف يديرون الماكينات . كانت هناك قبل الحرب صناعة صغيرة ، ولكنها كانت كلها فى أيدى أفراد من الانجليز والبلجيكيين والايطاليين والالمان . ومع ذلك عندما اضطر الحكام الروس الجدد الى انقاذ هذا الحشد الهائل من السكان من المجاعة والجهل والتوحش والقذارة والعبودية ، تبينوا أن ذلك متعذر عليهم ، مالم يضعوا فى روسيا أسس صناعة الالات الحديثة بكل وسيلة ممكنة ولم يكونوا يعرفون كيف يحققون ذلك . أيتجهون — فى طلب التعليم والتدريب — الى مستغليهم السابقين من الانجليز والبلجيكيين والايطاليين والالمان ؟ كلا . وهكذا بومضة من ومضات الالهام اتجهوا الى امريكا .. وانقذتهم امريكا بفضل توجيه وارشاد وتعليم مهندسيكم الامريكيين الاكفاء . ولم يتملقهم المهندسون الامريكيون ، بل جاءوا وشاهدوا وقالوا لهم : « حالتكم تدعو الى الفزع . ومحاولاتكم لبناء صناعة آلية حديثة لا رأس لها ولا قدم ، هى مجرد فوضى مفجعة . ومن رابع المستحيلات أنكم ستخرجون يوما ما من هذه الفوضى . يمكننا أن نقول لكم ماذا عليكم أن تفعلوه ، وطريقة فعله . ولكن هل يستطيع فلاحوكم غير المدربين تنفيذ ما نشير به أم لا .. تلك مسألة أخرى » . وهكذا قال المهندسون

الامريكيون الاكفاء للروس . وأنا أعرف شخصيا الامريكى الذى حمل الى موسكو ذلك التقرير الذى يستوقف النظر جدا ، ويتضمن كافة المعلومات المطلوبة فى هذا الشأن . وقد مر هذا السيد بلندن وهو فى طريقه الى موسكو فوضع تقريره تحت أنظار بعض الخبراء الانجليز . وأضاف الخبراء الانجليز بعض المقترحات القيمة ، ولكنهم قالوا : « هل تظن أن الروس سيتحملون منك هذا التعريض وهذا الفضح لجهلهم وعدم كفايتهم ؟ اذهب وسلم لهم تقريرك ، وسوف يسلمونك للبوليس ليعبر بك الحدود فى اليوم التالى . لا شك سيمنعون هذا التقرير من التداول ، ولن يسمع به أى شخص بعد ذلك »

وهنا قال مواطنكم الامريكى الذى كان يمثل شركة أمريكية مقتدرة : « هذا لا يعنينى فى شىء . لقد دفع الروس ثمن كتابة التقرير ، وسوف نعطيه لهم ويمكنهم أن يفعلوا به ما يشاءون ، يمكنهم ان يمنعوا نشره وتداوله كما تفعل أية حكومة انجليزية أو امريكية فى مثل هذا الموقف ، ولكنهم على أية حال سيحصلون على البضاعة التى دفعوا ثمنها ، وسيحصلون على بضاعة جيدة »

وقد اخطأ الخبراء الانجليز . ففى خلال ثمان وأربعين ساعة من تسليم التقرير فى موسكو أمر الروس بطبع عشرة الاف نسخة منه ، وبتداولها على أوسع نطاق ، بل اخذت مكبرات الصوت التى ركبوها فى جميع أنحاء البلاد تصرخ مذيعة التعليمات والارشادات الواردة فى التقرير ، وتقول للعمال الروس بوجوب وقف كل تبديد وكل تعطيل وكل خطأ فى العمل ، وان عليهم ان يتعلموا كيف يديرون ماكيناتهم وكيف يعتنون بها . ودعى العمال الامريكيون الى روسيا ليعلموا العمال الروس فنون العمل فى المصانع ، ودعى المديرون الامريكيون ليعلموهم ادارة المصانع . والان

الامر بات كما تعرفون ـ فقد شمر الروس عن سواعدهم واجتازوا أزمتهم بالرغم من ان المعلمين الامريكيين قالوا ان من الصعب أن يتصور الانسان ان ذلك كان ممكنا فى تلك الظروف . وتلاحظون أيضا ان المنتجين الروس كانوا متحررين من ذلك الاحتكاك المروع الذى تولده المنافسة والذى يضيع علينا الكثير فى بلادنا حيث يتقاتل كل مدير مع الاخر من اجل الربح ، وحيث ينقسم كل مصنع على نفسه بسبب الصراع الطبقى . لقد شمر الروس عن سواعدهم واجتازوا أزمتهم لانهم شمروا عن سواعدهم معا واجتازوا أزمتهم معا . وكانت النتيجة أنهم أصبحوا الان احدى الدول الصناعية الكبرى فى العالم .. والفضل لامريكا ..

قد يقول بعضكم بصراحة : « هذا شىء يملأ نفوسنا غبطة ، على نحو ما . ولكن هل قصدنا بالضبط الى هذه النتيجة ؟ » أقول وربما كان الجواب على هذا السؤال هو بالنفى .. ولكن الا تكون البصيرة السياسية العمياء التى اعطيتم حقكم العادل منها ، هى التى حملتكم على ذلك من حيث لا تشعرون ، وأرشدتكم الى الصواب على الرغم منكم ؟ وعلى أية الأحوال ، فلقد ساعدتم فعلا على وضع اسس النظام الشيوعى فى روسيا . والان ، أقول لكم ان من المهم جدا لكم أن تستمر الشيوعية فى روسيا وأن تبقى . والا هل تدبرتم، أيها السيدات والسادة ، حالتكم وكيف تكون فيما لو عادت روسيا بكل مالديها من موارد والمكانيات جديدة .. لتصبح من جديد دولة رأسمالية استعمارية ؟

لقد كنا جميعا فى أيام شبابنا المبكر .. نخاف من روسيا خوف الموت . كنا نتحدث عن ارادة بطرس الاكبر كأنها

ارادة الله . ولقد صنع مستر رديارد كبلنج (١) شهرته كشاعر وطنى ، وبطل مكلل الهامة بالغار عندما هاجم فى شعره الدب الابيض الكبير وشنع عليه وصوره فى صورة القوة الغاشمة التى تهدف الى وضع مخالبها على الهند تمهيدا لوضع مخالبها على آسيا كلها ثم السيطرة على العالم بأسره . واني لاحب ان أسأل السادة المغفلين قصار النظر الى درجة خبيثة ، ممن يملئون الصحف الامريكية تشهيرا بروسيا ويرددون كل أنواع الاكاذيب السخيفة عنها ، زاعمين ان الشيوعية الروسية قد أفلست وأن الشعب الروسي يتضور جوعا ، أحب أن أسألهم ماذا تظنون أنكم فاعلون ؟ هل تريدون ان تعود القيصرية مرة أخرى ؟ وبصرف النظر عن قيصر او لا قيصر ، هل تريدون اقامة نظام رأسمالى روسى ينافس نظمنا الرأسمالية على الاسواق المتبقية لدينا ؟ هل تريدون أن تحفروا القبر الذى دفنت فيه الشيوعية ، الدب الابيض وتعيدوه الى الحياة بمخالبه الرهيبة بعد أن تضاعفت حدتها ورهبتها عشرات المرات ؟

ترى ماذا تكون النتيجة اذا مانجحت مساعى هؤلاء السادة المغفلين ؟ افرضوا انكم أطحتم بالمستر ستالين كما أطاح الحلفاء الملكيون بنابليون فى سنة ١٨١٥ واستبدلوا به دوقا أو أرشيدوقا من أسرة ملكية ، وحكومة من الدبلوماسيين«دقة قديمة»من المتعاونين مع أصحاب أملاك «دقة قديمة» والواقعين جميعا تحت سيطرة رأسماليين

---

(١) Rudyard Kipling ١٨٥٦ – ١٩٣٦ شاعر الاستعمار البريطانى الاكبر المتفنن بالامبراطورية وصاحب شعارات « عبء الرجل الابيض » و « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » ولعله لفرط حماسته، كان المؤذن على قرب خراب الاستعمار واضمحلال الامبراطورية الوشيك . وخاصة فى قصيدته Recessional

« دقة قديمة » ، ليقاتلوا معا فى سبيل أسواق جـديدة ـ ولكنهم فى هذه المرة سيقاتلون الجيش الاحمر الذى لايقهر، الجيش الذى أنشأه تروتسكى!.. ترى ماذا عليكم أن تفعلوا بعد ذلك ؟ سيكون عليكم أن تضاعفوا أسطولكم أربعـة أضعاف ، وأن تضاعفوا قواتكم الجوية ضعفين على الارجح، ومع ذلك لن ترى أعينكم النوم خوفا من الدب الابيض

ومن حسن حظ امريكا ، ان العناية الالهيـة مازالت ترمقها بعين العطف ، وجعلت من روسيا دولة شيوعية . وطالما بقيت روسيا دولة شيوعيـة ، فلن يكون لديكم ماتخشونه منها . ان الشيء الوحيد الذى هـو أولى بأن تقلقوا من أجله ، ليس ما يحدث فى روسيا ، بل مايحدث فى الصين وما سوف يحدث فى الصين . (١) وأنا آمل بكل اخلاص ـ لصالحكم ـ أن تسوى الصين مشاكلهاالمتناثرة وذلك بتعهد النواة الشيوعية الموجودة بها حاليا ، لتنمو وتكبر وتهيمن على رقعة بلادها بأسرها ، بحيث تصبح الصين وروسيا دولتين شيوعيتين قويتين.عندئذ يستطيع كل أمريكى أن يقعد تحت كرمته أو تحت شجرة التين فى حديقته دون ان يخشى شيئا. اذا انتم لم تستطيعوا تقدير الشيوعية الامريكية حق قدرها ، فلا أقل من أن تتعلموا كيف تقدرون الفائدة التى تعود على امريكا من تحول البلاد الاخرى الى الشيوعية . ولكم فقط أن تتصوروا الولايات المتحدة وأمامها من الدول الرأسمالية لا اليابان فقط ، بل روسيا أيضا كدولة رأسماليـة ، والصين كدولة رأسمالية ! أولى بكم ان ترتجفوا من هول الصورة (٢)

---

(١) كان شو فى سنة ١٩٣٣ يتنبأ بما سوف يحدث فى الصين فى سنة ١٩٦٤

(٢) اعترفت الولايات المتحدة رسميا بالاتحاد السوفييتى فى ذلك العام نفسه سنة ١٩٣٣ وكانت اخرالبلاد الرأسمالية التى اعترفت بها ، ومازالت الى اليوم ، لم تعترف بالصين

والآن ترى ما الذى ستفعلونه فى هذه الامور ؟ الا تشعرون وانا أقلب أمامكم هذه المسائل ظهرا لبطن ، انكم فى حاجة ماسة جدا الى أكاديمية للعلوم السياسية ؟ وانها يجب أن تكون أكاديمية امريكية وليست أكاديمية أوروبية « نصف عمر » ؟ منذ نحو خمسين سنة مضت ، وضعت أنا وبعض أصدقائى ، وكلهم بهذه المناسبة قد انتقلوا الى الدار الاخرة حاملين معهم ايمانهم الطيب وقدراتهم الوافرة ــ وضعنا أسس مايسمى بالاشتراكية الفابية فى انجلترا كاحدى العقائد السياسية ٠وكانت الاشتراكية الفابية من ألفها الى يائها عقيدة انجليزية خالصة ٠ عرفنا كل شىء عن فردينان لاسال وعن كارل ماركس وعن الاشتراكية الديمقراطية ، وعرفنا كل شىء عن فورييه (١) وبرودون وبلانكى (٢) فى فرنسا ، وعرفنا عن باكونين (٣) فى روسيا ٠ ولكننا عندما عرضنا نظامنا الاشتراكى الفابى على الجمهور الانجليزى لم ترد فيه كلمة واحدة عن كارل ماركس أو أى اشتراكى أجنبى آخر . لقد صنعت الاشتراكية الفابية من البداية الى النهاية وفقا للمخططات الانجليزية وبالفكر الانجليزى ، واستنادا الى الحقائق الانجليزية

وهأنذا أنصحكم ــ وأحضكم بقوة ــ عندما تتقدمون لتدعيم هذه الاكاديمية للعلم السياسى ، وللمساهمة فى

(١) C. Fourrier ١٧٧٢ ــ ١٨٣٧ الاشتراكى المثالى الفرنسى كان يتجه بفكره الى مجتمع زراعى بعيد عن الرأسمالية ولكنه فشل فى اقامة المستعمرات الزراعية التى كان يحلم بها

(٢) L. Blanqui ١٨٠٥ ــ ١٨٨١ الاشتراكى الفرنسى الثورى مؤلف كتاب « النقد الاجتماعى » وداعية مذهب الاقلية الواعية من الصفوة الذى أخذت عنه الحركة السندكالية ..

(٣) MC. Bakunin ١٨١٤ ــ ١٨٧٦ الزعيم الفوضوى الروسى الشهير خليفة برودون مؤسس المذهب الفوضوى

عملها الذى يتلخص فى صياغة دستور جديد للبـــلاد ، أنصحكم وأحضكم بقوة أن تجعلوه دستورا أمريكيا من الالف للياء · ولا تشغلوا آنفسكم بكارل ماركس · لقد كان كارل ماركس نبيا جبارا ، ومع ذلك تكاد جميع الاخطاء الادارية التى وقع فيها الشيوعيون فى روسيا ، ترجع الى تمسكهم بحرفية الاورثوذكسية الماركسية ، بينما ترجع سر نجاحهم العظيم بقيادة ستالين .. ان ستالين كان يتميز فى روسيا بأنه زعيم وطنى أولا وقبل كل شيء · ويقول ستالين : « لسوف أرسى دعائم الشـــيوعية فى روسيا ، وبذلك أقيم للشيوعيين نموذجا يحتذونه فى كل مكان · فاذا لم يشاءوا اتباع هذا النموذج ، فهـــذا شأنهم : ان روسيا بلاد شاسعة وكبيرة جدا ! وهى تكفينى وقد عولت على انقاذ روسيا تاركا البلاد الاخرى لتنقــذ نفسها بنفسها »

وكان محقا تماما فيما ذهب اليه · ونجح فى شق الطريق الذى رسمه لنفسه · وأرى أن عليكم فى أمريكا أن تلجأوا الى تلك البصيرة السياسية التى لمحتها فيكم وأن تصوغوا الدستور كله بأنفسكم ولانفسكم من واقع الحقائق الامريكية ، وبالفكر الامريكي، ووفقا للمخططات الامريكية، وذلك حتى تتمكنوا من تحويل الامريكى المائة فى المائة الى انسان أمريكى مائة فى المائة ، وليس هذا فقط ، بل الى رجل دولة مائة فى المائة .

والان أيها السيدات والسادة لابد أن تكون هناك نهاية لكل شيء ، حتى للخطب التى يلقيها برناردشو · ولم يعد لدى ما أضيفه الا أن أقول اننى جئت الى هنا لاســـدد دينا قديما على لامريكا · ففى شبابى كنت متمردا على العقيدة السلفية ، مناضلا من أجل العلم الحديث والفكر الحديث وتقدمهما فى الاتجاه المضاد للعقيدة السلفية : كما

كانت نفسى مليئة بحب التطور والاكتشافات الجديدة فى الطبيعة الفلكية والفنون الجميلة • ولكنى كنت لا أعرف شيئا عن الاسس الاقتصادية التى يقوم عليها المجتمع ولا عن أهميتها للتاريخ والعلم السياسى • كان العلم فى نظرى يقع برمته خارج دائرة السياسة ، ولم أكن أعرف أن هناك شيئا اسمه العلم السياسى • وذات ليلة ، ذهبت بمحض الصدفة الى قاعة للمحاضرات فى لندن • وهناك سمعت رجلا يخطب ، وقد حول خطابه مجرى حياتى كله • كان الرجل أمريكيا من سان فرنسسكو ، وهو هنرى جورج : وكان قد شاهد بعينيه مدنا على شاكلة سان فرنسسكو وهى تتولد من معسكرات ومخيمات ، فتنمو لتصبح مدنا غنية فاحشة الغنى ، ولاحظ أن الناس مع ازدياد الثراء ، كانوا يزدادون تعاسة وفقرا • وكانت السـياسة التى تسيطر عليهم ، فوضى لا خلاص لهم منها ـ وكان التقدم الامريكى فيما نسميه بمضمار الحضارة ـ مصحوبا بانخفاض مروع فى مستوى حياة عامة الشـعب • كان التقدم فى كل مكان معناه الفقر (١)

أقول ، ان هنرى جورج وضع قدمى على أول الطريق ، طريق الاقتصاد والعلم السـياسى • ولم ألبث أن قرأت كارل ماركس ومؤلفات جميع الاقتصاديين السياسيين فى ذلك الوقت ، ولكن هنرى جورج الامريكى كان هو الذى دفعنى الى ذلك • ولما كان ذلك هو بداية اهتمامى بالشئون العامة ، فقد حسبت أن من اللائق أن آتى الى أمريكا فى نهاية حياتى ، لارد لها شيئا من الدين الذى أدين لها به : وأعنى به شيئا من ذلك الدافع الذى دفعه هنرى جورج فى كيانى ••

---

(١) يشير الى كتـاب هنرى جورج : « التقدم والفقر »

ثم ان على لامريكا ديونا أخرى • كان الناس فى انجلترا بعد مرور سنوات على ذلك العهد ، فى حيرة من أمرى • ترى أى شخص أكون ؟ وسر هذه الحيرة اننى لم أقنع لنفسى بشهرة واحدة فى مجال واحد ، بل صنعت لنفسى نحو خمسين منها ، فى خمسين مجالا • والذين يعرفون شهرتى فى ناحية ، لا يعرفون شهرتى فى النواحى الاخرى بحيث بدأ برناردشو كما لو كان حزمة من أشـــخاص مختلفين • وهكذا بقيت شخصيته غير واضحة ولامفهومة الى أن جاء سيد أمريكى اخر هو أستاذ الرياضيات الذى أشرت اليه فى أول خطابى ، البروفسور أرشـــيبولد هندرسون ، فقدمنى الى الجمهور فى صورة كاملة وواضحة ومفهومة (١) • وكان وقع ذلك فى انجلترا مفيدا جدا لى ، وهنأت نفسى على أننى أصبحت موضوعا يشغل ذهن أحد علماء الرياضيات ويستمتع به • ونتيجة لذلك تشكلت فى شكل رياضى دقيق ، وأصبحت شخصا حقيقيا له أبعـــاد حقيقية ••

والان لعلكم أدركتم لماذا اخترت هذه الجمعية بالذات ، لاخطب فيها مفضلا اياها على ما عداها مع أن كل جمعية أخرى فى أمريكا تقريبا ، قد طلبت منى أن أخطب فيها ـ السبب هو أن هذه الجمعية ، جمعية أكاديمية العـــلوم السياسية ، هى أهم هيئة فى أمريكا اليوم • والعمل الذى تنهض به هو العمل الذى سينقذ أمريكا اذا كان ثمة شىء يمكن أن ينقذ أمريكا • ولن يمتد بى العمر لارى ثمرة هذا الانقاذ ، ولكنى آمل أن تكون نبوءتى عنها نبوءة صادقة غير كاذبة

---

(١) يشير الى مؤلفات هندرسون عن شو ••

شو وداروين

الداروينية وضبط النفس

زعمت الداروينيــة ان العــلاقة الحقيقيــة التى تقوم بيننا ، هى علاقة بين متنافسين فى صراع من أجل البقاء ، والبقاء فقط ، وان كل عمل من أعمال الرحمة والاخلاص والاخوة والروح الرفاقية القديمة ، هى محاولة عقيمــة وخبيثة لتخفيف حدة هذا الصراع وللابقــاء على الانواع الدنيئة من الكائنات الحية التى تبذل الطبيعة جهودها لاجتثاثها كما تجتث الاعشاب الضارة · وليت الامراقتصر على ذلك ! فحتى فى مجتمعات الاشتراكية التى لم توجد الا بهدف احلال قانون الاخوة والروح الرفاقية محــل قانون الخطف والمنافسة ، واحلال الحكمة والعناية الالهية محــل الاندفاع العنيف الاهوج من شفا جرف الى قاع البحر ، حتى فى تلك المجتمعات وجدت الناس يعتبروننى ملحدا عاطفيا جاهلا لاننى حيثمــا دعا دعاة الداروينيــة الجديدة لم أحاول قط أن أخفى عنهم احتقارى الفكرى لما فى مذهبهم من وحشية وفجاجة وبدائية عمياء ومنطق سطحى ، فضلا عن اشمئزازى الفطرى مما فيه من مجافاة بشعة للروح الانسانية والفطرة الانسانية

ولما لم يكن فى الداروينية مكان لارادة الانسان الحرة

أو لاى ارادة أخرى ، فقد زعم الداروينيون أن ليس هناك شيء اسمه ضبط النفس . ومهما زعموا فضبط النفس هو الصفة الاساسية الوحيدة التى تجعل للبقاء قيمة ، والتى يتحتم على قانون الانتخاب الخاضع للظروف أن يبنيها ويطورها بثبات واطراد على المدى الطويل . أما الصفات التى لا تخضع لضبط النفس ، فيمكن انتخابها لفترة محدودة أو فى ظروف معينة لتثبت صلاحيتها للبقاء والتطور . ولنضرب لذلك مثلا : هناك أناس يتصفون بالشراهة والتكالب على الطعام بلا ضابط ولا رابط ، هؤلاء الناس هم أنشط الناس سعيا وراء الطعام والشراب ، ومن ثم ففى فترات القحط ونقص المئونة سيزدادماعندهم من قوة ودهاء وحيلة بفضل نشاط مساعيهم ، غير أن أقصى ما يمكنهم أن يفعلوه لن يتسبب فى هلاكهم من كثرة الاكل بسبب ندرة الطعام اصلا . أما اذا تغيرت الاحوال وتوفر الزاد والطعام بكثرة ، فان هذا التغير كفيل بالقضاء عليهم من الافراط فى الاكل . ونلاحظ هذا كثيرا فى الرجل الفقير الذى كان يتمتع فى فقره بالصحة والعنفوان، فاذا أصبح مليونيرا بفضل احدى المصادفات أو بضربة من ضربات الحظ فى مجال التجارة الراسمالية المتنافسة ، اذا به يمضى من فوره فيلغ فى الاكل بشراهة حتى يحفر قبره بأسنانه . غير أن الرجل الذى يتمتع بضبط النفس ، يبقى ويعيش متغلبا على هذه التقلبات فى الظروف بتكييف نفسه معها ، فلا يأكل من الطعام أقصى ما يمكنه أن يأكله ، ولا أقل ما يمكنه أن يأكله ، بل الكمية الصالحة له لا غير . ما هو ضبط النفس ؟ انه ليس الا احساس حيوى على درجة عالية من الرقى والتطور ، يتولى السيطرة على الشهوات البدائية المجردة وتنظيمها . وقد تجاهل الداروينيون الجدد ــ تحت شعار الانتخاب الطبيعى ــ وجود هذا

الاحساس السامى الرائع ، وتجاوزوا عنه ولم يلتفتوا الى الدليل الواضح الذى يدل عليه وهو أنه الصفة الوحيدة التى يتميز بها الاصلح ليبقى • وبالاختصار اسقط الداروينيون من حسابهم أرقى واسمى قضية اخلاقية فى الوجود ، فكشفوا بذلك عما يعانونه من افتقار فى الالمام بالموضوع الذى يعالجونه من كافة نواحيه ، وهو عيب منهم يستحق الرثاء ، لقد فضحوا بأنفسهم عجزهم الغبى عن ملاحظة القوى التى تحرك الانتخاب الطبيعى نفسه ، وعليها يعتمد

نموذج من الهجاء اللاماركى الشوئى (١)

ولم يقع الفلاسفة « الحيويون » (٢) فى مثل هذه الاخطاء : فنيتشه مثلا وهو يفكر فى اكتشاف الحقيقة المركزية الكبرى لارادة القوة ، لم يشغل نفسه ببتر أذيال الفيران (٣) ، ولكنه لم يجد مشقة فى أن يستنتج ان الهدف النهائى لارادة القوة ، هو السيطرة على النفس ، أما الذين يسعون وراء القوة من أجل القوة ، ومن أجل السيطرة على الاخرين وعلى الممتلكات المادية ، فيقتفون أثرا كاذبا

وبانقراض الداروينيين الاوائل أشتدت حدة التشنيع بطبيعة الحال على خلفائهم • فقد كان لدى أولئك الرواد

(١) J.P. Lamaraue ١٧٤٤ — ١٨٢٩ العالم الطبيعى الفرنسى الذى سبق داروين بنظرية التطور « أول من قال ان البيئة تؤثر فى الوراثة وواضع قانون وراثة الصفات المكتسبة . وبسبب معارضة رجل الدين كوفييه ماتت نظريته فى المهد »

(٢) Vitalists

(٣) يشير شو هازئا الى البحاثة البيولوجيين الذين يجرون ابحاثهم فى المعمل على الحيوانات الحية

الاوائل ، أساس من الثقافة القديمة يبنون عليه نظريتهم وحججهم ، ولم يكونوا فى الواقع داروينيين بالمعنى العصرى للكلمة أكثر من داروين نفسه . كانت لهم هيبة القادم الجديد ودهشته ، فلما ذهب هكسلى (١) وتندال (٢) وسبنسر (٣) وداروين ذهبت معهم هيبتهم ودهشتنا ، وبقينا مع شخوص هزيلة قميئة ممن بدأوا بداروين ولم يأخذوا عن أحد آخر ، ومن ثم وجدتنى فى سنة ١٩٠٦ أطلق لغضبى العنان وأقذف الداروينيين الجدد (٤) بحمم من الهجاء المقذع فى العبارات التالية :

« الحق اننى لا أريد أن أكون سبابا ولا شتاما ، ولكننى كلما فكرت فى هؤلاء الاغبياء الصغار المساكين وهم يتشبثون تشبثا خطرا بناحية واحدة من نظرية التطور ، ناحية تستطيع الخنفساء السوداء أن تفهمها دون عناء ، ثم يحيطون أنفسهم ببطانة من الشخصيات التى لاتساوى قرشا ونصف من طراز توركيمادا (٥) ، وتجد لذة فى الواوغ فى الفظائع التى يلغ فيها مشرح الحيوانات الحية ، ويستعرضها أمامنا كأنها اكتشافات علمية تصنع التاريخ . انهم يعرضون أمامنا تجارب قاموا

---

(١) T. Huxley ١٨٢٥ – ١٨٩٥ عالم البيولوجى البريطانى ومن أكبر دعاةالداروينية : جد الدوس وجوليان هكسلى

(٢) Tyndall ١٨٢٠ – ١٨٩٣ الطبيب العالم البريطانى فى الطبيعة والبيولوجيا

(٣) H. Spencer ١٨٢٠ – ١٩٠٣ الفيلسوف البريطانى أهم مؤلفاته « المبادىء الاولى » ٣ أجزاء وكان فى بداية حياته من أنصار لامارك ثم أصبح داروينيا متعصبا وهو الذى صاغ عبارات : الصراع من أجل البقاء ، والبقاء للاصلح

(٤) Neo-Darwinians

(٥) Toranemada ١٤٢٠ – ١٤٩٨ أحد قضاة محاكم التفتيش فى أسبانيا : أعدم على يديه مابين ٢٠٠٠ ، ٨٨٠٠ متهم

بها لتثبت أن الكلاب تضعف ثم يصيبها الهزال ثم تموت اذا لم يقدم لها الطعام ، وأن الالم الشديد يجعل انفيران تتفصد عرقا ، وانك اذا بترت رجل كلب أنجب الكلب جروا له أربعة أرجل . وانى لاتساءل فيما بينى وبين نفسى : أى شعوذة تسلطت على الاذكياء والانسانيين بحيث جعلتهم يتأثرون بهذه الطغمة من الاوغاد والدجالين والنصابين والكذابين ، وبمن هم اسوأ من هؤلاء جميعا : من المغفلين السذج ذوى النيات الحسنة ؟ خير لنا ألف مرة أن يعود موسى وسبرجيون (١) (وهو واعظ مشـــهور فى ذلك الوقت) من جديد . وأنت على أى حال لا يمكنك أن تكون داروينيا جديدا فاهما لمذهبك ، بدون خيال ولا ميتافزيقا ولا وجدان ولا ضمير ولا شرف — لان قانون « الانتخاب الطبيعى » ليس له أى مدلول أخلاقى ، ما دام يتناول تلك الناحية من التطور التى ليس فيها هدف ولا غاية ولا ذكاء والتى قد يكون من الانسب أن تسمى : « بالانتخاب العرضى » او الانتخاب بالصدفة أو بما هو أفضل من ذلك : « الانتخاب غير الطبيعى » ، لانه ليس ثمة شىء أبعد عن الطبيعة وعن ما هو طبيعى من الصدفة والشىء العرضى . واذا أمكن اثبات أن الكون قد نشأ عن مثل هذا الانتخاب ، فلن يطيق البقاء فيه الا البلهاء والاوغاد »

الانسانيون ومشكلة الشر

ومع ذلك فقد سعد الانسانيون بالداروينية كما سعد

(١) C.H. Spurgeon ١٨٣٤ — ١٨٩٢ الواعظ البريطانى المعمدانى الكالفنى من أشهر وعاظ لندن واشتهر بفصاحة اللسان وقوة الحجة ولكن فى تأييد التعصب والتزمت والرجعية الفكرية . ويقصد بعودة موسى وسبرجيون عودة النزعة الارهابية التهديدية التى سادت « العهد القديم » كما أشار الى ذلك فى المختصر الدينى

بها أى شخص فى أول الامر ، بعد أن حيرتهم وبلبلتهم مشكلة الشر وقسوة الطبيعة • كان الانسانيون قوما من طراز شيللى ولكن غير ملحدين • فقد كانت حجة المؤمنين المبررة لمشكلة الشر وقسوة الطبيعة ، أضعف من حجة الملحدين بدرجة مروعة : فهم لم يستطيعوا انكار ما فى الطبيعة من حقائق قاسية لا يمكن أن تنسب الى الله والى ارادة الله ، فالايمان بالله مستحيل على أى شخص مفكر ، الا اذا آمن بالشيطان فى نفس الوقت وعلى قدم المساواة • ولا يصدق أحد فكرة الشـــيطان الذى تصوره اللوحات الفنية بقرنين وذيل كالحربة • ويتقلب فى جحيم مستعر من الحجارة الموقدة • ان الشيطان على هذه الصورة ليس الا عفريتا خياليا لا يؤمن أحد حقا بوجوده ، ولكن الشر المنسوب اليه ، شر حقيقى وواقعى جدا بما يكفى لاقناع أى شخص بوجوده وواقعيته • وهنا يقول الملاحدة ، ان صانع الشر اذا كان موجودا حقا ، لابد أن يكون قويا جدا بحيث يتمكن من التغلب على الله •• هذا والا كان الله مسئولا مسئولية اخلاقية عن كل شىء يسمح للشيطان بارتكابه •• وأيا كانت حقيقة هاتين النتيجتين ، فهى لا تعفينا من تلك الحقيقة الفظيعة الثابتة : وهى ان ما فى الطبيعة من قسوة ، هو من فعل فاعل شرير ومن تدبير ارادة شريرة ، ولا يمكن أن تنسجم مع البواعث التى تدفعنا نحو العدالة والرحمة ونحو حياة أفضل •

فما ان اكتشفت نظرية « الانتخاب الخاضع للظروف » ، حتى أعفينا تماما من مواجهة هذه الحقيقة الفظيعة ، لانها ليست الا وسيلة لاقناعنا بأن الفظائع والاهوال — وان كانت تحمل كل مظاهر التدبير المحكم والفعل المتعمـد بذكاء — ليست سوى مصادفات وحوادث عرضية ليس

لها أى دلالة أخلاقية على الاخلاق . افرض أن شخصا ما يراقبنا من النجوم ورأى حادثة مروعة تقع فى كوكبنا الارضى تسبب فى وقوعها قطاران مزدحمان بالركاب يسيران بأقصى سرعة ويصطدم أحدهما بالآخر . كيف يمكنك أن تقنع هذا المراقب المحايد ، بأن كارثة تقع بمثل هذا التدبير المحكم والتعمد الذكى والتخطيط العبقرى ، لم تكن مدبرة ومقصودة تماما ؟ ألا يستنتج منها على الفور أن عمال الاشارة أبالسة شياطين ؟

ان نظرية « الانتخاب الخاضع للظروف » هى غالبا نظرية مصادمات : أى أنها نظرية خاصة باثبات براءة الاعمال الشيطانية التى كثيرا ما تبدو فى ظاهرها مدبرة متعمدة ، وعلى هذا النحو أراح داروين بال الانسانيين راحة كبرى فضلا عن أن زودهم بمعرفة أوسع للحقائق : حقا انه قضى لهم على صفة الالوهية وهى القدرة على كل شىء والاحاطة بكل شىء ، ولكنه فى نفس الوقت أبرأ ذمة الله من تهمة قبيحة : تهمة القسوة . ولكن ارتياح الانسانيين كان ارتياحا سطحيا ، فالتأمل الجدى العميق جدير بأن يبين لهم أن هناك ما هو أسوأ من كل ما يمكن أن يتصوروه فى القوى الشيطانية : تلك الطغمة الغاشمة من القوى العمياء الصماء الخرساء التى لا قلب لها ولا شعور ولا ادراك ، تضرب كما تضرب العاصفة الشجرة فتطيح بها ، وتصيب كما تصيب الصاعقة فتفنى وتحرق . وبالرغم من وضوح ذلك ، فهو لم يخطر على بال الانسانيين الطيبين وقتئذ لان الناس عادة لا يفكرون بعمق وجدية وهم فى غمرة أول سعادة يحسون بها ، وخاصة اذا كانت سعادة الهرب والتخلص من موقف كريه لا يحتمل . ان مثلهم فى هذا ، كمثل

الحاج الذى وصفه بانيان (١) فى رحلته عندما لم يتمكن من رؤية كوة الباب ولا وهدة القنوط ولا القلعة التى يقطنها عملاق اليأس ، ولكنه رأى فقط النور المشرق فى نهاية الدرب ، ومن ثم انطلق نحوه فى سعادة وسرور ، وهكذا انطلق الانسانيون الطيبون فى ايمانهم بالتطور

وكانوا فى ذلك على حق: لان مشكلة الشر تنهزم بسهولة أمام التطور الخلاق . فاذا كانت القوة الدافعة للتطور — قوة قادرة على كل شيء أى ليس ثمة حد نهائى لانجازاتها — واذا كان لابد لهذه القوة من أن تناضل فى هذه الاثناء ضد المادة والظروف من خلال التجربة والخطأ — فلا شك أن الدنيا تكون مليئة بآثار تجاربها الفاشلة . ألم يكن من المحتمل ان يلقى المسيح وهو سائر فى طريقه نمرا مفترسا ، أو أن يتصارع رئيس الكهنة مع حاكم رومانى يدا بيد ؟ وفى مثل هذه الظروف الا ينطبق على الاثنين قانون البقاء للاسوأ لا للاصلح ؟ ان موزار قد رزق عبقرية تفوق مواهب الاباطرة وكبار الاساقفة، ولكنه ابتلى برئة عليلة تذبل وتنهار فى مسكن معتم كريه عطن الهواء . فاذا ما فسرنا جميع مصائبنا وكوارثنا بأنها أما مصادفات مجردة واما نتيجة لخطايا ارتكبناها وكفرنا عنها بإخلاص ، فلن تكون هناك مشكلة للشر فقط بمعناها الفيكتورى التقليدى . ان الفلسفة الدينية التى تعتنقها النسوة اللواتى تعلن لنا انهن انقلبن ملحدات كافرات فى اللحظة التى جلسن فيها الى جانب مهود اطفالهن يراقبن « يد الله » وهى تخنقهم خنقا بالدفتريا، تتبعها فلسفة اخرى اكثر تطورا هى فلسفة بلانكو

---

(١) John Bunyan ١٦٢٨ — ١٦٨٨ الكاتب الانجليزى صاحب رحلة الحاج Pilgrim's Progress « مترجمة »

بوسنت (١) الذى يقول : « عندما خلق الله الدفتريا ، وتلك أيام خالت فيما أحسب ، كانت الدفتريا هى أفضل شىء يمكنه أن يفكر فيه فى ذلك الوقت ، فلما اتضح على يديه أنها خطأ ، جعلك أنت وأنا ، نقاتل ونكافح الدفتريا من أجله »

كيف أن لمسة واحدة من داروين جعلت العالم كله أسرة واحدة

وثمة شىء آخر يثير اهتمام الانسانيين بالداروينية : ان داروين قام بمهمة اذاعة فكرة التطور ، وجعلها فكرة شعبية ، كما أنه أضاف اليها نصيبه الخاص فيها . والان تمد النظرية العامة للتطور ، صاحب النزعة الانسانية بأساس علمى يستند اليه فى نزعته ، لان التطور يؤكد ويثبت المساواة الأساسية بين جميع الاحياء ويجعل قتل الحيوان جريمة كجريمة قتل الانسان على السواء . قد يكون من الضرورى أحيانا قتل الناس كما قد يكون من الضرورى دائما قتل النمور المفترسة ، ولكن الفارق النظرى القديم بين عمليتى القتل ، قد أزاله التطور ومحاه . وعندما كنت طفلا صغيرا وقيل لى ان كلبتنا وببغاءنا — وكنت على علاقة حميمة بهما — ليسا مخلوقين مثلى ، وانما هما حيوانان أعجمان وانا انسان عاقل ، لم أصدق ما قيل لى ، ولم أكتف بذلك ، بل كونت لنفسى رأيا واعيا فى المسألة من أن التفرقة بيننا تفرقة زائفة ، فلما فضت لى مغاليق نظريات داروين لاول مرة ، قلت

(١) بطل مسرحية The Shewing-up of Blanco Posnet لبرنارد شو سنة ١٩١١ وهو يؤمن بما يؤمن به شو ، ان الله هو القوة الحيوية أو قوة التطور الخلاق

والحجة فى القول اننى اكتشفتها كلهــا بنفسى قبل أن أبلغ العــاشرة من عمــرى وانى الان واثق تمــاما من أن غرورى الصبياني كان له ما يبـــرره • وسبب ذلك أن الاحساس بالقربى بين جميع أشكال الحياة ، هو كل ما يلزم لجعل نظرية داروين نظرية مقبولة بل ليجعلهــا نظــرية ملهمة أيضــا • كان لدى القديس انطونيــو (١) استعداد ناضج لقبول نظرية التطور وهو يعظ الاسماك فى البحر ، وكذلك القــديس فرانسيس وهو يطلق على الطير اسم أصدقائه الصغار • اننا مصابون بالغرور لاننا نعتبر فكرة الربوبية لونا من الوان التمايز الطبقى العلوى كفكرة الملكية الارضية ، ولم نعتبرها الصــــخرة التى نشيد فوقها صرح المساواة • وقد أدى بنا هــذا الغرور الى التشبث بالفكرة التى تقول ان الله منحنا امتيازات خاصة عندما جعلنا فى معزل عن بقية مخلوقاته ، ورفعنا فوقهم درجة • فجاء التطور وانتزع منا الغرور • والان قد نقتل برغوثا دون أقل شعور بالتدم ، ومع ذلك نعلم على أية حال •• اننا قتلنا أحد أبناء عمومتنا • ولا شك أن مما يصدم شعور البرغوث وهو سيد المخلوقات النطاطة أن يرى المخلوق الاخر الذى خلقــه له البرغوث الاكبر خصيصا ، وعلى عجل ، ليكون مصدرا لطعام البراغيث ، يراه يسحقه بوحشية ويقضى عليه بظفر ابهــامه الحــاد الهائل • ولكن ليس ثمة برغوث يتوفر لديه من الحماقة ما يجعله يقف بين البراغيث ليعظهم ويقول ان الانســان عندما يفتك بالبراغيث انمــا يطبق أسـلوب الانتخــاب

---

(١) St. Antony ٢٥٠ - ٣٥٠ م • أول راهب مسيحى يولد فى مصر الوسطى • وقد اعتكف فى دير ميمون بالقرب من الفيوم ، ثم ترهب فى صحراء سينا حيث يقوم الى الان دير مار انطونيوس ويعد أبا الرهبان المسيحيين • كان يكلم الحيوانات ويتوهم الاوهام

الطبيعى الذى سيتولد منه فى النهاية برغوث أسرع حركة وأعلى قفزة بحيث لا يستطيع أى انسان أن يمسك به ، وأقوى بنية وأصلب عودا بحيث لا يؤثر فيه أى مسحوق مبيد للحشرات أكثر مما يؤثر الاستركنيين فى الفيل ..

لماذا أرضى داروين الاشتراكيين ؟

لم يقف الانسانيون وحدهم بين المرحبين المتحمسين لداروين : فقد كان من حسن حظه أنه أرضى كل شخص فى نفسه غرض يخفيه . تحمس لداروين العسكريون دعاة الحرب كما تحمس له الانسانيون دعاة الرحمة والسلام ، وتحمس له الاشتراكيون كما تحمس له الرأسماليون . ومما حمس الاشتراكيين بصفة خاصة ، اصرار داروين على ابراز اهمية الوسط والبيئة . ربما كانت أقوى حجة أخلاقية تستند اليها الرأسمالية هو ايمانها بقوة تأثير الاستقامة الفردية والخلق الفردى القويم . فجاء روبرت أوين (١) ليبذل جهودا يائسة ليقنع انجلترا بأن من فيها من المجرمين والمنحرفين والسكيرين ، وغوغاء جاهلين أغبياء ، هم ضحايا الظروف والبيئة واننا لو أقمنا عالما أخلاقيا جديدا كالذى يحلم به لوجدنا أن الجماهير التى تولد فيه ستنشأ متعلمة تنتشر بينها الاخلاق الفاضلة لان المجتمع المتعلم تسود فيه الاخلاق الفاضلة . ويمكن العثور على الرد على ذلك فى كتاب حياة جوته للويس (٢) . كان لويس يحتقر

(١) Robert Owen ١٧٧١ – ١٨٥٨ الاشتراكى الانجليزى المثالى . صاحب كتاب العالم الاخلاقى الجديد

(٢) G.H. Lewes ١٨١٧ – ١٨٧٧ ناقد وكاتب وصحفى انجليزى وهو زوج الكاتبة جورج اليوت واعظم مؤلفاته Biographie of Boethe : ترجمة حياة جوته

فكرة تحكم الظروف فى الشخصية الانسانية ، وأشار الى تباين الشخصيات فى الطبقة الحاكمة الغنية ليثبت دعواه . فليس ثمة تشابه فى الظروف يمكن أن يكون أكثر جمودا من الظروف التى ينشأ فيها أبناء النبلاء الاقطاعيين الانجليز المولودين فى القصور الريفية الانجليزية : فهم يرسلون اولا الى ايتون أوهارو ومنها الى أوكسفورد أو كامبردج حيث تتشكل عقولهم وعاداتهم فى قوالب ثابتة جامدة . ومن شأن هذا الروتين الجامد أن يقضى على الفردية اذا كان لأى روتين أن يقضى عليها. ومع ذلك فالافراد لا يخرجون منه مختلفين اختلاف بت (١) عن فوكس (٢) ولورد راسل (٣) عن لورد كيرزون (٤) ومستر ونستون تشرشل عن لورد روبرت سيسيل (٥) . كما أن رأى لامارك فى التطور قد عزز به أهمية العامل الوراثى فى شخصية الفرد باعتباره العامل الحاسم الذى يقرر مصيره ومستقبله : فلو أمكن للزرافة أن تطيل عنقها اذا ما أرادت أن تطيله وحاولت ذلك

(١) W. Pitt ١٧٥٩ – ١٨٠٦ كان رئيسا لوزارة بريطانيا وعمره ٢٥ سنة وكان من كبار الاستعماريين ومن خصوم الثورتين الامريكية والفرنسية . ومن أنصار حرية التجارة

(٢) C.J. Fox ١٧٤٩ – ١٨٠٦ من مشاهير الساسة البريطانيين ومن خصوم وليم بت وكان من كبار مؤيدى الثورة الفرنسية وواضع أسس اللبرالية البريطانية

(٣) J.Russel ١٧٩٢ – ١٨٧٨ من زعماء حركة الاصلاح السياسى فى بريطانيا . له الفضل فى صدور قانون الاصلاح سنة ١٨٣٠

(٤) G.N. Curzon ١٨٥٩ – ١٩٢٥ أحد كبار الاستعماريين البريطانيين ونائب الملك فى الهند ووزير فى وزارة الحرب برياسة لويد جورج سنة ١٩١٦ . شعار أسرته :

Let Curzon hold, what Curzon had

(٥) R. Cecil ١٨٦٤ – السياسى البريطانى المحافظ وداعية التعاون الدولى . وضع مع وودرو ويلسون والجنرال سمطس مشروع عصبة الامم ، نال جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٣٧

فالرجل يمكنه أن ينمي شخصيته بالطريقة نفسها . أن المثل القديم الذى يقول « حيثما وجدت الارادة وجدت الوسيلة » يبلور نظرية لامارك فى التكيف الوظيفي ويلخصها فى عبارة واحدة . ويشعر ذوو العقول القوية بشدة أن هذه النظرية تعد قاعدة أخلاقية ، أما ذوو العقول الضعيفة فيشعرون نحوها بشىء من الورع الدينى المطمئن . وهكذا ليس ثمة رد يرد به على الاشتراكيين أقوى من أن يقال لهم اذهبوا وأصلحوا أنفسكم قبل أن تدعوا اصلاح المجتمع . فاذا كنت غنيا فلن يتضاعف سرورك بغناك ، اكثر من ان تشعر فيما بينك وبين نفسك أن ثروتك قد جاءتك بفضل مالك من شخصية متفوقة ! ولقد حولت الثورة الصناعية كثيرا من البلداء الجشعين الى أثرياء فاحشى الثراء ، لم يكن هناك ما هو أشد اذلالا لهم واقلاقا لراحتهم من أن تقول لهم ان هطول الذهب فى جيوبهم صدفة محضة ، كهطول الثلج على مظلاتهم ، وأنه سقط على الظالمين والعادلين على السواء . وليس هناك ما هو أشد اطراء لهم وتعزيزا لجانبهم من أن تقول انهم أثرياء لانهم فاضلون

اما الان ، فقد اكتسحت الداروينية هذه الأوهام المتعلقة بالاستقامة الفردية وطهرت الدنيا منها . بل فعلت ما هو أكثر من مساندة حجة روبرت أوين عندما اكتشفت أن للبيئة التى يعيش فيها الكائن الحى تأثيرا فعالا وقويا ، وكان ذلك أكبر مما ادعاه روبرت أوين فى يوم من الايام . ونهضت لتؤكد أن المشردين الآفاقين يتولدون من البؤر السكنية القذرة لا بسبب الخطيئة الاولى : وأن البغايا والعاهرات يتولدن من أجور الكفاف والجوع لا من عهر أو بغاء كامن فى الانثى ! لقد ألقت الداروينية بحجة العلم القوية فى جانب الاشتراكيين

الذين قالوا ان الشخص الذى يريد اصلاح نفسه عليه أن يصلح المجتمع أولا ، ثم أكدت الداروينية أننا اذا كنا نريد فى مجتمعنا مواطنين أصحاء موسرين لابد لنا من مدن وقرى صحية موسرة ، وأن هذه لن توجد الا فى أوطان صحية موسرة . ويمكننا أن نخرج من هذا بالحكم على ذلك الطراز من الشخصيات التى لا تبالى بصالح جيرانها ما دامت شهواتها مشبعة ورغباتها مترعة ، بأنه طراز من الشر مخرب ومدمر وهدام ، وأما ذلك الطراز من الشخصيات التى تهتم اهتماما عميقا بالبيئة التى يعيشون فيها ، فهو الطراز الوحيد من الناس الذين يمكن احتمالهم والابقاء عليهم فى مجتمع دائم الازدهار والرخاء. ثم بينت الداروينية أن التغيرات المدهشة التى احدثها روبرت أوين فى اطفال المصانع عندما غير ظروفهم ، هى ظواهر لا تثير دهشتنا فى هذه الايام ولا تعد شيئا الى جانب التغييرات التى يحدثها الوسط والبيئة لا فى عادات وسلوك الافراد فقط بل فى الانواع نفسها وليس فى الانواع فقط بل فى القبائل أيضا . ومن الواضح أن هذه التغييرات تفعل فعلها فى الافراد الذين لا شخصية لهم ولا يتمتعون بشىء من الادراك والوعى الفكرى . لا عجب بعد هذا ان يستقبل الاشتراكيون داروين بأذرع مفتوحة

داروين وكارل ماركس

ثم ان للاشتراكيين نبيهم الخاص المؤمن بالتطور ، وقد فضح هذا النبى مدرسة منشستر (١) وقضى القضاء المبرم على ما كان لها من اعتبار ، كما فضح داروين أسطورة جنة عدن وقضى على ما كان لها من اعتبار .

---

(١) مدرسة الاقتصاديين الانجليز فى أربعينيات القرن الماضى أصحاب مذهب حرية التجارة

أعلن ماركس فى بيانه الشيوعى الصادر فى سنة ١٨٤٨ (والذى يتمتع الآن فى روسيا بقداسة الكتاب المنزل) أن الحضارة كائن عضوى يتولد عن طريق « الانتخاب الخاضع للظروف » ، ونشر المجلد الاول من كتابه رأس المال فى سنة ١٨٦٧ عندما كانت هناك ثورة قائمة ضد عبادة الاصنام الموروثة ، وصاحبتها ثورة أخرى على التقاليد التى كانت محترمة فى ذلك الوقت تقاليد البارونات الاقطاعيين القراصنة وكذلك على نفاق البورجوازيين وجشعهم ونفختهم الكذابة وتجردهم من الانسانية بعد أن أفسدهم تماما ايمانهم بمعنى شيطانى للنجاح وهو انه جمع وتكديس للارباح . فما أن بين ماركس أن علاقة البورجوازيين بالمجتمع هى علاقة لاأخلاقية هدامة ، وأن صديريات قمصانهم المنشاة البيضاء ، تخفى وراءها أبشع المظالم وأحط السرقات حتى أصبح النبى الملهم فى عين كل انسان شريف بلغته رسالته أو وصل اليه كتابه . لقد قال وأثبت كل ما أراد الشرفاء أن يقولوه وأن يثبتوه ، ورفضوا أن يستمعوا الى أى قول يقال ضده . أما الان فلم يعد ماركس معصوما بأى حال : واذا ما تتبع المرء آراءه الاقتصادية بدقة ، وجد أن نصفها مستعار من غيره ونصفها الاخر حصل عليه من «منازلهم» أى باجتهاده كما يفعل أى كاتب هاو ، وأنها ليست بالاراء ولا بالابحاث الاقتصادية الملائمة حتى للاشتراكية . أما نظريته عن الحضارة فقد عرضت من قبل فى كتاب « باركل وتاريخ الحضارة »(١) وهو كتاب له فى عقول قرائه ما لكتاب رأس المال من مكانة

(١) H. Burkle ١٨٢١ - ١٨٦٢ المؤرخ الانجليزى صاحب كتاب تاريخ الحضارة فى انجلترا فى جزءين . وهو صاحب نظرية المناخ وتأثيره فى الحضارة

تاريخية . وفى الجزء الاول من رأس المـــال ــ وهو الجزء المقروء من الكتاب على نطاق واسع ــ لا نجد شـــيئا عن الاشـــتراكية فلكل ما فيه من ملاحظـــات عن العمـــــال والرأسماليين يدل على أن ماركس لم يستنشق قط هواء المصانع ، وأنه بحث عن الاسانيد والحجج لرســـالته فى داخل الكتب الزرقاء فى مكتبة المتحف البريطانى . واذا قورن بداروين بدا شخصـــا ليست لديه أى قـــدرة على الملاحظة ، فليس فى رأس المـــال حقيقة واحدة لم تؤخذ ولم تنقل من كتـــاب ، وليس فيه قضـــية لم يبدأ غيره اثارتها أو بحثهـــا . ولكن ماركس على أية حال فضـــح البورجوازية وقضى على هيبتها وعلى سمعتها الاخلاقية قضاء مبرما . وكان فى ذلك الكفاية وفوق الكفاية : فقد أمسك ــ كداروين ــ بالدنيا من خطامها فضـــلا عن أنه أحرز ما لم يحرزه داروين وهو اتصـــافه بحقد لا يعرف الرحمة وبموهبة اليهود الادبية وبطاقات رهيبة من المقت والهجاء والسخرية اللاذعة ، أى بجميع الصفات المريرة التى تنشأ فى وقت مبكر فى أى شاب عبقرى نال حظـــا من التدليل فى صـــغره (كان ماركس الطفـــل المدلل فى أسرة ميسورة الحال) وعانى الكثير من الكبت والاضطهاد فى نظام اجتماعى لا ينسجم معه أى انسجام ، ثم عانى النفى والتشريد والفقر المدقع فيما بعـــد . وهكذا عثر ماركس وداروين فيما بينهما على صنمين تربطهما علاقة وثيقة ، وأصبح كل منهما بذلك ، نبيا لدين جديد

لماذا أرضى داروين الاستغلاليين أيضا ؟

ولكن كيف بداروين وقد نجح الى هـــذا الحـــد مع الاشتراكيين ينجح مع الرأسماليين أيضـــا ؟ فليس من

السهل الاستفادة من كلا العالمين اذا كان أحدهما يدعو الى حرب الطبقات بينما يزاولها الاخر بعنف وضراوة ؟ وتفسير ذلك أن الداروينية ارتبطت مع الرأسمالية بعلاقة وثيقة لدرجة أن ماركس اعتبرها نتاجا اقتصاديا أكثر منها نظرية بيولوجية . واقتبس داروين فكرته الرئيسية الخاصة بضغط السكان على موارد المعيشة المتوفرة ، من بحث كتبه مالتوس (١) عن تعداد السكان كما جاء بفكرته الاخرى القائلة بضرورة انقضاء زمن لا نهاية له تقريبا لكى يحدث فيه هذا الضغط تأثيره ، جاء بها من الجيولوجى «ليل» الذى استطاع أن يقضى تماما على الرأى الذى دعا به كبير الاساقفة « أشر » عندما قدر عمر الارض من نصوص الانجيل بأنه ٤٠٠٤ سنة قبل الميلاد تضاف اليها سنوات ما بعد الميلاد . أما بحوث الاقتصاديين من أنتاج ريكاردو الخاصة بقانون تناقص الغلة والذى لم يكن سوى ترجمة مدرسة منشستر لنظرية الزراعة والاشجار ، فقد كانت موضوع مناقشات عنيفة جدا عندما كان داروين شابا فى مقتبل العمر . والحق ان اكتشاف الاثار الاقتصادية لقانون « الانتخاب التجارى » فى الاراضى ومواقع البناء على يد الفسيوقراطيين الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، وكذلك اكتشاف قانون التنافس على خبز الكفاف على يد مالتوس الذى أرجعه الى ضغط السكان على وسائل البقاء المتوفرة ، هذه المكتشفات قد نقلت العلم السياسى

---

(١) T.R. Malthus ١٧٦٦–١٨٣٤ الاقتصادى البريطانى . صاحب « مبدأ تعداد السكان كما يؤثر فى مستقبل تحسين الجنس البشرى » وفيه يقول أن السكان يزيدون بأكثر من زيادة الموارد الغذائية المتوفرة . وأن الحرب والفقر والمجاعات والرذيلة كفيلة بانقاص تعداد السكان . ومن ثم فالاجور لابد أن تهبط الى حد الكفاف لتحد من زيادة السكان ...

الى ذلك الجو المختنق الكاتم للانفاس ، جو القدرية الكئيب ، والقدرية هى الآفة المميزة للداروينية . وقبل أن ينشر داروين سطرا واحدا من مؤلفاته بوقت طويل ، كان الاقتصاديون من أتباع ريكاردو ومالتوس ينادون بشعار صندوق الأجور الجبرى ويؤكدون للعمال أن الحركة النقابية تحد لا جدوى منه لقوانين الاقتصاد السياسى الجبرية المحتومة التى لا مناص منها ، وهذا يشبه تماما ما يؤكده الداروينيون فى وقتنا هذا من أن تشريع منع الخمور هو تحد لا جدوى منه لقانون الانتخاب الطبيعى ، وأن الطريقة الحقيقية لعلاج الادمان على الخمر هى اغراق البلاد فى الخمور الرخيصة « الجن » وترك الاصلح ليبقى . وبعد فان الكوبدنية (١) ليست سوى التخلى عن التجارة للانتخاب الخاضع للظروف

من الصعب أن نبالغ فى أهمية الدعاية السياسية والدينية الواسعة النطاق ، التى مهدت الطريق تمهيدا منظما للداروينية وأحاطتها بالجو الاخلاقى الخاص بها . فلم يحدث قط فى التاريخ ــ على حسب علمنا ــ أن بذلت مثل هذه الجهود الحازمة المدعمة بالاموال السخية والمنظمة سياسيا بدقة ، لاقناع الجنس البشرى بأن كل تقدم وازدهار وخلاص سواء للافراد أم للجماعات ، انما يعتمد على الصراع الذى لا ضابط له من أجل الطعام والمال ، ويعتمد على ابادة القوى للضعيف ، ويعتمد على مبدأ التجارة الحرة والعقد الحر والمنافسة الحرة والحرية الطبيعية وشعار .. دعه يعمل .. وبالاختصار يعتمد على مبدأ تحطيم الخصم وسحقه وافلاسه بكل

---

(١) نسبة الى كوبدن المتعصب لمذهب حرية التجارة .

وسيلة فاجرة فى حيز الامكان ، وعلى أن كل تدخل من جانب الحكومة الموجهة وكل تنظيم يتجاوز تنظيم البوليس ليتولى حماية عمليــــات النصب والاحتيال المشروعة من عدوان المعتدين ، وكل محــاولة لوضـــع هدف انسانى وخطة انسانية وجو انسانى فى المجال الصناعى ، يعتبر عملا موجها ضد قوانين الاقتصاد السياسى الجبرية التى لا يمكن تغييرها . بل أن البروليتــاريا نفســـها كانت متعاطفة مع هذا الاتجاه ، مع أن الحرية الرأسمالية كانت تعنى بالنسبة لهم عبودية الاجر الخالية من أى ضمانات مشروعة كان العبيد يتمتعون بها فى ســـوق النخاسة . كان الناس قد ملوا الحكومات والملوك والكهنة المتسلطين باسم العناية الالهية ، وأرادوا أن يعرفوا بأنفسهم كيف تدبر الطبيعة الامور اذا ما تركت وشأنها . وقد عرفوا ذلك بعد أن دفعوا الثمن غاليــا فى تلك الايام التى كانت لانكشاير تستهلك فيها تسعة أجيال من العمـــال عبيـــد الاجر فى جيل واحد من سادتهم الرأســـماليين . غير أن ســـادتهم ازدادوا ثراء فوق ثراء ، ومن ثم كانوا راضين عن الاوضاع كل الرضا ، وأثبت باستيات (١) بالحجج المقنعة أن الطبيعة رتبت « الهارمونيات الاقتصـــادية » التى ستتولى حل المشــكلات الاجتمـاعية بأفضــل مما يستطيعه الثيوقراطيون والارستقراطيون والغوغائيون ، فان الحـــكمة الالهيـــة deux ex machina هي البلوتوقراطية المطلقـــة « حـــكم الاغنيـــاء المطلق » التى لا ضابط لها

---

(١) F. Bastiat ١٨٠١ - ١٩٥٠ الاقتصادى الفرنسى مؤلف كتاب Harmonies of Political Economy يؤيد فيه بشدة حرية التجارة Laissez-faire والفردية الاقتصادية

شو ودأروين
التطور في المسرح

على خشبة المسرح (وهنا أصل فى نهاية المطاف الى الدور الذى ألعبه أنا شخصيا فى المسألة) عملت الكوميديا كفن هدام ساخر وناقد وسلبى ، على ابقاء المسرح مفتوح الابواب بعد أن ماتت التراجيديا الرفيعة . فمنذ موليير الى أوسكار وايلد مر بنا طابور من الكتاب المسرحيين الكوميديين الذين وان لم يكن لديهم شىء ايجابى يقولونه لنا بصفة أساسية فقد كانوا على الاقل فى حالة تمرد وثورة على الزيف والخداع ، ولم يكونوا كما زعموا يعملون على تطهير أخلاقنا بالسخرية فقط ، بل كانوا كما قال جونسون يعملون على تطهير عقولنا من الحذلقة ، فنراهم لدى وقوع أى خطأ ، يبدون أمارات القلق وعدم الارتياح وهذا أوثق دليل على الحيوية الذهنية . وفى تلك الاثناء انتحلت اسم التراجيديا وادعته لنفسها مسرحيات يقتل فيها كل شخص فى الفصل الاخير تماما كما انتحلت اسم الكوميديا المسرحيات التى يتزوج فيها كل شخص فى الفصل الاخير رغم انف موليير . جوهر القول أن من غير

الممكن وضع تراجيديات أو كوميديات باتباع وصفة مكتوبة تعين اللحظات الاخيرة فى الفصل الاخير . فلم يؤلف شكسبير هاملت من مجزرتها الختامية ، ولا الليلة الثانية عشرة من زواجها الختامي . ولم يسع شكسبير أن يصور تصويرا واعيا تعاليم وأفكار دين من الاديان أو فلسفة من الفلسفات لانه لم يكن له دين واع ولا فلسفة واعية . وعلى ذلك كان لابد له من ممارسة مواهبه وملكاته الفطرية غير العادية ـ في ذلك الفن المسلى الممتع : فن التقليد والمحاكاة ويمنحنا ظاهرة « رسم أبعاد الشخصية » (١) وهى الظاهرة التى جعلت تمثيلياته بهيجة وممتعة كروايات سكوت وديماس وديكنز . كما انه عمل على تطوير ذلك الفن العجيب المثير للدهشة ، فن تشييد ملجأ لنا من اليأس بوضع قناع من الدعابات على قساوات الطبيعة . ومع ذلك ، ومع كل ماله من مواهب ، فلازالت حقيقة أمر شكسبير قائمة ثابتة وهى أنه لم يجد الالهام قط ، ليكتب مسرحية واحدة ذات اصالة . لقد أعاد كتابة تمثيليات قديمة واقتبس للمسرح قصصا شعبية وفصولا من التاريخ من كتاب هولنشيد (٢) : كرونيكلز ومن تراجم بلوتارك . وقد فعل هذا (أو لم يفعله لان الفن كالمعادلة الجبرية فيه كميات سالبة) بجرأة تثبت أن حرفته أوسع بكثير من ذمته وضميره . حقا انه لم ينقل أبدا شخصياته من القصة المستعارة نقلا حرفيا ، وسبب ذلك أنه كان يلقى فى اعادة خلقها من جديد مشقة أقل ومتعة أكبر مما لو نقلها نقل مسطرة ، ومع ذلك نراه يقتبس من القصة المستعارة

---

(١) Delineation of character

(٢) R. Holinshed مات سنة ١٥٨٠ مؤلف Chronicles of England Scotland and Ireland وقد اخذ منها كتاب المسرح الاليزابثى قصصهم ومنها اخذ شكسبير قصص : ماكبث ـ لير ـ ومعظم سيمبلين

كل مافيها من جرائم وشرور ليكدسها بلا تحفظ أو تحرز فوق شخصياته المرهفة ومخلوقاته اللطيفة مهمـــا كان ذلك منفرا وكريها وخاليا من كل انسجام . وكانت حاجته الحيوية الملحة لفلسفة مايؤمن بها ، تدفعه وتستحثه طوال الوقت للبحث عن فلسفة خاصة به بطريقــة المحترفين العجيبة : طريقة ادخال الفلاسفة والحكماء كشخصـيات فى مسرحياته ، وأحيانا يجعل من أبطاله أنفسهم فلاسفة وحكماء : ولكنهم عندما يمشون على خشبة المسرح ، اذا بهم صفر اليدين بلا فلسفة يعرضونها وليسوا أكثر من شخوص متشائمة هجاءة سليطة اللسان . أما خطبهم الفلسفية المزعومة التى يقفون أحيانا ليلقوها على مسامع المتفرجين مثل خطبة : عصور الانسان السبعة (١) ومثل مناجاة الانتحار (٢) ، فتبين مدى عمق الظلمات التى كان شكسبير يتخبط فيها بالنسبة للفلسفة ومعناها ومفهومه عنها . لقد فرض شكسبير نفسه بالقوة ليعد من بين أعظم كتاب المسرحية بدون أن يتخطى قدمه ولو مرة واحدة ـ حدود الارض التى تتجلى فيهـــــا عظمة ميكل آنجلو وبيتهوفن وجوته وشعراء المسرح الاثينى انقديم . ولقد كان جديرا بألا يحظى بأى نصيب من العظمة على الاطلاق مالم يتوفر لديه قدر من العقيدة الدينية يجعله يدرك أن واقعه اللادينى واقع يأس وقنوط .. ومسرحية الملك لير التى تشمخ على سواها ، يمكن أن تكون ميلودراما عادية لا أكثر مالم تعترف بشكل قاطع أنه اذا لم يـكن هنــاك مايقال عن الكون أكثر مما قاله عنه هاملت لكنا « عنـــد

(١) فى مسرحية « كما تهواه » الفصل الثانى المنظر السابع ، والتى يصف فيها الدنيا بأنها مسرح والناس بأنهم ممثلون

(٢) فى مسرحية « هاملت » الفصل الثالث المنظـــر الاول . والتى يبدأها بأن تكون أو لا تكون ، تلك هى المشكلة . ويقول فيهـــا ان الضمير يجعلنا جبناء

الالهة كالذباب عنــد الصبية العــابثين : يقتلوننا فى ألعابهم. » (١)

وظل كتاب المسرح من عهد شـكسبير ، يناضـلون مناضلة ضد نفس الظاهرة ، ظاهرة الافتقار الى دين يدينون به أو فلسفة يؤمنون بها ، فاضطر الكثيرون منهم أن يكونوا مجرد قوادين وتجار ملذات وشهرة ، ومهمـا ارتفعت مطامحهم عن ذلك المستوى ، فلم يجدواموضوعات يعالجونها أفضل مما كانوا منغمسين فيه فعلا . لقـد أصيبوا جميعاً ابتداء من كونجريف (٢) الى شريدان (٣) بالعقم الشديد على الرغم من لباقتهم فى استخدامالالفاظ بحيث أنهم مجتمعين لم يستطيعوا أن ينجزوا مايضارع انتاج موليير وحده . كانوا كلهم يخجلون من حرفتهـم (ولم يكن ذلك بغير مبرر قوى) ويفضلون أن يعتبرهم الناس مجرد فتيان عصريين يمارسون هواية ماجنـة فاجرة . كان جولد سميث (٤) صاحب النفس القوية الوحيدة التى نجت من هذه البؤرة الفاسدة التىاختلط حابلها بنابلها

ثم عمد أئمة الكتاب المعاصرون لى (والذين أصبحوا الان مخضرمين) الى المشاكل الاجتماعيـة الصـغيرة فخطفوها خطفا ، وجعلوها هدفا يهديهم . أبعد من هدف كسب المال والشهرة . وقد أعرب لى أحدهم عن احساسه بالغيرة من كتـاب المسرح الاغريقيين ، لان الاثينيين لم

---

(١) فى مسرحية « الملك لير » الفصل الرابع المنظر الاول

(٢) W. Congrave ١٦٧٩ — ١٧٢٩ المـؤلف المسرحى الكوميدى المشهور بحسن الصنعة أهم مسرحياته Love for love

(٣) R. Sheridan ١٧٥١ — ١٨١٦ أهم مسرحياته The Rivals - School for Scandals

(٤) O. Goldsmith ١٧٣٠ — ١٧٧٤ صاحب مسرحية She Stoops to Conquer

يكونوا يطلبون منهم « أقنعـــــة جـــديدة » لنصف دستة من الافـــكار ، هى كل ما يدور حولهــــا المسرح الحديث ، بل كانوا يطلبون منهم تقـــــديم أعظم الدروس وأبلغ العبر التى يمكنهم استخلاصــــها من الاساطير الشعبية المألوفة والمقدسة فى بلادهم . قال : « لماذا لا نكتب جميعنا مسرحيات مثل الكترا وانتيجون وأجا ممنون (١) ، ونبين ما فى استطاعتنا أن نفعله بها ؟» ولكنه لم يكتب واحدة منها لان هذه الاساطير القديمة لم تعد لها الصفة الدينية المقـــدسة : لقا ماتت أفروديت وآرتيميس وبوسيدون (٢) ،وأصبحن أشـــد موتا من تماثيلهن . ثمة كاتب آخر يحتل مركزا قياديا ، يجد فى متناول يده ـ بل عند أطراف أنامله ـ كل حيـــلة معروفة من الحيل « الفارس » البريطانيـــة والدراما الباريسية ، ولكنه لم يستطع فى نهاية الامر أن يـــكتب حرفا بدون أن يلقى موعظة دينية ، ومع ذلك لم يعثر لمواعظه على نصوص اعمق مما فى البيوريتانية المزيفـــة من آيات النفاق أو مما فى المضاربات على الزواج التى تجعل ممثلاتنا الشابات حريصات على سـمعتهن حرصهن على نضارة بشرتهن . وهناك كاتب ثالث أرق قلبا من أن يكسر خاطرنا بعرض الحقيقة عن أية تجربة مريرة ، فجعـــل يداعب عواطفنا بالشوق واللهو والمتعة مخترعا ذلك كله من أرض السحاب الخرافية التى تقع بينه وبين السماء الفارغة . أما عملاقا المسرح فى عصرنا هذا، وهما ابسن(٣)

(١) الكترا ابنة اجا ممنون وانتيجون ابنة اوديب من أمه ، وكلهم من أعظم الشخصيات التراجيدية فى الاساطير اليونانية

(٢) الهة الجمال والعفة والبحر على التوالى

(٣) H. Ibsen ١٨٢٨ ـ ١٩٠٦ أشـــهر كتاب المسرح النرويجيين وزعيم المدرسة الواقعية فى المسرح العالمى ترجمت معظم مسرحياته الى العربية

وسترندبرج (١) فلا يجدان في عالمنا من الراحة والعزاء والسلوى أكثر مما نجده نحن – بل الحق يقال ان مايجدانه من ذلك أقل بكثير جدا مما نجده – لانهما أنكرا علينا ذلك العزاء الشكسبيرى – الديكنزى الذى يمنحه لنا الضحك من الشر والسخرية بالقسوة ، وهو عزاء يمكن أن يسمى بدقة : العزاء المضحك ، أو العزاء الكوميدى . ثم يأتى بعدنا خلفاؤنا المتحررون فاذا بهم يحتقروننا احتقارا وهم محقون فى ذلك تماما . ولكنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا أفضل مما فعلناه مادامت الدراما باقية حيث هي ، فى مرحلة ماقبل التطور . وليتأملوا جوته – ذلك الاستثناء الفذ من القاعدة : لم يكن جوته بأثرى ولا أخصب من شكسبير أو ابسن أو سترندبرج فى الموهبة الدرامية ، ومع ذلك كان يقف عاليا وفى أعلى عليين بينما يعض خلفاؤنا المتحررون على نواجذهم فى الوحل ، فى سخط عقيم ، أو على أحسن الاحوال يجدون لذى صفراوية فى السخرية بمحنتهم . ان جوتة يقف بين آلهة الاوليمب : أما العمالقة الاخرون فهم أبالسة جهنميون فى كل شيء الا فى تحريهم الصدق دائما ، وفى استنكارهم للكفر السائد فى عصرهم ، ومعنى ذلك أنهم ممروورون يائسون . والمسألة ليست مسألة تواريخ فقط . فلقد كان جوته مؤمنا بالتطور فى سنة ١٨٣٠ ، ولا زال كثير من كتاب المسرح فى سنة ١٩٢٠ ، من صغار السن منهم ، لم تمسسهم بعد يد التطور الخلاق . ولقد « تدرون » ابسن لدرجة أنه استغل قوانين الوراثة على المسرح بنفس الوفرة التى كان كتاب

---

(١) A. Strindberg ١٨٤٩ – ١٩١٢ أشهر كتاب المسرح السويديين أهم أعماله الاب . مس جولي « مترجمتان » والطريق الي دمشق . ورقصة الموت

المسرح الاثينيون القدماء يستغلون بها ربات اليومينيدس(١) وان لم يكن فى مسرحياته اى أثر يدل على معرفة أو ايمان بالتطور الخلاق كحقيقة علمية عصرية . حقا ان طموحه الشعرى واضح وضوحا كافيا ، فى مسرحية «الامبراطور والجاليلى » ، غير أن احدى مميزات ابسن الفائقة ان العلم كان هو الشيء الصحيح الوحيد فى نظره : ثم انه ترك وراءه تلك النبوءة الخاصة بالمستقبل ، والتى كان عرافه الرومانى يسميها « الامبراطورية الثالثة » ـ كحلم طوبوى مثالى عندما استقر به الحال وبدأ يعالج الحقائق الواقعية معالجة جادة فى مسرحياته التالية التى تعالج الحياة العصرية والتى غزا بها أوروبا وقهرها ، وحطم بها النوافذ المتربة فى كل مسرح متعفن نخره السوس فى جميع أرجاء أوروبا من موسكو الى منشستر

الدور الذى لعبته فى المشكلة

فى أثناء عملى ككاتب مسرحى ، تبينت أن هذه الاوضاع لايمكن أن تطاق أو يصبر عليها . كان المسرح العصرى (المتمشى مع الموضة) يقدم وصفة جادة واحدة كعلاج لهذه الاوضاع : أن يتناول موضوع الخيانة الزوجية . مع أنه أشد الموضوعات املالا عند الكاتب الجاد ، مهما كان رأى الجمهور فيه ، الجمهور الذى يطالع أخبار النشاط الذى يقوم به رجال المباحث ويضرب صفحا عن المقالات والافتتاحيات . وهكذا جربت أن أعالج موضوعات ملكية أراضى القسس السكنية ، ومذهب حرية الحرب (الابسنية الكاذبة) ، والبغاء والروح العسكرية والزواج والتاريخ ومشاكل السياسة اليومية والمسيحية «الطبيعية»

---

(١) Eumenides أو الفيوريز ، آلهة الغضب والانتقام والحسد فى الاساطير اليونانية

والشخصية القومية والشخصية الفردية ومتناقضات المجتمع التقليدى ، واصطياد الازواج ومشاكل الضمير ، والمهن ومايكتنفها من أوهام وغش واحتيال ... وكانت كل هذه الموضوعات مصوغة فى سلسلة من مسرحيات السلوك الكوميدية على الطريقة الكلاسيكية التى لم تعد فى وقتها شائعة ولا مألوفة ، لان الحيل الميكانيكية « للبناء الدرامي » الباريسي كانت أمرا لازما ومحتما de rigueur فى المسرح • غير أن هذا وان ملأ فراغى ، وثبت ودعم مكانتى فى مجال المهنة ، الا أنه لم يجعلنى الفنان المصور لدين العصر الذى أعيش فيه ، وهو الشرط الذى يحقق وظيفتى الطبيعية كفنان . كنت على وعى تام بهذه الحقيقة ، لاننى كنت على علم تام وبصفة دائمة ، أن الدين بالنسبة للحضارة هى مسألة حياة أو موت . وفى الوقت الذى كانت فيه فكرة التطور الخلاق تنمو وتنضج اكتشفت أننا أصبحنا أخيرا قاب قوسين أو أدنى من التوصل الى دين جديد يحتوى على أول شرط فى جميع الاديان التى سيطرت فى يوم من الايام على وجدان الانسانية ، هذا الشرط هو أنه يجب أن يكون أولا وأساسا ميتابيولوجيا (١) • وكان هذا الاكتشاف نقطة تحول حاسمة بالنسبة لى ، لاننى لاحظت أن ظاهرة عبادة الانجيل أى اعتباره طلسما له قوة سحرية ، تصمد فى وجه كل النيران التى أطلقتها عليها المدفعية العقلانية التى سلطها عليها هيوم (٢) وفولتير ومن اليهما ، ثم لاحظت بعد ذلك أنها انهارت أمام هجمات المؤمنين بنظرية التطور مع أنهم أقل من أولئك موهبة ومقدرة ، ولم يكن ذلك لشىء

---

(١) Metabiology أو ما وراء البيولوجيا على غرار ماوراء الطبيعة أو الميتافيزيقا

(٢) D. Hume

الا لان الداورينيين فضحوا عبادة الانجيل واعتبروه سحرا مقدسا ، ومن ثم قضوا على الثقة فيه كوثيقة بيولوجية وكمرجع علمي . ومنذ تلك اللحظة فقد الانجيل مواقعه واحدا بعد اخر ، وزالت سيطرته على وجدان الناس

أما أنا ، فقد كانت روح القرن الثامن عشر الايرلندية تتسلط على وتجعل من المستحيل أن أومن بشيء أو أن أصدق أى شيء مالم أفهمه بعقلى كنظرية علمية بالرغم من كل ماكان سائدا فى معسكر العلم وأنصار العلم من دجل بشع وغش وخزعبلات ومنكرات ومطامع وأوهام بلهاء ، وبالرغم مما كان لدى تجار العلاج والعلماء المزيفين من اكاذيب مكشوفة ومزاعم كهنوتية يبثونها فى دأب واصرار فى عقول أبنائنا فى « التعليم الثانوى » الحديث لدرجة اننى كنت اجدنى فى بعض الاحيان مكرها على وضع تعريف محدد يميز بين العلم والمعرفة حتى لا أضلل قرائى . ولكننى لم أنس قط أن الحكمة نفسها — بدون المعرفة — قد تكون أشد خطرا من الجهل الانتهازى الصرف ، وأنه لابد لنا من شخص يتقدم ويمد يده الى جنة عدن ليطهرها من الاعشاب الضارة كما ينبغى أن تطهر ..

وعلى هذا الاساس عالجت فى سنة ١٩٠١ أسطورة دون جوان فى شكلها الموزارى (١) وجعلتها رمزا دراميا للتطور الخلاق . ولكن لما كنت فى ذلك الوقت فى ذروة موهبتى الكوميدية الخلاقة ، فقد بالغت مبالغة شديدة فى زخرفتها وتزويقها ببذخ كبير واحطت الاسطورة بكوميديا طويلة ، لم تشكل الاسطورة منها الا فصلا واحدا

---

(١) نسبة الى موزار واوبراه الخالدة « دون جيوفانى » المؤلفة حول أسطورة دون جوان

وكان ذلك الفصل قصة قائمة بذاتها « جاء على هيئة حلم لا يؤثر فى حركة المسرحية»(١) بحيث يمكن انتزاع الكوميديا وتخليصها منه ، وتمثيلها قائمة بذاتها . والواقع أنه كان من الصعب عرض المسرحية كما هي بالكامل نظرا لطولها الهائل مع أن هذه المعجزة قد تحققت مرات معـــدودة فى اسكتلندا على يد مستر بيرس الذى كان يقبض بيديه على ناصية أمل ضائع من آمال الدراما التقدمية فى ذلك الحين • كما اننى زودت المسرحية المطبوعة باطار مؤثر يتألف من مقدمة ومن تذييل سميته «مفكرة الثورى» ، ومن عـــرض ختـــامى من الحكم والامثـــــال أطلقتهـــا مفرقعة كما تطلق الالعاب النارية . وكان لذلك وقع شديد فيما يبدو ، أدار رءوس الناس لدرجة أن أحدا منهم لم ينتبه الى الدين الجديد الذى وضـــعته فى مركز الدوامة الذهنية فى المسرحية . والان ، هأنذا أقرر أننى لم أقفز تلك القفزة الذهنيـة هكذا فى الهواء ولمجرد المغالاة والتهور وسوء التقدير . لقد فعلت ما فعلت لان من أسوأ التقاليد التى التزم بها النقد المسرحى الشائع فى ذلك الوقت، الا يكون للجدية الذهنية او للرصانة الفكرية محل على خشـــبة المسرح ، وان المسرح ليس الا مكانا للتسلية الضحلة ، وأن الناس يذهبون الى المسرح للترويح عن أنفسهم بعد المجهود الهائل الذى يبذلونه طوال اليوم فى المدينة . وبالاختصار ، كان الكاتب المسرحى مجرد شخص كل وظيفته ان يصوغ من العواطف الرخيصة ، حلوى رخيصة غير صحية ليبيعها للناس . وكان ردى على هذا ، أن جمعت كل ما لدى من بضاعة ذهنية ووضعتها فى « فترينة » الدكان ، وعليها لافتة : « الانسان الاعلى » . وقد نجح هذا الجانب من

(١) الفصل الثالث من مسرحية الانسان والانسان الاعلى

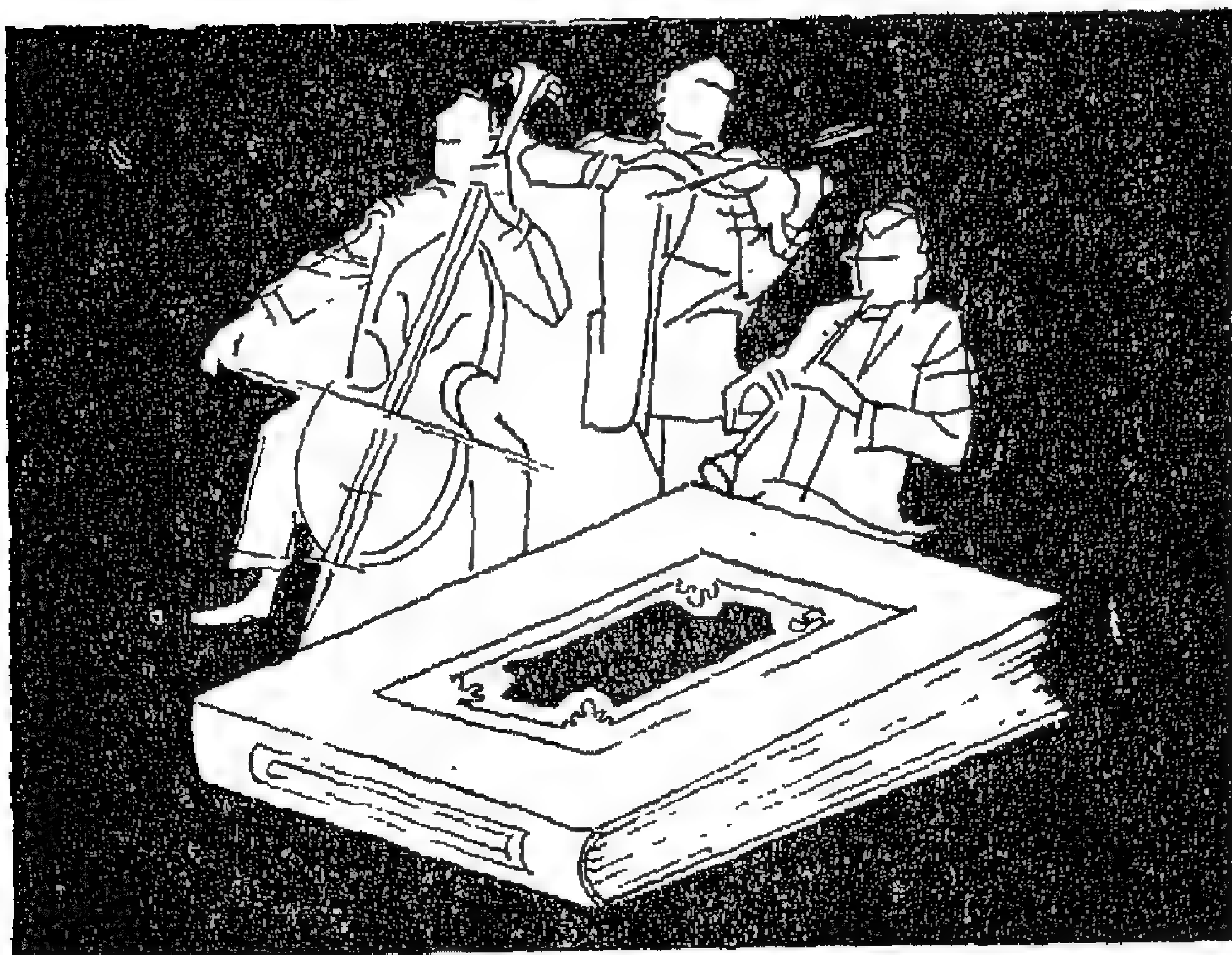
خطتي فى أداء الغرض منه . وكللت الكوميديا بالنصر على خشبة المسرح بفضل حسن الحظ والتمثيل الجيد ، كما كانت المسرحية المطبوعة محل جدل طويل . ومنذ ذلك التاريخ ، لم تقم قائمة للرأى القائل بأن المسرح دكان لبيع الحلوى الرخيصة ، ولم يعد له أى وزن أو اعتبار

والان هانذا اراني ملهما لان اصوغ من نظرية التطور الخلاق أسطورة ثانية وفى هذه المرة بدون شطحات أو مبالغات أو زواق ، بينما تتسرب رمال عمرى من ساعة حياتى الزمنة ، وبينما تهرم وتشيخ خصوبة سنة ١٩٠١ فتتحول الى مهاترة شيخ طاعن فى السن فى سنة ١٩٢١ ثم كانت الحرب بمثابة التحذير الصارم بأن المسألة ليست من المسائل التى تحمل على محمل العبث والاستهتار . واذا بى اتخلى عن أسطورة دون جوان بملابساتها الجنسية، وأعود من جديد الى أسطورة جنة عدن . وعمدت الى استغلال اهتمام الناس الابدى بحجر الفلاسفة الذى يمكنهم من الخلود والعيش الى الابد . وآمل ألا أكون قد وقعت تحت تأثير وهم كبير ، أكبر مما لابد ان يتصوره اى انسان، بالنسبة لما شرعت فيه من وضع انجيل للتطور الخلاق ، وما فى ذلك المشروع من بدائية وفجاجة . ولكنى أبذل جهد الاستطاعة فى مثل سنى، فقواى ومواهبى تحبو وتتضاءل، وتلك بشرى سارة للذين ضاقت صدورهم بعبقريتى والمعيتى عندما كنت فى زهرة العمر وعنفوان الشباب . ويحدونى الامل فى ان مائة اخرى من المسرحيات الدينية الاسطورية ، أرشق من أسطورتى هذه وأكثر مطابقة لمقتضى الحال ، تدبجها أيد أكثر شبابا من يدى ، سوف تسبق مسرحيتى على الطريق وتتركها وراءها بشوط طويل ..

بهذا الامل أعلن انسحابى وأعطى اشارة لرفع الستار

الفصل الثالث

- تولستوى - تراجيدى أم كوميدى؟.
- نيتشة - أداء فريضة الشيطان.
- بيتهوفن.
- شووفاجنر - كنز الراين



تولستوى ـ تراجيدى أم كوميدى ؟

ترى هل كان تولستوى تراجيديا أم كوميديا ؟ التعريف الشائع للتراجيديا هى الدراما الثقيلة التى يقتل فيها كل شخص فى الفصل الاخير ، والكوميديا هى الدراما التى يتزوج فيها كل شخص فى الفصل الاخير . والتعريف الكلاسيكى للتراجيديا أنها دراما تطهر الروح عن طريق الرحمة والرهبة ، والكوميديا دراما تطهر الاخلاق بالسخرية . هذه التعريفات الكلاسيكية التى يمثلها اسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس مقابل اريستوفان فى المسرح الاغريقى القديم ، ويمثلها كورنيل وراسين مقابل موليير فى المسرح الفرنسى ، مازالت أفضل التعريفات التى يستطيع الناقد أن يعمل بموجبها الى حد كبير . غير أن المدرسة البريطانية طالما شنعت على المدرسة الكلاسيكية وعلى الذوق الفرنسى وتحدتهما ، فلم يكن ثمة شيء يمنع الكاتب المسرحى الانجليزى من مزج الكوميديا بالتراجيديا ، بل من مزج التهريج بالتراجيديا : فالابله فى الملك لير

(*) مادة خطاب مرتجل القاه شو بمناسبة احياء ذكرى تولستوى فى قاعة كنجزواى فى لندن ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢١ . انترناشيونال مجازين نيويورك سنة ١٩٢١

« تراجيدى » . ولم يستطع شكسبير أن يخرج البواب من « ماكبث » ولا المهرج من « أنطونيو وكليوباطرة » ولا أمل ولا رجاء فى اصلاحنا فى هذا الشأن ، فهو عيب ميئوس منه تماما . وليت الامر يقتصر على هذا ، بل نحن قد نرى فى ذلك مزية وفضلا كبيرا

علينا اذن أن نتعرف على نوع ثالث من الدراما ونتمعن فيه : هو يبدأ كتراجيديا تتخللها شذرات من الفكاهة مثل « ماكبث » ، وينتهى ككوميديا خالية من أى فكاهة ، بعد أن احتلت مكان الفكاهة فيها سخرية انتقادية مريرة الى حد ما . ولا تسمى نتيجة هذا المزيج ميلودراما لان اصطلاح الميلودراما ، أصبح يعنى الدراما التى تعمل فيها الموسيقى المصاحبة للتمثيل على ابراز العواطف والانفعالات البدائية . ثم ان هنا منذ البداية نوع جديد حقا من الدراما ليس فيه اتحاد للعناصر المختلفة ، وان كان فيه تقارب صريح بين الفكاهة والفزع فى التراجيديا ، وبين الثقل والخفة فى الكوميديا ، فأمامك ماكبث وعدو البشر (١) ودون جوان (٢) والعبرة بالخواتيم (٣) وترويلوس وكريسيدا (٤) ، وكلها مسرحيات لا تنتمى فى نظر أرسطو وفولتير الى أى من النوعين ولا تخضع لقاعدة واحدة او كما يقال لا هى سمك ولا لبن ولا تمر هندى

وفى انجلترا ، عندما اغتالت الرقابة الدراما الجادة وأجهزت عليها واضطر كتاب الدراما الى التعبير عن أنفسهم بالرواية ، أصبح الخليط أشد خروجا على القواعد ، وانحرافا عن القوانين مما كان فى أى يوم مضى .

---

(١) misanthrope كوميديا موليير الخالدة
(٢) Le festin de Pierre لموليير
(٣) All is well that ends well لشكسبير
(٤) لشكسبير

وقد عالج هذا اللون من الرواية فيدلنج (١) ثم بلغ أوجه في ديكنز وأن كانت مبالغات ديكنز جديرة بأن يوضع لها حد لو انه اضطر لاخضاع شخصياته الروائية مثل ميكاوبر ومسز ويلفرس موضع الاختبار على خشبة المسرح ، وعندئذ كان حريا بأن يتبين على الفور أن الادوار التي تقوم بها ليست الا مجرد نكتة واحدة تلقى مرارا وتكرارا ، وانها تفتقر الى الموهبة التي تخلق وتطور المادة التي تتألف منها الحركة المسرحية . ولو دخل ديكنز باب المسرح لاضطر لان يبدع شخصيات أفضل من الخالة ساليز . وبعد ديكنز لا يسع المرء أن يفكر في أي كاتب عظيم أنتج ذلك الخليط المختلط أو « السلطة » من الكوميديا والتراجيديا الا أناتول فرانس (٢) . وأناتول فرانس في هذا الصدد ، شخص لا رجاء فيه هو الاخر حتى في أثناء أشد محاولاته الفنية جدية لملاحظة مظاهر الحياة وهارمونيات الفن وتسجيلها في ترجمته الذاتية : « بيير الصغير » ، فاذا به ينهار ويخوض في فصول من التهريج الجامح « ولك فقط ان تتأمل شخصية الخادم ريدجون والشخصيات الشابلينية سيمون نانتواد البابيجابي » ثم يخجل من نفسه ويرعوى ليعود الى قصة حياته الحقيقية بعد أن أدرك انه فقد كل حق له في الوقوف موقف الشهادة أمام القضاء ، وبيده «بيير الصغير» باعتبارها الحق كل الحق ولا شيء غير الحق ، وليكن

---

(١) H. Fedling ١٧٠٧ – ١٧٥٤ مؤلف رواية « توم جونز » احدى روائع الادب الانجليزي . وقد اتجه الى الرواية لتعنت الرقابة المفروضة على المسرح في أيامه

(٢) Anatole France ١٨٤٤ – ١٩٢٤ الكاتب الفرنسي الساخر وصديق شو . صاحب « جريمة سلفسربونار » وتاييس « مترجمة » وثورة الملائكة « مترجمة » والالهة غبرثى « مترجمة » و « التاريخ المعاصر »

روسو فى عونه !(١) وأناتول فرانس فى جانبه الكوميدى هو ديكنز الفرنسي متنكرا خلف قناع من الثقافة الواسعة، ونرى فى احدى قصصه الاولى جوكاست ابا البطلة شخصية كوميدية ديكنزية كاملة .. بل لعلها اكمل وأكثر تناسقا مما استطاع ديكنز نفسه أن يصوره من الشخصيات على الورق على الاطلاق

وبعد ديكنز ، استكملت الكوميديا تطورها فى نوع جديد سمى تراجيكوميديا بحسب المحاولات التى بذلت لوضع تعريف له • لقد ظلت التراجيديا الرفيعة حيث هى منذ البداية لم تتطور قط : فهى اما فشلت فى تحقيق الغرض منها ولم يعد فيها من التراجيديا شىء واما توقفت حيث كانت ولم يشعر أحد بحاجة تدفعه الى المضى بها الى أبعد مما وصلت اليه أيام الاغريق . كانت الحاجة الوحيدة التى شعر الناس بها ، هى حاجتهم الى الترويح عن أنفسهم ، الى أن يطلقوا من صدورهم تنهدة الارتياح ، وهكذا فعلى الرغم من بقاء التراجيديا على حالها السابق ابتداء من اسخيلوس الى ريتشارد فاجنر (وهو آخر الشعراء التراجيديين العظام فى أوروبا) فان ظاهرة الاستعانة بوقت من الفكاهة أو « بساعة حظ » ـ وهى ظاهرة نقرنها دائما بشكسبير ـ قد سادت وتفشت وتغلبت حتى على اسخيلوس ، فقد خلقت خفراء كوميديين خافوا من الذهاب لنجدة أجاممنون ، وتظاهروا بأن ليس ثمة شىء يحدث ، وهذه الظاهرة نفسها تغلبت على أحسن انتاج فيكتور هوجو عندما سقط بطله دون سيزار دى بازان متدحرجا من المدخنة •غير أن التراجيديا ظلت بصفة أساسية متربعة على قمتها العالية ، بسيطة لم تشبها شائبة ، بطولية

---

(١) مشيرا الى العبارة التقليدية التى يرددها الشاهد فى المحاكم الغربية مقسما على الكتاب المقدس ومستعينا بالله

المضمون ابتداء من سوفوكليس الى فردى

ولم يكن هذا شأن الكوميديا . فعندما أفسحت «زوجات وندسور المرحات » (١) الطريق لمسرحية « الزواج على الطريقة العصرية » (٢) ، وأفسح روميو الطريق لهاملت وبانش (٣) لدون جوان وبتروكيو (٤) لالما فيفا (٥) ــ وعموما عندما أفسحت المسرحية الصاخبة العنيفة ، ومبدأ الفكاهة من أجل الفكاهة ، الطريق الى مبدأ تطهير الاخلاق تطهيرا جادا من خلال التهكم والسخرية والنقد اللاذع على أوسع نطاق ــ عندئذ قل نصيب الشاعر الكوميدى من الفكاهة والقدرة اللانهائية على التهكم ، وأصبح بالتدريج انسانا ساخرا ناقدا يكشف أساسا عن مهازل تراجيدية عميقة وانفسح المجال أمام نوع من الكوميديا يحتوى على قدر من التراجيديا أكثر مما تحتوى عليه التراجيديا الفاجعة نفسها ، تماما كما يحتوى الزواج غير السعيد بل الزواج السعيد على قدر من التراجيديا أكثر مما تحتوى عليه حادثة قطار سكة حديد مثلا • فمسرحية شكسبير المرة ذات العنوان المر : « العبرة بالخواتيم » تسبق ابسن وتتنبأ بمجيئه ، وخاتمتها السعيدة التى يسخر منها عنوانها فيها من العزاء والسلوى أقل مما فى خاتمة روميو وجولييت • ثم جاء ابسن فكان هو الشاعر الدرامي الذى وضع بقوة وحزم أساس الكوميديا •• التراجيدية باعتبار أنها ضرب من العزاء والسلوى أعمق وأكثر جدية من التراجيديا التقليدية • ان أبطاله يموتون بلا أمل أو شرف ، وموتاه أشخاص منسيون حل محلهم غيرهم ، يمشون ويتحدثون

---

(١) لشكسبير
(٢) marriage à la mode
(٣) الاراجوز
(٤) شخصية فى مسرحية ترويض العامية لشكسبير
(٥) شخصية فى مسرحية زواج فيجارو

مع أشباح الماضى ، وجميع شخصياته أبطال كوميـــديون ونهوضهم وسقوطهم ليس من قبيل التشنجات المطهـــرة للروح بالرحمة أو بالاستنكار ، بل من قبيل التحـــدى والنقد الموجه للمجتمع وللمتفرج باعتباره مواطنا له صوت فى الانتخابات . انها شخصيات يائسة ، ومع ذلك لاتخلو من الامل ، لانها فى الاغلب تجسيد لنقد المواقف الفـكرية الزائفة والتى هى بطبيعتها الفكرية يمكن أن تعالج بفـكر أفضل ..

وهكذا أصبحت الكوميديا هى الشكل الارقى للدراما . فلقد كان عنصر الصدفة هو نقطة الضعف فى التراجيديا ـ مع ما للصدفة من وقع فعال ـ لان من المستحيل جعلها ممتعة وانقاذها من وطأة الضجر والاملال . لقد تسبب «منديل» يد فى افساد مسرحية عطيل وهو ما تبينه شكسبير نفسه فيما بعد عندما كتب « حكاية الشتاء » . وينزل الســتار على « مدرسة الفضائح » (١) فى اللحظة التى تبـــدأ فيهـــا العلاقات بين سرفيس الخائن وبين ليدى تيزل الاشد منه خيانة ، تثير اهتمام المتفرج واستمتاعه لاول مرة منـــذ بداية المسرحية . ان الكوميديا التراجيدية الحديثة سواء فى مأساتها أو ملهاتها ، تبدأ من حيث انتهت التراجيديات والكوميديات القديمة وحملت عصاها ورحلت عن خشبة المسرح ، وأصبح لدينا فعلا مسرحيات مكتوبة ومعروضة، تتناول الاحداث التى وقعت لشخصيات ابسن من قبل أن يبدأ الفصل الاول (٢)

والان ، يمكننا بسهولة ، أن نضع تولستوى فى خـــانة التراجيكوميديين الى أن يخترع لنا أحد الناس اسما أفضل من

---

(١) مسرحية شريدان

(٢) يشير الى مسرحيات له ولغيره مثل والتر بيزانت قائمة عـــلى شخصيات ابسنيه مثل نورا فى بيت الدمية وغيرها

ذلك . وتولستوى من بين جميع الشعراء الدراميين لديه أقوى قوة على التدمير بلمسة واحدة ، متى شاء أن يدمر . ورواياته تبين ذلك المرة بعد المرة : يدخل الرجل بيتاحيث يرقد شخص مسجى ميتا . وهنا لايلجأ تولستوى الى مواعظ ثقال أو الى سخرية مكشوفة بل الى البساطةالتى يجيد استخدامها اجادة تامة ، فيخبرك فقط أن الحانوتى ترك غطاء التابوت مركونا على الجدار فى مدخل الصالة ، وأن الضيف يدخل حجرة الاستقبال ، ويتربع جالسا على شلتة . وفى لمحةواحدة نرىالمهزلة والسخافة والتفاهةفى مواكبنا الجنائزية المطهمة وفى عواطفنا الفياضة التى نعرب عنهافى المدافن، نراها وهى تضحك بملءأفواهها فىوجوهنا . أو يذهب القاضى الى المحكمة ليتربع فى كرسى عال شاهق يصدر منه أحكاما كأنها الاحكام المنزلة ، ويرسل باخوانه من خلق الله الى المشانق والسجون . ولا يسمح تولستوى لشيء أن يخفف من وقار المناسبة ، فلا جبين القاضى ينعقد ، ولا عين له ترمش ـ ولكن تولستوى يخبرنا أن القاضى يقوم قبل أن يترك غرفته ، ببعض التمرينات البدنية واحد اثنين واحد اثنين . وهكذا فى لمحة بصر نرى القاضىمطروحا أمامنا فىالوحل بفرائه ومخمله ووشاحه الارجوانى وهيله وهيلمانه جاعلا مننفسه وسائر القضاة هدفا لسخرية لا يمكن وصفها بأى كلام يقال . أما ديكنز فيحملنا على الضحك وهو يصف « فتاحة » الزجاجة فىيد أورفلنج وهى تنفصل عن السدادة وتلطمها فى ذقنها . ونجد أنفسنا نهتف ونهلل للكاتب العابث ولكنه يترك مسز أورفلنج وهى ليست أسوأ حالا ولا أقل مكانة فى أعيننا مما كانت بعد مرور خمس دقائق . أما تولستوى ففى مقدوره أن يزهق روحا بفتاحة الزجاجة دون أن يسمح بتسرب أدنى اشارة أو أقل تلميح بأنه كاتب عابث أو ساخر أو حتى بأنك ستضحك

هذه الطريقة الرهيبة ـ وان كانت كوميدية فى أصلها ـ هى الطريقة المتبعة فى جميع مسرحيات تولستوى ماعدا مسرحيته الاولى : « سلطان الظلام » التى تعتبر فى جملتها تراجيديا حقيقية • أما مسرحية « ثمار الثقـــافة » التى سبقت مسرحية « زواج آن ليت » (١) لجرانفيل ـ باركر بوقت طويل ، كما سبقت مسرحيات تشيكوف ـ هـذه المسرحية هى الحلقة الاولى من سلســـلة « بيـــوت الحسرات » (٢) وأشدها قدرة على التدمير والافناء . فهو يلمس بقلمه حجرة الاستقبال والمطبخ . وممسحة الارجل فى مدخل الصالة ومناضد الزينة فى الطابق العـــلوى ، فاذا بها تفنى وتتلاشى كما تفنى وتتلاشى جنة كلنجسور باشارة من بارسيقال (٣) . « والجثة الحية » تتمتع بحياة كالتى كان يتمتع بها أكثر النبلاء الاقطاعيين فى بذخهـــم وفخفختهم • غير أن نظام النبلاء الاقطاعى ينهار ويتهاوى كنظام اجتماعى ، ويصبح ترابا تذروه الرياح باشارة عابرة من المؤلف الى أن النبيل العريق الاصل اذا لم يحصل على وظيفة فى الحكومة كجندى أو كدبلوماسى ، لا يبقى أمامه مايفعله الا ان يقتل نفسه بالخمر والنساء . انها حالة من الحالات التى يقال فيها : « لعنة الله عليكم أيها النبــلاء المرحون . ولتنقلب عليكم كل الاشياء فزعا وحـــزنا وهلاكا ! »

---

(١) The Marrying of Ann Leet تأليف Granville Barker ١٨٧٧ ـ ١٩٤٦ الممثل والمخرج المسرحى قام بتمثيـل واخراج عدد كبير من مسرحيات شو • والـــكاتب الواقعى المعاصر لشو

(٢) Heartbreak House مسرحية شو بهذا الاسم « ترجمت بعنوان منزل القلوب المحطمة »

(٣) Parcival البطل السليم النية فى اوبرا فاجنر الخـــالدة بهذا الاسم

غير أن تحفة تولستوى ورائعته الكبرى هى مسرحية « نور سطع فى الظلام » (١) وفيها يدير لمسته المدمرة الى نفسه فى نزعة انتحارية ، حتى تنزل به الكارثة بلا رحمة . اما أن يصبح « بطل سيبا ستوبول » جنديا من الدرجة الثانية فشىء لا يؤبه له ، وأما أن تصبح ليفين فى « آنا كارنينا » خادمة عادية محبة للشغب والنقار ، فلا يكاد يلتفت اليه أحد . ان المؤلف الذى يصنع التراجيكوميديا نبى عظيم ولكنه متجسد فى هيئة انسان أبله غشيم نزاع الى القسوة والشر . وعندما يكتب مستر آيلمر مود (٢) ترجمة حياة تولستوى يمسك بالميزان فى انصاف وعدالة بين الزوج والزوجة غير ملق أى اهتمام بما يقال من أن الرجل العظيم معصوم لايمكن أن يرتكب خطأ . وعندما وقف من تولستوى موقف الناقد الذى يمزج نقده بالاحترام ، اذا بتولستوى نفسه يبدو لنا قاسيا لا يرحم نفسه ، واذا بقسوته تمتزج بالاحتقار . ان تولستوى لايريد أن يضفى على نفسه فضل انهاء مسرحيته . لقد ترك الفصل الاخير غير مكتوب ولكن مع تعليمات دقيقة عن الطريقة التى ينبغى أن يطلق بها الرصاص عليه كالكلب المسعور بيد أم الشاب الذى حطمه بتعاليمه ، كما حطم كل شخص اخر انصت اليه .. (٣)

ومع ذلك فلم يصدر تولستوى — فى الواقع — الحكم بادانة نفسه : لقد أوضح فقط أنه كان مدركا تماما مافى مذهبه الفوضوى من فجيعة مدمرة ، بل كان على استعداد لمواجهة فجيعته المدمرة مفضلا ذلك على أن يقبل أو يساند

---

(١) ترجمها الاستاذ أحمد حسين المحامى — سنة ١٩٦٢ الناشر مكتبة الانجلو

(٢) Aylmer Maude كاتب أحسن ترجمة لحياة تولستوى

(٣) يشير الى ان نهاية مسرحية نور يسطع فى الظلام لم تكتب لان تولستوى مات قبل اتمامها

سياسة النهب والعنف لا لشيء الا لان اللصوص والعسكريين لديهم من السلطة السياسية ما يكفي لجعل النهب والعنف أمورا مشروعة • ولابد من القول بأنه لو رفض كل انسان ان يتساهل فى مبادئه او يقبل فيها الحلول الوسط ، فان ضروريات الظروف ستحتم اعادة بناء النظام الاجتماعى على أسس شريفة وسلمية . ولكن أفكار تولستوى وآراءه الخاصة باعادة بناء النظام الاجتماعى لم تتجاوز فيما يبدو قبوله لفكرة هنرى جورج عن ضرورة تأميم الارض بلا نقد ولا تحفظ . ولم يبد على تولستوى أن خطر له قط ، أن عملية اعادة بناء النظام الاجتماعى أيا كانت ــ فلابد وأن تنطوى على قدر من الضغط على الفرد واضطهاده الى حد ما على يد الدولة . وان هذا القدر من الضغط والاضطهاد سيكون أكبر مما هو واقع فى ظل النظام الحاضر ، لان هذا النظام يمارس الضغط ويفرض الاضطهاد بصفة غير رسمية وان كانت مظاهر الضغط والاضطهاد موجودة وواضحة فى كل مكان ، بل ان النظام الحاضر يعتمد فى كل ذلك على الظروف الراهنة المسئولة عن فقر البروليتاريا . ولم يتمكن تولستوى ــ كأى ارستقراطى مدلل الى حد ما ومزيف الى حد ما وهو ما كانه فعلا ــ لم يتمكن من احتمال الضغط أو القهر أو الاضطهاد ، فرفض رفضا تلقائيا ان يهتم أو أن يلتفت للمشكلة العملية الملحة مشكلة اعادة بناء النظام الاجتماعى وفقا لمبادئه ، أى مشكلة تقسيم الحد الادنى من الجهد اللازم لابقائنا على قيد الحياة ، وتوزيع ثماره بالتساوى بيننا . وقد تبين لينين أن هذه المشكلة تستلزم اطلاق كثير من الرصاص على المعاندين والمعارضين . وتولستوى مثل كثير من الانبياء غيره ، كان يدعو بالموعظة الحسنة والنية السليمة ، ولكنه لم يعثر قط على الوسيلة لتحقيق مايدعو اليه . ومن ثم كان تأثيره على الحمقى من ذوى النزعة الفردية » وقد وضع نفسه بينهم

فى مسرحية نور يسطع فى الظلام » تأثيرا خطيرا ، بل على أعظم جانب من الخطورة

ومع ذلك ، فقد كان تولستوى من كبار المحللين الاجتماعيين عندما كشف لنا كأستاذ من أساتذة الدراما التراجيكوميدية ، عما فى حياة الفرور والبلادة من تعاسة وسخافة ـ مع أنها هى الحياة التى نضحى فى سبيلها بشرفنا وبسعادة جيراننا

نيتشة - أداء فريضة الشيطان

منذ سنوات قليلة ، كانت هناك شركة لندنية تجارية للنشر تعمل تحت اسم : هنري وشركاه . وكانت سياستها فى العمل ، سياسة متهورة تتلخص فى القيام بمشروع عجيب هو أن تدعو أفرادا من جمهور القراء ممن يصعب ارضاؤهم ليشتركوا بمبلغ سنوى متساو تقريبا ، فى دفع ايجار دار فى ميدان جروزفنر ، وبهدف اصدار صحيفة يتولى كتابتها كلها من أولها الى آخرها عبقرى من العباقرة ، وتوزع عليهم مرتين فى الاسبوع وعلى مائدة الافطار . ولم يخطر لهم أن يكلفوا ليدى راندولف تشرشل (ا) بالقيام بتحريرها ولكنهم دعونى أنا لكتابة العدد الاول . ووعدتهم ولكنى لم أنهض قط لتحقيق الموعد وفى تلك الاثناء أخذت الشركة تتسلى باصدار طبعة انجليزية لمؤلفات فردريك نيتشة آملة أن يكون ذلك أكثر مافى جعبتهم من المشروعات طيشا وتهورا بعد مشروع الصحيفة . ولم أكن أنا شخصيا أصدق وجود أشخاص باسم هنرى وشركاه

---

* ستر داى ريفيو ١٣ مايو سنة ١٨٩٩ بمناسبة نشر مؤلفات فردريك نيتشة لاول مرة مترجمة الى الانجليزية . فى جزئين (الناشر فيشر آنوين لندن)

(ا) أم وينستون تشرشل

فلم تكن الشركة الا تجسيدا حيا للمستر جون • ب • جرين ذلك الرجل الجسور المحب للمخاطرة والذى أسس « المسرح المستقل » وأخذ لندن على غرة عندما أحدث فيها انفجارا مدويا بعرض مسرحية الاشباح ، لابسن • ولم يستطع الا بصعوبة ان يعثر على من هو أفضل من نيتشة ليحدث فى لندن انفجارا مماثلا يكون له نفس الوقع • وظهر من ترجمة اعمال نيتشة جزءان ، قبل ان تدفع الشركة ثمن تهورها ، ولم يكن لها فى الامر حيلة ، بتصفية حساباتها تصفية نظيفة شريفة ، وبيع جميع ممتلكاتها ومخلفاتها ، والاختفاء تماماً من دنيا الناشرين

ومما يستلفت النظر ، أن يقدر للمشروعين الطوبويين اللذين قام بهما هنرى وشركاه ، أن يعيشا بعد وفاة أصحابهما الذين دفنت مع عظامهم مشروعات تجارية أخرى كانت أقرب الى النجاح من وجهة النظر العملية . فصحيفتهم الدورية التى كان ثمنها مرتفعا بصورة وقحة تدمغ المشترك فيها بوصمة الثقافة الارستقراطية ـ على وشك الصدور الان . وأما ترجمة أعمال نيتشة فقد واصلت طريقها الثورى الانقلابى على يد مستر فيشر آنوين المحترم

ان نيتشة هو محامى الشيطان ، فى روب المحامى العصرى • وفى الزمن الماضى عندما كانت تثار قضية اثبات صفة القداسة على أحد الاولياء ، كانوا يسمحون للشيطان بأن يوكل عنه محاميا يتولى الدفاع عن حقوقه فى روح ذلك الولى • وبطبيعة الحال لم يدر فى خلد أى انسان أن ينهض مدافعا عن حقوق الشيطان واعتباره أحد الموجهين والقادة للجنس البشرى وان كان قد أسىء فهمه كثيرا فضلا عن تمتعه بالاصالة والاستقلال فى الفكر • واستمر الحال مع ذلك حتى القرن التاسع عشر عندما تجاسر وليم

بليك (١) فعبر الحاجز الى الناحية الاخرى ـ والف حزبا للشيطان . ومن حسن حظه أنه كان شاعرا ومن ثم اعتبر مجنونا مشبعا بالتناقض بدلا من أن يعتبر زنديقا وكافرا. وحقق الحزب تقدما طفيفا فى فترة طويلة نسبيا ، لان البلاد كانت فى ذلك الوقت منهمكة فى عرض دينها على النار المطهرة فى بوتقة النقد التى فاحت منها أخيرا رائحة عناصر وخامات افريقية بدائية . غير أن هذا النقد المطهر بالغ فى تمجيد الواجب والاخلاق والقانون وحب الغير ، ووضعها فى مرتبة تفوق مرتبة الايمان الدينى . وأقامت البلاد جمعيات اخلاقية وتولتها بالرعاية تاركة الشيطان صديقى العجوز المسكين (فقد كنت أنا أيضا مولودا شيطانيا) فى حالة أسوأ مما كان فيها فى اى وقت . ومضى مستر سوينبورن (٢) يشرح بليك ويفسره . بل تمادى الى أن هتف ينادى الشيطان بقوله : « فلتهبط علينا من عليائك ! ولتخلصنا من الفضيلة ! » غير أن ايماءات بوتنى (٣) الورعة أثرت عليه وعادت به الى الصف ، وهو الان رجل محترم تماما يخشى شكسبير كما يخشى الله . وأطلق مارك توين (٤) يضع شرارات شيطانية فى سماء الادب ، لم يكد ينتهى من اطلاقها حتى سقط صريع المناخ

(١) W. Blake ١٧٩٧ ـ ١٨٢٧ الشاعر الانجليزى المتنبى والمتهم بالجنون . كان يزعم أنه يرى الملائكة والشياطين ويتحدث اليهم ، ويصورهم فى شعره

(٢) A.C. Swinburne ١٨٣٧ ـ ١٩٠٩ الشاعر الانجليزى الوثنى المتمرد ، أخذ عن بليك وبودلير

(٣) Putney بلدة فى جنوب غربى لندن وهى مسقط رأس سوينبورن

(٤) Mark Twain صمويل لانجهورن كليمنس ١٨٣٥ ـ ١٩١٠ الكاتب الامريكى الساخر مؤلف مغامرات هكلبرى فن «ترجمت» وتوم صوير « ترجمت »

الامريكي الكاسح ، الذى تسود فيه قيم الفروسية والواجب والدماثة أى قيم نبلاء الاقطلاع . ثم هبت فى باريس نفحة شيطانية يائسة مزيفة تنهض على عقيدة دينية جامدة تقرر أن أمير الظلام (الشيطان) ليس جنتلمانا، ممازعزع الثقة فى عبادة ابن الصباح (الشيطان أيضا) عبادة صادقة . وبدت المسألة كما لو كان كل شيء قد ضاع

عندما عثرت القضية على ابن درامى مخلص لها كل الاخلاص فى شخص ابسن الذى كان اول امام حقيقى أمسك بتلابيب القيم التقليدية قيم الواجب وانكار الذات والمثالية والتضحية ... الى آخر عناصر المؤامرة الموجهة ضد الشيطان ، وجرها جميعا الى ساحة المحاكمة .

وما أكثر الذين وضعتهم هذه المؤامرة من المحامين الممتازين المدافعين عن الشيطان ، موضع الاتهام والتلبس بالجريمة . فقد انتشر زعم مخجل وشائن ، يزعم أن للرجل الصالح أن يفعل أى شيء يراه صوابا (والصواب فى هذه الحالة معناه بالطبع أى شيء يحبه الرجل الصالح) بدون اى اعتبار لمصالح الاشرار والفاسدين أى مصالح المجتمع بصفة عامة . وما انظهر ابسن حتى ولى هذا الزعم مدبرا ، ثم حوصر وألقى القبض عليه ووضع فى قفص الاتهام وارغم على أن يدافع عن نفسه ، وبهذا - أى فى نهاية المطاف - اصبح لحزب الشيطان نفوذ وسلطان

وفى أثر الكاتب الدرامى جاء الفيلسوف : فى انجلترا ج . ب . ش . وفى المانيا نيتشه وكان نيتشه قد جلس طويلا يتعبد عند قدمى فاجنر الذى كان بدوره يتعبد عند قدمى بطله سيجفريد ، وكان سيجفريد شيطانيا طيبا . ولكن كان من سوء حظ نيتشه أنه بعد أن تهيأ لاستقبال موسيقى فاجنر بحماسة شيطانية جامحة ، كأقصى مايكون

الجموح ، ذهب الى بيروث (١) ذهاب المتحمس المندفع فاستمع الى موسيقى فاجنر وهناك انقشعت عنه سحابة الوهم بقسوة مروعة لانه كان فى ذلك الوقت عاجزا عن احتمال أخف أنواع الموسيقى حتى أوبرا كارمن . وهكذا طرح صنمه المعبود أرضا ، ومال ان ذاق لذة تحطيم الاصنام (ولعل عادة تحطيم الاصنام هى الوحيدة التى فيها من الفائدة بقدر مافيها من اللذة) حتى أصبح شيطانيا مريدا ، يتندر بالنكت ويلقى بالحكم والامثال ، ثم احتل مركزه « على الجانب الاخر من الخير والشر » ، وتخطى بقيمه الخاصة قيمنا الاخلاقية ، وسعى بصفة عامة لانقاذ البشرية من حكامها وأئمتها الذين يسيرون على الصراط المستقيم ، ولكن بلا ضمير لديهم على الاطلاق ..

والمجلد الذى أصدره توا ، مستر فيشر آنوين ، يحتوى على كتاب « تسلسل الاخلاق » ترجمة مستر وليم هاوسمان كما يحتوى على الامثال والحكم المنظومة التى نقلها الى الانجليزية مسترجون جراى بأسلوب اكثر من ذكى . ثم اعيد نشر كتاب « هكذا تكلم زرادشت » (٢) فى مجلد مصاحب للمجلد السابق ، وهو الاخر نفحة من الحكمة الشيطانية بأسلوب شديد التركيز ..

---

(١) **Bayrouth** المدينة البافارية فى المانيا حيث شيد فاجنر « مسرح العيد » حسب تصميمه . وافتتح المسرح سنة ١٨٧٦ بأوبرا فاجنر خاتم النيلونج ، وظل المسرح والمدينة وأهلها أوفياء لموسيقى فاجنر الى اليوم

(٢) **Thus Spake Zarathustre** (مترجم الى العربية)

بيتهوفن ..

منذ مائة عام ، هز قبضته فى وجه السماء المزمجرة ، لآخر مرة ، عجوز اعزب شكس نكد الطبع ، صلب الرأى فى السابعة والخمسين من العمر ، بلغ منه الصمم أنه لم يكن يستطيع أن يسمع موسيقاه ، وأن عزفتها أوركسترا كاملة ، ومع ذلك كان يستطيع أن يسمع صوت الرعد . مات كما عاش متحديا الله ومستفزا الكون . بل كان هو التحدى نفسه مجسدا . لم يكن يلقى الدوق الكبير وحاشيته سائرين فى الطريق الا وجذب قبعته بشدة وثبتها فوق رأسه وتقدم بخطوات واسعة ليخترق جمعهم لايلوى على شيء . كان سلوكه وسيره أشبه بسير وسلوك وابور الزلط : جاف الطبع (مع أن أكثر وابورات الزلط طيبة هادئة الطبع الى درجة الخنوع) . وكانت عنايته بملبسه أقل الى حد ما من عناية خيال المآتة بملبسه : حدث بالفعل أن قبض عليه البوليس مرة بتهمة التشرد بعد أن رفض ان يصدق أن مثل هذا الشخص الرث المهلهل الثياب يمكن أن يكون مؤلفا موسيقيا شهيرا فضلا عن أن يكون معبدا متنقلا تتعبد فيه روح جامحة صاخبة ومن أشد الارواح جموحا وصخبا ، روح وجدت التعبير عن نفسها فى الصوت المجرد .. وكانت والحق يقال روح جبار . ولو

(*) مجلة راديو تايمز ١٨ مارس ١٩٢٧ بمناسبة العيد المئوى لوفاته

أننى كتبت عن أشد الارواح جبروتا ـ مما يعنى أشد جبروتا من روح هاندل ـ فان بيتهوفن نفسه كان خليقا بأن يلومنى .. ثم أى انسان هذا من بين البشر الهالكين يمكن أن يدعى أن له روحا أقوى وأشد جبروتا من روح باخ ؟ أما القول بأن بيتهوفن أشد الارواح جموحا وصخبا على الاطلاق ، فبعيد عن كل شك . ففى مؤلفاته غضب شديد متهور فى شدته ، غضب يستطيع بسهولة تامة أن يحتويه ويسيطر عليه وان كان هو فى الغالب لا يريد ذلك .. كما أن فيها أيضا مرحا صاخبا مجلجلا معربدا ، وهذا الغضب وذاك المرح يفوقان أى شىء من جنسهما فى مؤلفات غيره من الموسيقيين جميعا . يكتب بعض السذج اليوم ان عملية نقل النبرة الموسيقية هى وسيلة جديدة لمنح النص الموسيقى أقوى دفعة ممكنة ، غير أن أشد أنغام الجاز عربدة وصخبا ، تبدو كأنها « صلاة العذراء » اذا ماعزفت بعد افتتاحية ليونورا الثالثة لبيتهوفن . ولم تستمع أذنى قط وبكل تأكيد ، لعازف زنجى أمكنه أن يلهم أحلك الراقصين الزنوج لونا ليرقص كما لو كان الشيطان مجسدا diable au corps كما تفعل الحركة الاخيرة من السيمفونية السابعة ولم يحدث قط أن موسيقيا غير بيتهوفن أذاب مستمعيه فى لجة من الشجن العاطفى الكامل بما فى موسيقاه من جمال وحنان وسحر ، ثم قلب لهم ظهر المجن فجأة وسخر منهم بنفخات مستهجنة من النفير ، تحتقرهم وتزرى بهم لانهم بدوا حمقى وسفهاء على هذا النحو المهين . لا أحد سوى بيتهوفن يمكنه أن يحكم بيتهوفن أو يتحكم فيه . وعندما يرفض أن يتحكم فى نفسه ـ كما يحدث كلما أدركته النوبة .. ينطلق جامحا لا يمكن كبحه أو التحكم فيه

وانه ذلك الجموح الصاخب ، وتلك الفوضى المتعمدة،

وهذه السخرية اللاذعة ، وذلك الاستهتار الجسور بقواعد السلوك التقليدية ، كل هذا وذاك هو ماوضع بيتهوفن فى معزل عن عباقرة الموسيقيين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، قرنى التقاليد المتحجرة والرسميات المتزمتة. كان بيتهوفن موجة عملاقة فى تلك العاصفة الهوجاء التى هبت من أعماق الروح الانسانية وأنتجت الثورة الفرنسية. ثم يناد شخصا واحـــدا ــ مهما كان هـــذا الشخص ــ بياسيدى . كان على غير شـــاكلة موزار ــ وهو أعظم من سبقه من الموسيقيين فى مجـــال تخصصه ــ الذى كان منذ طفولته يغسل شعره ويمشطه ويلبس لباســـا فاخرا ويلتزم بقواعد الســـلوك الحســـن فى خضرة الشخصيات البارزة من ملوك ونبلاء . وغضـــبة موزار الصبيانية على مدام بومبادور عندما قال لها : « من تكون تلك المرأة التى لا تقبلنى ؟ ان الملكة نفسها تقبلنى » ، شيء لايمكن لاحد أن يصدق أنه يصدر عن بتهوفن الذى كان فى ذلك الوقت جروا لم يلعق بعد ، بل حتى بعد أن شـــب وكبر وأصبح دبا كبيرا أشيب . كان فى موزار ارهاف التقاليد والمجتمع الارستقراطى كما كان فيـــه ارهاف الطبيعة وحدة الروح . كان ارهـــاف موزار وجلوك (١) أرهاف بلاط لويس الرابع عشر ، وكان ارهاف هايدن(٢) ارهاف سادة الريف الاقطاعيين فى زمانه . أما بيتهوفن فكان بوهيميا صخابا كرجل من أبناء الشعب . كان هايدن أرهف حسا وأسمى نفسا من أن يغار ويحقد عندما أعلن أن تلميذه موزار هو أعظم موسيقى عاش على ظهر الارض

---

(١) C.W. Gluke المؤلف الموسيقى التشيكى المعاصر لموزار ١٧١٤ ــ ١٧٨٧

(٢) F.J. Hayden ١٧٣٢ ــ ١٨٩٠ المؤلف الموسيقى الالمانى أستاذ موزار

فى أى يوم من الايام ـ هايدن هذا لم يستطع مع بيتهوفن صبرا ، وقال موزار ـ وهو أبعد نظرا ـ عندما أصغى لعزف بيتهوفن : « سوف تسمعون عنه يوما ما » . وكان بيتهوفن يكن لموزار مهابة كبيرة بل فزعا معنويا شديدا : فقد كان فى استطاعة موزار أن يحيط أحد الأوغاد الارستقراطيين فى أوبرا دون جيوفانى ، بهالة من السحر والنشوة ، ثم يعمد بموهبته الدرامية المطبوعة على التقلب والتحول في موقفه الاخلاقى وبلا تحرز ، فينسج هالة من القداسة والطهارة حول ستراسترو واضعا كلماته فى خدمة موسيقاه الفذة التى لم يؤلف موسيقى مثلها من قبل ولا من بعد ، موسيقى لايبدو أى صوت من أصواتها فى غير موضعه كما لو كان قد خرج من فم الله

لا . لم يكن بيتهوفن دراميا مطبوعا ، كان التقلب الاخلاقى فى نظره استهتارا يدعو الى الاشمئزاز ، ومع أن موزار كان لايزال فى نظره أستاذ الاساتذة (وليس هذا مديحا أجوف أو مبالغا فيه ، بل يعنى بكل كلمة أن موزار سيد المؤلفين الموسيقيين فعلا ، أكثر بكثير مما يعنى أنه مجرد مؤلف ذائع الصيت) فقد كان فى نظره أيضا خادما ذليلا فى حاشية البلاط يرتدى سراويل الخدم القصيرة بينما كان بيتهوفن رجلا من صميم الشعب Sans Culotte (١) وكان هايدن أيضا خادما من خدام البلاط يرتدى بزة البلاط التقليدية : حقا لقد وقفت الثورة بينهم حائلا كما وقفت بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . غير أن موزار كان فى نظر بيتهوفن أسوأ مكانا من هايدن لانه كان

---

(١) كلمة فرنسية كانت تعنى الشخص الذى لا يرتدى سراويل زى رجال البلاط ، أى الرجل من عامة الشعب . وكان رجال البلاط فى أوائل الثورة الفرنسية يطلقونها على رجال الحزب الديمقراطى (الشعبى) فى باريس سخرية منهم

فى موسيقاه يستهين بالاخـلاق . فكان يعبر عن الرذيلة بنفس الاسلوب الساحر الذى يعبر به عن الفضيلة ، ومن ثم هب ثائرا فى وجهه بما فى قلبه من نزعة بيورتانية كامنة فى قلب كل رجل من صميم الشعب Sansculotte ضاربا صفحا عما لموزار من فضل عليه عندما أفضى اليه بكل امكانيات وأسرار موسيقى القرن التـــاسع عشر . وهكذا تراجع بيتهوفن فى بحثه عن البطل ، عائدا أدراجه الى هاندل (١) الذى كان هو الاخر عجـوزا أعزب صلب الرأى من نفس طينته وعجينته ، وكان يحتقر جـلوك معبود موزار وبطله مع أن كانتاتا « الباستورال » هى « واوراتوريو المسيح » أقرب فى الموسيقى للمناظر التى افتتح بها جلوك أوبراه « أورفيوس »

شكرا للاذاعة ، فبفضلها يستمع لاول مرة ملايين من ذوى الميول الموسيقية الى موسيقى بيتهوفن فى هـــذا الاحتفال السنوى بذكرى وفاته ، وقد سمت تطلعـاتهم الى أعلى عليين بفضل مئات المقالات الصحفية التى أهالت على بيتهوفن جميع التقاريظ والمدائح والمراثى التقليدية التى تلقى بغير تمييز على جميع المؤلفين الموســيقيين العظام . غير أنهم سيعودون بالحيرة وخيبة الامل كما عاد معاصروه عندما استمعوا منه الى موسيقى لم يـــكونوا يتوقعونها ، بل كانت فى أغلبها ضوضاء أوركسترالية لم يروا فيها مايمكن أن يسمى موسيقى على الاطلاق ــ فى وقت كانوا يستطيعون فيه تقدير جلوك وهايدن وموزار أحسن تقدير ــ وتفسير ذلك بسيط كل البساطة . هو أن موسيقى القرن الثامن عشر كانت موسيقى رقص . والرقص نمط من الخطوات المتناسقة يلذ للراقص أن يحرك

---

(١) G. F. Handle ١٦٨٥ ــ ١٧٥٩ المؤلف الموسيقى الالمانى

جسمه وفقها ، وموسيقى الرقص نمط من الاصوات المتناسقة يلذ للمستمع أن ينصت اليه حتى وان لم يرقص على ايقاعها • ومن ثم فالانماط الصوتية وان كانت تبدأ بسيطة كرقعة الشطرنج الا أنها بفضل الهارمونى ، تطول وتتعقد وتزداد ثراء وخصوبة حتى تصبح أشبه بالسجاجيد العجمى الفاخرة . والمؤلفون الموسيقيون الذين يصممون هذه الانماط لايتوقعون من الناس أن يرقصوا على ايقاعها، فليس فى مقدور بشر أن يرقص على سيمفونية لموزار الا اذا كان درويشا من الدراويش يظل يدور ويدور حول نفسه بغير توقف : والواقع انى أرهقت اثنين من الشبان المدربين على الرقص — من أمرهم عسرا — عندما حملتهم على أن يرقصوا على احدى افتتاحيات موزار • بل ان نفس أسماء الرقصات القديمة سقطت من الحساب ولم يعد لها ذكر ، فبدلا من المتتابعات الموسيقية التى كانت تتألف من السارابانده والبافان والجافونى والجيج (١) ، صممت السوناتات والسيمفونيات التى تتألف من أجزاء تسمى حركات ، وهذه الحركات موزعة على حسب سرعتها الى آليجرو وآداجيو وسكيرزو وبرستو (بالايطالية) • غير أن الموسيقى ظلت طوال عهدها ابتداء من مقدمات باخ(٢) الموسيقية الى سيمفونية « جوبيتر » لموزار ، تقدم لنا نمطا صوتيا متناسقا وتمنحنا فى كل وقت المتعة التى كان يشعر بها الراقص القديم فى شكل المقطوعة ومضمونها

وعلى اية حال ، تستطيع الموسيقى أن تصنع ماهو أكثر من مجرد ابداع انماط صوتية جميلة : ان الموسيقى تستطيع ان تعبر عن الوجدان • فأنت يمكنك ان تنظر

---

(١) اسماء رقصات قديمة كانت شائعة فيما قبل القرن السادس عشر وبعضها ذكرها شكسبير

(٢) J.S. Bach ١٦٨٥ — ١٧٥٠ أبو الموسيقيين الكلاسيكيين

الى سجادة عجمية ، وأن تنصت الى مقدمة موسيقية لباخ باعجاب مجرد لايتجاوز حدود الاعجاب ، ولكنك لايمكنك أن تنصت الى افتتاحية « دون جيوفانى » دون أن تجد نفسك وقد انتزعت انتزاعا من الحالة الوجدانية التى أنت عليها ، وطوح بك فى حالة وجدانية أخرى معقدة تهيئك لمجابهة قدر رهيب ومروع الى حد ما .. قدر يحجب وراءه ضربا من السرور العظيم الذى يحتوى مع ذلك ، على لفحة شيطان مريد . ولو أصغيت للحركة الاخيرة من سيمفونية « جوبيتر » لموزار ، لاستمعت فيها الى نفس الصخب والضجيج والعجيج الذى تسمعه فى الحركة الاخيرة لسيمفونية بيتهوفن السابعة : قصف من قرع الطبول المتتابع ـ تاو ـ تاو ـ راو ـ راو زاده حدة وصرامة وبأسا ، لون عجيب من الجمال الجامح الحزين .. جمال تلمحه كالخيط الدقيق الذى يتخلل نسيج النمط الموسيقى طولا وعرضا . ومع ذلك فالحركة عمل نموذجى للتصميم النمطى وتحفة موسيقية ترتفع شامخة فى جميع الازمان ..

والآن ، ماذا فعل بيتهوفن ؟ وماالذى دعا عددا من فحول معاصريه الى أن ينفضوا أيديهم منه يأسا ، ويعتبرونه شخصا مخبولا تعتريه من آن لآخر نوبات صحو واعية يمتزج فيها التهزيج بالذوق الردىء ؟ سبب ذلك أن بيتهوفن استخدم الموسيقى استخداما كاملا كأداة للتعبير عن الحالات النفسية والوجدانية وصرف النظر تماما عن التصميم النمطى كهدف فى حد ذاته . والحق يقال إنه ظل طوال حياته يستخدم الانماط القديمة محافظا على التقاليد ومتمسكا بها (وهذه بالمناسبة صفة أخرى من صفات الرجل الشعبى الصميم Sans Culotte

لولا أنه حملها بشحنة جارفة من الطاقةالعاطفيةوالوجدانية التى ترتفع الى أسمى مراتب الحمـــاسة الانسانية ـ الحماسة التى تصاحب الفكرة والتى تتضاءل الى جوارها نشوة الجسد وتتضاءل حتى تسقط الى مرتبة الحيوانية الخالصة ، لدرجة أنه يجعل من المستحيل على المســتمع أن يعثر وسط عاصفة الانفعال الجارفة ، على أى نمط على الاطلاق . مثلا : تبدأ سيمفونية البطولة « ايرويكا »بنمط (مستعار من افتتاحية كتبها موزار فى صباه) يتبعه نمطان أجمل منه بكثير جدا ، ومع ذلك فهى مشحونة بطــاقة هائلة تفتك بالانماط فتكا وتمزقها بوحشية فى وســـط الحركة ، وهكذا ينطلق بتهوفن باعتباره موسيقيا نمطيا .. فى جموح وجنون وهو يقذف المستمع بمجموعات كاملة من الالحان الرهيبة دفعة واحدة بحيث تسمع جميــع الحان المقطوعة فى وقت واحد لا لشىء الا لانه يريد ذلك ويحبه ، ويريد أن يحملك على أن تحس به وأن تريده وتحبه أنت أيضا ..

ها هو ذا بين يديك سر بتهوفن كله : كان فى مقدوره أن يصمم أنماطا كأفضل وأحسن ما تكون الانماط ، وكان فى مقدوره أن يكتب موسيقى يبقى جمالها معك ولك طوال حياتك ، وكان فى مقدوره أن يتناول موضوعات ناشــفة كالعصا ، بل كأنشف ماتكون العصا ، ثم يصوغها صياغة بهيجة ممتعة بحيث تجد فيها شيئا جديدا كلما اســتمعت اليها ولو استمعت اليها مائة مرة .. وبالاختصارفى مقدورك أنت أن تقول فيه كل مايمكنك قوله فى أعظم مؤلفى الانماط الموسيقية قاطبة ، ولكن خاصيته المميزة ، العــلامة التى تجعل بتهوفن يختلف عن الاخرين كلهم ، هى قـــدرته على احداث الاضطراب فى نفوسنا ، قدرته على فـرض مزاجه الجبار علينا .

غضب برليوز (١) غضبا شديدا من موسيقى فرنسى عجوز أعرب عن الانزعاج والاضطراب الذى يبثه فيـــه بتهوفن بقوله أنا أحب الموسيقى التى تهدهدني وتدغدغنى J'aime la musique qui me brace. حقا ان موسيقى بتهوفن لاتهدهد ولا تدغدغ بل هى الموســيقى التى توقظك من سباتك وتستفزك للوقوف على قدميك . أما الحالة النفسية الوحيدة التى تجعلك تصدف عنها ، فهى عندما تشعر بالرغبة فى أن تترك لحالك

اذا ما أدركت ذلك ، فستتمكن من أن تتخطى القرن الثامن عشر ومافيه من فرق موسيقى الرقص القديمة التى عفى عليها الزمن (وبهذه المناسبة أقول ان فرق الجاز هى نفسها فرق الرقص القديمة مصطبغة بالصــبغة البتهوفينية) ، ولن تفهم موسيقى بتهوفن فقط ، بل كل ماهو أشد عمقا فى الموسيقى التى جاءت بعد بتهوفن أيضا .

---

(١) L.H. Berlioz ١٨٠٣ ـ ١٨٦٩ المؤلف الموسيقى الفرنسي

شو وفاجنر - كنز الراين

دعنى أفترض هنيهة أنك فتاة شابة حسناء : ولتحاولى معى ان تتخيلى نفســك فى تلك الشخصية قاطنــا فى كلونديك (١) منذ خمس ســـنوات مضت • المكان يغص بالذهب النضار . اذا قنعت بمشاهدة الذهب وتركتــه حيث هو كما يترك العقلاء أزهار الحديقة فلا يقطفونها ــ مكتفية منه ، ببساطة تامةوبروح نقية ، بمشاهدتهوالتمتع بلونه وبريقه وأصالته وقيمته الغالية ، فلن يضار أحــد بحصولك على هذه المتعــة . ومادمت فى هـــذه الحالة النفسية ، فان العصر « الذهبى » أو الفردوس الارضى يبقى ويدوم

والان لنفرض أن رجــلا أقبل ، رجـــلا ليس للعصر

(*) من كتاب الفاجنرى الكامل The Perfect Wagnerite طبعة كونستابل وشركاه لندن سنة ١٩٢٣ وتحتوى على اربع مقدمات للطبعات السابقة وكانت الطبعة الاولى سنة ١٨٩٨

(*) Rheingolde الحلقة الاولى من رباعية فاجنر اوبرا خاتم الاقزام أو Neblüng! Ring وتمثل فى أربع ليال متتالية أما الحلقات الثلاث الاخرى فهى : الفالكيرى ــ سيجفريد ــ الليل يرخى سدوله على الآلهة !

(١) Klundyke منطقة فى شمال كندا كانت محط رجال الباحثين عن الذهب فى أواخر القرن الماضى وقد نضب الان معينها من الذهب

« الذهبى » أى معنى عنده ولا يحس احساسك بالفردوس الارضى ، ولا يملك القـوة التى تجعـله يعيش فى العصر الحاضر ، وبالاختصار رجلا تستحوذ عليـه الرغبات والشهوات والمطامع العادية كأكثر من تعرفينهـم من الرجال • افترضى وأنت الشابة الحسناء ، أنك أفشيت لذلك الرجل سرا تعرفينه وحدك : انه لو قطف زهـرة هذا الذهب الوهاج ثم صهره ثم حوله الى نقـود وأموال فسوف يعمل ملايين من الرجال تحت سوط الجـوع الخفى ، فوق ظهر الارض وتحت ظهر الارض ، بالليـل وبالنهار ليكدسوا المزيد من الذهب له وحده حتى يصبح الرجل سيد العالم ! ولكنك سرعان ماتتبينين أن هـذا المشروع لن يغريه كثيرا كما تتصورين لانه يتطلب أولا بعض المشقة البغيضة الى نفسه ، ثم لأن هناك شيئا آخر يرغب فيه ويشتهيه بأقوى مما يرغب فى الذهب ويشتهيه ، شيئا فى متناول يده لايتطلب مشقة ولا بغضا : ذلك الشيء هو أنت نفسك . فما دام فؤاده مشغولا بحبـك فالذهب لايعنيه ولا كل مايعنيه الذهب . ومن ثم فالعصر «الذهبى» يبقى ويدوم . غير ان عملية المفاضلة بين الحب والذهب ليست وقفا عليه وحده . فربما كان الرجل قميئا دميما بغيضا شحيحا ثقيل الظل لا تميل اليه نفسك ، ومشاعره وعواطفه التى يبديها نحوك ، ربما بدت لك سخيفة مضحكة تدعو الى الاحتقار . فى هذه الحالة قد تصـدينه عنك صدودا وتذلينه أمر الذل وتخيبين أمله فيك خيبة كبرى . ماذا يتبقى له الا أن يلعن الحب الذى لايمكنه الحصـول عليه ، وان يتحول الى الذهب بقلب متحجر وضمير لايعرف الندم ؟ ومن ثم يذهب هو بعصرك الذهبى ويتركك تندبين جماله المفقود وصفاءه ونقاوته .. وخلو البال الذى لن يعود ..

وفى تلك الاثناء يكون ذهب كلونذايك قد وجد طريقه الى مدائن العالم وعواصمه الكبرى . ولكن المحنة القديمة ما فتئت تتجدد وتتكرر باستمرار بل انها تتوالد وتتكاثر: محنة الرجل الذى يعرض عن كل ماهو نافع وخلاق من الوان النشاط البشرى التىتدعم أركان الحياة حيث يمكن أن تنمو أشرف وأسمى طاقات الانسان ، يعرض عن ذلك ليكرس نفسهوكل جوارحه لجمع الذهب وتكديسه.. واقعا تحت تأثير حلم سحرى نشوان ، بأن يتسلط على ما فى الذهب من قوى بلوتونية سفلية (١) وأن يجد الذهب دائما طوع يمينه مستجيبا للمسته . ولكن الذين يقدمون على التضحية بالحب طواعية على هذا النحو .. هم قلة من الناس . فليس من السهل قمع الدوافع الانسانيةالسامية واعتبارها دوافع شاذة متحررة الا بعد أن تتدعم بسلطة المال البلوتونية ، وتصبح ثابتة الاركان بحيث ينكر على الانسان كل شىء حتى رغباته البسيطة البريئة ، فلا يستطيع اشباعها الا بعد أن يشتريها بالذهب ، هذا أو يكون نصيبه الذل والمهانة والحرمان ـ عندئذ فقط يضطر ذوو النفوس النشيطة والهمم العالية الى بناء حياتهم كلها على تل من الثروات والاموال ـ تل من الذهب .وعلى هذا النحو سارت بنا الامور ، كأنه القدر المحتوم . اما كيف حدث ذلك فواضح كل الوضوح للذين لديهم القدرة على فهم مايدور حولهم فى مجتمعاتنا البلوتوقراطية (٢) ، وفى كبريات عواصمنا ومدننا الحديثة ... لو تأملوا

(١) Plutonic نسبة الى « بلوتو » اله القوى السفلية (ما تحت الأرض) الجهنمية فى أساطير الرومان القدماء . وهو واهب الثراء والبركات النابعة من جوف الارض .

(٢) Plutocracy حكم الاغنياء

المشهد الاول

ذلك هو موضوع المشهد الاول من أوبرا كنز الراين . فبينما أنت جالس تنتظر رفع الستار تلتقط أذناك فجأة لحنا أرضيا مندفعا من الاعماق ، أعماق نهر جبار . واذا باللحن ينجلي ويتضح أكثر فأكثر ، وتجد نفسـك كأنك تقترب رويدا رويدا من سطح الماء ، ويقـــع بصرك على الاضواء المنعكسة من صباب الماء الاخضر وفقاقيعه المتألقة وهى تتفلت هنا وهناك ثم يرتفع الستار وترى عينـــاك ماسمعته اذناك : اعماق نهر الراين وسمكات ثلاث غريبة النظرة ، مسحورة ، أشبه بحوريات الماء وهن يغنين ويمتعن انفسهن متاعا جميلا . ولا يتغنين بأغاني الملاحين (١) ولا ينشدن أناشيد المداحين (٢) التى تدور حول لوريللى (٣) عذراء الراين ، بل كن يدندن بأى هراء يخطر على بالهن وينسجم مع وقع سباحتهن ، ورقص الماء من حولهن ، انه العصر « الذهبى » . أما البقعة التى ينجذب اليها حوريات الراين فكتلة هائلة من الذهب الوهاج هى كنز الراين الذى يحملن له كل تقدير ــ تقدير لا علاقة له على الاطلاق بقيمته التجارية ــ لجماله الباهر وسنائه الذى يخطف الابصار . وفى التو واللحظـــة ينكسف بريق الذهب لان الشمس لم تعد تضرب بأشعتها فى أعماق الماء

وسرعان مايظهر شيطان قمىء مسـكين : قزم بائس يأتى متلصصا عبر الصخور الزلقة الرابضة فى قاع النهر ــ

---

(١) Barcarolles (٢) Ballads

(٣) Lorelei عذراء الراين التى تقول الاسطورة الجرمانية انها بعد يأسها من حبيبها الغادر فلاقت بنفسـها فى النهر . وكان شبحها يظهر للملاحين على صخرة فى وسط الراين وهى تمشط شعرها وتغنى وتغرى الملاحين لتهلكهم على الصخور . وكل من وقع بصره عليها يفقد عقله أو بصره ، وكل من استمع الى غنائها يظل هائما على وجهه الى الابد

مخلوق فيه من الطاقة مايجعله قويا فى البـــدن غنيا فى العاطفة ، ولكن فيه من ضيق الافق وقصور الذكاء ما يجعله وحشا أنانى الخيال : أى انه اغبى من أن يدرك ان مصلحته الشخصية لا يمكن أن تقاس الا كجزء من مصلحة العالم ، ممتلىء حتى حاقته بالقوة الوحشية الغاشمـــة بحيث لا تستطيع قبضته أن تمسك بشىء حتى ولو كان مكسبه الشخصى نفسه . مثل هؤلاء الاقزام معروفون فى لندن ومنتشرون فيها بكثرة . ها هو ذا يقبل وفى داخل نفسه يعتمل باعث قد يكون مثمرا : لقد جاء باحثـــا عن شىء يفتقده فى نفسه ، باحثا عن الجمال وخفة الروح والخيال والموسيقى . ولما كانت حوريات الراين يمثلن فى عينيه كل هذه المعانى فقد ملأته رؤيتهن بالامل واللهفة والحنين ،ولم يراجع نفسه لحظة واحدة ، فى انه لايملك مايقدمه لهن ؛ لا يملك شيئا أى شىء يرغبن فيه . لم يفكر فى هذا الامر لان ضيق أفقه الطبيعى جعله عاجزا عن أن ينظر الى اى شىء من الزاوية التى ينظر بها اليـــه أى شخص اخر . وهكذا ــ وبكل بساطة ــ يعرض نفسه عليهن كعشيق . ولما كن خاليات البال من أمثال هذه الامور ، لانتمائهن الى عناصر الكون الاولية ، كن مجرد كائنات شبه حقيقية . وهن فى ذلك يشبهن كثيرا الفتيات الصغيرات العصريات . ويرفضن رغبته فى الحياة ومطلبه فى الحب لان القـــزم المسكين صدم احساسهن بالجمال الجسمـانى وخالف مفهومهن الرومانسى للبطولة لانه كان دميما ثقيل الظـل جشعا ومثيرا للضحك والسخرية ، وهـــكذا يهزأن به بقسوة ، بل بفظاعة . يتظاهرن بالوقوع فى غرامه من أول نظرة ثم يتفلتن عنه مبتعدات ، عابثـــات به شر العبث ، والقين على المسكين اكواما من النكات والمهانات حتى خرج عن طوره من الغضب والكمد ، ثم ينسين كل شىء عنـــه

عندما يبدأ الماء من جديد يتألق فى أشعة الشمس ويعكس الذهب سناءه وروعته . فيتركنه وحيــدا ليستغرقن فى صلاة نشوى لكنزهن الثمين ! ومع أنهن يعرفن جيدا مغزى حكاية كلوندايك فلم يشعرن بأى خــوف من أن يغتصب القزم الذهب منهن ، لان الكنز لن يذعن لاحد حنث بقسم الحب ، ولم يأت القزم اليهن الا ساعيا مخلصا وراء الحب. غير أنهن نسين أنهن قد سممن مسعاه بسخريتهن وقتلن رغبته بانكارها عليه ، وانه الان وقد أصبح موغر الصدر أيقن من أن الحياة لن تمنحه شيئــــا لايستطيع انتزاعه منها بالقوة ، بالقوة البلوتونية ، قوة المال السفليـــة . ان الموقف هنا هو بالضبط كموقف رجل فقـــير خشن من العوام الاجلاف ، تقدم الى احد النوادى الارستقراطيـــة فعرض نفسه عليهم يريد أن يحتل مكانا بينهم ، فاحتقره القوم هناك ، وأذلوه وأهانوه وعرفوه انه لايمكن أن يطمع فى يوم من الايام ان يرغم هذا المجتمع الارستقراطي على الركوع عند قدميه الا اذا كان مليونيرا واشترى لنفســه من قلب هذا المجتمع زوجة حسناء كاملة الرفاهيةوالتربية والتهذيب . لا خيرة له فى الامر : فهو يقسم بقسم الحب كما يقسمه به الالاف منا كل يوم . وما أن يصبح الكنز فى قبضة يده ، حتى يختفى فى الاعماق تاركا ساحرات الماء يصرخن ويولولن بلا جدوى : « أوقفوه ! امسكوا اللص ! » بينما يبدو النهر كما لو كان قد غرق فى الظلام وأخــذ يغيب عن أنظارنا ــ ونصــــعد نحن رويدا رويدا من الاعماق الى فوق ــ الى مملكة السحاب

والان ترى أية قوة فى الدنيا يمكنها أن تقف فى وجــه « البريك » ــ قزمنا ــ بعد أن تقمص شخصيته الجديدة.. شخصية البلوتوقراطي الحقود ؟ وسرعان ماينهمك فى استغلال قوة الذهب فيحكم على قطعان غفيرة من زملائه

الاقزام بأن يكدحوا ويشقوا كالعبيد فوق ظهــر الارض وتحت ظهر الارض يلهب ظهورهم ســوط الجوع الخفى ويدفعهم دفعا الى العمل . وهم لا يرون سيدهم أبدا أكثر مما يرى ضحايا « الاعمال الخطرة » فى مجتمعنا ، حملة الاسهم الذين يبدو أثر سلطانهم مع ذلك ملموسا وظاهرا للعين فى كل مكان يسوق ضحاياه الى الهلاك سوقا . ان الثراء الذى ينتجونه بعملهم يصبح قوة اضافية تزيد من فقرهم واملاقهم . وبقدر مايسرعون فى جمع المال يتسرب المال من أيديهم الى أيدى سيــدهم ليزيدوا من عتــوه وجبروته . ويمكنك أن ترى بنفسك هذا وهو يحدث فى كل بلد متمدن حيث يكدح ملايين الرجال والنساء فى مرض ومسغبة ليكدسوا المزيد والمــزيد من الثراء لاقزامنا من عينة « ألبريك » ، ولا يبقون لانفسهم الا المرض الفظيــع والعذاب الاليم والموت المبكر . وهذا الجزء من قصــة الاوبرا ليس رمزيا ، بل حقيقى بصورة مروعة وواقعى بصورة مروعة وعصرى بصــورة مروعة ، والاثار التى يتركها على حياتنا الاجتماعية اثار فظيعة مدمرة لدرجــة أننا لم نعد نعرف طعم السعادة الا قليلا ، والقليــل الذى نعرفه منها لايكفى لان نأبه له ، أو نخشى ضيــاعه . انه الشاعر وحده بماله من بصيرة نافذة الى صميم الحياة ، وما يجب أن تكون عليه الحياة ، الشاعر وحده هو الذى يضيق ذرعا بمثل هــذه الاوضاع . ولو كنــا جنسا من الشعراء لكنا جديرين بوضع حد لها قبل نهاية هذا القرن الشقى (١) . ولكن بما أننا جنس من الاقزام ، الاقزام فى أخلاقنا وطباعنا وتفكيرنا ، فنحن نعتبرها أوضــاعا لائقة جديرة بالاحترام وتدعو الى الارتياح ونسمح لهــا بأن تضاعف شرورها فى جميع الاتجاهات . ولو لم تكن فى

(١) يكتب شو فى سنة ١٨٩٨

الدنيا قوة عليا ، تعمل ضد البريك ، لكان مصير الدنيا هو الدمار التام

ومثل هذه القوة موجودة فعلا . هنـــاك على أية حال القوة الالهية ، وهناك ذلك الشيء الغامض الذى نسميه الحياة ، الحياة التى تنظم نفسها فى جميع الاشكال والكائنات الحية .. الطيور والوحوش والخنافس والاسماك ، ثم تسمو منها الى تلك المعجزة الانسانية التى تتمثل على هيئة اقزام ذوى مكر ودهاء أو فى هيئة عمالقة كادحين ذوى عضلات مفتولة وقدرة على مواصلة الكد والكدح راغبين أبدا فى شراء الحب والحياة لا باللعنات العدمية والاستنكارات الانتحارية ، بل بالعمل اليدوى الصبور لخدمة قوى عليا أرقى منهم . وهذه القوى العليا بدورها تتمثل فى هيئة أدعى الى مزيـــد من العجب ، هيئة الأفذاذ النادرين قد يسمون بالمقارنة بمن تحتهم ، آلهة ، أى مخلوقات قادرة على التفكير ، مخلوقات تمتد أهدافهـــا بعيـــدا الى ما وراء اشباع الشـــهوات الجسمانية والعواطف الشخصية ، لانهم يدركون ان العالم لا يمكن أن ينهض من وهدة العبودية الا باقامة نظـــام اجتماعى على أساس من الروابط المشتركة التى تتفرع كلها من عقيدة أخلاقية واحدة . ولكن كيف للقوة الالهية ان تقيم هذا النظام فى عالم من العمالقة الاغبياء فارغى العقـــول الذين لا يسعون الا لتحقيق أغراضهم الشخصية المحدودة ولا يمكنهم بحال أن يفهموا الاهداف الآلهية ؟ وهكذا وجدت القوة الآلهية نفسها وجها لوجه أمام الغباء ، فكان عليها أن ترضى بحل وسط . ولـــا كانت غير قادرة على أن تفرض على العالم قانون الفكر الخالص ، اضطرت الى تطبيـــق قانون آلى يتألف من بنود ووصايا وعقوبات وحشية صارمة تقضى على العصاة وتبيدهم . وبالرغم من كل العنـــاية

والحرص والدقة التى صيغت بها هذه القوانين وطبقت ؛ بحيث كانت تمثل فى لحظة اصدارها اسمى فكر وارقاه لدى الذين صاغوها وشرعوها ، الاأن هذا الفكر لايكادينقضى عليه يوم واحد حتى يكون قد نما وتطور واتسع بنمو الحياة وتطورها واتساعها بغير توقف . واذا بقانون الامس يتقاصر عن فكر اليوم شكلا ومضمونا . ومع ذلك ما القول اذا ما جاء مشرعو ذلك القانون وواضعوه من أصحاب المقـــام السامي فانتهكوه وخرقوه قبل أن يبلغ من العمرأسبوعا، ويضربون بأنفسهم المثل فى الخروج على القانون ؟ انهم بذلك يقضون القضاء المبرم على كل ماله من هيبة على رعاياهم ، انهم بذلك يحطمون السلاح الذى صاغوه وصقلوه ليرسوا به قواعد الحكم بما فيه مصلحتهم . وعلى هذا فقـــــد فرض المشرعون منذ البداية على أنفسهم أن يحافظوا من كل بد على قدسية القانون وان يتمسكوا بحرفية القانون وحصانة القانون حتى ولو لم يعد القانون يمثل فـكرهم أو ينسجم معه ، وهكذا سارت بهم الامور حتى وجدوا أنفسهم فى نهاية المطاف منخرطين فى تـلافيف شـــبكة معقدة لا نهاية لها من اللوائح والبنود والتشريعات ــ لم يعودوا يؤمنون بها البتة ، وان كانوا مع ذلك يضفون عليها من القداسة والحصانة ــ بحكم العادة والتقاليد ما يجعلها مرهوبة الجانب ويفرضون على من ينتهكها من العقوبات ما يجعل من المتعذر عليهم هم أنفسهم الفكاك منها . على هذا النحو التجأت القوة الآلهية الى القانون ، وأدى بهـا ذلك الى أن كلفها القانون نصف حريتها ونصف استقلالها ونصف شرفها ــ وسيضطر كبير الالهة لكى يكتسب لنفسه سلطة زمنية ، الى أن يقتلع بيده احدى عينيه رمزا لذلك كما سوف نرى ــ ثم أخذت فى نهاية الامر تتطلع تطلعـــا خفيا وتحن حنينا مستترا الى لحظة قدوم قوة أسمى

منها وارقى : قوة تنهض بعبء تدمير امبراطوريتهاالقانونة الزائفة واقامة جمهورية حقيقيـــة مكانها ، جمهـــورية الفكر الحر ..

وليست هذه بحال ، هى العقبة الوحيدة التى تعترض عالم القانون ، فهناك القوة الغاشمة وضرورة شرائهالتنفيذ القانون ، ثم هناك ضرورة ارغام أكثرية الرعايا على احترام السلطة التى تستخدم هذه القوة الغاشمة . ولكن كيف السبيل الى غرس مثـــل هذا الاحترام فى الرعايا اذا كان الرعايا عاجزين عن فهم افكار مشرع القانون ؟ واضح أن هذا لا يتيسر الا بجعل السلطة التشريعية مرتبطة فىأذهان الرعاية بمظاهر العظمة والهيبة والفخفخة بحيث يكون لها أكبر وقع فى مشاعرهم ، وتقذف بالرهبة فى أفئدتهم . وبالاختصار ينبغى على الاله الذى أصبح مشرعا للقوانين ، أن يصبح فى نفس الوقت عاهلا كبيرا أو ملكا ذا صولجان. فاذا تعذر على عامة الناس أن يعرفوه كشخصية أرقى منهم منزلة فى مجال الفكر والحكمة ، فليعرفوه اذن كشخصية أرقى منهم فى مجال الثراء والبذخ ، وليسكن القـــلاع المنيفة وليلبس الذهب والقطيفة والمخمل الارجـــوانى ، وليولم الولائم الحافلة وليقود الجيوش الجرارة ولتوضع فى يده سلطات الحياة والموت ، بل ليقض على الارواح اما بالخلاص واما باللعنة الابدية بعد الموت . لابـد من شىء يعمل فى هذا الصدد ، بدون فساد أو افساد أى بشرط أن يبقى العصر الذهبى ويدوم . وفى هذا قد لا تجـــد آلهتك لهم حيلة مع الاقزام فليلجأوا اذن الى العمالقـة الامناء الذين يقدمون لك عمل يوم مقابلأجريوم وليحملوهم على تشييد قلعة شامخة تكون مقرا للقوة الآلهية ، قلعـة كاملة من كل شىء : فيها قاعة كبرى ، كنيسة ، برج ، ناقوس ، دوار للاهالى الذين سينمو عددهم ويتكاثرون من

حول القلعة ذات الكنيسة فى سلام وامان ، وبقاء هذا كله ودوامه على أية حال مرهون ببقاء العصر الذهبى ودوامه. وما ان تفلت القوة البلوتونية ـ قوة المال السفلية ـ من عنانها حتى يخطو «البريك» ـ القزم الحاقد المحروم من الحب الى الميدان بملايينه الفاسدة المفسدة . وعندئذ ، تواجـــه الاله خطر الفناء . فما دام « البريك » ـ ومعه سوط الجوع الخفى ـ قادرا على ارغام الاقزام على العمل وقادرا على شراء خدمات العمالقة ، فهو قادر على أن يطفىء أنوار العصر الذهبى كلها ويكسف مظاهرها الزمنية ، وعلى أن يجعل من نفســه سيدا للدنيا مالم تتمكن الآلهة ـ بعقولها المتفوقة ـ من الاستيلاء على ذهبه . وهذه هى محنة الكنيسة فى يومنا هـذا ، وهى بعينها المحنة التى تسبب فيها « آلبريك » واستغلها لصالحه فى أعماق أعماق نهر الراين

المشهد الثـــانى

من قاع النهر ، ترتفع بنا الموسيقى فى سحب وغيــوم بعضها فوق بعض ، وفى نهاية المرتقى نأتى الى خلاء عريض رائق الجو ـ مرعى مترامى الاطراف حيث يرقد «ووتان» اله الالهة وزوجته « فريكا » ، نائمين . وسوف تلاحظ على الفور أن «ووتان» فقد احدى عينيه ، وستعرف حالا انه اقتلعها بنفسه طواعيه كثمن كان لابد من دفعه لزواجه « بفريكا » التى قدمت له بدورها دوطة من ســـلطات القانون كلها . ويقع المرعى على حافة احـد الجـــداول السريعة الانحدار ، والى ما وراء الجدول ، يتعالى شامخا على المرتفعات البعيدة ، مقر الاله الكبير ، وهو قلعة منيفة هائلة شيدت مؤخرا لتستخدم كمقر لعرش الآله الاعور وزوجته الحاكمة بأمرها فريكا . ولم يكن «ووتان» قـد

شاهد بعد هذه القلعة الا فى أحلامه : فقد فرغ من بنائها له للتو والساعة ، عملاقان من العمالقة وهو مستغرق فى نومه . واذا بحقيقة القلعة تتبدى أمامه لاول مرة عندما توقظه فريكا من سباته . وفى تلك المدينة الملوكيــــة ومن خلالها ، عليه أن يحكم مع زوجته هؤلاء العمالقة الاذلاء الخانعين الذين يملكون عيونا فاغرة مبهورة تحملق فى القلاع العظيمة التى شيدتها أيديهم بتدبير الآله ومن وحيه، ولكنهم لا يملكون العقول التى تدبر وتخطط لهم قلاعا يسكنونها هم ، او تكشف لهم سر الالوهية المكنون . اما بصفته الها — فقد قدر له أن يكون عظيما وجبارا وآمنا ، ولكن قدر عليه أيضا أن يكون خاليا من العواطف مبرءا من الانفعالات محايدا لا ينحاز قط أو يميل ؛ لان القوة الآلهية اذا كان لها أن تتعايش مع القانون فيجب أن تخلو من أى ضعف أو ميل مع الهوى أو اعتبار للاشخاص . فتلك صـغائر وتوافه كالحلوى الرخيصة ينبغى أن تترك للعمالقة الاذلاء الاغبياء لتجعل كدهم وكدحهم حلو المذاق فى افواههم ، ثم كان على الالهة بعد ذلك أن يدفعوا لسلطان الاوليمب نفس الثمن الذى دفعه القزم للسلطة البلوتونية ، سلطة المــال السفلى ..

وقد نسى « ووتان » ذلك فى غمرة احلام العظمــة التى ساورته واستغرقته . ولكن فريكا لم تنس . فالشىء الذى يشغل بالها الآن ، هو الثمن الذى اتفق ووتان على دفعه، وأنه قد تعهد فى ذلك اليوم بالذات ، بأن يسلم للعمالقـــة أخت فريكا الآلهة « فريا » ومعها تفاحات الحب الذهبية . وتنهال «فريكا» على «ووتان» تقريعا ولوما لانه بكل أنانية نسى كل شىء عن تعهده ، وفى اثناء ذلك تتبين أنه مثلها هو الاخر راغب عن اتمام الصفقة والوفاء بعهده متكلا وهــو مطمئن على قوة عالمية أخرى تعهدت بمساعدته فى خداع

العمالقة وحرمانهم من مكافآتهم ــ تلك هى قوة الاكذوبة (ومن قبل قال فرديناند لاسال ان للاكذوبة فى أوربا دولة وسلطانا) (١) وهذه القوة لا تكمن فى ووتان نفسه بل فى اله آخر غيره ، اله كان قد انتصر عليه من قبل اسمه «لوكى» اله الذكاء والجدل والوهم والحيلة . وقد وعده لوكى بأن يحرره من العقد الذى التزم به وأن يحتال له على العمالقة ويخدعهم ، ولكن لوكى لم يصل بعد لانجاز ما وعد . حقاً ! لم لا تخذل الاكذوبة « ووتان » ــ كما ألمحت اليه « فريكا » بمرارة ــ فالخذلان هو جوهر الاكذوبة وروحها

وسرعان ما أقبل العملاقان ، وتهرب « فريا » محتمية « بووتان » . وكانت مقاصد العملاقين شريفة تماما ، ولم يخامرهما شك فى اخلاص الاله وشرفه . فها هما قد أوفيا بنصيبهما من العقد حجرا من فوق حجر ، وشيدا القلعة بابا وبرجا ــ وتم انجاز ذلك باخلاص تام وفقاً لتصميم ووتان وبفضل عملهم الجبار وكدحهم الشديد . لقد جاءامن غير شك ليقبضا اجرهما المتفق عليه : « فريا» وتفاحات الحب الذهبية . وهنا وقع ما بدا لهما كشىء لا يمكن ان يصدق أو أن يتصور

بدأ الاله الكبير يتمحك ! وليس فى العمر كله لحظة أشد فجيعة من اللحظة التى يكتشف فيها الرجل العادى الذليل ، الطاعم بعمل يده ــ بعد أن ترك كل المسائل العليا لمن هم أفضل منه وأعلى مقاما ، واثقا فيهم ثقة باطنية خالصة ، محترما اياهم كأشخاص جديرين بالاحترام حتى لقد قبل عن طيب خاطر وظيفته المتواضعة التى يراها لائقة

(١) فرديناند لاسال مؤسس الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى المانيا فى منتصف القرن الماضى . وعبارته التى يتمثل بها :

The lie is an European Power

بمقامه المتواضع فى الحياة ، وهى أن يعفيهم من وعثاء العمل اليدوى الكادح وما فيه من آلام وخشونة ومشقات ـ بعد ذلك كله يكتشف لاول مرة ان سادته «وتاج رأسه» غشاشون نصابون ، جشعون طماعون ، ظالمون غادرون . وترسل الصدمة الهائلة فى رأس أحد العملاقين شعاعا ثاقبا من الفكر يكشف حجب المستقبل ، فيمنحه ذلك فصاحة مؤقتة وينطلق لسانه . وفى تلك اللحظة يرتفع العملاق فوق مستوى عملاقيته الغبية ويلقى أمام الاله الكبير ابن النور ، بانذار خطير بأن كل ما يملكه الاله من سلطان ورفعة وربوبية وملوكية ، يواجه مصيرا حاسما : فاما ان يصمد له واما أن يتهاوى من القواعد . وأن محك ذلك هو ما تبقى لديه كمشرع شريف من عظمة وعدل وحيدة لاتميل . غير أن «ووتان» الذى كانت شخصيته كمشرع زائفة كل الزيف ، وتكذب طبيعة الالهية كل التكذيب ، يرفض هذا الانذار باحتقار . وفى الحال يتلاشى الشعاع الكاشف من رأس العملاق ويضيع فى غمامة المذلة الحقيقية

وفى وسط النزاع ، يقبل « لوكى » أخيرا معتذرا عن تأخيره بمسألة هامة احتجزته مسألة وعد بعرضها على «ووتان» . وعندما يلح عليه «ووتان» بأن يركز التفاته على المسألة الراهنة المستعجلة أى أن يخلصه من ورطته ـ لم يجد لديه ما يقوله الا أن الحق واضح تماما وانه مع العمالقة لامراء . لقد شيدوا القلعة حسب الاتفاق، وبنفسى اختبرت كل حجر فيها ، ووجدت الذى تم عملا من الدرجة الاولى اتقانا وكمالا . ليس ثمة شىء يمكن عمله الا أن يدفع لهم «ووتان» الثمن المتفق عليه ، بتسليم «فريا» للعملاقين . وثارت ثائرة الاله وأعلن أنه لم يوافق على الصفقة الا بعد أن وعده « لوكى » بالعثور على مخرج له منها . ولكن « لوكى » يقول له : لا لقد وعدت بالعثور

على مخرج من هذه الورطة ــ لو كان لمثل هذا المخـــرج وجود ، ولكن لم أعد بايجاد مخرج حيث لا مخرج • لقد ظل يطوف فى جميع أنحاء الارض بحثا عن كنز عظيم يفتدى به «فريا» ويستردها من العمالقة ، ولكنه لم يجد فى الدنيا كلها شيئا يغرى الرجل بالتفريط فى امرأته التى يحبها • وهذا ــ بالمناسبة ــ يذكره بالمسألة التى وعد بعرضها على «ووتان» • لقد اشتكت له عذارى الراين من أن «آلبريك» سرق منهن الكنز ، وهو يذكر هذه الواقعة لانها هى الاستثناء العجيب للقانون الكونى العام الذى ينص على أن الحب لا يشترى بالمال ، ذلك أن سارق الكنز هذا كان قد أقسم حانثا بقسم الحب للحصول على الكنوز الاسطورية فى الامبراطـــورية البلوتونية ، وعن طريقها يسيطر على العالم

وما أن ختم «لوكى» قصته حتى انحنى العمالقـــــة وانكمشوا وتصاغروا حتى أصبحوا أقصر قامة من القزم • ان آلبريك لم يحنث بقسم الحب الا عندما أنكر عليـــه الحب وحرم عليه ، فاستخدم الحب أداة يغتـــال بهـــا احترامه لنفسه بقسوة ووحشية . غير أن العمالقة وقد وجدوا الحب فى متناول ايديهم فعلا ، « فريا » وتفاحاتها الذهبية ، اذا بهم يعرضون التخلى عنها فى مقـــابل كنز «آلبريك» • لاحظ أن الكنز وحده هو ما يريدون • فليست لديهم أحلام عنيفة للسيطرة أو للتسلط على من فوقهم أو لصياغة العالم وفقا لاى فكرة من ابتداعهم • فهم ليسوا بأذكياء أو طموحين : انهم بكل بساطة يشتهون المال ــ ذهب آلبريك ــ هو مطلبهم • أما الذهب واما أن يحملوا معهم « فريا » حسب الاتفاق ، وقد حملوها الان فعـــلا كرهينة ، تاركين ووتان يفكر فى انذارهم النهائى

وبذهاب فريا ، تذبل الالهة وتهبط عليهم الشيخوخة : لقد تبينوا الآن أن «فريا» وتفاحاتها الذهبية التى اضاعوها

فى تلك الصفقة الخاسرة ، أصبحت بالنسبة لهم مسـألة بقاء أو فناء . فحتى الآلهة لا يمكنهم أن يعيشوا بالقانون والقوة الآلهية وحدها مهما شمخت قلاعهم ودامت روعتها الى الابد . لوكي وحده هو الذى يقف جانبا غير متـأثر بشيء : الاكذوبة بكل أعاجيبها الماكرة ، بومضاتها وتقلباتها وسرابها المتنقل ، هي مظهر خارجي مجرد ليس له جسد او مضمون ولا يحتاج الى طعام . ماذا على «ووتان» أن يصنع؟ ويبدو الجواب على هذا واضحا كل الوضوح أمام «لوكي» الذى يقول بصراحة تامة : يجب أن ننهب ذهب آلبريك • ولا يقف دون ذلك بالطبع الا المانع الادبى وحـده .. «فآلبريك» على كل حال مخلوق مسكين أعشى البصر قميء ساذج يستطيع أى اله أن يتفوق عليه فى حـدة البصر وتستطيع أية اكذوبة ان تتفوق عليه فى المكر والدهاء . اذن : نزولا .. نزولا الى القاع ! «ووتان» «ولوكى» يهبطان الى المنجم ، فى جوف الارض ، حيث يكدس عبيـد «آلبريك» أكوام الثراء من أجله تحت نير ذلك السـوط الخفى .. سوط الجوع

المشهد الثالث

هذا المكان الكئيب المقبض ليس من الضرورى أن يكون منجما : قد يكون مصنعا من مصانع الكبريت بما فيه من فوسفور أصفر ، وعظام العمال التى نخرها الفسـفور خاصة عظام الفك ، وبأرباحه الكبيرة لحملة الاسـهم ، وبالعدد الكبير من رجال الدين الحاملين لهذه الاسهم ، أو قد يكون مصنعا للرصاص الابيض او أحد المعامل الكيميائية أو مصنعا للفخار أو حوش ورشة للسكك الحديدية او دكان ترزى أو مغسلة منداة ببخار الماء المختلط ببخـار العرق والخمر أو مخبزا أو متجرا كبيرا أو أى محـل

آخر من المحلات التي يضحى فيها بحياة الانسان وراحته كل يوم لكى يتمكن مخلوق ما ، جشع وغبى من ان يركع عند قدمي معبوده البلوتونى ويرتل صلاة مزهوة منتشية قائلا :

أحمدك اللهم ! جعلتنى آكل بينما يتضـــور الآخرون جوعا

وجعلتنى أغنى بينما يبكى الآخرون ويعولون
مثل هذه النعم تفيض على من قبلك
كما لو كنت أنا ـ وحدى ـ محل عنايتك

وفى المنجم ـ فى جوف الارض ـ حيث تتردد أصـداء المطارق والسندانات ممسكة بها أيدى الاقزام الكادحين كدح التعاسة والشقاء لتكدس أكوام الثراء لسيدهم ، عهـد «آلبريك» الى شقيقه «مايم» أو المعروف أكثر من ذلك باسم « ميمى » بأن يصنع له خوذة يرتديها على رأسه . ويدرك ميمى ادراكا غامضا أن تلك الخوذة سوف تنطوى على قوة سحرية معينة . فيحاول الاحتفاظ بها ، ولـكن « آلبريك » ينتزعها منه ويريه ـ بعـد أن جعله يدفع الثمن غاليا ـ أن الخوذة هى القناع الذى تنكر به السوط الخفى ، وأن من يرتديها يستطيع أن يظهر فى أى هيئـة يشاء أو أن يختفى تماما عن الانظار . وهذه الخوذة مع ذلك ـ أداة مألوفة تماما نراها فى شوارعنا العصرية حيث تتخذ بصفة عامة هيئة القبعة . فتحت القبعة العاليـة يختفى الرجل او يتنكر ليصبح واحدا من حملة الاسهم ثم ليصبح فى مختلف الهيئات والاشكال : فالقبعة العالية تجعله يبدو فى هيئة المسيحى الورع فاعل الخير المتبرع للمستشفيات أو زوج صالح أو اب نموذجى أو مواطـن انجليزى فطن وعملى ومستقل التفكير أو فى غير ذلك من الهيئات بينما الرجل فى حقيقة أمره ، طفيلى يستحق

الرثاء ويعيش عالة على الصالح العام ويستهلك الـكثير ولا ينتج أى شيء ، لا يشعر بشيء ولا يعرف أى شيء ولا يؤمن بشيء ولا يفعل الا كما يفعل سائر الناس أو لانه يخشى الا يفعل كما يفعل سائر الناس أو على الاقل يتظاهر بانه يفعل كما يفعل سائر الناس

وعندما يصل «ووتان» و «لوكى» يزعم «لوكى» أنه أحد معارف «آلبريك» القدماء . ولكن القزم لاثقة عنده فى هؤلاء الغرباء المتمدينين : فالجشع بغريزته لا يثق بالذكاء أو بالثقافة حتى ولو ارتدت الثقافة رداء الشعر وخطرت أمامه بصحبة القوة الالهية مع أنه يحسد الشعر على روعته ويحسد القوة الآلهية على هيبتها وجلالها . وينفجر «آلبريك» فى وجهها بعاصفة رهيبة من التفاخر والتباهى بالقوة التى أصبحت الآن طوع يمينه وملء قبضته . ويجعل يخطط لهما الدنيا كما سوف تكون بعد أن تكتمل له السيطرة عليها أى بعد أن تتبدل أجواؤها الوادعة ووديانها ومراعيها الخضراء لتصبح دخانا أغبر وقذارة ونفايات لفظتها المصانع ، وليصبح المجتمع قائما على العبودية والمرض والدمامة والقذارة يخفف من وطأتها الادمان على الخمر والعربدة وتحكمها عصا رجل البوليس وبعد أن يحل الخراب بكل شيء ، ما عدا الاماكن الجميلة والفتيات الحسان التى يشتريها بماله وفق هواه واشباعا لشهواته الخاصة .. فى مملكة الشر هذه ، يرى «آلبريك» الا وجود لقوة غير قوته ولا قيام لسلطان غير سلطانه . أما هؤلاء الآلهة بأخلاقياتهم وشرائعهم وعقولهم وثقافتهم المرهفة ، فليذهبوا الى أسفل سافلين ولتنطو صفحتهم بالموت جوعا وحرمانا الى غير رجعة . وهو يحذر «ووتان» و «لوكى» أن يلقيا مثل هذا المصير ، وتحمل تحذيره صرخة تنطلق منه مهولة بشعة فيها من الخبث بقدر ما فيها من

الخشونة . ويستولى على ووتان حنق شديد يهز أعمق أعماقه ، فهو لا يستطيع بعد ذلك ان يكتم اللعنات التى تنفجر كالحمم فى داخله . ولكن «لوكى» يبقى جانبا لا يتأثر بشيء : فليس لدى لوكى مشاعر اخلاقية ،فالحنق والثورة من أجل الكرامة والشعور بالمذلة كلها سخافات بالنسبة له كالحماسة والانفعال . بل انه ليرى فى الموقف متعة فذة لا نظير لها ! و «لوكى» لايخلو من لمسة المرح وخفة الروح . ذلك أن القزم عندما حرك فى ووتان حميته الاخلاقية ، قد أزال المانع الادبى الذى كان يزعمه من أن يصبح سارقا . الآن سوف يقدم «ووتان» على سرقة القزم بلا وازع ولا مانع ولا ندم ، ألم يثبت لديه أن من أسمى واجباته أن ينتزع هذه القوة من براثن هذه الايدى الشريرة وأن يستخدمها بنفسه لصالح القوة الآلهية ، وهكذا يسمح ووتان للوكى بعد أن استند الى اسمى الاسانيد الاخلاقية ، بأن يستخدم أسوأ ما فى جعبته من حيل والاعيب

وبشيء قليل من التملق المقنع بالدهاء والمكر ، ينتهى أمر « آلبريك » : يتظاهر « لوكى » بأنه بات يخشى جانبه ويرتعد خوفا من هيبته ،واذا بالقزم يبتلع الطعم بلا تردد. ويتساءل لوكى كيف «لآلبريك» أن يحترس من حقد ونقمة الملايين من عبيده ، الا يحاولون - وهو نائم -سرقة الخاتم المسحور رمز قوته الذى صاغه من ذهب الراين ؟ فيجيب « آلبريك » مستهزئا : تحسب نفسك ذكيا جدا؟ ثم يتفاخر من جديد بما لخوذته المسحورة من خوارق وأعاجيب . ويرفض لوكى ان يؤمن الا اذا رأى رأى العين. ولا يجد «آلبريك» مايدخل السرور على قلبه من ان يجعله يشاهد قواه الخارقة فيرتدى خوذته ويجعل نفسه فى هيئة أفعى هائلة بشعة المنظر . ويشبع « لوكى » غروره

حتى الحافة عندما يتظاهر بأنه فقد صوابه من الروع ، ولكنه يتجاسر فيلفت نظره الى أنه قد يكون من الافضل مع ذلك لو استطاعت الخوذة تحويل صاحبها الى مخلوق صغير دقيق بحيث يمكنه ان يختبىء وينسل في اصغر شق. وبكل سرور وبسرعة تامة يحول «آلبريك» نفسه الى ضفدعة . وفى لمح البصر ، يضع « ووتان » قدمه عليه . ويمزق « لوكى » الخوذة تمزيقا : ويكبلون القزم بالاغلال ويجرونه جر السجين عبر طبقات الارض السحيقة ، من الاعماق الى السطح ، الى المرعى الفسيح القريب من القلعة ..

المشهد الرابع

وهناك فى القلعة ، يتعين على «آلبريك» أن يفتدى نفسه وحريته بدعوة عبيده وارقائه من الاعماق لكى يضعوا عند قدمى ووتان كل ماجمعوه وكدسوه من الذهب . وبعد ذلك يطالب بحريته ، ولكن ووتان يتمسك بالخاتم أيضا. وهنا يشعر القزم — كما شعر العملاق من قبل — أن الركائز التى يرتكز عليها العالم تميد وتتزلزل من قواعدها بعد أن يكتشف أن ما يتصف به من جشع ووضاعة وخسة، تتصف بها أيضا القوة العليا ، الاسمى منه مقاما . قد يكون — فى نظره — من العدل الطبيعى ان تعمل روح الشر اليائسة المحرومة من الحب على ابتكار مزيد من قوى الشر الخبيثة التى لا يستطيع ابتكارها احد حتى القوة الالهية نفسها — اما أن تلجأ تلك القوة الآلهية الى نفس الاساليب فتسرق قوى الشر الخبيثة من روح الشر ثم تستخدمها بنفسها وتسلطها عليه ، فذلك انحراف شنيع تميد منه أركان العالم . ويتوسل الى ووتان أن يصفح عنه لاعتناقه الاثم وايمانه بالشر .. ويبدو توسله فى مظهر رهيب مروع .

ولكن بلا جدوى . ويستند «ووتأن» مرة أخرى الى حميته الاخلاقية فيذكر «آلبريك» بأنه سرق الذهب من عذارى الراين ويقعد منه في مقعد القاضي العادل ، فارضا عليه أن يعيد المسروقات الى أصحابها . ولما كان آلبريك يعلم تماما أن القاضي سيأخذ المسروقات ويضعها فى جيبه ، فقد نزع الخاتم من اصبعه .. ويعود على الفور مرة أخرى فقيرا معدما كما كان عندما قدم متعثرا بين الصخور الزلقة فى أعماق الراين ، ينهض مرة ليقع مرة أخرى

هذه حال الدنيا . ففى ماضى الايام كان الفارس من النبلاء المترفين يعتصر دم العامل المسيحى حتى يجف عوده ، وكان المرابى اليهودى يعتصر دم الفارس المترف حتى يجف عوده ، وكانت الكنيسة والدولة والدين والقانون ينقضون على اليهودى ليعتصروا دمه حتى يجف عوده ، ويرون فى ذلك فريضة مسيحية واجبة الاداء . وعندما غرست قوات الجشع والحرمان من الحب حرابها فوق اطلال أنظمتنا الرأسمالية القذرة ، يرويها نظام خفى للملكية ـ الملكية التى تنهب الفقراء وتشوه وجه الارض وتفرض نفسها كلعنة كونية شاملة تصيب الجميع حتى الاسخياء والانسانيين منا ـ عندئذ يثبت الدين والقانون عجزهما عن اكتشاف فساد ذلك النظام لان طبيعتهما موجهة نحو الحياة والاقتصاد والمصلحة العامة وليست موجهة نحو الفساد والضياع والموت . فلم يحرصا على مصادرة قوى الشر بالشر ومقاومة الخديعة بالخديعة والعنف بالعنف مهما كان الزعم بأن ذلك فى سبيل الخير . وهكذا يقع المحظور : فبعد ان جعلت الكنيسة والقانون والعقل من سرقة الشعب قضية عامة بدعوى ان سرقة الشعب هى فى سبيل الشعب ، ويبررتها التبرر الانسانى ، اصيبت الكنيسة بصفة خاصة بصدمة زلزلت كيانها لان عدم

اخلاصها لنفسها أضر بها اكثر مما أضر بحليفيها المتواطئين معها تلقائيا ، فبعد أن تجلل الكنيسة بالعار وتتلاشى ثقة الناس بها ، ينقلب عليها القانون والعقل ، بل يوسعانهـا سلبا ونهبا ، وفى ذلك يلقون من لوكى كل معاونةوترحيب كما حدث فى فرنسا وايطاليا مثلا (١)

ويعود العملاقان بالرهينة ، وما ان تتبدى فريا للانظار حتى تدب الحياة فى القوة الآلهية وتخضر وتورق وتزهر من جديد • هاهو ذا الذهب جاهز للعملاقين • ولكن ما هذا الذى يحدث ؟ عندما حانت اللحظة التى يفارق فيها العملاقان فريا ، لم يعد الذهب يغريهما ويسيل لعابهماكما كان يغريهما ويسيل لعابهما من قبل ، واذا بهما يشعران بمرارة غصة وهما يخليان سبيلها • لا ، لن يخليا سبيلها الا اذا جمعوا لهما من الذهب كومة هائلة تحجبها وتحجب جمالها عن عيونهما تماما ـ لن يخليا سبيلها الا بعـد أن تعلو كومة الذهب وتعلو حتى لا ترى عيونهماالذهبولاشىء غير الذهب ـ أى حتى يقف المـال بينهما وبين كل شعور انسانى • لم يكن هناك من الذهب ما يكفى لتحقيق هذا المطلب ، ويشرع لوكى مستخدما خبثه ودهاءهيجمعالذهب ويبسطه ، يعلو به ويهبط ، يكومه على هذا النحو او ذاك، ولكنه مهما فعل بالذهب ، فلن تزال هناك ومضة من بريق شعر فريا الذهبى تعبر من فوق الذهب فتلمحهـــا عين العملاق «فافنير» ، ولا يجدون مناصا من أن يلقوابالخوذة المسحورة على رأس الكومة لاخفاء هـــذا البريق عن عين العملاق • ومع ذلك استطاعت عين « فاسوليت » ـ توأم العملاق « فافنير » ـ ان تلتقط شعاعا من عين فريا منخلال

(١) لعل شو يعنى انقلاب الايديولوجية اللبرالية والعقلانية (وهى أيدلوجية البورجوازية) على الكنيسة والدين فى القرن الثامن عشر • وكانت فرنسا وايطاليا مسرحا لها

شق فى الكومة فأصبح عاجزا عن التخلى عنها . ولم يكن هناك ما يسد الشق الا الخـــاتم ، وكان ووتان تواقا الى الاحتفاظ بذلك الخاتم يحركه فى ذلك جشع يضارع جشع آلبريك . فقال لا ، ولم يتمكن الآلهة الآخرون من زحزحته عن موقفه واقناعه بأن فريا تساوى هذا كلـه وزيادة . فالحب عند كبير الآلهة ليس هو الخير الاسمى . ولكن الخير الاسمى عنده هو السرور الشامل الذى يغرى جميع الكائنات بالعمل بحيوية متجردة ، فليس ثمـة قوة فى الوجود يمكن أن يحنى ووتان رأسه لها ويعبدها الا قوة واحدة : قوة الحياة نفسها ، الحياة بمعجزاتهـا التى تتحقق كل يوم ، الحياة بامكانياتها اللا نهائية . وهـكذا لا يرضخ «ووتان» ولا تلين قناته الا بعد أن يتناهى اليه صوت الارض الخصبة .. الارض أم الحياة ، فيبلغه بأن فى صدرها المحتدم بالحياة تكمن بذرتهم جميعا : الآلهـة والاقزام والعمالقة والقانون والاكذوبة أو ما الى ذلك من الاشياء والكائنات ، وتكمن أيضا بذرة شىء آخر لعله أن يكون أرفع وأسمى مقاما منه هو نفسه ، من كبير الآلهة : شىء سيحل محله ويقطع جميع الارتباطات والمحالفـات وينهى جميع المعاهدات والصفقات ، التى كلفته حتى الآن احدى عينيه . وتنهض «أردا» أم الحياة الاولى من مرقدها فى قلب الارض تحذره وتنذره وتأمره بأن يتخلى عن الخاتم ويصدع بأمرها ، ويضم الخاتم الى كومة الذهب ، وتنقطع على الفور كل رابطة تربط العملاقين « بفريا » ويتلاشى منهما كل شعور حتى بوجودها

ولكن أى قانون بقى لهذين العملاقين المسكينين الغبيين الكادحين ، ليحكم بينهما بعد ان أصبح على كل منهما أن يتنازل للآخر عن نصف الكنز ، الكنز الذى دفع كل منهما فيه الثمن كاملا بتخليه عن « فريا » ؟ .. واذا بهمـا يحكم

العادة المجردة ، يحتكمان الى الذهب ليقضى بينهما ، غير أن الذهب وقلبه مشرئب الى قوى اسمى منه ، يشيح بوجهه عن تلك القوى المنحطة الوضيعة . فيسوى العملاقان الامر فيما بينهما كما يسويه ذئبان مختصمان . يصرع «فافنير» أخاه بهراوته فيرديه قتيلا . وانه لشيء بشع يراه ويسمعه أى انسان يعرف كم من الدماء سفكت في الدنيا بهذه الطريقة نفسها وبأيدى كادحين في الارض عوملوا بوحشية حتى صاروا هم وحوشا ، كادحين كانوا أمناء وشرفاء ومخلصين حتى خانهم من فوقهم وغدروا بهم واغتصبوا حقوقهم . وينطلق «فافنير» وحده بغنيمته ، غنيمته التى لا فائدة له فيها قط . فليس لديه من الدهاء ولا من الطموح ما يجعله يقيم لنفسه امبراطورية بلوتونية بها . كان يملكها لمجرد أن يحرم الآخرين منها . ذلك هو الغرض الوحيد الذى أوحى به اليه الكنز . وهكذا ذهب الى أحد الكهوف وجعل يكوم الذهب ويكوم فى كومة هائلة ، وحول نفسه بواسطة الخوذة المسحورة الى تنين وكرس حياته لحراسة الكنز ، اى لان يكون عبدا له بقدر ما يكون السجان عبدا لسجينه . ولقد كان خيرا له وابقى لو أنه ألقى به ثانية فى الراين وحول نفسه الى حيوان من أقصر الحيوانات عمرا ، حيوان يستطيع على الاقل أن يستمتع بركضة يركضها فى ضوء الشمس طليقا خالى البال . ومع ذلك فطراز العملاق «فافنير» طراز عادى ومألوف عندنا تماما ، ولا يثير دهشة أو غرابة . فعالمنا متخم بأشخاص يضحون بكل عواطفهم وبأجمل مشاعرهم ، ويصرعون رفاقهم بجنون ووحشية من اجل المال ، فاذا ما حصلوا على المال عجزوا عن الاستفادة منه ـ أقل فائدة ـ وأصبحوا عبيدا له . وما أتعسهم من عبيد !

وسرعان ما تنسى الالهة «فافنير» وأمره ، فى غمرة سرورهم

«بفزيا» واحتفالهم بها . ويقفز «ذونار» اله الرعد فوق احدى القمم الصخرية ويدعو اليه السحب كما يدعـــو الراعى قطعانه . وتلبى السحب نداءاته واذا به وبالقلعة يختفيان وراء جحافلها السوداء . والى جـــواره يسرع الاله «فروة» اله قوس قزح . وبضربة من مطرقة «دونار» يتشقق الغمام الاسود فى جميع الاتجاهات بشرارات البرق الخاطفة وتتصدع السحب كسفا ، وبينما يصفو الجـو رويدا رويدا ، تتبدى القلعة للانظار بكامل جلالها وبهائها ، ويكون الوصول اليها الآن عن طريق قوس قزح الذى مده الاله « فروة » كالقنطرة عبر الجدول السريع الانحدار

وفى جلال هذه اللحظة السنية ،تخطر «لاوتان» فكرة عظيمة . فهو ، كبير الآلهة ويضمر فى صدره كل التطلعات لاقامة دولة للفكر الرفيع وللشرف وللنظام وللعدالة ،ومع ذلك تبين فى ذلك اليوم أنه لم يظهر على الارض بعد ،جنس من المخلوقات حقق مثله الاعلى هذا بطريقة فطرية تلقائية تماما . لقد تبين بنفسه مبلغ عجز القوة الالهية وفشلها الذريع فى أن تحقق ما تتصوره وما تتخيله بنفسها .. حقا .. ! ان الالوهية شىء جدير بالرثاء !

ولكن خصوبة الام الاولى لم تنفد بعد . فالحياة التى تتدفق منها تصعد وتصعد الى أعلى دائما ، الى تنظيمات أرقى والى مخلوقات ارقى والى كائنات أرقى من الضفدعة والافعى الى القزم ، ومن الدب والفيل الى العملاق ، ومن القزم والعملاق الى الاله مبدع الافكار الذى يملك مفهوما واضحا عن العالم ، صاحب المثل العليا . لمـاذا ينبغى على الام ، على الحياة ان تتوقف عند هذا الحد ؟ لماذا لا ترتقى من الاله الى البطل ؟ الى ذلك المخلوق الذى يتحول فيــه فكر الاله العقيم العتيد،الى ارادة فعالة والى حياة ايجابية منطلقة ؟ المخلوق الذى سيشق طريقه مباشرة الى كبــد

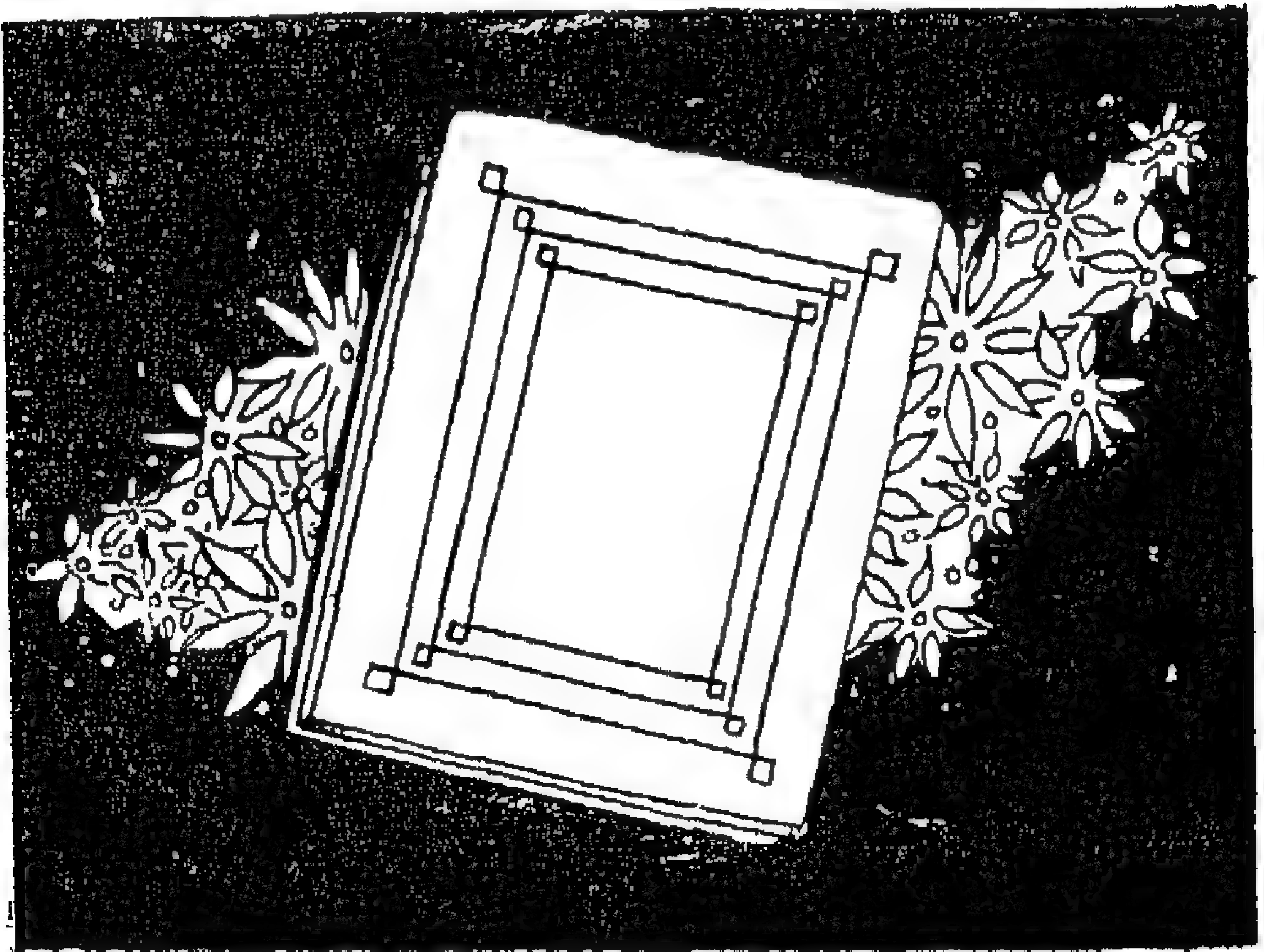
الحقيقة متخطيا قوانين «فريكا» وأكاذيب «لوكى» بقـوة تغلب قوة العمالقة ودهاء يغلب دهاء الاقزام ؟ أجل ،على «اردا» الام الاولى ان تلد له جنسا من الابطـــال يخلص العالم ويخلصه هو نفسه من سلطاته التى تقيــده ومن صفقاته التى تشينه وتزرى به . هذا هو الخاطر العظيم الذى سطع فى فكر «ووتان» كبير الآلهة ، وهو يتجه نحـو قنطرة قوس قزح ، ويدعو اليه زوجته لكى تأتى وتقيم معه فى « الفالالا » أو بيت الآلهة

ويستولى عليهم اجمعين بهاء «الفالالا» ويأخذ بألبابهم جلالها .. فيما عدا «لوكى» الذى يقف جانبا ،متواريا وراء الستار ينظر الى هذا النظام المشترك من الحكم ، المشترك بين ما هو قانونى وما هو الهى . هو يحتقر هذه الآلهـة كلها بمثلها العليا وتفاحاتها الذهبية ويقول : « انى لاخجل واستحى من نفسى أن تكون لى أية ارتباطات أو معاملات مع هـذه المخلوقات العقيمة التى لا غناء فيها . » وعلى هذا ، يسير فى أعقابهم الى قنطرة قوس قزح ، ولكن ما ان تطأها الاقدام ، حتى تعلو وتتصاعــد من تحتهم ولولة عذارى الراين ، يبكين كنزهن المفقود . واذا «بلوكى» يصرخ ساخرا بهن سخرية وحشية : « أنتن يا هؤلاء ! يا من تقطن هناك فى أعماق النهر ، لقد اعتدتن حتى الآن على التمرغ فى بريق ذهب الراين كما يتمرغ الناس فى ضوء الشمس، من الآن ستقنعن بالتمرغ فى سناء الآلهة وجلال عظمتها !» فيجبنه العذارى قائلات : « ان الحقيقة هنا ، فى الاعماق، فى الظلام ، اما ما يتوهج بالنور الباهر هناك فوق الاعالى، فزيف وبهتان »

وعلى أثر قولهن هذا ، يمر موكب الآلهة من فوق القنطرة الى قلعتهم المجيدة ، مقرهم المكين

الفصل الرابع

- شو وفاجنر - فاجنر الثورى .
- شو وشكسبير - لوم الشاعر .
- شو وإبسن - المثاليات والمثاليون .
- شو وإبسن - المرأة الكاملة .
- شو وإبسن - مغزى المسرحيات .



شو وفاجنر ـ فاجنر الثورى

قبل ان اترك هذا الشرح الذى قدمته لاوبرا « كنز الراين » «Rheingolde» ينبغى أن أتبادل مع القارىء كلمة أو كلمتين بهذا الشأن

ان هذه الحلقة « كنز الراين » أقل حلقات الرباعية « خاتم النبلونج Neblung's Ring حظا من اقبال الجمهور . فمسرات الناس وآلامهم تنحصر عادة فى المجال الشخصى والعائلى ، وعقائد الناس وأفكارهم السياسية هى عقائد وأفكار تقليدية بحتة تكتنفها الاوهام والخزعبلات ،فأوبرا « كنز الراين » فى نظرهم تتلخص فى أنها صراع يدور بين نصف دستة من الشخصيات الاسطورية حول « خاتم » ذهبى ، ويستغرق صراعهم هذا ساعات من الزجر والغش والغدر . ثم من منظر واحد طويل فى منجم مظلم كئيب تصاحبه موسيقى مظلمة كئيبة ولا تتاح لهم لمحة واحدة من شاب وسيم او فتاة حسناء . وليس من بين الجمهور من يستطيع أن يتتبع الحلقة مبهور الانفاس حقا ، الا من كان لديه وعى أرحب وأفق أوسع من ذلك . هؤلاء يرون فى « كنز الراين » مأساة التاريخ الانسانى برمتها ، وفظاعة المحنة التى تستغرق الدنيا فى الوقت الحاضر . رأيت فى

« بايروث » لفيفا من السياح الانجليز وقد تجرعوا غصص الملل واحتملوا كؤوس العذاب من منظر « آلبريك » رأيتهم ينهضون وسط المشهد الثالث ويكادون يشقون طريقهم عنوة الي خارج المسرح المظـــلم يلتمســـون غابة الصنوبر المشمسة فى الخارج • ورأيت أناسا آخرين تأثروابالمشهد تأثرا عميقا ويكاد الحنق يخرجهم عن طورهم من هـــذا الازعاج الذى سببه لهم الخارجون • غـــير انه كان من الطبيعى جدا ان يفعل السياح التعساء ما فعلوه لانه لا توجد استراحة بين الفصول اثناء عرض مقدمة « كنـــز الراين » لتكون مهربا لمن يريد ان يهرب • ويمكن القول على وجه التقريب أن الناس الذين ليس لديهم أفكار عامة أى ليس لديهم لمسة من اهتمام الفيلسوف ورجل الدين بالجنس البشرى عموما ، لا يمكنهم ان يستمتعوا بمقدمة « كنز الراين » كعمل درامى ! ربما وجدوا ما يعوضهم عن ذلك فى شيء من الموسيقى البديعة المفرطة فى الابداع ، والتى قد تبلغ أحيانا مرتبة العظمة الحقيقية ، فتتيح لهم من حين لاخر نجوة من الصراع الدائر بين «آلبريك» و « ووتان » ، ولكن اذا كانت طاقتهم محدودة واستعدادهم للاستماع يتساوى بما لديهم من فهم للعالم ، فخير لهم وللعالم أن يبقوا بعيدا ••

والآن ، أيها القارىء الواعى ، لقد بلغنا من مسيرتنـــا من فاجنر ، نقطة سيأتى عندها بكل تأكيـــد واحـــد من المغفلين فيعترض سبيلنا ويعلن أن « كنز الراين » هى ما يسمونه عملا فنيا خالصا اى من أعمال الفن الخالص لوجه الفن ، وان فاجنر لم يحلم قط بحملة الاسهم ولم تخطر بباله قط القبعات العالية ولا مصانع الرصـــــاص الابيض ولا مشاكل الصناعة والسياسة ولم ينظر اليهـــا لا النظرة الاشتراكية ولا النظرة الانسانية • ولا حاجة

بنا الى مجادلة هذه الوقاحات ، فمن الايسر اسكات أصحابها بحقائق دامغة من واقع حياة فاجنر نفسه

ففى سنة ١٨٤٣ حصل فاجنر على منصب مدير للاوبرا فى درسدن بمرتب ٢٢٥ جنيها فى السنة مع المعاش . وكانت هذه وظيفة دائمة وتعتبر من وظائف الدرجة الاولى فى خدمة الدولة السكسونية وتعنى ان لصاحبها مركزا اجتماعيا مضمونا وموردا ثابتا للعيش . وفى سنة ١٨٤٨ سنة الثورات ، كانت الحكومات الاوروبية تتألف فى ذلك الوقت بالاشتراك بين الكنيسة والدولة وقد عجزت الطبقة الوسطى الساخطة عن انهاضها من عبوديتها للتقاليد وللنظام الطبقى وللقانون عندما توسلت اليها بالذرائع الاخلاقية أو بالاثارة الدستورية لتنفيذ الاصلاحات اللبرالية التى كانت تطالب بها . فكانت أن ضمت الطبقة الوسطى قضيتها الى قضية الطبقة العاملة الاجيرة الجائعة ، ولجأت الى الثورة المسلحة . وامتدت شرارة الثورة الى درسدن فى سنة ١٨٤٩ . ولو كان فاجنر مجرد موسيقى أبيقورى مدلل أو قطبا تافها من أقطاب الفن الذين يعزفون عن السياسة والاشتراك فى السياسة ، أو لو كان فنانا مجردا كما قد توحى به كلمة فنان مجرد فيما يبدو لاذهان كثير من النقاد والهواة .. وبالاختصار لو انه كان مخلوقا على غرارهم تفاهة وبلادة وغرورا لما كانت به حاجة لان يساهم فى المعارك السياسية الطاحنة التى كانت دائرة فى أيامه ، بأكثر مما ساهم بيشوب (١) فى الزوبعة السياسية التى ثارت حول قانون الاصلاح الانجليزى فى سنة ١٨٣٢ ، أو بأكثر مما ساهم به .

(١) H.R. Bishop ١٧٨٦ — ١٨٥٥ قائد أوركسترا ومؤلف موسيقى صاحب اغنية Home, Sweet Home المشهورة

ستراندل بنيت (١) فى حركات الميثـــــاقيين الانجليز وأنصار حرية التجارة . ولكن هذا هو ما قام به فاجنر فعلا : قدم التماسا يائسا للملك مطالبا فيه الملك أن يطرح عنه قيوده وان يستجيب لحاجة العصر ومطالب العصر وان يأخذ على عاتقه واجبات الملك الحقيقية ويقود شـعبه للخلاص من الشرور التى نزلت به ولتقويم الاعوجـاج الذى لم يعد يطاق . (ولك أن تتصور شعور الملك المسكين حين وصله الالتماس) . وبعد أن وقعت الواقعة ، انضم فاجنر الى صفوف الفقراء الذين كانوا على الحق ضـد الاغنياء الذين كانوا على الباطل . فلمـا فشلت حـركة الانقلاب وحلت بها الهزيمة اختير ثلاثة من زعماء الانقلاب خصيصا ليحل بهم الانتقام والتنكيل وهؤلاء الثلاثة هم : أوجست روكل صديق فاجنر الـذى وجـه اليـه سلسلة من الرسائل ذات الشهرة الذائعة ، وميشـيل باكونين الذى أصبح فيما بعد الداعية الشهير للفوضوية الثورية ، ثم فاجنر نفسه . وقد فر فاجنر الى سويسرا . أما روكل وباكونين فقـد احتمـلا فترات مختلفـة من السـجن . وحل بفاجنر طبعـا ، الافلاس التام ماليـا واجتماعيا . (وكان ذلك مبعثا لرضاه التام) . ودامت فترة منفاه اثنتى عشرة سنة . وكان أول خاطر خطر له ، ان يعمل على اخراج أوبراه « تانهاوزر » فى باريس . وكانت ثمة فكرة تدور فى رأسه فى الوقت نفسـه هى أن يشرح للباريسيين وجهة نظره فوضع كتيبا بعنـوان : « الفن والثورة » تدل النظرة الخاطفة اليه ، على مدى عطفه التام على الناحية الاشتراكية فى الثورة وعلى مدى

---

(١) Strendale Bennette ١٨١٦ — ١٨٧٥ مؤلف موسيقى انجليزى من أعماله « عذراء أورليانز » مأخوذة من مأساة الشاعر فردريك شيللر

تحرره التام من سلطان الكنائس القائمة فى أيامه . وظل ثلاث سنوات يدفع الى المطبعة بسيل من الكتيبات ، كان بعضها عبارة عن ابحاث بارعة ومقالات رائعة الصياغة سواء من حيث حجمها أو مستواها الفكرى الرفيع ، ولكنها كانت مع ذلك وبصفة اساسية كتيبات مهيج ثورى مطبوع : وتدور حول الثورة الاجتماعية والدين والحياة والفن ونفوذ المال ونفوذ أصحاب المال . وفى سنة ١٨٥٧ طبعت قصيدة « الخاتم » سرا ، وفى سنة ١٨٥٤ أى بعد انقلاب درسدن بخمس سنوات تمت الصياغة الموسيقية « لكنز الراين » الى آخر ضربة من ضربات الطبول ..

هذه الحقائق مسجلة رسميا فى المانيا حيث يصف منشور حكومى فاجنر باختصار بأنه « له نشاط سياسى خطر » ويمكن الرجوع الى هذا المنشور الى يومنا هذا ، كما ان الكتيبات فى متناول يد القراء الانجليز الان مترجمة بقلم المستر آشتون اليس . فاذا كان الامر كذلك ، فقد يحاول شخص ربما سمع بأننى اشتراكى ، أن يقنعك بأن تفسيرى وشرحى « لكنز الراين » ليس الا مذهبى الاشتراكى ، ألصقته الصاقا بمؤلفات احد محبى الفن ، استعار من الملاحم القديمة حكاية مملة ليؤلف منها أوبرا . من الاسلم أن تسقط مثل هذا الشخص من حسابك باعتباره انسانا جهولا .

فاذا ما أصبحت الآن مقتنعا بأن « كنز الراين » عمل رمزى فلا تنس أن الرمز لا يكون متماسكا بل لا ينهض على ساقين الا اذا كتبه شخص ليست لديه الملكة الدرامية وفى هذه الحالة يصبح غير قابل للقراءة . هناك طريقة واحدة لوضع الفكرة فى الأطار الدرامى هى أن تضع على خشبة المسرح انسانا حيا تتسلط عليه هذه الفكرة ، ولكنه

مع ذلك انسان حى فيه جميـع البـواعث والانفعـالات الانسانية التى تجعله قريبا منا قرابة الرحم ومن ثم تثير اهتمامنا به . لم يحاول بانيان فى « رحلة الحاج » أن يفعل مايفعله مقلدوه الذين لايقرأ لهم أحد ، فيجد معانى المسيحية والبسالة فى شخصيات ، ولكنه صور لك الانسان المسيحى والانسان الباسل فى صورة درامية . مثل هذا هو ما حدث بالضبط فى « كنز الراين » . فبالرغم من أننى بينت أن « ووتان » هو القوة الالهية والقوة الملوكية، وأن « لوكى » هو المنطق وهو الخيال المجرد بدون الارادة الحية (أو اذا عبرنا عن ذلك تعبيرا عاميا قلنا هو : عقل بلا قلب) الا أن « ووتان » فى الدراما رجل متدين متخلق بالاخلاق الدينية و « لوكى » رجل مستهتر ساحر مكار عبقرى ذو خيال . أما « فريكا » التى كانت تقوم مقـام الدولة فلا تتخذ شخصية رمزية فى « كنز الراين » على الاطلاق . ولكنها فقط زوجة «ووتان» وشقيقة «فريا» : لا بل انها تناقض نفسـها الرمزية عندما تتواطأ مع «ووتان» فى جميع جرائمه . وهذا الموقف بالطبع هو ما عساه أن يقفه قانون الدولة ولكننا لا يجب أن ننقذ سـمعة الرمز بالقذف فى حقه . فان دور « فريكا » المرسوم فى الفكرة الرمزية لا يتضح تماما الا بعد عودتـها الى الظهـور فى المسرحية التالية « الفالكيرى » «Die Walkure»

وثمة فكرة مسبقة قد توقع المشاهد فى حيرة لا مخرج منها ما لم ينبهه أحد اليها أو ما لم يتخلص هو منها من تلقاء نفسه : فى التقسيمات العتيقة لمراتب الخلق ، ينظر دائما الى الشخصيات التى فوق مستوى الطبيعة البشرية على انها أعظم من الانسان مكانا سـواء كانت خـيرة أم شريرة . أما فى التقسيم العصرى الانسانى لمراتب الخلق — وهو ما أخذ به فاجنر — يعتبر الانسان أسمى مراتب

الخلق على الاطلاق . وفى « كنز الراين » يتخيل فاجنر انه لا يوجد ، ولم يوجد بعد على ظهر الارض بشر . هناك أقزام وعمالقة وآلهة . والخطورة تكمن فى انك قد تقفز الى الاستنتاج بأن الالهة على الاقل أرقى منزلة من الانسان . والامر على العكس من ذلك ، فالدنيا كلها تقف على قدم وساق فى انتظار الانسان ليخلصها من حكومة الالهة العرجاء الحاقدة . وما ان تفهم هذا حتى يصبح المغزى واضحا أمامك بما فيه الكفاية . والحق ، أن الاقزام والعمالقة والالهة هى نماذج درامية للمراتب الثلاثة الاساسية التى ينقسم اليها الناس : الغرائزيون أو المتبعون غرائزهم وشهواتهم وهم أيضا المتحذلقون الجشعون ، والكادحون الاغبياء ممن رزقوا الصبر وقوة الاحتمال كما تمتلىء نفوسهم احتراما للمال وعبادة للمال . ثم هناك المثقفون الاخلاقيون وهم أيضا الموهوبون الذين يخططون الدول والكنائس ويتولون ادارتها . والتاريخ يبين لنا أن ثمة مرتبة واحدة هى الارقى والاسمى من هذه المراتب الثلاث : مرتبة الابطال

ومن الواضح تماما الان — وان لم تكن قد فكرت فى الامر قط — ان الجيل الجديد من الانجليز او كان يتألف كله من شخصيات من طراز يوليوس قيصر فان جميع انظمتنا السياسية والاكاديمية والاخلاقية ستفنى وتتلاشى ، أما بقايا المستعصية على الفناء فستدرج مع شواهد القبور الاثرية وجنبا الى جنب مع الرحى الحجرية والابراج المستديرة كمخلفات قديمة غامضة لنظام اجتماعى باد واندثر . ولن يزعج القياصرة الجدد انفسهم بعد ذلك باختراع قوانين أو كنائس كقوانيننا وكنائسنا ، أكثر مما يزعج عضو الجمعية الفلكية نفسه ليلمس قبعته احتراما للمحافظ الطاعن فى السن او يصغى احيانا لموعظة يلقيها

قسيس القرية • هذا بالضبط ما سوف يحدث وما ينبغي أن يحدث يوما ما اذا مضت الحياة في اندفاعها الى الامام نحو تنظيم اجتماعي أرقى •• فأرقى •• فأرقى • كما فعلت وتفعل حتى الان • وفي يوم من أيام المستقبل البعيد أو القريب ، سنفترض أو ينبغي أن نفترض ان منزلة الرجال من أوساط الناس ستعلو على منزلة يوليوس قيصر بنسبة ما تعلو منزلة أرباب الحرف من مواطنينا الانجليز اليوم بالنسبة لرجال الغابات من الاستراليين الاصليين • وليتأمل أي شخص في منتصف العمر ما حدث خلال جيل واحد لايات الايمان وبنود العقيدة التي كان ابوه يعتقدانها خالدة وابدية ، لا بل دعه يتأمل ما حدث لانواع الزندقة والالحاد والتجديف في شبابه (مثال ذلك النقد الذي وجهه الاسقف كولنصو (١) لاسفار موسى الخمسة !) وسوف يدرك مقدار ما سوف يستغني عنه انسان المستقبل ، ويطرحه وراءه ظهريا من علومنا الدينية ومن قوانيننا البربرية • لقد وضع باكونين زعيم درسدن الثوري الذي ثار معه فاجنر في سنة ١٨٤٩ ، برنامجه فيما بعد ، يشير اليه أكثر الناس الان بفزع غبي أحمق ، وفي هذا البرنامج يدعو الى الغاء كافة الانظمة والمؤسسات أيا كانت دينية أو سياسية أو تشريعية أو مالية أو قانونية أو أكاديمية او ما اليها بحيث تترك ارادة الانسان حرة لتكتشف طريقها بنفسها • كانت أسمى الارواح وأرقى النفوس في ذلك الوقت تتحرق شوقا لان ترفع الانسان الى اعلى عليين ، لان تمنحه الاحترام الذاتي ، وان تهزه

(١) Bishop Colenso ١٨١٤ – ١٨٨٣ الاسقف الانجليزي المتحرر . عاش طويلا بين قبائل الزولو . وعاد من افريقيا ينتقد أسفار موسى الخمسة Pentateuch مما تسبب في طرده من الكنيسة، ووقف في صف الاهالي الوطنيين ضد البوير والاستعماريين الانجليز

هزأ وتوقظه من العادات الـــذميمة التى خيمت عليه : تعوده التذلل والخنوع امام مثل عليا صنعتها مخيلته هو، وتعوده ان ينسب الخير المنبعث من كافة الحيـــاة التى لا ينقطع سيلها المتـدفق من ذاته هو ـ الى قوة عليـا مجهولة رابضة فى الســحب ، وتعــوده أن يصــوغ من التضحية بالذات ونكران الذات تعويذة يتبرك بها وصنما يتعبده ، لا لشيء الا ليبرر جبنه وتخاذله

وسنشاهد فيما بعد فيما يتلو من حلقـــــات أوبرا « الخاتم » قدوم البطل الذى سيضع حدا لعهد الاقزام والعمالقة والالهة • ولكن لا يجب ان ننسى في خلال ذلك أن القوة الالهية عند فاجنر تعنى العجز وقبول انصـاف الحلول ، وأن الرجولة عنده تعنى القوة والتكامل . وفوق كل شيء ينبغى أن نفهم ان ارادة الاله ما دامت تتجه نحو حياة أرقى واكمل ، فلابدأن روحه تشتاق وتتطلعمن اعمق أعماقها الى قدوم تلك القوة الكبرى التى ستكون أولى مهامها القضاء عليه وعلى منجزاته ، وان لم يكن قد رأى ذلك ببصيرته ، بعد

ومن الممتع أن نجد فاجنر وهو فى قلب هذا الحشـد الحاشد من الافكار المترامية الابعـــاد ، لا يزال مفعم الوجدان بموهبته التى طبع عليها : موهبته كفنان مسرحى محترف فاذا به يدخل بحيوية وجدية تأثيرات مسرحيـة مبتكرة تبدو الان عتيقة عفى عليها الزمن ولكنه يعتبرها أرقى مبتكراته الملهمة • فعندما ينتزع « ووتان » الخـاتم من « آلبريك » يطلق القزم على خشبة المسرح لعنة مكفهرة تجعل الدم يجمد فى العروق ويدعو بالهم والكرب والخوف والموت على كل من يمتلك الخاتم فى المستقبل • والجملة الموسيقية المصاحبة لهذه اللعنة الغاضـــبة ترن فى آذان

أبناء منتصف هذا القرن (١) رئين صوت الشيطان نفسه ، مع أن الزمن سلب منها رهبتها وهولها • ثم يسمعون صوتها من جديد عندما يذبح « فافنير » أخاه التوأم « فاسلوت » ، وفى كل مناسبة تتلو بعد ذلك ، ويتسبب فيها الخاتم فى موت حامله • ولهذه المقطوعة ما يبررها باعتبارها عملا من أعمال الاثارة المسرحية ، ولكننا اذا نظرنا اليها بتعمق أكثر ، رأيناها زائدة لا لزوم لها ، وشيئا يبعث على الحيرة • فالخراب الذى يؤدى اليه الطمع فى المال لا يحتاج لتوضيحه الى لعنة شيطانية ، وكذلك ليس هناك معنى فى أن يخلع المؤلف على « آلبريك » قوى ربانية فى هذا الصدد ••

---

(١) يكتب شو فى سنة ١٨٩٨

شو وشكسبير ـ لوم الشاعر

أعترف بأن من الصعب على بل من المستحيل أن أشعر فى هذه اللحظة أنى انسان متمدن فبعد أن هربت من الريف حيث يقيم سادة انجلترا الاقطاعيون المهذبون ويستمتعون بنشوة ذبح الفراخ وصيد الطيور ، اذا بى أعود الى المدينة لأجد من هم أكثر منهم ذكاء وتهذيبا ، مجتمعين لمشاهدة مسرحية عمرها ثلثمائة سنة ، تظهر فى مشهدها الرئيسى المثير ، امرأة تصحو من نومها لتجد زوجها بين ذراعيها ملطخا بالدماء ، ورأسه مفصولة عن جسده (١)

اياك أن تحسب أيها القارىء ، أننى بذلك أدافع عن سيمبلين ! فهى فى معظم أجزائها نفاية مسرحية وفى أحط مرتبة يمكن أن تنحط اليها الميلودراما ،وفى بعض أجزائها مكتوبة بأسلوب مقيت منفر ، ومن أولها الى آخرها مبتذلة فكريا ، لاننا اذا طبقنا عليها المعايير الفكرية العصرية وجدناها عملا فجا منفرا وبذيئا ، يضيق به الصدر عن

(*) نقد مسرحية « سيمبلين » ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٩٦ ، ستردای ریفیو . ويختص الانجليز شكسبير بوصفه الشاعر «The Bard» تبجيلا له ، ويذكرها شو سخرية به

(١) ليتذكر القارىء ان شو كان نباتيا متعصبا لايأكل اللحم

كل احتمال • وتمر على الانسان لحظات يتساءل فيها وهو يائس لماذا يكتب على مسرحنا أن يبتلى بهذا «النشال الخالد» الذى ينشل قصص وأفكار غيره من الناس والمعروف باطنابه الممل وفصاحته البشعة وأحاديثه التى لا تطاق ، وهبوطه المفتعل بأدق مشاكل الحياة وأرهفها الى مستوى الحوادث اليومية الدارجة مما هو جدير بأن تثور عليه ثائرة أى ناد من نوادى المناظرة ، وبجموده التام عن الايحـاء بالافكار جمودا لا يمكن تصوره ، وبمقدرته الفذة على أن يجمع فى جملة واحدة بين الفكرة المطبوخة الجاهزة والعقم الفكرى الكامل ومن ثم يكشف عن عجزه عن الخروج بشىء من أعماق جمهور المشاهدين حتى ولو كانوا أجهل الناس ــ هــذا الا عندما يطلق فى وقار وترفع نكتة قديمة أو حديثا معادا بحيث لا يستطيع أقل مستمعيه عقلا أن يصدقوا أن رجلا عظيم المقام مثل شكسبير يقصد حقا أن يتحدث حـديث جداتهم العجائز المخرفات • أقول ، اننى لا أجد باستثناء كاتب واحد ــ هو هوميروس ــ كاتبا مشـهورا ولا حتى سيروولتر سكوت يمكننى أن أحتقره احتقارا جامعا كمـا أحتقر شكسبير عندما أقيس عقليتى بعقليته • أشـهد أن ضيقى به يتفاقم فى بعض الاحيان فيبلغ من الحدة والعنف بحيث لا يسرى عنى فعلا الا أن أذهب رأسا الى قبره فأنبشه وأستخرج رفاته وأرجمها بالحجارة لاننى أعلم ــ وأنا أفعل ذلك ــ مدى عجزه وعجز مريديه وعباده عن أن يفهموا أية صورة أخرى من صور الاهانة أوضح وأبلغ من هذه • ومن عاداتى المتأصلة التى أصبحت بمثـابة طبع ثان لى ، هى الالتزام بالاعتدال والتفكير المدروس فى جميـع بياناتى وتصريحاتى التى أدلى بها ، بفضل سنوات قضيتها فى حمل المسئولية العامة كصحفى ، ولكن هذه العـادة المتأصلة تتعرض لخطر الضياع كلما قرأت سيمبلين ثم فكرت بعدها

فى جوته وفى فاجنر وفى ابسن

ثم اننى مضطر لان أضيف الى ذلك أنى أرثى — مع ذلك — للشخص الذى لا يستطيع أن يستمتع بشكسبير . فلقد ظل أثره باقيا ، متخطيا رءوس الاف عيره من مفكرين أكثر منه اقتدارا وأطول باعا ، وسيبقى أثره ويتخطى ألفا آخرين منهم . فموهبته كراوية قصاص (بشرط أن يقص عليه القصة شخص آخر أولا) وقبضته الجبارة على ناصية اللغة التى تتضح بأبلغ بيان فى معجزاته البلاغية فى التعبير خاصة عندما يسىء استخدامها بسفاهة وحمق ، وفكاهته واحساسه بالشخصية وهى فى حالتها الفطرية الاولى ، وذخيرته الاسطورية من الطاقة الحيوية التى هى فيما يبدو — صفة كل عبقرى وتقف دائما من وراء أصحاب المواهب جميعا أشرارا كانوا أم خيريين أم مستهترين ، كل هذا — يجعله قديرا على امتاعنا وادخال السرور علينا بحيث تصبح المشاهد والشخصيات التى خلقها من الخيال أكثر واقعية من حياتنا الواقعية نفسها — ويستمر هذا التأثير فينا على الاقل الى أن تبدأ معرفتنا بالحياة الواقعية فى التعمق ، الى ما تحت العادى السطحى من الامور . وعندما كنت فى العشرين من عمرى كنت أعرف كل شخصية من شخصيات شكسبير ابتداء من هاملت الى « آبورسون » (١) معرفة وثيقة صحيحة لدرجة أنهم كانوا أقرب الى وألصق بى من معارفى الاحياء ، بل لا زلت حتى يومنا هذا اذا ما استوقف نظرى فى احدى الصحف اسم « بيستول » (٢) أو « بولونيوس (٣) يحملنى الفضول على قراءة العبارة التى

(١) الجلاد فى مسرحية « دقة بدقة »

(٢) المهرج فى « هنرى الرابع » وفى « زوجات وندسور المرحات »

(٣) من شخصيات « هاملت » رئيس الديوان الملكى وفيها يسخر شكسبير من الفلسفة والفلاسفة

ورد فيها الاسم بلهفة أشد مما لو كان الاسم ــ اسم ٠٠٠ ــ ولكن لعل من الخير الا أذكر اسم شخص بالتحديد

وعلى هذا ، ترى كم من الشخصيات الجديدة يمكنك أن تتعرف عليها من قراءتك لسيمبلين ٠ اذا كان لديك من الصبر وطول البال ما يجعلك تشق طريقك الوعر خلالها ، وتخوض كل ما فيها من مستنقعات الاطناب ؟ هذا على شرط أن تكون قد بلغت من الكبر عتيا حتى تحررك الشيخوخة من الفكرة العصرية الشائعة التي تقول بأن سيمبلين لابد أن يكون اسما لاحد مستحضرات التجميل (١) وأن ايموجين (٢) اسم لاحدث الاكتشافات العلمية في طبيعة غاز من الغازات لم يزل مجهولا حتى الآن ٠ سيمبلين ليس شيئا مذكورا ، وزوجته الملكة لا شيء ، وان بذلت المحاولات لوصفها بالمرأة التي تلقى كل ثقلها في عقلها ٠ « بوبوستهيومس » (٣) لا شيء لحسن الحظ والا كان كلبا حقيرا لا يحتمل ، وبيلاريوس (٤) لا شيء أو على الاقل بعد شخصية كنت (٥) في « الملك لير » « كالملكة التي تعد لا شيء بعد « ليدى ماكبث » وأياكومو (٦) ليس بالشيء الكثير فليس سوى لزوم الشيء (diabolus ex machina) وبيزانيو (٧) أقل شأنا من اياكيمو ٠ ومن جهة أخرى لدينا كلوتن (٨) أمير البلهاء البلداء (التنابلة) ، ودوره بكل ما فيه من بذاءات وفحش وغير ذلك يعتبر تحفة أدبية من أول سطر الى آخر سطر ويمثل الاميران تمثيلا رائعا

(١) سيمبلين هو ملك بريطانيا في المسرحية التاريخية
(٢) ابنة الملك سيمبلين من زوجة سابقة
(٣) زوج ايموجن (٤) اللورد المنفي ، جاء متنكرا
(٥) ارل أوف كنت في « الملك لير »
(٦) شخصية الايطالي في سيمبلين (٧) خادم بوستهيومس
(٨) ابن الملكة من زواج سابق

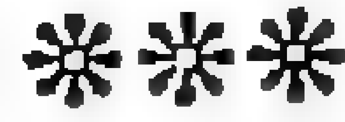
أسطورة البربرى النبيل بما فيها من سخاء ووقع قوى ، و «كايوس لرشيوس» (١) الجنرال الرومانى المتمدن فى وسط البرابرة ، وفوق الجميع تأتى « ايموجين » ورجائى أن تذكر أن هناك شخصيتين لايموجين : احداهما نموذج هادىء وقور محكم الصياغة لما ينبغى أن تكون عليه السيدة الكاملة كما يراها شكسبير ، وفى تلك المرأة التى لا يمكن وصفها بالكلمات ، تعتبر ثورتها من أجل الفضيلة مرضا مزمنا ، هدفها فى الحياة الانتقام لكرامتها الشخصية وشرفها ، وأن تشك فى شرف كل انسان غيرها وخاصة شرف زوجها . وهى مثل «لوتاو» (٢) فى دكان الجواهرجى فى رواية برت هارت (٣) الهزلية لا يمكن أن تترك بمفردها مع أية منقولات فضية الا بعد التنبيه على أصحابها وطمأنتهم على أنها لن تسرق منها شيئا — لن تسرق من الفضة شيئا مع أنها وجدت الذهب النضار منثورا على أرض الدكان . ثم هناك امتلاء جعبتها تلقائيا بالافكار القذرة التى لا ينبغى التصريح بها : فأنت لا تملك وأنت تقرأ عبارة واحدة من دورها ، أن تغمز بعينيك . غير أن «ايموجين» هذه لها « ايموجين » أخرى مرتبطة بها بحبال من قصائد الشعر غير المقفى (وهى لحسن الحظ حبال بالية يمكن قطعها بسهولة) — ايموجين التى هى من خلق عبقرية شكسبير ، الشخصية الساحرة الرقيقة بل أرق ما تكون حسا ، والمليئة بل أملأ ما تكون بالتقلبات النفسية المفاجئة : فمن نوبات الحنان العميق الى نوبات الغضب الصبيانى ، جسورة جريئة فى كل من الحالين غير ناظرة للعواقب : تجرح فى لحظة وتضمد الجرح فى اللحظة

---

(١) جنرال رومانى فى سيمبلن

(٢) Lothas (٣) Bert Harte

التالية ، ثم هى تتمتع بأعلى درجة من الشجاعة ، وذات محتد كريم وأصل عريق . ولولا هذه « الايموجين » الثانية لكانت الفرصة المتاحة لبعث مسرحية سيمبلين من موتها مثل الفرصة المتاحة لمسرحية « تيتوس آندرونيكوس »(١) الآن ، وما أضألها من فرصة !



ان شخصية ايموجين الهوائية المتقلبة المتبعة لغرائزها ، هى والجانب الحى من المسرحية ، ينبغى أن تقتطع وتنتزع انتزاعا من بقية المسرحية التى لا تصلح للتمثيل على الاطلاق ، وان كان للهواة من الشبان أن يحفظوها عن ظهر قلب ويطالعوها بتأثير مناسب فى أحد العروض التى تقدمها جمعية المسرح الاليزابتى . ان بقية المسرحية هذه ، لا يمكن أن تنطق عباراتها على خشبة المسرح العصرى حيث ينفر احسن الممثلين من الادوار المصطنعة ويأبونها . وبناء على هذا ، لابد من اقتضاب سيمبلين واقتضابها بحرية . ولا يرجع هذا التأكيد من جانبى ، الى أننى أخشى أن يتهيب المخرج من الاقتضاب ، بل الامر على العكس تماما . فلو أقيمت للفن جمهورية حقيقية لكان سير هنرى ارفنج (٢) قد كفر عن سيئاته على المشنقة ، لكثرة ما أدخل فى النصوص المسرحية من تعديلات ، فهو لا يقتضب المسرحيات فقط باقتطاع أطرافها ، بل يبقر بطونها ويستخرج أحشاءها . وفى سيمبلين تفوق على نفسه باستئصال القصيدة الثالثة من المرثية الشهيرة . وأى شخص يجرؤ على ذلك يمكنه أن يفعل أى شىء — كان يقتطع « الكودا » من الحركة الاولى لسيمفونية بتهوفن التاسعة ، أو يقتضب احدى لوحات

---

(١) لشكسبير

(٢) المخرج والممثل الانجليزى الشهير . وكان شو على خلاف دائم معه

فيلاسكويز (١) للملك فيليب ليصنع منهـــا « كتيكات » ينطبق على حجم المدفأة فى حجرة جلوســـه ٠ ان الخطوط الارابسك (المتشابكة) لشخصية كلوتن التى هى بـكل تأكيد ليست أعلى من مســتوى عصر علم ستيفنسون (٢) بحيث لا يقدرها حق قدرها ، ومع ذلك فقد طمست هــذه الخطوط وشوهت بقسوة كرومولية لا تعرف الرحمة ،كما أن المشهد الوطنى الحماسى الذى تلقى فيه الملكة خطبتهـا العظيمة عن الشجاعة الفطرية المتأصلة فى جزيرتنا قدمزق شذر مذر بالرغم من أنه كان من السهل تقديم الخطبة فى مشهد الحديقة ٠ ومع ذلك احتفظ المخرج الهمام بخطب مطولة من نفاية القول لاتافلته تدور حول ... التشـــهير الذى حده أمضى من حد السيف ٠٠ وما الى ذلك ـ احتفظ بها مخرجها الهمام وحرص عليها حرص البخيل أو حرص صاحب الوسواس على حذافير صــلاته ٠ حقا ، ما أفقـر سير هنرى ارفنج فى المعرفة الحقيقية للادب ! ان فقـــره هذا عجيب ، وسيصيبه حتما بعجز خطر لو كان ممثــلا يتحتم عليه أن يوضح دوره ويفسره ، ولكنها لحسن الحظ غلطة ارتكبتها احدى المواهب الكبيرة ٠٠ موهبة الخلق ٠ ولقد انهالت كمية خرافية من الهراء عن فهم سير هنرى ارفنج لهذه الشخصية الشـــكسبيرية أو لهذه أو لغيرها ٠٠٠ والحقيقة أنه لم يفهم فى حياته ولا عبر عن شـــخصية أى كاتب قط ، الا نفسه ٠ وهو فى الواقع عاجز عن تمثيـل مسرحية أى شخص آخر عجز فاجنر عن كتابة أى «ليبريتو»

---

(١) Velazquez الرسام الاسبانى الشهير ١٥٩٩ ـ ١٦٦٠ رسم سلسلة شهيرة من اللوحات للملك فيليب وهو راكب فرسه

(٢) R.L. Stevenson الروائى الانجليزى ١٨٥٠ ـ ١٨٩٤ صاحب روايات المغامرات المشهورة مثل جزيرة الكنز ودكتور جيـكل ومستر هايد ٠ وشو يسخر منه ومن العصر ومن شكسبير ومن ارفنج

لشخص آخر • وكان ينبغى عليه ـ مثل فاجنر ـ أن يكتب مسرحياته التى يمثلها بنفسه • ولكن بما أنه لم يكتشف نفسه الا فى وقت جد متأخر ، فلم يتلقن أصول تلك الحرفة الثانوية ـ حرفة كتابة المسرحيات ـ فقد كان مضطرا لاستعمال مسرحيات ناس آخرين كاطار يعرض فيه ابتكاراته هو • وكان أول نجاح كبير له ـ فى هذا الطراز من الاقتباس ـ تاجر البندقية • لم تكن هناك مشكلة بشأن « شيلوك » الطيب أو « شيلوك » الشرير : لم يكن الشخص الذى أبرزه «شيلوكا» على الاطلاق. كلما اصطدمت شخصيته المبتكرة بشخصية شكسبير كما فعلت ذلك على رءوس الاشهاد فى مشهد المحاكمة ، جعل الممثلون يتناقضون صراحة مع سطور النص الشعرى ـ وبكل قوة طردوا شكسبير طردا من فوق خشبة المسرح • وقال النقاد انها سياسة تتميز بالاصالة ، وبشدة الامتاع : ومع ذلك كان من الواضح أن مشقاتها ستتزايد كلما كان الابتكار فى المؤلف الدرامى أكثر قوة ووضوحا • ان شكسبير عندما تكون موهبته فى أحسن حالاتها ، ونبرته فى قمة ارتفاعها ، لا يمكن تجاهله أو طرده بيد أى ممثل من لحم ودم ، مهما كان ذلك الممثل موهوبا • وعندما حاول سير هنرى ارفنج أن يحشر فكرة شديدة الغرابة ـ ادخال رجل عجوز بين سطور النص المسرحى للملك لير شوه النص الاصلى ثم أجهز عليه اجهازا • ومن جهة أخرى ، ففى المسرحيات التى يؤلفها أشخاص لا وزن لهم ، حيث يلعب الكاتب الدرامى دورا تافها فى المسرحية تنطلق طاقة مستر ارفنج الخلاقة ، حرة لا يعوقها عائق ، ولا يعترضها شىء ، ان عقم المؤلف هو فرصة الممثل ليقدم روائعه

شو و إبسن - المثاليات والمثاليون

رأينا الانسان وهو ينضج خلال العصور كلما نضجت شجاعته ، وأعنى شجاعة روحه (لان الناس يسمونها بهذا الاسم) فيزداد جرأة واقداما على الحب وعلى الثقة ويطرح عنه الخوف وينصرف من القتال . غير أن لهذه الشجاعة اثارا أخرى .. فبالشجاعة يرتفع الانسان بنفسه من مرتبة الوعى المجرد الى مرتبة المعرفة كلما ازدادت جرأته على مواجهة الحقائق ، وأن يقول لنفسه الصدق . ولقد كان الانسان فى طفولته الاولى، طفولة العجز والفزع، غير قادر على مواجهة المحتوم ، ولما كانت الحقائق المحتومة هى أشد الاشياء صلابة وقسوة وعنادا ، فقد كان الانسان كلما اكتشف حقيقة خطرة تتهدده أخفاها عن شعوره وغطاها بالاقنعة بنفس السرعة التى يكتشفها بها ، وكانت الاقنعة هى الاخرى صلبة وغليظة وعاتية ، بحيث كان كل قناع منها يحتاج الى بطل ليمزقه ويهتكه . وعلى عرش المفازع والاهوال التى كانت تهدد الانسان

(*) الفصل الثانى من جوهر الابسنية Quintessence of Ibsenism الطبعة الثالثة كونستابل وشركاه لندن سنة ١٩٢٢ وكانت الطبعة الاولى سنة ١٨٩٠

تتربع حقيقة الموت ، فلم يكن في وسع الانسان أن يحتمل رهبة الموت المحتوم ، وتعين عليه أن يقنع نفسه بأن من الممكن أن يتزلف للموت وأن يداريه ويحتال عليه ثم يوقع به في النهاية ـ وكلنا نعرف كيف ركب الانسان على وجه الموت المخيف قناع الخلود الشخصى ليبلغ مأربه ذاك . وصنع نفس هذا الصنيع بجميع الحقائق المحتومة التى لا قبل له بها ولا رغبة له فيها ، كان لا بد من ذلك والا جن جنونا من الفزع الذى تبعثه فيه الحقائق الرهيبة المحيطة به والتى يقف على رأسها الهيكل العظمي ممسكا باحدى يديه ساعة رملية وبالاخرى منجلا كبيرا (١) . فكان الانسان يسمى أقنعته هذه « مثلا عليا » ، وكان دائما يتساءل ـ وله الحق فى تساؤله ـ أى قيمة للحياة بل أى طعم للحياة بدون مثل عليا ؟ وهكذا أصبح الانسان « مثاليا » وبقى مثاليا على هذا النحو حتى تجاسر دون أن يمد يده ليجذب الاقنعة ويخلعها ويمزقها أى الى أن تجاسر ونظر الى الاشباح وجها لوجه وعينا لعين . وتجاسر هنا بمعنى أصبح « واقعيا » . غير أن الناس ليسوا جميعا على درجة متساوية فى الشجاعة والجسارة ، فاذا ما مد أحد الواقعيين يده على أحد الاقنعة التى لم يجرؤ بقية الناس على أن يمسوها بسوء ، ولم يتصوروا امكان العيش بدونها ، هاجت الدنيا وماجت من الهول والفزع ، وكأن الأرض قد زلزل زلزالها ..

وما زال حولنا الكثير والكثير من هذه الاقنعة وبعضها أشد غرابة مما نشاهده معروضا فى المتحف البريطانى

---

(١) رمز الموت

مما كان يرتديه أهالي جزر السندوتش (١) . وفي رواياتنا وقصصنا الغرامية خاصة نشاهد أجمل الاقنعة التي صنعناها ونسجنا خيوطها بأيدينا وصممناها خصيصا لاخفاء الغريزة الجنسية في مراحلها البدائية المبكرة ، وللتخفيف من شدة القوانين الحديدية التي يفرضها المجتمع لتنظيم وسائل اشباعها ، فقد كان من المحتوم على الانسان ككائن اجتماعي ، وما دام قد عول على السير في طريق المدنية ، أن يفرض على نفسه نظام الزواج وحياة الأسرة ، لانه لا سبيل الى بقاء النوع البشري وخلوده وتكاثره اذا ما بقى الحب مجرد نزوات عابرة وبقيت العلاقة الجنسية مقتصرة على الشهوة الجسدية ، ويحاول الناس ترقيع اللذة بالضرورة فيزعمون يائسين ، أن نظام الاسرة المفروض عليهم بالاكراه هو النظام الامثل والنظام الملائم ويضعون شروطا وتقاليد لمعاني الاحتشام والعرض والشرف واللياقة الاجتماعية وما الى ذلك ، فيقولون ان الناس دائما يحبون أقرباءهم تلقائيا أكثر من حبهم لاصدقائهم ومعارفهم العابرين ، وان الرجل اذا اشتهى امرأة مرة ، فسيظل دائما يشتهيها كل مرة ، وأن الاسرة هي المجال الملائم للمرأة ، وأن ليس ثمة امرأة كاملة ، تنشيء أية علاقة برجل أو حتى تعرف لهـا معنى ، الا اذا بدأها الرجل وطلب منها انشاء مثل هذه العلاقة .. الخ .. والان ما القول في الشخص الذي امتلأت طفولته بالمرارة لان امه كانت تكرهه ولم تكن ترغب في انجابه ، أو لان اباه ضاق به صدرا ؟ والزوجة التي

(١) Sandwitch Islands الاسم القديم لجزر هاواى الواقعة في قلب المحيط الهادى وعاصمتها الان هونولولو

كفت عن حب زوجها ؟ والزوج الذى سئم زوجته ومجها من صميم قلبه ؟ والاخ الذى يخاصم أخاه أمام المحكمة على قسمة أملاك الاسرة ؟ الاب الذى يرى ابنه يفسد عليه مشروعاته عامدا متعمدا ويتحدى رغباته ويعقه عقوقا ؟ .. من الصعب على هؤلاء اقناع أنفسهم بأن صلة الرحم صلة أبدية وخالدة ، وبأن الدم دائما يكون أغلى من الماء . ومع ذلك فلو قال واحد من هؤلاء الحقيقة لنفسه ، لبدت حياته فى ضوئها هباء وضياعا وفشلا ذريعا . ولا بد ان ينتهى به الحال الى أحد أمرين : اما أن يتفق مع قوم على أن نظام الاسرة كله ، نظام فاشل وغلطة كبرى وان عليهم أن يطرحوه جانبا ويستبدلوا به نظاما جديدا تماما ـ وهذا ما لا يمكن أن يحدث الا بعد أن ينضج النظام الاجتماعى ويتطور ويسبق فى نضجه وتطوره نظام الزواج بشوط بعيد ، بحيث يستطيع المجتمع أن يستغنى عنه ويضمن مع ذلك بقاءه واستمراره ، وأما ان يقومه سيكبحون جماحه ويبقونه على الرغم منه فى حظيرة النظام القائم بالاصرار الحازم على أن الاوهام المستخدمة كأقنعة لهذا النظام هى حقائق واقعة لا يأتيها الباطل

ولمزيد من الدقة فى الايضاح ، دعنا نتصور مجتمعا يتألف من ألف من الاشخاص يشملهم تنظيم اجتماعى يهدف الى بقاء النوع البشرى واستمراره ، وينهض هذا التنظيم الاجتماعى على نظام الاسرة البريطانية المألوف لنا فى الوقت الحاضر . ولنفرض أن سبعمائة من الالف يرون أن نظام الاسرة البريطانية صالح لهم تماما ، وأن ٢٩٩ يرونه نظاما فاشلا وان كانوا يرتضونه لانفسهم مرغمين لانهم أقلية .. أما الشخص الباقى فيحتل مكانا سنأتى الى بيانه حالا . ان الـ ٢٩٩ من الفاشلين فى

زواجهم لا تتوفر لديهم الشجاعة لمواجهة فشلهم الذى لا يرجى له علاج لانهم لا يسـعهم أن يمنعـوا الـ ٧٠٠ السعداء من اجبارهم على قبول قانون الزواج السائد والرضوخ له . وعلى هذا سيحاولون اقناع أنفسـهم بأنه مهما كانت بيوتهم منهارة وزيجاتهم فاشـلة فان نظام الاسرة بصفة عامة ، نظام جميل ومقـدس وطبيعى . فالثعلب الذي يستعصى عليه العنب لا يكتفى بوصـفه بأنه عنب فج وحامض بل يصر على أن النبق الذى فى متناول يده حلو ولذيذ . واليك ما حدث : الاسرة كما هى فى الواقع الراهن ـ نظام تقليدى ينفذه قانون الاغلبيـة لانه نظام ملائم للاغلبية ولان الاغلبية تعتقد أنه يلائم أيضا الاقلية مع أن الواقع يقـول انه لا يلائمها على الاطلاق .. فالاسرة كنظام جميل ومقـدس وطبيعى ليست سـوى صورة خيالية مثالية لما تريده كل أسرة فيما لو أعطى كل شخص ما يلائمه ، وهذه الصـورة الخياليـة هى من اختراع الاقلية لانها تستخدمها كقناع لواقعهم المر الذى لا صبر لهم عليـه اذا ما تجرد وتعـرى أمام أعينهم . ونحن نطلق على هذا النوع من الصور الخيالية اسم المثل الاعلى . والسياسة المثالية او التى توصف بهذا الوصف هى سياسة اكراه الافراد على أن يتصرفوا على أسـاس أن جميع المثل العليا حقائق واقعة ، وعلى الرضى بتصرفهم هذا كسلوك اخلاقى نموذجى صالح فى جميع الظروف ، وعلى أن يشيحوا بوجوههم عن كل سـلوك مغـاير له ويوقعوا عليه العقاب باعتباره عملا منافيا للاخلاق والاداب العامة . وهكذا يصبح أصدقاؤنا الـ ٢٩٩ فاشـلا فى زيجاتهم مثاليـين فى نظـرتهم للزواج ، والعجيب أنهم يتحمسون للمثل الاعلى حماسة شديدة ويدعون له فى رواياتهم وأشعارهم وخطبهم المنبرية ومواعظهم الكنسية

واحاديثهم الشخصية الجادة بأشد واقوى مما يدعو له السبعمائة الاخرون الذين رضـــوا بالزواج واطمـــأنوا اليه كوظيفة روتينية يقومون بهـــا ، ولم يحـــلموا بتسميته نظاما فضلا عن أن يسموه نظاما جميلا ومقدسا وطبيعيا بل ان السبعمائة يرون ببساطة تامة أن المثاليـــة ضرب من اللغو الصادر عن عقول مشوشة محتلة ، تحاول أن تثير به زوبعة حول لا شيء • وتتألم مشاعر المثاليين الحساسة بهذا الرأى الذى تراه الاغلبية فيهم ، ويكيلون للسبعمائة بنفس الكيل فيصفونهم بأنهم «ماديون » (١) وهكذا ينقسم مجتمعنا الى ٧٠٠ ماديين و ٢٩٩ مثاليين وواحد لا يندرج تحت أى تقسيم ، ذلك هو الشـــخص الذى بلغ من القوة ومن الشـــجاعة ما يجعـــله يواجـــه الحقيقية التى يشفق منها المثاليون

مثل هذا الرجل يقول فى الزواج : « هذا نظام فاشل لعدد كبير منا • فاذا ما ارتبط شخصان بعلاقات معينة لا يبقى عليها الى الحب الصادق والعاطفة المخلصة ، فمما لا صبر لانسان عليه ، أن يجبر هذان الشخصان على الارتباط بها بعد زوال الحب وبرودة العاطفـــة ، أو اذا لم يكن للحب وللعاطفة مكان فيها منذ البداية • فليس صحيحا ما يزعم بأن هناك عوامل للجاذبية والنفور مركبة فى طبيعة الانسان منذ الازل ، وأن المثل الاعلى للاسرة ينهض عليها •• كما ثبت تاريخيا بطلان الزعم بأن نظام

---

(١) Philistines وهى كلمة وردت كثيرا فى الاناجيل ومعناها الكلبيون أو الارضيون أو الماديون • والماديون لا بالمعنى الفلسفى ولكن بالمعنى الدارج المألوف للكلمة ـ أى الناس الذين لاهم لهم الا قضاء مصالحهم المادية والشخصية ولا يتعبون رءوسهم بالتفكير فى امور عامة أو فى مستقبل بعيد • وقد اخترت كلمة الماديين لانها المقابل المباشر لكلمـــة « المثاليين » التى استخدمها المؤلف آملا ألا تحدث بلبلة عند القارىء
(المترجم)

الاسرة انما قام بهدف اشباع هذه العوامل وحدها . فلنعمل اذن على اقامة نظام آخر يساعد على تحقيق الاغراض الاجتماعية للاسرة ولنلغ كل ما فيه من قهر واجبار » ..

ترى ما الموقف الذى يتخذه الاخرون من هذا الرجل الصريح الذى لا يعرف المواربة؟ الماديون سيعتبرونه ببساطة تامة مخبولا فقد عقله . أما المثاليون فسوف يصيبهم فزع يتجاوز كل حد ، لان شخصا ما جاء فصرح علانية بأفكارهم المكتوبة وعبر عما فى ذات صدورهم - لان خائنا قد وجد بينهم ، بين المتآمرين على الصمت والسكوت (١) فتجاسر وهتك القناع الجميع الذى نسجوا خيوطه هم وشعراؤهم ليخفى وجه الحقيقة البشع الذى لا يطيق أحد النظر اليه . اسوف يحرقونه حيا ، لسوف ينتهكون مثلهم العليا نفسها ليشفوا غليلهم فيه ، لسوف يحطمون الحب العائلى - المثل الاعلى - فينتزعون أولادهم من احضانه ويقاطعونه وينفونه من الارض ويصبون عليه ركاما من اللعنات والوصمات : ليس عنده أخلاق ، منحل ، داعر فاسق ، فاجر ، قذر . لسوف يقيمون عليه الدعوى أمام « الماديين » السبعمائة الذين أدرجوا فى خانة «المثاليين» خصيصا لهذا الغرض ، بوصفهم «المجتمع» . أما الى أى حد سيسيرون فى اجراءاتهم ضده ، فيتوقف على الحد الذى تتفوق فيه شجاعته على شجاعتهم واصراره على اصرارهم ، فاذا كان فى أسوأ حالاته جبنا وترددا ، سموه ساخرا مستهترا متناقضا ، مخالفا ... الخ فاذا كان فى أحسن حالاته شجاعة وحزما بذلوا أقصى ما فى وسعهم لتحطيم حياته ان لم يكن للقضاء

---

(١) ماأكثر ما ذكر ماركس فى كتاباته عن مؤامرة الصمت هذه التى دبرها ويدبرها البورجوازيون

عليه جسدا وروحا • وهكذا نرى الاخـــلاقيين من ذوى الشجاعة الواهنة الضعيفة من أمثـــال « ماندفيل » (١) و « لاروشفوكو » (٢) الذين لم تتجاوز شجاعتهم أكثـر من حد التصريح لاقوامهم بحقائق غير سارة ولم يستنكروا المثل العليا السائدة ولم يشكوا فى صحتها بل انهم فى واقع الامر اعتمدوا على صحة هذه المثل العليا لتأييد حجتهم فيما صرحوا لقومهم به ـ أقول ـ هكذا نرى أمثال هذين الرجلين يخرجون من المعمعة بما لا يزيد من وصفهم بصفة ساخر أو مستهتر • وقد أصبح من المألوف اطلاق هذه الصفة على كل مثالى متحمس بلا قيد او شرط . ولكن خذ « شيللى » كمثال يساعدنا على ايضاح المثل الذى نضربه : فالمثاليون لم يصفوا « شيللى » بأنه ساخر أو مستهتر بل وصفوه بأنه شيطان رجيم فى البداية • فلما لم يتمكنوا بعد ذلك من اختراع قناع وهمى جديد يتيح لهم الاســتمتاع بجمال قصائده الغنائية اكتفوا بتســميته ســاخرا أو مستهترا وهو وهم آخر لا يقل عن زعمهم بأن شيللى «مثالى» فى أعماقه • ومن ثم لابد وأن تكون مثله العليا مطابقة لمثل

---

(١) B. Mandeville ١٦٧٠ ـ ١٧٣٣ مؤلف The Fable of the Bees اثبت من دراسة خلية النحل ان الانانية هى سبب البقاء وأنه لو أنكر ذاته ومصلحته الذاتية لهلك • تأثر بأفكاره صمويل جونسون ثم هوبز ثم بانتام

(٢) F. Larochefoucauld ١٦١٣ ـ ١٦٨٠ الكاتب الفرنسى الكلاسيكى صاحب الحكم والامثال المجموعة فى : ...Reflections وفكرته الاساسية متشائمة تدور حول أن الانانية والمصلحة الشخصية هى محور سلوك الانسان

من أقواله : « ان الفضائل تصب فى المصلحة الشخصية كما تصب الانهار فى البحر »

تينسون (١) ولونجفللو (٢) وان لم يكتب بيتا واحدا من الشعر يتضمن شيئا أى شىء من مثلهم العليا « المحترمة » (٣)

وهنا يبدو أن القول بأن شيللى « الواقعى » كان مثاليا أيضا ، يفسر الامر كله ، وهو بكل تأكيد يفسر الانسجام اللفظى للكلمات ٠ وسبب ذلك أننا لسوء الحظ نستعمل كلمة « مثـــل أعلى » بلا تمييز ، ونقصد بها النظام الذى يخفيه قناع المثل الاعلى كما نقصد بها أيضا القناع نفسه ،

---

(١) Tennyson ١٨٠٩ - ١٨٩٢ الشاعر الانجليزى الرومانسى مؤلف أشعار Idylls التى هى خليط من القيم الاقطاعية وقيم العصر الفيكتورى التى يثور فيها على عصر العلم والصناعة

(٢) H.W. Longfellow ١٨٠٧ - ١٨٨٢ الشاعر الامريكى كان أستاذا فى جامعة هارفارد ويجيد عشر لغات ٠ Poems on Slavery ثم ترجم كوميديا دانتى الالهية الى الانجليزية نظما

(٣) حاشية بقلم شو ٠

فيما يلى نموذجان من المرحلتين اللتين مر بهما نقد شيللى :

٠٠٠ نحن نشعر كما لو كان واحد من أشد شياطين الجحيم سوادا ، وقد تقمص جسد انسان ليشبع من خلاله حقده على الجنس البشرى وعداوته له : ان كراهية « شيللى » للناس تفوق الكراهية الطبيعية التى يحس بها البشر ، ولا يزيدها الا قدرته على الايذاء ٠ لقد انطبعت هذه الصورة فى أذهاننا عنه ، انطباعا قويا لدرجة أننا طلبنا فعلا من أحد الاصدقاء - رأى ذلك الشخص «شيللى» رأى العين ، أن يصفه لنا كما لو كان له حافر فى رجله أو قرن فى رأسه أو ألسنة من اللهب تتصاعد من فمه لتميزه عن سائر البشر فى مظهره الخارجى - ذلك العدو اللدود من أعداء الجنس البشرى ٠٠ » عن مجلة ليترارى جازيت ١٩ مايو سنة ١٨٢١

٠٠٠ ان «شيللى» ملاك جميل يذهب ولا يترك أثرا ، يخفق فى الفراغ بأجنحته المضيئة عبثا وبلا جدوى ٠٠٠ » ماتيو أرنولد فى مقدمة «المنتخب من أشعار بايرون » بتاريخ سنة ١٨٨١

وليس من شك فى أن الرأى الذى أبدى فى شيللى سنة ١٨٨١ كان أسخف وأشد سفاهة من الرأى الذى أبدى فيه فى سنة ١٨٢١ ٠ ويمكن العثور على مزيد من النماذج لهذا النقد فى مقالات هنرى سولت أحد الكتاب القلائل الذين تعرضوا لشيللى ووضعوه فى مكانه الحقيقى كأحد الرواد الاجتماعيين

وبذلك نحدث بلبلة فكرية لا مخرج لنا منها • قد يكون النظام فاسدا فعلا ، ولكن القناع الذى يغطيه قد يكون صورة لما نتمناه ، صورة للبديل الذى نريده • فاذا سمينا الحقائق الواقعة وهى مرتدية أقنعتها مثلا عليا ، فسوف نسمى احتمالات المستقبل أيضا مثلا عليا • ومرة أخرى ، اذا سمينا الرجل الذى يدافع عن الانظمة القائمة مدعيا انها تنطبق وتتفق مع أقنعتها رجلا مثاليا ، ثم أطلقنا نفس الاسم على الرجل الذى يسعى لتحقيق احتمـــالات المستقبل او لتهيئة السبيل لها ، بتمزيق القناع وما تحت القناع ، فلن يستطيع قلم بيد بشر هالك ، أن يعرض الموضوع بطريقة مفهومة ، وسوف تتعارض اهدافنا ـ أنا وانت أيها القارئ ـ فى كل جملة نتبادلها ما لم تسمح لى بتسمية الرواد الاوائل من أمثال شــــــيللى وابسن « واقعيين » وتمييزهم عن المثاليين فى المجتمع الـــذى تخيلته من قبل ويتألف من ألف من الاشخاص • ولـــو أنك سألتنى لماذا لم أستخدم المصطلحات بوجهها الآخـر فسميت شيللى وابسن مثاليين وسميت التقليديين واقعيين لاجبتك بأن أبسن نفسه وان لم يخترع هذه التسميات ويحدد تلك الفروق رسميا ، الا أنه ألح وأكد فى أقواله ان التقاليد هى المثل العليا ، وأن التقليديين هم المثاليـون بحيث لو جئت واستخدمت كلمات « حقــائق واقعـة » و « واقعيين » فى غير ما استخدمها فيه ابسن ، لاحدثت بلبلة فى أذهان قراء « البطة البرية » وال رومرزولم من حيث ظننت أنى أساعدهم على فهم ما يقرءون • ولا شك أن بعض اللوم سيكون من نصيبى لاننى حيرت الناس بتحديد معنى كلمة « مثالى » على هذا النحو ، ولكنى أقول بدورى ، ان هذه الحيرة العابرة لا تقارن بالبلبلة البالغة التى كنت حريا بايقاع القراء فيها اذا ما استخدمتها بوجهين متعارضين

أشد التعارض • فأذا ما اعترض أحد على اصطلاح «واقعى» بسبب بعض الملابسات العصرية المرتبطة به ، فلا يسعنى الا ان أؤيده بشرط ألا يلصقه « بزولا » (١) وموباسان (٢) •• ولكن بأفلاطون ••

والان لنعد الى مجتمعنا المكون من ٧٠٠ مادى ، ٢٩٩ مثاليا وواحد واقعى •• ان الغموض اللفظي الذى أقمت الحجة عليه منذ هنيهة ، ليس شيئا اذا قيس بالغموض الجوهرى الذى ينتج من محاولة وصف العلاقات القائمة بين هـذه القطاعات الثلاثة بكلمات مأخوذة من المعاني العادية كالحكمة والواجب • فمع أن المثالى أرقى منزلة من المادى فى سلم التطور الا أنه يمقت صاحب المنزلة الارقى من منزلته ، ويهاجمه فى رعب ولدد وعنف مما لا يعرفه المادى ولاقبل له به • ان الرجل الارقى الذى ارتقى وتسامى فوق الاخطار التى تهدده والمخاوف التى تحوطه ، فلم تعد تقوده غريزة التملك الى السرقة ، ولا نوبات الغضب الى القتـل ، ولا العواطف الى الخلاعة والتهتك ، هو الذى تصب على رأسه اللعنات ويوصف بأنه أكبر الاوغاد ، ورأس الانحلال ، انه يوصف بأنه أحط الناس لانه على وجه التحديد ، أرقى الناس • والعجيب أن الذين يقعون فى هذا الخطأ البين ليسوا الجهلة أو الاغبياء ، بل المتعلمون والمثقفون • فعندما ينطق النبى بالحق سرعان ما يثبت علميا أنه وغد وأحمق ، وليس من يثبت ذلك الجهلة الذين لم يطلعوا على أنبـاء

---

(١) E. Zola ١٨٤٠ – ١٩٠٢ الكاتب الفرنسى الواقعى الذى وصف كثيرا كفاح الطبقات العاملة فى رواياته : La terre, Germinal وغيرها ..

(٢) Guy de Maupassant ١٨٥٠ – ١٨٩٣ أشهر كتاب القصة القصيرة الواقعية • نظير تشيكوف الروسى • مؤلف كرة الشحم – الاشارة – ذلك الخنزير موران – العقد – قطعة الحبل .. الخ (معظمها مترجم) • كما أن له روايات • حياة بل أمى – يوميات مجنون

تلك المظاهرات العلمية الزائفة فى الماضى ولا كيف انتهى بها مصيرها ، بل الذين كتبوا بأيديهم المجلدات بعد المجلدات عن جرائم الصلب والحرق والرجم وقطع الرءوس والشنق والنفى الى سيبيريا والتشهير والمقاطعة ، أى الجرائم التى ارتكبتها البشرية فى حق الرواد الاوائل كما ترتكبها الان فى حق تابعيهم الحاليين ورفاقهم فى السلاح . اننا نسمع من أفواه ذوى الشهرة الادبية الثابتة وذوى السمعة المحترمة من النقاد ، أن وليم بليك كان مجنونا وان شيللى كان شابا منحلا أفسده اختلاطه بمجموعة من الشباب الفاسد المنحل ، وان « روبرت أوين » كان غرا مأفونا لا خبرة له بالعالم ، وأن راسكين كان عاجزا عن هضم الاقتصاد السياسى وأن « زولا » كان وغدا أفاقا وأن « ابسن » كان شـــبيه زولا ولكن برجل خشبية . والموسيقار الذى يرضى عنه المستمع العادى غير المحترف يناله التشهير والتشـــنيع عادة من زملائه الموسيقيين المحترفين . فلقد كان مثقفو أوروبا من الموسيقيين هم الذين أعلنوا أن فاجنر أدنى مرتبـــة من مندلسون ومايربير . ويجد الرسام العظيم أعداءه دائمـا بين الرسامين لا بين رجال الشارع : فلقد كانت الاكاديمية الملكية فى لندن هى التى وضـــعت نكرات لا وزن لها فى مرتبة تعلو مرتبة بيرن جونز (١) . وليس من المنطقى ولا من الواجب أن يكون الامر على هذا النحو ، ولكنه على هذا النحو بالرغم من كل شىء

وفى نهاية المطاف ، ينفد صبر الواقعى الشـــجاع ،

---

(١) Burne-Jones ١٨٣٣ — ١٨٩٨ أحد الرسامين الانجليز من رفاق وليم موريس وراسكين . كان يرسم بالزجاج الملون والقماش وورق الحائط.

والأكاديمية لندن للفنون أسست سنة ١٧٦٨ برعاية الملك جورج الثالث. ثم علاها صدأ الرجعية والجمود فى القرن التاسع عشر حتى أصبحت كلمة «أكاديمى» وظلت الى الان تحمل معنى التقليد والرجعية والتعصب والبلادة

ويضيق ذرعا ، بالمثل العليا برمتها فلا يرى فيها الا ضبابا وغشاوات تحجب أبصارنا ، وبدلا من أن تكون أدوات فى أيدى البشرية لمقاومة الموت اذا بها تجرد الموت من سلاحه المخيف ، ولكن بالدعوة الى الانتحار . فالمثالى الذى لجأ الى حمى المثل العليا لانه يكره نفسه ويخجل من نفسه يظن أن مصيره الحق ونهايته المثلى هما فى التشبث بالمثل العليا . والواقعى الذى انتهى به الامر الى احترام نفسه والايمان العميق بسلامة ارادته هو ، يعتقد أن اللجوء الى المثل العليا هو أسوأ مصير وأحقر نهاية يمكن أن ينتهى اليها . المثالى لا يكبح جماح الطبيعة البشرية بنزواتها الفاسدة واسرافها المدمر الا بانكار الذات والغاء شخصيته، وتحقيق الاندماج التام فى المثل العليا . والواقعى ينظر الى هذه المثل العليا على انها ملابس ضيقة كبر الانسان عليها فباتت لا تلائمه بل وتعوق حركته بصورة لا تطاق . ولا عجب أن يعجز الاثنان عن أن يتفقا . يقول المثالى : « الواقعية معناها الاناوحدية ، أن أقول أنا وحدى وبعدى الطوفان ، ومعنى الاناوحدية الانحراف . » ويقول الواقعى: « ان الرجل عندما يلغى ارادته فى أن يحيا ويكون حرا فى عالم من الاحياء الاحرار ، لا يسعى للانسجام مع المثل العليا بهدف تحقيق ذاته ، بل ليكون «رجلا طيبا»او«رجلا صالحا » فاذا ما بلغ مسعاه هذا ، فقد مات موتا أدبيا ، وتعفنت أخلاقه ويجب أن يترك وشأنه حتى تحين ساعة بعثه من جديد اذا أسعده الحظ وحانت تلك الساعة قبل موته الجسدى ، ومن سوء الحظ ان هذا النوع من القول لا يفهم ولا يدركه الا الواقعى . ومن الممتع ـ وان كان فى نفس الوقت أقل قدرة على الاقناع « اقناع المثاليين» أن نتناول بالعرض نموذجا واقعيا حقيقيا لواحد من المثاليين وهو ينتقد واحدا من الواقعيين

شو وإبسن - المرأة الكاملة

كان اهم حادث ادبى وقع فى سنة ١٨٩٠ ، هو نشر يوميات مارى باشكرتسيف (١) ، وقد قدم وليم ستيد (٢) رئيس تحرير مجلة ريفيو أوف ريفيوز فى يونية سنة ١٨٩٠ عرضا لليوميات مشفوعا بسلسلة من التعليقات ٠ وكان ستيد قد ضم اليه جمهورا غفيرا من الحواريين والتابعين بقيامه باحدى الخدمات الوطنية التى استهدف من ورائها الصالح العام ، واضطر فى سبيل ذلك الى أن يتظاهر بارتكاب جناية خطيرة وسجن من جرائها لكى يثبت للرأى العام وللقضاء أن تلك الجريمة يمكن ان

(*) الفصل الثالث من جوهر الابسنية

(١) Marie Bashkirtseff ١٨٦٠ – ١٨٨٤ رسامة وكاتبة روسية شابة عاشت متنقلة بين المانيا والرقيرا ٠ وقد احتفظت منذ طفولتها بيوميات تحكى بصراحة تامة أسرار حياتها ٠ وقد تبادلت مع جى دى موباسان خطابات مشهورة باسم مستعار ٠ وقد طبع جزء من يومياتها بعد وفاتها واحدث ضجة ادبية فى اوروبا وانجلترا وترجم الى لغات كثيرة

(٢) W. T. Stead ١٨٤٩ – ١٩١٢ الكاتب الصحفى الانجليزى ٠ أصدر وتولى تحرير عدد من الصحف الناجحة ٠ وشن حربا صليبية ضد الرذيلة وانحرافات الاحداث ، أدت الى تعديل القانون الجنائى فى انجلترا وكان نصيرا للسلام

تحدث وتحدث فعلا • ثم شغل بحملة صحفية شنها لارساء قواعد المثل الاعلى الذى يقول : ان طهارة الانسان فى الامور الجنسية شرط من شروط الخدمة الوطنية • وكانت لديه بكل تأكيد خصائص ابسنية واضحة : الثقة بالنفس وقوة الارادة واتباع ما يمليه عليه ضميره بلا تحفظ ، وان يكون قادرا فى كل وقت على أن يجعل صوته مسموعا • ومن بين مثالياته التى آمن بها ، مثل أعلى هو أبرز مثله العليا واعلاها مقاما : المثل الاعلى للانوثة أو المرأة الكاملة • وهو كسائر المثاليين يستطيع فى سبيل تعزيز هذا المثل الاعلى — أن يقرر اى شىء وان يصدقه مهما خالف الواقع والحقيقة بشكل واضح وبشكل مضحك معا • وما ان وقع على يوميات مارى باشكرتسيف وعرف ان روايتها لقصة حياتها تتعارض تعارضا تاما مع الصورة التى كونها لعقلية المراة فى مثله الاعلى للأنوثة اذا به يقع فى ورطة محيرة : اما ان مارى ليست امرأة واما أن مثله الاعلى زائف بطبيعته • ولكن تردده لم يطل فقد اختار الرأى الاول فعلا • قال : « ليس فى مارى الا أثر قليل ، بقية تافهة من المرأة الكاملة ، انها على التحديد نقيض المرأة الحقيقية تماماً »

وكانت ورطة وليم التالية ان كان ضبط النفس هو احدى الصفات الاساسية واول الشروط التى يتطلبها فى مثله الاعلى ، ومن ثم يستحيل — منطقيا — ان تتمتع مارى بصفة ضبط النفس والا كانت شبيهة بمثله الاعلى • ومع ذلك اضطر لان يسجل فى مقالاته انها قد صنعت من نفسها فنانة (١) على درجة عالية من المهارة بدون أى قهر

---

(١) تكاد كلمة فنان أو فنانة Artiste تقتصر فى اللغة الانجليزية على الرسامين والنحاتين • فنانة معناها رسامة او نحاتة

خارجى عليها ، وذلك بمثابرتها على العمل عشر ساعات كل يوم لمدة ست سنوات • والندع اى واحد يظن أن هذا ليس برهانا على ضبط النفس ، يحاول ان يصنع ما صنعته مارى لمدة ستة شهور فقط • ومع ذلك جاء حكم وليم القاطع عليها فى قوله : « انها لا تتمتع بأى مقدرة على ضبط النفس • » وعلى أية حال قد تبلورت خصومته الكبرى لمارى فى السطور التالية « .. كانت مارى رسامة وموسيقية وفيلسوفة لبقة الحديث ، وباحثة وبالاختصار كانت تتمتع بأى شىء تحب أى امرأة ان تتمتع به الا أن تكون امرأة طبيعية لها قلب يحب وروح ترى ذروة اشباعها فى التضحية من اجل زوجها الحبيب وولدها • » وانى لاشك فى أن هناك منكرا بين جميع منكرات المثاليين التى تجعل من مجتمعنا بؤرة عطنة ، يمكن ان يبلغ فى بشاعته ذلك التقليد المنكر الذى يفرض على المرأة أن تضحى بنفسها بمثل هذه الطريقة اللئيمة على زعم انها تحب التضحية ، فاذا ما تجاسرت المرأة وعارضت هذا الزعم ، عرضت على الملأ فوق منصة التشهير وقيل انها ليست امرأة • وفى الهند تمادى المثاليون فبالغوا فى هذه المثالية الى حد الزعم بأن المرأة الكاملة لا يمكن ان تحتمل الحياة بعد موت زوجها ، وانها تريد دائما بطبيعتها المحبة المخلصة ان تضحى بحياتها على المحرقة التى حرقت عليها جثة زوجها • والعجيب ان النساء هناك كن يسمحن لقومهن أن يسكروهن بالخمر حتى تتبلد أحاسيسهن ويصبحن فى حالة منافية للانوثة تماما ، وذلك قبل حرقهن احياء حتى لا يوصمن بوصمة التناقض مع المثل الاعلى للانوثة الكاملة • ولقد وضعت المادية البريطانية الانتهازية ، حدا لمثاليات الارامل

الهنديات فقامت حكومتها فى الهند بالغاء تقاليد «الساتى» بالقوة الجبرية . غير ان النسخة الانجليزية من تقليد « الساتى » (١) ما زالت شائعة مزدهرة . وكان ستيدمنقذ الاطفال من الرذيلة (٢) واحدا من كبار كهنتها . ولنتصور مشاعره مثلا وهو يجابه بهذه العبارة الافتتاحية فى يوميات امرأة : « أنا احب نفسى » أو بعبارة : « أقسم جادة ــ بالكتب المقدسة وبحب المسيح و «بنفسى» ــ على أننى سأصبح فى مدى اربع سنوات امرأة مشهورة . » لقد اعلنت الفتاة الصغيرة فى حزم واصرار انها ستكرس جميع القوى التى لم توضع فى خدمتها ــ على حسب رأى ستيد ــ « لمصلحتها الشخصية لا للتضحية فى سبيل زوجها وولدها . » لا عجب اذا ان نراه يندفع صائحا : « كانت ذكية بلا شك ، وذكية جدا ، ولكنها لم تكن امرأة »

كان من الواضح تماما ان مارى بشكرتسيف أبعد ما تكون عن المرأة التى تنطبق عليها شروط المثل الاعلى للانوثة ، أى أنها كانت مثالا فذا للمرأة الواقعية . وستيد فى كتابه عنها ، يبدو كما لو كان قد وقع فى غرام يومياتها وتاريخ حياتها ، فقد لذ له أن يعرضها فى صورة باهرة ساحرة عندما يقول : انها كانت مصدرا لبهجة كل المحيطين بها بفضل ما كانت تشيعه حولها من جو التفاؤل والتهلل الحافل بالأمل ، وان ذلك يرجع الى

---

(١) Suttee

(٢) حاشية بقلم شو :

لجأ ستيد الى تجربته الجنائية اليائسة المشار اليها لكى يحمل الحكومة على اتخاذ الاجراءات الكفيلة بمنع بغاء الاطفال والرقيق الابيض . وقد نجح فى مسعاه

ارادتها الصلبة القوية • والحق ان المرأة الكاملة ـ فى نظر ستيد ـ أى التى تضحي بنفسها وبارادتها وبرغباتها فى الحياة ، هى مجرد ضحية بائسة للاستغلال ، وليس ذلك فحسب بل انها ـ ككل حمالى الهموم شخصية بغيضة يكرهها الناس لما هى فيه من كرب دائم وهم مقيم • وليس من شخص يمكنه أن يزعم ان روحه تبلغ ذروة اشباعها فى التضحية بنفسه • ان مثل هذا الزعم جدير بأن يدمغه الى الابد بالجبن والتهافت • ان الرجل كامل الرجولة ، هو الذى يتبنى وجهة نظر بشكرتسيف فى الحياة . ونحن لا يقل حبنا للرجال بسبب ارادتهم القوية واستقلالهم ، فما من انسان يشعر بالعجز او بانه ضعيف لا حول له ولا قوة وهو يمشى بصحبة شخص من هذا الطراز ، أى بصحبة شخص يساعد نفسه بنفسه .أما ذلك المضحى بنفسه ، المنكر لذاته دائما ، حمال الهموم، فذلك هو العبء الثقيل المزمن ، انه كالمسئولية الثقيلة ينبغى حمله على الاكتاف ، فضلا عن انه مصدر ازعاج دائم غير طبيعى ، وليس فى وسع شخص قوى النفس حقا ، أن يعيش أو يتعايش معه .. ان الذين يساعدون أنفسهم هم وحدهم الذين يعرفون كيف يساعدون الاخرين ، وكيف يحترمون حق الاخرين فى مساعدة أنفسهم .. (١)

وعلى الرغم من أن المثاليين الرومانسيين يصرون على أن

---

(١) حاشية بقلم شو :

على اثر نشر هذه العبارة بوقت قصير جاءتنى سيدة المانية فقالت انها تعرف « المصدر الذى استقيتها منه » وكان واضحا انها لاتقصد أنى استقيتها من ابسن اذ أردفت تقول لى : « لقد كنت حتما ـ تطالع كتاب نيتشه فى الخير والشر وفى الجانب الاخر » . وكانت تلك أول مرة اسمع فيها عن نيتشه . ولا أذكر هذه الواقعة لغرض سخيف هو الدفاع عن « اصالتى » جريا على موضة القرن التاسع عشر ، بل لاننى اعطى =

اخضاع النفس او اذلالها هو عنصر لا غنى عنه فى الحب الأنثوى الحقيقي ، فان كلا من افراد الجنسين يعرفون تأثير ذلك معرفة تامة ، فهو تأثير بغيض وممقوت فى الواقع ، ومن ثم يصدون عنه صدودا . ان أقصى الأمثلة تطرفا فى هذا الصدد ، هو ما نراه ونلمسه عندما يسلم شخص مقاليد نفسه بنزق وطيش للشهوة الجنسية . وكل شخص يقع فريسة أو نهبا للفتنة الجنسية سرعان ما ينفر منها تلقائيا ، وبطبيعة الغريزة الجنسية نفسها. فالحب بطبيعته يفقد سحره عندما لا يكون حرا ،وسواء كان القهر فى الحب من العادة او من التقاليد او من القانون او من الفتنة الجنسية ، فنتيجته سواء فى جميع الحالات : يفقد الحب قيمته ويصبح منفرا وبغيضا كمداعبات مجنون . انالرغبة فى البذل لا تلهم الانسان باى حب ما لم تكن هناك ايضا رغبة فى الاحتفاظ ، والمحب الناجح فى كلا الجنسين على السواء هو الذى يضع لحبه شروطا مشرفة ويتمسك بها الى النهاية ، فاذا ما خاب امله فيها نفض يده من الامر كله ، ومضى لا يلوى على شيء . والزواج الشرعى كما يتم اليوم لا يوفر مثل هذه الشروط لاى من الجنسين ، لان العلاقة الزوجية الشرعية تقوم بطبيعتها على القهر والالزام ، ومن ثم تبعث على النفور الشديد ، وهذا النفور يضع الزواج فى أول الامر فى مرتبة المثاليات مع انه يبقى كوسيلة لا غنى عنها

= اهمية كبرى للدليل الذى يثبت ان الحركة التى دعا اليها شوبنهور وفاجنر وابسن ونيتشه وسترندبرج كانت حركة عالمية ،وكانت خليقة بأن تجد اللسان الذى يعبر عنها حتى ولو كان كل واحد من هؤلاء الكتاب قد ادركته المنية وهو طفل فى المهد . وقد تناولت هذه القضية فى مقدمة مسرحيتى « ميجوربربارا » والحركة مازالت حية تتنفس اليوم فى فلسفة برجسون وفى مسرحيات جوركى وتشيكوف وفى الدراما الانجليزية فى الحقبة التالية لابسن

لاستمرار النسل ، ثم يحوره بعد ذلك ويتحايل عليه بالطلاق وبالغاء العقوبات المفروضة على عدم الامتثال للاحكام القضائية الخاصة بتعويض الحقوق الزوجية والخيراً بعدم استخدام هذه الاحكام بالتدريج وتلاشيها كلما انتقلت مسئولية رعاية الجيل الناشىء من الاب الى المجتمع .. » (١)

ولقد قوبلت لوائح الزواج التى نظمتها كنيسة انجلترا بنفور متزايد أدى بكثير من مشاهير الرجال والنساء

---

(١) حاشية بقلم شو :

ان أى بحث فى عيوب قانون الزواج فى حالته الراهنة لابد وان يخرج بنا من سياق الموضوع ومن ثم لايجمل ادخاله فى هذا السياق ، وان كان من المستحسن الاشارة الى الذين يعتبرون الزواج نظاما مقدسا لايمكن انتهاكه او الخروج عليه . والواقع ان الضرورة قد أكرهتنا على العبث به عبثا فاضحا لدرجة انه الان (١٨٩١) وامام اعلى محكمة فى المملكة ، يقف زوج وزوجة ليحكم بينهما القضاء : يقول الزوج هل للمرأة ان تحمله كافة مسئوليات الزوج ثم ترفض ان تعيش معه ؟ وتتساءل الزوجة قائلة : هل يسمح القانون لزوجها بأن يرتكب فى حقها جرائم الاختطاف والسجن والاغتصاب (وما أقرب هذا بنظام بيت الطاعة عندنا — ع٠م٠) ؟. فلو قالت المحكمة للزوج نعم ، أصبح الزواج عقدة لايمكن حلها ، وشيئا لايطيقه الرجال . واذا قالت للزوجة نعم أصبح الزواج جحيما لايطاق بالنسبة للنساء . ومن الواضح ان الفرصة ينبغى ان تتاح لفصم عرى هذه الزيجات وأمثالها اذا كان لنظام الزواج كله ان يبقى ويدوم. ان اتاحة هذه الفرصة امر ضرورى الى أن تتاح للمجتمع نفسه طريقة أخرى أو نظام اخر يحل محله ويقوم بوظيفته . وهكذا يضطر نظام الزواج فى سبيل استمرار النسل وبقاء النوع ، الى اباحة الطلاق والتوسع فيه ، كالسجين الهارب الذى يضطر لتعطيل ذئب يقتفى اثره ، لان يقتطع له اجزاء من قلبه . ولقد حكمت المحكمة فى القضية المشار اليها لغير صالح الزوج . غير ان انجلترا مازالت متخلفة وراء اوربا البروتستانتية فى ادخال التعديلات الضرورية على قانون الطلاق . انظر مقدمتى فى مسرحية « زواج » التى تزود القارىء بالبحث الذى يخرج عن نطاق هذه الملاحظة العابرة « سنة ١٩١٢ »

الى نبذ البنود الخاصة بأهداف الزواج كنظام ، وبالرغم من ذلك فليس من المرجح أن نســــتغنى عن الروابط والالتزامات الشرعية وأن نضع كل ثقتنا فى دوام الحب، حتى لا يتوقف استمرار النسل وبقاء النوع على البيت باعتباره روضة أطفال أو دارا للحضانة وتفريخ الاطفال كما هو حادث الان . ان الحب كعامل فعال يلعب دوره فى المجتمع لا يزال مجرد لذة وشهوة . أما تلك المرحلة العليا فى تطور الحب ، مرحلة الحب الناضج التى يصفها لنا أبسن ممثلة فى شخصية « ربيكا وست » فى مسرحية آل روزمرزولم فغير معروف لاكثرنا الا من خلال أوصاف الشعراءالعظام الذين لم يعرفوها هم انفسهم من واقع تجاربهم الشخصية كما تدل على ذلك ترجمات حياتهم — بل عرفوها عن طريق الالهام ، كومضات خاطفة. لقد أحب « دانتى » بياتريس هــــذا الحب السامى ومع ذلك لم يكن دانتى مخلصا لها لا فى أثناء حياتها ولا بعد مماتها ،بل ولم يكن مخلصا للمرأة التى تزوجها فعلا . ومن ذا الذى يزعم ان عقله أرقى من عقل دانتى ؟ ان من يفعل ذلك لهو بورجوازى وقح . وقد يموت تانهاوزر (١) وهو يعتقد اعتقادا جازما ان لحظة عاطفية واحدة قضاها مع سانت اليزابث كانت احفل بالسعادة من جميع الساعات التى قضاها مع فينوس فى نشوة غامرة . ولكن هذا لا يغير من الواقع شيئا وهو أن حبه الحقيقى قد بدأ مع فينوس وأن التجارب النهائية التى مر بها فى طريقه الى هــــدفه النهائى قد تخللتها نكسات . . ان افتتان تانهاوزر بفينوس

---

(١) Tannhauser بطل اوبرا فاجنر المعروفة بهذا الاسم . وتانهاوزر قسيس من العصــورالوسطى كان موزع القلب بين حبه المقدس لسانت اليزابث وشهوته الجسدية لفينوس الهة الحب

تطور للشهوة البدائية المبتذلة ، تلك الشـــــهوة التى أحس بها جاك البورجوازى نحـــو حبيبتـــــــه جيل ، وهو تطور أرقى ولكنه فى نفس الوقت أخطـر من المادية الانتهازية . الشهوة هى بذرة الفتنة : والفتنة هى بذرة الحب الاكمل . وعندما قال « بليك » لقومه انهم لن يتعلموا الاعتدال الا من خلال الافراط كان يعلم ان الطريق الى الحاضر ، قد مر بفينوســـــبورج (١) وان الجنس البشرى لم يهلك ولن يهلك فى فينوسبورج حتى وان هلك فيها بعض الافراد مهما اشفق البوريتانى المتزمت وظـن أننا سنلقى حتفنا جميعا هناك مالم نعثر على طـــريق آخر يدور حول مدينة الشهوة . ولا شك أن بليك قـد تنبأ أيضا بالزمن الذى سيولد فيه أطفالنا على الجانب الاخر من الصراط المستقيم ، وبذلك يفلتون من عملية التطهير الجهنمية ، التطهير بالنار ..

ولكن الحقائق كلها تؤكد أن بليك لا يزال يعتبر عرافا مجنونا ، وان النقاد التقليديين لمسرحية آل روزمرزولـم لا يزالون يفشلون حتى فى ملاحظة تطور افتتان ربيـــكا بروزمرزولم الى ان اصبح الافتتان حبا حقيقيا ، فضلا عن أن يقدروا ماصحب ذلك من تجليات اخلاقية رفيعة . وهذه الحقائق نفسها تبين مبلغ السخافة التى ينطوى عليهـا الزعم بأن الزواج الروتينى فى هـذه الايام هو اتحاد بين رجال من طراز « وليم بليك » ونساء من طراز « ربيكا وست » وأن من الممكن انكار الشهوة الجنسية وضرورة اشباعها لاشخاص لم يبلغوا بعد هذه المرحلة الارقى ، حتى ولو كان هذا الانكار سياسة رشـيدة . ان الاكثرية

(١) هى مقر فينوس الهة الحب فى الاسطورة ، اى مدينة الشهـــوة الجسدية

الساحقة من امثال هذه الزيجات ـ وهى لا تعـدو أن تكون من قبيل زواج المصلحة ـ انما يقبل عليها الناس لاشباع شهوتهم الجنسية وهى فى أشد صورها بدائيـة وفجاجة ، أو وهى مقنعة بتلك الاوهام المثـالية التى ينسجها خيال الشباب بكل هذه البراعة المثيرة للاعجاب، وان كانت تثير ضحك الشيوخ وسخريتهم العريضة

اذا كان الامر كذلك ، فليس من المستغرب أن ينتهى مجتمعنا الخاضع لسـيطرة الرجال المباشرة ، الى أن ينظر «للمرأة» لا على انها شخص ، له كيـان قائم بذاته كالرجل ، بل كمجرد أداة لتثير شهوته ثم تتعهد هـذه الشهوة بالرعاية والاهتمام . الزوجة المثالية اذن هى الزوجة التى تفعل كل شيء يحبه الرجل المثالى ، ولا شيء آخر . والان أقول انك اذا عاملت شخصا باعتباره أداة لاهدفا فى ذاته فمعنى ذلك أنك تنكر عليه حق الحياة . فاذا كنت أنت ذلك الشخص الذى يلقى مثل هذه المعاملة، أى اذا كنت الاداة المستخدمة فى مباشرة العـلاقة الجنسية مع الذين ينكرون حقك فى الحياة ، فلن تحتمل هذا الوضـع ، ولن يحتمله أى انسان . والمرأة التى تتجاسر على أن تنظر بعين مفتوحة الى حقيقة معاملتها على هذا الاساس ، ينتهى بها المطاف الى احد أمرين : اما أن تعيش وهى تكره نفسها وتحتقر وجودها ، واما ان تثور وتعلن العصيان . والقاعدة أنها تثور فعلا اذا مكنتها الظروف من اعلان ثورة ناجحة ـ كأن تكون عبقـرية بالصدفة تمكنها عبقريتها من أن تخسر شخصيتها «كأنثى» دون أن تخسر وظيفتها ، او ان تقطع صلتها بالمجتمع الذى تقدره حق قدره ، غير ان الظروف قلما تمكنها من ذلك فهل تكره نفسها وتحتقر وجودها ؟ كلا بكل تأكيد . انها بدلا من ذلك ، تخدع نفسها على الطريقة المثالية عندما

تنكر ان الحب الذى يبديه نحوها حبيبها موســـــوم بالشهوة الجنسية ، وعندما تعلن انه حب طاهـــر جميل خال من دوافع المصلحة ، وأنه شيء سام يمكن كلا منهما من تكريس حياته للاخر ، وان بفضله تتطهر حيــــاة الرجـــل ويسمو الى أعلى عليين ، وتتقدس حياة المراة وتصبح نعيما كلها وبركة . أما الشـــخص الذى لا يرى فى عروض الرجل الشريفة التى يتقدم بها الرجل لزوجته المقبلة ، الا الذكر الادمى وهو يسعى وراء انثاه الادمية ، فانه فى نظر المرأة المثالية ، أقذر مستهتر بالقيم الشريفة. والرجل بدوره يعمل على ابقائها سادرة فى أوهامها ، بل ويثبت هذه الاوهام تثبيتا ، لانه هو نفســـــه لا يطيق الحقيقة ولا يحتمل مرارتها ، فهو يريد أن يقيم رابطــة على الحب ، لا أن يبرم صفقة مهينة . ولكن بذرة الحب الاسمى كامنة فيهما على اية حال ــ وان كانت حتى لذلك الحين لا تزيد عن الشهوة التى يخفونها ويموهونها على انفسهم بغاية الحرص والدقة . وهكذا يأتى السمسار ــ والشخص الذى عنيناه لا يزيد عن كونه سمسارا ، ليعقد صفقة الزواج التجارية . ولكنه يقدم لصفقته بمغـــازلة امراته بكلمات الوهم التقليدية ، أى بالحب الرومانسى . ثم يتم الاتفاق بين الطرفين على زعم أن زواجهما سيحقق لهما المثل الاعلى الرومانسى للزواج . ثم تفشل الخطة وتنهار . اذ سرعان ما تتبين الزوجة الشابة أن زوجهـــا يهملها من أجل عمله ، وأن مصالحه وأوجه نشاطه وحياته كلها تقع بعيدا بعيدا خارج نطاق البيت فيما عدا تلك الناحية الجسدية الوحيدة فى زواجهما والتى أشار اليها ذلك المستهتر القذر من قبل ، وأن عملها أصبح يتلخص فى الجلوس هناك فى البيت ، لتجتر كآبتها وتبلى نفسهـــا من الحسرة الى أن يتعطف بطلها ويبدى رغبة فيهــــا .

وماذا يمكنها أن تصنعه بعد ذلك ؟ لو أنها أشتكت لاستغنى هو عنها لانه قادر على مساعدة نفسه بنفسه ، بينما هى تعتمد عليه للمحافظة على مكانتها الاجتماعية وعلى حياتها وبيتها واسمها وخبزها اليومى القديد (١). وعندما تنفجر شكواها وحسرتها ، أول انفجار ، تتجلى أمامها كل هذه الحقائق ، وتطعنها فى الصميم . ولكن الامور - لحسن حظها - لاتتوقف عند هذا الحد الى الابد - وان كانت تلك اللحظة أتعس اللحظات فى حياة أى امرأة . ذلك أن احترامها لنفسها الذى فقدته كزوجة، تسترده كأم ، وبخدماتها التى تقدمها للمجتمع وأهميتها فيه كأم وربة أسرة ، وهى بصفتها هذه - صفة الامومة - تنافس انجح رجال الاعمال وتتفوق عليه . والان اذا بالمرأة ، تصبح بضاعة مطلوبة فى البيت مطلوبة فى السوق الى جانب الاولاد . وبدلا من أن تبكى المرأة حظها العاثر لان زوجها مسافر خارج المدينة ، أو يفكر فى الاسهم والسندات والارباح أكثر مما يفكر فى امرأته المثالية ، اذا بها تنظر الى بقائه فى البيت طول النهار مصدر ازعاج لا يطاق واذا بها بعد زوال غشاوة الوهم من عينيها بشأن الحب المثالى ، تجد أن الامور ليست سيئة الى

---

(١) حاشية بقلم شو :

كان ينبغى على أن انبه قرائى من الرجال لان يتحروا الدقة وهم يفكرون فى هذه الاوضاع . فالزواج فى الواقع يهبط بالرجل الى درجة الاعتماد الكامل على المرأة بما ليس فى صالح الطرفين معا . ولكن المرأة لاتستطيع ان تستبد اوتطغى او أن تسىء السلوك ، بينما الرجل يستطيع ذلك وبقوة القانون ، ومع ذلك فلابد من القول بأن جانبا كبيرا من القانون الخاص بالتهرب من الالتزامات الزوجية ، قد وضع حدا لطغيان الرجل ، بل تمادى فى ذلك حتى أصبح مجحفا بالرجل الى حد كبير . ومؤلفات بلفور باكس مفيدة فى هذا الصدد . » سنة ١٩١٢ «

حد كبير على أية حال ـ وتعود الى الوهم مرة أخرى فترضي زوجها وتحرص عليه باعتباره أداة غير ضارة بل نافعة ، نافعة لتزويج أبنائها وبناتها وكفالة الاستقرار لهم مع أنها تشعر بأنها لو عرفت فى اليوم السابق لزواجها ما عرفته بعد ستة شهور من زواجها ، لصعب عليها أن تحمل نفسها على الزواج على الاطلاق

ويرضى الجميع بهذا الحل الروتينى المفتقر الى الجمال والخيال ، ويكتفون به ولكن الى حدود معينة فالمسألة كلها تتوقف على استعداد المرأة الطبيعى للادارة والتدبير المنزلى ورعاية الاطفال ـ وهو استعداد جاءها بمحض الصدفة ـ كما أنها تتوقف على ما يتمتع به الرجل من لين جانب ولطف معشر بحيث يمكن معايشته بصورة معقولة . ومن هنا ينشأ الوهم المثالى الاخر ، الذى يصف موهبة الادارة والتدبير المنزلى ورعاية الاطفال ، بأنها موهبة فطرية مركبة فى جميع النساء منذ الازل ، وان المرأة التى تفتقر اليها ، ليست امرأة على الاطلاق ، وينبغى ادراجها فى ذلك الجنس الثالث الذى لا هو بالنساء ولا هو بالرجال ، جنس بشسكرتسيف . وحتى اذا صح هذا فان النسوة اللواتى من طراز بشكرتسيف اذا ما أتيح لهن حق الحياة ، وجب أن يباح لهن حق اقامة النظم الملائمة لهن كما يباح لغيرهم من الرجال والنساء على السواء ، ولكنه ليس هو الواقع . فوظيفة التدبير المنزلى لم تعد وظيفة طبيعية ولا فطرية فى جميع النساء ، الا اذا كانت الوظيفة العسكرية طبيعية وفطرية فى جميع الرجال مع العلم بانه فى حالة وقوع ازمة فى تعداد السكان ، فقد يكون من الضرورى على كل امرأة قادرة ان تخاطر بحياتها فى ولادة الأطفال وفى البقاء بجوار اسرتهم تماما كما يحدث عند وقوع

أزمة عسكرية عاجلة ويكون من الضرورى على كل رجـل قادر ان يخاطر بحياته فى ميدان الحرب • وحتى فى هذه الحالات الاستثنائية فلن تكون النتيجة – بأى حال من الاحوال – ان ترث المرأة فى دمائها مواهب التدبير المنزلى ، أو أن تبض اثداؤها باللبن • من الصحيح تماما بالطبع ، أن أكثر النساء يحملن للاطفال عطفا وحنانا ، ويفضلن اطفالهن على اطفال الاخرين ، غير أن هذا يصدق أيضا على الرجال • مع أن الرجال لا يرون فى دار الحضانة مجالهم الطبيعى للعمل • ويمكن اعطاء صورة كاريكاتورية للقضية ، بالقول ان أكثر النساء اللواتى يحتفظن بكلاب مدللة يحملن لها العطف والحنان ، ويفضلن كلابهن على كلاب الآخرين ومع ذلك فليس هناك من يقترح على النساء أو يدعوهن الى حصر نشاطهن فى تربية الجراء • ولو انتهى بنا الظن الى أن دار الحضانة والمطبخ هما المكان الطبيعى للمرأة على النحو الذى انتهى به ظن الاطفال الانجليز الى أن القفص هو المكان الطبيعى للببغاء لان أطفال الانجليز لم يروا فى حياتهم ببغاء واحدا خارج القفص • ولا شك ان هناك ببغاوات مادية انتهازية يوافقون سجانيهم على أن الحياة داخل القفص افضل لهم من الحياة خارجه ما دام القرطم متوفرا هناك • بل قد يكون هناك ببغاوات مثالية تقنع نفسها بأن رسالة الببغاء فى الحياة ، هى فى أن يعمل على اسعاد وتسلية الاسرة التى تملكه ، بالصفير وبالترنم بأغنية « بولى الجميلة » وأن الببغاء الكامل الذى يضحى بحريته فى سبيل هذا الهدف « الانسانى » النبيل ، انما يجد الاشباع الاسمى لروحه • ولن أتمادى فأؤكد ان هناك ببغاوات دينية مقتنعة كل الاقتناع بأن السجن هو ارادة الله ، لان السجن قطعة من العذاب ، ولكنى واثق من أن هناك ببغاوات منطقية

سفسطائية يمكنهم أن يثبتوا ان هناك قسوة رحيمة عاقلة وان هناك رحمة قاسية بلهاء ، وان من الرحمة القاسية البلهاء أن نطلق سراح الببغاء ليقع فريسة للقطط أوالطيور الجارحة ، أو على الاقل لينسى ما تعلمه فى سجنه القاسى الرحيم من فنون الغناء والصفير ، فضلا عما قد يؤدى اليه صراعه فى سبيل البقاء وهو بدون حماية من تشويه لحباله الصوتية الرقيقة واصابتها بالخشونة . ومع ذلك فالببغاء الوحيد الذى يمكن للانسان المتحرر أن يتعاطف معه هو الببغاء الذى يصر على اطلاق سراحه لان اطلاق سراحه أو حريته هى أول شرط لان يكون طائرا مرغوبا فيه. قد تقول : ياله من طائر أنانى ، يشبع حاجته الخاصة قبل اشباع حاجة الاسرة التى أولعت به الى هذا الحد — أى قبل تحقيق أكبر قدر من السعادة لاكبر عدد من الناس(١) طائر يقلد الانسان بروحه المستقلة وبذلك يلغى صفته كببغاء ، فقد طبيعته كطائر منزلى وليست له قوة الصقر الجارح ولا جرأته . ولكنك مهما قلت فيه ، فأنت تحترمه بالرغم من منطقك الجبار المحكم . فاذا ما أصر الببغاء على ركوب رأسه والسير فى خطته ، فليس أمامك الا أحد شيئين : أن تطلق سراحه أو أن تقتله

والخلاصة ، ان المرأة: اذا لم تخلع عنها صفتها كامرأة كاملة وتطرح عنها واجبها نحو زوجها ونحو أولادها ونحو المجتمع ونحو القانون ونحو أى انسان آخر غير نفسها ؛ فلن تتمكن من تحرير نفسها . ولكن واجبها نحو نفسها ليس بواجب قط لان الدين يلغى من تلقاء نفسه ، عندما يكون الدائن والمدين هما نفس الشخص ، ويكون سداد

---

(١) يعرض شو بشعار النفعيين أو المنفعيين utilitarians وكان مذهبهم سائدا فى انجلترا فى أواخر القرن الماضى ابان نشر كتابه

الدين فى هذه الحالة، هو بكل بساطة فى تحقيق ارادة الفرد التى ترى فى كل واجب عليها قيدا على حريتها على أساس التصور المثالى للارادة الفردية بأنها بطبيعتها ارادة خبيثة وشيطانية . وعلى هذا يتعين على المرأة أن ترفض كلمة الواجب برمتها . ففى هذا الرفض ، تكمن حريتها . اذا قلت ان المرأة الان جارية للرجل بشكل مباشر ، فربما خالفت الحقيقة ، ولكن الحق أنها جارية للواجب بشكل مباشر . وكما أن طريق الحرية بالنسبة للرجل كان ولا يزال مملوءا بحطام الواجبات والمثل العليا التى حطمها ووطأها بقدمه ، فكذلك ينبغى أن يكون طريق المرأة الى الحرية . وقد تعمد المرأة الى اخفاء رغبتها الهدامة فى تحطيم الاصنام ، فتحاول كما فعل الرجل — فى سبيل أن تتمتع بحياة هادئة مستقرة ، أن تقنع نفسها على الطريقة المنطقية ، بأن تحررها سيدعم ويعزز جميع القيم المثالية التى أهملت او انتهكت ، بدلا من أن يقضى عليها وينسفها نسفا . مثل هذه الحجج والتعلات سهلة جدا بالنسبة للشخص الذى لديه استعداد لفهم الطريقة المنطقية سهولة العزف على البيانو لبادريفسكى (١) ، ولكن لا نصيب له من الصدق او من الحقيقة . فان ملء سلة كاملة من المثل العليا — وان كانت أكثرها قداسة — سوف تنسف نسفا فى اللحظة التى تتحقق فيها المساواة الكاملة بين النساء والرجال (٢) . اما الذين يشفقون فزعا وهولا ، من الصوت

(١) I. Paderewski — ١٩٤١ عازف البيانو البولندى الشهير والمؤلف الموسيقى . كان رئيسا للوزراء فى بولندا بعد الحرب العالمية الاولى ولكنه استقال بعد عشرة شهور

(٢) لم تتحقق هذه المساواة الكاملة فى انجلترا سواء فى الحقوق الزوجية أو فى الحقوق السياسية ، الا بعد أربعين عاما تقريبا فى سنة ١٩٢٩

المنبعث من البناء القديم وهو يتصدع وينهار من القواعد، فلهم أن يطمئنوا أنفسهم عندما يدركون ان عملية استبدال الحطام بشيء جديد ، ستتم بسرعة . انها دائما تسير على طريقة : « مات المثل الاعلى ليحيا المثل الاعلى » (١) . أما ميزة التدمير والنسف والهدم ففى أن كل مثل أعلى جديد يحتوى على قدر من الوهم أقل مما كان يحتوى عليه المثل الاعلى السابق الذى احتل مكانه ، بحيث يكون الشخص الهدام ، ناسف المثل العليا ، ومحطم الاصنام، وان استنكره الناس ونظروا اليه شزرا كعدو للمجتمع ، هو فى حقيقة أمره انسان يعمل على كنس الدنيا وتطهيرها من الاكاذيب

(١) على وزن « مات الملك ، ليحيا الملك » . شعار الملكيين المحافظين

شو وإبسن ـ مغزى المسرحيات

تتلخص الفكرة الاساسية فى المسرحيات التى كتبها ابسن فى ان العبودية الحقيقية فى الوقت الحاضر هى العبودية للمثل العليا : العبودية لمعانى الطيبة والصلاح والخير . وربما تعجب القراء الذين تأملوا فى ابسن من خلال عوينات مثالية ـ من قدرتى على تحريف أقوال شاعر عظيم الى هذا الحد ، والواقع انى أعرف انالكثيرين ممن سحرهم الشاعر وأذهلهم بما فى المسرحيات من رائع الشعر وبليغ النظم ، سيفسرونها تفسيرا اخر غير الذى قدمه ابسن نفسه بأوضح عبارة على لسان « مسز الفيج (١) » و « رلنج » (٢) والاخرين . فليس هناك كاتب عظيم يستخدم براعته وعبقريته فى اخفاء المغزى الذى يرمى اليه . هناك قصة رواها أحد مشاهير الاسكتلنديين (٣) وهى خليقة بأن تصدر عن ابسن لو كان ابسن هو الذى

(*) الفصل السابع ، من جوهر الابسنية الطبعة الثالثة كونستابل وشركاه لندن ١٩٢٢ وكانت الطبعة الاولى فى سنة ١٨٩٠

(١) بطلة مسرحية « الاشباح »

(٢) الطبيب فى « البطةالبرية »

(٣) سير وولتر سكوت والرواية هى The Heart of Medlothian وجين دينز هى بطلة الرواية

وقع عليها أولا : لقد ضحت « جيني دينز » بحياة أختها على عود المشنقة في سبيل قول الصدق ، وقول الصدق هو أحد المثل العليا . وتلك تضحية أبشع وأفظع من تضحية روز مرز فضلا عن أن الطريقة التى أنهى بها سكوت قصته ليست بالحل الملائم للمشكلة الاخلاقية التى اثارتها بل كانت مجرد تهرب صبياني منه . فعندما بلغت الرواية ذروتها لم يجرؤ على شنق « أيفى » فى سبيل مثل «جينى» العليا (١) . ومع ذلك فاذا كان لى أن أزعم أن سكون كتب رواية « قلب ميدلوثيان » ليبين أن الناس يساقون سوقا لارتكاب أفعال شريرة وغير طبيعية واجرامية بوحى من مثلهم العليا الدينية والاخلاقية كما يساقون لارتكابها بوحى من أحقادهم ومطامعهم فمن السهل دحض هذا الزعم من سطور الرواية نفسها . ولو حاول أحد أن يزعم أن « الاشباح » هى مجرد جدل يدور لتأييد نظام الزواج الكاثوليكى بواحدة ، الذى لا يمكن فصم عراه ،أو ان«البطة البرية » لم تأت الا للدعاية لقول الحقيقة من أجل الحقيقة نفسها ، فأولى به ثم أولى أن يحرق نص المسرحيتين لو كان لزعمه هذا أساس واحد ينهض عليه . اما الذين

---

(١) حاشية بقلم شو :

كثيرا ما يعرض على المسرح الحل المنطقى للمشكلة الاخلاقية مؤيدا جانب الاخلاق والفضيلة ، غير أني منذ سنوات عديدة شاهدت عرضا لميلودراما مقتبسة من هذه الرواية نفسها ، وعلى اثر مشهد المحاكمة الاليمة الذى تدين فيه « جينى دينز » أختها وتحكم عليها بالموت بعدأن رفضت أن تقسم على صحة واقعة هى بريئة منها تماما ، جاء مشهد فى السجن ، قال السجان فيه : « لو كنت مكانك لاقسمت حتى على وجود ثقب فى قدر « الحديد » . وأعقب قوله عاصفة من التصفيق تعالت من الصالة والشرفات وتدل على مشاعر ابسنية كاملة عند الجمهور وكانت العبارة مجرد حشو أدخله الممثل على النص من بديهته . فلم أتمكن على أية حال من العثور عليها فى النص المطبوع

(٢) مسرحيات ابسن ، لم تترجم بعد فيما أعلم

ينفرون من « الاشباح » وتتسع صدورهم لرواية«سكوت» فليس ذلك لانها أقل فظاعة وبشـــاعة ، ولكن لان آراء سكوت اراء مألوفة لدى جميع السيدات والسادة من ذوى الرتب العاليةوالاصل العريق ، بينما كانت آراء ابسنفى حينها اراء غريبة عليهم بدرجة لايمكن تصورها . ان ابسن شاعر عظيم . والشخص المثالى يتردى فى ورطة محيرة يعجز فيها عن أن يتصور ان صدر مثل هذا العبقرى يمكن أن ينطوى على أى معنى حقير او أية فكرة ذميمة ، ومع ذلك فهو عاجز بالمثل عن أن يدرك المعنى الحقيقى لافكاره على أى نحو آخر ، الا أنه معنى حقير ذميم .وهكذا يفوته المغزى تماما ، على الرغم من وضوح ابسن واصراره على هذا الوضوح ، ثم يمضى ذلك المثالى ليضع لنفسه مغزى اخر يلائمه هو ، ويتفق مع مثله العليا من الشرف والنبل ... الخ

ويبدو أن عطف ابسن العميق على شخصياته المثالية فى مسرحياته ، يزيد من حيرة قرائه المثاليين . فمـا دامت المثالية شديدة الولع بنقط الضعففىالشخصيةالانسانية فان النماذج البشرية للغرور والفشل والانانية والحماقة وهى أحفل النماذج التراجيدية بالفجيعة والحسرة ،ليست فى عينها أشرارا مبتذلين ، بل قد تصلح كأبطال فى أى ميلودراما عادية . « براند » و « روزمر » يســــوقان الى الموت أحباءهما ، ويفعلان ذلك بكل ما فى الانســـان السوفوكليسى أوالشكسبيرى الطيب المظلوم الذىيضطهده القدر ويغلبه على أمره ، ويفعلان ذلك وهما محاطانبأجواء رائعة جميلة ، « هيلدا فانجل » التى تقتل « البنـــاء العظيم » لتتسلى بقتـله ، هى أشد الشخصيات النسائية سحرا ، ومن أجدر بطلات الدراما بالعطف والاشفاق .ان

الشخص « المادى » العادى لا يرتكب مثل هذه الفظاعات، فهو يتزوج المرأة التى يولع بها ، ويعيش معها سعيدا على نحو أو اخر ويخلفان صبيان وبنات ، ولكنه لايفعل ذلك لانه أعظم من « براند » أو « روزمر » بل لانه أقل منهما قدرا . أما « المثالى » فهو حيوان أشد خطرا من«المادى»، كالانسان الذى هو حيوان أشد خطرا من النعجة فى القطيع . ومع أن « براند » قتل زوجته عمدا ، فاننى يمكننى أن أتصور عددا عديدا من النساء تزوجن منرجال ماديين لطاف المعشر ، ويعشن معهم فى راحة بال — وهن يقرأن المسرحية ويحسدن زوج الضحية — ذلك ان زوجة « براند » بعد أن قدمت التضحية التى فرضها عليها زوجها تقول انه كان على حق وانها الان سعيدة وانها ترى وجه الله ، ثم تذكره بأن كل من يحتضر يرى وجه الاله « يهوه » رأى العين ، فيضع يده على عينيها بطريقة غريزية واذا به يرتفع فى الحال بهذه الحركة ،الىما فوق مستوى النقد الذى يسخر من المثالية القادمة من اسفل ، الى أجواء أثيرية علوية صافية لا يمكن الصعود اليها الا من خلال الضباب والغمام

ولو أنى عمدت خلال روايتى للمسرحيات — (١) الى اصدار أحكام مفتعلة على اخطاء الشخصيات المثالية على أساس معايير الحياة المثالية التى تساموا اليها ، بدلا من معايير الحياة الواقعية التى تقاصروا دونها لفشلت حتما فى ايضاح موقفى مع الاحتفاظ بقدر معقول من الاحترام لعقلية القارىء . ان المعايير الدقيقة للاخلاق الواقعية وان لم يتضمنها الكتاب المقدس٠٠قد تخلفت عن العصرونسيها الناس،ولولاأن ابسن أرغمنى، لما كنت مكرهاً علىاستخدام

---

(١) شغلت رواية شو للمسرحيات عدة فصول فى « جوهر الابسنية»

هذه المعايير ، بل لاستخدمت معايير أخـرى لكى اتحاشى تعارضها مع المعايير السائدة الدارجة

وهذا على اية حال ـ شيء غـير ذى بال ، اذا قورن بالصعوبة البالغة التى تنشأ من عادتنا المتأصلة ـ عادة تقييم وتصنيف الناس في خانات ثابتة وتسميتهم أسماء مجردة على حسب صفاتهم الشخصية دون أى رجوع الى أرادتهم التى تقف وراء هذه الصفات وتتحكم فيها . ففى أحد الاحتفالات السنوية التى كانت تقام فى ذكرى كوميون باريس (١) صدمنى من خطباء الحفل ، ان أحدا منهـم لم يذكر الفيدراليين فى خطبته بكلمة رثاء واحـدة وهو تصرف غير لائق بالنسبة لفـلاحى الفنديه الذين حاربوا فى صف ظالميهم ضد الثوريين الفرنسيين وماتوا ، كما لم يذكر أحد كلمة رثاء فى الايرلنديين وأهالى الجبال الذين حاربوا فى سبيل آل ستيوارت وخاضوا معارك بوين أو كالودين (٢) . وكل ما قيل من عبارات الرثاء في الضحايا

---

(١) Commune of Paris سنة ١٨٧١ أول حكومة ثورية اشتراكية منتخبة من العمال ، استولت على مقاليد الامـور فى باريس بعد انسحاب جيوش الحكومة البورجوازية منها على أثر هزيمتها التامة امام الجيوش البروسـية التى غزت فرنسا واحتلت مشارف باريس فى حرب السبعين . ولم يستمر الكوميون أكثر منشهرين ثم سحق بوحشية بالغة على أيدى جيش جديد شكله « تيير » رئس الحكومة الفرنسية البورجوازية من فلاحى فرنسا والفنديه ومن أسرى الحرب الفرنسيين الذين أطلق الالمان سراحهم خصيصا لقمع ثورة باريس الاشتراكية

وكان من بين رجال الكوميون Communards شيوعيون دوليون ويعاقبة وأنصار بلانكى وفيدراليون فوضويون كانوا يسـعون لاقامة حكومات فيدرالية فى جميع أنحاءفرنسا على غرارالكوميونولكن مساعى الجميع حبطت بسقوط الكوميون . ويحتفل الاشتراكيون على اختلافهم فى جميع أنحاء العالم بذكرىسقوط الكوميون كل عام

(٢) Culloden and Boyne أسماء مواقع فى اسكتلندا ، كانت مسرحا لمعارك دامية بين بيت آل ستيوارت الملكى والاسكتلنديين وانهزم فيها الاسكتلنديون فى سنة ١٧٤٦

من أعضاء الكوميون أنهم أبطال ماتوا فى سبيل مثل أعلى نبيل • وهذه العبارات لن تفيد كثيرا فى تنوير المستمع الاجنبى الخالى الذهن عن الموضوع ، بل كانت على العكس جديرة بتضليله وتركه فى الظلام كما فعلت به بالضبط عبارات الهجاء التى كان من المألوف أن تظهر على صفحات جرائدنا ، وتصف ضحايا الكوميون بأنهم سفاكون سفاحون هدامون الى آخر هذه النعوت والاوصاف • ومرثياتنا وأهاجينا ، على العموم ، هى نماذج للغموض والتضليل .
وعندما نوقشت قضية الابسنية لاول مرة فى انجلترا لم تكن هناك شخصية أكثر حظا من الشعبية واثارةالاهتمام من تشارلز برادلو (١) الخطيب المفوه والملحد الزنديق الذى توفى أخيرا بفضل ما كان يتمتع به من مزايا وسجايا واضحة • فلم يكن له شبيه ولا مثيل بين الاعضاءالبارزين فى مجلس العموم — ومع ذلك فقد ظهرت بعد وفاته نفس السلسلة المألوفة من المراثى التىتصفه بالفصاحة وبالحزم والعزم والاستقلال الفكرى والحكمة والمنطق القوى وما الى ذلك • ولو حذفت من هذه المراثى الاسماء وبعض الحواشى والتفاصيل ، لما استطاع قارئها أن يحدد موضوعها : أهى فى رثاء «جلادستون»أم لورد«مورلى» (٢) أم « وليم ستيد » أو أى شخص اخر لا يشبه برادلو ن

(١) Charles Bradlaugh ١٨٣٣ — ١٨٩١ السياسىالبريطانى التقدمى وعضو مجلس العموم اشتهر بالحاده ورفضه القسم على الكتاب المقدس أمام المجلس وقد سجن بسبب دعوته الى تحديد النسل وكان يسمى نفسه « محطم الاصنام » وله كتاب بعنوان « ثمار الفلسفة » .

(٢) Lord J. Morley ١٨٣٨ — ١٩٢٣ السياسى اللبرالى والكاتب الصحفى ومترجم حياة جلادستون

شيء أكثر مما يشبه «غاريبالدى » (١) أوالكاردينال نيومان المتوفى أخيرا والذى كانت مرثيته خليقة بأن يعاد طبعهافى مناسبة وفاة برادلو دون أن يلاحظ أحدتناقضا كبيرا أو خروجا شديدا عن الموضوع • ولقد كان برادلو فى أيام شهرته موضوعا يوميا لمختلف المقـــالات والتعليقـــات الصحفية . فمنذ ثلاثين سنة مضت عندما حسبت الطبقات الوسطى أنه شخص ثورى أحاطت الصحافة عنقه بسلسلة من الاوصاف الشريرة وركزت تركيزا شديدا على الحاده وزندقته ، وأكدت ان السماح بدخوله البرلمان اهانةموجهة الى الله سبحانه • فلما اتضح للبـــورجوازية أن برادلو قوة معادية للاشتراكية فى المجال السياسي ، استبدلت الصحف فى الحال بسلسلة الشتائم البذيئة التى أحاطت بها عنقه ، عقدا نضيدا من الاوصاف الحسنة والنعـوت الطيبة مع أن الرجل لم يتزحزح عن الحاده وزندقته قيد أنملة • وأى شخص خالى الذهن ، لن يجد فى ســلسلة الشتائم او فى عقد المدائح الدليل الذى يهديه لمعرفة اى رجل من الرجال كان برادلو: أهومن طرازأوليفر كرومويل (٢) أم « وات تايلر » (٣) أم « جاك كيد» (٤) أم «بن»(٥) أم

(١) G. Garibal'di ١٨٠٧ ـ ١٨٨٢ الزعيم الوطنى الايطالى المعروف وأحد دعاة وحدة ايطاليا وبطل كثير من معارك تحرير شعوب أمريكا اللاتينية • كان يعد فى نظر اوروبا فى القرن الماضى رمزا للبطولة ومثلا أعلى للزعيم الوطنى الرومانسى

(٢) Oliver Cromwell ١٥٩٩ ـ ١٦٥٨ حاكم بريطانيـا المطلق بعد أن قاد ثورة البورتانيين وقطع رأس الملك شارل • وهوالذى وطد دعائم البورجوازية الأنجليزية وخرج بها من عصر الاقطاع

(٣) Wat Tayler قائد ثورة الفلاحين الانجليز أيام وباء الطاعون الاسود وقد قتله الملك ريتشارد الثانى فى حضرته

(٤) Jack Cade ثائر ايرلندى ضد فساد القصر وظلمه. شنق فى سنة ١٤٥٠

(٥) W. Penn ١٦٤٤ ـ ١٧٦٨ مؤسس ولاية بنسلفانيا في الولايات المتحدة وأحد زعماء الكويكرز

« ولبرفورس » (١) أمَ « ولنجتون » (٢) أو المرحوم مستر « هامبدن » الشهير بتعصبه الشديد لفـكرة أن الارض ليست كروية بل مسطحة ـ أم برودون أم كبير أسـاقفة كنتربرى ـ على حسب هذه المزايا أو المعايب التى خلعهـا عليه الكتاب على نحو أو اخر ؟ ان كافة الصفات والنعوت التجريدية تافهة تافهة ، وتفاهتها امر ملموس كل يوم فى الواقع العملى . تعال أمام جمهور من الناس واتهم أحـد الغرباء عن بلدهم بأنه لص وجبان وكذاب فستجـد أن الجمهور سيرجىء حكمه عليه الى ما بعد أن تجيب أنت على هذا السؤال : ماذا فعل الرجل ؟ فاذا حـاولت أن تصفه بصفات طيبة كأن تقول عنه أنه شجاع مستقيـم صاحب مبادىء عالية ، جاءك منهم نفس السؤال قبل أن تمتد يد واحدة ببنس واحد تضعه فى القبعة التى تدور بها عليهم ..

وعلى هذا ، ينبغى للقارىء أن يسقط من حسابه تلك الاحكام المتحيزة التى سمحت لنفسى باصـدارها وتلك المعايير التى اتبعتها او اعربت عنها فى روايتى للمسرحيات انها تبعد بنا عن حقيقة القصد منها ، فلو جاء ناقد فوصف « هيدا جابلر » بأنها « لوكريشيا »(٣) العصرية فضلت الموت على العار ، ووصف « تيا الفستد » بأنها بغى منبـوذة

(١) W. Wilberforce ١٧٥٩–١٨٣٣ داعية تحرير الرقيق فى انجلترا بعد أن ظلت حكومات بريطانيا وملوكها وملكاتها يتاجرون فى الرقيق طوال أربعة قرون كاملة فى مستعمراتهم التى لا تغرب عنها الشمس ، صدر قانون تحريم تجارة الرقيق سنة ١٨٣٣

(٢) Duke of Wellington ١٧٦٩– ١٨٥٢ القائد البريطانى الذى هزم نابليون فى ووترلو ولعب بالدوق الحديدى وتولى رياسة الوزارة وكان بطلا معبودا فى انجلترا فى أوائل العصر الفيكتورى

(٣) Lucritia السيدة الرومانية المشـهورة فى الاساطير بالطهارة والعفة، اغتصبها سكتسوس وطعنت نفسها حتى الموت اتخذها شكسبير موضوعا لقصيدته اغتصاب لوكريشيا .

خائنة للعهد هجرت الرجـــل الذى أقسمت على حبـه واحترامه وطاعته حتى المــوت فان فى المسرحية من الشواهد والادلة ما يثبت صحة الوصـــفين • فاذا مضى الناقد وقال ان ابسن يقصد بوضـــوح أن يوحى بأنه يفضل سلوك « تيا » على سلوك « هيلدا » لانه جعل نهاية تيا اسعد من نهاية هيلدا ، فان المغزى من المسرحيـة يصبح مغزى شريرا ، وهو شيء محال ومناقض للواقع • فاذا جاء ناقد آخر يدافع عن مسرحية الاشباح كما فعـل ناقد بيكاديللى الدرامى ، لانهـــا اضفت على شخصية القسيس « ماندرز » النقى الورع صفاء قدسيا وسلاما ربانيا فان مثل هذا التقريظ يكون بمثابة المصيبة المهلكة والبلاء النازل الذى لا يمكن اتقاؤه • واذا سميت « مسز الفنج » بالمرأة المتحررة أو بأنها امرأة بلا مبـدأ ووصف « الفنج » بأنه خليع فاسق أو بأنه ضحية من ضـحايا المجتمع ، واذا وصفت « نورا » بأنها امرأة شـجاعة لا تهاب وان لها قلبا نبيلا أو انها كذابة تافهـة وتصدمك بكذبها وبتفاهتها وانها أم غير طبيعيـة ، واذا وصفت « هيلمر » بأنه كلب أنانى حقـير أو بأنه زوج نموذجى بحسب تحاملك عليهم او تحيزك لهم ، فانت فى الواقع تقول شيئا هو فى نفس الوقت صحيح وزائف معا • ولكنه على الحالين قول سمج وعقيم ولا غناء فيـه على الاطلاق ••

ان القول بان اتجاه مسرحيات ابسن اتجاه لا أخلاقى بمعنى أنه منـاف للفضيلة قول صـائب تمـاما • والاتجاه اللا أخلاقى لا يعنى بالضرورة السـلوك الشرير المرذول بل قد ينطوى على سلوك شرير او على سلوك غير شرير ، ولكنه فى كلتا الحالين اتجاه لا يتفق مع المثـل

العليا السائدة • ان جميع الاديان تبدأ دائما بالثورة على الاخلاقيات الجاهزة المعدة سلفا • وجميع الاديان تفنى وتتلاشى فى اللحظة التى تتغلب عليها فيها الاخــــلاقيات الجاهزة المعدة سلفا ، فتذهب بكلمات الخير والخطيئــة لتأتى بكلمات الاخلاق واللا أخلاق • وعندما يخطط «بانيان» مدينة للاخلاق بما فيها من مواطنين قياديين كالمســـتر قانون « ليجاليتى » والمستر « تمدن سيفيليتى » يحرص على أن يجعل موقعها قريبا من مدينة الخراب • ولو فعل بانيان فعلته هذه فى الولايات المتحدة اليوم لوضـــع فى السجن عقابا له • أما أنا فقد ولدت فى ايرلنـــــدا فى منتصف القرن التاسع عشر ولكن كانت تســـودها روح القرن السابع عشر ، وفى وســـعى أن أذكر كيف كان الناس يشتبهون فى الاشخاص الذين يتكلمون كثيرا عن الاخلاق ويتهمونهم بقراءة مؤلفات « توم بين » (١) هذا اذ لم يتهموهم بالالحاد والولوغ فيه حتى الاذقان •• ان هجوم ابسن على الاخلاق ظاهرة من ظواهر احياء الدين لا من ظواهر القضاء عليه • ويجلس ابسن بلا شك مع الانبياء جنبا الى جنب عندما كرس نفسه وحياته لايضاح حقيقة ان روح الانسان فى حالة نمو دائم بحيث تعلو دائمـــا وبصفة مستمرة فوق المثل العليا ، وعلى هذا فأن اى انسجام تلقائى مع المثل العليا الســـــائدة بلا وعى وبلا تفكير ، يتسبب دائما فى حدوث فواجع وفظائع لا تقـــل بشاعة عن الفواجع والفظائع التى تحدث من انتهـــاك حرمة هذه المثل العليا انتهاكا تلقائيا بلا وعى وبلا تفكير

---

(١) Thomas Paine ١٧٣٧ ــ ١٨٠٩ المفكر الثـــورى والســياسى الامريكى الذى تجنس بالجنسية الفرنسية عند قيام الثورة الفرنسية مؤلف كتب Common Sense وعصر العقل Eye of Reason « ترجم » وحقوق الانسان Rights of Man « ترجم »

.. ان الاساس الذى تنهض عليه مسرحيات ابسن اذن ، انها تضع أمام أنظار الجمهور فى كل وقت أمـــرا بالغ الاهمية : ان يكون الانسان على الدوام ، متأهبـــا لان يتصرف تصرفات لا أخلاقية ، ان يكون على استعداد دائم وفى كل وقت لان يتناقض مع الاخلاق السائدة الجاهزة. ويذكر ابسن الناس ان عليهم أن يقولوا الصـــدق وأن يستسلموا للحقيقة كما يستسلمون لدواعى الحشـــمة وأصول اللياقةفيمسكون ألسنتهمعنقول الصدق ،ويحذر النســـاء اللواتى لا يستطعن أو لا يرغبن الزواج من أن المبررات التى يقدمها لهن المجتمع للاحتفاظ بعـــذريتهن وحصانتهن ، يمكن أن تكون من قبيـــل الاغـــراءات التى تغريهن بالتفريط فى عذريتهن وبانجاب اطفال غـــير شرعيين ، وكل ذلك هو مما يوحى به اليهن الاخـــرون ، أو توحى به اليهن نوازعهن الشخصية : ان القرار العملى الحاسم الذى ينبغى عليهن اتخاذه يتوقف على الظروف تماما كما يتوقف عليها القرار العملى الحاسم فى الاختيار بين المشى على الاقدام او استدعاء تاكسى مهما بدا القرار تافها أو بدت الظروف المحيطة به أهون من ذلك شأنا . ويحتج ابسن على الاعتقاد المألوف بأن هنـــاك قواعد أخلاقية معينة تبرر جميع الوسائل المستخدمة للمحافظة عليها والحرص على اتباعها بدقة ، ويصر على أن الهدف الاسمى هو الهدف الملهم الخالد الذى هو فى حالة نمو أبدية لا ذلك الهدف الخارجى المصطنع الجامد الذى لا يتغير ولا يتطور ولا ينمو ، العبرة ليست فى الشكليات بل فى الجوهر والروح ، العبرة ليست فى نصوص العقد وشروطه وبنوده ، بل فى الغرض المقصود من العقـــد ، العبرة ليست فى شكل القانون بل فى موضوعه وروحه بل العبرة ليست فى القانون المجرد بل فى ارادة الانسان

الحية • وما دامت ارادة التغيير ــ تغيير عاداتنا ــ اى الارادة التى تتحدى الاخلاق الجاهزة تنشأ دائما قبل أن يتمكن العقل البشرى من أن يتبين من وراء ذلك التغيير هدفا نافعا للجنس البشرى ، فستظل هناك فتـــرة من الزمن يستطيع الفرد الحر ذو الارادة الحية ان يمسك فيها عن القول او الشرح أو التفسير ؛ أو لا يقول اكثر من انه يريد أن يتصرف تصرفا لا أخلاقيا أو مناقضا للاخلاق الجاهزة لا لشيء الا لانه يحب ذلك ويرغب فيه ويشعر بانه سيكون تعسا وبائسا بل اشقى الناس اذا تصرف على نحو اخر • ولهذا السبب فمن اشد الامور اهميـــة وخطورة ، أن يهتم كل منا بشئونه الخاصة • أو بالمعنى الدارج ان نكون فى حالنا وان ندع الاخرين يفعلــون كما يحلو لهم ما لم نتمكن من أثبات وقوع ضرر فعلى ــ ضرر يزيد عن مجرد الصدمة التى تثير مشاعرنا الشـــخصية واحقادنا المتحاملة • ومن السهل ان نقدم أمثلة ثورية على تلك الافعال والتصرفات ــ ولكن من الصعب أن نضـع خطا فاصلا لها ، وان نقول انها لن تحسم فى الواقـــع بالقوة البدنية المجردة فى كل حالة تقريبا ، غـــير أن التمييز بين الضار والنافع بما يحقق الاغراض المألوفة للحكومة والمجتمع هو شيء عملى ومعقول جدا • والحقيقة الواضحة كل الوضوح ، هى أن الناس والمجتمـــع لن يضاروا بشيء اذ ما اصيبوا من آن لآخر بصـــدمة فى مشاعرهم الشخصية وفى احقادهم المتحـــاملة ، بل ان امثال هذه الصدمات ضرورية ، ضرورة مطلقة لتقـــدم المجتمع ، وينبغى أن يصاب بها كثيرا وغالبا • حقا انه ليس من صالح الناس والمجتمع أن يقتل بعض الافراد خنقا ، فى فراشهم أو فى أى مـــكان من وقت لاخر او فى أى وقت أبدا ، ولكن العيب والخطأ كل الخطأ

ان يعامل الملحد او الزنديق كما يعامل القاتل الذى يخنق الناس ويقتلهم ، وأن يوضع الذوق الردىء او التصرف السمج الممجوج على قدم المساواة مع السرقة والجريمة • ان حاجة المجتمع الى التطور الحر الطليق ، هى الاساس الوحيد للتسامح ، هى الحجة الوحيدة السليمة ضد محاكم التفتيش ومجالس الرقابة ، هى السبب الوحيد الذى يمنع احراق الملحدين وارسال كل منحرف عن الصراط المستقيم ، الى مستشفى المجانين

وبالاختصار ، لقد اصبحت مثلنا العليا كآلهة اجدادنا القدماء تطالب وتطالب دائما بضحايا بشرية • ويقول ابسن : دعونا لانسمح بوضع اى من هذه المثل العليا فى مكان أعلى من مكان المسئولية ـ مسئوليتها هى والتزامها هى بأن تنبت لنا فى كل وقت انها تستحق التضحيات التى تطالب بها ـ دعونا نمنح لاى شخص ولكل شخص الحق فى أن يمتنع ـ بوازع دينى فى نفسه ـ عن أن يضحى بنفسه او بالاخرين فى سبيل أى مثل أعلى من اللحظة التى يفقد فيها ايمانه بهذا المثل الاعلى اوبصوابه• وسوف يقال فى هذا الصدد بالطبع ، ان هذا أبعد ما يكون عن الخروج على قواعد الاخلاق بل على العكس هو من أسمى الاخلاقيات • سيقول هذا قراء ثرثارون تافهون لا يعرفون معنى ما يقولون ، ولا رجاء فى تقويمهم •• والحق انى لن أبدد مزيدا من الكلمات على الذين لا يعنون بالكلمة هذا الامر او غيره ، ولا يسمحون لى بان اعنى ما اقول . وحسبى من القراء اولئك الذين افلتوا من سلطان المثل العليا السائدة ، فهؤلاء لن تنشأ بينهم يوما ما مشكلة بشأن سلامة مسرحيات ابسن من الناحية الاخلاقية • اما الخاضعون لسلطان المثل العليا السائدة،

فسوف يستنكرون مسرحياته ويرمونها بتهمة اللاأخلاقية أو المنافية للفضيلة ، ولا يمكن الدفاع عنها ضد هـذا الاتهام ..

ولست أرى محلا للتساؤل عن الاثر الذى يحتمل ان يترك فى نفس الشخص عندما يتحول من حالة التسليم التقليدى بصحة المثل العليا السـائدة وتقبله لمعايير مضمونة للسلوك ، الى حالة التفتح الذهنى لابسن ولأفكار ابسن . فلابد أن يكون أول انطباع فى نفسه هو تعميق احساسه بالمسؤولية الاخلاقية وبالالتزام الاخـلاقى الى حد كبير . وقبل حدوث هذا التحول ، لا يجد المرء أسوأ من لحظة وقوف ضميره موقف الامتحان فيسأل : هل اتبعت الوصايا العشر ؟ هل أطعت القانون ؟ هل واظبت على الذهاب الى الكنيسـة ؟ هل دفعت ضرائبك للقيصر ؟ هل ساهمت مساهمة معقولة فى الجمعيات الخيرية ؟ قد يكون من الصعب أداء كل هذه الفرائض ، ولكن عدم أدائها أصعب من ادائها

ويعرف ذلك حق المعرفة الاخلاقيون الجبناء وعددهم تسعة وتسعون من كل مائة فان فى وسع الوغد أن يؤديها جميعا ويحيا مع ذلك حياة أسوأ من حياة المهرب او البغى التى ينبغى عليها أن تجيب « بلا » على جميع الاسئلة الدينية (١) استبدل بمثل هذا الاختبار التكنيكى اختبارا اخر مختصرا ، ليس فيه غير سؤال واحـد يجاب عليه . مذنب أم غير مذنب ؟ سؤال لا يضفى على الطهارة احتراما اكثر مما يضفيه على الاباحية ، ولا على الذل أكثر ممـا يضفيه على الشمم والاباء ولا على أتباع القانون أكثر مما يضفيه على خرق القانون ولا على الورع والتقوى أكثر مما

---

(١) Catechism الطقوس المسيحية الخاصة بتعليم أصول الدين عن طريق الاسئلة والاجوبة

يضفيه على المروق والالحاد : وبالاختصار سؤال لا يضفى على الفضائل السائدة احتراما أكثر مما يضفيه على الرذائل السائدة ـ فى هذه الحالة ستجد ان المستوى الاخلاقي لا ينخفض نتيجة للتساهل فى اختبارات الاستحقاق والجدارة ، بل يرتفع نتيجة للتشدد فى تلك الاختبارات لدرجة لا تسمح باجتيازها لاى جبن اخلاقى او حتى لمجرد الانتهازية والنفاق

وهذا بطبيعة الحال لا يرضى الانتهازى المنافق . فالسيدة « المحترمة » التى تبنى مكانتها المحترمة بين الناس وفقا لادق المبادىء والتعاليم الكنسية وتربى أولادها على سنن أخلاقياتها المثالية بغير لين او هوادة ، يعمد أولادها عندما يبلغون سن الاستقلال واذا مابقيت فيهم بقية من روح حرة ، يعمدون الى استخدام حريتهم للاندفاع مباشرة الى أحضان الشيطان بجنون مذهل : ان هذه المراة المحترمة ، طاهرة الذيل ، التى لا غبار عليها ، قد شعرت وكانت تشعر طوال عمرها بأن احترام الناس لها ـ وهوما اكتسبته بعناء شديد ـ هو احترام زائف مصحوب بالاحتقار العميق . وانها لتشعر آنذاك بشعور المظلوم الذى بخس حقه بخسا ، كلما رأت اخر سلالات « نل جوين » (١) الروحيين ممن لا يجرؤ انسان محترم على الانحناء لهن فى الطريق ، ذائعات الصيت محبوبات بل معبودات للجماهير . والسبب الذى لا تعرفه السيدة المثالية لهذا الظلم والغبن ، هو أن « نل جوين » افضل منها فى ميزان النساء ، فلو ألغينا الاختبار المثالى الذى

---

(١) Nyll Gwynn ١٦٥٠ ـ ١٦٨٧ الممثلة الانجليزية الشهيرة وعشيقة الملك تشارلز الثانى • اتخذت مثلا للعاهرة التى تبيع جسدها لكل انسان

تخرج منه « نل » امرأة سيئة السمعة والمكانة ،واستبدلنا به اختبارا واقعيا فسوف يكشف عن حقيقة الفارق بينهما، وسيكون خطوة الى الامام فى مجال الاخلاق العامة وخطوة مرغوبا فيها الى أقصى حد خـــاصة وان الاختبار سيضع الجانب الطيب فى الانتهازى المنافق امام الجانب السىء فى البوهيمى : بنفس الشدة والدقة التى يضع بهما الجانب الطيب فى البوهيمى امام الجانب السىء فى الانتهازى : ذلك انه مادام التقليد يتعارض مع الواقع فى هذه الامور، فسوف يساق الناس الى الوقوع فى غلطة هيدا جابلر . . أى الى ان يجعلوا من الرذيلة مثلا أعلى فاذا حافظنـــا على التقليد الذى يقضى بأن الفـارق بين « كاترين » قيصرة روسيا و « فيكتوريا » ملكة بريطانيـا وبين « نل جوين » « ومسز برودى » هو فارق بين المرأة الشريرة والمـرأة الفاضلة فلا شىء يدعونا للدهشة عندما يرى المتعاطفـون مع كاترين ونل ان من الخير للفتاة أن تكون امرأة منحلة من أن تكون متشددة متزمتة ثم يندفعـون من ذلك بلا تحرز فيتعصبون ضد الامتناع عن شرب الخمر والاكتفاء بزوجة واحدة ليتسلط عليهم هياج المخمورين وشـبق الاباحيين . ان ابسـن نفسه أكثر تعاطفا مع الرجـل الذى يمضى فى طريقه لا يلوى على شىء فيكون خليعا وسكيرا ، منه مع ذلك الرجل المحتـرم الذى لا يجسر ان يكون الا رجلا محترما . ونحن نعلم ان الصبى الصغير كلما كان اكثر صراحة مع نفسه ، وأصح نفسا وبدنا ، أيقنـا انه سيفضل القراصنة وقطاع الطرق او فرسان ديماس الثلاثة على « أعمدة المجتمع » ويجعلهم ابطالا رومانسيين له . وقد رأينا بالفعل أنصارا لابسن وخصوما له يظنون ان المغزى من شخصيات « نورا » «ومسز الفستد » هو وضـع

قاعدة ذهبية للنساء الراغبات فى « التحرر » : وتتلخص هذه القاعدة الذهبية المزعومة فى عبارة « اهربى من زوجك » غير ان رأى ابسن فى الحياة ، هو ادانة هذه القاعدة كما أدينت القاعدة الاكليريكية السماوية التى تقول للمرأة . « ارتبطى بزوجك حتى يفرق الموت بينكما » . وأكثر الناس يعرفون حالة او حالتين يكون من الحكمة والصواب فيهما ، ان تحذو المرأة حذو « نورا » أو حتى حذو « مسز الفستد » . ولكن عليهم أن يعرفوا أيضا ان هناك حالات أخرى اذا مافعلت فعلهما ، انتهت نهاية « تراجيكوميك » كما انتهت محاولات « جريجرزويرل » فى البطة البرية لان يفعل بآل « اكدال » مافعلته « لوناهيسل » بآل « برنك » .

ان الشيء الذى يصر ابسن عليه اصرارا ويؤكده تأكيدا هو أنه ليس هناك قاعدة ذهبية ، وأن السلوك — كل السلوك — يجب أن يبرر نفسه بالاثر الذى يتركه على صفحة الحياة ، لا بانسجامه مع أية قاعدة او مع أى مثل أعلى . وما دامت الحياة هى تحقيق ارادة ، والارادة هى شيء نام متطور على الدوام ، وانها لايمكن ان تتحقق اليوم فى الظروف التى تحققت فيها بالامس ، فان ابسن يطالب ويطالب من جديد بالحق البروتستانتى القديم : حق المرء فى أن يحتكم الى نفسه أى حق الاجتهاد الشخصى فى مسائل السلوك ، وان يحصن هذا الحق ضد جميع النظم والمنظمات والمؤسسات بما فى ذلك الكنائس البروتستانية نفسها

هنا يجب أن أترك المسألة ولا اضيف شيئا ، الا ان ينبه الذين قد يحسبون أنى فى نهاية مطافى نسيت أن أصوغ لهم « الابسنية » أو المذهب الابسنى فى صيغة مقننة او فى بنود مبندة مذكرا اياهم أن جوهر الابسنية هو انه لا صيغ ولا بنود ولا قوانين . القاعدة الابسنية هى ألا يكون هناك قاعدة . .

فهـرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

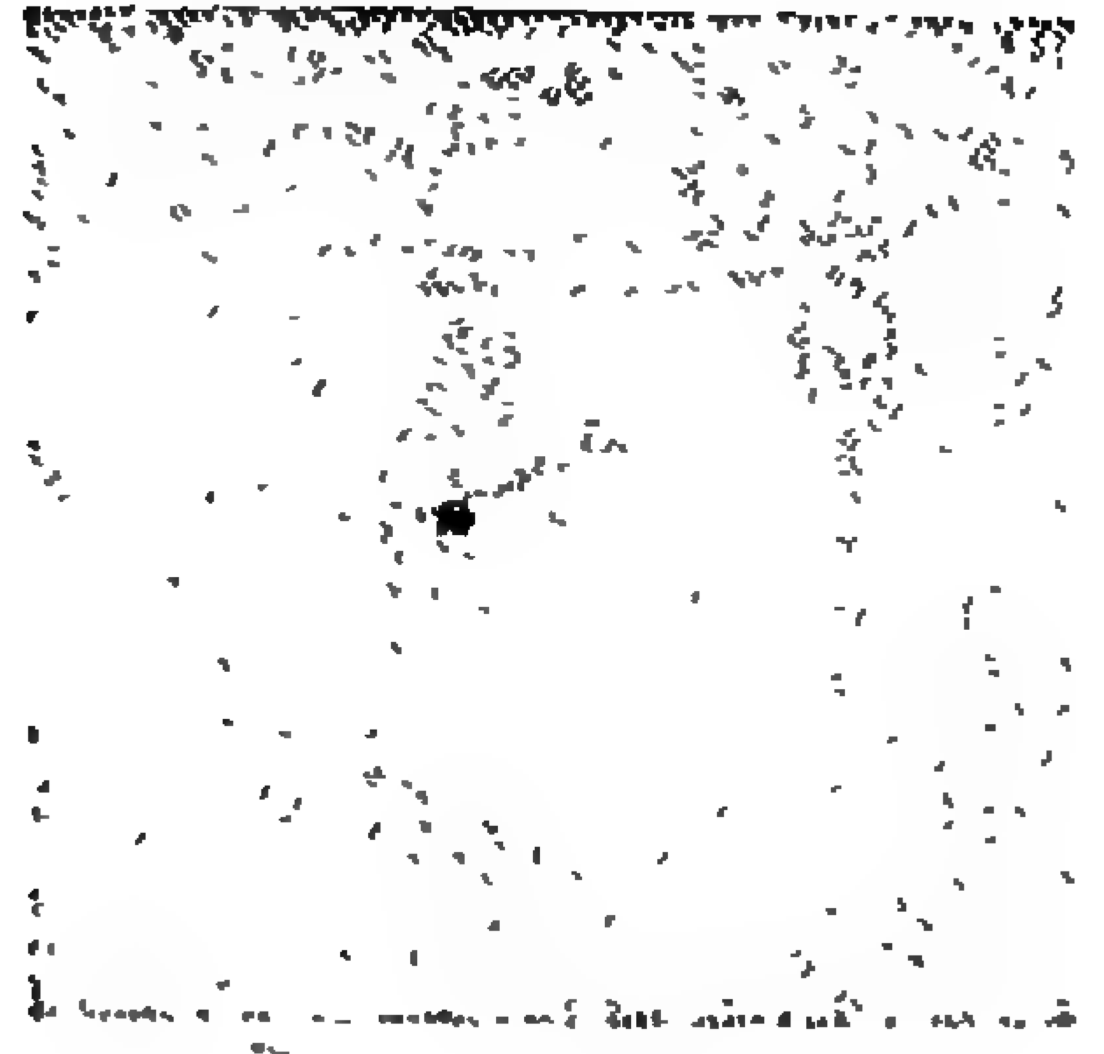
جـــــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البـــرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سـنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجـــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND



هــذا الـكتاب

اجاب برنارد شو « ١٨٥٦ ــ ١٩٥٠ » على سؤال بسيط من احدى السيدات هو : ماهى الاشتراكية ، بمجلد ضخم يزيد على ربع مليون كلمة . وسأله سائل عن الرأسمالية فأشار الى صلعته والى لحيته وقال بايجاز شديد : « غزارة فى الانتاج وسوء فى التوزيع » . بمثل هذه القدرة العبقرية على الافاضة وعلى التركيز مع الوضوح التام فى الحالين ، كتب شو فى السياسة والاقتصاد والنقد والموسيقى والدين والعلم ، وفى كل ضروب المعرفة البشرية تقريبا ، فضلا عن مدرسته الخاصة فى المسرح العالمى التى مازالت ــ الى اليوم ــ راسخة القدم ..

ومنذ وقف شو وقفته المشهودة فى الدفاع عن شهداء دنشواى سنة ١٩٠٦ نشط الكتاب والمترجمون العرب فى دراسة ونقل بعض مؤلفاته الى العربية فضلا عن عدد من مسرحياته التى أذيعت أو مثلت بالعربية . ولكن لايزال أكثر مؤلفات شو « وتبلغ ٣٤ مجلدا منها ١٩ مجلدا مسرحيات عدا الرسائل » لم ينقل بعد الى لغتنا العربية . فكانت فكرة هذه « المختارات » التى احتوت ــ على صفرها ــ مواد لم يسبق نشرها بالعربية ، وعلى ان تكون فى نفس الوقت مطابقة لمقتضى الحال اى متمشية مع روح المرحلة النضالية الراهنة التى يمر بها مجتمعنا العربى ، مرحلة بناء الاشتراكية وبناء الانسان العربى الجديد ..